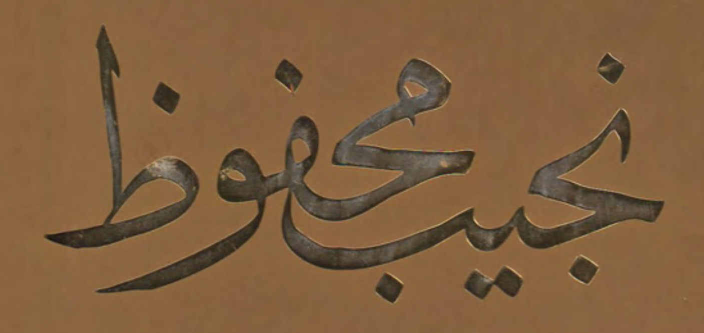


الأعمال الكاملة





دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

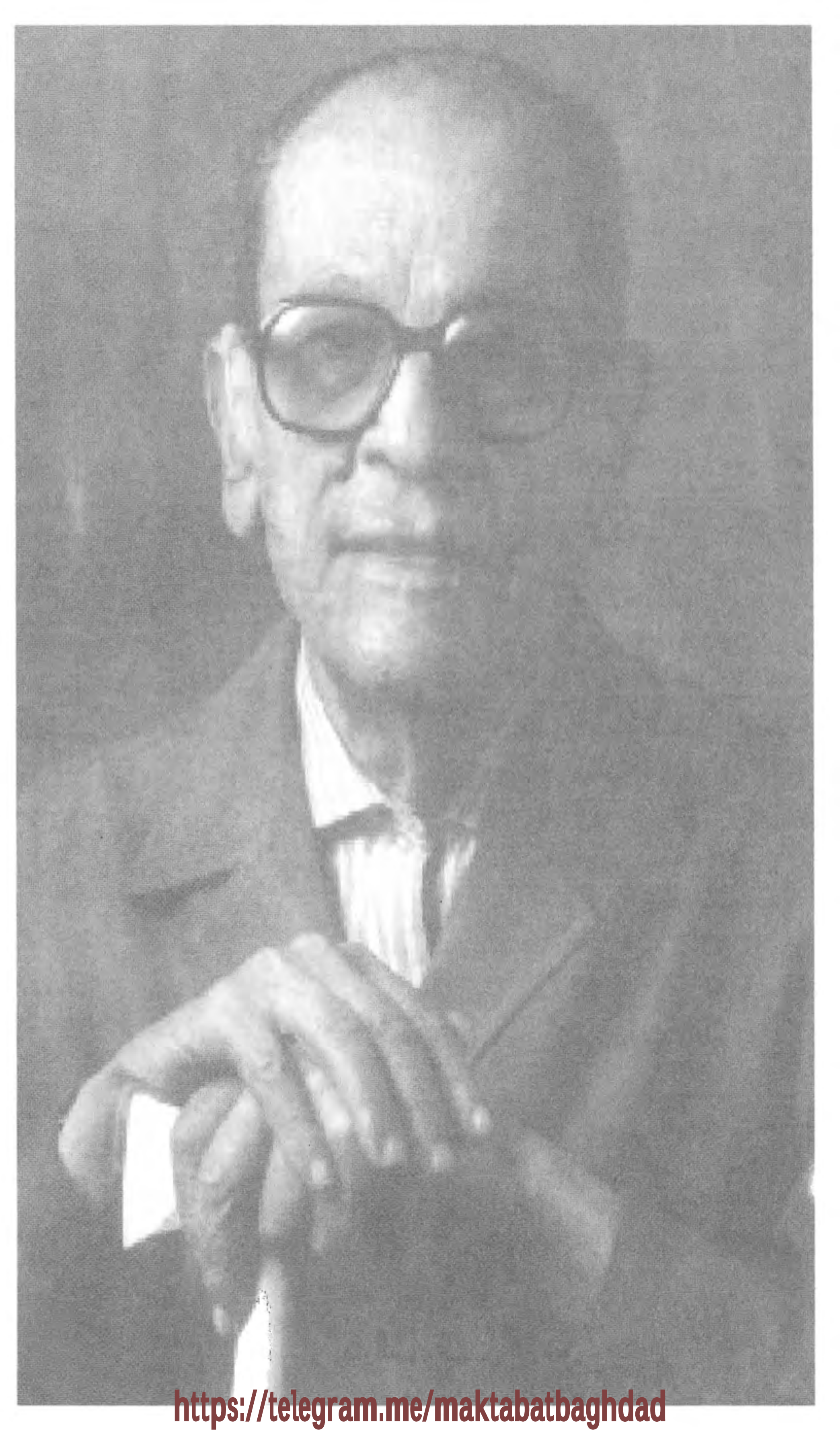
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٢

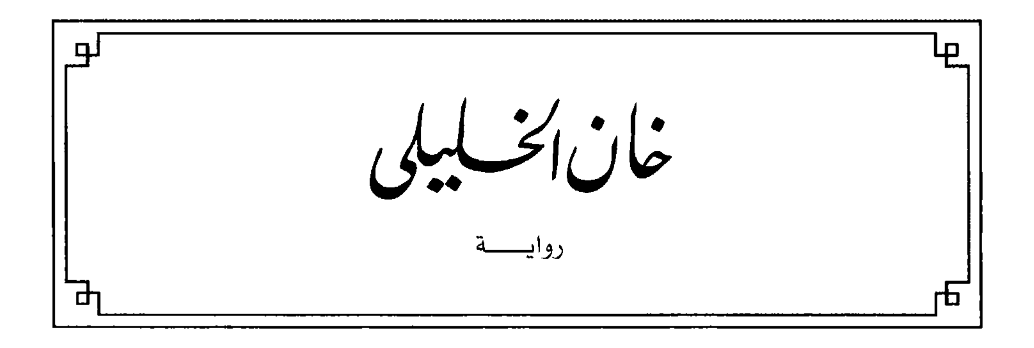
دار الشروق



الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

٢



١

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١، موعد انصراف الدواوين، حين تنطلق جماعات الموظفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم، وقد نهكها الجوع والملل، ثم تنتشر فى الأرض تطاردها أشعة الشمس الموقدة. انطلق أحمد عاكف ـ الموظف بالأشغال ـ مع المنطلقين. وكان من عادته أن يتخذ سبيله فى مثل تلك الساعة من كل يوم إلى السكاكينى، أما اليوم فوجهته تتغير فتصير الأزهر لأول مرة. حدث هذا التغير بعد إقامة فى السكاكينى طويلة امتدت أعواما مديدة، واستغرقت عقودا من العمر كاملة، وادخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة. وأعجب شىء أنه لم يفصل بين التفكير فى الانتقال وحدوثه إلا أيام معدودات؛ كانوا مطمئنين إلى مسكنهم القديم، يخال إليهم أنهم لن يفارقوه مدى العمر، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى صرخت الحناجر: «تبا لهذا الحى المخيف» وغلب الخوف والجزع، ولم تعد ثمة فائدة ترجى من مراجعة الأنفس المذعورة، وإذا بالبيت القديم يضحى ذكرى الأمس الدابر، وإذا بالبيت الجديد فى خان الخليلى حقيقة اليوم والغد، فحق لأحمد عاكف أن يقول متعجبا: «سبحان الذى يغير ولا يتغير!». كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجئ فى حيرة. كان قلبه ينازعه إلى المقام القديم الحبيب، ويمتلئ حسرة كلما ذكر أنه قذف به إلى حى بلدى عتيق، إلا أنه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المبين، ولعله أن ينعم الليلة بأول رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التى زلزلت أفئدة القاهرة زلزالا شديدا. وبين الحزن والتعزى، والأسى والتأسى، مضى يذرع الطوار فى انتظار ترام يوصله إلى ميدان الملكة فريدة، وقد ابتل جبينه عرقا، وكانت الحال لا تخلو من لذة طريفة، ذلك أنه مقبل على استجلاء جديد، واستقبال تغيير: مرقد جديد ومنظر جديد وجو جديد وجيران جدد، فلعل الطالع أن يتبدل، ولعل الحظ أن يتجدد، ولعل مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد. هذه لذة الاستطلاع ولذة المقامرة ولذة الجرى وراء الأمل، بل هى لذة

استعلاء خفية ناشئة من انتقاله إلى حى دون حيه القديم منزلة وعلما . ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد، إذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو فى وزارته، وها هو ذا يقصد إليه كما وصف له، وجعل يقول لنفسه : إنه مسكن مؤقت وإنه ينبغى أن يحتملوه مدة الحرب وبعدها يأتى الفرج . وهل كان فى الإمكان خير مما كان؟ وهل من الحكمة أن يلبثوا فى الحى القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف؟ مضى يذرع الطوار لأنه لم يكن يحتمل الجمود طويلا، وكأنما سويت أعصابه من قلق، وكان يدخن سيجارة بعجلة دلت على انشغاله، فبدا فى اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلا متعبا ضيق الصدر تلوح فى عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله، كان يدنو من ختام الأربعين، عسيا أن يسترعى الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطرابا يستدر الرثاء، والواقع أن تكسر بنطلونه وانحسار ذراعى الجاكتة عن رسغيه، وتلبد العرق على حرف طربوشه، وتقبض القميص ورثاثة رباط الرقبة، وصلعته البيضاوية، وسعى المشيب إلى قذاله وفوديه، كل أولئك أوهم بتكبير سنه، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل، شاحب اللون، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحدارا خفيفا إلى جبهة تميل إلى الضيق، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان، يظلان عينين بالغتين فى امتدادهما وضيقهما، فهما تكادان أن تملآ صفحة الوجه الضيقة؛ فإذا ضيَّقهما ليحد بصره أو ليتقى شعاع الشمس بدتا مغمضتين واختفى لونهما العسلى العميق، وقد تساقطت أهدابهما واحمرت أشفارهما احمرارا خفيفا؛ يتوسطهما أنف دقيق وفم رشيق الشفتين وذقن صغير مدبب . ومن عجب أنه عد يوما ممن يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم، وبدا إذ ذاك فى صورة مقبولة، ولكن اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبه بالمفكرين نزع به عن أية عناية بنفسه أو بلباسه .

استقل الترام رقم «١٥» وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنانه مصفرة من فعل التدخين . ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم «١٩» . وقد ارتكب خطأ سهوا، فرمى بحكم العادة بالتذكرة التى قطعها فى الترام الأول وكانت توصله إلى الأزهر، واضطر أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكا من نفسه فى غيظ، وآلمه حرصه على تفاهة الغرم . والحق أنه تعود منذ زمن بعيد أن يكون رب أسرة، وإن بقى لحد الآن أعزب، بيد أنه لا ينفق مليما بغير تململ، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الإنفاق، ولكنه لا يعفيه أبدا من التألم كلما وجب الإنفاق .

وانتهى إلى ميدان الأزهر، واتجه إلى خان الخليلى يتسمت هدفه الجديد، فعبر عطفة ضيقة إلى الحى المنشود، حيث رأى عن كثب العمارات الجديدة تمتد ذات اليمين وذات الشمال، تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى، فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر . وشاهد فيما حوله مقاهى عامرة ودكاكين متباينة ـ ما بين دكان طعمية ودكان تحف

وجواهر. ورأى تيارات من الخلق لا تنقطع، ما بين معمم ومطربش ومقبَّع، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصابا قلقة كأعصابه؛ فتولاه الارتباك واضطربت حواسه، ولم يدر أيان يسير، فدنا من بواب نوبى اقتعد كرسيا على كثب من أحد الأبواب وحيَّاه ثم سأله قائلا:

- من أين الطريق إلى العمارة رقم «٧» من فضلك؟

فنهض البواب بأدب وقال مستعينا بالإشارة:

- لعلك تسأل عن الشقة رقم «١٢» التى سكنت اليوم؟.. انظر إلى هذا الممر، سر به إلى ثانى عطفة إلى يمينك فتصير فى شارع إبراهيم باشا، ثم إلى ثالث باب إلى يسارك فتجد العمارة رقم «٧».

فشكره وانطلق إلى الممر مغمغما «ثانى عطفة إلى اليمين.. حسنا ها هى ذى.. وها هو ثالث باب إلى اليسار، العمارة رقم «٧». وتريث قليلا ليلقى نظرة على ما حوله. كان الشارع طويلا فى ضيق، تقوم على جانبيه عمارات مربعة القوائم تصل بينها ممرات جانبية تقاطع الشارع الأصلى، وتزحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالحوانيت؛ فحانوت ساعاتى وخطاط وآخر للشاى ورابع للسجاد وخامس رفَّاء وسادس للتحف وسابع وثامن إلخ إلخ. وتقع هنا وهناك مقاه لا يزيد حجم الواحدة على حجم حانوت. وقد لزم البوابون أبواب العمارات بوجوه كالقطران وعمائم كالحليب وأعين حالمة كأنما خدَّرتها الروائح العطرية وذرات البخور الهائمة فى الفضاء، والجو متلفع بغلالة سمراء كأن الحى فى مكان لا تشرق عليه الشمس، وذلك أن سماءه فى نواحى كثيرة منها محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات، وقد جلس الصنَّاع أمام الحوانيت يكبُّون على فنونهم فى صبر وأناة ويبدعون آيات بيّنات من أفانين الصناعة، فالحى العتيق ما يزال يحتفظ باليد البشرية بقديم سمعتها فى المهارة والإبداع، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقى سرعتها الجنونية، بحكمته الهادئة وآليتها المعقدة بفنه البسيط وواقعيتها الصارمة بخياله الحالم ونورها الوهَّاج بسمرته الناعسة. قلب فيما حوله طرفا حائرا وتساءل هل يستطيع أن يحفظ هذا الحى الجديد كما كان يحفظ حيه القديم؟! وهل يمكن أن يشق سبيله يوما وسط هذا التيه تقوده قدماه وقد انشغل بما ينشغل به من أمور دنياه؟.. ثم اقتحم الباب مغمغما: «بسم الله الرحمن الرحيم» وارتقى درجات سلم حلزونى إلى الطابق الثانى حيث عثر بالشقة رقم «١٢». وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وآنس إليه فى وحشته، ودق الجرس، فانفتح الباب، وظهرت أمه على عتبته تلوح فى ثغرها ابتسامة ترحيب، وأوسعت له مستضحكة وهى تقول: «أرأيت إلى هذه الدنيا العجيبة!» فجاز الباب وهو يقول مبتسما: «مبارك عليك البيت الجديد!». فضحكت عن أسنان مصفرة لأنها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر:

ـ قصارى ما وسعنا اليوم أن نفرش حجرتك وحجرتنا . . وكان يوما متعبا حقا ، ولقد كسرت قائمة أحد الكراسى على ما بذلنا من حرص ، وتقشر مسند سريرك فى بعض المواضع . .

ووجد أحمد نفسه فى صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الأثاث ، وضعت السفرة فى وسطها وحملت بالآنية ولفَّات الأبسطة ، وكان بها بابان على يمين الداخل وفى مواجهته ، فنظر فيما حوله فى صمت ، أما الأم فراحت تقول :

ـ الله يعلم أنى لم أذق للراحة طعما فى يومى هذا ، فيا لشقاء الأم التى لم تنجب أنثى تستعين بها عند الحاجة ، ولقد هربت أنت إلى وزارتك وقبع أبوك فى حجرته كعادته ، ولم يتورع ـ غفر الله له ـ أن سألنى منذ هنيهة عما هيأت لكم من طعام؟ كأنما يسأل ساحرة تقدر على كل شىء؟ ولكن من حسن الحظ أن حينا الجديد غنى بمأكولاته السوقية ، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعمية وسلطة وباذنجانا . .

فتحلَّب ريق أحمد لسماع اسم الطعمية ولاح الرضاء فى بريق عينيه ، ثم سأل أمه :

ـ وهل ارتاح أبى واطمأن؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لطيفة دلَّت على أن بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كل ما كان لها من دلال أنثوى ، وقالت :

ـ ارتاح واطمأن والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه ، ولكن الشقة صغيرة والحجرات ضيقات ، فحشرنا الأثاث فيها حشراً و«اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين»!

وجعل يصغى إلى أمه ويتفحص ما حوله ، فرأى ردهة تمتد على يسار القادم ، على يمينها تقع حجرتان ، وفى الناحية المقابلة المطبخ والحمام . وقد أشارت أمه إلى الحجرة التى تواجه باب الشقة الخارجى وقالت له : «حجرتك» ، أما حجرتا الردهة فقد أعدت أولاهما لنوم والديه ، وقالت أمه عن الأخرى : «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها خالية على ذمته» ومضى الرجل إلى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعدا سريره تلوح فى عينيه نظرة هدوء واستسلام . وكان عاكف أفندى أحمد ـ كابنه ـ طويلا نحيفا ذا لحية كثة بيضاء ، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة وبعثت فى نظرته الذابلة بريقا خداعا ، وقد حدج ابنه بحذر وريبة وتوثب لرد العدوان إذا حدَّثت الرجل نفسه بالتهكم بسبب النقل إلى البيت الجديد ، وحياه أحمد وقال له :

ـ مبارك يا أبتى!

فقال الشيخ بهدوء :

ـ الله يبارك فيك ، كل شىء بأمره!

فهز أحمد رأسه وقال :

ـ ولكننا بالغنا فى خوفنا مبالغة تنكبت بنا عن جادة الصواب . ألا ترى يا أبتى أن ما بين السكاكينى وخان الخليلى أدق من أن يدركه الطيار المحلق فى السماء؟!

فقال الأب بحزم :

ـ هذا الحى فى حمى الحسين رضوان الله عليه ، وهو حى الدين والمساجد ، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ود المسلمين؟

فابتسم أحمد وقال :

ـ وإذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكينى خطأ من قبل؟!

فقال الرجل وقد ضاق صدره :

ـ لا تجادل فى الحق ، إنى متفائل بهذا المكان خيرا ، وأمك به راضية ، وإن كانت ثرثارة لا تعرف الحمد والشكر ، وأنت نفسك مطمئن راض ، ولكنك تدعى حكمة زائفة ، وتتظاهر بشجاعة كاذبة ، هلم فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا!

فابتسم أحمد وتراجع إلى حجرته وهو يقول لنفسه : «صدق أبى» وألقى على حجرته نظرة فاحصة فوجدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محا ما كان لها من تناسق ؛ فعلى الشمال الفراش ، وعلى اليمين صوان الملابس ، تليه المكتبة كدست على كتب منها الكتب ، وكان بها نافذتان فرغب أن يلقى نظرة عجلى من كل منهما ، فدلف من اليمنى وفتحها ، وكانت تطل على الطريق الذى جاء منه ، ومنها استطاع أن يتبين معالم الحى من عل ، فرأى أن العمارات شيدت على أضلاع مربع كبير المساحة ، وأقيمت فى ساحة المربع التى تحيط بها العمارات مربعات صغيرة من الحوانيت تلتف بها الممرات الضيقة ، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها الأمامية تطل على أسطح الحوانيت ، وتأخذ نصيبها من الهواء والشمس ، ولا يحجب عنها بقية العمارات حجاب ، فكان الناظر من إحدى النوافذ الأمامية يرى مربعا كبيرا من العمارات ينظر هو من نقطة فى أحد أضلاعه ، ويرى فى أسفله مربعات كثيرة من أسطح الحوانيت ، تخترقها شبكة معقدة من الممرات والطرقات ، ورأى فيما وراء ذلك مئذنة الحسين فى علوها السامق تبارك ما حولها . فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء أمامه لأن أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا يرى إلا جدرانا صماء ، ثم تحول إلى النافذة الأخرى التى تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظرا مختلفا ، ففى أسفل طريق ضيق يوصل إلى خان الخليلى القديم مغلقة حوانيته فبدا مهجورا ، وعلى الجانب الآخر من الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب ، ثم تبين له أن سطحى العمارتين متصلان فى أكثر من نقطة وأن أطباقهما المتقابلة متصلة كذلك بالشرفات مما جعله يحسب أنهما عمارة واحدة ذات جناحين ، وفى الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان الخليلى القديم ، وقد رآه الرجل من نافذته أسطحا

بالية، ونوافذ متداعية، وأسقفا من القماش والأخشاب تظل الطرق المتشابكة، وفيما وراء ذلك تملأ الفضاء المآذن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها، تعرض جميعا صورة من الجو للقاهرة المعزية. وكان يرى ذلك المنظر لأول مرة، فأكبره على نفوره من الحى الجديد، ومضى يسرح الطرف فى مشاهده الغريبة المترامية، وهى مشاهد حقيقية بأن تدهش عينين لم تألفا غير الورق، ولا عهد لهما بآيات الطبيعة أو الآثار، على أنه لم يجد من الوقت متسعا، فما لبث أن سمع نقرا على الباب وصوت أمه يدعوه قائلا:

- الطعمية جاهزة يا سعادة البيك..

فأغلق النافذتين وخلع بذلته، ثم ارتدى جلبابه وطاقيته، وهو يدعو ربه قائلا: «اللهم اجعله سكنًا مباركا» إلا أنه - فى نفس اللحظة وقبل أن يفارق الحجرة - جاءه صوت أجش من الطريق يصيح غاضبا: «الله يخرب بيتك ويحرق قلبك يابن..» فرد صوت آخر بأقبح مما قذف به، مما دل على أن اثنين يتقاذفان بالسباب كعادة أهل البلد، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطا وغمغم قائلا: «أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم»، ثم غادر الحجرة..

٢

وأكل ألذ طعمية ذاقها فى حياته، وأطراها بغير تحفظ، فسر أبوه وعد ذلك الإطراء إطراء للحى الجديد، فقال بحماس كبير:

- أنت لا تدرى عن حى الحسين شيئا، فها هنا ألذ طعمية وأشهى فول مدمس، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمة راس، هنا الشاى المنعدم النظير والقهوة النادرة المثال، هنا نهار دائم وحياة متصلة ليلا ونهارا.. هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جارا ومجيرا!

ورجع بعد الغداء إلى حجرته، واستلقى على الفراش ينشد قسطا من الراحة، وقد أقر فيما بينه وبين نفسه بأن دواعى سروره بالحى الجديد لا تقل عن بواعث ضيقه به. وقلب عينيه فى أنحاء الحجرة حتى استقرتا على أكداس الكتب المتراصة على كتب من المكتبة لم يهيأ لها التنظيم بعد، فثبت عليها بصره فى ارتياح وسخرية، هذه كتبه المحبوبة، وجميعها باللغة العربية؛ لأنه - على عهد الدراسة - لم يصب تفوقا فى الإنجليزية فأهملها مضطرا بعد ذلك وأنسيها أو كاد، وأكثر من ثلثها كتب مدرسية فى الجغرافيا والتاريخ والرياضة والعلوم، وبها عدد لا بأس به من مراجع القانون ومثله من كتب المنفلوطى

والمويلحى وشوقى وحافظ ومطران، ومجموعة من الكتب الأزهرية الصفراء فى الدين والمنطق تاه بصفرتها عجبا واعتبرها آية العلم العسير الذى لا ينفذ إلى حقائقه إلا الأقلون، وهى لا تخلو كذلك من بعض مؤلفات المعاصرين التى يعد اقتناؤها تفضلا منه. هذه هى مكتبته المحبوبة أو هى جل حياته جميعا. كان قارئا نهما لا تروى له غلة، وقد أدمن على القراءة إدمانا قاتلا، وأكب عليها عشرين عاما كاملة من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة، وتركزت فيها مشاعره ونوازعه وآماله جميعا، بيد أنها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاما، وهى أنها قراءة عامة لا تعرف التخصص ولا العمق، نزّاعة إلى المعارف القديمة، سريعة مضطربة، ولعل السبب فى عدم تركيزها ما كان من اضطراره إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، مما لم يهيىء له فرصة منظمة للتخصص.

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة فى حياته الاجتماعية والنفسية، لم ينج من شرها مدى الحياة، أما سببه؛ فهو أن أباه أحيل على المعاش فى ذلك الوقت - وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحية بإهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثانى موظفا ببنك مصر. وكان أحمد طالبا مجدا وطموحا واسع الآمال، رغب من أول الأمر فى دراسة القانون، وطمع فى أن تنتهى به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطوّحت به الأحلام والأمانى، فلما أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتّالة دامية، ترنّح من هولها، واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه، فامتلأت نفسه مرارة وكمدا. ووقر فى أعماقه أنه شهيد مضطهد، وعبقرية مقبورة، وضحية مظلومة للحظ العاثر. وما انفك بعد ذلك يرثى عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكراها لمناسبة وغير مناسبة، ويشكو حظه العاثر ويعدد آثامه، حتى انقلبت شكواه فصارت هوسا مرَضيا، واعتاد زملاؤه أن يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدج: «لو أتممت دراستى - وكان نجاحى مضمونا - لكنت الآن كيتا وكيتا!» أو يقول متحسرا: «إنى أدنو الآن من الأربعين، فتصور يا صاح لو أن الحياة سارت كما ينبغى، فلم يعترض مجراها الحظ العاثر، أما كنت أكون محاميا قديما يعتز بخدمة فى القضاء تناهز العشرين عاما؟! وماذا كان ينتظر من رجل فى مثل جدى فى غضون عشرين عاما؟!» وربما قال متأسفا: «فاتتنا ظلما أخصب فترة فى تاريخ مصر، تلك الفترة التى تستهين باعتبارات السن والجاه الموروث، ويقفز فيها الشبان إلى كراسى الوزارة!». ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادرا أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار: «أتعرفون فلان

الذى يقولون عنه ويعيدون؟ . . زاملنى عهد الدراسة فصلا فصلا، وكان تلميذا خاملا لا يطمع أن يدركنى يوما ما؟» أو يهتف متهكما: «يا ألطاف الله؟ . . وكيل وزارة؟ . . ذلك الغلام القذر الذى لم يكن يعى مما يلقى عليه شيئا؟! هى الدنيا!» ثم يروح محدثا إخوانه بآى نبوغه المدرسى، وما تنبأ له به المدرسون. هكذا تلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق، واعتداد كاذب بمواهبه، مما جعل حياته عذابا متصلا وشقاء مقيما. ثم وجدت هذه العبقرية المزعومة نفسها مهملة فى الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال، ولكنها لم تسكن، ولم تستسلم، ولم تيأس، ومضت تلتمس السبل إلى تحطيم الأغلال، وشق الطريق إلى الحرية، والمجد والسلطان، وكابدت التجارب، وتوثبت بمحاولة تلو المحاولة. وقد فكر أول ما فكر فى التحضير - من بيته - لشهادة القانون، فهو العلم الذى انجذبت إليه آماله من بادئ الأمر، ولم يكن عن الشهادة محيد، لأن المحاماة لم تعد اجتهادا كما كانت على عهد سعد والهلباوى، فراح يقتنى الكتب القانونية، ويستعير المذكرات، وأكب على الدراسة عاما مدرسيا كاملا تقدم فى نهايته إلى الامتحان، ولكنه سقط فى مادتين. وطعن كبرياؤه طعنة نجلاء، وأحرج أمام الذين تتبعوا أنباء عبقريته باهتمام، وجعل يعتذر عن إخفاقه بوظيفته، وبادعاء مرض وهمى أقعده عن مواصلة الدرس، ولم ينثن عن ادعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر. وخاف أن يجرب الامتحان مرة أخرى، وأشفق من تعريض عبقريته للتجارب الظاهرة التى يطلع الناس على نتائجها فمال إلى العلم الحر، وبادر بإعلان احتقاره للامتحانات والشهادات، ثم أقنع نفسه بأن إخفاقه فى امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له - لا لتقصير أو لقلة كفاية، وعدل عند ذاك عن دراسته ليجد المجال الطبيعى الذى خلقت له عبقريته الشهيدة، وهكذا خسر عاما وربحت مكتبته عددا لا يستهان به من كتب القانون. ثم فكر فى تكريس حياته للعلم، وتحير بين الأبحاث النظرية والاختراعات العلمية أيها يختار؟ ثم أقلع عن فكرة الاختراع بحجة أن البلد خال من المصانع والمعامل، وهى ميادين التجارب، ومهبط الوحى الإبداعى، وركز آماله فى العلم النظرى، وطمع فى أن يكتشف نظرية يوما يغير بها آفاق العلم الحديث، ويقفز إلى سماء الخلود بين نيوتن وإينشتين. وتوثبت به الهمة، فراح يبتاع ما وقعت عليه يداه من ملخصات الطبيعة والكيمياء، ويطالعها باهتمام وشغف. وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حيث بدأ لم يتقدم خطوة نحو هدفه البعيد، ثم اقتنع بأن التعمق فى العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تتح له.

وغلبه الجزع وكثيرا ما يغلبه، فيئس من الدراسة العلمية النظرية، وسوغ يأسه نفسه بأن البحث النظرى ليس دون الاختراع حاجة إلى المعامل ومعاهد الأبحاث، وأن جو مصر بصفة عامة لم يتهيأ بعد للعلم، ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرة عن إخفاقه

للغير، لأنه كان تعلم أن يخفى أهدافه عن الناس جميعا، بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنه يكرس وقت فراغه للمعرفة والاطلاع. المعرفة الحرة التى تسمو على الدراسة المدرسية والشهادات الحكومية، والاطلاع العميق الذى يجعل من صاحبه عالما بعيد الغور. وضاع عام ثان زادت فيه المكتبة صنفا جديدا من كتب العلم، ثم تساءل متعبا متحيرا: ترى لأى شىء خلقت مواهبه على وجه التحقيق..؟ لا شك أنه لم يعرف نفسه بعد، ولو عرف نفسه لحفظ وقتا - أحق به أن يحفظ - من الضياع هدرا بغير ثمرة. فما حقيقة ميوله؟، لقد انتهى من القانون والعلم ولكن ليس القانون والعلم بكل شىء. هنالك ما يضارعهما جلالاً وجمالا فما سر ولعه بشوقى والمنفلوطى؟ ما طربه للبيان الساحر؟ ألا يجوز أن يكون استعداده الحق للأدب؟ وأجمل به من فن لا يستوجب التمرس به شهادة ولا دراسة مدرسية. فما عليه إلا أن يقرأ كما قرأ شوقى وحافظ ومطران من قبل. وما عتم أن استقبلت مكتبته ضيوفا جددا من أزاهر الشعر والنثر أكب عليها بشغف وحماس بلغ حد الغضب؛ ووقع فى رحلاته على قول ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهى: كتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها» فتنهد كأنما وقع على كنز واقتنى الأركان الأربعة، وقرأها جميعا بما طبع عليه من حماس وسرعة، فلما أن فرغ منها تساءل مسرورا: «هل صرت الآن أديبا؟»، وأمسك بالقلم وصدقت عزيمته على أن يكتب، وكتب موضوعا سماه: «على شاطئ النيل» أفرغ فيه فنه وإلهامه؛ وأرسله بالبريد إلى إحدى المجلات، ومضى يتخيل ما عسى أن يستقبله به القراء من الإكبار والإعجاب، وكيف أنه قد يكون أول درجات الشهرة والمجد، وحسبه هذا فما يطمع فى أجر غير المجد الأدبى. وظهرت المجلة وفتش عن مقاله فما وجد له أثرا، ففتر حماسه وتعثرت أمانيه فى الخجل، ولكنه لم ييأس فناجى نفسه يستنظرها أسبوعا آخر، ومضت أسابيع دون أن تتاح للمقال فرصة الظهور. لقد قرأ أركان الأدب الأربعة التى يعد ما سواها تبعا لها وفروعا منها، فهو أديب بحكم ابن خلدون، وما أدراك ما ابن خلدون؟ فكيف لم ينشر مقاله؟ هل أهمل القوم نشره لأن كاتبه غير معروف؟ أو لأنه لم يستشفع إليهم بشفيع؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه؟!..

وفكر فى أن يذهب إلى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر، ولكنه لم يستطع لأن خجله كان يقف له بالمرصاد دائما. ثم تناسى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالا ثانيا عن العدالة فلم يكن حظه أحسن من الأول، فكتب ثالثا عن «جناية الفقر على النبوغ» فلم يكن خيرا من سابقيه. وتوثب للكتابة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير فحطمت محاولاته جميعا على صخرة الإهمال الباردة، وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها إلى مجلات

مختلفة، فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذب، وتنقذه من هاوية القنوط. وكان آخر مقال كتبه عن «تفاهة الأدب» فضاع كما ضاع إخوته. وانكسر عن محاولاته محطم النفس مطعون الفؤاد. لقد تآمر عليه سوء الحظ ـ عدوه القديم ـ وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع. فلم يساوره شك فى قيمة مقالاته الأدبية، بل ظنها خيرا مما بدأ به المنفلوطى نفسه وما يتيه به كثير من المعاصرين ولكنه سوء النية وفساد الطوية!.. وتبددت الأحلام جميعا. ألا ما أضيق العيش وما أظلمه!. ورمى بالقلم، وتضاعف ما به من حقد وتمرُّد وألم، ويئس أخيرا من المجد والسلطان، وامتلأت نفسه سخطا وغضبا على الدنيا والناس، والعظمة والعظماء خاصة! وما العظمة؟.. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟.. أجاب على ذلك بكلمة واحدة: «الظروف المواتية»، بل قال عن سعد نفسه على حبه: «لقد مهَّد له صهره سبل النجاح، ولولا صهره ما كان سعدا الذى نعرفه». وكان يردد كثيرا: «إن الوظائف الكبرى فى مصر وراثية» أو يقول: «إذا أردت التفوق فى مجتمعنا فعليك بالقحة والكذب والرياء، ولا تنس نصيبك من الغباء والجهل» أو يقول ساخرا: «ما هؤلاء الأدباء الذين يملئون الصحف والمجلات؟.. أمن الأدب الحق أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية؟ وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب إلا كريم؟» أو يقول محتدا غاضبا: «والله لو أردت أن أكون عظيما فى مصر ما عجزت.. ولكن قاتل الله الكرامة!» وحرق الغضب نفسه حتى تركها شعلة من لهب غير مقدس وحطاما من رماد، ولكن الحياة لا تحتمل الغضب فى كل حين، فما من معدى عن سويعات راحة وإن تكن راحة القنوط، فكان يستريح إلى اليأس كلما لج به الغضب أو الحقد، وفى تلك السويعات كان يقول لنفسه: ألا ما جدوى العناد فى هذه الدنيا؟.. إذا كنا نموت كالسوائم وننتن فلماذ نفكر كالملائكة؟.. هبنى ملأت الدنيا مؤلفات ومخترعات فهل تحترمنى ديدان القبر أو تلتهمنى كما التهمت جثتى ريا وسكينة؟؟.. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد إلا رأس الأكاذيب والأباطيل. وسلم نفسه إلى عزلة عقلية وقلبية مريرة. يئس من الحياة فهرب منها، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائسا عاجزا، أنه يزهد فيها متعاليا متكبرا ولذلك لم يهجر عادة القراءة، لأن الكتب تهيئ للإنسان الحياة التى يهواها، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا، وظفر منها ببلسم لآلام كبريائه، واستعار ما بها من قوة، فخالها قوة ذاتية، وكأن أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده، وقد عدل ـ بعد إخفاقه المتواصل ـ عن القراءة المنظمة المحددة الهدف، واندفع يقرأ ما تقع عليه يداه، وعنى عناية خاصة بالكتب الصفراء لأنها فى نظره عسيرة وعزيزة المنال، وانكب على القراءة بسرعة وشراهة وأعصاب متوترة فلم يتمتع بقراءة مجدية ولا نافعة، وأصابه سوء هضم عقلى، فكان يعرف أشياء وأشياء ولكنه لم يتقن شيئا أبدا، ولم يتعود عقله التفكير مطلقا ولكن كانت الكتب تفكر له وتتأمل بدلا

منه . ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وإنما كان همه الحقيقى أن يحدث الغد بما قرأ بالأمس ، وأن يحاضر الزملاء من الموظفين والصحاب ـ بلهجة الفيلسوف المعلم ـ فيما وعته الذاكرة وحفظته ، ولذلك سماه موظفو المحفوظات بالأشغال «الفيلسوف» فسر بالتسمية وإن كان ما بها من التوقير يعادل ما بها من التحقير . لم يكن للفيلسوف رأى يستقر عليه لأنه كان يقرأ ولا يفكر ، وعسى أن ينسى اليوم ما قاله بالأمس القريب ، وعسى أن يقول غدا ما يناقض قوليه جميعا . وهو سبَّاق إلى رأى ما دام فيه رضا لكبريائه وغروره وولعه بالظهور ، فلهج بالمعارضة واللجاج ، فإذا قال محدثه يمين قال شمال ، وإن قال أبيض قال أسود ، ثم يندفع فى النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتى ليوشك أن يأخذ بتلابيب مناظره! وليس يعنى هذا حتما أنه غبى ، والحقيقة أنه كان عادى الذكاء . فلم يهبط عقله إلى البلادة والغباء ولم يعل للنبوغ فضلا عن العبقرية ، ولكن خدعه عن حقيقة نفسه طموحه للمجد وهيامه بالعبقرية فضلَّ ضلالا بعيدا . وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسية مرهفة مضطربة فقتلت فيه روح الصبر والمثابرة ، والتأمل والتفكير ، فصار دماغه وعاء لخليط من معارف شتى بدلا من أن يكون رأسا مفكرا ، ولا شك أن الأرق الذى مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الأسباب التى عقم به عقله ، وقد أشفى به على الجنون والموت ، وسهر الليالى ذاهلا أو هاذيا ، ثم أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس . ويرجع السبب المباشر لمرضه إلى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها ، ذلك أنه كان يؤمن بالسحر ولا يشك فيما يلقى على سمعه من أساطير ، وعثر يوما بموظف قديم راسخ الاعتقاد فى السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام ، وبعد أن توطدت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان ، والقمقم ، ويا أسيادى . وطار بها الشاب سرورا وعدَّها أجل ما بلغته يداه من زبد العلم والحقيقة ، وعكف عليها بحماس ويقين يحل رموزها ويفقه أسرارها ، ويتحرق شوقا إلى وقت يتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوة والسلطان! . أوشك أن يجن لهفة وأن يذوب هياما . متى يدين له عرش النفوذ اللانهائى فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ، ويعبث بمن يشاء ، فيرفع ويخفض ويغنى ويفقر ويحيى ويميت؟ ولكن لم تحتمل أعصابه الجهاد طويلا ولا قدر على قضاء الليالى الطوال مختليا بأرواح الشياطين فاضطرب حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقفه المرض وأوشك أن يسلمه للجنون أو الموت! ولم ير بدا من العدول عن سعيه والنزول عن أطماعه فأعاد الكتب إلى صاحبها ويئس من المجد للمرة الأخيرة بعد أن جرَّب جميع السبل والمسالك المفضية إليه . وجعل يتساءل فى حزن بالغ : ماذا بى؟ هل حلَّ فى روح نجس؟ لماذا أصرع دائما إذ لا يفصل بينى وبين ما أريد سوى ذراع؟! وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام

الضائعة؟! واطَّرد مجرى الأيام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة، وكان يتوهم حدوث الظلم بداع وبغير داع ويتلقى ما يقضى به عليه من ألم ممتزج بتلك اللذة الخفية. وعسى أن يتساءل متحديا ساخرا: أليس جليلا أن ينهض العالم جميعه لمقاتلة إنسان فرد؟!.. أليس مما يطيب به الغرور أن يتوفر له سوء الحظ ذلك التوفر الذى إن دل على شىء فعلى الحسد والخوف؟!. بلى فقد قضى لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذة فى هذه الدنيا..

وقد كان لالتذاذه بالألم هذا أثر فى توجيه ميوله السياسية المتقلبة، فمال دائما إلى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسية، وسرعان ما يتمثل نفسه فى موقف زعيمه يتلقى ما يتلقى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات، يجد فى هذا وذاك ألما لا حصر له ولذة لا شبهة فيها.

والواقع أن خلقه هذا لم يكن اتفاقا ولا تحت تأثير الإخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع إلى عهد نشأته الأولى، حين كان الطفل الأول لوالديه، فدرج على الرعاية والحب والتدليل، ولكنه كان - كذلك - الطفل الذى ادخره حظه لكى ينهض بأعباء أسرة محطمة وهو دون العشرين، فلم تتلطف معه الدنيا - فضلا عن أن تدلله - ساعة واحدة!..

* * *

لبث مستلقيا فى الفراش دون أن يغمض له جفن، وجعل يقلب عينيه فى سقف الحجرة وجدرانها وأرضها، وتساءل قلقا: ترى هل تطيب له الحياة فى هذا الحى العجيب؟!.. ونازعه الحنين إلى شارع قمر وحى السكاكينى والبيت القديم، وعلى أنه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضَّاء بالتطلع، ثم ملأت البيت حركة متصلة وأتاه صوتا أمه والخادم فأدرك أنهما يستأنفان نشاطهما لفرش الشقة وإعداد الحجرات. وتصاعدت إليه من الطريق ضجة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى إليها بانتباه فتبين له أنها أصوات أطفال يلعبون ويغنون، وكأنه ضاق برقاده ذرعا فنهض إلى النافذة المطلة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملئون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقا أكب كل فريق على رياضة، فبدا الطريق وكأنه ناد رياضى ساذج فهذه جماعة تلعب بالحديد وتلهف الأكف بالطرَّة، وهذه جماعة تلعب بالبلى، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع، واقتعد الصغار الطوار يرقصون ويغنون ويصفقون. اضطربت الأرض وضج الجو وثار الغبار فأيقن ألاّ قيلولة منذ اليوم! وسمع أناشيد عجيبة «يا عم يا جمَّال..» و«يا أولاد حارتنا توت توت» و«الجبل ده عالى يا عمى» إلخ إلخ. فحار بين الدهشة والحنق

والسرور! . . ثم تصاعد صوت جهورى أجش غليظ النبرات يصيح كالرعد القاصف «ملعون أبو الدنيا!» . وكرَّر صياحه بصوت منغوم على إيقاع كفَّين شديدتين! . . وكان الصوت صاعدا على الأرجح من دكان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذلك الذى يتغنى بسب الدنيا ولكنه لم يتمالك نفسه فأغرق فى الضحك حتى تورد وجهه الشاحب، واشرأب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكان وقد نقش عليها بخط جميل «نونو الخطاط» . . ترى هل يكتب الرجل لوحات فى سب الدنيا ويبيعها المتذمرين والساخطين؟ . . ألا ما أجدر أن يبتاع منها ما يشفى غليله! . .

٣

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارات التى تواجه نافذته، فأدرك أن الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المعزية بالجهة الخلفية، وصعد بصره إلى مئذنة الحسين السامقة تنطلق بجلال فى غلالة من ظلال المغيب فهزت مشاعره وأيقظت قلبه. ثم ارتفق حافة النافذة يردد ناظريه ما بين أسطح الدكاكين التى تتوسط العمارات، والنوافذ والشرفات المطلة من واجهات المبانى، والممرات المتقاطعة، رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسعى فيها ربات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلل، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنما أفزعها دنو الليل، وكان يرغب أن ينطلق إلى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحى الجديد، ويكتشف طرقاته ومسالكه، ولكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد فى تنظيم مكتبته، هذا إلى تعوده لزوم البيت حتى ندر أن يفارقه بعد عودته من الوزارة، فأجَّل تنفيذ رغبته. وترك النافذة فتربع على شلتة - وهى جلسته المختارة إذا تهيأ للقراءة - واستخرج من المكتبة كتابا يقرأ فيه حتى يأزف ميعاد النوم.

وكان والده فى تلك الأثناء يتربع على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه فى صوت مسموع، غير منتبه إلى أخطاء القراءة العديدة التى يتتابع عثوره بها. كان عاكف أفندى أحمد فى الستين من عمره، وقد أرسل لحية بيضاء أكسبت وجهه النحيل وقارا، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو فى أواسط العمر ومشرق الآمال، وبدا وكأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن، ولم يكن يفارق البيت إلا فترات متباعدة للتريض المنفرد أو زيارة الأضرحة. وربما كان لعسره المالى - إذ لم يجاوز معاشه ستة جنيهات - الأثر الأول فيما اتخذ فى حياته من نظام، ولكنه رضى أخيرا

عن طيب خاطر بحياته وألفها بل وأحبها أيضا شاكرا حامدا . وكانت أقسى أيام حياته وآلمها تلك التى أعقبت إحالته على المعاش ، فقد انقطع مورد رزقه أو كاد ، وتهددت الفاقة أسرته البائسة ، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط ، وأقصى عن الوظيفة وجاهها ، وهب كالمجنون للذود عن كيانه ، فسعى واستشفع بكل شفيع ، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح . قدَّم العريضة تلو العريضة ، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء ، حتى علم أخيرا بالحقيقة المحزنة وهى أن باب الحكومة قد أغلق دونه إلى الأبد . وكان فى الحقيقة طاهر اليد إلا أنه ثبت إهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلَّة ، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين ، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين ، وراح تحت تأثير الغضب والحنق واليأس يتهكم بالحكومة والموظفين ، ويقول إنه أحيل على المعاش لأنه أبى أن تمس كرامته ، وأن الوظيفة أضيق من أن تتسع لإنسان يحترم نفسه ، وبعد أن كان ينكر تطاوله على هيئة المحققين ، جعل يفاخر به ويبالغ فيه ، ولم يعد له حديث سواه ، فصار ضحكة المتغامزين ، وفقد عطف الصحاب والأقارب ، وحافظ بادئ الأمر على صلته بالناس ، فتردد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد ، ولكن خُلُقه ساء بعد فاجعته ، فأصبح ضيق الصدر سريع الغضب . فاحتد يوما على لاعب فانفجر الآخر هائجا وصاح به : «يا طريد الحكومة !» فلم تطأ قدمه قهوة بعد ذلك ، وانزوى بعيدا عن الناس والدنيا ، واختار العبادة ملاذا وسكنا ، ولم يعد للماضى أثر فى نفسه ، وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة ، وكان الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه !

على أنه لا ينبغى أن نهمل عاملا هاما فى شفاء الأب ، وهو الأم . حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها فى حساب السعادة العائلية ، فتمتعت بنصيب موفور من الحسن الذى رمقته القاهرة على أيام شبابها بعين الإكبار والإعجاب ، وما زالت - وقد شارفت الخامسة والخمسين - على وسامة وقسامة ، وولع بالصبغ والألوان ، وذوق فى الأزياء ، وما زالت لحيمة جسيمة وإن اعتورها الاسترخاء ، خبيرة بوصفات السمن والتجميل ، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة ، لا تضاهيها امرأة فى قدتها على أن تألف وتؤلف ، فكثرت صويحباتها ، وتعددت البيوت التى تزورها وتستزيرها ، واستقبلها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقة التى نزلت ببيتها ، فلما انقبضت يد بعلها عنها انبسطت لها أيادى الصديقات الحبيبات بالهدايا ، فحافظت على مستواها المعهود من الأناقة والتجميل . وكانت لها على زوجها دالة ، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها ، وكانت تقول له ضاحكة : «لقد انتهيت يا عاكف أفندى من الحكومة فافرغ لى !» ، أو تداعب لحيته قائلة : «من أجل الورد ينسقى العليق !» ، ولكن كان صدرها يضيق إذا رأت بعلها مكبا على

القرآن، وبكرها عاكفا على مكتبه، فتصيح بهما: «هلا علمتمانى القراءة لأجاور معكما؟!». ولشد ما أحنقها أحمد بإهماله نفسه، فكانت تروِّح على خديها كأنما تلطمهما وتهتف مؤنبة: «كبَّرت أمك وجعلت سمعتها كالطين! هاك الكواء فما لبذلتك مسترخية متقبضة؟!.. وهاك الحلاق فما لذقنك مخضرا؟!.. والدنيا بالأفراح حافلة، فما انزواؤك بين الكتب الصفراء؟! كيف تركت رأسك يصلع وقذالك يشيب؟! كبرتنى.. كبرتنى.. كبرتنى!..» فكان أحمد يبتسم إليها ساخرا ويغيظها قائلا: «الطمى كيف شئت ألست فى الأربعين؟!» فيهولها التصريح بالحقيقة الفظيعة، وتنهره قائلة: «اخرس قطع لسانك الطويل.. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابنا يدعى عمر أمه؟!».

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن، كانت مريضة، أو هكذا توهمت، ولكن لم يأس على مرضها أحد ممن حولها، وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسيادا، وبأن لا شفاء لها إلا بالزار، وطالما توسلت إلى بعلها ليسمح لها بإقامة حفلة زار، ولكن الرجل لم يصغ إلى توسلاتها. واستقبح أحمد الفكرة وإن لم يساوره شك فى وجود العفاريت، وكان قريب عهد - وقتذاك - بالتجربة التى أوشكت أن تنتهى بجنونه، فيئست المرأة من استمالتهما، وقنعت بشهود حفلات الزار إذا اتفقت فى بيوت الصديقات، حتى قال أحمد يوما متعجبا: «حقا إن أسرتنا ضحية الشيطان.. ألم يغر والدى بتحد لكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته؟!.. وألم يحضنى على تعلم السحر فأشفيت على الجنون؟! وها هو ذا يركب أمى ويهيىء لها خرابنا!».

ولكن الله سلم، فقد غلب مرح الست دولت - أم أحمد - على حزنها، كما غلبت الحناء على وميض الشيب بمفرقها..

* * *

لم يستطع أحمد أن يركز انتباهه فى القراءة لما أحدثه تغير المكان فى نفسه من اليقظة والقلق، فمضى فى مطالعة فاترة متقطعة ومضى من الليل ساعة فسكنت ضوضاء النهار، ولكن لتحل محلها ضوضاء أشد وأفظع سرعان ما جعلت الحى جميعه كمسرح من مسارح روض الفرج الشعبية. أما مصدرها فالقهاوى العديدة المنتشرة فى جوانب الحى، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوة وعنف فكأنه يذيع فى كل شقة، والنُدل لا يكفون عن النداء والطلب فى أصوات ممطوطة ملحنة «واحد سادة.. وشاى أخضر.. تعميرة على الجوزة.. وشيشة حمِّى..» ودق قطع النرد والدمينو وأصوات اللاعبين! فخال نفسه فى طريق مزدحم بالمارة لا فى شقة وعجب كيف يحتمل أهل الحى ضوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن؟!

ولم يزل ملازما الشلتة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام، وأطفأ المصباح ورقد

على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتدوى فى أذنه، فذكر سكون السكاكينى فى مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعماق، ثم لعن الغارات التى أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادئ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التى زلزلت القاهرة زلزالا مخيفا، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضوضاء الطريق ركزا ولا همسا.

كانت الدنيا نائمة ـ تلك الليلة المفزعة ـ يستقبل ليلها هزيعه الأخير وكما تعودت القاهرة فى مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الإنذار نعيرها المتقطع الذميم، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لإطفاء المصباح الساهر فى الصالة الخارجية ثم عاد إلى رقاده ليغط فى النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة، إذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة إلا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادة للطائرات، ولكنه لم يسكن إلى النوم، وراح يرهف أذنيه رافعا رأسه عن الوسادة فى دهشة وانزعاج، فقد سمع بوضوح أزيز طيارات ما فى ذلك من شك، اتصل وقعه لا يغيب ولا يهن، بل جعل يزيد وضوحا ويعلو شدة فضاق به صدرا وامتلأ منه رعبا، ولكن خاطرا طمأنه بعض الاطمئنان، فلم يفصل بين سكوت الصفارة وسماع الأزيز إلى دقيقة أو بعض دقيقة وهى مدة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطيارات المعادية حيث يسبق الإنذار وصول الطيارات بربع ساعة على الأقل، فبات مرجحا أن تكون الطيارات إنجليزية حلقت للمطاردة. وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالا مرهقا للأعصاب وكأن الطيارات اختارت بيتهم مركزا تدور من حوله، ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه فى الظلام إلى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع: «هل أنتما مستيقظان؟» فجاءه صوت أمه قائلا: «لم ننم بعد، أما تسمع شيئا؟» فأجاب أحمد: «بلى أزيز طيارات.. وقد سمعته عقب الإنذار مباشرة!» فقال والده: «الأغلب أن تكون إنجليزية» فقال أحمد: «لعلها»، وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد إلى حجرته، وقبل أن يمس جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب آت من الفضاء أعقبه صفير مبحوح انتهى بانفجار شديد دوى فى سماء القاهرة دويا شديدا مزعجا، فانتفض رعبا وتولاه فزع جنونى وقفز نحو الباب لا يلوى على شىء، وضاعف من رعبه أن الحجرة لم تزل مضاءة بذلك النور الوهاج الذى اخترق نوافذها من الخارج داعيا القذائف إلى أهدافها، وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجرها بذاك الصفير المبحوح الممقوت، فارتجت الأرض ارتجاجا وزلزل البيت زلزالا، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأن السماء ستظل تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانية فى ذلك العناد الشيطانى الجبار. ووجد والديه فى الصالة، الأب معتمداً ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع والإرهاق، فهرع إليهما وتأبط ذراع والده وصاح بهما «هلما إلى مخبأ العمارة» ومضوا مسرعين تتقدمهم

الخادم، وتساءل بصوت متهدج مضطرب: «ما هذا النور؟ هل شب حريق فى الخارج؟» فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبين مواقع قدميه من السلم: «هى مصابيح المغنسيوم التى قرأنا عنها فى الجرائد» فقال الرجل: «ربنا يلطف بنا». وكان السلم مكتظا بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة، وكلما حدث انفجار ارتجت الجدران وتعالى صراخ يصم الآذان وصوَّت النسوة وأعول الأطفال. وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب فى عنفوانه والموت فى حومانه فساد الظلام، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك، ثم بلغوا مخبأ العمارة ـ البدروم ـ بعد جهد جهيد ـ وكان مضاء بمصباح خافت، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء، واعتمد سقفه على عمد أفقية قامت على عمد حديدية رأسية، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل، وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها، هاذية ألسنتها، ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لهفة أن يكف الضرب للحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلوا ريقهم، ولكن الضرب اشتد وبدا من اشتدادات الانفجارات أنه أخذ يقترب منهم! وهنا حرك ساقيه فى الفراش فزعا من هول الذكرى وهو يغمغم: «تبا لها من ليلة» وتنهد من أعماق صدره وفتح جفنيه، فعادت ضوضاء الحى إلى وعيه، وذكر أنه رقد لينام لا ليستذكر آلام أفظع ليلة فى حياته، ولكن هيهات. . . لقد هجمت عليه الذكرى بقوة لا تقاوم، أجل، أخذ الضرب يقترب، بل انفجرت قذيفة خال القوم الفزعون أنها انفجرت فى صدورهم ورءوسهم، فرفعوا أيديهم كأنما ليتقوا بها السقف إذا انهار عليهم، واشتد الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كل لسان، وقوى شعور مفزع بأن القذيفة الثانية ستسقط على رءوسهم! وهوت القذيفة التالية! . . رباه هل يمكن أن ينسى ذلك الصفير المبحوح ـ صفير الموت ـ وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفر؟ . . وكيف تقلقلت العمارة وطقطقت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض! . . ثم كيف دوى الانفجار فصك الأسماع وصم الآذان ورج الأمخاخ ومزق الأعصاب وخنق الأنفاس! . . لقد تقوست الظهور فى انتظار المقدور . . وقبض اليأس القلوب . . وتعجلت النفوس النهاية مختارة الموت على انتظاره . . أجل لم يعد بينهم وبين الموت إلا قذيفة لعلها تغادر فى تلك اللحظة مكمنها من الطيارة . . . ولكن القذيفة ـ وهنا ابتسم ابتسامة حزينة ـ لم تسقط! . . أو سقطت بعيدا، فقد ابتعد الضرب سريعا كما جاء سريعا، لم يجئهم الموت كما أوهمهم . . أراهم وجهه ولكن لم يذقهم طعمه . . أو أجَّل ذلك لليلة أخرى، فباعد الضرب، ثم خف عن ذى قبل، وبات متقطعا ثم انقطع فلم يعد يسمع إلا طلقات المدافع، ثم ساد السكوت! . . واسترد التعساء أنفاسهم، وتبادلوا نظرات الشك والرجاء، وانفكت عقد ألسنتهم فهذوا كالمجانين، ومضت ربع ساعة رهيبة ثم انطلقت صفارات الأمان! . . يا رحمة الله! . . هل ذهب الموت حقا؟ . . هل

يدركهم نور الصباح؟ ودبت الحركة وأضيئت الأنوار وانطلق أناس إلى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة، وانتقلت روايات، قالوا العباسية خراب.. أما مصر الجديدة فقل عليها السلام، وقصر النيل أمست أثرا بعد عين، ومخازن الترام دمرت وجثث العمال أكوام!..

وصعدوا إلى شقتهم يغمر صدورهم سرور عصبى، سرور من نجا من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة فى صدره، ومضوا بقية الليل أيقاظًا يتكلمون. وفى نهار اليوم الثانى بدا الحى وكأنه أزمع الهجرة، وتتابعت عربات النقل تحمل المتاع الضرورى إلى الأحياء التى حسب الناس أنها آمنة أو إلى القرى المتاخمة للعاصمة حتى خلت عمارات من ساكنيها، وضاعفت مناظر الهجرة من خوف الأسرة. خصوصا الأب الذى تُضعضع قلبه الضعيف من عنف الغارة، فنشأت فى رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين، وإذا كان من المتأثرين بدعاية المحور الإسلامية فقد اعتقد اعتقادا راسخا فى أن حيا دينيا كحى الحسين لا يمكن أن يقصده المغيرون بسوء، فجد فى البحث عن مسكن فيه، فاهتدى إلى هذه الشقة، وكان النقل.. وإن ينس لا ينسى اليوم الذى أعقب ليلة الغارة، فلم يكن للقاهرة حديث إلا حديث الليلة الماضية، واستفاض الناس فى الكلام بأعصاب متوترة ونفوس قلقة، وضحكوا جميعا ضحكا فيه سرور النجاة وتوتر الخوف، وشعر أحمد بدنو الموت دنوا جعله يحس تردد أنفاسه على وجهه، بل هنالك ما هو أفظع من الموت نفسه، كأن يلقى به على قارعة الطريق مقطع الأوصال أو مشطور الرأس، وربما ألحق بعد ذلك بذوى العاهات المستديمة، أو كأن ينجو من الموت ويدك البيت بمن فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا أثاث وبلا لباس! وجعل يدعو ربه ويستشفع بنبيه، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة بائسة، وأعجب من هذا أنه مال إلى الترفيه عن نفسه وتهيئة السرور لها ما أمكن، فغلب حرصه الطبيعى وابتاع لدى عودته إلى البيت صندوق بسكوت بالشيكولاته وهو طالما اشتهته نفسه وحرمها إياه حرصا على القليل من النقود التى تعوَّد أن يودعها صندوق التوفير كل شهر، ولكن عندما أتى المساء غشى القلوب هم وكآبة، وبات الكل فى ذعر عظيم، ولم يغمض لإنسان جفن، وتيقظت ذكريات الليلة المفترسة، واختلت الحواس، فصار كل نفير صفارة إنذار، وكل صفقة باب انفجار قنبلة، وكل خشخشة أزيز طيارة..؟ وها هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئن قلوبهم حقا؟! العمارات حديثة البناء متينة، ولها مخبأ يضرب بقوته المثل وهذا جوار الحسين.. ولكن ألم تدك حصون وتخرب جوامع؟! آه لكم يعذبنا حب الحياة، ولكم يقتلنا الخوف، ومع ذلك فالموت لا يرحم، وبالتفكير فيه يبدو أى جليل تافها. كم حمل نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب.. ففيم كان ذاك؟ وسمع عند ذاك الراديو يذيع السلام الملكى، فأدرك أن ساعتين مضتا فى أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة

الأفكار، ولكنه لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هى به فغمره سيل الذكريات الزاخر، فذكر كيف اقترح على والديه أن يسافرا إلى أخيه الأصغر فى أسيوط - مقر عمله - فيبتعدا عن الخطر حقا، وكيف قالت له أمه: «بل نبقى إلى جوارك فإما أن نعيش معا وإما. .» ثم استضحكت مستعيذة بالله! . . ماذا كان يفعل لو وافقها على السفر؟ . . كان أسهل الحلول أن ينزل فى بنسيون، والحق أنه رحب بالفكرة فى أعماقه لأنه يروم التغيير وهو لا يدرى، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عاما فى بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشية؟! . . فمهما ألف هذه الحياة وتعودها لا بد أن تنزع به النفس - ولو فى خفاء - إلى التغيير . . والتغيير الكامل! . . إلا أنه لم يستسلم هذه المرة طويلا إلى أفكاره فقد طرقت أنفه رائحة غريبة أوقفت تيار أحلامه! . . ذابت فى خيشومه فجأة كأنما حملتها إليه هبة نسيم كان من قبل راقدا، ونبهه إليها أنه كان يشمها لأول مرة فى حياته، وتحير كيف يصفها، فما كانت رديئة ولا كانت زكية، ولكن تطيب بها النفس، وفيها هدوء، وعمق، وإلا فما نفاذها إلى قرارة الإحساس؟! . . وما كانت تنقطع إلا لتعود . . فهل بخور يحترق فى مثل هذه الساعة من الليل؟! أم يكون لهذا الحى الغريب أنفاس تتردد فى أعماق السكون؟! . .

وغاب به التفكير فى الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهيأ للنوم وهو لا يدرى. . وما لبث أن استرق الكرى خطاه إلى جفنيه فأخذ بمعاقدهما . .

٤

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى كان جالسا إلى السفرة يتناول فطوره الذى يتكون عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقمات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون. وغادر الشقة فصار فى الردهة الخارجية التى تفصل بين الشقق، وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة فى أولى سنى الشباب مرتدية مريلة مدرسية زرقاء ومتأبطة حقيبة الكتب، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثم أعاد رأسه وقد تولاه ارتباك، والارتباك طبيعته إذا التقت عيناه بعينى أنثى! . ولم يدر هل الأليق أن يسبقها إلى الطريق أو أن يتنحى لها جانبا فزاد ارتباكه وتورد وجهه الشاحب وبدا فيلسوف إدارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغرير يتعثر حياء وخجلا! . . وتوقفت الفتاة كالداهشة وانتقلت إليها عدوى ارتباكه، فلم يجد بدا من أن يتنحى جانبا وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع: «تفضلى!». فمضت الفتاة إلى حال سبيلها وتبعها متثاقلا متسائلا أأصاب يا ترى أم أخطأ؟ . . وبم حدثت نفسها عن تردده وارتباكه؟! . .

وعند باب العمارة أيقظه صوت جهورى من أفكاره يصيح «ملعون أبو الدنيا» فالتفت إلى يسراه فرأى نونو - كما ظن - يفتح دكانه، فسرى عنه وابتسمت أساريره وغمغم «يا فتاح يا عليم!» ثم سار فى طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتى بلغت السكة الجديدة فانعطفت إلى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره إلى محطة الترام. ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها. استقرت عليهما عيناه لحظة حين التفاتته إليها. عينان نجلاوان ذواتا مقلتين صافيتين وحدقتين. عسليتين، وبدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين، يقطران خفة وجاذبية، فحركتا مشاعره، وكانت الفتاة تتخطى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة، بينما هو فى الأربعين، فأكثر من عشرين عاما تفصل بينهما! ولو أنه تزوج فى الرابعة والعشرين - وهى سن زواج معقول - لكان من المحتمل أن يكون أبا لفتاة فى مثل عمرها ونضارتها! وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصور تلك الأبوة التى لم تتحقق.

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين، وفتر حماس الحنين إلى الأبوة، واجتاح صدره انفعال عنيف قاتم شأنه إذا اقترب من أنثى أو اقتربت أنثى منه، ذلك أنه يحب النساء حب كهل محروم، ويخافهن خوف غرير خجول، ويمقتهن مقت عاجز بائس. فأية أنثى جميلة تترك فى وجدانه انفعالا شديدا، يضرب فى أعماقه الحب والخوف والمقت. وقد كان لنشأته الأولى أكبر الأثر فى تكييف طبيعته الشاذة، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمه، صرامة ترى القهر عنوان الحنان، وتدليل محبة ومغرم لو ترك الأمر له ما علمه المشى خوفا عليه من العثار. فنشأ على الخوف والدلال، يخاف أباه والناس والدنيا، ويأوى من خوفه إلى ظل أمه الحنون، فتنهض بما كان ينبغى أن ينهض به وحده. فبلغ الأربعين ولم يزل طفلا، يخاف الدنيا وييأس لأقل إخفاق، وينكص لدى أول صدمة وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس، ولكن لم يعد يجدى هذا السلاح، لأن الدنيا ليست أمه الحنون، فلن ترق له إذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه إذا بكى، بل أعرضت عنه بغير مبالاة، وتركته يمعن فى العزلة ويجتر العذاب، فهل يصدق الوالدان أن ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيتهما؟!.

ومع ذلك كله سجل قلبه تاريخا فى حياة ا لقلوب.

سطر أولى كلماته وهو فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية، وما يعنينا من سرده إلا دلالته على طبعه. كان غلاما ناضرا متأنقا، ولعله ورث الأناقة من والدته، فجذب إليه يهودية صغيرة حسناء من بنات الجيران! فأحمد عاكف - كما ترى - كان يوما ما جذابا! كانت تلعب فى طريقه وترقب مرجعه من المدرسة فى نافذتها، ولا تضن على عينيه بملاحتها ودلال أنوثتها فأصلت وجدانه نيرانا ولكنها لم تستطع أن تبعث فى قلبه الجسارة أو الشجاعة. ألهبت قلبه وجدا ولكن قصارى ما كانت تدفعه إليه شجاعته أن يرمقها

بلحاظ مغرم وجل سرعان ما يرتد أمام نظرتها وهو كليل، ولكنه على رغم خجله طارحها الغرام صراحة بفضل جسارتها هى. كانت جسورا لعوبا لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها، وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت إليها بوجه كالجمان، فابتسمت إليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة فى حياء وخفر فقالت له «هلم نتمشى فى شارع عباس!» فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنبا إلى جنب والشمس تتقدمهما نحو المغيب، وتعمدت أن تدنو منه وأن تلامسه فى رفق فجعل يبتعد كأنما يخاف أن تحسب أنه المتعمد وهو يذوب شوقا إلى اللمس الذى بجانبه، ثم تأبطت يمناه وهى تضحك ضحكة لم تخل من الارتباك، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته فى دعابة: «أتخاف؟!» فقال بصوت رقيق: «أخاف أن يرانا أحد من بيتك!» فهزت كتفها استهانة وقالت: «لا تبال هذا» فلاحت فى عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة «أما تزال خائفا؟!» فقال بعد تردد «أخاف أن يرانا أحد من بيتنا!» فأغرقت فى الضحك وعرجت به إلى بستان وهى تغمغم: «نحن الآن فى أمن من الرقباء!» وتمشيا فى سكون والشمس تذوب فى الشفق، وظلال المغيب تمتد فى الأفق فتجعل منه سرادقا قائما لاستقبال الليل الزاحف، ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه: «حلمت حلما يا له من حلم؟» فقال وقد أخذ يأنس بها: «خيرا إن شاء الله» فقالت «حلمت أنك قابلتنى وقلت لى أريد. . . ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك، فحزر ما هى؟!» فاشتد عليه الارتباك وقال بلسان ملعثم: «لا أدرى» فقالت بصوت عذب «بل تدرى وتدارى. . قل! فحلف لها بسذاجة أنه لا يدرى، فقالت: «لا فائدة من الكذب على. . أولى بك أن تتذكر. . كلمة أول حروفها ق!» فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت: «والحرف الثانى ب!» فلزم صمته وغض بصره فاستطردت تقول: «والثالث ل. . قل ما الحرف الأخير!» فابتسم مرتبكا ولكنه لم يدر كيف يتكلم، فقرصته فى ذراعه وهمست فى أذنه «إذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبدا!» وفعل التهديد فعله فرسم بأصبعه فى الهواء تاء مربوطة! فضحكت بسرور وقالت: «الآن اعترفت بما تريد ولن أضن به عليك!» ثم أدنت منه وجهها وقد أيأسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقا إلى مثلها. وهكذا كان دائما: إحساسا عنيفا وخجلا موئسا. وكان يحلو لتلك اليهودية الحسناء أن تداعبه بالسخرية من قسمات وجهه، فآمن بسخريتها، واستقبح وجهه أكثر مما ينبغى، ووجد سببا جديدا يقوى به خجله الطبيعى فتضاعف، ولو أمكن رجلا أن يسدل على وجهه نقابا لكان ذاك الرجل، وكان ذلك من بواعث المبالغة فى تأنقه حينا التى انقلبت فصارت إهمالا زريًا حين أدركه اليأس. .

واختفت اليهودية الحسناء من حياته فجأة، فما هو إلا أن خطبها شاب من بنى جنسها

حتى هجرت لعبتها لتستقبل حياة الجد، غير عابئة بالجرح الدامى الذى أحدثته فى قلب غض . بيد أن القلوب الغضة سريعا ما تندمل جروحها . وفى الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب الجوار أيضا بينه وبين صبية حسناء هى صغرى بنات أرملة من صديقات والدته ، فألفت بينهما المودة وتشجيع الأمين اللتين ما برحتا تدعوانهما بالعروسين . ولم يكن ذاك الحب الثانى كالأول الذى كان أول يقظة لقلب مفطور على الإحساس ، ولكن حوت الصبية مزايا نادرة فى رجاحة العقل ومتانة الخلق مما جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكثر الأسف . وكثيرا ما كان يحدث نفسه قائلا : إنه لو تزوج من فتاته كما أرادت أمه وأمها لتمتع بحياة زوجية سعيدة قليلة الأشباه . ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه إلى المعاش ودفع به هو إلى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمى به إلى جحيم اليأس ، وأصبح حتما على الفتاة إذا أرادت أن تبقى عليه أن تنتظر عشرة أعوام ريثما ينتهى من تربية أخيه . والظاهر أن أمها لم تشجع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل ، وغلبت حكمة الفتاة ـ نفسها ـ على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبددت الأحلام ، وكفر أحمد بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا . فالحب الذى ثمل به قلبه بين يدى اليهودية وهم ضال ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوعك التسنين للطفل . وقدقضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد امرأة . . سواء أكانت كخطيبته عقلا وفضلا أو كاليهودية التى علقته ما شاء لها الهوى ثم هجرته كما يهجر الإنسان حجرته ، فى فندق بميدان المحطة . .

وانقضت بعد ذلك عشرون عاما من حياته وقلبه من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة حقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقة بالأمل . ولو سكنت ثائرته لأمكنه أن يجد فى حياته من لذات التضحية والقيام بالواجب ما يعزيه عن خيبة آماله جميعا ، ولكن غضبه لم يسكت وحدَّته لم تلن فلم يزل ساخطا متبرما حاقدا ، لأن إنسانا ألف أن يكون المعبود الذى يقدم على مذبحه القربان لا يحتمل أن يصير كبش التضحية . وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنما رمى بقلبه ـ الذى لبث طوال أربعة أعوام كقيثارة دائمة الترنيم ـ إلى بئر آسنة فاختنق وعاش بلا أمل بلا حبيب ، وبلا قلب ، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها ، فدفعه القنوط من النجاح إلى العزلة ، ودفعه القنوط من الحب إلى البغاء . وكأنه لم يكفه ما اعتنق من سوء ظن بالمرأة فألقى به سوء حظه بين يدى الأنوثة التعسة المشوهة ليزداد إيمانا بعقيدته المريضة . فأقنع نفسه ـ بسوء نية ـ بأن المرأة الحقيقية هى البغى ! . . فهى المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء ، فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر . على أن البغى قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقية الباقية من ثقته بجدارته كرجل ، إذ أنه اعتقد أن البغى إذا أحبت رجلا فإنما تحبه لما

يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف التربى والجوار، فعسى أن تكون اليهودية أحبته لأنها لم تظفر بسواه، أو أن خطيبته أحبته لدواعى الجوار وإيحاء الأمهات. أما البغى فلا تختار حبيبا من بين عشرات الرجال الذين يترددون عليها لداع من هذه الدواعى، فإذا كان لم يستطع أن يجذب إليه بغيا طوال هذا الدهر فما ذلك إلا لأنه عاطل من جاذبية الجنس. . وهكذا عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من قبل. .

ولما أتم أخوه رشدى دراسته وحصل على بكالوريوس كلية التجارة وتوظف ببنك مصر منذ عامين - وكان أخوه الآخر قد توفى منذ أمد بعيد - شعر بحق بأن مهمته قد انتهت بل وكللت بالنجاح، وساوره أمل - وهل ينعدم من الحياة الأمل؟ - أن يراود السعادة، فقد يظفر بالسعادة وإن يئس يأسا نهائيا من الجاه والسلطان، وسعى إلى أن يخطب كريمة أحد التجار المقيمين فى غمرة، ولكن والدها رده ردا جميلا. وعلم الكهل أن أمها قالت عنه «إن مرتبه صغير وعمره كبير!». وترنح من هول الضربة التى هوت على كبريائه، وثار ثورة عنيفة، وكبر عليه - وهو العبقرى الذى حشد الكون ما به من سوء حظ لمكافحة عبقريته - كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حواء، بل أن ترفضه خاصة لأنه حقير! . . أيقال عنه حقير؟! فمن العظيم إذن؟! . . وكور قبضته متوعدا الدنيا بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه بالأمس هجرته حبيبته لأنه صغير لا ترجى منه فائدة، واليوم ترفضه فتاة لأنه كبير لا ترجى منه فائدة، فمتى كان ذا فائدة؟! . . أذهب العمر هباء؟! . . أضاع المجد وعزَّت السعادة وانتهى كل شىء؟! . . وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل نقيصة، فهن حيوانات ماكرة ومكرهن سيىء قوامه الطمع والكذب والتفاهة، إنهن أجساد بلا روح، إنهن مصدر آلام الإنسان وويلات البشرية، وما أخذهن بظاهر العلم والفن إلا خدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن فى شباكهن الضحايا، ولولا شهوة خبيثة ألقيت فى غرائزنا ما ظفرن برجاء ولا مودة. . وهن. . وهن. . وكثيرا ما يقول لزملائه «شرعت لنفسى - والحمد لله - ألا أتزوج على كثرة ما واتتنى الفرص، لأنى آبى أن ينتهبنى حيوان قذر لا روح له ولا عقل!» لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدوا للدنيا، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوا للمرأة! . . ولكن أعماقه اضطربت بالرغبة والعاطفة المنهومة المحرومة.

إن انفعاله لامرأة عابرة - كما حدث اليوم - حقيق بإهاجة أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيثور، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح بالحب والخوف والمقت. . !

٥

وعاد ظهرا إلى الحى الجديد، وغمغم مبتسما وهو يدنو منه: «ثانى عطفة على اليمين ثم ثالث باب على اليسار!»، وذكر وهو يرتقى السلم الحلزونى فتاة الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسليتين النجلاوين، ترى هل يراها مرة أخرى؟ . . وفى أية شقة وفى أى طابق من هذه العمارة تقيم؟! . . ولبث فى البيت - وقد أكملت أمه فرشه وتنظيمه - حتى العصر، ثم بدا له أن يجول فى طرقات الحى الجديد مستطلعا ومستكشفا، فارتدى ملابسه وانطلق إلى الخارج. وتريث قليلا أمام باب العمارة، وجعل ينظر فيما حوله كأنما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه. ولكنه قبل أن يجمع على رأى شعر بشخص يدنو منه فالتفت إليه فرأى الرجل الذى حسب صباح اليوم أنه المعلم نونو، وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسما ابتسامة ترحاب وسرور، ومد له راحة غليظة كخف الجمل وقال:

- أهلا وسهلا بالجار الجديد! . . ويا ألف نهار أبيض!

وسلم الجار الجديد. . ولم يكن يتوقع تلك المفاجأة من صاحب «ملعون أبو الدنيا!»، وقال وقد ابتسمت أساريره:

- أهلا وسهلا بك يا معلم!

فأشار المعلم إلى كرسى موضوع أمام دكانه وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه الغليظتين:

- شرفنا بالجلوس دقيقة. . دا يوم سعيد!

وتردد أحمد - لا لأن قبول دعوة المعلم يناقض الغرض الذى خرج من أجله - ولكن لأن طبعه النافر لا يستسيغ مثل هذه الدعوة الكريمة بغير تردد، وقرأ الآخر تردده فى وجهه، فقال بصوته الجهورى الخشن:

- حلفت بالحسين - إن لم تكن قاصدا غاية تستوجب العجلة - إلا ما شرفتنا. . يا ولد يا جابر هات شايا. . وهات نارجيلة!

وقبل أحمد - بسرور يعادل تردده - الدعوة شاكرا، ومضى إلى الكرسى بينما غاب المعلم لحظة ثم عاد بكرسى آخر وجلسا متقابلين. كانت دكان الخطاط مثل بقية الدكاكين حجما وأناقة، وقد غصت باللافتات الجميلة، وتوسطتها طاولة رصت عليها قنينات الألوان والأقلام والمساطر، وأسندت إلى إحدى قوائمها لافتة كبيرة كتب فى أعلاها بالألوان الزاهية «محل بقالة خان جعفر» وتحت ذاك العنوان لاح اسم صاحب البقالة

مرسوما بالرصاص لم يلون بعد . وكان الرجل يرتدى جلبابا ومعطفا أبيض وطاقية . فى الخمسين أو نحو ذلك، ربع القامة متين البنيان، كبير الوجه والرأس واضح القسمات، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع، وشفتين ممتلئتين، ولون قمحى مشرب بحمرة. وقد جلس وهو يقول :

ـ محسوبك نونو الخطاط .

فرفع أحمد يده إلى رأسه وقال :

ـ تشرفنا يا معلم، محسوبك أحمد عاكف بوزارة الأشغال !

وكان لا يحب ذكر وظيفته إرضاء لكبريائه، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب، بيد أنه لم يتألم هذه المرة كعادته لإتقانه بما يكنه أمثال المعلم نونو للموظفين من احترام . وقد رفع الرجل يديه إلى رأسه احتراما ثم ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال بما طبع عليه من صراحة :

ـ أنتم شرفتم حينا يا سادة ولكن هل جئتم حقا إلى هنا خوفا من الغارات؟

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولما يمض عليهم فى الحى الجديد سوى ليلة واحدة! . . فحدج الرجل بنظرة إنكار وتساءل :

ـ من قال لك ذلك؟

فقال المعلم ببساطة :

ـ الحوذى الذى نقل أثاثكم، الناس جميعا تهاجر هذه الأيام!

فقال أحمد عاكف يدافع عن «شجاعة» أسرته :

ـ الواقع أن أحياءنا المعرضة للخطر كادت تخلو، وقد حملنا مرض والدى بالقلب وخوفنا عليه على هجر بيتنا القديم آسفين!

وعند ذاك جاء غلام المعلم بالشاى والنارجيلة، فوضع النارجيلة أمام المعلم، ثم أتى بكرسى من الدكان وضعه أمام الضيف ووضع الإبريق عليه . وعزم على ضيفه أن يحسو الشاى وأقبل على النارجيلة بلذة وشهوة، وأخذ نفسا طويلا روى به غلة خيشومه ثم استدرك قائلا :

ـ حسن أن يلتمس الإنسان سبيل الطمأنينة وإن كان العمر واحدا والرب واحداً والمكتوب حتما تشوفه العين . إنى يا عاكف أفندى من المتوكلين على الله، وما عرفت حتى الآن طريق المخبأ . أى مخبأ يا سعادة البيك؟! . . هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر، أو يؤجل قضاء الله؟! . . ألم تسمع صالح عبد الحى وهو يغنى «نصيبك فى الحياة لازم يصيبك»؟! . . بيد أنى أدعو الله أن يكفينا شر الأيام، وأعود فأقول إن حظنا حلو، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الجوار السعيد!

ولاحظ أحمد أن كلام الرجل حوى أوله سخرية به ـ وإن كانت سخرية غير مقصودة ـ بينما حوى آخره ما يستوجب الشكر ! . . فابتسم قائلا :

ـ شكرا يا معلم، فلطالما قال لنا الحكماء إن حى الحسين آمن !

فأخذ الرجل نفسا عميقا ثم زفره سحابة من الدخان كثيفة وقال :

ـ صدقوا ثم صدقوا، إنه حى مبارك محبوب، مكرم من أجل صاحبه، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام أنك لن تستطيع السلو عنه أو الزهد فيه، وسوف يدعوك شىء من الأعماق إليه . . تفضل خذ نفسا من النارجيلة .

فشكره أحمد معتذرا، وكان يحتسى الشاى بلذة مصغيا لصاحبه، وكأنما أراد أن يجاريه فى التدخين ولكن على طريقته فاستخرج سيجارة من علبته وأشعلها مبتسما . وقد أحس نحو محدثه بارتياح لما وجده فيه من غرابة لم يعهدها فى أحد من الناس قبله، وأعجبته بساطته وصراحته وقوته، وأهم من هذا جميعه أنه شعر نحوه باستعلاء تملق غروره المعذب فمال إليه . أما المعلم نونو فاستدرك قائلا :

ـ لماذا ترغب عن النارجيلة؟ ! . . إن هى إلا سيجارة بماء، أو دخان مكرر مطهر، وفوق ذلك فلحضرتها سلطنة، وقرقرتها موسيقى، وفى شكلها «سكس أبيل» .

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكة رفيعة ضاعت فى جلجلة ضحكة المعلم التى تصاعدت كخوار عال متصل انتهى بسعال متقطع استمر حتى انقطع نفسه، ثم قال وأساريره ما تزال ضاحكة :

ـ أتحسب أن البلدى جاهل؟ ألم تعلم أن زوار هذا الحى من الإنجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من أولاد العرب؟ . . ودين الحسين ورب الحسين لتسرن بحينا سرورا لا مزيد عليه، وليكن جوارا سعيدا وأياما سعيدة رغم هتلر وموسولينى !

ـ بإذن الله . . إن شاء الله !

وقال المعلم بلغة الإغراء :

ـ وفينا أفندية محترمون كحضرتك !

فقال أحمد بسرعة :

ـ أستغفر الله يا معلم، أستغفر الله .

ـ والحسين وجده . . بل إن جل أصدقائى أفندية من خيرة هذا الحى، فالعمارات الجديدة جذبت أسرا طيبة كثيرة، يوجد هنا كل ما نريد . . القهوة والراديو واللطف والنارجيلة، بل هنا متسع لمرضية الله ومعصيته على السواء !

فضحك أحمد قائلا :

ـ أعوذ بالله من معصية الله !

فحملق المعلم فى وجهه، ثم قال مستدركا بصراحته الغريبة كأنه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ دقائق:

ـ المرضية والمعصية كالنهار والليل لا ينفصلان، وفوقهما مغفرة الله ورحمته. . أحنبلى أنت؟!

ـ كلا . . كلا . .

ـ تعجبنى!

ـ ولكن كيف يتسع هذا الحى لمعصية الله؟

ـ أوه. . يا ما تحت الساهى دواهى. . فصبرا حتى يأتيك اليقين، ومع ذلك فليس الذنب بذنب حينا، الذنب ذنب الأحياء الأخرى، لقد ضاقت بالفساد، فصدَّرت ما يزيد عن حاجتها إلينا، على حد قول الراديو عن التجارة العالمية. هنا نحن نصدر المواد الأولية والأحياء الأخرى توردها مصنوعة، فمن بعض أطراف هذا الحى تصدر الخادمات فتحولها الأحياء الأخرى إلى غانيات، فى هذه الحرب قلبت الدنيا رأسا على عقب، تصور يا إنسان أنى سمعت بالأمس بنت بائعة فجل تدعو أختها فتقول «تعالى يا دارلنج»!

وضحك أحمد بسرور، وانبسط وانشرح صدره، وقال وغرضه الأول أن يستدرج محدثه إلى الكلام:

ـ حيكم طاهر يا معلم رغم هذا كله، فالفساد هناك فوق ما يتصوره العقل!

ـ اللهم احفظنا. . إلا أنه من الحكمة ألا نركب الهم أنفسنا، دع الهموم واضحك واعبد الله، الدنيا دنيا الله، والفعل فعله، والأمر أمره، والنهاية له. فعلام التفكير والحزن؟! . . ملعون أبو الدنيا!

ـ هذا شعارك المحبوب يا معلم طالما صعد إلى حجرتى ترديدك له.

ـ أجل ملعون أبو الدنيا، هذا شعار الاستهانة لا اللعن أو السب. ولكن هل تستطيع أن تلعنها بالفعل كما تلعنها باللسان؟ هل تستطيع أن تستهين بها وتضحك منها إذا أفقرتك؟ . . وإذا أعرتك؟ وإذا كربتك؟ وإذا أجاعتك؟ صدقنى أن الدنيا كالمرأة تدبر عمن يجثو بين يديها، وتقبل على من يضربها ويلعنها، فسياستى مع الدنيا ومع النساء واحدة، واتكالى من قبل ومن بعد على الله سبحانه، ورب يوم يستدبر ولما يفتح الله علينا بمليم، ولا يدرى أحد ماذا يأكل العيال وما أملك ثمن النارجيلة، فما أزال آخذا فى الغناء واللعن والتنكيت، وكأن العيال عيال جارى والفقر راكب عدوى، ثم تفرج، فيطلب منا عمل وأقبض مقدم الأتعاب، افرح يا نونو، اشكر الله

يا نونو، خذى يا زينب اشترى لحمة وأنت يا حسن هات فجلا، اجرى يا عائشة ابتاعى بطيخة. املأ بطنك يا نونو، كلوا يا أبناء نونو، واشكرن يا زوجات نونو.

ولفت سمع أحمد قوله: «زوجات نونو» فتساءل ترى كم زوجة يضم حريم نونو؟!.. وهل يحدثه بأسراره الداخلية بمثل صراحته هذه عن فلسفته العامة؟!.. ولم يجد سبيلا إلى غرضه إلا بالحيلة، فسأله:

- كان الله فى العون، الظاهر أن أسرتك كبيرة.

فقال الرجل ببساطة:

- أحد عشر كوكبا، وأربع شموس.

ثم أشار إلى نفسه وكمل قائلا:

- وقمر واحد!

فتردد عاكف لحظات، ثم قال:

- أزواج أربع؟

- ما شاء الله.

- وإن خفتم ألا تعدلوا؟

- ومن قال عنى إنى ظالم؟

- وهل تستأجر تبعا لذلك بيوتا أربعة؟

- بل شقة واحدة كشقة حضرتك، مكونة من حجرات أربع فى كل حجرة أم وأبناؤها!

فلاحت الدهشة فى وجه الرجل ونظر إلى محدثه بإنكار، فضحك المعلم ضحكته العظيمة بفخار، وقال:

- ما الداعى للدهشة يا أحمد أفندى؟

فآتت أحمد جراءة ليست من طبعه، وسأله:

- لماذا لم تقنع بواحدة؟

- واحدة؟!.. أنا خطاط، والنساء كالخط أنواع لا يغنى نوع عن نوع، فهذه نسخ، وتلك رقعة، وثالثة ثلث، ورابعة فارسى، أنا لا أوحد إلا الله.

- ولكن أليس الأربع بأكثر مما ينبغى!

- ليتهن كفيننى، أنا والحمد لله أكفى مدينة من النساء، أنا المعلم نونو والأجر على الله!

- وكيف تجمعهن فى شقة واحدة!.. ألم تعلم بما يقال عن غيرة النساء؟

فهز المعلم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض، ثم قال:

ـ هل تصدق ما يقال عن النساء وغيرتهن ومكرهن؟! . . كل أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل. المرأة فى الأصل عجينة طرية، وعليك أن تشكلها كما تشاء، واعلم أنها حيوان ناقص العقل والدين فكمِّلها بأمرين: بالسياسة والعصا! . . فما من واحدة من نسائى إلا مطمئنة إلى أنها الأثيرة المفضلة، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقة واحدة، ولن تجد مثل بيتى سعادة وهدوءا، ولا مثل زوجاتى حشمة وتنافسا فى إرضائى ولذلك لم يجرؤن على مغاضبتى حين علمن بأن لى خليلة!

فصاح أحمد عاكف:

ـ خليـــلة!

ـ سبحان الله ربى! ما لك تدهش لأتفه الأشياء؟ أقول إن طعمية البيت لذيذة، ولكن ما رأيك فى طعمية السوق؟

ـ وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك؟

ـ الرضا يساوى التعود على الرضا، وأنت برجولتك تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء، وتؤمن بما تشاء، والرجل القوى لا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا وافق هواه.

فابتسم أحمد وقال:

ـ عوفيت يا معلم!

وأخذ المعلم أنفاسا متتابعة، ثم سأل ضيفه:

ـ هل أنت متزوج يا أحمد أفندى؟

فأجاب باقتضاب وقد امتعضت نفسه:

ـ كـــلا . . .

ـ ولا واحدة؟

ـ ولا نصف واحدة.

فضحك الرجل، وقال بصراحته المعهودة:

ـ أنت بغير شك نطاط كبير!

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة، ولم يعرض لقوله بنفى أو إثبات، فقال نونو ضاحكا:

ـ عوفيت . . عوفيت!

وبلغ المعلم نونو من نفسه ما لم يبلغه سواه، فأحدث فيها يقظة عنيفة، كأن شيئا يناقضه قوة وصحة وابتساما، وإقبالا على الحياة، وفوزا وسعادة، فأعجب به إعجابا

استمده من عجزه عن مجاراته، وحقد عليه لتفوقه وسعادته، إلا أنه كان حقدا خفيفا لا يقاس بما أحدثه فى نفسه من شعور بالاستعلاء، فغلب ميله إليه حقده عليه، واستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيه العجيب.

وعندما استأذن فى الانصراف، قال له المعلم:

ـ عليك بقهوة الزهرة هى قهوة صغيرة، ولكنها تجمع أفندية هذا الحى المحترمين، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك، هلا حضرت هذا المساء؟!

فقال أحمد وهو يودعه:

ـ إن لم يكن هذا المساء، فمساء الغد إن شاء الله.

وسلم عليه شاكرا، ثم مضى إلى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء الحى الجديد.

٦

وعند مساء اليوم الثانى غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة، فوجدها عند مدخل شارع محمد على الكبير، وهو السابق لشارع إبراهيم باشا. وكانت فى حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد على والثانى على الممر الطويل الذى يؤدى إلى السكة الجديدة. وقد وجد فى الحى من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدَّر قهوات الحى بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان. وأقبل على القهوة متمهلا مترددا لأنه لم يتعود ارتياد المقاهى ولا ألف جوَّها. وما كاد يعبر بابها حتى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفندية بينهم واحد من أهل البلد. ورآه المعلم فنهض قائما مبتسما وقال بصوته الجهورى الخشن:

ـ أهلا وسهلا تفضل يا أحمد أفندى!

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفتيه ابتسامة ارتباك وحياء. ماداً يده بالسلام، فتلقاها براحته الغليظة، ثم التفت إلى الجماعة قائلا:

ـ جارنا الجديد أحمد أفندى عاكف الموظف بوزارة الأشغال.

فنهض الرجال نهضة واحدة فى لطف واحترام زاد من ارتباكه وحيائه، ومضى يسلم عليهم واحدا فواحدا والمعلم يقدمهم قائلا:

ـ سليمان بك عتَّة مفتش بالتعليم الأوَّلى، سيد أفندى عارف بالمساحة، كمال أفندى خليل بالمساحة أيضا، الأستاذ أحمد راشد المحامى، المعلم عباس شفة من الأعيان.

وأوسعوا له مكانا بينهم ورحبوا به أيما ترحيب، فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء. وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزة والاستعلاء أحسن إخفاءه بابتسامة حلوة ونظرة حيية.

لم يخامره شك قط فى تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبارات والوجوه، فهو من أهل السكاكينى وهم من أبناء الدراسة أو الجمالية! وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه. بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب، بيد أنه تساءل متحيرا ترى كيف السبيل إلى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره وإطلاعهم على مزاياه العقلية والثقافية؟.. كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم إلى احترامه!.. لا شك أن ذلك آت لا ريب فيه إذا اتصلت المودة وتكرر اللقاء. فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين!.. وتقلب بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام. فهذا سليمان عتة المفتش رجل فى الخمسين أو يزيد، قبيح الوجه لحد الازدراء، قميء ذو احديداب، يذكرك وجهه بالقرد فى انحدار جبهته وبروز وجنتيه واستدارة عينيه وصغرهما وكبر فكيه وفطس أنفه، إلا أنه حرم من خفة القرد ونشاطه، فبدا وجهه ثقيلا جامدا متجهما كأنه سيؤخذ بجريرة قبحه، أما أجمل ما فيه فمسبحة قهرمانية لعبت أنامل يمناه بحباتها، ومن عجب أن صورته على قبحها لم تهج مقته ولكنها استثارت هزءه وسخريته، والمدعو سيد عارف كهل فى مثل سنه على وجه التقريب، صغير الحجم رقيق الأعضاء، لبشرة وجهه نعومة وفى نظرة عينيه براءة، أما كمال خليل فرجل تلوح فى عينيه الرزانة. كبير العناية بهندامه وأناقته، معتدل القامة يميل للبدانة، وكان أحفل القوم استقبالا للجار الجديد. ثم تحول إلى أحمد راشد باهتمام خاص، فوجده شابا فى ريعان الشباب، مستدير الوجه ممتلئه كبير الرأس تكاد تخفى صفحة وجهه نظارة سوداء عميقة السواد. أثار هذا الشاب اهتمامه لأنه محام، والمحامى رجل متعلم، والمحاماة مهنة طمع فيها أول عهده بالآمال وعجز عنها وإن لم يقر بعجزه قط. فما يزال يحقد على المحامى حقده على الأديب والعالم، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يحبها، فوجد فيه عدوا وتوثب للانقضاض عليه، ولم يبق من الجماعة إلا المعلم عباس شفة، وهو شاب ذو سحنة زنجية توحى ملامحه الغليظة الدميمة بالدناءة والوضاعة، قد ارتدى جلبابا فضفاضا وشبشبا وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المفلفل وزاده دمامة وقبحا وبدا شيئا حقيرا لا ينقصه سوى لباس السجن!.. واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة، وجلس القهوجى إلى صندوق الماركات على كثب منها وكأنه - لاشتراكه فى أحاديثها - واحد منها!.. وبينا أقبل المعلم نونو وكمال خليل أفندى على أحمد عاكف أيما إقبال ثابر سليمان عتة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تاما!.. أما الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصت إلى حديث يذيعه الراديو.

ووجَّه كمال خليل الخطاب إلى عاكف قائلا :

ـ علمنا أن حضرتك آت من السكاكينى !

فحنى أحمد رأسه قائلا :

ـ أجل يا أستاذ!

فسأله الرجل باهتمام :

ـ أحقا لم ينج من بيوت الحى إلا عدد قليل؟

فضحك أحمد قائلا :

ـ الحقيقة أنه لم يهدم سوى بيت واحد .

ـ يا للناس من الإشاعات ! . . فماذا فعلت تلك الفرقعة الهائلة التى خلناها فى بيوتنا؟

ـ كانت فرقعة فى الهواء !

فتحول الأستاذ أحمد راشد عن الراديو ـ مما دل على أنه لم يستغرق كل انتباهه ـ وسأل الجار الجديد :

ـ وهل سقط طوربيد حقا ولم ينفجر؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحول الشاب إليه :

ـ وقيل طوربيدان ولكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء .

فقال أحمد راشد :

ـ من لنا بذاك الخبير الكندى الذى قرأنا عنه فى أنباء الحرب؟ . . يقال إنه أنقذ أحياء كاملة فى لندن!

فتساءل سيد عارف كالمتهكم وكان من محبى الألمان :

ـ أما تزال توجد أحياء كاملة فى لندن؟

فابتسم أحمد راشد وقال عاكف :

ـ صاحبنا من أنصار الألمان!

وضحك المعلم نونو قائلا مكملا قول المحامى :

ـ لأسباب طبية!

وتورد وجه سيد عارف، ولكن المعلم نونو لم يرحمه فأرسل ضحكته العظيمة مرة أخرى وقال :

ـ يحسب أن الطب الألمانى يستطيع أن يعيد الشباب!

وقطب سيد عارف جبينه مستاء، والظاهر أنه كبر عليه أن يصارح بمثل هذا الكلام أمام

رجل ما زال جديدا فى جماعتهم، وأدرك أحمد عاكف أن وراء ملاحظة نونو ما وراءها، ولكنه لم يبد على وجهه أنه سمع شيئا، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحى الجديد مثنيا عليه بما يعلم حتى علَّق أحمد راشد على كلامه قائلا :

ـ هذا الحى هو القاهرة القديمة، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهز الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم تر إلا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر، وما أجدر أن نمحوها لنتيح للناس التمتع بالحياة الصحية السعيدة!

وتنبه أحمد إلى ما فى قول صاحبه من جدة عسى أن تنزله من القوم منزلة المحدث الماهر والمفكر الذكى، خاصة وأن لشهادته الحكومية ـ ليسانسية القانون ـ مكانة يدين لها الجهلاء والسذج، فخاف أن يمتاز عليه، فوثب للنضال، وأجمع على معارضته بأى ثمن، فقال :

ـ ليس القديم من البقاع مجرد قذارة، فهو ذكرى قد تكون أجل من حقائق الواقع، فتبعث فى النفوس فضائل شتى! . . إن القاهرة التى تريد أن تمحوها من الوجود هى القاهرة المعزية ذات المجد المؤثل. أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة؟

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعا حسنا فرأه فى أعينهم، فسر به، وأراد أن يهتبل الفرصة ليعلن عن علمه فقال :

ـ معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلدات جعلت تعلقى به أمرا مقضيا!

فقال السيد عارف :

ـ الظاهر أن أحمد أفندى من عشاق التاريخ!

فسر أحمد بما هيأه كلام الرجل من فرصة أطيب للحديث عن معارفه، فقال مبتسما :

ـ الواقع أنى لا أعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة، والحقيقة أنى أنفقت أكثر من عشرين عاما فى تحصيل المعارف المختلفة!

فولاه القوم نظرات دلت على الاهتمام، وفسر هوذلك الاهتمام بأنه أكبار فرقص قلبه طربا، ولكم ود لو يستطيع أن ينفذ إلى عينى أحمد راشد خلال عويناته السود ليقرأهما. وقد سأله كمال خليل :

ـ ولماذا تدرس هذه المعارف يا «أستاذ»؟! . . أتحضر لشهادة ما؟

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غص ببقية السؤال فقال باستكبار :

ـ أيه شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! . . ما الشهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان، أما دراستى فلا غاية لها إلا العلم الحق، وربما مهدت بها يوما إلى التأليف المنتج .

فسأله أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحنقته :

ـ ما معنى أن الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظما حنقه :

ـ الشهادة ليست دليل العلم!

ـ أهى دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه، ثم استدرك قائلا :

ـ أعنى أن الشهادة هى الدليل على أن شابا حفظ بعض المواد بضع سنين، والعلم الحق شىء غير هذا البتة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف على رأى محدثه فى الشهادات. بل أنه لم يغب عنه الحدة التى يسوق بها رأيه، مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذاك الرأى غير التى أعلنها. ورحب أحمد عاكف بصمته لأنه يرجح كفته عليه أمام «العوام» الذين يجالسونهما!.. وساد الصمت برهة، وجعل المعلم نونو يفرغ الشاى فى أكواب الجلوس. ودار عاكف ببصره فى المكان، فلاحظ لأول مرة أن غلاما يجلس على كرسى جنب كمال خليل أفندى، ولم يدر أكان موجودا قبل مجيئه أم أنه جاء فى أثناء اشتغاله بالحديث، ولكنه أيقن من أول وهلة أنه ابنه، لمشابه لا تخفى عن النظر العابر، وتركه بصره إلى غيره ولكنه عاد إليه سريعا، فقد استوقف انتباهه «شىء» فى وجه الغلام لم يدر ما هو على وجه التحقيق. ولم يستطع أن يرمى إليه بطرفه طويلا، فجعل يختلس من وجهه نظرات حائرة من وراء كوب الشاى وهو يحتسى منه رشفة بعد أخرى. ما الذى جذب انتباهه إلى ذلك الوجه فكاد أن ينسى آثار المعركة التى خاض غمارها؟!.. لعله شعور غامض بأنه رآه من قبل، بأنه رأى هاتين العينين الواسعتين، ونظراتهما الحلوة الساذجة. ومثل هذا الشعور لا يريح صاحبه حتى يتضح الغامض من الذكريات على ضوء التذكر والعرفان، وإن كان فى الغالب لا يفيد شيئا ذا بال. ولذلك ألح عليه هذا السؤال «أين رأيت هذا الوجه؟ ومتى كان ذلك؟». فى السكاكينى؟.. فى الترام؟.. فى الوزارة؟.. وردت ذاكرته على عناده وإلحاحه بعبث ساخر معذب، فجعلت تدنى إلى وعيه الصورة وترميه بأطياف الزمان والمكان حتى خال أنه ظفر بها أو كاد، ثم لا تلبث أن تبتلع الأطياف فى ظلمة عميقة، وتتراجع بالصورة عن الوعى المشوق، فيعود الغموض والإبهام والحيرة إلى ما كانت عليه. ورغب أخيرا أن يعرض عن تذكر شىء ليست معرفته بالمطلب الهام، ولكن الحقيقة أن ذاكرته لم تعد الشىء الوحيد الذى يحيره ويلح عليه! الحقيقة أن رغبة صادقة أو شعورا عميقا راح ينزع بقلبه إلى العينين النجلاوين ونظرتهما الحلوة الساذجة!! فكلما اختلس نظرة استثار فى

أعماقه حنانا ووِدادا وانجذابا!! وتملكته الحيرة. وتولاه الحياء، وحذر أعين الجلوس حذر مريب مذنب!! فأطرف ممسكا بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان. وأبى خياله أن يفارق الغلام، فعلق وجهه وتمثل نظرة عينيه، ودار قلبه عطفا ووِدادا وهياما. وهمت عيناه أن تخونا إرادته ولكنه شد عليهما بخوف وغضب، وتساءل متحيرا عما دهاه؟!.. بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوته النفسية المحيرة فسأله:

ـ ألا تحب أن تتسلى بلعب شىء؟

فنظر إليه كمن تنبه من سبات بغتة وقال ببساطة:

ـ لا أدرى عن الألعاب شيئا!

فضحك كمال خليل قائلا:

ـ إليك الأستاذ أحمد راشد قرينا وشبيها فى ذلك، فتسامرا معا ريثما نلعب ساعة...

ثم التفت الرجل إلى ابنه، وقال له:

ـ هلم إلى البيت يا محمد.

فخفق قلب عاكف، وأرسل نحوه ناظريه، فتبعاه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غيبه الباب. فعاد يقول لنفسه متحسرا: «هلا ذكرت متى عرفت هذا الغلام؟». وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين، فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو، ولعب سليمان عتة وسيد عارف النرد. أما عباس شفة فتزحزح بكرسيه إلى مجلس المعلم «القهوجى»، وتنحى أحمد راشد ليوسع للاعبين، فصار جنب أحمد عاكف. وشعر الرجل باقترابه فتغير شعوره العجيب وتوثب مرة أخرى للنضال والعراك. وذهب الهيام وجاء الغضب والحقد!.. والتفت الشاب نحوه قائلا برقة:

ـ كيف حالك يا أستاذ؟!.. لا تحسبن أنى قديم عهد بخان الخليلى لقد سبقتك إلى هنا بشهرين!

فابتسم عاكف مسرورا بتودد الآخر إليه، وقال كالمتسائل:

ـ الغارات أيضا؟!

ـ تقريبا!.. الواقع أن مسكننا القديم فى حلوان أخلى لأغراض عسكرية فرأيت أن أنتقل إلى القاهرة قريبا من مكان عملى، ووجدت مشقة فى البحث عن شقة خالية حتى أرشدنى صديق إلى هنا!

فقال أحمد عاكف وقد أخفض صوته:

ـ يا له من حى مزعج!

ـ أجل!.. ولكنه مسل وغريب وحافل بالفنون والنماذج البشرية المدهشة. أنظر إلى

القهوجى الذى يحدثه عباش شفة، أنظر إلى عينيه الذاهلتين! . . إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات، ويمضى فى عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق.

ـ وهل تطيب الحياة على هذا النحو؟!

ـ لا أدرى! . . المؤكد فقط أن اليقظة التى نحبها ونستزيد منها بالقهوة والشاى يمقتها الرجل وكثيرون أمثاله: وتراه إذا أجبر بسبب ما، على البقاء فيها مدة، متثائبا، دامع العينين، شرس الخلق، ولا تسكن ثائرته، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجود، ويهيم فى عوالم الذهول: أهى لذة عصبية تكتسب بالعادة؟! . . أم سعادة وهمية تهرب إليها النفس من شقاء الواقع! . . علم هذا عند المعلم نفسه!

إنه يخاف شقاء الواقع، كواحد من هؤلاء المدمنين، ويهرب منه أيضا لائذا بعزلته وبكتبه، فهل هو أسعد حالا منهم؟! . . ورغب عن الاسترسال فى ذلك الموضوع، فسأل محدثه وقد غير لهجته:

ـ هل أستطيع أن أكب على دراستى فى مثل هذه الضوضاء؟

ـ ولم لا؟ . . الضوضاء قوية حقا، ولكن العادة أقوى، وسوف تألف الضوضاء حتى ليزعجك سكونها. وقد كنت بادىء الأمر ألقاها متجهما متكدرا يائسا، أما الآن فترانى أكتب مرافعاتى وأراجع مواد القانون هادئا مطمئنا وسط هذا الدوى الذى لا ينقطع. ألا ترى أن العادة أمضى سلاح نواجه به غير الدهر؟!

فهز رأسه موافقا، وقال كأنه يستكثر أن ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبتذل:

ـ ولذلك قال ابن المعتز:

إن للمكروه لذعة هم فإذا دام على المرء هانا

فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة. وكان لا يحفظ الشعر ويحتقر الاستشهاد به فتساءل فى رفق:

ـ أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر؟

فتساءل عاكف بإنكار:

ـ وماذا ترى فى ذلك؟

ـ لا شىء البتة إلا أننى أعلم أن الناس عادة لا يعدلون بالشعر القديم شعرا حديثا، مما يوجب أن يكثر استشهادهم ـ إذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر ـ بالقديم، وأنا أكره النظر إلى الماضى!

ـ لا أكاد أفهم!

ـ أريد أن أقول إننى أكره الاستشهاد بالشعر لأننى أكره الرجوع إلى الماضى. أريد أن أعيش فى الحال وللمستقبل وحسبى ما فى الماضى من حكماء هم أهل للإرشاد والتوجيه!

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أن الماضى انطوى على العظمة الحقيقية، أو أنه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدرى شيئا عن عظماء «عصرنا» فثارت ثائرته وقال منكرا:

ـ وفيم إنكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل!

ـ لعصرنا رسله كذلك!

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنه كان أحرص من أن يبدى ـ فى حديث ـ دهشته إلا إذا أوجب ذلك جهل محدثه ـ لا علمه طبعا ـ فتساءل فى هدوء:

ـ ومن رسل العصر الحاضر؟

ـ أضرب مثلا بهذين العبقريين: فرويد وكارل ماركس!

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه! بل شعر بجرح عميق فى كرامته، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين الاسمين! . . وأضمر لصاحبه غضبا جنونيا. ولكن لم يسعه إظهار جهله فهز رأسه هزة العارف العالم وتساءل:

ـ أتراهما يضارعان العباقرة الأولين؟

وكان سرور المحامى الشاب بعثوره على إنسان مثقف لا يعادله سرور فرغب فى المناظرة رغبة قوية، وأدنى كرسيه إلى كرسى صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شىء وقال بصوت لا يسمعه سواه:

ـ لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسية التى تلعب فى حياتنا الدور الجوهرى. ونهج له كارل ماركس سبل التحرر من الشقاء الاجتماعى، أليس كذلك؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب، ولم يدر هذه المرة كيف يعارض فضلا على أن ينتصر، فراغ عن مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلى:

ـ مهلا . . مهلا يا أستاذ، لقد كنا مثلك متحمسين، ولكن تقدم العمر ومداومة الفكر حقيقان بإلزام الإنسان حدا من الاعتدال.

فقال أحمد راشد بلهجة لم تخل من حدة:

ـ ولكنى أحسن التفكير فيما أطلع عليه؟

ـ بغير شك إلا أنك شاب وستكسب بالعمر حكمة حقيقية، ألم تسمعهم يقولون «أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة!».

ـ مثل قديم أيضا!

ـ وحكيم!

ـ لا حكمة فى الماضى!

ـ ربــاه!

ـ لو وجدت فى الماضى حكمة حقيقية لما صار ماضيا قط!

ـ ودينــا؟

فرفع الشاب حاجبيه دهشة، ولو استطاع عاكف أن يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورث الجنون. وغمغم الشاب:

ـ يا للسذاجة!

وكان عاكف قرأ فلسفة إخوان الصفا الدينية فرغب أن يلخصها فى كلمات لمحدثه البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأى العوام فى الدين من ناحية وليغمض على صاحبه كما غمض عليه، فقال:

ـ إن فى الدين ظاهرا حسيا للعوام وجوهرا عقليا للمفكرين، فهناك حقائق لا يضيق المثقف بالإيمان بها مثل الله والناموس الإلهى والعقل الفعال!

فهز الشاب منكبيه استهانة وقال:

ـ إن العلماء المعاصرين يعلمون بما فى الذرة من عناصر، وبما وراء عالمنا الشمسى من ملايين العوالم، فأين الله، وما أساطير الديانات؟!.. وما جدوى التفكير فى مسائل لا يمكن أن تحل، وبين أيدينا مسائل لا حصر لها يمكن أن تحل وينبغى أن نجد لها حلا؟

ثم ابتسم الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير لهجته المتدفقة:

ـ لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنا فى هذا الحديث!

ـ طبعا.. طبعا يا أستاذ، ولكن لا تنس أن أول العلم كفر دائما.

وقطع عليهما الحديث ارتفاع صوت سليمان عتة بالغضب، والظاهر أن ملاعبه سيد عارف أغاظه بهذره فتهيج القرد وصاح به:

ـ إن الله الذى سلبك قواك عادل حكيم!

وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيد عارف منذ ساعة فنظر إلى أحمد راشد مبتسما فرد الشاب على ابتسامته ابتسامة ذات معنى وقال:

ـ صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقا!

ولفت انتباههما جماعة من لابسى الجلاليب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضى

كل منهم يعد رزمة ضخمة من الأوراق المالية، وكان منظرا يستدعى الدهشة لما فيه من أوجه التناقض، فقال أحمد عاكف:

ـ لعلهم من أغنياء الحرب!

فقال الآخر موافقا:

ـ سيهجرون طبقة ويلحقون بأخرى!

ـ إن الحرب ترفع كثيرين من السفلة!

ـ السفلة!.. هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة العالية، فأرستقراطيو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا فى الماضى أراضينا بحكم الغزو؟.. وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التى لا حصر لها.

ولأول مرة يميل إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة، فقال:

ـ هذا رأيى!

فاستدرك الشاب قائلا:

ـ ويرى كارل ماركس أن العمال سيظفرون بالنصر النهائى فيصير العالم طبقة واحدة ممتعة بالضرورات الحيوية والكمالات الإنسانية، هذه هى الاشتراكية!

ولزما الصمت كأنما أجهدهما التعب، فجعل عاكف يفكر متألما: يا لها من آراء!.. فرويد وماركس، الذرات وملايين العوالم، الاشتراكية!.. واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق. فما كان يظن قط أنه سيعثر فى خان الخليلى على من يتحدى ثقافته، ويجبره على التسليم بأن فوق كل ذى علم عليما!.. أفلا يظفر بالراحة فى هذه الدنيا؟!

وعند ذاك خلع الشاب نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أن عينه اليسرى زجاجية! ودهش أول وهلة، ثم غمره شعور بالارتياح خبيث، لأنه وجد فى عوره وجها للاستعلاء عليه أيا كان هذا الوجه!..

ولبث فترة قصيرة، ثم غادر القهوة عائدا إلى البيت هائج النفس ثائر الكرامة، ولحسن حظه ذكر فجأة الغلام!.. وسرعان ما تغيرت حاله ورفت على حواسه الملتهبة نسمة رطيبة أذهبت رياح الحقد والغضب، وتمثلت لخياله العينان النجلاوان، والنظرة الفاتنة، فتنهد متحيرا، وهمس لفؤاده «سأراه حتما مرة أخرى!».

٧

ونهض فى الصباح المبكر نشيطا، ففتح النافذة وأطل منها على الحى العجيب فوجد الحى يتمطى مستيقظا فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشقق تفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون إلى الطرق المتشابكة منادين بغير انقطاع. وجذب انتباهه قدوم جماعات من «مشايخ» المعاهد الأولية الغلمان يسيرون زرافات نحو معاهدهم فى جبب سوداء وعمم بيضاء فذكروه «بالفشار» فى المقلى وأنصت إليهم مستلذا وهم يرتلون معا «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا». وجعل رأسه يروح معهم ويجىء حتى ختموها «يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما»، فذكر لتوه أحمد راشد المحامى فهو من الذين أعد لهم العذاب الأليم! .. وإنه به لحقيق!

وعند عصر ذاك اليوم وقد جلس وأمه فى الصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور:

ـ زارنى اليوم نساء الحى من الجيران للترحيب بى والتعرف إلى كما جرت العادة.

فابتسم أحمد الذى يقدر سرور أمه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة وقال لها:

ـ هنيئا لك!

فضحكت وهى تتناول منه سيجارة، ثم أشعلتها وهى تقول:

ـ فيهن نساء لطيفات سيملأن غربتنا حرارة وحبورا!

ـ لعلك أن تنسى بهن الصديقات القديمات من نساء السكاكينى والظاهر والعباسية!

فكبر عليها قوله وصاحت به:

ـ أينسى الكريم أحبابه؟! .. هن روحى وحياتى، ولن يفرق بيننا البعد مهما امتد وطال.

ـ ونساء الحى من أى نوع هن؟

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبرى للدفاع:

ـ لسن من السفلة ولا من الغجر كما ظننت، وبعض الظن إثم، وكان بين اللائى زرننى زوج موظف بالمساحة يدعى كمال خليل، وزوج آخر بالمساحة أيضا يدعى سيد عارف، وجاءتنى أيضا زوج صاحب مقهى الزهرة وشقيقته، والزوجة امرأة طيبة القلب، أما شقيقة زوجها فينطلق فى عينيها المكر والشر، وإن سترت ذلك كله بغلالة شفافة من الرقة والابتسام!

ـ داريها هى وأمثالها باللطف ، فإنه إن يبلغها شىء عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا !

ـ لا سمح الله يا بنى ، أما أعجب ما صادفت اليوم فهو أن الست توحيدة حرم كمال أفندى خليل ـ وهى جسيمة كالمحمل أو كأمك أيام شبابها ـ صديقة قديمة . . عرفتها فى دكان بهلة العطار بالتربيعة .

ـ وأنتما تسعيان معا إلى وصفات السمن !

ـ هو ذلك . . وتبادلنا التحية هناك مرات ، ولكننا لم نتقدم وراء ذلك فى سبيل التعارف !

ـ ها هى ذى الأيام تعارف بينكما !

ثم ذكر أن هذه السيدة أم الغلال محمد ! . . ولم يكن ذكره فى نهاره إلا حين جاء ذكر أمه ، فعجب كيف نسيه طوال ذلك الزمن ، وقد كان قبل عشرين ساعة ملء القلب والخيال ! . . ولكن أمه لم تدعه لأفكاره فضحكت ضحكة عالية وقالت :

ـ وأخذنا فى كذب النساء طويلا وكذب النساء لذيذ ، فهذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه ، وتلك كريمة تاجر واسع الثروة ، والثالثة قريبة مدير حسابات الداخلية ، والرابعة مرضت مرضا أنفقت على علاجه عشرات الجنيهات !

وضحكا معا ، ثم سألها الكهل وما زال ضاحكا :

ـ وكيف كان كذبك ؟

فقالت وهى تحدجه بنظرة ضاحكة :

ـ يسيرا لا تثريب عليه يوم الحساب ، فأبوك أحيل على المعاش منذ زمن يسير ، وكان مفتشا بالأوقاف ، وأما أبى ـ جدك ـ فكان تاجرا وأنت يا نور عينى رئيس قلم بوزارة الأشغال ، ولك من العمر اثنان وثلاثون عاما لا غير فتذكر !

ـ يا خبـــر !

ـ لا فائدة من الاعتراض ، وإياك وتكذيب الكذب ! . . وأنا أكبرك بثلاثة عشر عاما ، فأنا فى الخامسة والأربعين .

ـ هل ولدتنى وأنت طفلة ؟

ـ الأنثى تلد فى الثانية عشرة من عمرها !

ـ هذه أخت وليست بأم !

ـ صدقت فالولد الأكبر أخو والديه ، أما أخوك فوكيل بنك مصر بأسيوط !

فهز الرجل رأسه عجبا وقال :

ـ كيف تؤاتيكن الجرأة على تزييف حقائق لن تخفى طويلا عن أعين الجار، ولابد أن تنكشف حقيقتها يوما ما؟

فقالت ببساطة:

ـ غدا تؤلف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة رويدا رويدا بلا سخرية ولا تعبير، ولو أننى قلت الحقيقة بغير زيادة، لما صدقننى كما لا يصدقننى الآن، ولانتقصن من رأس المال بدلا من أن ينتقصن من الفائدة!

ـ يا لكن من كاذبات لا يشق لهن غبار!

ـ وماذا عليك من هذا؟!.. طوبى لكذب غايته الرفعة والفخر. إن كذب النساء بلسم لجراح دامية، متعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشهاه!

فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكرر قوله السابق قائلا:

ـ يا لكن من كاذبات لا يشق لهن غبار!

ولحظته غامزة بعينيها وسألته:

ـ وأنتم يا بنى ألا تكذبون؟

وصمت قليلا، لا لأن الجواب غائب، ولكن لأنه تفكر قليلا فيما تنوء به حياته من ألوان الكذب، ثم قال:

ـ نكذب، ولكن فى أمور أجل!

ـ عسى أن يكون تافها عندنا ما هو جليل عندكم، ولكن هل تعد العمر والفخر بالجاه والسؤدد أمورا تافهة؟

ـ كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها!.. فأين أنتن من كذب التجار والساسة ورجال الدين؟!.. كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التى تشاهدين آثارها فى معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد، بل هو محور هذه الحرب الهائلة التى رمت بنا إلى هذا الحى الغريب.

وعلم أنها لم تفهم من قوله إلا أقله، فسر لذلك سرورا مضاعفا، ثم ذكر أمرا فسألها:

ـ ألم تزرك زوجة من حريم المعلم نونو؟

ـ ملعون أبو الدنيا؟!.. لقد حدثنى بسيرته طويلا، ولكن الرجل يحرم على أزواجه الخروج أو النظر من النوافذ، وربما انقضى العام فى إثر العام وهن قابعات فى دارهن راضيات قانعات!

ـ حقيق بمن يتغنى بلعن الدنيا ألا يأمن إليها!

ـ والله يا بنى المرأة مظلومة كالدنيا، ولكن ما علينا من هذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عتة؟

ـ المفتــش؟

ـ تدعوه توحيدة هانم بالقرد!

ولعل قولها هذا أول صدق تقع فيه!

ـ وقالت عنه ضاحكة إنه يفكر فى الزواج!

ـ وأية فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلا؟

ـ كثيرات لا حصر لهن، فالمال نصف الجمال على الأقل، فالفتاة هى التى تتصيده وتجد فى طلبه حتى لا يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين.

فسألها ضاحكا:

ـ وهل ينتهى الرجل عند هذه السن؟

ـ لا قدر الله، ولكنها لا تستحق فى معاشه إذا تزوجت منه بعدها.

ـ فهى ترغب فى الزواج منه وتراهن على موته!.. فمن عسى أن تكون هذه العروس الحكيمة؟

ـ قالت الست توحيدة هانم إنها كريمة يوسف بهلة العطار، وإنها الجمال عينه، فقد جمعت الحسن من طرفيه: الطبيعى والصناعى!

فتمثل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز، وعجب كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من إقبال الحسان!.. ألم تنبذ يده امرأة ـ ليست بحال الجمال عينه ـ قائلة: إن عمره كبير؟!.. وأراد أن يتخيل صورة كريمة العطار، فذكر فجأة وهو لا يدرى السمراء الحسناء ذات العينين النجلاوين التى التقى بها فى الردهة الخارجية!.. فانقبض صدره وسأل أمه:

ـ هل يقيم العطار فى عمارتنا؟

فقــالت:

ـ كلا بل يسكن فى بيت القاضى!

فتنهد ارتياحا! ثم تساءل ترى لأى أسرة تنتمى الفتاة؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من شفتيه!.. فقد ذكر فى تلك اللحظة عينى الغلام محمد، وذكر أين رآهما أول مرة فى وجه السمراء الحسناء فى الردهة الخارجية!.. وهذا ما حاول تذكره فعز عليه ساعتئذ وأضناه!.. فالغلام شقيق الفتاة بغير شك، وخفق فؤاده، ولكنه شعر بارتياح عميق وسرور لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله!.. وكان سروره باكتشافه من

القوة بحيث لم يعد يلقى بالا إلى حديث أمه! . . فما زالت تتكلم وما زال يتيه فى أحلامه.

٨

وعندما أتى المساء مضى إلى الزهرة، ولم يمض دون تردد، فإن ارتياد المقاهى حدث جديد عليه لم يتعوده ولم يألفه، وكان حرصه على عزلته الثقافية يعادل تباهيه بها، فلولا ما يدعوه إلى هناك من مصاولة أحمد راشد والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزلته أمرا ميسورا. ولم يلتق فى الزهرة بأحمد راشد؛ وسأل عنه فقيل له إنه كثيرا ما يمنعه العمل عن الحضور إلى القهوة. على أن الجلسة لم تصر - رغم ذلك - فاترة، وأحياها المعلم نونو والمعلم زفتة «القهوجى» بظرفهما الجميل. وتكلم أحمد عاكف كثيرا وضحك طويلا، وقد أخذ يستهويه الاجتماع بالناس أو بالظرفاء من الناس خاصة. ويجد فى الأنس بهم ما يجد التَّعب المنهوك أسلم جنبه للرقاد. وعاد إلى البيت فى العاشرة، فعكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطياف الحياة الجديدة تتراقص أمام عينيه بين السطور - وما عهد قط الاستغراق فى القراءة - ثم نهض إلى فراشه وراح فى النوم. ولم يدر أطال به النوم أم قصر، ولكنه استيقظ على صوت منكر لم يتنبه إلى حقيقته فى الثانية الأولى من استيقاظه، ثم أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة، وقفز إلى أرض الحجرة بسرعة جنونية، وتحسس شبشبه بقدميه فوضعهما فيه ثم اندفع إلى الصالة الخارجية فالتقى بشبحى والديه تتقدمهما الخادم الصغيرة، وسأله أبوه بصوت متهدج:

- هل تعرف الطريق إلى المخبأ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة:

- أنا أعرفه يا سيدى.

وسبقت الأسرة إلى الباب فى ظلمة حالكة، وخرجوا جميعا إلى الردهة الخارجية متحسسين الحائط إلى السلم الحلزونى، وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التى شملت الدور جميعا، ومزق السكون صفقات الأبواب وهى تغلق، ووقع أقدام المهرولين على السلم، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية. وهبطت القافلة مهتدية إلى الدرابزين تخوض بحار الظلمات، ويسوقها الخوف والفزع، وفى الطريق أرشدتهم أشباح السكان وأصواتهم إلى الطريق فلم يحتاجوا إلى الاستدلال بخادمهم، وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كداخل البيوت مظلمة، أما الأُخَر فيخفف شعاع النجوم الشاحب

من شدة ظلمتها . وعاد بهم الخوف إلى ذكريات تلك الليلة الجهنمية فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلبون وجوههم فى السماء كلما لاحت لهم . ثم بلغوا مدخل المخبأ فى تيار من القوم غير منقطع ، وهبطوا مع سلمه فى باطن الأرض حتى وجدوا أنفسهم فى مكان متسع بهر أعينهم - المخدرة بالظلام - بمصابيحه الكهربائية القوية ، وكان سقفه وجدرانه تترك فى نفس المشاهد أثرا عميقا بصلابتها وشدة مراسها ، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة ، وبعثرت فى وسطه كثبان من الرمل . ومضت الأسرة إلى أحد الأركان واتخذت مجالسها وتفرق القاعدون إلى الأركان والمقاعد ، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ ممن ضاقت عنهم المقاعد . وشاع الخوف أول الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران فى تلطيف حدته ، ومضت فترة انتظار مؤلمة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور ، ونظر أبوه فى ساعته ثم غمغم قائلا :

- الساعة الثانية صباحا ! . . نفس ميعاد الليلة الفظيعة !

وكان أحمد يعانى ما يعانيه أبوه وأكثر ، ولكنه قال بلهجة هادئة ما استطاع :

- كان الضرب خطأ فلن يتكرر إن شاء الله !

ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق ، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرب إلى الجوانب الخافقة ، وشاع الهمس والكلام ، وعلا ضحك كثير ، ثم طمأن القوم بعضهم بعضا ، ونظر أحمد فى الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استبقوا إلى الحديث فى جلبة ، قال رجل منهم :

- لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين .

فقال له الآخر :

- قل إن شاء الله !

- كل شىء بمشيئة الله .

- وهتلر ينطوى على احترام عميق للبقاع الإسلامية !

- بل يقال إنه يبطن الإيمان بالإسلام !

- ليس هذا عليه ببعيد ، ألم يقل الشيخ لبيب التقى النقى إنه رأى فيما يرى النائم على بن أبى طالب رضى الله عنه يقلده سيف الإسلام ؟ !

- فكيف ضربت القاهرة فى منتصف هذا الشهر ؟

- ضربت السكاكينى وهو حى غالبية سكانه من اليهود !

- ترى ماذا ينتظر الأمم الإسلامية على يديه ؟

- سوف يعيد - بعد فروغه من الحرب - إلى الإسلام مجده الأول ، وينشىء من الأمم الإسلامية اتحادا كبيرا ، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهود الصداقة والتحالف !

ـ لذلك يؤيده الله فى حروبه!

ـ وما كان لينصره لولا جميل طويته، وإنما لكل امرىء ما نوى!

استمع الكهل إلى المتحاورين بلذة وإنكار، وكانت غالبيتهم من أهل البلد ولكنه لم يكن يتصور أن تبلغ بهم سذاجة التفكير هذا الحد من الأوهام! . . أو أن تؤثر فيهم الدعاية ـ إن كان هناك دعاية ـ هذا التأثير المضحك، ولكنه لم ينكر على حوارهم لذته وفكاهته غير المقصودة، وما كان ليحرم نفسه من متعته لولا أن وقع بصره اتفاقا على غريمه الأستاذ أحمد راشد متمشيا على كثب منه، فنهض إليه فورا فتصافحا ثم قال له عاكف:

ـ لم نرك اليوم.

فقال الشاب ذو المنظار الأسود:

ـ شغلت بدراسة قضية!

واستثار القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامى يقول ملقيا نظرة شاملة على ما حوله:

ـ رأيت جميع الإخوان هنا معنا إلا المعلم نونو طبعا!

فابتسم عاكف قائلا:

ـ أعجب به من رجل غريب الأطوار!

ـ يتلخص فى الكلمات الآتية «ملعون أبو الدنيا».

ـ هذا شعاره أو قل إنه نشيده.

ـ ما كان أجدره أن يعيى الموت لولا قضاء الهرم.

ـ هـو الإيمـان!

ـ إنه يشعر بالله شعورا عميقا، ويحسبه فى كل مكان يحله ويتوكل عليه بكل قلبه، ويطمئن كل الاطمئنان إلى أنه لن يتخلى عنه، وتراه يلم بالمعصية دون أدنى شك فى غفرانه ورحمته.

فتنهد عاكف وقال:

ـ هذا رجل سعيد كما علمت!

فهز الشاب رأسه بما يشبه الاحتقار وقال:

ـ سعادة عجماوات، سعادة الجهل والإيمان الأعمى، السعادة التى يعيش الطغاة بفضل تملكها رقاب البلهاء، ومن المضحك أن تجد هذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء؟! . . فتش عن السعادة الحقة على ضوء العلم والعرفان، فإذا وجدت مكانها قلقا وسخطا وشقاء فتلك آيات الحياة الإنسانية الفاضلة الحقيقية

بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوهامها، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقة، إن سعادة نونو لا تفضل شقاءنا ـ نحن دعاة العلم والإصلاح ـ إلا كما يمكن أن يفضل الموت براحته المزعومة نعمة الحياة بمتاعبها وكفاحها!

ولم يجد عاكف من نفسه لتوتر أعصابه بجو المخبأ قوة يتوثب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسما:

ـ ألا ترى أنه ينعم الآن بفضل سعادته العمياء برقاد لذيذ بينما نشقى نحن جميعا برطوبة الليل؟

فضحك الشاب وكان أملك لجنانه من الآخر وقال:

ـ لا شك أنه ينعم الآن برقاد لذيذ لا شريك له فيه إلا معشوقة الأزواج!

فبدا على وجه عاكف ما يشهد له بأنه لم يفهم شيئا، فابتسم المحامى واستدرك قائلا:

ـ ألم تسمع عنها بعد؟! . . إنها امرأة هائلة، وظيفتها الرسمية «زوج عباس شفة»، أما تذكره؟ . . أما بيتها فيستقبل كل مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحى، فسماها المعلم زفتة القهوجى «معشوقة الأزواج»! . . فلاح فى وجه عاكف الاهتمام الذى يثيره هذا الحديث، وتساءل:

ـ أتعــنى . . ؟!

ـ نعـــم.

ـ وعباس شفة؟!

ـ زوج رسمى، زوج وجد فى الزوجية مهنة ومرتزقا!

ـ ألذلك تحتفون به على حقارته وقبحه؟

ـ إنه عزيز ذو مقام عظيم!!

وتمثل عاكف وجه الرجل الدنىء وشعره المنفوش باحتقار شديد، وتحرك فى تلك اللحظة الشاب فتحرك معه، يسيران فى بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين، حتى رأيا سيد عارف جالسا إلى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلا، فغمغم الشاب:

ـ صاحبنا سيد عارف وحرمه!

فسأله عاكف باهتمام واستحياء:

ـ وحرمه؟! . . وكيف تزوج؟!

ـ كما يتزوج الناس. وهو رجل عادى لولا حالة طارئة غير ميئوس منها، ورجاؤه كبير فى الأقراص الألمانية، ولن . .

ولم يتم أحمد راشد كلامه فقد قطعه دوى طلقة شديدة، تابعتها طلقات متقاربة، وارتجف عاكف وخال أن جسمه كله ارتجف فخاف أن يكون غريمه قد اطلع على رجفته. وساد سكون عميق وحارت فى العيون نظرة قلق وخوف، وقال أناس: «هذه طلقات مدافع مضادة». يطمئنون أنفسهم ويطمئنون الآخرين، ولكن الكلام - أيا كانت مقاصده - أحدث فى النفوس القلقة المنصتة جزعا وحنقا، وجاء رجل من الخارج مهرولا وقال وهو يلهث: «السماء ملأى بالأنوار الكاشفة؟»، فاشتد الخوف بالأفئدة، ثم سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرة أخرى، وطالت فترة السكون وامتدت فعادت الطمأنينة إلى النفوس، وتعالى الهمس ثم ضج المكان بالكلام:

- لن تعاد مأساة الضرب الأعمى.

- لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر!

- كانت غارة إيطالية فالألمان لا يخطئون!

فابتسم أحمد راشد - استطاع أن يبتسم ثانية - وقال لصاحبه:

- أرأيت إلى هؤلاء المتعصبين للألمان؟!.. وأنت؟!.. هل أنت كهؤلاء؟

وكان عاكف يتلذذ - كعادته - بمشاركة المغلوبين عواطفهم، ولما كانت الغلبة للألمان فى ذاك الوقت فقد قال بغير تردد:

- كلا.. إنى مع الحلفاء قلبا وقالبا، وأنت؟!

فسوى المنظار الأسود على عينيه وقال:

- لى أمل واحد: أن ينتصر الروس ويحرروا الدنيا من الأغلال والأوهام!

وابتعد قليلا عن جماعة المتحدثين فرأيا فى نهاية الجناح الآخر من المخبأ على يمين الداخل - صاحبهما كمال خليل وأسرته!.. ورمى عاكف نحوه بناظريه باهتمام شديد فرأى سيدة مفرطة فى السمن، والغلام محمد فى بيجامة، والفتاة السمراء ذات العينين النجلاوين الساذجتين، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه فى غير موضعه، وجاءت الحقيقة مطابقة لما سر باكتشافه منذ ساعات معدودات، ولم يسعه إدامة النظر فرد الطرف متمليا ممتلئا، ثم سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت:

- كمال خليل وأسرته!

فسـألـه:

- أهذه الفتاة كريمته؟

- نعم.. له محمد ونوال وفتاة كبرى متزوجة!

واختلس منها نظرات ليملأ عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفة. وكانت ملتفة فى معطف شتوى وقد أرسلت شعرها الأسود فى ضفيرة غليظة، ومضت تتثاءب مرسلة

نظرة ناعسة، ورآهما كمال خليل فأقبل نحوهما مبتسما ووقفوا معا يتحدثون، وأدرك عاكف أن إقبال الرجل عليهم لابد ملفت أعين أسرته إليهم وأنه لا يبعد أن تتفحصه العينان النجلاوان - إن لم تكونا تفحصتاه بالفعل - فى جلبابه الفضفاض، وطاقيته البيضاء، فتورد وجهه حياء وقلقا وتساءل ترى هل تذكره؟ . . ولم يطل المطال بوقوفهم معا فانطلقت صفارة الأمان ودبت فى المخبأ حركة عامة شاملة، فحيا عاكف صاحبيه ومضى إلى والديه، وانتهره أبوه قائلا بحدة:

- أتتخلى عنا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند الأمان؟

فقالت أمه ضاحكة:

- الله معنا فى جميع الأوقات!

واندسوا فى التيار المتجه نحو الباب يسيرون فى بطء شديد حتى ارتقوا السلم إلى الطريق، وعادوا إلى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث إليها من نور النوافذ، وصعدوا إلى شقتهم فى جمع من السكان عرف أحمد صوت كمال خليل بين أصواتهم. وسارع الرجل إلى فراشه يراود النوم كرة أخرى، ولكن فرقت بينهما طويلا صورة ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة.

٩

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل. ولكن رمضان لا يأتى على غرة أبدا، وتسبقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك - وكانت فى الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله - فجعلت منه يوما حديث الأسرة قائلة: إنه شهر له حقوقه كما له واجباته. وكان قولها موجها لأحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعا عن نفسه:

- رمضان له حقوقه ما فى ذلك من شك ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق!

فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح:

- لا قطع الله لنا من عادة!

فاستيقظ بخله وقال بشىء من الحدة:

- ليمض رمضان كما مضى غيره من الشهور، وسنعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم!

ـ والنقل والكنافة والقطائف؟!

ووقعت هذه الأشياء من نفسه موقعا ساحرا ـ على استيائه ـ لا لاشتهائها فحسب، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصة، بيد أن الذكريات الحنونة لم تغن عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلطف من حدة حرصه، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان فى قلبه:

ـ لندع الكماليات فى ظروفنا الحاضرة القاسية ولندع الله الكريم أن يعيننا على ضرورات الحياة.

وأصغى الوالد باهتمام إلى أقوال ابنه وإن تظاهر بعدم الاكتراث، ومال إلى تأييد الأم فيما تقول ولكن شجاعته لم تواته، فلما صاغ الابن رأيه فى تلك اللهجة الحازمة، قال الوالد بصوت هادئ:

ـ ولا تغلل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط.

وأدرك أحمد أن أباه من حزب أمه، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحته فى مخاطبة أمه، لتعوده مهابته منذ نعومة أظافره، وأشفق ـ كما أشفق دائما ـ من أن يعرض عن يده إذا امتدت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه، فسكت مرتبكا متحيرا حتى قال عاكف أفندى أحمد الأب:

ـ حسبنا قليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما فى الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق، ولنقنع من الكنافة بمرة واحدة، ومن القطائف ـ وهذه لا تقلى فى السمن ـ بمرتين، وليس هذا عليك بكثير.

فهاله الأمر، وأيقن أنه سينفق فى هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر من النقود القلائل، ربما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير، الأمر الذى ينغص عليه صفوه، ثم ذكر شيئا آخر لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال:

ـ واللحوم؟!

فقالت أمه بما لها عليه من دالة:

ـ سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلا لأن قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك!

فقال أحمد معترضا:

ـ ولكن ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتياع رطل لحم كل يوم مع الحاجيات الأخرى!

فقال الوالد مستعينا بقليل من الدهاء:

ـ صدقت والأفضل أن نمتنع عن اللحوم مرة كل ثلاثة أيام!

وانشغلت الأم فى الأيام الباقية بتهيئة المطبخ، وتبييض الأوانى وتخزين ما تيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل. وكان لمقدم رمضان فى نفسها فرحة وسرور، ولو أنها لم تؤد فريضة الصيام إلا منذ سنوات قلائل، إذ إنه شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام - أو لأنه شهر الصيام - وأجمل من هذا أنه شهر الليالى الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تدار الأحاديث على قزقزة اللب والجوز والفستق. ومن حسن الحظ أن رمضان وافق ذلك العام شهر أكتوبر، وهو شهر معتدل، وغالبا ما يصفو جوه ويطيب فيلذ فيه السهر حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشى أضاءت مئذنة الحسين إيذانا بشهود الرؤية - وقد اجتزأوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لظروف الطوارئ - وازينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألاء، فطاف بالحى وما حوله جماعات مهللة هاتفة «صيام صيام كما أمر قاضى الإسلام». فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور فى الحى كأنما حمله الهواء السارى، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول:

- أين من رمضان شارع قمر هذا الرمضان البهيج؟!

فابتسم الوالد وقال:

- وماذا رأيت مما رأيت يا غلام؟!.. أشهدت رمضان فى حينا الجديد هنا قبل اندلاع الحرب؟.. إنه النور والسرور، إنه الليل المنار اليقظان، إنه الليل العامر بالسمار والمنشدين واللهو البرىء، وفى أيام الفتوة والصحة كنت أسرى قبل السحور فى جمع من الإخوان من السكاكينى إلى حينا هذا نتسحر كوارع ولحم الرأس وندخن البورى فى مقهى الحسين ونستمع إلى أذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصباح الباكر.

فسأله أحمد:

- متى كان ذلك؟

فقال الرجل بلا جهد:

- وأنت فى العاشرة!

آه.. تلك الأيام العذاب، أيام السرور والمرح والتدليل، لقد اتفق له ولوالده عهد واحد يبكيانه معا. ومضى أحمد ذاك المساء - كعادته الجديدة - إلى مقهى الزهرة. وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التى استأثرت بنصف الوقت المخصص للمطالعة، ووجد فى المعاشرة لذة ليست دون لذة القراءة والعزلة.

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه، ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها. فقال عباس شفة ـ زوج معشوقة الأزواج ـ بصوته المبحوح:

ـ لا تتعبوا أنفسكم فى التفكير فلنا فى سهرات رمضان الماضية أسوة: نحن نجىء إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحور.

وتنبه أحمد إلى «هناك» هذه وتساءل ترى هل يستبيحون المنكر فى شهر التوبة؟!.. على أن سبيله كان واضحا فسيلبث بينهم ما لبثوا فى المقهى ثم يعود إلى بيته فيطالع حتى السحور وهكذا حتى يختم الشهر.

١٠

وفى اليوم الأول من الصيام كابد أحمد عاكف تعبا مرهقا، فشق عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق، ومضى إلى الوزارة متوجع الرأس متثائبا، وغالب تعبه مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه. وذكر أن أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبا ولا حرمانا فسره أن يحتقره ويتعالى عليه. وعاد إلى البيت ظهرا وقد نهكه التعب، فاستلقى على فراشه وراح فى نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة. وذهب إلى الحمام فرطب وجهه وأطرافه، وفى طريق عودته رأى والده فى حجرته متربعا على سجادة الصلاة يقرأ فى الكتاب، فمر به ساكنا، وعطف رأسه إلى المطبخ فرأى أمه مشمرة عن ساعديها، ودعاه المطبخ إلى الوقوف بعض الوقت عند عتبته، فأجال بصره فيه متشمما فطاف بطبق كبير حفل بمواد السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم، خضرة يانعة وحمرة فاقعة، فانشرح صدره وتحلب ريقه، وانتقل إلى سلطانية الفول فلم يستطع صبرا وزايل مكانه. وفى الصالة مر بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل، فهرع إلى حجرته وأغلق الباب. وكان أبقى الأهرام بغير قراءة ليتسلى بمطالعته فى الساعة الأخيرة المعروفة بشدتها وثقلها فأكب عليه حتى فرغ منه، ونظر فى الساعة فعلم أنه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى!.. وتجهم وجهه، ثم لم ير بدا من فتح النافذة المشرفة على العمارات ليقطع الوقت بالنظر، ورأى المعلم نونو يغلق دكانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدون الطريق سدا. ثم مضى يحفون به ويتعلق الصغار بساقيه ويصيحون جميعا فى جلبة تحسده عليها محطة الإذاعة. وقد أوشك الطريق أن

يخلو إلا من باعة الزبادى، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلص عن أسوار العمارات التى تواجهه من وراء مربع الحوانيت العظيم، والنوافذ المفتوحة تعلن عن السفر الحافلة، وعلى الشرفات انتصبت القلل وانتشرت أطباق الخشاف المكللة بغلالات بيض، وأتى الهواء بروائح التقلية ونشيش المقليات فتاه فى دنيا الطعام الساحرة. . ثم تحول عن هذه النافذة إلى النافذة الأخرى المطلة من جنب على خان الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها، ورمى بطرفه إلى الحى القديم فوجده صامتا ساكنا تلوح قبابه المعزية كأنها تسجد تحية للشمس المولية، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الأيسر بنوافذ مغلقة، ولكنه سمع حركة خفيفة هفت من عل، فرفع بصره فرأى شرفة الجيران ـ التى تواجه نافذته ولكن فى الطابق الأعلى من العمارة ـ ورأى فى الشرفة فتاة مكبة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهى جالسة على كرسى ملتفة الساقين، وعرفها من أول نظرة ـ حتى قبل أن ترفع إليه عينيها ـ فاهتز صدره، فما كان يحسب أن شقة كمال خليل فى هذا الجناح الذى يواجهه، ولا أن فتاته دانية إلى هذا الحد، فشعر بارتياح وسرور. ورفعت الفتاة عينيها إليه ثم ردتهما بسرعة إلى إبرتها فنظر فى العينين العسليتين النجلاوين لثالث مرة، وفى تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولاه الحياء فتورد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يتخلص من موقفه. ونكس رأسه الأصلع وهو يود لو يختفى من النافذة ريثما يأخذ أنفاسه، ترى هل عادت إلى النظر إليه؟. . هل ترنو الآن إلى صلعته؟. . وشعر بأن موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة تحت أشعة الشمس المتجمعة فى بؤرة. ومضى وقت طويل أو قصير حتى تنبه على طقطقة الكرسى فرفع رأسه فرآها قد نهضت لتذهب إلى الداخل، وخال أنه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهى تتحول لتدخل. وعاد إلى النافذة الأخرى متسائلا ما معنى هذه الابتسامة؟. . لماذا ابتسمت الصبية؟. . هل تسخر من صلعته؟. . أو تضحك من نظرته الوجلة الخجول؟. . أم تعجب لما حسبته غزل كهل فى سن أبيها؟. . إى والله فى سن أبيها؟. . فلو تيسر له الزواج فى إبانه لأنجب فتاة فى مثل سنها، ولما أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة فى أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء، ولكن قضى أن يفقد جنانه لدى أى صبية، وأن تستثير جوعه وحياءه أبرأ النظرات!. . وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفتاه عن أسنان صفر!. . ودوى المدفع، وتصايح الأطفال فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير فى الجوع أو العطش، وهتف المؤذن بصوته الجميل «الله أكبر. . الله أكبر»، فأجاب أحمد بصوت مسموع «لا إله إلا الله». ثم تحول عن النافذة ذاهبا إلى الصالة. والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة، ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتى رووا ظمأهم، وأتت الأم بطبق

الفول المدمس فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء:

ـ أظن الأوفق أن تؤخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلا امتلأنا به وحده.

فقالت الأم ضاحكة:

ـ هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره إلا عقب الفراغ من الفول؟

ولكن لم يزل فى البطون متسع فجىء باللوبيا والفلفل المحشو واللحم المحمر وتعاونت الأيدى والأعين والأسنان فى عزم وسكون. ولم يكن الطعام الشىء الوحيد الذى يلذ أحمد، فهناك خواطر سارة زحمت رأسه الصغير الأصلع، حدت من شهوة الطعام نفسها، من هذه الخواطر: أن الفتاة جارته، وأن شقتها تشرف على شقته، فاللقاء منتظر، والتقاء العينين مرتقب، والتفاعل محتمل، والانفعال مؤكد. ومن يدرى بعد ذلك ماذا يحدث؟.. سيرمى بالقلب فى بحر لجى يعلو به أمل ويسفل به قنوط، ويذهب به رجاء ويجىء به يأس، ويخيفه أفق مظلم ويطمئنه شاطئ آمن، فما يدرى أين المستقر ولا أيان المنتهى، وحسبه من السرور يقظة دبت فى قلب موات، وليقظة القلوب فرحة وإن أدى الإنسان ثمنها من دمه وراحة باله، وهل ينكر أن قلبه جمد من البرد وبرم بالنوم وضاق بالراحة؟.. فها هى ذى يقظة تدب، وتبشر الشرفة بدوامها، ما عقباها؟.. ما غايتها؟.. لا يبالى فى سروره الراهن ما ينطوى عليه غده، فليشرق الأفق أو فليغرب، وليبتسم الحظ أو فليتجهم، فبحسبه أن قلبه صحا، وأنه منذ أيام ينتفض فى اضطراب، ويضطرب فى سرور، ويسر فى حيرة، ويتحير فى رجاء، ويرجو فى خوف، ويخاف فى لذة. هذه هى الحياة، والحياة أجمل من الموت، مهما كابد الحى من تعب ووجد الميت من راحة.

١١

وغادر البيت قبل العشاء إلى «الزهرة» فاجتمع بالصحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاى ودار الحديث حول الصيام، وكيف أن كثيرين ـ من أهل القاهرة خاصة ـ لا يؤدون فريضته لأوهى الأسباب.

وشهر سيد عارف بالمعلم زفتة وعباس شفة فقال ضاحكا:

ـ قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب، أما «الكيف» فأمر يهون دونه الدين!

فقال عباس شفة متهكما :

ـ ألا تفضل أن تصير «رجلا» مثلنا ، ولو قارفت المعاصى؟!

فاصطنع سيد عارف لهجته قائلا :

ـ دائى له دواء أما داؤك يا سيد الأزواج فلا دواء له؟!

فهز عباس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو يتورد وجهه :

ـ لا تعيرنى ولا أعيرك!

ـ بل نحتكم إلى المعلم نونو . . يا معلم نونو أيهما تفضل أن تكون : عباس شفة أم سيد عارف؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال :

ـ لا خيرت بين أن أكون أحدكما قط!

فقال سيد عارف بإيمان :

ـ سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، وغدا ترد الأقراص كيد الحاسدين إلى نحرهم!

فضحك عباس شفة ضحكة داعرة وقال :

ـ وقتذاك نهنئ أنفسنا؟!

ونهاهم سليمان عتة عن الإلمام بمثل ذاك الهذر علانية فى شهر رمضان ، ولم يكن صادقا فى نهيه لهم ولا غاضبا حقا للشهر الكريم ، ولكن «قافية» الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل ، فيئس من أن يأتى قائل بجديد . ثم راح كمال خليل يحدث عن ليالى رمضان منذ أقل من ربع قرن ، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينية المؤثلة ، وكيف كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين ، وتستقرئ مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر ، وقال إن بيتهم القديم ـ بيت أبيه ـ كان ضمن تلك البيوت العامرة ، وتساءل أحمد عاكف : ترى هل يصدق الرجل فيما يقول أم يقتص أثر زوجه اللحيمة؟! . . وتسامروا ساعة طويلة حتى تعبت ألسنتهم فأمسكوا عن السمر وأخذوا فى اللعب . ووجد أحمد عاكف نفسه منفردا بالمحامى الشاب ، فأدرك أن جاءت نوبة النضال والتحدى ، ولحظه بطرف لم يعلن عما يضطرم فى باطنه من الموجدة والمقت . وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة مر بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالمصابيح هاتفين بأناشيد رمضان سائلين «العادة» من النكل والملاليم ، فأتبعهم المحامى ناظريه حتى اختفوا ، وابتعدت أصواتهم الرفيعة ، ثم التفت إلى صاحبه قائلا بلهجة مرة :

ـ نحن شعب من الشحاذين .

فأدار أحمد عاكف رأسه إليه كالمبتسم ، وقد بات يوجس خيفة من الاشتباك معه فى

الحديث، وإن تظاهر بالاستهانة، وتوثب للانقضاض والتحدى. واستطرد أحمد راشد قائلا بنفس اللهجة:

- شعب من الشحاذين وحفنة من أصحاب الملايين. فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحاذة، والعمل الوضيع لا يغنى عن الشحاذة!

فهز أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدثه نظرة لا معنى لها ولاذ بالصمت والصمت فى مثل حاله مأمون العواقب. فهو يغنيه عن خوض ما ليس له به علم، ويهيىء له جوا آمنا لاهتبال الفرص السانحة. أما صاحبه فاستدرك يقول:

- ليس يوجد شر من نظام يقضى على أناس بالانحدار إلى مستوى الحيوان الأعجم.

ولست أدرى كيف تطيب الحياة ليقوم عقلاء وهم يعلمون أن غالبية قومهم جياع لا يدخل بطونهم ما يقيم أودهم، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدواب، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة. ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلا؟.. فإن للحيوان على سادة الريف حقا فى الغذاء والمأوى والصحة لا مراء فيه، ولم يقر بمثله للفلاح!

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة، وكبر عليه أن يستمر الشاب فى محاضرته وأن يقنع هو بالإنصات كالتلاميذ فقال:

- إذا كان للفلاح حق فلماذا لا يطالب به؟

فقال المحامى بحدة:

- الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانية، فلا يمكن أن يطالب بشىء، ولكن خليق بكل إنسان أهل لشرف الإنسانية أن يمد يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط، وقديما حارب الرق الأحرار لا العبيد!

وتنازعت الكهل عواطف جاءت متناقضة. فجانب من نفسه ارتاح لما يقول الشاب، فلو اعتدل ميزان العدالة فى هذا الوطن ما عاقه عن إتمام تعليمه عائق، ولبلغ ما يشتهى من الشرف فى الحياة. واحتقر جانب آخر اهتمامه الحماسى بالمشكلات الاجتماعية، ورأى أنها دون ما ينبغى أن يفكر فيه «المثقف» من أمور العقل كالمنطق والتصوف والأدب!.. ثم ذكر عنف الشاب فى حديثه وثقته برأيه فثارت كبرياؤه، وغلبته على أمره، فقال بحدة:

- لو أن الفلاح يستحق أكثر مما هو متاح له لناله، والحق لمن يقدر عليه، وما عدا ذلك فهراء فى هراء!

وثبت الشاب نظارته على عينيه بحركة عصبية، وقال بلهجة غريبة:

- أأنت من أتباع نيتشة يا أستاذ؟!

رباه ومن نيتشة هذا؟ . . ألا يمكن أن يوجد رأى ـ ولو كان من وحى الغضب والحنق ـ من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كل الجهل؟ . . وكيف يجيب الشيطان البغيض؟! . . هداه عقله إلى سبيل واحد رأى أنه يخلصه من الفخاخ التى ينصبها له عدوه، فقال وقد غير لهجته، وخفف من شدته:

ـ إنك يا أستاذ راشد تدفعنى إلى أحاديث ليست بذى بال!

ـ حياتك ليست بذى بال؟!

ـ دع الفلاح إلى نفسه أو إلى من يعنيه أمره. ألم تقرأ شيئا عن أرسطو؟ . . ألم تلم بفلسفة أخوان الصفا الدينية؟ . . ألم تثقف شتى المعارف الروحية؟!

فلاح الانزعاج فى وجه الشاب وقال:

ـ إن مثلنا مثل ربان السفينة تمخر عباب مضيق ثائر تهب عليه ريح زعزع عاصفة، فيفور زخاره ويصطخب ركامه، فتعلو السفينة وتسفل وتميل ذات اليمين وذات الشمال، مضطربة البنيان مزلزلة الأركان، فهل يجوز للربان ـ وتلك حال السفينة ـ أن يولى آلة القيادة ظهره ليرمى بطرفه إلى الأفق متأملا ومنشدا؟! . . نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كل جانب. فلنأخذ من الآلام ذخيرة لتأملاتنا. حقا إن للأبراج العاجية لذاتها، ولكن ينبغى أن نقاوم أنانيتنا إلى حين.

ـ فأنت فى سبيل أن تنقذ البائسين من وهدة الحيوانية تضحى بإنسانية المثقفين وتقتل أرواحهم!

ـ قلت إلى حين. . ألم تر إلى فترة الحرب وكيف تحول العلماء ـ وهم أشرف الخلق ـ إلى نوع من المجرمين!

ـ ومع ذلك فلك نصيبك من التأملات البعيدة كالفلك والذرة!

فضحك أحمد راشد ـ لأول مرة ـ بصوت مرتفع فلفت إليه جماعة اللاعبين وجعل المعلم نونو يقول له:

ـ إن ضحكتم فأعلمونا!

فسكت المتحاوران حتى شغل عنهم اللاعبون ثم قال المحامى:

ـ لا غنى عن التسلح بالعلم للمكافح الحق، لا للاستغراق فى تأملاته ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترهات، فكما أنقذنا الديانات من الوثنية ينبغى أن ينقذنا العلم من الديانات؟!

وهنا احتد سليمان بك عتة كعادته إذا خسر «عشرة» واشتبك معه سيد عارف فى مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثبين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الأول.

وعند منتصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلم نونو وهو يقول :

ـ سأذهب إلى البيت لأحضر معطفى لأن الجو تشتد برودته عند الفجر .

ومضيا معا . وفى الطريق سأل المعلم صاحبه :

ـ لماذا لا تمد السهرة حتى السحور؟

فقال الكهل بلهجة فاترة :

ـ إنى أمضى الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور فى القـراءة!

ـ أتقرأ كتبا؟!

ـ أجل . وما يقرأ غير الكتب؟!

ـ وفيم هذا التعب؟

فابتسم أحمد عاكف وقال :

ـ هواية يا معلم نونو!

ـ ولكن الهـواية ينبغى أن تكون ذات فـائدة مـا : فهل تطيل الكتب العمـر؟! . . تدفع المرض؟! . . تمنع المقدور؟! . . تجنب الشقاء؟! . . تملأ الجيب؟!

فقال أحمد وما زال يبتسم وقد عاوده شعور الاستعلاء والسرور :

ـ بل أريد أن أكتب كتابا أيضا!

ـ هذا أنكى وأمر ، هل أنت صحفى؟

ـ هبنى أجبت بالإيجاب؟

ـ مستحيل .

ـ ولمـه؟

ـ أنت ابن ناس طيبين!

فضحك أحمد ضحكة قذفت بحنق الليل خارج صدره وقال :

ـ ولكنى سأكتب كتابا .

ـ الكتب فى الدنيـا أكـثـر من بنى آدم . ألم تر إلى مكتـبـة الحلبى تحت الكلوب المصرى؟! . . فيـها كتب ـ يا دين مـحـمد ـ لو صفَّت جنبا إلى جنب لكاثرت طلبة الأزهر ، فهل تبذل ما تبذل من جهد لتضيف إليها كتابا جديدا؟!

ـ نعم . . نعم . . فلكل كتاب فائدته .

ـ إليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدا .

- ما عسى أن تكون؟
- أما تعرفها؟ . . حزر .
- لا علم لى يا معلم .
- يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان .
- فما اسمها؟
- فى الأصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب .
- عجبـــا .
- واردها إما فى الليمان أو على كرسى السلطان !
- ليس فى الدنيا شىء كهذا .
- يهواها الفقير والوزير .
- لحـــد هـــذا؟ !
- عزاء الحزنان وشرب الفرحان !
- ما أشوقنى إلى معرفتها !
- قد النبقة وتنفع فى كل زنقة .
- هـــذا ســحر !
- أحضروها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل !
- هل تجدّ فيما تقول؟
- ألم تسمع عن الحشيش؟ !

وارتاع الكهل لوقع الكلمة ، فضحك المعلم وقال يغويه :

- تعال طاوعنى ، الحياة ملأى بما هو ألذ من الكتب .

وأغراه حب الاستطلاع بأن يسأله :

- أيــن؟
- المكان تحت أمرك إذا وافقت وشرفتنا .
- ألا تخاف الشرطة؟
- أعرف كيف أتقى شرها ! . . فماذا قلت؟

فابتسم أحمد وقال له :

- لا شأن لى بهذه الهواية الساحرة . . شكرا لك يا معلم .

* * *

ولما خلا إلى نفسه فى حجرته تناسى حديث نونو وظرفه، ولاحت لعينيه صورة أحمد راشد بكآبتها وحماسها وعنف حركاتها، فاستثارت حنقه وغروره ومقته، وتساءل محزونا كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة؟ . . وكيف يستكمل ما فاته منها؟! . . ومتى يحاضر فى فرويد وماركس كما يستطيع أن يحاضر فى إخوان الصفا وابن ميمون؟! . . وفكر فى هذه الأمور طويلا فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركز ذهنه فيها، ولكنه ظل عاكفا على كتابه لا يحول عنه رأسه لأن عكوفه على الكتاب - ولو فى حال شروده - يقنعه بأن يومه لم يمض بغير ثقافة يتزود منها، الأمر الذى يحرص عليه كل الحرص. وانسل الوقت وما تزال كبرياؤه تتجرع غصص العذاب، ثم خطرت على قلبه فكرة. هفت على قلبه كنسمة رطيبة لطيفة فأثلجت صدره الفائر بالحنق والغضب، فصفا وطاب، وابتسمت أساريره. كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو أن ما يلقاه من حظ ونصيب، ومصادفات واتفاقات، وأناس وأخلاق، كان فى مثل هاتين العينين النجلاوين يقطران سذاجة وخفة؟! . . ثم ذكر - فيما يشبه الدهشة - أن شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه، ففى شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحب الأولى، وهى - كرؤية نور الدنيا لأول مرة - إحساس عجيب لا يتأتى الشعور بجدته مرة أخرى. وفيه رأى الفتاة التى رغب صادقا أن يشاطرها حياته وأخفق، وها هو ذا رمضان من جديد، وها هو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعا دافئا منعشا، وكان عقله من العقول التى ترى دائما وراء المصادفات حكمة تدق على الألباب، فإذا رأى غيره من المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها، التمس هو فيها حكمة خفية، لذلك نظر أمامه حالمًا وقد غاب بصره، وارتفع حاجباه الخفيفان المتباعدان، وفغر فاه، وغمغم فى حيرة وسرور «ماذا وراءك يا رمضان»؟!

١٢

وعند أصيل اليوم الثانى نهض نشيطا إلى المرآة ليحلق ذقنه، وكان يحلقها عادة مرتين فى الأسبوع، ولا يبالى أن يبدو للناس وذقنه نابتة، فعزم على الإقلاع عن عادته هذه، وأن يحلق ذقنه يوما بعد يوم من الآن فصاعدا.

ولما فرغ ارتدى جلبابا نظيفا وطاقية ناصعة البياض - مجبرا ليخفى صلعته - ثم جلس على حافة الفراش يرمق النافذة بعينين مترددتين، ليست المسألة مجرد حلق ذقن أو لبس طاقية بيضاء، إنما ينبغى أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغير. هل ينطلق بغير تفكير أو ترو؟ . . ماذا يريد على وجه التحقيق؟ . . فعسى ما يكون اليوم لعبا

يكون غدا جدا. وما ينبغى له أن ينسى حظه العاثر وتاريخه المحزن، أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها؟.. على أن الحياة لا تنصت لمثل هذا المنطق، ولا تكاد تتأثر بحكمته ومخاوفه، فقد أحرقه الظمأ وألهبته اللهفة، ونهض مرة أخرى يلوح فى وجهه العزم ودلف من النافذة ثم فتحها، وارتفق حافتها وعيناه إلى أسفل، ثم مضى يرفعهما ببطء وحذر حتى بلغتا أرض الشرفة، فرأى قوائم الكرسى وحاشية الشال ـ الذى كانت تطرزه مساء الأمس ـ مدلاة بينها، ثم غلبه خجله فأطرق كالأطفال!.. ولبث مطرقا وهو يشعر بعينيها تثقبان رأسه. وخاف أن تذهب الفرصة قبل أن يتملى برؤيتها، فرفع رأسه متغلبا على حيائه، فرأى الكرسى خاليا والشال موضوعا عليه!.. أترى أكانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها إلى الذهاب داع؟.. أم غابت قبل ذلك؟.. ومهما يكن من أمر فقد أحس امتعاضا وفتر حماسه، وخاف أكثر من قبل أن يغيب اليوم دون أن يراها، ولم تكن احتمالات رؤيتها فى الغد لتنسيه خسارة اليوم، فقد تهيأ بكل عناية لتراه فى أحسن صورة ممكنة، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولا جلبابه غدا كما هى اليوم، وإذن فهذا رجاء خاب، وذاك تعب ضاع، وأطرق مرة أخرى كاليائس، إلا أنه سمع ـ فى اللحظات الأخيرة قبل المدفع ـ حركة خفيفة فى الشرفة، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة، ثم رآها تنحنى على الكرسى لتأخذ الشال فالتقت عيناهما لحظة، ثم استوت قائمة فولّته ظهرها وجرت إلى الداخل. وما طمع فى أكثر من ذلك، ولو أنها أدامت النظر إليه لأربكته وأوقعته فى الحيرة والحياء، أما وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التى خطفت بها روحه، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقة. ثم صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المنى، هى خلاصة اليوم وهدفه ومعناه، حسبه أن يملأ عينيه من معانى السذاجة والخفة تسكبها عيناها النجلاوان، وأن يدخر منها لبقية يومه ما يشيع فيها السرور والأحلام. وتواترت أصيلا بعد أصيل، والتقت العينان يوما بعد يوم، فألف منظرها المحبوب ولعلها ألفت منظره، بيد أنه لبث على خجله وارتباكه، يطالعها ـ إذا جاءت اللحظة السعيدة ـ بنظرة تفيض بإحساس الجد والرزانة والوجل كأنما يتحفز صاحبها للفرار!.. ووضحت صورتها فى مخيلته بعينيها النجلاوين ذواتى الصفاء والسذاجة والخفة، عينان تنطق نظراتهما بالتساؤل والاستسلام، إلا أن خفتها تضفى عليها غلالة من الفطنة والحرارة.

وكان ذات مساء يغادر حجرته ـ بعد العشاء ـ إلى المقهى. فدق جرس الباب الخارجى وهو يقترب منه، ففتح الباب بنفسه، فرأى أمامه الست توحيدة وكريمتها نوال!.. وجعل ينظر إليهما بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما بغته من سرور، ثم انتبه إلى نفسه فتنحى عن سبيلهما قائلا متلعثما:

ـ تفضلا...

ودعا أمه لتلقى الزائرتين، وذهب لا يلوى على شيء، وأدركت أم نوال ارتباكه، ولم تكن تتصور أن رجلا فى سنه يرتبك ارتباكه، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنه قابل امرأتين. وهبط أحمد السلم نشوان لأنه يذكر جيدا - كما أكد لشكوكه التى لا تنتهى - أن فتاته ابتسمت إليه وهو يستقبلهما ابتسامة خفيفة براقة، لعلها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله، أو ابتسامة الارتباك والحياء، أو لعلها جادت بالابتسامة للرجل، جزاء حرصه ومثابرته على التطلع إليها بعينيه كل غروب أسبوعا كاملا أو يزيد، فمهما كان الباعث فهى ابتسامة حلوة، تلهف قلبه على مثلها عشرين عاما. ورغب عن الذهاب توا للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمل، وكان من الذين يستحبون المشى إذا شغلهم شاغل من الفكر. فحث خطاه إلى السكة الجديدة، وسار معها مبتهجا مسرورا، وتمتع ما شاء بالسرور فى صفاء ورضا، وما كان غراً ولا حسن الحظ بالدنيا - وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظ وعثاره؟!.. ولكنه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه، وأراد أيضا أن يسبر حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة، وليرى إن كان فى الإمكان أن يعاود التجربة من جديد. فقد بدا له أنه أصبح حرا بعد أن أدى واجبه كاملا، ألم يتلق عن والده العبء عند اندحاره؟!.. ألم ينهض بأسرته المهددة بالشقاء؟.. ألم يكفل أخاه حتى صار رجلا؟.. فما عليه من حرج بعد ذلك إذا شغل بسعادته مخلفا أعباءه لشقيقه الأصغر، ولا يكره ذلك أحد من ذويه، فهل فى العمر متسع؟!.. وتمادى فى التأمل والتخيل يحثه شعور السرور والظفر الذى غمره منذ حين، فقال إنه يملك فى صندوق توفير البريد مبلغا لا بأس به فى ذاته، وإن عد تافها إذا قيس إلى مدة خدمته الطويلة، وأما عن شكله فليس مما يعيب الرجل ألا يكون جميلا!.. وإنه ليستطيع بالعناية - كما فعل اليوم - أن يبدو مقبولا على نحول وجهه وشحوبه وصلعته. ويا حبذا لو فصل بذلة جديدة، وابتاع طربوشا غير طربوشه الباهت المتقبض. بيد أنه كهل!.. فهو فى الأربعين والصبية دون العشرين!.. وفارق العمر حاجز لا تقتحمه إلا المعجزات فمن أين له بالمعجزة؟!.. وانقبض صدره لأول مرة منذ فتح باب الشقة للزائرين، وذكر شكه فى جاذبيته الجنسية، فتجهم وجهه وأفاق من نشوة السرور وتمثلت لعينيه - فى ظلمة الطريق - صورة الفتاة الباسمة، فغمغم قائلا: «يا لها من غرة جاهلة!»، إلا أن شيئا واحدا لم يخطر له ببال، وهو أن يتطوع بمد يده إلى الحياة التى دبت فى قلبه فيخنقها لواذا بطمأنينة الموت، فليتركها تنبض وتترعرع ولينتظر المخبأ وراء حجاب الغيب، وهو لن يكون بحال أسوأ مما عركته به الأيام. وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحب شيء غير ما يعانى؟!.. هل هو شيء غير هذا الشوق الغامض النابع من الحنايا؟.. هل هو شيء غير هذا الحنين الذى تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد؟.. هل هو شيء غير هذا الفرح السماوى تطرب له النفس والدنيا جميعا؟.. هل هو شيء غير هذا الألم المشفق من

الإخفاق والعودة إلى الوحدة والوحشة؟ . . هل هو شيء غير أن تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد أحلامه ومبعث آماله وآلامه؟ . . بلى هو الحب، وإنه به لخبير!

وعاد إلى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون ويحتسون الشاى، ورأى الغلام محمد جالسا جنب والده يقلب فى المكان عينيه النجلاوين، فسر لمرآه - وهو سفير هواه - وانجذبت نحوه روحه - واتخذ مجلسه المعتاد جنب الأستاذ أحمد راشد، وراح ينصت لسيد عارف الذى كان يقول بحماس:

- وسينتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب!

فتساءل كمال خليل ضاحكا، وفى هدوء لا يهيج الأعصاب:

- كما هبط هيس؟!

فاستطرد سيد عارف غير ملق بالا إلى قوله:

- وستخر إنجلترا المتعجرفة صريعة قبل أن تفيق من هول الضربة.

فسأله أحمد راشد:

- كيف تغزو ألمانيا إنجلترا وجنودها مشتبكة فى ذاك الصراع المخيف فى روسيا؟

- أعد الفوهرر جيشا خاصا لغزو إنجلترا، وأرجح أن تسقط إنجلترا قبل روسيا إن لم تسقطا معا!

فقال أحمد راشد:

- الظاهر أنك تجهل حقيقة روسيا، روسيا الاشتراكية غير روسيا القيصرية، الشعب الاشتراكى كتلة من الصلب والإيمان والعزيمة، وهو ربما تقهقر ريثما يأخذ أنفاسه، ولكنه لن يلقى السلاح أبدا، ولن يسلم لدواعى الهزيمة.

- والمخزن رقم ١٣؟!

فقال المعلم نونو وهو يفرك كفيه:

- هذا مخزن الأقراص التى تريدها.

وسأله أحمد عاكف:

- لماذا لا يستعمل هذا المخزن إن صح ما يقال عنه؟

- رحمة بالإنسانية، الفوهرر لن يلجأ إلى استعمال مخزنه المخيف إلا إذا يئس من النصر بالفن الحربى المعتاد لا قدر الله!

وهنا صفق المعلم نونو للنادل أن يحضر الدومينو وهو يقول كمن ضاق صدره بالحديث:

ـ ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء، فلا الألمان أمنا ولا الإنجليز أبونا، وليذهب بهم الشيطان جميعا إلى الجحيم.

وفصل المعلم نونو بصيحته بين السمر واللعب، وما لبث عاكف أن وجد نفسه ـ كالعادة ـ منفردا بالمحامى. ورغب عن الحديث، وحدثته نفسه بالرجوع إلى البيت حيث توجد الآن نوال وأمها.. ولكن ما عسى أن يفعل هناك إلا أن يحبس نفسه فى حجرته؟.. وإنه لفى حديثه مع نفسه إذ سمع المحامى يقول للغلام محمد بلهجة الأمر:

ـ يا محمد آن لك أن ترجع إلى البيت لتذاكر!

ونهض الغلام قائما، وقد علت شفتيه ابتسامة دلت على ارتباكه، وغادر المقهى وثبا!.. وعجب أحمد عاكف للهجة الشاب الآمرة وإذعان الغلام لها، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودد إلى الأب.

وأحس الشاب بعجب الرجل فقال:

ـ البنات يتفوقن على الصبيان بدرجة تدعو للدهشة، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة، أما هو فيتجرع دروسه كالعلقم ويعتل على التهرب منها بالعلل!

كيف يتكلم الأعور عن الفتاة بهذه الحرية؟.. وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله:

ـ هل تعطيهما دروسا خصوصية؟

فحنى الشاب رأسه بالإيجاب!.. وامتعض الآخر امتعاضا شديدا جعله يتكلف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه. أيجلس هذا «الأعور» من فتاته مجلس الأستاذ المعلم؟.. أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنَّع الجد فانتهرها؟.. ألا ينفرد بها أحيانا؟.. ألم ينظر إليها مرة بغير عين الأستاذ؟.. كيف تراه هى؟.. إنه شاب مثقف ذو مستقبل حسن، ولن يضره شكله المتجهم ولا عينه الزجاجية، بل لن يعد ـ أى عاكف ـ خيرا منه بحال إن لم يعد أسوأ درجات ـ على الأقل فى نظر العوام والأميين ـ فهل يولى الأدبار ولما تبدأ المعركة؟ وما كان فى مثل هذه المعركة ممن تتملكهم روح الإقدام والمنافسة، وعلى العكس من ذلك تراه ينكمش ويسلم ساقيه للريح حياء واستكبارا وجبنا.. ولن يزال فى كل شدة يلتمس التدلل الذى نشأ فى أحضانه فإذا أخطأه ـ ولا بد أن يخطئه ـ انطوى على نفسه دامى القلب مجترا آلامه مكيلا التهم لسوء الحظ الذى يلاحقه! ولو كان دور الذكر فى الغزل أن يطارد لا أن يطارد وأن يُطلب لا أن يطلُب لهان الأمر وطاب له الغرام، أما والأمر غير ذلك أو عكس ذلك ـ أما والأمر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع فى الظفر؟ ولو أن السجايا رهن مشيئة الإنسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية ـ المزعومة ـ لقاء أن يصير غزلا ماهرا ورجلا جذابا! ولكن هيهات

أن يبلغ ما يشاء، وليس أمامه إلا أن يحتقر الغزل ويمقت المرأة ويستمرئ العزلة الوحشية!

وتجنب أن يشتبك فى حديث مع الشاب البغيض، وتصنع الإنصات للراديو ليصرفه عن محادثته، فمضى الوقت وهما صامتان، والسكون قائم إلا أن يمزقه احتداد سليمان عتة إذا استثاره سيد عارف. وأوردته أفكاره المحمومة - فى صمته - مناهل سامة استقى منها خياله المحزون، فاستسلم لأمانى شيطانية مرعبة، تمنى فى صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها إلا خرائب وآثار، وشخصان حيَّان لا غير، هو وهى!! هنالك تصفو له بلا خوف ولا يأس ولا غيرة ولا جهد!.. وتمثلت لعينيه المظلمتين القاهرة المهدمة المحطمة، والشخصان الشريدان، يفزع أحدهما إلى الآخر لائذا بجناحه ساكنا إلى ذراعيه، والآخر سعيد - على ما يكتنفه من الخراب - بصاحبه متلذذا بانفراده به، انبعثت هذه الأمنية الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغ بالاضطهاد والقهر والعذاب.

١٣

ولما خلا إلى نفسه فى حجرته بعد منتصف الليل - تساءل ممتعضا ألا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التى يسير الألم بين يديها؟ أليس الموت مع السلامة خيرا من حياة القلق والعذاب؟ بيد أنه تناسى مخاوفه فى اليوم التالى وما بعده وصار بين النافذة والشرفة ميعاد يتجدد كل أصيل. ولم يعد شك فى أن الفتاة أدركت أن جارها الجديد يتعمد الظهور فى النافذة - أصيل كل يوم - ليبعث إليها بتلك النظرة الحيية الوجلة. ترى كيف تحدثها نفسها عنه؟ أتهزأ بشكله؟ أتضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله وجموده؟ فمن عجب أن تتواتر الأيام ولا يزال حريصا على ميعاده مترقبا لساعته ثم لا يستطيع شيئا إلا أن يرسل هذه النظرة الخائفة ما أن تلتقى بنظرتها حتى ترتد فى خفر وقد اختلجت الأجفان، وما انفك شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضا بمثل هذه النظرة الحلوة أم تدخر له ما هو أجمل وأفتن؟! بيد أن لحظات الأصيل السعيدة كانت تنتشله دائما من هاوية الشك والقنوط. وجعل يهدئ روعه ويقول لنفسه إنها لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحته نظرتها الحنون مساء بعد مساء فعاوده الأمل وراجعه الرجاء. ولكن لم يكن طبيعيا أن يقنع بهذه النظرة، وأدرك أنه ينبغى أن يخطو خطوة جديدة، ولكن هل يستطيع؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عاما كاملة؟ هلا أدام إليها النظر حتى تطرق هى حياء ولو مرة!.. هلا حياها بابتسامة؟

وتخيل أنه يديم إليها نظره ثم تخيل أنه يبتسم لها فتورد وجهه واضطرب اضطرابا عنيفا وغلبه الحياء والعجز على أمره! رباه أتجفل الكهولة من الطفولة؟ . . أتفر الأربعون من السادسة عشرة؟ لكم حسب فيما مضى أن الخجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنه تشبث بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة، فلماذا يخلق الله قوما مثله لا يقدرون على الحياة؟! . . والتمس فى يأسه سبيلا جديدا فقال لنفسه إن الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شك أن يكتبوا، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة إليها؟ وراقه هذا الخاطر وفكر فيه تفكيرا جديا، فالأمر لا يقتضيه إلا أن يكتب كلمات فى ورقة ثم يطويها بعناية ويرمى بها إلى الشرفة، هذا حسن. فكيف يبدأ خطابه؟ أيقول مثلا حبيبتى نوال؟ . . هذا تصوير وقح. عزيزتى نوال؟ . . ما يزال ذكر الاسم وقاحة. عزيزتى فحسب، فهذا أليق بأدبه، ثم ماذا؟ . . إن الرسائل تبدأ عادة بالتحيات، فليكتب لها تحية وسلاما، ثم ماذا؟ . . هل يصارحها بحبه؟ . . كلا هذا ما ينبغى أن يختم به، وإذا بدأ فليبدأ بالإعجاب والثناء، ولكن كيف ينشىء عباراته؟ . . وكيف يتخير ألفاظه؟ . . أى الأساليب يعجبها؟ وأى الألفاظ يحسن وقعها من نفسها؟ . . وهبه فرغ من حل هذه المشكلات جميعا فماذا يسألها؟ . . أن تجيبه؟ . . أن تقابله؟ . . بل هناك ما هو أهم من كل ذلك. ما الذى يدعوه إلى الظن بأنها ستحسن استقبال رسالته؟ من يدريه أنها لا تمزقها وتقذف بها فى وجهه . . أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته؟ . . وعقله التردد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لائذا بالسلامة. على أن النافذة لبثت على ولائها للشرفة. وأوفت كلتاهما بعهد لم يرتبطا به، فتلاقت العيون حتى تآلفت وتعارفت، وتجاذبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحياء، وبات يظن - لما يطالع فى نظرتها من العطف والصفاء - أنه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأن الشاب - المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد البالية - لا يفزع للغزل والحب، فذاق رحيق الأمل صافيا، ثم أدناه الحظ من الأمل والثقة بمصادفة: إذ شغله أبوه عصر يوم من أيام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون أن يستطيع الظهور فى موعده من النافذة، وانتظر فى اليوم التالى بصبر نافد ولكنه وجد الشرفة مغلقة! . . وانتظر عبثا أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكن على غير جدوى! . . وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذى عاقه بالأمس، لولا أن عثر بشبحها وراء خصاص باب الشرفة! . . فلم يشك فى أنها تعمدت إغلاق الشرفة دونه كم فعل هو بالنافذة فى أمسه ومعنى هذا - إن صدق حدسه - أنها أحست غيابه أمس. بل لعلها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه وها هى ذى تحقق إرادتها، ومال إلى تصديق ظنه، ولكنه لم يجد للعقاب ألما، وعلى العكس شعر له بلذة لا عهد له بها، فطرب طربا استخفه وجعله يفرقع بأصابعه ويذهب ويجىء فى الغرفة ذاهلا عما حوله. وفى اليوم التالى أقبل على النافذة بروح جديدة ممتلئا ثقة وأملا، فشعر بوجودها قبل أن

يرفع إليها عينيه المستطيلتين، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام وعتاب كأنما يسألها «لماذا اختفيت أمس»؟ فالآن جاء وقت التنفيذ! . . رفع رأسه الصغير فالتقت العينان! ونادى شجاعته ليرفع حجابيه ويحرك رأسه مستفهما مفكرا، أجمع عزيمته كمن يتوثب لإلقاء نفسه إلى حوض السباحة لأول مرة، ودفع نفسه للقفز، ولكنه جمد لحظة أكثر مما ينبغى فانتهز عقله الفرصة ورمى فى طريقه بخاطر من خواطر الشك والخوف فخاف أن يعثر به فاستطارت إرادته وانتثر عزمه وجفل متراجعا! وفى تلك الليلة أنَّب نفسه تأنيبا قاسيا، وطرق صلعته بشىء من الحدة وصاح غاضبا: «أما من ذرة رجولة!!» وهكذا أحبها. أحبها لعينيها النجلاوين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفة روحها. أحبها لأن أحلامه - والأحلام هى الفن الوحيد الذى أتقنه فى دنياه - أبت أن تغيبها ساعة عنه، ولأنه جائع - جائع فى الأربعين - والجوع من بواعث الأحلام! . .

١٤

ثم كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الأسرة احتفالا بدا فى الدجاجة المحمرة التى ازدانت بها سفرة الإفطار وصينية الكنافة، وعند العشاء راحت الست دولت تدعو لبعلها بالصحة ولولديها بطول العمر والسعادة، أما عاكف أفندى - الأب - فذهب إلى مسجد سيدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضلة، فكانت ليلة سعيدة؛ وقبل أن يأووا إلى أسرَّتهم قبيل الفجر أطلقت صفارات الإنذار فارتدوا معاطفهم وهرعوا بين جموع السكان إلى المخبأ الذى باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة إلى إرشاد الخادم، وامتزج انزعاج أحمد بسرور خفى لأن المخبأ يدنيه من نوال ويمتع ناظريه باجتلاء محياها المحبوب. ورأى فى المخبأ أحمد راشد وسيد عارف واقفين يتحدثان فانضم إليهما - وكان موقفهما قريبا من الركن المرموق - وما أن رآه المحامى حتى قال له:

- أما سمعت ما يقول سيد أفندى؟ يقول إن خطوبة سليمان عتة لكريمة العطار تمت اليوم!

فقال سيد عارف مبتسما:

- نعم يا سيدى . . فرح «ميمون».

وعاد أحمد راشد يقول بحدة:

- انظر إلى المال كيف يستذل الحسن! إن أقبح ما فى عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضرورات الحيوانية، فكيف سامت الحسناء نفسها قبول يد هذا القرد

الدميم؟! ولن يكون اجتماعهما زواجا ولكنه جريمة مزدوجة تعد من ناحية سرقة ومن الأخرى اغتصابا، ولن يزال جمالها فاضحا لقبحه، وقبحه فاضحا لجشعها . .

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة واستدرك قائلا :

ـ لا يمكن أن تقترف هذه الجريمة فى ظل الاشتراكية!

وهنا علا صوت رجل يقول متذمرا :

ـ ألم يقولوا إن الألمان لن يغيروا على مصر فى شهر الصيام؟

فتحول إليه سيد عارف وقال :

ـ ولكن الإنجليز يغيرون على طرابلس وهى بلاد مسلمين كذلك!

ثم قال لصاحبه بلهجة اليقين :

ـ الإنجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربية ولكن ليجبروا الألمان على ضرب القاهرة!

ولم يعن أحمد بالمناقشة لأنه كان يتلقى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة، ولكنه لم يهنأ بها طويلا فإن صوتا غليظا صاح بقوة : «صه . . أزيز طيارة!» وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الآذان حتى صاح صوت آخر : «كلا . . هذه سيارة الشرطة» فقال الأول : «بل أزيز طيارة . . اسمع!» وأنصتوا جميعا فترامى إلى الآذان أزيز طيارة حقا يهبط من جو سحيق، فاضطرب قلب أحمد وتحول ببصره نحو والديه فرأى أمه مصوبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرقا، ثم سمعوا طلقة مدفع مضاد بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطعة. وسكت الضربُ لحظة ثم عاد أشد مما كان، واتصلت الطلقات واختلطت. فانتشر الذعر وثرثرت الألسنة فى هذيان، وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة : «هذا الضرب فى ألماظة مؤكد» . . فارتاح كثيرون إلى تأكيده وآمنوا على قوله بغير وعى. وذهب إلى والديه وسأل أباه ـ وإن كان فى مثل حاله من الذعر والاضطراب : «كيف الحال يا أبتى؟» فأجابه الرجل بصوت متهدج : «ربنا موجود» واستمر إطلاق المدافع وتعددت مصادره، وجعل سيد عارف ـ على أثر كل طلقة مدفع ـ يذكر اسم الناحية التى أطلق منها كأنه الخبير العليم فيقول : «مدفع العباسية . . ألماظة . . بولاق . . وهذا مدفع القلعة إلخ إلخ» ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدة قال الرجل : «هذا مدفع ألمانى ابتاعته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب!» . ولكن أخذ كثيرون يضيقون بالمتكلمين وينتهرونهم فاشتد اللغط، ثم جاءت لحظات أخرى عنف فيها إطلاق المدافع واتصل اتصالا مخيفا فارتجت الأعصاب ووجبت القلوب. تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمانها الثقيل بتردد الأنفاس وخفقان القلوب فكأن المرء يحمل الدهر على عاتقيه، ثم خف عنف الإطلاق رويدا، ثم لم يعد يسمع إلا فى ناحية واحدة، ثم سكت آخر مدفع وأخلف السكون، ولم يدر أحد هل يستأنف الإطلاق أو انتهت عقوبة الليلة،

إلا أن الأنفاس أخذت تسترد من الراحة ما تبل به جوانح احترقت أو كادت . ومضت فترة وجيزة فى سكون ثم انطلقت صفارات الأمان ، فنهض القوم متشهدين ، وأرسل أحمد عاكف ناظريه إلى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بها له ، فسر بها سرورا مسح عن صدره الضيِّق آثار القلق والخوف ، ورآها تسبق أسرتها نحو باب المخبأ حتى إذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معان ثم ارتقت السلم على عجل ، فشعر الرجل - بقلبه الجذلان - أنها تدعوه إلى اللحاق بها ، وللأعين كما للغرائز لغة سرية صامتة ، فتولاه التردد والحياء ، إلا أن مروقها إلى الخارج بث فيه شجاعة وقتية تغلب بها على تردده وحيائه فاتجه نحو الباب سابقا والديه والخادم ، وارتقى السلم متسائلا ترى هل يجدها أمام الباب؟ وما عسى أن يقول أو يفعل؟ ولكنه رأى شبحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ ، فإذا أوسع خطاه أدركها فى أقل من الثانية وأمكنه أن يسايرها شارع إبراهيم باشا ، وأن يرتقيا معا - منفردين - سلم العمارة . تخيل ذلك بسرعة ولكنه لم يكد يبدى حراكا ، أو تحرك بالأحرى خطوات معدودة ، فاتسع ما يفصل بينهما من مسافة حتى باتت قريبة من مدخل العمارة ، وغل الحياء والارتباك إرادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه إلى اللحاق به لينقذاه من ورطته ، وعبثا حاول أن يقاوم حياءه أو ارتباكه أو أن يجمع إرادته على اللحاق بها فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف الرغبة ، ثم اختفت الفتاة داخل العمارة ، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والأمل! ثم سار مع والديه يعالج فى صمت حسرة أليمة منتزعة من صميم الضلوع ، وطفق ينظر إلى السلم - وهم يرتقونه - بأسف ذاكرا أنه لو قهر خوفه لا نفرد بها فيه - على أنه سأل نفسه «ماذا كنت أقول لها؟» . . هبه كان تشجع وحياها وردت هى تحيته بابتسامة أو كلمة أو إيماءة - بصرف النظر عن أن التحية فى ذاتها مشكلة فلم يكن يدرى ما الأوفق أن يقول : صباح الخير . . سعيدة . . السلام عليك إلخ - هبه حياها وردت تحيته فماذا كان يقول بعد ذلك؟! . . أيصمت حتى يفترقا عند شقته؟ أم ماذا يقول العاشقون فى أمثال هذا الموقف؟ ألا ما أكثر العاشقين! ولشد ما يتهامسون ويتناجون فى الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة؟ . .
وعاد إلى حجرته ممتلئا أسفا ، بيد أنه كان على هذا فرحا مسرورا ، بل كان ثملا بنشوة سرور لم تعهد القلوب ألذ منه ، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنها رمته بنظرة نداء - وهى من معجزات السرور فى شريعة العاطفة - وهى خليقة بأن يسر لها سرورا خالصا لا شأن له بحيائه ولا بحسرته! ولاحت منه نظرة إلى النافذة - وقد غدا يدعوها نافذة نوال - فحن قلبه المنتشى إلى أن يرسل بنظرة إلى الشرفة ، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحا ومصباح الحجرة مضاء والفتاة واقفة على عتبة الباب! . . ما الذى دعاها إلى باب ا لشرفة فى تلك الساعة من الفجر؟ . . وكان يرى شبحا من غير أن يميز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها ، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنها لا

ترى سوى شبحه ـ وشجعه ذلك على الثبات والتحديق فيها ـ ولم يمتد به الوقوف طويلا حتى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته: فأومأت له برأسها تحية! . . وغمره الذهول، ولكنه لم يغلب على أمره هذه المرة فحنى رأسه ردا على تحيتها! . . وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة ـ وهو ينظر ـ ثم أطفأ النور، ولبث الكهل بموقفه مدة من الزمن لا يدريها، ولا يدرى بنفسه، ثم أغلق النافذة، وجثا على ركبتيه واضعا راحتيه على صدره، وهمس بصوت منخفض «اللهم حمدا وشكرا!» . .

١٥

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى متعبا لأن السرور ـ كالحزن ـ عدو للنوم قديم. بيد أنه استهان بتعبه لنشوة صدره وفرحة قلبه، وهل ظفر بمثل ذاك الصباح السعيد منذ عشرين عاما؟ فغادر البيت منشرح الصدر، بسَّام الثغر، خفاق الشباب النضير، بعد أن أصبح أخيرا من الزمرة التى طالما رمقها بعين الحسد والغيرة. زمرة المحبين المحبوبين! وصفا فؤاده ذاك الصباح فلم تنهشه آفة من آفات البغضاء، واستراح ـ ولو إلى حين ـ من أطياف إخفاقه الجاثمة فى ظلمة ذكرياته كالخفافيش، فلم يتوثب لجدال ولا تحفز لمعارضة ولا تشاجر مع أحد من الموظفين، وغمرت مستنقع المرارة الآسن المستقر فى أعماقه موجة راقصة من الحبور.

وعند عودته ظهرا وجد خطابا فى انتظاره، عرف خط صاحبه من أول نظرة ألقاها على الظرف ـ وهو خط صغير جميل يشبه خطه من جميع الوجوه، فابتسمت أساريره، وفض الخطاب ثم قرأه حتى فرغ منه وقال:

ـ سيأتى رشدى أخى صباح نهار الوقفة.

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال، وإن كان يعلمان من قبل ـ بالبداهة ـ أن الشاب لا بد أن يمضى إجازة العيد فى القاهرة إلا أن الخطاب حوى أنباء أجمل مما توقع الوالدان فاستدرك أحمد يقول:

ـ ويقول رشدى إنه صدر أمر بنقله من أسيوط إلى المركز الرئيسى بالقاهرة وسيتسلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة!

وسر الوالدان سرورا كبيرا وقالت الست دولت:

ـ سنستقبل عيدين. لهفى على الغلام العزيز، كيف قضى ذاك العام فى أسيوط؟

فابتسم أحمد قائلا:

ـ ادعى الله أن يكون تعود حياة غير التى أدمن عليها فى القاهرة من قبل!

ثم أوى الكهل إلى حجرته وخلع ملابسه واستلقى على الفراش كعادته ليقيل حتى الأصيل ـ أو حتى ميعاد الحب ـ كما ينبغى أن يسمى منذ اليوم ـ فشغله الخطاب ردحا من الزمن عن النوم وعن إحساسات اليوم السعيدة، وامتلأت نفسه بذكريات شقيقه الأصغر.

يندر أن يستثير إنسان من العواطف المتباينة ما استثاره رشدى عاكف فى صدر أخيه الأكبر من علل السخط ودواعى الحب. فإنه طالما استوجب سخطه منذ أجبره واجب كفالته على التضحية بمستقبله (وعبقريته!)، ثم أسخطه فى فتوته بتكالبه على الشهوات وإقامته على اللذات وإعراضه عن النصح. ولكنه من ناحية أخرى أحبه أكثر من أى شىء فى الدنيا. أحبه لأن الشاب آثره بحب فاق ما يكنه لوالديه من الحب والإجلال، وذكر له دائما رعايته وكفالته أجمل الذكر، وأحبه لأنه صنعه بيديه. غذاه بروحه ورباه بماله فكان الشقيق الأكبر وكان الوالد الحنون، تمتع بطفولته ورعى صباه ووجه تعليمه ـ ثم عد نجاحه بعد ذلك ـ بعد تعب ولأى وعثرات ـ ثمرة كفاحه، ومفخرة جهاده، ومذكرا دائما بتضحياته. وفضلا عن هذا جميعه، كان الشاب ذا شخصية خليقة بأن تحب، كان لطيفا خفيفا مرحا، ورث عن أمه تلك المقدرة التى تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلف، لما طبع عليه ـ كلاهما ـ من الجمال والصفاء والوفاء وحب العشرة والألفة. ولكن واأسفاه أخطأه الاعتدال والرزانة والحكمة، وجرت الحياة فى أعصابه زاخرة جامحة، فاستأدته غرائزه الجهد الجهيد، ودفعته قفزا ووثبا بغير رادع، وقد كان منذ البدء جسورا مقتحما متمرسا بالحياة. ذلك أن الذى وكل برعايته، أخاه ـ ظل دائما مصفدا بأغلال التدلل والخوف، فمال إلى الاعتماد على الطفل الذى يربيه ـ فيمن يعتمد عليه ـ فى قضاء حاجاته، واتباع لوازمه واستعارة كتبه، فاكتسب الصبى خبرة بالدنيا واعتمادا على النفس وجسارة ورجولة، وصارت حاجة راعيه إليه لا تقل عن حاجته هو إلى راعيه. ولكنه عرف الدنيا وجال فيها بغير المبادئ الحقيقة بأن تعصمه من زلاتها، فمنذ أن أحيل عاكف أفندى على المعاش إنطوى على نفسه تاركا أمر أسرته لابنه وزوجه، ولم يجد رشدى فى هذين العزيزين الحزم الذى يرشده ويعصمه، فضل السبيل وتخبط على غير هدى، ولولا دماثة خلقه، ورقة طبعه، لربما جاوز مفاسد الشهوات إلى مهالك الجرائم..

ولكم بشرت حياته المدرسية ـ فى عهديها الأول والثانى ـ بالنجاح، حتى قال أحمد عاكف إن أخاه ورث عنه بعض صفاته العقلية! ولكن الحال تغير بعد أن صار طالبا بكلية التجارة. هنالك اعتوره الفساد. فانجذب نحو زمرة من الشبان ولهجوا جميعا بمعاقرة الخمر ولعب القمار والتخبط فى بؤر التهتك، واندفع مع التيار فى جنون. فاستدان مرات، وأهمل حياته الدراسية حتى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه، ثم بلغ ذروة

جنونه حين فكر جديا أن يقطع حياته الجامعية ليتوفر على تعلم الموسيقى والاشتغال بالغناء - لا لشيء - إلا ما بلغه من بوهيمية المغنين وحظهم من ولع النساء، وما عهده فى نفسه من رخامة الصوت وحلاوته. ونفد صبر أحمد عاكف فأنذره بالكف عن الإنفاق عليه إذا لم يمسك عما هو آخذ فيه من المجون والاستهتار، وبلغ منه الغضب أحيانا أن شعر بأنه يمقته مقتا، بل حقد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو عن الأخذ بأسبابها، ويتلهف حسرة على ألوان منها! وغم ذلك كله لم تنقطع صلات المودة بين الشقيقين بفضل مواهب الأصغر، فكان إذا شد أخوه أرخى، وإذا قطب ابتسم، وإذا سب ولعن تضاحك وقبل يده أو لثم كتفه، وإذا كور له قبضته مازحه فى أدب ولين. ثم انتهت تلك الحياة بمعجزة، أجل انتهت بمعجزة والبكالوريوس، مما دعا أحمد على أن يقول متهكما: «هكذا يحصل الطالب على الشهادة التى تفضل الحكومة حامليها على أمثالى؟!» بيد أنه تنفس الصعداء، وأيقن أن مهمته قد انتهت، ولم يعد يشغل نفسه - أكثر مما ينبغى - باستهتار الفتى بعد أن صار المسئول الأول عن حياة نفسه، فصفا بينهما الجو، وعاد الحب الذى لا تشوبه شائبة كما كانا من قبل - على عهد طفولة رشدى وصباه - بل رفعت الكلفة بينهما فربما قص الفتى على شقيقه المحبوب ما يلقى من تجارب الهوى والحب. وكانت له فى الهوى أهواء، وفى العشق فنون فعرف الحب الآثم والحب الطاهر! وتقلب فى مظان السوء كما جرى وراء الحسان فى السبل والميادين. وضم «ألبومه» صورا لفتيات حسان وقعن عليها بخطوطهن القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة: «إلى خطيبى العزيز رشدى!». ولم يكن يقصد العذارى بسوء، ولا كان يسيغ الغدر بيسر وسهولة. وحقيقة الحال أنه كان يقع سريعا فريسة لعواطفه المشبوبة، فليس أيسر من أن يصير عاشقا، بل وعاشقا بصدق وإخلاص، ولكن فى الساعة التى هو فيها، فلم يحلف كذبا قط، ولكنه حنث بأيمانه مرات!

فحدث كثيرا - فى هيجان العاطفة - أن بذل وعده صادقا مخلصا فكانت خطوبة! ثم لم يدم ذلك إلا ريثما تهدأ العاطفة أو يجد النوى أو يحدث أمر ما فلم تعرف حياته الهدوء ولا السكينة ولا الراحة، وباتت مرعى خصيبا للشهوات والملاذ، فنالت منه حتى أعيته ونهكته، فنحف وهزل وصار - على حد تعبير والدته - كالعود. وكان أحمد - الذى يحبه ويشفق عليه - يرمقه بعينين قلقتين ويقول له: «إرحم نفسك» فيجيبه بمرحه المألوف «يرحمنا الله وأياكم!». منذ عام انتدبه البنك للعمل فى فرع أسيوط فسر أهله - على أسفهم وحزنهم - وتعلقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى فى المقام الجديد - مقام غربته - حياة معتدلة غير حياته الأولى ترد عليه بعض صحته، وتمسك عليه بعض نقوده، ولذلك تلقوا خبر نقله إلى القاهرة بسرور ورجاء، ينطويان على إشفاق . . .

١٦

ولم يبق من رمضان إلا ثلاثة أيام. وأسف أحمد على اقتراب نهاية الشهر المكرم، وهل ينسى فضله ورحمته؟ . . وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولى عثار حظه ووحشة قلبه مع شمسه الغاربة؟ وبات يسائل نفسه ترى أين يكون الموعد غدا وماذا تخبئ الأيام؟ أما الست دولت فنشطت هى والخادم ليعدا حجرة الشاب القادم من أسيوط. وكانت الحجرة تلى حجرة الوالدين، وتطل نافذتها الوحيدة على الطريق المؤدى إلى خان الخليلى القديم - كإحدى نافذتى حجرة أحمد - فكنست الحجرة وغسلت ثم فرشت وباتت تنتظر القادم فى أجمل صورة. ثم أخذت المرأة أهبتها لخوض غمار معركة موسيقية - لغزو ابنها أحمد كالمعتاد - لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يحلو لها أن تسميه، فانتهزت فرصة انفرادها بالرجل بعد الإفطار وراحت تودع رمضان بكلام طيب مترحمة على عهده وختمت كلامها قائلة:

- لم يبق إلا يومان، وبات الإنسان يشم رائحة الكعك الطيبة فى الجو!

وكان يتوقع مثل ذاك الكلام، ويعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها، وأنه مغلوب على أمره مهما قال وتشكى، ولكنه لم يتعود أن يضحى بقرش قبل أن يريح ضميره بالدفاع عنه فقال متذمرا:

- فى مثل هذا الزمان لا يتشمم الناس رائحة الكعك، ولكنهم يسألون الله الستر، وأن ييسر لهم ضرورات الحياة. أما أنت يا نينة فلن تزالى متلهفة على الكماليات التافهة غير راحمة جيبى، يا هوه إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء!

فحدجته بنظرة تأنيب وإغراء، ثم أرعشت حاجبيها المزججين فى ابتسام وقالت:

- آه منك آه. لكم تغضب على أمك بغير سبب كأنها غير التى أحبتك ودللتك. أتدعى الفقر وأنت الخير والبركة؟ . . أتتناسى أنه جاءت نوبتك لتدلل أمك؟ ولن أشق عليك يا زين الرجال فنحن نرضى بالقليل إكراما لك!

وعلم أنها لن تيأس أبدا! ولن تنسى حتى تظفر بسؤالها فتأوه قائلا:

- أف . . أف . .

- أف لعيد بغير كعك. أنستقبل العيد بلا كعك وأنت رجلنا؟!

- الكعك فرحة الأطفال.

- والرجال والنساء، والعيد عيد الناس جميعا. ألم تر إلى أبيك كيف جهز نفسه بعباءة

جديدة يصلى بها العيد؟ . . وكيف ابتعت أنت بدلة وطربوشا وحذاء مباركة عليك باسم الرحمن؟ . . أما سرورى أنا بالعيد ففى العجن والنقش ورش السكر والحشو بالعجمية .

* * *

وفى الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سمته إلى محطة مصر ليكون فى انتظار الشاب القادم . وكان الجو رطبا ولكنه محتمل البرودة فجلس على أريكة على «رصيف الصعيد» ولم يبق على قدوم القطار سوى دقائق . وتولاه ما يتولاه عادة من القلق إذا وجد بمحضر القطر المردة فرآها تنفث الدخان وتطلق الصفير الحاد . ولم يكن استقل قطارا قط ولا غادر حدود القاهرة ، ولا هزته رغبة فى يوم ما إلى الارتحال والسفر ، فتخيل السجن أخف على نفسه من الإقامة فى بلد نازح . ولا شك أن جفوله من ملاقاة العالم الخارجى هو الذى بث فى روحه كراهية الأسفار ، ولكنه كان يفسر تلك الكراهية ـ كعادته فى تفسير كل ما له شأن بسلوكه وطباعه ـ بأنها سجية المفكر الذى يحب المعنويات ويزهد فى المحسوسات ، ألم يعش أبو العلاء رهين المحبسين؟ وخفف من غلواء قلقه سروره بمقدم رشدى ، شقيقه وابنه! وما ينتظر من معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده ، وما يحدثه محضره من ألوان التسلية والبهجة . وما لبث أن رأى الرءوس تتطلع نحو الجنوب ، والنشاط والحركة يشملان المكان فنظر مع الناظرين فرأى القطار قادما متمهلا ، وما عتم أن ذاع ضجيجه فاهتزت له جوانح الأرض ، وملأ منظره الأعين . وأخذ يقترب رويدا رويدا وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلعة حتى وقف شاغلا الرصيف الطويل وهرع نحوه المنتظرون . وجرت عينا الكهل على النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتى ظفر بضالته فى مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية ، وكان الشاب القادم يعطى حقيبته لأحد الحمالين ، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة . فالتفت الشاب إليه ، ثم قفز إلى الأرض فصار تلقاء شقيقه . وسلم الأخوان بحرارة ، وشد أحمد على ذراع الشاب قائلا :

ـ حمد لله على السلامة . كيف حالك يا رجل؟!

فقال الشاب بسرور وقد تورد وجهه المتعب من وعثاء السفر :

ـ الحمد لله يا أخى . . كيف أنت؟ . . كيف الوالدان؟

وسارا جنبا لجنب نحو الخارج يعلوهما البشر . كانا ذوى طول واحد ونحافة متشابهة ، ولا يخطئ الناظر إليهما أنهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر ، فملامحهما متقاربة . إلا أنها بلغت فى وجه رشدى مداها من الحسن ، وحال بينها وبين ذلك فى وجه الآخر إما انحراف أو تجهم أو إعياء . فلرشدى أيضا ذاك الوجه الطويل

النحيل ولكن ليس له خدا أحمد الذابلان، وسمرته - وإن اعتورها شحوب - صافية يجرى فيها ماء الشباب، وعيناه مستطيلتان متباعدتان إلا أن حدقتاهما أوسع، ونظراتهما أنفذ، والتماعهما خاطف يدل على حدة المزاج وروح الفكاهة والجسارة. سارا متكاتفين، وسرعان ما شعرا بدبيب الرغبة فى الكلام يتحرك فى أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان. ثم اهتدى الشاب إلى حديث فسأل أخاه:

- قبل كل شىء كيف حال نينة؟

- كما تحب أن تكون. وما زالت تجرى وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بإرهاقى، فتقدم يا بطل وخذ نصيبك!

- لم أنس نصيبى وأنا فى أسيوط فابتعت لها حليا عاجية وطباقا فاخرة وبخورا لطيفا أرجو أن يوافق «أسيادها» (وضحك ضحكة عالية).. وأبى؟.. كيف حاله؟

- كعهدك به.. عبادة فى البيت، وزيارات لبيوت الله، وها قد أدنتنا الظروف من سيدنا الحسين فطوبى له!

فقال رشدى مبتسما:

- لكم أدهشنى انتقالكم إلى الحسين!

وهنا بلغا فناء المحطة ريثما استقلا عربة، ونقد الشاب الحمال أجرته ثم سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تخترق ميدان المحطة المترامى الأطراف فأجال الشاب فيه عينيه العسليتين الجميلتين، فتخاطفت السيارات والعربات والترامات والمارة ناظريه، فنقر بإصبعه على جبهته وقال:

- يكاد رأسى يدور، وكأنى أرى الترام والمترو لأول مرة. أتذكر نادرة الريفى الذى جاء مصر لأول مرة فلما أشرف على هذا الميدان ريع وفزع، ثم تراجع إلى القطار وهو يقول متأسفا: «جئت متأخرا فأهل البلد يرتحلون!».

فضحك أحمد الذى تلذه فكاهة الشاب ونوادره وبساطته. ومن حسن الحظ أن رشدى لم يكن «جامعيا» بالمعنى العميق - فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته - وإلا لوجد فيه نوعا من «أحمد راشد»، وأجمل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين فى ثقافة أخيه فظنه عالما متفقها وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر. أما أحمد فسر بإيمان شقيقه به، ورأى فيه رمزا حيا لإيمان الجامعة المصرية بعبقريته العصامية! قال الشاب بحماس:

- القاهرة نعمة من نعم الله، هى الدنيا والدين، الليل والنهار، الجحيم والجنة، والغرب والشرق. كان النقل معجزة!

- لا بد أنك ضقت ذرعا بأسيوط!

ـ كما ينبغى أن أضيق ذرعا بأى مكان غير القاهرة!

فتفحصه بنظرة ثاقبة وقال:

ـ السجن مفيد لأمثالك، ومع ذلك فإنى لا أرى أى الراحة فى وجهك!

فابتسم الشاب عن أسنان بيضاء منتظمة وقال كالساخر:

ـ إذا اجتمع موظفان فى بلدة كانت مائدة القمار ثالثهما!

فتنهد أحمد قائلا:

ـ أقضى أن تحرم من نعمة النوم أبدا؟!

ـ نعمة النوم؟!.. النوم فى الحقيقة نقمة!.. إنه اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة!

ـ أنت لا تدرى مما تقول شيئا!

ـ أنت يا أخى رجل حكيم، وأنا شاب مجنون، وهذه هى فلسفة المجانين.

ـ إذن ستعود إلى...

ـ بإذنه تعالى!.. قابلت فى أسيوط رجلا مولعا بالضحك كان يقول إن غذاء الصحة الحقيقى هو المرح، فإذا صح ذلك فالعربدة من أنفس الفيتامينات!

ـ وإذا لم يصح؟!

ـ فلندع الله أن يكون صحيحا. ولكن قل لى متى كنت سمينا؟!

ـ أنت تعلم أنى لا أكف عن التفكير والدراسة!

ـ هذا حق. وربما كانت النحافة ـ أيضا ـ طبيعة فى أسرتنا!

ـ ووالدتك؟!

فضحك رشدى حتى بدت نواجذه، وخلع طربوشه عن شعر لامع ينشق وسطه عن مفرق أبيض جميل، وقال وقد رقق الحنان نبراته:

ـ ولكنها صناعة العطار! كم شاقتنى رؤيتها! أما تزال تذكر الزار؟

فقال أحمد بتأفف:

ـ كفت عن ذكره صراحة، ولكنها ربما شكت ـ عرضا ـ قسوة من حالوا بينها وبينه!

ـ أمنا لطيفة كالملائكة لأنها لا تغضب، ولا أكاد أذكرها إلا راضية أو ضاحكة.

فابتسم أحمد، واستطرد رشدى:

ـ والعفاريت عقيدة وإن لم يتفق لى رؤية أحدها على طول عهدى بالطرقات المقفرة فى الهزيع الأخير من الليل.

ـ الإنسان هو شر العفاريت . . انظر إلى الحرب!

فضحك رشدى، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من السكاكينى، فقال:

ـ هكذا أجبرنا الإنسان العفريت على هجر حينا القديم، يا عجبا . . ألا تعلم يا أخى بأنه لم يسبق لى أن رأيت خان الخليلى هذا!

فنبه ذكر «خان الخليلى» فى قلب الكهل سرورا عميقا، وهز نفسه حنانا فقال:

ـ ستراه صباح مساء!

أكان الحال خطيرا لحد أوجب الهجرة؟

ـ نعم كان . وحسب كثيرون أن الغارات ستستمر بوحشية تودى بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام ووارسو، ولكن الله سلم . وكان الوالد فى إعياء خطير فلذنا بالفرار!

فهز الشاب رأسه أسفا، ولاحت منه التفافة إلى الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه إلى شارع الأزهر! فدعا منظره مواعيد غرام لا تنسى، هفت على قلبه كما تنسمت ريح على جمرات ناعمة، فابتسمت أساريره وهزه الطرب . ثم استطرد متسائلا:

ـ وكيف وجدتم المقام الجديد؟

لو طرح عليه هذا السؤال قبل لما وسعه الكلام ذما وقدحا، أما الآن!!

ـ انتظر حتى تراه بنفسك يا رشدى، وستألفه ولو بعد حين .

والجيران؟!

ـ أوه . . غالبيتهم من أهل البلد ولكن كثيرين من سكان العمارات الجديدة من طبقتنا!

ـ وهل وجدت فيه مكانا صالحا للتفكير والدراسة؟

فسره السؤال، كما ينبغى أن يسره كل ما يذكره بأنه «مفكر» . وقال:

ـ يقول المثل «البس لكل حال لبوسها» ولذلك تجدنى أفضل أن أمضى أول الليل فى القهوة مع بعض الصحاب الجدد حتى إذا كف الراديو أو سكتت الضوضاء عدت إلى حجرة الدراسة!

فضحك رشدى قائلا:

ـ أعرفت أخيرا الطريق إلى المقاهى؟

فقال الأخ مبتسما:

ـ تلك مقتضيات المقام الجديد!

ووقفت العربة عند مدخل خان الخليلى، فغادرها الرجلان وتبعهما الحوذى حاملا الحقيبة، ولما ولجا التيه قال أحمد :

ـ انتبه جيدا إلى ما يحيط به، واحفظ المسارب عن ظهر قلب وإلا ضللت فى معارجها!

واقتربا من العمارة، ورأى أحمد أمه تطل من نافذة حجرته فلكز شقيقه فى ذراعه مشيرا إلى النافذة، فرفع الشاب رأسه فوجد أمه وقد عصبت رأسها بمنديل بنى وأخذت زينتها كأنما هى عروس تتصدى لعريسها، وما أن التقت عيناهما حتى فتحت له ذراعيها لتدعوه إلى حضنها. وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البضتين فى عناق حار.

١٧

وجلسوا جميعا حول المائدة ـ وقد جاء أبوه أيضا ولثم الفتى ظاهر يده ـ وأخذوا بأسباب الحديث فى شوق ولذة، فتكلم الشاب عن أسيوط وأهلها والغربة والحنين إلى الأهل والوطن، وتكلم الأب عن الغارة والمشاعل التى أسقطتها الطائرات، وحدثته أمه عن جاراتها والمعلم نونو وأزواجه الأربع، ثم لاحظت المرأة أن وزنه لم يزد رطلا واحدا، وانتقلت إلى الكعك فبشرته بأنه سيأكل كعكا لذيذا لن يذوق مثله أحد فى مصر جميعا، ثم سارت أخيرا بين يديه إلى حجرته. وعندما خلى الشاب إلى نفسه لم يعد يحاول إخفاء استيائه فلاحت أماراته فى وجهه الجميل، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلى، فلما دخل الشقة هاله ضيقها، وأيقن أنه لن يطمئن له جانب فى هذا المقام الجديد، وضاعف من سخطه أن أصحابه جميعا فى السكاكينى وما حوله وأنه سيرغم ـ بعد قضاء سهرته بينهم ـ على قطع طريق طويل إلى هذا الحى ثم التخبط فى طرقاته الضيقة ليلا وهو ثمل! ونفخ من الغيظ، ووطن نفسه على حمل آله على العودة إلى بيتهم القديم أو إلى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك. ثم فتح حقيبته واستخرج ما فيها، ومضى يهيىء صوان ملابسه مترنما ـ كعادته ـ بإحدى أغنيات عبدالوهاب، وغير ملابسه ثم غادر الحجرة إلى الحمام ـ وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة ـ فاستحم بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه، وعاد إلى حجرته أجمل منظرا وأطيب نفسا، وأغلق الباب وراءه ـ ليعلو صوته بالغناء إذا أراد ـ وفتح النافذة ودهن شعره بالفزلين وسرحه بعناية فائقة، وتعطر بعطر البنفسج الأثير لديه فصار فى أحسن حال. وانجذب نحو النافذة فدلف منها ليرى على أى

منظر تطل. فرأى الممر الضيق فى أسفل يؤدى إلى خان الخليلى القديم، واعترض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثانى، فضاق صدره وخال أنه رمى به إلى أعماق سجن. أين من هذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكينى حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب ظباء اليهود، وتنهد محزونا، ثم أجال بصره فيما حوله، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من عل - على جناح العمارة المواجهة له - انفتحت على مصراعيها، وظهر فيها وجه فتاة، وجه حسن تزينه عينان تقطران خفة وسذاجة، فالتقت عيناهما، وفى نظرة إنكار من ناحيتها ونظرة تفحص - تفحص الصائد لصيد اعترضه - من ناحيته، ثم شق عليها تفحصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت فى استحياء. فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسطت أسارير وجهه متأثرا بملاحة محياها وتحير نظرتها العذبة، ولم يزايل مكانه ولا حول عينيه عن النافذة منتظرا عودتها، لأنه من الطبيعى - فى نظره - أن تحاول معاودة النظر إلى جارها الجديد ذى النظر العارم بغير تردد ولا حياء. ولبث على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد، حتى ظهر رأس الفتاة مرة أخرى فى حذر، فالتقت العينان خطفا، ثم تراجعت الفتاة فيما يشبه الضجر، فضحك ضحكة خافتة وتحول عن النافذة مبتسما راضيا، ثم جلس على كرسى مكتبه الصغير مغمغما «هذا أول شىء حسن نصادفه فى حينا البائس!». وتفكر قليلا وهو ينقر بأصابعه على مكتبه وقال لنفسه: «هى جارتنا بغير شك.. وحجرتها جارة لحجرتى!». واستدعى صورتها فأقر لها بالحسن والخفة، وسر بها سرور إنسان بشىء نفيس صارت ملكيته إليه. وكان فى الحب ذا ثقة بنفسه لا حد لها، ثقة مرجعها السير من فوز إلى فوز، وبطانتها صبر طويل وإرادة لا تلين ولباقة فى الطبع والصنعة، فربما صبر - دون أن يكف عن الإلحاح والسعى والمطاردة - يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما - إن شئت - بعد عام حتى يظفر ببغيته. ومن أقواله المأثورة فى الغزل «لا يجوز لمن يتصدى للحب أن يعرقل (جهاده) بالحياء أو بالجزع أو بالخوف، إنس كرامتك إذا كنت فى أثر امرأة. لا تغضب إذا عنفتك ولا تحزن إذا سبتك، فالتعنيف والسب من وقود الحب. وإذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر فأدر لها خدك الأيمن وأنت السيد فى النهاية!». وقد حمله الهوى يوما على مغازلة فتاة شموس ذات صون وإباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء «أنا رذل سمج بارد لحوح، هيهات أن تقصينى نظرات التأديب أو كلمات التأنيب، كلا ولا الضرب ولا الشرطة، وسأرغمك على تكليمى اليوم أو غدا أو بعد عام أو بعد قرن، فاختصرى الطريق ما دامت النهاية محتومة!» هكذا كان. وقد جلس متفكرا يسائل نفسه: ترى أى نوع من الحسان هى؟.. أجسورة مستهترة يشق على المغرم ترويضها؟.. أم محنكة مجربة يستحيل اللعب بها؟.. أم ساذجة حيية تجشم الصبر محبها؟.. وما من شك فى أن خان الخليلى يغدو محتملا لطيفا بفضل هذه الأنثى

وشبيهاتها. ثم وضع راحتيه حول قذاله كمن ينوى الصلاة وتمتم قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم، نويت الحب، والله المستعان!».

واعتزم الحب حقا، ولكنه لم يدر له بخلد أى طعنة وجهها - باعتزامه - إلى سعادة شقيقه الأكبر الذى يحبه ويجله.

١٨

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقة - قضاها فى القطار - فلم يطرق النوم فيها جفنيه إلا لماما. واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساء، فجلس فى الفراش متثائبا مفتحا عينيه - لأول مرة منذ عام - على نور القاهرة الضاحك. تذكر أمر نقله من أسيوط فطاب نفسا واستلذ الذكر. وكانت تغشى الحجرة سمرة قاتمة فنهض إلى النافذة وفتحها، وذكر لتوه الفتاة السمراء المليحة، فصعد بصره إلى نافذتها، ولكنه وجدها مغلقة، فغادر الحجرة إلى الخارج وكان أبوه نائما، وأمه تنظف السمك تهيئه لقليه، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلا، ثم مضى إلى حجرة أخيه. وكان الكهل واقفا وراء النافذة فلما شعر بمجىء أخيه تحول عنها بسرعة - ولم يدر الآخر كم كلفه ذلك - وتلقاه بابتسامة حلوة، ثم جلسا معا، أحمد على الشلتة ورشدى على الكرسى.

وتحادثا حديث أخوين متحابين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتيتين. ذكر رشدى ما علم قديما من رغبة شقيقه فى التأليف فسأله:

- ألم تشرع فى التأليف يا أخى؟

فوخزه السؤال، ولكنه لم يع بالجواب فقال:

- رأسى مترع بالمعارف، فأيها أختار وأيها أدع!.. والحقيقة أننى لو أردت التأليف ففى وسعى أن أملأ مكتبة كاملة؟ ولكن ما الداعى لمثل هذا الجهد؟.. هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق؟.. هل يمكن أن يهضمه؟.. ألا إنهم رعاع يقرءون رعاعا!

فقال رشدى وكان يؤمن بما يقول أخوه دائما:

- خسارة أن تضيع أفكارك القيمة!

فقال أحمد وكان يؤمن كذلك بما يقول، كأنه نسى ما يدور بينه وبين أحمد راشد من نقاش:

- أنا من السابقين لزمنهم، فلا يرجى لى أى تفاهم مع الناس، فلكل شىء فى الدنيا عيوب حتى التعمق فى العلم!

ـ ولكن هل ترضى يا أخى أن يضيع هذا الجهد العظيم بلا أثر ينتفع به الناس؟!

فسر الكهل بكلامه سرورا عوضه عن ترك النافذة منذ حين، وقال:

ـ من يعلم يا رشدى؟.. فعسى أن أعدل عن استهانتى يوما ما!

ولبثا يتحدثان حتى انطلق آخر مدفع إفطار، ثم جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة فقدمت صحاف السمك التقليدى وأكلوا هنيئا وشربوا مريئا. وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدى بدلته وغادر البيت لا يلوى على شىء. وقد أراد أن يصل إلى كازينو غمرة فى الوقت المناسب، أو بمعنى آخر يبلغه قبل أن يتحلق أصحابه ـ وهم يجتمعون بالكازينو كل مساء للشراب ولعب الورق ـ المائدة الخضراء، وفى التعجيل حكمة لا تخفى على من كان مثله، فليس من شأنه أن يجد مكانا حول المائدة فحسب، ولكن اللاعبين ـ كذلك ـ إذا انهمكوا فى اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل!.. وأجمل ما يجودون به تحية مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق، فإذا اضطروا إلى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضمائرهم وسخط سرائرهم. وفضلا عن هذا فالداخل على لاعبين ـ أثناء لعبهم ـ يعد يُمنا على الفائزين وشؤما على الخاسرين، فلن يخلو الحال قط من أن يجد فريقا يرمقه شزرا. وقد اكتسب بعض إخوانه ـ بسوء المصادفات سمعة سيئة، منهم محام شاب يقول عنه الصحاب إنه إذا وجد بمقربة من لاعبين خسروا جميعا ولم يربح أحد!.. والمقامرون شديدو الحساسية، كثيرو الوساوس، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظ. وقد استقل ترام الأزهر والذكرى ترجع به إلى زمان تلقينه مبادىء المقامرة. كان ذلك وهو فى أولى سنى دراسته بكلية التجارة، فدعى إلى اللعب على أنه تسلية بريئة للفراغ. ثم رئى أن يراهنوا على ملاليم ـ لا لمطمع فى ربح ـ لأن المليم عملة تافهة ـ ولكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام، وسرعان ما صعدت الأرقام حتى أتت على ما فى جيوبهم جميعا، واستبدت بهم شهوة اللعب استبدادا نساهم الوقت والواجب والمستقبل. فالقمار تسلية مخيفة ولذة أليمة وشهوة مجنونة. هو معابثة الغيب، ومراودة الحظ، وطرق باب المجهول، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع والمجازفة والطمع. ثم إنه بعد ذلك صدى لذاك الشعور ـ شعور كفاحنا اليومى ـ المستمد مما نبذله من قوة وتقدير فى معالجة الحياة، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا، وما نرجوه من الحظ والظروف الملابسة لنا، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران. ولكم تمنى فى أحايين كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره!.. ومن عجب أنه ما من مرة فصل عن المائدة ـ فى ختام ليلة متعبة مرهقة ـ إلا وتمنى لو يتوب الله عليه، فإذا أزف الميعاد فى اليوم الثانى هرع إلى الكازينو لا يلوى على شىء. وهكذا تمكن الداء العضال منهم جميعا وانقلب القاتلون للوقت ضحايا!.. وصار واحدا من المقامرين فى عبادة الحظ والخضوع للطيرة، فربما قال لنفسه وهو يهم بفتح النافذة فى الصباح: «إذا

لقيت عددا زوجيا من السابلة فالحظ معى أما إذا كان فرديا فاليوم خسارة!». أو ربما حادث نفسه وهو ماض إلى مائدة الإفطار: «إذا وجد فولا بسمن فاليوم رابح أو فولا بزيت فاليوم خاسر!». وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام، ثم استقل الترام رقم ١٠، فجرى به فى الطرق المؤدية إلى حيه القديم، فاستثار حنانه، ولما شارف السكاكينى شعر بألم نبيل ووجد شريف يقرضان فى شغاف قلبه، وغادر الترام واتجه إلى الكازينو، وفى المكان العهود من الحديقة رأى الأصدقاء - أو رأى أشباحهم لأن الإظلام كان تامًا - فأدرك أنه وصل فى الوقت المناسب - قبل أن يذهبوا إلى بهو اللعب - وأخذ يقترب منهم مبتسما حتى صار فى وسطهم، فعرفوه وصاحوا معا:

- رشدى عاكف؟.. أهلا بقلب الأسد!

وسر بسماع لقبه العزيز - وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته - وتعانقوا عناقا حارا. وكانوا جميعا - مثله - فى منتصف العقد الثالث، منهم من زامله فى المدرسة أو من نشأ معه فى السكاكينى، وكانوا جميعا - فى المجون والإباحية والعربدة شخصا واحدا. قال أحدهم:

- أهكذا لا نراك إلا مع العيد وقد كنا لا نفترق ليل نهار!

فقال رشدى ضاحكا وهو يتخذ مجلسه:

- ستراني منذ الليلة كل يوم، أو منذ اليوم كل ليلة على الأصح!

فسأله آخر:

- وكيف كان ذلك؟

- صدر أمر بنقلى إلى القاهرة!

- ولن ترجع إلى أسيوط؟

- لا.

- الله لا يرجعك!

وسأله ثالث:

- وكيف سلوت عن المائدة عاما طويلا؟!.. لكم أوحشتنا نقودك!

- لأسيوط موائدها، أما عن الأخرى فالشوق متبادل!

ودار الحديث عن أسيوط، حتى سألهم بلهفة:

- كيف تسهرون هذه الليلة؟

- كالليالى التى سبقتها، سننتقل عما قريب إلى البهو الداخلى.

- هذا جميل، ولكن ماذا تقولون فى كأسى كونياك أو ثلاثة؟

ـ أو أربعة أو خمسة؟

ـ أو ستة أو سبعة؟

ولكن واحدا منهم قال مقترحا :

ـ العيد غدا فلنؤجل السكر إلى غد!

ـ لا نؤجل عمل اليوم إلى غد!

وسأله سائل :

ـ وكيف الفسق فى أسيوط؟

فقال رشدى :

ـ أما عن هذا فلا ، هناك عفة بالإكراه؟

ـ الحال هنا بات قريبا من الريف ، فجنود الحلفاء يلتهمون اللحوم والفاكهة والنساء!

وقال آخـر :

ـ واليهوديات عرفن أخيرا مزايا اللغة الإنجليزية!

ـ تراهن يرفلن فى الحرير فإذا اعترضت سبيل إحداهن رمتك بنظرة شزراء وقالت لك بلهجة اسكتلندية صميمة :

Behave like a gentleman, please.

ـ الخادمات يا سيد رشدى ، سقيا لعهودهن ، هجرن المطابخ إلى الكباريهات!

ـ كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهن الفنية!

قال رشدى ـ كالمتحير ـ مبتسما :

ـ والعمل؟! . . هل نشرع فى الزواج؟!

ـ إذا طالت الحـرب ، وازدادت الحـال سـوءا على سـوء ، فلن يبـقى أعـزب . غـير أنا وأنت!

ـ يا إخوانى لقد ظلمتم بعض اليهوديات وبعض الخوادم ، والحقيقة أنهن هالهن ما رأين من عدم اشتراك الأمة فى الحرب فساهمن فى قضية الحلفاء بأعراضهن!

ـ وبذلك صارت المرأة أغلى من السماد!

ـ بل أعز من الفحم!

ـ وغدا إذا وضعت الحرب أوزارها ، فماذا يفعلن؟!

ـ تصير المرأة أرخص من اليابانية!

ـ ويصير العشق بالجملة ، فيصيد الشاب فى ليلة واحدة ثلاث نساء ـ مثلا ـ واحدة للقبل وأخرى للنجوى وثالثة للمداعبة إلخ .

ـ إلا إذا تدخلت الحكومة فى سوقهن للمحافظة على الأسعار!

وضحك رشدى ضحك إنسان حرم شهود هذا المجلس عاما بغير نقصان. ولبثوا يشربون ويتسامرون حتى وافت التاسعة فنهضوا إلى بهو اللعب المحبوب. فى تلك الليلة ربح رشدى مبلغا كبيرا ـ أو هكذا يعد بينهم ـ فبلغ ربحه فى منتصف الثانية عشرة، ثلاثة جنيهات، وأضاف إليها ثلاثين قرشا حين شارفت الثانية عشرة ـ وهو موعد انتهاء السهر ـ ثم انفضوا من حول المائدة. وبدأ اللعب فرحا مسرورا، لأنه ممن تقرأ سرائرهم على صفحات وجوههم. وجعل يترنم بصوت حنون كالمناجاة، ولم يمسك عن الترنم حتى حين صاح به أحد الخاسرين: «أصمت يا أخى فصوتك يهيج أعصابى!». وعلى أثر انطلاقهم فى الطريق اقترح أحدهم قائلا:

ـ ما رأيكم فى أن نكمل اللعب فى بيتنا؟

فقالوا فى صوت واحد:

ـ هو كذلك!

فسأل المقترح رشدى قائلا:

ـ وأنت؟

فقال الشاب ضاحكا:

ـ أوافق تحت شرط أن تطلقوا لى حرية الغناء!

ومضوا إلى بيت الداعى فى شارع أبو خوذة، وهيئوا المائدة، واستأنفوا اللعب بنهم لا يشبع. ودفئت الحجرة المغلقة النوافذ بأنفاسهم، والتهب الكحول بأفئدتهم، فتصببوا عرقا، وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم:

ـ حسبكم لعبا وإلا قضينا نهار العيد الأول نائمين!

فكفوا عن اللعب، وقد خسر رشدى ربحه جميعا وثلاثين قرشا أخرى!

وقال له أحدهم متهكما:

ـ كيف لم تتمتع بما منحناك من حرية الغناء؟!

وضحكوا جميعا، فدارى بكياسته غضبه وجاراهم فى ضحكهم. وودعهم عند ذاك ومضى إلى العباسية، وقد انقطعت المواصلات جميعا، مدلجا من طريق الحسينية، ووجد الطريق خاليا والسكون مطبقا والظلام جاثما. وكان جسده ساخنا مبتلا بالعرق وحلقه يابسا، فاصطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة ـ خاصة ـ فى الهزيع الأخير من الليل. وما عتم أن سرت فى أطرافه قشعريرة باردة، ولسعت البرودة صدره، وزكم منخره. وكانت ليلة السرار وقد احلولك غبشها، وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر

النجوم الساهرة، فلاحت المنازل القديمة على جانبى الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة فى سبات عمق. وجعل يحدث نفسه: أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضى معهم إلى البيت؟.. ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يوما ما!.. بيد أن أسفه كان ضعيفا كإرادته سواء بسواء، فالمقامر المدمن يلقى الخسارة عادة بهدوء ولن يعدو الأمر فى نظره التسليم فى يومه وعقد الرجاء بغده. وتنبه إلى طول الطريق وقذارته فتأوه مغيظا محنقا. ولما بلغ مدخل خان الخليلى ذكر وصف شقيقه للطريق «ثانى ممر على اليمين وثالث باب على اليسار»، وتلمس سبيله فى الظلمة حتى انتهى إلى العمارة، ومضى إلى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح، وما أن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التى تشرف عليها من عل، وجاد ثغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل، وطاف بمخيلته الوجه الأسمر المليح، فتأسى عن هموم الليلة جميعا، وتمتم قائلا: «إذا كان سوء الحظ مؤلما فحسنه غير منكور». وغير ملابسه، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجه كشكول مذكراته، جلس ليدون خاطرة، قبل النوم.

١٩

وكان الأب أول المستيقظين، فتوضأ ثم غادر البيت حين الفجر ميمما المسجد لصلاة العيد. فاستقبل أول نسمة من نسمات اليوم الجديد، ورأى الفجر الجميل يضج بجموع القاصدين، يخوضون أمواجه البنفسجية الحالمة مسبحين بحمد الله العلى.

وكان أحمد ثانى المستيقظين، فنهض نشيطا حبورا، وحلق ذقنه بعناية، وارتدى جلبابا جديدا وطاقية جديدة. ثم وافته أمه إلى حجرته وقد مشطت شعرها وأخذت زينتها، فقبل يدها، وقبل خدها، وقبلت خديه، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية، ومضيا معا إلى الصالة وجلسا جنبا إلى جنب يتحدثان وينتظران بقية الأسرة، من انطلق منها يبتغى مرضاة الله، ومن يغط فى نومه غطيطا. وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل، فدخل عليهم يرفل فى عباءته الفضفاضة، وما يزال يبسمل ويحوقل. فمثلا بين يديه، ولثمت الزوجة يده، وفعل أحمد مثلها. فهنأهما الرجل بالعيد، وجلسوا جميعا وهو يقول:

- كل عام وأنتم بخير. ربنا يجعله عيدا سعيدا لنا وللمسلمين كافة.

ورمى ببصره الذابل إلى آخر حجرة فى الشقة وقال كالمتهكم:

- هل استيقظ الغلام أو أنه لم ينم بعد؟!

فبادرت المرأة للدفاع ـ كعادتها ـ قائلة :

ـ تأخر الغلام أمس لأنه لقى إخوانه بعد فراق عام، ولأنه عاد بطبيعة الحال ماشيا على قدميه .

على أنه لم يطل بهم الانتظار، فانفتح باب الحجرة الأخيرة ومرق منه الشاب إلى الحمام الذى يقابله، وأقبل نحوهم ـ قبل مضى ربع ساعة ـ يخطر فى بيجامته وقد سرح شعره الأسود، وتعطر بشذا البنفسج، وبدا وجهه مائلا للشحوب إلا أنه يقطر منه حسن الشباب ورواؤه، وتألق ثغره بابتسامة حلوة لا يضىء بمثلها فى الأسرة إلا ثغر والدته الطروب. وتجاهل الشاب ما ينطوى عليه والده من الانتقاد فاقترب منه. وانحنى على يده، وقبلها باحترام، وانثنى إلى والدته فقبل يدها وخدها، ثم لثم جبين شقيقه، وبسطت الأم راحتها وقالت ضاحكة :

ـ عيديتى يا سادة وكل عام وأنتم بخير !

وقد تعود كل منهم أن يعطيها نصف جنيه عيدية. فكانت تفرح بعيديتها فرح الأطفال، بل تنفقها كما ينفقها الأطفال، فتبتاع ما تشتهيه نفسها من الشيكولاتة والملبس .

ثم أحضرت فطار العيد ـ كعكا وحليبا ـ فأقبلوا عليه فى غبطة. والصائم يشعر عادة بغرابة وإنكار وحذر وهو يتناول أول لقمة صباح العيد، ثم يصيب من طعامه جذلا مسرورا، فليس أجمل وقعا فى النفس من لحظة سعيدة بين واجب قامت بحقه وتصبرت على أدائه وبين تمتعها بلذة الجزاء وراحة الضمير. وتناولوا الكعك بأناملهم، وقضموه بلذة حتى رسم دوائر من السكر حول أفواههم، ثم أساغوه بالحليب، وما زالوا حتى شبعوا، وقالت الأم بلهجة أسيفة، تكلفتها لتستوهبهم الثناء والاطراء :

ـ يا حسرتاه على أيام السلم حين السمن سمن والدقيق دقيق والكعك كعك !

وأدرك رشدى ما ترمى إليه والدته فقال بلباقته المعهودة :

ـ كعكنا لذيذ فلا يدع لنا حاجة للتحسر على سواه؟

وتفرقوا فى الحجرات. وعاد أحمد عاكف إلى حجرته وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان، بل كان كذلك منذ كاشفته بتحية الوداد ليلة القدر فلم تغب عن مخيلته قط صورة شبحها الرقيق وهى تجود بإيماءة السلام، ولا خمدت بعد ذلك العواطف التى بعثتها تلك الإيماءة الساحرة. فرح الكهل، واستخفه الطرب، وهيأ له مرحه وطربه أنه سيسترد شبابه الريان فيخضر غصنه الباهت ويجرى فيه ماء الحياة الدافق، ويسود فوداه، وتغشى صلعته لمة فينانة، وتغزر أهداب عينيه فتكحل أشفارهما المشربة بالاحمرار بيد أنه لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة، وتغيبت عن موعدها المألوف المحبوب،

فلم يشك فى أنه الخجل الذى يتشجع بالظلمة ويفر من ضوء النهار، فدرت أضلعه حنانا وعطفا - ومن أدرى به منه بأهوال الخجل - وسر سرورا كبيرا إذ وجد أخيرا من يستتر عنه - هو - حياء! . . ولكن هذا صباح العيد وقلبه يحدثه بأنها لن تبخل عليه بنظرة تسر الروح وتحيى الأمل. وها هو يرفع رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعيها والشمس تغمرها فيشى لألاؤها بالوجه الذى أطل منها، ولبث ينتظر مجيلا بصره فى الحى الفرحان بالعيد. وقد بث روح العيد فى كل شيء فتراها فى الألوان وتسمعها فى الجو وتشمها فى الهواء، وغدا ذلك التيه - الذى تحده العمارات - يرقص فرحا ويغنى طربا ويبعث بحرارة اللذات. جرى الأطفال هنا وهناك بثيابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة، وتطايرت وراءها الضفائر والشرائط، وهتفت الزمارات، وفرقعت قنابل السلام ولاكت الأفواه الحلوى والنعناع، وملأت الأناشيد والأغانى الأسماع، واكتظت المقاهى بأهل المدن والريف، فازدهت الأرض عيدا والسماء. وتصفحت عيناه المناظر والوجوه بعقل غائب، حتى جوزى على صبره أجمل الجزاء، فرأى فتاته تبرز من باب الشرفة فى أبهى حلل، فصعد إلى وجهها الأسمر الجميل ناظريه. وتشجع على غير مألوفه فلم يطرق، وابتسم وفؤاده يغلى من شدة الخفقان، وأحنى رأسه إحناءة خفيفة، وكانت ترنو إليه بعينيها النجلاوين، فابتسمت ابتسامة حلوة ردا على تحيته، ولم تحول عينيها عن عينيه فتولاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجاعته، ولكنها ابتسمت إليه مرة أخرى وتراجعت فى خفة حتى اختفت عن ناظريه، فتنهد بارتياح وسرور. ومناه الأمل أن يراها مرة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولكن خادما جاء متعجلا وأغلق باب الشرفة، فشعر بخيبة وأسف. ثم ابتعد عن النافذة، وكانت الساعة تقترب من التاسعة فذكر أنه على موعد مع الصحاب فى الزهرة - صار أخيرا من أصحاب المواعيد فى القهوات - فارتدى ملابسه الجديدة - البدلة والطربوش والحذاء والقميص - ونظر إلى صورته فى المرآة فأعجبته جدته وأناقته، وذكر أيام شبابه الغابر - قبل أن يعبس له الزمان - حين عرف دهرا بالأناقة! . . وغادر البيت جذلا طروبا، فسار متمهلا ثملا بخمر الأمل والأحلام، يسائل نفسه فى حيرة الفرحان: «وماذا بعد الابتسام؟ . . ماذا بعد يا دهر؟!».

٢٠

ورجع رشدى إلى حجرته، فأشعل سيجارة وراح يدخنها وراء النافذة مصوبا بصره نحو النافذة المرموقة، متوقعا بين آن وآخر أن يلمح جارته الحسناء. وصدقه الأمل فلاحت الفتاة فى النافذة بفستانها الجديد وعلى كتفيها معطف رمادى، إلا أنها تراجعت

فى غير إبطاء كأنما تفر من نظرته الثاقبة. ولمح الشاب المعطف فخطر له أنها متهيئة للخروج، فدلف إلى المشجب بغير تردد وأخذ فى ارتداء ملابسه. وغادر البيت بعد دقائق معدودات وساءل نفسه أين يحسن أن ينتظر؟.. وذكر لتوه الممر الضيق الموصل بالسكة الجديدة، وسار نحوه مسرعا، ثم توقف، عند موضع اتصاله بالطريق، على الطوار. وكان الشارع يضطرب بتيارات السابلة وقد انحدرت من الدراسة والعربات الكارو غاصة بالغلمان والبنات يغنون ويرقصون ويطبلون، فلبث فى مكانه عينا على الشارع المائج تنظر فى ابتسام وعينا على الممر تترقب فى رجاء. وكان خبيرا بأمثال ذاك الموقف فلم يساوره الجزع، بيد أن الحال لم يقتضيه صبرا طويلا فما عتم أن رأى فتاته تبدو فى أول الممر يسير لصقها غلام عظيم الشبه بها. فتشاغل عن النظر إليها بإشعال سيجارة وهو لا يشك فى أنها تراه، ولكن هل أدركت يا ترى أنه ينتظرها؟.. ثم تبعها عن بعد قريب فى طريقها إلى الأزهر فرآها جملة لأول مرة وبدت فى السادسة عشرة على أكبر تقدير، متوسطة القوام رشيقة اللفتات، بيد أن وجهها أجمل ما فيها حقا، وأجمل ما فى وجهها عيناها النجلاوان. ولم يستطع أن ينعم النظر لأنها بلغت المحطة مسرعة وصعدت إلى حجرة السيدات ومعها أخوها ـ على الأرجح ـ فاستقل الترام وراء الحجرة مباشرة ليتمكن من رصد نزولها، وتحرك الترام وهو لا يدرى أين تنتهى به المطاردة!.. وجعل يحدث نفسه: شابة صغيرة، وجهها ٥,٧ على ١٠ وجسمها ٥,٦ على ١٠، سنعلم بعد حين أيسيرة هى أم عسيرة، وهل تلهو بالحب أم تحلم بخاتم الخطوبة؟.. سنعلم كل شىء فى حينه، ولكنها إذا كانت من الحالمات بالخاتم فسيغدو الأمر شاقا وربما مضجرا أيضا، على أن ينبغى أن نركز اهتمامنا فى شىء واحد قبل أى شىء وهو أن نستدرجها إلى الكلام ولنر ما يكون!.. ووصل الترام إلى ميدان الملكة فريدة فغادروه جميعا ـ هى وأخوها أولا ـ ثم هو ولاحت منها التفاتة على الطوار فرأته على بعد ذراع منها يديم إليها نظراته الجسورة الثاقبة، فحولت عنه وجهها، وتظاهرت بالانهماك فى محادثة الغلام، ولم يخالجه شك هذه المرة فى أنها أدركت أنه يتابعها عن عمد. ثم رآهما يستقلان أول ترام قادم ـ وكان ترام الجيزة ـ فصعد إليه بغير تردد متسائلا: «ترى هل يقصدان إلى قريب فى الجيزة ليعيدا عليه؟!». وقرر فى تلك اللحظة أن يهبها اليوم جميعا عن طيب خاطر ولكنهما غادرا المركبة عند محطة عماد الدين، فغادرها مسرورا وقد أيقن أنهما ذاهبان إلى سينما. وعبروا الطريق إلى شارع عماد الدين، الاثنان أولا وهو فى أثرهما متحفزا لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرته ما يريد من المعانى إذا هى التفتت وراءها، ولكنها مضت لا تلوى على شىء ممسكة بيد الغلام الذى هرول ليسير فى حذائها، وجعل لا يحول عينيه عن ظهرها وساقيها، ويتبين حال مشيتها ومواقع قدميها، فوجد من السرور برؤيتها من وراء مثلما وجد لرؤيتها من أمام، وأعطى صورتها الخلفية جملة ٨ على ١٠، وتنهد

عند ذلك متذكرا وجوها أبى الحسن أن تنسى وقال لنفسه : «حقا فشى الحسن فى مصر هذا الزمان الحديث» . ولما بلغوا ريتز التفتت وراءها فرأت عينيه محدقتين بها فاستردت عينيها بسرعة - وفوجىء فلم يسعه أن يضمن نظرته شيئا - وحثت خطاها فى اتجاه استوديو مصر ، وأسف على ما فاته من حديث العيون ولكنه سر بالسينما التى اختارتها فتاته - لأنها كانت تعرض فيلم دنانير - وأدرك أن هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين . وأراد أن يجلس جنبها فى الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة فى الصف الممتد أمام شباك التذاكر ليتمكن من اختيار مقعد لصق مقعدها ، بينما تنحى الغلام جانبا ينتظر متفرجا على الصور ، وصار منها على قيد خطوة . فخال أنفاسه تمس ضفيرتها . فاستثار قربها من صدره إحساسا شبيها بما تستثيره رائحة زكية عميقة ، وتتبع أنملتها وهى تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة ، فرأى إلى يمين الكرسيين مقعدا شاغرا وإلى يسارهما ثلاثة ، وتساءل ترى إلى أى ناحية تجلس الفتاة؟ . . وأجرى فى سره على الناحيتين القرعة المعروفة : «حطة يا بطة يا ذقن القطة عمى حسن . . إلخ» . فرست «حداه» على المقعد الأيمن فاختاره فيما يشبه الاطمئنان . وتحول عن الشباك وأجال بصره فيما حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثرا ، بيد أنه لم ينزعج فالتذكرة فى يده ، وهى خليقة بأن توصله إليها مهما ضل عنها ، ولا يدرى كيف ذكره هذا - قوة التذكرة - بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهتز صدره الرقيق ، ودخل السينما منفعلا . ومضى به الدليل إلى مقعده وهو يرجو أن تكون «حداه» قد صدقته الهداية ، ولكنه رأى الغلام يجلس بينه وبين أخته! . . ورأته الفتاة قادما فطرفت عيناها ارتباكا وتجنبت أن تحولهما إلى جهته! . . وجلس الشاب فى ثقة وسرور ، واسترق إليها النظر مرة ومرة فوجدها فى المرتين شاخصة إلى ما أمامها ، واستشف من تورد خدها وارتباك هيئتها ما يخامرها من حياء واضطراب ، فأشفق عليها ، ورأى عن حكمة ألا يشق عليها ، فجعل يتسلى بإجالة بصره بين البناوير والألواج والمقاعد مزجيا تحيات المودة إلى الصدور والنحور والثغور والمعاصم ولم يطل به المطال فدق الجرس ثم أطفئت الأنوار ، وانحسرت الشاشة عن دنيا الأحلام . وطاب له المجلس فى الظلمة على كثب من الفتاة التى أضمر لها غزلا - وإن لم يخفق لها فؤاده بعاطفة بعد - حتى غرد الصوت الإلهى بأغنية النبع «طاب النسيم العليل» ، فغفل عن الوجود . وكان يحب الغناء حبا خيل إليه يوما أنه خلق ليكون موسيقيا ، فتسلسل الفيلم وهو هائم فى نغمة روحية عالية . وانتهى العرض وأضيئت الأنوار ونهض النظارة . والتفت رشدى نحو الفتاة فرآها واقفة مغمضة العينين تفاديا لتأثير النور الباهر بعد طول الاستسلام للظلمة ، فانتظر حتى فتحتهما على نظرته العارمة! . . وعنى خارج السينما بملاحظة أصابع يديها فعلم أنها ليست مخطوبة ، وابتسم لذلك ابتسامة ارتياح . ثم تعقبها فى العودة بنفس العناد الذى تعقبها به فى الذهاب ، إلا أنه تثاقل عن متابعتها فى الأزهر كيلا

يشى بسره لأحد من أهل حيه الجديد. وعاد إلى البيت فوجد الأسرة فى انتظاره للغداء. وما عتمت أن دعتهم أمهم قائلة بلهجتها المرحة:

- هلموا إلى طاجن العيد.

٢١

وعادت نوال إلى البيت وقد بلغ منها التأثر، راحت تسائل نفسها ما لهذا الفتى الجسور لا يكف عن مطاردتها مذ وقعت عليها عيناه غداة الوقفة؟

جاوزت نوال فى ذاك الوقت السادسة عشرة بقليل. وكانت ذات حسن يستحق الإعجاب. وتحلى حسنها بميزتين لا يستهان بهما: السذاجة والخفة ولكن أية سذاجة، وأية خفة؟.. السذاجة التى توحى بها بساطة الجمال، والتى تطالعها فى الحدقة الصافية الواسعة - فى غير مبالغة - والنظرة المستقيمة، بيد أنها ليست سذاجة الغفلة أو البلاهة. وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح، فلا هى إلى الطيش والرعونة تنتسب، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد. وهى سمراء، وكثيرا ما تقول أمها إن السمرة روح الجمال ومصدر الخفة، ولكنها كانت فى الحقيقة من عشاق اللون الأبيض. ولذلك أخذت تعالج نحافة ابنتها بعقاقير السمن لاعتقادها بأن السمن يكسب البشرة إشراقا. وقد تقدمت الفتاة فى دراستها الثانوية تقدما يبشر بالنجاح، ولكنها انضمت فى الواقع إلى قافلة العلم، وليس العلم ما تنشد، ولا المدرسة بالمأوى الذى يهفو إليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعد أمها أستاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهى وحياكة وتطريز، وما رأت فى العلم يوما إلا زينة تحلى بها أنوثتها وحيلة تغلى من مهرها. فتركزت حياتها فى هدف واحد: القلب أو البيت أو الزواج. أليست أول دعاء دعيت به «العروس»!.. وأنه لأجمل دعاء، وأنها لتتلهف على أن تكونه، وترقب حظها فى صبر ورجاء. ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل، وأحبت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها. وكان الأستاذ أحمد راشد المحامى أول رجل - من غير محارمها - يتصل بها عن كثب لإعطائها الدروس. وتلقته منذ أول مقابلة باستحياء، ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء، فلم يتمثل لعينيها «أستاذا» بقدر ما تمثل لهما رجلا!.. ولان قلبها وأوشكت الحياة تنبض به. بيد أن الشاب المحامى كان صارما رزينا أكثر مما ينبغى، وعجزت كل العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عويناته السوداء، ولما تعقب

تهاونها بالتأنيب بدا لعينيها مكفهرا مخيفا فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه . وكثيرا ما كان يحدثها بكلام لا تفقه له معنى ولا تجد له طعما مثل قوله لها مرة : «يخيل إلى أنك لا تحبين العلم كما يجب وإن لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الإنسان، وينبغى أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله . أين الشوق إلى أسرار الوجود؟ . . أين اللهفة على المعرفة؟ . . لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل فى طريق العرفان والمجهول . . » . وفى مرة أخرى سألها : علام نويت بعد البكالوريا؟ . . أما عرفت بعد العلم الذى ترغبين فى دراسته فى الجامعة؟» . وهالتها كلمة «الجامعة» . أيمتد بها عهد الدراسة حتى الجامعة؟ ! . . وأجابته باقتضاب : «لا أدرى» . فقال لها الشاب ممتعضا : «أما زلت عند موقفك السلبى من العلم؟ ! » . ولم تفطن إلى أنه يريد أن يصوغها على المثال الذى يحب فحسبت أنه يحتقرها ويزدريها فاشتدت منه جفولا .

ثم جاء أحمد عاكف الجديد . وقالت الأنباء إنه أعزب . وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان إليها النظر فتحرك قلبها نحوه كما تتحرك الراحتان نحو مجمرة فى ليلة شديدة البرد والزمهرير . وقالت لنفسها : إنه رجل جاوز حدود الشباب . ولكنه ما يزال فى عنفوان الكهولة . ولابد أن يكون موظفا محترما لأنه غالبا ما يصير الموظف ـ فى مثل عمره ـ محترما وأيما كان فلن يسعها أن تغضى عن نظراته الحيية التى يرسلها إليها فى أدب وتردد ، ولا أن تجد لذلك من معنى غير الوداد ، وإلا ففيم يثابر على الانتظار والنظر أصيلا بعد أصيل؟ ! . . على أنها تساءلت فى حيرة : لماذا لا يخطو خطوة جديدة؟ . . هلا ابتسم إليها؟ . . هلا أومأ بتحية؟ ! . . ترى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء؟ ! . . وإذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباها فى الأمر؟ . . أو لماذا لا يكلف أمه بمهمة خطبتها؟ ! . . وكانت نوال حيية وفى حاجة إلى من يطاردها ، فأوقعها حظها على كهل فى أشد الحاجة إلى من تطارده ! . . إلا أن شجاعتها لم تخنها ـ خاصة بعد أن يئست من شجاعته ـ فبدأته بالتحية من شرفتها وتلقت رده الجميل ، وحدثها قلبها بأن الأمل المرموق قد بات قريب المنال .

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقة ، بل من الحجرة التى تواجه حجرة نومها ، وأدركت من النظرة الأولى أن الشاب الجديد أخو صاحبها الكهل ، ولكن أين كان قبل اليوم؟ . . وما باله يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التى دعت الدم من جميع أطرافها إلى خديها وحملتها على الفرار؟ ! . . يا له من شاب نضير جم المحاسن جذاب المنظر ! . . ويا لها من نظرة ثاقبة ترعش القلب ! . . ولكن يا ترى أهذا شأنه مع كل حسناء؟ . . أم جذبه إلى وجهها شىء لا عهد له به؟ . . وهل يقيم فى هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يختفى فجأة كما ظهر فجأة . . وقال لها قلبها إن مثل هذا

الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال، ولكن الكهل لم يعد غريبا، فبينها وبينه تحية متبادلة، وهو المفضل إذا طلب يدها، وما ينبغى أن تنسى أن بينهما عهدا صامتا لا يلبث أن يصير ـ إن شاء الله ـ زمرا وطبلا وثريات لألاءة ورملا فاقعا يسر الناظرين؛ وفى صباح العيد ارتدت ملابسها الجديدة، ودعاها قلبها إلى الظهور بالشرفة ليراها الكهل فى أبهى حال وأجمل منظر، ووجدته فى النافذة فى أحسن صورة ممكنة، فذكرها جلبابه وطاقيته بأبيها، وتبادلا التحية، ثم عادت إلى حجرتها، ونازعتها مشاعرها إلى إلقاء نظرة على النافذة الأخرى، فوجدت الشاب الجميل وكأنه ينتظرها، فتراجعت أمام نظراته العارمة، وحسبت أنه لن يتخطى بجسارته نافذتها، فما راعها إلا أن تجده بانتظارها فى السكة الجديدة!.. وتساءلت فى الترام ترى هل تبعها أم أنه وهم ما رأت؟.. ولكنها علمت بعد حين أنه يتعقبها عامدا، وأنه ممن لا يثنون عن غاية، ومن عجب أنه نسى وجودها فى السينما بترنيم أم كلثوم!.. أما هى فلبثت تشعر بوجوده على كثب منها طوال الوقت!.. وعادت إلى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة: «لو أن جميع الشبان فى مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج؟». ووجدت قلبها يؤنبها على تسرعها ببذل التحية للآخر، ولكن هل كانت تعلم الغيب؟.. وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا لسمكه طعما!

* * *

وغادرت الشقة عصرا بقصد زيارة حرم سيد أفندى عارف، وخطر لها أن تصعد إلى السطح ـ قبل القيام بالزيارة ـ لتجول جولة فيه مسرحة الطرف بين المآذن والقباب، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البنات لعبهن فى الطرقات. ودارت مع السور على مهل متصفحة المناظر مقلبة وجهها فى الآفاق، وشعرت فجأة بداع يدعوها إلى النظر نحو مدخل السطح، فما راعها إلا أن تراه هنالك يملأ طوله فراغ الباب وينظر نحوها فى هدوء وفى عينيه الجميلتين شبه ابتسام!.. واضطرب قلبها لمرآه اضطرابة عنيفة زلزلت صدرها الصغير، وشعرت بخوف وقلق، ثم استعادت رباطة جأشها موقنة بأن الموقف أحرج من أن تلقاه بالحياء فحسب، وتعلقت عيناها وهما تنظران إليه بالإنكار والذهول.

٢٢

ثم حولت عنه عينيها، وولَّته ظهرها، وألقت ببصرها إلى الأفق البعيد دون أن ترى شيئا، وقال لها عقلها إنه ينبغى أن تزايل المكان إذا أرادت ولكنها لم تحرك ساكنا، وأهاب

بها شعور باطنى بأن تتجاهل وجوده، وبألا تعجل بذهابها، فلبثت هى لا تريم، وتولاها إحساس بالحياء والقلق. وتنهد رشدى ارتياحا لما رآه من تفضيلها البقاء على الرحيل، وقال لنفسه جذلا: «أصابت سن الشص مرماها، ولكن ينبغى معالجة البلطية بحكمة ومهارة!». وكان علم بصعودها إلى السطح اتفاقا، إذ كان ينظر إلى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحت منه التفاتة على سور السطح، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادا للخروج إلى سهرته، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص إلى الصعود إلى السطح من فوره، ولما اطمأن إلى بقائها تفحص المكان بهدوء حتى أدرك خلوه، ثم سار متمهلا إلى موقف قريب منها، ولم تكن تخونه الجرأة الجنونية، ولكنه آثر معها الأناة لما عهده بها من حياء، ورأى على السور - فى موقع وسط بينه وبينها - عمودا خشبيا شد إليه حبل الغسيل، ووقعت عليه يمامة، فرفع رأسه إلى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه: «مساء الخير يا يمامتى!». ورآها تلحظ اليمامة بطرف خفى فابتسم واستدرك: «ما أجمل سمرتك!.. السمرة حلية الجمال وروح الخفة، هلا سمعت بأغنية السمرة: يا اسمر اللون حياتى الأسمرانى»؟.. وأنصتت الفتاة إليه - وإن تظاهرت بعدم المبالاة - بأذنين مرهفتين، وطاب لها صوته، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفتاها، ثم غلبها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها، وجعل هو يقول محدثا اليمامة: «كيف لا تردين تحيتى؟.. كيف تعرضين عنى؟.. بل كيف اندست القسوة إلى هذا الحسن الرقيق؟!». وتساءلت أما ينبغى أن تمضى إلى حال سبيلها؟.. ألا تخاف أن يصعد البواب أو بعض السكان إلى السطح فيريبه من موقفهما ما يريبه؟.. أبها مس يشد قدميها إلى الأرض؟!.. واستدرك رشدى قائلا: «ألا تعلمين يا يمامة أنى جارك؟.. وأن السماء الرحيمة لن تستطيع أن تغيبك بعد اليوم عنى؟.. وأنى سأكون دائما حيث تكونين!». وعطفت نوال رأسها قليلا كأنما لترى اليمامة فوجدتها قد طارت!.. وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة، ولم تعد تجدى مخاطبة اليمامة، فقال لها بهدوء:

- سعيدة...

فأشاحت عنه وجهها مرة أخرى، وحركت قدميها ببطء شديد نحو الباب، فدنا منها جزعا وقال:

- ألا تردين على؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورد خداها واختلج جفناها، فاقترب منها أكثر من قبل وقال:

- أما تجودين بكلمة واحدة؟.. كلمة واحدة، لتكن عذلا إن شئت، بل لتكن نهرا!

ولكنها حثت خطاها فهم باعتراض سبيلها فقالت له بحدة مصطنعة:

ـ إليك عن سبيلى ! . . واخجلتاه لسلوك الجار !

ـ هل يعيب الجار أن يتودد إلى جارته الحسناء !

ـ أجــل .

ـ وإذا أجبره حسنها على أن يتودد إليها فمن الملوم؟

ـ لا تستدرجنى إلى الكلام ، وإياك وأن تعترض سبيلى .

ولكنه اعترض سبيلها غير مبال تحذيرها ، فتملكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعه ، فلم يسعه اللحاق بها . ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقة سيد عارف . لم تكن غضبى ولا مستاءة ، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء ، وجلست فى الشرفة تنتظر ربة البيت فلم تفارق مخيلتها صورة محياه الجميل ، ولا غاب عن سمعها رجع صوته الحنون . وجعلت تستذكر أحاديث أترابها فى المدرسة عن حيل الشبان ورسائل الغرام ونوادر الغزل ، ثم تساءلت ترى هل تدلى بدلوها منذ الغد فى حديث الحب الذى لا يمل؟ . . ولكن أى أنواع من الشبان يكون؟! . . ونزل رشدى بعد قليل مبتسما مسرورا . ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد ، فكأنما كان يقوم بتمثيل دور محبوب ، بيد أنه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجا يورى القلب ويقدح شرره فإذا هم ضاحكون أو باكون . ثم انطلق إلى الكازينو بشهية متفتحة للسرور والشراب والطرب .

٢٣

ومضت أيام العيد فلم تقع عينا أحمد عاكف عليها مرة أخرى ، وحسب أنها فى شغل بالعيد وملاهيه فدعا لها قلبه بالسرور ، وكان كل مطمعه أن تراه فى البدلة الجديدة التى فصلها خاصة إكراما لها ، فقال لنفسه : إن البدلة لا تبلى فى أيام وسوف تراه يوما ما حتما وهو يرفل فيها . وشغل هو كذلك بعطلة العيد وإن كان أنفقها جميعا فى قهوة الزهرة بين الصحاب ، ما عدا سليمان بك عتة الذى سافر ليعيد فى قريته ، ومن عجب حقا ألا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام العشرة والصحبة ، وذلك لأنه كان يتطلب فى الصديق سجيتين لا تجتمعان : أن يدين له ـ هو ـ بالتفوق والأستاذية ، وأن يكون مثقفا ـ ولو لحد ما ـ ليتمتع بصداقته ، ولكنه غالبا ما يجد نفسه بين اثنين : واحد عامى ـ أو فى حكم العوام ـ يعجب بشخصه ويؤمن بعقليته ، وآخر مثقف لا يذعن لمشيئته ويجادله جدل المعتد بنفسه المتحدى غيره ، ولعله أن يحب الأول كما يمقت الثانى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق

المنشود. وقد أحب المعلم نونو، وكمال خليل، وسيد عارف، ومقت أحمد راشد، ولكنه ظل بغير صديق، أو كان شقيقه رشدى الصديق الوحيد فى دنياه المحبوبة.

مضت إذًا أيام العيد دون أن تقع عليها عيناه. ولكنه لم يكف لحظة عن التفكير فيها، ولا انقطع عن إدامة النظر فيما جد فى حياته من أمور. ألم تحدث عاطفة، ويستيقظ قلب، ويبتسم أمل؟!.. ألم تحدث عاطفتان، ويستيقظ قلبان، ويبتسم أملان؟!.. لقد أحب بعد أن حرم من الحب زهاء ثلاثين عاما، وأحب بقلب آذن شبابه بوداع، فهو يستمسك بالحب كآخر أمل مرجى فى سعادة الدنيا، وجاء الحب عفوا بعد أن أشفى على اليأس، ورجع فؤاده النغم القديم فتيا نديا عذبا كأنه بعث من جديد. فوجب أن يفكر فى أمره، ويقبل على تدبير شأنه. ومضت أيام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير، فهذى الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيبها، وتجود له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظه، فلن يحجم ولن يتردد، وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم فى وحدته: «الزواج!» أجل، ولكنه فى الأربعين وهى دون العشرين، فهو فى سن أبيها، ولكن ما وجه الإنكار فى ذاك؟.. ألم تعلن له بميلها إليه - وقد خفق فؤاده للذكرى - ألم يختره قلبها؟.. وأما صديقه كمال خليل فيرجح أن يرحب بيده، وإن لم يخل الأمر من دهشة، وتخيل أن القوم راحوا يتحرون عنه فعلموا أنه (فى الأربعين، كاتب بمحفوظات الأشغال، درجة ثامنة - فهو من المنسيين فى الحكومة كما أنه من المنسيين فى الدنيا - مرتب خمسة عشر جنيها!) ألا ينزعج كمال خليل الذى يحسب أنه من رؤساء الأقلام؟.. ألا تقول الست توحيدة - أم نوال - إن عمره كبير ومرتبه صغير؟!.. وعض عند ذاك على شفته، وعاوده شعور الأسى واليأس: وأوشك أن يثور به الغضب، وأن يقول كما قال مرة فى مثل هذه المناسبة: «إن الدنيا جميعا لا تساوى زنتها قذارة إذا سوّلت نفس لصاحبها أن يستهين بى؟»، ولكن توثبه لتجربة حظه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب، فطرد عن فكره خواطر اليأس، واستعاد سروره ودواعى الأمل والسعادة من حياته الجديدة.

وانقضت أيام العيد الثلاثة وهو يفكر التفكير الذى يسبق العمل مباشرة، وجاء يوم الجمعة الأول بعد العيد ولما يحقق شيئا من أفكاره، بيد أنه رآها صباح ذلك اليوم لأول مرة، بعد مرة أول أيام العيد - وسر فؤاده المشوق. كان اليوم من أيام نوفمبر الأولى. والجو رقيق منعش تسرى فى تضاعيفه من آن لآن هبات نسيم بارد، والسماء تغشاها غلالة من سحاب ناصع البياض ينضح بنور الشمس المتوهج، ففتح النافذة - نافذة نوال - ورفع رأسه، وما يدرى إلا وفتاته تطل عليه كالأمل النضير والحلم السعيد، وحياها بابتسامة وإيماءة، فردت تحيته مبتسمة، ولكم عشق ابتسامتها، ولبث يملأ عينيه من سمرتها الصافية. وخطر له وقتذاك أن يحاول تفهيمها بالإشارة - وعلى قدر المستطاع - أنه

يوشك أن يحدث والدها بشأنهما، ولكنها سبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنما تقول له إنها ترغب أن تنام، وأشارت على رأسها وقطبت ثم لوت شفتيها تعنى أن رأسها موجع، ثم حنت له رأسها وتراجعت مولية. وأسف على فوات الفرصة، ولكن تصميمه تضاعف، وأراد أن يدخن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة، فمضى إلى حجرة رشدى ليأخذ منه سيجارة، وكان الباب مواربا فدفعه بهدوء ودخل، ورأى شقيقه مرتفقا النافذة شاخصا إلى أعلى، مستغرقا حتى أنه بلغ نصف الحجرة قبل أن ينتبه الشاب لمجيئه، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التى يتطلع إليها أخوه، وأن يلمح حال توسطه الحجرة رأس نوال ـ دون غيرها ـ وهو يرتد بسرعة البرق! . . وانتبه رشدى إلى مجيء شقيقه ـ باختفاء الفتاة الذى هو بالفرار أشبه ـ فالتفت وراءه، ثم ابتسم للقادم بترحاب وبوغت أحمد مباغتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعا عليه من انفجار القنابل ليلة الغارة، فزلزلت صدره ـ الذى جاء به مثلجا مطمئنا ـ قلقلة جنونية صدَّعته كما ينصدع السحاب بشرارة البرق القوية الخاطفة، ولكن لم يغب عنه تحول الشاب إليه، فأغضى بصره ـ ببداهة الغريزة وسرعتها ـ ليخفى عينيه، وأهاب بقوته الكامنة ليحافظ على هدوء مظهره، وتكلف ابتسامة، ثم نظر إلى الشاب الذى أقبل نحوه مبتسما ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء:

ـ سيجارة من فضلك!

واستخرج رشدى علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها لأخيه، فتناول الرجل سيجارة شاكرا، وحياه برفع يده إلى جبينه، ثم قفل راجعا.

٢٤

ورد باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئا من الذهول، ورمى بالسيجارة إلى فراشه، ثم اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية، ثم أطرق مقطبا وأغلق النافذة بشدة طقطق لها الزجاج، وعاد إلى الفراش وجلس على حافته مغمغما: «غاب عنى أن هناك نافذة تطل مثل نافذتى على هذه الشرفة، حقا غاب عنى ذلك!». وكأن دمه استحال نفطا يمد قلبه بألسنة من لهيب. ألم يرها وهى ترتد فزعة لدى ظهوره؟ . . فهل غير الشعور بالإثم أفزعها؟ . . أو ما الذى دعاها إلى النافذة بعد أن أوهمته أنها ذاهبة لتنام؟ . . فليس وراء ذلك كله سوى معنى خبيث يتخايل خلقه البشع خلف خداع الآمال الباطلة، ومن عجب أنه لم يمض على حضور شقيقه إلا عشرة أيام، ففى أيام معدودات تغير كل شيء ـ وشعر عند ذاك بصفعة ـ فكفر قلبه بهواه، وصارت

ابتسامة الترحاب خدعة رياء، ترى كيف تحدث هذه الانقلابات؟ . . أتقع فى يسر وهوادة كأنها لا تعرك ضحاياها؟ . . أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردد والألم؟ . . أكانت تلعب بهما؟ . . أيمكن أن تنكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيئ وخبث وعر؟! . . ولماذا إذاً بادلته التحية منذ دقائق؟ . . أهو الحياء والحرج أو أنه المكر والحيطة؟».

أما الشاب فلا يدرى من الأمر شيئا، إنه برىء من دمه، ولعل أنه رآها فراقته فغازلها كعادته فاستمالها فهويته، بنظرة وإشارة نسيته - وهل خطره أكبر من ذلك؟! . . نسيت الكهل الأصلع الفانى، فلا يلومن إلا نفسه، ألم يكن له فيما اكتسب من معرفة بحظه وسوء ظنه بدنياه، وبالمرأة خاصة، ما يحرز به نفسه من غوائل الأمل وومضات السعادة الكواذب؟ . . ونهض قائما وقد اشتد شحوب وجهه ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق، وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا ما بين الفراش والمكتبة حتى عراه دوار فعاد إلى مجلسه من الفراش، وراح يتساءل: أيرضى أن يستبقا - هو وأخوه - فى مضمار منافسة واحد؟ . . وثار كبرياؤه وشمخ بأنفه، محال أن يتنازل لمنافسه إنسان، فالمنافسة الحقة لا تثور إلا بين أكفاء! . . ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سره فكبرياؤه تأبى عليه أن يستجدى السعادة أو يستوهب الحب. وخليق بمن كان مثله أن يترفع عن هذه الصغائر - الحب والفتاة والظافر بهما - فهو أكبر من هذا جميعه، ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيرا؟! . . لماذا لا يعرف هذا الألم القتال قدره فيتوارى؟! . . كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب؟ . . وإلام يئن ويتوجع! . . الحقيقة أنه مد يده ليجلو عروسه فتكشف له قناعها الموشى عن جمجمة ميت! . . ورأى بعين خياله صورتهما المزدوجة، هو بشبابه الريان وهى بعينيها النجلاوين، فوجد ألما وإباء وعجرفة قاسية، ترى لماذا يحول رشدى دائما بينه وبين سعادته وما أحب إنسانا مثله قط؟ . . فهو الذى أجبره قبل عشرين عاما - على التضحية بمستقبله ليقف حياته على تربيته، وها هو الآن يجنى ثمرة سعادته ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة! . . واستولى عليه الغضب وتقيحت نفسه بالسخط والحنق، وثار بركانه فى عنف ودوىّ، ولكن الكراهية لم تجد سبيلا إلى نفسه، لم يكره أخاه لحظة واحدة - حتى وهو فريسة الثورة فى عنفوانها - إن حبه له أصيب بنوبة وقتية أفقدته وعيه، فأغمى عليه ولكنه لم يمت، بل لا يشعر نحوها - وهى الخليقة بالاتهام - بكراهية أو مقت، وإن بدا سخطه كأنه لا نهاية له. ثم خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقا، فولَّت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة، مخلفة وراءها حزنا عميقا لا يتزحزح ويأسا خانقا لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة - لم يتحسر عليها ولم يأسف - ولكنه شعر بهوان وخجل؟ . . وأنشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنه يحدث نفسه: «برح الخفاء ولا مفر من الحقيقة، أنت رجل سيئ الحظ، بل هذا قول دون الواقع بكثير، فالحق أن الدهر نصبك هدفا لسهام الخيبة

والإخفاق، ووكل بك قوة شيطانية فظيعة تلقف من سبيلك كل فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة إذا أنت تحسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء إلا كلمة تقال أو راحة تبسط، وما تكاد أن تمد حجرك لتلقى ثمرة دانية حتى ينقض عليها طائر الشؤم الكاسر، فيلتقطها بمنقاره ويطير بها، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندك عاليه سافله ويلقى بك إلى غور سحيق. آفاقك تلتمع ببروق الآمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عابس، هل يوجد فى الدنيا إنسان مبتلى بمثل عناد حظك العاثر؟!.. الناس يحثون الخطى باسمى الثغور ما بين ممتع بصحته، وهانئ بأسرته، وراض بمكانته، وسعيد بماله، فأين أنت من هؤلاء جميعا؟!

لا صحة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال!.. فى البدء قصم ظهرك عثار أبيك، وبدد آمالك حدبك على شقيقك ثم أعقم مواهبك العقلية ببيئتك الجاهلة؟.. ماذا يتبقى لك من أحلام دنياك؟.. ذهب الشباب فلم ينجب حتى ذكرى جميلة تتفيأ ظلها فى هجيرة العمر، وها هى الكهولة تطعن بك فيما وراء مشارف الشيخوخة، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة؟.. إن الرجل ليطلق الزوجة الوفية إذا عقمت، ففيم احتمالك دنيا - لم تعقم فحسب - ولكن تورث الألم والضنى؟!.. لماذا وجدت فى هذه الدنيا؟.. أما من نهاية لهذا الألم الممض وذاك الملل المسقم؟.. ثم ماذا أجدى عليك هذا العقل؟.. وماذا أفدت من المعرفة؟.. حلَّفتك بهذه الآلام جميعا إلاَّ ما أغلقت الكتاب إلى الأبد وحرقت هذه المكتبة العاتية، ولخير لك أن تدمن على مخدر يذهل العقل عن الوجود حتى يتداركك الذهول الأكبر. الحياة مأساة والدنيا مسرح ممل، ومن عجب أن الرواية مفجعة ولكن الممثلين مهرجون، من عجب أن المغزى محزن - لا لأنه محزن فى ذاته ولكن لأنه أريد به الجد فأحدث الهزل، ولما كنا لا نستطيع فى الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا فإننا نبكى عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة، ونتوهم أن الرواية مأساة والحقيقة أنها مهزلة كبرى!». وصمت قليلا متفكرا، متجهم الوجه، منقبض الصدر، ثم نهض قائما فى وثبة عنيفة وقال بشىء من الحدة: «إلى الكهف المظلم، كهف الوحدة والوحشة، إلى القبر البارد، قبر اليأس والقنوط، لقد ركلتنى الدنيا وهى الدنيَّة ولأركلنها وأنا المتعالى، إن الخصى أزهد حيوان فى المرأة فإذا استأصلت من نفسى كواذب الآمال سدت باليأس الدنيا جميعا، فإلى كهف الوحشة نتزود من ظلمته غشاوة تحجب عن أعيننا خدع الحياة!!».

والتفت بعنف نحو النافذة - نافذة نوال - التى أغلقها منذ حين وقال بغضب:

- غلقًا إلى الأبد.. غلقًا إلى الأبد!

٢٥

ورأى أن يذهب - كعادته صباح الجمعة - إلى الزهرة، ووجد حزنه حافزا يدعوه للذهاب إلى هناك ابتغاء الوسيلة إلى التسلى عن حظه. وأخذ يرتدى بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فصلها ولماذا تكلف ثمنها فنفخ من الغيظ والحنق. وغادر الشقة. ولدى نزوله السلم تذكر الصباح الأول له فى العمارة وكيف التفت وراءه فرأى عينى نوال لأول مرة، فكيف يمكن اتقاء الشقاء المقدر ما دام يبدو فى حلل آمال مشرقة وألوان ناضرة؟ . . على أنه لم يغب عنه أن ما يعانيه من أحاسيس الألم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة، لذة دفينة غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها. وسار فى الطريق بقدمين متثاقلتين متفكرا فيما يجلبه إعراض بنت قاصر على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكبر عليه، وجعل يقول لنفسه كالساخر: «واخزياه، كيف أمكن هذا؟! . . بنت مقمطة تفعل بى كل هذا؟! . . كيف سمت بى إلى نضرة النعيم ثم ردتنى إلى أسفل الجحيم! . . وما جدوى الحكمة إذا عبثت بها جراثيم الشهوة هذا العبث المزرى؟! . . ألم يكن من الأفضل - غفرانك اللهم - أن نخلق خيرا من هذا؟ . . وإذا كانت الدنيا جميعا تمسى ظلاما ويبابا لمحض أن جرثومة - تنقض الوضوء - استاءت أو أخفق لها أمل، أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها؟!» . ثم انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله إلى القهوة، ووجد الصحاب جميعا قد سبقوه إلى هناك - إلا سليمان بك عتة الذى لم يعد بعد من بلدته - ووجد معهم المعلم نونو وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة إلى ما بعد صلاة الجمعة. أما عباس شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلم زفته غير بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الأسطوانات بينا أخذ الرجال فى الحديث. وأراد كمال خليل أن يشرك القادم فى الحديث فقال له متسائلا :

- وما رأى الأستاذ أحمد عاكف فى الغناء، أيفضل القديم أم الحديث؟!

ويل الشجى من الخلى! . . ولكن ألم يجئهم ملتمسا العزاء فى لغوهم؟! . . بلى. وإذًا فليدل بدلوه وليكونن من الشاكرين، وكان مغرما بالغناء - وهل تلد أمه إلا مغرما بالغناء؟ . . إلا أنه يفضل القديم وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة وبوحى النشأة الأولى. فقد سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحى والمنيلاوى فاختلس نظرة من خصمه أحمد راشد المخبأة معارفه وراء نظارته السوداء، ثم قال :

- الغناء القديم هو الطرب الذى يأسر نفوسنا بغير عناء!

فصاح المعلم زفتة بسرور «الله أكبر» وصفق المعلم نونو ثلاثا، أما سيد عارف فتساءل :

ـ وأم كلثوم وعبد الوهاب؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى :

ـ عظيمان فيما يرددان من وحى القديم تافهان فيما عداه!

فقال سيد عارف :

ـ أم كلثوم عظيمة ولو نادت ريان يا فجل!

فقال أحمد عاكف :

ـ أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنية!

فقال كمال خليل :

ـ الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقى الإفرنجية!

والظاهر أن الشاب المحامى كان راغبا عن الجدل فقال بغير اكتراث :

ـ رأيى فى الغناء رأى غير خبير، والحق أنى قليل الاهتمام بالغناء!

وأبى المعلم نونو إلا أن يناقش رأيه، فقال بصوته العريض الأجش :

ـ يا إخواننا، أمة محمد ما تزال بخير. هل سمعتم ولو مرة إنجليزيا ـ وهم بين ظهرانينا أكثر من نصف قرن ـ يغنى يا ليل يا عين؟!.. والحقيقة أن من يفضل أغنية إفرنجية كمن يشتهى لحم الخنزير مثلا!

وكان المعلم زفتة قليل الكلام لانشغاله فى الغالب بعمله، ولكن الموضوع استفز اهتمامه فقال بصوت دلت مخارجه على أن صاحبه قد فقد ثنيتيه على الأقل :

ـ اسمعوا القول الفصل : أجمل ما تسمع الأذن سى عبده إذا غنى يا ليل وعلى محمود إذا أذن الفجر، وأم كلثوم فى إمتى الهوى. وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب!

وأشفق أحمد عاكف من أن يتغير موضوع الحديث من غير أن يتفلسف فقال :

ـ إن الإعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسيقى الإفرنجية وحى من تقليد المحكومين للحاكمين كما يقول ابن خلدون!

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته، ولم يستثره هجوم أحمد عاكف، فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحد. ثم تحول مجراه إلى سليمان بك عتة بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أن الرجل تأخر بالبلد أكثر من المعتاد، فقال سيد عارف متضاحكا :

ـ أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه.

فقال عباس شفة بإنكار :

ـ عما قريب يصير عروسا يا هوه!

فاستدرك سيد عارف قائلا بأسف :

ـ أمـا العـروس كريمـة يوسـف بهلة فوالله ما رأت عينى أجمل منها قط !

فتساءل أحمد عاكف :

ـ أما يدرك صاحبكم أنه لولا الطمع فى ماله ما رضى به أحد زوجا؟!

فقال عباس شفة :

ـ بغير شك . فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق!

وامتعض أحمد من هذا الوصف ، وشعر بأنه ينطبق عليه من أكثر من وجه ، لا شباب ولا جمال ولا أخلاق . وأضاف عليها من عنده «ولا مال!» . ثم أطرق هنيهة غارقا فى الكآبة التى كان انتشله منها لغو الحديث . وخاف أن يستأثر به الحزن فخاض الحديث مرة أخرى متسائلا :

ـ وما الذى يحمله على الاستسلام لطمع الطامعين؟

وهنا التفت أحمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قلَّ أن يصطنعها فى حديثه :

ـ وما الداعى إلى العجب فى ذلك؟ . . أليس المال كالشباب والجمال من المزايا التى تحبب الرجل إلى المرأة؟ . . لعل المال أن يكون أبقى على الدهر من الآخرين!

وسرعان ما أقلع الشاب عن السخرية وقال بلهجته الجدية :

ـ إن شيخا فى سن عتَّة بك لا يطمع فى الحب الذى يستأثر به الشباب ، لكنه إذا ضم إليه عروسا نفيسة أرضى بها غريزة الحب المضمحلة ، وغريزة الملكية المسيطرة .

فقال عباس شفة :

ـ الشباب ينتقل بالعدوى ، فالشيخ خليق بأن يكتسب من عروسه روحا من نضارة الشباب ، فلا يبعد والحال كذلك أن يتحول البيك فى القريب العاجل من قرد إلى حمار مثلا!

فتساءل المعلم زفتة :

ـ هل نفهم من هذا أن أصله قرد؟!

ولم يوافق المعلم نونو على التهكم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال :

ـ العبرة فى السن بالصحة لا بالسنين ، فأبى تزوج فى الستين وخلَّف وهاكم سيد عارف أفندى على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فماذا صنع له شبابه؟

وضحك الجميع ـ وعاكف معهم ـ مما جعل سيد عارف يقول :

ـ لا تضحك يا معلم نونو فعما قريب يتغير الحال ، وقد علمت بأقراص جيدة تجرب ، وسترى!

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذلك، فكان كالسابح الذى تخور قواه وتوهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء. فلم يدر كيف انتقل بهم الحديث إلى أخبار الحرب، ولا كيف راح سيد عارف يعدِّد انتصارات الألمان فى روسيا، ويذكر بالفخار سقوط فيازما وبريانسك وأوريل وأوديسا وخركوف، واقتحام شبه جزيرة القرم. ثم نهض المعلم نونو للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعًا إلى البيت. ووقف فى الصالة هنيهة متسائلا ترى أما يزال رشدى ملازما حجرته؟.. وسار فى الدهليز متمهلا حتى دنا من باب الحجرة فشم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب، ثم قفل راجعا إلى حجرته. لأول مرة يمضى رشدى يوم عطلته فى البيت!.. بل الأوفق أن يقول يوم عطلتهما، والمرجح أنه لم يفارق حجرته وأنها لم تزايل النافذة، والله يعلم كم تحيات تبودلت، وكم من بسمات ومضت، وكم من آمال أشرقت. وخلع ملابسه وارتدى الجلباب والطاقية، وجلس على الشلتة القريبة من المكتبة. كان مترعا بالكآبة، ولكن خلا قلبه من الغيرة - أو الغيرة السافرة على الأقل - وقال لنفسه إن ما يحدث فى الناحية الأخرى من الشقة لهْو أطفال غير حقيق باهتمامه، أهذا شعور وقتى؟.. لا يدرى، ولكن خيل إليه أنه شفى. وتساءل كيف حدث هذا بمثل هذه السرعة؟.. أكانت عاطفته سطحية توهَّم أنها الحب؟.. واستراح إلى شعوره، ومد يده إلى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للإمام الغزالى، فهذا أحق بتفكيره، وهو من الكنوز التى لا يدرى أحمد راشد عنها شيئا، وفتح الكتاب عن فصل الإلهيات، وحاول مطالعة مقدمة تقسيم العلوم، ولكنه أدرك بعد برهة قصيرة أنه يبذل من الجهد فى تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذلك لذة متابعة القراءة، فأغلق الكتاب وأعاده إلى مكانه وقال إنه لا بأس من أن يعفى عقله اليوم مكافأة له على الجهد - أيا ما كان هذا الجهد - الذى بذله فى سبيل النسيان. كانت عاطفة تافهة، بل كيف كان يمكن أن تسعده تلك الفتاة وهو على ما هو عليه من عقل ومعرفة، وهى على ما هى عليه من بساطة وسذاجة؟!.. حقا أنقذه شقيقه من ورطة كادت تودى به. ومنذ الآن ينبغى أن يفتح عينيه، وأن يقلع بصفة نهائية عن التفكير فى الزواج، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له!.. بيد أن الخيانة ذميمة شوهاء، ألم تغازله؟.. ألم ترض به حبيبا؟.. فكيف تغيرت بمثل هذه السرعة التى لا تصدق؟.. ولكن هل خلق الله أقبح منظرا من فتاة ذات وجهين؟!.. شفى والله ونسى، ولكن ما أتفه الدنيا إذا كانت القلوب تنقلب فى غمضة عين!.. وقطع عليه أفكاره المحمومة صوت دوى يصيح: «ملعون أبو الدنيا»، فأدرك أن المعلم قد عاد من صلاة الجمعة إلى دكانه، ونهض مسرورا بالتخلص من أفكاره إلى النافذة المطلة على الحى الجديد ففتحها، ووقف وراءها يسرح الطرف فى مناظر الحى التى ألفها وملَّها، ليتهم ما غادروا السكاكينى، بل وجد نفسه يتمنى فى أعماقه لو أن أخاه لم ينقل من أسيوط!..

فلو لم يحضر لما عكَّر صفوه معكِّر. وما لبث أن تألم لتمنيه هذا غاية الألم، إنه يحبه ما فى ذلك من شك، ولا يمكن أن يفتر حبه لأخيه وابنه وربيبه. . ولكن الغريب المنكر أنه يحبه ويكره وجوده معا؟. . لو لم ينقل إلى القاهرة لكان ـ أحمد ـ الآن فى عداد الخاطبين. وما يدرى إلا ونفسه تسكب حنانا للحياة الزوجية غافلة عن هواجسها السالفة!. . فبدا له أن العدد اثنين هو العدد المقدس. ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنه الاثنان: الإنسان يفقد نفسه فى الجماعة، ويغرق فى الكآبة فى الوحدة، ولكنه يجدها عند أليفه، فالتكاشف الصريح، والحب العميق، والألفة الممتزجة، وفرحة القلب بالقلب، والطمأنينة اللانهائية لذَّات عميقة لا تحدث إلا بين اثنين. وكم ملَّ من الكآبة، وضجر من الوحشة، وكره الفراغ، وهذه نفسه تنازعه مشوقة متلهفة إلى الحب والحنان والألفة والمودة. أين ثغر يبسم إليه مشرقا بالعطف؟. . أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة؟. . أين صدر يرضع منه قطرات الطمأنينة ويعهد إليه بطويته؟. . وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع إلى الفراش محسورا وهو يحرك رأسه بعنف، كأنما ليصد عنه أحاسيس الحزن والخور، وليسترد حقده وصرامته وغضبه وإيمانه الوحشى بالوحدة والعجرفة والتعالى عن العواطف البشرية. وقد تبرد الغيرة، وتخمد العاطفة، أما ما يمس كبرياءه فيحدث حتما قرحة لا تندمل، وكيف تندمل وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى؟!. . ولذلك جعل يقول قارضا أسنانه: «ينبغى أن تدرك ـ الفتاة ـ أننى تنازلت عنها بغير مبالاة ألبتة!».

٢٦

واستيقظ غداة السبت متعبا بعد ليلة مسهدة، فهو يؤدى ثمن اليقظة التى فرح بها قلبه، وإن كانت يقظة قصيرة، وأيا ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مرجى، أين اليهودية الحسناء وحبها المثالى؟!. . فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضى ويبلع الذكريات، ولكن لا ريب أنه مما تطيب به نفسه ألا يعبأ شيئا، أو أن يتظاهر بذلك على الأقل، وأن يريها أنه لم يكد يشعر بأن فتاة هجرته. ومضى إلى الحمام فوجد باب حجرة شقيقه مواربا، ولمحه يستكمل ارتداء ملابسه ـ وقد عجب لذلك لأن الشاب يستيقظ عادة متأخرا عنه ـ بل رآه رافعا رأسه إلى النافذة الأخرى، فتقبض قلبه كأنما أصابته شكَّة إبرة، وأسلم رأسه للماء البارد طويلا لينعش أعصابه المحطمة، ثم عاد إلى حجرته وارتدى بذلته، وخرج إلى السفرة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة، وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهده من الأنس به مستعينا بما طبع عليه

من مداراة ما يعتلج بنفسه . وأقبل رشدى مرتديا البذلة والطربوش وابتسم إليه ابتسامته المحبوبة فقال :

ـ صباح الخير .

ـ صباح النور .

وعجب أحمد من لبسه الطربوش إذ كان يفطر عادة عارى الرأس فسأله :

ـ لماذا عجلت بلبس الطربوش؟

فقال رشدى والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ـ سأتناول فطورى فى الخارج لأن لدىَّ أعمالا مستعجلة .

ـ وما الذى دعا إلى هذه العجلة؟

ـ إنجاز بعض الأعمال المتعلقة بوظيفتى!

وحياه الشاب ـ كما حيا والدته التى كانت تعد الطعام ـ ومضى بقوامه الرشيق، وابتسامته المشرقة . ولم يصدق أحمد أسطورة «بعض الأعمال» فارتاب فيها لأول وهلة، وبدا له كاليقين أن رشدى بكَّر فى الاستيقاظ على غير عادته بالخروج من البيت ليلتقى بنوال فى مكان ما من طريق المدرسة . هذا ما حدسه قلبه المحزون، فهل اتفقا على ذلك حقا؟ . . وذكر ممتعضا كيف لبث مرتبكا جامدا ـ مدة علاقته بها ـ لا يدرى ماذا يفعل؟ . . أما هذا الشاب الجسور فليس فى مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين . وأعجب بجسارته حقا كما أعجب به يخطر أمام عينيه بشبابه الريان وقدِّه الممشوق منذ دقيقتين، إلا أنه إعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يخل من حنق وغضب . فكان كمن يسبِّح بخلود الخالق وهو يرثى فناء المخلوق . وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة، ومال إلى قطع شارع الأزهر مشيا على الأقدام تخفيفا عن أعصابه المتوترة، فالتزم الطوار الأيسر وحث خطاه، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحى إليها بالحكمة : «دع بواعث هذا الحزن العميق لا تستحضرها إلى وعيك، اقذف بها إلى هاوية النسيان، وإذا كانت القراءة لم ترشدك إلى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالمعلم نونو»! . . وتمثل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الأعماق : لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنه الثور الذى يقولون إنه يحمل الكرة على قرنه؟! . . كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزرى؟ . . ولماذا لا يقصد الضاحكين ويسترشد بهم إلى طريق الضحك والسرور؟ . . ينبغى أن يفوز فؤاده الكسير بحظه من السعادة لأنه من العبث أن تمضى الحياة هكذا فى كآبة وحزن . وردد هذه الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام مكتظا فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطا وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل، وخطر له خاطر غريب مخيف، فتمنى لو كان من الممكن أن تخلو

الدنيا من بنى آدم! . . ولم يدر إن كانت وقفته هى التى أوحت إليه بذلك الخاطر المخيف أم أن هناك بواعث أخرى. فقد تمنى من قبل أو تخيل أنه يتمنى لو تقفر القاهرة إثر غارة! . . فخجل من خواطره الجهنمية التى تحلم أحيانا بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس! . . على أنه عاد يقول لنفسه متأففا: أليس الغدر ذميما كالدمار؟!

٢٧

خرج رشدى عاكف مبكرا على غير عادته، ودون أن يتناول فطوره، يدفعه ما هو خليق بتغيير العادات وتأخير الفطور. ولما انتهى إلى السكة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة إلى الطريق الصحراوى المؤدى إلى العباسية، فتباطأ قليلا حتى اتسعت المسافة بينهما ثم تبعها عن بعد، وكانت على علم سابق باتباعه لها ـ كما أنذرها به بالإشارة فى النافذة ـ وكانت أيضا على رضى بذلك أخفى أكثره الدلال والحياء، وفضح أقله ـ وكان به الكفاية ـ الابتسام أو مغالبة الابتسام. وكان الزمن المتاح لرشدى قصيرا حقا، ولكن زمنه من ذهب وماس، فلم يكف منذ مقابلة السطح ـ بل منذ رآها أول مرة ـ عن رصدها وموالاتها بالمطاردة والغزل حاشدا لتصيدها هباته جميعا من أفانين الشباب والحسن والدعابة والصبر، حتى ظنته قطعة من النافذة. ولم يشك الفتى فى ظفره من بادىء الأمر، ولا شكت هى فيه! أو فما معنى مجيئها إلى النافذة كأنهما على موعد، واستسلامها لنظراته، وتصديها لبسماته وإشاراته! . . فإن كان هناك ظل من الشك فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضى الأمر! . . على أنها لم تستسلم بغير تردد، بل كانت خائفة مما تنزع بها النفس إليه، وكانت تلوح لها صورة الآخر ـ أحمد ـ فيتولاها الخجل ويساورها القلق. إلا أنها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد المشرق، فتساءلت لماذا يلوح الخوف فى عينيه دائما؟ . . لماذا يبدو كالفأر ما إن يسمع حسًّا حتى يفر إلى جحره؟! . . إلام يظل جامدا لا يتحرك ولا يفعل شيئا! . . وإنها لعلى مثل حيائه فتحتاج بطبيعة الحال إلى جسور يقتحم حياءها، فلم تجد فيه طلبتها أو أنها أدركت ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقية. هذا إلى بون شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة، وجمال صبيح وخلقة قلقة غامضة، ومرح باسم وكآبة موحشة، والحق أنها مالت إلى أحمد لأنه كان الرجل الموجود، أما رشدى فحرَّك قلبها المشبوب وأهاج عاطفتها. هكذا جازت صبره بابتسامة، وهكذا كتبت بهذه الابتسامة أول كلمة فى القصة الجديدة.

صعدا طريق الدراسة، وانعطفا إلى الطريق الصحراوى ـ هى سابقة وهو لاحق ـ كان

الصباح نديا رطيبا مائلا إلى البرودة يعابثه نسيم رقيق يهب بأنفاس نوفمبر التى تنعى الأزاهر إلى المحبين، أما السماء فسمتها محمل سحابا ناصعا، يتصل حينا، ثم يتفرق فى المشرق فيحدث بحيرات ثلجية تنضح شطآنها بالشعاع الصاعد من الأفق فتتوهج أهدابها وتخطف الأبصار. منظر تطمئن النفوس إليه. إلا نفسين تفانتا معا! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها إليه، ولكن أثر اقترابه بلغ خديها فتوردا، وعينيها الكبيرتين الصافيتين فابتسمتا وهى لا تدرى، ثم حاذاها حتى أوشك أن يلامسها، وقال برقة:

- صباح الخير..

فمال رأسها إليه قليلا ولحظته بطرف متردد وقالت بصوت خافت:

- صباح الخير.

وكانت متأبطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسما:

- أتأذنين لى أن أحمل عنك هذه الحقيبة؟

فابتسمت بدورها وقالت:

- كلا، لا داعى لذلك، فهى خفيفة على كبرها، ولا ضير من حملها ألبتة.

- لابد أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك!

- بل يداى تثقلان عليها، لا تعودنى على الترف من فضلك!

فضحك بسرور صادق وقال:

- أليس مما يخجل حقا أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هذه الحقيبة الكبيرة؟!

وأخذ الارتباك يزايلها ويحل محله الأنس به، فسألته معترضة:

- ولماذا تخجل؟.. إنى أحملها كل يوم بكرة وعشيا!

- الظاهر أنك تخافين أن أخطفها!

- ليتك تقدر على هذا حقا، فإنها تحوى واجبات ثقيلة أخفها الحساب!

فضحك مرة أخرى وقال:

- لعن الله علما يثقل عليك!

فابتسمت متشجعة وقالت:

- أتلعن العلم إكراما لى حقا. أم لعداوة قديمة؟

- بل إكراما لك وإن لم يخل الحال من عداوات قديمة، ترى ما أحب العلوم إليك؟

- التاريخ واللغات!

وكان على عكسها يحب العلوم والرياضة، ولكنه أبدى سرورا طافحا وصاح بعزم:

ـ اتفقنا والحمد لله!

فعجبت لسروره وسألته:

ـ وما عبرة السرور لذلك؟

فقال بلباقته المعهودة:

ـ كيف غاب عنك هذا يا عزيزتى؟.. ألم يكن ذلك الاتفاق فى الميول العقلية أصلا وبشيرا باتفاقنا «الروحى» الذى نلتقى عنده الآن؟

فتورد وجهها وطرفت عيناها ـ وهى عادتها إذا تولاها الحياء ـ ولم تنبس بكلمة، فسألها بإغراء:

ـ ألا توافقيننى على رأيى؟

فلازمت الصمت، أو لازمها الصمت على الأرجح، وعاد يقول برفق:

ـ هل أجد فى صمتك جوابى المرجى؟

ولحظها، فخالها تبتسم، فخامره الحماس وقال بصوت خافت:

ـ عرفت ذلك من أول نظرة!

فلم تتمالك أن قالت وفى عينيها ابتسامة صريحة:

ـ أول نظرة!

ـ أجل.

ـ شىء لا يصدق!

ـ ألا تؤمنين بالنظرة الأولى؟

ـ ألا تغالى؟.. أحقا ما يقال عن النظرة الأولى؟

فقال بحماس تألقت له عيناه العسليتان الجميلتان:

ـ هو الحق الذى لا مراء فيه!

فقالت وقد غيرت لهجتها:

ـ نحن لم نتعارف بعد!!

فأدرك أنها تحاول الإفلات من الطوق الذهبى الذى طوّق جيدها به، ولكنه لم يمكنها من مأربها وقال:

ـ لا تغيبى عن الحديث، سنتعارف حتما بعد حين، أو سنتم تعارفنا فلم يبق منه إلا اسمى. ولكنى أريد أن أقول إنه إذا لم يكن حب (وتعمد أن يذكر هذا اللفظ كأنما جاء عفوا). من أول نظرة فلا حب على الإطلاق!.. وتعوذت بالصمت مرة أخرى وهو يلحظها مبتسما، ثم استدرك:

ـ لا أعنى أن الحب يحدث حتما من أول نظرة، ولكن النظرة الأولى تكفى لاكتشاف من تربطهم بنا صلة روحية عسية أن تصير الحب نفسه! . . أليس يقولون إن الأرواح تتخاطب بغير إحساس ألبتة؟! . . فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريد . . أما الحب الذى تلده الأيام وتنبهه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة أو المنفعة، أو غيرهما من القيم التى لا تدرك إلا بالروية والإمهال، فماذا ترين؟

فترددت هنيهة ثم سألته كالمتحيرة:

ـ أتقول إنه لا يوجد . . (ولم تنطق بكلمة الحب) إلا من أول نظرة!

فأدرك أنه ثرثر أكثر مما ينبغى، وخاف مغبة تفسير كلامه فقال باهتمام:

ـ كلا ليس هذا ما أعنيه، وإنما أعنى أن النظرة الأولى خليقة بالدلالة على الغاية التى عسى أن تهدف إليها العاطفة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

ـ فلسفتك عسيرة، فلا هى من التاريخ ولا هى من اللغات!

واستغرق الشاب ضاحكا بسرور أخذ بمجامع قلبه، وود فى تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم الصغير الذى تسيل جوانبه بهذه الحلاوة المشتهاة، وقال:

ـ بل هى أسهل من التاريخ أو اللغات لأنها فلسفة الفطرة الصادقة وأصدق دليل على ما أقول أننا التقينا بوحيها ولن نفترق إلى الأبد إن شاء الله.

وكانا قد بلغا عند ذلك منتصف الطريق، فلاحت على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها الأبدية، ينبعث من قوائمها هدوء شامل عميق، وصمت مخيم ثقيل، فرمقتها بعينيها النجلاوين، ثم قالت لتدارى الخجل الذى سعره حديثه المطرب:

ـ قضى علىَّ أن أستصبح كل يوم برؤية هذه القبور، فيا له من منظر لا يسر!

وتساءل الشاب عما اضطرها إلى قطع هذا الطريق الطويل مشيا على الأقدام فى الذهاب إلى العباسية وفى الإياب منها، ولماذا لا تستقل الترام عن طريق الخليج، ثم ابتده الحقيقة فأدرك أنها ترضى بهذا التعب ـ أو رضى لها به أبوها ـ توفيرا لنفقاتها، فكمال خليل أفندى يعتبر من صغار الموظفين، وممن يكافحون بعزيمة صادقة ـ فى ظروف دقيقة ـ للنهوض بأسرهم، وذكر أن أسرته اجتازت يوما مثل هذه الشدة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأساء بصبر وجلد، فتندى قلبه عطفا ومحبة وتقديرا، ثم قال لها مبتسما:

ـ لن تريها بعد اليوم!

فرمته بنظرة إنكار وتساءلت:

ـ كيف؟ . . هل أسير معصوبة العينين؟

ـ بل سيشغلنا الحديث عن النظر إليها!

فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه، وقالت:

ـ ولكنه سفر شاق لن تحتمله طويلا، خصوصا والشتاء قريب!

ـ سـنرى!

وأوغلا فى السير فلم يعودا يريان إلا صحراء على اليمين وقبورا على الشمال. ومرا بطريق يشق القبور ويمتد غربا، فأشار رشدى إلى مقبرة خشبية ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

ـ مقبـرتنـا!

فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة:

ـ فلنقرأ إذن الفاتحة!

فقرءا الفاتحة معا، ثم قال رشدى:

ـ هنا يرقد الأجداد، وآخرهم جدَّاى لوالدى، وأخى الصغير.

ـ ومتى توفى أخوك هذا؟

ـ من زمن بعيد ونحن بعد أطفال!

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهريهما، واستعادا الصفاء والسرور، دون التفات إلى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحب وحديث القبر، ولا كدَّرا صفوهما بأن يتساءلا مثلا عما يتبقى لهما من عمر يقضيانه فى الدنيا، أو عما ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا فى تلك المقبرة أو فى أخت لها، لم يلتفتا لشىء من هذا ولكنها قالت مستوصية بشىء من الشجاعة:

ـ ولكننا لم نتعارف بعد!

ـ ألسنا جيرانا!

ـ بلى، ولكنى لا أعرف أسمك.

ـ سامحك الله. اسمى رشدى. رشدى عاكف!

ـ كيف يسيئك هذا وأنت تجهل اسمى أيضا؟

ـ معـاذ الله!

ـ أعرفته من أول نظرة أيضا؟

فضحك رشدى بسرور، وحنى رأسه أن نعم، فسألته:

ـ فما اسمى؟

ـ إحســـــان!

فضحكت بصوت مسموع وقالت بإنكار :

ـ أهكذا تختلق الأسماء!

ـ بل هو اسمك!

ـ أخطأت يا سيدى ولعلك رمت غيرى فارجع بسلام!

ـ ولكنى سمعت والدتى تتحدث عن والدتك مرة فتدعوها «ست أم إحسان» .

ـ فحسبت أن إحسان هى أنا!!

ـ نعــم . . .

فضحكت مرة أخرى حتى تورد وجهها الأسمر وقالت :

ـ هذا اسم أختى الكبرى ، وقد تزوجت منذ عامين!

فابتسم رشدى كالخجل وقال :

ـ لا تؤاخذينى ، فما اسمك إذًا؟

ـ نـــوال .

ـ عاشت الأسماء!

فترددت لحظة ثم رمقته بنظرة ماكرة وتساءلت :

ـ أنت تلميذ؟

ـ نعم بمدرسة العباسية للبنات .

ـ موظف إذًا؟

ـ ببنك مصر!

فابتسمت قائلة :

ـ أما أنا فموظفة بوزارة المعارف!

وضحكا معا . ثم رأيا أنهما يشارفان العباسية ، فأدرك رشدى أن أول لقاء لحبه الجديد يؤذن بالانتهاء ، أما هى فقالت :

ـ حسبك هذا فينبغى أن نفترق ها هنا .

فتوقفا عن السير ، وأخذ راحتها فى يده ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

ـ مع السلامة وإلى اللقاء غدا صباحا .

فحيَّته بإحناءة من رأسها وغمغمت :

ـ إلى اللقاء .

وحثت الخطى، ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه فى سرور ونشوة محدثا نفسه: «كانت فى البدء متعثرة بحيائها، ثم أنست بى فصارت ألطف من نسمة عبقة، طاهرة خفيفة والله، وقاها الله شر الشياطين جميعا بما فيهم شيطانى أنا».

وكان شأنه المعهود أن يغازل ثم يتعارف ثم يحب، وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت فى صمت الطريق إلى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى. أما نوال فانحدرت فى طريق المدرسة وهى تقول لنفسها: «ما ألطفه، ما أجمله، ما أعذب حديثه، فآه لو تصدق الأحلام!».

٢٨

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الأصغر من تغير بعين متيقظة. رآه بعد ظهر ذاك اليوم ـ يوم السبت ـ نشوان بالسرور، فكأنما بات من سروره فى سكرة ذاهلة، ورآه يغير عادته من النوم ما بين الظهر والمغرب ـ موعد انطلاقه إلى السكاكينى ـ فيقيل ساعة واحدة ثم يستيقظ مثقل الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصدى للنافذة المحبوبة! ولبث الكهل فى حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يأزف موعد ذهابه إلى القهوة ـ تلك العادة الجديدة على حياته ـ وقد ركز آماله جميعا فى النسيان المرتقب، ينتظره صابرا كما ينتظر اليائس النهاية، وما برحت تتقاذف قلبه أحاسيس الحب والخيبة، والأنفة والغيرة، وحبه رشدى ونفوره منه، فتحير بينها لا يقر له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير. وبعد العصر بقليل اقتحم رشدى عليه وحدته!.. ولم يكن فى ذاك غرابة فرفع إليه رأسه مبتسما باذلا جهده ألا يلوح فى وجهه وجوم أو سهوم. فحياه الشاب بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معا:

ـ لا تؤاخذنى على إزعاجك ولكننى أزف إليك خبرا سارا.

فخفق فؤاد أحمد وقال:

ـ خير إن شاء الله!

ـ أخبرنى صديق من الموظفين أن الحكومة تفكر فى إنصاف الموظفين المنسيين.

فقال أحمد بارتياح لم يدر الآخر بواعثه الحقيقية:

ـ بشرك الله بالخير!

ـ إن بقاء رجل مثلك عشرين عاما فى الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة.

فهز أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال:

ـ أنت تعلم أنى لا أعبأ الدرجة ولا الوظيفة شيئا .

وتحادثا مليا ، ثم انصرف رشدى كيلا يضيع وقت أخيه الثمين . . وتفكر الرجل بعد انصرافه فيما يساوره نحوه من نفور فامتعض ، وتألم فؤاده غاية الألم ، وهل ينسى أنه أحبه مذ كان فى المهد؟ . . وهل يجهل أن الشاب يحبه حبا لا يحبه والديه؟!

وهرع إلى الزهرة قبيل المغرب مرتاحا إلى مغادرة البيت ، وجالس الصحاب ساعتين ملقيا بنفسه فى تيار الحديث لائذا بشجونه من نفسه وأفكاره ، ثم تراجع إلى البيت وكان رشدى لا يزال فى الخارج ـ طبعا ـ يسهر ليلته فى الكازينو ، فكأن فتاته استأثرت بالوقت القصير ـ من الظهر للمغرب ـ الذى كان يخلد فيه إلى الراحة وجعلت من يومه وحدة متصلة من اليقظة والتعب . وألقى الرجل على النافذة ـ التى عاهد نفسه ألا تفتح أثناء وجوده بالبيت ـ نظرة غاضبة ، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم تلاحظ تغيبه عن النافذة؟ . . ألم يربها من الأمر ما ينبغى أن يريبها؟ . . لكم يود لو تعلم باحتقاره غدوها ، فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف ، ونفسه مكتوية بنار حامية .

ونام قبل موعده لصدود نفسه عن القراءة ، ثم استيقظ على صفارة الإنذار ، فنهض مسرعا وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه فى الصالة ، وكانت أمه قلقة لأن رشدى لم يكن عاد من سهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء ، وفى الطريق وجدوا الجو باردا رطبا فقال والده : «ما ينتظرنا فى الشتاء أدهى وأمر» ومضوا إلى المخبأ واتخذوا أماكنهم المعهودة . ونظر الأب فى ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل ، فقال باستياء وتهكم :

ـ أليس الأرحم برشدى أن يبيت فى الخارج حتى لا يكلف نفسه مشقة الرجوع إلى البيت فى مثل هذه الساعة؟

وحدثت أحمد نفسه باستراق النظر ! . . ولكنه رأى رشدى يهبط أدراج المخبأ متعجلا ويدور بعينيه فى المكان باحثا عنهم ، ولما عثر بهم اتجه نحوهم مبتسما متشجعا ببقية حميا الشراب على مواجهتهم ـ مواجهة أبيه خاصة ـ وحياهم ثم قال لأحمد :

ـ أطلقت صفارة الإنذار ونحن فى الجمالية فعدوت فى الظلام كالشياطين !

فانتهره أبوه قائلا :

ـ أنت كالشياطين بغير جدال ، ألا تريد أن تخفف من غلوائك فى هذا الوقت العصيب !

ولم يتجاسر أحمد على استراق النظر فى حضرة الشاب ! . . ولكن رشدى ضاق بالجلوس ذرعا فقام يتمشى فى المخبأ ، وأطلق الكهل لعينيه العنان فانطلقت نظرتهما القلقة إلى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل ، ورآها ، كانت جالسة جنب أمها

مطرقة، فرأى جانب وجهها الأيمن. هل رأته يا ترى؟ . . ألا تزال تحسب أنه يجهل أمرها؟ . . أم تعانى شيئا من القلق والعذاب؟ . . أم أنه المقضى عليه بالقلق والعذاب وحده؟! . . وطافت برأسه فى تلك اللحظة تمنياته الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتجف قلبه ورفع رأسه إلى سقف المخبأ داعيا فى سره: «اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين على كثب من مجلس أسرة أولهما يحادثان شقيقه! . . فتولته الدهشة، كيف تعرف الشاب بهما؟ . . ومتى حدث ذلك؟ . . وهل رمى الشاب من وراء ذلك إلى غرض معين؟! . . حقا إنه شاب جسور يعجز خياله ـ هو ـ عن مجاراة أفعاله! . . وخامره نحوه شعور بالإعجاب ممتزجا بالحنق، بيد أنه انقطع عن التمادى فى مشاعره لدوى انفجار انتشر فجأة فملأ الأسماع، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادة بسرعة فائقة، فحلّق الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة منهومة تنقض على أفراخ مذعورة، ولم يتكرر الانفجار ولكن استمرت طلقات المدافع المضادة فترة وجيزة. ثم عاد السكون إلى نصابه، فأخذ القوم أنفاسهم، ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان. وفتش أحمد على أخيه فلم يجده، وكان الناس يخرجون أفواجا، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة، فبحثت عيناه عن أسرة كمال خليل فرآها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخف التزاحم على باب المخبأ إلا أنه لم ير نوال! . . وذكر ليلة دعته إلى اللحاق بها وكيف تردد وجبن! . . أما رشدى فلا يمكن أن يتردد أو يجبن!

٢٩

واطرد مجرى الحياة، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدى وكمال خليل على حداثة عهدهما بالتعارف، وتفاوت ما بين عمريهما، بفضل لباقة الشاب وكياسته، ودعاه الرجل إلى قهوة الزهرة فلبى دعوته وجالس صحاب شقيقه ـ والكهل بينهم ـ ونال إعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخلق وإشراق الوجه.

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين، ثم دعاه الرجل إلى زيارة بيته فمضى فرحا مسرورا، وتوثقت عرى المودة بينهما، واكتسب الشاب ثقة الرجل لحد أن قدمه إلى زوجته وكريمته، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته، وهى خطوة لم يتوقعها رشدى قط، ولا دار له بخلد أن تتخذها أسرة بحى الحسين خاصة حيث تسود روح المحافظة، بل إن أسرته لتعتبر من هذه الناحية أشد محافظة على خلوِّها من الفتيات، فما يجرؤ هو ولا أخوه ـ فضلا عن أبيه ـ على أن يقدما رجلا غريبا إلى أمهما. على أنه سر بذلك سرورا لا يدانيه سرور، وسعد بتلك الثقة الغالية، واصطبغ تفكيره بلون الجد فاستشعر الرزانة

والتبعة، وتبع ذلك أن حل رشدى محل الأستاذ أحمد راشد المحامى فى التدريس لنوال ومحمد. ولما اتصل نبأ ذلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث، فأخوه صار كأنه عضو فى أسرة الجيران، ولو أنه وطَّن النفس يوما على أن يبلغ هذه المنزلة التى بلغها رشدى فى أيام لما كفته عشرون عاما، ولكم رمقه بعين الإعجاب المقرون بالحسد، ولكنه نجح فى التظاهر بالجهل المطبق، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه، واستسلم للصبر الذى استمرأه لطول ما عاناه. أما الأم فلم يغب عنها شىء من بادئ الأمر، فلم يكن رشدى من الذين يعنون بإخفاء أسرارهم. كان يلازم نافذته إذا وُجد بالبيت، ويهرع إلى بيت الجيران فى ساعات الدروس، وكان يغشى روحه هيمان بدت آثاره فى عنايته المتضاعفة بأناقته، وفى الحنان الذى اكتسبه صوته وهو يغنى، وفى خروجه الباكر كل صباح الذى لم يعد تخفى حقيقته على أحد، بل ما من شك أن أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم، وتعقد عليه من الأمل ما يثلج صدرها بالسعادة، لم يغب شىء من هذا عن الست دولت، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه إباء ولا نفورا، وكان من عادتها أن تقول أحيانا كالمتحسرة: «متى يا رب أفرح بالعرائس كالأمهات السعيدات؟!». ولكن هل نوال جديرة بابنها؟!.. لم لا؟!.. هى عروس حسناء متعلمة، من أسرة طيبة، ووالدها موظف، فكل شىء مناسب، اللهم إلا خاطرا واحدا أحزنها وأكربها، أيجوز أن يتزوج رشدى قبل أحمد؟!.. ولكن ما حيلتها؟!.. فلتنتظر ما تلد الأيام من أحداث تقضى بها مشيئة الله الحكيمة!

وفات رشدى طور اللعب، فهو يبدأ بمعابثة الغزل ولكنه ينتهى دائما بالحب الحقيقى!.. فأحب نوال واستعرت لها فى قلبه عاطفة صادقة. أليست بجارة النافذة المحبوبة، ورفيقة طريق الجبل المكللة هامته بالسحاب الرقيق، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة، وجليسته فى السينما صباح الجمع؟.. علق الهوى على قلبين طريين، ولصق نفسين تواقتين للحب والسعادة. وصارت حياته نشاطا متصلا يشق على الجسد والأعصاب، فهو إما مكب على عمله فى المصرف أو هائم فى غرامياته، أو ساهر فى كازينو غمرة، فلم يخلد إلى الراحة إلا فى الهزيع الأخير من الليل. فلم ينتشله حبه من داء المقامرة أو معاقرة الشراب ولا حتى من الحب الفاجر وعالج هاتيك اللذات فى يسر، وأنسته العادة أنها خطايا فأنس بها بلا تردد، ولم يتخيل أن الحياة حياة بغيرها، فعبد الورق والكأس والحب، وعسى أن يهوله ما تستوجبه هذه الحياة من مال ومشقة فيقول متأسيا: «غداً أودع حتما كل شىء إذا تزوجت!».

وكان حريًا أن يفكر فى نسيان ذاك العبث ليأخذ أهبته للزواج إن كان من الصادقين، ولكن هوَّن عليه الأمر أنه أودع المصرف يوما مبلغ خمسين جنيها ربحها من السباق، ففى

بحر عام واحد يستطيع أن يقتصد من مرتبه ما لو أضافه إلى ذلك المبلغ لقام بنفقات الزواج، ولكن متى يبدأ هذا العام؟. . هذا ما كان يؤجل التفكير فيه، مستسلما لتيار الشهوات العارم، فلم يتعود قط أن يروِّض من جماح شهوته، أو أن يحد من رغباته، أو أن يشد من إرادته، إلا أنه تردد أخيرا متحيرا، عينا على الحياة التى يلبى نداءها، وعينا على الفتاة التى يهواها.

٣٠

وانصرم شهر نوفمبر، فاشتد البرد اشتدادا لم تعهده القاهرة إلا فى النادر، وأصيب رشدى عاكف بالإنفلونزا، ولعلها أصابته أثناء عودته إلى خان الخليلى فى الهزيع الأخير من الليل، ولم يكن يعبأ بوعكات البرد مكتفيا ببلع أقراص الاسبرين إذا اشتد عليه وجع الرأس، فزاول نشاطه المعهود لا يعبأ بشىء، إلا أن حالة المرض اشتدت عليه فى اليوم الثانى فى المصرف فتناوبته قشعريرة، ثم شملته رعشة حتى اصطكت أسنانه، وعراه خور أظلمت منه عيناه فغادر المصرف واستقل تاكس إلى البيت، ورقد فى إعياء شديد، ومنحه طبيب المصرف أسبوعا، واشتدت الحالة، وتدهورت صحته بسرعة مخيفة، وغيَّره هزال فبدا كإنسان لازمه المرض شهرا طويلا؛ وأدرك أحمد أن أخاه فقد مناعته الأولى التى طالما قاوم بها التوعكات فلم يملك أن قال له:

- صرت كالخيال، لأن جسمك لم يعد يقاوم لما تكلفه به مما ليس فى وسعه.

وكان الفتى معتادا أمثال هذه الملاحظة من أخيه، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال:

- هذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول!

فقال أحمد باستياء:

- ولكنه ما كان يتمكن منك لولا تفريطك فى صحتك!

ولم يكن شىء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال:

- ألا ترى أنى لا أسهر وحدى!. . وأن صحبى جميعا كالبغال صحة وعافية!. . ولكنها أعراض البرد وسوف تزول بإذن الله.

وكان يعلم أنه يستميت فى الدفاع عن حياته لحد اللجاج والمكابرة فانكسر عن لومه، وكان يعوده كثيرا، ويواسيه ويشجعه، وبالغ فى ذلك مبالغة مردُّها إلى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور. فكأنه كان يغطى المشاعر التى تخجله وتحزنه بالمبالغة فى إظهار العطف والمحافظة على مظاهر الحب، وكثيرا ما كان يحدث نفسه بصوت مسموع قائلا:

«إنى أحبه كعهدى دائما، وما يستحق منى غير هذا الحب، ولو أنه علم بطويتى ما أقدم على ما أقدم عليه فهو برىء، وهو يحبنى وأنا أحبه». ولكن كيف يغفل عما يثور بنفسه أحيانا من الغضب والثورة؟.. وكيف ينسى أنه تمنى لو أن الشاب لم ينقل إلى القاهرة؟.. بل كيف ينسى أنه تمنى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشاب فيها طبعا؟!.. فهذه الخواطر وغيرها كانت ترهقه بالحزن وترديه فى الوساوس. وفى آخر ليلة من ليالى اشتداد الحمى على الشاب، حلم أحمد حلما غريبا. وكان نام بعد جهد ناصب من عذاب الفكر، فرأى فيما يرى النائم أنه جالس على فراشه مرسلا الطرف إلى شرفة نوال فى إشفاق ورجاء، فما يدرى إلا ورشدى يقعد على كرسى بينه وبين النافذة مبتسما ابتسامته اللطيفة، فشعر باستحياء وحوَّل ناظريه عن الشرفة إلى وجه أخيه، وأراد رشدى أن يسرِّى عنه بتظاهره بأنه لم يفطن لشىء فلم يفلح، ثم رآه ينتفخ رويدا رويدا حتى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء، ثم أخذ منه العجب كل مأخذ حتى لم يتمالك نفسه من الصراخ إذ رأى شقيقه ـ وهو كالكرة الضخمة ـ يرتفع ببطء طائرا كأنما يلتمس سبيلا إلى الفضاء خلال النافذة، ولكن النافذة ضاقت عنه فانحشر بين جانبيها وحجب عن عينيه النور، وزايلته الدهشة وحل محلها الرعب، ولكن الفتى، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولاه الغضب، وظن الشاب يسخر منه بخدعة فنهره ولكنه لم يعبأ به واستمر فى ضحكه الساخر، ففزع أحمد إلى مكتبه وأتى بريشته وغرسها فى بطنه فانقصفت فيها، واندفع من البطن بخار ملأ الحجرة بالغبار فأخذ جسم الفتى يتقلص بسرعة حتى عاد إلى حجمه الطبيعى ثم سقط عند قدميه، وجعل يتلوى كالسليم، ويعض من الألم قوائم الكرسى ويصرخ صراخا موجعا ويسعل حتى تجحظ عيناه ويسيل من محجريهما الدم، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضنى ويميت، ثم.. ثم استيقظ عند ذاك، وأدرك أنه كان يحلم، رباه، تبا للأحلام، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتى بلغ مسمعيه صوت كالأنين يأتيه من عقب بابه المغلق، فأرهف السمع فتبين له أنه صوت أخيه وأنه حقًّا يتأوَّه ويتوجع، فقفز من فراشه وانتعل شبشبه ومضى على عجل إلى حجرته. وهناك وجد الشاب يتأوه وأمه إلى جانبه تدلك ظهره بينا يجلس الأب على كرسى قريبا من الفراش، فتساءل أحمد مروَّعا:

ـ ماذا به؟

فقالت أمه:

ـ لا تنزعج يا بنى، إنه ألم الحمى وهى تفارق البدن!

وتنبه رشدى إلى مجىء أحمد فكظم ألمه قليلا وقال متأسفا:

ـ واخجلتاه!.. أزعجت منامكم جميعا.

ولكنهم شجعوه ودعوا له، وجلس أحمد جنب أمه، وأخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يدلكها بحنو، وكأنه يكفِّر بذلك عن إساءته إليه فى الحلم، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء المريض، فلبثوا إلى جانب فراشه حتى مطلع الفجر.

٣١

وبرأ رشدى مما ألم به، وغادر فراش المرض، ولم يكن هيِّنا عليه أن يلزم الفراش أسبوعا كاملا وهو الذى لا تطيب له الحياة إلا فى تجارب اللهو واللعب واللذات، ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء فى البيت والإخلاد إلى الراحة ريثما يسترد قوته، فضحك كعادته وقال كالآسف:

ـ حسبى أن ضاع من العمر أسبوع هدرا!

فاحتد الذى ضاع عمره كله وقال:

ـ أحذرك الاندفاع فيما أنت آخذ فيه، فإنك تستحل شبابك للعدم كأنه معين لا ينفد، ولا تعبأ أبدا أن تنال حقك من الراحة، فأى جنون هذا الذى تطيع؟!

ولمس رشدى فى لهجة أخيه غيرته على صحته، فابتسم ممتنا وقال:

ـ دمت من أخ كريم، متعنى الله بقلبه الكبير.

ـ إنى أرشدك لما فيه صلاحك!

فقال الشاب الشكور المحب:

ـ وهل داخلنى فى ذاك شك؟!

ولكنه لم يعن باتباع الإرشاد الذى لا يداخله فيه شك، وفى صباح اليوم التالى رآه أحمد يستجمع لخروجه الباكر، فتولَّته الدهشة وقال بإنكار

ـ ماذا أنت فاعل؟

فقال بشىء من الارتباك:

ـ إلى المصرف.

ـ وما الموجب للعجلة؟

فعدّل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة:

ـ أخى، لا أكتمك أن البيت يسقمنى!

وعلم أحمد بما يغريه حتما بالاستهانة بصحته، فانقبض صدره وأخفى بصره فى

فنجان القهوة، ومضى الآخر إلى سبيله، وأرادت الأم - وكانت جالسة إلى السفرة - أن تخفف من وقع ما خلفه الشاب لنصح أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه:

- شفاء أخيك فى الدنيا الواسعة لا فى البيت، فلا تؤاخذه!

ولما لم ينبس بكلمة ظنته غاضبا فقالت تستوهبه ابتسامة:

- أليس هو ابن أمه؟ ومن شابه أمه فما ظلم، ألا ترى إلىَّ كيف يركبنى الهم إذا لزمت البيت وحِيل بينى وبين زيارات الأحباب! فكلانا عدو البيت. .

وضحكت ضحكتها الرنانة فابتسم الكهل ابتسامة لا لون لها. وما كان شىء بمثنى الشاب عن حياته المحبوبة، فارتمى مرة أخرى بين أحضان الحب والقمار والشراب والتدخين والنساء!

استرد نشاطه المعهود ولكنه لم يسترد صحته، فلم يزايله الهزال، واشتد لون وجهه شحوبا وبدا وكأنه بقى من مرضه شىء لا يفارقه، وإذا كان أحمد منشغلا بنصحه كان الشاب منشغلا بالتفكير فى أمور أخرى، فدخل على أخيه عصر يوم - قبل موعد خروج الرجل إلى القهوة بقليل - حياه بابتسامته المطيعة وقال:

- هل تأذن لى بالتحدث إليك قليلا؟

فرفع أحمد رأسه إليه وقال:

- تفضل يا رشدى!.

وقرأ فى وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته، فعجب لأمره، وتساءل عما دعا السادر اللاهى إلى الجد والاهتمام. وذكر أنه لم يره فى مثل تلك الحالة إلا السويعات الحرجة التى تلقى فيها أنباء سقوطه فى بعض الامتحانات على عهد دراسته. وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلا، فقعد رشدى على الكرسى وقال:

- أريد أن أجد فى الأمر فليست الحياة كلها لعبا!

ولو أنه سمع كلامه هذا فى غير الظروف التى يعانيها لما تمالك أن يضحك ويقهقه، ولكن صدره انقبض، وحدس قلقا ما الشاب ماض إلى خوضه، فقال بهدوء:

- الحياة ليست كلها لعبا. هذا حق. .

فقال الشاب:

- أنت مرجعى عند المشورة، وقد جئتك سائلا هل توافق على زواجى؟!

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغتة لم تدر له بخلد، ولكنه لم يسمح لوجهه بالإفصاح عن كآبته، وتظاهر بالدهشة البريئة، بل وبالسرور، وقال:

- أجئت تتحدث أخيرا عن الزواج! مرحى مرحى!

فضحك رشدى بسرور وقال:

- هى الحقيقة يا أخى، فهل يسرك ذلك؟

- يسرنى طبعا، لعلنا سررنا بشىء واحد معا لأول مرة!.

وتبع ذلك صمت، وأدرك أحمد أنه من الطبيعى أن يسأل عن العروس، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة إلى سؤاله، ولكنه لازم الصمت، فلم يجد مناصا من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلا:

- وهل اهتديت إلى بنت الحلال؟

فاعتدل الشاب فى جلسته وقال:

- أجل يا أخى، كريمة جارنا الطيب كمال خليل أفندى صديقى وصديقك!

ولم يفلح ما سلف من تأهب فى تحمل الطعنة إلا قليلا، فيأس المتهم من النجاة لا يهون على نفسه وقع النطق بالحكم عليه، ولكنه لاذ بكبريائه وقال بهدوئه:

- وفقك الله لما فيه سعادتك.

- شكرا لك يا أخى.

- بيد أنى أريد أن أسألك سؤالا على سبيل الاحتياط، فهل زوِّدت بالمعلومات الضرورية عن الأسرة التى ستصبح واحدا منها؟

- خبرت الأسرة عن كثب، وعرفت الفتاة معرفة شخصية!

ونكأ تصريحه جرحه فضاعف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهرى، وقال:

- أذكرك بأنه إذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة!

فضحك رشدى قائلا بثقة:

- انتهى التقلب واستقر الرأى!

- هل فاتحت أحدا بهذا الشأن؟

- كلا فيما عداها هى!

فخفق فؤاده خفقة عنيفة، وشرع خياله فى استحضار صورة انفرادهما معا، وتهامسهما بهذا الشأن الخطير الجميل، ثم قطع تخيله بقوة، وقال بنبرات تنطق بالرضى:

- على بركة الله..

- إذًا أوكل إليك تبليغ والدى بالأمر، ومن ثم نأخذ فى الخطوات المتبعة.

فتريث أحمد قليلا ثم قال:

ـ سأخبر أبى، أما الخطوات الأخرى فتحت شرط!

ـ سمعا وطاعة. .

ـ ألا نشرع فيها قبل أن تسترد صحتك، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الأقل!

فقال رشدى ضاحكا:

ـ هذا علىَّ هين، ولن يطول انتظارنا.

ثم نهض قائما وهو يقول:

ـ أشكر لك والعقبى لك (ثم غير لهجته كمن تذكر شيئا جديدا). . على فكرة! لماذا لا تفكر أنت أيضا فى الزواج، أما كان ينبغى أن أبارك لك قبل أن تبارك لى؟!

أيصارحه بما حال بينه وبين التفكير فى الزواج؟!. . الفتى لا يدرى مما يقول شيئا، ولذلك فهو يرميه بسهام مسمومة فى غفلة وصفاء! وقد امتعض لتساؤله، وخاله لسان القدر يتهكم من شقائه بعد أن قضى به عليه، وقال كالمتهكم:

ـ مضى زمن الزواج!

ـ مضى؟!

ـ دع هذا يا رشدى، فأنت تعلم أنى امرؤ مشغول! والله لم يجعل لامرئ من قلبين فى جوفه!

ومضى الشاب يهز رأسه أسفا، واطرق الرجل، ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق، واستسلام للقدر واليأس، سيتولى ـ هو ـ أمر زواج الشاب، فلا مناص من أن يحيك كفنه بيديه، وفى ذلك ما فيه من ضروب الألم وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللذة والعزاء. لن يخلو على الأقل من تلك اللذة الغامضة التى تؤلف بينه وبين الألم كما تؤلف بين الفراشة والنور، وفيه لذة الاستسلام إلى القضاء القهار، وفيه لذة التكفير عن مشاعره الباطنية التى لم يرتح إليها، وفيه أخيرا لذة لكبريائه الجريح. .

٣٢

وارتدى على أثر ذلك ملابسه، ومضى إلى الزهرة وقد فارقه ذلك الشعور بالأسف الذى كان يخامره كلما هم بالخروج عن عادة وحدته، واشترك فى أحاديث الصحاب أكثر من ذى قبل ـ إذ كان جل حواره مع أحمد راشد وحده ـ واستسلم للضحك طويلا على غير عادته. وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى التى سمع عنها دون أن يشهدها. وبدا له الخاطر مغريا فمال إليه بكل قلبه، بيد أنه تردد كالخائف ولم يدر كيف

يقدم نفسه، ولم يغادره هذا الخاطر حتى نهض القوم للذهاب إلى حال سبيلهم، وكان من عادة نونو أن يمضى إلى بيته أولا ومن ثم يلحق بالصحاب فى ندوتهم، فاتخذ منه رفيقا، وآتته شجاعته فى الطريق فقال باستحياء:

- يا معلم، هلا اصطحبتنى إلى الإخوان؟

فصفق الرجل بسرور وصاح به:

- هداك الله أخيرا!

فقل بصوت خافت:

- ولكنى فى هذا الأمر أجهل من دابة!

فقال المعلم بزهو وخيلاء:

- اجعلنى دليلك، وأيًّا ما كان فهذا الأمر أسهل من كتبك وأجل فائدة!

وعادا معا يخبطان فى الممرات الملتوية يشملهما ظلام دامس، ودخلا عمارة وارتقيا السلم إلى الطابق الثالث، وضغط الرجل زر الجرس الكهربائى وهو يقول:

- إذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فآيتك أن تضغط الزر خمس دفعات متتابعات ثم تذكر كلمة السر التى سأقولها الآن.

وسمعا صوت عباس شفة يسأل عن القادم فقال المعلم:

- ملعون أبو الدنيا!

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هيَّاب وتبعه المعلم، وعبرا صالة إلى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة بنور أزرق هادئ كنور الفجر العليل، ينبعث من مصباح ملفوف بغلالة زرقاء، فاتجهت الأنظار نحو القادمين، واستقرت على الجديد حتى تعثر بالارتباك والحياء. وقد تربعوا على شلت تراصت على صورة دائرة، ووضع فى وسطها «العدد» كالمجمرة والجوزة والطباق، فتبادلا التحية مع الحاضرين وجلسا جنبا إلى جنب، واستطاع أحمد أن يلقى نظرة عامة على المكان، ويرى إخوان قهوة الزهرة - فيما عدا أحمد راشد - بين الموجودين. ثم استرعى صدر المكان انتباهه حيث جلست امرأة «هائلة» على شلتة ضخمة، وإنها لهائلة حقا، ففى جلستها كانت تطاول شخصا قائما، عريضة المنكبين، طويلة الجيد، مستديرة الوجه فى امتلاء وضخامة، واضحة القسمات، يراوح لونها بين المصرى والحبشى، أما شعرها فكستنائى مجعَّد شدَّ إلى ضفيرة غليظة قصيرة، وأعجب ما فى وجهها عينان كبيرتان بارزتان بروزا لا يبلغ القبح، لنظرتهما حدة ولحورهما التماع، ويوحى منظرها بالهيبة لضخامتها وقوتها، وبالشهوة لأمارات الحيوانية البادية فى ملامحها، والإغراء المنعكس عن خلاعتها. وقد وضعت على كتفيها شالا مجملا منمنما وجعلت تتفرس فى وجهه بعينيها القادحتين.

وأدرك أحمد عاكف أنها عليات الفائزة التى يدعونها بمعشوقة الأزواج، وقد جلس زوجها عباس شفة إلى يمينها بينما جلس إلى يسارها المعلم زفتة القهوجى. وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدت له راحتها المخضبة بالحناء ورحبت به. وحدجه المعلم زفتة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكًا:

ـ وأخيرا عرفت أن الله حق؟ لكم أنفقت من عمر فى حجرتك وعلام ذلك التعذيب؟؟! .. لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز، ولكنه ظلم الإنسان لنفسه!

فقال المعلم نونو يزكى صاحبه ويعتذر عن «غفلته»:

ـ يا أخوانى، إن نظرى لا يخيب وفراستى تصدقنى دائما، وقد اقتنعت من أول نظرة بأن صاحبنا أحمد أفندى «ابن حظ» ولكن أضلته الظروف عن منهله العذب حينا وإنَّا لهادوه بإذن الله!.

وخاف كمال خليل أن يضيق صاحبه ـ الذى جدَّت دواع جديدة تحمله على إرضائه ـ بكثرة المداعبات فقال:

ـ الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطَّلع، ولكن لا ضير من أن يأخذ حظا من السرور، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلا ..

فلوَّح المعلم زفتة بيده كالساخط وقال:

ـ ولماذا نقضى على أنفسنا، وبمحض اختيارنا، بعناء متصل أو منفصل؟! الأستاذ موظف ذو مقام، فماذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخذة؟! عاهدنا على ألا تغيب عنا ليلة بعد اليوم!

فابتسم أحمد كالمرتبك، وزاد من ارتباكه أن قالت عليات الفائزة تخاطب زفتة وهى تلحظ الكهل:

ـ رويدا يا معلم، كيف يعاهدك على ذلك وقد لا يطيب بنا نفسا؟!

فتورد وجه أحمد وقال مسرعا:

ـ العفو يا هانم! ..

وكانوا يدعونها عادة بست عليات فوقعت .. «هانم» من آذانهم موقعا غريبا، أما الست فقالت:

ـ أهلا بك فى كل وقت.

وكان عباس شفة مكبا على تعبئة «الكراسى» ثم رص الجمرات على كرسى منها، وركَّبها على الجوزة وقدمها إلى الست. واستقرت عينا أحمد على الجوزة فى اهتمام مشوب بقلق وإشفاق، ثم مال نحو نونو، وهمس فى أذنه:

ـ ألا يحق لى أن أخاف هذه الجوزة؟

فعاتبه المعلم قائلا بصوت منخفض :

ـ إذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا؟

وتوسط عباس شفة الدائرة، وجعل يدير الجوزة من رجل إلى رجل، مقتربا منه، حتى بلغت المعلم نونو، فوضع الغاب فى فيه وأخذ نفسا طويلا، اتصلت قرقرته حتى ملأت الأسماع، وزفره من خيشومه قطعا من سحاب داكن! وأخيرا رأى الغاب يدنو من شفتيه والأنظار تتحول إليه، فأطبقهما عليه وأخذ نفسا قصيرا كالخائف ونونو يهتف به : «شد . . شد» ثم قال له بلهجة الأمر : «إزدرد الدخان!» فازدرده ثم زفره بسرعة وقد شعر كأن يدا تكتم أنفاسه، ثم سعل سعلة اضطرب لها جسمه النحيل ودمعت عيناه، وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لما أفاق :

ـ كيف الحال؟

فقال وهو يتنهد :

ـ أولى بى أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة، ألا ترى أنك مدرس قاس يا معلم؟!

فقهقه المعلم قائلا :

ـ كما تشاء ففى التأنى السلامة!

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرات متعاقبة، وتصاعد الدخان من كل جانب وانعقد سحبا، وشم أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة، بل هى نفسها دون غيرها، فأين شمها ومتى؟! ولم يطل به عذاب التذكر، فذكر أول لياليه بخان الخليلى، ليلة التسهيد إذ تسربت هذه الرائحة الغريبة العميقة إلى حجرته فحيرته، فلم تكن إلا رائحة هذا المخدر العجيب المخيف، ولعلها انطلقت ليلتئذ من هذه الحجرة نفسها أو من ذاك الحى العجيب الذى لا يبعد أن تكون جميع الأنفاس المترددة فى جوّه من هذه الأنفاس. وسر للذكر وارتاح إليها إيما ارتياح لأن التخدير كان قد أخذ يسرى فى أعصابه المتوترة فيلينها، فابتسمت أساريره. وعاد عباس شفة إلى مجلسه يستريح قليلا، بينما مضى المعلم زفتة فى تعبئة الكراسى من جديد استعدادا للدورة الثانية وقالت الست عليات الفائزة :

ـ أما هنأتم سيد عارف أفندى!

فالتفت إليها القوم، وقال نونو :

ـ خير إن شاء الله!

فقالت المرأة الهائلة مبتسمة :

ـ أرشده طبيب ماهر إلى أقراص جديدة وأكَّد له أنها مضمونة النجاح!

فعلا ضحك الجميع ـ أصحاب قهوة الزهرة والآخرون ـ وقال المعلم نونو موجها خطابه لسيد أفندى :

ـ أمنية قلبى أن أراك يوما مثلنا!

فقال سيد عارف كالمحتد :

ـ هذا يدل على سوء نيتك!

وسألوه عن الأقراص الجديدة ، ولكنه أبى أن يذكر عنها شيئا خشيةأن تصيبها نفس!

فقال المعلم زفتة :

ـ إنما الأعمال بالنيات!

وكان كثيرا ما يستشهد فى أحاديثه بالحكم والأمثال أو الأحاديث الشريفة كيفما اتفق دون مبالاة بمطابقتها لمقتضى الحال ، ودون أن يفطن إلى شذوذ الاستشهاد عن معنى كلامه ، على أنه لم يكن يتنبه إلى غفلته تلك إلا قلة من الحاضرين! وضاق سليمان بك عتَّة بالضجيج ذرعا واشتد وجهه القبيح كآبة فقال بحنق وعنف كعادته إذا استاء أو غضب :

ـ الهدوء . . يا هوه! . . للغرزة آدابها! . .

ولاحت الدهشة فى وجه كمال خليل فسأله باهتمام :

ـ وما آداب الغرز؟!

فقال القرد باستياء :

ـ هذه الضجة خليقة بالحانات حيث يفقد السكارى عقولهم . الغرز على عكس ذلك جديرة بالهدوء والصمت ، فالحشيش سلطان يوجب على مواليه الخشوع والسكون ، بالهدوء والصمت يبلغ التخدير مداه فيصفو المزاج وتنثال على الخيال الأحلام فيظفر الإنسان بمشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير فيها وحلها واحدة بعد أخرى!

ـ ولكننا نجىء هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا لنفكر فيها!

ـ بئس الرأى ، إن الهروب من المتاعب لا يذهبها ولكنه ينسى عذابها إلى حين كى تعود أفظع مما كانت ، حكمة الحشيش تهبنا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر على الاستهانة وتهوين خطبها فتذوب فى بالوعة النسيان وتَّمحى من الوجود! . .

فقال سيد عارف ضاحكا :

ـ فليس هذا بكرسى حشيش ، ولكنه كرسى الاعتراف! . .

وقال المعلم زفتة :

ـ صدقت، هذا حشيش القسيس! وصدق من قال يا جحا عد غنمك؟!

ثم قال المعلم نونو مستنكرا وموجها خطابه لسليمان بك:

ـ وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب؟

ـ وهل يخلو من المتاعب إلا حيوان!

ـ فكيف شعرت بها؟!

فأجابه ـ سيد عارف:

ـ لعله مالك الحزين!

ونهض عباس شفة بشعره المنتفش كالشيطان فدارت الجوزة دورتها الثانية، ومحت القرقرة لغط الحديث، وأخذ أحمد أنفاسا أشد من المرة الأولى مستوصيا بشجاعة لا عهد له بها، وبرغبة قوية فى الذهول، وقد أعجبته فلسفة سليمان عتة على مقته له، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذى أورده هذا المكان الخانق على طريقته لعله أن يبرأ، لكنه تسلط عليه التخدير فثقلت جفونه واحمرت عيناه ومال عنقه قليلا، ثم ساوره خوف مفاجئ فأدنى رأسه من أذن المعلم نونو وسأله:

ـ ألا يخشى علينا من الشرطة؟.. هب شرطيا تسلل إلى الباب وقال ملعون أبو الدنيا؟!

فضحك نونو وقال:

ـ نقول له ملعون أبوك!

وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفة جنب زوجه الهائلة مرة أخرى وتحركت الألسن من جديد.

فقال المعلم زفتة القهوجى وهو لا يمسك عن العمل:

ـ أبشركم يا إخوان بأن هتلر ـ حين يفتح الله له مصر ـ سيلغى أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكى الإنجليزى!

فقال المعلم نونو:

ـ هتلر رجل حكيم ولا يداخلنى شك أن الفضل الأول فى مهارة خططه راجع للحشيش!

فسأله كمال خليل أفندى:

ـ وكيف أوصله إليه عباس شفة؟

فقال نونو بلهجة جدية:

ـ لا حاجة به إلى عباس شفة، فالمخزن رقم ١٣ ملآن بالحشيش النقى!

ثم هز المعلم رأسه كالآسف وقال بحسرة ظاهرة :

ـ ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين ينشرون المخدرات بين الأمم التى يغزونها !

فقال المعلم زفتة بنفس اللهجة :

ـ ليت الإنجليز كانوا حشاشين !

ـ ضاعت خمسون عاما من الاحتلال هدرا !

وهنا نهض سيد عارف بغتة وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام الشديد ، ولبس طربوشه كأنما يتأهب لمغادرة المكان ، فعجب القوم له وسألته الست عليات :

ـ إلى أين يا أخانا؟

فتخطى محيط دائرة الجلوس وهرول نحو الباب متعجلا وهو يقول :

ـ الأقراص نجحت . .

وغاب عن الأنظار فى لمح البصر ، فانفجر القوم ضاحكين ، وتساءل كمال خليل وهو يسعل :

ـ هل حقا ما يقول؟ !

فقال سليمان عتة بسخرية :

ـ دعاية كاذبة كدعاية أصحاب الألمان . .

فقال نونو :

ـ سنعلم الحقيقة بعد تسعة أشهر !

فقالت عليات الفائزة :

ـ علم هذا علىَّ هين ! . .

وواصلوا الهزل حتى قام عباس شفة ممسكا ، بالجوزة فكان نذير الصمت ، وفى هذه الدورة أخلد أحمد لتخدير غريب ـ وكان طول الوقت صامتا راغبا عن الكلام أو عاجزا عنه ـ وشعر بأن إرادته فقدت سلطانها على أعضائه ، وقد أراد أن يحرك ذراعيه ليطمئن إلى أنه ما زال متمالكا زمامه ، ولكن شعورا عميقا قويا أغراه بالعدول عن التجربة ، وهيأ له أنه لا يوجد فى الدنيا جميعا ما يستحق التعب أو الحركة ، وأن الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا ، ورأى القوم خلل نفثات الدخان فخالهم أشباح دنيا غريبة أو سكان كوكب آخر ، ولا يدرى كيف ملأه ذاك الإحساس بالغرابة ، فلذ له أن يضحك ، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابه مطلعها التأوه وحاكى ختامها قرقرة الجوزة ، فما تمالك الجالسون أن ضجو ضاحكين ! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله ، فاعتدل فى جلسته ليستعيد ـ ما أمكن ـ شيئا من يقظته ، وحدث عند ذاك شىء عجيب . حدث أن نهضت عليات

الفائزة قائمة، استطال ذاك الجسم الهائل فى الفضاء، وامتد طولا وعرضا فملأ الأعين، وكانت مرتدية روبا شد إلى جسمها ليبرز محاسن مقاطعه، ثم تحرك موكبها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مختفيا وراء الأساور الذهبية، ولما مرت أمامه ارتاع الكهل على ذهوله، رأى الروب يتسع بعد خاصرتيها ليكتنف عجيزة لم ير مثلها فى حياته، ريانة ناهضة مترجرجة تبرز فوق الفخذين كالمشربية، فما صدق عينيه، ولاحظ المعلم نونو دهشته فقال له هامسا :

ـ انتبه فالست تطلعك على السر الذى أشقى أزواج الحى، ما هذه بعجيزة ولكنها كنز!

فقال أحمد بصوت لا يكاد يسمع :

ـ هذا شىء فوق ما يتصوره العقل!

ـ وأكثر من هذا أنها تحوى فضيلتين لا تجتمعان، فهى من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة، ومن ناحية أخرى تسوخ فيها الأصابع لينا!

ـ هـذه لغـز!

ـ نسأل الله السلامة!

فقال الكهل وهو لا يدرى :

ـ آمـين . .

وكان عباس شفة يسترق إليهما النظر فسأل المعلم نونو متكلفا لهجة الوعيد :

ـ فيم تتحدثان؟

فضحك المعلم ضحكته المجلجلة وقال :

ـ نتآمر على أنفس أثاث البيت!

وكفوا عن الكلام فسمع صوت المعلم زفتة وهو يتحدث فى الجانب الآخر من الحلقة يقول لبعض المستمعين الأغراب بلهجة الناصح :

ـ ثلاثة أشياء أشير عليكم بالإكثار من اقتنائها : الذهب والنحاس والسجاد الفارسى فقيمتها ثابتة، تبيعونها وقت الشدة أو تنتفعون بها فى تجهيز البنات . .

فقال رجل معهم يدعى المعلم شمبكى :

ـ تبًا للبنات وللأزواج وللأمهات! . .

فأومأ عباس شفة إلى المتحدث وقال :

ـ أما علمتم بأن حرم المعلم شمبكى هجرت بيته غاضبة؟!

فتأسف الحاضرون، وهنا عادت الست عليات إلى جلستها فسمعت العبارة الأخيرة وقالت :

ـ لماذا يا معلم؟ أرجو ألا أكون السبب. . !

ـ كلا يا ست. . زواج ابنى سنقر هو السبب، أردت أن يتم فى هدوء مراعاة للظروف، وتأبى إلا أن تزفه القيان، فقالت لى بوقاحة: مالك علىَّ وعلى أبنائى حرام، أما هناك فحلال!

فقالت الست عليات ضاحكة:

ـ هناك هذه هى أنا!

فاستدرك الرجل يقول مغيظا متأسفا:

ـ وقالت لى وهى تشد أطراف بقجة ثيابها: «سأذكرك دائما بأنك الرجل الذى لم يسعدنى يوما واحدا من حياتى!». . اسمعوا يا هوه. . أهذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عاما؟!

فقالت عليات بلهجة الانتقاد المر:

ـ تبًّا لها، وارحمتاه لشبابك الذى أنفقته عليها، اصغ إلىَّ يا معلم، كد لها وتزوج من غيرها. . !

فهز الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامه على شفتيه ثم قال مغمغما:

ـ وهل تبقت فى العمر ذخيرة؟

ـ استغفر الله يا معلم، أنت قد الدنيا!. .

فقال المعلم نونو متحمسا للفكرة:

ـ نعم الرأى. إنه لا يؤدب المرأة إلا الزواج بغيرها، وربنا أمر بالزواج من أربع!

ـ استغفر الله العظيم، لم يأمر الله بذلك ولكنه أباحه على أن نعدل!

ـ ومن قال لك اظلم؟

ـ صلوا على النبى، أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجى!

ـ تزوج على بركة الأقراص الجديدة التى اكتشفها سيد عارف أخيرا!

وهنا قال المعلم زفتة متمما الحديث الذى قطعه المعلم شمبكى بشكواه العائلية:

ـ واقتنوا خاصة السجاجيد الفارسية، فالذهب ربما انخفض سعره، وكذلك النحاس، أما السجاجيد الفارسية فتزيد نفاسة مع الزمن، المرأة القديمة لا تساوى مليما أما السجادة. .

وعاجلته الست بلطمة على صدره فصاح:

ـ الضرس الباقى وقع. .

فقالت له:

- يا حشاش يا مجنون نحن نتكلم فى الزواج ، فما دخل السجاد؟!

- لا تغضبى يا ست فالصبر مفتاح الفرج ، وما دمت ترغبين فى حمل المعلم شمبكى على الزواج مرة أخرى فسأقص عليه نادرة تغريه بالزواج (والتفت إلى شمبكى) واستمر يقول : عاد شيخ إلى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها ، وكانت تتيه عليه إدلالا بحسنها حتى كفَّرت عن سيئاته ، فمر بها إلى فراشه وهو يقول بصوت منخفض : «الفتنة نائمة!» فما كان منها إلا أن أمسكت بطرف الجبة وهى تقول : «لعن الله من أيقظها!» .

وشعر أحمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جو الحجرة ، ونفد صبره ، فنهض قائما كالمترنح ، وجذبت حركته الأنظار ، فسأله المعلم نونو :

- إلى أين؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع :

- حسبى هذا!

- هذه نهاية البداية! وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقى . .

ولكن الرجل أصر على الاعتذار ، وتحرك فى بطء وتثاقل ، فقال المعلم زفتة :

- أأقراصك نجحت أنت أيضا؟!

وغادر الشقة ؛ وأمسك بالدرابزين ونزل متثاقلا وما زال يهبط ثم يهبط حتى خال السلم مفضيا إلى مركز الأرض ، ولكنه انتهى إلى الطريق وخبط راجعا إلى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة فى حياته ، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه فى إعياء ، وأطفأ النور واستلقى على الفراش . ولم يسارع إليه النوم كما توقع ، وتبين له أن تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة ، وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قوية مضطربة خالها تشيل الغطاء وتحطه ، وتزاحمت الصور بمخيلته فالتبست وغرقت فى غموض ، إلا صورة واحدة غلبت ما عداها ، تلك المرأة الهائلة ، فهل يلتمس وصالها كالآخرين؟ ولكن مهلا ، ماذا يفعل بها ، إنها إذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث فى إبط الفيل ، كلا ما تلك بامرأة ، إن هى إلا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التى انغرست قدماه فى شاطئها وحملقت عيناه فى عبابها ، وتضاعفت ضربات قلبه فجف ريقه ، وتهيأ له أنه يهوى من عل فى فضاء لا نهائى ففزع جالسا فى فراشه ، وداخله شعور بالخوف واليأس . . ولبث حتى مطلع الفجر يعانى آلاما فظيعة ، جسمية ونفسية . .

٣٣

ولم يفكر بعد ذلك فى معاودة المغامرة. ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيده أن ما حدث له إنما كان مرجعه إلى أنه لم يطعم حلوا بعد التدخين مباشرة، فأعرض عن إغراء الرجل وقال لنفسه يتأسى كعادته: «الظاهر أن الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتمتع بهذه الشهوات». على أنه لن يمسى بحاجة إلى هذا المخدر كى ينسى شجونه، فغدا إذا تم زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسى. بيد أن رشدى ما زال يخبط فى سبيله على غير هدى، ولم يخفف من غلواء عبثه واستهتاره، فلم يسترد عافيته بل وساءت حالته، ولم يعد يخفى على عين إنسان هزاله، واستحال شحوب وجهه صفرة، وجعل يتناوبه سعال شديد ثم فترت شهوته للطعام. فهال أحمد أمره، وقال له بلهجة حازمة:

ـ كأنك لإهمالك صحتك قد عدلت عن آمالك! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتى تسترد صحتك؟ لذلك استعصى شفاؤك من مرضك الأول وأصابك هذا السعال الشديد، وما ينبغى لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب، فماذا أنت فاعل؟!

ولم يكابر رشدى كعادته، لأن وطأة السعال كانت شديدة عليه، فقال بتسليم ليس من دأبه:

ـ سمعا وطاعة!

قال المغرم بتعذيب نفسه:

ـ تعجَّل الشفاء يا رشدى قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة!

وأبدى الشاب المريض عزيمة صادقة، فانقطع عن كازينو غمرة، ولم يغادر البيت مساء إلا لإعطاء تلميذيه الدرس الخصوصى ـ وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذة ـ ولأول مرة مذ فارق صباحه حاول أن يأوى إلى فراشه فى الساعة العاشرة، مما دعا أحمد إلى الإعجاب المطلق بصنع الحب الساحر. إلا أن الشاب لم يضحِّ برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدة البرد القارص! لأنها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه. وصبر على تلك الحياة المستقيمة أياما دون أن يطرأ على حالته ما يبشر بالشفاء. بل نال السعال من حنجرته فاخشوشنت وبح أخيرا صوته، فتعذر عليه ترديد أغانيه المحبوبة. وكان عيد الأضحى قد أصبح على الأبواب، وأخذت له الأسرة أهبتها ككل عام، فجىء بكبش التضحية وشد من عنقه إلى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكانا سواه فى الشقة، ومضت الست دولت تصنع الرقاق. وقد تشكى أحمد ـ كعادته ـ ارتفاع

ثمن الخراف، وقال إنه ربما تعذر عليهم ابتياع كبش فى العام القادم، فهال أمه القول وقالت له ضاحكة:

ـ ابصق هذه النية وطهر فاك الشريف!

وجاء العيد فى الأيام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢، واستقبلته الأسرة ـ والحى جميعا ـ بالبشر والفرح، وحفلت المائدة باللحوم أشكالا وألوانا. ومن عجب أن رشدى لم يخرج عن نظامه الجديد فى العيد، والحق أن إعياءه لم يمكنه من إشباع رغباته، أما أحمد فأمضى عطلة العيد فى قهوة الزهرة، ولكنه لم يذعن لإغراء المعلم نونو فخاب سعى الرجل لاستدراجه مرة أخرى إلى بيت عليات الفائزة، وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنمية؟ ثم كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد. وفى ذاك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام، وقد استيقظ فى منتصف التاسعة ومضى إلى الحمام كعادته، فوجد رشدى مكبا على الحوض يسعل سعالا شديدا يضطرب له جسمه الهزيل، فاقترب منه حتى صار لصقه، ومد يده ليربت على منكبه فلاحت منه التفاتة إلى الحوض فرأى بقعة حمراء! فتصلبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت متهدج:

ـ ربـــاه!..

ثم نظر نحو شقيقه فى ارتياع، وكان كف عن السعال ولكنه لم يزل فى غيبوبة منه، يعلو صدره وينخفض، ويتنفس بصعوبة، وقد احمرت عيناه ـ فتريث الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه، وقال بلهفة منزعجا وهو يشير إلى البقعة الحمراء:

ـ ما هذا يا رشدى؟!

فرفع إليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح:

ـ هذا دم!

ـ ربـــاه!

فتجلى الحزن فى عينى الشاب، ثم أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أصبت وانتهيت!

فقال أحمد وكأنه يتوسل إليه:

ـ لا تقل هذا!

فقال الشاب بقنوط:

ـ هى الحقيقة يا أخى!

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض، وتأبط ذراع الشاب، وسار به إلى حجرته ـ

حجرة الشاب ـ ومضى إلى النافذة فأغلقها ، وجلس رشدى على الفراش فأتى الآخر بكرسى وجلس أمامه ، ثم سأله بعد أن ازدرد ريقه :

ـ ماذا تقول يا رشدى؟! صارحنى بكل شىء! . .

فقال الشاب بهدوء :

ـ ذهبت أخيرا إلى طبيب فقال لى إن بالرئة اليسرى مبادئ سل!

٣٤

والحقيقة أنه ظل يعانى آلاما بارحة منذ منتصف ديسمبر ، وحدث أن اشتدت عليه نوبة السعال فى المصرف مرة فاستخرج منديله ليبصق فيه فما روَّعه إلا أن بصق فيه دما! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياع ، ثم دس المنديل فى جيبه خشية افتضاح أمره. وغادر المصرف إلى عيادة طبيب أخصائى فى الأمراض الصدرية ، وجلس بين المنتظرين يقلب بصره الزائغ فى الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين واستولى عليه القلق والانزعاج ، وتساءل هل يقع فريسة لذلك المرض الخطير الذى تقشعر لذكره الأبدان؟ وكان سمع مرة صاحبا يقول إن السل داء لا برء منه ، فذكر قوله خافق الفؤاد. ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال ، فأشفق من أن يكون ذاك الداء الوبيل أولى تجاربه القاسية ، واشتد به القلق فى جلسته حتى تهيأ له أن يقتحم حجرة الكشف ، ولكنه تصبَّر حتى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهدا اضطرابه وانزعاجه. وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والآلات وأخيرا الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه ، ثم انتظر واقفا ، وجفف الدكتور يديه والتفت نحوه. كان قصيرا نحيفا دقيق الأعضاء ، إلا أنه كبير الرأس أصلعه ، واسع العينين جاحظ الحدقتين ، حاد النظرة. فحياه الشاب برفع يده إلى رأسه ، فقال له الرجل بصوت رفيع :

ـ أهلا وسهلا. تفضل بالجلوس.

فجلس رشدى على مقعد كبير ، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضا وراءه واستخرج كراسة ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره ورشدى يجيب. ثم حدجه بنظرة الاستفهام التقليدية فأشار رشدى إلى صدره قائلا :

ـ أريد أن أكشف على صدرى.

وما كاد يتم قوله حتى انتابه سعال عنيف ، فانتظر الدكتور حتى أمسك واسترد أنفاسه وسأله :

ـ هل أصابك برد؟ . . متى؟ . .

ـ أصبت بالإنفلونزا منذ أكثر من أسبوعين، وكانت حادة، والظاهر أنى استأنفت عملى قبل أن أبرأ تماما، فلم يفارقنى الإعياء، ثم كان هذا السعال العنيف فتدهورت صحتى . .

وأسهب الشاب فى وصف السعال وآلامه وعما فقد من وزنه، فقاطعه الدكتور متسائلا :

ـ ومتى بح صوتك؟

فأجاب الشاب :

ـ منذ أسبوع على الأقل .

فأمره أن يعرِّى نصفه الأعلى، فقام الشاب، وأخذ فى فك رباط رقبته ثم خلع السترة والقميص والفانلة، وتصدَّى للطبيب نضوا مهزولا، ووضع الرجل السماعة على أذنه وجعل يتلقى بها آثار نقر سبابته على الصدر والظهر . ولاحظ رشدى أنه كرر ذلك كثيرا على موضع فى أعلى النصف الأيسر من الصدر، وطلب إليه أن يرتدى ملابسه، ثم سأله :

ـ هل بصقت دما؟

فانخلع قلب الشاب، وتريث قليلا، ثم قال بصوت منخفض :

ـ نعم . . لاحظت ذلك مرتين أو ثلاثا!

فجاء الطبيب بقنينة زرقاء وأمره أن يتنحنح بشدة ويبصق فيها، ثم مضت فترة وجيزة ورشدى منتصب القامة، ثقيل الأنفاس كمن ينتظر النطق بالحكم، وقال الدكتور :

ـ إنى أشك فى وجود حالة ما فى الرئة اليسرى، وليس من الحكمة الجزم بشىء الآن، ولكن اذهب توّاً إلى الدكتور (. . . .) ليصوِّر صدرك بالأشعة وعد إلىَّ بالنتيجة .

وحذره من أن يشق على نفسه بأى مجهود! ولكن رشدى لم يبرح موقفه وقد تجهم وجهه وغشيته كآبة ثقيلة . فاستطرد الدكتور قائلا :

ـ عسى أن أكون مخطئا! ولكن حتى لو صح ظنى فالإصابة بسيطة .

ومضى إلى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعة، وانتظر أياما يعانى آلاما نفسية مروعة إلى جانب آلام السعال . ولم يكن فى الحقيقة مطبوعا على الخوف أو الوساوس والأوهام، ولكنه وجد نفسه فجأة تحت رحمة أفتك الأمراض، وأثر فيه اسم المرض تأثيرا بالغا . ثم رجع إلى الدكتور الأول ومعه صورة الأشعة، وفحصها الرجل بعناية ثم تحول إليه قائلا :

ـ كظنى تماما! . . سمِّه خدشا خفيفا أو قذارة سطحية إن شئت .

وغاض الأمل، ولاح القنوط فى العينين العسليتين وهما ترمقان صورة الأشعة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئا. خدش خفيف أو قذارة سطحية! . . هل تضحى الحياة رهينة بهاتيك التوافه!

وقال للدكتور بصوت حزين:

ـ فلنسمه بما تشاء، فهل يعنى هذا إلا أنه سل لا يرجى له شفاء؟!

فحدجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع:

ـ لا يهولنَّك هذا الاسم، واطرح جانبا المخاوف التى لا أساس لها من الحق أو العلم، واعلم أن حالتك مضمونة الشفاء إذا اتبعت ما أنا موصيك به . .

وأمسك قليلا كالمتفكر، فقال الشاب بإشفاق:

ـ يقولون إن هذا الداء لا شفاء منه!

فهز الرجل منكبيه باستهانة وقال:

ـ انبذ هذه الآراء، واعلم أنى كنت يوما من ضحاياه، بيد أنه يلزمك الغذاء الجيد جدا والراحة التامة والهواء الجاف النقى، وكل أولئك متوفر فى المصحة، فإلى حلوان دون تردد.

ـ وكم يستغرق العلاج من الزمن؟

ـ ستة أشهر على أكثر تقدير!

فانقبض صدر الشاب، وأيقن أن هذه المدة تقضى عليه حتما بفقد وظيفته، وغداً إذا ذاعت الحقيقة وعلم بها «الجيران» فقد فتاته كذلك! فنفر من اقتراح المصحة، وقال للدكتور:

ـ وإذا كانت هذه الشروط متوفرة فى البيت؟

ـ أين تقطن؟

ـ فى خان الخليلى . .

ـ هذا مكان رطب فيما أعلم، والمصحة خير مأوى لك، ولا تنس العناية الطبية هنالك!

وقوى أمله فى أن يستشفى فى البيت دون أن يعلم بسره إنسان فيطمئن على وظيفته وفتاته، فقال:

ـ وإذا تعذَّر علىَّ الانتقال إلى المصحة؟

فهز منكبيه تارة أخرى وقال:

ـ هنالك ينبغى لك مضاعفة العناية فى البيت، خصوصا الراحة والغذاء، فإياك أن تفارق فراشك، وسأصف لك العلاج الطبى . .

وفى أثناء انشغال الدكتور بكتابة «الروشتة» خطر له ـ أى الشاب ـ خاطر هام، فتردد لحظة ثم قال متسائلا:

ـ ثمة سؤال آخر: هل يمكن.. أعنى متى يمكن أن يتزوج من كان مريضا مثلى؟!

فابتسم الطبيب لأول مرة ثم قال:

ـ أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستة أشهر، ومن الضرورى بعد ذلك أن تبقى عاما كاملا تحت الاختبار، ويا حبَّذا لو صبرت نصف عام آخر..!

ونصحه مرة أخرى بالانتقال إلى المصحة إذا وسعه ذلك، ثم وصَّاه ـ إذا لم يسعه الانتقال ـ بزيارته من حين لآخر. وعاد رشدى ينوء بكمده وكربه، وكان كل شىء يبدو كحلم مزعج، وامتلأت أذناه بل دنياه جميعا بذلك اللفظ المرعب «السل»، فهل يصدق ما يقوله الناس، أو يطمئن بما قاله الدكتور؟ وهل قرر الدكتور ـ بما قال ـ الحقيقة أو أراد أن يفرخ روعه؟ ولكنه صارحه أيضا أنه كان من ضحايا المرض، ولا يجد مسوغا لتكذيبه، أجل إن ستة أشهر زمن طويل، فليتحل بجميل الصبر وليتوكل على الله. ولو كان حرا يفعل ما يشاء لفضَّل الاستشفاء فى المصحة، ولكن دون ذلك فقدان وظيفته، وحبيبته! فما العمل؟!.. إن صحته مهددة، صحته التى لم يقدرها حق قدرها إلا الساعة. فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحسرا متأوها قبل اليوم، ولا سبق إلى ظنه أن الصحة شىء يزول أو يتغير. ولكن ما قيمة الصحة إذا فقد عمله؟ وما جدواها إذا حيل بينه وبين الفتاة التى شغف بها حبا؟ فمن الحكمة ألا يبرح البيت، وأن يتعهد نفسه بالعناية والدواء دون أن يطلع أحد على سرِّه. وبذلك يسترد صحته محتفظا بسره ووظيفته وحبيبته. هكذا تسلسلت أفكاره، ويسر له الاقتناع بها أن قواه كانت وما تزال متماسكة، وقدرته على النشاط والحركة متوفرة. وشرع فى العلاج منطويا على سره حتى شاءت المصادفة أن تطلع أخاه عليه، فبرح الخفاء! والواقع أنه لم يأسف لذلك كثيراً، لا لأن أخاه قطعة من نفسه فحسب، ولكن لأن صدره بات يتصدع بسره الخطير، فوجد فى البوح لشقيقه ارتياحا وسلاما، فأفضى إليه بكل آلامه، ما عدا ما يتعلق منها بالمصحة مستوصيا بالحذر..

٣٥

وأصغى الكهل إليه فى صمت وذهول وحزن عميق، وزايلته الحالة المضطربة التى كانت تعتور مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألوانا متضادة من الميل والنفور، فلم يعد

يشعر نحوه بغير شعور واحد لا يقاوم ، ودرَّت حناياه له حبا خالصا وإشفاقا شديدا وحزنا مبرحا .

بيد أن ذكرى خطرت من الماضى القريب الأسيف ، ولكنه ذبَّها عن مخيلته بقسوة خجلا ثائرا وامتلأ صدره حنقا على الفتاة التى استثارتها !

وانتهى رشدى من قصته فتبادلا نظرة أسى وحزن وكآبة .

ثم قال أحمد :

ـ هذا أمر الله ، لن نيأس من رحمته ، فينبغى أن نصدق الطبيب فيما يقول فليس العهد بالأطباء أن يكذبوا رحمة بمرضاهم . فالإصابة إذن بسيطة ولكن ينبغى أن نحشد لها كل ما فى وسعنا من عناية وحكمة ، وإن كان يدهشنى أنك لم تفض إلىَّ بالحقيقة فى وقتها . . !

فقال الشاب بسرعة وإن خالف الواقع :

ـ عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن أزعج أحدا ، ولكنى كنت أتحين الوقت الذى أفضى إليك بالأمر وحدك !

فقال أحمد بحزن شديد :

ـ هى إرادة الله ، فلنصبر على حكمه حتى يمن علينا بالشفاء ، وهو أرحم بنا من أنفسنا ، والآن فأخبرنى عما عزمت عليه .

فساور رشدى القلق ، ورمق أخاه بحذر وهو يقول :

ـ سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال ، وقد أوصانى بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن !

فبدا على وجه الرجل كأنه لم يقتنع بما سمع وقال :

ـ ولكن المصابين بهذا المرض يقصدون عادة إلى المصحة !

فكذب رشدى مرة أخرى قائلا :

ـ لم يجد الدكتور ضرورة للمصحة !

فلاح الأمل فى نظرة الكهل الواجم وقال :

ـ لعلها إصابة تافهة يا رشدى !

ـ أجل . . أجل . . هذا ما أكده لى !

ـ عسى ألا تطول إجازتك !

فعاد القلق يساوره ، وقال بصوت منخفض :

ـ ولكنى لن أطلب إجازة!

فانزعج الرجل وقال بإنكار :

ـ فكيف يتم استشفاؤك؟! . . إياك وأن تستهتر بالمرض مهما قيل عن بساطة الإصابة وحسبك استهتارا يا رشدى!

ـ معاذ الله أن أستهين بحياتى يا أخى ، وسترى بنفسك منذ اليوم أنى سآخذ نفسى بالراحة المطلقة فيما عدا أوقات العمل ، وسأعوض ما أبذله من قواى لعملى بالغذاء المختار والأدوية المقوية . أما طلب إجازة مرضية فمخاطرة بوظيفتى ومستقبلى!

ـ ألا تغالى فى تقديرك؟!

ـ كلا يا أخى ، فإذا عرف طبيب المصرف مرضى استحال علىّ العودة إلى العمل قبل الشفاء التام ، وقد يقتضى ذلك زمنا طويلا لا آمن معه أن أفصل من وظيفتى! بل الفصل محتوم فى تلك الحال نظرا لما منحته من إجازات مرضية هنا وفى أسيوط من قبل . .

فتجهم وجه الكهل واشتد عليه الضيق ، ثم قال بتألم :

ـ رباه! الصحة فوق الوظيفة ، كيف يتاح لك الشفاء وأنت جاهد فى عمالك!

فقال رشدى برجاء وانفعال :

ـ لقد استأذنت الدكتور فى ذلك فأذن لى ، وهو أدرى ، وسيتم الشفاء بإذن الله بغير ضياع مستقبلى ، وبغير «فضيحة» .

فاشتد التأثر بأحمد وقال مستنكرا :

ـ فضيحة! . . ليس فى الأمر فضيحة ، هذا بلاء من الله ، وكل إنسان عرضة للأمراض إلا من أمر الله له بالسلامة ، ولكنى أخاف . .

ـ لا تخف ، وادع لى ربك ، وستجد منى ما يطمئن خاطرك!

فسكت أحمد مغلوبا على أمره . وتنهد الشاب بارتياح ، وراح يحدث أخاه بما سوف يتخذ من تدابير الوقاية ، فقال له : إنه سيحضر حامض فنيك لتطهير الحمام والحوض كل صباح ، وإنه سيقتنى أوانى خاصة لطعامه وشرابه متعللا بأنها هدية من شخص عزيز ، وأنصت الرجل إليه بانتباه ولأول مرة خامره الخوف والقلق ، وخشى العدوى ، وكان بطبعه هيَّابًا موسوسا . أما رشدى فكان يتحفز لضراعة جديدة لا تقل خطرا فى نظره عما سواها إن لم تزد ، فقال :

ـ وهنالك يا أخى أمر عظيم الأهمية أرجو أن ترعاه بالعناية التى أرعاه بها ، وهو أن يبقى ما دار بيننا سرا دفينا . .

فدهش أحمد، وذكر ما قاله منذ لحظات من أنه سيقتنى أوانى خاصة متعللا بأنهاه هدية، فغمغم قائلا :

ـ ووالدانا؟!

فقال رشدى بحزم :

ـ لا ينبغى أن يعلما بشىء، فلا داعى لإزعاجهما، ثم إن فزع أمى كفيل بافتضاح السر!

فارتبك الرجل، وأيقن أنه مقبل على حياة مؤلمة غريبة، فتنهد قائلا :

ـ بيدك الأمر يا رشدى، فإذا توثبت للشفاء حقا أمكن أن يظل السر سرا، أما . .

ـ لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم . .

وأدرك بسهولة ما يحمل الشاب على إخفاء مرضه حتى عن والديه، فإنه ليخاف أن ينمو الخبر إلى مسامع أسرة فتاته فيهون عليهم بمرضه. وتأثر لذلك غاية التأثر، وتغلغل الحزن فى أعماق قلبه، بيد أنه خشى أن يكون الشاب قد شق على نفسه بالاستمرار فى عمله ـ على مرضه ـ ليبدو أمام الفتاة وأسرتها كالسليم المعافى، خشى أن يؤذى نفسه فى سبيل حرصه على الفتاة، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالهمس :

ـ رشدى إذا كنت ترغب عن طلب الإجازة كى يبقى الأمر سرا، فيمكن أن تختلق سببا نعتل به على طلب الإجازة غير هذا المرض!

ولكن رشدى هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلَّت على البرم :

ـ لا تعد إلى ما انتهينا منه!

فسكت أحمد، ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول :

ـ تشدد وكن رجلا كعهدى بك دائما، واعلم أن الشفاء رهن بإرادتك، حفظك الله ورعاك.

ورجع إلى حجرته محزونا ضيق الصدر، وقد استثار الداء الخطير مخاوفه فاهتز فؤاده عطفا على شقيقه المحبوب، نسى فى تلك الساعة أنه كان الآلة التى طعن القدر بها آماله، أو أنه الشخص الذى جرح كبرياءه وداس غروره، ورآه على حقيقته الأخ المحبوب الذى نشأ بين ذراعيه وغذى عواطف الأبوة من نفسه عشرين عاما، ولما حانت منه التفاتة إلى النافذة المغلقة التى سماها يوما بنافذة نوال تحوَّل عنها كالغاضب، وأبى قلبه أن يذكر الفتاة كأن استدعاءها إلى رأسه جريمة لا تغتفر فى حق الشاب المريض، فينبغى أن تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات، وقال لنفسه : «ذاك شىء انتهى وانقضى، والتأسف عليه وخز لعواطف الحب التى يكنها قلبى لشقيقى» وكان يتكلم بحدة دلت على السخط والاستياء، والحق أنه كان ساخطا على نفسه، فلم ينس

أمنيته الآثمة أن تبيد القاهرة، ولا حلمه المخيف الذى استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه، رباه أى شيطان مقيت فى أعماقه ينفث هاتيك الأخيلة! . .

٣٦

وتوثب رشدى عاكف بحماس لمقاومة مرضه الخطير، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية، وخص نفسه - فوق طعام البيت المعتاد - بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام، وأنفق فى ذلك عن سعة، وكان يطلع أخاه على خطى كفاحه أولا بأول ليطمئن فؤاده المحب. ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارص على حال تبشر بالخير. فقنع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين، ثم لا تأتى الساعة العاشرة مساء حتى يكون قد راح فى نوم هادئ عميق. وزايلت البحَّة صوته وخف السعال فأوشك أن يزول، وراعه ذلك وأيقن فرحا جذلا أنه يتماثل للشفاء، ولكن هزاله لم يزل ولونه لم يسترد. وكان يزور الطبيب كل عشرة أيام فوالاه بالنصح ووصاه بمضاعفة العناية.

وقد كانت أيام المرض الأولى سودا؛ فوقع فريسة للأوهام والمخاوف، وخامره شعور مفزع بالقنوط، وتهيأ له أن حياته تؤذن بالوداع، حياته التى يكنّ لها حبا لا يكنّه لها أحد من بنيها المخلصين، كلما ذكر أنه فى القاهرة حيثما كان ينبغى أن يكون فى حلوان، وأنه فى عمل بينما كان ينبغى أن يكون فى أجازة، اشتد خوفه وفزعه، بيد أن أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردد فيما تدعو إليه أهواؤهم، ويتخذون من عقولهم ما يتخذه الآثم من المحامى الماهر، فاستطاع أن يقنع نفسه - حتى فى ساعات خوفه - بوجاهة الرأى الذى ارتآه ونفذه. ولما زايلت صوته البحّة وسكت فيه السعال أو كاد، غمره الارتياح، واسترد ثقته بنفسه، وشعوره بالأمان وتعلقه بالأمل، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروع قطرات من السكينة والرحمة. ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى عاوده شعوره بالجسارة ونزوعه إلى الاستهتار، وألح عليه حبه العميق لمسرات الحياة، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل. ورمق صبره وقوة إرادته بعين الإعجاب، وذكر شهر يناير - الذى أذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه - بالدهشة والإكبار، وكأنه لا يصدق أنه استطاع حقا أن ينزوى ويستقيم شهرا كاملا. ومن فرجة الأمل الباسم سمع مسرات الحياة - مسرات حياته - تناغيه بهمساتها الساحرة كتغاريد البلابل فى الصباح الباكر، فذكر فى وحدته الإخوان وكازينو غمرة والليالى الصاخبة. فتخايلت لعينيه وجوههم المرحة، ورنت فى أذنيه أصداء ضحكاتهم المجلجلة، ودعاؤهم له بقلب الأسد، كنيته التى يحبها

ويطرب لها ويخاف عليها عوادى النسيان. يا لهم من إخوان لا تطيب الحياة إلا بهم، ما أظرفهم وما ألطفهم! وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون فى المصرف حين انقطع عنهم؟! أين أنت يا عم رشدى؟ ما هذه الغيبة الطويلة؟ لقد كنت فى أسيوط أقرب إلينا منك وأنت فى القاهرة! إلام يبقى كرسى قلب الأسد شاغرا؟ أوحشتنا نقودك! ولكم ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامة! وأهاجه الحنين إلى الصحاب واستفزه الشوق إلى المرح، واستهامته اللهفة على اللذات، وجعل يقول لنفسه هل فى لقاء ليلة حرج؟! هل تقتل سهرة أو تميت؟! والحق أن هيامه بالحياة لم يفتر بسبب الداء، بل بالأرجح أنه غدا أرهف حسا وأعنف نشاطا وأضرم حبا وولعا، ثم استحر الإغراء فانعدم التردد، ووجد لخلاصه من عذاب الحيرة ارتياحا فراح يدندن بصوت رخيم «ما اقدرش أنساك»، ولم يكن ترنم بغناء منذ شهر ونصف. وعندما أتى المساء تلفع بمعطفه وأحكم الكوفية حول عنقه ومضى إلى السكاكينى، وما أن لاحت لعينيه حديقة كازينو غمرة حتى هتف من أعماق الفؤاد «أهلا وسهلا ومرحبا». وتلقاه الإخوان بالسرور، فاستسلم لتيارهم الجارف، وأخذوا فى الحديث الماجن كعادتهم طويلا، ثم انتقلوا إلى البهو الداخلى يدخنون ويشربون ويقامرون، وخاف أن يمتنع عن لذة فيثير الظنون، ورغب من ناحية أخرى أن يتناسى - فى يقظة الأمل - أنه يطوى فى رئته اليسرى ما تقشعر الأبدان لذكر اسمه، فدخن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثا الدفء إلى جسده البارد، وقامر أيضا وإن تردد قليلا لأن تكاليف الدواء أرهقت ميزانيته، ولكن الحظ ابتسم فربح زهاء الجنيهين، وآب مسروراً وإن شعر بحرارة تلتهم أنسجته، وأجهده المشى فى الجو القارص، وبلغ البيت فى حالة مضعضعة من الإعياء، وما إن أغلق الباب فى هدوء حتى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه، فدعاه إلى حجرته، ومضى إليها مرتبكا يمشى على استحياء، وهتف به أخوه:

- ماذا فعلت؟ . . هل جننت؟ . . أهذا ما اتفقنا عليه؟!

فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة تدل على الارتياح والحرج فاستدرك أحمد:

- هذا فوق التصديق، وما دريت به حتى نبا بى الفراش، وظل نومى خفيفا قلقا حتى أيقظتنى صفقة الباب، أهذا ما اتفقنا عليه؟

وخرج رشدى عن صمته بأن قال بصوت منخفض:

- أنت تعلم يا أخى أنى حافظت على الاتفاق شهرا كاملا، ثم نازعتنى نفسى أن أروِّح عنها قليلا . .

- هذا كلام إنسان يجهل الحقيقة أو يتجاهلها، ألا تعلم أن استهتار ليلة واحدة يهدر ما بنيته فى شهر كامل؟!

ـ ولكنى فى الواقع أشعر بتحسن كبير!

فقال أحمد بحدة:

ـ أنت تخدع نفسك، وتقسو عليها بجهلك، وتركك حرا خطأ كبير، ولو كان الدكتور يعلم بما فطرت عليه من استهتار لحتم عليك أن تنتقل إلى المصحة غداة الكشف عليك.

فتجلى الحزن فى عينى الشاب، وتكدَّر صفوه، وكان الجهد قد أعياه، فقال كالمعاتب:

ـ لا تكن قاسيا على غير عهدك.

ـ ها أنت ذا لا تفرِّق بين الحنان والقسوة، فتدعونى قاسيا جزاء قلقى وسهادى وإشفاقى، فلكم تقسو على نفسك وعلىّ!

واشتد بالشاب الإعياء والتأثر، فاغرورقت عيناه، مما أسكت غضب أحمد وحوَّله إلى إشفاق وتألم وعدم ارتياح، فوضع يده على كتف الشاب وقال بهدوء:

ـ حسبك تعبا وحسبى ألما فلا تبك لا بكيت أبدا، ولن أزيدك فالله وحده كفيل بأن يلهمك الصواب، إن قلبى يخاف عليك ويدعو لك فامض إلى فراشك واتق الله فى صحتك!

وجعل يتساءل منزعجا ترى هل يستعيد الشاب سيرته الأولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير؟!

٣٧

واستقبلت الدنيا أيام فبراير الأولى مشفقة من رياحه العاصفة وزوابعه الباردة المزمجرة، وقد تلفعت السماء بأردية ثقيلة داكنة من السحاب الجون، فأمست الأرض كفرخ فى بيضة، ترقب الربيع لتشق حجاب الظلماء عن بهجة النور وعبير الأزاهر، وظل رشدى جسدا مهزولا فى قرارته ضرام لا يخمد من العواطف والأحاسيس وفى قلبه تمرد ثائر على الأغلال التى صفَّده بها المرض الخطير. وكان الطبيب أعاد عليه الكشف أخيرا وقال له إن حالة الصدر لم تتحسن! فخاب أمله، وتنغص عليه سروره السابق بشفاء صوته وسعاله، لقد صبر طويلاً، وهجر الحياة التى يعشقها، وكان يرجو ويأمل، فمتى تتحسن إذًا، والأدهى من ذلك أن الطبيب ألح عليه أن يجد سبيلا إلى حلوان، فهل أيس الرجل من أن يسعى الشفاء إليه فى القاهرة؟! وما جدوى العذاب والصبر إذًا؟ وفضلا عن هذا فأخوه لا يخفى عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه، فبات ساخطا متبرما.

وكان ذات مساء يلقى درسا على تلميذته، فكلَّفت نوال أخاها أن يحضر كوبا من الماء، ولما خلا لهما المكان قالت للشاب بسرعة متسائلة: «ألا تستطيع أن تقابلنى صباحا كما كنت تفعل؟ . . ولو مرة واحدة!» فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردد، متعاميا عن العقبات جميعا: «غدا صباحا!». ثم ذكر أخاه الذى صار سجَّانه فقال لنفسه: «إنه سلَّم بضرورة خروجى صباحا الساعة الثامنة، فما يضيره لو قدمت الميعاد ثلاثة أرباع ساعة؟». ونهض مبكرا فى اليوم الثانى، وتناول فطوره الدسم، ورصد أخاه حتى دخل الحمام فانطلق إلى الخارج كالهارب، ورأى فى الممر المفضى إلى السكة الجديدة حبيبته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها الرمادى، متأبطة حقيبتها، فطرب قلبه طربا أنساه شجونه، ثم صعد فى أثرها طريق الدراسة، فذكر كيف كان يصعد هذا الطريق فى أعقابها صحيحا معافى صافى أديم الفؤاد، وتنهد من أعماق فؤاده متحسرا مغمغما: «ما أنفس كنز الصحة!». ورفع بصره إلى جبل المقطم وقد أطبقت السحب على قمته، وكانت السماء تذكره دائما بربه ـ فدعا الله أن يأخذ بيده!

ولحق بها بعد المنعطف، وأخذ يمناها بيسراه، فعطفت رأسها نحوه وعلى ثغرها ابتسامة، وقالت تداعبه بلهجة لم تخل من عتاب:

ـ أهان عليك طريقنا هذا أيها الغادر؟

فهز رأسه متأسفا وتمتم:

ـ لعن الله البرد!

ـ كان ينبغى أن تبرأ منذ أمد طويل، فما هذا التلكؤ؟!

فامتعض قليلا وقال:

ـ أجل، وما بقى فهو هيِّن. . والحق أن إهمالى هو المسئول الأول!

وكانت تعلم طبعا أنه انقطع عن لقاء الصباح بسبب السعال، فلما زايله السعال تشجَّعت ودعته إلى مرافقتها شوقا إلى الانفراد به، وقد اختلست نظرة من وجهه الشاحب النحيل وقالت له:

ـ ألا تدرى ماذا تقول عنك نينة؟

فخفق فؤاده، وخشى أن يسمع تلميحا لبقا إلى مسألة «الخطوبة» وسألها:

ـ ماذا تقول يا ترى؟

ـ قالت لى ضاحكة: ما بال أستاذك نحيفا كالخيال؟! . . هلا تقبل منى وصفة للسمن؟!

وضحكت نوال ضحكة رقيقة، فجاراها فى ضحكها، ليجارى شعورا بالحزن غشى صدره، وساوره القلق، ولكنه لم ير بدا من أن يقول بلهجة تكلف بها السرور:

ـ وما حاجتى إلى السمن والنحافة موضة؟! أبلغيها شكرى وقولى لها إنى طامع فى المزيد من النحافة . . .

وقطبت فجأة كأنما ذكرت أمرا ذا خطر وقالت بلهجة التعنيف :

ـ على فكرة يا ماكر! . . يحلو لك أحيانا ونحن حول مائدة الدرس أن تداعب قدمى بقدمك متجاهلا أن قدميك متنعلتان وقدمىَّ عاريتان!

فضحك رشدى، وقد تورد وجهه، وقال :

ـ نفسى فداء لقدميك العزيزتين!

ومرا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادى الصحراء، فقالت له وهى تومئ إلى النادل وكان يتناول فطوره :

ـ ألم تدر أن هذا النادل الخبيث فطن إلى تواعدنا كل صباح؟! فلما رآنى أسير وحدى الأيام الماضية جعل يصفق بيديه كلما مررت به ويقول وكأنه يحدث نفسه : «أين أليفك يا بلبل؟ . . كل الأحبة اثنين اثنين!» . . رباه! . . لكم تولانى الحياء حتى كدت يغمى علىّ!

واسترسلا فى الضحك مرة أخرى وكان يقتربان من منعطف الطريق الذى توجد على جانبيه مقبرة عاكف الخشبية، ولمحتها الفتاة فقالت :

ـ أنتم مدينون لى بمائة رحمة على الأقل، لأنى أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كل صباح!

فقال لها مبتسما :

ـ أنت يا نوال رحمة للجد وعذاب للحفيد!

ثم امتد بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموتى، هل يجرى القضاء غدا بأن تقرأ فتاته ـ وهى آخذة طريقها هذا ـ الفاتحة على روحه هو؟! . . وانقبض صدره، ثم استرق إلى وجهها الأسمر نظرة غريبة، فشعر بأنها كل أمله فى الوجود، وبأنه إذا جاز لشىء أن يسخر من الموت ويستهين بمخاوفه فهو اتحاد قلبين متفانيين، ووجد دافعا قويا يدعوه إلى التعلق بها، وضمها إلى قلبه، بل إلى شغاف قلبه إذا أمكن. ولاحت منها التفاتة إليه فطالعت نظرته الحالمة، فلاح فى وجهها الجد، وسألته :

ـ لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟

فقال بصوت متهدج :

ـ لأنى أحبك يا نوال . . لقد أدركت ـ وأنا أنظر إلى القبور على ضوء عينيك ـ معنى القول إن الحياة الحب، وقالت لى القبور إن كل ساعة نرضى بأن تفرق بيننا جريمة

عقابها ظلمة القبر، وسمعت صوتا يهتف بى: لله ما أحمقكم تضنون بالتافه من الأشياء عن العبث وتعبثون جزافا بنعمة الحياة!

فتورد خداها وأضاءت عيناها الصافيتان بنور الوجد، فلم يعودا (هو وهى) يشعران بهبات الهواء البارد المندفع من الصحراء، وشد على راحتها وسارا صامتين. ومضى يتساءل ترى كيف يسوغ أن يمسك عن ذكر «الخطبة» بعد كل ما قال!.. وكانت تتوقع من ناحيتها أن يطرق الموضوع المحبوب قبل كل خطوة تخطوها، ولكنه لزم الصمت حتى شارفا نهاية الطريق، وتوادعا ثم افترقا، فبطؤت حركته وهو يتابع مسيرها بنظرة استجمعت فى حنانها جميع ما فى قلبه من حب ووجد وحزن، حتى انعطفت مع الطريق إلى العباسية، وأخذ فى طريقه إلى محطة الترام، وعند ذاك فحسب شعر بالإعياء واضطراب الأنفاس ودوار يوشك أن يصير غثيانا.

* * *

ولذلك لم يفته أن يحدث أخاه عن الخطبة وعما عسى أن يحدثه إمساكهم عن فتح موضوعها من سوء الظن فى نفوس أهل الفتاة، ولكن أخاه - وكان غاضبا لعودته إلى الخروج المبكر - لم يوافق على مفاتحة كمال خليل أفندى بهذا الشأن قبل الشفاء الكامل، فقال للشاب:

- اعتل بما تشاء من المعاذير فأنت أستاذ فى اللباقة، ولكن لا يجوز أن نتكلم رسميا قبل أن تشفى تماما إن شاء الله، سيكون إعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك!

وعجز الرجل عن إقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرض لأذى البرد، فآيس منه وسلَّم إلى الله سائلا إياه اللطف والرحمة، وكان ممن يشقون بآلام الأقربين، فتجد الأوهام والمخاوف من صدورهم الضعيفة مرعى خصيبا للهواجس والأحزان، فصار مرض شقيقه - منذ اللحظة الأولى - شغله الشاغل وهمه اللازم وشوكة سامة فى جانب طمأنينته.

وامتد خوفه إلى نواحى أخرى حتى ألقى به فى النهاية فى مواجهة مشكلة من أدق المشكلات الخلقية، لم تكن لتخطر له على بال. فلم يغب عن ذهنه أن شقيقه يلتقى بالفتاة كل صباح، وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ، فإذا أغراه الهوى - شأن المحبين - بقبلة، أفلا تتعرض الفتاة لأذى بعيد الغور؟!.. ألا يدرك رشدى خطورة الأمر؟!.. ألا يجد من ضميره وازعا؟!.. ولكن كيف بمن يستهين بحياته أن يعرف لحياة الآخرين قيمة؟.. وتفكر فى الأمر طويلا، متكدرا مغتما، لا يدرى كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية، ولم يداخله شك فى أنها

كذلك ولا كانت تخلو فى الواقع من شعور أخلاقى عميق، ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعى إلى تفحص نفسه، أو أن العين فى أحايين كثيرة لا ترى إلا ما تحب أن تراه، فتكدر واغتم، وأفضى به الكدر والغم إلى حيرة شديدة، فلا هو يستطيع أن ينمى الحقيقة إلى كمال خليل لأن خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها، ولا هو يستطيع أن يكاشف الشاب بمخاوفه أن يصيب مقتلا من نفسه الحساسة الرقيقة، وعذبه القلق والتردد والإشفاق، ولم يكن أبدا ذا عزيمة أو إرادة، فنكص على عقبيه بقلب خائر وفكر مشتت، وظلت المخاوف تطارده، وتلح على ضميره حتى بلغ منه الإعياء والكلال، فتساءل فى يأس وقنوط: «أليست غيبوبة المعلم زفتة خيرا من هذه الحياة؟!».

٣٨

وزادت حال رشدى سوءا، فاشتد هزاله وشحوبه، ولكنه بدا مستهترا سادرا كأن الأمر لا يعنيه، ولم يعد يقنع برحلات الصباح فى طريق الجبل فكان كلما نازعه الشوق إلى كازينو غمرة انطلق إلى الإخوان يعربد معهم حتى مطلع الفجر. وكان أحمد يقول له مبكِّتا: «أتروم الانتحار؟!». والحق أنه انحدر فى سبيل الانتحار بلا قصد، وعجز عن مقاومة ميله الطبيعى للَّذات، وأذعن للحساسية المرهفة الجديدة التى أحدثها المرض فى نفسه، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسور المتفائلة، فلم يفقد الأمل قط، أو لم يفقده إلا لحظات عابرة، وظل على عهده من الجسارة والاستهانة والابتسام. ولكنه فوجىء بعودة السعال بل عاد أعنف مما كان فى أسوأ حالاته، ثم تتابعت عليه نوباته، وتلوث بصاقه مرة أخرى بالدم، ولفتت نوبات السعال الموظفين إليه فى المصرف، فساورتهم الشكوك، وأمسى عمله عديم الجدوى، وتنبه الوالدان للخطر الذى يهدد ابنهما ونصحا له بالانقطاع عن عمله حتى يسترد صحته، ولكنه بالرغم من ذلك كله ظل يكافح متعلقا فى جنون بمظاهر الأصحاء المعافين. ولم يستطع أحمد صبرا فدعاه يوما إلى حجرته وقال له بحزم:

ـ إلام تتغاضى عن خطورة الحال؟

فسأله الشاب فى استسلام لم يتوقعه:

ـ بم تشير علىّ؟

ـ لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلا عن السهر والعربدة!

ـ وإذا انفضح سرى؟!

قال أحمد بتأثر شديد :

ـ ليس المرض بالفضيحة ، وللضرورة أحكام!

فأطرق رشدى وقد خارت عزيمته وتنهد من فؤاد مكلوم قائلا :

ـ الأمـــر لله!

ونجم استسلامه المفاجئ عن الإعياء ـ لا الاقتناع ـ ولذلك ما كاد يقرر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقى ويمنحه أولى إجازاته المرضية حتى خارت قواه ، ورقد على الفراش صريع الضعف والسعال ، وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه ، ولكن الحالة اشتدت اشتدادا مخيفا ، ورأت الأم البصاق الدامى وعلم به الوالد ، ففزعا فزعا شديدا ، ورِوّع قلباهما الضعيفان . ودعت الحالة إلى استشارة الطبيب ، فاقترح أحمد أن يدعوه إلى البيت ولكن رشدى اختار أن يذهبا إليه معا ، فارتدى بذلته بمساعدة أمه ، وقد اتسعت عليه أيما اتساع ، واستقلا عربة إلى عيادة الطبيب ، وصحبه أحمد إلى حجرة الكشف ، ولما وقع بصر الطبيب ، ولم يكن رآه من أسبوعين ، قال بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام :

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

فابتسم رشدى ابتسامة باهتة وتمتم قائلا :

ـ السعال وضعف شديد!

وأجرى الدكتور الفحص ، فساد الصمت برهة غير قصيرة ، ثم قال بعد الانتهاء :

ـ كلمة واحدة لا أزيد عليها : المصحة!

فتجهم الوجه المصفر ، وتساءل صاحبه بصوت خافت :

ـ هل زادت الحالة سوءا؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال :

ـ هى الحقيقة ، ولا شك أنك لم تتبع نصحى ، ولكن لا داعى للخوف إذا بادرت بالذهاب إلى حلوان . سافر اليوم إن أمكن ، وستجدنى هناك إلى جانبك!

وسأله أحمد :

ـ هل تطول إقامته فى حلوان؟

فقال الرجل :

ـ علم هذا عند الله ، ولست متشائما ، ولكن لا يجوز الإبطاء!

ورجعا إلى البيت فوجدا الوالدين ينتظران فارغى الصبر ، وبادر الوالد أحمد قائلا :

ـ مـاذا بـه؟

وعلم أحمد أن الكذب لن يجدى فقال واجما، وباقتضاب ذى مغزى :

ـ المصحة!

وساد الصمت، واحمرت عينا الست دولت منذرة بالبكاء، وتمتم الوالد :

ـ ربنـــا يلطـف بنـــا!

فقال أحمد متصنعا السكينة :

ـ ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن لا محيد عن المصحة!

وكان رشدى لا يزال نافرا من المصحة ولكنه لا يجرؤ على قول «لا» بعد ما صار إليه حاله، فدعا أخاه إلى جانبه وقال له بتوسل وعلى مسمع من أمه :

ـ لتكن المصحة إذا شئت، ولكن . .

وأومأ إلى النافذة، واستدرك :

ـ ولكن لا أحب أن يعرفوا الحقيقة!

فاشتد التأثر بالرجل، وخفق فؤاده بحزن عميق، وقال :

ـ لا تخف . . من السهل أن نقول إنك مصاب بماء فى الرئة أوجب سفرك إلى المصحة!

فتساءل رشدى محزونا :

ـ وهل يجوز هذا عليهم؟

فقال أحمد :

ـ إن التداوى من ماء الرئة يستدعى زمنا طويلا، ومهما يكن من أمر فالعناية بصحتك أولى بالاهتمام مما عداها.

٣٩

ولم يضع أحمد وقتا، فقام بالإجراءات المتبعة لإلحاق شقيقه بالمصحة، مستعينا بتوصية من الطبيب المداوى، ووجد أن سريرا سيخلى فى أول مارس لانتهاء مدة علاج صاحبه، فقرر انتقال رشدى من ذاك التاريخ، وفى المدة القصيرة التى سبقت السفر عانت الأسرة آلاما برحاء، وكان رشدى يكابد من السعال عذابا مضنيًا وسهادا متقطعا. وغرق الوالدان فى حزن ذاهل، وتكدر صفوهما، ولاحت فى أعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف. ووقع أحمد فريسة لهواجسه، فانقلبت حياته غما وجزعا، وعاد كمال أفندى خليل الشاب وأكد له أن «ماء الرئة» لا خطر منه ألبتة مع العناية! . . ثم زارته

الست توحيدة ونوال ـ ولم يكن أحمد بالبيت ـ وقالت له إن غرامه بالنحافة هو الذى أدى به إلى المرض، وتعهدت له ضاحكة، بأن تتولى تسمينه بعد الشفاء، ولم تدر نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدتين، ولم يستطع الشاب أن يديم إليها النظر، ولكن عينيه التقتا بعينيها فى لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحب والشكر والحزن الصامتة، وسر رشدى بالزيارة سرورا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد. وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لأمه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه، ولكن المرأة المحزونة طمأنته قائلة إن مرضه سر مطوى فى صدور محبيه.

وفى صباح اليوم الأول من مارس حملت عربة، الشقيقين إلى محطة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدى فى البيت، وكانت دموع الأم آخر ما رأى، وفى الطريق قال الشاب لشقيقه:

ـ إذا طالت مدة التداوى فصلت من عملى حتما!

فقال له أحمد بثقة:

ـ وحتى لو حدث هذا ـ لا قدَّر الله ـ فعودتك إلى عملك مرة أخرى أمر يسير، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء!

ثم انتقلا إلى الديزل، فانطلقت بهما فى طريق حلوان، وجلسا جنبا إلى جنب، وكان أحمد صامتا يلوح فى وجهه النحيل الهم والفكر، وكان رشدى يسعل من حين لآخر. وعجب أحمد لسوء الحظ الذى يلاحق أسرته. فقد فقدت غلاما. وها هو رشدى يصاب بالداء الخطير، أما هو فقد نصبه الدهر هدفا للعثرات والإخفاق!.. ولو قنع الدهر به فدية لكفاه ولكنه لا يقنع!.. واختلس من الشاب نظرة فهاله هزاله، وضمور رقبته، وذبول عينيه، وغياب النظرة اللامعة الساخرة منهما، فتنهد وقال لنفسه متحسرا «رباه.. متى تنكشف الغمة؟.. متى أفتح عينى فلا أجد من هذا الشقاء الماثل إلا أطياف ذكريات منقضية!». ونظر إلى الخارج خلل زجاج النافذة فجرت أمام ناظريه الأبنية والفيللات فى حشد طويل، ثم انسابت القاطرة بين حقول ممتدة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة، ثم أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحف بأفقها الجبل الشامخ. فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كئيبة فى صدره، فامتلأ شجنا وأسى.

وبلغت القاطرة حلوان، فتركا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشاب المريض، واستقلا عربة إلى المصحة، وسارت بهما تتهادى فى طريق مقفر. وتراءت لهما المصحة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة، فرنا إليها الشقيقان بقلبين خافقين، وقال أحمد:

ـ الفاتحة إن ربنا يأخذ بيدك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر.

وانتهيا إلى المصحة، واستقلا المصعد إلى الطابق الثالث، ودلتهما ممرضة على الحجرة التى يقصدانها، وكان بالحجرة سريران، يرقد على أحدهما شاب فى مثل سن رشدى وفى مثل هزاله وصفرته فتبادلوا التحية باسمين. واستراح رشدى حتى استرد أنفاسه، ثم غيَّر ملابسه بمعونة شقيقه، واستلقى على الفراش، وجلس أحمد أمامه على كرسى مريح، وأومأ الرجل إلى الشاب المريض الغريب، وقال مخاطبا شقيقه:

- ستجد فى صاحبك خير رفيق، فتعاونا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحدة، حتى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين!

ومضى يتحدث مع شقيقه حينا، ومع صاحب السرير المجاور حينا آخر - وقد علم أن اسمه أنيس بشارة وأنه طالب فى السنة النهائية بكلية الهندسة - والظاهر أن الرحلة أعيت رشدى فاعتراه تعب شديد، واستلقى فى خور وخمود، ومكث أحمد معهما حتى اطمأن على الشاب، ثم نهض لينصرف، وقد شعر وهو يضغط على راحة الشاب مودعا بدمعة تتحرك فى مجرى الدموع من قلبه، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود إلى محجريه، وغادر الحجرة. وخال فى الخارج أنه رأى عينى الشاب كالمنذرتين بالبكاء وهو يسلم عليه، فنازعه قلبه إلى العودة إليه مرة أخرى، ولكنه قاوم عاطفته ومضى فى سبيله، واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى، ورأى الأشباح الآدمية فى الثياب البيض الفضفاضة، فاقشعر بدنه ووجف قلبه. وظل وهو آخذ فى الطريق إلى المحطة يعاود النظر وراء ظهره إلى بناء المصحة الشاهق ويتمتم بالدعاء.

وفى مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف فى وجوم وكآبة وقد لاحت فى عينى الأب نظرة شاردة، وبكت الأم حتى دميت عيناها، وحاول أحمد أن يخفف عنها بحديث الرجاء والأمل، ولكنه كان فى الحقيقة فى حاجة إلى من يخفف عنه.

٤٠

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة - يوم الزيارة فى المصحة - بصبر فارغ، وقر رأى كمال خليل أفندى على أن يصحبهم هو وأسرته، وأخذت الأسرتان للزيارة أهبتهما فابتاع أحمد لأخيه صندوق بسكوت بالشيكولاته، وأعدت الست توحيدة - والدة نوال - له كعكا عرفت بإتقان صنعته. وعند الضحى ذهبوا جميعا - الرجال الثلاثة والسيدتان ونوال - إلى محطة باب اللوق، واستقلوا قاطرة الديزل، وجلسوا متقابلين، الرجال فى ناحية والنساء فى الأخرى، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه!.. وتجنب منذ اللحظة

الأولى، أن ينظر إليها، ولم يكن رآها منذ ذلك اليوم الذى كشف له عما كشف، بيد أن وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرك الأشجان، وخاف مغبة الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة، وبقراءة الأهرام تارة أخرى، والواقع أنه لم ينجح إلا فى تجنب النظر إليها، ولكنه غلب على أمره إزاء سيل خواطره الجارف، وأنى له أن ينسى أمله الخائب! . . أو سخطه المر القديم على شقيقه! . . أو مرض شقيقه الذى جعل من سخطه القديم عليه جرحا فى ضميره لا يلتئم! . . وهل ينسى أنه خاف يوما على الفتاة من العدوى! . . وأنه حام حول اتهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك؟ . . كل أولئك آلام جعلت من حياته مرتعا للنار، حتى صدق قوله لنفسه مرة «لقد أصيب رشدى فى صدره وأصبت أنا فى عقلى!». ثم تساءل ترى ماذا يخطر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه أمامها؟! . . هل يثير ألما؟! . . خجلا؟! . . ألا يجوز أن تأسف أن لحقت العلَّة بحبيبها متعامية عن هذا الكهل؟! . . ولو فعلت ما جاوزت القصد ولا حادت عن الإنصاف، فما فائدة حياته؟ . . وما وجه الانتفاع بصحته؟ . . ووجد لتوه ذاك الشعور بالاضطهاد، المؤلم اللذيذ معا! . . وحقيقة أخرى لم تغب عنه، وهى أنه مرتاح إلى وجودها رغم تجنبه النظر إليها! . . لماذا يا ترى؟ . . هل يرغب أن يمتحن قدرته على النسيان والتأسى؟! . . أو يريد أن يشبع رغبته القديمة فى أن يريها قوته على تجاهلها والترفع عنها؟! . . ثم أفاق لنفسه قليلا، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماض لعيادة العزيز المريض! . . وبلغ منه الألم حدا تمنى لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس، كما تبتر الفاسد من الأعضاء!

وانتهت الرحلة، وساروا فى الطريق وأبصارهم عالقة بالمصحة، وقوى أمل أحمد أن يجد الشاب أحسن حالا - وإن لم يمض فى المصحة سوى ثلاثة أيام - لإخلاده الإجبارى إلى الراحة ووجوده فى الجو الموافق. وتقدمهم جميعا نحو الحجرة، وسبقته عيناه إلى السرير، كان رشدى راقدا، وقد شعر بحضورهم، ولكنه لم يحرك ساكنا، إلا ابتسامة خفيفة باهتة ارتسمت على شفتيه الذابلتين وهو يتلقى تحيات القادمين الذين أحاطوا بفراشه. وخاب أمل الرجل، وروِّع لما رأى من تدهور الشاب، فلم يشك أن حالته ساءت عما كانت عليه يوم أتى به. وحار فى تفسير ذلك وانقبض صدره. وجلس الزوار، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير، ولما رآهما رشدى قال بصوت ضعيف:

- أنا لا أكاد أتناول طعاما. . لا شهية ألبتة.

فسألته أمه بقلق وهى تتفحصه بعينين حاولت ألا يلوح فيهما شىء من الانزعاج المستولى عليها:

ـ ألا يعجبك طعام المصحة يا رشدى؟!

ـ الطعام جيد، ولكنى فقدت شهيتى!

فقالت الست توحيدة:

ـ لا تخف فهذا شأن المرض أول عهده، وغدًا تلتهم الطعام التهاما بفضل هذا الهواء الجاف.

فابتسم الشاب إليها ـ وإلى نوال بالتالى لأنها كانت لصقها ـ ثم قال موجها الخطاب لأحمد:

ـ كانت الليالى الثلاث الماضية شديدة الوطأة علىّ، اضطرب فيها نومى وتقطع، واشتد علىَّ الألم، ولم يكف عنى.

ولم يتم جملته، فأدرك أخوه أنه أمسك حذرا عن ذكر «السعال»، فأيقن فى تلك اللحظة أن اصطحابهم أسرة كمال خليل ـ على ما فيه من سرور ـ كان خطأ كبيرا، ولكنه أراد أن يشجع الشاب فقال:

ـ على رأى تيزتك فهذا شأن المرض أول عهده، وستجتاز هذه الشدة بعون الله، وتخرج منها سالما!

ولكن رشدى قال بلهجة دلت على التوسل:

ـ أليس الأفضل أن أعود إلى بيتنا؟

ورأى أحمد أمه تهم بالموافقة على رغبته فبادر بقوله:

ـ سامحك الله! . . بل قل إنك لن تبرح حجرتك حتى تسترد صحتك وفتوتك، ثم تقفل إلى القاهرة مشيا على الأقدام! . . ومن حسن الحظ أنى أراك متحسنا تحسنًا محسوسا!

وقال كمال خليل يساهم فى تلك الكذبة المفيدة:

ـ أجل يا رشدى أفندى أنت . . اليوم أحسن حالا بلا شك!

وحدَّت الأم بصرها لعلها تصدق ما يقولان، بينا راح أبوه يقول بصوته الهادىء المنكسر:

ـ الصبر . . الصبر يا رشدى، وربنا يرعاك ويأخذ بيدك!

فسكت رشدى، ولكن على رغمه، ولم يغب ذلك عن أخيه الذى يحسن فهمه، وكان يعلم أنه لا يقتنع بغير رأى نفسه، ولا يعمل إلا بمشورتها، فأيقن أنه إذا كره المصحة فلن يصبر عليها، ولن تعود عليه إقامته فيها بنفع يذكر، وازداد حزنا على حزن، واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الآخر، فنظر إليه، ورأى زميل أخيه جالسا فى

فراشه، فتولاه الخجل لأنه نسى ـ فى غمرة حزنه ـ أن يحييه، فقال له وهو يرفع يده له بالتحية:

ـ كيف حالك يا أنيس أفندى؟.. لا تؤاخذنا!

فضحك الشاب قائلا:

ـ العفو يا بك، الظاهر أن رشدى يرغب فى هجرنا!

فقال رشدى متأسفا:

ـ لكم أزعجت نومك!

فقال الشاب مبتسما:

ـ لا داعى للأسف على ذلك، فسهر الليل لا يضايقنى بتاتا.

فابتسم أحمد وقال:

ـ الظاهر أنك من عشاق الليل كرشدى!

ـ نطقت بالصواب يا سيدى، وها نحن أولاء يعلمنا الدهر أنه ينبغى أن نقلع عما كنا نعشق.

ودعوا لهما بالشفاء، ونهضت أم أحمد إلى الخوان، وأتت بصندوق البسكوت، ووضعته إلى جانب رشدى وفى متناول يده، وقالت برجاء:

ـ هلا تناولت واحدة يا رشدى؟!

ولكنه هز رأسه على المخدة وقال بسرعة وبلهجة حازمة:

ـ ليس الآن.. فيما بعد!

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وإن كانت تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة، ولم تنس ـ حتى فى تلك الساعة ـ واجبات اللياقة، فدلفت من سرير أنيس بشارة وقدمت له بعض البسكوت. وكان أحمد يتفحص أخاه بعينين كئيبتين، فإذا أرسل الشاب إليه بطرفه تبسم مداريا حزنه. وقد هاله ذبول أخيه، واصفرار لونه، وخوره، وأمارات التعب التى تعتوره. هاله أن يراه مستسلما للرقاد، سجينا، وما كانت الدنيا تسعه حركة واضطرابا ولهوا. وخيل إليه أنه يقرأ فى نظرة عينيه حيرة وقلقا، إلى ما بهما من ألم واستسلام، فأوحيا إليه أن الشاب ينطوى على شىء يريد أن يفضى به إليه وقوى شعوره بذلك حتى خطر له أن ينفرد به دقائق بعد انصراف عوّاده، ولكنه خاف أن يضرع إليه أن يعيده إلى البيت، فعدل عن رأيه، وجعل يكوِّر له قبضة يده متشجعا متظاهرا بالمزاح والاطمئنان.

وآذن الوقت بالعودة، فسلموا بحرارة، ولهجت ألسنتهم بالدعاء، وغادروا الحجرة، وكانت الست دولت آخر من غادرها بعد أن قبَّلت الشاب فى خديه وجبينه، وفى الطريق لم تعد تملك أعصابها فامتلأت عيناها بالدموع. وكانت نوال تعالج دمعة لا تدرى كيف تخفيها. وظل أحمد منقبض الصدر حتى أوى إلى حجرته، ومضى يعلل نفسه بالأمل ويقول إنه سيجده فى الزيارة القادمة أحسن حالا حتما مما وجده اليوم. رباه.. متى يرد إلى ما كان عليه من القوة والنشاط والنضارة؟!.. متى يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته اللطيفة وضحكته الرنانة؟!

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد كنومها ليلة الفراق!

ثم استيقظوا جميعا فى الهزيع الأخير من الليل على رنين الجرس.. وجلس أحمد فى الفراش مرهف الأذنين، فسمع الرنين متصلا كأنه يصرخ فى الغافلين. وانقض عليه خاطر جعل قلبه يرجف كإبرة الجرس فقفز من الفراش وجرى إلى الخارج، التقى بوالديه فى الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدوا نحو الباب. ولم ينبس أحدهم فقد تولاهم استسلام يائس للأقدار، ودلف أحمد من الباب مزدردا ريقه وأضاء المصباح الخارجى وفتح الباب، ونظر فى الردهة الخارجية فلم تقع عيناه على إنسان، وكان الرنين لا يزال متصلا.. والتفت الرجل إلى والديه مندهشا مغمغما: «لا أحد فى الخارج». واقترب من «بطارية الجرس»، ورفع غطاءها وفصل بين الأسلاك فسكت الجرس المزعج!.. وأغلق الباب والدموع توشك أن تطفر من عينيه، وتبادلوا جميعا نظرات حائرات، ثم هتف الأب قائلا:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

وقالت الأم وهى تتنهد من أعماق قلبها:

ـ أليس الأوفق أن نأتى برشدى ما دامت هذه رغبته؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه:

ـ يا شيخة وحدى الله!

٤١

وعندعصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعا بوالديه يحتسون قهوة العصر. جاءالبريد بكتاب ما إن رأى الظرف حتى تمتم بغرابة:

ـ هذا خط رشدى..

وتنبه الوالدان، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفض الغلاف. وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص، وبخط رديء ـ على غير عهد صاحب الخطاب ـ وكان به ما يأتى:

٨ـ٣ـ١٩٤٢

أخى العزيز:

تحياتى إليك وإلى والدى، أكتب كتابى هذا وقد مضى على انتصاف الليل ساعتان.. ولا تدهش يا أخى فقد حرمت نعمة النوم إلى الأبد وما عاد لأى منوم من تأثير فى. تصور أنى تناولت بالأمس جرعه من منوم معروف، فلما لم تجد شيئا عاطانى الدكتور برشامة مخدرة وبشرنى بنوم ثقيل، ها هو الليل ينتصف وتمضى على انتصافه ساعتان وأنا متيقظ مسهد، ولا نهاية لعذابى بل لا أزال جالسا لأن الرقاد ـ أو ضغط ظهرى على حشية الفراش ـ يهيج السعال الذى اشتدت نوباته على، فلا معدى لى عن الجلوس فى فراشى، وقصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحه أن أكسر مخدة وأضعها على حجرى ثم أسند رأسى إليها..

أخـــى:

يؤسفنى أن أؤلمك أو أحزنك، ولكنها الحقيقة المرة، ولا حيلة لى فيها، ولا مفر من أن أفضى إليك بالحقيقة فأنت ملاذى أولا وأخيرا، فاعلم يا أخى أنى اطلعت على نتيجة الأشعة التى صورت صدرى غداة وصولى إلى المصلحة، وقد كشفت إصابة جديدة فى الرئة اليمنى، أما اليسرى فقد حفرت الإصابة القديمة لى كهفا فى حجم نصف الريال، والحالة العامة خطيرة، وإليك تقرير الطبيب النوبتجى: «عدم قابلية للأكل مطلقا، عدم النوم مطلقا، سعال نظيف، ونفس مكروش دائما..» فلا شك إنى فى طريق النهاية، لا شك فى ذلك مطلقا، إنى أكتب إليك ودموعى تنهمر فتخفى عن ناظرى الألفاظ التى أنعى بها نفسى إليك، وكلما ذكرتكم غلبنى البكاء.

هذه هى الحالة، فأستحلفك بالله يا أخى إلا ما وافقت على عودتى إليكم لأقضى بينكم أيامى الأخيرة حتى يوافينى الأجل.. فلا تعرض عن توسلاتى هذه المرة، وأكرر أسفى لإيلامك ولكن ما حيلتى؟!.. وعليك ألا تخبر والدى بالحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك المخلص

رشـــدى

قرأ الخطاب ذاهلا، وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرة، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار، وإنكار، وغرابة، ولكنه لم يرفع عنه ناظريه حتى يستعيد رباطة جأشه، فيواجه أمه بشيء من السكينة يمكنه من الكذب عليها، واستطاع بفضل تفكيره فى أمه،

ووجودها على كثب منه، أن ينسى نفسه إلى حين فيمتلك أعصابه، ثم نظر إلى والديه فرآهما ينتظران كلمته بعينين معذبتين كمن ينتظر ـ غير معصوب العينين ـ إطلاق النار عليه، فتكلم قائلا متصنعا لهجة السخط والتبرم:

ـ رشدى يلح فى العودة الى البيت، فماذا دهاه؟!

فسألته الأم بلهفة:

ـ ولكنه بخير!!

ـ بخير والحمد لله إلا أنه كاره للمصحة!

ـ أعده إلىَّ يا أحمد، فلا فائدة ترجى من تركه فى المصحة على رغمه.

فنهض أحمد وهو يقول:

ـ سأسافر اليوم إلى حلوان وآتى به..

وأعطى الخطاب إلى والده ومضى إلى حجرته وأمه فى أثره.

وسافر إلى حلوان دون تردد أو تأخير، وظل طوال الطريق مشتت الفكر موزع الفؤاد مضطرب النفس، ولأول مرة ـ منذ أمد بعيد ـ يفكر فى الموت كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقة من الألم والخوف والقنوط، وتخيل المقبرة النائية التى ابتلعت شقيقه الأصغر، فخالها تنفض عن ثغرها تراب الأرض وتفغر فاها لابتلاع رشدى الحبيب الذى لايدرى كيف تكون الدنيا بدونه! وكان كلما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتد انقباض صدره، وثقلت وطأة الخوف على قلبه. رباه!.. كيف يجده الان؟! وغادر القطارعلى عجل والشمس تميل نحوالمغيب. وأخذ العربة إلى المصحة، ثم صعد إلى الطابق الثالث لا يلوى إلى شىء، وأشتدت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة، ودخلها وقد تركز وعيه فى الفراش أمامه. رأى رشدى كما وصف نفسه فى رسالته جالسا فى فراشه مسند الرأس الى مخدة منكسرة على حجره! وازدرد ريقه وهتف به:

ـ رشــدى!

فرفع الشاب رأسه عن المخدة بسرعة، وطالع أخاه بوجهه الضامر الشاحب، وصدره المضطرب، وسرعان مالاح السرور فى عينيه، وقال بصوت متهدج:

ـ أجئت؟.. خذنى.. خذنى.

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه:

ـ لهذا جئت يا رشدى.

ثم التفت الى أنيس بشارة فحياه فرد الشاب تحيته وقال بلهجة جدية دلت على تأثره:

ـ مسكين رشدى! . . إنه لايذوق للنوم طعما، وكانت ليلته الماضيه شديدة فظيعة! الأوفق حقا أن يمضى هذا الأسبوع فى البيت، على أن يعود إلى المصحة فيما بعد!

فأومأ أحمد برأسه موافقا وسأل الشاب :

ـ أتدرى ما هى إجراءات الاستئذان لخروجه؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدية :

ـ اسع إلى الطبيب بلا إبطاء!

ولم يلق الرجل صعوبة ما، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه.

وعاد إلى أخيه، وحزم متاعه، وعجز رشدى عن خلع بيجامته وارتداء البذلة، فاكتفى بلبس الروب، وجاءوا بنقالة لحمله إلى المصعد. وسار أنيس بشارة فى وداعه حتى الباب الخارجى للمصحة، وشد على يده بحرارة، ودعا له مخلصا بالشفاء والصحة. ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدى حامليه بلا حول ولاقوة وقد زاغ بصره، وبدا للعين هزاله، فذكر نضارته وحسنه، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناءه، ثم لم يملك أن يعض على شفته متوجعا متحسرا وقد شعر بقلبه ينتحب فى أعماق صدره.

٤٢

ووجدا فى انتظارهما فى البيت الوالدين وأسرة كمال خليل أفندى. وكانت الست توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض، فلما علما أن شقيقه سافر ليأتى به لبثا فى انتظار وصوله. وأحدث ظهور رشدى أثرا عميقا فى النفوس فلم يحاول أحد اخفاء انزعاجه. ولكن الشاب لم يبد عليه أنه أدرك شيئا مما حوله، أو أنه فطن إلى وجود أحد. وأجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض، مغمض العينين، والأعين محدقة به. وقد انعقدت الألسنة، وأصفر وجه الست دولت، وجلست وراء ظهره لتسنده بصدرها المضطرب. وفتح رشدى عينيه بعد برهة وأجالهما فى الحجرة والوجوه، فلاح فيهما نور العرفان واليقظة، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة، وقال بصوت متهجد خفيض كأنما يتصاعد من أعناق صدره :

ـ الحمد الله . . الحمد الله . . أنا مسرور بعودتى إلى حجرتى . . فدعا له الجميع، وكررت الست توحيدة الدعاء، فابتسم الشاب وقال :

ـ سأشفى هنا بإذن الله . . لا تبرحى مكانك يا نينة! . . فقبلته المرأة فى منكبه وقالت :

- لن أبرحه يا رشدى - بإذن الله - إن قلبى لا يمكن أن يكذبنى! والتقت عيناه بعينى نوال مرات، وتلقى فى كل مرة ابتسامة حلوة ضمنتها عيناها ما تكنه جوانحها من الدعاء والرجاء والإشفاق. وتنحى أحمد جانبا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه، وكلما طالع فى عينه نظرتهما الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه: «أللهم رحمتك!».

وقال عاكف أفندى أحمد - الأب - عن حكمة:

- الأوفق أن نتركه حتى يسترد أنفاسه ويستريح! فخرجوا جميعا ما عدا أمه. وانصرفت الزائرتان. وخلا أحمد إلى نفسه فى حجرته قليلا. ولكن لم يستطع صبرا فعاد إلى حجرة الشاب، ووجد رشدى لايزال فرحا بالعودة ويحادث أمه قائلا بصوته المتهدج الخافت:

- لشد ما يطمئن قلبى فرحا وسرورا، ولشد ما آلمنى جو المصحة الموحش، لم أذق فيها النوم ولا الطعام، ورأيت مريضا ينزف حتى غرق فى دمه، ومروا على حجرتنا حاملين مريضا آخر إلى حجرة «العزلة» حيث يودعون المرضى المشفين على النهاية.. ومن المؤسف حقا أن سوء حالتى آلم زميلى أنيس بشارة، ويغلب على ظنى أنه استثار مخاوفه فجعل يبكى حزنا وفرقا. الآن عاودتنى الطمأنينة.

وحول ناظريه إلى أحمد، وسكت قليلا وصدره يعلو وينخفض ثم استطرد:

- أتعبتك كثيرا يا أخى، معذرة. لاتجد على لعصيانى نصحك، أعدك بأنى سأرعى منذ اليوم صحتى وأنى لن أخالف لك نصيحة، وإذا منّ الله علىّ بالشفاء فلن أستهين يوما بحياتى.

فعض أحمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة، وقال مبتسما:

- لا محل للوم يا رشدى، فكل شىء بأمر الله، وغدا سترد إلى صحتك بأمر الله، وستذكر هذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس..

فابتسم الشاب إلى أخيه ارتياحا لقوله، وسأله أن يدنى الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء. وأتى أحمد بالخوان، وجعله فى متناول يد الشاب، ورص علبة الكالسيوم، وحق المنوِّم، والكارومين. فشكره رشدى، ثم قال:

- سأحتاج الى ممرضة لحقنى بالكالسيوم يوما بعد يوم..

فقال أحمد:

- سأوصى الصيدلى بإحضار واحدة والاتفاق معها.. ويحسن بك أن تسكت كى لاتشق على نفسك، وربنا يرعاك ويحفظك.

تناول الشاب جرعة من المنوم، فاسترخت أعصابه - وقد نال منه أرق الليالى السابقة وأخلد للنوم، إلا أن السعال انتابه مرات فمزق نومه شر ممزق.

٤٣

وجاءت أيام شدة وألم. فغرق الشاب المريض فى غمرة العذاب، وتقطع قلب الأم الذى يسند ظهره المهزول، واستبد به الأرق فلم يغمض له جفن - مع تناوله المنوِّم - إلا ساعات معدودات فى الهزيع الأخير من الليل، وكثيرا ما أدركه الصباح وهو قاعد فى فراشه وقد حطَّم السعال أضلعه، وصدفت نفسه عن الطعام، فإذا تجلَّد وتناول لقمات تقيأها فى نوبات السعال واجتاحته بعنف فما أن تسكت عنه واحدة إلا وقد أشفى نفسه على الانقطاع، وأنذرت عروق عنقه بالانفجار، وسالت عيناه دما. فظن به الهلاك وأيست من شفائه القلوب. إلا أنه بدا وكأنه يجتاز مفازة الهلاك بسلام، لا لتحسن طرأ عليه، ولكن لأن الأيام تتابعت وهو يقاوم ويجالد دون أن يسقط، ثم مضت تخف ثورة السعال، وتنتظم ساعات نومه، وتتقبل معدته القليل من الطعام، واستطاع أخيرا أن يرقد على جنبه. وآذن كل أولئك بتحسن قريب فى صحته، ولكن مضى مارس جميعا وهو على حاله من الضعف والإعياء. لم يكن يستطيع مفارقة الفراش بتاتا، وهزل هزالا محزنا حتى لم يعد فى بُرده سوى جلد ذابل وعظم معروق. وبعث منظر ساقيه القشعريرة فى النفوس، وضمر وجهه، وتقلص خداه، وغارت عيناه، وعلت محياه صفرة باهتة، وبدا رأسه أكبر من الواقع وعنقه رفيعا يكاد أن ينقصف من حمله. ولاحت فى عينيه نظرة عميقة متجهمة تدل على التصبر والتجلد، والتألم والاستسلام، فلم تزل تعذب أحمد حتى أضنته، كان يطالعها فى عينيه كلما عاده فلا تَّمحى من ذاكرته أبدا، وكانت تحمل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التألم والتصبر. كانت تترك فى قلبه جروحا لا تندمل، كان يطلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس. رباه لكم قطعت فؤاده وفتتت كبده، ولكم أهاجت مجارى دموعه.

وفى مرة دخل حجرته فوجده قد استوى جالسا فى الفراش، وأدلى ساقيه إلى الأرض، ولم تكن أمه فى الحجرة، فخاف أن يكون ذلك مقدمة لمحاولات تشق عليه، فقال له بتوسل:

- أليس الأوفق أن تلزم الرقاد!

فغاضت من عينيه نظرة التألم العميقة، وحلت محلها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أخى. ألا ترى كيف تمضى الأيام وأنا بمكانى هذا لا أبدى حراكا!.. هكذا ألقى

على الفراش بلا حول ولا قوة، طوال النهار وأكثر من نصف الليل، حتى يغلبنى ذهول المخدر الذى نسميه نوما! . . أواه، ما أضيق الحياة . . لقد سئمت هذا الفراش، وضقت به ذرعا .

فلم يدر الآخر ماذا يقول، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارا من الكدر، فقال برقة :

ـ صبرا يا رشدى، وما وراء الصبر إلا الفرج!

ولا معدى عن الصبر أيضا . كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلات؛ والحديث إلى أمه ـ ولم تكن تفارقه إلا للضرورة ـ وأبيه وشقيقه . وكان على ألمه وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التى أوحت إليه مرة بالرسالة التى بعثها من المصحة إلى شقيقه، نجا من اليأس، وعاوده الأمل فى الحياة، والرجاء فى الشفاء، ولكن الألم الذى رسم فى عينيه تلك النظرة العميقة المتجهمة لقَّنه حقيقة الشقاء التى ينطوى عليها قلب الدنيا، فذاق العذاب، وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردد على وجهه، والأرجح أن الحياة تحرص على أن يعرفها أبناؤها جميعا، إلا أنها تقطر حقيقتها على المعمرين وتسكبها فى أفواه المتعجلين .

ومن عجيب أنه لم ينس قلبه! . . فالمرض لا يمحو الحب، ربما لم يعد يضطرب به دمه، ولكنه يحسه بروحه ويخفق به قلبه، ولكم ترف عليه الذكريات فتضىء مخيلته بنور وهاج، وتدندن أذنيه كسجع الألحان، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه، وتتخايل لعينيه بروق البسمات وطريق الصحراء والعينان النجلاوان، وتطن فى مسمعيه العهود والمواثيق . ترى ما مصير كل أولئك؟ . . ماذا يخبئ له الغيب؟ . . هل يمكن أن يعود الشباب والقوة والأمل والحب؟ . . هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متبخترا فى رشاقة وخيلاء؟ . . وأن يضحك ملء قلبه دون أن يهيج سعالا قتالا؟ . . وأن يذهب رأسه ويجىء بالترنيم والتجويد؟ . . وأن يراه الإخوان فيتصايحوا «جاء قلب الأسد»؟ . . وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعا معا طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيهما عن الأعين؟ . . هل ما يزال ثمة أمل فى أن يبتاع خاتم الخطوبة ويزف كالعرائس؟ . . وكانت نوال تعوده مع والديها، فيتبادلان نظرات خاطفة مشوقة لم يشعر بوقدتها إلا هما، رباه لماذا لا يتركانهما وحدهما ولو لحظة؟ . . إنه يذوب شوقا إلى كلمة وداد ترطب حرارة فؤاده المحموم . وهكذا مضى شهر مارس . ولما جاء إبريل تغير الحال، فلم يعد يرى نوال! . . مضى أسبوع دون أن تزوره وانتصف الشهر فلم تحضر، وعاده والداها بمفرديهما، وانتهى إبريل دون أن يراها أو تراه! . . عاده إخوان قهوة الزهرة وأسرهم وأصحاب السكاكينى وجمهور من الأقارب والجيران القدماء، فالبيت لا يفرغ

حتى يمتلئ، إلا نوال، اختفت من حياته فجأة كأنها لم تكن حقيقة محسوسة وأملا مشوقا! . . ولا شك أن والديه وشقيقه يشاركونه ألمه وإنكاره ولكنهم لا يفصحون عن مشاعرهم رأفة به، وأبى عليه كبرياؤه أن يسأل والديها، لماذا انقطعت نوال عن زيارته؟

هل عرفوا حقيقة دائه وأيسوا منه؟ . . هل منعها من عيادته الخوف من العدوى؟ . . هل أمسى شرا وأذى بعد أن كان حبيبا محبوبا؟ . . أكذب الحب وعده؟! . . وجعل يجتر آلامه فى صمت، حتى ضاق بها فقال يوما لأحمد وقد خلت لهما الحجرة:

ـ ألم تر كيف انقطعت عن زيارتى؟

عرف أحمد من يعنيها بقوله، وتظاهر بعدم الاكتراث وقال:

ـ حذار من الفكر! . . أنت فى نضال من أجل الصحة فلا تضعف مقاومتك بنفسك!

فاستطرد قائلا وكأنه لم يع ما قال الرجل:

ـ أبشع شيء فى هذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب، أو أن يكون ذنبه أن الصحة جفته!

ـ لا تبال شيئا ولا تستسلم للأفكار السود!

فتمتم الشاب بصوت حزين:

ـ لن أبالى شيئا ولكن الخيانة قبيحة!

وسرت فى الرجل رعدة لأنه ذكر أنه فاه يوما بمثل هذه الجملة، وقال يدارى عواطفه:

ـ حسبك قلوبنا فهى تحبك ولا تجفوك أبدا.

فابتسم رشدى وقال:

ـ لا أدرى متى حفظت هذين البيتين:

مالى أرى الأبصار بى جافية ... لم تلتفت منى إلى ناحية

لا ينظر الناس إلى المبتلى ... وإنما الناس مع العافية

فقطب أحمد تألما وهتف به:

ـ أترغب أن تقتلنى غما وكمدا!

فقال بأسف صادق:

ـ معاذ الله، أنت أحب إلىَّ من الشفاء!

وعاد أحمد إلى حجرته وهو يقول لنفسه محزونا: «رباه . . كيف جفته وقد راح ضحية لها؟!».

٤٤

والحقيقة أن كمال خليل أخذ يساوره الشك فيما قالوا عن مرض الشاب : وما لبث أن أفضى بشكه إلى امرأته . ولكى يقطع الشك باليقين زار صديقا له فى بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدى ، فأطلعه الرجل على الحقيقة ، وحزن كمال خليل حزنا بالغا ، لأنه أحب رشدى حبا صادقا ، ووجد فيه خير زوج يمكن أن يزوجوه لابنته . وهوى الخبر على الست توحيدة كالصاعقة ، وخيب أملها فى سعادة نوال ، وخلا الرجل بزوجته وقال لها متجهما :

ـ ماذا ترين؟

فلاذت المرأة بالصمت إشفاقا من الجهر بالحق المؤلم ، فقال كمال أفندى :

ـ لا أظن أن رشدى بناج من مرضه الخطير!

فقالت المرأة بامتعاض :

ـ ربنا يلطف به .

ـ وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة الزوجية .

ـ فماذا ترى أنت؟

ـ أرى طبعا أن أصون صحة ابنتى ، فهى شباب غض ، ودخولها حجرته كما حدث مرات استهتار شديد الخطورة سيئ العاقبة ، فينبغى أن تعرف الحقيقة حتى لا تعيش على الأوهام أو تتعرض لعدوى مرض خبيث ندرت النجاة منه .

فقالت المرأة بلهجة دلت على الأسف والاستسلام :

ـ الأمــر لله!

ودعوا بنوال ، وجاءت الفتاة غافلة عما يضمرانه لها ، وكان ينبعث من عينيها نظرة وديعة تلوح فيها الكآبة ، فطلب الرجل إليها أن تجلس قبالته على كرسى ثم راح يقول بصوت رزين :

ـ نوال ، دعوتك لأفضى إليك بسر هام ، وعهدى بك فتاة عاقلة ، والسلوك الحكيم هو ما أتوقعه منك دائما ، فاعلمى أن جارنا العزيز رشدى أفندى مريض مرضا خطيرا أفظع مما يقولون .

فاصفر وجه الفتاة ، ونفذت لهجة والدها إلى قلبها فانقبض خوفا ، وتساءلت بإشفاق :

ـ أى مرض يا أبتى؟

ـ يؤسفنى أن أصارحك أن الشاب مصاب بالسل، وهو مرض كما تعلمين فظيع، ورحمة الله واسعة، بيد أن على الإنسان واجبا نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه أو يستهين به لأى داع مهما جل شأنه، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء، ولنذكر قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

السل!.. يا رب السماوات!.. ماذا يقول أبوها؟.. هل أضحى رشدى العزيز شيئا واجبا اجتنابه؟!.. هل أوى حقا ذاك الداء الخطير إلى صدره الحنون؟.. هل ضاعت الآمال وتبددت الأحلام؟!.. ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحق الرثاء، فأدركت أمها ما تعانى من ألم أجبرها وجود أبيها على مداراته، فقالت:

ـ الله عالم بشدة حزننا وأسفنا، وهو القادر على جبر كسرنا، ولكن صدق والدك يا نوال، فحداثة سنك يجعلك صيدا سهلا لعدوى هذا الداء، فدعينا نحن نقم بالواجب عنا وعنك، ولندع له جميعا بالسلامة والشفاء إنه سميع مجيب.

وجعل أبوها يتفرس فى وجهها من تحت حاجبيه، ويقرأ ما تظهر وما تبطن، ثم قال مستطردا:

ـ الآن أدركت ولا شك الباعث الذى دعانا إلى مخاطبتك فى هذا الشأن، ولا شك أنك تقدرين رأيى حق قدره، فأنا أبوك وأخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك، لهذا أقول لك إنه لا يجوز بعد اليوم أن تعودى المريض العزيز، ولا عليك من هذا، ولن يلومك عليه إنسان عاقل منصف، ومهما يكن من الأمر فما أبالى كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنا إذا جاء مخالفا للعقل، فما رأيك؟!

ولم تكن تملك من الجسارة ما تستطيع معه أن تصارحه بما يدور فى خلدها، وكان له من المهابة فى نفسها ما يمنعها من مشافهته بما يخالف رأيه، فلاذت بالصمت حتى استحثها على الجواب، فقالت بصوت خفيض:

ـ أمرك مطاع يا أبتى!

ولم يكن يطمع فى أكثر من هذا، وخاف إن أطال الحوار أن يشجعها على الإفصاح عن حقيقة مشاعرها، فنهض قائما كالمقتنع المرتاح، وقال:

ـ لا خيبت: لى رجاء أبدا.

وما أن غيبه الباب حتى أحدقت فى وجه أمها وهتفت بها:

ـ كيف يكون هذا يا أماه؟!

فقالت المرأة بحزن واستسلام:

ـ لا معدى عنه يا نوال!

فقالت بصوت متهدج مرتعش :

ـ كيف لا أعوده . . كيف أتجنبه؟ . . هل يقوم خوف الإنسان على نفسه عذرا مقبولا لهجر أصدقائه فى أوقات محنتهم؟! . . وما جدوى الصداقة والمروءة فى هذه الدنيا؟!

ولم تتم حديثها فخنقتها العبرات، وأوشكت الأم أن تتأثر لها، ولكنها تداركت عواطفها أن ترق لها فتدفع بها إلى الهلاك . فقالت بلهجة لا تدل على ذات نفسها :

ـ وما جدوى أن يصاب الإنسان بداء وبيل من أجل صديق لى ينتفع بمرضه فتيلا؟! . . إن أباك حريص على صون شبابك الغض وله الحق فى ذلك كل الحق .

ـ أواه يا أماه! . . ولكنى إذا ضلت نفسى بهذا الغدر القبيح فلن أنتفع بها . ليس المرض بالشر الوحيد فى هذه الدنيا، فالغدر شر من المرض، ماذا يظن بى؟ . . بل كيف أدفع عن نفسى أمامه وأمام الناس؟

ـ تقولين إن أباك أجبرك على الامتناع عن عيادته، فعلى أبيك التبعة وعليك الطاعة، ولن يجادلك إنسان فى حق والد على ابنته .

ـ ما أقساك يا أماه! . . سأموت كمدا .

ـ أفضِّل ألف مرة أن يلعننى الناس على أن ألقى بفلذة كبدى إلى التهلكة!

فقالت الفتاة وما تزال عيناها تسحَّان دمعا ساخنا حتى سدت خياشيمها وتغيرت نبرات صوتها :

ـ سيمقتنى ويحتقرنى، وغداً إذا برئ؟!

وخنقتها العبرات مرة أخرى، فقالت الأم وهى تتنهد :

ـ هذا هو حظك فما حيلتنا؟! . . بيد أنك مازلت على عتبة الشباب، والفرص أمامك كثيرة، والله قادر على جبر خاطرك، فلندعه أن يصون للشاب المسكين شبابه وأن يعوضك عنه خيرا! . .

فهتفت بها منتحبة :

ـ ما أقساك . . ! ما أقساك . . !

وفرت إلى حجرتها وكان الوقت مساء، فدلفت من الشباك محمرة العينين ورمت ببصرها إلى النافذة المحبوبة، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصاصها نور خافت، وتمثل لها راقدا على جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهمة ثم تمثل لها وهو يسعل ذلك السعال القتَّال الوحشى : لهفى عليك يا حبيبى . وا أسفى على رقادك بلا حول وبلا قوة . . ونظرتك التى تنم عن أفظع الآلام البشرية؟ أين نضارتك؟ أين شبابك؟

أين حديثك؟ أين آمالك؟ بل أين نضارتنا؟ أين شبابنا؟ أين حديثنا؟ أين آمالنا؟ رباه ما أتعس حظى . . وما أحلك دنياى . . !

وارتمت على مقعد تكفكف دمعها وتتنهد من الأعماق، وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط، مرت حياتها مع رشدى أمام ناظريها فى مثل لمح البصر فأيقنت أنها فتاة تعيسة الحظ . ولم يغب عنها ما فى حديث والديها عن مرض الشاب من يأس وقنوط، فتولاها الذعر، وما كانت تعرف عن الموت إلا لفظه، فكيف وقد تمثل لها وحشا كاسرا يتوثب للانقضاض على قلبها؟ رباه! ويأمرانها بألا تعوده! ويحولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة! وتجهم وجهها الباكى وشعرت برعدة تسرى فى أطرافها، فتحسست راحتها صدرها! . . شعرت فى أعماقها بأنها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها! الرقاد، والسعال، والهزال، والعذاب، ثم أحسَّت تعاسة وقنوطا وحزنا وخوفا، ومزقتها الحيرة إربا إربا بين حبيبها وصحتها وسعادتها! رباه . ألم تكن تحيا فى دعة وطمأنينة وأمل مشرق؟! فما الذى أوجب هذا الشقاء وهذه التعاسة؟! .

ولدى عصر اليوم التالى عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها إلى حجرة أخرى بعيدا عن نافذته، وأنه حيل بينها وبين رؤية ذاك البصيص من النور . .

٤٥

ولم يعد رشدى إلى ذكر نوال، وعجب أحمد لصمته وتساءل أيعانى آلامه وحده أم يتناسى باستهانة واحتقار، ودعا له مخلصا ـ وهو المبتلى ـ بالنسيان وراحة القلب . ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشاب من محياه، لجمود ملامحه وتجهم نظرة عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالا من الكآبة لا تكاد تزايله، فظل أحمد متحيرا مشفقا . وشاركه الوالدان حيرته وإشفاقه، ولم يكن الأمر يعنيهم من ناحيته العاطفية، ولكنهم خافوه على الصحة المتهالكة التى تجاهد فى سبيل الحياة، خصوصا وأن مضى الأيام قد بعث فى النفوس الأمل بعد أن أوشكت أن تشفى على اليأس، ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيام وتعود الحال، أما رشدى فلبث عاجزا عن مغادرة الفراش، ونضو هزال يستشير الذعر والإشفاق، وظل لونه مصفرا مشربا بزرقة، ولم يخف عنه السعال إلا قليلا .

وفى النصف الأول من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدد له الإجازة حسبما يرى، وفحصه الرجل فحصا سطحيا ثم قال :

ـ أظنك تعلم أن إجازتك القانونية تنتهى فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢!

أجل كان يعلم ذلك، ولكنه كان كأنه يسمع به لأول مرة، فقال بصوت خفيض:

ـ حقا؟! . . نعم . . أعلم ذلك . .

فقال الطبيب بغير مبالاة:

ـ فأيامك الباقية من الإجازة منتهية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل، وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢ .

وكان صوت الدكتور يقع من مسمعه موقعا غريبا، فتساءل بصوت أشد ضعفا:

ـ ألا يوجد ثمة أمل فى الشفاء قبل انقضاء المدة الباقية من إجازتى؟

فهال الطبيب السؤال وقال بإنكار:

ـ هل تتصور أنه من المستطاع أن تبرأ وتسترد قوتك ووزنك الطبيعى فتستأنف عملك فى بحر عشرين يوما؟! هذا محال. أمامك عام استشفاء على أقل تقدير . .

فسهم رشدى كالشارد، ثم أطرق كئيبا محزونا، أما الدكتور فأعطاه «استئمارة» نص بها على انتهاء إجازته فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢، إذا لم يعد إلى عمله قبل ذلك، وقال له بلهجة دلت على أنه يريد الانصراف سريعا:

ـ وقع من فضلك بإمضائك على هذه الاستئمارة للعلم . .

وذكر أخاه أحمد كأنه يستغيث به فى تلك الساعة الحرجة! . . وردد عينيه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاد الصبر، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع بإمضائه بيد مرتعشة. وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلعة إليه بوجهها الذى نال منه الإعياء والهم كل منال، فقال لها بصوت مبحوح متهدج:

ـ وقَّعت اليوم بإمضائى على أمر فصلى من عملى!

فخفق قلب المرأة خفقة عنيفة، بيد أنها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تضاعف من أشجانه، وقالت باستهانة:

ـ أهذا ما جعلك تتكلم بهذه اللهجة الحزينة؟! يا بنى، إن الله أكرمنا بإنقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغى أن نغفل عن ذكره وشكره، وليهن، بعد ذلك كل شىء، فلا يحزنك الأمر، فإنك إن فقدت عملك اليوم واجده غدا إن شاء الله . .

ولكنه قال بنفس الصوت المتهدج المبحوح وكأنه لم يع شيئا مما قالت:

ـ قضى الأمر وخسرت وظيفتى، وضاع الماضى والمستقبل.

فقالت المرأة وهى تعض على نواجذها دافعة دموعها:

ـ رشدى لا تأس ولا تحزن، وغدا تنكشف الغمة بأمر الله ورحمته، فترد إلى وظيفتك أو إلى خير منها، والله لتبسمن بعد عبوس وليصدقن قلبى . .

ولكنه لم يكن يصغى إليها، وتاهت عيناه فى آفاق مجهولة، فغابت أمه عن ناظريه وراح يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ ما أفظع المرض ! . . حقا إن ألمه لشديد، وعذابه لمروع، يجعل القوة عجزا، والشباب شيخوخة، والأمل قنوطا يقعد الناهض، ويعطل العامل، ويقبح الحبيب، أضاع مستقبلى، وأطفأ نورى، وأوهن عظامى، وأفقر يدى، اللهم اكفهم شر المرض . . اللهم اكفهم شر المرض . .

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت فى البكاء، وقالت بصوتها الباكى :

ـ هلا رحمتنى يا رشدى !

فقال بحدة :

ـ الله لا يريد أن يرحمنا . .

وبعد ظهر ذاك اليوم ـ وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد من الوزارة ـ حدَّث الرجلان رشدى حديثا طويلا يهونان به من أثر ما وقع، ويؤملانه خيرا منه، حتى بدا فى النهاية أنه يعيرهما أذنا واعيةويتأسى بما يقولان . ورأى أحمد أن نفقات التداوى ستضحى، بل أضحت بالفعل، أكثر مما تتحمله نقود الشاب التى انكمشت إلى ربع مرتب وستنقطع بعد حين، وأنه لن يغنى عنه ما عسى أن يعينه من مرتبه المثقل، فقال له :

ـ رشدى . أنت الآن خير حالا مما كنت فى الماضى القريب، وأظنك تحتمل البقاء فى المصحة، أفلا يحسن بك أن تنتقل إليها لتظفر بجو وعناية، لا يتوافران لك ها هنا . . ؟

فقال الشاب وقد اقشعر بدنه لتذكر المصحة وعهدها :

ـ ليس فى طوقى الآن أن أعود إلى الدرجة الثانية، ومحال أن أرضى بالانتقال إلى عنابر الدرجة الثالثة .

ـ أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هواء ودواء؟

فهز رأسه الذى بدا كبيرا جدا بالنسبة إلى عنقه الرفيع وقال :

ـ الحياة هناك فظيعة، وأحوال المرض مخيفة، كفاك الله شر المرض . .

فلم يزد أحمد كلمة واحدة، وعند المساء، وكان رشدى وأمه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع الراديو المترامى إليهما من المقاهى المحيطة، قدم المذيع طبيبه الذى كشف عليه أول مرة ـ إلى الجمهور « . . يلقى عليكم محاضرته الأولى عن السل»

فارتعشت أمه لسماع الاسم الذى يقض مضجعها، أما رشدى فانتبه بعناية وأرهف أذنيه، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهفان أذنيهما فى تلك الساعة، فالأب فى حجرته رفع رأسه عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة، وغاب أحمد عن حديث الصحاب فى الزهرة ليلقى بانتباهه كله إلى الراديو خافق الفؤاد. وتكلم الدكتور عن تاريخ كشف ميكروب المرض، والأدوار التى يمر بها، ووصف كل دور بإسهاب، ثم تكلم عن مسألة زواج الناجين من الداء، وما ينبغى أن ينتظره أصحاب كل دور من أعوام، واقترح فى النهاية أن تنشئ الحكومة للناجين من الدور الثالث قرى فى صحراء حلوان تكون بمثابة معازل يقضون فيها شطرا من أعمارهم أو العمر كله. أصغت الأسرة متفرقة إلى المحاضرة، فأخفت الأم عينيها الدامعتين، وتنهد الأب وعاد إلى كتابه، أما أحمد فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلم نونو. ولازم رشدى الصمت، ومضى يستعيد ما سمع، فغمرته فجأة ذكريات حياته، الشباب الطروب واللهو العابث والحب الساحر، وصور سريعة متزاحمة من الوجوه والأماكن والربوع، فتآكل صدره حسرة، وهوى من ربوة الأمل إلى هاوية القنوط، ونسى وجود أمه فهتف يائسا: «رباه إذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهى بهذا الداء أجلى، فأسألك الرحمة بالتعجيل به». وارتاعت أمه، ونظرت إليه بعتاب وهى تقول:

- رشدى!..

فنظر إليها مبتسما ابتسامة حزينة وقال بلهجة تهكمية:

- الغالب أنك لن تفرحى بعرسى كما تودين!

ولما رآها تجهش فى البكاء، غلبه التأثر، فوجم.. وقال بأسف:

- معذرة يا أماه.. لشد ما أقسو عليك يا مسكينة. حرمت عليك النوم والطعام وسودت أيامك وهأنذا أعذبك بهذيانى، فاللهم غفرانك.

٤٦

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى أهدأ نفسا وأهدأ قلبا. ولما جاء أحمد يصبح عليه طلب إليه أن يعيره القرآن. وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور، وسأله:

- أليس من الحرام أن ألمسه ولما أستحم منذ أشهر؟!

فقال له مبتسما:

ـ عذرك مقبول عند الله . .

ومضى يقرأ الكتاب، ولولا خوف السعال، لتلاه بصوته العذب. ووجد فى القراءة لذة وسلاما، واطمأن بذكر الله قلبه، ونسى به الحنين إلى الماضى السعيد، والحسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط منه فيه، بل نسى به التوجع الدائم لما صار إليه حاله، واليأس من الشفاء الذى قبض قلبه منذ أمس، والخوف من النهاية التى تتخايل لعينيه، وفر أخيرا من آلامه ومخاوفه لائذا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكل على الله. ووجد ارتياحا فى الإذعان المطمئن إلى إرادة الله وقضائه، ورأى تلك الإرادة الشاملة التى تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم إليها آمنا مطمئنا كما يستسلم إلى صدر أمه إثر نوبة السعال. ومرت أيام وهو هادئ رزين، صابر متصبر، باش مسالم، لا يثور ولا يغضب، لا يشكو ولا يتذمر، ولا يتمرد ولا يسخر. وفى المرات القلائل التى أطلقت فيها زمارات الإنذار لم يفارق الشقة منهم أحد، فكانوا يتحسسون طريقهم إلى حجرته فى الظلماء، ويلتفون حوله بقلوب خافقة وأعصاب متوترة. واطرد الزمان فى هدوء حتى وقع حادث هام! كان مايو قد انتصف، والوقت أصيلا، والأب قد انتقل كعادته إلى مسجد الحسين لصلاة المغرب، وجلس أحمد فى حجرة الشاب يحادثه بوجود والدتهما، فدق الجرس وفتح الباب، واقتربت أقدام خفيفة، ثم دخلت الحجرة امرأتان: الست أم توحيدة ونوال! وحدثت دهشة لاحت أماراتها فى الأعين، وخفق قلب الشقيقين بعنف. لماذا جاءت نوال بعد هذا الغياب الطويل؟! . . وإن ظهورها مرة أخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذى أوشك أن يندمل. ونهض أحمد وتنحى جانبا حتى ارتفق النافذة، ورفع رشدى عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان، ونطقت عيناه بالإنكار، ثم زايلته الدهشة وحل محلها امتعاض شديد فتنغص عليه هدوؤه البديع. وحدثته الست توحيدة بلهجتها المرحة، وأكدت له أنه يتحسن تحسنا محسوسا، أما نوال فرنت إليه بعينين مروعتين وقد أفزعها ما صار إليه من الهزال والضعف، وغلبت على أمرها فلم تدر ماذا تقول. ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كيف حالك؟!»، ولم يرغب فى الرد عليها فاكتفى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنه يقول لها «كما ترين!» ولم يعد يخفى على أحد أن الشاب تغير، وأنه اعتراه اضطراب واستياء، وأنه يعانى ألما باطنيا حادا. وأرادت الست توحيدة بلباقتها أن تخفف من توتر الجو فراحت تتحدث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة، ثم قالت:

ـ أبشر يا رشدى أفندى! رأيتك فى الحلم حاملا أثقالا عابرا بها قنطرة طويلة، فبلغت نهايتها بسلام، وتفسيره أنك ستبرأ عما قريب إن شاء الله! . .

فقال رشدى بلهجة لم تخل من خشونة:

ـ فسر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكد لى أنى لن أفارق فراشى قبل عام طويل؟

فقالت المرأة بلهجة عتاب:

ـ سامحك الله يا رشدى أفندى، هكذا أنت متطير دائما.. (وأومأت إلى ابنتها واستأنفت الكلام) هذه نوال جاءت لتراك، وما منعها عنك إلا انشغالها بدروسها، ومرضها فى الأيام الأخيرة، وستؤدى الامتحان فى نهاية هذا الشهر!..

فقال الشاب بلا تردد:

ـ نفس التاريخ الذى أفصل فيه من عملى..

فاصفر وجه نوال التى أدركت حقيقة غضبه، وبادرت المرأة تقول بامتعاض:

ـ بعد الشر.. بعد الشر. كل شدة إلى انتهاء تسير..

ولكنه بسط راحتيه على صدره وقال بحدة:

ـ إلا هذه الشدة، فلا انتهاء لها حتى تقضى على الحياة..

ـ مرضك يا رشدى أفندى ليس بالخطير، وستبرأ قريبا بإذن الله..

فهز منكبيه استهانة، وعاد يقول بحدة وراحتاه على صدره:

ـ أى مرض تعنين؟!.. ها هنا سل! أما سمعت به؟!.. سل سل، إنه يأكل صدرى، ويسيل مع ريقى دما.. إنه مرض خطير فظيع، شديد العدوى، فحذار..!

واشتد به التأثر، وغلبه الانفعال، فضرعت إليه أمه أن يسكت، ورجت الضيفتان أن يصحباها إلى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدة الشاب بمرضه. ولما خلت الحجرة إلا من الشقيقين، قال أحمد بحزن:

ـ ليتك لم تستسلم للغضب!

ولكنه قال له بانفعال شديد:

ـ والله ما تستحق إشفاقك يا أخى! إن الخيانة قبيحة، وهذه الفتاة هى سبب الكارثة التى حلت بى كما تعلم يا أخى، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتى، ولكن تعلقى بها هيأ لى مداراة المرض حتى انتهيت إلى ما ترى..

واستوى جالسا وقال وما يزال منفعلا:

ـ لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها إلى؟.. المرأة الماكرة ترمى بنظرها إلى بعيد، فترى الشفاء محتملا كالموت، وتأخذ الحيطة لكل احتمال، ولكنى يا أخى لن أفكر فى الزواج، وإذا كتب الله لى الشفاء فسوف أتعهد بنيانى المتهالك بالعناية الواجبة، فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمرى إلا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة. أخى: لى فى المصرف مقدار من النقود كنت ادخرته لزواجى فسأسترده وأشد

الرحال إلى حلوان، وهناك أضع نفسى تحت رحمة المقادير حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا. غدا اسحب لى النقود بنفسك، وابتع لى ثيابا ولوازم، وسأكون بالمصحة قبل نهاية هذا الشهر، وعلى الله الجبر..

٤٧

فى ضحى اليوم الثانى - الجمعة - نفذ أحمد مشيئةأخيه، فاسترد وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثيابا داخلية وبعض اللوازم الثانوية، وعاد إلى البيت ظهرا مسرورا بما قر رأى المريض عليه من الانتقال إلى حلوان، ولما دخل حجرة الشاب رآه يدخن سيجارة، فانزعج انزعاجا شديدا، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض، فارتبك لمرأى القادم، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل. وهتف به أحمد وقد نسى المشتريات الجديدة:

- من أعطاك هذه السيجارة؟.. ماذا تفعل بنفسك؟!

وألقى على أمه نظرة ملؤها الاتهام، فقالت المرأة تدافع عن نفسها:

- ألحَّ علىّ يا أحمد ولم ينفع اعتراضى، فما سكت حتى فاز بطلبته..

وقال رشدى دون أن يترك السيجارة:

- لا تؤاخذنى يا أخى.. نازعتنى نفسى إلى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها.

فقال أحمد بامتعاض شديد:

- ولكن هذا هو الجنون عينه!

فقال الشاب كالمعتذر:

- سيجارة واحدة لا تؤذى، لكم هى لذيذة! دعنى آخذ أنفاسها فى طمأنينة..

ودخن سيجارته فى سرور عجيب، ثم قال:

- لا تغضب يا أخى فهى آخر سيجارة، والآن هات ما عندك من الثياب الجديدة..

وبعد الغداء بقليل اعتراه إعياء شديد ولم يطمئن إلى الاضطجاع، فجلس فى الفراش مادّاً ساقيه مسندا ظهره إلى وسادة منكسرة، فبدا ساقاه كخطين، واشتد اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة، ولاحت عيناه متسعتين مكتحلتين بهالتين سوداوين، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة، غير نظرة الحزن الأولى، كأنها ترمى إلى شىء لا تراه الأعين.

وجاء أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضى إلى قهوة الزهرة، فقال له رشدى:

ـ أذاهب إلى الزهرة؟! . . سلامى إلى الصحاب، لكم يشوقنى أن أسهر ليلة فى السكاكينى بين إخوانى .

فقال أحمد بتأثر :

ـ ستبرأ إن شاء الله وتعود إلى إخوانك ولياليك !

فقال الشاب بانكسار :

ـ هل يمكن أن أبرأ حقا؟! . . انظر إلى ساقىّ! هل تعودان مرة أخرى إلى هيئة السيقان البشرية؟!

ـ وما يكون هذا فى قدرة الله العظيمة؟

فهز رأسه، ثم قال لأخيه بلهجة الناصح الأمين على غير مألوفه :

ـ ارع صحتك دائما بعين اليقظة ولا تتهاون بها أبدا . .

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلا وقد تغيرت نبرات صوته :

ـ المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدد الآمال . .

وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلم هكذا؟! . . ونظر إليه بانكسار، فاستدرك الآخر :

ـ وميكروبه يعمل فى الخفاء حتى إذا تمكن من فريسته قضى عليها .

ـ رشدى! . ماذا تقول؟

ـ أجلو لك الحق قبل الفراق، فعسى ألا أراك بعد اليوم .

فقال الرجل بانزعاج :

ـ كيف لا أراك يا رشدى؟

فتنبه قليلا وقال كأنما عاودته سخريته المرة :

ـ أليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف المرض أو تنشغل بدروسك فتنسانى فى حلوان؟!

فهتف به أحمد متألما :

ـ سامحك الله . . سامحك الله . .

فحدجه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله :

ـ لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم؟

فصاح به الرجل :

ـ رشدى! كيف تتكلم؟!

فلزم الصمت لحظة قصيرة، ثم قال بأسف :

ـ لعن الله المرض، والله يكفيكم شر المرض! . .

وانزعج أحمد انزعاجا كبيرا. وعادت أمه بالقهوة فاحتسى قهوته فى سكون، وخاف أن يعود الشاب إلى كلامه المزعج، ولكنه لم ينبس بكلمة، فارتاح ارتياحا خفيفا، وحسب أنه استرد حالته الطبيعية. وجعل يسترق إليه النظر، فهاله تراخيه، ولون وجهه، ومنظر ساقيه. وحدث نفسه متأثرا: أهذا أنت يا رشدى؟! تبا للمرض!!..

وذهب الرجل إلى القهوة متأخرا عن موعده، وكان يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوترة، ونفسه المحزونة، فمكث بها حتى منتصف العاشرة، ثم عاد إلى البيت، ومر بحجرة أخيه، فوجده قد تعاطى المنوِّم واضطجع فى طلاب النوم، ولكنه لم يكن نام بعد فرد تحية ا لقادم قائلا:

ـ مساء الخير.. هل عدت؟

فقال أحمد وهو يتفحصه بعينيه:

ـ أجل.. كيف حالك؟

ـ الحمد لله.. كيف شاى الزهرة؟

ـ كعهدك به.

فقال بصوت لم يكد يسمع:

ـ هنيئا!..

وتركه لينام ومضى إلى حجرته، وخلع ملابسه. كان منقبض الصدر متوتر الأعصاب. وترامت إلى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضا وأعصابه توترا، ترى هل للهواجس التى تضطرب بها أعماق النفس رائحة تشم؟! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة. ثم نهض لينام. فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة طويلة من الأفكار والوساوس، واستيقظ فى الصباح الباكر على حركة فى البيت فتنبهت حواسه، ونظر فى الساعة فوجدها الخامسة. فتساءل ما الذى أيقظهم فى هذا الوقت المبكر؟!.. وغادر الفراش، وانطلق إلى الخارج يساوره قلق وخوف، وقبل أن يخطو خطوتين فى الدهليز المفضى إلى حجرة رشدى انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبته وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يستغيث، ثم هوت على خديها تلطمهما بعنف وجنون.

٤٨

وكان يوما فظيعا مروعا، سارت قافلته فى هول من الألم والعذاب والشجن. وإن أحمد ليذكره ساعة ساعة لأن ذكرياته السود حفرت فى فؤاده. كما حفرت فى فؤادى

الوالدين البائسين. فساعة دخوله الحجرة: سار متثاقلا بقلب كسير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه، ومد بصره نحو الفراش فرأى رشدى راقدا وقد سجته أمه بالغطاء ووالده واقفا على كثب منه دامع العينين منكس الرأس، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالنائم لم يتغير منه هيئة ولا لون، وهل ترك المرض للموت شيئا يغيره؟!.. وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان، واستسلم لبكاء غزير تجمعت أبخرته فى قلبه يوما بعد يوم تنفثها الآلام حتى تكاثفت فى برودة الموت فسحَّت دمعا فيَّاضا.

وموقفه فى حانوت بالغورية: يبتاع كفنا، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا. انتقى له أجمل الألوان لما عهده فيه من حب الأناقة وجعل ينظر إلى يدى البائع، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفه، بإنكار وذهول.

ثم ذهابه إلى مركز الصحة لاستخراج تصريح بالدفن. سأله موظف بعدم اكتراث: «اسم المتوفى؟» فأجابه وهو يود ألا يسمع صوت نفسه: «رشدى عاكف» ثم قال لنفسه بذهول: «رشدى عاكف مات!.. أفظع بها من حقيقة»، وسأله بنفس اللهجة الباردة: «عمره؟» فأجابه «ستة وعشرون عاما» فسأله «المرض؟» فسماه والغضب يضطرب فى جوانحه، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود؟.. هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق؟.. لون البشرة؟.. قسوة السعال؟.. ثم تسلم الورقة التى لا يمكن أن يغيب رشدى فى باطن الأرض إلى الأبد إلا بها ومضى شاكرا!.. وقد أحدث عدم اكتراث الموظف والدكتور ثورة فى صدره على وشائج الإنسانية جميعا، كيف يلقى الموت بعدم اكتراث وهو أفظع حدث فى الدنيا؟!.. هل يمر يوم دون أن يُرى نعش محمولا على الأعناق؟!.. فكيف يمرون به مر الكرام كأن الأمر لا يعنيهم؟!.. كيف لا يرى كل فرد نفسه محمولا على هذا النعش؟!

ثم مرتزقة الموت، جاءوا تباعا يحملون أدوات الغسل والنعش، براقة أعينهم، قوية سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالربح المرتقب، فلم يروا فى جثمان رشدى العزيز إلا سلعة.

ثم النعش يتهادى على الأعناق فى حلة الشباب البيضاء، وملأ عينيه منه وهو يسير فى انحرافه المعروف تتبادله الأيدى والمناكب، ووضع الطربوش عليه مستويا وكان صاحبه يميله إلى اليمين فيوشك أن يمس حاجبيه فعل المختال بشبابه المدل بجماله، لله ما أوفى أصحابه، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم، وبكى كمال خليل أفندى، أما أحمد راشد فقد جمد وجهه ولم يبن، ولم يرتح أحمد لمنظره ولا لوجوده بين المشيعين، كذلك تجنب النظر إلى المعلم نونو الذى أيقن أنه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب، وسار الأب وراء النعش مباشرة فى حزن حفظ الإيمان عليه

وقاره، وبلغ التأثر بأحمد منتهاه حين بلغت الجنازة طريق الجبل، الذى يعلم من أمره ما يعلم، الطريق الذى شهد رشدى عاشقا صباحا بعد صباح، والذى جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينا بمرضه الخطير، فاشترى قلبه بصدره، ثم خسر الاثنين معا. رباه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق؟ . . هل يفضى إليه بأن التى رأى الفتى المسكين ينتحر من أجل حبها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة؟! . . ثم بدت المقبرة فى ثوب قشيب! . . فرشت أرضها بالرمل، واصطفت عند مدخلها الكراسى، ودار بها السقاة، وفغر القبر فاه كأنه يتثاءب ضجرا من المأساة المعادة، ووضع النعش على الأرض وكشف الغطاء، ورفع رشدى ملفوفا فى الكفن الذى اختاره له بنفسه، وأطبقت عليه الأيدى، وغابوا به فى جوف الأرض، ثم صعدوا بعد قليل من دونه، وبلا رحمة حثوا عليه التراب، فاختفى فى القبر فى دقائق معدودات، واستوى بالأرض، ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم ترو بعد، وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة! . . بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب إلى الأبد فلا تغنى عنه الدموع ولا الحسرات. ورجعوا جميعا وقلوبهم شتى، الحكمة التى أوجبت بالأمس أن يكون رشدى محبوبا توجب اليوم أن يصير نسيا منسيا! . . البيت كئيب، والوالدان ذاهلان، وقد كوِّم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها. ولما أوى عند منتصف الليل إلى حجرته، انثالت عليه الفكر، حتى تنبه إلى شىء فى الجو. يا عجبا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه . . رائحة الموت المخيفة؟ . . وفى صباح اليوم الثانى وجد أنها ما تزال تنبعث فى الجو، فتهيأ له أنها ربما كانت متصاعدة من الممر المفضى إلى خان الخليلى القديم، ففتح النافذة ونظر منها، فرأى على الطوار كلبا ميتا وقد انتفخ بطنه وتشنجت أطرافه، فصار كالقربة، وأكب عليه الذباب. وأدام النظر قليلا، ثم تحول عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع.

ثم كانت أيام قاسية مرة. أما عاكف افندى الأب فقد راح يداوى بالإيمان جرحا داميا، وأما الأم فقد ذهلت فى حزنها عن كل شىء حتى الإيمان، بل قالت تخاطب ربها فى وقدة الألم: «ما ضر دنياك لو تركت لى ابنى!». ثم قالت لزوجها بحدة: «هذا حى شؤم، جئته على كره منى وما أحببته قط، وفيه مرض ابنى وفيه قضى . . فدعنا نهجره بغير أسف!». ثم انثنت إلى أحمد قائلة: «إذا أردت أن ترحم أمك حقا فابحث لنا عن مقام جديد». كرهت الحى وأهله جميعا. وضاق أحمد به صدرا كذلك، ولكن كيف السبيل إلى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكانها! . . ولم يأل جهدا فوصى زملاءه جميعا بالبحث عن مسكن فى أى موقع من القاهرة، بل جعل يروض حزنه الأليم بالاضطراب فى الشوارع القريبة والبعيدة بحجة البحث عن مسكن خال. وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكآبته فأكثر من ممازحته وجذبه إلى أحاديثهم حتى دعاه مرة إلى بيت الست عليات، ولكن الكهل أبى وظل مغبر الجبين.

٤٩

وتلى وقت حافل بالأحداث الحربية الهائلة، فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان، وفى النصف الثانى من يونيو سقطت طبرق فى يد الألمان، وتهامس الناس بخطر الغزو. وتناول الصحاب، فى الزهرة، الأخبار بتعليقاتهم المعتادة، فقال سيد عارف بسرور:

- لن يقف زحف روميل هذه المرة.

فسأله الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهكم:

- يا من تحبون الألمان، هل تحسبون أنهم إذا دخلوا مصر يدخلون بسلام، أو أن دون ذلك حربا ضروسا تقتلع كل قائم؟!

فأجابه المعلم زفتة باستهانة:

- وماذا لنا فى البلد مما يخاف عليه؟!.. فليحزن السادة الذين لا يعرفون أن الدنيا فانية!

وقال المعلم نونو:

- لا أملك إلا روحى وأرواح أبنائى وهى جميعا ملك الله تعالى ولا سبيل لرومل عليها إلا بأمره، وقد وقت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين!

ثم ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلا:

- نذرت إلى الله، لو جاء روميل وأنا على قيد الحياة، لأدعونه إلى سهرة ببيت الست عليات، ليشهد أن المدفع المصرى فوق المدفع الألمانى.

وجعل أحمد ينقل إلى والديه ما يقوله الناس، ويحدثهما بأخطار الغزو وما يتوقعه الكثيرون من اشتداد الغارات الجوية، وكأنما أراد أن يلهيهما عن حزنهما ولو بإثارة مخاوفهما!

وعاد أحمد ذات مساء إلى البيت، وكان انقضى على وفاة رشدى أربعة أسابيع فوجد أمه بانتظاره، وبادرته قائلة:

- زارتنى نوال بعد عصر اليوم!

وخفق قلبه لذكر الاسم، وأمسكت يداه عن فك رباط الرقبة، وسألها مندهشا:

- ولماذا جاءت؟

فقالت الأم :

ـ قابلتنى فى ارتباك شديد، وما أن التقت عينانا حتى انتحبت باكية، وقالت لى بصوت متقطع ونبرات مختنقة : «أنا أعلم بسخطك على، بل بسخطكم على، ولكم العذر، ولكنى مظلومة، والله يا تيزة، منعونى من زيارته، وحالوا بينى وبين رؤيته، وفرضوا على رقابة شديدة، وأبوا أن يصغوا إلى توسلاتى أو يرحموا دموعى، وما كنت لأفعل هذا بنفسى أبدا، ومع ذلك لم أذعن ولم آيس حتى اضطرت أمى تحت ضغطى الشديد أن تصطحبنى معها فى غياب أبى، فجئنا معا ذاك اليوم الذى لا أنساه ولن أنساه ما امتد بى عمر. آه يا تيزة! ألقى علىَّ يومئذ نظرة واحدة، تنطق بالاحتقار والزراية فقطعت قلبى المكلوم البرىء. أدركت أنه ناقم علىّ، كاره لى، لكم تألمت، ولكم أتألم.. ولكنه سيعلم الحقيقة يوما ما، ويعلم أنى ما بغيت عليه ولا خنت عهده».

أصغى أحمد إليها بفؤاد خافق وصدر هائج جياش، ثم سألها :

ـ أتقول الحق يا ترى؟

فتفكرت المرأة قليلا ثم قالت على مهل :

ـ سمعتها تتكلم بإخلاص، ولا أدرى لماذا تحمل نفسها عناء الكذب بعد أن انتهى كل شىء، فيغلب على ظنى أنها صادقة، بيد أن مقتى تضاعف لأهلها الدون.

وخلع الرجل ملابسه متفكرا، وقد مال إلى تصديق الفتاة كأمه، وارتاح لذلك، ولكن واأسفاه قضى رشدى نحبه يائسا من حبه يأسه من الشفاء!.. فيالهما من حبيبين تعيسين الميت منهما والحى!.. وأهاجته الذكريات فاستثارت أحزانه ومضى يقول لنفسه : «اللهم غفرانك، ألم يكن الأوفق أن تختارنى وتعفو عن أخى؟.. فحياتى الخائبة لا تستحق الوجود، وحياته الناجحة كانت أهلا للدوام، اللهم غفرانك!». وأحس فى تلك اللحظة داعيا باطنيا يدعوه إلى ارتياد حجرة الفقيد المغلقة، وكانت نفسه نازعته إلى ذلك مرات ثم يعدل إشفاقا، أما هذه المرة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعى، وهزه الشوق والحزن، وما عتم أن مضى إليها والسكون شامل وقد أخلد والداه إلى النوم. ولما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن. ثم أدار الأكرة، وعبر مدخلها متثاقلا، وأضاء المصباح الكهربائى، وألقى على الحجرة المهجورة نظرة شاردة، وقد ملأت رائحة التراب أنفه، فرأى كوم من الأثاث ومكتبا تراكم عليه الغبار فأحاله، وكل شىء يدل على الوداع. رباه لماذا ولج هذه الحجرة وما جفت دموعه بعد؟!.. وأجال عينيه بها فى حزن بالغ فجذبهما درج المكتب الأوسط، فذكر أن هذا الدرج يحوى مذكرات رشدى و«ألبوم» صوره! وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بهما فى حجرته ما دام الأثاث عرضة للبيع

اليوم أو غدا، ففتح الدرج واستخرج كراسة المذكرات والألبوم، ونفخ عنهما الغبار، ثم ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرها كأنما ما جاء إلا ليأخذ الألبوم والمذكرات. ووضعهما على مكتبه، وطفق يديم النظر إليهما باهتمام وحزن. وفتح الألبوم عن أولى صحائفه، فرأى صورة كبيرة لرشدى تمثله واقفا ويداه فى جيبى بنطلونه، ما أجمله وما أنضره!.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذى كدَّر جوَّه يومين كاملين!.. فتآكلت نفسه حسرات!.. ولم يمض فى استعراض الصحائف احتراما لأسرارها، وتناول كراسة المذكرات دون أن تحدثه نفسه بالتطفل على مكنونها، بيد أنه لم يقاوم رغبة فى فر صفحاتها الأخيرة، فجرى بصره على بعض رءوس النبذ التى تكون خاتمة المذكرات.. فقرأ «حب جديد».. «طريق الجبل».. «حديث غرام».. «آمالنا» حتى مر بصره بهذا العنوان «القبلة القاتلة!». فخفق فؤاده بعنف شديد، ما معنى هذا العنوان؟!.. ألم يردده فى بعض هواجس حزنه يوما؟!.. وكان مؤرخا فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أى أول عهده بالمرض، فلم تكن ثمة قوة تستطيع أن تعدل به عن قراءته فقرأ وصدره يضطرب ويجيش بالعاطفة:

ـ الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢:

«رباه!.. أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب، فى صدره أذى للناس، أنفاسه تهدد العباد، برج متداع من الميكروبات الفتاكة، لعبت لعبة خطيرة كيلا تضيع نوال من يدى، اللقاء مبذول، ولكن حذار، نوال محرمة عليك، محال لمسها!.. قبلتها التى كانت شفاء للنفس حرام حرام، لشد ما تنكرنى وتعجب لشأنى ولعلها تسائل نفسها ما له لا ينتهز فرصة خلو الطريق كما كان يفعل؟.. هل شبع من شفتى؟.. أترى فتر حبه؟.. كلا يا حبيبتى لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبه، ولكنه يخاف عليك، ويصون فاك من الهلاك المبين، ليس الذنب ذنبى، فقلبى كعهدك به ولكن دونه صدرا عشش فيه عدو شرير أخافه عليك وأعيذك منه».

أغلق أحمد الكراسة، وجعل يذرع الحجرة وكأنه يترنح من شدة الصدمة، ثم ارتمى على الفراش وهو يصك جبينه براحته ويهتف: «رباه!.. لكم ظلمته.. ولكم اتهمته بالباطل!»، وأحس كما لو أن منشارا ينشر قلبه فأنَّ أنينا موجعا.

٥٠

وتصرمت الأيام الباقية من يونيو، وجاء يوليو بقيظه الفائر.

وظلت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الثاكل، ولم تفتر همة أحمد عاكف فى

التنقيب عن مسكن جديد، رحمة بوالدته، ولأنه هو أيضا، ضاق بالحى صدرا. وقد خلفت الصدمة فى أعصابه الرقيقة آثارا عميقة، فعاوده بعض أرقه القديم، وتلبسته حال من القلق النفسى بات معها سريع الانفعال. سريع التأثر. كثير المخاوف مستسلما للحزن. وألقت فى صدره الجيَّاش أحزان الماضى والحاضر، وتوجس خيفة مما يخبئه المستقبل ومما عسى أن يلده من الأحزان والآلام، وقال لنفسه، وهو يذكر والديه: إن سعادتنا بأحبائنا اليوم مرتهنة بالدموع التى نسكبها على فراقهم غدا، وطفق يردد بيت أبى العلاء:

ومن لم تبيِّته الخطوب فإنه سيصبحه من حادث الدهر صابح

فلم تكن أعصابه مما يعين على تحمُّل غيَر الدهر وآلام الحياة، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم، ولذلك صدقت رغبته فى هَجر الحى وفى ذلك الوقت كثر إطلاق صفارات الإنذار ليلا ونهارا ولكن لم تضرب المدينة كما حدث فى سبتمبر، ثم تحرجت الحالة الحربية بتوالى تقدم قوات المحور، فعبرت الحدود المصرية، وتوغلت فيها، حتى جاوزت مرسى مطروح التى كانت تعد أهم خط دفاعى عن مصر، ثم استولت على فوكة والضبعة، وبلغ التحرج منتهاه بتقدم القوات المعادية إلى العلمين! . . تخايلت الإسكندرية لأعين الغزاة وتهامس الناس بأن الضرورات الحربية تنذر بتحويل الوطن إلى خرائب تنعق فيها البوم، ومستنقعات يرعاها البعوض.

وفى مساء اليوم الذى بلغت فيه قوات المحور العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم، فتلاقوا بالبشر والسرور، وملأوا الجو برنين ضحكاتهم، لم يفكر أحد منهم فى الهجرة أو فى تخزين بعض المواد الغذائية، ولا شغل أحد نفسه بتقدير الحالة التى تنشأ عن الغزو والحرب فى المدن، أو كانوا يتمثلون هذه الحالة مازحين ضاحكين كأن الأمر لا يعنيهم، ولسان حالهم يقول: «الأمر لله وليحدث لنا ما يحدث للناس جميعا!». ولم يختلف أحمد عاكف عنهم فى شىء، بيد أنه وجد فى الاجتماع بهم - ذلك اليوم - لذة مضاعفة، كأنه وجد فى مجتمعهم الصغير ملاذا من القلق العام الذى أخذ يساور النفوس، لم يخل قلبه من خوف وقلق ولم يخل من سرور، كان يفكر فيما يحتمل أن يحدث فينقبض صدره، ثم تتمثل له تلك الحالة التى يختلط فيها الحابل بالنابل وتَّمحى التبعات وتنهار القيم فيجد فى أعماقه شعورا بلذة خفية تعكسها أعصابه المتوترة، كأن ذلك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد أحزانه وآلامه، وسيمحو فيما يمحو من آثار الماضى آثار ماضيه.

قال سيد عارف بلهجة المتثبت مما يقول:

- اسمعوا آخر الأخبار. . قسم روميل جيشه جناحين، وجَّه الأول نحو الإسكندرية وهبط بالثانى صوب الفيوم.

وقال أحمد راشد :

ـ سمعت أن الإسكندرية تضرب بالقنابل من الجو ومن البر حتى هجرها أهلوها إلى دمنهور .

ـ هل انتهى الإنجليز حقا؟

ـ إنهم يحرقون أوراقهم ويرحلون نساءهم!

ـ متى يبلغ الألمان القاهرة؟

ـ غدا أو بعد غد .

ـ إلا إذا ساروا بجيشهم المظفر شرقا إلى السويس .

ـ سمعت من ثقة أن جنود الباراشوت يهبطون جماعات فى الحقول .

وتساءل المعلم نونو :

ـ ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جندى من أولئك الجنود وأمره أن يدله على موقع حربى؟!

فأجابه سيد عارف فورا :

ـ أمضى به إلى شقة سليمان بك عتة وأقول له : «هاك السفير البريطانى»!

فهتف به سليمان بك محنقا :

ـ أولى بك أن تستوهبه بعض الأقراص لمرضك!

وقال المعلم زفتة :

ـ أما أنا فأسوقه إلى شقة عباس شفة وأريه أضخم «طابية» فى مصر .

فقال أحمد عاكف داهشا :

ـ أليس لهذا المزاح من نهاية؟! . ألا تعلمون بأننا مهددون بهجر ديارنا وربما قذفوا بنا إلى بعض القرى القذرة!

فصاح نونو :

ـ ما أحلاها عيشة الفلاح!

فسأل أحمد راشد :

ـ ألا تخافون الموت؟!

فقال المعلم زفتة :

ـ أعطنى عمرا وارمنى على رومل!

وقال المعلم نونو باهتمام مصطنع :

ـ الحق فيما قال أحمد أفندى ، الألمان شياطين ، وهم إذا هجموا على بلد انتشروا فى كل مكان ، وتخفوا فى كل زى ، فلا يبعد أن نرى غدا ألمانا معممين أو فى ملاءات لف . . والله إنى أخاف أن أفتح الصنبور لأتوضأ فيخرج لى مع الماء غواص ألمانى .

وبغتة أطلقت صفارات الإنذار ! !

كانت الساعة السابعة مساء ، فهبوا جميعا قائمين واختفت البسمات من وجوههم ، وهرعوا إلى طريق المخبأ . وخاف كثيرون أن تحدث غارة عنيفة مدمرة كالتى تسبق الهجوم ، وذكروا الإسكندرية والسويس وبورسعيد ، بل ذكروا وارسو وروتردام؟ . . وبعد دقائق قلائل عج المخبأ باللاجئين . وجلس أحمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق وخوف ، وكأن الأم قد كبر عليها ذاك الحرص على الحياة منها فدمعت عيناها . ومر ثلث ساعة فى ذعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينه ، ثم انطلقت صفارة الأمان ! . . ودهش الناس ، ثم لاح فى أعينهم السرور والارتياح ، وهتف بعضهم : «استكشاف . . استكشاف !» . وهتف آخرون : «اقتربت الطيارة من حدود منطقة القاهرة ثم عادت وغيرت اتجاهها !» . وتحرك التيار صوب باب المخبأ ، وخرج مع الخارجين ، وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ رأى نوال متأبطة ذراع شقيقها الصغير محمد ! . والاثنان يضحكان ويوسعان الخطى نحو العمارة ! . . خفق قلبه لمرآهما كما تعود أن يخفق لمرآها أو لذكراها ، وظل هنيهة يتبعها مقلتيه حتى غيبها المنعطف ، ثم انقبض صدره ورانت عليه كآبة ، وأحنقه ضحكها وأغضبه فكأنه فاجأها متلبسة بجريمة نكراء ! . . وبلغ منه التأثر مبلغا لم يستطع معه العودة إلى القهوة قبل أن يروح عن نفسه قليلا بالمشى ، فمضى إلى شارع الأزهر على مهل ، وأخذت نفسه تسكن وتهدأ ، حتى عاودته حالته العادية بأسرع مما كان ينتظر ، بل أنحى على نفسه باللائمة لغضبه ، وأنكره . ما الذى أوجب غضبه؟ ! . . ماذا أثار ثائرته؟ ! . . أوَضحكها؟ ! . . يا عجبا ! . . هل حسب أنها تظل باكية إلى الأبد؟ ! . . ألم يضحك هو مرات سواء فى الوزارة أم فى القهوة؟ ! . . ألم يجر الابتسام على شفتى أمه نفسها فى بعض الأحيان؟ ! . . فلماذا لا تضحك نوال؟ . . وماذا يُغضب من ضحكها؟ ! . . حقا إنه النسيان ، ذاك الدواء المر الذى يعقب العزاء ويستوجب الحسرة ، العزاء عن آلامنا والحسرة على أنفسنا . نقول نسينا والحمد لله وهى سنة الحياة ! . . وتنهد من الأعماق . ثم خطر له خاطر ليس بالجديد عليه ، ولكنه كان يروغ منه ، يشفق من مواجهته ، بيد أنه قال لنفسه هذه المرة : «حتام أهرب وأتجاهل؟ ! . . ألا يخلق بى أن أواجه الحقيقة وأنعم النظر ! . . أما زلت أحب نوال؟ . . لماذا يخفق فؤادى لمرآها ولذكراها؟» .

وتفكر مليا ـ وهو آخذ فى مشيه المتمهل ـ ثم حدَّث نفسه مرة أخرى وقد تورد وجهه الشاحب خجلا كأنما اطلع على سره الناس جميعا: «حب، فوقه غضب، فوقه حزن، فوقه ذكرى مروعة. فلكى أخلص إلى هذا الحب ينبغى أن أدوس كرامتى وذكرى أخى وهو المحال.. بينى وبين الحب أخى وكبريائى، والحياة أهون من أن أمتهن فى سبيلها هذين العزيزين!». كل هذا حق فهو يحب نوال، ولم يزايله حبها أبدا وإن حجبته الآلام كثيرا، ولكن محال أن يعترف لهذا الحب بغاية، فدون ذلك ما هو أقوى من الحب نفسه، ولكن حتام يمكث على كثب من النار وهو محموم؟!

٥١

وفى أواخر أغسطس اهتدى أحمد عاكف إلى شقة خالية بضاحية الزيتون، فى بيت يملكه موظف بإدارة الحسابات بالأشغال ممن كانوا يعلمون برغبته الملحَّة فى الانتقال، وكان يسكنها موظف اضطر إلى فسخ عقدها لنقله إلى إحدى البلدان، فدعا صاحب البيت أحمد وحدَّثه بشأنها وتم الاتفاق بينهما سريعا على أن يتم الانتقال فى أول سبتمبر موعد إخلائها. وسرَّت الأسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلى وذكرياته السود، على رغم أنها ترحل عنه مهيضة الجناح، وقد ألمَّ بالأب ضغط دم نغَّص عليه عزلته، ونال الحزن من الأم فأصابها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكبَر، بيد أن أحمد ـ على حزنه ـ رأى فى الأفق نجوما تخفق. تحدثوا فى تلك الأيام عن إنصاف المنسيين من الموظفين، وباتت الدرجة السابعة قريبة المنال، وكان دائما يستهين بالوظيفة والموظفين، ولكنه سر فى باطنه بالترقية المنتظرة، وسره أيضا أنه سيصير رئيسا على أربعة غير ساعى بريد الوارد، ونوى صادقا أن يجعل من عهد «رئاسته» فتحا جديدا فى حياة الإدارة الحكومية يضرب فيها المثل الأعلى للرئيس «العالم الحكيم»!، ثم من يدرى بعد ذلك بما يخبئه الغيب؟.. فأمامه فى الحكومة خدمة طويلَة تناهز العشرين عاما، وعسى أن يرقى درجات أخرى؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيرا!.. وليس هذا كل شىء، فقد حدث أن اصطحب أمه إلى المسكن الجديد ليعايناه، وهنالك دعاهما صاحب البيت إلى شقته فاحتسى معه القهوة فى حجرة الاستقبال، ودعيت والدته إلى حريم الرجل، وعند عودتهما معا أثنت أمه على زوج صاحبه وشقيقته، وقالت عن الأخيرة: إنها «أرملة فى الخامسة والثلاثين على أدب وجمال». ونشط خياله!.. أرملة فى الخامسة والثلاثين، على أدب وجمال يحويهما بيت واحد، وهو أعزب فى الأربعين، وزميل شقيقها، ولا فارق فى السن من ناحيته ينفر، ولا شباب غض من ناحيتها تتيه به عليه.

والظاهر أن الحياة لا تريح من الأمل ، هل يعلم الغيب كله إلا الله؟ . . بيد أن هذه الأحلام لا تتفق ورباط رقبته الأسود! . . رباه! . . ما لأحلامه تحلِّق فى غير حياء؟ . . ولا يبعد فى تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر إلى أحمد راشد مثلا . وهكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوى على شىء كأنها لم تفقد بالأمس القريب من كان يحل منها بالمكان المرموق . حياة صماء قاسية كالتراب ، ولكنها تنبت الأمل كما ينبت التراب الزهرة اليانعة . حزن أحمد حزنا شديدا ، ولكن لم يكن من الأمل مفر .

وأخذوا للرحيل أهبتهم ، فلفَّت الأبسطة ، وفكَّت الدواليب والأسرَّة ، وجمعت الأوانى والكتب وقطع الأثاث ، واعتزم السير غدا .

وعند عصر ذلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة ، وكان أحمد لا يزال فى حجرته ، وجاء فيمن جاء منهن الست توحيدة ونوال ، وجلسن جميعا فى الصالة الخارجية لأنها المكان الوحيد فى البيت الذى كان صالحا للجلوس وقتذاك . ولبثت الست توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات . وجاء موعد ذهاب أحمد إلى القهوة ليودع صحابه ، فلم يجد بدًا من المرور أمام الزائرتين ، ولكن السيدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدت له يدها وهى تقول :

ـ كيف أنت يا أحمد افندى؟

فسلم عليها فى ارتباكه المعهود وهو يقول بصوت خفيض :

ـ الحمد لله يا سيدتى ، شكرا لك .

ونهضت نوال لنهوض أمها ، فتحول إليها مادا يده كذلك ، والتقت يداهما لأول مرة ، فسرت فى بدنه رعشة ، فلم ينبس بكلمة ، ولم يرفع عينيه .

وقالت السيدة :

ـ ما زلت أعتذر لوالدتك عن سلوكنا ، ولعلك تقيم لنا العذر يا أحمد افندى ، ووالله لقد كان المرحوم عزيزا علينا أثيرا لدينا وربنا يعلم .

فقال الرجل المرتبك المضطرب :

ـ كلنا نقيم لكم العذر ، وللضرورة أحكام يا سيدتى .

ودارت المرأة بلباقة حول الموضوع ، وشكرت أحمد لأدبه وحسن تقديره للأمور . ثم استأذن الرجل فى الانصراف وسلم على السيدة ومد يده لنوال مرة أخرى ، وفى هذه المرة ، واليدان مجتمعتان ، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين ، ثم اتجه نحو الباب . كانت أول مرة تلتقى العينان عن قرب ، ولم يكن نظر فيهما منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الأمل الأول ، فخال أنه طالع فيهما ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلع ، فدق قلبه وهو يحث خطاه وطرفت عيناه فى هياج عصبى . ربما كان موقف الوداع هو

المسئول وحده عن كل ذلك، فالوداع يستثير حتى عطف أولئك الذين لا يعطفون فى غيره من المواقف، وهكذا اعتذر لضميره، بسيكلوجية الوداع هذه. عن انفعاله وتأثره وخطفه النظرة، خاصة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدى ولاحت لعينيه صورته المحبوبة وكأنها تبتسم إليه فى عتاب، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثرة: «معذرة يا رشدى، إنه الوداع وأنت أعلم بالوداع، وإنه الألم وأنت أخبر بالألم، ولن تجد منى بعد الآن ما يستحق عتابك». وبلغ قهوة الزهرة، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة أخرى، واستقبله الصحاب استقبالا حافلا يليق باللقاء الأخير، وأمسكوا عما كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز، وقال له المعلم نونو متسائلا:

- أتنسانا يا ترى؟!

فقال أحمد وهو لا يدرى إن كان يصدق فى قوله أو يكذب:

- معاذ الله يا معلم!

وقال المعلم زفتة:

- ولكن الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها إلا بالقطار!

فقال أحمد مبتسما:

- ما كان لقطار أن يمنع صاحبا عن صحبه!

ثم قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يذكر أمرا هاما:

- أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلى. مضى زمن كنت أسافر إليها مرة على الأقل فى كل أسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش.

فابتسم أحمد متسائلا:

- فهل أرجو أن أراك كثيرا؟

فقال عباس شفة بلهجة دلت على الأسف الشديد:

- تلك أيام خلت؛ لقد زجوا بالتاجر فى السجن ومات فيه.

وأعربوا جميعا عن أسفهم لفراقه، وأثنوا على أسرته أجمل الثناء، وترحموا على فقيدها، حتى سليمان عتة نفسه قال كلمة طيبة. وفاض قلب أحمد بمودتهم فى تلك الساعة، سواء من يحبه منهم كالمعلم نونو أم من يمقته كالأستاذ أحمد راشد، وعجب لقلبه الذى يأسف عن ترك أى شىء - وإن طال برمه به - ساعة الوداع. ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم، وذكروا توقف الهجوم الألمانى عند العلمين.

وكان من رأى أحمد راشد أن المحور خسر موقعة مصر، أما سيد عارف فقال بلهجة اليقين: إن هتلر أمر رومل بالتوقف ليجنب مصر - قلب الإسلام النابض - ويلات الغزو،

وإنه لولا رحمة الفوهرر لكان الألمان فى القاهرة منذ شهر . ولبث بينهم مستمتعا بسمرهم ومزاحهم حتى انتصفت العاشرة فودعهم الوداع الأخير ، وسلم عليهم واحدا واحدا ، وتقبل تحياتهم شاكرا . ثم قفل إلى البيت .

وفتح النافذة وأطل على الحى . كان البدر ـ بدر نصف شعبان ـ يتألق نوره السَّنى فى سماء أغسطس الصافية ، والنجوم من حوله تزهر باسمات فى إشفاق كأنما يرثى لإدلاله بشبابه الذى علمت منذ الأزل أنه لا يدوم . وقد اكتسى الحى بغلالة فضية بددت وحشة الليل ، وأضفت على الأركان والممرات سحرا .

الليلة نصف شعبان ، ودعاء شعبان يتصاعد من النوافذ القريبة ، وذاك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع : «اللهم يا ذا المنِّ ولا يُمَنُّ عليه يا ذا الجلال والإكرام» ، والأسرة تردد الدعاء وراءه . بينهم صامت وحده! وتساءل عما عسى أن يتوجه به من دعاء إلى ربه؟ . . وتفكر مليا ، ثم رفع رأسه إلى البدر المنير ، وبسط راحتيه ، وغمغم بخشوع : «اللهم يا خالق الخلق ، ومدبِّر كل شىء ، تغمَّده برحمتك الواسعة ، وأسكنه فسيح جناتك ، وألهم والديه الحزينين الصبر والسلوان ، وأنزل على قلبى السكينة والسلام ، واكتب لى فيما يستقبل من الأيام عزاء عما سلف (وهنا وضع يده على قلبه) . فلشد ما تحمل هذا القلب من ألم ، ولشد ما تجرع من خيبة!» .

هل يذكر يوم أقبل على هذا الحى وفى النفس شوق إلى التغيير؟ . . لقد حدث التغيير وأحدث دمعا وحسرة ، وها هو ذا رمضان مقبل فيا للذكرى! . . أيذكر كيف استقبل رمضان الماضى؟ . . أيذكر موقفه من النافذة الأخرى فى انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر فرأى؟!

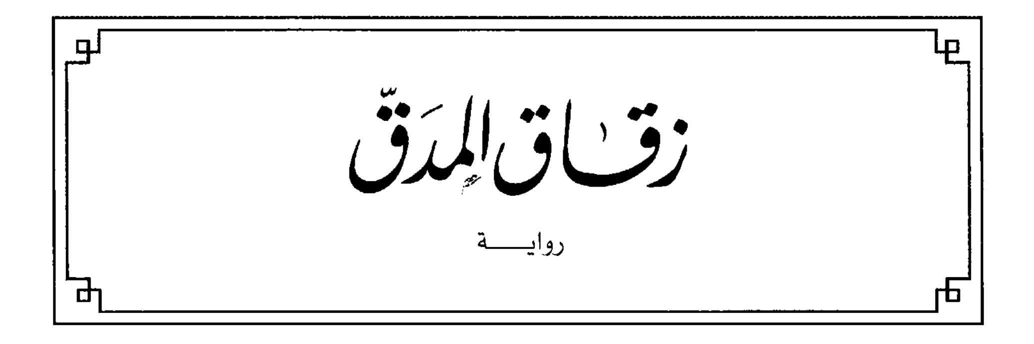
وجرى أمام ناظريه التاريخ الذى كتبته الليالى متتابعات حتى هذه الليلة بمداد الأمل والحب والألم والحزن .

وهذه الليلة الأخيرة . وغدا يبيت فى دار جديدة ، فى حى جديد ، موليا الماضى ظهره .

الماضى بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء .

فالوداع يا خان الخليلى .





١

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوما فى تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى. أى قاهرة أعنى؟ . . الفاطمية؟ . . المماليك؟ السلاطين؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار، ولكنه على أية حال أثر، وأثر نفيس. كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية، تلك العطفة التاريخية، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هذا إلى قدم باد، وتهدم وتخلخل، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد. . !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحتفظ ـ إلى ذلك ـ بقدر من أسرار العالم المنطوى.

* * *

آذنت الشمس بالمغيب، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة، ثم ينتهى سريعا ـ كما انتهى مجده الغابر ـ ببيتين متلاصقين، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة.

سكنت حياة النهار، وسرى دبيب حياة المساء، همسة هنا وهمهمة هناك: يارب يا معين، يارزاق يا كريم. حسن الختام يارب. كل شىء بأمره. مساء الخير يا جماعة. . تفضلوا جاء وقت السمر. اصح يا عم كامل وأغلق الدكان. غير يا سنقر ماء الجوز. أطفئ الفرن يا جعدة. الفص كبس على قلبى. إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا.

بيد أن دكانين ـ دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على

يساره ـ يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيا على عتبة دكانه ـ أو حقه على الأصح ـ يغط فى نومه والمذبة فى حجره ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين ، وتتدلى خلفه عجيزة كالقبة ، مركزها على الكرسى ومحيطها فى الهواء ، ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، لا ترى له رقبة ، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته . فلا تكاد ترى فى صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطا عدوا ، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرات ستموت بغتة ، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل ؟ !

أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد فى الزقاق أنيقا ، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، بيضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات !

لبث هذان الشخصان فى دكانيهما فى حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها ، وكان آخر من غادرها السيد سليم علوان ، يرفل فى جبته وقفطانه ، فاتجه صوب الحانطور الذى ينتظره على باب الزقاق ، وصعد إليه فى وقار ، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان . ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة ، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد إلى الغورية فى طريقها إلى الحلمية ، وأغلق البيتان فى الصدر نوافذهما اتقاء البرد ، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها ، وكاد المدق يغرق فى الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية ، عشش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار . هى حجرة مربعة الشكل ، فى حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها . وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها ، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاى . وعلى كثب من المدخل تربع على الأريكة رجل فى الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه فى دنيا وحده . ثم أقبل على القهوة عجوز

مهدم، لم يترك له الدهر عضواً سالمًا، يجره غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا. فسلم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى فى صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثم صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينهما الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهيىء نفسه، وهو يتفرس فى وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره فى نفوسهم، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبى القهوة سنقر فى انتظار وقلق، ولما طال انتظاره. ولمس تجاهل الغلام له، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ:

ـ القهوة يا سنقر. . !

والتفت الغلام نحوه قليلا، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن ينبس، بكلمة، ضاربا عن طلبه صفحا. وأدرك العجوز إهمال الغلام له، ولم يكن يتوقع غير ذلك. ولكن جاءت نجدة من السماء، إذ دخل فى تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبى، فقال للغلام بلهجة الآمر:

ـ هات قهوة الشاعر يا ولد. .

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان، وقال بلهجة لم تخل من أسى:

ـ شكرا الله يا دكتور بوشى. .

فسلم الدكتور عليه، وجلس قريبا منه. وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وقبقابا! هو دكتور أسنان، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطب أو أية مدرسة أخرى. اشتغل فى بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان فى الجمالية، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج. وربما كان خلع الضرس فى عيادته المتنقلة أليما موجعا، إلا أنه رخيص، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعا)، فإذا حدث نزيف ـ وليس هذا بالأمر النادر ـ اعتبر عادة من عند الله؛ وترك منعه أيضا لله!. وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة. وهو يدعى فى الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه.

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه، ثم نحاه جانبا. وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبى القهوة معه، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطا:

ـ قليل الأدب. .

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها، متحاميا نظرات الغضب التى أطلقها عليه سنقر،

وراح يعزف مطلعا، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة، ثم تنحنح وبصق وبسمل، ثم صاح بصوته الغليظ:

أول ما نبتدى اليوم نصلى على النبى.

نبى عربى صفوة ولد عدنان.

يقول أبو سعدة الزناتى..

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول:

ـ هس!.. ولا كلمة أخرى.

فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشه، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجما. وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه. وأراد أن يتجاهل شره، فاستدرك منشدا:

يقول أبو سعدة الزناتى..

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا:

ـ بالقوة تنشد؟!.. انتهى.. انتهى! ألم أنذرك من أسبوع مضى؟!

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر، وقال بلهجة ملؤها العتاب:

ـ أراك تكثر من «الكيف»، ثم لا تجد من ضحية سواى!

فصاح المعلم فى غضب وحنق:

ـ رأسى صاح يا مخرف؛ وأنا أعلم ما أريد أتحسب أنى آذن لك بالإنشاد فى قهوتى إذا ما سلقتنى بلسانك القذر؟!

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب، وراح يقول:

ـ هذه قهوتى أيضا، ألست شاعرها لعشرين عاما خلون؟!

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات:

ـ عرفنا القصص جميعا وحفظناها، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد، والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر، وطالما طالبونى بالراديو، وها هو ذا الراديو يركب، فدعنا ورزقك على الله.

فاكفهر وجه الشاعر، وذكر محسورا أن قهوة «كرشة» آخر ما تبقى له من القهوات، أو من أسباب الرزق فى دنياه، بعد جاه عريض قديم. وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة. عمر طويل ورزق منقطع، فماذا يفعل بحياته؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد؟! وماذا يخبئ له المستقبل وماذا يضمر لغلامه؟! اشتد به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح فى وجه المعلم من الجزع والإصرار، فقال:

ـ رويدك يا معلم كرشة، إن للهلالى لجدة لا تزول، ولا يغنى عنها الراديو أبدا. .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

ـ هذا قولك، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى. لقد تغير كل شىء!

فقال الشاعر فى قنوط :

ـ ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبى عليه الصلاة والسلام؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المركات بقوة وصاح به :

ـ قلت لقد تغير كل شىء!

وتحرك عند ذلك ـ لأول مرة ـ الرجل الجامد الذاهل ـ ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية فصعد بصره إلى سقف القهوة، وتنهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كالمناجاة :

ـ آه تغير كل شىء. أجل كل شىء يا ستى! كل شىء تغير إلا قلبى فهو يحب آل البيت عامر. .

وطامن رأسه ببطء، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار، فى حركات أخذت فى الضيق رويدا رويدا حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود، وغرق مرة أخرى فى غيبوبة. ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله، إلا الشاعر فقد توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :

ـ يا شيخ درويش أيرضيك هذا؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة، وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار فى إجلال ومودة، وردوا تحيته بأحسن منها. كان السيد رضوان الحسينى ذا طلعة مهيبة، تمتد طولا وعرضا، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيمانا، سار متململا خافض الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة تشى بحبه للناس وللدنيا جميعا، واختار مجلسه على المقعد التالى لأريكة الشاعر. وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه. ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه، وكان حاول مرارا أن يثنى المعلم «كرشة» عما اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى. ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه، ثم غمر كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه «كلنا أبناء آدم، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك، والرزق رزق الله والفضل فضله». وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقا، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه، ويزداد بصنعه رضا وجمالا. كان يحرص دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملوما

محسورا. وإنه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع، وإن كان فى الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج. وقد وجد فيه سكان بيته - المعلم كرشة فى الطابق الثالث، وعم كامل والحلو فى الطابق الأول - مالكا طيب القلب والمعاملة، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم. وقد كانت حياته - وخاصة فى مدارجها الأولى - مرتعا للخيبة والألم، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالمية، وابتلى - إلى ذلك - بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال، ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلا فى ظلمة غاشية. ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هما. انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا، وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعا، وكان كلما نكد الزمان عنتا ازداد صبرا وحبا، رآه الناس يوما يشيع ابنا من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزين، لكنه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كل شىء بأمره وكل شىء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذلك قال عنه الدكتور بوشى: «إذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء. وإذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء، أو محزونا فاستمع إليه يبادرك الهناء». وكان وجهه صورة من نفسه، فهو الجمال الجليل فى أبهى صوره.

أما الشاعر فقد رضى بعض الرضا، ووجد شيئا من العزاء، وتزحزح تاركا الأريكة، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب. وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشة، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذياع الذى كاد العامل يفرغ من تثبيته، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج، وغابا عن الأنظار. ودبت الحياة مرة أخرى فى الشيخ درويش، فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان، وتأوه قائلا:

- ذهب الشاعر وجاء المذياع. هذه سنة الله فى خلقه. وقديما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجيتها.. (H i s t o r y).

وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا دكانيهما. ظهر الحلو أولا، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصفرة، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا. وسلما على الحاضرين، وجلسا

جنبا لجنب، وطلبا الشاى، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملآه ثرثرة. وقال عباس الحلو:

- يا قوم اسمعوا: شكا إلى صديقى عم كامل قال إنه عرضة للموت فى أية لحظة، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به..

فقال بعض الحاضرين متهكما:

- أمة محمد بخير.

وقال البعض الآخر:

- إن له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها.

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا:

- لا تفتأ تذكر الموت. وتالله لتدفننا جميعا بيديك..

فقال عم كامل بصوت برىء كالأطفال:

- اتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين..

واستطرد عباس الحلو قائلا:

- يا قوم: عزت على شكاة عم كامل، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور. فابتعت له كفنا احتياطيا، واحتفظ به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها، (والتفت إلى عم كامل قائلا) هذا سر أخفيته عنك، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا على شهودا.

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم، متصنعين الجد، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه، وقالوا: إن هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه. حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضيا، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلا:

- أحق ما تقول يا عباس؟!

فقال الدكتور بوشى:

- لا يداخلك الشك يا عم كامل. لقد علمت بما يقول صاحبك، ورأيت الكفن بعينى رأسى، وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله..

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال:

- حظ سعيد. الكفن سترة الآخرة. يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك. ستكون طعاما مريئا للدود، فيرعى فى لحمك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة. ومعناها بالإنجليزى (Frog) وتهجيتها (f r o g).

وصدق عم كامل، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه، ثم دعا له طويلا، وانبسط وحمد الله. وارتفع عند ذاك صوت فتى آتيا من الطريق يقول:

- مساء الخير..

واتجه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسينى. كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة. فتى فى العشرين فى مثل لون أبيه الضارب إلى السواد، ولكنه ممشوق القوام، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط، كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانى. وكان ذاك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمونه، فرمقه الكثيرون بعين الاعجاب والحسد، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله.

* * *

ساد الظلام الزقاق إلا ما يبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة. ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدا فى إثر واحد. وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومى، إلا الشيخ درويش فقد أغرق فى ذهوله، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح فى سبات. وظل سنقر على نشاطه، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق، والمعلم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة. وتقدمت جحافل الليل، فغادر السيد رضوان الحسينى القهوة إلى بيته. وتبعه بعد قليل الدكتور بوشى إلى شقته فى الدور الأول من البيت الثانى. ثم لحق بهما الحلو وعم كامل. وأخذت المقاعد تخلو تباعا، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة: المعلم والصبى والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم «كرشة». وصعدوا جميعا إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان، وتحلقوا المجمرة، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة:

انتصف الليل يا شيخ درويش..

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملا، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب فى الظلمة.

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرس لغة إنجليزية! . . وقد عرف بالاجتهاد والنشاط، وأسعفه الحظ أيضا فكان رب أسرة سعيدة. ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية، فاستحال كاتبا بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعدل مرتبه على هذا الأساس، كان من الطبيعى أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حينا، ويكتمها ـ مقسورا مغلوبا على أمره ـ أحيانا. ولقد سعى كل مسعى، وقدم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة العيال، دون جدوى. ثم سلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره فى الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثر، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدى للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف ـ وكثيرا ما يحدث ـ تعالى استكبارا، وخاطب خصمه بالإنجليزية، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب، صاح به فى ازدراء شديد «تعلم أولا ثم خاطبنى!». وكانت أنباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فأول وكانوا يتسامحون معه، عطفا عليه من ناحية، وتحاميا لشره من ناحية أخرى، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخصم يوم أو يومين، ولكنه إزداد بكرور الأيام صلفا، حتى تراءى له يوما أن يحرر خطاباته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل. وكان يقول فى تسويغ ذلك أنه موظف فنى لا كغيره من الكتاب. وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولكن المقدر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندى ـ كما كان وقتذاك ـ حجرة الوكيل فى تؤدة ووقار، وحياه تحية الند للند، وبادره قائلا بثقة ويقين:

ـ يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رجله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد، فاستدرك قائلا بوقار وجلال:

ـ أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هكذا ختمت حياته بالأوقاف. وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التى كان واحدا منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها، ولم يستبق من آثار الماضى جميعا إلا نظارته الذهبية. ومضى فى عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى. ودلت حياته على أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا فى هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثم لا يجدون هما ولا كربا ولا حاجة. ولا جاع يوما ولا تعرى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها.

وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعا صارت بيتا له، وإذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والاصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا. يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه ـ على ذهوله ـ إذا غاب عن القهوة يوما. ومع ذلك فلم يكن يأتى شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب. فهو إما ذاهل صامت، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى أنى يكون موقعه من النفوس. بيد أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية.

٢

نظرت إلى المرآة بعين غير ناقدة، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا، فعكست المرآة وجها نحيلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة، وأصابعها تنسق ضفيرتها، مغمغمة بصوت لا يكاد يسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما، والدنيا لا تدع وجها سالما نصف قرن من الزمان. أما جسمها فنحيل، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق، وأما الصدر فأمسح، بيد أن فستانا حسنا يستره. هذه هى الست سنية عفيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول، وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حميدة. ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل الأجرة، إلا أن باعثا جديدا دب فى أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة. وهكذا غادرت شقتها، ونزلت السلالم، متمتمة برجاء «اللهم حقق الآمال»، ودقت بكفها المعروقة ففتحت لها حميدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة، وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثم ذهبت تدعو أمها. كانت الحجرة صغيرة، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين، وفى الوسط خوان باهت عليه نافضة سجاير، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت، فسلمتا بشوق، وتبادلتا قبلتين، وجلستا جنبا لجنب، وأم حميدة تقول:

ـ أهلاً. أهلاً. زارنا النبى يا ست سنية.

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة فى الستين، ولكنها معافاة قوية، جاحظة العينين،

مجدورة الخدين، ذات صوت غليظ قوى النبرات، فإذا تحدثت فكأنها تزعق، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال، ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد ينذر بالخطر. ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها - خاطبة وبلانة - عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحى أو بيت من بيوته، فهى مؤرخة راوية لأخبار السوء - على الغالب - ومعجم للمنكرات. وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضيفة، وتطنب فى الثناء عليها، وتروى لها نتفا من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة: أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة؟.. هى كسابقاتها، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته. وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه. والسيد رضوان الحسينى الطيب الورع زجر زوجه زجرا شديدا، لماذا يعاملها هذه المعاملة - وهو الرجل الطيب - إن لم تكن شريرة خبيثة!.. الدكتور البوشى احتك بفتاة صغيرة فى المخبأ فى آخر غارة وضربه رجل محترم. كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ أبوها القسم. طابونة الكفراوى تبيع عيشا مخلوط سرا، إلخ إلخ.

أصغت الست سنية عفيفى بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من أجله. وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كلفها الأمر. بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تتهيأ لها فرصة مواتية. وقد تهيأت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة:

- وكيف الحال يا ست سنية؟

فعبست قليلا وقالت:

- الحق أنى تعبة يا ست أم حميدة.

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

- تعبة؟!.. كفى الله الشر!

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة - وكانت دخلت الحجرة فى هذه اللحظة - صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت، ثم قالت بامتعاض:

- تعبة يا ست أم حميدة. أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين؟.. تصورى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة.

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة:

- صدقت يا ستى.. كان الله فى عونك.

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت: لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى؟.. وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات!.. بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر. وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها، وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى، فصممت أن تسير الزائرة من وراء، فقالت بخبث:

- هذه إحدى شرور الوحدة. أنت امرأة وحيدة يا ست سنية. فى البيت وحدك، وفى الطريق وحدك، وفى «الفراش» وحدك، ألا قطعت الوحدة.. وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبى خواطرها، وقالت وهى تخفى سرورها به:

- وما عسى أن أصنع؟.. أقاربى ذوو أسر، وأنا لا ارتاح إلا فى بيتى. والحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعا.

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر، فقالت فاتحة آخر الأبواب:

- الحمد لله ألف مرة، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل..؟!

فخفق فؤاد الست سنية، ووجدت نفسها وجها لوجه حيال ما تريد، ولكنها تنهدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف:

- حسبى ما ذقت من مرارة الزواج..!

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائح عطرية، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق، فأساء الرجل معاملتها، وأشقى حياتها، ونهب مالها، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام. ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنها - على حد قولها - كرهت حياتها الزوجية.

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها، فقد كرهت الحياة الزوجية حقا، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهدا طويلا، ثم أنسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب. وجعلت تراود الأمل حينا بعد حين، حتى طال به الأمد، فغلبها القنوط، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى. ولما كان من الضرورى أن يوجد فى حياة الإنسان شىء تنعقد حوله آماله، شىء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو سخيفة، فقد وجدت ضالتها كذلك. ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة. وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد

ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به . وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة فى صندوق عاجى صغير أخفته فى أعماق صوان ملابسها ، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر ، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها . ولما كانت الأوراق خرسا لا كالنقود المعدنية فقد أمنت الأخطار ، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم . وجدت فى حياتها المالية عزاء . وانتحلت منها اعتذارا لعزوبتها ، وقالت لنفسها إن أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم ، وبأن يضيع عليها فى غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال ، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعذار والمخاوف جميعا . وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب ، سواء عن قصد أو عن غير قصد ، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز ، ففكرت فى الأمر على أنه ممكن التحقيق ، وسرعان ما استولى على إرادتها ، فتدافعت إلى طاعته لا تلوى على شىء . ظنت يوما أنها نسيت الزواج . فإذا بالزواج أملها المنشود الذى لا يغنى عنه شىء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة . وجعلت تتساءل فى جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟ . . كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة؟! . . وقالت إن هذا هو الجنون ، وحملت زوجها المرحوم تبعته ، وصممت على أن تكفر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن .

وأصغت الخاطبة إلى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها : «لا يجوز على مكرك يا مرة» . ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم :

- لا تغالى يا ست سنية . إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب .

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة :

- لا ينبغى لعاقل أن يعاند الحظ إذا تجهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

- ما هذا الكلام يا ست العاقلات! . . كفاك وحدة كفاك .

فدقت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع :

- يا خبر . أتريدين الناس على أن يرمونى بالجنون؟!

- أى أناس تعنين؟ . . إن أكبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض :

- لست من الكبر كما تظنين . . لعن الله الهم .

- ما قصدت هذا يا ست سنية . وما أشك فى أنك مازلت فى حدود الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة، فتساءلت بعد تردد:

ـ ألا يعيبني أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة: «لماذا قصدتيني إذا يا مرة؟». ثم خاطبت الست قائلة:

ـ كيف يعيبك ما هو شرع وحق!.. أنت ست عاقلة شريفة، والكل يشهد لك بذلك. والزواج نصف الدين يا حبيبتي، وربنا شرعه حكمة، وأمر به النبي عليه الصلاة والسلام.

فقالت سنية بإيمان:

ـ صلى الله عليه وسلم.

ـ كيف لا يا حبيبتي!.. نبي عربي ويحب عبيده!

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر، وثمل فؤادها سرورا، فقالت وهي تستخرج سيجارتين من علبتها:

ـ ومن يرضى بالزواج مني؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

ـ ألف رجل ورجل.

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت:

ـ رجل واحد يكفي..

فقالت أم حميدة بيقين:

ـ الرجال جميعا يحبون الزواج في أعماقهم. ولا يكاد يشكو الزواج إلا المتزوجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن أقول له: «عندي عروس لك!». حتى تدب في عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألني في لهفة لا تخفى: «حقا.. من!.. من؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربنا.

فهزت الست سنية رأسها في ارتياح وقالت:

ـ جلت حكمته!

ـ نعم يا ست سنية، لذلك خلق الله الدنيا. كان في وسعه أن يملأها رجالا فحسب، أو نساء فحسب، ولكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كي نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الست سنية عفيفي وقالت برقة:

ـ كلامك كالسكر يا ست أم حميدة!

ـ حلى الله دنياك، وآنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجعت الست وقالت:

ـ إن شاء الله، وبفضلك.

ـ أنا امرأة ـ بحمد الله ـ مباركة. زيجاتى لا انفصام لها. ياما عمرت بيوتا، وأنجبت أطفالا، وأسعدت قلوبا، فليكن اعتمادك على الله وعلى.

ـ جزاؤك لن يقدر بمال.

فقالت أم حميدة فى سرها: «لا.. لا يا مرة، ينبغى أن يقدر بمال، وبمال كثير. هلمى إلى صندوق التوفير وأعطينى، وكفاك تقتيرا». ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور:

ـ أظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن؟!

لم تدر الأخرى بماذا تجيب. لم تكن تطمع فى الزواج من شاب، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها، ولكنها لم ترتح إلى «متقدم فى السن»، هذه وكان تدرج الحديث قد خلطها بأم حميدة فآنست إليها، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها.

ـ أصوم وأفطر على بصلة!

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنينا مزعجا، وازدادت اطمئنانا إلى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها، ثم قالت بخبث:

ـ صدقت يا ست. والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين أو يزيد قليلا.

فتساءلت المرأة فى قلق:

ـ وهل يوافق؟

ـ يوافق ويوافق!.. أنت سيدة جميلة وغنية!

ـ سلمت من كل سوء!

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام:

ـ أقول له سيدة نصف، ولا ولد لها ولا حماة، أدب وكمال. صاحبة دكانين بالحمزاوى وبيت ذى طابقين بالمدق.

فابتسمت الست وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة:

ـ بل ذى ثلاثة طوابق.

ولكن الأخرى قالت معترضة:

ـ اثنان فحسب، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره مدى حياتى!

فقالت ست سنية فى سرور:

ـ لك عيناى يا ست أم حميدة!

ـ سلمت عيناك. ربنا يهيئ ما فيه الخير.

فهزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت:

ـ يا للعجب!.. جئتك لمجرد الزيارة فانظرى كيف انتهى بنا الحديث؟.. وكيف أغادر فى حكم المتزوجات؟!

فجارتها أم حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضا، وإن راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمى، أتحسبين أن مكرك يجوز على؟!». ثم قالت:

ـ إرادة ربنا!.. أليس كل شىء بأمره؟!

وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة، بيد أنها حادثت نفسها قائلة: «إيجار شقة مدى الحياة!.. يا لها من امرأة جشعة».

٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين. فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة، وقالت بأسف:

ـ واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف، ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة، وقالت الفتاة بحدة:

ـ قمل؟!.. والنبى ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين!

ـ انسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة؟

فقالت بغير مبالاة:

ـ كان مضى على رأسى شهران بلا غسيل.

ثم اشتد ساعدها فى التمشيط وهى تجلس جنب أمها. كانت فى العشرين، متوسطة القامة، رشيقة القوام، نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول، فى نقاء ورواء، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان، لهما حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفتيها

الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى فى زقاق المدق نفسه. وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يوما وهما تتسابان: «لن يلم الله شعثك برجل، فأى رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة!». وكانت تقول فى مرات أخرى: إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب، وسمتها لذلك الخَمسين باسم الرياح المعروفة. ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وإن كانت فى الحقيقة أمها بالتبنى. كانت الأم الحقيقية شريكة لها فى الاتجار بالمفتقة والموغات، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق فى ظروف سيئة، وأخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها فى سن الرضاع، فتبنتها أم حميدة، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجى فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة، فهى أخته بالرضاعة.

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة، ولما طال الصمت قالت الفتاة:

- طالت الزيارة، فيم كنتما تتحدثان؟

فضحكت أمها فى سخرية وتمتمت:

- خمنى!

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها:

- طلبت رفع الإيجار.

- لو فعلت لخرجت محمولة على أيدى رجال الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟

فصاحت حميدة:

- هل جنت؟

- أجل جنت، ولكن خمنى..

فنفخت الفتاة وهى تقول:

- أتعبتنى!

فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهى تغمز بعينها:

- صاحبتك تروم الزواج!

فتولت الفتاة الدهشة وقالت:

- الزواج!

- أجل. وتريد شابا. أسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها!

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهى تضفر شعرها:

ـ بل أجد كثيرين، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن تدارى فشلك. وماذا بى مما يعيب؟ ولكن كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجار مخلع».

فابتسمت أم حميدة قائلة:

ـ إذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامرأة أن تيأس..

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة:

ـ لست أجرى وراء الزواج، ولكنه يجرى ورائى أنا، وسأنبذه كثيرا..

ـ طبعا! أميرة بنت أمراء!

فتغاضت الفتاة على سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة:

ـ أفى هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟

ولم تكن الأم فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار، ولا تشك فى جمالها، ولكنها كانت كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها فقالت باستياء:

ـ لا تسلقى الزقاق بلسانك، إن أهله سادة الدنيا!

ـ سادة دنياك أنت. كلهم كعدمهم، اللهم إلا واحدا به رمق جعلتموه أخى!

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة، فهال أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:

ـ كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أخا، وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة:

ـ ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر؟

فلكمتها أمها فى ظهرها وصاحت بها:

ـ قاتلك الله..

فغمغمت الفتاة بازدراء:

ـ زقاق العدم!

ـ أنت تستحقين موظفا قد الدنيا!

فتساءلت بتحد:

ـ هل الموظف إله؟

فتنهدت الأم قائلة:

ـ آه لو تخففين من غلوائك..!

فقلدت لهجة أمها قائلة :

ـ آه لو تنصفين ولو مرة فى العمر!

ـ آكلة شاربة ثم لا تشكرين . أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب! .

فقالت حميدة بدهشة :

ـ وهل الجلباب شيء يهون؟! . . ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أن الأولى بالفتاة التى لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية؟!

ثم امتلأ صوتها أسفا وهى تقول مستدركة :

ـ آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديات العاملات! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة . أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب؟!

فقالت الأم باستياء :

ـ أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال . .

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها ، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبة ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب :

ـ آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدين فى هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التى لا تميز بين التبر والتراب؟!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة فى الحجرة التى تطل على الزقاق ، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق ، متنقلة به من مكان إلى مكان ، قائلة وكأنما تخاطب نفسها فى سخرية :

ـ مرحبا يا زقاق الهنا والسعادة . دمت ودام أهلك الأجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا أرى؟! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عينا على الأرغفة وعينا على جعدة زوجها ، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها . وهذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم . وعم كامل يغط فى نومه ، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب . آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة فى جمال ودلال ، ولعله لا يشك فى أن هذه النظرة سترمينى عند قدمه أسيرة لهواه ، أدركونى يا هوه قبل التلف . أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا أماه وغضهما ، ثم رفعهما ثانية ، قلنا الأولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك؟! رباه هذه نظرة ثالثة! ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟! . . مصادفة

كل يوم فى مثل هذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذًا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا. هذا كل شيء، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل؟!.. أوه.. ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقابه..

وهنا قاطعتها أمها فى سخرية:

- ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك!

فلم تلتفت إليها، ورقصت لها عجيزتها وهى تقول:

- يا له من رجل مقتدر، يقول إنه أنفق فى حب السيدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظرا فاحصا، وتنهدت وهى تقول:

- يا خسارتك يا حميدة..

٤

فى الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل: لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله، بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الوابور، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجا وأفرادا، ثم يلوح جعدة حاملا خشبة العجين، حتى عم كامل نفسه يشغل فى هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس! وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معا، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل. وكان مزاجاهما فى الأكل مختلفين، فالحلو سريع يلتهم رغيفه فى دقائق معدودات، أما عم كامل فبطيء يمضغ اللقمة فى أناة حتى يكاد يذيبها فى فمه، وكثيرا ما يقول: إن الطعام المفيد يهضم فى الفم أولا، ولذلك فالحلو ينتهى من طعامه، ثم من احتساء الشاى وتدخين الجوزه، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل، ولذلك أيضا فلكى يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده! وعم كامل - رغم جسامته وضخامته - لا يعد أكولا وإن كان يلتهم الحلوى بشراهة. وهو حلوانى ماهر، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن إلا فى الطلبات الخاصة التى يوصى عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسينى والمعلم كرشة. وطار فى ذلك صيته حتى جاوز المدق إلى الصنادقية والغورية

والصاغة . ولكن رزقه على قد عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذبا حين شكا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به . وقد قال ـ ذلك الصباح ـ مخاطبا الحلو بعد أن فرغا من طعامهما :

ـ قلت إنك ابتعت لى كفنا ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء ، ولكن ما قولك فى أن تنزل لى عنه الآن . . ؟

فتعجب عباس الحلو الذى كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الأكاذيب ، وسأله :

ـ وماذا تريد أن تفعل به؟ !

فقال الرجل بصوته الرفيع الذى يحاكى أصوات الغلمان :

ـ أنتفع بثمنه ! ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأقمشة؟

فضحك الحلو وقال :

ـ أنت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة . بالأمس شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمنه ! ولكن هيهات أن تنال ما تريد ، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد عمر طويل إن شاء الله . .

فابتسم عم كامل فى ارتباك وقال :

ـ هب أن العمر قد امتد بى حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالى؟ !

ـ وهبك تموت غدا؟ !

فقطب عم كامل وقال :

ـ لا قدر الله !

فقهقه الحلو ضاحكا وقال :

ـ عبثا تحاول أن تثنينى عما اعتزمت . سيبقى الكفن فى حرز حريز حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه . ثم قال الشاب معاتبا :

ـ يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة! هل استفدت منك مليما واحدا فى حياتى؟ ! مطلقا . ذقنك جرداء لا تنبت ، وكذلك شاربك . رأسك أصلع . وليس بهذه الدنيا الواسعة التى تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها . سامحك الله . .

فابتسم عم كامل قائلا :

ـ جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله . .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء ، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا المعلمة حسنية

الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفعا، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق، فضحك الرجلان وصاح عباس الحلو مخاطبا المرأة:

ـ العفو والرحمة يا معلمة..

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكيا مستعطفا. ولبث عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل:

ـ ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه!

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادما من البيت فى سرواله وقميصه وقبعته.

كان ينظر فى ساعة معصمه، تياها فخورا، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهوا. وقد حيا صديقه الحلاق، ومضى إلى الكرسى داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره فى يوم عطلته. وقد نشأ الصديقان معا فى زقاق المدق، كما رأيا نور الدنيا فى بيت واحد، بيت السيد رضوان الحسينى، بيد أن عباس الحلو رأى هذا النور الدنيوى قبل صاحبه بثلاثة أعوام. وكان الحلو فى ذلك الوقت يعيش فى حضانة والديه، قبل أن يعرفه عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاما. وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معا. وآخى بينهما الحب والمودة، وظلا على صداقتهما حتى بعد أن فرق بينها العمل، فاشتغل عباس صبى حلاق بالسكة الجديدة، وعمل حسين صبيا فى دكان دراجات بالجمالية. وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء، ولكن لعل تباينهما هذا كان من أهم الأسباب التى أبقت على صداقتهما ومودتهما. كان عباس الحلو ـ ولا يزال ـ شخصا وديعا، دمث الأخلاق، طيب القلب، ميالا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو اللعب السلمى، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومى، مع نفور من اللجاج والشجار، ودراية فى اتقائهما بالابتسامة الحلوة و«الله يسامحك يا عم». وكان يحافظ على صلاته وصومه، ولا تفوته صلاة الجمعة فى سيدنا الحسين. أجل أهمل الآن بعض هذه الفرائض، لا عن استهتار ولكن عن كسل، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان. ولم يكن من النادر أن يتحرش به صاحبه حسين كرشة، ولكنه كان إذا شد صاحبه أرخى، فلم تصله قبضته القاسية قط. وعرف إلى ذلك بالقناعة والرضا، حتى إنه واصل عمله «صبيا» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام، ومنذ ذلك التاريخ وهو يحسب أنه نال أرفع ما يطمح إليه: وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان، وجسمه البدين، وطابع المرح الذى لا يفارقه. أما حسين كرشة فكان من شطار الزقاق، مشتهرا بالنشاط والحذق والجراءة، بل هو معتد أثيم إذا دعا الداعى. وقد اشتغل بادئ أمره فى قهوة أبيه، ولكنهما لم يتفقا، فهجرها وعمل بدكان الدراجات، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق

بخدمة المعسكرات البريطانية، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشا ـ نظير ثلاثة قروش فى عمله الأول ـ غير ما يسميه «أكل العيش يحب خفة اليد» فارتفعت حاله، وامتلأ جيبه، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتمتع بالثياب الجديدة، وغشى المطاعم، وأكثر من أكل اللحوم التى هى فى حسبانه طعام المحظوظين، وارتاد السينمات والملاهى، وعاقر الخمر، ورافق النساء، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبيذ والحشيش. وفى نشوة من نشواته ـ كما يحكى عنه ـ قال لبعض مدعويه: «فى بلاد الإنجليز يسمون من كان مثلى فى بحبوحة العيش باللارچ (Large) ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج، ثم حرفت فيما بعد إلى حسين كرشة الجراچ!».

أمسك عباس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط، يصلح من أطرافها، دون مساس بالشعر المفلفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته. ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بذلك الصديق القديم. أجل مازالا صديقين، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل فى الأيام الخالية، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين. ولم يخل الأمر من عاطفة حسد. خامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما، بيد أنه فى حسده ـ كما هو فى حياته ـ وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء، وكأنه يغبطه ولا يحسده، وربما قال لنفسه معزيا: «سوف تنتهى الحرب يوما، ويعود حسين إلى الزقاق معدما كما خرج منه».

وجعل حسين كرشة ـ بثرثرته المعهودة ـ يحدث صاحبه عن حياة «الأورنس» والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات! وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب، وقال:

ـ قال لى الأونباشى جوليان مرة لا أفترق عن الإنجليز إلا فى اللون!.. وكثيرا ما نصحنى بالاقتصاد، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده فى زهو) الذى يربح النقود فى أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها فى زمان السلم، ومتى تظن الحرب تنتهى؟! ألا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم فى الحرب، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما! والأونباشى جوليان من المعجبين بشجاعتى، ويثق فى ثقة عمياء، وبفضل هذه الثقة يسرحنى فى تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية!.. دنيا!

فتمتم عباس الحلو متفكرا:

ـ دنيـا!

فألقى حسين على صورته فى المرآة نظرة متفحصة وقال :

- أتدرى أين أذهب الآن؟ . . إلى حديقة الحيوان . أو تدرى مع من؟ . . مع بنت كالقشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنطلق بها هناك إلى أقفاص القرود .

وقهقه عاليا ثم استدرك :

- أراهن على أنك تتساءل : لماذا القرود؟ وهذا طبيعى من إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتى . فاعلم يا حمار أن القرود فى حديقة الحيوان تعيش جماعات فى أقفاص . وهى كبيرة الشبه بالإنسان فى صورته وسوء أدبه ، تراها تتغازل وتتحاب فى علانية مكشوفة ، فإذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتحت لى الأبواب!

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

- دنيـــا!

- النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك المرجل :

فضحك الحلو ونظر إلى شعره فى المرآة ، وقال بصوت منكسر :

- أنا رجل مسكين!

فحدج صورته فى المرآة بنظرة حادة وتساءل متهكما :

- وحميدة؟!

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب ، وتمثلت لعينيه صورتها ؛ فتورد وجهه ، وغمغم وهو لا يدرى :

- حميدة . . !

- أجل حميدة بنت أم حميدة!

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح فى وجهه الارتباك ، وراح الآخر يقول بحدة :

- يا لك من رجل خامل معدوم الحياة . . عيناك نائمتان ، دكانك نائم ، حياتك نوم وخمول ، أعيانى إيقاظك يا ميت . أتحسب أن هذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك؟! هيهات ، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك .

فلاح التفكير فى العينين الهادئتين وقال متكدرا بعض الكدر :

- الخيرة فيما اختاره الله . .

فقال الشاب ساخرا :

- عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، الكومى؟!

فقال الحلو فى حيرة :

ـ لماذا تهزأ بهذه الحياة؟

ـ أهى حياة حقا؟. هذا الزقاق لا يحوى إلا موتا. وما دمت فيه فلن تحتاج يوما للدفن. عليك رحمة الله.

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدرى ما الآخر قائله:

ـ وماذا تريدنى على أن فعل؟

فصاح به الفتى:

ـ طالما أخبرتك. طالما نصحتك. اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة. أغلق هذا الدكان. اهجر هذا الزقاق. أرح عينيك من جثة عم كامل. وعليك بالجيش الإنجليزى. الجيش الإنجليزى كنز لا يفنى. هو كنز الحسن البصرى، ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء، ولكنها نعمة النعم، لقد بعثها ربنا لينتشلنا من وهدة الشقاء والعوز. على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب. ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش؟ ومازلت أقول لك إن الفرصة سانحة. حقا هزمت إيطاليا ولكن ألمانيا باقية، ووراءها اليابان، وسوف تطول الحرب عشرين عاما. أقول لك للمرة الأخيرة إنه توجد أماكن شاغرة فى التل الكبير. سافر!

واستيقظ خيال الحلو، واضطرمت عواطفه: حتى وجد صعوبة فى امتلاك عنانه وإتقان عمله. لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلما قابله. كان بطبعه قنوعا، عزوفا عن الحركة، هيابا لكل جديد، مبغضا للأسفار ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا، ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فترحبه له. ولكن طموحه صحا بعد سبات، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج فى نفسه بصورة حميدة، أو لعل حميدة هى التى أيقظته وبعثته بعثا جديدا، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئا واحدا لا يتجزأ. وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوح بذات نفسه، وكأنما أراد أن يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير، فقال متظاهرا بالإحجام والإباء:

ـ السفر ابن كلب!

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به:

ـ أنت ابن ستين كلب. السفر خير من زقاق المدق، وخير من عم كامل؟ سافر وتوكل على الله. أنت لم تولد بعد. ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ ماذا لبست؟ ماذا رأيت؟ صدقنى إنك لم تولد بعد..

فقال عباس متأسفا:

ـ من المحزن أنى لم أولد غنيا.

ـ من المحزن أنك لم تولد بنتا! لو ولدت بنتا لكنت من بنات الدقة القديمة، حياتك فى

البيت وللبيت، لا سينما ولا حديقة الحيوان، حتى ولا الموسكى الذى ترتاده حميدة فى العصارى . .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباكه، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهينا ساخرا كأنه لفظ تافه لا يثير مكامن القلوب، وقال مدافعا عن فتاته:

ـ أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق، ولا يعيبها أن تروح نفسها بالمشى فى الموسكى.

ـ أجل ولكنها فتاة طموح ما فى ذلك من شك، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك . .

وعاود قلبه الخفقان العنيف، والتهب وجهه احمرارا، وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا . . وكان انتهى من حلق رأس الشاب، فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة، وفكره لا يستريح من اضطرابه. ثم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده. وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسى منديله فرجع مسرعا إلى البيت. وجعل يتابعه بعينيه من موقفه، فلاح لعينيه مرحا نشيطا سعيدا، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة. «لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك». صدق حسين بلا ريب، إنه يعيش عيشة الكفاف، ولا يكاد يتمخص كدح يومه عن رزق ذلك اليوم، فإذا أراد أن يبنى عشه فى هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد. إلام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون؟! «فتاة طموح» هكذا يقول حسين، وإن كان هو لا يدرى شيئا على وُجه التحقيق، وربما كان حسين أدرى بها، لأنه ـ عباس ـ اعتاد أن يراها بعين الحب الحالمة الخالقة. وإذا كانت فتاته طموحة فلا معدى له عن أن يكون طموحا كذلك. ولعل حسين يحسب غدا ـ وقد ابتسم لهذا الخاطر ـ أنه أيقظه من سباته وخلقه خلقا جديدا، ولكنه يعلم دون الناس جميعا أنه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شىء أن ينزعه من قناعته الوديعة المستسلمة. وشعر عباس فى هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب. ولعله أحس ـ إحساسا غامضا لا يرتقى لمرتبة الوعى والفكر ـ بقدرة الحب على الخلق والتعمير، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد. ولذلك خلق الله الإنسان محبا، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة فى رعاية الحب. وقد تساءل الفتى فى وجده وانفعاله لماذا لا يسافر؟ ألم يعش فى هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان؟! فماذا أفاده؟ إنه زقاق لا يعدل بين أهله، ولا يجزيهم على قدر حبهم له. وربما ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يبتسم له، فهو يقتر عليه الرزق تقتيرا، ويغدقه على السيد سليم غدقا، وعلى كثب منه تتكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفها الساحر، فى حين أن راحته لا تقبض إلا على ثمن الرغيف، فليكن سفر، وليتغيرن وجه الحياة.

جرى فكره هذا الشوط البعيد، ولبث واقفا أمام دكانه ينظر إلى عم كامل وقد مضى يغط غطيطا والمذبة فى حجره، ثم سمع وقع أقدام خفيفة آتيا من أعلى الزقاق، فتحول

إليه فرأى حسين كرشة عائدا فى خطوات واسعة. واستمر به الانفعال والقلق، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته، فوضع يده على كتفه وقال له بقوة وعزم:

ـ حسين، أريد أن أحدثك فى أمر هام..

٥

العصر..

عاد الزقاق رويدا رويدا إلى عالم الظلال: والتفت حميدة فى ملاءتها، ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم فى طريقها إلى الخارج. وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن أعينا أربعا تتبعها متفحصة ثاقبة، عينى السيد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينى عباس الحلو الحلاق. ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رق نعلاه، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشى بحسن قوامها الرشيق، وتصور عجيزتها الململمة أحسن تصوير، وتبرز ثدييها الكاعبين، وتكشف عن نصف ساقيها المدملجتين، ثم تنحسر فى أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزى الفاتن القسمات، وكانت تتعمد ألا تلوى على شىء فتنحدر من الصنادقية إلى الغورية ثم إلى السكة الجديدة فالموسكى.. حتى إذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفتيها ابتسامة، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينيها الجميلتين. هى فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد، ولكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان. ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل فى بث هذه الروح القوية فى طواياها، ولكن حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قوية، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها، وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحيانا بهذا الشعور نطقا يذهب بجمالها فى رأى البعض ويضاعفه فى رأى البعض الآخر. فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر، يتبدى فى حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدى فى محاولتها التحكم فى أمها، ويتعرى فى أسوأ مظاهره فيما يشجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك، حتى أبغضنها جميعا، ورمينها بكل سوء. وربما كان من أغرب ما رميت به أنها تبغض الأطفال، وأنها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة، وهذا ما جعل امرأة المعلم كرشة القهوجى ـ أمها بالرضاعة ـ تتمنى على الله أن تراها أما ترضع الأطفال فى كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب! مضت فى سبيلها مستمتعة بنزهتها

اليومية، مرددة الطرف فى معارض المتاجر المتعاقبة. كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية، فتثير فى نفسها الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة أحلاما ساحرة، ولذلك تركزت عبادتها للقوة فى حب المال على اعتبار أنه المفتاح السحرى للدنيا، والمسخر لجميع قواها المذخورة. فجل ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال، والمال الذى يأتى بالثياب وبكل ما تشتهيه الأنفس. وعسى أن تتساءل: أيمكن يا ترى أن تبلغ يوما ما تتمنى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذلك فهى لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية، كانت فقيرة فى الأصل مثلها، ثم أسعفها الحظ بزوج ثرى من المقاولين فانتشلها من وهدتها، ونقلها من حال إلى حال. فماذا يمنع القصة أن تتكرر، والحظ أن يبتسم مرتين فى هذا الحى؟! ليست دون صاحبتها جمالا، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة. بيد أن هذا الطموح كان يضطرب فى دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدرى عما وراءها شيئا، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقى خيراً وسعداً، وكم منهم يتردد مثلها حائرا لا يعلم لنفسه مرسى، فعلى كثب من هذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلمن وأخذن فى تافه الأحاديث، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حسرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة، واشتغلن بالمحال العامة مقتديات باليهوديات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير فى ردح قصير من الزمن، شبعن بعد جوع، وكسين بعد عرى، وامتلأن بعد هزال، ومضين علي أثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة، ومنهن من يرطن بكلمات، ولا يتورعن تأبط الأذرع والتخبط فى الشوارع الغرامية، تعلمن شيئا واقتحمن الحياة. أما هى فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص. وها هى تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهن المرهفة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة. كانت تضاحكهن فى صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثم لا تتردد عن نهشهن ولو على سبيل الدعابة الساخرة ـ لأقل هفوة، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء، وهذه ذوقها سقيم، وتلك عيناها تزوغان من التحديق فى الرجال، والرابعة كأنها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل؟.. كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها فى يومها الطويل المفعم تبرما وعراكا، ولذلك قالت يوما لأمها وهى تتنهد:

ـ حياة اليهوديات هى الحياة حقا!

فانزعجت أمها وقالت :

ـ إنك من نبع أبالسة ودمى برىء منك .

فقالت الفتاة إمعانا فى إغاظتها :

ـ ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام؟!

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة :

ـ رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجمالها ، مدرعة بلسانها الطويل ، يلذها أن الأعين تمر بهن من الكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسكى أو كاد لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عباس الحلو يسير متأخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة ، وتساءلت عما دعاه إلى ترك دكانه فى هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمدا؟ . . ألم يعد يقنع برسائل النظر؟ . . كان على فقره متأنقا كأكثرية أهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها إن أية واحدة من صاحباتها لا تطمع فى زوج خير منه ، وكانت تجد نحوه شعوراً غريبا معقدا ، فهو من ناحية الشاب الوحيد فى الزقاق الذى يصلح لها زوجا ، وهى من ناحية أخرى تحلم بزوج على مثال المقاول الغنى الذى حظيت به جارتها فى الصنادقية فهى لا تحبه ولا تتمناه ، وفى الوقت نفسه لا تقطعه ، ولعلها تسرها نظراته المشوقة ! . . وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها إلى الزقاق ، فسارت بينهن وهى تسترق النظر ، فلم تعد تشك فى أنه يتبعها عامدا ، وأنه ينوى أن يخرج عن صمته أخيراً . ولم تخطىء ظنونها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوها من الطوار ، فى خطوات مضطربة ووجه ينطق بالانفعال ، وقاربها حتى حاذاها ثم قال بصوت متهدج :

ـ مساء الخير يا حميدة . .

فالتفتت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغتة ، ثم قطبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه . ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب :

ـ مساء الخير يا حميدة .

وخافت إن هى لازمت الصمت مع هذا الخطو الحثيث أن ينتهيا إلى الميدان المأهول قبل أن يقول ما يريد ، وكانت راغبة فى سماعه ، فقالت فى لهجة تنطق بالاستياء :

ـ يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

ـ بل جار حقا ، ولا أفعل كالغريب ، أحرام على الجار أن يتكلم؟

فقالت عابسة :

ـ نعم ، الجار يحمى جارته ، لا أن يهاجمها . .

فقال الشاب بصدق حار :

ـ أنا رجل أعلم واجبات الجار ، ولم يخطر ببالى قط أن أهاجمك ـ لا سمح الله ـ بيد أنى أريد أن أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته .

ـ كيف تقول هذا؟! . . أليس من العيب أن تتعرض لى فى الطريق ، وتعرضنى للفضيحة . .

فهاله قولها ، وقال بأسف :

ـ الفضيحة؟ . . معاذ الله يا حميدة . صدرى طاهر ، ولا يكن لك إلا الطهر وحياة الحسين ، وستعلمين أن كل شىء سينتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فأصغى إلى قليلا ، أريد أن أحدثك عن أمر هام . ميلى بنا إلى شارع الأزهر بعيدا عن أعين الذين يعرفوننا .

فقالت باستياء متصنع :

ـ بعيدا عن أعين الناس؟! . . ما شاء الله! . . دمت من جار طيب حقا!

وكان قد تشجع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة :

ـ ما ذنب الجار؟! . . أيموت قبل أن يبوح بذات نفسه!

فقالت بسخرية :

ـ ما أطهر كلامك . .

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

ـ طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلى بنا إلى شارع الأزهر . أريد أن أقول لك كلمة هامة . ينبغى أن تصغى إلى . أنت تعلمين ولا شك بما أريد أن أقوله . ألا تعلمين؟ . . ألا تشعرين؟ . . قلب المؤمن دليله .

فقالت كالغاضبة :

ـ لقد جاوزت حدك . كلا . . كلا . . دعنى . .

ـ حميدة . . أنا أريد أن . . أنا أريدك . .

ـ يا للعار . دعنى وإلا فضحتنى أمام الخلق .

وكانا قد بلغا ميدان الحسين ، فمرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثت خطاها على عجل ، ثم انعطفت إلى الغورية وهى تبتسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما

قال، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق، وقد قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها فى الماضى القريب، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجحود؟ . . أما حالته المالية التى تعلم عنها الشىء الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع، مما يجعله خليقا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة، بيد أنها وجدت نحوه ـ رغم ذلك ـ نفورا لم تدر له سببا. ماذا تريد إذا؟ . . ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب؟! . . لم تهتد لجواب بطبيعة الحال، وقد عزت نفورها منه إلى فقره! . . والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس، فلم تهش للمسالمة، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال. وكان قلبها ما يزال فى غفوته لم يستبن بعد رغائبه، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقا.

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين، فتراجع مفعم الفؤاد خيبة وحسرة، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس. قال لنفسه وهو يسير متمهلا غافلا عما حوله: إنها بادلته الكلام طويلا. ولو قصدت صده ونبذه ما منعها ولا أعيتها الحيلة، فهى لا تكرهه، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا، ولعله الحياء الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار. فكان أبعد الناس عن اليأس، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوثب للكرة التالية. وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل. كان محبا صادقا ملتهب العاطفة، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلى. ولذة لا حد لها، وحب لا يبيد. أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعا بالنساء عامة، ولكنه كان كالحمام يحلق فى السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع فى النهاية على برجه ملبيا صفير صاحبه، فهى دون النساء جميعا أمله المنشود. أجل لم تعد مخاطرته خائبة، وتفتحت له أكمام الأحلام عن زهر الآمال، فعاد منتشيا مسرورا بحبه وبشبابه. ولما عرج إلى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين، فالتقيا عند مطلع الزقاق، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا، ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذرا، وحملق فى وجهه بعينيه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال:

ـ لا تمش بلا طربوش! . . احذر أن تعرى رأسك فى مثل هذا الجو، فى مثل هذه الدنيا، فمخ الفتى يتبخر ويطير، وهذا أمر معروف فى المأساة ومعناه بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها T r a g e d y .

٦

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام، ومن النادر أن ينصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص، بيد أنه كان رجلا مسلوب الإرادة، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا. ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء، لا لأن تجارته غير نافقة، ولكن لأنه كان مبذرا - فى غير بيته - يبعثر ما يربحه، وينثر المال بلا حساب، جاريا وراء شهواته، خصوصا هذا الداء الوبيل.

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبئ سنقر عن طيته، مرتديا عباءته السوداء، متوكئا على عصاه العجراء، ينقل على مهل خطواته الثقيلة!.. ولا تكاد تدل عيناه المظلمتان المختفيتان تقريبا وراء جفنيه الغليظين على أنه يحسن رؤية طريقه، وكان قلبه يخفق!.. والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين، ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره فى أحضان الحياة الشاذة، حتى خال لطول تمرغه فى ترابها أنها الطبيعية. هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه. بل إنه ليظلم الحكومة فى تعقبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثارا للازدراء والاحتقار، فيقول عن الحكومة: «إنها تحلل الخمر التى حرمها الله، وتحرم الحشيش الذى أباحه!.. وترعى الحانات الناشرة للسموم، فى حين تكبس (الغرز) وهى طب النفوس والعقول». وربما هز رأسه آسفا وقال: «ماله الحشيش»!.. «راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدر للنسل!». وأما شهوته الأخرى فيقول بقحته المعهودة: «لكم دينكم ولى دين!». ولكن إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد. وقد سار متمهلا فى الغورية ومستسلما لخواطره، يتساءل والأمل ملء فؤاده: «ماذا يا ترى وراءك أيها المساء؟». وعلى رغم انهماكه فى خواطره كان يحس بالدكاكين على الصفين إحساسا غامضا، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه. وكان يسيء الظن بهذه التحيات وأمثالها، ولا يدرى إن كانت لمحض السلام أم أن وراءها من الغمز واللمز. فالناس لا يريحون ولا يستريحون، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمة جشعة. ولطالما قالوا فيه وأعادوا، فماذا أفادهم التشهير؟.. لا شيء!.. وكأنه ولع بتحديهم فراح يجهر بما كان يسره، وهكذا مضى فى سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلى الأزهر، فاشتد خفقان قلبه وتناسى

تحيات الناس التى أثارت سوء ظنه، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شرير. وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلية، وجاز عتبته، دكان صغير يجلس فى صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير، ويستند إلى أحد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع. ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق. وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة، واستقرت العينان على الشاب، ثم حيا برقة. ورد الشاب التحية فى لطف، وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة فى ثلاثة أيام متتابعات. وقد تساءل: لماذا لا يبتاع ما يريد مرة واحدة؟!

وقال المعلم:

ـ أرنى ما عندك من جوارب..

فأحضر الشاب أنواعا منها وبسطها على «طاولة» المحل، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب، والشاب لا يخفى أمره عليه، وقد دارى ابتسامة كادت ترتسم على ثغره. وتعمد أن يطيل الفحص والتقصى، ثم قال للشاب بصوت منخفض:

ـ لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضعيف، هلا اخترت لى لونا مناسبا بذوقك الجميل.

وسكت لحظات يتفرس فى وجهه، ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلية:

ـ كوجهك الجميل..

فأراه الشاب الجميل نوعا متجاهلا إطراءه، فاستدرك الرجل قائلا:

ـ لف لى ستة..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب، ثم قال:

ـ الأفضل أن تلف لى اثنى عشر. أنا رجل لا ينقصنى المال والحمد لله!!

ولف الشاب له ما أراد صامتا، ثم غمغم وهو يناوله اللفيفة:

ـ مبارك..

فابتسم المعلم كرشة، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة يرافقها اضطراب خفيف فى جفنيه، وقال بخبث:

ـ شكرا لك يا بنى (ثم بصوت خفيض) الحمد لله!

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلا كما دخله. واتجه نحو شارع الأزهر، ثم عبره مهرولا إلى الناحية الأخرى، ووقف لصق شجرة فى مقابل الدكان مستظلا بالظلمة الآخذة فى الانتشار. وقف يدا متوكئة على العصا ويدا قابضة على اللفيفة، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد. كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره، فجعل ينظر نحوه، لا يكاد يرى منه إلا صورة غامضة المعالم، ولكن ذاكرته

وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل. وراح يقول لنفسه: «أدرك المراد بلا ريب!». ثم ذكر كيف كان رقيقا لطيفا مؤدبا. ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم: «مبارك» فأثلج صدره وتنهد من الأعماق. لبث فى مكانه سويعة مضطرما بالقلق والتوتر، حتى رأى الدكان يغلق أبوابه، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذى اتجه صوب الصاغة، والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر. وابتعد المعلم عند الشجرة رويدا رويدا، وسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب. فرآه هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ولكنه لم يبد اهتماما، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة:

ـ مساء الخير يا بنى.

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم:

ـ مساء الخير يا سيدى.

فسأله بمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث:

ـ أغلقت الدكان؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتثاقل كأنما يدعوه إلى التريث، ولكنه ثابر على مشيته وهو يقول:

ـ أجل يا سيدى..

فاضطر الرجل إلى مسايرته، فسارا معا على الطوار والمعلم لا يحول عنه رأسه، ثم قال:

ـ ساعات عملك طويلة، كان الله فى عونك.

فنفخ الشاب قائلا:

ـ ما الحيلة؟.. أكل العيش يحب التعب..!

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثته، واستبشر خيرا برقته وقال:

ـ رزقك الله بتعبك يا بنى..

ـ أشكر لك يا سيدى.

فقال الرجل بحماسة:

ـ تعب كلها الحياة حقا، ولكن من النادر جداً أن ينال التعب الجزاء الذى يستحقه، فما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا.

فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم:

ـ صدقت يا سيدى، ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا.

ـ الصبر مفتاح الفرج. أجل ما أكثر المظلومين، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين. ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك.

فتساءل الفتى:

ـ أين هؤلاء الرحماء؟

وكاد يجيبه: «ها أنذا واحد منهم»، ولكنه أمسك عن ذلك، وقال بلهجة العاتب:

ـ لا تكن متشائما يا بنى فأمة محمد بخير (ثم غير لهجته قائلا)، علام تسرع؟.. أمستعجل أنت؟!

ـ ينبغى أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسى.

فسأله باهتمام:

ـ وبعد ذلك؟

ـ أنطلق للقهوة.

ـ أية قهوة؟

ـ قهوة رمضان.

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمعت أسنانه الذهبية فى الظلمة، وتساءل فى إغراء:

ـ لماذا لا تشرف قهوتنا؟

ـ أية قهوة يا سيدى؟

فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول:

ـ قهوة كرشة بالمدق، محسوبك المعلم كرشة!

فقال الفتى بامتنان:

ـ تشرفنا يا معلم، هذه قهوة ذائعة الصيت.

فسر المعلم، وسأله بلهجة تشى بالرجاء:

ـ أتــأتى؟

ـ إن شاء الله..

فقال المعلم كمن نفد صبره:

ـ كل شــىء بمشيئة الله. ولكن أتنوى الحضور حقا أم تقول ذلك تملصا منى؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال:

ـ بل أنوى الحضور حقا.

ـ الليــلة إذًا!

ولما لم ينبس الفتى بكلمة، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربا:

- لابـــد..

فغمغم الشاب:

- بإذن الله..!

فتنهد الرجل بصوت مسموع ثم سأله:

- أين تقيم؟

- عطفة الوكالة.

- نحن جيران تقريبا.. متزوج؟

- كلا.. مع أهلى..

فقال برقة:

- أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لى، الإناء الطيب ينضح ماء طيبا. وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام. إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملا بسيطا فى دكان.

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل، وتساءل الشاب فى خبث:

- وهل لمثلى أن يطمع فى أكثر من هذا؟!

فقال المعلم كرشة باستهانة:

- هل ضاقت «بنا» الحيل!.. ألم يكن جميع الكبار صغارا!

- بلى كانوا، ولكن ليس من المحتم أن ينقلب الصغير كبيرا.

فأردف المعلم يتم كلام الفتى:

- إلا إذا صادفه التوفيق!.. فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على أنه توفيق عظيم. أنتظرك الليلة؟!

فتردد الفتى قليلا، ثم قال مبتسما:

- لا يأبى الكرامة إلا لئيم!

وتصافحا عند بوابة المتولى، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء، صحا الرجل الذاهل وسرى فى صدره دفء السرور، ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التى يغط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة، ومر فى طريقه بالدكان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق، وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه. وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة. وكان جو القهوة - على خلاف الجو البارد فى الخارج - دفئا يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج «النصبة»، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاى والقهوة، والراديو يذيع ما

فى جوفه فلا يلقى إلا الإعراض والإهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صما، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح، واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به، ولكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا غرضه، وقال له الدكتور البوشى:

- لا تفرط فى كسوة الآخرة. إن الإنسان ليعيش كثيرا فى دنياه عاريا، أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عاريا مهما كان فقره.

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالرفض والسخرية، حتى كف الرجل يائسا. وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم، وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه، وتمنوا له النجاح والثراء. وكان السيد رضوان الحسينى منهمكا فى حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والإرشاد، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول:

- . . . . فلا تقل مللت! الملل كفر. الملل مرض يعتور الايمان وهل معناه إلا الضيق بالحياة! . . ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى، فكيف لمؤمن أن يملها أو يضيق بها! . . ستقول ضقت بكيت وكيت، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه؟ . . أليس من الله ذى الجلال؟ . . فعالج الأمور بالحسنى، ولا تتمرد على صنع الخالق. لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها، بيد أن مرارة النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية. صدقنى إن للألم غبطته ولليأس لذته وللموت عظته، فكل شىء جميل وكل شىء لذيذ! . . كيف نضجر وللسماء هذه الزرقة، وللأرض هذه الخضرة، وللورد هذا الشذا، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان. كيف نضجر وفى الدنيا من نحبهم، ومن نعجب بهم، ومن يحبوننا، ومن يعجبون بنا. استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت . .

وحسا حسوة من قدح القرفة، ثم أردف وكأنه يعبر عن خلجات ضميره:

- أما المصائب فلنصمد لها بالحب، وسنقهرها به. الحب أشفى علاج. وفى مطاوى المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس فى بطون المناجم الصخرية، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب.

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشرا ونورا، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر. وكان كل شىء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلقا مضطربا. وكان نور عينيه صافيا نقيا ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأغراض. ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق فى دراسته الأزهرية، وإنه آيس من خلود الدنيا حين ثكل

الأبناء، ففزعت نفسه إلى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود!. . ولكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله، وكم منهم من سقط فريسة الجنون، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين؟!. . ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك فى إخلاصه، كان مؤمنا صادقا، ومحبا صادقا، وجوادا صادقا، ومن عجب أن يكون هذا الرجل ـ الذى طار صيته فى الخير والحب والجود كل مطار ـ حازما حاسما وعلى فظاظة وحرص فى بيته!. . ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقى فى هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذى يذعن لإرادته، ألا وهو زوجه!. . وإنه يشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها. ولكن ينبغى ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شىء. على أن زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه، ولولا الجروح التى تركها الأبناء تذكارا خالدا فى قلبها، لعدت نفسها امرأة سعيدة، فخورا بزوجها وحياتها.

أما المعلم كرشة فكان حاضرا غائبا، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة، وعانى مرارة الانتظار فى صمت كئيب. وكلما مرت دقائق لوى عنقه واشرأب به نحو مطلع الزقاق، ثم يعود إلى صندوق الماركات متصبرا متجلدا قائلا لنفسه: «سيأتى حتما، سيأتى كما أتى إخوان له من قبل». وتمثل له وجهه، ثم نظر إلى الكرسى القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئن إليه، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هذا الشاب إلى قهوته تسترا أو حياء، ثم افتضح أمره، وذاعت فضيحته، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهارا. وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حديثا فاضحا تتناقله الألسن، ويتلقفه بشغف أمثال الدكتور بوشى وأم حميدة، ولكنه لم يعبأ شيئا. وما تكاد النار تخمد إلى حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها إضراما، وكأنه وجد أخيرا فى الجهر لذة فلهج بها. وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكينة سبيلا إلى نفسه الملوثة، كأنه يجلس على مشواة، يكاد ينبرى عنقه من كثرة ليه، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث:

ـ هذه علامات الساعة!

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة، وأنشد يقول:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعباكما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع إن داعى الصبابة أسمعا

آه يا ست. الحب يساوى الملايين. . أنفقت فى حبك يا ست مائة ألف جنيه، وإنه لقدر زهيد.

وأخيرا رأى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد فى مطلع الزقاق، رآه يستوى جالسا وقد ابتسمت أساريره، فنظر إلى مدخل القهوة مترقبا، وما لبث أن طالعه وجه الشاب، وقد ألقى على السمار نظرة المتردد من عينيه الساجيتين.

٧

تقع الفرن فيما يلى قهوة كرشة، لصق بيت الست سنية عفيفى. بناء مربع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع، تحتل الفرن جانبه الأيسر، وتشغل الرفوف جدرانه: وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبا الدار: المعلمة حسنية وزوجها جعدة. وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن. وفى الجدار المواجه للمدخل يرى باب خشبى قصير يفتح على خرابة، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة، إذ ليس بها إلا كوة فى الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم. وعلى بعد ذراع من الكوة، وعلى رف ممتد، مصباح يشتعل، يلقى على المكان ضوءا خفيفا يفضح أرضه المتربة المغطاة بأنواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة، كأنها مزبلة. أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة، كأنه رف صيدلى لولا قذارته النادرة. وعلى الأرض - تحت الكوة مباشرة - كان يوجد شىء مكوم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق - على رغم كل شىء - فى لقب إنسان؟. ذلك هو زيطة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة. وحسبه أن يرى مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبدا، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان. ولم يكن زيطة - على ذلك - زنجيا، بل إنه مصرى أسمر اللون فى الأصل، ولكن القذارة الملبدة بعرق العمر كونت على جثته طبقة سوداء. كذلك جلبابه لم يكن فى البدء أسود، ولكن السواد مصير كل شىء فى هذه الخرابة. وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه، فلا يزور ولا يزار، لا نفع فيه لأحد ولا نفع فى أحد له، اللهم إلا الدكتور بوشى، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم. وأما صناعته فمعروفة لدى الجميع، وهى صناعة تخول له لقب دكتور وإن لم يتخذه إكراما لبوشى. كان يصنع العاهات، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد. يقصده الراغبون فى احتراف الشحاذة، فبفنه العجيب - الذى يحشد أدواته على الرف -

يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات. يجيئونه صحاحا ويغادرونه عميانا وكسحانا وأحدابا وقسعانا ومبتورى الأذرع أو الأرجل. وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته، وعلى رأسها جميعا اشتغاله عهدا طويلا فى سرك متجول، ولاتصاله بأوساط الشحاذين - اتصالا يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين شحاذين - فكر فى تطبيق فن «الماكياج» الذى تلقنه فى السرك على بعض الشحاذين، فى بادئ الأمر على سبيل الهواية، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش. ومن مشاق عمله أنه يبدأ فى الليل، أو عند منتصف الليل على الأصح، ولكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة، أما فى أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن، أو يتسلى بالتجسس على الفران والفرانة، ولكم كان يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، حتى إذا أتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء وقد أقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتباسطه السمر. وكان زيطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح وجهه! وفضلا عن ذلك كله كان يحسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» أو على حد تعبيره «امرأة بقرى!». وكان كثيرا ما يقول عنها إنها فى دنيا النساء تقابل عم كامل فى دنيا الرجال!. وكان من أهم الأسباب التى دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته المنتنة، فلم يكن الماء يعرف سبيلا إلى وجهه أو جسده. وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام! وبادل الناس مقتا بمقت عن طيب خاطر، فكان يرقص طربا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت، ويقول وكأنه يخاطب الميت: «جاء دورك لتذوق التراب الذى يؤذيك لونه ورائحته على جسدى!». وربما قطع وقت فراغه الطويل فى تخيل صنوف التعذيب التى يتمناها للناس واجدا فى ذلك لذة لا تعادلها لذة، يتصور جعدة الفران هدفا لعشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب!.. أو يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجىء ودمه يجرى نحو الصنادقية.. أو يتمثل له السيد رضوان الحسينى تجره الأيدى من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثم يستخرجونه منها زكيبة من الفحم.. أو يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب.. وغير هذا كثير مما يراه دون ما يستحق الناس. وكان إذا باشر عمله وأخذ فى صنع العاهة لطالبها، اشتد عليه فى قسوة مقصودة مستخفيا وراء سر المهنة، حتى إذا ندت التأوهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنونى. ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه، وتمنى كثيرا لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض.

هكذا جلس زيطة غارقا فى أخيلته يترقب وقت العمل، وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائما، نفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل. ثم تلمس طريقه إلى الباب وفتحه فى

هدوء بالغ، ثم اخترق الفرن إلى الزقاق. والتقى فى سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة، وكثيرا ما يلتقيان فى منتصف الليالى دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ولذلك كان للشيخ حظ موفور فى محكمة التفتيش التى ينصبها زيطة فى خياله للبشر. وانعطف صانع العاهات إلى سيدنا الحسين فى خطوات قصيرة وئيدة، وكان يقترب فى سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة - كانت بعض قيود الإضاءة ما تزال موجودة - فلا يراه المقبل فى الطريق حتى يصطدم بعينيه البراقتين يلمعان فى الظلام لمعان القطعة المعدنية فى حزام الشرطى. وفى الطريق، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور، فهو لا يشقه إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة. وشق ميدان الحسين منعطفا صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم، وجعل يردد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه، فملأه الارتياح.. ارتياح السيد إلى قوته، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة. ودنا من أقرب الشحاذين إليه، وكان جالسا القرفصاء معتمدا رأسه على ركبتيه ويغط غطيطا، فوقف حياله لحظة متفرسا كأنما يسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم، ثم ركله فى رأسه الأشعث، فانتبه الرجل من نومه - غير مذعور - كأنما أيقظته أنامل ناعمة، ورفع رأسه متثاقلا وهو يحك جنبيه وظهره بأظافره، فوقع بصره على الشبح المشرف عليه، وحملق فيه لحظة، فعرفه - على عماه - لأول وهلة. وتنهد الرجل فند عن صدره صوت كالوحوحة، ثم دس يده فى صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل. وانتقل زيطة إلى من يليه، ثم إلى من يليهما، حتى إذا فرغ من جناح القبو جميعا اتجه نحو الجناح الآخر، ثم مضى إلى الأزقة والحوارى المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد. ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التى صنعها، وربما سأل هذا أو ذاك «كيف عماك يا فلان؟» أو «كيف كساحك يا فلان؟» فيجيبونه «الحمد لله.. الحمد لله». ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع فى طريقه رغيفا وحلاوة طحينية وتبغا ورجع إلى الزقاق. كان الصمت شاملا يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسينى حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة.. وجاز الرجل عتبة الفرن فى هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين، ودفع بابه الخشبى فى حذر ورده فى سكون.. لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها، ولم تكن خالية. كان المصباح مشتعلا، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة. ودلف الرجل بينهم فى هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه، وعاينهم بعينيه البراقتين فعرف منهم الدكتور بوشى. ووقفوا له جميعا، وقال له الدكتور بوشى بعد أن حياه تحية طيبة:

- هاك رجلين مسكينين يستشفعان بى إليك..

فتظاهر زيطة بعدم المبالاة، وقال متظاهرا بالملل:

ـ فى مثل هذه الساعة يا دكتور؟!

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له:

ـ الليل ستار وربنا أمر بالستر!

فقال زيطة وهو ينفخ:

ـ ولكنى متعب الآن..!

فقال البوشى برجاء:

ـ لا رددت لى يدا.

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له، فتظاهر بإذعان مرغما، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرسا فى أناة وهدوء، ثم ثبتت عيناه على أطولهما، كان عملاقا قويا فدهش زيطة لمنظره وسأله:

ـ أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان، فلماذا تروم احتراف الشحاذة؟!

ـ فقال الرجل بصوت منكسر:

ـ لم أفلح فى عمل أبدا، حاولت أعمالا كثيرة، حتى الشحاذة نفسها، ولكن لم يقدر لى التوفيق، حظى أسود، وعقلى وسخ لا أفهم شيئا ولا أتقن شيئا..

فقال زيطة بحقد:

ـ كان ينبغى إذًا أن تولد غنيا..

ولم يفطن الرجل لمرماه، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت كالخوار:

ـ أخفقت فى كل شىء، حتى الشحاذة لم تجذب لى رحيما واحدا. كل الناس يقولون أنت قوى ويجب أن تشتغل، هذا إذا لم يشتمونى وينهرونى، لا أدرى لماذا!

فقال زيطة وهو يدلك رأسه:

ـ يا سلام. حتى هذا لا تدركه.

ـ الله يخليك ويجبر بخاطرك..

وكان زيطة لا يكف عن فحصه متفكرا، فقال بحزم وهو يغمز أعضاءه:

ـ أنت قوى حقا. أعضاؤك سليمة. إنى أعجب ماذا تأكل؟

ـ الخبز إذا وجد ولا شىء غيره.

ـ هذا جسم شيطانى بلا ريب. ترى ماذا تكون لو أكلت كما يأكل حيوانات الله التى يؤثرها بخيره ونعمته؟!

فقال الرجل ببساطة:

ـ لا أدرى . .

طبعا طبعا . . أنت لا تدرى شيئا ، فهمنا هذا ، وخير ما فعلت ، فلو كنت تدرى لانقلبت واحدا منا . اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك . . ولاح الانقباض فى الوجه الثور ، وأوشك أن يتباكى كرة أخرى لولا أن بادره زيطة قائلا :

ـ عسير أن أكسر لك رجلا أو ذراعا ، ومهما صنعت بك فلن تستثير عطف أحد . إن البغال أمثالك يثيرون الحنق أينما يحلون . ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشى ينتظر هذه العبارة بصبر نافد) فهناك طرق شتى ، أعلمك فن العته مثلا . وأنت لا ينقصك منه شىء ذو بال ، أجل العته ، وأحفظك بعضا من مدائح الرسول . .

فتهلل وجه الرجل ودعا له كثيرا ، حتى قاطعه زيطة متسائلا :

ـ لماذا لم تشتغل قطاع طرق؟

فقال الرجل بانكسار :

ـ أنا رجل طيب مسكين ، لا أقصد إنسانا بسوء ، وأحب آل البيت .

فقال زيطة باحتقار :

ـ أتبدؤنى أنا بهذه البوليتيكا . . ؟

ـ ثم التفت إلى الرجل الآخر ، كان قصيرا هزيلا ، فقال زيطة بارتياح :

ـ استعداد طيب . .

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتنا شاكرا :

ـ الحمد لله كثيرا . .

خلقت لتكون أعمى مقعدا .

فقال الرجل بسرور :

ـ هذا من فضل ربى .

فهز زيطة رأسه وقال ببطء :

ـ العملية دقيقة وخطيرة . ودعنى أسألك عن أسوأ الاحتمالات ، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فماذا تفعل؟

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

ـ نعمة من الله! وهل أفدت من بصرى شيئا حتى آسف على ضياعه؟

فقال زيطة بارتياح :

ـ بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقا . .

ـ بإذن الله يا سيدى . ستكون روحى ملك يديك ، سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون . .

ـ هذا كلام لا يجوز على ، حسبى مليمين غير أجر العملية ، وإنى أعرف كيف استخلص حقى إذا سولت لك نفسك المماطلة . .

وهنا قال البوشى محذرا :

ـ لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زيطة قائلا :

ـ طبعا . طبعا . . والآن فلنشرع فى العمل ، العملية شاقة ، ولسوف نمتحن قوة احتمالك ، فاكتم الألم ما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من هرس يديه القاسيتين ، فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانية . .

٨

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع فى الزقاق طول النهار . عمال كثيرون لا يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد فى تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجعجع أزيزها فيطبق على الصنادقية وما يتاخمها من الغورية والأزهر ، وتيار زاخر من الزبائن والعملاء . هى وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك فى أن انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث فى سوقها أثرا ملحوظا ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلا عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيد سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلقى إليها بالا كالشاى ، فغامر فى السوق السوداء ، وربح أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم فى نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخلى التى تحدق به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، وييسر له مراقبة العمال والحمالين والزبائن جميعا . لذلك كله فضل هذا المركز على الانفراد فى حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق ـ على حد تعبيره ـ «ينبغى أن يكون مفتوح العينين دائما» . وكان الرجل فى الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيرا فى مهنته ، قادرا على النهوض بأعبائها . ولم يكن من حديثى النعمة الذين أنجبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضا

«تاجر ابن تاجر»، بيد أنه لم يكن فى البدء معدودا من الأغنياء، ثم خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى أتخمتها بالثراء. على أن الرجل لم يخل من الهموم، وبحسبه أن يناضل فى الميدان وحده بلا معين ولا نصير. أجل كان ما يتمتع به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بأن يهون عليه همومه، ولكن لم يكن بد من التفكير فى الغد، القريب أو البعيد، إذا انصرم العمر أو كاد، وافتقدت الوكالة من يديرها. فمن المؤسف حقا أن أحدا من أبنائه الثلاثة لم يقع له فى خاطر أن يتقدم لمعاونة أبيه فى عمله، وكانوا جميعا سواء فى الإعراض عن التجارة، وضاعت محاولاته فى ثنيهم عن إعراضهم كلها سدى، فلم يجد مناصا - على بلوغه الخمسين - من النهوض بالأمر كله. وليس من شك فى أنه كان المسئول عن هذا الختام المرهق، فقد كان على رغم عقليته التجارية - جوادا كريما أو كان كذلك على الأقل فى بيته وبين أهله، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة أثاث وكثرة خدم وحشم. وفضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحلمية، فترعرع الأبناء فى وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم، وسط يضمر بلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعا، فتعلقوا بمثل عليا جديدة. بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته. وحين جد الجد تمردوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخا لهم، وشقوا سبيلهم إلى الحقوق والطب، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العينى. ومع ذلك كانت الحياة سعيدة، وقد بدت آثارها الطيبة فى جسمه البدين المتين، ووجهه الممتلئ المورد، وحيويته الشابة المتوثبة سعادة منشؤها أن كل شىء فى موضعه المأمول، تجارة رابحة، صحة جيدة، أسرة سعيدة. أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمأن إليها. وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع، تزوجن جميعا وبارك الله فى زيجاتهن. فبدا كل شىء باسما منبسطا لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير فى مصير الوكالة والتجارة. وبكرور الأيام تنبه الأبناء إلى متاعب الأب، ولكنهم قدروها من ناحية أخرى، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوما من يد والدهم، أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون. وكان أن قترح عليه أحدهم - محمد سليم علوان القاضى أن يصفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضال الطويل. بيد أن السيد لم يغب عنه حقيقةمخاوفه، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه، فقال له «أتريد أن ترثنى حيا!» ودهمه قوله هذا وهاله، لأنه وإخواته يحبون أباهم حبا صادقا، فلم يعد أحد منهم إلى طرق هذا الموضوع الخطير. ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فراحوا يقولون - واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة - إن شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال فى المصارف. وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذى يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرع

عنها، فهو يعلم حق العلم أن التجارة التى تدر المال بلا حساب قد تبتلعه أيضا فى ساعة نحس واحدة، وأن التاجر الذى يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق إذا وقعت هذه الساعة - وخاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلا أو زوجه - أن يخرج من شدته ببعض المال، وعسى أن يكون مالا كثيرا، لا صفر اليدين. وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدا. أجل إنه يعلم ذلك كله، ويعلم أن أبناءه على حق فيما يريدون، ولعل التفكير فى هذا الذى يريدون لم يكن جديدا عليه، ولكن هل تسمح ظروف الحرب الشروع فى مثل هذا العمل؟! كلا، هذا بين بلا ريب. وإذا فليؤجل إلى حين، وليطو فى نفسه حتى يتيسر تحقيقه. ولم يكد يحسب أنه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضى أيضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية. قال له: كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما.

وسره هذا الإطراء. وكان فى الحق - وعلى خلاف التجار الحصفاء - مغرما بالجاه والجلال، ولكنه تساءل فى سذاجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة، وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل، وتحمسوا له جميعا وإن اختلفوا فى الوسيلة. فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلى فيها بدلوه! حقا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا - فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلا، فكان مثله يضرع خاشعا إلى ضريح الحسين، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به. كان بإيجاز معدة قوية وجبة زاهية. بيد أن السياسة لا تحتاج فى كثير من الأحايين إلى أكثر من هذا، وقد مضى يفكر فى الأمر تفكيرا قويا، لولا أن اعترضه ابنه المحامى - عارف سليم علوان - فقال له محذرا:

- السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا. ستجد نفسك ملزما بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك، وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكرسى غير مضمون، وهل البرلمان فى بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدده السكتة فى أية لحظة! ثم أى حزب تختار؟ إذا اخترت حزبا غير الوفد أضعت مكانتك فى الوسط الذى تعمل فيه، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقى باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح.

وتأثر السيد بقول ابنه، وكان يثق فى أبنائه «المتعلمين» ثقة كبيرة، وزاده انحيازا إلى طرح السياسة جانبا جهله التام بشئونها، وبروده حيالها، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول.

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة. ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفورا طبيعيا من البذل والعطاء، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف، لأنه فى الواقع كان كرما لنفسه وبيته، على أنه لم يقطع بالرفض، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة، وما زال يطمع فيها ويريدها. وقد أدرك أنها تقتضيه قدرا من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه، فما عسى أن يصنع؟ لم يبت برأى قاطع، وإن قال لأبنائه «كلا» بيد أنه أضاف الرتبة إلى هومه الأخرى القائمة بلا فض كإدارة الوكالة وشراء العقار، تاركا أمر الجميع للمستقبل وللظروف.

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهى ليست بالخطر الذى ينغص صفو الحياة وخصوصا حياة رجل يستغرقه العمل نهارا، والغريزة ليلا، والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر فى شىء سواه، وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتباهه كله فى كلام سمسار يهودى، مستجمعا يقظته، مستحضرا حذره، يعجب لرقة محدثه ولطفه، حتى ليحسبه الجاهل صديقا ودودا، وهو فى الحقيقة نمر يتوثب، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن، والويل لمن يتمكن منه. وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد، وكان يساومه بصفقة شاى مضمونة الربح غزيرته، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاى أن يعرض عليه شراء عقار صالح - وكان على علم برغبته فى الشراء - ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع فى ذلك إلى ما بعد الحرب، وأبى أن يصغى إليه، فغادر الرجل الوكالة قانعا بصفقة واحدة. وجاء غير هذا الخواجا آخرون. وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة. وعند منتصف النهار نهض للغداء، وكان يتناول غداءه فى حجرة أنيقة أعد بها فراشا للمقيل. وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك. ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين. وفى أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة، فيسود السكون الزقاق جميعا، وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعا. هى طعام ووصفة فى آن واحد، وقد برع فى تهيئتها أحد عماله المقربين، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر فى زقاق المدق. هى صينية فريك محشو بالحمام، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب، يلتهمها فى الغداء، ويحتسى بعدها شايا مرتين أو ثلاث مرات، قدحا كل ساعتين، فتحدث مفعولها ليلا، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين فى بهجة خالصة! وقد ظلت الصينية سرا لا يدريه إلا الرجلان والمعلمة حسنية الفرانة. وكان

أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غذاء خالص، فيقول البعض: «بالهنا والشفا» ويغمغم البعض: «يطفحها سما بإذن الله!». ثم لعب الطمع يوما بقلب المعلمة حسنية، فسولت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة فى زوجها جعدة الفران، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص، ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا، ولاحظ بسهولة ما طرأ من تغير على لياليه، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذى يهيىء الوصفة. فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك فى الفرانة، واكتشف السرقة بغير صعوبة، فدعا الفرانة ووبخها، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنها، مستبدلا بها الفرن الأفرنجى بالسكة الجديدة. وبدأ السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة، وكان فى ذلك الكفاية كل الكفاية، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعا، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز. وأدرك السيد غاضبا أن سره قد افتضح، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلا! أجل. قطع أكثر عمره فى الزقاق، ولكنه لم يكن يوما من أهله، ولم يعمل لواحد منهم حسابا، ولولا السيد رضوان الحسينى والشيخ درويش لما عنى برفع يده تحية. وكادت الصينية تصبح فى وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعا، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد. فجربها المعلم كرشة والدكتور بوشى، حتى السيد رضوان الحسينى ذاقها بعد أن تأكد أنها لا تحوى مادة يحرمها الشرع الحنيف! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر، والواقع أنه كان يضطرب من الحياة فى مضطرب ضيق نهاره نهب للوكالة، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس، فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى، ولا شىء مطلقا إلا زوجه، ولذلك تفنن فى مسراته الزوجية تفننا شذ بها عن جادة الاعتدال.

* * *

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى، وارتدى قفطانه وجبته، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاى الثانى مهيأ، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشآت مجعجعة يدوى صداها فى الفناء الداخلى، وأقبل على عمله بنفس الهمة التى استقبله بها فى الصباح ولكنه كان يبدو فى فترات وكأن قلقا ينتابه. كان يتلفت نحو الزقاق، وكان ينظر فى ساعته الذهبية الضخمة، وكان يعبث بأنفه على غير شعور منه. وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق، أدار مقعده اللولبى وجعل وجهه للطريق. ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق. ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع شبشب على أحجار الطريق المنحدر، ثم مرت حميدة أمام باب الوكالة فى ثوان معدودات، وفتل شاربه بعناية، ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح فى عينيه السرور، وإن

وجد شعورا بعدم الارتياح! من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق. ولم يكن يتاح له رؤيتها فى غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها فى أويقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريح أعصابه بالمشى. كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزلته وكرامته، فهو السيد سليم، وهى فتاة مسكينة، والزقاق زاخر بالألسن الحداد والأعين المتطفلة. وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكرا. أجل هى مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم واأسفاه، والنفس أمارة بالسوء! مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزى ونظرة عينيها وقدها الممشوق، كل أولئك مزايا تستهين حقا بفوارق الطبقات! وما جدوي المكابرة؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح، والجسم الذى يقطر إغراء، وهذه العجيزة الأنيقة التى تزرى بورع الشيوخ. إنها أنفس من وارد الهند جميعا. ولقد عرفها منذ كانت صبية صغيرة تتردد على الوكالة لابتياع ما تحتاجه أمها من الحناء ومواد المفتقة والمغات. رأى ثدييها وهما نبقتان ثم وهما دومتان، حتى استوتا رمانتين. وعاين عجيزتها وهى أساس أملس لم ينهض عليه بناء، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج، وأخيرا وهى كرة تنضح أناقة وأنوثة. وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى أفرخ فى النهاية رغبة عارمة. إنه يعلم ذلك، ولم يعد يحاول إنكاره. ولطالما قال لنفسه: «ليتها كانت أرملة كالست سنية عفيفى!» لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجا. أما وهى عذراء فينبغى أن يطيل التفكير فى أمره. وتساءل كما اعتاد أن يتساءل: ماذا يروم؟ وذكر وهو لا يدرى زوجه وأسرته. كانت زوجه امرأة فاضلة، تتحلى بكل ما يحب الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة فى شئون البيت، وكانت على شبابها مليحة ولودا. فهو لا يأخذ عليها نقيصة واحدة، وفضلا عن ذلك كله كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيرا فى الأصل والمحتد. وهو يقر بفضلها جميعا، ويضمر لها ودا صادقا، ولا يضايقه إلا أنها استوفت شبابها وحيويتها، فقصرت عن مجاراته، وعجزت عن احتماله، فبدا بالقياس إليها - وبسبب حيويته الخارقة - شابا نهما لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع! والحق أنه لا يدرى إن كان ذلك ما علقه بحميدة، أم أن هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم! ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم إلى دم جديد!، وقال لنفسه صراحة: «مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها!». على أنه كان رجلا محترما، حريصا جدا على أن يقر له كل إنسان بالاحترام، ويكربه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه. كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب، وكان يقول مع القائلين: «كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس». وإنه ليأكل صينية الفريك، أما حميدة.. ! رباه! لو كانت من أسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها. ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة عفت؟! وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت يوما المرحومة ألفت هانم؟! وعلى أى وجه تكون حميدة

امرأة أب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم؟! وهناك أمور أخرى ـ لا تقل عن هذه خطورة ـ ينبغى تقديرها حق قدرها، هنالك بيت جديد لابد ـ فى هذه الحالة ـ أن يتهيأ، ونفقات جديدة ربما ضاعفت من نفقاته القديمة، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتماسكة، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء. وفى سبيل أى شىء كل هذه المتاعب؟.. ميل رجل ـ بل زوج وأب ـ فى الخمسين لفتاة فى العشرين! لم يغب عنه شىء من هذا، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة، ومضى يراجع نفسه حائرا مترددا لا يقر له قرار. وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة فى حياته، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كإدارة الوكالة ومستقبلها، وشراء العقار وتشييد العمارات، ورتبة البكوية، بيد أنها كانت أشد إلحاحا وأبعث شجنا.

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومد له حبل التفكير، أما إذا خطرت حميدة أمام عينيه، أو لاحت لهما فى النافذة، فلم يكن يفكر إلا فى أمر واحد..

٩

أصبحت أم حسين ـ امرأة المعلم كرشة ـ فى هم مقيم. فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمر دون تساؤل، خصوصا إذا كان انقطاعها فى الماضى يقترن دائما بشر مستطير. وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصح أن تقطع لغير سبب خطير، فراح يمضى سهرته الليلية بعيدا عن البيت، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم السهر حتى مطلع الفجر. وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذى ينغص عليها صفو الحياة. ما الذى يدعوه إلى قضاء الليل خارج داره؟ أيكون ذاك السبب القديم؟ ذاك الداء الوبيل؟. سيقول الفاجر إنه مجرد تغيير يراد به دفع الملل، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء، ولكن هيهات تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة، وإنها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعا. لذلك أصبحت المرأة فى هم مقيم، وباتت تتحرق على فعل شىء حاسم مهما كانت عواقبه. وكانت امرأة قوية ـ على دنوها من الخمسين ـ لا تنقصها أسباب الجراءة التى تجاوز الحد فى كثير من الأحايين، وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس ـ كحسنية الفرانة وأم حميدة ـ واشتهرت بوجه خاص لما يقع بينها وبين زوجها من دواعى الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل! كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفطس. وكانت زوجا ولودا، أنجبت بناتا ستا وذكرا

واحدا هو حسين كرشة وجميع بناتها متزوجات، وجميعهن يحيين حياة زوجية مقلقة، لا تخلو من نكد وإن كانت تسير ولا تنقطع. وقد حدثت لصغراهن مأساة كانت حديث الزقاق يوما، إذ اختفت بغتة فى عامها الأول من الزواج، ثم ضبطت فى بيت عامل ببولاق، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن. كانت مأساة الفتاة كربا شديدا للأسرة، ولكنها لم تكن المأساة الوحيدة التى ابتليت بها، فللمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء. وكانت أم حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفى عليها من الأمر، فراحت تستخبر عم كامل وتستنطق سنقر صبى القهوة حتى علمت بالشاب الذى أخذ يتردد فى عهده الأخير على القهوة فيحتفى به المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاى بنفسه!.. وأخذت تراقب القهوة خفية حتى رأت الشاب بنفسها وشاهدت مجلسه إلى يمين المعلم، ولمست احتفاءه به. وجن جنونها ونكأ الجديد القديم من جروحها، فباتت ليلة جهنمية، وأصبحت على شر حال وأسوأ نفس. ولم يكن رأيها قد استقر على حال، كانت تغلى غليانا ولكنها لا تدرى أى سبيل تسلك. ولطالما جربت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردد عن إعادة الكرة، بيد أنها تريثت قليلا ـ لا تأففا منه ـ ولكن دفعا لشماتة الشامتين. وكان حسين كرشة يتهيأ للخروج إلى عمله فقصدته هائجة النفس ثائرتها، وقالت له بانفعال شديد:

ـ يا بنى أما علمت أن أباك يعد لنا فضيحة جديدة؟

وأدرك حسين لتوه ما تعنيه!.. فلا يمكن أن يعنى قولها إلا معنى واحدا معروفا مشهورا. وامتلأ حنقا، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منهما الشرر. ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يوما من المتاعب والفضائح. ولم تكن دواعى السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح. كان برما بكل شيء مما حوله. ولعل برمه هذا الذى دفعه إلى الارتماء بين أحضان الجيش البريطانى. ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكنه وتطامنه، فضاق بآله وببيته وبالزقاق جميعا. وجاء أخيرا قول أمه نفطا على لهيب، فقال غاضبا:

ـ ماذا تريدين؟.. وما حيلتى فى هذا كله!.. لقد تدخلت فيما سلف وحاولت الإصلاح، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب، فهل تريديننى على أن أمسك بتلابيب أبى؟!

لم يكن يعنيه الإثم فى ذاته، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسة، وما يشعله فى البيت من نيران السباب والشتائم والعراك. أما الإثم ذاته فلم يكن يهمه على الاطلاق، بل إنه حين تناهى إليه خبره أول مرة هز منكبيه استهانة وقال دون مبالاة: «إنه رجل والرجل لا يعيبه شيء!». ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرين. وكانت علاقته بأبيه فى الأصل متوترة، ذلك التوتر الذى ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين، فكلاهما فظ شرس غضوب، ثم

جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقهما حتى أصبحا كعدوين، يتحاربان حينا، ويتهادنان حينا، ولا يسكت عنهما السخط أبدا.

ولم تدر أم حسين ماذا تقول، ولكنها لم تراجعه أن تكون السبب فى إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه، وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضبا شاتما، وقطعت نهارها على أسوأ حال. ولم تكن تذعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الآثم ولو عرضها ذلك لشماتة الشامتين، بيد أنها رأت أن تقدم إنذارها بين يدى بأسها، فانتظرت حتى انتصف الليل، وتفرق السمار، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة، ثم نادته من النافذة!.. فصعد الرجل رأسه منزعجا وعلا صوته متسائلا:

- ماذا تريدين يا أم حسين؟

فجاءه صوتها يقول:

- اصعد يا معلم لأمر هام..

وأومأ المعلم لفتاه أن ينتظر حيث هو، وراح يرتقى السلاليم متثاقلا، ووقف على عتبة باب شقته لاهثا، ثم سألها بصوته الغليظ:

- ماذا تريدين؟.. أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايلها كأنه يتحاشى أن يخرق حرمة بيت غريب، فتميزت غيظا، وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب، فقالت وهى تغالب انفعالها:

- تفضل بالدخول يا معلم.

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقا ما تريد أن تقوله ثم سألها بخشونة:

- ماذا تريدين؟.. انطقى!

يا له من رجل نافد الصبر!.. يقطع الليالى الطوال خارج البيت دون ملل، ولكنه يضيق ذرعا بحديث دقيقتين معها. ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس، وأبو أبنائها جميعا، ومن عجب أنها لم تستطع - على إساءته إليها - أن تبغضه أو تهمل شأنه. فهو رجلها وسيدها الذى لاتنى عن الاستئثار به، واسترداده كلما مد الإثم يدا لاختطافه. بل إنها لفخور به حقا، فخور بفحولته ومكانته فى الزقاق وسيطرته على المعلمين من أقرانه، ولولا هذه النقيصة المنكرة لما وجدت له ضريعا فى الدنيا. ها هو يستجيب لداعى الشيطان، ويود لو أعفته من حديثها لينطلق إليه من توه!.. واشتد بها الغيظ فقالت بحدة:

ـ ادخل أولا . . لماذا تقف على العتبة كالأغراب؟!

فنفخ المعلم مغيظا محنقا، وجاز العتبة إلى الدهليز برما ساخطا وهو يتساءل بصوته الأجش:

ـ ماذا وراءك؟

قالت وهى ترد الباب:

ـ استرح قليلا . . لدى كلمة قصيرة . .

ونظر إليها مستريبا! . . ماذا تريد المرأة؟ . . هل تعترض سبيله مرة أخرى؟! . . وصاح بها:

ـ تكلمى لماذا تضيعين الوقت سدى؟

فسألته بحنق:

ـ أمتعجل أنت يا معلم؟

ـ أتجهلين هذا؟

ـ ما الذى يدعو لهذه العجلة؟

فازدادت ريبته، وامتلأ صدره حنقا، وتساءل إلام يحتمل هذه المرأة؟ . . كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة. كان يكرهها حينا ويحبها حينا آخر. ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جره الإثم إلى هاويته، ويزيد الأمر وبالا إذا توثبت المرأة للانقضاض عليه. وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو كانت امرأته «عاقلة» فتركته وشأنه. ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائما، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر! . . أليس من حقه أن يفعل ما يشاء؟ . . وأليس من واجبها أن تطيع، وأن ترضى ما دامت حاجاتها مقضية ورزقها موفورا؟! . . وقد أمست من ضرورات حياته، كالنوم والحشيش والبيت بخيرها وبشرها، فلم يفكر جادا فى التخلص منها، ولو أراد ما منعه مانع، ولكنها كانت تملأ فراغا، وتقوم على العناية بأمره، ويريدها ـ على أية حال ـ زوجا له! . . ولكنه تساءل على رغم هذا كله ـ فى حنقه ـ إلا يحتمل هذه المرأة؟ . . وصاح بها:

ـ لا تكونى حمقاء وتكلمى أو دعينى أذهب لحال سبيلى.

سألته باستياء وحنق:

ـ ألا تجد قولا أفضل من هذا تخاطبنى به؟

فزمجر المعلم قائلا:

ـ الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه: والأفضل أن تنامى شأن النساء العاقلات.

ـ ليتك تنام أيضا شأن الرجال العقلاء!

فضرب المعلم كفا بكف وصاح :

ـ كيف لى بالنوم فى هذه الساعة؟

ـ فلماذا خلق الله الليل؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ :

ـ ومتى كنت أنام الليل؟ . . هل أنا مريض يا مرة؟!

فقالت بلهجة ذات معنى خاص علمت أنه سيدركه من فوره :

ـ تب إلى الله يا معلم وادع الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخرة!

وأدرك ما تريد، وقطع الشك باليقين، ولكنه قال متجاهلا وهو يتميز غيظا :

ـ ما فى السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه .

فزادها تجاهله لها حنقا وقالت :

ـ تب عن الليل وعما فى الليل!

فقال المعلم بخبث :

ـ أتريديننى أن أهجر حياتى!

فصاحت به وقد غلبها الغضب :

ـ حيــاتك!

فقال بخبث :

ـ أجل . الحشيش حياتى!

فتطاير الشرر من عينيها وهى تقول وقد حدثتها نفسها بأن تصك خديه السوداوين :

ـ والحشيش الآخر؟!

فقال متهكما :

ـ أنا لا أحرق إلا صنفا واحدا .

ـ أنت لا تحرق إلاى . لماذا لا تسهر فى مكانك المعتاد من السطح!

ـ ولماذا لا أسهر حيث يروقنى السهر؟ . . على السطح، فى المحافظة، فى قسم الجمالية؟ . . ما شأنك أنت؟

ـ لماذا غيرت مكان سهرتك؟

فصعد الرجل رأسه وصاح :

ـ اللهم فاشهد . أعفيتنى حتى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لى محكمة دائمة فى بيتى (ثم طامن رأسه كرة أخرى واستدرك)، ألا فاعلمى أن بيتنا قد أصبح مشبوها، والمخبرون يجوسون حوله .

فسألته بسخرية مرة :

ـ ترى هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذين أطاروك عن عشك .

آه، صار التلميح تصريحا! . . وأربد وجهه الضارب للسواد، وسألها بصوت ينم عن الضجر :

ـ أى شاب هذا؟

ـ الفاجر الذى تقدم له الشاى بنفسك كأنك رددت صبيا كسنقر !

ـ ما فى ذلك من عيب، فالمعلم يخدم زبائنه كالصبى سواء بسواء .

فسألته متهكمة بصوت متهدج من الغضب :

ـ لماذا لا تخدم عم كامل مثلا؟ . . لماذا لا تخدم إلا الفاجر؟

ـ الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد!

ـ الكلام سهل على من يريده، ولكن فعلك فاضح فاجر .

فأومأ إليها بيده منذرا وهو يقول :

ـ امسكى لسانك يا مجنونة .

ـ الناس جميعا يكبرون فيعقلون . .

فقرض أسنانه وسب ولعن، ولكنها لم تباله واستطردت تقول :

ـ أناس يكبرون فيعقلون، أما أنت فكلما كبرت قل عقلك .

ـ خرفت يا مرة! . . خرفت وحياة الحسين! . . عليه العوض!

فصاحت بصوت غليظ مرتعش النبرات :

ـ الرجال أمثالك يستأهلون العذاب. هلا كفيتنا شر الفضائح! . . هلا كفيتنا ذل الشماتة!

ـ عليه العوض! . . عليه العوض!

وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة :

ـ اليوم تسمعنى أربعة جدران، غدا تسمعنى الحارة كلها؟

فرفع جفنيه الثقيلين وسألها بقوة :

ـ تهددينني؟!

ـ أهددك، وأهدد أهلك! . . أنت تعرف من أنا!

ـ يبدو أنى سأهشم هذا الرأس الخرف!

ـ هىء . . هىء . . والله ما ترك الحشيش والفجر قوة فى ساعديك، والله ما تستطيع أن ترفع يدا! . . انتهيت، انتهيت يا معلم .

ـ انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال إلا النساء!

ـ أسفى على من دون النساء جميعا!

ـ لمه؟ . . خلفت بناتا ستا ورجلا . . غير حالات الإجهاض والسقط .

فصاحت فى غضب جنونى :

ـ ألا تستحى من ذكر الأبناء؟ . . ألا يزجرك ذلك عما تتردى فيه من الفجور!

فضرب الجدار بقبضته، وتحول عن موقفه متجها نحو الباب، وهو يقول :

ـ امرأة مجنونة خرفة . .

فصرخت وراءه :

ـ هل نفد صبرك حقا؟ . . أتشفق عليه من طول الانتظار؟ . . سترى عاقبة فجرك يا داعر؟

وأغلق المعلم الباب بعنف، فرنت صفقته رنينا مدويا مزق سكون الليل، وجعلت أم حسين تكور يدها فى غضب وحنق، وقد امتلأت نفسها رغبة فى الانتقام .

١٠

ألقى عباس الحلو على صورته فى المرآة نظرة فاحصة ناقدة حتى لاحت فى عينيه البارزتين نظرة ارتياح : وكان قد رجل شعره بأناة، ونفض الغبار عن بدلته بعناية، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر . هى ساعة الأصيل المحبوبة، والسماء صافية عميقة الزرقة، والجو ملطف بدفء طارئ جادت به الطبيعة غب رذاذ اتصل يوما كاملا، وقد اغتسلت أرض الزقاق التى لا تستحم إلا مرتين أو ثلاثا فى العام، وظلت بعض منخفضات الصنادقية مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغير يهوم على كرسيه، فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة، وما لبث أن دب الوجد فى أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هلبت يا قلبى على طول الزمن ترتاح

وتنول وصال اللى تهوى، وفيه ترتاح

مسير جروحك على طول الزمن تبرى

ويجيلك الطب. لا تعلم ولا تدرى

مثل سمعناه منقول عن ذوى الخبرة

الصبر يا مبتلى، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عم كامل عينيه وتثاءب، ثم نظر إلى الشاب الواقف على باب دكانه، فضحك هذا وعبر الطريق إليه وقرصه فى ثديه الهش، وقال بسرور :

ـ عشقنا وستضحك لنا الدنيا .

فتنهد عم كامل وقال بصوته الرفيع :

ـ مبارك يا عم، ولكن هلا سلمتنى الكفن قبل أن تبيعه لتحصل على المهر !

فضحك عباس الحلو ضحكة عالية، وغادر الزقاق متمهلا . كان يرتدى بدلته الرمادية، وهى الوحيدة أيضا، وكان قد قلبها منذ عام، ثم رفا الرفاء بعض أطرافها، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها، فبدا ـ على نحو ما ـ أنيقا ! . . وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة، ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذى يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا بالحب، للحب، ويدور بجناحيه الملائكيين فى سماء السرور . وكان حبه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة، يهوى الثديين كما يهوى العينين ويلتمس وراء الثديين حرارة الجسد، كما يتلمس فى العينين نشوة غامضة ساحرة . وقد سر سرور الظفر يوم تعرض للفتاة فى الدراسة، وصور له خياله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السلبى الذى تلبى به النساء نداء الهوى . واستأثرت به النشوة أياما، ثم مضت حماسته تفتر ونشوته تخبو، لا لجديد جد، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا يظن الإعراض دلالا؟! . . ولم لا يكون إعراضا حقا؟! . . ألأنها صدته فى غير قسوة ولا فظاظة؟ . . ولكن هل يتوقع الإنسان من جارة العمر أقل من هذه المجاملة؟ . . حقا لقد غالى فى سروره، وإنها لنشوة كاذبة . بيد أنه لم ينكص على عقبيه، وكان كلما لسعه الشك اندفع فى سبيله ذائدا عن سعادته . كان عند الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة، وفى المساء يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها، يدخن الجوزة، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشباك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب . ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية فى الدراسة، ولكنها صدته كما صدته أول مرة، وأعاد الكرة فأفلتت منه أيضا . ولكنه رجع وقد عاوده الأمل وأظله الفرح والسرور . وقال لنفسه إن السعادة مهيأة له ولا تقتضيه إلا مزيدا من الشجاعة والصبر . وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئا شجاعة وثقة وهياما، ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانتحى جانبا حتى مررن به، ثم تبعهن متمهلا . وقد لاحظ أن أعين البنات يثقبنه بخبث مريب فداخله سرور وزهو، وتابع سيره حتى انفرط عقدهن عند نهاية الدراسة، فحث خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعثرة بالارتباك، وغمغم بتحيته المحفوظة :

ـ مساء الخير يا حميدة . .

كانت تنتظره بلا ريب، ولكنها كانت فى حيرة من أمر نفسها . لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه، ولعل كونه الفتى الوحيد الذى يصلح لها فى الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صده بحزم وفظاظة . فأغضت عن تعرضه لسبيلها مرة أخرى، مكتفية بزجر لين، وإفلات لطيف، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته، وكانت على رغم تجربتها المحدودة فى الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذى يضرمه نزوعها الغريزى إلى القوة والجموح والسيطرة والعراك! . . حقا كانت تهيج جنونا إذا قرأت فى نظرة عين معنى للتحدى أو الثقة، ولكن لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديعة الطيبة التى تلوح دواما فى عينى الحلو، وتولاها شعور بالحيرة والقلق لترددها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها فى الزقاق، والنفور منه لا ينهض على أسباب واضحة يطمأن إليها . فلا ميل صريح ولا نفور صريح . ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت فى نبذه والقسوة عليه . لذلك أحبت مجاراته، وسبر غوره، واستخراج مكنون لسانه، لعلها تجد فى ذلك كله أو فى بعضه مخرجا لها من حيرتها المؤسية . وخاف الفتى أن يمتد صمتها حتى ينطوى الطريق، فغمغم كالضارع :

ـ مساء الخير . .

وانبسط وجهها البرنزى الجميل، وتمهلت فى مشيتها وهى تنفخ فى ضجر مصطنع قائلة :

ـ ماذا تريد!

ولمح انبساط وجهها فلم يعبأ بضجرها، وقال بأمل ورجاء :

ـ ميلى بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك .

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة إلى الأزهر، فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحا . ورجع رأسها صدى هذه الكلمات «طريق مأمون . . الظلام وشيك»، فأدركت أنها تقارف فعلا تحاذر عليه أعين الرقباء . وابتسمت بجانب ثغرها فى تحد! . . كانت «الأخلاق» أهون شىء على نفسها المتمردة، وقد نشأت فى جو لا يكاد يتفيأ ظلها، أو يتقيد بأغلالها . وزادها استهانة طبع جموح وأم مهملة قليلا ما تستكن فى بيتها، فانطلقت على سجيتها تخاصم هذه وتعارك تلك فلا تعمل لشىء حسابا، ولا تقيم لفضيلة وزنا . وأما عباس الحلو فقد لحق بها، وسار لصقها وهو يقول بصوت ينم عن الفرح والسرور :

ـ دمت من فتاة كريمة . . !

ولكنها قالت له فى شبه ضجر :

ـ ماذا تريد منى؟

فقال الفتى وهو يتمالك أنفاسه المضطربة :

ـ الصبر طيب يا حميدة، تلطفى معى ولا تكونى قاسية على .

فعطفت نحوه رأسها وهى تغطيه بطرف ملاءتها وقالت بحدة :

ـ هلا قلت لى ماذا تريد!

ـ الصبر طيب . . أريد . . أريد كل شىء طيب .

فقالت بتأفف :

ـ لا تريد أن تقول شيئا، ونحن نجد فى السير فنبتعد عن طريقنا، والوقت يمضى، وأنا لا أستطيع أن أتأخر عن موعد عودتى .

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

ـ سنعود فى وقت قريب فلا تخافى ولا تجزعى . وسنجد عذرا تنتحلينه لأمك، إنك تفكرين كثيرا فى الدقائق أما أنا فأفكر فى العمر كله، فى حياتنا جميعا، هذا هو شغلى الشاغل . ألا تصدقيننى؟ . . إنه جل تفكيرى وهمى وحياة الحسين الذى يبارك هذا الحى الطاهر . . !

كان يتكلم فى بساطة وصدق فشعرت بحرارة حديثه، ووجدت لذة فى الإصغاء إليه، وإن لم يتحرك قلبها الجامد، فتناست حيرتها المعذبة، وألقت إليه بانتباهها، ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت، وتشجع الفتى فاستدرك قائلا فى انفعال :

ـ لا تعدى على الدقائق ولا تلقى على هذا السؤال الغريب . تسأليننى يا حميدة عما أريد، أتجهلين حقا ما أريد قوله؟! . . لماذا أتعرض لك فى الطريق؟ . . لماذا أتبع عينى ظلك حيث تكونين؟ . . لك ما تشائين يا حميدة . ألم تقرئى شيئا فى عينى؟ . . يقولون إن قلب المؤمن دليله؟ . . فماذا علمت؟ . . أسألى نفسك . أسألى أهل الزقاق جميعا، كلهم يعرفون .

وقطبت الفتاة وتمتمت وهى لا تدرى :

ـ فضحتنى . . !

فهاله قولها، وهتف متأثرا :

ـ لا فضيحة فى حياتنا وما أكن لك إلا الخير، وهذا الحسين يشهد قولى ويعلم بسريرتى . أنا أحبك، ولطالما أحببتك، أحبك أكثر مما تحبك أمك، وأحلف لك على صدقى بالحسين، وجد الحسين ورب الحسين .

وشعرت بسرور ولذة، ودخلها زهو تملق نزوعها الجامح إلى القوة والسيطرة . والحق

أن كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الآذان ولو لم ترجع القلوب أنغامها، فهى كالأفاويه للنفس المسدودة! . . بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر إلى المستقبل، فتساءلت ترى كيف تكون حياتها فى كنفه لو صدقت الأيام أمله؟ . . إنه فقير، رزقه كفاف يومه، ولسوف يأخذها من الطابق الثانى لبيت الست سنية عفيفى إلى الطابق الأرضى فى بيت السيد رضوان الحسينى. وأحسن ما يمكن أن تجهزها أمها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأوانى النحاسية. ولا يدخر لها بعد ذلك إلا الكنس والطبخ والغسل والإرضاع. وربما قطعت طريقها حافية فى جلباب مرقع. وريعت كأنما اطلعت على مشهد مخيف. وتحرك فى أعماقها هيامها المفرط بالثياب، وتيقظ ذلك النفور الوحشى من الأطفال الذى تعيرها به نسوة الزقاق. وعاودتها حيرتها المعذبة، فلم تدر أأصابت أم أخطأت فى مطاوعتها له وسيرها معه. وكان عباس ينعم إليها النظر فى افتتان وهيام وأمل، فأول صمتها وتفكيرها على هواه، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده:

- لماذا تصمتين يا حميدة! . . كلمة واحدة تشفى الفؤاد وتغير الدنيا. كلمة واحدة تكفينى. تكلمى يا حميدة. اخرجى عن هذا الصمت.

ولكنها لم تنبس بكلمة، وظلت فريسة للحيرة، فاستطرد عباس قائلا:

- كلمة واحدة تملأ روحى أملا وسعادة. لعلك لا تدرين ما فعله حبك بى! . . إنه يبعث فى روحا جديدة لا عهد لى بها! . . إنه يخلقنى خلقا جديدا، ويدفعنى لاقتحام الدنيا غير هياب، أما علمت هذا؟ . . لقد استيقظت من سباتى، وغدا تريننى شخصا جديدا.

ماذا يعنى؟ . . وانعطف رأسها كالمتسائل. فانشرح صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار:

- أجل. توكلت على الله وسأجرب حظى كالآخرين. سألتحق بخدمة الجيش البريطانى، وعسى أن يصادفنى من التوفيق ما صادف أخاك حسين.

فلاح الاهتمام فى عينيها وسألته على غير وعى منها:

- حقا. . متى يكون ذلك؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدثه حديثا آخر، وأن يلمس انفعالها قبل أن يستثير اهتمامها. أن يسمع هذه الكلمة العذبة التى تذوب نفسه شوقا لسماعها، ولكنه ظن هذا الاهتمام قناعا نسجه الحياء ليستر به عاطفة مشبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرها. واهتز صدره فرحا، وقال مفتر الثغر:

- عما قريب أسافر إلى التل الكبير، وسأشتغل بادئ الأمر بيومية مقدارها خمسة

وعشرون قرشا، وقد أكد لى جميع الذين استشرتهم فى الأمر أن هذا المقدار قليل من كثير مما يصيب جميع المشتغلين فى الجيش. وسأجعل همى فى أن أوفر من يوميتى أقصى ما أستطيع توفيره، حتى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب ـ وهى بعيدة كما يقولون ـ فتحت صالونا جديداً فى السكة الجديدة أو شارع الأزهر، واستقبلت حياة رغيدة ننعم بها.. معا.. إن شاء الله. ادعى لى يا حميدة.

هذا شىء جديد لم يخطر لها ببال. وإذا كان الفتى جادا فقد حقق لها كثيرا مما تصبو إليه نفسها. وإن نفسا كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن يروضها المال ويستأنسها. وغمغم عباس معاتبا:

ـ ألا تريدين أن تدعى لى؟

فقالت بصوت خافت وقع من أذنيه موقعا جميلا وإن كان صوتها نقطة ضعف فى جمالها:

ـ الله يوفق خطاك.

فتنهد مسرورا وقال:

ـ آمين. استجب لها يارب. ستبسم لنا الدنيا بإذن الله. ارضى أنت على ترضى الدنيا جميعا.. أنا لا أسألك شيئا إلا الرضا.

وأخذت تخرج من حيرتها رويدا رويدا، فقد وجدت فى الظلمة التى كانت تتخبط فيها بصيص نور. نور الذهب اللامع. وإذا كان شخصه لا يرضيها، ولا يحرك أنوثتها، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذى يستهويها، ويلبى نزوعها الصارخ إلى القوة والجاه. وهو بعد هذا كله ـ وقبل هذا أيضا ـ الفتى الوحيد الصالح فى الزقاق!.. أجل، هذا حق لا ريب فيه. وقد خامرها شعور بالارتياح، وأنصتت إليه وهو يقول:

ـ ألا تسمعيننى يا حميدة؟.. أنا لا أسألك إلا الرضا!

فارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة، وغمغمت:

ـ وفقك الله..

فعاد يقول فى ابتهاج:

ـ ليس من الضرورى أن ننتظر حتى نهاية الحرب!.. سنكون أسعد مخلوقين فى الزقاق.

وقطبت فى تقزز، وندت عنها هذه الكلمة بلا وعى، وفى إزدراء شديد:

ـ زقاق المدق!

فنظر إليها فى ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذى يحبه ويؤثره على الدنيا

جميعا. وتساءل منزعجا: ترى هل تزدرى هذا الزقاق الطيب كأخيها حسين؟ . . حقا لقد رضعا من ثدى واحد! . . وأراد أن يمحو ما تركه فيها من أثر سيئ فقال:

ـ نختار المكان الذى تحبين. هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضى، اختارى بيتك حيثما تشائين!

وتنبهت لقوله فى حيرة، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغى، وأن لسانها خانها بلا وعى منها، فعضت على شفتها، ثم قالت بإنكار:

ـ بيتى؟! . . أى بيت تعنى؟! . . ما شأنى أنا فى هذا الأمر!

فهتف بها فى عتاب:

كيف تقولين هذا القول؟ . . ألم يكفك ما عانيت من عذاب؟ . . ألا تدرين أى بيت أعنى؟ . . سامحك الله يا حميدة. أعنى البيت الذى سنختاره معا، بل الذى تختارينه أنت وحدك، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعا. وإنى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمت. ولقد دعوت لى بالتوفيق، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة. اتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر.

هل اتفقا حقا؟ . . أجل اتفقا! . . ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض فى أحلام المستقبل. وماذا يضيرها من ذلك؟ . . أليس هو فتاها على أى حال؟ . . ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد. أحقا أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئا؟ . . وأحست عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفى على أناملها الباردة حرارة ودفئا. أتنتزعها منه وتقول له: «كلا . . لا شأن لى فى هذا الأمر!». ولكنها لم تفعل شيئا، ولم تنبس بكلمة، ومضيا معا وراحتها فى كفه الساخنة. وشعرت بأصابعه تشد عليها بحنان، وسمعته يقول:

ـ سنتقابل دواما . . أليس كذلك؟

وأبت أن تنبس بكلمة، فقنع ببلغة الصمت وقال مرة أخرى:

ـ سنتقابل كثيراً، ونزن أمورنا جميعا. ثم أقابل أمك . . لابد من الاتفاق معها قبل السفر.

وانتزعت راحتها من يده وهى تصيح فى جزع:

ـ سرقنا الوقت، وابتعدنا كثيرا . . هلم إلى العودة.

ودارا على عقبيهما معا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصداء السعادة التى يجيش بها قلبه. واستحثا الخطى حتى بلغا الغورية فى دقائق، وافترقا عندها، فمالت هى إليها، واتجه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين.

١١

«اللهم عفوك ورحمتك».

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهى ماضية إلى مسكن السيد رضوان الحسينى. كانت تسأل الله العفو والرحمة فى يأس وغيظ وحنق مما تعانيه. أعياها إصلاح زوجها وعجزت عن ردعه. فلم تر بدا فى النهاية من مقابلة السيد رضوان، لعله أن يفلح هو ـ بصلاحه وهيبته ـ فيما أخفقت هى فيه. ولم يكن سبق أن فاتحت السيد فى مثل هذا الأمر الفظيع، ولكن يأسها من ناحية، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جاهرت بالخصومة والطعان من ناحية أخرى، دفعاها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعل وعسى!..

وفى البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلسا معا بعض الوقت. وحرم السيد فى منتصف الحلقة الخامسة من عمرها، وهى حلقة يعتز بها نساء كثيرات، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثوى، ولكن المرأة كانت مهزولة مهدمة، تلوح فى جسمها وروحها آثار السهام التى سددها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلا بعد طفل. وكانت لذلك تضفى على بيتها الساكن روحا من الحزن والكآبة لم يجد إيمان السيد العميق فى تبديد غشاوته. وكانت تبدو فى هزالها وحزنها، صورة مناقضة لصورة زوجها القوى المشرق المطمئن البسام. كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها إيمانها ـ على رسوخه ـ من عثرتها المضنية. وكانت أم حسين تعلم بأمرها، فأقبلت تشكو بثها، وهمها بقلب مطمئن إلى أنه سيجد أذنا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان. ثم استأذنت فى مقابلة السيد رضوان فغابت المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها إلى لقائه. وقادتها إلى حجرته.

وكان السيد يجلس على فروة مسبحا، المجمرة أمامه، وإبريق الشاى على يمينه. كانت حجرته الخاصة صغيرة أنيقة، تحدق بأركانها الكنبات، ويغطى أرضها سجاد شيرازى، تقوم فى وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصفر، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازى كبير. وكان السيد يرتدى جلبابا رماديا فضفاضا، وطاقية صوفية سوداء يضىء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير. فى هذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيرا، قارئا أو مسبحا أو متأملا. وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء، ولم يكن السيد رضوان معدودا من العلماء المتفقهين فى الدين، ولا من الأذكياء الأفذاذ، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن

يرفعوها فوق طاقاتها، ولكنه كان مؤمنا صادقا، وورعا تقيا، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره المسماح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته، فكان بحق من أولياء الله الصالحين.

وقد استقبل أم حسين واقفا، غاضا بصره، فأقبلت عليه فى ملاءتها مبرقعة، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاءة كيلا تنقض وضوءه، ورحب الرجل قائلا:

ـ أهلا وسهلا بجارتنا الفاضلة..

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنبة قبالته، وتربع الرجل على الفروة وراحت أم حسين تدعو له:

ـ الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحق جاه المصطفى.

وكان يحدس ما حملها على مقابلته، فلم يسألها عن صحة المعلم زوجها كما تقضى بذلك آداب الضيافة!.. وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلم كرشة، وتناهى إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار فى ظروف سابقة مماثلة.. فأيقن أنه أقحم فى هذا النزاع المتجدد على غير إرادة. وسلم للأمر الواقع، وتلقاه بصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجعها على الكلام:

ـ خير إن شاء الله.

لم تكن المرأة تعرف التردد، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها فى يوم من الأيام، بل هى امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة، ولم تكن امرأة تفوقها مراسا فى الزقاق كله إلا حسنية الفرانة، لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ:

ـ يا سيد رضوان، أنت الخير والبركة، وأنت رجل زقاقنا الفاضل، لذلك قصدتك أسألك المعونة فى شدتى، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجى.

وعلا صوتها فى آخر كلامها واخشوشن، فابتسم السيد مرة أخرى، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف.

ـ هاتى ما عندك يا ست أم حسين. إنى مصغ إليك.

فتنهدت المرأة وقالت:

ـ الله يرفع قدرك يا زين الرجال: الرجل يا سى السيد لا يحتشم ولا يرعوى. وكلما حسبت أنه قد تاب عن غيه طلع على بفضيحة جديدة. إنه رجل فاجر لا يرده عن شهوة لا سن ولا زوجة ولا أبناء. ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيع الذى يوافيه كل ليلة إلى القهوة؟! هذه هى فضيحتنا الجديدة..

ولاحت فى العينين الصافيتين سيماء الكدر، وأطرق متفكرا مغتما. اغتم الرجل الذى عجز ألم الثكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه، لبث صامتا ساكنا، يتعوذ قلبه

من الشيطان وعبثه. واتخذت المرأة من حزنه مبررا قويا لغضبها فانفعلت، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة:

- فضحنا الرجل المتهتك. ووالله لولا عشرة العمر والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبدا. أيرضيك هذا العار ياسى السيد؟! أيرضيك هذا السلوك الشائن؟! لقد نصحته فلم ينتصح، وأنذرته فلم يرعّو، فلم أجد سبيلا إلاك. وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة، ولكن لا حيلة لى، وأنت سيد الحى جميعا، ورجله الفاضل، وأمرك مطاع. فلعلك بالغ منه ما لم يبلغه كلامى ولا كلام الناس جميعا، حتى إذا تبين لى أن نصحك لا يجدى كان لى معه شأن آخر. أجل إنى أدارى اليوم غضبى، ولكنى إذا يئست من صلاحه فسأشب النار فى الزقاق جميعا وأجعل من جسده النجس حطاما لها..!

فحدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف:

- أفرخى روعك يا ست أم حسين، ووحدى الله، ولا تغلبى الغضب على نفسك. أنت ست طيبة! والكل يشهد لك بالفضل! فلا تجعلى من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الألسن. والزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر، عودى إلى دارك آمنة مطمئنة، ودعى لى هذا الأمر، والله المستعان..

فقالت المرأة وهى تتمالك انفعالها:

- الله يكرمك، الله يسعدك، الله يشرف قدرك. أنت يا سيدى الملاذ والمأوى، وسأدع هذا الأمر بين يديك وانتظر، وربنا بينى وبين هذا الرجل الفاجر..

وسكن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيب، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفا من فضائحه. حتى أوشك صبر الرجل أن ينفد! ثم ودعها مكرمة وهو يتنهد من الأعماق! وعاود جلسته متفكرا. كان يتمنى بلا شك لو لم يقحم فى هذا الأمر، أما وقد وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده. ونادى خادمه، وأمره أن يدعو إليه المعلم كرشة، فمضى الغلام على عجل. وانتظر ساكنا، وذكر أنه يدعو لحجرته - لأول مرة - فاسقا، فلم يدخلها قبل ذلك إلا الفقهاء والصوفيون. وتنهد من الأعماق ثم قال لنفسه: «إن من يهدى فاسقا خير ممن يجالس مؤمنا». ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقا؟. وهز رأسه الكبير. واستشهد بقوله تعالى ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾. ومضى يتعجب من غواية الشيطان للإنسان، وكيف يشذ به عن فطرة الله السوية. ثم قطع عليه حبل تأملاته دخول خادمه معلنا حضور المعلم، فأذن له، ونهض لاستقباله. وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل، وألقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلة واحترام،

وانحنى على يده مسلما . ورحب به السيد رضوان ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل فى المكان الذى كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيهة ، وملأ له قدحا من الشاى . وكان المعلم آمنا مطمئنا لا يتوجس خيفة ، ولا يدرى شيئا عما دعا السيد إلى استدعائه . والحق أن من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقد كل قدرة على التوجس والحيطة والحدس . وقد قرأ السيد فى عينيه نصف المغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسما :

ـ شرفت دارنا يا معلم .

فرفع المعلم يديه إلى عمامته وقال :

ـ شرف الله قدرك يا سى السيد .

فقال السيد :

ـ لا تؤاخذنى على دعوتك فى أثناء عملك ، فقد رأيت أن أحادثك فى أمر هام كما يتحادث الإخوان ، ولم أجد لذلك مكانا أنسب من البيت .

فأحنى المعلم رأسه وقال بأدب جم :

ـ إنى طوع أمرك ياسى السيد . .

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات فيضيع الوقت سدى ، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله ، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردد ، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة ، فقال بلهجة جدية :

ـ أحب أن أحدثك كما يتحدث الإخوان ، أو كما ينبغى أن يتحادث الإخوان إذا كان رائدهم المودة والإخلاص . والأخ المخلص من إذا رأى أخا له يهوى تلقاه بذراعيه ، أو وجده يتعثر أقاله من عثرته ، أو حسبه فى حاجة إلى النصح محضه النصيحة . .

وفترت حماسة المعلم ، وأدرك فى تلك اللحظة فحسب أنه وقع فى فخ ، فلاحت فى عينيه المظلمتين نظرة ارتياب ، وتمتم فى ارتباك وهو لا يدرى ماذا يقول :

ـ نطقت بالحق يا سى السيد . .

ولم يخف على السيد شىء من ارتباكه وارتيابه ، فقال بلهجة جدية أيضا لطفتها نظرته الوديعة الصافية :

ـ أخى ، سأصارحك بما فى نفسى فلا تؤاخذنى على صراحة ، فما استحق الموجدة من كان هدفه الإصلاح وباعثه المودة والإخلاص . والحق يا أخى أنى رأيت فى بعض سلوكك ما ساءنى ، وما لا أعده خليقا بك . .

وقطب المعلم كرشة منزعجا ، وجعل يخاطب السيد فى سره قائلا «مالك أنت ولهذا !» . ثم قال متصنعا الدهشة :

ـ أساءك سلوكى حقا ياسى السيد؟! . . معاذ الله . .

ولم يعبأ السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلا :

ـ إن الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فسادا، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتح الأبواب، ونلزمه أن يغلق أبوابه فى وجه الشيطان، فماذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم؟! . . هذا ما ساءنى يا معلم كرشة . .

شباب شيوخ! أبواب مفاتيح! شيطان شياطين! لماذا لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون؟! وهز رأسه حيرة، ثم قال بصوت منخفض :

ـ لا أفهم شيئا يا سيد رضوان . .

وحدجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب :

ـ حقـا؟!

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف :

ـ حقـــا . .

فقال السيد رضوان بحزم :

ـ حسبتك تعلم ما أعنى. والحق أنى أعنى هذا الشاب الرقيع . .

وسدت المنافذ فى وجهه، فاحتدم الغيظ فى نفسه، ولكنه كالفأر الواقع فى المصيدة جعل يتخبط وراء المنافذ المسدودة، فتساءل بصوت ينم عن الهزيمة :

ـ أى شاب ياسى السيد؟

فقال السيد بلهجة وديعة متحاميا إثارته :

ـ أنت تعرفه يا معلم. وإنى لم أفاتحك بأمره لأسيء إليك أو أخجلك، معاذ الله، ولكن لأرشدك لما فيه الخير. ما فائدة النكران؟. الجميع يعرفون والجميع يتكلمون. وهذا لعمرى ما آلمنى أشد الألم، آلمنى أن أجدك مضغة الأفواه. . فغلب المعلم الغضب، وضرب فخذه بقبضة قاسية، وقال بصوت أجش تطايرت فظاظته مع نثار ريقه :

ـ ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون! أحقا تراهم يتكلمون ياسى السيد؟ هكذا هم أبدا منذ خلق الله الأرض ومن عليها. إنهم يخوضون فى الأعراض لا لقبح يستقبحون، ولكن لينتقصوا إخوانهم. ولو لم يجدوا نقيصة لخلقوها خلقا ثم خاضوا فيها، أتحسبهم يتهامسون تأففا وازدراء؟ كلا والله. إنه الحسد يأكل قلوبهم أكلا . . ؟

وهال السيد هذا الرأى، فقال له دهشا:

ـ ياله من رأى خاسر! أتحسب أن هذا الفعل الشائن مما تحسد عليه؟!

فتهاتف ضاحكا وقال بحقد:

ـ لا تشك فى قولى يا سيد رضوان! إنهم طغمة هالكة. وليس للخير من رجع فى نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنه سلم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدرى من هذا الشاب؟ إنه شاب مسكين أدارى بؤسه بالإحسان!!

فضجر السيد من مراوغته، وحدجه بنظرة كأنما يقول له «أيجوز هذا القول!» ثم قال:

ـ يا معلم كرشة، الغالب أنك لا تفهمنى. أنا لا أحاكمك ولا أعيرك، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ولكن لا تحاول النكران. إذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحسانا؟

ـ ولماذا لا يكون إحسانى لهذا الشاب؟ يؤسفنى أنك لا تصدقنى وأنا رجل برىء.

ونظر السيد إلى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم، وقال بتؤدة:

ـ هذا شاب رقيع سيئ السمعة، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى، وكان الأخلق بك أن تقدر نصحى، وتواجهنى صادقا صريحا.

وأدرك المعلم أن السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء فى وجهه، فلاذ بالصمت كاظما غيظه، وأخذ يفكر فى الانصراف. ولكن السيد استدرك قائلا:

ـ إنى أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك، ولست يائسا من جذبك للخير. أهجر هذا الشاب إنه رجس من عمل الشيطان. وتب إلى ربك إنه غفور رحيم. لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين، ولكنك تربح كثيرا وتخسر فى بالوعة الرجس كثيرا، وتبقى على الأيام فقيرا معدما. فماذا قلت؟

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية، وخاطب نفسه قائلا إنه حر يفعل ما يشاء، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسينى نفسه! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى إغضاب السيد ولا تحديه، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين، وقال بصوت منكر:

ـ هذا أمر الله!

فلاح الانزعاج فى الوجه الصبيح وقال بحدة:

ـ بل أمر الشيطان! حرام عليك يا شيخ.

فغمغم المعلم قائلا:

ـ لما يأمر الله بالهدى!

ـ لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك. اهجر هذا الشاب أو دعنى أصرفه بسلام..

فانزعج المعلم وغلبه الجزع، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم:

ـ كلا ياسى السيد، لا تفعل..

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء، وقال بصوت ينم عن الأسى!

ـ أرأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية؟!

ـ ربنا الهادى؟

وتولاه اليأس من هدايته، فقال متضجرا:

ـ أقول لك للمرة الأخيرة اهجره أو دعنى أصرفه بسلام..

فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبة كأنما يهم بالنهوض:

ـ كلا ياسى السيد. أضرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية.

فتعجب السيد من عناده الوقح، وتساءل متقززا:

ـ ألا يخجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن؟!

ونهض المعلم قائما وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه، وهو يقول:

ـ إن الإنسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة، وهذا واحد منها، فادع لى بالهداية، ولا تغضب على، وتقبل عذرى وأسفى. ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه؟

فابتسم السيد ابتسامة حزينة، وقال وهو ينهض قائما كذلك:

ـ يملك كل شىء لو أراد، ولكنك لن تفقه معنى لقولى، فالأمر لله.

ومد له يده قائلا:

ـ مع السلامة.

وغادر المعلم كرشة البيت مقطبا مدمدما، يسب الناس والزقاق والسيد رضوان.

١٢

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوما ويومين. كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلة على القهوة تترقب مقدم الشاب، فتراه قادما يخطر ثم تراه مرة أخرى ـ عند انتصاف الليل ـ وزوجها منصرفين صوب الغورية! ابيضت عيناها من المقت والغضب، وتساءلت ياترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان هباء؟ وزارت السيد مرة أخرى، فهز

رأسه آسفا وقال لها «دعيه لحاله حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا»، فرجعت إلى شقتها تغلى غليانا، وتتوعد شرا. لم تعد تقيم وزنا لشماتة الشامتين، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب، فتلفعت بملاءتها وغادرت الشقة كالمجنونة، ونزلت السلالم وثبا، فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة. كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كل ليلة، وكان المعلم كرشة مكبا على صندوق الماركات فى شبه نعاس فلم ينتبه لحضورها. واستقر بصرها الزائغ على الشاب وهو يرشف الشاى من قدح فى يده، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذى لم يرفع بصره إليها، وضربت القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذى قام فزعا صارخا! وصاحت به بصوت كالرعد:

ـ تشرب شايا يابن العاهرة!

وأحدقت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجلوس. والتفت نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه. وهم بالوقوف، ولكن المرأة دفعته فى صدره، وهى تصرخ فى وجهه وقد أخرجها الغضب عن وعيها:

ـ إياك وأن تتحرك يا فاجر (والتفتت نحو الشاب واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر. يا مرة فى ثياب رجل، هلا أخبرتنى عما يدعوك إلى المجىء هنا؟!

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد ألجم الغضب لسانه، واربد وجهه، ولكنها صاحت فى وجهه:

ـ إن حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشمت عظمك أمام الناس.

واندفعت نحو الشاب الذى تقهقر حتى التصق بالشيخ درويش وهى تصيح:

ـ أتريد أن تخرب بيتى يا رقيع يا ابن الرقعاء!

فقال لها الشاب مرتعدا:

ـ من أنت ياستى، ماذا فعلت حتى..

ـ من أنا؟ ألا تعرفنى؟!.. أنا ضرتك..

وانهالت عليه ضربا، فسقط طربوشه، وسال الدم من أنفه. ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق صوته. وقد ذهل الجلوس، وحملقوا فيما يقع أمامهم بأعين دهشة، ولكن قلوبهم رقصت جذلا، ومنوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مسل. فى حين دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنية الفرانة فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرا فاه. ثم ظهر بعد قليل زيطة صانع العاهات، ولكنه وقف بعيدا كأنه شيطان انشقت عنه الأرض. ولم تلبث نوافذ البيتين أن فتحت وأطلت منها الرءوس تستطلع ما هنالك. وأهاج الغضب المعلم كرشة، ورأى فتاه يتضور ملتويا، محاولا عبثا أن يخلص

عنقه من قبضة المرأة القوية، فاندفع نحوهما ثائرا وهو يرغى زبدا كالفحول، وشد على ساعدى امرأته صائحا فى وجهها:

ـ اتركيه يا مرة وكفى فضيحة!

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها، فجن جنونها، وتعالى صراخها، وأمسكت بتلابيب المعلم وهى تصيح:

ـ أتضربنى يا فاجر دفاعا عن رفيقك! اشهدوا يا ناس على الرجل الفاجر!

وانتهز الشاب فرصة إفلاته فتطاير خارج القهوة، وعدا لا يلوى على شىء. واستمرت المعركة بين المعلم وزوجته، وهى تشد على تلابيبه، وهو يحاول دفعها والتخلص منها، حتى نهض إليهما السيد رضوان الحسينى وخلص بينهما، وتلفعت المرأة بملاءتها وهى تلهث، وصرخت بصوت كادت تتصدع له أركان القهوة:

ـ يا حشاش، يا مذهول، يا وسخ، يابن الستين، يا أبا الخمسة وجد العشرين، يا عرة، يا رطل، سفخص على وجهك الأسود.

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو ينتفض من الانفعال، وصاح بها:

ـ لمى لسانك يا مرة، وسدى هذا المرحاض الذى يقذفنا بوسخه!

ـ قطع لسانك، ما مرحاض إلا أنت، يا خرع، يا مفضوح، يا ظل العيال..

فلوح لها بقبضته وهو يقول:

ـ تخرفين كعادتك. كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة:

ـ زبائن القهوة؟! العفو! ما قصدت زبائن القهوة بسوء، ولكنى اعتديت على زبون المعلم الخصوصى!

وتدخل السيد رضوان مرة أخرى، وطلب من المرأة أن تمسك، وأن تعود إلى بيتها، ولكنها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد:

ـ لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت..

فألح عليها، وتطوع عم كامل لمعاونته، فقال لها بصوته الرفيع الملائكى:

ـ عودى إلى بيتك يا ست أم حسين. عودى ووحدى الله واسمعى كلام السيد رضوان..

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق، ولم يتركها حتى رجعت إلى البيت مظهرة السخط والتذمر. واختفى عند ذاك زيطة، وانسحبت حسنية الفرانة يسبقها زوجها، وقد لكمته فى ظهره وهى تقول له:

ـ لا تفتأ تندب حظك وتقول مالى أضرب من دون الرجال جميعا! أرأيت كيف يضرب أسيادك وأسياد من خلفوك . . !

وخلفت جعجعة المعركة صمتا ثقيلا . وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة تشى بالخبث والسرور، وكان أشد الحاضرين سرورا وارتياحا الدكتور بوشى، وهو الذى هز رأسه آسفا وقال فى نبرات حزينة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أصلح الحال . .

وكان المعلم «كرشة» لا يزال ملازما مكانه ـ الذى باشر فيه المعركة ـ فتنبه إلى فرار فتاه، قطب فى عناد، وبدا أنه يريد اللحاق به، ولكن السيد رضوان ـ وكان غير بعيد عنه ـ وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

ـ اقعد يا معلم واسترح . .

فنفخ مغيظا محنقا، وتراجع متثاقلا وهو يخاطب نفسه فى حقد شديد :

ـ لبؤة، فاجرة، ولكن الحق على، أنا أستاهل أكثر من هذا، مغفل من لا يبيت امرأته بالعصا . .

وعلا صوت عم كامل وهو يقول :

ـ وحدوا الله يا هوه . .

وارتمى المعلم كرشة على مقعده . ثم أخذه الغضب كرة أخرى، فثارت ثائرته، وراح يضرب جبهته بكف غليظة قاسية صائحا :

ـ أنا فى الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرفنى مجرما يرتوى بالدماء . أنا مجرم، أنا ابن كلب، أنا وحش، ولكننى أستاهل كل إهانة لأنى تبت بمحض إرادتى عن الشر، (ورفع رأسه) انتظرينى يا مرة يا وسخة، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول . .

وصفق السيد رضوان بيديه وهو يتربع على الأريكة وخاطب المعلم قائلا :

ـ وحد الله يا معلم كرشة . نريد أن نشرب الشاى فى هدوء!

ومال البوشى على أذن عباس الحلو وهمس قائلا :

ـ لابد أن نصلح بينهما . .

فسأله الحلو بخبث :

ـ بين من ومن؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحا كالفحيح، وقال :

ـ أتظنه يعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل؟

فمط الحلو بوزه وقال :

ـ إن لم يعد هو جاء غيره!

ثم شمل القهوة جوها المألوف، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب وسمر، وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها، لولا أن هاج المعلم كرشة مرة أخرى، وصاح مرعدا كالوحوش الضارية :

ـ لا لا . . لا يمكن أن أذعن لإرادة امرأة، أنا رجل، حر، أفعل ما أشاء، لتترك البيت إذا شاءت، ولتتسكع مع الشحاذين، أنا مجرم . . أنا من آكلى لحوم البشر . .

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلم :

ـ يا معلم، امرأتك قوية، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال، هى ذكر وليست بأنثى، فلماذا لا تحبها؟

وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح فى وجهه :

ـ اقطع لسانك!

وصاح أكثر من واحد من الجالسين!

ـ حتى الشيخ درويش!

وولاه المعلم ظهره صامتا، وراح الشيخ درويش يقول :

ـ هذا شر قديم، يسمونه فى الإنجليزية Homosexuality وتهجيتها h o m o s e x u a l i t y ولكنه ليس بالحب، الحب الحقيقى لآل البيت. تعالى يا حبيبتى . . تعالى يا ست . . أنا عاجز يا أم العواجز . .

١٣

كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا فى حياة عباس الحلو . عهد الحب، شعلة وهاجة تضطرم فى الفؤاد، نشوة سحر تسكر العقل، شهوة تصهر الأعصاب، كان مرحا مختالا مزهوا، كأنه فارس لا يشق له غبار، أو ثمل قد أمن عوادى الخمار . وتقابلا بعد ذلك مرات، فلم يملا الحديث عن مستقبلهما . أجل بات مستقبلهما واحدا، ولم تنكر حميدة ذلك، لا فى حضوره ولا فى غيابه! ولكن تساءلت : ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنات المشغل بخير منه؟ . . وتعمدت أن تسير معه وقت ظهورهن، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهن الفاحصة وكأنها ارتاحت إلى ما تركه فيهن من أثر، وقد سألنها يوما عن الشاب «الذى رأينه معها» فقالت :

ـ خطيبى . . صاحب صالون حلاقة!

وقالت لنفسها إن أية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة إذا خطبها صبى قهوة أو صبى حداد، وهذا صاحب دكان، أوسطى. وأفندى أيضا! كانت مشغولة أبدا بالموازنة والاختيار والتفكير، فلم تنجذب إلى الدنيا السحرية التى يهيم فى سماواتها. بيد أنه كان يبلغ بها التأثر فى لحظات منتهاه، فكأنها كانت ـ فى تلك اللحظات ـ محبة حقا. وفى إحدى هذه اللحظات استوهبها قبلة. فلم تقل لا ولم تقل نعم. أرادت أن تذوق هذه القبلة التى سمعت عنها كثيرا وتغنت بها كثيرا. ونظر هو محاذرا يراقب المارة، وتحسس ثغرها فى ظلمة المساء. ثم وضع شفتيه على شفتيها وهو يرتعد، وغمرتها أنفاسه الملتهبة، فسالت على نحرها وطرفت عيناها.

ثم دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة ـ واختار الدكتور بوشى ـ الذى تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق ـ سفيرا له لدى أم حميدة. وسرت المرأة بالشاب الذى تراه الصالح الوحيد لابنتها فى الزقاق، وكانت تعده دائما «صاحب صالون وقد الدنيا»، ولكنها خافت شماس ابنتها المتمردة، وظنت أنها مقبلة على معركة طاحنة، فما أدهشها بعد ذلك إلا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول:

ـ هذا فعل النافذة وراء ظهرى!

كلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وإرسالها لأم حميدة، واستأذن فى مقابلتها، ومضى إليها مصحوبا بعم كامل شريكه فى بيته وحياته، وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة فى ارتقاء السلم وجعل يتوقف كل درجتين لاهثا متوكئا على الدرابزين. حتى قال للحلو عند أول «بسطة»:

ـ هلا أجلت الخطبة لحين عودتك من الجيش؟!

ورحبت بهما أم حميدة. وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات، حتى قال عم كامل:

ـ هذا عباس الحلو ابن زقاقنا، وابنك، وابنى، يطلب يد حميدة. .

فابتسمت المرأة وقالت:

ـ أهلا بالحلو الذى هو حلو، ستكون ابنتى عنده وكأنها لم تفارقنى. .

وتحدث عم كامل عن الحلو وأخلاقه، وعن الست أم حميدة وأخلاقها، ثم قال:

ـ سيغادرنا الفتى فتح الله عليه، وقريبا تتحسن حاله فيتم له ولنا المراد بإذنه تعالى. .

ودعت أم حميدة له، ثم داعبت عم كامل قائلة:

ـ وأنت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله!

فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم فى إبانها، ومسح على كرشه المحيط وقال:

ـ دون ذلك هذا الحصن المنيع . . !

وقرأوا الفاتحة وشربوا الشربات . .

ثم كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر. ساروا واجمين. والحلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا إلى مجارى عينيه. وقد سألته:

ـ هل تغيب طويلا؟

فقال الشاب بصوت رقيق حزين:

ـ ربما امتدت خدمتى عاما أو عامين ولكن لن تفوتنى فرصة مناسبة للحضور . .

فغمغمت قائلة، وكانت تجد نحوه فى تلك اللحظة ودا عميقا:

ـ يا له من زمن!

فابتهج قلبه ـ على أساه ـ لهذه العبارة التى تنم عن الجزع، وقال منفعلا:

ـ هذا آخر لقاء قبل السفر، والله وحده يدرى متى يكون اللقاء التالى. وإنى لفى حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور. أجدنى محزونا لأنى مبتعد عنك، ثم أجدنى مسرورا لأن هذا الطريق الطويل الذى اخترت هو الطريق الوحيد المفضى إليك. ولكنى سأترك قلبى ورائى فى الزقاق، فتصورى رجلا مهاجرا بلا قلب، رمى به السفر إلى بلد ناء، وأبى قلبه أن يسافر معه. وغدا فى التل الكبير، وعند مطلع كل صباح، سأفتقد النافذة المحبوبة التى كنت أراك تكنسين حافتها. أو تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعيها، وهيهات أن أجد لها أثرا. ولقاؤنا فى الموسكى والأزهر ماذا يبقى لى منه؟ أواه يا حميدة، هذا ما يتقطع له قلبى. دعينى آخذ منك كل ما أستطيع أخذه. ضعى راحتك فى يدى، وشدى على يدى كما أشد على يدك. لله ما أطيب مسك، إنه يرعش قلبى، إنه قلب كبير بين يديك، يا عزيزة، يا حبيبة، يا روح قلبى يا حميدة. ما أجمل اسمك، كأنى إذا نطقت به أستحلب سكرا . .

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفق الحار، فلانت نظرة عينيها، وغمغمت قائلة:

ـ أنت الذى اخترت السفر . .

فقالت بصوت كالنواح:

ـ أنت السبب يا حميدة. أنت أنت السبب. أنا والله أحب زقاقنا، وأحمد الله على ما يرزقنى به من كفاف. وما أحب أن أنأى عن الحسين الذى أقوم وأقعد باسمه. ولكنى وأسفاه لا أستطيع أن أهيئ لك الحياة التى ترضينها، فلم أجد عن السفر مذهبا. وربنا يأخذ بيدى، ويجمعنا على أهنأ حال . .

فقالت حميدة بتأثر شديد:

ـ سأدعو لك بالتوفيق، وسأزور سيدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح. والصبر طيب، والحركة بركة..

فتنهد من الأعماق وقال:

ـ أجل الحركة بركة، ولكن يا ويلى من بلد لا أجد لك فيه ظلا..

فغمغمت برقة:

ـ لن تكون هكذا وحدك..

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها، ورفع يدها حتى مست قلبه، وهمس:

ـ حقــا؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الغائمتين على الضوء المنبعث من بعض الدكاكين. وغاب فى تلك اللحظة عن كل شىء ما عدا وجهها المحبوب، وسالت هذه الكلمات من بين شفتيه:

ـ ما أجملك، ما أرقك، ما أعذبك. هذا هو الحب. إنه عذب جميل يا حميدة، الدنيا من غيره لا تساوى مليما واحدا..

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالصمت، وجرت كلماته متناغمة فى أذنيها، فأخذتها نشوة الطرب، وودت ألا يسكت أبدا. وكانت حرارة العاطفة قد أذهلته عن وعيه فراح يقول:

ـ هذا هــو الحــب. هــو كل ما لنا. فيــه الكفاية وفوق الكفاية. هو فى القرب السرور. وفى البعد العزاء، وفى الحياة حياة فوق الحياة..

وسكت لحظة متنهدا، ثم استطرد:

ـ أسافر باسمه، وبفضله أعود وقد ربحت كثيرا. فتمتمت وهى لا تدرى:

ـ كثيرا إن شاء الله..

ـ بإذن الله، وببركة الحسين. وسوف يحسدك جميع أولئك الفتيات.

فابتسمت فى سرور قائلة:

ـ آه.. ما أمتع هذا!

وانطوى الطريق وهما لا يشعران، فضحكا معا فى فرح، ثم دارا على عقبيهما. وأحس فى العودة أن اللقاء يقترب من نهايته، فعاودته أفكار الوداع والفراق، وخبت كثيرا نشوته، واعتوره الشجن. وعند انتصاف الطريق سألها بلهفة:

ـ أين أودعك؟

وأدركت ما يعنيه، وقلقت شفتاها، فقالت متسائلة:

ـ هنـا؟!

ولكنه اعترض قائلا:

ـ لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفا..

ـ أين تريد إذا؟

ـ اسبقينى على البيت وانتظرينى على السلم..

وحثت خطاها، وسار هو متمهلا فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، واتجه نحو بيت الست سنية عفيفى لا يلوى على شىء وارتقى السلم محاذرا فى ظلمة دامسة، كاتما أنفاسه، يدا على الدرابزين، ويدا تتحسس الظلام. وعند «البسطة» الثانية لمست أنامله طرف الملاءة. فخفق قلبه باعثا الشوق الحبيس فى أطرافه، وقبض على ذراعها، واقترب منها فى رفق، وأحاطها بذراعيه، ثم ضمها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوق، وهوى إليها بفمه، فوقع على أنفها، ثم هبط على شفتيها، وكانتا منفرجتين لاستقباله، وأخذته سنة من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت من ذراعيه بلطف، ومضت مصعدة وهو يهمس وراءها «مع السلامة». لم يبلغ بها الانفعال يوما ما بلغه هذا المساء على السلم. حيث فى دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة. وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد.

* * *

وزار عباس الحلو أم حميدة، تلك الليلة، مودعا.. ثم مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضى آخر سهرة فيها قبل سفره. وكان حسين يبدو مسرورا ظافرا لانتصار رأيه، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذى ينم عن التحدى لسبب ولغير ما سبب:

ـ ودع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية..

فابتسم الحلو صامتا، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة على قلبه لفراق الزقاق الذى يحبه، والفتاة التى يهيم بها. وجلس بين رفاقه يعانى أشواقه المكتومة، ويتلقى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء. وقد باركه السيد رضوان الحسينى. ودعا له طويلا، وقال له ناصحا:

ـ اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتبك، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير، ولا تنس أنك من المدق، وأنك إلى المدق راجع..

وقال له الدكتور بوشى ضاحكا:

ـ ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين، ولابد عند ذاك من خلع أسنانك المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبى يليق بالمقام..

فابتسم الحلو، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان، لأنه هو الذى أسفر بينه وبين أم حميدة، ولأنه هو أيضا الذى باع له أدوات صالونه بثمن لا بأس به كى ينتفع به فى سفره. وكان عم كامل واجما ساهما، يحز الفراق الوشيك فى فؤاده، ولا يدرى كيف يلقى غدا الوحشة والوحدة، بعد أن يذهب الشاب الذى شاطره العيش أعواما طويلة، والذى أحبه كأنه فلذة كبده. . وكان كلما أثنى أحد على الحلو أو توجع لفراقه اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعا.

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسى وقال له:

ـ أصبحت الآن من المتطوعين فى الجيوش البريطانية، وإذا أظهرت بسالة فليس بعيدا أن يقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصبك عليها نائب ملك، ومعناها بالإنجليزية Viceroy وتهجيتها v i c e r o y . .

* * *

وفى الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملا بقجة ثيابه. كان الجو باردا شديد الرطوبة، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلا الفرانة وسنقر صبى القهوة، ورفع الشاب رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها. وسار متمهلا مطرقا حتى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهدا، وعلق بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير «للإيجار»، فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا. .

وحث خطاه كأنما ليفر من عواطفه، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتى شعر بأن قلبه يفارقه إليه. .

١٤

كان حسين كرشة الذى أغرى عباس الحلو بالخدمة فى الجيش البريطانى، ولما أن سافر الشاب إلى التل الكبير، وخلا منه الزقاق ـ حتى دكانه اكتراها حلاق عجوز ـ جن حسين جنونا واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتا للزقاق وأهله. أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله، ويتطلع لحياة جديدة، ولكنه لم يستبن سبيله، ولم يعزم عزمة صادقة على تحقيق أحلامه، حتى ذهب الحلو، فجن جنونه، وكأنما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه على الزقاق القذر، وهو باق فيه لا يدرى كيف يتخلص منه، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر، وبفظاظته المعهودة قال لأمه يوما وقد امتلأ بعزمه حتى فاض عنه:

- أصغي إلى، لقد عزمت عزما لا رجعة فيه، فهذه حياة لا تطاق ولا داعى مطلقا لتحملها قسرا!

وكانت المرأة آلفة سخطه، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله، وكانت تراه - كأبيه - سفيها لا يصح أن تحتفى بهذيانه، فسكتت عنه وهى تغمغم:

- اللهم تب علىّ من هذه الحياة!

ولكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين وأربد وجهه الضارب للسواد:

- هذه الحياة لا تطاق، ولن أحتملها بعد اليوم . .

ولم يكن فى وسعها أن تلزم الصمت طويلا حيال هياج أحد، فنفد صبرها الرقيق وصاحت به بصوت دل على أن صوته متوارث عنها:

- مالك؟! مالك يا بن اللئيم.

فقال الشاب بازدراء:

- لابد من هجر هذا الزقاق.

فحدجته بحنق، وانتهرته قائلة:

- أجننت يا بن المجنون!

فشبك ذراعيه على صدره وقال:

- بل ثبت إلى رشدى بعد جنون طويل. افهمينى جيدا، فلست ألقى القول على عواهنه، ولكنى أعنى ما أقول، ولقد جمعت ثيابى فى البقجة ولم يبق الآن إلا أن أستودعك الله. بيت قذر. زقاق نتن، أناس بهائم!

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه، فخبلها عزمه المتوثب وصاحت به:

- ماذا تقول؟

فعاد يقول وكأنه يخاطب نفسه:

- بيت قذر، زقاق نتن، أناس بهائم . .

فهزت رأسها ساخرة وقالت:

- مرحبا بك يابن الأماثل! يا بن كرشة باشا!

- كرشة قطران. كرشة المشبوه. أف أف، ألم تعلمى بأن فضيحتنا زكمت الأنوف جميعا؟! . . يغمزوننى فى كل مكان. يقولون هربت أخته مع واحد، وسيهرب أبوه مع واحد آخر!

وضرب الأرض بقدمه حتى طقطق زجاج النافذة وصرخ غاضبا:

- ماذا يضطرنى إلى البقاء فى هذه الحياة؟ سأحمل ثيابى وأذهب إلى غير رجعة.

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

- جننت والله. أورثك الحشاش جنونه. ولكنى سأدعوه ليردك إلى عقلك.

فصاح حسين باستهانة:

- ادعيه.. نادى أبى، نادى الحسين نفسه. أنا ذاهب.. ذاهب.. ذاهب..

ولما وجدته المرأة جادا معاندا، ذهبت إلى حجرته فرأت البقجة منتفخة بالثياب كما قال، فتولاها القنوط، وصممت على إحضار أبيه مهما تكن العواقب. كان حسين عزاءها الوحيد فى حياتها، ولم تكن تتصور أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة، ولم تستطع مغالبة قنوطها، وأرسلت فى طلب أبيه وهى تصيح نادبة حظها «علام يحسدوننا؟.. على خيبتنا القوية!.. على فضائحنا!.. على شقائنا!». وجاء المعلم كرشة بعد قليل مكشرا عن أنيابه، وانتهرها قائلا:

- ماذا تريدين؟ فضيحة جديدة؟ زبون جديد رأيتنى أقدم له الشاى!

فقالت المرأة ملوحة بيدها كالنادبة:

- فضيحة ابنك! أدركه قبل أن يهجرنا، فقد ضاق بنا ذرعا!

فضرب المعلم كفا بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظا محنقا:

- أمن أجل هذا أترك عملى يا هوه!.. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة؟ آه يا أولاد الكلب، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم؟!

وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلا:

- ربنا ابتلانى بكما ليقتص منى، ما هذا الذى تقوله أمك؟

ولزم حسين الصمت. وراحت أمه تقول بهدوء ما وسعها الصبر:

- هدئ روعك يا معلم، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك. لقد جمع ثيابه فى بقجة، ونوى مغادرتنا..

فسدد نحوه نظرة حقد وغضب، وهو بين مصدق ومكذب، وقال كالمتسائل:

- جننت يا بن القديمة!

وكانت أعصاب المرأة متوترة فلم تملك أن صاحت به:

- دعوتك لتعقله لا لتشتمنى..

فالتفت نحوها غاضبا وهو يقول:

- لولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنونا..

- الله يسامحك. أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا، واسأله عما خالط عقله؟!

وحدج ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه :

ـ مالك لا تتكلم يا بن القديمة! هل تروم حقا مغادرتنا؟

وكان الفتى يتحامى أباه عادة، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل، ولكنه كان قد عزم عزما صادقا عن نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر، فلم يتردد ولم يتراجع، خصوصا وأنه كان يرى مسألة إقامته فى البيت أو مغادرته من صميم حقه الذى لا ينازعه فيه منازع، فقال بهدوء وعزم معا :

ـ نعــم يا أبى . . !

فسأله الرجل وهو يعانى خناق غيظه :

ـ ولمــاذا؟

فتفكر الشاب قليلا ثم قال :

ـ أريد أن أحيا حياة أخرى . .

فقبض الرجل على ذقنه، وهز رأسه ساخرا وقال :

ـ فهمت . . فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام! لأن كلبا مثلك نشأ محروما جائعا، يجن إذا امتلأ جيبه . وأنت الآن صاحب قرش إنجليزى، فمن الطبيعى أن ترتاد حياة أخرى، تليق بمقامك العالى يابن قنصل الأوز!

فكظم حسين غيظه وقال :

ـ لم أكن كلبا جائعا قط، لأنى نشأت فى بيتك، وبيتك لم يعرف الجوع أبدا والحمد لله . وكل ما فى الأمر أنى أريد أن أغير حياتى، وهذا حقى لا مراء فيه، ولا داعى مطلقا لغضبك وسخطك .

ولم يفهم المعلم مراده، كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة، فلا يسأل عما يفعل، فلماذا يريد أن ينشئ لنفسه بيتا خاصًا؟ وكان المعلم، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام، يحبه . ولكنه حب لم يظفر قط بالجو الذى يستطيع أن يتنفس فيه، وغشيته دائما غواشى الغيظ والحنق والسباب، ولطالما نسى كثيرا أنه يحب ابنه الوحيد . وحتى فى هذه الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه وإشفاقه تحت ستار الغضب والحنق، وتمثل له الأمر تحديا وعراكا، ولذلك سأله فى تهكم مر :

ـ نقودك فى جيبك، تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمارون والحشاشون والقوادون، هل سألناك مليما؟

ـ أبدا . . أبدا أنا لا أشكو هذا مطلقا . .

فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة .

ـ أمك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلا التراب، هل أخذت منك مليما؟

فقطب حسين ضجره وقال:

ـ قلت إنى لا أشكو هذا. كل ما فى الأمر أنى أريد حياة غير هذه الحياة. إن كثيرين من زملائى يقطنون فى بيوت فيها الكهرباء!

ـ الكهرباء!! من أجل الكهرباء تترك بيتك؟!.. الحمد لله على أن أمك بفضائحها قد جعلت بيتنا أحمى من الكهرباء..

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة:

ـ مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين..

واستدرك حسين قائلا:

ـ إن زملائى جميعا يحبون حياة جديدة، وقد انقلبوا جميعا جنتلمان كما يقول الإنجليز.

ففغر المعلم فاه، فانفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنانه الذهبية وقال:

ـ ماذا تقول؟

فلزم الفتى الصمت مقطبا، واستدرك المعلم:

ـ جلمان؟!.. ما هذا؟.. صنف حشيش جديد؟!

فقال حسين متذمرا:

ـ أعنى رجلا نظيفا..!

ـ ولكنك وسخ، فكيف تريد أن تكون نظيفا.. يا جلمان!

وضاق حسين بتهكم أبيه فقال منفعلا:

ـ أبى، أريد أن أحيا حياة جديدة، هذا كل ما هنالك، وسأتزوج من بنت ناس..

ـ بنت جلمان!

ـ بنت ناس طيبين.

ـ ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك؟!

فتأوهت أم حسين قائلة:

ـ الله يرحمك يا أبى كنت فقيها وقورا.

فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال:

ـ فقيه!.. كان قارئ قبور، يتلو السورة بمليمين!

فقالت المرأة متوجعة:

- كان يحفظ كلام الله وكفى . .

تحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ، وسأله بصوت مخيف :

- حسبنا كلاما ، فليس لدى من وقت أضيعه بين مجانين . أتريد حقا أن تترك هذا البيت؟!

فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب :

- نعم .

فأدام المعلم النظر إليه مليا ، ثم ثارت ثائرته بغتة ، فضربه براحته على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنونى ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

- لا تضربنى ، لا تمسسنى ، لن ترانى بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة ، وتلقت لكماته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

- أغرب عنى بوجهك الأسود! ولا تعد أبدا . سأفرض أنك مت واندلقت فى الجحيم .

وجرى الفتى إلى حجرته ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثبا ، وقطع الزقاق لا يلوى على شىء ، وقبل أن يعدل إلى الصنادقية بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الحنق :

- غر . . انجحر ، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

١٥

سمعت الست سنية عفيفى طرقا على الباب ، ففتحته ، فرأت فى فرح لا يوصف - وجه أم حميدة يطالعها بصفحته المجدورة ، وهتفت من الأعماق :

- أهلا وسهلا بالحبيبة .

وتعانقتا عناقا حارا - أو هكذا بدا على الأقل - وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهى تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلستا على كنبة متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلتا تدخنان فى انبساط وسرور . وكانت الست سنية تكابد آلام الترقب والانتظار مذ وعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج . ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواما طوالا ولكنها لم تستطع مع فترة الانتظار - على قصرها - صبرا . واعتادت فى هذه الفترة

أن تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء، وما انفكت تعدها وتمنيها، حتى أيقنت الست سنية أن المرأة تسوف وتماطل حتى تظفر منها بأكبر نفع مرجو. ومع ذلك كانت معها جوادة كريمة، فأعفتها من دفع إيجار الشقة، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيروسين، ونصيبها من الأقمشة الشعبية، غير صينية بسبوسة كلفت عم كامل بصنعها لها. ثم آذنتها المرأة بخطبة عباس الحلو لابنتها حميدة! وتظاهرت الست سنية بالسرور، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعا مقلقا، وتساءلت ترى هل تضطر إلى المساهمة فى تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها؟! وهكذا تنازعها الخوف من أم حميدة والتودد إليها طوال فترة الانتظار، وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى تتمخض عنه زيارتها هذه: وعود وأمانى كالعادة أم البشرى التى يتلهف قلبها عليها؟! وراحت تدارى اضطرابها بشجون الحديث، فكانت - على غير المألوف - المحدثة وأم حميدة المنصتة. تكلمت عن فضيحة المعلم كرشة، ومغادرة ابنه حسين لبيته، وانتقدت أم حسين فى تصرفاتها الفاضحة التى تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذ، ثم تدرج الحديث إلى عباس الحلو، فأثنت عليه قائلة:

- أنعم به من شاب طيب. سيفتح الله عليه ويرزقه، ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التى تستاهل كل خير.

وابتسمت أم حميدة عند ذاك وقالت:

- الشىء بالشىء يذكر. اعلمى أنى حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس!

وخفق فؤادها بعنف. وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة، وبأن المرأة تطوى صدرها على سر تضن به إلى حين. وتورد وجهها، وجرى فى عوده الذابل ماء شباب، ولكنها تمالكت نفسها وقالت فى حياء مصطنع:

- واخجلتاه!.. ماذا تقولين يا ست أم حميدة!

فقالت المرأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح:

- أقول إنى حاضرة لأخطبك يا ست الناس!

- حقا!.. يا له من أمر خطير!.. أجل أذكر ما تم الاتفاق عليه، ولكن لا يسعنى إلا أن أضطرب، وأن أخجل أيضا، واخجلتاه!

فجارتها أم حميدة فى تمثيلها وقالت محتجة:

- حاشا لله أن تخجلى لغير ما عيب أو نقيصة، ولكنك تتزوجين على شرع الله وسنة الرسول.

فتنهدت الست سنية، تنهد من يدفع إلى التسليم على غير إرادته، وقد رن قول

الأخرى لها «ستتزوجين» رنينا حلوا محبوبا فى أذنيها . أما أم حميدة فقد أخذت نفسا طويلا من سيجارتها ، وهزت رأسها هزة الثقة والاطمئنان وقالت :

- موظـــف . .

ودهشت الست سنية ، ونظرت إلى محدثتها بعينين لا تكادان تصدقان . موظف! . . إن الموظف فاكهة محرمة على زقاق المدق! . . وتساءلت قائلة :

- موظـــف؟

- أى نعم موظف!

- فى الحكومة؟!

- فى الحكومة!

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمع بظفرها ، ثم استطردت :

- فى الحكومة ، وفى قسم البوليس بالذات!

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

- وماذا يوجد فى القسم غير الضابط والعساكر؟!

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت :

- يوجد موظفون أيضا . أسألينى أنا . أنا أعرف الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات . هذه مهنتى يا ست!

فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدق :

- هو أفندى إذا!!

- أفندى بسترة وبنطلون وطربوش وحذاء!

- الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة .

- إنى أختار الطيب للطيب ، وأعرف لكل إنسان قدره . ولو كان فى أقل من الدرجة التاسعة ما وقع اختيارى عليه .

فتمتمت الست سنية متسائلة :

- الدرجة التاسعة؟

- الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة إحدى هذه الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتى!

فقالت الست وعيناها تتألقان سرورا :

- دمت من صديقة محبة عزيزة!

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشى بالظفر والثقة :

ـ يجلس إلى مكتب كبير ، تتكدس عليه الملفات والأوراق للسقف والقهوة داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يسأله ، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك ، العساكر تحييه ، والضباط تحترمه .

فابتسمت الست سنية ، ولاحت فى عينيها نظرة أحلام ، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة :

ـ مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مليما .

وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة :

ـ عشرة جنيهات !

فقالت المرأة ببساطة :

ـ هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموظف إلا بعض رزقه ، وبالحذق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه ، ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة الزواج ، ثم علاوة الأطفال .

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

ـ سامحك الله يا ست أم حميدة ، مالى أنا والأطفال !

ـ ربك قادر على كل شيء .

ـ نحمده ونشكر فضله على أى حال .

ـ أما عمره فثلاثون عاما .

فصاحت الست فى إنكار :

ـ رباه ! . . أكبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من عمرها ، ولكنها قالت فى لهجة تنم عن العتاب :

ـ لا زلت شابة يا ست سنية ! . . ومع ذلك فقد صارحته بأنك فى الأربعين ووافق مسرورا .

ـ أرضى حقا ؟ ! . . ما اسمه ؟ ! . .

ـ أحمد أفندى طلبة من أهل الخرنفش . وابن الحاج طلبة عيسى صاحب المقلة بأم الغلام ، أسرة طيبة تنحدر من صلب سيدنا الحسين .

ـ أسرة طيبة حقا : وأنا شريفة أيضا كما تعلمين يا ست أم حميدة .

ـ أعلم هذا يا حبيبتى . وهو لا يتحرى إلا الأخلاق الطيبة ولولا هذا لتزوج من عهد طويل ، ولكنه يزدرى بنات اليوم وينقم عليهن قلة الحياء . ولما أن حدثته عن أخلاقك

واحتشامك، وقلت له إنك سيدة شريفة وصاحبة قرش، سر سرورا لا مزيد عليه، وقال لى هذه طلبتى، بيد أنه سألنى شيئا واحدا لا يخرج عن حدود الأدب، وهو أن يرى صورتك!

فتورد الوجه النحيل، وقالت بإشفاق:

ـ والله ما صورت منذ أمد بعيد.

ـ أليس لديك صورة قديمة؟

فأومأت الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة دون أن تنبس بكلمة، فانحنت المرأة قليلا وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحصة. كانت صورة يرجع تاريخها إلى ما قبل ستة أعوام، وكانت صاحبتها وقتذاك على شىء من الامتلاء والحياة، فرددت المرأة بصرها بين الصورة والأصل، ثم قالت جازمة:

ـ طبق الأصل، كأنها صورت بالأمس القريب.

فتهدج صوت المرأة وهى تقول:

ـ الله يحلى دنياك.

وأودعت جيبها الصورة بإطارها، وأشعلت سيجارة أخرى قدمت لها، ثم قالت بلهجة رزينة:

ـ ولقد تحدثنا طويلا فعرفت أمورا عما فى مرجوه.

ولحظتها الست بنظرة حذرة لأول مرة، وانتظرت أن تواصل حديثها فلما أن طال الصمت، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة:

ـ ترى ماذا فى مرجوه؟

أتجهل حقا أم تظنه يريد الزواج منها حبا فى سواد عينيها؟.. واغتاظت المرأة قليلا، بيد أنها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلا:

ـ أظن ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك؟

وفهمت الست سنية المقصود لأول وهلة، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقا، ويرغب ولا شك فى أن يترك لها وحدها عبء الجهاز، ولم يكن ذلك ليغيب عنها من أول الأمر، منذ تملكتها الرغبة فى الزواج. وسبق أن لمحت أم حميدة إلى هذا فى ثنايا أحاديثها فلم تفكر قط فى الاعتراض عليها. فقالت بلهجة تنم عن التسليم:

ـ ربنا المعين.

فابتسمت أم حميدة وقالت:

ـ نسأل الله التوفيق والسعادة.

ونهضت المرأة تريد الانصراف، فتعانقتا عناقا حارا، وسارت الست فى توديعها حتى الباب الخارجى، ووقفت مرتفقة الدرابزين وأم حميدة تنزل السلم إلى شقتها، وقبل أن تغيب عن ناظريها هتفت بها :

ـ مع ألف سلامة . قبلى عنى حميدة .

ثم عادت إلى حجرتها بقلب فتى، ابتعث حرارته الأمل الجديد . وجلست تستعيد ما قالت أم حميدة جملة جملة ، كلمة كلمة . كانت الست سنية على شىء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذى يقف عثرة فى سبيل سعادتها . أجل فطالما آنس المال وحدتها، سواء ذاك الذى تحفظه فى صندوق التوفير أو هذا الذى تتملاه رزما جديدة بديعة فى صندوقها العاجى، ولكن لا هذا ولا ذاك بمغن عن الرجل الخطير الذى سيصبح بإذن الله بعلا لها . ولكن هل تعجبه الصورة؟ . . وتورد وجهها حتى أحست بحرارة دمها تلفح جبينها . ونهضت إلى المرآة تعاين صورتها وجعلت تحرك وجهها يمنة ويسرة حتى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبتته عليه، وأنعمت فى الصورة النظر، ولاح فى وجهها شىء من الرضا، وغمغمت برجاء «ربنا يستر» . ثم عادت إلى جلستها وهى تقول : «المال يغطى العيوب» ألم تقل له المرأة إنها صاحبة قرش؟! . . وإنها لكذلك . وليست الخمسون بسن اليأس، فلا يزال أمامها عشرة أعوام، وكم من امرأة فى الستين تستطيع أن تتمتع بالسعادة إذا كفاها شر الأمراض . والزواج كفيل برى العود الذابل، وبعث الجسد الخامد . هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافى زبد متلبد، فقطبت فجأة، وتساءلت مغيظة : ترى ماذا يقول الناس غدا؟ . . آه، إنها تعرفهم حق المعرفة، وستكون أم حميدة نفسها فى طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية، ويقولون امرأة فى الخمسين تتزوج من ابن لها فى الثلاثين، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذى يصلح ما أفسد الدهر، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيرا مما لا يخطر لها ببال . فليقولوا ما شاء لهم القول . وهل كانوا أعتقوها من شر ألسنتهم وهى أرملة؟! . . وهزت الست كتفيها استهانة، ثم دعت ربها من الأعماق قائلة :

ـ اللهم احفظنى من شر العين .

ثم خطر لها خاطر سرعان ما رحبت به، وصدقت نيتها على تنفيذه، وهو أن تذهب إلى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع، وتستوهبها بعض الرقى، فما أحوجها فى حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع .

١٦

- ماذا أرى؟!.. إنك لرجل وقور..!

قال زيطة ذلك وهو يتفرس وجه رجل عجوز منتصب القامة، يمثل بين يديه فى خضوع واستكانة.. كان رث الجلباب، نحيل الجسد، ولكنه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات، كبير الرأس أبيض الشعر، مستطيل الوجه، له عينان هادئتان خاشعتان، كأنه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتقاعدين. وراح زيطة يتفحصه بدهشة وأناة على ضوء المصباح الخافت، ثم عاد يقول:

- إنك لرجل وقور، أترغب فى امتهان الشحاذة حقا؟!

فقال الرجل بصوت هادئ النبرات:

- أنا شحاذ بالفعل ولكنى غير موفق.

فتنحنح زيطة، وبصق على الأرض، ومسح شفتيه بكم جلبابه الأسود، وقال:

- إنك أرق من أن تحتمل أى ضغط شديد على أعضائك. والحق أنه لا يصح التقدم لاتخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء!.. وكلما كان العظم طريا ضمن الشحاذ عاهة فى حكم المستديمة حقا، وأنت شيخ كبير على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك؟

ومضى يفكر. وكان إذا اعتراه الفكر فغر فاه وأرعش لسانه فلاح فى فمه كرأس أفعى. ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح:

- الوقار أنفس عاهة!

فسأله الرجل متحيرا:

- ماذا تعنى يا أستاذ؟!

فانكفأ وجه زيطة غضبا وصاح به محتدا:

- أستاذ؟!.. أسمعتنى أقرأ على القبور؟

فدهم غضبه الرجل، وبسط راحتيه مستعطفا وقال بصوت منكسر:

- معاذ الله.. ما قصدت إلا تبجيلك.

فبصق زيطة مرتين وقال منفعلا فى زهو وعجب:

- إن عملى ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه. ألا تعلم أن إحداث عاهة كاذبة أشق

من إحداث عاهة حقيقية ألف مرة؟ . . إن عاهة حقيقية لا تستقضينى أكثر من أن أبصق على وجهك .

فقال الرجل بأدب جم :

ـ لا تؤاخذنى يا سيدى ، إن الله غفور رحيم .

وسكت الغضب عن زيطة ، وحدج الرجل بنظرة حادة ، ثم قال بصوت لم تمح منه بعض آثار الحدة :

ـ قلت إن الوقار أنفس عاهة .

ـ كيف يا سيدى؟

ـ الوقار كفيل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر المثال .

ـ الوقار يا سيدى؟!

فمد زيطة يده إلى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف سيجارة ، ثم أعاده إلى موضعه ، وأشعلها من فوهة زجاجة المصباح ، وأخذ نفسا طويلا وهو يضيق عينيه البراقتين ، وقال بهدوء :

ـ ليست العاهة بمطلبك . بل أنت فى حاجة إلى مزيد من التحسين والتجميل . اغسل جلبابك جيدا ، واحصل بأية طريقة على طربوش نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه فى خشوع وأدب ، واقترب فى إشفاق من رواد المقاهى ، ثم قف فى حياء ، ومد يدك فى تألم دون أن تنبس بكلمة . وتكلم بعينيك ، ألا تعرف لغة الأعين؟ . . ستحدق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترفين . أفهمت الآن ما أريد؟ . . ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهاتهم .

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد ، ووقف يراقبه مدخنا سيجارته ، وتفكر قليلا ثم قال مقطبا :

ـ ربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة أنى لم أصنع لك عاهة تستحق الأجر ، وأنت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولى وجهك غير حى الحسين العامر .

فتعوذ الرجل فى إنكار وقال متألما :

ـ حاشاى أن أخون صاحب الفضل على .

وانتهت المقابلة عند ذاك ، فسار زيطة بين يدى الرجل ليدله على الطريق ، ووصله حتى الباب الخارجى للفرن ، وفى أثناء عودته لاحظ أن المعلمة حسنية متربعة على حصيرة بمفردها ، وليس لجعدة من أثر ، وكان من عادته إذا التقى بها أن يخلق سببا لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، توددا إليها ، وإفصاحا على إعجابه الكمين ، فقال لها :

ـ أرأيت هذا الرجل؟

فقالت المعلمة حسنية بغير مبالاة:

ـ طالب عاهة، أليس كذلك؟

فضحك زيطة وراح يقص عليها قصته، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته ثم اتجه نحو الباب الخشبى القصير الذى يؤدى إلى مأواه، وتردد على عتبته لحظة ثم سألها:

ـ أين جعدة؟

فأجابته المرأة:

ـ فى الحمام.

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة، فرمقها بحذر ولكنه وجدها جادة. فأدرك أن جعدة قد ذهب إلى حمام الجمالية، وهو ما يفعله مرتين فى العام، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب. فحدثته نفسه بأن يجالس المعلمة قليلا، متشجعا بما أثارته قصته من سرور. وجلس على عتبة بابه مستندا إلى مصراع الباب مادا ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم، غير عابئ بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتهما فى عينيها. وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق، غير كلمات يتبادلانها فى ذهابه أو إيابه، بوصفها مالكة مأواه. ولم تكن تشك فى أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد، ولم يدر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها. ولكن مخلوقا كزيطة لا يعدم أن يجد منفذا فى الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروى غلته المتطفلة، وأحلامه البهيمية. فصار وكأنه واحد من هذه الأسرة، يشهد عملها وراحتها، ويلذه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهى تكيل الضرب لبعلها لأقل هفوة. وما أكثر هفوات جعدة التى يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم، حتى بات الضرب من غذائه اليومى، يتلقاه تارة فى تصبر وتجلد، وتارة فى بكاء وصراخ وعواء. وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة فى أثناء خبزها، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات، أو يبتاع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذى يحصله من البيوت، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوما بعد يوم، دون توفيق فى طمس معالمها، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة. وكان زيطة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعتهه. وأعجب من هذا أنه ـ زيطة ـ كان يستقبحه ويهزأ بصورته!.. كان جعدة طويل القامة لحد مفرط، طويل الذراعين، ممطوط الفك الأسفل، غائر العينين، غليظ الشفتين. ولطالما حقد عليه زيطة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التى يرمقها بعين الإعجاب والرغبة، ولذلك مقته واحتقره، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصوانى. ولذلك أيضا سره أن يجد فى غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلا، فجلس ومد ساقيه، غير عابئ بما

يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار، ولم تتردد المعلمة حسنية بجرأتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ:

ـ مالك جلست هكذا؟

فقال زيطة لنفسه «اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا» ثم قال لها بلطف وتودد:

ـ أنا ضيف يا معلمة، والضيف لا يهان.

فقالت بتقزز:

ـ ولماذا لا تنجحر وتريحنى من وجهك؟

فقال زيطة برقة مبتسما عن أنيابه الوحشية:

ـ لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات والديدان، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل.

فانتهرته بعنف قائلة:

ـ يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة!.. أف.. أف.. انجحر وأغلق الباب وراءك!

فقال زيطة بخبث:

ـ ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفظع وروائح أخبث.

وأدركت المعلمة أنه يلمح إلى زوجها، فاربد وجهها وقالت بلهجة تنم عن الوعيد:

ـ ماذا تعنى يا أخا الديدان؟!

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة:

ـ أخونا الفاضل جعدة.

فصاحت به بصوت مخيف:

ـ حذار يا بن اللئيمة. لو بلغتك يدى شطرتك اثنين.

ولم يتعام الرجل عن الخطر الماثل أمامه فقال مستعطفا:

ـ قلت إنى ضيف يا معلمة، والضيف لا يهان. ثم إنى لم أعرض بجعدة إلا بعد أن ثبت لى إزدراؤك له، وانهيالك عليه بالضرب لأتفه الأسباب.

ـ جعدة هذا ظفره برقبتك!

فقال زيطة محتجا:

ـ ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتى، أما جعدة.

ـ أتحسب أنك خير من جعدة؟!

فلاح الانزعاج في وجه زيطة وفغر فاه دهشة، لا لأنه ـ في حسبانه ـ خير من جعدة فحسب، ولكن لأنه كان يعتقد أن مجرد مقارنته به سبة لا تغتفر، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله، يعد بحق ملكا على دنيا برمتها أيا كانت هذه الدنيا؟ . . وسألها بدهشة:

ـ ماذا ترين أنت يا معلمة؟

فقالت حسنية بتحد وازدراء:

ـ أرى أن ظفره برقبتك.

ـ هذا الحيوان . . ؟

فهتفت بصوت فظ:

ـ هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت.

ـ هذا المخلوق الذي تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة؟

وأدركت المرأة في كلامه حنقا وغيرة، فراقها ذلك على انفعالها، وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به، وراحت تقول كأنما لتضاعف حنقه وغيرته:

ـ هذا شيء لا تفهمه، وما أجدر أن تموت حسرة على لكمة مما يصيبه.

فقال زيطة حانقا:

ـ لعل الضرب شرف لا أدركه . .

ـ شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان.

وتفكر زيطة مليا، ترى هل تطيب لها معاشرة هذا الحيوان حقا؟! . . وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه، ولكنه كان يأبى أن يصدق هذا. إن المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت، ولكنها تبطن شيئا آخر بلا جدال. ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد إباء وعنادا. ونشط خياله بارعا مجنونا فصور له المستقبل في ألوان زاهية. وأوحى له خلو المكان بتخيلات محمومة، فلمعت عيناه المخيفتان. أما حسنية الفرانة فقد استلذت غيرته، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوتها. فقالت في تهكم:

ـ حتى أنت يا تراب الأرض . . استخرج جسمك من التراب الذي يغطيه أولا، ثم كلم الناس بعد ذلك.

ليست المرأة غاضبة. ولو كانت غاضبة حقا لما دارت غضبها ولصفعته بوحشيتها. إنها تمازحه ولا شك، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من يديه. قال:

ـ أنت لا تفرقين يا معلمة ما بين التراب والتبر.

فقالت المرأة بتحد:

ـ هل تستطيع أن تنكر أنك من طين؟

فهز منكبيه استهانة وقال ببساطة :

ـ كلنـــا طـــين .

فقالت المرأة ساخرة :

ـ خسئت ! . . إنك طين على طين وقذارة على قذارة . ولذلك لا عمل لك إلا تشويه البشر ، كأنك تنبعث إلى ذلك برغبة شيطانية فى النزول بالبشر إلى مستواك القذر .

فتضاحك زيطة وما يزداد إلا أملا ، وقال :

ـ ولكنى أحسن الناس ولا أقبحهم . ألا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا يساوى مليما ، حتى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهبا؟ ! . . والرجل يقوم بثمنه لا بصورته . أما أخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة .

فزمجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

ـ أتعود إلى هذا الحديث مرة أخرى؟ !

فتعامى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقه متعمداً ، وتخطاه قائلا :

ـ ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ، فماذا تريديننى على أن أفعل بهم؟ . . أكنت تريدين أن أحليهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لغواية المحسنين؟ !

ـ يا لك من شيطان ! . . لسان شيطان ، وصورة شيطان .

فتنهد بصوت مسموع ، وقال باستكانة المستعطف :

ـ كنت مع ذلك ملكا فى يوم ما .

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

ـ ملكا من الأسياد والعفاريت؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسه :

ـ بل من البشر أنفسهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك ، ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه . وهذا خداع حكيم من الحياة ، وإلا فلو أنها أفصحت لنا عما فى ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا أن نفارق الأرحام . . !

ـ ما شاء الله يا بن الدائخة !

فاستدرك زيطة فى حماسة وسرور :

ـ وهكذا كنت يوما ما مولودا سعيدا ، تلقفته الأيدى بالسرور ، وحاطته بالعناية والرحمة ، فهل تشكين بعد ذلك أنى كنت ملكا؟

ـ أبدا يا مولانا .

وأسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلا :

ـ وكان مولدى يمنا وبركة أيضا . ذلك أن والدى كانا شحاذين محترفين ، وكانا يكتريان طفلا تحمله أمى فى أثناء تجوالهما . فلما أن رزقها الله بى أغناهما عن أطفال الناس ، وفرحا بى فرحا عظيما .

فلم تملك حسنية أن ضحكت ضحكة مجلجلة ، فازداد حماسة وحرارة ، وقال مواصلا حديثه :

ـ آه من ذكريات طفولتى السعيدة ، لازلت أذكر مستراحى من الطوار . كنت أزحف على أربع حتى أبلغ حافة الطوار المطلة على الطريق ، وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة فى الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رش أو دابة ، يتكتل الطين فى قعرها ، وعلى سطحها يغنى الذباب ، وعلى شطآنها تتجمع نفاضة الطريق . منظر ساحر يأخذ بالألباب . ماؤها مطين ، وساحلها زبالة متعددة ألوانها . قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب وطين ، والذباب يحوم حولها ويقع عليها ، فكنت أرفع جفنى المثقلين بالذباب ، وأسرح طرفى فى ذاك المصيف الطروب ، والدنيا لا تسعنى فرحا .

فهتفت المعلمة ساخرة :

ـ يا بختك . . يا حظك . .

ولذه سرورها وإقبالها على حديثه ، فقال متشجعا :

ـ هذا سر ولعى بما يسمونه ظلما بالقاذورات ، والإنسان خليق بأن يألف أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك أخاف عليك أن تألفى ذلك الحيوان .

ـ أتعود أيضا إلى هذا؟

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته :

ـ طبعا . لا قبل لإنسان بإغفال الحق .

ـ الظاهر أنك زهدت فى الدنيا .

ـ لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك فى المهد .

ثم أومأ بيده إلى المزبلة التى تسكنها واستدرك :

ـ وقلبى يحدثنى بأن لى حظا أن أذوقها مرة أخرى فى مأواى هذا .

وأومأ برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها : «هلمى» فتميزت المرأة غيظا ، وأحنقتها جرأته ، فصاحت فى وجهه :

- حذار يابن الشيطان.

فقال بصوت متهدج :

- كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه؟

- وإذا هشمت عظمك؟

- من يعلم . . ربما أستلذ ذلك أيضا.

ونهض الرجل بغتة، وتراجع قليلا متقهقرا، كان يظن أنه بلغ مناه، وأن المعلمة أصبحت طوع يمينه، وقد تلبسته حال جنونية جعلته ينتفض انتفاضا. وثبتت عيناه على عينى المرأة فى ذهول وبهيمية. ثم مد يديه بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة، وتجرد عاريا. وبهتت المعلمة لحظات، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد، وقذفته به بسرعة وقوة، فأصاب بطنه، وندت عنه آهة كالخوار، وسقط يتلوى.

١٧

كان السيد سليم علوان جالسا كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياع بعض اللوازم. وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك، فدعاها إلى الجلوس على كرسى قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة. ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له. والحق أن هذا العطف لم يكن ارتجالا، ولكن السيد كان قد نوى أمرا لا رجوع فيه لأنه من العسير أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار. وقد ساءه كثيرا أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التى تستوجب الحلول ثم لا يجد الإرادة التى تحلها. فهؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم، وهذه الأموال المكدسة لا يدرى متى يتاح له استغلالها خصوصا وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن، وعلاقته بزوجه وهمه الناشىء من ذبول شبابها ونضوب حيويتها، وأخيرـ وليس آخرا ـ هذه العاطفة التى يعانيها ويلقى من اضطرامها ما يلقى من أشواق وآلام. لبث بين هذه الهموم متحيرا، ثم رأى أن يفض إحداها بعزم ورغبة ولكنه انساق فى الاختيار مع هواه وهو لا يدرى، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الغشوم، وتركز اهتمامه فى ذلك، حتى لكأنه بالانتهاء منها إنما ينتهى من همومه جميعا. ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها المزعوم مشكلات جديدة لا تقل خطرا

عن سابقاتها. ولكنه الهوى. لقد غلبه الهوى على أمره، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وإرادته، وهانت عليه الصعاب التى كانت تعترض أحلامه، وقال لنفسه متبرما: «لقد انتهت زوجى كامرأة، ولست من الرجال الذين ينزلقون إلى الفسق فى مثل هذه السن، ولا داعى مطلقا للرضا بالعذاب والغم. لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا؟!» وهكذا انتهى إلى رأى لا عدول عنه، وأجمع على تحقيق رغبته. ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كثب منه معتزما مفاتحتها بالأمر الخطير.
ولبث السيد متخوفا من الكلام قليلا لا لأن ترددا ساوره، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة، وتصادف فى تلك اللحظة أن دخل عامل حاملا صينية الفريك المشهورة، فرأتها أم حميدة وجرت على شفتيها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها، وابتهل هذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط:

- لكم تكدرنى هذه الصينية!

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة:

- لماذا كفى الله الشر؟

فقال السيد باللهجة نفسها:

- لكم تحدث لى من متاعب..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرى ما يعنيه:

- لماذا يا سيدنا البيك؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعا بأنه يحادث خاطبة:

- لا يرضى عنها الطرف الآخر..

فدهشت أم حميدة، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوما على قطعة من هذه الصينية، وها هى ذى امرأة زاهدة لا ترضى عنها! وقالت المرأة لنفسها: «يعطى الحلقة لمن ليس له أذنان». ثم غمغمت مبتسمة، وبلا حياء:

- هذا شىء عجيب!!

فهز السيد رأسه متأسفا. وكانت زوجه لا ترحب بالصينية من بادئ الأمر وهى بعد شابة فى ريعان الشباب. كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة، ولكنها تحملت ما كانت تعده إرهاقا إكراما لزوجها النهم، وإشفاقا من تكدير صفوه. ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول عن أمر فى المداومة عليه خطر وأى خطر على صحته. ولما أن تقدم بها العمر قل صبرها، وتضاعف إحساسها بالأمر، وبدأ تذمرها صريحا، حتى كانت تهجر بيت الزوجية إلى بيوت أبنائها، زيارة فى الظاهر وهروبا فى الحقيقة. وضاق

بها السيد ذرعا، ورماها بالبرود والنضوب، وتكدر صفوهما، وتنغص عيشهما، دون أن يعدل عن هواه، أو يعطف على ضعفها الملموس. وقد اتخذ نشوزها ـ هكذا دعاه ـ حجة له فى هواه وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة!

هز السيد رأسه متأسفا وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أم حميدة:

ـ لقد أنذرتها بالزواج من أخرى. وإنى لفاعل بإذن الله..

وثار اهتمام المرأة، وتحركت غريزة العمل فى باطنها، وحدجته بنظرة التاجر إلى زبون نادر الوجود، ولكنها قالت بشىء من الارتياب:

ـ لهذا الحد ياسى السيد؟!

فقال الرجل باهتمام جدى:

ـ لقد انتظرتك طويلا، وكنت على وشك أن أرسل فى طلبك. فما رأيك؟

فتنهدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف. وقد قالت فيما بعد إنها ذهبت تبتاع حناء فعثرت على كنز. ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت:

ـ يا سى السيد أنت رجل قد الدنيا، ومثلك فى الرجال قليل، ويا حظ من تكون نصيبك، وأنا رهن إشارتك، فعندى البكر والثيب، والشابة والنصف، الغنية والفقيرة. اختر ما تشاء..

وفتل السيد شاربيه الغليظين، واعتراه شىء من الارتباك قليلا، ثم مال نحوها، وقال بصوت منخفض، وعلى فمه ابتسامة:

ـ لا داعى للبحث والتعب. إن من أريد فى بيتك أنت!

واتسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعى:

ـ فى بيتى أنا!!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة:

ـ أجل فى بيتك أنت دون سواك. ومن لحمك ودمك. أعنى كريمتك حميدة..!

ولم تصدق المرأة أذنيها، وتولاها الذهول. أجل كانت تعلم ـ عن طريق حميدة نفسها ـ أن السيد يتبعها أينما ذهبت عينين براقتين، ولكن الإعجاب شىء والزواج شىء آخر. فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة؟!. وقالت المرأة بصوت مضطرب:

ـ لسنا قد المقام ياسى السيد!

فقال الرجل برقة:

ـ إنك سيدة طيبة، وقد أعجبتنى كريمتك وكفى. ألا يكون الناس أهلا للخير إلا إذا كانوا أغنياء؟ وما حاجتى للمال وعندى منه ما فوق الكفاية!

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها. ثم ذكرت فجأة أمرا غاب عنها حتى هذه اللحظة. ذكرت أن حميدة مخطوبة، وقد ندت عنها «آهة» كالمنزعجة، حملت السيد على أن يسألها قائلا:

ـ مـالك؟

فقالت المرأة باضطراب:

ـ رباه، نسيت ياسى السيد أن أقول لك إن حميدة مخطوبة! خطبها عباس الحلو قبل سفره إلى التل الكبير..!

فانكفأ وجه الرجل، واصفر وجهه غضبا، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة:

ـ عباس الحلو..!

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة:

ـ رباه لقد قرأنا الفاتحة!

فقطب السيد سليم قائلا فى غضب وازدراء:

ـ ذاك الحلاق الشحاذ..

فقالت أم حميدة كالمعتذرة:

ـ قال إنه سيشتغل فى الجيش، ليجمع ثروة، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة..

وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة ـ مع الحلو ـ إلى مضمار واحد، وقال بحدة:

ـ أيحسب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم! ولكنى أعجب لما جعلك تذكرين هذه «الحكاية»!

فقالت المرأة معتذرة:

ـ لقد ذكرتها فجأة، هذا كل ما فى الأمر. ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع، ولذلك لم يكن لدى حيلة فى رفض يده! لا تؤاخذنى ياسى السيد. إن مثلك إذا طلب أمر. ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع، فلا تؤاخذنى. سأذهب الآن وأعود إليك فى الحال: لا تغضب على، لماذا غضبت هكذا؟

وبسط السيد وجهه. وذكر أنه غضب حقا أكثر مما ينبغى، كأنما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه. ولكنه قال:

ـ ألا يحق لى أن أغضب؟

ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمرا أربد له وجهه وسألها منزعجا:

ـ وهل وافقت الفتاة؟ أعنى هل تريده؟

فقالت المرأة بسرعة:

ـ لا شأن لابنتى بهذا الأمر! وما حدث لا يعدو أن جاءنى الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة.

فقال السيد:

ـ غريب والله أمر هؤلاء الشبان! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته، ولكنه لا يجد بأسا من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولادا يلتقطون رزقهم من الزبالة، لننس هذه الحكاية.

نعم الرأى ياسى السيد.. سأذهب الآن، وسأعود دون إبطاء، وربنا المستعان.

ونهضت المرأة واقفة، وانحنت على يده مسلمة، ثم تناولت لفافة الحناء، وكان العامل قد وضعها على المكتب، ومضت إلى حال سبيلها..

ولبث السيد متغيرا، متجهم الوجه، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنرفزة والغضب.. أولى الخطى عثار!. حلاق قذر لا يساوى مليما، ومع ذلك فهو يزحمه فى حلبة واحدة. وبصق على الأرض بازدراء كأنما البصقة هى الحلو نفسه. وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون فى هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية، ستقول زوجه إنه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق!. أجل ستقول زوجه وتعيد، وسيقول الناس ويتفننون فى القول، وسيتناهى ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه، تفكر فى ذلك جميعه، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال فقد انتهت المعركة قبل اليوم، ومد يده بالفعل، وتوكل على الله. ومضى يفتل شاربه بأناة، ويهز رأسه استهانة، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه، وهونت عليه القيل والقال. وهل كف الناس عنه ألسنتهم من قبل؟. ألم يجعلوا من صينية الفريك أسطورة يتناقلونها؟. فليقولوا ما بدالهم، وليفعل ما بدا له، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذى يشق سبيله بين هامات متطامنة. أما أسرته فثروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعا، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكوية فيما لو سعى إليها: وانفثأ غضبه، وانبسطت أساريره، وارتاح إلى تفكيره ارتياحا عظيما. ينبغى أن يذكر دائما إنه إنسان من لحم ودم، وإلا أغفل حق نفسه، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدردها. ما جدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده؟! أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشرى رهن إشارة منه؟!

١٨

ومضت أم حميدة مهرولة إلى شقتها، وفى هذا الشوط القصير - ما بين الوكالة والشقة - ثمل خيالها بأحلام عراض. ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة، أو كأنها تعاين الأنثى التى خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه وثروته. ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد. كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصفه، وأن كل نعيم ستذوقه ستحظى هى بنصيبها الموفور منه، ومع ذلك لم تخل من هذا الإحساس الغريب الذى خالط سرورها وأطماعها! وقالت لنفسها «أكان القدر حقا يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التى لا تعرف لنفسها أبا ولا أما!» وتساءلت فى عجب «ألم يسمع السيد صوتها المخيف وهى تزعق فى وجوه الجيران؟ ألم يشهد معركة من معاركها؟ يا ويل الرجال من لحم النساء!» ثم قالت لها دون أن تحول عنها عينيها:

- مولودة فى ليلة القدر والحسين!

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع، وسألتها ضاحكة:

- لمه؟. ماذا وراءك؟. هل من جديد؟!

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبة، ثم قالت بهدوء وهى تتفرس وجهها لتمتحن أثر كلامها فيه.

- عروس جديد!

فلاح فى العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة، وتساءلت الفتاة:

- أتقولين حقا؟

- عروس كبير المقام، يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب..

فخفق قلب حميدة بقوة، وتألقت عيناها حتى بدا حورهما ساطعا وتساءلت:

- من عساه يكون؟

- خمنى؟!

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون:

- من؟

فقالت أم حميدة وهى تهز رأسها وترعش حاجبها:

ـ السيد سليم علوان على «سن ورمح»!

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ أسنانه فى راحتها، وهتفت:

ـ سليم علوان صاحب الوكالة؟!

ـ صاحب الوكالة، وصاحب الأموال التى لا يفنيها المحيط!

فأضاء وجه الفتاة نورا، وغمغمت لا تدرى من الدهشة والسرور:

ـ يا خبر أسـود!

ـ يا خبر أبيض، يا خبر مثل اللبن والقشدة. لم أكن لأصدق لولا أنه حادثنى بنفسه.

غرزت الفتاة المشط فى شعرها، وهرعت إلى أمها وارتمت إلى جانبها، وسألتها وهى تشد على كتفها:

ـ ماذا قال لك؟ خبرينى بكل ما قال. كلمة كلمة.

وأنصتت إلى المرأة بانتباه عميق وهى تروى قصتها. وخفق قلبها خفقانا متواصلا، وتورد وجهها، وتألقت عيناها بشرا وسرورا. هذه هى الثروة التى تحلم بها، هذا هو الجاه الذى تهيم به، وإنها من حب الجاه لفى مرض، وإن الشغف بالقوة لغريزة جائعة فى باطنها، فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلا بالثروة؟ لم تكن تدرى دواء لهذا التشوف الأليم يضطرم فى أعماقها إلا الثراء الكبير، فهو الجاه العريض، وهو القوة الشاملة، وهو بالتالى السعادة الكاملة. كانت فى سرورها المباغت كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة فى أشد المواقف حرجا. كانت كطائر مقصوص الجناحين يسف فى يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم ينبت له ريش بمعجزة تدق على الأفهام من محاولاته الفاشلة تحليق يسمو بها إلى قنن الجبال. وكانت أمها تنظر إليها بلحظ خفى فسألتها:

ـ مـاذا تـرين؟

لم تدر أم حميدة ماذا تقول، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة أيا كان رأى الفتاة. فإذا قالت السيد قالت والحلو؟، وإذا قالت الحلو قالت أو نفرط فى السيد! أما حميدة فقالت بإنكار شديد:

ـ مـاذا أرى؟!

ـ أجل ماذا ترين، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه، أنسيت أنك مخطوبة؟!.. وأنى قرأت الفاتحة مع الحلو؟

فلاحت فى عينى الفتاة نظرة حادة غشت جمالهما، وقالت فى انزعاج وازدراء:

ـ الحـلـو!!

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة فى البت فى مثل هذا الأمر الخطير، وكأن الحلو لم يكن

قط، وعاودها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة مخيفة، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدى فى النهاية المحتومة، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لأى. كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى إلى إقناعها بالقبول، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هذا الازدراء الغريب. واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد:

ـ أجل الحلو، أنسيت أنه خطيبك؟!

كلا لم تنس، ولكن سيان التذكر والنسيان، ترى هل تعترض أمها حقا؟ وحدجتها بنظرة نافذة، فأيقنت أنها كاذبة فى انتقادها، وهزت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار:

ـ ذبحـة..

ـ ماذا يقول الناس عنا؟

ـ دعيهم يقولوا ما بدا لهم..

ـ سأستشير السيد رضوان الحسينى.

فجفلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة:

ـ ما شأنه فى أمر يخصنى وحدى؟

ـ نحن أسرة لا رجل لها، فهو رجلنا..

ولم تطق المرأة انتظارا فنهضت واقفة، وتلفعت بملاءتها، وغادرت الحجرة وهى تقول: سأشاوره وأعود توا». وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ. ثم تنبهت إلى أنها لم تتم تمشيط شعرها، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة، ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة، وعادت إلى جلستها.

لم يكن تحولها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت أمها، أجل لقد حسبت حينا أنها وصلت ـ راضية ـ أسبابها بأسبابه إلى الأبد، فمنحته شفتيها يقبلها بما أوتى من شغف وحب، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معا، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له، وزارته بالفعل ودعت له ـ ولم تكن تزوره إلا لتستعديه على عدوة عقب شجار ـ وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة، وفضلا عن ذلك فقد رفعها الحلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة، فلم يعد فى وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة: «أحلق هذا لو خطبك إنسان». بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان. ولم تذق بادئ الأمر الطمأنينة الكاملة، ووجدت فى النفس شيئا يضطرب يرتاد متنفسا. حقا لوح عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذى تريد، وقد حيرها أمره مذ أول لقاء. ولم تكن تدرى كيف يكون رجلها على وجه التحقيق،

ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال. ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة، فجعلت تقول لعل المعاشرة تهيئ لها حياة لم تكن تحلم بها قط. ثم لم تكف عن التفكير، والتفكير فضيلة ذات حدين، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التى يمنيها بها؟ ألا تكون مغالية فى أحلامها؟ يقول الفتى إنه سيعود بثروة، وإنه سيفتح صالونا فى الموسكى، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة؟ وهل هذا حقا ما تطمح إليه نفسها المجنونة؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق، وباتت تدرك أن نفورها منه أشد من أن تلطفه المعاشرة. ولكن ما عسى أن تفعل؟ ألم ترتبط به إلى الأبد.. رباه، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء، أو لما تزوجت على الإطلاق! وأخذت حماستها تفتر، وشعورها يخمد، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتغرها الآمال. هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد، ولكن بعد أن كانت نبذته فى قلبها منذ أمد طويل..

ولم يطل المطال بغياب الأم، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه أمارات الجد، وقالت وهى تخلع ملاءتها:

ـ لم يوافق السيد أبدا..

ثم قصت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين أن الحلو شاب والسيد سليم شيخ، وأن الحلو من طبقتها والسيد من طبقة أخرى، وأن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لابد محدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض من رشاشها، وكيف ختم حديثه بقوله «الحلو شاب طيب وقد هاجر فى سبيل الرزق طامحا لهذا الزواج، فهو رجلها المفضل، وما عليك إلا أن تنتظرى فإذا عاد خائبا لا قدر الله كان من حقك بلا جدال أن تزوجيها ممن تختارين».

وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها، ثم صاحت بصوت جاف فضح الغضب قبحه:

ـ السيد رضوان ولى من أولياء الله، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأيا لم يبال مصلحة الناس فى سبيل اكتساب الأولياء أمثاله، فسعادتى لا تهمه فى كثير أو قليل، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغى لرجل يرسل لحيته مترين، فلا تسألى السيد عن زواجى وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة..! أما والله لو كان طيبا كما تزعمون لما رزأه الله فى أبنائه جميعا..!

وارتاعت المرأة، وقالت لها بإنكار وألم:

ـ أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالتها بشر مستطير :

ـ هو فاضل إن أردت ، وولى من أولياء الله إن شئت ، ونبى أيضا إن أحببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة فى سبيل سعادتى . .

وتألمت المرأة للإهانة التى لحقت السيد ، لا دفاعا عن رأيه الذى كانت لا توافق عليه فى باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة فى إغاظة الفتاة والانتقام من سوء خلقها :

ـ ولكنك مخطوبة . .

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

ـ إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة . . !

ـ والفاتحة؟

ـ المسامح كريم . .

ـ الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

ـ بليها واشربى ماءها!

فضربت المرأة صدرها وقالت :

ـ آه يا بنت الثعبان!

ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح فى عينى أمها ، فقالت ضاحكة :

ـ تزوجيه أنت . .

فضربت المرأة كفا بكف وهى تغالب الضحك ، ثم قالت بسخرية :

ـ من حقك أن تبيعى صينية البسبوسة بصينية الفريك . .

فنظرت إليها بتحد وقالت بغيظ :

ـ بل رفضت شابا واخترت شيخا . .

فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت «الدهن فى العتاقى» ، وتربعت على الكنبة فى سرور وقد تناست معارضتها الكاذبة ، واستخرجت سيجارة من علبة سجائرها وأشعلتها ، وراحت تدخن بلذة لم تشعر بمثلها من زمن بعيد ، فنظرت حميدة إليها بغيظ وقالت :

ـ تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف سرورى ، ولكنها المكابرة والمعاندة والرغبة فى إغاظتى سامحك الله . .

فحدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

ـ إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة، فهو فى الواقع إنما يتزوج من أهلها جميعا، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد. أفهمت؟.. أم تحسبين أن تزفى إلى قصرك الجديد وأبقى أنا ها هنا تحت رحمة الست سنية عفيفى وأمثالها من المحسنين؟!..

فهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها، وقالت بكبرياء مصطنع:

ـ تحت رحمة الست سنية عفيفى، والست حميدة هانم..

ـ طبعا.. طبعا يا لقيطة الطوار، يابنة المجهول..

فاسترسلت الفتاة فى ضحكها وقالت:

ـ مجهول مجهول.. كم من أب معروف لا يساوى شيئا..

* * *

وعند ضحى الغد ذهبت أم حميدة إلى الوكالة سعيدة رخية البال، لتقرأ الفاتحة مرة أخرى. ولكنها لم تجد السيد سليم بمجلسه المعهود، واستعلمت عنه، فقيل لها إنه تخلف عن الحضور اليوم، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولاها الجزع، ولما أن انتصف النهار ذاع نبأ فى الزقاق بأن السيد سليم علوان أصيب ليلة أمس بذبحة صدرية، وأنه فى فراشه بين الحياة والموت! وقد عم الأسف الزقاق كله، أما بيت أم حميدة فقد سقط عليه النبأ كالصاعقة..

١٩

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء. ورأى أهله رجالا يقيمون سرادقا على أرض خراب بالصنادقية فيما يواجه زقاق المدق، وانزعج عم كامل وظنه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع «إنا لله وإنا إليه راجعون، يا فتاح يا عليم يارب» ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفى، ولكن الغلام قال له ضاحكا:

ـ ليس السرادق لميت، ولكنها حفلة انتخابية!

فهز عم كامل رأسه وغمغم «سعد وعدلى مرة أخرى!» وكان الرجل لا يدرى شيئا على الإطلاق عن عالم السياسة، إن هو إلا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى. أجل إنه يعلق فى صدر محله صورة كبرى لمصطفى النحاس، ولكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوما صورتين للزعيم ثبت إحداهما فى الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه، ولم ير الرجل فى تثبيتها بدكانه من بأس، خصوصا وأنه يعلم أن هذه الصورة

وأمثالها من تقاليد الدكاكين؟ ففى دكان الطعمية بالصنادقية صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس وفى قهوة كرشة صورة للخديوى عباس، وراح الرجل يرمق العمال العاكفين على عملهم بإنكار وقد توقع يوما صاخبا مرهقا. ومضى السرادق يتكون جزءا جزءا، فنصبت الأعمدة، ووصلت بالطنب ومدت عليها الستائر، وفرشت الأرض بالرمل، وصفت المقاعد على جانبى ممر ضيق إلى مسرح أقيم فى الداخل عاليا، وركبت مكبرات الصوت على مفارق الطريق بين الحسين والغورية، وأجمل من هذا كله أن ترك مدخل السرادق بلا حاجز من ستار أو ظلة مما بشر أهل المدق بأنهم سيشاركون فى الحفلة من منازلهم، وفى أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة، وألصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذى تعرفه أكثرية أهل الحى لأنه كان تاجرا بالنحاسين. ودار فتيان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بألوان زاهية:

انتخبوا نائبكم الحر إبراهيم فرحات

على مبادئ سعد الأصلية

زهق عهد الظلم والعرى

وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلانا بدكان عم كامل، ولكن الرجل الذى ترك غياب عباس الحلو فى نفسه أسوأ الأثر تصدى لهم ساخطا وهو يقول:

- ليس هنا يا أولاد الحلال، هذا شؤم يقطع الرزق..

فقال له أحدهم ضاحكا:

- بل تجلب الرزق. وإذا رآها حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة، وأعطاك الثمن مضاعفا وعليه قبلة.

وانتهى العمل عند منتصف النهار، وعاود المكان هدوءه المعهود، واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد إبراهيم فرحات فى هالة من حاشيته ليعاين الأمور بنفسه، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق، إلا أنه كان كذلك تاجرا لا يفوته الإطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز عليه ما لا ينبغى أن يجوز. وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير، يرفل فى جبته وقفطانه، ويقلب فيما حوله وجها أسمر كرويا ذا عينين ساذجتين. كانت مشيته تنم عن الزهو والثقة، وعيناه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامة يشى بأن بطنه أهم كثيرا من رأسه وقد أحدث ظهوره اهتماما كبيرا فى الزقاق وما يحيط به لا لأنهم اعتبروه عروس الليلة، وأملوا من وراء «زفته» خيرا كثيرا، خصوصا وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التى دهمتهم فى الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتزكية! . ثم جاءت على أثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفندى مرددة هتافات

عالية، كان يصيح بصوت كالرعد «من نائبنا؟» . . فيجيبونه بصوت واحد «إبراهيم فرحات» فيهتف ثانية «من ابن الدائرة؟» فيهتفون «إبراهيم فرحات» وهكذا، وهكذا، حتى امتلأ بهم الطريق، وتسرب منهم كثيرون إلى السرادق. وجعل المرشح يرد الهتافات برفع يديه إلى رأسه، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعى الأثقال بنادى الدراسة الرياضى. واقترب من الحلاق العجوز الذى حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول «السلام عليك يا أخا العرب». فانحنى الرجل على يده فى استحياء وترحيب، وتحول عنه إلى عم كامل قائلا: «لا تتجشم مشقة النهوض، حلفتك بالحسين إلا ما لزمت مكانك. كيف حالك. . الله أكبر. . الله أكبر، هذه بسبوسة فريدة، وسيعرف الناس جميعا قدرها هذه الليلة» . . وتقدم مسلما على كل من لاقاه، حتى انتهى إلى قهوة كرشة، فحيا المعلم، وجلس ودعا رفاقه للجلوس، واستبق إلى القهوة كثيرون حتى جعدة الفران وزيطة صانع العاهات. وردد المرشح نظره بين الحاضرين فى سرور، ثم قال مخاطبا المعلم كرشة:

ـ قدم الشاى للجميع . .

وابتسم تحية لكلمات الشكر التى تناثرت عليه من كل حدب وصوب ثم التفت صوب المعلم قائلا:

ـ أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السرادق من الطلبات . .

فقال المعلم كرشة بشىء من الفتور:

ـ نحن فى الخدمة يا سى السيد . .

ولم يغب عن المرشح فتوره، فقال برقة:

ـ نحن جميعا أبناء حى واحد، وكلنا إخوان . . !

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصا لاسترضاء المعلم كرشة، ذلك أنه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته وأصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم، وقدم له خمسة عشر جنيها مقدم أتعاب ولكن المعلم كرشة أبى أن يمسها محتجا بأنه ليس دون الفوال ـ صاحب قهوة الدراسة والذى ذاع أنه أخذ عشرين جنيها ـ منزلة، ومازال به حتى حمله على قبول المبلغ واعدا إياه بالمزيد. ثم افترقا والسيد مشفق من انقلاب المعلم عليه: والواقع أن المعلم كرشة لم يخل من غضب على «محدث السياسة» هذا على حد قوله، وأضمر له شر النوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه. وكان المعلم كرشة يتيقظ ـ على غلبة الذهول عليه ـ فى المواسم السياسية. وقد اكتسب شبابه شهرة فى عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك فى الأمور الأخرى! فاشترك فى ثورة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذى التهم الشركة

التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين، وكان من أبطال المعارك العنيفة التى دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى. ولما أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه وحماسته، فبذل فى انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ ـ ولو أنه قيل وقتذاك إنه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه أعطى صوته لمرشح الوفد ـ وأراد أن يلعب الدور نفسه فى انتخابات صدقى ـ فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات ـ ولكن عيون الحكومة راقبته يوم المعركة، وحملته مع غيره فى لورى إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغما لأول مرة. وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة، فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة، وانقلب نصيرا لمن «يدفع أكثر». وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد، قائلا إنه إذا كان المال غاية المتنابذين فى ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين وفضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه، وغلبه الذهول، وركبته الشهوات، ولم يبق فى روحه من الثورات القديمة إلا ذكرى غامضة ربما كر إليها الخيال فأشاد بها متباهيا فى بعض ساعات الصفاء حول المجمرة، ولكنه نبذ فى قلبه جميع قيم الحياة الشريفة، ولم يعد يعبأ شيئا من بعد ذلك إلا «الكيف» و«الهوى»، وما عدا ذلك «اردم» على حد قوله. لم يعد يكره أحدا، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم. ولم يعد يحب أحدا كذلك، ولذلك كان من العجيب حقا أن تدب فيه حماسة مفاجئة فى هذه الحرب فيتعصب للألمان، وأن يتساءل ـ فى هذه الأيام خاصة ـ عن موقف هتلر، أحقيقة قد أصبح مهددا، وألا يجمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد؟! ولكن إعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس إلا، فكان يعده شيخ فتوات الدنيا، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلا لعنترة وأبى زيد. بيد أنه ظل محافظا على خطره فى ميدان الانتخابات، لأنه كان زعيم المعلمين الذين يتحلقون بمجمرته كل ليلة ومن يتبعهم من فعلة وصبيان وبطانات، ولذلك حرص السيد إبراهيم فرحات على استرضائه، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها فى قهوته متوددا مستعطفا.

وكان يسترق إليه النظر، فمال على أذنه وسأله بصوت خافت:

ـ أراض أنت يا معلم؟

فتدلت شفته عن ابتسامة، وقال فى شىء من التحفظ:

ـ الحمد لله، أنت الخير والبركة يا سى السيد.. فهمس فى أذنه:

ـ سأعوضك عما فاتك خيرا كثيرا..

وانبسطت أساريره وهو يقلب عينيه فى وجوه الحاضرين، ثم قال برقة ورجاء:

ـ إن شاء الله لن تخيبوا لنا أملا . .

فتعالت الأصوات فى وقت واحد تقول:

ـ معاذ الله يا سيد فرحات . أنت ابن خطنا . .

فابتسم الرجل مطمئنا وأنشأ يقول:

ـ إنى كما تعلمون مستقل، ولكنى أستظل بمبادئ سعد الحقيقية، وماذا أفدنا من الأحزاب؟ ألا تسمعون مهاتراتهم؟ إنهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى، ثم ذكر أنه يخاطب بعضا من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلا): دعونا من ضرب الأمثال. لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتى لا يمنعنى مانع من قول الحق، ولن أكون عبدا لوزير أو زعيم، وسأذكر فى البرلمان إذا وفقنا الله للنجاح أننى إنما أتكلم باسم أبناء المدق والغورية والصنادقية. ولقد ولى عهد الثرثرة والنفاق، وهاكم عهدا لا يشغله شيء عن أموركم العاجلة، كزيادة الأقمشة الشعبية والسكر، والكيروسين، والزيت، وعدم خلط الرغيف، وتخفيض أسعار اللحوم . .

وسأله سائل باهتمام شديد:

ـ هل حقا تتوفر هذه الضروريات غدا؟

فقال الرجل بثقة ويقين:

ـ بغير جدال. وهذا سر الانقلاب الحاضر، كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثم ذكر أنه قال إنه مستقل فاستدرك قائلا) وهو يستقبل المرشحين على اختلاف ألوانهم، فأكد لنا أن عهده هو عهد الكساء والغذاء.

وازدرد ريقه، ثم استطرد:

ـ سترون العجب العجاب، ولا تنسوا الحلوان إذا فزت فى الانتخابات.

فسأله الدكتور بوشى:

ـ الحلوان بعد ظهور النتيجة؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق:

ـ وقبل ظهور النتيجة أيضا.

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال:

ـ كالصداق له مقدم ومؤخر. إلا أنت يا ست الستات فلا صداق لك، لأن حبك روحى من السماء.

فتحول السيد إلى الشيخ منزعجا، ولكنه سرعان ما أدرك حين وقع بصره على زيه ـ

الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية ـ أنه من أولياء الله الصالحين. فارتسمت ابتسامة على وجهه الكروى وقال برقة:

ـ أهلا وسهلا بسيدنا الشيخ . .

ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق فى ذهوله. ثم انبرى أحد تابعى المرشح قائلا:

ـ لكم ما تريدون، ولنا القسم بكتاب الله، وبالطلاق . .

فقال أكثر من صوت:

ـ وجـــب . .

وأخذ السيد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية، ولما أن سأل عم كامل أجابه:

ـ ليس لى تذكرة، ولم أشترك فى أى انتخاب على الإطلاق . .

فسأله المرشح:

ـ أين مسقط رأسك؟

فقال بغير مبالاة:

ـ لا أدرى . .

وضج الجلوس بالضحك، وشاركهم السيد فرحات، ولكنه غمغم دون بأس:

ـ سأسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة.

وجاء فتى بجلباب حاملا مجموعة من الإعلانات الصغيرة، فانتهز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم إعلاناته، وظن كثيرون أنها إعلانات انتخابية، فأقبلوا عليها باحتفاء مجاملة للسيد المرشح، وتناول السيد فرحات إعلانا وقرأه فإذا فيه:

حياتك الزوجية ينقصها شىء.

عليك باستعمال عنبر السنطورى.

عنبر السنطورى

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة محلل بمعرفة وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرفش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا فى خمسين دقيقة.

طريقة الاستعمال:

خذ منه قدر القمحة على كباية شاى حلو كثير، فتجد عندك النشاط، ومقدار ربع الحق دفعة واحدة أقوى من جميع المكيفات، يسرى فى العروق كالتيار الكهربائى، اطلب علبة عينة من موزع الإعلان، الثمن ٣٠ مليما يا بلاش.

سعادتك بـ٣٠ مليما، والمحل مستعد للاستماع لملاحظات الجمهور.

وضج المكان بالضحك مرة أخرى، وارتبك المرشح قليلا، وتطوع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح:

- هذا فأل حسن.

ثم مال على أذنه وهمس قائلا:

- هلم بنا، أمامنا أحياء وأحياء.

فنهض الرجل وهو يقول:

- نستودعكم الله، إلى لقاء قريب إن شاء الله، اللهم حقق الآمال.

وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهم بمغادرة القهوة:

- يا سيدنا الشيخ ادع لى.

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه:

- الله يخرب بيتك!

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السرادق قد ضاق عن القاصدين وتناقل الحاضرون أن سياسيا كبيرا سيلقى خطابا هاما. وذاع أن شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح، ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم. وأعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهدمين مهلهلى الثياب فعزفوا النشيد الوطنى، وكان لإذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح فى دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والحوارى حتى سدوا الصنادقية سدا. وتعالى الهتاف والضوضاء. وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة أماكنهم، حتى ظن أن الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى. ثم كانت المفاجأة السارة إذ دق بعضهم أرض المسرح حتى شمل الصمت الجمع المحتشد، ثم بدأ مونولوجست معروف فى لباسه البلدى، فما كادت تراه الأعين المحدقة حتى جن جنونهم فرحا وسرورا، وراحوا يهللون ويصفقون، وقال المونولوجست وتفنن. ورقصت امرأة شبه عارية وهى تهتف المرة تلو المرة: «السيد إبراهيم فرحات.. ألف مرة.. ألف مرة». وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح فى المذياع (السيد إبراهيم فرحات أحسن نائب. ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون). واتصل الغناء بالرقص والهتاف، وانقلب الحى جميعا إلى مولد.

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة فى إبان إزدهارها وسرورها. وكانت تظن كأهل الزقاق كافة أنها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحو) على حد تعبيرهم. وما أن رأت المنظر البهيج حتى شملها السرور وتلفتت يمنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التى نادرا ما ترى مثلها فى حياتها، ومضت تشق

طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات حتى بلغت مدخل المدق، واقتربت من جدار الصالون، وارتقت حجرا منغرسا لصق الحائط، وتطلعت باهتمام وسرور إلى السرادق.

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدى أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن. واختلط الغناء بالهتاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل. واستولى المنظر الخلاب على لبها فانجذبت روحها إليه، والتمع السرور فى عينيها الفاتنتين، وفمها المفتر عن ابتسامة لؤلؤية. وكانت متلفعة بملاءتها فلا يبدو منها إلا وجهها البرنزى، وأسفل ساقيها، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها الفاحم. ورقص قلبها سرورا، وتنبهت حواسها جميعا، وجرى دمها حارا دافقا. سرها المونولوجست سرورا لم تشعر بمثله من قبل، حتى شعورها المر القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها. وظلت مستغرقة فيما ترى غير ملقية بالا إلى هبوط الظلام حتى أحست شيئا ما يجذب عينيها نحو اليسار، كأنه نداء يدعو حواسها إليه، أو ذاك الشعور الذى يقلقنا إذا أحدقت فينا عينان ولبته على رغمها فتحولت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتقت عيناها بعينين تتفرسان فيها بقوة وقحة!.. ولبثا مقدار ثانية ثم عادتا إلى هدفهما، ولكنها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الأول، وظل شعورها منتبها إلى العينين العارمتين، وجعلت حدقتاها تميلان ناحية اليسار، وساورها شك وقلق، فالتفتت مرة أخرى فالتقت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها، وقد نمتا ـ إلى ذلك ـ عن ابتسامة غريبة. ولم تتمالك نفسها فأعادت رأسها إلى موضعه الأول فى شىء من الحدة وقد ملأها الحنق. أحنقتها هذه الابتسامة الغريبة لأنها أفصحت عن ثقة وتحد لا حد لهما، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجرة، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها فى شىء ما، فى رقبته لو أمكن مثلا!.. وصممت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السلبية فى العراك، وإن ظل شعورها قويا بعينيه الوقحتين!.. ونغص عليها سرورها، وركبتها روح الشر التى تلبسها بسرعة جنونية. وكأن صاحب العينين لم يقنع بما فعل، أو كأنه لا يبالى هذه النار التى شبها، فراح يشق طريقه إلى موضع فى طريق بصرها الشاخص إلى السرادق متعمدا بلا شك أن يعترض سبيلها، ووقف هناك موليا إياها ظهره. كان طويل القامة، نحيفا عريض المنكبين، حاسر الرأس، غزير الشعر، مرتديا بدلة ذات لون ضارب للاخضرار، متأنقا فى ملبسه ومظهره، فلاح غريبا فى هذا الوسط الذى يكتنفه، وسرعان ما أنستها الدهشة ما تولاها من حنق وتوحش. هذا أفندى وجيه، وأين من زقاقها الأفندية؟!.. ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام.

ولكن لم يكن شىء ليردعه فما عتم أن التفت وراءه مرسلا نحوها نظرا عارما. وكان وجهه نحيلا مستطيلا، لوزى العينين، كثيف الحاجبين، تنطق نظرة عينيه بالحذق

والقحة. ولم يكتف بهذا التفرس على الملأ فصوب فيها نظره، وصعد من شبشبها المنجرد إلى شعرها، حتى انساقت وهى لا تدرى إلى النظر إلى عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من أثر، فالتقت عيناهما، ولاحت فى عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحد وظفر، فتناست دهشتها، وعاودها الحنق والغيظ والرغبة فى العراك، فغلا دمها غليانا، وهمت أن تشتمه علانية. همت أكثر من مرة، ولكنها لم تفعل، وتولاها قلق وانفعال وضاقت بوقفتها، فنزلت عن الحجر، ومرقت إلى الزقاق مندفعة على عجل. فقطعته فى ثوان. وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة إلى الالتفات إلى الوراء، ولكنه تمثل لعينيها فى وقفته مرسلا عينيه فى وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته افتضاحا، فرغبت عن رغبتها، وارتقت السلم متعجلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها فى تأديبه. واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها، ثم دلفت من النافذة المغلقة. ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها، وبحثت عيناها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الزقاق، وكان يرمق النوافذ المطلة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى وحل محلها احتفال وتطلع. وسرها مظهره الجديد فانفثأ حنقها، ولبثت بموقفها تستلذ حيرته، وتنتقم لغيظها وحنقها. أفندى وجيه ما فى ذلك من شك، وغير السابقين بلا جدال، وقد أعجبته وإلا ففيم هذا الاهتمام الشديد. وأما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة تستوجب أعنف عراك!.. فيم هذه الثقة التى لا حد لها؟.. أيحسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء؟.. وخالط ارتياحها حنق، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدى. ولكنه بدأ ييأس من النوافذ، وأعياه البحث عنها، وخافت أن ينصرف عن تطلعه ويغيب فى الزحام. وترددت لحظة، ثم أدارت الأكرة، وفرجت ما بين مصراعى النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة. كان موليا الزقاق ظهره، ولكنها كانت مطمئنة إلى أنه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء. وقد فعل، فتلفت رأسه مرة أخرى وتردد بين النوافذ، حتى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه، ولبث لحظات كالمرتاب، ثم.. ثم ارتسمت على شفتيه الابتسامة الوقحة، ورد إليه مظهر التيه والخيلاء بأفظع مما كان وأدركت أنها انزلقت إلى خطأ لا يغتفر بظهورها، وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغيظ، ووجدت فى ابتسامته تحديا يدعوها للنزال!.. وجدت فى هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل، وقرأتهما بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك. وبدا الرجل وكأن شيئا لا يمكن أن يقفه عند حد فتحرك مصعدا فى الزقاق بقدمين ثابتتين حتى خيل إليها أنه قادم إلى البيت. ثم مال إلى قهوة كرشة، واختار مجلسا ما بين المعلم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحلو فى الأيام الخوالى مستطلعا إلى شبحها وراء الخصاص. خطا بجلوسه هذه خطوة جريئة. ولكنها لم تتراجع، لبثت بموقفها مرسلة عينيها إلى المسرح وإن كانت لا

تكاد تدرى بما يدور عليه، شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لأخرى فى ومضات متقطعة كالكشاف الكهربائى.

ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة.

وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليال وعهود.

٢٠

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق، فكان يجىء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاى. وقد أحدث ظهوره الطارئ - بوجاهته وأناقته - دهشة فى القهوة، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال، فليس من الخوارق أن يقصد أفندى مثله قهوة مفتوحة لكل طارق. بيد أنه أتعب كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل فى كثير من الأحيان عن الجنيه، كما أنه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له من قبل. وراقبت حميدة مجيئه يوما بعد يوم بعين متفتحة ونفس متوثبة. ولكنها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقة ثيابها وتفاهتها، حتى ضاقت بالبيت ضيقا شديدا. ثم أغضبها إحجامها وعدته نوعا من الجبن لا يسيغه طبعها الجرىء، وعز عليها أن يقضى مخلوق عليها بالتزام شىء تستكرهه، فنشبت معركة جديدة فى صدرها الذى لا يستريح من المعارك. وقد رأت الأوراق النقدية التى كان يتعمد تقديمها لسنقر تحت بصرها، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها. وربما كانت هذه لغة ساقطة فى غير هذا المكان، أما فى زقاق المدق فهى لغة بليغة لا يخيب لها أثر، ومع أن الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدو منه ما ينبه أحدًا إلى الباعث الحقيقى لغشيانه القهوة، إلا أنه كان لا يعدم فرصة فيسترق النظر إلى خصاص النافذة، أو يضع مبسم النارجيلة على فيه زاما شفتيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان إلى عل كأنما يرسل القبلة فى الهواء إلى شبحها الجاثم وراء النافذة. وكانت ترى ذلك باهتمام، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق. وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعليها، وأن تتلقاه إذا سولت له نفسه التعرض لها - الأمر الذى لا يداخلها فيه أدنى شك - بما تعهده فى نفسها من قحة حقيقية بأن تهزم قحته شر هزيمة، وأن تسلقه بلسانها سلقا لا ينساه مدى الحياة. وإنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب، وابتسامته الظافرة، وتحديه الوقح. تبا له، ما الذى يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر؟!.. لا ارتاح لها بال حتى تمرغ أنفه فى الرغام، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شبشبا جديدا؟!

وقد اعترض سبيل حياتها وهى تعانى اليأس المرير، إذ سقط السيد سليم علوان بين حى وميت بعد أن مناها يوما وبعض يوم بالحياة العريضة التى تهيم بها، وبعد أن نبذت من أحلامها عباس الحلو ولفظته وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد ثمة أمل فى ذلك الزواج المأمول، فردت على رغمها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتا ونفورا، وأبت أن تسلم بسوء حظها، وراحت تنتهر أمها، وتتهمها بأنها حسدتها وطمعت فى مال الرجل فخيب الله آمالها. على هذه الحال لاح الرجل الجديد فى أفق حياتها. وقد بعث ظهوره فى نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعا. أغضبها زهوه، وأحنقها تحديه، وأغرتها وجاهته، وأيقظتها فحولته وجماله. جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة، ووجدت فيه ما لم تجتمع لسواه ممن عرفت من الرجال. القوة والمال والعراك!.. ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء، أو تدرى حاجات نفسها الملتوية، فتحيرت بين إنجذابها إليه، وبين رغبتها المضطرمة فى الأخذ بتلابيبه، ثم وجدت فى الانطلاق مهربا من سجنها وحيرتها معا، وفى فسحة الطريق مجالا تسبر فيه نفسها وغرائزها. فى الطريق يجوز أن يتعرض لها، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداها، وأن تنفس عن غضبها وحنقها، وأن تلبى هذا النداء الخفى الذى يهيب بها إلى النزال والعراك.. والانجذاب!

* * *

وفى عصر يوم من تلك الأيام، أخذت زينتها، والتحفت ملاءتها وغادرت الشقة لا تعبأ شيئا فى الوجود. وانتهت إلى الطريق فى أقل من دقيقة، ثم قطعت الزقاق لا تلوى على شىء. وخطر لها خاطر وهى تميل إلى الصنادقية، ألا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنها غادرت بيتها عمدا لتلقاه فى الطريق! خصوصا وأنه لا يدرى شيئا عن نزهتها اليومية المعتادة، وقد جاء أياما فلم يرها يوما تغادر البيت. فسيتبعها على الأثر، ويتعرض لها فى الطريق وقد أبت أن تقيم وزنا لظنونه، ورحبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور، وتوثبت للقائه بنفس تتحرق على التحدى والعراك متوعدة إياه بأن تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة. وبلغت فى سيرها الوئيد السكة الجديدة، فتخيلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلا حتى لا يضلها. ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغورية، ولعله يفتش عنها بعينيه المتفرستين الجسورتين. إنها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل. بينما لا تكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات. ترى هل أدرك بصره ما خرج فى ابتغائه؟.. وهل عاودته الابتسامة المتحدية الظافرة؟.. قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره!. فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء، حذار من الالتفات، فالتفاتة واحدة شر من الهزيمة. إنه وقح جرىء، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات. ترى ماذا هو

فاعل! أيقنع بتأثرها كالكلب؟ أم يسبقها قليلا ليريها نفسه؟ أم يحاذيها ويأخذ فى مخاطبتها؟. وواصلت السير متنبهة قلقة مترقبة متوثبة تتوقع فى كل خطوة جديدا وتتفحص عيناها جميع الذين يلحقون بها من المارة، وتنصت بيقظة للأقدام التى تتحرك وراءها. أرهقها الانتظار والتربص والتوثب، وكادت تراود إرادتها فى التلفت. بيد أنها استعادت عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوى على شىء، فما تدرى إلا وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات.. فخرجت من غيبوبتها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة، ثم سلمت، ودارت على عقبيها تسير وسطهن، وهن يسألنها عن سر غيابها أياما على غير عادة واعتلت بالمرض وهى تعاين الطريق لترى موقعه منه. ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان من طوار لطوار، ترى فى أى مكان ينزوى؟ لعله يراها من حيث لا تراه، ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم. كانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه، ولكنه نجا من مخالبها. ولكن أين يكون؟ أيمكن أن يكون متأخرا عنهن إلى الوراء؟ ولم تستطع أن تقاوم رغبتها فى التلفت هذه المرة. فالتفتت، وفحصت الطريق ببصر حاد، ولكنه لم يكن هناك، لا إلى الوراء ولا إلى الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار! لعله تأخر قليلا فى الإفلات من القهوة فأضلها، ولعله يتخبط الآن فى الطريق لا يدرى مكانها! وسرعان ما فترت حماستها وخمد نشاطها. وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنه ربما بدا لها هنا فجأة كما بدا يوما عباس الحلو وتجدد الأمل، ونشطت الحماسة فودعت آخر صويحباتها، وعادت متمهلة تقلب عينيها فى جنبات الطريق، ولكنه كان خاليا أو كان خاليا ممن تبتغى. وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير!.. تنوء بهزيمة نكراء. وصعدت مع أرض الزقاق، واتجهت عيناها إلى القهوة، وأخذ المعلم كرشة يبدو لها شيئا فشيئا ابتداء من طرف عباءته فكتفه الأيسر حتى رأسه المتطامن، ثم.. رباه ما هذا؟.. إنه لم يبرح مكانه، قابضا على خرطوم نارجيلته!.. وخفق قلبها بعنف، وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها، وهرولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل - ولو أن الخجل ليس من سجاياها - وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنونى، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبة. لمن إذا يجىء القهوة كل مساء؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينيه الفاجرتين؟.. ولمن يرسم تلك القبلة الخفية فى الهواء؟!.. وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب. ثم انثالت عليها الفكر والخواطر: أيمكن ألا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها، وأن ليست هذه الأفكار إلا أوهاما وأحلاما كاذبة؟.. أم أنه تعمد أن يهملها اليوم تأديبا لها وتعذيبا فهو يعبث بها عبث القوى بالضعيف؟!.. أتنهض إلى القلة وتقذفه بها فتحطم رأسه وتروى غلة الحنق والانتقام؟! واستولى عليها شعور ممض بالامتعاض لم

تشعر بمثله من قبل، حتى لقد تساءلت فى حيرة عما أصابها. بيد أنها لم تكن تجهل ما كانت تريد. كانت تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها فى الطريق.

ثم ماذا؟. ثم تقذفه بحمم الغضب، والحنق والوعيد. لماذا؟ تحديا لثقته بنفسه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر. كانت ابتسامة الظفر أصل البلاء كله، فأدركت مغزاها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها. هى ابتسامة الصراع والعراك! وإنها على مساجلتها لقادرة، لا بل إنها لم تخلق إلا لتتلقى هذه الابتسامة ومثيلاتها فتجيب عليها. كانت تأسى على فوات معركة طالما ترقبتها بلهفة وشغف.. وكانت فى أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذى الفحولة والجاه والخيلاء. هكذا تيقظت فى عنف وشدة، وانبثت فى نفسها روح اللهفة والتمرد والعراك والشوق..

ولبثت على الكنبة فريسة لهياجها الوحشى، ثم تلفتت إلى النافذة ترمقها شزرا. وجعلت تتزحزح حتى صارت وراءها، ثم أرسلت بناظريها من خلال الخصاص، ترى ولا ترى، متلفعة بالعتمة التى غشيت الحجرة. رأته فى جلسته الهادئة، يدخن النارجيلة فى طمأنينة وسلام، تلوح فى عينيه الثقة بالنفس والحذق، كأنه يعيش فى عالم وحده منقطع عما حوله، وقد خلا وجهه من آثار هذه الابتسامة المثيرة. هاهو هادئ مطمئن بينما هى تشتعل نارا. وتفرست فيه بقوة وحنق وما تزداد إلا انفعالا وحيرة. وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها أمها لتناول العشاء فغادرت الحجرة. وقطعت ليلة مملة مضنية، ونهارا كئيبا، وانتظرت عصر اليوم الثانى فى قلق متواصل. لم يكن يداخلها شك فى مجيئه فى الأيام الماضية. أما اليوم فباتت تترقب قلقة شاردة النفس، وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن أرض الزقاق ويرقى وئيدا جدار القهوة. ومن عجب أن خامرها الخوف من عدم مجيئه، ولعلها ابتدعت ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكيده. وجاء موعده دون أن يبدو له أثر، وتصرمت دقائق، فمن المؤكد أنه لا يحضر اليوم. بيد أن هذا التخلف قد حقق ظنها، فأدركت أنه تغيب متعمدا. وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتنهدت من الأعماق ارتياحا. لم يكن من شىء واضح يدعو للارتياح حقا، ولكن غريزتها أسرت إليها بأنه إذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمدا فلا شك أنه بالأمس تعمد كذلك ألا يطاردها، فليس ثمة إهمال أو عدم مبالاة، لا بل على العكس من ذلك فإنه يخوض غمار المعركة بمهارة وحذق، وإنه لصامد فى الميدان حتى فى هذه الساعة التى لا يرى له أثر فيها. وارتاحت إلى سرار غريزتها، واطمأنت إليه، وتوثبت للنضال بعزم جديد. ونبا بها المكوث فى البيت فتلفعت بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس. ولفح الهواء البارد فى الطريق وجهها فأنعشها، وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر، فغمغمت ساخطة «يالى من مجنونة!.. كيف جشمت نفسى هذا العذاب؟!. ألا فليزدرده الموت!» واستحثت خطاها حتى

التقت بصويحباتها. ثم عادت معهن. وقد أنذرنها بأنهن سيفقدن قريبا إحداهن التى ستتزوج من زنفل صبى دكان طعمية سيدهم. وقالت إحدى الفتيات:

- لقد خطبت قبلها ولكنها ستتزوج قبلك..

وأثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء:

- إن خطيبى مشغول بإعداد مستقبل باهر..

تباهت بالحلو على رغمها، ثم ذكرت متحسرة السيد سليم علوان - قتله الله ككل شىء غير ذى نفع - فتنزى قلبها ألما. وتولاها الوجوم بقية الطريق. شعرت بأن الحياة تعاندها وتكيد لها، والحياة هى العدو الوحيد الذى لا تدرى كيف تأخذ بتلابيبه. وسارت فى رفقة الفتيات حتى آخر الدراسة. ثم ودعت أخراهن. ودارت على عقبيها لتعود من حيث أتت. وعلى بعد أذرع رأته - رجلها دون غيره - واقفا على الطوار كالمنتظر! وثبتت بصرها عليه لحظات تحت تأثير المفاجأة التى دهمتها، واعتراها شىء من الارتباك عضت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة، ثم واصلت السير فى شبه ذهول. لم تكن مستعدة لهذا اللقاء، ولم يعد يداخلها شك فى أنه كان يتأثرها طوال هذا الوقت. وهكذا يحكم هو التدبير فى هدوء، ويدهمها هى فى كل مرة الارتباك والذهول. وأخذت تنادى قواها المبعثرة وتستعدى وحشيتها، وقد آلمها أشد الألم أنها لم تجد زينتها كما ينبغى، وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق. كان الجو متخشعا تحت سمرة المغيب، والمكان كالمقفر، وكان الرجل ينتظر دنوها فى هدوء، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدى ولا لابتسامة الظفر، فلما حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلا:

- من يتحمل مرارة الصبر يبلغ..

ولم تسمع تتمة عبارته لأنه غمغمها، فحدجته بنظرة حادة، ولم تنبس بكلمة، وسارت لحال سبيلها، فسايرها وهو يقول بصوته الهادئ العميق:

- أهلا وسهلا. كدت أجن بالأمس لأنى لم أستطع الجرى وراءك حذر العيون. وكنت أنتظر مثل تلك الخرجة صابرا يوما بعد يوم، فلما جاءت الفرصة دون أن أستطيع انتهازها كدت أجن..

إنه يطالعها بوجه وديع، غير الوجه الذى أهاجها، فلا تحدى ولا ظفر، وكلامه أشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار، وهى إنما توثبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن؟. أتهمل شأنه وتحث خطاها فينتهى كل شىء؟ تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت. ولكنها لم تجد مشجعا من قلبها، وكأنها تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأول بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها.

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة، ويحيك أكذوبة ماكرة، فلم يكن خوفه

الذى أقعده أمس عن تعقبها، ولكنه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحتا إليه بأن القعود فى حالته خير من العجلة، كما أوحتا إليه اليوم بأن يتلثم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة. وعاد يقول لها برقة:

- تمهلى قليلا.. عندى..

فالتفتت إليه وقاطعته بحدة:

- كيف سولت لك نفسك أن تخاطبنى!.. أتعرفنى يا هذا؟!

فقال بأدبه الزائف:

- كيف لا؟.. نحن أصدقاء قدماء.. وقد رأيتك فى الأيام الماضية أكثر مما رآك الجيران فى أعوام طوال. وفكرت فيك أكثر مما فكر ألصق الناس بك مدى عمره، فكيف لا أعرفك بعد هذا كله؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلعثم ولا تهدج.. وازدادت هى تعلقا بكلامه ورغبة فى مساجلته، وتولاها شعور بالاستهانة، هو السلاح الوحيد الذى تستطيع أن تشهره فى وجه عناد الحياة. بيد أنها لم ترد الخروج على «سنة التصنع والتمثيل»، فقالت بحدة وهى تحرص على ألا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن:

- لماذا تتبعنى؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة:

- لماذا أتبعك؟.. لماذا أهمل أعمالى وألزم القهوة تحت نافذتك؟. لماذا أهجر الدنيا جميعا مقيما بزقاق المدق؟.. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل؟!

فقطبت وقالت بازدراء:

- لست أسألك حتى تجيبنى بهذه السخافات، ولكنى أنكر عليك أن تتبعنى وتخاطبنى.

فقال بلهجة جديدة تنم عن الثقة واللباقة:

- الأصل أن نتبع الحسناء أينما سارت. هذه هى القاعدة. فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإنكار حقا، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة..

ومرت عند ذاك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنت أن يرينها وهذا الأفندى يغازلها! ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة:

- ابتعد.. هذا حى يعرفنى!

وكان يتفحصها بنظر ثاقب، فأيقن أنها تجاذبه الحديث وهى لا تدرى، أو وهى

تدرى، فارتسمت على شفتيه ابتسامة لو رأتها لأعادت إلى رأسها ذكريات وحشية وقال لها:

ـ لا هذا الحى حيك، ولا هؤلاء الناس أهلك! أنت شىء آخر، إنك ها هنا غريبة . . !

فأمن قلبها على قوله، وسرت به سرورا لم تشعر بمثله لقول قبله . . واستدرك الرجل قائلا كالساخط:

ـ كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات! . . أين هن منك؟ أميرة فى ملاءة ورعية ترفل فى الثياب الجديدة . .

فقالت بحدة:

ـ ما لك أنت ولهذا! ابتعد . .

فقال محتجا:

ـ لن أبتعد أبدا . .

فسألته بحدة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بجرأة عجيبة:

ـ أريدك أنت، ولا شىء غيرك . .

ـ ذبحة . .

ـ سامحك الله. لماذا تغضبين؟ . . ألست فى الدنيا لتؤخذى؟ . . وإنى لآخذك . .

ومرا فى طريقهما ببعض الدكاكين، فنهرته قائلة:

ـ لا تخط خطوة واحدة، وإلا . .

فقال مبتسما:

ـ الضرب . .

وخفق قلبها، وتألقت عيناها، فقالت:

ـ صدقت.

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ سنرى. سأتركك الآن على رغمى، ولكنى سأنتظرك كل يوم . . لن أعود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات فى الزقاق، ولكنى سأنتظر كل يوم، مع سلامة الله يا أجمل من حملت الأرض . .

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور «أنت شىء آخر» . . أجل، وماذا قال أيضا؟ . «إنك ها هنا غريبة» . . «ألست فى الدنيا

لتؤخذى؟ . . وإنى لآخذك» . . وماذا قال أيضا؟ . . «الضرب . . » . . داخلتها لذة جنونية، وسرور وحشى، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئا . ولما أوت إلى غرفتها واستردت أنفاسها، ذكرت فى عجب وزهو أنها استطاعت أن تساير رجلا غريبًا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك! . . وأنها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية . ثم ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه! . . فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلقها بذلك الوجه الصفيق المتحدى، لا بل راح يحدثها حديثا رقيقا مؤدبا، لا عن وداعة طبيعية، فقلبها يحدثها بأنه نمر يتحين فرصة للوثوب، فلتنتظر . . لتنتظر حتى يتكشف عن حقيقته، وهنالك؟!

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشى . .

٢١

كان الدكتور بوشى يهم بمغادرة شقته حين جاءته خادمة الست سنية عفيفى تدعوه لمقابلة سيدتها . وعبس وجه الدكتور وتساءل فى إنكار «ماذا تريد المرأة؟! . . زيادة إيجار؟!» ولكنه سرعان ما نفى هذا الظن عن خاطره، لأن الست سنية لا تستطيع أن تتحدى القوانين العسكرية التى تحدد أجور المساكن فى أثناء الحرب . وغادر شقته وارتقى السلم متجهم الوجه . كان الدكتور بوشى ـ كعادة السكان ـ يستثقل الست سنية عفيفى، ولا يفتأ يشهر ببخلها فى كل زمان ومكان . وقد شنع عليها يوما فقال إنها تفكر فى بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر شقتها . وضاعف حقده عليها أنه لم يقدر ـ ولو مرة واحدة ـ على الإفلات من أداء أجرة شقتها إليها . إذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسينى إذا حرج الأمر . فلم يسر الرجل بهذه الدعوة، ودق الباب وهو يتعوذ قائلا «لطفك يا دافع البلاء» . وفتحت له الست بنفسها، وكانت ملتفعة بخمار، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس . ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب ثم قالت له الست :

ـ دعوتك يا دكتور لتكشف على أسنانى . .

ولاح الاهتمام فى عينى الرجل، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها قط، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة فى حياته وسألها :

ـ وهل وجدت ألما لا سمح الله . .

فقالت الست سنية :

ـ كلا والحمد لله ، ولكنى فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر . .

وتضاعف سرور الدكتور ، وذكر ما تهامس به أهل الزقاق من أن الست ستغدو عما قريب عروسا ، فلعب الطمع بقلبه وقال :

ـ الأوفق أن تركبى طقما جديدا . .

فقالت الست :

ـ هذا ما فكرت فيه ، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك؟

فنهض الرجل واقفا واقترب منها وهو يقول :

ـ افتحى فمك . .

ففغرت المرأة فاها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين ، ولم يجد به إلا أسنانا معدودات ، فدهش ، وأحس ببعض الخيبة ، ولكنه حذر أن يهون من خطورة عمله ، فقال فى تؤدة :

ـ يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان ، ولكن ربما اضطررنا إلى الانتظار ستة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها .

ورفعت المرأة حاجبيها المزججين فى انزعاج ، وكانت تتوقع أن تزف إلى بعلها فى بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر ، وقالت بجزع :

ـ لا . . لا ، أريد عملا سريعا ، لا يتأخر عن شهر بحال . .

فقال الرجل بمكر وخبث :

ـ شهر يا ست سنية؟ . . مستحيل . . ؟

فقالت المرأة باستياء :

ـ إذن مع السلامة . . !

فتريث الرجل قليلا ثم قال :

ـ هنالك سبيل واحد إن شئت . .

فأدركت أن الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث ، وامتلأت حنقا عليه ولكنها دارت حنقها لحاجتها إليه ، وسألته :

ـ وما هذا السبيل؟

ـ أن أركب لك طقما ذهبيا ، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة . .

وانقبض قلبها خوفا ، وراحت تفكر فى تكاليف الطقم الذهبى . وكادت تنبذ اقتراح الرجل لولا أن تذكرت العروس المرتقب ، إذ كيف يمكن أن تلقى عروسها بهذا الفم

الخرب؟ كيف تؤاتيها شجاعتها على الابتسام إليه؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جميعا أن أسعار الدكتور بوشى هينة، وأنه يستبضع طقومه من هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الأثمان، فلا يسأل من أين يأتى بها، وبحسبهم رخصها. ولكن الطقم الذهبى - على رغم هذه الحقائق جميعا - شىء له خطره، فلذلك تخوفت المرأة التى ألفت الحرص، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه:

- وكم يكلفنى الطقم؟

فقال الدكتور الذى لم يخدع باستخفافها الظاهرى:

- عشرة جنيهات؟

وانزعجت المرأة التى تجهل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورددت قوله فى إنكار:

- عشرة جنيهات!

وتميز الرجل غيظا وقال:

- إن ثمنه لا يقل عن خمسين جنيها عند أولئك الأطباء الذين يتاجرون بفنهم ولكننا واأسفاه قوم سيئو الحظ.

وتجاذبا الثمن الذى اقترحه، هو يحاول أن يستمسك به، وهى تروم خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن فى سره العجوز المتصابية.

وكانت الست سنية عفيفى، تلك الأيام، تلقى الحياة بوجه جديد، كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد كذلك. بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى، وأصبحت الوحدة ضيفا ضعيف الظل يأخذ أهبته للرحيل، وأوشكت البرودة الجاثمة فى روحها أن تذوب وتجرى ماء دافئا. بيد أن السعادة لا تنهل بغير ثمن. وبغير ثمن فادح أيضا. ولقد عرفت هذا الثمن الفادح فى ترددها على محال الأثاث بشارع الأزهر، ومعارض الثياب بالموسكى. ومضت تنفق مما أكتنزت ذاك الدهر الطويل، بل وتنفق بغير حساب. وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها فى حلها وترحالها، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة، وبما تقدم لها من معونة فى كل خطوة تخطوها، أنها كنز نفيس لا يقدر بثمن، وإن كان باهظ التكاليف فى الوقت نفسه. ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة. على أن الأثاث والثياب لم تكن كل شىء، ولم يكن بيت العروس الشىء الوحيد الذى يستوجب التجديد، وإنما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم، وقد قالت يوما لأم حميدة وهى تضحك فى غير قليل من الارتباك:

- يا ست أم حميدة.. ألا ترين أن الهموم قد أشعلت الشيب فى سوالفى؟!

فقالت أم حميدة التى كانت تعلم أن الهموم بريئة مما ترميها به:

- نداوى الهموم بالصبغة، وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها فى زماننا هذا؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت:

- بورك فيك يا ست النساء كلهن. ترى ماذا كنت أفعل بحياتى لولاك أنت؟

وتريثت قليلا، ثم مسحت على صدرها وقالت:

- رباه هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب؟ . . ولا أثداء ولا أرداف ولا شيء مما يجذب الرجال!

فقالت أم حميدة:

- لا تستقلى نفسك، ألم تعلمى بأن النحافة موضة وإية موضة! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصا عجيبة تسمنك فى وقت قصير . .

وهزت أم حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة:

- لا تخافى شيئا ما دامت أم حميدة معك. أم حميدة مفتاح سحرى تفتح له جميع الأبواب المغلقة، وغدا تلمسين قدرى فى الحمام إذا حوانا معا!

وهكذا كرت أيام الاستعداد فى نشاط وتعب وسرور وأمل، وصبغ شعر وتحضير عقاقير. وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية، وبين يدى ذلك كله نقود تنفق. تغلبت على عادة الحرص. وطرحت معبودها الأصفر عند قدمى الغد المرموق، وفى سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يحدقون بجامعه، كما نذرت للشعرانى أربعين شمعة.

وقد نال العجب من أم حميدة كل منال وهى تلحظ هذا التغير الكبير الذى قلب الست سنية رأسا على عقب، فجعلت تضرب كفا بكف وتقول لنفسها:

- هل يستأهل الرجال كل هذا العناء؟! جلت حكمتك يارب فأنت الذى قضيت على النساء أن يعبدن الرجال . . !

٢٢

استيقظ عم كامل من إغفاءته المزمنة على رنين جرس، ففتح عينيه، وأنصت قليلا، ثم اشرأب بعنقه حتى برز رأسه من الدكان، فرأى حنطورا معروفا يقف أمام الزقاق، فنهض فى عناء وهو يقول بسرور ودهشة: «رباه، هل عاد السيد سليم علوان حقا؟». وكان الحوذى قد زايل مقعده وهرع إلى باب العربة ليعين سيده على النزول، واعتمد السيد على ذراعه، ثم ظهر جسمه مقوسا، ووقف أخيرا على الأرض يصلح هندامه. حجبه المرض فى أواسط الشتاء، وأعاده الشفاء فى أوائل الربيع، وقد غمرت برودة

الشتاء القارصة موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طربا . ولكن أى شفاء هذا؟! لقد عاد السيد رجلا آخر . اختفى الكرش الذى كان يشق الجبة والقفطان وتقعر الوجه الممتلئ الدموى فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس . ولم يتبين عم كامل بادئ الأمر ما طرأ على السيد من تغير لضعف بصره حتى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه الانزعاج، وانحنى على يده كأنما ليخفى انزعاجه، وصاح بصوته الرفيع :

ـ حمدا لله على السلامة ياسى السيد، ذا يوم أبيض . والله والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة . .

فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :

ـ بورك فيك يا عم كامل . .

وسار متمهلا متوكئا على عصاه، يتأثره الحوذى عن كثب، ويتبعه عم كامل مترنحا كالفيل . والظاهر أن رنين الجرس قد أعلن حضوره، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمال، وأقبل من القهوة المعلم كرشة والدكتور بوشى، وأحاط به الجميع مهللين داعين، ولكن الحوذى علا صوته وهو يقول :

ـ أفسحوا للسيد من فضلكم، دعوه يجلس أولا ثم سلموا . .

وأفسحت له اللمة، فواصل مسيره عابسا، وفؤاده يغلى حنقا وغيظا، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه . وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة يستبقون، فلم يجد بدا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحدا بعد آخر، وتأذيا من لمس شفاههم، مخاطبا نفسه : «يا لكم من كذابين مرائين! . . أنتم والله أصل هذا البلاء!» . وتفرق العمال فجاء المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

ـ مرحبا بسيد الحى جميعا . . ألف حمد لله على السلامة . .

فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل يده وقال له بلهجة خطابية :

ـ اليوم يحق لنا الفرح، واليوم تطمئن جنوبنا، واليوم يتحقق لنا الدعاء .

فشكره أيضا مداريا تأففه، لأنه كان يستكره وجهه الصغير المستدير، ولما آن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع : «كلاب . . كلهم كلاب . . عضونى بعيونهم الحاسدة!» . وراح يطارد أشباحهم فى مخيلته لينقى صدره مما استثاره من حنق وغيظ وتأثر، ولم يترك لخلوته طويلا، فجاءه كامل أفندى إبراهيم وكيله ومثل بين يديه، وسرعان ما نسى بمجيئه كل شىء إلا الحساب والمراجعة، وقال له باقتضاب :

ـ الدفاتر . .

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هامًا، وقال له بلهجة آمرة :

ـ نبه الجميع إلى أنى من الآن فصاعدا، لا أحب رائحة تدخين (كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب)، وخبر إسماعيل بأننى إذا طلبت إليه ماء أن يهيئ لى قدحا نصفه ماء عادى والنصف الآخر ماء دافئ. التدخين فى الوكالة ممنوع منعا باتا، والدفاتر بسرعة.

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة، متذمرا فى باطنه لأنه كان من مدمنى التدخين. ثم عاد بعد قليل حاملا الدفاتر، ولم يغب عنه ما ترك المرض فى طبع السيد من تغير وتبدل، فركبه الهم، وأيقن أنه مقبل على حساب عسير. وجلس كامل أفندى قبالة السيد، وفتح الدفتر الأول، وبسطه بين يديه، فبدأت المراجعة، كان السيد فى عمله محيطا ماهرا لا تفوته فائتة وإن دقت، فأكب على مراجعة الدفاتر دفترا دفترا بهمة لا تكل ولا تمل، غير راحم نفسه المتهالكة، وقد اتصل فى أثناء ذلك ببعض عملائه متحققا من مواعيد حضورهم، مطابقا بين أقوالهم وبين المدون فى الدفاتر، وكامل أفندى صابر متجهم لا يخطر له الاحتجاج على بال. ولم تكن المراجعة بالشىء الوحيد الذى يتابعه بأفكاره، فكان ينوء صامتا بأمر تحريم التدخين الذى استصبح به على غرة، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين فى الوكالة فحسب، ولكنه أضاع عليه فى الوقت نفسه ما كان يتفضل السيد بتقديمه له من سجائر كوتاريللى الفاخرة. وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات غريبة، وقال لنفسه متكدرا ساخطا «رباه. لشد ما تغير الرجل، هذا شخص غريب لا نعرفه!». وعجب لشاربه الذى احتفظ به رغم هذا التغير بضخامته وفخامته فى وجه طمست سماته ومعالمه وعفى عليها المرض الخطير فكأنه نخلة سامقة فى صحراء جرداء.. وأخرجه الحنق والاستياء عن طوره فقال مخاطبا نفسه: «من يدرى؟.. لعله يستأهل ما نزل به، إن الله لا يظلم أحدا». وانتهى السيد من المراجعة فى زهاء ثلاث ساعات، فرد الدفاتر إلى الوكيل، وهو يحدجه بنظرة غريبة، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه، ومع ذلك فلا يخلو من الريب. وجعل يخاطب نفسه قائلا: «سأعاود المراجعة مرة أخرى لا بل مرات، حتى أكشف عما تبطن هذه الدفاتر، كلهم كلاب.. بيد أنهم أخذوا عن الكلاب نجاستها، وزهدوا فى أمانتها!». ثم خاطب الوكيل قائلا:

ـ لا تنس ما نبهتك إليه يا كامل أفندى: رائحة التدخين والماء الدافئ.

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهنأوه بالسلامة ثم خاضوا فيما لديهم من الأعمال، وقد أراد بعضهم أن يؤجل عمله تخفيفا عنه، ولكنه قال باستياء:

ـ لو كنت عاجزا عن العمل ما جئت الوكالة.

وما كاد يخلو إلى نفسه حتى استبدت به أفكاره الناقمة الموتورة، فراح يصب غضبه ـ كديدنه فى هذه الأيام الأخيرة ـ على الناس أجمعين. ولطالما قال عنهم إنهم حسدوه،

وإنهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والحنطور وصينية الفريك، فلعنهم من أعماق الفؤاد. وكثيرا ما كان يردد هذه الظنون فى أثناء مرضه، ولم تنج زوجه نفسها من شر ظنونه، فحدجها يوما بنظرة شزراء، وهى تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدج ضعفا وسخطا:

- وأنت يا ست لك نصيبك من هذا، فطالما دوختنى بقولك إن أيام الصينية انتهت، وكأنك تنفسين على صحتى، فالآن كل شىء انتهى فقرى عينا.

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلا، ولكنه لم يرق لها، ولم يلن من حدته واستدرك يقول مغيظا محنقا:

- حسدونى.. حسدونى حتى زوجتى وأم أبنائى قد حسدتنى!

ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد. وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة. كان يتهيأ للهجوع حين أحس بنغصة تصدع لها صدره. وشعوره بحاجة ماسة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع، حتى استسلم فى قنوط وعذاب مريرين. وجاء الطبيب وتجرع العقاقير، ولكنه لبث أياما يراوح بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت. وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائغ زوجته وبناته وأبناءه محدقين به، محمرة أعينهم من البكاء. وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التى يفقد الإنسان فيها كل إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة.

وفى اللحظات القليلة التى استرد فيها شيئا من وعيه يتساءل فى رجفة باردة «هل أموت؟!». أيموت وحوله الأهل جميعا؟!.. ولكن الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدى أحبائه، فماذا أفاد الأموات تعلق الأحباء بهم؟!.. ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وأن يتشهد، فخانه ضعفه، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف. ولم ينسه إيمانه - على رسوخه - أهوال تلك الساعة، فاستسلم جسمه على رغمه. أما روحه، فتعلقت بأهداب الحياة فى فزع وجزع، حتى سحت عيناه دمعا مدرارا ونطقت نظرتهما بالاستصراخ والاستغاثة، ولكن كان فى الأجل بقية، فجاز طور الخطر، وبلغ بر النقاهة. ورجع إلى أحضان الحياة رويدا رويدا، ومنى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته. ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتصرت أمنيته، وقضت على أمله، ولم تبق له من الحياة إلا على شىء يسير. أجل أجل، نجا من الموت، ولكنه انقلب شخصا جديدا ذا جسم رقيق وروح مريض. وبكرور الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجرا وتمردا وكراهية وعبوسا. وقد عجب لهذه العثرة التى اعترضت سبيل

حظه، وتساءل بأى ذنب آخذه الله سبحانه؟ . . وكان ذا ضمير من هذه الضمائر الراضية التى تقيم الأعذار لأصحابها وتحسن مسالكهم، وتغضى عن أخطائهم، وكان يحب الحياة حبا جما، فتمتع بماله ومتع به آله، والتزم - فيما يظن - حدود الله، فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئنانا عميقا، حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التى ذهبت بصحته، وأوشكت أن تذهب بعقله. ما ذنبه؟ . . لا ذنب له، ولكنهم الناس غرماؤه، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى! . . وهكذا أمر من نفسه ما كان حلوا، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم. والحق أن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شىء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه.

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه فى الوكالة: أحقا لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع فى هذا المكان ويراجع الدفاتر؟! . . وتراءى له وجه الحياة أشد تجهما من وجهه. وجمد كالتمثال، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق فى أفكاره، حتى سمع حسا عند مدخل الوكالة، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجدور. ولاحت فى عينيه نظرة غريبة، فسلم، وأنصت بربع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها.

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شىء لم يكن؟! . . لقد طافت به ذكراها فى نقهه مرات، ومرت به دون أن تترك أثرا. لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها، ثم أنسيها بعد ذلك كأنها شىء لم يكن، أو كأنها كانت نقطة فى دم الصحة الذى كان يجرى فى عروقه، فلما أن غاب ونضب تطايرت فى الهواء. وغابت من عينيه النظرة الغريبة التى رسمتها الذكريات، وعاد بصره إلى جموده، فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعاها للجلوس. ووجد مضايقة فى حضورها كادت تنقلب كراهية، وتساءل عما دعاها للمجىء حقا، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة؟! . . ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه: لأنها كانت آيست منه منذ أمد بعيد. ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر:

- أردنا . . وأراد الله.

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة:

- لا عليك من هذا يا سى السيد، وما نسأل الله إلا الصحة والعافية.

وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالا وأشد انقباضا، وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حناء من بين يدى عامل، فاشتد به الغضب، وانتهره بقسوة صائحا:

- ستغلق عما قريب الوكالة أبوابها، فابحثوا عن مرتزق جديد!

ولبث برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر . وكأن هذا الغضب ذكره بما اقترحه عليه أبناؤه أخيرا من تصفية أعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه . وجعل يقول لنفسه إنها ليست راحته التي يبتغون ، ولكنه المال ، ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقا وهو فى عنفوان قوته؟! . . فالمال طلبتهم . لا صحته ولا راحته . ونسى فى غضبه أنه ـ هو نفسه ـ كبر عليه أن تنحصر آماله فى العمل فى الوكالة ، وألا يجد لذة فى الحياة إلا إرهاق النفس فى جمع مال لا يستطيع أن يتمتع به ، ولكنه العناد الذى أولع به أخيرا ، وسوء ظنه بالناس جميعا الذى لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره . . وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتا جهيرا يقول فى عمق وحنان معا :

ـ حمدا لله على السلامة . . السلام عليكم يا أخى . .

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسينى مقبلا ، بجسمه الطويل العريض ، ووجهه المشرق المتألق ، فانبسطت أساريره لأول مرة وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول :

ـ حلفتك بالحسين إلا ما جلست . .

وتصافحا بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات فى أثناء مرضه . ولما لم يمكنه مقابلته بعث له بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان فى رقة ومودة . قال السيد سليم علوان بتأثر شديد :

ـ نجوت بأعجوبة . . !

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادئ :

ـ الحمد لله رب العالمين . نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة . إن استمرار المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية ، فعمر أى إنسان فان سلسلة من المعجزات الإلهية ، وما بالك بأعمار الناس جميعا ، وحيوات الكائنات جميعا؟! . . فلنشكر الله بكرة وأصيلا ، آناء الليل وأطراف النهار ، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية .

وأصغى إليه فى جمود . ثم تمتم قائلا بضجر :

ـ المرض شر قبيح .

فابتسم السيد رضوان وقال :

ـ ربما كان كذلك فى ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان إلهى ، وهو من هذه الناحية خير .

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائلها . فضاع الأثر الطيب الذى أحدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيرا وقال بلغة وشت بتذمره :

- ماذا فعلت حتى ينزل بى هذا العقاب؟ . . ألا ترى أنى فقدت صحتى إلى الأبد.

فعبث السيد بلحيته الجميلة، وقال بشيء من المعاتبة:

- أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة؟ . . حقا إنك رجل طيب، بار، كريم، قوام على الفرائض، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبى، فلا تأس ولا تحزن، وأبشر بالإيمان خيرا.

ولكن الرجل زاد إنفعاله، وقال بحدة:

- أرأيت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال؟

- إنك بمرضك خير منه بصحته وعافيته.

وغلبه الغضب، فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال:

- إنك تحدث فى سكينة وطمأنينة، وتعظ فى ورع وتقوى، ولكنك لم تذق بعض ما ذقت، ولم تخسر شيئا مما خسرت.

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه، ثم رفع رأسه وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين، وسرعان ما استكن غضبه وفتر انفعاله، وكأنه يذكر لأول مرة، أنه يخاطب أكبر مصاب من عباد الله. وطرفت عيناه، وتورد وجهه الشاحب قليلا، ثم قال بصوت ضعيف:

- اعذرنى يا أخى، إنى تعب مرهق. .

فقال السيد ولم تفارق الابتسامة شفتيه:

- لا عليك من هذا. قواك الله وسلمك. اذكر الله كثيرا فبذكر الله تطمئن القلوب، ولا تدع الأسى يغلب عليك إيمانك أبدا، فالسعادة الحقة ترتد عنا على قدر ما نرتد عن إيماننا.

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحنق:

- حسدونى. نفسوا على المال والجاه. حسدونى يا سيد رضوان!

- الحسد شر من المرض. وإنه لمن المحزن حقا. إن الذين ينفسون على إخوانهم حظهم من المتاع الفانى كثيرون. لا تأس، ولا تحزن، وسلم إلى الله ربك الرحيم الغفور.

وتحادثا طويلا، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف، ولبث الرجل هنيهة كالهادئ، ثم أخذ يعود رويدا رويدا إلى عبوسه وتجهمه، ونبا به القعود طويلا، فنهض قائما، ومشى متمهلا إلى باب الوكالة، ووقف عند مدخلها شابكا يديه وراء ظهره. كانت الشمس تعلو كبد السماء، والجو دافئا مشرقا. وقد بدا الزقاق كالمقفر فى تلك الساعة من الظهيرة، اللهم إلا الشيخ درويش الذى جلس أمام القهوة يتشمس. فلبث السيد مليا،

ثم تلفت ـ بحكم عادة قديمة ـ نحو النافذة، فوجدها مفتوحة خالية، وكأنه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهما عابسا.

٢٣

«. . لن أعود إلى القهوة. حتى لا أثير الشبهات. .»، هذا ما قاله لها عند افتراقهما، وقد ذكرته حميدة فى صباح اليوم التالى لمقابلة الدراسة، ذكرته بخيال حى يقظ سعيد. وتساءلت أتذهب للقائه اليوم؟ . . فأجاب قلبها «نعم» دون خفاء. ولكنها قالت بعناد: «كلا . . يجب أن يعود إلى القهوة أولا»، وامتنعت عن الخروج فى موعدها المألوف، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون. وانصرمت ساعة المغيب، وأطبق الليل ناشرا جناحيه، وعند ذلك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوبا عينيه نحو الزيق الذى انفرج عنه خصاص النافذة تلوح فى وجهه ابتسامة تنم عن التسليم، وجلس على كرسيه المختار. وشعرت وهى ترقبه ببهجة الانتصار، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعياها العثور عليه فى الموسكى. والتقت عيناهما طويلا ـ دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها ـ فازداد ظل ابتسامته امتدادا، ووشى وجهها بابتسامة وهى لا تدرى. ماذا يبغى يا ترى؟ . . وبدا لها هذا السؤال غريبا، إذ لا تدرى لمثل إلحاحه فى طلابها إلا معنى واحدا، سعى إليه من قبل عباس الحلو، وطمح إليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندى الوجيه؟! . . أوَلم يقل لها: «ألست فى الدنيا لتؤخذى؟ . . وإنى لآخذك. .»؟! . . فما عسى أن يعنى هذا إن لم يعن الزواج؟ . . ولم يعق أحلامها عائق، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجامح، وجعلت تنظر إليه من وراء خصاصها المنفرج، وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد. وحادثتها عيناه حديثا عميقا يعيى اللسان والحواس جميعا، فتردد صداه فى أعماق نفسها محركا غرائزها. ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق ـ وهى لا تدرى ـ يوم التقت عيناهما أول مرة، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر، والحق أنها عرفت قدرا من نفسها على ضوء عينيه، فلم تعد الضالة فى متاهة الحياة، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعة وثروة السيد علوان الطائلة، ولكنها شعرت بأن هذا الرجل طلبتها، وأن ما يستثيره فى صدرها. . الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التى تجذب إليها بفطرتها، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب، وإنه رجل من غير الحثالة التى يستعبدها

الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المالية . وراحت ترنو إليه بعينين متألقتين تذكيان ضياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر القهوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة ، فأتبعته ناظريها وهى تقول وكأنها تتوعده «غدا» .

وفى عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدى والهيام بالحياة . وما كادت تخرج من الصنادقية حتى رأته عن بعد واقفا عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة ، فلاحت فى عينيها لمعة خاطفة ، وانبعث فى صدرها شعور غامض غريب ، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية فى القتال ! . . وقدرت أنه سيتبعها فى الذهاب والإياب حتى يخلو لهما الجو فى الدراسة . فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء ، واقتربت منه كأنها لا تراه ، ولكن حدث - وهى تمر به - ما لم يقع لها فى حسبان ، فقد سار معها ومد يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلا المارة والواقفين :

- مساء الخير يا عزيزتى . .

أخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح ، وخافت إن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار ، فاستولى عليها الارتباك والغيظ ، ووجدت نفسها بين اثنتين فإما غضب وفضيحة وجرسة ثم قطيعة ، وإما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضا مقهرا ، فامتلأت حنقا ، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب :

- كيف تجرؤ على هذا؟ . . دع يدى بسرعة . .

فأجابها بهدوء وهو يمشى إلى جانبها كأنما صديقان ينطلقان معا :

- حلمك . . حلمك ، لا كلفة بين الأصدقاء . .

فقالت وهى تتميز غيظا :

- الناس . . الطريق . .

فاستعطفها بابتسامة قائلا :

- لا تبالى أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولا يرون إلا ما فى رءوسهم من حسابات . هلا ملت إلى دكان صائغ فأنتق منه حلية تليق بحسنك؟

فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

- أتتظاهر بأنك لا تعبأ شيئا؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه :

- لست أقصد إثارتك ، ولكنى انتظرتك لنتمشى معا ، ففيم غضبك؟

فقالت بقوة :

- إنى أمقت هذا التهجم فاحذر أن تخرجنى عن وعيى.

وطالع نذر الشر فى وجهها فسألها فى رجاء:

- أتعديننى بأن نسير معا؟

فهتفت به:

- لا أعد شيئا.. دع يدى..

فأطلق يدها دون أن يبتعد عنها، وقال لها متملقا:

- يا لك من جبارة عنيدة، هاك يدك، ولكننا لن نفترق، أليس كذلك؟

وتنهدت فى غيظ، ونظرت إليه شزرا وهى تقول:

- يا لك من سمج مغرور!

فتقبل الشتيمة بابتسامة وصمت، وسارا جنبا لجنب دون أن تبتعد عنه، وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به فى هذا الطريق، ولكنها الآن لا تفكر فى هذا وحسبها أنها أجبرته على إطلاق يدها، بل لعله لو حاول استردادها مرة أخرى لما مانعت، وهل كانت غادرت بيتها وفى عقلها شىء غير لقائه؟!.. وفضلا عن هذا كله فقد ساءها أن يبدو أشد طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى جانبه غير عابئة بالسابلة، متخيلة ما سيحدثه منظره فى نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد، وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجامحة فى الحياة والمغامرة.. وراح الرجل يقول:

- إنى أعتذر عما بدر منى من خشونة، ولكن ما حيلتى فى عنادك؟!.. تعمدت تعذيبى، وما استحق إلا عطفك جزاء ما أكن لك من عاطفة صادقة وما أبذل فى سبيلك من عناء متصل.

ما عسى أن تقول له؟.. إنها ترغب أن تخاطبه، وأن تبادله الحديث، ولكنها لا تدرى كيف، خصوصا وأن آخر ما نطقت به كان نهرا وشتيمة، وقطع عليها تفكيرها أن رأت صويحباتها مقبلات غير بعيدات، فقالت بارتياع كاذب:

- صاحباتى..!

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركزن عليه نظرات متفحصة، وعادت تقول بلهجة تنم عن التأنيب، وهى تدارى سرورها:

- فضحتنى..!

فقال بازدراء، وإن سره أن تلازم جانبه، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق:

- لا عليك منهن.. فلا تباليهن..

واقتربت الفتيات، فبادلتهن نظرات ذات معان، وهى تذكر بعض ما قصصن عليها من مغامرات، ثم مررن بهما متضاحكات متهامسات. وعاد الرجل يقول فى خبث ودهاء:

ـ هؤلاء صاحباتك؟.. كلا، لا أنت منهن ولا هن منك، ولكنى أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما تقبعين أنت فى البيت. وكيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينا تلتحفين أنت فى هذه الملاءة السوداء!.. كيف حدث هذا يا مليحة؟.. أهو الحظ؟.. ولكن يا لك من صابرة متجلدة..؟!

وتورد وجهها، وخيل إليها أنها تصغى إلى قلبها يتحدث، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسا وعاطفة، واستدرك بثقة ويقين:

ـ هذا حسن خليق بالنجوم.

وابتهلت هذه الفرصة لتبادله الحديث، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطرية، وتساءلت وهى لا تدرى ما يعنيه:

ـ النجوم؟!

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال:

ـ نعم. ألا تذهبين إلى السينما؟.. يدعون الحسناوات من الممثلات بالنجوم.

وكانت تذهب إلى سينما أوليمبيا مع أمها فى فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية، فأدركت ما يعنيه، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية فى خديها وساد الصمت خطوات ثم سألها برقة:

ـ ترى ما اسمك؟

فقالت بلا تردد:

ـ حميدة..

فقال مبتسما:

ـ أما الذى سحرت لبه ففرج إبراهيم. فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنهما واحد، أليس كذلك يا ست الملاح؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السب والعراك مثلا!.. إنه يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته، وقد ضايقها ذلك، ولم تقنع بالدور السلبى الذى يلذ بنات جنسها، وتشوقت بفطرتها إلى شىء آخر، غير الانتظار والسكوت والحياء. ولما كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور، فقد ساورها قلق وانفعال، وحدجته بنظرة ثاقبة. وزاد

من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت، ولم تر بدا من أن تقول وهى تدفن حسرتها فى أعماقها:

ـ الآن نعود.

فقال بإنكار:

ـ نعـود!

ـ هذه نهاية الطريق.

فقال محتجا:

ـ ولكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسكى. لماذا لا نجول فى الميدان!

فقالت على رغمها:

ـ لا أريد أن أتأخر عن موعد عودتى أن تقلق أمى.

فقال بإغراء:

ـ إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق معدودات.

تاكس! .. رنت الكلمة فى أذنيها رنينا عجيبا. ولم تكن ركبت فى حياتها إلا العربة الكارو. ومضت ثوان قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة، بيد أن الأمر لا يخلو من اعتبار آخر وهو ركوب التاكس مع رجل غريب، إلا أنها وجدت فى هذا الاعتبار داعيا للهجوم لا للنكوص، وتولاها نزوع طاغ إلى المغامرة، كأنما لقيت فيه ترويحا عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذى أعياها الإفصاح عنه قبل ذاك بقليل، ولم تكن تدرى أن بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتى ليتعذر القول أيهما كان أشد استحواذا على مشاعرها فى تلك اللحظة: الرجل الذى حرك أعماقها أم المغامرة ذاتها، ولعلهما كانا الاثنين معا. ولاحت منها نظرة إليه فرأته ينظر إليها بإغراء وعلى شفتيه ظل الابتسامة التى طالما أهاجتها، فتغير شعورها وقالت:

ـ لا أريد أن أتأخر..

فشعر بخيبة وقال متأسفا:

ـ أتخافين..؟

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد:

ـ لست أخاف شيئا..

فأضاء وجهه، وكأنه عرف أشياء وأشياء، وقال بسرور:

ـ سأدعو تاكس..

وكفت عن المعارضة، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفهما حتى وقف قبالتهما، وفتح الباب لها، فانحنت قليلا خافقة الفؤاد وهى تقبض على مساك ملاءتها، وصعدت إليه. وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح: «وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام». ثم سمعته وهو يقول للسائق: «شارع شريف باشا». شريف باشا، لا المدق ولا الصنادقية ولا الغورية ولا حتى الموسكى، شريف باشا!.. ولكن لماذا عين هذا الشارع بالذات؟!.. وسألته:

ـ أين تقصد؟

فقال، وكان كتفه يمس كتفها:

ـ نجول قليلا ثم نعود..

وتحرك التاكس فتناست كل شىء إلى حين، حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها. وقلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفها، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة. وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها، فانبعثت فى نفسها نشوة مطربة، وتهيأ لها أنها تطير طيرانا، وتحلق فى سماء الدنيا، وكان وجدانها من البهجة يسجع شاديا متجاوبا مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والأنوار، حتى تألقت عيناها بوميض مشرق، وافتر ثغرها عن إشراق وذهول. وجرى التاكس فى خفة، يخوض خضما من العربات والسيارات والترام والناس، وجرى معه خيالها، فاستحر حماسها، وسكرت مشاعرها، ورقص قلبها ودمها وخواطرها. ثم أفاقت إفاقة مباغتة على صوته يهمس فى أذنها قائلا: «انظرى إلى الحسان كيف يرفلن فى ثيابهن النورانية». أجل.. إنهن يتمايلن مبعثرات كالكواكب المنيرة.. ما أجملهن، ما أبدعهن!.. وذكرت عند ذاك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب. وعضت على شفتها فى امتعاض، ثم تملكتها مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك!.. وتنبهت إلى أنه التصق بها وهى لا تدرى، فأخذت تستشعر مسه الذى انتشر فى حواسها، وحمى به قلبها، فهفت إليه بقوة فوق إرادتها. ورنا إليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه إليها. وكأنها أرادت أن تتقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلا، ولكنه لم يجد فى ذلك رادعا كافيا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت فى أعماقها رعدة، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفتيه حتى تدميهما!.. رغبة جنونية حقا، ركبتها كما يركبها عفريت العراك، ولكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها!.. ولبثت شعلة الجنون متأججة فى صدرها تهيب بها إلى أن ترتمى على صدره وتنشب أظافرها فى رقبته، حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة:

ـ هذا شارع شريف باشا.. وهذا بيتى على بعد خطوات، ألا تحبين أن تريه؟!

والتفتت متوترة الأعصاب إلى حيث تومئ سبابته فرأت عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى. وأمر السائق بالوقوف أمام واحدة منها، وقال لها:

ـ فى هذه العمارة..

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق، ثم ارتد عنها طرفها فى حيرتها، ثم سألت بصوت منخفض:

ـ فى أى طابق؟

فقال مبتسما:

ـ الأول. لن تتجشمى مشقة إذا تفضلت بزيارتها.

فرمقته بنظرة حادة منتقدة فاستدرك قائلا:

ـ ما أسرع غضبك!.. ومع ذلك دعينى أسألك ما وجه العيب فى ذلك؟.. ألم أزرك دواما منذ وقعت عليك عيناى فلماذا لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة؟

ماذا يريد الرجل؟.. أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل؟.. أأطمعته القبلة التى استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر؟.. هل أعماه غروره وشعوره بالظفر؟!.. وهل هذا مآل الحب الذى أفقدها وعيها؟!.. واشتعل الغضب بقلبها، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدى، وتمنت لو تطاوعها نفسها على السير معه إلى حيث يريد، لتريه من نفسها ما يجهل، ولترد إليه صوابه. أجل، دعاها شعورها المتمرد الجامح إلى خوض غمار هذه المعركة. وهل كان فى وسعها أن تدعى إلى النزال ثم تعرض عن الداعى؟!.. لم يكن الذى يستفزها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعا اعتبارات لم تألف الغضب لها أو الغيرة عليها، ولكنه غضب لكبريائها وشعورها الطاغى بقوتها ورغبتها الجنونية فى الملاحاة والعراك، ولم تخل أيضا من جنون المغامرة الذى قذف بها إلى التاكس!.. وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه فى تفكير وسخرية معا: «محبوبتى من النوع الخطر الذى يفرقع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر»، ثم قال لها برجاء ورقة:

ـ أرجو أن أقدم لك قدحا من الليمون..

ورمته بنظرة قاسية متحدية، ثم غمغمت:

ـ لك ما تشاء..

وفتح الباب مسرورا، وانزلق إلى الطريق، وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة، ووقفت تتفحص المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق. وجرت خواطرها إلى الزقاق الذى خرجت منه اليوم، وعجبت للمغامرات التى اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة!.. من يصدق هذا؟!.. وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسينى

مثلا لو رآها تمرق إلى هذه العمارة؟ . . وارتسمت ابتسامة على شفتيها، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق.

وهرع الرجل إليها، وأخذ يدها، فدخلا العمارة معا. وارتقيا سلما عريضا إلى أول طابق، وسار فى ردهة طويلة إلى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحا عالج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح: «اكتسبت يوما أو يومين آخرين!». ثم دفع الباب وأوسع لها، فدخلت ودخل وراءها، ثم أغلقه. وجدت نفسها فى دهليز طويل يعترض الداخل تحدق به الحجرات من الجانبين، ويضيئه مصباح كهربائى قوى الإشعاع. ولم تكن الشقة خالية، ففضلا عن المصباح الذى كان مضاء قبل مجيئها ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة، كلام وزعق وغناء! . . واتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه، ودعاها للدخول، فانتقلت إلى حجرة متوسطة، مؤثثة بمقاعد جلدية ما بين كراسى وكنبات، تتوسطها سجادة مربعة مزركشة وفى الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف، وتنهض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة فى عينيها بسرور وقال لها بلطف:

ـ اخلعى ملاءتك وتفضلى بالجلوس . .

فاقتعدت كرسيا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريين، وتمتمت بلهجة تنم عن التحذير:

ـ ينبغى ألا أتأخر . .

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها «ترموث» وفض سدادته وأفرغ منه فى قدحين (شراب الليمون المثلوج)، وقدم لها قدحا وهو يقول:

ـ سيعود بك التاكس فى دقائق . .

وشربا معا حتى رويا، ثم أعادا القدحين إلى المائدة، وفى أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق، وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيتها، كانت جميلة التكوين، رشيقة، سبطة الأنامل، توحى بالقوة والجمال معا، فنالها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرته من قبل. وجعل يطيل النظر إليها مبتسما ابتسامة رقيقة كأنما يطمئنها ويشجعها، ولكنها لم يداخلها ظل من الخوف وإن توترت أعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتوثب، وذكرت الأصوات التى سمعتها حال دخولها الشقة، فعجبت كيف أنسيتها، وسألته:

ـ ما هذه الضوضاء فى الشقة؟

فأجابها قائلا وكان لا يزال واقفا قبالتها:

ـ بعض الأهل وسوف تعرفينهم فى الوقت المناسب . . لماذا لم تخلعى ملاءتك؟

وكانت ظنته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته، فعجبت كيف يقودها إلى بيت مأهول. وتجاهلت سؤاله الأخير، ولبثت ترنو إليه بسكينة وتحد، ولم يعاود سؤاله، ولكنه اقترب منها حتى مس حذاؤه شبشبها، ومال نحوها قليلا ثم مد يده إلى يدها فشد عليها، وجذبها برقة وهو يقول:

ـ هلمي نجلس على الكنبة.

ولم تمانع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبا لجنب على كنبة كبيرة. وكانت تتقاسمها في تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذي تحبه وأحاسيس التحدي للرجل الذي قد تمنيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها. واقترب الرجل منها رويدا حتى لاصقها، ثم أحاط خاصرتها بذراعه، وهي مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحق لها المقاومة، ومد يسراه إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهلا كأنه ظمآن يكرع من جدول، حتى التقت الشفاه. وطال التقاؤهما كأنما أخذتهما سنة من الغرام. وأما هو فكان يستجمع حرارته وقوته في شفتيه لينفذ بهما إلى ما يريد، أما هي فكانت تسكر وتثمل، إلا أن توثبها أفسد عليها رقية السحر التي تحرق شفتيها فظلت متنبهة متربصة. وأحست يده تسترخي عن خاصرتها، وترتفع إلى منكبها، ثم تهفو الملاءة عنه، فخفق فؤادها بعنف، وتصلب عنقها مبتعدا عنه، وأعادت الملاءة بحركة عصبية إلى موضعها وهي تقول بجفاء:

ـ كـــــلا..

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعناد والتحدي، فابتسم متبالها وهو يقول لنفسه «هي كما ظننت متعبة، بل متعبة جدا».. ثم خاطبها قائلا بصوت منخفض:

ـ لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي.

وأدارت وجهها عنه لتخفي ابتسامة ارتسمت على شفتيها سرورا بالظفر، ولكن ذلك لم يطل أمده فقد وقع بصرها اتفاقا على يده فأدركت لأول وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة، وتولاها الحياء ثم قالت له باستياء:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا؟.. هذا شيء سخيف!

فقال معترضا بحماس:

ـ هذا أجمل شيء فعلته في حياتي!.. لماذا تستوحشين من بيتي!.. أليس هو بالتالي بيتك أيضا؟!

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه الملاءة، فأدنى رأسه ولثمه قائلا:

ـ لله ما أجمل شعرك!.. إنه أجمل شعر رأيته في حياتي.

قال ذلك صادقا رغم رائحة الغاز التى ذابت فى أنفه، فلذها إطراؤه بيد أنها سألته :

ـ إلام نبقى هنا؟

ـ حتى يتم التعارف بيننا، فلدينا بلا ريب أشياء ينبغى أن نقولها، أخائفة أنت؟ . . محال! . . أراك لا تخافين شيئا!

فغلبها السرور حتى اشتهت أن تقبله، ورنق الصفاء فى صدرها. وكان يتفرس فى وجهها فقال لنفسه «الآن فهمتك يا ابنة اللبؤة!». ثم قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة :

ـ لقد اختارك قلبى، وقلبى لا يكذبنى، ومن يجمعهما الحب لا يفرقهما شىء، فأنت لى وأنا لك.

وأدنى وجهه منها كالمستأذن، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا فى قبلة عنيفة، واستشعر ضغط شفتيها الساحر على شفتيه يكاد يعصرهما، فهمس فى أذنها :

ـ محبوبتى . . محبوبتى . .

وزفرت من الأعماق، ثم اعتدلت فى جلستها لتسترد أنفاسها. وراح يقول برقة بالغة فى صوت كالهمس :

ـ هنا مكانك، وهذا بيتك، بل هنا «وأومأ إلى صدره» مأواك.

فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

ـ أراك تذكرنى بأنه ينبغى أن أعود الآن إلى البيت.

وكان فى الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل، فقال بإنكار :

ـ أى بيت تعنين؟ . . بيت الزقاق! . . آه، ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحى جميعا. ماذا يعجبك فى هذا الزقاق؟ . . لماذا تعودين إليه؟!

فضحكت الفتاة قائلة :

ـ كيف تسألنى عن هذا؟! . . أليس هو بيتى وأهلى؟!

فقال بازدراء :

ـ لا البيت بيتك، ولا الأهل أهلك. إنك من طينة أخرى يا محبوبتى، ومن الكفر أن يعيش جسم حى نضير فى مقبرة مليئة بالعظام النخرة. ألم ترى إلى الحسان يرفلن فى الثياب الفاخرة؟ . . وإنك لتفوقينهن جمالا وفتنة، فكيف لا تخطرين مثلهن فى المطارف والحلى؟ . . إن الله أرسلنى إليك لأرد إلى جوهرك النفيس حقه المسلوب. وعلى ذلك أقول إن هذا بيتك وكفى.

لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان، فخدر شعورها،

وتقارب جفناها، ولاحت فى عينيها نظرة حالمة. ولكنها تساءلت ماذا يعنى يا ترى؟.. هذا حقا ما يهفو إليه فؤادها، فما السبيل إلى تحقيق الأحلام وتقريب المنى؟.. لماذا لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى؟.. إنه يعبر أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها، إنه ينطق بلسانها الخفى ويشى بأعماقها جميعا، إنه يجلو الغامض الخفى ويجسم المعروف حتى لكأنها تراه رؤية العين، إلا شيئا واحدا ولم يمسسه صراحة، ولم يقتحم السبيل إليه، فما حكمة التردد يا ترى؟!.. ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسألته:

- ماذا تعنى..؟

فشعر الرجل بأنه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطته المرسومة، ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت:

- أعنى أن تبقى فى البيت اللائق بك، وأن تتمتعى بأسعد ما تجود به الحياة.

وضحكت ضحكة قصيرة من ارتباك وحيرة وتمتمت:

- لا أفهم شيئا..

فمسح على مفرق شعرها بحنان، متعوذا بالصمت ريثما يرتب أفكاره ثم قال:

- لعلك تتساءلين كيف يريدنى على أن أبقى فى بيته؟!.. فأذنى لى أن أسألك بدورى لماذا تعودين إلى المدق؟.. ألتنتظرين هناك شأن الفتيات البائسات حتى يتعطف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغض ثم يتركك لقى فى الزبالة؟!.. لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة وتجىء بها أخرى، ولكنى أعلم علم اليقين أنك شابة قليلة الأشباه، جمالك فتان، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطى عليه. أنت الجسارة نفسها، ومثلك إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

وانكفأ لونها، وجمدت قسماتها، فقالت بحدة:

- هذا دعابة لا تجوز على!.. بدأت مازحا، وانتهيت وكأنك جاد..!

- دعابة؟!.. لا والله، لا وحق قدرك عندى. أنا لا أداعب حين الجد خاصة شخصا مثلك ملأنى تقديرا واحتراما وحبا. وإذا صدق حدسى فأنت قلب كبير يستهين بكل شىء فى سبيل سعادته، ولا يمكن أن تقف فى سبيله عقبة. إنى أريد شريكا فى حياتى، وإنك لشريكى دون الناس جميعا.

فهتفت به فى انفعال شديد:

- أى شريك؟!.. إذا كنت تجد حقا فماذا تريد؟.. الطريق بين. فإذا أردت.

وكادت تقول: «أن تتزوجنى» ولكنها أمسكت، وسددت نحوه نظرات حادة مريبة،

فلم يفته مرادها، واستشعر سخرية باطنة، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع، فقال بحماس تمثيلى :

ـ أريد شريكا محبوبا نقتحم معا. حياة النور والثروة والجاه والسعادة، لا حياة البيت التعسة والحبل والولادة والقذارة، حياة النجوم اللاتى حدثتك عنهن.

وفتحت فاها منزعجة، ثم انبعث من عينيها نور مخيف، واصفرت غضبا وحنقا، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها :

ـ تدعونى للفساد!.. يا لك من مفسد أثيم.

هكذا هدرت فى غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التى دهمتها والخيبة التى أدركتها أكثر منه للفساد الذى لم تعتد أن تثور له!

وتبسم الرجل كالهازئ وقال :

ـ إنى رجل..

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامى :

ـ لست رجلا، بل أنت قواد.

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك :

ـ أليس القواد رجلا أيضا؟!.. بلى.. وهو رجل ـ وحق جمالك الفتان ـ ولا كل الرجال. وهل تجدين عند الرجل العادى غير وجع الدماغ؟!.. أما القواد فهو سمسار السعادة فى هذه الدنيا!.. ولكن لا تنسى أنى محبك كذلك. لا تدعى الغضب يحطم حبنا. إنى أدعوك للسعادة والحب والجاه. ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك، ولكنى قدرتك فآثرت معك الصراحة والحق. إن كلينا من معدن واحد، خلقنا الله للحب والتعاون، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال والجاه، وإذا افترقنا افترقنا للشقاء والفقر والذل، أو افترق أحدنا ـ على الأقل ـ لذلك.

ولم تتحول عنه عيناها، وراحت تتساءل فى ذهول كيف تمخض عن هذا؟!.. ولبث صدرها يجيش بالهياج والانفعال، ومن عجب أنها ثارت به ووجدت عليه وتغيظت منه، ولكنها لم تحتقره، ولم تنفك عن حبه لحظة واحدة!.. لا بل لم تنس ـ حتى فى عنفوان هياجها ـ أنها تصارع الرجل الذى لقنها الحب وثبته فى أعماقها. وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة فى حركة عنيفة وقالت فى سخط وغيظ :

ـ لست كما تظن..

فتنهد بصوت مسموع متكلفا الحزن، وإن لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال، وقال بصوت أسف :

ـ لا أكاد أصدق أنى انخدعت بك. رباه!.. أتصبحين يوما من عرائس المدق؟!.. حبل وولادة، وحبل وولادة، إرضاع أطفال على الأرصفة، ذباب وبصارة وفول، ذبول وترهل؟!.. كلا، كلا.. لا أريد أن أصدق هذا.

فصاحت به غير متمالكة نفسها:

ـ كفـــى..

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا، ولحق بها وهو يقول برقة «رويدك»، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب، وخرجا معا. جاءت سعيدة غير هيابة، وذهبت مهيضة ذاهلة. ووقفا أمام الباب الخارجى حتى جاءهما غلام بتاكس ودخلاه كل من باب، ومضى بهما مسرعا. ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا، وجعل يسترق إليها النظر صامتا دون أن يجد حكمة فى خرق الصمت المخيم. وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسكى، فأمر السائق بالوقوف، وتنبهت على صوته فألقت ببصرها إلى الخارج ثم تزحزحت قليلا استعدادا للنزول فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها، ولكنه تريث قليلا، ثم مال نحوها فلثم منكبيها وهو يقول:

ـ سأنتظرك غدا..

فابتعدت عن الباب وهى تقول باقتضاب وحدة:

ـ كــلا..

فقال ويده تدير الأكرة:

ـ سأنتظرك يا محبوبتى.. وستعودين إلى..

ثم قال لها وهى تغادر التاكس.

ـ لا تنسى الغد، سنبدأ حياة جديدة رائعة.. أحبك.. أحبك أكثر من الحياة نفسها.

وراح يرقبها وهى تبتعد متعجلة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه: «مليحة بلا أدنى شك، وهيهات أن يكذبنى ظنى، فهى موهوبة بالفطرة.. هى عاهرة بالسليقة.. وسوف تكون نادرة المثال».

٢٤

سألتها أمها:

ـ لماذا تأخرت؟

فأجابتها بلا مبالاة:

ـ دعتنى زينب إلى بيتها فذهبت معها.

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سنية عفيفى عما قريب، وأخبرتها أن الست ستهدى إليها فستانا لحضور الزفاف، فتظاهرت حميدة بالسرور، وجلست تصغى إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة، ثم تناولتا عشاءهما وأوتا إلى حجرة النوم، وكانت حميدة تنام على كنبة قديمة، أما أمها فتفرش حشية على أرض الغرفة تستلقى عليها. ولم تكد تمضى دقائق حتى راحت الأم فى نوم عميق، وملأت الحجرة شخيرا. ولبثت حميدة محملقة فى النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد. استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكنة أو كلمة، وعاش فى خيالها مرة أخرى، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خاف، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن فى غرائزها. ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهى راجعة إلى زقاقها «ياليتنى لم أره!». ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدى فى قلبها. والحق أنها عرفت من نفسها فى ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها. وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفى من ذاتها ويبسطه لناظريها كمرآة مصقولة. بيد أنها قالت له: «كلا» وهى تفارقه، وربما لم يكن لها عن هذا القول مذهب، ولكن ما معناه على وجه التحقيق؟!.. أليس معناه أن تقبع فى بيتها مترقبة عودة عباس الحلو؟!.. رباه، لم يعد للحلو مكان فى نفسها. أمحى أثره، وتبدد رجع صداه؟ وليس الحلو فى الواقع إلا هذا الزواج التعس، وما يعقبه من حبل وولادة وإرضاع على الأرصفة وذباب، إلى آخر هذه الصورة البشعة الممقوتة. أجل. لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر فى نفسها شأن الفتيات من أترابها، ولم تكن نسوة الزقاق بمتجنيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ. فماذا تبتغى إذا؟!.. وخفق قلبها خفقانا متتابعا فعضت على شفتيها حتى كادت تدميهما. إنها لتعلم ما تبتغى، وبما تهفو إليه نفسها، كان يجرى قبل اليوم فى شعورها متقلقلا بين النور والظلمة، ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جليا لا لبس فيه ولا إبهام. ومن عجب أنها لم تعان ـ فى سهادها ـ ترددا خطيرا فيما ينبغى أن تختار من سبيل، ولم تشعر كثيرا بوطأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها، أو بين ما فى حياتها من خير وما يتصدى لها من شر، بل الحق أنها اختارت سبيلها بالفعل وهى لا تدرى، ووقع اختيارها عليه وهى بين يدى ذلك الرجل، فى بيته!.. كان لسانها يهدر غضبا وأعماقها ترقص طربا، كان وجهها يربد ويعبس وأحلامها تتنفس وتمرح!.. وفوق هذا كله فإنها لم تمقته لحظة واحدة، لا بل لم تحتقره قط وكان ـ كما لم يزل ـ حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها!.. لم يثر حنقها إلا إدلاله بثقته وهو يقول لها: «ستعودين إلى»!

أجل. ستعود، ولكنه ينبغى أن يؤدى ثمن هذه الثقة الوقحة غاليا. فليس حبها عبادة وخضوعا، ولكنه معركة يحتدم أوارها ويتطاير شررها. طالما اختنقت فى هذا البيت، وهذا الزقاق، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربقة الماضى إلا عن يد هذا الرجل الذى أوقد فى خيالها نارا؟ . . ولكنها لن تهرع إليه فى خشوع وإذعان هاتفة «إنى عبد يديك فافعل بى ما تشاء». لأنها لا تعرف هذا الحب. كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة «إنى سيدتك فتخشع بين يدى». فما أزهدها فى الحب الناعم أو الحبيب الخرع. ولكنها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات، ولسان حالها يقول: «إنى قادمة بقوتى فلاقنى بقوتك، ولنتناطح إلى الأبد فى سعادة تجل عن الوصف، ثم متعنى بما منيتنى به من جاه وسعادة. لقد وضح السبيل بفضله هو، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها.

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار نغصت عليها عزمتها بعض التنغيص. تساءلت «ترى ماذا يقولون عنى غدا؟». وجاءها الجواب فى كلمة واحدة: عاهرة! . . وتقبض قلبها حتى جف ريقها وذكرت كيف تلاحت مرة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسبتها صارخة «يا ربيبة الشوارع . . يا عاهرة!» . . معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكع فى الشوارع. فما عسى أن يقال عنها هى؟! . . وداخلها الحزن والأسى، فتململت فى رقادها جزعا وضيقا. ولكن شيئا فى الوجود لم يكن ليثنيها عما اعتزمت، أو يلوى بها عما اختارت، فقد اعتزمت بقوة أعماقها، واختارت بمجامع قلبها، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دقاق الحصا.

ثم انتقل تيار أفكارها فجأة إلى أمها، فالتفتت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذى كان غاب عنها ساعة طويلة، فتصورتها فى غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشرفت على اليأس. وذكرت كيف أحبتها المرأة حبا صادقا لم يترك فى قلبها إحساسا - وإن قل - بالحرمان من الأمومة، وكيف أحبتها هى أيضا على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق، وكأنما خافت أحاسيس العطف التى أخذت تدب فى نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها: «لا أب لى ولا أم، وليس لى فى الدنيا سواه»، وولت الماضى كشحها، ولم تعد تفكر إلا فى الغد وما عسى أن يتكشف عنه ثم أمضها السهاد، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماغها، فتمنت أن ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما إلا على نور الصباح. وأهابت بإرادتها أن تنش عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر، فنجحت فى طردها إلى حين، ولكنها تنبهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة، ووقعت من نفسها موقعا مثيرا فراحت تلعنها وتتهمها بتطيير النوم من عينيها. وجعلت

تنصت إليها على رغمها، وتسب محدثها فى حنق وغضب. «يا سنقر غير ماء النرجيلة». . هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة. «يا سيدى ربك يعدلها». وهذا عم كامل الحيوان الأعجم. «ولو. . كل شىء له أصل». . هذا الأعمش القذر الدكتور بوشى. وتمثل لها حبيبها - على غرة - بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش، وتخيلته وهو يشير إليها بقبلاته فخفق فؤادها، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الهائلة، والحجرة الرائعة، وسرعان ما طن صوته فى أذنيها وهو يهمس قائلا: «ستعودين إلى. .». رباه!. . متى يرحمها النوم؟. . «السلام عليكم يا إخوان». . هذا صوت السيد رضوان الحسينى الذى أشار على أمها برفض يد السيد علوان قبل أن يهتصره المرض، ترى ماذا يقول عنها غدا إذا تناهى إليه الخبر؟. . ليقل ما يشاء، لعنة الله على الحى جميعا!. . وانقلب الأرق صداعا وسقما، ومضت تتقلب على جنبيها وبطنها وظهرها، ومضى الليل بطيئا ثقيلا مرهقا مضنيًا. يزيده هولا خطورة الغد المرتقب. وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى. وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت فى جزع. متى يأتى المغيب!. . وقالت لنفسها إنها الآن زائرة عابرة فى المدق لا هى منه ولا هو منها كما قال الحبيب. ونهضت كعادتها ففتحت النافذة، وطوت حشية أمها وكومتها فى ركن الحجرة، ثم كنست الشقة، ومسحت الردهة الخارجية، وتناولت فطورها على انفراد لأن أمها كانت قد غادرت البيت إلى شئونها التى لا تنتهى، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدسا فى طبق تركته أمها لتطبخه غدًا ليومهما، فعكفت على تنقيته وغسله، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة: «هذه آخر طبخة فى هذا البيت، وربما كانت آخر طبخة فى حياتى. . ترى متى آكل العدس مرة أخرى؟!».
ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم، كذلك لم تكن تعلم شيئا عن طعام الأغنياء إلا أنه لحم ولحم ولحم. وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حالمة. وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتى مست أهدابها أسفل فخذيها. وارتدت خير ما لديها من ثياب، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالى، فتورد وجهها البرنزى وعجبت كيف تزف إليه فى مثل هذه الثياب، واربد وجهها وهاج صدرها، فصممت على ألا تسلم إليه حتى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة أخرى جديدة زاهية. وطاب لها هذا الرأى، وصادف من نفسها - التى تأبى الهوى إلا فى حومة العراك والعناد - هوى ولذة. ثم وقفت فى النافذة تلقى على حيها نظرات الوداع. وجعل بصرها يتردد بين معالمه بغير توقف: الفرن، قهوة كرشة، دكان عم كامل، دكان الحلاق،

الوكالة، بيت السيد الحسينى، والذكريات تبعثها النظرات كأنها الشعلات يبعثها حك أعواد الثقاب.

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله. وكانت أسباب الجوار والصداقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحى كأم حسين - أمها بالرضاعة - والفرانة، حتى امرأة السيد رضوان الحسينى لم تسلم من لسانها، فقد بلغها يوما أنها وصفتها ببذاءة اللسان، فتربصت بها حتى رأتها يوما على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبا - وكان السطحان متلاصقين - واقتربت من السور وجعلت تعرض بالمرأة قائلة بتهكم وازدراء: «أسفى عليك يا حميدة من فتاة بذيئة اللسان، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات!». ولكن المرأة آثرت السلامة، وتعوذت بالصمت. وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوما وبعض يوم!.. لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها!.. ولكن شتان بين رجل ورجل!.. فإذا كان سليم علوان قد حرك - بثروته - جانبا من قلبها، فهذا الذى حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه. وعادت عيناها إلى دكان الحلاق فذكرت عباس الحلو، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يوما من مهجره فلم يعثر لها على أثر؟!.. وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر وعجبت كيف منحته شفتيها يقبلهما؟!.. ثم ولت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنبة أشد ما تكون عزما وتصميما. ورجعت أمها إلى البيت ظهرا، فتناولتا غداءهما معا. وقالت لها المرأة فى أثناء الطعام: «لدى زيجة مهمة، إذا وفقت فيها، فتح الله علينا». فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور، ولم تكد تلقى لما قالت بالا، وكثيرا ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضع جنيهات وأكلة لحم!.. أو أكلة لحم فحسب بالنسبة لها. ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلا، تربعت هى على الكنبة وراحت تطيل إليها النظر. هذا يوم الوداع، وربما لن تقع عليها عيناها بعد الآن. ولأول مرة عراها الضعف فدرت حناياها عطفا للمرأة التى آوتها وتبنتها وأحبتها ولم تعرف سواها أما، وتمنت لو تستطيع أن تقبلها قبلة الوداع.

وجاءت ساعة الأصيل فتلفعت بملاءتها وانتعلت شبشبها. وكانت يداها ترتعشان انفعالا واضطرابا، وقلبها يخفق بشدة. ولم يكن بد من أن تفارق أمها بغير وداع، فامتعضت، ثم رأتها آمنة لا تدرى شيئا عما يخبئه لها الغد فازداد امتعاضها. وحم الرحيل فألقت عليها نظرة طويلة ثم قالت وهى تهم بالمسير:

- فتك بعافية..

فقالت لها المرأة وهى تشعل سيجارة:

ـ مع السلامة . . لا تتأخرى . .

وغادرت البيت تلوح فى وجهها أمارات الجد والاهتمام، وقطعت المدق لآخر مرة لا تلوى على شيء، وسارت من الصنادقية إلى الغورية، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت فى خطوات متمهلة . وأرسلت بصرها بعد تردد وإشفاق . . فرأته بموقف الأمس ينتظر! . . التهب خداها واجتاحتها موجة صاخبة من التمرد والغضب وودت من أعماقها أن تثأر من ظفره هذا ثأرا يرد عليها بعض سكينتها . وغضت بصرها، ثم تساءلت أتراه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة؟! . . ورفعت عينيها بنرفزة، ولكنها وجدته هادئا جادا رزينا يلوح فى عينيه اللوزتين الرجاء والاهتمام فانفثأ هياجها قليلا . ومرت به وهى تتوقع أن يخاطبها، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس، ولكنه تجاهلها، وتريث قليلا حتى غيبها المنعطف، ثم تبعها متمهلا، فأدركت أنه بات أشد حذرا، وأعظم شعورا بخطورة الأمر . وسارت حتى أوشكت السكة الجديدة أن تنتهى، ثم توقفت بغتة كأنما ذكرت شيئا جديدا، وانفلتت راجعة، فتبعها قلقا وهمس لها متسائلا :

ـ ماذا أرجعك؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد سامها النطق عناء :

ـ بنات المشغل . .

فقال بارتياح :

ـ إلى الأزهر، فلا يرانا أحد .

وشقا طريقهما متباعدين، وسارا فى شارع الأزهر فى صمت ثقيل، وقد أدركت أنها أعلنت ـ بالكلمة التى نطقت بها ـ تسليمها النهائى . وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجا من صمتهما الثقيل . ولم تعد تدرى أين تتجه فوقفت، وسمعته فى اللحظة التالية ينادى التاكس، وجاءت السيارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هذه الحركة بين حياتين! . . وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهدج وبمهارة فائقة :

ـ الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة! . . لم أنم من ليلتى ساعة واحدة . أنت لا تدرين يا عزيزتى ما الحب . ولكنى اليوم سعيد، بل أكاد أجن من الفرح . رباه كيف أصدق عينى؟! . . شكرا يا محبوبتى شكرا . والله لأجعلن من السعادة أنهرا تجرى تحت قدميك . ما أجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) . . ما أروع الذهب فى هذا الساعد (وقبل ساعدها) . . ما أفتن الروج فى هاتين الشفتين (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلثم خدها) . . يا لك من فاتنة نافرة!

واستراح قليلا ثم استدرك قائلا وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ ودعى الآن عـهـد التـعب ، فلن تطالعك الحـيـاة بكـدر بعـد اليـوم ! . . حـتى ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير !

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد ، وإن توردت وجنتاها ، واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التى تهرب بها من الماضى كله .

وانتهى التاكس إلى العمارة التى صارت مأواها ، فغادراه ، ومضيا مسرعين إلى الشقة ، وكانت كما وجدتها بالأمس ضاجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة . وقال ضاحكا :

ـ اخلعى الملاءة لنحرقها معا .

فغمغمت تقول وقد تورد وجهها :

ـ لم أحضر ملابسى . .

فصاح بسرور :

ـ حسنا فعلت . . لا نريد شيئا من الماضى .

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرآة العالية ، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول :

ـ حجرتنا . .

ولكنها قالت بسرعة وحدة :

ـ كلا . . كلا . . سأنام هنا . .

فحدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم :

ـ بل تنامين فى الداخل وأنام أنا هنا . .

وكانت تصمم فى نفسها على ألا تؤخذ كالماشية ، وألا تسلم حتى تشبع رغبتها فى العناد والإباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم تغب عن مكره ، لأنه دارى ابتسامة ساخرة ، وتظاهر بالإذعان والتسليم ، ثم قال لها بسرور وفخار :

ـ بالأمس يا عزيزتى دعوتنى بالقواد ، فاسمحى لى بأن أقدم لك نفسى على حقيقتها : محبك ناظر مدرسة ، وستعلمين كل شىء فى حينه . .

٢٥

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق : «هذا وقت اجتماعهم فى القهوة ، وسيروننى جميعا بلا أدنى شك ، وسيخبرون أبى بمقدمى إذا عمى هو عنى» .

كان الليل قد أرخى سدوله، فأغلقت دكاكين المدق. وخيم عليها السكون، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار. كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة، منقبض الصدر، متجهم الوجه، يتبعه على الأثر فتى فى مثل سنه وفتاة فى مقتبل العمر. وكان حسين يرتدى قميصا وبنطلونا، ويحمل فى يمناه حقيبة كبيرة، وكذلك كان الفتى الذى يتبعه، أما الفتاة فرفلت فى فستان أنيق - بلا معطف ولا ملاءة - وقد بدت فى مشيتها ذات وسامة ورشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشى بطبقتها. واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسينى دون أن يلتفت ناحية القهوة، ودخل البيت يتبعه رفيقاه. ثم رقوا السلالم حتى الطابق الثالث، ودق الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجهما، فسمع وقع أقدام تقترب، ثم فتح الباب وبدت أمه وراءه تقول بصوتها الخشن «من؟»، ولم تعرف الشبح الماثل أمامها لشدة الظلمة. فقال حسين بصوت منخفض:

- حسين! وهتفت المرأة وهى لا تكاد تصدق أذنيها:

- حسين!.. ابنى!!

وهرعت إليه، وأمسكت بذراعيه، وقبلته، وهى تقول بحرارة:

- عدت يا بنى!.. الحمد لله الذى أثابك إلى رشدك وحماك من وسوسة الشيطان، ادخل بيتك (وضحكت فى انفعال). ادخل يا غادر.. لكم اقضضت مضطجعى. وقطعت قلبى.

ودخل الشاب مستسلما ليديها، دون أن يخف تجهمه، وكأن استقبالها الحار لم يكد يجدى شيئا فى تفريج كربه، ولما أن همت برد الباب حال بينها وبينه قائلا وهو يوسع للفتاة وللفتى:

- معى أناس. أدخلى يا سيدة، ادخل يا عبده. هذه زوجى يا أمى، وهذا شقيقها..

وبهتت المرأة، ولاحت فى عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول، ثم تنبهت إلى اليد المبسوطة للسلام فتمالكت عواطفها وسلمت وهى تخاطب ابنها بلا وعى تقريبا.

- تزوجت يا حسين!.. أهلا بك يا عروس. تزوجت يا حسين دون أن تخبرنا!؟.. كيف رضيت أن تزف فى غياب والديك وهما على قيد الحياة؟!.

فقال حسين بامتعاض:

- الشيطان شاطر!.. كنت غاضبا ثائرا ساخطا. وكل شىء قسمة ونصيب!

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط، وتقدمتهم إلى حجرة الاستقبال، ووضعته على حافة النافذة المغلقة، ووقفت تتفرس فى وجه زوج ابنها، وقد قالت الفتاة بصوت أسيف:

ـ أحزننا والله غيابكم، ولكن ما باليد حيلة . .

وأبدى شقيقها كذلك أسفه، فابتسمت المرأة، ولم تكن أفاقت بعد من دهشتها، وتمتمت:

ـ أهلا بكم جميعا.

ثم التفتت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجموده، وذكرت لأول مرة أن فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره، فقالت بعتاب:

ـ هكذا تذكرتنا أخيرا . .

فهز حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب:

ـ استغنوا عنى . .

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة:

ـ استغنوا عنك؟! أتعنى أنك عاطل الآن؟!

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دق عنيف على الباب، فتبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى، ثم غادرت الحجرة فلحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب وراءه، وقال لها فى الردهة الخارجية:

ـ هذا أبى بلا ريب . .

فقالت له بقلق:

ـ أظن هذا، هل رآك، ، أعنى رآكم وأنتم قادمون؟

ولكن الفتى لم يجبها، وتقدم من الباب وفتحه، فدخل المعلم كرشة مندفعا، وما إن رأى ابنه حتى قال وعيناه تحماران، وضباب الغضب يغشى وجهه:

ـ أهذا أنت؟! . . قالوا لى ذلك فلم أصدق . . لماذا عدت؟!

فقال حسين بصوت منخفض:

ـ يوجد فى البيت غرباء، هلم إلى حجرتك نتكلم . .

ومضى الشاب مسرعا إلى حجرة أبيه، فتبعه المعلم مزمجرا، ولحقت بهما المرأة، ثم اشعلت المصباح وهى تقول لزوجها فى رجاء وتحذير:

ـ فى الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها . .

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان فى ذهول وهتف:

ـ ماذا تقولين يا مرة؟! . . أتزوجت حقا؟

واستاء حسين من أمه لأنها ألقت عليه الخبر دون تمهيد، ولم ير بدا من أن يقول:

ـ نعم يا أبتى تزوجت . .

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغيظ، ولكنه لم يفكر لحظة فى معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه، لأن المعاتبة فى نظره حال من المودة، وصمم فى اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه، وقال بغيظ وحقد:

- هذا شيء لا يعنينى ألبتة، ولكن دعنى أسألك لماذا عدت إلى بيتى؟.. لماذا أريتنى وجهك بعد أن أراحنى الله منه؟

فلاذ حسين بالصمت، ونكس ذقنه عابسا، وانبرت المرأة تقول باستعطاف:

- استغنوا عنه يا معلم.

ونقم الشاب على أمه تسرعها للمرة الثانية. أما المعلم فقد ازداد حنقا وصاح بصوته الغليظ - مما جعل المرأة تغلق الباب - قائلا:

- استغنوا عنك؟!.. ما شاء الله.. وهل بيتى تكية؟!.. ألم تنبذنا يا همام؟.. ألم تعضنى بنابك يابن الكلب؟.. فلماذا تعود الآن؟.. اغرب عن وجهى. عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء.. هيا..

فقالت أم حسين برقة:

- هدئ روعك يا معلم وصل على النبى..

فلوح لها الرجل بقبضته منذرا وصاح بها:

- تدافعين عنه يا بنت الأبالسة؟!.. كلكم جنس شياطين يستأهل جلد السياط وعذاب النار. ماذا تريدين يا أم الشر كله؟.. أتريديننى على أن آويه وأهله؟.. هل قالوا لك إنى قواد يأتينى رزقى من يمين وشمال بغير تعب ولا جهد؟!.. ألا فاعلموا بأن الشرطة تحوم حولنا، وبالأمس قبضوا على أربعة من رفاقى، وغدكم أسود بإذن الله..

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها:

- صلى على النبى يا معلم ووحد الله.

فصاح بفظاظة:

- سليه عما جاء به؟

فقالت برجاء واستعطاف:

- ابننا أرعن مجنون، غواه الشيطان فأضله، وليس له الآن من ملجأ سواك..

فقال المعلم كرشة بحنق وسخرية:

- صدقت يا أم السوء. ليس له ملجأ سواى. سواى أنا الذى يسب حين السراء ويلجأ إليه حين الضراء!

ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية:

ـ لماذا استغنوا عنك؟

وتنهدت الأم من الأعماق لأنها أدركت بغريزتها أن هذا السؤال ـ على لهجته المريرة ـ إيذان بالتفاهم المنشود. أما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعانى مرارة القهر:

ـ استغنوا عن كثيرين غيرى.. يقولون إن الحرب وشيكة الانتهاء..

ـ انتهت الحرب فى الميدان وستبدأ فى بيتى أنا!.. ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك؟

فقال الشاب بغضاضة:

ـ ليس لها إلا شقيقها..

ـ ولماذا لم تلجأ إليه؟

ـ استغنوا عنه أيضا..

فضحك هازئا وقال:

ـ أهلا.. أهلا.. وطبيعى أنك لم تجد ملجأ لهذه الأسرة الكريمة التى أناخ عليها الدهر إلا بيتى ذا الحجرتين!.. مرحى. مرحى.. ألم توفر مالا؟

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهد:

ـ كلا..

أحسنت. عشت عيشة الملوك، كهرباء وماء وملاهى، ثم عدت أخيرا كما بدأت شحاذا..

فقال حسين بانفعال:

ـ قالوا إن الحرب لن تنتهى، وإن هتلر سيقاوم عشرات السنين ثم يهجم بعد ذلك..

ـ ولكنه لم يهجم، واختفى (حتى فى تلك اللحظة لم يقل إنه مات) تاركا شيخ المغفلين صفر اليدين. وإلبك شقيق الست؟

ـ الحال من بعضه.

ـ عال.. عال.. البركة فى أبيك. هيئى لهم البيت يا ست أم حسين ولو أنه حقير لايليق بالمقام، ولكنى سأتدارك ذلك بإدخال الماء والكهرباء، وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم..

فنفخ حسين قائلا:

ـ حسبك يا أبى.. حسبك..

فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية:

ـ لا تؤاخذنى. أأثقلت عليك؟.. مزاج رقيق، عز وجاه، ارحموا عزيز قوم بال. احتشم يا معلم كرشة ولا تحدث السادة إلا بحديث السادة. تفضل بخلع ملابسك.

أما أنت يا ست أم حسين فافتحى الكنز فى المرحاض وعبى للبيك حتى يتريش وينبسط . .

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم ، فمرت العاصفة بسلام ، وراحت المرأة تناجى نفسها : «يا ساتر استر» . وكان المعلم ـ على حنقه وسخريته ـ أبعد ما يكون عن طرده ، بل لعله حتى فى تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته ، وسرور بزواجه ، لذلك كف عما كان آخذا فيه ، وغمغم قائلا :

ـ الأمر لله . ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

ـ ماذا أعددت للمستقبل؟ .

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته :

ـ سأجد عملا إن شاء الله ، ولا يزال لدى حلى زوجى .

فانتبهت أمه إلى كلمة «حلى» باهتمام وسألته بغير وعى :

ـ هل كنت ابتعتها لها؟ .

فقال حسين :

ـ أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .

والتفت نحو أبيه مستطردا!

ـ سوف أجد عملا . وسيبحث عبده نسيبى عن عمل أيضا ، وعلى أية حال فهو لن يقيم بيننا إلا أياما .

وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذى أعقب الزوبعة فقالت لزوجها :

ـ تعال يا معلم سلم على أهل ابنك .

ولحظت ابنها بطرف خفى وغمزت بعينها ، فقال الشاب بغضاضة من يستكره التودد بطبعه :

ـ هلا أكرمتنى حيال أهلى؟

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتعاض :

ـ كيف تريدنى على الاعتراف بهذا الزواج الذى لم أباركه؟!

ولما لم يسمع من مجيب ، نهض متأففا ، ففتحت المرأة الباب وتقدمته ، وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعا ، وسلموا ، ورحب المعلم بزوج ابنه وشقيقها . انطوت الصدور عما بها أما الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة . وكان المعلم كرشة قد سلم بالأمر الواقع ، ولكنه لبث قلقا لا يدرى أأخطأ بتسليمه أم أصاب ، ولم تصف نفسه من موجدة

واستياء. ثم انتبهت عيناه النائمتان فى أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية، وما عتم أن تولاه اهتمام مفاجئ أنساه قلقه وموجدته واستياءه!.. كان شابا يافعا وسيم الطلعة خفيف الظل، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف يقظ. وطابت نفسه وصفت، وسرت فى أعماقه هزة سرور وحماس، فتفتح قلبه للأسرة الجديدة، ورحب بها مرة أخرى ولكن بشعور جديد، وسأل ابنه بلطف:

- أليس لك أثاث يا حسين؟

فقال حسين:

- غرفة نوم مكومة عند الجيران.

فقال المعلم بلهجة آمرة:

- اذهب وأحضر عفشك..!

* * *

وخلا حسين إلى أمه، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما، وفى ختام الحديث صاحت به فجأة:

- ألم تعلم بما حدث؟!.. اختفت حميدة.

فلاحت الدهشة فى وجه الشاب وسألها:

- كيف؟

فقالت المرأة دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشماتة:

- خرجت أول أمس كعادتها كل عصر، ولكنها لم تعد. ودارت أمها على بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى. وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العينى ولا حياة لمن تنادى.

- ماذا حدث للبنت يا ترى؟.

فهزت أم حسين رأسها فى ارتياب وقالت بيقين:

- هربت وحياتك!.. غواها رجل فأكل مخها وطار بها. كانت جميلة ولكنها لم تكن طيبة قط.

٢٦

فتحت عينين محمرتين من أثر النوم، فرأتا سقفا أبيض، ناصع البياض، يتدلى من وسطه مصباح كهربائى بارع الرونق فى كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف. امتلأ بصرها دهشة، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة، ثم تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية، وذكريات الحياة الجديدة. واتجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقا، ثم رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس. نفذت إرادتها فنامت وحدها، وقضى ليلته وحده فى الحجرة الخارجية، وافتر ثغرها عن ابتسامة. وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير، فبدا فستانها مستخذيا خجلا فيما يغمره من مخمل وحرير. ما أعمق الهوة التى تفصل ما بينها وبين الماضى!. وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف، فاستدلت على الضحى بسماته، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها المتأخر، فقد أرقها السهاد حتى قبيل الفجر، وسمعت نقرا خفيفا على الباب، فتلفتت صوبه فى انزعاج، وجمد بصرها عليه دون أن تأتى حركة أو تنطق بحرف، ثم غادرت الفراش، ودلفت إلى التواليت، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوتة. وعاد النقر فى قوة ملموسة فهتفت:

- من؟

وجاءها صوته العميق وهو يقول:

- صباح الخير.. هلا فتحت الباب؟

ونظرت إلى المرآة فرأت شعرها متشعثا، وعينيها محمرتين، وجفنيها ثقيلين،.. رباه.. أليس ثمة ما تغسل به وجهها؟! ألا ينتظر حتى تتهيأ لاستقباله؟! وعاد ينقر الباب جزعا، ولكنها لم تلق إليه بالا، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها فى الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها، وهى تكون اليوم أشد قلقا بلا ريب! ورأت زجاجات الروائح العطرية منضودة على التواليت، ولكنها كانت تراها لأول مرة فى حياتها، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها فى مأزقها. ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها فى عجلة ولهوجة، ومسحت بطرف فستانها وجهها، وألقت على المرآة نظرة أخرى، وتنهدت فى قلق وغيظ، ثم أخذت المفتاح وسارت نحو الباب، وكأنما ضاقت بإشفاقها، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب. التقيا وجها لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة:

ـ صباح النور ياتيتى! . . لماذا أهملتنى كل هذا الوقت! . . أتريدين مواصلة النهار بالليل بعيدا عنى؟!

فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة، ولكنه تأثرها والابتسامة لاتفارق شفتيه، ثم سألها:

ـ لماذا لا تتكلمين يا تيتى؟!

ـ تيتى!! أاسم تدليل هذا يا ترى؟ . . ولكن أمها كانت تدعوها «حمدمد» إذا أرادت أن تدللها، فما تيتى هذا؟! . . ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت:

ـ تيتى! . .

فقال وهو يتناول راحتيها بين يديه ويشعبهما تقبيلا:

ـ هذا اسمك الجديد، فاحفظيه عن ظهر قلب، وانسى حميدة فلم يعد لها وجود! . . ليس الاسم يا محبوبتى بالشىء التافه لا يقام له وزن، هو بالحرى كل شىء وما الدنيا ـ لو تعلمين ـ إلا أسماء . .

وعلمت أنه لم يعد اسمها ـ كثيابها البالية، شيئا ينبغى انتزاعه وإيداعه مقابر النسيان، ولم تر فى ذلك من بأس، فلا يجوز أن تنادى فى شريف باشا بما كانت تنادى به فى المدق، وفضلا عن هذا فهى تشعر شعورا عميقا لا يخلو من وسواس وقلق ـ بأن أسباب الماضى قد انقطعت إلى الأبد، فلماذا تبقى على اسمها؟! . .

بل ليتها تستطيع أن تستبدل بيديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو، وأن تستعيض عن صوتها ـ الذى تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظة والقبح ـ صوتا رقيقا رخيما، ولكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب؟! . . ولم تملك أن قالت باستنكار:

ـ هذا اسم غريب، لا معنى له . .

فقال ضاحكا:

ـ اسم جميل. ومن جماله ألا معنى له. فالاسم الذى لا معنى له يحوى المعانى كلها. بل هو من الأسماء الأثرية التى تسحر ألباب الإنجليز والأمريكان، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة . .

فجالت فى عينيها نظرة حيرى، تشى بالارتياب وتتحفز للعناد والانقضاض، فابتسم برقة واستدرك يقول:

ـ تيتى العزيزة . . رويدك، ستعلمين كل شىء فى حينه. ألم تعلمى بأنك ستصيرين غدا سيدة باهرة الجمال بعيدة الصيت؟ . . هذه هى معجزة هذا البيت. أم حسبت أن السماء تمطر ذهبا وماسا؟ . . كلا يا عزيزتى، إن السماء فى أيامنا هذه لا تمطر شظايا والآن خذى أهبتك لاستقبال الخياطة. ولكن معذرة لقد ذكرت أمرا هاما، ذكرت

أنه ينبغى أن أصحبك لزيارة مدرستى - أنا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى بالأمس فالتحفى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب . .

وذهب إلى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بفم معدنى فيها أنبوبة من المطاط الأحمر، وسدد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيمج فى صفحة وجهها سائلا زكى الشذا، وقد ارتعشت بادئ الأمر شاهقة، ثم استنامت إلى طيبها فى دهشة وارتياح . وألبسها الروب بنفسه، وجاءها بشبشبه فانتعلته، ثم تأبط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة الأخرى، ثم إلى الردهة الخارجية . وسارا معا متجهين صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها محذرا :

- إياك وأن تبدى خجلة أو خائفة . . إنى أعلم أنك جسورة لا تهابين شيئا . .

وأثابها تحذيره إلى رشادها، فحدجته بنظرة حادة، ورفعت رأسها فى استهانة، فابتسم قائلا :

- هذا أول فصل فى المدرسة . . فصل الرقص العربى . .

وفتح الباب ودخلا . ورأت حجرة متوسطة، جميلة البناء، ذات أرض خشبية لامعة، تكاد تخلو من الأثاث اللهم إلا عددا من المقاعد نضدت فى جناحها الأيسر، ومشجبا كبيرا فى ركنها الأقصى، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين، ووقف فى الوسط فتى فى جلباب أبيض حريرى مهفهف محزما بزنار . اتجهت الرءوس نحن القادمين، وجرت على الثغور بسمات التحية، فقال فرج إبراهيم وبلهجة قوية تنم عن السيادة حقا :

- صباح الخير . . هذه صديقتى تيتى . .

وحنت الفتاتان رأسيهما تحية، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

- أهلا يا أبلة . .

وردت تيتى التحية فى شىء من الارتباك وهى تطيل النظر إلى الفتى الغريب . كان - على غير ما يبدو - فى نهاية العقد الثالث، وضيع الملامح أحول العينين، يزين وجهه بزواق نسائى من كحل وحمرة وبودرة، ويلمع شعره الجعد بالفازلين . فابتسم فرج إبراهيم وقال يعرفه لها :

- سوسو معلم الرقص . .

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقته الخاصة، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزا بعينيه، فراحتا تصفقان على «الواحدة»، وانساب الأستاذ راقصا كالأفعوان، فى خفة وليونة يثيران الدهشة، حتى خالته جسما بلا عظام ولا مفاصل، أو أنه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل ما فيه يرتعش بلا توقف . ردفاه . . وسطه . . صدره . . رقبته . . حاجباه . . وكان يلقى بنظرة متكسرة متضعضعة . مبتسما ابتسامة فاجرة عن

أسنان ذهبية . ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره فكفت الفتاتان عن التوقيع . لم يكن فى نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يحيى القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال . والتفت نحو إبراهيم فرج متسائلا :

ـ تلميذة جديدة . . ؟

فالتفت هذا بدوره إلى تيتى وقال :

ـ أظن هذا . .

ـ ألم ترقص فيما سلف؟

ـ كلا .

فابتسم سوسو مسرورا وقال :

ـ هذا أفضل يا سى فرج . إذا كانت تجهل الرقص فهى عجينة طرية أصورها كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتى يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشق تعليمهن .

ونظر إلى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح :

ـ أم تحسبين الرقص لعبا يا أبلتى؟! . . العفو يا حبيبتى . . هذا فن الفنون ، وأستاذه له الجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء أو مشقة . . انظرى . .

وأرعش خصره بغتة فى سرعة عجيبة ، ثم أمسك وهو يرمقها بعجب وتيه ، وسألها باستعطاف :

ـ هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك .

ولكن فرج عاجله قائلا :

ـ ليس الآن . . ليس الآن .

فمط سوسو بوزه متأسفا وسألها :

ـ أتخجلين منى يا تيتى . . أنا أختك سوسو! . . ألم يعجبك رقصى؟

وكانت تدافع جاهدة شعورا بالضيق والارتباك ، وتحاول فى إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ، فابتسمت وقالت :

ـ رقصك بديع جدا يا سوسو . .

فصفق سوسو بيديه حبورا وقال :

ـ دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية ياتيتى ، وأجمل ما فيها كلمة حلوة . وهل دام شىء لإنسان؟ . . الواحد منا يشترى حق الفازلين ولا يدرى أيكون لشعره أم لشعر ورثته!

* * *

وغادرا الحجرة - أو الفصل - إلى الردهة، فمضى بها إلى الحجرة التى تليها، وشعر بعينيها تلحظانه ولكنه تجاهلهما عن حكمة، حتى بلغا الباب فغمغم قائلا :

- فصل الرقص الغربى . .

فتبعته صامتة. كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلا، وأن الماضى قد عفاه الحاضر، فلم تر بدا من الاستسلام للمقادير، وتساءلت هل تبلغ حقا السعادة المنشودة؟ وجدت هذه الحجرة فى بنائها وصورتها كسابقتها إلا أنها حجرة حية متحركة صاخبة. كان الحاكى يبعث لحنا غريبا تلقته أذنها فى دهشة وإنكار، وكان قوما يرقصون أزواجا، قوام كل زوج فتاتان، وقد انتحى شاب أنيق البزة جانبا وهو يراقبهن بعناية، ويوليهن بملحوظاته، وتبادل الرجلان التحية، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة. ودارت عيناها بالمرقص والراقصات فعجبت لثيابهن البديعة وزينتهن البارعة، وسرعان ما تناست هواجسها، واستولى عليها انفعال عارم، فعانت شعورا مؤلما بالضعة، ثم استفزها إحساس حاد بالحماس والتوثب. ولاحت منها التفاتة إلى رجلها فوجدته محافظا على هدوئه ورزانته، تلوح فى عينيه نظرة متعالية تنطق بالسعادة والقوة. والتفت نحوها فجأة كأنما جذبته عيناها، فانبسطت أساريره، ومال نحوها قليلا متسائلا :

- أيعجبك ما ترين؟

فقالت ببساطة وهى تقاوم انفعالها :

- جــدا . . .

- أى الرقصين تفضلين؟

فابتسمت ولم تجب. ولبثا قليلا صامتين، ثم غادرا الحجرة، واتجها نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام فى وجهها. وما كاد يدفع الباب حتى حملقت فى دهشةوذهول. رأت فى وسط الحجرة امرأة عارية منتصبة القامة. وظلت ثوانى لا تحول بصرها عنها فلم تر شيئا سواها. ومن عجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بمقدمهما، وجعلت تنظر إليهما فى هدوء واستهتار وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييهما أو تحييه هو بالأحرى. وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات، فتلفتت يمنة ويسرة وأدركت أن الحجرة معمورة بالآدميين. رأت إلى يسار الداخل صفا من المقاعد مشغولا نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعرى! . . ورأت عن كثب من المرأة العارية رجلا فى بدلة أنيقة قابضا بيمناه على مؤشر قد ركز سنانه على مقدم حذائه، ولاحظ إبراهيم فرج دهشتها، فرغب أن يسرى عنها، فقال لها :

- هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية . . !

فحدجته بنظرة إنكار كأنها تقول له «لا أفهم شيئا» فأشار لها بالتمهل ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

ـ استمر فى درسك يا أستاذ . .

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

ـ هذه حصة تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ولمس بسنانه شعر العارية ، فنطقت المرأة بلفظ غريب «هير» فأنزله إلى جبينها فهتفت «فرنت» ، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثم الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهى تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجا ، وتساءلت كيف تبدو هذا المرأة عارية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة ! . . وغلى دمها ، والتهب خداها ، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهز رأسه راضيا عن التلميذة الذكية ، ويتمتم «برافو . . برافو . . » ثم خاطب الرجل قائلا :

ـ أرنى شيئا من الغزل . .

فنحى الرجل المؤشر جانبا ، وأقبل على المرأة مخاطبا فى لهجة إنجليزية وعاطته المرأة قولا بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردد ، حتى صاح فرج إبراهيم :

عظيم . . عظيم . . والأخريات؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات ، فقال الأستاذ :

ـ فى طريق التحسن وإنى أقول لهن دائما إن الكلام لا يحصل بالحفظ ، ولكنه يكتسب بالتجربة ، فالحانات والبنسيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس إلا تثبيت للمعلومات المهوشة . .

فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته :

ـ صدقت . . صدقت . . .

وحياه بإيماءة من رأسه ، وتأبط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معا ، وقطعا الردهة الطويلة مرة أخرى صوب حجرتها . كان وجهها جامدا ، وفمها مطبقا ، وعيناها تنمان عن الشرود والحيرة ، وكانت تتلمس سببا للانفجار ، لا لهدف ترمى إليه ، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجل الصمت حتى حواهما المخدع ، ثم قال بلطف :

ـ يسرنى أن أطلعتك على مدرستى ، وأنك فتشت فصولها بنفسك . وربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ؛ ولكنك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء وجمالا . .

فرمقته بنظرة عناد وتحد وسألته ببرود:

- أتريدنى على أن أفعل مثلهن..؟

فابتسم فى رقة، وقال بمكر ودهاء:

- لا سلطان لأحد عليك ولا راد لقضائك، وأنت وحدك صاحبة الأمر والنهى. ولكن واجبى أن أوضح لك المعالم، والخيرة لك. والحق أنه لمن حسن الحظ أنى وجدت رفيقا لبيبًا تكفيه الإشارة، وقد حباه الله جمالا وهمة وبهاء. فإذا سعيت إلى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى أنت غدا إلى استثارتى. إنى أعرفك حق المعرفة، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة، وها أنا ذا أقول لك عن عقيدة ويقين أنك ستقبلين على تعلم الرقص والإنجليزية، وإتقان كل شيء فى أقصر فترة من الزمن. ولقد اتبعت معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنبت الكذب والخداع، لأنى أحببتك حبا صادقا، ولأنى أيقنت من أول لحظة بأنك لا تغلبين ولا تخدعين، فافعلى ما تشائين يا محبوبتى. جربى الرقص أو انبذيه، استهترى أو عفى، ابقى أو عودى، فلا قبل لى بك على جميع الأحوال.

ولم يذهب خطابه سدى، فقد سرى عنها، وخف توتر أعصابها. واقترب منها، وأخذ راحتها بين يديه، وضغط عليها بحنو وهو يقول:

- أنت أسعد حظ جادت به الحياة على.. ما أفتنك.. ما أجملك..

وحدق فى عينيها بإمعان وافتتان، ورفع يديها - وهما مضمومتان - إلى فمه، وراح يقبل أطراف أناملها زوجا زوجا، وهى مستسلمة ليديه تجد لكل لثمة من شفته تكهربا فى أعصابها، حتى تندت عيناها برقة وهيام. وند عنها نفس حار فى شبه تنهدة، فأحاطها بذراعيه، وضمها إلى صدره رويدا حتى شعر بمس ثديها لقلبه، ثدى بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس فى صدره، وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعوداً وهبوطا، ووجهها مدفون فى صدره، ثم همس «فمك» فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلا، فطبع شفتيه على شفتيها فى قبلة طويلة جدا، فأطبقت جفنيها كأنما أخذتها سنة من نعاس. وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع، وسار بها متمهلا نحو الفراش، وقد هز ساقيها المعلقتين هزة أطاحت بالشبشب ثم أنامها، ولبث مائلا عليها معتمدا على راحته، منعما النظر فى وجهها المورد. وفتحت عينيها فالتقتا بعينيه، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت ترنو إليه بنظرة ساجية. وكان فى الحق متمالكا لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك، وكان فكره أنشط من قلبه، وكان قد أجمع رأيه على خطة لا يحيد عنها، فاستوى واقفا وهو يغالب ابتسامة ماكرة، وقال بلهجة من يزع نفسه عن هواها:

- مهلا.. مهلا.. إن الضابط الأمريكى يدفع خمسين جنيها عن طيب خاطر ثمنا لعذراء!

التفتت إليه داهشة. وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة، وحل محلها نظرة صارمة قاسية قادحة. ونهضت جالسة فى الفراش، ثم انزلقت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة. وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خده بقوة وقسوة وتجاوبت أركان الحجرة رنينها. ولبث ثوانى جامدا ثم تمدد جانب من فمه الأيسر فى ابتسامة هازئة، وبسرعة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الأيمن بقوة متناهية، ثم رفع يسراه - قبل أن تفيق من اللطمة الأولى - وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة! اصفر وجهها، وسرت ارتعاشه فى شفتيها، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية، فارتمت على صدره، وأنشبت أناملها المتقبضة فى عنقه. وتلقى الرجل هذه الهجمة بسكينة، ولم يحاول مدافعتها بل أحاطها بذراعيه وشد عليها حتى كاد يهرسها، ومضت أصابعها تلين، ثم ارتدت عن عنقه، وتحسست منكبيه وعلقت بهما، ورفعت إليه وجها قانيا وثغرا مرتعشا مشوقا..

٢٧

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته سكون عميق، حتى قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرق سمارها. وفى هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن شبح زيطة، صانع العاهات، ينطلق إلى تجواله الليلى. قطع الرجل أرض الزقاق إلى الصنادقية، وعرج إلى اليسار متجها صوب الحسين، فكاد يصطدم بشبح قادم فى منتصف الطريق، وما لبث أن تنور وجهه على ضوء النجوم الشاحب فهتف به:

- الدكتور البوشى!.. من أين أنت قادم؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة:

- كنت ماضيا إليك..

- أعندك طلاب عاهات؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس:

- عندى ما هو أهم، لقد توفى عم عبدالحميد الطالبى!

فأضاءت عينا زيطة فى العتمة وسأله باهتمام:

- متى توفى؟.. وهل دفن؟

- فى مساء اليوم.

- أعرفت مقبرته؟

ـ فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وتأبط زيطة ذراعه وسار به فى الطريق الذى كان آخذا فيه وهو يسأله مستوثقا :

ـ ألا يمكن أن تضل الطريق فى الظلام؟

ـ كلا . . كنت فى أثناء سير الجنازة منتبها يقظا فحفظت علامات الطريق ، وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا ، وطالما قطعناه معا فى الظلام الدامس . .

ـ وأدواتـك؟

ـ فى مكان حريز أمام الجامع . .

ـ وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة؟

ـ عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر فى فناء مكشوف . .

فسأله بلهجة لم تخل من تهكم :

ـ أكنت تعرف المرحوم؟

ـ معرفة بسيطة . . كان بائع دقيق فى المبيضة .

ـ أطقم كامل أم بضع أسنان فقط؟ . .

ـ طقـم كامـل . .

ـ ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه؟

ـ كلا . إن أهل البلد أهل تقوى ، وهيهات أن يفعلوا ذلك . .

فقال زيطة وهو يهز رأسه أسفا :

ـ مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم . .

فتنهد الدكتور قائلا :

ـ أين منا ذاك الزمن!

وبلغا الجمالية فى ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا فى طريقهما بشرطيين ثم أخذا يقتربان من باب النصر ، واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة وأشعلها وراح يدخن بشغف . وقد فزع الدكتور بوشى من ضوء عود الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة :

ـ بئس ما اخترت هذا الوقت للتدخين . .

ولكن زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو نفع . . !

ومرقا معا من باب النصر ، ومالا إلى اليمين يقطعان طريقا ضيقا تحف به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة . وقال زيطة عند نهاية الثلث الأول من

الطريق «هاك المسجد» فتلفت بوشى فيما حوله، وتصنت قليلا فى حذر، ثم اقترب من الجامع متحاميا إحداث أى صوت، وتحسس الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر كبير، ثم أزاحه عن موضعه بيديه، واستخرج من نقرة تحته فأسا صغيرة ولفافة تحوى شمعة، وعاد إلى صاحبه، فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول همسا «تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بخمس مقابر». وجدا فى السير وعينا الدكتور تتطلعان إلى المقابر على يسار الطريق، وقلبه يدق بعنف، ثم تثاقل بغتة وهو يهمس «هذه المقبرة»، ولكنه لم يقف، بل حث صاحبه على السير وهو يقول:

- سور المقبرة المطل على هذا الطريق عالى، والطريق نفسه غير مأمون، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء، ثم نتسور المقبرة من ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفضاء المكشوف..

ولم يبد زيطة اعتراضا، فتقدما فى صمت حتى انتهيا إلى طريق الصحراء، واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق، وجلسا جنبا لجنب، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين، كان الظلام شاملاً، والمكان مقفرا، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر. ومع أن هذه المخاطرة لم تكن الأولى من نوعها إلا أن الدكتور بوشى لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب، فلبث يحملق فى الظلماء، فؤاده خافق، وريقه جاف، وأعصابه متوترة، فى حين جلس زيطة جامدا، رابط الجأش، لا يبالى شيئا. ولما اطمأن إلى خلو الطريق قال للدكتور:

- دع الأدوات واسبقنى إلى سور المقبرة الخلفى، وانتظرنى هناك.. ونهض الدكتور على كره، تسلل بين القبور مائلا نحو الأسوار الخلفية للمقابر، وسار لصق الجدران متلمسا طريقه فى ظلام دامس ليس به من بارقة نور إلا ما تشعه النجوم، وجعل يعد الأسوار حتى بلغ خامسها، ألقى على ما حوله نظرة لص، ثم جلس القرفصاء. لم تعثر عيناه بشىء يريبه ولم يبلغ أذنه حس، ولكن القلق لم يزايله، واشتد جزعه. وبعد قليل رأى شبح زيطة على مدى أذرع منه، فنهض فى حذر، وعاين الرجل السور ثم قال همسا:

- تقوس حتى أصعد على ظهرك.

وتقوس الدكتور معتمدا راحتيه على ركبتيه، ورقى الرجل ظهره، وتحسس الجدار حتى قبض على حافته، ثم تسوره بمهارة وخفة، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة إلى داخل الفناء، ثم مد يده إلى الدكتور حتى التقت بيده، وأعانه على تسلق الحائط حتى تسلمه، وهويا معا، وتوقفا عند أصل السور يستريحان، والتقط زيطة فى أثناء ذلك الفأس

واللفافة. وكانت أعينهما قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت، فرأيا الفناء فى شىء من الوضوح، وقبرين متجاورين ينهضان على كثب من موقفهما، وفى نهاية الفناء يقوم الباب المطل على الطريق الذى جاءا منه، وعلى جانبيه حجرتان. وسأل زيطة وهو يومئ إلى القبرين:

- أيهمـــا؟

فأجابه بصوت يكاد ينحبس فى حلقه:

- على يمينـك..

ودنا زيطة من القبر بلا تردد، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال، وحنى قامته متحسسا أرض المنزل فوجدها طرية ندية ما تزال، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة مكوما الثرى بين رجليه المنفرجتين. وثابر على العمل الذى لم يكن جديدا بالنسبة إليه حتى كشف عن السلاليم التى تسقف منزل القبر، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه، وأقبل على طرف السلمة الأولى، ورفعها شادا على عضلاته حتى انتصبت قائمة، وأخذ ينيمها بمعونة البوشى حتى طرحها أرضا. وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية. واكتفى بالثغرة التى فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه، ومضى إليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغما «اتبعنى». فتبعه منقبض الصدر مقشعر البدن. وكان الدكتور يجلس - فى مثل هذا الظرف - على الدرجات الوسطى، ويشعل الشمعة ويثبتها فى الدرجة السفلى، ثم يغمض عينيه ويدفنهما بين ركبتيه. وكان يدخل القبور على كره، وطالما ناشد زيطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر، ولكن الآخر أبى أن يؤدى له هذه الخدمة إلا إذا شارك فى جميع خطواتها، مستلذا فى أعماقه تعذيبه. وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر، وألقى زيطة نظرة متحجرة على الجثث المدرجة فى أكفانها مطروحة فى تتابع وتواز حتى غيابات القبر، يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ واطراد الزمن، وينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبدى. ولكنها لم ترجع فى صدر زيطة أى صدى، فسرعان ما استرد نظرته المتحجرة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر. وجلس القرفصاء، ثم كشف عن رأس الجثة بيدين باردتين، وحسر الشفتين، وعالج بأصابعه الطقم حتى انتزعه، وأودعه جيبه وقد تلوثت أنامله. ثم غطى الرأس كما كان، وتحول عن الجثة إلى الباب، فرأى الدكتور دافنا رأسه بين ركبتيه والشمعة فى أسفل الدرج تزهر، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم فى ازدراء «اصح!» فرفع الدكتور رأسه مرتعدا، ومال نحو الشمعة فتناولها ونفخها فأطفاها، ورقى السلم فى عجلة كأنه يفر. ورقى زيطة الدرج كذلك، ولكنه قبل أن يبرز من الثغرة صكت أذنيه صرخة داوية، وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء «فى عرضكم»! تسمرت قدماه، ثم تراجع نازلا الأدراج وهو لا يدرى ما يفعل

وقد أثلجت أطرافه، وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة، فتقدم خطوة ووقف متسمرا لا يجد مهربا. وخطر له أن يرقد بين الجثث، ولكنه قبل أن يأتى حركة واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسرا، وسمع صوتا شديدا يصيح به فى لهجة صعيدية:

ـ اصعد. وإلا أطلقت عليك النار..

وطوقه اليأس فاستسلم، ورقى الدرج كما أمر، وقد نسى الطقم الذهبى فى جيبه.

* * *

ولم يتناه إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشى وزيطة فى مقبرة الطالبى إلا عند عصر اليوم التالى. وفشا الخبر وعرفت أسبابه، وتناقله القوم فى دهشة وانزعاج. وما أن علمت به الست سنية عفيفى حتى استحوذ عليها الفزع وولولت صارخة، وانتزعت طقمها الذهبى ورمت به، وأخذت تلطم خديها فى حالة عصبية شديدة، ثم سقطت مغمى عليها. وكان زوجها فى الحمام، فلما أن قرع أذنيه صراخها أخذه الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول وهرع إليها لا يلوى على شىء.

٢٨

كان عم كامل جالسا على كرسيه على عتبة الدكان، مائلا رأسه على صدره، غارقا فى النعاس، والمنشة فى حجره. ثم استيقظ على دبيب شئ على صلعته فتحركت يده حركة آلية ليطرد ما ظنه حشرة، ولكنها وقعت على كف آدمية، فقبض عليها ساخطا، وتأوه متذمرا، ورفع رأسه ليرد ذلك المداعب الثقيل الذى أيقظه من نعاسه اللذيذ فوقعت عيناه على عباس الحلو.. لم يكد يصدق عينيه، فحملق فيه مشدوها، ثم اشتد احمرار وجهه المنفوخ فرحا، وهم بالنهوض، ولكن الشاب لم يمكنه من ذلك، واحتضنه بذراعيه فتعانقا عناقا حارا، والحلو يهتف به متأثرا:

ـ كيف حالك يا عم كامل؟

فيجيبه الرجل فى لهفة وسرور:

ـ كيف أنت يا عباس.. أهلا وسهلا ومرحبا.. لشد ما أوحشتنى يا عكروت!.

ووقف الحلو بين يديه مبتسما، والآخر يتطلع إليه بعينين شقيتين. وكان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدا أنيقا حسن المنظر موفور الصحة مورد الوجه، فرمقه عم كامل بإعجاب وقال بصوته الرفيع:

ـ ما شاء الله أنت رائع يا جونى . . !

فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل وقال :

ـ ثنك يـو . . لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم . . !

وأجال الشاب عينيه فى الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه القديم ، ورأى صاحبه الجديد مكبا على حلق ذقن زبون ، فرنا إلى الدكان رنوة حنان وتحية . ثم طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه ، فتساءل ترى أهى فى الدار أم فى الخارج؟ وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنه الطارق؟ سوف تحملق فى وجهه بدهشة وذهول ، فيملأ عينيه من حسنها الباهر ! هذا يوم أغر من الأيام المعدودة فى العمر . وانتبه إلى صوت عم كامل وهو يقول متسائلا :

ـ أتركت عملك؟

ـ كلا ، ولكنى أخذت إجازة قصيرة .

ـ ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة؟ هجر أباه ، وتزوج ، ثم استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقها .

فلاح الأسف فى وجه الحلو وقال :

ـ يا لسوء الحظ . . ! إنهم يستغنون عن العمال كثيرا فى هذه الأيام . وكيف استقبله المعلم كرشة؟

فمط عم كامل بوزه وقال :

ـ لا يفتأ شاكيا متبرما ، أما الفتى وأهله فيقيمون فى الدار .

وسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلا كأنما ذكر أمرا هاما :

ـ أما علمت بأن الدكتور بوشى وزيطة مسجونان؟ !

ثم قص عليه كيف قبض عليهما فى قبر الطالبى متلبسين بجريمة سرقة طقمه الذهبى . وقد وجم الحلو وجوما شديدا . ولم يكن يستبعد أن يرتكب زيطة أشنع الجرائم ، ولكنه عجب للدكتور بوشى كيف سولت له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء . . وذكر كيف طلب إليه أن يركب له طقما حين عودته من التل الكبير ، فالتوت شفتاه امتعاضا وتقززا .

واستدرك عم كامل يقول :

ـ وقد تزوجت الست سنية عفيفى . .

وكاد يقول له «العقبى لك» ولكنه أمسك فجأة وقد دق قلبه بعنف ! . ذكر عند ذلك حميدة ! . . ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجبا من نسيان ماينبغى أن

يذكره لأول وهلة! . ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا:

- أستودعك الله إلى حين . .

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهوجة:

- أين تقصد؟

فقال الحلو وهو يهم بالمسير:

- إلى القهوة أسلم على من بقى من الصحاب . .

فاتكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهدا، وتبعه متبخترا. وكان الوقت عصرا فلم يجد بالقهوة من أصحابهما إلا المعلم كرشة والشيخ درويش. فسلم عباس على المعلم الذى لاقاه بترحيب، وشد على يد الشيخ درويش. فرمقه الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة. وكان عم كامل يعانى انقباضا ثقيلا، وحزنا مريرا، ولا يدرى كيف يفاتحه بالنبأ الأليم، فقال له برجاء:

- هلا عدت معى إلى الدكان قليلا . . ؟

ووقف عباس مترددا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التى انتظرها جزعا بضعة شهور، ولكن لم يهن عليه عم كامل. ولم يجد بأسا فى المكوث معه فترة قصيرة من الوقت، فرجع معه إلى دكانه مداريا برمه بابتسامة لطيفة، وجلسا فى الداخل جنبا لجنب، وهو يقول بسرور:

الحياة فى التل الكبير حياة عظيمة، عمل متواصل، وربح موفور. أنى لا أبعثر نقودى قانعا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق. حتى الحشيش لم أذقه إلا مرات معدودات مع أنه هنالك كالماء والهواء. وقد ابتعت هذا . . انظر يا عم كامل العقبى لك . .

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها، فبان بداخلها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور:

- شبكة حميدة. أما علمت؟! . . سأكتب الكتاب فى إجازتى هذه . .

وتوقع أن يقول الرجل شيئا، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل وغض بصره كأنه يخفيه، فنظر إليه الشاب باهتمام، ولأول مرة رأى ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار. ولم يكن عم كامل من الذين يفلحون فى إخفاء ما يعتمل فى أنفسهم، فلاح باطنه عاريا فى وجهه. وسرعان ما قطب الحلو وساوره القلق، فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه، وأنعم فى صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه. وأشفق على قلبه الجذل الحبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يدريها ولا يتوقعها. أشفق من ذلك إشفاقا أليما موجعا،

ولكن نذر الكدر تخايلت لعينيه فى وجه الرجل المرتبك الواجم، ولم يستطع مع جموده صبرا، فسأله بارتياب:

- ما لك يا عم كامل؟.. لست كعهدى بك. ما الذى غيرك؟.. لماذا لا تنظر إلى؟!

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين، وفتح فمه ليتكلم، ولكن لسانه خانه فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعباس مداه، وتنبأ قلبه بالفاجعة، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه، ويخمد أنفاس أمله، فهتف بحزم قائلا:

- ماذا وراءك يا عم؟ ما الذى تريد أن تقوله؟ عندك ما تقوله بلا ريب، بل فى ضميرك أشياء، فلا تقتلنى بترددك. حميدة؟!.. إى والله حميدة!.. قل ما تشاء. لا تعذبنى بسكوتك. هات ما عندك دفعة واحدة.

فازدرد ريقه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ليست موجودة! لم تعد هنا اختفت. لا يدرى أحد عنها شيئا. أنصت إليه بذهول وفزع، ونقشت الكلمات فى وعيه كلمة كلمة، ولكن غشى فهمه ضباب وغبار، وكأنما انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين، فقال بصوت متهدج:

- لست أفهم شيئا. ماذا قلت! لم تعد هنا، اختفت؟! ماذا تعنى؟ فقال عم كامل بأسى:

- شد حيلك يا عباس. يعلم الله أنى حزين أسيف، وإنى حملت همك من أول الأمر، ولكن ما باليد حيلة. اختفت حميدة، ولم يدر أحد عنها شيئا. خرجت يوما كعادتها كل عصر ولكنها لم تعد. فتشوا عنها فى مظانها جميعا دون جدوى. بلغنا قسم الجمالية، وبحثنا فى قصر العينى، ولكن لم نعثر لها على أثر. لاح فى وجهه سهوم، ولبث حينا جامدا صامتا، لايتكلم ولا يتحرك ولا يطرف. لا مذهب ولا مهرب. ألم يتنبأ قلبه بالفاجعة؟ بلى، وها هو يصدقه. يا عجبا.. ماذا يقول الرجل؟.. اختفت حميدة؟.. وهل يختفى البشر كما تختفى إبرة أو قطعة من النقود؟! لو أنه قال ماتت أو تزوجت لأمكن أن يجد لمضطربه مدى أو نهاية، فاليأس على أية حال أروح من الشك والحيرة والعذاب. ولكن ما عسى أن يفعل الآن؟! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال. وخرج من جموده فجأة، فاستعرت نفسه هياجا وارتعشت أطرافه، وحدج الرجل بعينين محمرتين وصاح به:

- اختفت حميدة!.. وماذا فعلتم؟.. بلغتم قسم الجمالية وبحثتم فى قصر العينى؟.. جزاكم كل خير، ثم ماذا؟.. عدتم إلى أعمالكم كأن شيئا لم يكن!.. يا لطف الله!.. انتهى كل شئ، فرجعت أنت إلى دكانك وراحت أمها تطرق أبواب العرائس وانتهت حميدة، وانتهيت أنا أيضا. ماذا تقول يا رجل خبرنى عما تعلم؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها؟.. كيف اختفت؟ ومتى وقع ذلك؟!

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من حدة وغضب، وقال بصوته الحزين:

ـ مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بنى. كان حدثا مروعا مفزعا ارتجت له القلوب. والله يعلم أننا لم نأل جهدا فى البحث والاستفسار، ولكن ما باليد حيلة!

فضرب عباس كفا على كف، وقد احتقن الدم بوجهه، وازدادت عيناه جحوظا، وقال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ زهاء شهرين!.. رباه.. هذا تاريخ قديم. لا أمل فى العثور عليها. ماتت؟.. غرقت؟.. خطفت؟.. من لى بأن أدرى؟.. خبرنى بما يقول الناس؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان:

ـ ظنوا ظنونا كثيرة، ثم رجحوا أنها ذهبت ضحية لحادث، أما الآن فلا يذكرون شيئا..

فهتف الشاب متأوها:

ـ طبعا.. طبعا، فلا هى ابنة لأحد منهم، ولا قريبة أحد، حتى أمها ليست بأمها. ترى ماذا حدث لها؟.. كنت فى هذين الشهرين أسعد الناس أحلاما. أرأيت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقب يقظته ساخرا هازئا طاويا مصيره بيديه القاسيتين؟!.. ولعلى كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة، أو تتخبط فى قعر النيل.. شهران يا حميدة!.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونهض قائما ضاربا الأرض بقدمه، ثم قال بامتعاض:

ـ أستودعك الله.

فسأله بلهفة:

ـ علام نويت؟

فقال بفتور:

ـ سأقابل أمها..

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متثاقلا كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحا، وكيف يذهب محطما مهيضا. فعض على شفته، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه، وتحول نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدمع، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعى، وارتمى على صدره فى قنوط، ونشج منتحبا باكيا كالأطفال..

ألم يداخله شك فى حقيقة اختفائها؟.. ألم يساوره ما يساور المحبين من ارتياب وسوء ظن فى مثل حالته؟ الحق أن طيف شك قد لاح بخاطره ولكنه لم يلق إليه بالا

فتبدد. كان بطبعه شديد الثقة، يجود بالظن الحسن بغير حساب. كان طيب القلب جدا، ومن هذه القلة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة المعاذير لغيرهم، واختيار أخف التأويلات لأفظع الفعال. ولم يغير الحب من طبعه هذا، بل لعله رسخه وقواه، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهمهمة الشك بأذن مرهفة. وقد أحب حميدة حبا شديدا باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة. وآمن - إلى هذا كله - بأن فتاته أكمل فتاة فى الدنيا التى لم ير منها شيئا يذكر. فلم يداخله شك فيها، أو أن طيف الشك الذى لاح له لم يجد فى قلبه مرتعا يعيث فيه. وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم، ولكنها لم ترو له غلة، وأعادت عليه ما قصه عم كامل بصوت مختنق بالعبرات. وزعمت له أن الفتاة كانت لا تفتأ تتذكره وتترقب عودته بصبر فارغ فضاعفت بكذبها أحزانه، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذب النفس. وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان، وقد زعفر الأصيل هامة النهار، تلك الساعة التى اعتاد - فى الأيام الخوالى - أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية. وقطع الطريق ذاهلا عما حوله، فتمثلت لعينيه بجسمها الملفوف فى الملاءة السوداء وعينيها النجلاوين المحبوبتين، وهفت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة، فتنهد من الأعماق، ونفخ محزونا قانطا. ترى أين هى الآن؟.. ماذا تصنع؟ وماذا صنع الله بها؟.. أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد فى قبر من قبور الصدقة؟.. رباه.. كيف تحجر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشف ريبة ولا شام نذيرا!.. كيف استنام إلى طمأنينة الأحلام ولذة المنى فأكب على العمل غافلا عما يخبئه له الغد؟! وأيقظه الزحام من ذهوله فتنبه إلى الطريق، هذا الموسكى طريقها المختار بأناسه ودكاكينه، كل شئ فيه باق على حاله، إلا هى، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس. وألمت به رغبة فى البكاء، ولكنه لم يستسلم لها هذه المرة. لقد أراحه البكاء على صدر عم كامل، وأرخى توتر أعصابه، وتركه لحزن عميق هادئ، فيجدر به الآن أن يتساءل عما هو فاعل، أيدور على الأقسام وقصر العينى.. ولكن ما جدوى ذلك؟ أيدوخ فى شوارع القاهرة مناديا باسمها؟ أيطرق أبواب البيوت بابا بابا؟ لله ما أعجزه وما أعجز حيلته. إذن هل يعود إلى التل الكبير متناسيا ما وراء ظهره؟ ولكن لماذا يعود؟ لماذا يصر على تحميل نفسه آلام الغربة؟ لماذا يكد ويكدح ويجمع النقود؟ الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته. غاضت فى قلبه مشاعرها جميعا إلا فتورًا يزهق الأنفاس وخمودا يقتل الإحساس، وهوى إلى هذه الحالة المضنية التى تبدو فيها الحياة فراغا كئيبا يحدق به سد هائل من القنوط. كان يعيش على الفطرة لا يدرى شيئا عما وراءها. مخلصا لقوانين الحياة الأزلية، فوجد فى الحب جوهر حياته وخلودها. فلما أن فقده فقد الأسباب التى تصله بالحياة، وتردى مزعزعا كذرة هائمة فى الفضاء. ولولا أن الحياة - التى تجرع غصص الآلام - تتفنن فى إغراء بنيها بالتعلق بها حتى فى أحلك أوقاتها، لختم

عمره وقضى. ولكنه مضى فى سبيله حائرا قد ضل هدفه، بل شعر فى تلك اللحظة أنه ضله إلى الأبد. بيد أنه مازال معلقا بخيط يدق على وعيه ولمح فى عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدرى إلا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن، فوقفن داهشات وقد تذكرنه فى غير مشقة، وقال لهن بلا أدنى تردد:

ـ مساء الخير يا بنات، لا تؤاخذننى، ألا تذكرن صاحبتكن حميدة؟

فقالت إحداهن:

ـ نذكرها جميعا!.. ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم!

فسأل بصوت ينطق بالأسى:

ـ ألا تدرين شيئا عن اختفائها؟

فقالت أخرى وقد لاحت فى عينيها نظرة ماكرة:

ـ لا ندرى شيئا على وجه اليقين. إلا ما قلته لأمها حين جاءتنى يوم اختفائها تسأل عنها، من أننا رأيناها مرات بصحبة أفندى يسيران معا فى الموسكى..

وحملق فى وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه، وسألها:

ـ أرأيتها بصحبة أفندى..؟!

ونال منظره من الفتيات فاختفت من أعينهن نظرات خبيثة ساخرة، وتكلفن الرزانة، وقالت محدثته برقة:

ـ نعم يا سيدى.

ـ وأخبرت أمها بذلك؟

ـ نعم..

وشكرهن بكلمة، وسار فى طريقه. ولم يداخله شك فى أنهن سيجعلن منه حديثهن بقية الطريق، ولعلهن يضحكن كثيرا من الفتى المغفل الذى هاجر إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوبته، فآثرت عليه آخر وفرت معه. يا له من مغفل حقا! ولعل أهل حيه جميعا قد لغطوا بغفلته. وقد رحمه عم كامل فأخفى عنه الحقيقة، كما أخفتها أم حميدة، وهل كان بوسعهما أن يفعلا غير ما فعلا؟ وخاطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلا: «هذا ماحدثنى به قلبى لأول وهلة». ولم يكن صادقا فى قوله، لأن الشك لم يلم به إلا إلمامة خفيفة، ولكنه لم يعد يذكر فى محنته غير هذه الإلمامة الخفيفة من الشك، بيد أنه تاه فى اللحظة التالية وتساءل وهو يبسط أصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية. «رباه كيف أعقل هذا! أهربت حميدة حقا مع رجل؟! من يصدق هذا؟!». لم تمت إذن، ولم يعرض لها حادث، ولقد أخطأوا خطأ كبيرا فى البحث عنها فى الأقسام وقصر العينى

وغاب عنهم أنها تنام سعيدة رخية البال بين ذراعى الرجل الذى خطفها. ولكنها وعدته ومنته، أفكانت تخادعه؟ . . أم توهمت خطأ أنها تميل إليه . . كيف عرفت ذلك الأفندى؟ ومتى أحبته؟ وأى جرأة شيطانية أغرتها بالفرار معه! . . كان ممتقع اللون، بارد الأطراف، تلوح فى عينيه نظرة ساهمة قاتمة، وتبرق فيها من آن لآن لمحة خاطفة تقدح شررا. خطر له خاطر فصعد رأسه إلى الدور على جانبى الطريق، ينظر إلى نوافذها ويتساءل: فى أى دار ترقد لصق رجلها الآن. انقشع غبار الحيرة، وحل محله غضب نارى ومقت نهم، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط يدى الغيرة القاسيتين، غير أن شعوره بالخيبة - الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود فى التراب - كان أفظع من الغيرة نفسها. إن الغرور والكبرياء وقود للغيرة يؤرثان لهيبها. ولم يكن حظه منهما ملحوظا، ولكنه كان شديد الأمل كبير الأحلام، فذوى أمله وتبدد حلمه، وانفجرت نفسه غضبا. وأفاده الغضب من حيث لا يدرى، فاستنقذه من ذلك الحزن الصامت الثقيل، وعلله بالانتقام يوما ولو على سبيل البصق والازدراء. والواقع أن فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره فى تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر، فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر بمدية حادة. الآن يستطيع أن يدرك سر مواظبتها على الخروج فى العصارى، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق! ولكنها جنت بغير شك، جنت بهذا الأفندى، وإلا لما آثرت العهر معه على الزواج به! وعض على شفته ألما وحنقا لهذا الخاطر. وانتقل راجعا قد ضاق ذرعا بالمشى والوحدة. وتحسست يده علبة العقد فى جيبه، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنما صرخت غضب فى رداء ضحكة. ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية! وذكر كيف وقف فى دكان الصايغ يقلب عينيه بين الحلى وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلا وسرورا، وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الوانى إلا أنها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورا . .

٢٩

ما إن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شد الخواجا الجالس قبالته على يده وقال له:

- مبارك عليك يا سليم بك. هذه ثروة طائلة . .

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضى فى سبيله حتى توارى وراء باب الوكالة، صفقة رابحة. وبحسبه أنه تخلص من مخزون الشاى الذى اشتراه الخواجا جملة فربح الكثير وأمن شر المخاوف، خصوصا وأن صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء، بيد أنه

قال لنفسه ساخطا متبرما « ثروة طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شيء فى دنياى» . والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلا شبح هزيل ، وكانت أعصابه أشد ما يضنيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيرا متواصلا فى الموت حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل فى الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان ، ولكن تهافت أعصابه أنساه آداب الإيمان وألوى بشجاعته . وما انفك يفكر فى ساعة الاحتضار ـ وقد ذاق بعض مرارتها فى إبان مرضه ـ ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من أقاربه ، ذاك الرقاد المستسلم الأليم ، وصعود الصدر وهبوطه ، وهذه الحشرجة المتقطعة ، وإظلام المقلتين ، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد . أيقع كل هذا فى يسر؟ ! إن الإنسان ليجن إذا انتزع ظفره ، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته؟ ! ولا يدرى إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها فى الروح ورجعها فى الجسد ، فسر الميت الذى ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه فى جدثه ، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا فى أفظع حالاتها وأبشعها ، ولو أنه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة فى الحياة ، ولمات الناس ذعرا قبل أن تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله فى زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكتة القلبية ، ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، إنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يقعدون ، كأنهم يمكرون بالاحتضار فيتحينون منه غفلة ثم ينسلون خفية إلى باب الأبدية ! . . ولكنه فى شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه ـ وجده من قبل ـ مثل الميتة التى يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنها ستجرى عليه ، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان . من كان يصدق أن السيد سليم علوان ـ الرجل القوى السعيد ـ سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف؟ . . هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفزعه الوحيد ، فقد انجذت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلازمه بعد الموت ، أليس يقولون أن عينى الميت تريان من يحدقون به من الأهل؟ . . فحتم أن يرى الموت جهرة ، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهى تشمله ، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد فى النفس من أشواق وحنين وحب للدنيا وأهلها ! . . تمثل ذلك كله بصدر منقبض وقلب متشنج وأطراف باردة وجبين يتفصد عرقا ، ولم تنس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب ، أواه . . ما أبعد الشقة بين الموت والجنة ! . .

لذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس ، على رغم أنها حياة عاطلة من أسباب

النعيم، فلم تترك له دورا يلعبه فى مسرحها إلا المراجعة وعقد الصفقات، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه، فأكد له الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ولكنه نصحه بالحذر والاعتدال. وشكا إليه عدة مرات مايعانى من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصائى فى الأعصاب ومن ثم مضى يتردد بين الأخصائيين فى الأعصاب والقلب والصدر والرأس، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقل عن عالمنا اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجراثيم والأعراض الخفية. ومن عجب أنه لم يكن يؤمن لا بالطب ولا بالأطباء، ولكنه آمن بهما فى اضطرابه، ولعل إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذى ألم بأعصابه!..

فى هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته، وفى أوقات عمله، وأويقات السلام التى تصفو فيها نفسها وتنقى من نمش الهواجس كان كأنه يتفرغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر، فهو إما فى حرب مع نفسه وإما فى حرب مع الناس. وأدرك عمال الوكالة من بادئ الأمر أن سيدهم قد استحال شخصا شاذا ملعونا، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته، وبقى من بقى من العمال على مضض وتوجس واستكراه. وقال عنه أهل الزقاق إنه بين العقل والجنون، وقالت حسنية الفرانة بشماتة لم تحاول أخفاءها «إنها صينية الفريك والعياذ بالله». ويوما قال له عم كامل عن قصد حسن ونية سليمة:

- هلا أمرتنى يا سى السيد أن أصنع لك صينية بسبوسة مخصوصة ترد عليك ثوب العافية بإذن الله!

ولكن السيد غضب غضبا شديدا وانفجر صائحا فيه:

- إليك عنى إيها الغراب. أجننت يا أعمى القلب والبصيرة!.. إن أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أمعدتهم سليمة حتى القبر..

ولم يعد بعدها عم كامل إلى التعرض له بخير أو شر.

أما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه، ولم يفتأ يلقى على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له فى جسمه وعقله، وكان ينتهرها قائلا:

- لشد ما نقمت على صحتى وعافيتى، حتى تحطمت بين يديك، فهنيئا لك الراحة يا أفعى..

واشتد به سوء الظن، حتى ارتاب يوما أن يكون نما إليها عزمه على الزواج من حميدة، لأن أمثال هذه الأمور تتصدى لها أعين كثيرة فتراها فى خفية من صاحبها، وتتطوع ألسنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له «عملا» هو الذى أودى بصحته وعقله!.. ولم يكن

فى حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينا. فتميز غيظا، وامتلأ حنقا، وتوثب للانتقام. اشتط فى معاملتها، ودأب على سبها ونهرها، ولكنها قابلت قسوته بالامتثال والصبر والأدب، فلم يجده شططه، ولبث يتحرق إلى إثارتها، وإخراجها من التعوذ بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكى والتذمر وذرف الدموع، فقال لها مرة بجفاء وازدراء:

ـ لقد مللت عشرتك، ولا أخفى عنك أنى شارع فى الزواج، سوف أجرب حظى مرة أخرى..

وصدقته المرأة، فتصدع بنيان رزانتها المتماسك، وفزعت إلى أبنائها فباحت لهم بما تلقاه على يديه من سوء القول والفعل. وهالهم الأمر، ودهمهم الخطب، فأيقنوا أن أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب، وزاروه واقترحوا عليه ـ إبقاء على صحته ـ أن يصفى تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه. وفطن الرجل إلى ما يساورهم من خوف غير جديدعليه، فغضب غضبة هائجة، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها، وخاطبهم بحدة قائلا:

ـ حياتى ملك لى أصرفها كيفما أشاء، وسأبقى عاملا ما راق لى العمل فأعفونى من نصحكم المغرض.

وضحك متهكما ثم استدرك وهو يقلب فى وجوههم عينيه الذابلتين:

ـ ألم تحدثكم أمكم عما اعتزمت من الزواج مرة أخرى؟.. هو الحق. لقد شرعت أمكم فى قتلى، فسآوى إلى كنف امرأة جديدة على شيء من الرحمة، وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثروتى كفيلة بإشباع أطماعكم جميعا..

وأنذرهم بأنه سيقبض يده عنهم، وأن على كل منهم أن يعتمد فى حياته على موارده الخاصة. قال بسخط وغضب:

إنى كما ترون لا أكاد أذوق غير مر الدواء، فلا يصح أن يتمتع الآخرون بمالى.

قال كبيرهم:

ـ كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرة ونحن أبناؤك البررة؟

فقال السيد ساخرا:

ـ بل أبناء أمكم.

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شيء من طرفه إلى بيوت أبنائه، وحرم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التى اشتهر بها، والتى حرمت عليه هو بعد مرضه، ليشاركه الجميع ـ خصوصا زوجه ـ فيما فرض عليه. ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجد السهم النافذ

الذى تحطمت دونه ما تذرع به زوجه من صبر وأناة. وتشاور أبناؤه فيما بينهم، وقد ألفاهم الخطب قلبا واحدا فى التوجع لأبيهم، والإخلاص له فى محنته، وقال كبيرهم:

- نتركه وشأنه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

بيد أن المحامى قال بشىء من الحزم مستدركا:

- اللهم إلا إذا شرع فى الزواج حقا، فأشد ما نتخذه من احتياط أهون من أن نترحه هملا بين أيدى الطامعين.

* * *

وكان اختفاء حميدة حدثا فظيعا فى حياته. ومع أنه لم يعد إلى ذكرها - منذ مرضه - فتخلفت عن تيار شعوره، إلا أن خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه، فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها. ولما تناهى إليه ما تهامس به اللاغطون من أنها فرت مع رجل مجهول، انزعج انزعاجا شديدا، وثار غضبه ذلك اليوم فلم يجرؤ أحد على الدنو منه، فرجع مع المغيب إلى بيته مهدم الأعصاب، وأصابه صداع شديد أرقه حتى مطلع الفجر. وحنق على الفتاة الهاربة حنقا كبيرا، وتآكل قلبه حقدا وغضبا، وتمنى أن يراها يوما متدلية من مشنقة، مندلقة اللسان، جاحظة العينين. ولما علم بعودة عباس الحلو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح ودفعته رغبة لا تقاوم إلى استدعاء الشاب، وقربه، ولاطفه فى الحديث وساءله عن أحوال معيشته، متجنبا ذكر الفتاة، فسر الشاب بعطفه، وشكر له حدبه، وأقبل على الحديث فى استفاضة من استنام إلى لطفه، والسيد يسترق إليه النظر من عينيه الغائرتين.. وفى الأيام الأولى التى أعقبت فرار حميدة وقع حادث - ربما كان فى ذاته تافها - ولكنه مما يؤرخ به فى زقاق المدق. كان السيد سليم علوان متجها نحو الوكالة فى ضحوة من النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهبا لبعض شأنه. وكان السيد - فى عهده الأول - من محبى الشيخ درويش، وكثيرا ما تعاهده بالبر والإحسان والهدايا، ولكنه أغفله فى مرضه وأهمله وكأنه لم يعد يشعر له بوجود. ولما التقيا على كثب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنه يخاطب نفسه:

- أختفت حميدة..

فبهت السيد، وظنه يعنيه بقوله، فما تمالك أن صاح به:

- ما لى أنا ولهذا!

ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلا:

- ولم تختف فحسب، ولكنها هربت، ولم تهرب فحسب - ولكنها هربت مع رجل؛ ويسمون ذلك فى الإنجليزية elopement وتهجيتها.. ELOPE.

وقبل أن يتم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيد صارخا:

- إنه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون، اغرب عن وجهى عليك لعنة الله . .

وجمد الشيخ فى مكانه وتسمر فى الأرض، ولاحت فى عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوح له شخص بعصا مهددا، ثم أعول باكيا. ومضى السيد لطيته، ولبث الشيخ درويش بموقفه باكيا، وعلا صوته فصار اشبه بالصراخ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين، وقادوه إلى القهوة، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه. وطلب له المعلم كرشة قدحا من الماء، وربت عم كامل على كتفه قائلا بتوجع:

- وحد الله يا شيخ درويش، اللهم اكفنا السوء. . بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب. . اللهم لطفك.

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلا، فاضطربت أنفاسه، وارتجفت أوصاله، وأطبقت شفتاه فى توتر وتشنج، وراح يشد ربطة رقبته بعنف، ويضرب الأرض بقبقابه، وفتحت نوافذ الدور وأطلت الرءوس فى دهشة وانزعاج، وجاءت حسنية الفرانة، وشق النحيب طريقه إلى مسمعى السيد سليم علوان فى الوكالة، فأنصت إليه غاضبا حانقا، وظل ينصت إليه هائجا، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل؟. . وعبثا حاول أن يغيب بانتباهه عنه، فكأنه كان يلح فى مطاردته والتضييق عليه، حتى خيل إليه أن الدنيا جميعا تبكى وتنوح. وسكت غضبه وسكن هياجه، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترن فى إشفاق وألم. ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولى! . . ليته لم يصادفه فى طريقه! . وما كان ضره لو أغضى عنه ومر به مر الكرام! وتأوه نادما، ومضى يقول: إن الإنسان فى مثل حالته من المرض حرى بأن يزدلف إلى الله لا أن يغضب وليا من أوليائه. وطوى كبرياءه، ونهض قائما، وغادر الوكالة متوجها إلى قهوة كرشة. وقصد الشيخ الباكى غير عابئ بالأنظار التى سددت نحوه فى دهشة، ووضع يده على منكبه برفق، وقال بلهجة تنم عن الاعتذار والأسف:

- يا شيخ درويش. . . سامحنى.

٣٠

كان عباس الحلو يجلس مختبئا فى شقة عم كامل حين دق الباب بعنف، فنهض إليه وفتحه فرأى حسين كرشة مرتديا القميص والبنطلون، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته، ثم بادره قائلا:

ـ كيف لم تقابلنى وهذا ثانى يوم لك فى المدق! . . كيف حالك؟

فمد له الحلو يده مبتسما ابتسامة باهتة وقال :

ـ كيف أنت يا حسين؟ . . لا تؤاخذنى فمتعب أخاك لا ناس ولا مهمل . هلم نسر معا .

وخرجا معا . وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهدا ، وقطع النهار متفكرا ، فسار مصدع الرأس ، مثقل الجفون . لم يكد يبقى من ثورة الأمس أثر ، سكت الغضب الجنونى ، وبرد الهياج الحامى ، وتلاشت خواطر الانتقام الدموى ، على حين رسب فى قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهم ، وبمعنى آخر تخلصت نفسه مما لا تطيقه من ألوان الانفعال ، مسلمة بكليتها للحزن واليأس . وقال له حسين متسائلا :

ـ أما علمت بأنى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة؟

ـ حقـــا .

ـ وتزوجت ، وأخذت بأسباب حياة رائعة . .

فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئا من الاهتمام الذى لا يجده .

ـ حمدا لله . . مبارك . . عال . . عال . .

وكانا بلغا الغورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدة .

ـ بل زفت وهباب! . . استغنوا عنى فعدت إلى الزقاق على رغمى ، وأنت هل استغنوا عنك أيضا؟

ـ كلا . . ولكنى منحت إجازة قصيرة .

فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :

ـ أنا الذى دفعتك إلى العمل دفعا وأنت تمانع ، وها أنت ذا تنعم به على حين أتسكع أنا متعطلا .

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه من غل وشر فقال بانكسار :

ـ نهايتنا قريبة على أية حال ، هذا ما يؤكدونه لنا .

فارتاح حسين قليلا ، ثم استدرك يقول بصوت أسيف :

ـ كيف انتهت الحرب بهذه السرعة؟! . . من كان يصدق هذا؟!

فهز الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة . سيان عنده أن تستمر الحرب أو تنتهى ، وأن يبقى فى عمله أو يفصل منه ، إنه لا يبالى شيئا على الإطلاق . وكاد يضجره حديث صاحبه ، إلا أنه ألفاه أخف من الوحدة والفكر ، ومن ناحية أخرى تحمله ـ كما اعتاد أن يتحمله ـ دفعا لشره . واستطرد حسين قائلا :

ـ كيف انتهت بهذه السرعة! . . كان الأمل معقودا بهتلر أن يطيلها إلى ما لا نهاية، ولكن أنهاها حظنا الأسود.

ـ صـــدقت . .

فصاح حسين بشدة:

ـ نحن تعساء. بلد تعيس وأناس تعساء . . أليس من المحزن ألا نذوق شيئا من السعادة إلا إذا تطاحن العالم كله فى حرب دامية؟! فلا يرحمنا فى هذه الدنيا إلا الشيطان!

وأمسك قليلا وهما يشقان طريقا بين سابلة السكة الجديدة، وقد أخذ ستار الظلام فى الانتشار، ثم قال متنهدا فى حسرة:

ـ لشد ما تمنيت أن أكون جنديا محاربا! تصور حياة جندى باسل، يخوض غمار الحرب، وينتقل من نصر إلى نصر، يركب الطيارات والدبابات، يهاجم ويقتل ويسبى النساء الفارات، ويبذل له المال عن سخاء، فيسكر ويعربد فوق القانون. هذه هى الحياة. ألا تتمنى أن تكون جنديا؟

الحق أن ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفارة الإنذار، وكان من رواد المخبأ المواظبين فكيف يتمنى أن يكون جنديا من المحاربين؟ بيد أنه تمنى صادقا لو كان خلق جنديا فظا متعطشا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه فى السعادة والحياة الرغيدة! وقال بلهجته الفاترة:

ـ من لا يتمنى ذلك؟!

وانتبه إلى الطريق، فازدحمت برأسه الخواطر، رباه. كيف للزمان أن يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره؟! إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين، وأن هواءه لا يبرح معبقا بأنفاسها المحبوبة، وكأنه يراها رؤية العين وهى تخطر بقوامها المعتدل الممشوق، أنى له أن يطمع فى نسيان هذا كله؟! وقطب متغيظا على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله، وأطبق فمه فلاح وجهه صارما قاسيا، وعاودته لفحة من ثورة الأمس، ينبغى أن ينبذه، وأن يطرح من يخونه، وألا يحرق أضلعه حزنا ـ ولا حتى غضبا ـ على من يرقد ناعما بين أحضان غريم له. تبا للقلب من صاحب خئون، دسيسة على الروح والجسم، يحب من لا يحبهما، ويحرص على من يفرط فيهما، فيسيم صاحبه الخسف والهوان. واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاخب وهو يلكزه هاتفا:

ـ حارة اليهود.

وأوقفه بيده عن السير متسائلا:

ـ ألا تعرف حانة فيتا؟ . . ألم تدمن الخمر فى التل الكبير؟ فأجابه عباس قائلا باقتضاب:

ـ كــــلا . .

ـ كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر؟ يا لك من خروف تعس . . الخمر شراب منعش ومفيد للمخ، تعال . .

وتأبط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود وكانت فيتا تقع على بعد يسير من مدخلها، على جانبها الأيسر، وهى أشبه بدكان، متوسطة، مربعة الشكل، تمتد فى جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامى ينهض وراءها الخواجا فيتا، وقد ثبت فى الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات، وقامت فى نهايته من الداخل براميل ضخمة، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد، حوذية وعمال وآخرون حفاة ونصف عراة كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون. وبقى من الحانة غير ذلك موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية . فجلس إليها أعيان السوقة والعاجزون عن الوقوف لكبر أو لسكر شديد . ورأى حسين مائدة شاغرة فى نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها، وجلسا حولها . وقلب عباس عينيه فى المكان الصاخب المدوى فى صمت قلق، حتى استقرتا على غلام فى الرابعة عشرة قصير مفرط فى البدانة، مطين الوجه والجلباب، حافى القدمين، يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع، ويتمايل رأسه سكرا، فاتسعت عيناه دهشة ولفت حسين إليه، ولكن هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

ـ هذا عوكل بائع الجرائد . يبيع الجرائد فى النهار ويسكر فى الليل . غلام ولكن قل فى الرجال مثله . أرأيت يا غشيم!

ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

ـ كأس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطلين أمثالى . منذ شهر كنت أشرب الويسكى فى بار فنش ولكنها الدنيا القلب، معلهش يا زهر!

وطلب كأسين، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق ترمس . ونظر عباس إلى كأسه بقلق وقال مشفقا من لسان صاحبه إشفاقه من الإقدام على التجربة الجديدة :

ـ يقولون إنها مؤذية!

فقبض حسين على قدحه ويقول بسخرية :

ـ تخاف على نفسك؟! خلها تقتلك . . فى داهية يا سيدى، لا أنت فى الزيادة ولا فى النقصان، صحتك .

وقرع كأسه بكأسه، ثم أفرغه فى جوفه بغير مبالاة، ورفع عباس كأسه وكرع منه

كرعة، ثم أبعده عن فيه متقززا، وقد شعر كأن لسانه من لهب اندلع فى حلقه، فتقبض وجهه وكأنه لعبة من المطاط ضغطته أصابع طفل، وقال متأففا :

ـ فظيع . مر . حامى .

فتضاحك حسين ساخرا، شاعرا بزهو واستعلاء وقال بازدراء :

ـ تشجع يا طفل، الحياة أمر من هذا الشراب، وأوخم عاقبة . .

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه وهو يقول «اشرب حتى لا يندلق على قميصك» فتجرعه الآخر حتى الثمالة . ونفخ متقززا، ثم أحس حرارة فى بطنه، سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها فى جوفه، فشغل بالانتباه إليها عن تقززه، وتتبع أثرها وهو يندفع مع دمه، ويجرى فى عروقه، حتى إذا بلغ رأسه خفت وطأة الدنيا عليه قليلا، وقال حسين بسخرية :

ـ اكتف اليوم بكأسين ولا تزد . .

وطلب كأسا أخرى لنفسه وراح يقول :

ـ أقيم الآن مع أبى ومعى زوجى وشقيقها، ولكن نسيبى وجد عملا فى الترسانه وسيفارقنا اليوم أو غدا . ويقترح أبى على أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهات فى الشهر، وبمعنى آخر أشتغل من الفجر حتى نصف الليل بثلاثة جنيهات! . . ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون؟! وهكذا ترى أن الدنيا تناصبنى العداء، وتستفز غضبى ومقتى، وليس عندى إلا جواب واحد : فإما الحياة التى طابت لنا وإما حرقنا الدنيا ومن عليها . .

فسأله عباس، وكان أخذ يستشعر راحة وجدها عجيبة لذيذة بالنسبة لما تعناه طوال يومه من هم وفكر :

ـ ألم توفر مالا؟ . .

فقال حسين بحدة وسخط :

ـ ولا مليما! كنت أسكن شقة نظيفة بالوايلية، فيها الكهرباء والماء، وكان عندى خادم صغير تقول لى بكل احترام «يا سيدى»، وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية، ربحت كثيرا، وضيعت كثيرا، وهذه هى الحياة . إن أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود؟ بيد أن النقود ينبغى أن تساير العمر حتى نهايته، وإلا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار . . ليس لدى الآن إلا قليل من الجنيهات غير حلى زوجى . .

وصفق طالبا كأسا ثالثة ثم قال بإشفاق :

ـ والأدهى من ذلك أن زوجى تقيأت فى الأسبوع الماضى . .

فقال عباس متظاهرا بالاهتمام :

ـ لا بأس عليها .

ـ لا بأس ولا زفت ، هذه أمارات الحبل ، كما تقول أمى ، وكأن الجنين غثت نفسه تقززا من الحياة التى تنتظره فأعدى أمه .

ولم يطق عباس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته ولهوجته ، ولم يعد يهتم بذلك ، وانتابته كآبة فجائية بعد أن نعم ساعة بالراحة ، ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء :

ـ مالك؟ . . إنك لا تصغى إلى . .

فقال عباس بصوت حزين :

ـ اطلب لى كأسا أخرى . .

وحقق حسين مشيئته بسرور ، ورنا إليه بنظر مريب ثم قال :

ـ أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك . .

فخفق فؤاد الشاب وقال بعجلة :

ـ لا شئ مطلقا . هات ما عندك إنى مصغ إليك . .

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

ـ حميـــدة . .

فاشتد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كأسا ثالثة ، فهاج دمه وسرى إليه الوجد والحزن والغضب ، فقال بصوت متهدج :

ـ أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل ، عار وشقاء!

ـ لا تحزن كثيرا كالحمقى ، وهل طابت حياة من لم تفر عنهم نساؤهم؟! وتناهى الانفعال بالشاب فقال بغير وعى :

ـ ترى ماذا تفعل الآن؟!

فضحك حسين ساخرا وأجابه :

ـ تفعل ما عسى أن تفعله أية امرأة فرت مع رجل . .

ـ أنت تهزأ بألمى .

ـ ألمك سخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها؟ . . مساء الأمس! . . كان ينبغى أن تكون نسيتها الآن . .

وهنا أحدث عوكل ـ الغلام الشريب بائع الجرائد ـ حركة لفتت إليه أنظار الجلوس ، وكان استوفى شربه ومضى ثملا مترنحا حتى إذا بلغ عتبة الحانة . نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الوراء فى عظمة وسلطنة وصاح بلسان ملتو :

ـ أنا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال، أسكر وأنبسط، وها أنا ذاهب إلى عشيقتى، فهل لأحد منكم اعتراض؟ . . أهرام، مصرى، البعكوكة . .

واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك، أما حسين كرشة فقد عبس غاضبا، لاح الشر فى عينيه، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذى كان به الغلام، وأخذ يسب ويلعن كانت أقل إثارة من تحد ـ وهو على سبيل المزاح ـ كافية لإشعال غضبه وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه، ولو كان الغلام بمتناول يده للكمه أو ركله أو أخذ بتلابيبه. والتفت إلى عباس ـ وكان يتجرع كأسه الثانية ـ وقال بحده وكأنه نسى ما كانا آخذين فيه من أسباب الحديث:

ـ هذه حياة وليست لعبة خشبية، يجب أن نعيش، . . . ألا تفهم؟

ولم ينتبه عباس إليه، كان يخاطب نفسه قائلا: «لن تعود حميدة، اختفت من حياتى إلى الأبد، وماذا تجدى عودتها؟، ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يوما، هذا أشد من القتل. أما ذلك الأفندى فالويل له منى، سأدق عنقه . . ».

واستدرك حسين قائلا:

ـ هجرت المدق فأعادنى الشيطان إليه، سأضرم به النار، هذه خير وسيلة للتحرر منه . .

فقال عباس بأسى:

ـ زقاقنا لطيف، وما طمعت يوما فى أكثر من حياة طيبة فيه . .

ـ إنك خروف! وحلال أن تنحر فى عيد الأضحى. علام تبكى؟ إنك عامل وفى جيبك نقود، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا وفيرا فلماذا تشكو؟

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء:

ـ إنك أكثر منى شكوى، وعمرك ما حمدت الله . .

فحدجه الشاب بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلا بلين:

ـ لا عليك من هذا، لكم دينكم ولى دين . .

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب برأسه:

ـ خير لى أن أشتغل خمارا من أن أشتغل مكان أبى فى القهوة، الربح هنا موفور، وفضلا عن هذا فالخمر مبذولة للخمار بغير حساب . .

فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذرا فى مخاطبة صاحبه الديناميتى، وكان دبيب الخمر يسرى فى أعصابه، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه. وصاح حسين مرة أخرى:

فكرة رائعة! . . سأتجنس بالجنسية الإنجليزية، فى بلاد الإنجليز الكل سواسية، لا فرق بين الباشا وابن الزبال. فلا يبعد أن يصير ابن القهوجى رئيس وزارة . .

وانبعثت نشوة مباغتة فى دم الحلو فقال بحماس:

ـ فكرة طيبة! . . سأتجنس أيضا بالجنسية الإنجليزية . .

ولكن حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية:

ـ مستحيل، أنت خرع، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية، ومهما يكن من أمر فنسافر على سفينة واحدة . . قم بنا.

ونهضا واقفين، وأديا حسابهما، وغادرا الحانة والحلو يتساءل:

ـ أين نذهب الآن؟

٣١

لعل الساعة الوحيدة التى داومت عليها من حياتها الغابرة هى انطلاقها إلى الخارج فى الأصيل من كل يوم. ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرآة المصقولة، أصلها ثابت فى الحوض الذهبى وفرعها سامق فى سماء الغرفة. وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها، فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت فى أحضان النضارة، ونمت وترعرعت فى مطارف الجاه والنعيم. على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة فى تقوس كالخوذة، عقص تحتها شعرها المدهون العبق، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفتن للجنود الحلفاء وأحب إليهم، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة مفصلة تهدف إلى عل أطرافها الحريرية، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر، هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين، سلسلتان من البلاتين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين، غير ساعة ذهبية فى معصمها وهلال منغرس فى مقدم العمامة. فستان أبيض يشف أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخذيها، جورب رمادى من الحرير الخالص لبسته لا لشىء إلا غلو ثمنه، وقد تطاير شذا عبق من تحت إبطيها وراحتيها وعنقها. فلشد ما تغير كل شىء!

* * *

ولقد اختارت سبيلها من بادئ الأمر بمحض إرادتها، وبعد تجربة وعناء، تكشف لها

أفقه عن أفراح وضاءة وخيبة مريرة، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متلهفة . .

علمت من أول يوم ما يريد بها، فثارت غاضبة هائجة، لا لتكسر إرادة عشيقها الحديدية، ولكن استسلاما لداعى عجرفتها وإشباعا لغريزتها المتعطشة للعراك، ثم أذعنت بعد ذلك وكأنها تذعن بمحض مشيئتها. وأدركت بوضوح وبفضل بلاغة فرج إبراهيم، أنها لكى تتمرغ فى التبر ينبغى أن تتمرغ فى التراب، فلم تبال شيئا، وفتحت صدرها للحياة الجديدة بحماس وسرور وهمة، حتى صدق عليها عشيقها يوم وصلها بالتاكس إلى حيها من أنها «عاهرة بالفطرة!» وتجلت مواهبها فبرعت فى فترة قصيرة فى أصول الزينة والتبهرج وإن سخروا أول الأمر من سوء ذوقها، فكانت سريعة التعلم محسنة للتقليد، ولكنها سيئة الاختيار لألوان ثيابها وفى ميلها إلى الحلى تبذل ملموس. ولو كان ترك الأمر على ما تشتهى وتحب لتبدت وكأنها «عالمة» فى زواقها الفاقع وحليها التى تكاد تغطى جسمها. وفيما عدا ذلك فقد تعلمت الرقص بنوعيه، ودلت على مهارة فى تعلم المبادئ الجنسية للغة الإنجليزية. ولم يكن النجاح الذى جاءها يجر أذياله بمستغرب، فتهافت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود، وانتظمت فى سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير. وبدا لها أنها فازت بكل شىء، وأنها لم تخسر شيئا، فلم تكن فى عهدها الأول بالساذجة فتأسى للخدعة التى أطاحت بها، ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حسرات على ما فقد من أمل فى الحياة الطيبة، ولم تكن بالفاضلة حقا فتبكى على شرفها المثلوم، ولم تشدها إلى ذلك الماضى ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت فى حاضرها المحبوب لا تلوى على شىء. وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتى يضطربن فى مضمارها. فمنهن جماعة يتطاحن فى قلوبهن الأسى والطمع والشقاء واليأس. ومنهن بائسات يشقين ليقمن أود أسرات جائعات. ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاههن المصبوغة قلوبا دامية، ونفوسا حنانة إلى الحياة الفاضلة أما هى فقد طابت بحياتها نفسا، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح، ألم تتحقق أحلامها؟ بلى، الثياب والحلى والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك، ناهيك بهذه السطوة السحرية التى دان لها المعجبون. . أفمن الغريب بعد ذلك أن يلوح المدق كما يلوح السجن للآبق الطليق؟ ولقد ذكرت يوما كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها. وتساءلت: أكانت تفضل حقا أن تتزوجه؟ وجاءها الجواب بالنفى بلا تردد. ولو تحقق ذاك الزواج لكانت الآن قابعة فى بيت، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التى تدرى الآن عن تجربة ويقين أنها لم تخلق لها. فلله ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره! ومع ذلك أقول حذار! . . إياك أن تتصورها امرأة شهوانية، تستحوذ عليها شهوة طاغية. هى أبعد ما

تكون عن ذلك! والحق أن شذوذها لا يكمن فى قوة شهوتها. لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتى تستأثرهن الشهوة وتستذلهن فيجدن بكل غال فى سبيل إرضائها، كانت تتلهف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك، وكانت - حتى بين ذراعى الرجل الذى محضته الحب - تتلمس أنامل الحب خلل اللكمات والصفعات، وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ فى عواطفها، أو هذا النقص فى طبيعتها، وكان ذلك من دواعى تماديها واستهتارها، بيد أنه كان ذلك من أسباب تعلقها بعشيقها، وعن هذا التعلق نجمت الخيبة المريرة التى منيت بها.

* * *

كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهى ماثلة أمام المرآة تأخذ زينتها، ثم طرق أذنيها وقع خطاه - ذلك الرجل - رأت صورته فى المرآة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن ذاك العاشق الولهان، فتحجر بصرها وتشنج قلبها. ولم يعد الرجل الذى عرفته من قبل، وهذه هى الخيبة المريرة ولو طال به العهد لربما هان الخطب بعض الشىء، ولكنه دهمها فى نشوة الأيام الأولى، فلم تنعم بحبه خالصا فى لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل، إلا زهاء عشرة أيام! ثم غلب المدرب فيه على العاشق، ومضى يتكشف رويدا عن التاجر، ذلك الرجل القاسى الفظ الذى يتجر بالأعراض. والواقع أن قلبه لم يعرف الحب قط، ولعله من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التى لم تحرك فؤاده أبدا. كانت طريقته إذا أوقع فريسة فى شباكه أن يمثل معها دور العاشق - وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته - حتى إذا استنامت إليه تمتع بها فترة قصيرة، ومن ثم يطمئن إلى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلق به وما يكبلها به من قيود مالية، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون!.. فإذا تم له سعيه بدا على حقيقته، وتمخض العاشق عن تاجر الأعراض، ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجو المشبع بأنفاس النساء الذى يعيش فيه، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذى نغص عليها صفوها، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب. واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعا وهى تنظر إلى صورته التى تطالعها على صفحة المرآة، فتحجر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها. أما هو فقال بلهجة سريعة متظاهرا بالعجلة:

- أنتهيت يا عزيزتى..؟

ولكنها لم تعبأ به، وتعمدت ألا تجيبه استكراها لما يبدى من ملاحظات عن «العمل» وتذكرت بحسرة عهدا لم يكن يحدثها إلا عن الحب والإعجاب، الآن لا تنفرج شفتاه إلا عن العمل أو الربح.. والآن لا تستطيع عنه فكاكا بحكم هذا العمل، وبطغيان عواطفها نفسها. وإن الغضب ليملأ صدرها، ولكن ماذا يجدى هذا الغضب؟!.. لقد فقدت

حريتها التى استباحت فى سبيلها كل منكر. وإنها ليداخلها شعور بالقوة والسيادة مادامت فى الطريق أو الحانة، حتى إذا رأته أو ذكرته حل محل هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذل. ولو اطمأنت إلى قلبه لهان كل عسير، فذل الحب فى أعماقه ظفر، أما والحال غير ذلك فما تدرى إلا الجنون مهربا من حيرتها، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج فى صدرها، ولكنه كان يريدها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطعية المرتقبة. ولو كانت امرأة أخرى لهان عليه هجرها بغير عناء، ولكنه آثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة نقطة، واستوصى بالصبر والأناة شهرا طويلا، حتى بات متأهبا للضربة الحاسمة، قال بلهجته العارية عن العاطفة:

- هيا يا عزيزتى فالوقت من ذهب.

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدة:

- هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة؟!

- هلا أقلعت أنت يا عزيزتى عن الإجابات الجافة؟

فتهدج صوتها غضبا وهى تقول:

- أهكذا يحلو لك أن تخاطبنى الآن؟!

فتظاهر بالملل وقال:

- أوه.. أنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث الممجوج؟! «تخاطبنى بهذه اللهجة«..» أنت لا تحبنى«..» لو كنت تحبنى لما اعتبرتنى مجرد سلعة!».. ما جدوى هذا الكلام؟.. ألا أكون عاشقا إلا إذا رددت صباح مساء أنا عاشق؟.. ألا أكون محبا إلا إذا بادرتك كلما التقينا «أحبك»؟.. ألا يكون حب إذا شغلنا بحديث الحب عن عملنا وواجبنا؟.. أحب أن يكون عقلك كبيرا كغضبك، وأن تكرسى حياتك - كما أكرس حياتى - لعملنا العظيم، وأن تجعليه فوق الحب نفسه وفوق كل شىء..

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب. هذا كلام بارد فاتر، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة ولقد بلت مثل الكلام من قبل، وكادت تألفه مذ آنست منه الفتور. وإنها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمدا، فكان يفحص يديها بعناية، ويحثها على المزيد من الاهتمام بهما قائلا: «أطيلى أظافرك واصبغيها بالمنيكور.. يداك نقطة ضعف فى جمالك!» وقال لها مرة أخرى متشفيا وقد طال بينهما الجدل: «حذار، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل، صوتك يا عزيزتى.. ازعقى إذا شئت من الفم لا من الحنجرة، فهذا صوت خشن فظ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع، ولعله أن يذكر السامع بالمدق ولو كنت فى عماد الدين!» هكذا تكلم الفاجر!.. لشد ما آلمها قوله وأذل قلبها الفخور. وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب، ولكنه

بكرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة، وربما قال لها فى ملل «الحب لعب ونحن جادون!». أو قال بغير مبالاة «هلمى إلى العمل . . الحب كلام فارغ» تبا له، لشد ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة! . . وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة:

ـ كلامك هذا لا يجوز على، لماذا تذكرنى دائما بالعمل؟ ألاهية عنه أنا؟! إنك لتعلم أنى أفوق الأخريات وأبرع عليهن، وإنك لتربح من كدى أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات، فاهجر هذا الحديث المعاد الممجوج، وخبرنى صراحة فقد ضقت باللف والدوران. أما زلت تحبنى؟!

وحدثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع! ألم يمهد له بما فيه الكفاية؟ . . ونشط فكره فى سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان عن وجهها الغاضب، ولكنه تردد وآثر السلامة ولو إلى حين، فقال يداريها:

ـ عدنا كما توقعت إلى الحديث القديم . .

فانفجرت صارخة:

ـ أجبنى صراحة. أحسبتنى أموت أسى لو حرمتنى من نعمة حبك؟ ليس الوقت مناسبا. لعله لو جابهته بهذا السؤال على إثر إيابها من الخارج، أو فى الصباح ـ حين يتسع الوقت للملاحاة والشجار ـ لكان أجابها كما يشاء، أما الآن فالجواب الصريح حرى بإضاعة ثمرة اليوم هباء فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء:

ـ أحبك يا عزيزتى . .

أقبح بكلمة الحب إذا ندت عن فم مملول، كالبصقة! استحوذ عليها القهر، وشعرت فى قهرها بأنها لا تتأبى عن هوان وإن جل لو ضمن أن يعيده إلى أحضانه! وأحست لحظة أن حبه مطلب تهون من أجله الحياة، ولكنها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها، ثم امتلأ قلبها ضغينة، فاقتربت منه خطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب فى عمامتها، وقالت مصممة على أن تشق طريق التحدى حتى نهايته:

ـ تحبنى حقا؟ إذن فلنتزوج.

ونطقت عيناه بالدهشة، ونظر إليها بين مصدق ومكذب، ولم تكن تعنى ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره، فقال لها:

ـ وهل يغير الزواج من أمرنا شيئا؟

ـ أجل. لنتزوج، ولنهجر هذه الحياة.

ونفد صبره، وتولدت فى صدره عزمة صادقة، أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة، وأن يحقق ما جال بخاطره طويلا ولو ضاعت ثمرة الليلة، وقهقه ضاحكا فى غيظ وسخرية وقال هزئا:

ـ نعم الرأى! أحسنت يا عزيزتى، نتزوج ونعيش كما يعيش الشرفاء. إبراهيم فرج وحرمه وأبناؤهما ليمتد! ولكن خبرينى ما هو الزواج؟ لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعا، أو دعينى أتذكر قليلا.. زواج؟!. شىء خطير فيما أذكر يتضمن رجلا وامرأة ومأذونا ووثيقة دينية وطقوسا كثيرة،.. متى عرفت هذا كله يا إبراهيم؟.. فى الكُتّاب أو المدرسة؟! ولكن لا أدرى أما تزال هذه العادة متبعة أم قد أقلع الناس عنها!.. خبرينى يا عزيزتى ألا يزال الناس يتزوجون؟

وارتعشت أطرافها غضبا، وأفعم قلبها يأسا وغما، ونظرت إليه فإذا به مبتسما هازئا سادرا فجن جنونها وارتمت عليه ناشبة أظافرها فى عنقه؛ ولم تفجؤه حركتها المباغتة فتلقاها بسكينة، وقبض على ساعديها وفرج بينهما ثم تخلص منها والابتسامة الهازئة لا تفارق شفتيه، فاشتد حنقها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكل ما أوتيت من قوة وعصبية. وغاضت ابتسامته ولاحت فى عينيه نظرة وعيد وشر، فردت عليها بنظرة جريئة متحدية، وانتظرت شبوب العاصفة بجزع وتلهف، وكادت تنسى أسباب آلامها فى لذة العراك المرتقبة، ومنتها أحلامها الهستيرية بختام سعيد لهذا النضال البهيمى. ولكنه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب، ولا يغيب عنه أن دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذى يروم نقضه، ويزيد من تعلقها به، فضبط نفسه، وكبح جماح غضبه، وصمم على أن يكاشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع، فتراجع خطوة، وانتقل آفلا وهو يقول بهدوء:

ـ هلمى إلى العمل يا عزيزتى..

ولم تكد تصدق عينيها، وألقت على الباب الذى غيبه نظرة ساهمة رتق بها القنوط. وأدركت سر تقهقره بغريزتها فاستشف قلبها الحقيقة المفجعة. وتقلقل صدرها برغبة حارة مباغتة فى قتله! انفجرت فى صدرها بقوة آسرة لا كأمنية الضعيف الحاقد، ولكن رغبة فتاكة شعرت بأنها فى نطاق طاقتها. لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل وها هو يتم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعا. ولكن أيرضيها حقا أن تبيع الحياة من أجل الفتك به؟ إنها استهانت بكل شىء فى سبيل الحياة، أما الاستهانة بالحياة نفسها..؟! وانقبض صدرها، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور، وبقيت رغبتها فى الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها. ينبغى أن تغادر البيت أولا، وفى الخارج مهرب من جحيم الفكر، ومجالا للأناة والتدبير. وسارت متثاقلة صوب الباب، فدارت على عقبيها كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع. تنزع قلبها فى صدرها فى تلك اللحظة الفاصلة، رباه.. كيف انتهى كل شىء بهذه السرعة؟!.. هذه المرآة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغى إلى إرشاداته بين العناق والقبل، وهذا الخوان يحمل

صورتهما معا فى ثياب السهرة! ثم ولت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة. وفى الطريق لفحها الهواء الدافئ فتنسمته فى إعياء، وأخذت فى سبيلها وهى تقول لنفسها «لن أعدم طريقة للفتك به!» كم يكون هذا شافيا على شرط ألا تدفع حياتها ثمنا له، لم تخلق الحياة للتضحية، الحياة فوق كل شىء، بل فوق الحب نفسه. حقا بات الحب ندبا عميقا فى سويداء قلبها، ولكنها ليست المرأة التى يفنيها الحب، بها جرح عميق، ولكن الجريح يعيش وهو ينزف، بل يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك. هكذا لاقت خيبتها ورأت عربة فأشارت إلى الحوذى وركبت، واستشعرت بحاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له:

- إلى ميدان الأوبرا أولا، ثم عد من شارع فؤاد الأول. واحدة واحدة من فضلك.

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الوراء، واضعة رجلا على رجل، فانحسر الفستان الحريرى عن بطن فخذيها، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر، وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بشغف غير عابئة بالأنظار التى تتخاطف ما انجلى من لحمها..

وغرقت فى خضم الفكر. هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه، ومع ذلك فهيهات أن تسترخى يدها القابضة على حبل الحياة. وتعزت بآمال كثيرة ومسرات مرتقبة، ولكن لم يجر لها فى خاطر أنها قد تستجد حبا ينسيها هذا الحب الخائب لأنها كانت حاقدة على الحب، ولأن الإنسان - إذ يفقد جوهرة الحب اللامعة - لا يتصور أنه سيسعد بالعثور عليها مرة أخرى. وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور فى محيط الأوبرا، ولمحت فى دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة، فطار الخيال بها إلى الموسكى والسكة الجديدة والصنادقية والمدق، ولاحت لعينيها أخلاط أطياف نساء ورجالا، وتساءلت: ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء إذا رآها فى هذا الزى؟.. أيستطيع أحدهم أن يستشف حميدة وراء تيتى؟! وماذا تبالى؟! لا أب لها ولا أم! ونفخت دخان سيجارتها فى استهانة ورمت بالعقب. وأخذت تتسلى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة إلى شارع شريف، واتجهت نحو الحانة التى تقصدها، وفى تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفا «حميدة» فالتفتت نحوه وقد تملكها الذعر، فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهثا..

٣٢

وهتفت وهى لا تدرى:

- عبـاس..

كان الفتى يلهث مبهورا بعد أن ركض شوطا كبيرا وراء العربة من ميدان الأوبرا، وقد اندفع لا يلوى على شىء، يصطدم بالكتل البشرية، لا يعتاقه ما ناله من دفع، ولا يثنيه ما لحقه من شتم ولعن. وكان قبل ذلك يسير متأبطا ذراع حسين كرشة، يتخبطان على غير هدى ـ عقب مغادرتهما لحانة فيتا ـ حتى انتهى بهما التخبط إلى ميدان الأوبرا، فالتقى بصر حسين بالعربة التى تحمل حميدة، ورأى الجالسة بداخلها، فلم يعرفها وأرعش حاجبيه استحسانا وهو يلفت صاحبه إليها. ونظر عباس إلى العربة المقبلة عليهما فى طوافهما بالميدان، وعلق بصره بالفتاة الغائبة فى أفكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه، جذبهما بقوة سحرية شىء فى الوجه، وفى القوام، شىء كالشبه، أو هو شبه رقيق يحسه القلب قبل أن تحسه العينان، وتمشت فى مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيا، وهتف القلب: «هى؟»، وكانت العربة قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية، فلم يأل عدوا وراءها بلا تدبر ولا تفكير وصاحبه يزعق وراءه معربدا صاخبا، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأول ولكن عينيه لم تتحولا عن العربة، ثم استأنف العدو جاهدا لا تكاد تسعفه قدرته إلا قليلا، حتى أدركها وهى توشك أن تدخل الحانة فناداها. ولما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشك باليقين، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه فوقف حيالها لاهثا مبهورا لا يدرى كيف يصدق عينيه. وغلبتها الدهشة والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال، ثم شعرت بحرج موقفها وأشفقت من فضول المتسكعين، فتمالكت مشاعرها. وأشارت إليه ومضت فى عجلة إلى عطفة سابقة للحانة ـ وهو يتبعها ـ ودخلت أول باب إلى يسارها وكان حانوت أزهار، وحيتها بائعة الزهور ـ التى عرفتها بحكم ترددها على المكان ـ فردت تحيتها وسارت به إلى نهاية الحانوت متحامية مواقع الأنظار. وأدركت بائعة الزهور أنها تريد أن تختلى بصاحبها فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأن أحدا لم يقتحم عليها حانوتها. وقفا وجها لوجه، يلفه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثرا. ما الذى دعاه إلى هذا العدو القاتل؟! ماذا يروم من هذا اللقاء المغتصب؟! وجد نفسه فى تلك اللحظة عريا من كل رأى أو عزم. ولقد كانت ذكريات الشر الذى هصر آماله ـ فى أثناء عدوه ـ تذر على عينيه غبارا فتكاد تحجب عنه الطريق، ولكنه لم يبيت رأيا أو يستجد عزما، فركض ركضا آليا لا يتبين له غاية، حتى إذا هتفت باسمه فقد البقية من وعيه وتبعها إلى الحانوت كالسائر فى نومه. وأخذ يفيق رويدا رويدا من الإعياء والجهد والانفعال، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة متلمسا عبثا أن يجد فيها موضعا للفتاة التى أحبها، فارتد البصر كليلا، وتجرع قلبه غصص اليأس المرير. لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى، ولقد أجبرته الشائعات فى المدق على تصديق أمر فظيع، ولكن الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة

الماثلة لعينيه وامتلأ قلبه المقهور شعورا بتفاهة الحياة وعبثها، بيد أن غضبه الذى أصلاه نارا حامية فى ليله ونهاره، لم ينفجر، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتى البصق عليها. وجعلت حميدة تنظر إليه فى ارتباك وحيرة، واستشعر قلبها خوفا حيال هذا الأثر من الماضى الذى تتحاماه، ولكنه لم يحرك بها عطفا أو ندما، بل استشار ازدراءها ومقتها فلعنت فى سرها شؤم الحظ الذى رمى به فى طريقها. واشتد الصمت على أعصابها، ولم يعد فى الوسع احتماله، فقال الحلو بصوت مبحوح متهدج:

- حميدة! أهذا أنت؟! رباه كيف أصدق عينى؟!.. كيف هجرت بيتك وأمك وانقلبت إلى هذه الحال؟!

وأجابته فى ارتباك غير خاف:

- لا تسألنى عن شيء، فليس عندى ما أقوله، وهذا قضاء الله الذى لا يرد.

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر. فاستفزا غضبه وأثارا حنقه، فعلا صوته مزمجرا حتى ملأ الحانوت:

- كاذبة فاجرة.. أغواك فاجر مثلك ففررت معه. وتركت وراءك فى حيك أسوأ الذكرى، وها هو الفجر السافر يطالعنى فى وجهك وتبرجك الفاضح..

واستفز هذا الغضب المفاجئ شراستها الطبيعية فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف، وضاعفها ما احتملته فى يومها من حنق وخيبة، فاربد وجهها وصرخت فى جنون:

- صه.. لا تزعق كالمجانين، أحسبت أنك تخوفنى بصراخك؟! ماذا تريد منى يا هذا؟. لا حق لك على فاغرب عن وجهى..

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها! قهر غضبها غضبه فأماته فى صدره وكأنه كان يشعله الماء وتطفئه النار. وحملق فى وجهها ذاهلا وغمغم بصوت مرتعش النبرات:

- كيف سولت لك نفسك أن تقولى هذا القول؟.. ألست.. ألم تكونى خطيبتى؟

وتشفت بهزيمته، وارتاحت إلى غضبتها التى أسعفتها فى الوقت المناسب وقالت بتململ:

- أى فائدة تجنى من ذكر الماضى الآن؟! لقد مضى وانقضى.. فقال متحيرا متوجعا:

- أجل مضى وانقضى، ولكنى فى حيرة من أمرى وأمرك، ألم تقبلى يدى؟.. ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معا؟!

لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج، وتساءلت فى جزع: متى يمسك عن هذا؟ متى يفهم؟ متى يرحل؟ ثم قالت بلهجة لا تخلو من برم:

- أردت شيئا وأرادت الأقدار سواه..

ولم يغب عنه تململها ولكنه بات أشد تشبثا بالكلام والاستفسار، واستمد من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس:

- ماذا صنعت بنفسك؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود؟.. أى شؤم أعمى بصيرتك؟.. ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذى خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك فى مزبلة الدعارة؟

واكفهر وجهها، وتناهى بها الجزع، وقالت بلهجة تشى بالملل:

- هذه حياتى، هذه النهاية التى لا مهرب منها، نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صاحبه، لم يعد بوسعى الرجوع، ولن تستطيع مهما قلت أن تغير من الواقع شيئا، وحذار أن تغلظ لى القول فلست على حال أملك معها السماحة أو العفو، وإنى لأقر بعجزى حيال حظى ومصيرى، ولكنى لا أحتمل أن يضاعف لى إنسان الكرب بالغضب والزجر. انسنى، واحتقرنى كما تشاء، واتركنى بسلام..

ما هذه بفتاته، أين منها حميدة التى أحبها وأحبته؟ يا عجبا! ألم تحبه حقا؟ ألم تلصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلم؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعده باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء؟.. فمن تكون هذه الفتاة؟؟ ألا تستشعر ندما؟ ألم تلنها إثارة من حنان قديم؟ وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا إشفاقه من غضبها، فتنهد تنهد المغيظ المقهور وقال:

- إنك تحيريننى، وكلما أصغيت إليك تضاعفت حيرتى، لقد عدت بالأمس من التل الكبير فدهمنى الخبر الأسود على غرة، أتعلمين ماذا دعانى لهذه العودة؟!.. (وأبرز علبة القلادة وأراها إياها).. عدت بهذه هدية لك، وكان فى نيتى أن أعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد..

وألقت على العلبة نظرة صامتة. وفى أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال الماسى والقرط اللؤلؤى فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه، وتناهى به الضيق فسألها بحدة:

- ألا تأسفين على هذه النهاية؟!

ولمعت عيناها بخاطر غامض بث فى نفسها يقظة محمومة، فقالت بلهجة حزن مصطنعة:

- أنت لا تدرى كم أنى شقية.

فاتسعت عيناه فى دهشة وريبة، وقال بألم بالغ:

- يا للشقاء يا حميدة!.. لماذا أصخت لنداء الشيطان؟.. كيف هانت عليك حياتك الشريفة؟.. كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا تحشرج صوته)... مجرم آثم وشيطان رجيم؟!.. هذه جريمة لا تغتفر..

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلهم أفكارها، فقالت بلهجتها الأسيفة الجديدة:

- إنى أؤدى ثمنها من لحمى ودمى . .

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح غامض سرورا بالشقاء المزعوم الذى اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حدتها اعتباطا ، كانت أفكارها تتوارد بسرعة جنونية فى إلهام شيطانى ، وخطر لها أن تحرضه على الرجل الذى هرس قلبها بقسوة وسخرية ، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهى بمأمن من عوادى الشقاء . ورقت نظرة عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

- لست إلا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى فقد أفقدنى الشقاء وعيى . إنكم جميعا تروننى عاهرة فاجرة . والحق أنى شقية بائسة ، خدعنى الشيطان الرجيم كما دعوته بحق ، لا أدرى كيف أذعنت إليه ، ومع ذلك فلست أنتحل لنفسى عذرا ، ولا أطمع أن أسألك العفو ، فإنى أعلم أنى مذنبة ، وهأنذا أدفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبى الذى أهاجته كلماتك العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة ، واشمت بى فلست فى حاضرى إلا ألعوبة رخيصة فى يد من لا يرحم ، يطلقنى فى الطرق ويستغل شقائى بعد أن استلبنى أعز ما أملك . إنى أمقته ، أمقته بكل ما فى من شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولكن هيهات أن أجد لى منه مهربا . .

أذهله حديثها الشاكى عن نفسه ، وراعته نظرة الشقاء تغشى عينيها ، فنسى المرأة المتنمرة التى كادت تفتك به منذ برهة قصيرة ، وأهابت به رجولته أن يغضب ، فزمجر صائحا :

- يا للشقاء يا حميدة ، إنك شقية ، وإنى شقى ، كلانا شقى بفعل هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد ، ولكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ ، إذا بالمجرم الأول مطمئن سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت الحياة إذا أنا لم أحطم رأسه!

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها قبل أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه إلى شباكها فوق مطمعها ، وارتاحت بصفة خاصة إلى قوله : «هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد» فأمن قلبها أن يجرجره الانفعال إلى حد العفو عنها ، والسعى لاستردادها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما كانت تحلم بهذا كله . أما الحلو فاستدرك يقول عابسا راغبا :

- لا ارتاح لى بال قبل أن أحطم رأسه وأهشم عظمه! أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك فررت معه ، ولا أنهم رأوك تسيرين فى صحبته ، فلا أمل من أن نجتمع مرة أخرى ، لقد فقدت حميدة التى أحببتها إلى الأبد ، ولكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى كلينا ، خبرينى أين أجده؟

فقالت وعقلها فى تفكيره أسرع من لسانها فى نطقه :

ـ لا سبيل لك عليه اليوم، ولكن تعال يوم الأحد ظهرا إذا شئت فتجده في الحانة عند أول هذه العطفة، ولن تجد مصريا سواه فيها، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعيني . . ولكن ماذا تنوى أن تفعل به؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الإشفاق عليه من العواقب، ولكنه أجاب في جنون الغضب واليأس قائلا :

ـ سأحطم رأس القواد الوضيع . .

وتساءلت وعيناها تتفرسان في وجهه : أيستطيع الحلو أن يقتل؟!

ولم يغب الجواب عن فراستها، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه إلى يد القانون، فتنتقم منه وتخلص من أسره. وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبر أو نقد، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة في ألا يصيب الحلو شر فادح من مخاطرته، وتمنت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحية لفعله! . . ولذلك قالت تحذره :

ـ لا تبلغن بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك! اضربه . . افضحه . . جره إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه . .

ولكنه لم يكن يصغي إليها، وكان يقول وكأنه كان يخاطب نفسه :

ـ لا يصح أن نشقى بلا ثمن. انتهت حميدة، وانتهى عباس، فكيف يروح القواد آمنا ضاحكا من تعاستنا؟ لأدقن عنقه ولأكتمن أنفاسه، (ثم علا صوته موجها إليها الخطاب) : وأنت ياحميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نحيت عن سبيلك هذا الشيطان؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدى إليه هذا السؤال، وأشفقت من أن يتطرق إلى مسارب نفسه ضعفه القديم، فقالت بحزم وهدوء :

ـ أنقطع ما بيني وبين العالم القديم، ولكني سأبيع ما عندى من حلى وأجد لنفسي عملا شريفا في مكان بعيد . .

وصمت صمتا طويلا متفكرا محزونا، فعانت في صمته من القلق ألوانا، حتى طامن من رأسه، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ لا يستطيع قلبي أن يعفو . . لا يستطيع، لا يستطيع . . ولكن لا تعجلي بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهي هذا الأمر . .

ووجد في لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام، فلمعت عيناها في حذر وقلق، وآثرت في أعماق قلبها الثائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحا ذراعيه، بيد أنها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور بخلدها، ولن يشق عليها الاختفاء إذا شاءته، وإذا تم لها الانتقام الذي تتلهف عليه فما أيسر أن تشد الرحال إلى الإسكندرية التي حدثها عنها إبراهيم فرج كثيرا، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب في حرية

لا يحدها قيد، وفى أمن من المتطفلين، ولذلك لم تجد بأسا فى أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة:

ـ لك ما تشاء يا عباس . .

وكان قلبه يعانى مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام، ولكنه ما انفك ينبض بالحيرة والعطف . .

٣٢

كان يوم وداع وسرور، فدبت فى قلوب الزقاق عاطفة واحدة، ذلك أن للسيد رضوان الحسينى منزلة رفيعة فى القلوب جميعا على السواء. كان السيد قد استخار الله فى أداء فريضة الحج هذا العام فأخاره، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس فى طريقه إلى الأراضى المقدسة. وامتلأ بيته بالمودعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء . . وحفوا به فى الحجرة القديمة الوديعة التى طالما أصغت جدرانها إلى سمرهم الورع اللطيف عاما بعد عام. واستفاض حديث الحج، وثارت ذكرياته، ولهجت بها الألسن فى أركان الغرفة حول خط متموج من دخان البخور يتصاعد من المجمرة، ورووا نتفا من أخبار الحج شملت المعاصرين والغابرين، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة. ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آى الذكر الحكيم، ثم أنصتوا جميعا إلى فيض من كلام السيد رضوان أفصح به فؤاده عما يكنه من رقة وطيبة . .

وكان أحد الأصفياء قد قال له:

ـ سفر سعيد وعود حميد . .

فأشرقت فى وجه السيد ابتسامة وضاءة كسته جمالا على جمال، وقال بصوته الحنان:

ـ أخى لا تذكرنى بالعود. إن من يقصد بيت الله وفى قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دعاءه وينفد سعادته. سأذكر العودة حقا إذا فصلت عن مهبط الوحى فى طريقى إلى مصر، وأعنى بها العودة إلى الحج مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان. من لى بمن يقرنى ما تبقى من العمر فى البقاع الطاهرة، أمسى وأصبح فلا أرى أرضا تطامنت يوما للمس أقدام الرسول، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة، ومغانى أصغت للوحى الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات

الخلود، ولا يخفق الفؤاد إلا بحب الله، هنالك الدواء والشفاء. أخى.. أموت شوقا إلى استطلاع أفق مكة، واستجلاء سماوتها، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها، والسير فى مناكبها، والانزواء فى معابدها، وإرواء الغلة من زمزمها، واستقبال الطريق الذى مهده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلثمائة وألف عام ولا يزالون، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوى والصلاة فى الروضة الشريفة، وإن بقلبى من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثه، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوره. أرانى يا إخوان ضاربا فى شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة. كأنما أسمع درسا للذات العلية، أى سرور!.. وأرانى ساجدا فى الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما يتراءى فى المنام، أى سعادة!.. وأرانى متخشعا لقاء المقام مستغفرا فأى طمأنينة! وأرانى واردا زمزم أبل جوارح الشوق بندى الشفاعة فأى سلام! أخى لا تذكرنى بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى..

فقال له صاحبه:

- حقق الله مناك ومتعك بطول العمر والعافية. فضم السيد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول:

- نعم الدعاء، والحق أن حبى الآخرة لا يدفعنى إلى الزهد فى الدنيا أو التململ من الحياة، لطالما لمستم بأنفسكم حبى الحياة والسرور بها، كيف لا وهى من خلق الرحمن؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتفكر ومن شاء فليشكر، ولذلك أحبها، أحب ألوانها وأصواتها، وليلها ونهارها، ومسراتها وآلامها، وإقبالها وأدبارها، وما يدب على ظهرها من حى أو يقيم عليه من جماد، هى خير خالص، وما الشر إلا عجز مرضى عن إدراك الخير فى بعض جوانبه الخافية، فيظن العاجز المريض بدنيا الله الظنون، لذلك أقول لكم إن حب الحياة نصف العبادة وحب الآخرة نصفها الآخر، ولذلك يهولنى ما تنوء به الدنيا من دموع وأنات وسخط وغضب وغل وسخيمة، وما تبتلى به فوق هذا كله من ذم المرضى العاجزين، أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا؟ أكانوا يحبون لو لم تخرج من العدم؟ أتسول لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهية؟ وما أبرئ نفسى، فلقد ملكنى الحزن مرة على اقتطاع فلذة من كبدى، وتساءلت فى غمرة الحزن والألم: لماذا لم يبق الله على طفلى حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة؟ ثم شاء الله أن يهدينى، فقلت لنفسى: أليس هو - عز وجل - الذى خلقه، فلماذا لا يسترده وقتما يشاء؟! ولو أراد الله له الحياة للبث فى هذه الدنيا حتى يشاء الله، ولكنه استرده لحكمة اقتضتها مشيئته، فهو لا يفعل شيئا إلا لحكمة، والحكمة خير، فقد أراد ربى به وبى خيرا، وسرعان ما غلبنى السرور بإدراك حكمته على حزنى، ولسان قلبى يقول: ربى لقد

وضعتنى موضع البلاء لتختبرنى وها أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان، ملهما حكمتك، «فاللهم شكرا» وسار ديدنى إذا أصابتنى مصيبة أن ألهج من أعماق قلبى بالشكر والرضا، كيف لا والله يخصنى بالامتحان والعناية، وكلما عبرت محنة إلى بر السلام والإيمان ازددت إدراكا لما فى مقاديره من حكمة وما فيها بالتالى من خير، وما تستحق بعد ذلك من شكر وسرور، وهكذا وصلت المصائب ما بينى وبين حكمته على دوام لا ينقطع، حتى خلتنى طفلا مدللا فى ملكوته يقسو على الأزدجر، ويخوفنى بعبوس مصطنع ليضاعف سرورى بالأنس الحقيقى الدائم، وإن الحبيب ليسبر محبوبه بالصد حينا، وإن عرف المحبوب أن الصد مكر محب لا هجر قال، تضاعف حبه وسروره. فما عدوت أن وقر فى اعتقادى أن المصابين فى هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه، خصهم بحب مقتنع، ورصدهم غير بعيد، ليرى إن كانوا حقا أهلا لحبه ورحمته. . فالحمد الله كثيرا، بفضله عزيت من حسبوا أننى أهل للعزاء. .

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنى إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه فى سلطنة الفن، فاستدرك يقول بحرارة ووجد:

- يذهب أناس إلى أن هذه المصائب وأمثالها مما يبتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحكمتها عامة الناس. وتراهم يقولون إنه لو تفكر الأب الثاكل مثلا لوجد أن ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آبائه الأولين، ولكن لعمرى إن الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البرىء بالمذنب. وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنه عزيز ذو انتقام، ولكنى أقول يا سادة إن الله تعالى غنى عن الانتقام، وإنه إنما أضاف هذه الصفة لذاته لينبه الإنسان إلى احتذائها، وقد سبقت إرادته بألا تستقيم أمور هذه الدنيا إلا بالثواب والعقاب، أما ذاته العزيزة الجليلة فسنتها الحكمة الربانية والرحمة الإلهية. ولو أننى اكتشفت تحت مصائبى عقابا أستحقه، أو وجدت وراء جثث أبنائى جزاء أستأهله، لاعتبرت حقا، ولازدجرت حقا، ولكن كان يبقى فى النفس ضنى وفى العين دموع، ربما هتف قلبى المحترق: ضعيف أذنب وبرىء هلك، فكيف العفو والرحمة؟! فأين هذا من مصيبة تستشف الحكمة والخير والسرور؟!

وأثار رأيه اعترضات كثيرة، فتمسك البعض بالنص، وأول البعض التفسير، ورد آخرون الانتقام إلى الرحمة. وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علما ولكنه لم يكن متهيئا للجدل، وكان متفتحا فحسب للتعبير عما يضطرم فى فؤاده من الحب والسرور، فجعل يبتسم ببراءة الطفل، متورد الوجه متألق العينين، وراح يقول بصوت رققه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين:

- معذرة يا سادة فإنى أحب الحياة، بل أحب نفسى ، لا كذات تتعلق بى ، ولكن كفلذة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الأجل ، وتجربة للحكمة الإلهية ، وأحب الناس جميعا حتى المجرمين الشائهين . أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممض فى سبيل الكمال؟ . . أليسوا ظلمة تلقى عتمتها على بهاء الخير ضياء ، ذرونى أبح لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذى بعثنى إلى الحج هذا العام؟

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجيب نظرات الاستطلاع التى عكستها الأعين :

- لا أنكر أن الحج أمنية طالما نازعنى الفؤاد إليها ، ولكن قضت إرادة الله أن أؤجلها عاما بعد عام ، حتى حسبتنى قد بت أوثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولأشواق العبادات لذة كقضائها . ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، فشد الشيطان على أعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فقادهما إلى قبر ينبشانه وغادرهما فى السجن ، وأما الفتاة فاستدرجها إلى هوية الشهوات وغاص بها فى حمأة الرذيلة . هناك زلزل قلبى زلزالا شديدا تصدعت له أضلعى . ولا أكتمكم يا سادة أن شعورا بالذنب داخلنى لأن أحد الرجلين كان يقتات على الفتات ، وقد نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها ، كالكلب الضال يلتقط رزقه من أكوام الزبالة . فلشد ما ذكرنى جوعه بجسمى المكتنز ووجهى المتورد ، حتى استحوذ على الخجل وغلبنى استعبار : وقلت لنفسى معنفا متقززا : ماذا فعلت - وقد أتانى الله خيرا كثيرا - لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه ، ألم أترك الشيطان يعبث بأهل جيرتى وأنا ذاهل عنه بسرورى وطمأنينتى؟ ألا يكون الإنسان الطيب بتقاعده عونا للشيطان من حيث لا يدرى؟ . . واستصرخنى الضمير المعذب أن ألبى النداء القديم ، وأن أشد الرحال إلى أرض التوبة مستغفرا ، حتى إذا شاء الله لى أن أعود عدت بقلب طاهر ، وجعلت من قلبى ولسانى ويدى أعوانا للخير فى مملكة الله الواسعة . .

ودعا له الإخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث فى سرور وحبور .

* * *

وأبى السيد رضوان بعد أن ودع بيته إلا أن يزور قهوة كرشة مودعا فاقتعد مجلسه محوطا بالمعلم «كرشة» وعم كامل والشيخ درويش وعباس الحلو وحسين كرشة . وجاءت المعلمة حسنية الفرانة فقبلت يده وحملته السلام أمانة ، وقد قال لهم السيد :

- الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلا ، يؤديها عن نفسه وعمن يقعد بهم الأعذار من الصادقين . فقال له عم كامل بصوت الأطفال :

ـ صحبتك السلامة فى الحل والترحال، عسى ألا تنسى أن تجيئنا بسبحة من المدينة المنورة. .

فابتسم السيد وقال:

ـ لن أكون كمن وهبك كفنا ثم ضحك عليك.

وضحك عم كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عباس الحلو الواجم فأمسك. وقد أثار السيد هذه الذكرى متعمدا ليدخل منها إلى نفس الشاب التعس مدخلا لطيفا، والتفت إليه بحنان وقال:

ـ يا عباس أصغ إلىّ كما ينبغى لشاب شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللطف، عد إلى التل الكبير فى أول فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت. وأعمل بما أوتيت من همة، واقتصد من النقود ما تشق به حياة جديدة إن شاء الله، وإياك وأن تلقى برأسك فى خضم الفكر، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب، ولا تحسبن ما أعترضك من سوء الحظ هو ختام ما قدر لك فى الحياة. إنك بعد شاب فى نهاية الحلقة الثانية من عمرك، وما تلقاه من ألم ليس إلا بعض ما يصيب الإنسان فى حياته، وكأنه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولفهما، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلا خليقا بالرجولة، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتأسى المؤمن. انهض مستوصيا بالصبر متعوذا بالإيمان، واسع إلى رزقك، ولتهنأ بسرور المؤمن إذا أدرك أن الله قد اختاره لمصاف المصابين من أوليائه.

ولم يحر عباس جوابا، ولكنه لما رأى عينى السيد لا تتحولان عنه، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا، وغمغم بلا وعى تقريبا:

ـ سيمضى كل شىء كأن لم يكن.

فابتسم السيد، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول:

ـ أهلا بشاطر زقاقنا! . . سأدعو الله لك الهداية فى أرض مستجابة الدعاء، ولأجدنك إن شاء الله حين عودتى محتلا مكان أبيك كما يريد لك، ونعم ما أراد، وطوبى للمعلم الصغير الجديد.

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقا:

ـ يا سيد رضوان، اذكرنى إذا أحرمت، وذكر أهل البيت بأن محبهم تلف وشغفه الغرام وأنه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حب لا تنفع له غلة، وأشك إليهم خاصة ما يلقى من ست الستات.

* * *

وغادر السيد رضوان القهوة يحف به الصحاب، ولقد لحق به من البيت قريبان اعتزما

السفر معه حتى السويس، ومال السيد إلى الوكالة فوجد السيد سليم علوان مكبا على بعض دفاتره، فابتسم قائلا :

ـ تأذن الرحيل فدعنى أعانقك.

ورفع الرجل وجهه الذابل فى دهشة، وكان علم بميعاد الرحيل دون أن يحرك ساكنا. ولكن السيد رضوان لم يلق بالا إلى إهماله، وكان يعلم من سوء حالته ما يعلم الجميع، فأبى أن يغادر الحى قبل أن يودعه. وكأنما شعر الآخر بخطئه فى هذه اللحظة فاعتراه ارتباك، إلا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبّله ودعا له طويلا، ولبث عنده مليا، ثم قال وهو ينهض قائما :

ـ لندع الله أن نحج معا فى عامنا القادم.

فغمغم السيد سليم وهو لا يعنى ما يقول :

ـ إن شاء الله.

وتعانقا مرة أخرى، ورجع السيد إلى أصحابه، ومضوا جميعا إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محملة بالحقائب، فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريباه، وانحدرت العربة صوب الغورية تتعلق بها الأعين، ثم مالت إلى الأزهر.

٣٤

قال عم كامل لعباس الحلو :

ـ ليس وراء نصح السيد رضوان مذهب لناصح، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر، وسوف أنتظرك طال الزمن أو قصر، وستعود بإذن الله ظافرا وتكون على رأس حلاقى هذا الحى جميعا.

وكان الحلو يجلس على كرسى أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة، ولم يكن باح لأحد بسره الجديد، وقد هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالإفصاح عما يثقل كاهله، ولكنه تردد لحظة فوجه السيد خطابه إلى حسين كرشة، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه. ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها مليا، بيد أن يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب فى حانوت الورد ليلة ونهار، فقلب وجوه الفكر فى هدوء وأناة وعرف فى النهاية أنه لا يزال يحب الفتاة، وإن كانت أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد، وأن رغبته فى الانتقام من غريمه لا تقاوم، وقد أنصت إلى كلام عم كامل صامتا، ثم تنهد فى الأعماق،

تنهد إنسان تعس كبلته الأقدار بأغلال الشقاء، ووضعته على شفا جرف هار من الدمار.
وسأله عم كامل بقلق:

- خبرني عما اعتزمت؟!

فنهض الشاب قائما وهو يقول:

- سأمكث هنا بضعة أيام أخر، على الأقل حتى يوم الأحد، ثم أتوكل على الله.

فقال عم كامل في إشفاق:

- ليس السلوان بالمطلب العسير إذا نشدته صادقا.

فقال الشاب وهو يغادر موضعه:

- صدقت!.. السلام عليكم.

ومضى وفي نيته أن يقصد حانة فيتا، حيث يظن أن حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيد رضوان مباشرة، وظل فكره فريسة للأفكار القلقة، وقلبه نهبا للعواطف المضطرمة. إنه ينتظر يوم الأحد، وما يوم الأحد ببعيد، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين؟! أيمضي إلى الموعد حاملا خنجرا ليغمده في قلب غريمه؟ لعل هذا ما يتحرق إليه بكل ما يمتلئ به قلبه من غضب وحقد وشقاء، ولكن هل يسعه ارتكاب الجريمة؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة؟! وهز رأسه في شك وكمد وحقد. إنه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام، وهذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسالمة، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد؟! وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله المشورة والعون، بل العون قبل سواه، لأنه يبدو عاجزا بغير هذا العون. وفي هذه الحال من الإقرار بالعجز عاودته نصيحة السيد رضوان الحسيني «.. عد إلى التل الكبير في أول فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت،.. إياك وأن تلقى برأسك في خضم الفكر أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب..» استحضر كلام السيد الذي أوشك أن ينساه، أجل، لماذا لا يطوي الماضي بأحزانه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل؟ لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به؟ لماذا يعرض حياته لأهوال أخفها السجن؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأي حاسم، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذي يستبد بشعوره، ولعله خاف العدول عنه لأن في هذا العدول قطعا حاسما لهذا الخيط الواهي الذي وصله بحميدة أمس، وقد أبى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف، وقال وكرر القول - بداع وبلا داع - أن أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد، ولكن هذا الإلحاح في القول نفسه أخفى رغبة - لعله لم يدرها في استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلا لتعلقه بالمرأة التي يحبها ولا يطيق هجرها. وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا. وكان

حسين كرشة بمجلسه يكرع من النبيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه، فمضى إليه وحياه تحية مقتضبة، وقال برجاء حار:

- حسبك ما شربت فإنى أريدك لأمر هام.. هلم معى.

ورفع حسين حاجبيه منكرا، وكأنما كبر عليه أن يعكر القادم صفوه، ولكن عباس - وقد أذهله الهم عن وعيه - أمسك بذراعه وشده حتى أقامه وهو يقول:

- إنى فى مسيس الحاجة إليك.

فنفخ الشاب مستاء، ودفع ما عليه، وغادر الحانة برفقة صاحبه، وقد أصر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته. ولما صار فى الموسكى قال وكأنما يزيح كابوسا عن صدره:

- وجدت حميدة يا حسين..

فلاح الاهتمام فى العينين الصغيرتين وسأله:

- أيـن؟

- ألا تذكر امرأة العربة التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها اليوم دون أن تظفر منى بجواب شاف؟ هى حميدة دون غيرها..

فصاح الشاب بدهشة وسخرية:

- أسكران أنت؟!.. ماذا قلت؟

فقال عباس بلهجة جديدة شديدة التأثر:

- صدقنى فيما قلت، هذه المرأة هى حميدة بلحمها ودمها، وقد عرفتها من أول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت، حتى أدركتها وحادثتها.

فتساءل حسين فى دهشة وإنكار:

- كيف تريدنى على أن أكذب عينى؟!

فتنهد الحلو بأسى، وراح يروى له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفى عنه شيئا، والآخر يصغى إليه باهتمام شديد، حتى ختم حديثه قائلا:

- هذا ما أردت أن أطلعك عليه، ولقد تردت حميدة فى الهاوية ولا نجاة لها، ولكننى لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب.

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار فى تفسيرها، وكان الفتى بطبعه مستهترا قليل الاكتراث، فأفاق من دهشته بأسرع مما قدر صاحبه، ثم قال بازدراء:

- حميدة هى المجرمة الأصلية، ألم تفر معه؟.. ألم تستسلم له؟.. أما هو فماذا نؤاخذه به؟.. فتاة أعجبته فغواها. ووجدها سهلة فنال منها وطره، وأراد أن

يستغلها فسرحها فى الحانات، هذا لعمرى رجل حاذق، وبودى لو أفعل مثله حتى تنجاب عنى هذه الأزمة التى أكابدها. حميدة هى المجرمة يا صاح.

وكان عباس يحسن فهم صاحبه، فلم يداخله شك فى أنه لا يتورع عن شىء مما ارتكبه غريمه، ولذلك تحامى عن حكمة ذم الرجل فى سلوكه أو خلقه، وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال:

ـ ولكن ألا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه؟

ولم يغب عنه قوله «كرامتنا» وأدرك أنه يشير إلى الأخوة التى تربطه بحميدة، وذكر لتوه شقيقته المطروحة فى السجن بسبب فضيحة مماثلة، فاستشاط غضبا وحنقا وزأر صائحا:

ـ هذا شأن لا يعنينى، ولتذهب حميدة إلى الشيطان.

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال، ولو كان لقى ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه، ولكن الحلو خدع بقولته فصدقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب:

ـ ألا يغضبك أن يعتدى رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر؟ أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقا، وأن عمل الرجل فى ذاته لا غبار عليه، ولكن أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشينا يستوجب الانتقام؟!

فصاح حسين بحدة:

ـ أنت أحمق، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم، ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحا. كيف لقيتها يا رطل؟! نازعتها الحديث والشكاة؟! مرحى. مرحى. حييت من رجل همام!.. لماذا لم تقتلها؟.. لو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يدى بالمرأة التى خانتنى لخنقتها بلا تردد، ثم ذبحت عشيقها. واختفيت عن الأنظار،.. هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل.

وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية، فاستدرك مزمجرا:

ـ لست أقول هذا متهربا، فالحق أن هذا الرجل ينبغى أن يدفع ثمن اعتدائه وليدفعنه غاليا، وسنمضى معا فى الموعد المضروب ونوسعه ضربا، ثم نرصده بمظانه ونوالى ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشا من الأعوان، ولا نكف عنه حتى يفتدى بمبلغ كبير من المال، وبذلك ننتقم ونستفيد معا..

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة، وقال بحماس:

ـ نعم الرأى هو. حقا أنت رجل الملمات..!

وسره الثناء، ومضى يفكر فى تنفيذ خطته مدفوعا بغضب لكرامته، وميله الطبيعى إلى العدوان، وطمعه فى الحصول على مبلغ من النقود، ثم غمغم بصوت ملئه النذير «ما يوم الأحد ببعيد!» وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقف عن المسير وهو يقول:

ـ عد بنا إلى حانة فيتا..

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول:

ـ أليس من الأفضل أن نمضى إلى الحانة التى سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك؟

وتردد حسين لحظات، ثم سار معه كما أراد وقد حثا الخطا. وكانت الشمس قد مالت للمغيب، ولم يكد يبقى من نورها إلا ظلال خفيفة، وشمل السماء ذلك الهدوء الحالم الذى تخلد إليه إذا تراءت لها طلائع الظلام. واشتعلت مصابيح الطريق واطرد سبل السابلة لا يعبئون اختلاف الليل والنهار. ودوى سطح الأرض على غير انقطاع، فمن جعجعة الترام إلى أزيز السيارات، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمارات غير همهمة البشر، فكأنهما بخروجهما من المدق إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة. وارتاح عباس الحلو وانقشعت الحيرة التى غشيته طويلا فعرف سبيله بفضل صاحبه الجرىء القوى، أما حميدة فقد ترك أمرها معلقا للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء، ولم يستطع أن يبت فيه برأى، أو أنه أشفق من البت فيه برأى حاسم. وقد خطر له لحظة أن يفاتح صاحبه ببعض خواطره ولكنه ما كاد يختلس إلى وجهه الأسود نظرة حتى غاص الكلام فى حلقه فلم ينبس بكلمة. وواصلا السير حتى بلغا موقف الأمس الذى لا ينسى فلكز عباس صاحبه وهو يقول:

ـ هاك دكان الأزهار الذى حادثتها فيه.

ونظر حسين إلى الدكان الذى يشير إليه صامتا، ثم سأله باهتمام:

ـ وأين الحانة؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم «ها هى ذى»، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينيه الصغيرتين الحادتين، ونظر عباس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمران بها فجذب عينيه منظر غريب. ندت عنه شهقة، وتصلبت عضلات وجهه، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى. رأى حميدة فى جلسة شاذة بين نفر من الجنود، كانت تجلس على كرسى وإلى ورائها جندى واقفا يسقيها خمرا من كأس فى يده، ينحنى عليها قليلا وتميل هى برأسها إليه وقد مدت ساقيها على حجر آخر يجلس قبالتها، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون. بهت الفتى وتسمر فى موقفه، ونسى ما كان علمه من مهنتها، وكأن الخطب يدهمه على غير

علم به، وطمس الدم الفائر بصيرته، فلم يعد يعرف غريما له فى دنياه سواها، واندفع إلى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد:

ـ حميـــدة . .

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى، وحملقت فى وجهه بعينين ملتهبتين، وغلبتها الدهشة ثوانى، ثم ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير:

ـ لا تبق هنا لحظة واحدة . . اغرب عن وجهى . .

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجن جنونه، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد، ووجد أخيرا ما عاناه فى الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقبا فى مرجل نفسه، فانطلق منه صارخا، مصفرا مجنونا، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة، فتناول واحدة وهو لا يدرى ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط، فى سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد، لا من الجنود ولا من عمال الحانة، فأصابت الزجاجة وجهها، وتفجر الدم غزيرا من أنفها وفمها وذقنها، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها. واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات . .

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدى والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعا. وكلما تلقى ضربة هتف صارخا: «يا حسين . . يا حسين»، ولكن الفتى الذى لم ينكص عن خوض معركة فى حياته لبث متسمرا لا يدرى كيف يشق سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين، وتملكه الغضب، واشتعلت بصدره ثورة جائحة، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا أو سكينا. وبقى مقهورا مغلوبا على أمره، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغلولة . . .

٣٥

أضاء الصباح بجنبات الزقاق. وألقت الشمس شعاعا من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق. وغدا سنقر صبى القهوة فملأ دلواً ورش الأرض. وكان المدق يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة، وأهله يستقبلون الصباح بهتافاتهم المحفوظة.

وفى هذه الساعة الباكرة ينشط عم كامل على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية المدرسة الإلزامية ويمتلئ جيبه بالملاليم، وفى مواجهته أكب الحلاق العجوز على المواسى يشحذها، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت، وأقبل العمال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ويخرقون السكون المخيم بجبلتهم التى لا تنقطع طوال النهار، بينما تربع المعلم كرشة وراء صندوق الماركات فى جلسة حالمة يقضم شيئا بثنيتيه ويلوكه فى فمه ثم يعتصره بقدح من القهوة، وقد جلس على كثب منه الشيخ درويش فى صمت وغيبوبة. وفى هذه الساعة الباكرة أيضا تلوح الست سنية عفيفى فى نافذتها، تشيع زوجها الشاب وهو يغادر الزقاق فى طريقه إلى القسم. هكذا تطرد الحياة فى المدق على وتيرة واحدة إلا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتياته أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله، لكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات فى بحيرته الهادئة أو الراكدة، فلا يكاد يأتى المساء حتى يجر النسيان ذيوله على ما جاء به الصباح. أضاء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهر الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة يضرب الأرض بخطوات ثقال، فمضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسى لقاءه، وهو يقول بصوت غليظ دون تحية أو سلام:

ـ قتل عباس الحلو يا أبى..

وكان المعلم قد أوشك أن ينتهره لقضائه الليل خارج البيت، فلم ينبس بكلمة، وحملق فى وجهه بعينين ذاهلتين، ولبث لحظات جامدا ساهما كأنه لم يفهم ما ألقى على سمعه، ثم سأل بانزعاج شديد:

ـ ماذا قلت؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجش:

ـ قتل عباس الحلو! قتله الإنجليز!..

وازدرد الفتى ريقه ثم أعاد على أبيه ما حدثه به عباس وهما يسيران فى الموسكى قبيل مغيب أمس، وقال بصوت حاد مضطرب:

ـ وقد مضى بى ليرينى الحانة التى وعدته إياها الفتاة الشريرة، وإنا لنمر ببابها إذ رأى العاهرة تعربد فى جمع من الجنود، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورماها بزجاجة فى وجهها قبل أن أتنبه لقصده، وهاج الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضربا حتى سقط بينهم لا حراك به.

وكور قبضته وقرض أسنانه قائلا بغضب:

ـ يا للشيطان! ما كان بوسعى أن أخف إلى نجدته!.. حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التى سدت الباب سدا.. آه لو بلغت يدى عنق جندى من أولئك الملاعين..

وكان هذا ما يحز فؤاده حزا، وما يشب فى صدره نار الغضب من غير انقطاع، حتى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفى من الخزى والعار، أما المعلم كرشة فقد ضرب كفا بكف وقال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا فعلتم به؟

ـ جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء، وضربوا حول الحانة حصارا، وما عسى أن يفيد الحصار؟ وحملوا جثته إلى قصر العينى، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف . .

فسأل المعلم باهتمام:

ـ وهل قتلت؟

فأجاب الشاب والحقد يأكل رأسه:

ـ لا أظن . . لا أظن الضربة كانت قاتلة . . ! ضاع الفتى هدرا .

ـ والإنجليز؟

فقال الشاب بلهجة أسيفة:

ـ تركناهم والشرطة تحيط بهم . ولكن من ذا يستطيع أن ينال منهم حقا؟

فضرب المعلم كفا بكف مرة أخرى وقال:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود؟ اذهب إلى خاله عم حسن القباقيبى بالخرنفش وآذنه بموته . والله يفعل ما يريد .

ونهض حسين يغالب تعبه وإعياءه وغادر القهوة . وذاع الخبر، وأعاد المعلم كرشة القصة التى رواها ابنه مرات ومرات على السائلين، فتناقلتها الألسن، وزادت عليها ما شاء لها الهوى، وجاء عم كامل القهوة مترنحا وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على أريكة وراح يبكى بكاء مرا وينتحب كالأطفال، ولا يكاد يصدق أن الفتى ـ الذى أعد له كفنا ـ لم يعد من الأحياء . ونمى الخبر إلى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال بعض من رآها إنها «تبكى على القاتل لا القتيل!» وكان أشد الناس تأثرا السيد سليم علوان، لا حزنا على الفقيد، ولكن فزعا من الموت الذى اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه، فعاودته أفكاره السوداء، وتصوراته المريضة، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التى نهكت أعصابه . واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه، وجعل يروح ويجىء فى الوكالة، أو يخرج إلى الزقاق فيلقى نظرة زائغة على الدكان الذى كان دكان الحلو أعواما طوالا . وكان أعفى نفسه ـ لشدة الحرارة ـ من شرب الماء الدافئ .

فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدفئ له ماء للشرب كما كان يفعل فى الشتاء، وقضى تلك الساعة نهبا للخوف والقلق وبكاء عم كامل يصك مسامعه صكا . .

* * *

واندحت هذه الفقاعة أيضا كسوابقها، واستوصى المدق بفضيلته الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث، وظل كدأبه يبكى صباحا - إذا عرض له البكاء - ويقهقه ضاحكا عند المساء، وفيما بين هذا وذاك تصر الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة أخرى وهى تغلق. ولم يحدث فى هذه الفترة أمر ذو بال. اللهم إلا ما كان من إصرار الست سنية عفيفى على إخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه، وما كان من تطوع عم كامل بنقل أثاثه ومعداته الطبية إلى شقته، وقيل فى تفسير هذا إن عم كامل آثر إشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يألفها، ولم يعاتبه أحد فى ذلك، بل لعلهم عدوها له من المكرمات، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق.

وتحدثوا فى تلك الأيام عن اتصال أم حميدة بابنتها التى دخلت فى طور النقاهة والشفاء، وعما تحلم به المرأة من جنى بعض ثمار هذا الكنز المترع. ثم ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القصابين شقة الدكتور بوشى، وكانت مكونة من القصاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء. قال حسين كرشة عنها: إنها كفلقة القمر. ولكن عندما اقترب موعد عودة الحاج رضوان الحسينى من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر أحد إلا فى هذا اليوم الموعود، وقد علقت الثريات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمل، ومنى الجميع نفسهم بليلة فرح وسرور تدوم ذكرها على الأيام.

ويوما رأى الشيخ درويش عم كامل وهو يمازح الحلاق العجوز، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة:

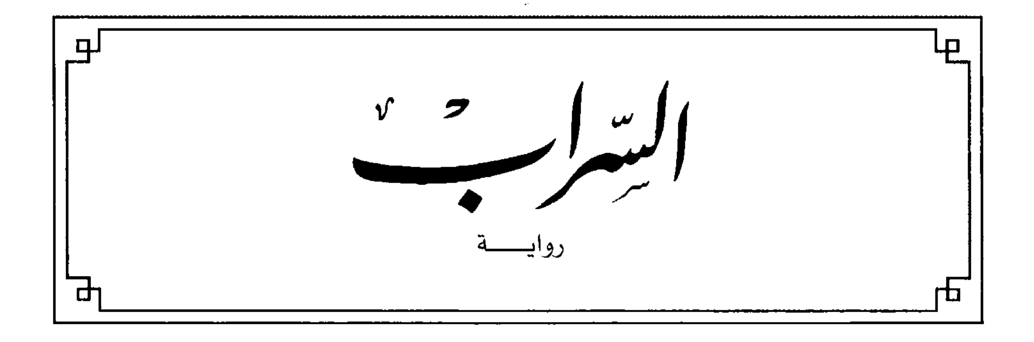
وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فتجهم وجه عم كامل، وانطفأ لونه، واغرورقت عيناه. ولكن الشيخ درويش هز منكبيه استهانة، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف:

من مات عشقا فليمت كمدا لا خير فى عشق بلا موت

ثم وحوح متنهدا واستدرك قائلا:

- يا ست الستات.. يا قاضية الحاجات.. الرحمة.. الرحمة يا آل البيت، والله لأصبرن ما حييت، أليس لكل شىء نهاية؟ بلى لكل شىء نهاية.. ومعناه بالإنجليزية end وتهجيتها e n d.



١

إنى أعجب لما يدعونى للقلم، فالكتابة فن لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنه فيما عدا الواجبات المدرسية على عهد صباى، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتى، فإننى لم أكتب شيئا على الإطلاق. والأعجب من هذا أنى لا أذكر أنى سودت خطابا أو رسالة طوال الدهر الذى عشته فى الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان. والحق أن ـ الرسالة ـ كالكلام ـ رمز للحياة الاجتماعية، وعنوان للوشائج التى تصل ما بين الناس فى هذه الحياة، ولست من ذلك كله فى شىء. ألسنا نشذب الأشجار فنبتر ما أعوج من أغصانها وفروعها؟ فلماذا نبقى على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس؟! لماذا نتسامح بل نهمل فنفرضهم على الحياة فرضا أو نفرض الحياة عليهم كرها؟ لهذا يسعون فى الأرض غرباء مذعورين، وقد بلغ الذعر منهم أحيانا أن يخبطوا على وجوههم كالمحمومين فيدوسوا بأقدامهم المتعثرة ضحايا أبرياء.

أقول مرة أخرى إننى لا أذكر أننى كتبت كتابة تستحق هذا الوصف. كذلك طالما أعيانى الحديث وأعجزنى، فكنت إذا اضطررت إلى كلام تلعثمت وأدركنى العى والحصر، ولم يكن الإعياء فى قوة النطق أو الكتابة، إنه أجل من ذلك وأخطر وإن العى والحصر والعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين. ولذلك حق لى أن أتساءل عما يدفعنى الآن إلى الكتابة. وليس الأمر قاصرا على رسالة تدون، إنه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس، وإنى لأعجب لما يستفزنى من نشاط لم أعهده، وحماس لم آلفه، حتى ليخيل إلى أنى سأواصل الكتابة دون تردد أو تعب، فى الليل والنهار، وبعزيمة لا تعرف الخور، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمرى إلى الصمت والكتمان، ألم تظفر الأسرار من صدرى بقبر مغلق تستكن فيه وتموت؟ فما سر هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنبش قبرا تراكم عليه ثرى الإخفاء! لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هى الحقيقة. إن الذين يكتبون هم فى العادة من لا يحيون، ولا يعنى هذا أنى كنت أحيا من قبل، ولكننى لم أكن آلو أن أرنو لأمل بسام أستضىء بنوره، وقد خمد هذا النور.

ولست أكتب لإنسان، فليس من شأن المرضى بالخجل أن يطلعوا إنسانا على ذوات نفوسهم، ولكنى أكتب لنفسى، ونفسى فحسب، فطالما داريت همساتها حتى ضللت حقيقتها، وبت فى أشد الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس فى صدق وصراحة وقسوة، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور. أما محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق أن النسيان خرافة بارعة وحسبى ما كابدت من خرافات. ولعل فى شروعى فى الكتابة آية على أننى قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائيا، وما كان الانتحار بالجزاء الذى لا يستحقه إنسان قضى على نفسين، بل هو دون ما يستحق بكثير، ولكن ما حيلتى والحياة لا تتورع عن وسيلة فى سبيل الدفاع عن نفسها؟ ولو كان الماضى قطعة من المكان المحسوس لوليت عنه فرارا، ولكنه يتبعنى كظلى، ويكون حيثما أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجها لوجه بعين غير مختلجة، وقلب ثابت، ومهما يكن من أمر فالموت أهون من الخوف من الموت. وإنه لعمل فيه سحر، تستحيل به هذه الصحائف نفسا خالصة بغير حجاب. ولست أدعى العلم، فما ناصبت شيئا العداء كالعلم، وإنى لغبى كسول، ولكنى عانيت تجارب مرة زلزلتنى زلزالا، وليس كالتجارب كاشف عن مطاوى النفوس. إنى لأتلهف على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضع أصبعى على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام، ولعلى بذلك أتفادى نهاية محزنة، وأنجو من آلام لا قبل لى بها، وأتلمس فى الظلماء سبيلا. لست فى الواقع إلا ضحية، ولا أقول ذلك تخفيفا من ذنبى، ولا تهربا من تبعتى، ولكنه حق وصدق، فالحق أنى ضحية، إلا أننى ضحية ذات ضحيتين. وأشد ما يحز فى نفسى أن إحدى الضحيتين هى أمى! أفظع بها من حقيقة لا تصدق. كيف أنسيت أنها سر حياتى وسعادتى، وأننى لا أحتمل الحياة بدونها! ولكنى كنت أحيا على حافة عالم الجنون، وهكذا فقدت كل شىء، ووجدت نفسى فى خلاء مظلم مخيف. إنى رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنى سأبعث حيا فى اليوم الموعود، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله - إذا تجردت أمام الله بما فى يمينى وبما فى شمالى - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التى عانيتها فى دنياى. أروم بعثا جديدا حقا، ويومذاك تصبح آلامى لا شىء يطويها الفناء إلى الأبد، فيمكننى لقاء أحبائى بقلب صاف ونفس نقية طاهرة.

كانت أمى وحياتى شيئا واحدا، وقد ختمت حياة أمى فى هذه الدنيا، ولكنها لا تزال كامنة فى أعماق حياتى، مستمرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجها من وجوه حياتى حتى يتراءى لى وجهها الجميل الحنون، فهى دائما أبدا وراء آمالى وآلامى، ووراء حبى وكراهيتى، أسعدتنى فوق ما أطمع، وأشقتنى فوق ما أتصور، وكأنى لم أحب أكثر منها، وكأنى لم أكره أكثر منها فهى حياتى جميعا، وهل وراء الحب والكراهية من شىء فى حياة الإنسان؟! فلأعترف بأنى أكتب لأذكرها هى، ولأستعيد حياتها هى، بذلك تعود الحياة كلها. وبذلك أصل ما انقطع من حبل حياتى، لعل الأمل أن يتجدد فى

النجاة. يبدو لى كل شىء الساعة غامضا متواريا، كأن الشيطان يذر فى عينى رمادا، ولكن مهلا إنى أتلمس سبيلى فى صبر وأناة، ورائدى أمل الغريق فى النجاة، ومن ورائى نية صادقة فى تجديد حياتى وبعثها خلقا جديدا، ولئن شق على الطريق أو تولانى القنوط، أو خذلنى حيائى، فلن يبقى أمامى إلا الموت.

٢

ما جزاء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا واراه التراب؟ أن نفر من ذكراه كما نفر من الموت نفسه! ولعل فى هذا حكمة غالية، ولكن أنانيتنا تأبى إلا أن تضفى على هذه الحكمة أسفا حانقا مضحكا. ولقد فررت من بيتنا موليا كل شىء ظهرى كالخائف المذعور، ثم مضيت أثوب إلى رشدى فى هدوء نسبى، وأدرك هول الخطب الذى نزل بى، ففاض بى حنين موجع، وفزعت يداى إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كل ما بقى منها، ألا وهى صورة!

هى صورة كبيرة يظهر فيها جدى جالسا على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، فى بذلته العسكرية المحلاة بالنياشين، وأقف أنا عند ركبتيه لا أكاد أجاوزهما إلا قليلا، أتطلع إلى عدسة المصور بعينين باسمتين وقد التصقت شفتاى فى توتر من يغالب ضحكة تغالبه. ووقفت أمى إلى يمين جدى معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسى الكبير، فى فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحسر من ساعديها إلا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حالمة تقطر حنانا وتخلو من بريق ينم عن الحيوية وحدة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرره فى وجهى حتى لقد قيل إنه لا يفرق بيننا إلا الثياب! هذه صورة تطل على من عالم الذكريات. ولقد ثبت عينى الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلا حتى لم أعد أرى شيئا سواه. كبرت قسماته فى عينى حتى خلتنى روحا صغيرا يعيش فى أحضانها، واشتد ما يحيط بى من صمت فتهيأ لى أن هذا الفم المطبق سيفتر باسما ويسمعنى من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد. إن الصورة شىء عجيب فكيف غابت عنى هذه الحقيقة؟ هذه أمى بجسمها وروحها، هذه أمى بعينيها وأنفها وفمها، وهذا الصدر الحنون الذى التصقت به عمرى. رباه.. كيف أقتنع بأنها رحلت عن الدنيا حقا؟! أجل إن الصورة شىء عجيب، ويبدو لى الآن أن كل شىء عجيب فى هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهى التى تقتل روح العجب والإعجاب فينا. كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين فى كل حين، بيد أنى أراها

الآن شيئا جديدا، أطالع في صفحتها حياة عميقة كأن نفحة من الروح الطليق قد استكنت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إن هذه الصورة حية بلا ريب، ولن أسترد بصري منها ولو جننت. عكفت عليها طويلا، ثم تملكتني رغبة قوية في تخيل حياة صاحبتها في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيلتها طفلة تحبو، وصبية تلهو بعرائسها. ألا ليتها خلفت لي صورا أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثم تخيلت عهد الشباب الرطيب، وهي غادة حسناء ترنو بطرفها الساجي إلى الأمل والسرور وتلهو بلذة الفتوة المشبوبة، لقد عاصرت عهده الحلو، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معالمه وولت آثاره. غشيه الظلام كأنني لم أرتع حضنه وأرضع ثديه. وكنت إذا تخيلته فيما مضى من أيامي تخيلته في حيرة وقلق، وساءلت نفسي في خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحار تلك الرغبات الجامحة التي تستأثر الشباب؟! ولعل عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأول. فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أمي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها، فاقتربت منها في خفة تحدوني شطارة الغلمان المدللين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها المبسوطة، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها! وبادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها، ولكني أمسكت بها في عناد، وحملقت فيها بدهشة، فرأيت شابا جالسا وأمي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلقت عيناي بصورة الرجل فأدركت أنه أبي، وإن كنت أراه أول مرة، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفا وكراهية، وارتعشت يداي، واتسعت عيناي انزعاجا، ثم لم أدر إلا ويداي تمزقانها إربا، ومدت لي يدا تحاول استنقاذها، ولكني تغلبت عليها في حنق وهياج، فلبثت صامتة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف. وكأنني لم أقنع بما فعلت فتصديت لها غاضبا وسألتها بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين؟!

فبسطت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت:

- يا لك من طفل مشاكس!.. ألا ترى أني آسف على صورة شبابي؟.. لقد مزقت صورة أمك وأنت لا تدري.

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودني في فترات متباعدة فتحز في نفسي، وتملأني حيرة وقلقا، فأمضي متسائلا عما دعاها حقا إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها؟ ثم أحاول أن أنفذ بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فأنقلب متفكرا مغتما.

هكذا فقدت صورة الشباب الأول، وإنني لآسف على فقدانها - الآن - أسفا خالصا، ولكن أليس ذلك أسفا مضحكا بعد أن امتدت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها؟!

٣

ولم أكن الحظ العاثر الوحيد الذى ابتليت به حياتها. روت لى يوما قصة زواجها، فى حذر وحرص شديدين، خاصة وهى تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكرها فى عجلة واقتضاب وتحرج، وكأنها فى أعماقها تخشانى، أو كأنها أشفقت منى أن تخفف لطافة الذكرى من حدة كراهيتى لأبى.

على جسر إسماعيل رآها أبى أول مرة! وكان «الحانطور» ينطلق بأمى وجدى فى بعض الأصائل للتنزه والفرجة، ففى مرة مر بهما «حانطور» يتربع بصدره شاب مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصح بما ينتظره من ثراء، فوقع بصره على وجهها، وسرعان ما وجه عربته فى أعقابها حتى بيتنا فى المنيل. وكانا كلما غادرا البيت صادفاه فى الطريق وكأنه ينتظر. ولم أدع هذا الفصل من القصة يمر بى دون ملاحظة، فسألتها عن الغزل فى تلك الأيام وكيف كان، وتلقت سؤالى بريبة وحذر، ولكنى ما زلت بها حتى استنامت إلى، فاستسلمت لرقة الذكريات. وقالت إنه كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربه الغزير الأسود، بيد أنه لم يتعد حدود الأدب قط. وتفكرت مليا، وتهت فى بيداء الخيال الحالم، فعانيت أحاسيس الدهشة والحيرة والضيق، ثم رفعت إليها عينى - ولم يكن لنا من سلوى فى تلك الأيام إلا مواصلة الحديث - وسألتها مبتسما عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزلية. ولم يخف عنها ما فى سؤالى من خبث فتضاحكت، وكانت إذا ضحكت اهتز جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنظر فيما أمامها دون أن تلوى على شىء، وتظل على حالها كأنها تمثال ذو برقع أبيض! وداخلنى شك، وقلت إنى أسألها عن الباطن لا الظاهر. عن القلب لا الوجه، ونازعتنى النفس إلى مصارحتها بما يدور فى خلدى، ولكن خانتنى الشجاعة، وعقلنى الحياء، ولو رجعت إلى قلبى لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذاك، يجرى بهما دم واحد، ويسجعان عن خفقان واحد، فهل أنسى أنى وقفت كثيرا كمثل التمثال والقلب شعلة نار؟!

وتقدم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتى ذلك الوقت، ولكنه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدى بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته، سر بالخطبة سرورا لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق. وقيل له إنه جاهل جهل العوام، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنه بلا عمل، فقال وما

حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنه شاب ذو أهواء جامحة وإنه سكير عربيد، فقال إنه يعلم أنه شاب وليس براهب. ولم يكن جدى طماعا جشعا، ولكنه كان يروم السعادة لابنته. ويحسب أن المال كفيل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التى تود مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلا عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كريمته حرما لرؤبة لاظ أو رؤبة بك لاظ كما كان يدعى، وظن جدى أنه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه أصغر كريمتيه. ولكن ما كاد ينقضى أسبوعان على ليلة الزفاف حتى عادت أمى إلى بيت جدى دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدى إنزعاجا شديدا، ولم يكد يصدق عينيه، ثم علم أن الشاب قد عاود سيرته الماضية فى الحانات ولما يمض الأسبوع الأول من زواجه، وأنه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنه أوسعها ضربا فى ذلك اليوم الذى غادرت فيه قصره. واستفظع جدى الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحدب على ابنتيه حدبا عظيما، فغضب غضبا شديدا، ومضى لتوه إلى قصر لاظ، وصب جام غضبه على الشاب وأبيه معا، ولبثت أمى فى بيت جدى حتى وضعت أختى الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انقطع من حياة الزوجية، وكلل مسعاهم بالنجاح فرجعت أمى وطفلتها إلى قصر لاظ مرة أخرى. وامتد مكثها به شهرين، ثم نفد صبرها فهجرته إلى بيت جدى مهيضة الجناح. والحق أنها لم تذق الراحة إلا أياما معدودات، ولكنها تصبرت وتجلدت عسى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلا فسادا، ولم تعد ترى فيه إلا سكيرا عربيدا لا يرعى لشىء حرمة، فأيست منه، ولاذت ببيت أبيها، وسعى الرجل إلى استردادها، مقرا بإدمانه الشراب، محاولا إقناع جدى بأنه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجية مع إدمان الشرب، ولكن جدى وقف منه موقفا صلبا فطلقها، ومرت أشهر فوضعت أمى أخى الأوسط، وعاشت فى كنف أبيها متمتعة بعطفه وحنانه. ثم ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤبة لاظ تقول إن الفتى الطائش قد حاول فى ساعة نزق وجزع أن يدس السم لأبيه متعجلا حظه من الميراث، ولكن الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطباخ، فطرد ابنه من قصره، ووقف نصف ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعله لم يشأ أن يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يوغر صدر ابنه الشرير عليه فيعرضه بذلك لأذاه. . واستيقظ رؤبة لاظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبى، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلا ربع وقف ورثه فى ذلك الوقت عن أمه - وهى غير أم أخيه - يقارب الأربعين جنيها شهريا. وبيتا ذا طابقين فى الحلمية انتقل إليه بعد طرده من قصر لاظ. وأثارت تلك الأنباء شجنا فى بيت جدى صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدين الصغيرين، فقد تضاءلت نفقتهما، وتجهم مستقبلهما.

وتشاور جدى وجدتى وأمى فى الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأى إلى أن يقابل جدى لاظ الكبير، وأن يستعطف قلبه للوليدين البريئين حتى يغير وصيته لصالحهما، ومضى جدى إلى قصر لاظ، وحادث الرجل فيما جاء من أجله، ولكنه وجد منه قلبا قاسيا وأذنا صماء، ولعن بمحضره الابن وذريته، فعاد جدى محزونًا ثائرا.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاظ بك فى نفس العام الذى سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختى راضية الثامنة، وبلغ أخى مدحت السابعة أو نحو ذلك. وفى ذلك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادئ. وشاءت الأقدار أن يتم ذاك التغير بحادثة تافهة مما يعرض فى الطريق، إذ كان جدى يغادر ناديا للقمار بشارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرا من السوقة يلتفون بأفندى ويوسعونه ضربا وهو يتخبط بينهم هائجا مترنحا، فبادرهم هاتفا أن يكفوا عنه، ومضى صوبهم غاضبا، ثم لحق به شرطى على الأثر. وما كاد النفر يتفرقون حتى رأى جدى رؤبة لاظ فى حالة سكر بين وقد سال الدم من أنفه. ودهش جدى وتولاه الارتباك من وقع الدهشة، ولكنه تقدم من الرجل دون تردد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذيوله أو كاد، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالى إرسال النفقة لوليديه على استهتاره وعربدته، فلم يكن بين الرجلين عداء، ودعاه جدى إلى «حانطوره» فأطاع، وأمر جدى السائق بالذهاب إلى الحلمية، وخيم عليهما فى الطريق صمت عجيب، فلم ينبس أحدهما بكلمة، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدى لينزل، ولكنه أمسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته. واعتذر جدى بتأخر الوقت ولكن الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملا مخمورا فأذعن جدى على رغمه، فمضيا معا إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب فى الظلماء. وارتمى رؤبة لاظ على مقعد وجذب جدى فأجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلت الخمر والانفعال عقدته «أرأيت الأوباش كيف انهالوا على لكما وصفعا؟!.. أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتى، وأنا رؤبة بن لاظ، ربيب القصر العتيق؟! هذه هى الدنيا يا عماه.. وما بالى أدعوك بعمى؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تعد أنت الخمسين إلا بقليل، فما أحرانى أن أدعوك بأخى، ولكنى أدعوك عمى احتراما وإجلالا، فإنك بمنزلة أبى.. أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجل، لا تؤاخذنى بما أنطق من لفظ، واللفظ شىء تافه، أما ركلى بأقدام الأوباش فشىء خطير، أليس كذلك؟! لقد مات أبى غاضبا على، ويقولون إنه لا يظفر بالسعادة من حرم رضاء الوالدين، أحقا هذا يا عماه؟! حتى ولو كان أحد الوالدين أبى؟! رباه، لقد سئمت هذه الحياة، إنها حمى وهذيان وجنون متواصل، لشد ما تتوق نفسى إلى الهدوء والطمأنينة، أليس هذا هو الندم؟! أمدد إلى يدك يا عماه، ولنقسمن

معا بهذا الفجر الطالع أن نبدأ حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور، رد إلى زوجى وطفلى وأسكنى أسرتى.. هلم.. واشتد إحمرار عينيه حتى ظنه جدى باكيا، ولم يجد بدا من أن يطيب خاطره. وعندما انطلق به الحنطور صوب المنيل وقد تحرك سطح الأرض رويدا بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه فى ارتياح، وتفكر فى الأمر مليا، وكان يود أن يرى ابنته سيدة لبيت يخصها. وفى نفس الشهر ردت أمى إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلا أسبوعين! بل لعلها لم تدم إلا يوما واحدا، وتحملت أمى بقيتها صابرة متصبرة حتى أقضها الإشفاق على طفليها من شر السكير العربيد، فحملتهما وفرت إلى جدى المسكين. وثار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لتوه إلى التائب الزائف وانهال عليه تعنيفا وتقريعا وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتا، ثم قال له إن زوجه هى الملومة لأنها لا تود العيش معه وإنه لا ذنب له إلا أنه يسكر! وغادره جدى يائسا وبيده شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجية إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة!

وقد سمعت جدى يمازحنى يوما فيقول لى: «لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحماقتى أنا دون سواى». ولكن ما أكثر الذين جاءوا هذه الدنيا فى أعقاب الحماقات. ونشأت فى بيت جدى، فلم أعرف بيتا سواه، بل لم أعرف من الأهل غير جدى وأمى، لأنى حين أخذت أعى ما حولى كان أبى قد استرد أخى وأختى، وكانت جدتى قد ماتت. ولم أعرف أن لى أبا إلا بلسان أمى، وحديثها المفعم مرارة وحزنا، فنمت كراهيتى له على الأيام. وقد أتم الرجل قسوته عليها فلم يكتف باسترداد ابنه وابنته، ولكنه حال بينهما وبين رؤية أمهما، فمرت الأعوام تلو الأعوام وهى لا ترى لهما أثرا. وترامت الأخبار إلينا تقول إن الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كله، فارا من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهارا ولا ليلا.

٤

كان بيت جدى بالمنيل مولدى وملعبى ودنياى. وكان يتكون من دورين كبيرين نقيم فى الأعلى منهما، وله فناء صغير. لست أريد التحدث عن البيت، ولكنى أتلهف على استعادة الماضى، وما من ماض إلا وله بيت تحوم حوله ذكرياته، إن حياتى لا تنفصل عن ذاك البيت أبدا، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة، ولكنه برج ثابت فى الزمان يأوى إليه حمام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلأنقب فى غيابات الماضى عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسى من موجات

الذكريات، إنى أغمض عينى متواريا عن عالم المحسوس، كى أهيئ لروحى سكينة تنطلق فيها إلى الماضى الخالد. ولأعترف أنى شديد الحنين إلى الماضى، وقد بت فى هذه الفترة الأخيرة أشد ما أكون حنانا إليه، ولعل ذلك منى ليس إلا توقا صريحا إلى الطفولة، وإنى لأدرك ما فى هذا الحنين والتوق من خطورة هى سر دائى الأسيف فى الحياة، ومع أننى عشت حياتى متطلعا إلى ذلك الماضى - راضيا أو ساخطا - شديد الشعور بما يشدنى إليه من رباط وثيق، إلا أننى أقف عاجزا حيال سجفه الكثيفة، ترتد ذاكرتى حسيرة عن أرق عهوده وأخطرها. هأنا أغمض عينى فى تشوف وتساؤل، فيعشو بصرى إلى نور خافت، أرى يدى الصغيرة وهى تمتد إلى القمر من على كتف أمى. يا لها من ذكرى! ولكم تمتد أيدينا إلى أقمار ليست دون ذلك القمر منالا، وتعاودنى ذكرى جهد مضن بذلته كى أزدرد حلمة الثدى فيصدنى شيء مر مذاقه. وشارب جدى الهلالى وأناملى تشده فى سرور لا مزيد عليه. وتحطيم أصص الزهور، وكيف هوت إحداها مرة من حافة الشرفة على ذراع البواب النوبى فكادت تكسرها. وكان من عادتى ألا أستسلم للنوم حتى أمتطى منكب أمى فتذهب بى وتجيء بطول البيت وعرضه، وكلما توانت حثثتها بقدمى. وكنت أرفل دائما فى فساتين البنات، وشعرى مسدل حتى المنكبين. وقد بدا لأمى يوما أن تهيئ لى بذلة عسكرية محلاة بالنجوم والنياشين، فارتديتها مسرورا، وقطعت البيت فى عجب وخيلاء، ضابطا عظيما ذا ضفيرة تتهادى على ظهره! ولم يكن جدى يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط. ولكنه لم يجد من رقته متسعا للإشراف على تربيتى، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادى القمار إلا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمى لسوء طالعها، ولأنه لم يبق له فى شيخوخته سواها. عشنا ثلاثتنا وليس للأب إلا ابنته وليس للأم إلا ابنها، وكانت أمى تهفو لذكريات أختى وأخى بعين دامعة وفؤاد كسير، وتتلهف على رؤيتهما ولو ساعة واحدة، ولم تجد فى حزنها من عزاء سواى، فأودعتنى حضنها، لا تحب أن أبرحه، وتود لو أجعل منه مرتعى ومراحى ودنياى جميعا. وهفت نسائم الحياة رخاء، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنه كان حنانا شاذا قد جاوز حده، ومن الحنان ما يهلك. كانت مصابة فى صميم أمومتها فوجدت فى أنا السلوى والعزاء والشفاء، كرست حياتها جميعا لى، أنام فى حضنها، وأقضى نهارى على كتفها أو بين يديها، وحتى فى الأويقات التى كانت تتعهد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها، أو لم تكن تدعنى أفارقها، وحتى فى المطبخ كنت أمتطى منكبها مفترشا رأسها بخدى متسليا بمشاهدة الطاهى وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل، بل كنا نستحم معا فتحطنى فى طست عاريا، وتجلس أمامى متجردة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدى، ولم نكن نغادر البيت إلا قليلا، فصلتنا بآل أبى مقطوعة، وخالتى كانت تقيم فى ذلك

الوقت بالمنصورة مع زوجها، فإذا خرجت فى النادر لزيارة إحدى الجارات اصطحبتنى معها. على أننا كنا نواظب على زيارة السيدة زينب، ولعلها الزيارة الوحيدة التى كنا ننتظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسيئها شىء مثل أن تثنى على امرأة من معارفها بما يثنى به على الأطفال عادة، فكانت تتطير من الثناء وترقينى من العين فى إشفاق عميق، ومن عجب أنى لا أذكر التعاويذ والرقى باستهانة أو إزدراء، وإنى لمؤمن بها، بل إنى لأومن بكل ما كانت تؤمن به أمى. وقد نلت من الثقافة حظا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقى لى إيمانى القديم سالما غير منقوص، وهيهات أن يتزعزع إيمانى بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة.

بيد أننى لا أستطيع أن أقول إننى استكنت إلى تلك الحياة بلا تململ. ولعلى ضقت بها فى أحايين كثيرة، وتطلعت إلى الحرية والانطلاق. ولعل ضيقى ذاك مضى يزداد بتدرجى فى مدارج النمو، وآى ذلك أنها أقبلت تخوفنى أشياء لا حصر لها لتردنى عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق. ولتحتفظ بى فى حضنها على الدوام. ملأت أذنى بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجان والقتلة واللصوص، حتى خلتنى أسكن عالما حافلا بالشياطين والإرهاب، كل ما به من كائنات خليق بالحذر والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنه لا يزال حيا فى صدرى ودمى، وهو الذى جعل من الخوف جوهرا أصيلا فى نفسى تدور حوله حياتى جميعا، فنغص على صفوى، ورمانى بتعاسة لا تريم، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفرق من الظلام وما يرصدنى من أوهامه، وأتحامى جهدى أن أنفرد بقط، وهيهات أن أنام فى حجرة بمفردى. على أن الخوف كان أعمق فى حياتى من هذه الأشياء التى يتمثل لى فيها، لقد استطال ظله الكثيف حتى أظل الماضى والحاضر والمستقبل، واليقظة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفتها، والصحة والمرض، والحب والكراهية، فلم يترك شيئا خالصا. وقد عشت جل حياتى الماضية غرا جاهلا لا أدرى لتعاستى سببا، ثم جلت لى المحن جوانب من حياتى، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة، بيد أن شعورى بالعجز لا يفارقنى، وهو يستند فى الحق إلى قصور ثقافتى وضعف ثقتى فى قواى العقلية. كانت أمى مبعث هذه الآلام ولكنها كانت الملاذ الوحيد منها، فآويت إليها فى غير حيطة.

ومن ذكريات ذلك العهد التى لا تنسى، موقفنا ـ أنا وأمى ـ على قبر جدتى فى المواسم نكلله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترحمين. وكنا نتحدث كثيرا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون؟ وكيف يستقبلون؟ وماذا يلقون من شدة وحساب؟ وكيف تنزل عليهم الآيات نورا، يذهب وحشتهم ويلطف جفونهم؟ ولما كان القبر قبر أم أمى فقد أحببته حبا جما. وكنت إذا وجدت منها غرة هرعت إلى جانب منه، أنشب فى ثراه أظافرى،

وأحفر فى عجلة لعلى أطلع على ذاك المجهول المنطوى تحت الأرض. ولشد ما كان يحز فى نفسى أن أسمعها تردد «إنا لله وإنا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كل حى» فسألتها مرة فى دهشة:

- سنموت جميعا؟!

فساءها السؤال، وحاولت أن تلهينى عنه، ولكنى وقفت عنده لا أتزحزح فقالت:

- بعد عمر طويل إن شاء الله.

فرمقتها بإشفاق وسألتها مرة أخرى.

- وأنت يا أماه!

فقالت لى وهى تدارى ابتسامة:

- طبعا. سأموت يوما ما.

فوقع قولها من نفسى موقعا أليما وهتفت بها:

- كلا.. كلا.. لن تموتى أبدا.

وربتت على رأسى بحنان وقالت برقة:

- ادع لى بطول العمر، كما أدعو لك يستجيب لك الرحمن الرحيم.

وبسطت كفى الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبى. وعيناى مغرورقتان بالدموع.

٥

أأظل الدهر فى حجرها كأننى عضو من أعضاء جسدها؟! جاوزت الرابعة من عمرى، وجاء سن الرفاق واللعب. ولم يكن لى من مهرب فى البيت إلا الشرفة، وهى تطل على فناء البيت، وتشرف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التى تسكن الدور الأول يلعبون فى الفناء، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوقتين، فيتطلعون أحيانا بأعين قرأت فيها دعوة صامتة اهتزت لها جوانحى، واستأذنت أمى يوما فى الانضمام إليهم، فقالت لى بارتياع: ماذا حدث لعقلك؟.. ألا ترى أنهم لا يكفون عن العراك؟!.. ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟.. أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات؟ بل ماذا تفيد منهم إلا الشقاوة وسوء الأدب؟ أما أنا فأقص عليك القصص، وإذا شئت خرجنا معا لزيارة السيدة. إذا كنت تحبنى حقا فلا تفارقنى.

ولاح فى وجهى التذمر والامتعاض فاستطردت تقول:

ـ لقد حرمت رؤية أختك وأخيك، ولم يبق لى فى الدنيا سواك، وها أنت تود فراقى، سامحك الله.

فتوددت إليها قائلا:

ـ إنى أحبك أكثر من أى شيء فى الدنيا، ولكنى أريد أن ألعب.

ولكنها لم تكن لتذعن لرغبتى تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها بكيت أو ثار بى الغضب ثورة لا أعف فيها عن شد شعورى وتمزيق ثيابى، ولكن شيئا لم يكن ليجعلها تذعن لرغبتى فى الابتعاد عنها. وفيما عدا ذلك لم تدخر وسعا لمرضاتى. كانت تبتاع لى اللعب أشكالا وألوانا. وإذا لمست ضيقى ومللى دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركنى لهوى تحت سمعها وبصرها. بيد أن ذلك كله لم يرو غلتى، فتحينت منها غفلة يوما وانسللت هاربا من الشقة أكاد أخرج من جلدى فرحا، واستقبلنى الأطفال فى الفناء بدهشة وترحاب معا. ومع أنه كان بيننا شبه تعارف إلا أنه لم يسعنى الاقتراب منهم، فوقفت مكانى فى ارتباك وحياء، وسرعان ما أطلت أمى من الشرفة ونادتنى فى حدة الغضب، ولكن أكبر الأطفال تقدم منى، ودعانى إلى اللعب، وهو يقول لى: «لا تبالها!» ولأول مرة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكانى فى سرور لا يوصف، ولم تكد تمر دقائق حتى شجر خلاف بينى وبين أحدهم فلطمنى على وجهى، وذهلت ذهولا شديدا فلعلها كانت أول لطمة تلقيتها فى حياتى، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسنانى، ولم يتردد رفاقه فانهالوا على ضربا وركلا، وتوعدتهم أمى فى غضب شديد، ولكنهم لم يقلعوا عنى حتى هددتهم بقذفهم بالقلة، فغادرونى فى حالة يرثى لها. ودعتنى للصعود إليها، وكنت ألهث والدموع ملء عينى، فقهرنى الحياء وتسمرت قدماى فلم ألب نداءها، ولم أرفع بصرى عن الأرض، ولم أفارق موقفى حتى جاء البواب فحملنى إليها. وغسلت لى وجهى وساقى وهى تقول فى انفعال شديد:

ـ تستاهل.. تستاهل.. هذا جزاء من يخالف رأى أمه، إن الله يغفر كل شيء إلا من يعاند أمه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!

آلمتنى هزيمتى أمامها أضعاف ما آلمنى الضرب، ورحت أؤكد لها كذبا أن الحق كان على، وإنى كنت المعتدى. ومن عجب أن أمى نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس، فلم يألف بيتنا الضيوف إلا فيما ندر. وكان جدى يضيق بعزلتها، ويحثها دائما على المعاشرة لتسرى عن نفسها. ثم شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلت خالتى ضيفة ببيتنا هى وأسرتها! كانت خالتى تقيم مع زوجها ـ مدرس لغة عربية ـ بالمنصورة، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهرا من العطلة الصيفية. وجدت نفسى بين ستة من الأولاد وبنت،

فأفلت الزمام من يد أمى على رغمها. وكان أكبر الأولاد فى العاشرة، وأصغرهم يحبو، فانقلب البيت الهادئ سركا تقفز به القرود والنسانيس، فلعبت ـ ولهوت حتى كدت أجن من الفرح والسرور. لعبنا الجديد والحجلة، والوابور، والاستغماية.

ولما ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدق. وأرادت أمى أن تحول بينى وبين الانطلاق معهم، ولكن خالتى تصدت لها قائلة:

ـ دعيه يلعب مع الأولاد يا أختى!.. لو كان بنتا ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين فى المزاج على تقاربهما فى الشبه. كانت خالتى مفرطة فى السمنة، ميالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدى البيت غنت بصوت لطيف محاكية «منيرة المهدية». أما أمى فتبدو على العكس من هذا كله. فهى نحيفة، منزوية، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة فى الحنان لحد الشذوذ. وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تلفها كآبة شاملة. ولعلها لم ترتح كل الارتياح لإقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر، لا لفتور فى عواطفها نحوها، ولكن لأن أبناءها استأثروا بى من دونها، وأفسدونى عليها. وشكت مرة إلى خالتى ما تخافه على من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

ـ «هل ابنك من لحم ودم وأبنائى من حديد!.. قوى قلبك وتوكلى على الله!». أما أنا فقد نسيت فى سعادتى الشاملة تعاليم أمى جميعا، واستسلمت للسرور شهرا صادف حياتى الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسى فى أحضان اللعب بشراهة ونهم، لا أستشعر تعبا ولا مللا. وفى الليل إذا آوينا إلى البيت كنت أضع عمامة زوج خالتى على رأسى وأحكى لهجته فى الحديث، وأتجشأ كما يتجشأ، وأتمتم عقب ذلك قائلا: «أستغفر الله العظيم» والكل من حولى يضحكون!

كان شهرا كالحلم، ولكن الأحلام لا تدوم، وقد انقضى. ورأيت بعين الحسرة الحقائب وهى تعد وتكوم استعدادا للرحيل. وحم الفراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربة جميعا ومضت، وأنا أودعهم من الشرفة بطرف دامع كسير.

وقالت لى أمى:

ـ كفاك لعبا وجريا فى الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إلى كما كنت لا تفارقنى ولا أفارقك.

وأصغيت إليها فى صمت. كنت أحبها ملء فؤادى ولكنى كنت أهفو كذلك للعب والمرح. وبدا لأمى أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبنى تحت سمعها وبصرها. فكانت رفيقا خيرا من عدمه على أى حال، كانت صبية دميمة، ولكنها كانت

أفضل لى من الطاهى الهرم وأم زينب العجوز. وكانت أمى محافظة على صلاتها، فجعلت أقلدها إذا صلت، ولعلها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقننى مبادئ الدين كما تعرفه. عرفت الدين مبتدئا بالجنة والنار، فانضافت إلى معجم مخاوفى كلمات جديدة، بيد أنها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وإيمان.

٦

وأدت حال أمى تلك معى إلى تأجيل تاريخ التحاقى بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلم حرفا. وتدخل جدى فى الأمر، فدعانى يوما إليه وهو جالس بالشرفة على مقعده الطويل الهزاز، وعرك أذنى مداعبا وقال لى:

- طالما رغبت فى الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فك الله أسرك، وسنأذن لك بالاشتراك معهم فى حياتهم عمرا طويلا، ستدخل المدرسة!

أنصت إليه فى دهشة بادئ الأمر إذا لم أكن أدرى شيئا عن المدرسة، ثم بدا لى أنه سيطلق سراحى فنظرت إلى أمى بين مصدق ومكذب، ولشد ما دهشت حين رأيتها تبسم إلى فى تشجيع واستسلام، فانبعث الحبور فى صدرى فياضا، وهتفت بجدى متسائلا:

- هل ألعب فى المدرسة كالأطفال؟

فهز الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعا.. طبعا.. ستلعب كثيرا وتتعلم كثيرا، ثم تصير فيما بعد ضابطا مثلى.

فسألته فى لهفة:

- متى أذهب؟

فابتسم الرجل قائلا:

- قريبا جدا، سأقيد اسمك غدا.

وفى صباح الغد - وكنا فى مطلع الخريف - ألبسونى بدلة وطربوشا وحذاء جديدا فعاودتنى ذكريات العيد السعيد، ومضى بى جدى إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثانى بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولية الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكون من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضا - جدى بالاحترام والإجلال، ولاطفنى فى محضره برقة، وأطرى نظافتى وجدة ثيابى، فآنست إليه

واستبشرت به خيرا . وتم إثباتى بين تلاميذ المدرسة فى دقائق ، ودفع جدى المصروفات ، وعدنا وهو يقول لى :

ـ أنت الآن تلميذ عظيم ، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم .

وأعلنت أمى عن ارتياحها ، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعتراها من كآبة ، حتى برم بها جدى وقال لها بشىء من الحدة :

ـ ماذا تفعلين غدا إذا بلغ السابعة وأخذه أبوه !

فرمقت جدى بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة :

ـ لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة .

وفى يوم السبت المنتظر أوصلنى جدى إلى المدرسة وعاد من حيث أتى . وقد تعلقت بيده وهو يغادرنى ، واستشعرت خوفا مباغتا أنسانى طول اشتياقى إلى تلك الساعة ، واقترحت عليه أن يعود بى ! ولكنه ضحك ضحكته الرنانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ :

ـ إليك أهلك الجدد .

وقفت على كثب من الباب فى ارتباك لم أعان مثله من قبل ، وتولانى الندم ، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين فى الفناء بخوف وحياء ، وتمنيت ألا تقع عين على . ولكن أناقتى وجدة ثيابى لفتتا إلى الأنظار فغضضت بصرى فى خجل شديد . وتساءلت حتام يطول ذاك العذاب؟ بيد أن غلاما اقترب منى وحيانى ، ووقف معى كأننا أصدقاء . ثم سألنى بغير مناسبة :

ـ هل أبوك الذى جاء بك .

وكنت أعد جدى جدا وأبا ، فحنيت رأسى دلالة الإيجاب ، فعاد يسألنى :

ـ ما مهنته؟ . . وما اسمه؟

ولئن كان الحديث ضايقنى ، إلا أنى رحبت بذاك السؤال خاصة ، فقلت بفخار :

ـ الأميرالاى عبد الله بك حسن .

وقال لى الغلام إن أباه فلان بك كذلك وقد نسيته . ولعله ضاق بصمتى وجمودى فغادرنى وانضم إلى غيرى من الرفاق . اشتدت بى الوحشية وتساءلت ترى أأستطيع أن أندمج فى أولئك الغلمان؟ هل يمكننى حقا أن ألاعبهم أم تتكرر المأساة التى وقعت لى فى فناء بيتنا؟ وتقبض قلبى خوفا ، ولو واتتنى الشجاعة على الانسحاب من موقفى والعودة إلى البيت لفعلت . ثم دق الجرس فأنقذنى من أفكارى ، وأوقفونا صفا ، وأدخلونا الفصل . لم أكن أتصور حتى ذلك الوقت إلا أننى التحقت بملعب كبير ، فلما أن جلست

إلى قمطر، وراح المدرس الشيخ يفتتح العام الدراسى بالإرشادات التقليدية الخاصة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أيقنت أنى دخلت سجنا . . وتولتنى الدهشة والانزعاج، ترى أأخطأ جدى أم خدعوه؟ وطار خيالى إلى البيت فتمثلت لى أمى فى جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيتنى؟ إنها الآن تراقب أم زينب وهى تكنس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكر فى؟ . . هل تطيق فراقى طول اليوم كله؟! وانتهت الحصة الأولى دون أن ألتفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا عجب، فقد قررت أن يكون ذلك اليوم الأول والأخير. وفى دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمر بباب الفصل، فتنفست الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيت لطفه ورقته، واقتربت منه فى حياء، فالتفت نحوى فى دهشة، ورمقنى بعينين جامدتين متسائلتين فظننته قد نسينى، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أنا ابن الأميرالاى عبد الله بك حسن.

فسألنى بدهشة:

ـ وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتى وقلت:

ـ أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ فى وجهى بصوت غليظ كالرعد:

ـ عد إلى قمطرك . . عمى فى عينك.

وأذهلنى صراخه، فعدت إلى مكانى يكاد يغمى على من الرعب والألم. ولبثت فى مكانى مروعا محزونا. وفى أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكننى كتمتها فى خوف شديد، ولم أفكر مطلقا فى استئذان المدرس فى الخروج. وغلبنى الحياء فى الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المرحاض. وجعلت أتململ تململ الملدوغ، وأشد على ركبتى فى ألم وجزع. ومر الوقت فى ثقل وعذاب حتى دق جرس الخروج فأطلقت ساقى للريح، فبلغت البيت فى ثوان، وارتقيت السلم وثبا، وفى الشقة وجدت أمى فى انتظارى، فهتفت بى لما رأتنى:

ـ أهلا بنور العين.

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدا فى وجهها الانزعاج، وتمتمت بصوت منخفض:

ـ رباه . . بلت على نفسك!

وانفجرت باكيا، وقلت لها منتحبا:

ـ لن أعود إلى المدرسة، إن جدى لا يدرى عنها شيئا، وإنى أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أنقذينى منها ولن أبتعد عنك ما حييت.

فجففت دموعى، ونزعت ملابسى، وهى تقول برقة:

ـ لا تقل مثل هذا الكلام، ستألفها وتحبها، كيف تبقى فى البيت والغلمان جميعا فى المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطا مثل جدك إذا تركت المدرسة؟!

وواصلت البكاء، وألححت فى الشكوى، ولكنها جعلت تلطف من حزنى وتحذرنى من البوح لجدى بشكواى أن يغضب ويحتقرنى. ولأول مرة أعارت دموعى أذنا صماء.

* * *

وبدا لها ـ كى تشجعنى على مواصلة الحياة الجديدة أن توصلنى كل صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب معا، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هى على الطوار المقابل لها، وأظل ملازما للسور، أبادلها النظرات والابتسام من خلال قضبانه، والكآبة ترين على صدرى والضيق يمسك بخناقى. كرهت المدرسة وحياتها جميعا، ولكنى أجبرت على الذهاب إليها، ولم ينفعنى عصيانى ولا بكائى ولم يغنيا عنى شيئا، فأيقنت أنه قضى على بسجن طويل الأمد. ولأول مرة وجدتنى أحسد الكبار على حريتهم. وأغبط النساء على قبوعهن فى البيوت. وإلى ذلك العهد يرجع سرورى بيوم الخميس، فكان اليوم المفضل عندى من الأيام، أما بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستثقلتها، وكنت أستشعر الكآبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، ويمر السبت والأحد والاثنين والثلاثاء فى ضيق وتبرم، حتى يأتى صباح الأربعاء فأتنفس الارتياح، ثم أستيقظ عند الفجر الخميس وأتقلب تحت الغطاء فى سرور وحبور والدنيا لا تسعنى من الفرح. ولذلك تفوقت فى دروس الخميس، ولم تعد المحفوظات والديانة. . على أن ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لى وقتذاك فى إطار من الجد والصرامة، من ذلك أننا كنا نبتاع السميد فى الفسحة، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه بالجير الطافح من جدران الفناء. وكان مدرسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوبا من العرقسوس فى أثناء الحصة الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف وبإدارة ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة. وجاءنا يوما متجهما وقال إنه شعر ليلة أمس بمغص وإنه لا يشك فى أن أحدنا استرق إليه النظر وهو يشرب العرقسوس، وأنذرنا إذا لم نرشد عن الجانى بالضرب على أيدينا جميعا، ولما كنا نجهل الجانى فقد ضربنا جميعا. وكان زميله الآخر شيخا هرما رقيق النفس، فلم يكن يضرب أحدا إلا إذا أعيته الوسائل، وكانت طريقته المفضلة فى إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوفنا بالعفريت الذى يسكن أرض الحجرة من قديم الزمان، قائلا أنه لا يحب الضوضاء، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على

أرض الغرفة ثم يقول بخشوع ورهبة «عفوك يا سيدنا . . إنهم لا يدركون شيئا . . لا تركبهم وسامحهم هذه المرة» .

أما الدراسة فإني لم أتعلم شيئا على الإطلاق . ولعل الفن الوحيد الذى أتقنته فى مدرسة الروضة الأولية هو قياس الزمن بمراقبة تحول ضوء الشمس عن جدران الفصل ، وأنا أعد الثوانى فى انتظار جرس الخروج . وكان المعنى الوحيد الذى يتضمنه توجيه سؤال من المدرس أننى سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفى . ولم أحفظ فى بحر عام دراسى إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التى كنت أسمع أمى ترددها فى صلاتها . وجاء الامتحان فى نهاية العام فظفرت بجملة أصفار تكفى لجعلى مليونيرا لو ظفرت بها فى غير الشهادة الفاضحة . ولما أطلع جدى على الشهادة غضب . وقال لأمى بحدة :

ـ هذا نتيجة تدليلك . . لقد . . أفسدته يا ستى .

ثم توعد الناظر شرا ، ومضى لمقابلته فى المدرسة . ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح :

ـ نجحت يا سيدى بالقوة ، وإياك أن تسقط فى السنة التالية !

وكان يداعبنى أمل بأن سقوطى ربما عدل بهم عن إرسالى إلى المدرسة ، فلما بشرنى بذاك النجاح المغتصب خاب أملى . وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى . وزاد من شقائى هفوة لسانية عثرت بها فضاعفت من تنغيص حياتى بقية المدة التى قضيتها فى الروضة الأولية ، رفعت أصبعى مرة لأستأذن المدرس فى الخروج ، ولكن بدلا من أن أدعوه «يا أفندى» أخطأت وأنا لا أدرى فقلت له «يا نينة !» .

وضج الغلمان بالضحك ، وضحك المدرس نفسه وقال لى بسخرية :

ـ إيه يا سيد أمك؟

وقهقه الفصل بالضحك ، وتولانى الذهول ، ولبثت ذاهلا حتى اغرورقت عيناى ، لم يكن لى فيهم رفيق أو صديق ، فقد بدا عجزى عن اتخاذ الأصدقاء منذ ذاك العهد البعيد ، فلم يرحمنى أحد منهم ، ودعونى منذ تلك الهفوة بنينة حتى غلبت على اسمى الحقيقى ، وكنت أتحاماهم مقهورا مغلوبا على أمرى ونار الغضب ترعى صدرى .

وفى نهاية العام جاءتنى شهادة الأصفار فاتهمت أمى المدرسة . وقرر جدى أن يلحقنى بالمدرسة الابتدائية ، ولما كنت متخرجا فى مدرسة أهلية اشترط الناظر أن أؤدى امتحانا ، ومضى جدى بى إلى المدرسة قبيل افتتاح العام الدراسى ، وانتظر نتيجة الامتحان . ولم تكن بحاجة إلى الانتظار ، ورجا الناظر أن يقبلنى بصرف النظر عن نتيجة الامتحان ، وأراد الرجل أن يجامل جدى لكبر سنه ومقامه فطلب إلى أن أكتب اسمى «كامل رؤبة» ولكنى أخطأت فى كتابة رؤبة فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولى . وعاد بى جدى وهو يسخر منى طوال الطريق ، وقال لأمى وهو ينفخ :

ـ لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولية، فسأحضر له مدرسا خصوصيا هذا العام.

وأنصت إليه وأنا لا أصدق أذنى، سألته وأنا أدارى فرحى:

ـ هل أبقى هذا العام فى البيت؟

فحدجنى بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغيظ:

ـ يا فرحة أمك بك!

٧

واستقبلت عاما مثمرا لأول مرة فى حياتى، وجلست آمنا مطمئنا بين يدى مدرسى الشيخ، أتلقن مبادئ العربى والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى فى طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة فى ثقل وضيق كالعادة، ولكى أضمن معاملة حسنة من المدرس أجلست أمى غير بعيد من باب حجرة المدرس للاستنجاد بها عند الحاجة؟ ولا عجب فإن ذكرى العامين اللذين قضيتهما فى مدرسة الروضة ـ ما بين ضرب المدرسين واعتداء التلاميذ ـ لم تمح من نفسى قط. ولم أكن أتصور حتى ذلك الوقت أن التعليم واجب ضرورى سأؤديه شطرا طويلا من العمر، ولكنى عددته عقابا فرض على لسبب لا أدريه، ولم أيأس من أن يلين قلب جدى يوما فيعفينى منه.

على أن أمى لم تكن أسعد حالا منى. كانت تعانى عذابا من نوع أشد. وقد إزدادت كآبة فى تلك الأيام، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتى تبكى مر البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدى حتى تفاتحه بالأمر الذى يقض مضجعها، أجل لم يعد يفصل بينى وبين التاسعة إلا أشهر قلائل، فإذا بلغتها حق لأبى أن يضمنى إليه، وهو لابد فاعل كما فعل بأختى وأخى من قبل. وقد تهددنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة، ولكن جدى كتب إلى عمى ـ وهو من كبار المزارعين فى الفيوم ـ راجيا أن يستشفع لى عند أبى ليتركنى فى كفالة جدى حتى أبلغ التاسعة، وقبلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وها قد اقتربت التاسعة، ولسوف انتزع من أحضانى أمى ما لم يتنازل أبى عن حقه فى استردادى. وبكت أمى يوما فى محضر جدى وقالت له:

ـ لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيناى منذ تسع سنوات، ولم يبق لى إلا كامل، فهو عزائى الوحيد فى هذه الحياة، ولا أدرى ماذا أفعل إذا سلبنى الرجل إياه.

وهز جدى رأسه الأشيب متبرما، وكان ذاك الحديث يكربه، وقال لها:

ـ وماذا بيدى أن أفعل؟! هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذى تعنينه هو أبوه على أى حال، وليس برجل غريب!

فهتفت أمى فى تألم واحتجاج:

ـ أبوه!! . . أتدعو هذا الوحش أبا؟! يا أسفى على راضية ومدحت فى البيت الذى جعل السكير منه حانة. إن الأبوة لم تختلج بصدره قط. وكامل قد ترعرع فى رعايتى ونهل من حنانى، ولم يدر شيئا عن شواذ المخلوقات، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه، وهلكت هنا وحدى.

وخنقها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة، ولما استردت أنفاسها استطردت تقول:

ـ هل تتصور يا أبى أن كامل يستطيع أن يعيش بعيدا عن أمه؟ إن يدى هاتين تطعمانه وتلبسانه وتنيمانه، إنه يخاف خياله، وإنه لتفزعه زفرات الصراصير، فكيف يأذن الشرع بأن ينتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمه؟!

وقطب جدى متبرما، وبدا وكأنه ضاق بشكواها، بيد أن وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيرا ما كان يبدو ساخطا والقلب منه ندى بالرحمة، ولم يزد وقتذاك على أن قال: كفاك شكوى وبكاء. إن قسم له أن يمكث بيننا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا راد لقضائه.

ذاك كان قوله، أما صنيعه فكان شيئا آخر. فقد حزم أمره يوما ومضى إلى أبى ليفاوضه فى شأن استبقائى فى كفالته. والحق أن جدى كان يحبنى حبا بالغا. أحبنى لأنى كنت أنيس شيخوخته، والطفولة تحرك فى الشيخوخة أعماق الصدور، وأحبنى لحبه أمى التى لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدتى ترعاه بحنانها وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبى وانتظرنا وأيدينا على قلوبنا. ومر وقت الانتظار على أمى فى عذاب لا يمكن أن أنساه مهما امتد بى العمر. لم يكن ليقر لها قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت تخاطبنى حينا وتخاطب نفسها أحيانا. ودعتنى مرات إلى مشاركتها فى الابتهال إلى الله أن يكلل مسعى جدى بالنجاح. ومضيت أرقبها بعينين محزونتين حتى انتقلت عدوى قلقها إلى صدرى فاستعبرت باكيا. انتظرنا طويلا ـ أو هكذا خيل إلينا ـ يشملنا حزن وقلق، تسبح أعيننا دمعا، وتلهج ألسنتنا بالدعاء، حتى سمعنا جرس حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جدى وهو يقطع فناء البيت بخطاه الثقال. . وعدنا إلى الباب ففتحناه، ودخل جدى صامتا وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها معنى.

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد خانت أمى الشجاعة أن تسأله عما وراءه، وراحت تهمس بصوت متهدج «يا ربى. . يا ربى!». وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامى عينى

أمى، ثم جلس على مقعد كبير قريب من فراشه، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته الأجش وكأنما يخاطب نفسه :

ـ رجل مجرم! . . ماذا كنت تنتظرين من رجل مجرم؟

وأبيض وجه أمى وارتعشت شفتاها، ولاح فى عينيها القنوط، وجعلت أردد بصرى بين جدى وأمى فى قلق وخوف. وتركنا جدى لشقائنا هنيهة، ثم رثى لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكا، وقال بصوت ينم عن الظفر :

ـ لا تقتلى نفسك كمدا يا أم راضية. فقد أذعن الشيطان بغير تعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثم تهللت وجوهنا بشرا، وتلألأ نور الفرح فى عينى أمى، ثم جثت على ركبتيها أمام جدى وأشبعت يده تقبيلا وهى تقول بلهفة :

ـ حقا؟ . . حقا؟ . . هل رحم الله قلبى الكسير؟

وأخذ جدى يفتل شاربه فى ارتياح بينما عادت أمى تسأله بنفس اللهفة :

ـ أرأيت راضية ومدحت؟

فهز رأسه آسفا وقال :

ـ كانا فى المدرسة!

فدعت لهما دعاء حارا وعيناها تغرورقان. ولم يكن جدى يزورهما لكراهيته لأبى، ولأنه لم يكن ينتظر استقبالا كريما فى بيته. ثم قص جدى كيف قابل أبى فى الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة. وكيف تلقاه بدهشة واستغراب، وكيف أنه لم يعد له من عمل فى الحياة إلا الشراب، ولعل اضمحلاله ذاك الذى جعله ينقاد لاقتراحه متنازلا عن عناده القديم.

وقد بدا أول الأمر وكأنه يرتاب فيما يلقى على سمعه، فلما أن تبينه ضحك فى سخرية وإزدراء من غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة :

ـ لا دماغ لى للتربية، ولأكون مرضعة من جديد. خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالبنى بمليم واحد، هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمليم واحد فيما يستقبل من الأيام انتزعته منكم فلا تقع عليه أعينكم ما حييت.

وقبل جدى الشرط، وكان يحدسه مقدما من قبل أن يذهب إليه، ولكنه عجب كيف أن الرجل لم يبد عن أية رغبة فى رؤية ابنه : ولا سأل عنه على الإطلاق. ثم قال جدى :

ـ لم يعد رؤية لاظ إنسانا، لقد انتهى الرجل.

فغمغمت أمى فى حزن وكآبة :

ـ وأحزناه على راضية ومدحت!

فقال جدى يطمئنها :

- إن راضية فى السابعة عشرة ومدحت فى السادسة عشرة، ولم يعودا طفلين .

* * *

وثبنا إلى طمأنينتنا المعهودة، فنجونا من ذاك الخوف الذى اعترض سبيلنا مهددا، وواصلت الدراسة فى البيت أعالجها بصعوبة وضيق. واستدار العام، وحل الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنى معاد قريبا إلى السجن. وقلت يوما لأمى :

- إذا كنت تحبيننى ولا توافقين على أن يأخذنى أبى فلماذا ترضين بأن تفرق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت :

- يا للعار! . كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟! . . ألا ترغب أن تكون يوما ضابطا كبيرا مثل جدك؟ وماذا يبقى أذا هجرت المدرسة إلا أن تشتغل بائع فول أو كمسارى ترام!

ومضى بى جدى إلى مدرسة العقادين بمصر القديمة : ونجحت فى الامتحان هذه المرة. وهل العام الدراسى، وانتظمت فى المدرسة كارها مرغما. وكان الحنطور يوصلنى صباحا إلى المدرسة، ويعود بى مساء إلى البيت، وفى نظير ذلك منع جدى أمى من توصيلى بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولية. عدت مرة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرسين وسخرية التلاميذ. كانت حياتى المدرسية شقاء كلها. وأكد ذلك الشقاء أننى كنت ملكا مستبدا فى بيتى وعبدا ذليلا فى مدرستى. وطالما تحيرت بين الحب الذى يغمرنى فى البيت وبين عصا المعلم وسخرية التلاميذ.

وقد اكتسبت عداوة المدرسين ببلادتى وخمود ذهنى حتى أطلق على بعضهم «الغبى الممتاز» وكان مدرس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألنى عنه وما يزال بى حتى أجيب إجابة ترضيه فيتنفس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلا : «لابد أنكم فهمتم ما دام سى كامل قد فهم». ويضج الفصل بالضحك!

أما التلاميذ فكان دأبهم السخرية منى ما وجدوا إلى ذلك سبيلا. وكان عجزى عن إنشاء علاقة صداقة حقيقية مرة لا شك فيها فلم أظفر فى حياتى بصديق. والحق أنى لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتعون بصداقات سعيدة، ولكنى شديد النفور بطبعى، شديد الخجل، محب للوحدة والعزلة، عديم الثقة فى الغرباء، وزاد طبعى تعاسة ما جبلت عليه من صمت وعى وحصر، فلم أحسن الكلام قط، فضلا عن الدعابة والمزاح، لذلك جميعه رمونى بثقل الدم، وقد آلمتنى هذه الصفة، حتى سألت أمى يوما :

ـ هل أنا ثقيل الدم يا أماه؟

فرمقتنى بنظرة ارتياع وقالت بحدة:

ـ من قال عنك ذلك؟

فقلت فى حياء:

ـ التلاميذ كلهم؟

فصاحت بغضب:

ـ قطعا لألسنتهم. إنهم ينفسون عليك أدبك الكامل، والحنطور الذى يحملك بينما يتسكعون على أقدامهم، إياك وأن تتخذ منهم صديقا.

ومتى كنت فى حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟! وهكذا كابدت الحياة فى المدرسة فى وحدة، يطالعنى روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بى. ولعلها كانت لا تخلو من غبطة لو أننى أسهمت فى مسراتها، ولكن خجلى الشديد أجبرنى على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكشافة والكرة والقسم المخصوص، حتى الرحلات المدرسية لم توافق أمى على الاشتراك فيها أن يصيبنى مكروه، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبى الهول ودار العاديات والفسطاط فأسترق السمع فى حيرة وحزن وكأنى استمع إلى سائحين يقصون عن بلاد نائية! ولشد ما ينتابنى من خجل إذ أقرر أن عينى لم تقعا من القاهرة ـ المدينة الوحيدة التى عشت بين أسوارها ـ إلا على شوارع معدودات هى كل حظى من مشاهدات فى هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لى من عزاء فى تلك الأيام إلا أن أنفرد بأمى فى الشرفة أو فى حجرتها، ثم نأخذ بأطراف الحديث، كأن ليس لحديثنا من نهاية. وكانت عصا المدرس تذكرنى بأن على واجبا ينبغى أن أؤديه قبل النوم، فأقبل على الكتاب مستكرها، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنح رأسى ويرنق النوم بجفنى.

* * *

ويوما قرئت علينا ـ فى حصة الديانة ـ هذه الآية الكريمة «فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه . . . » فلا أذكر أنى انزعجت لشىء انزعاجى لها، لم أطق أن أتصور أن أفر من أمى فى يوم مهما كانت فظاعته، وأن أغادرها فى أهواله بقامتها النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الحنونين، فقاطعت الشيخ على غير وعى منى هاتفا:

ـ كلا . . كلا . .

وأحدثت مقاطعتى دهشة فى الفصل لأنى لم أكن أنبس بكلمة، ولم يدرك أحد ما أردت، ولم يلبثوا أن ضجوا ضاحكين، وغضب الشيخ، وحملنى مسئولية الإخلال

بالنظام، فأقبل نحوى متغيظا ولطمنى على وجهى بعنف وحنق. ورحبت باللطمة كعذر ظاهر للبكاء إذ كنت أقاوم دموعى جاهدا ودون جدوى.

لقد زلزلتنى هذه الآية الكريمة، وكانت أول نذير لى عن مأساة الحياة.

٨

حياة رتيبة، كابدتها على استكراه، بيد أنها لم تخل من هزات عنيفة. فذات مساء عاد جدى مبكرا على غير عادته. وقلقت أمى لأنه لم يكن يرجع إلى البيت قبل الفجر. واقتحم علينا الحجرة متجهما، فنهضت أمى مستطلعة. ورفعت رأسى عن الكتاب، وقبل أن تسأله عما به قال بحدة وهو يضرب طرف حذائه بعصاه:

- زينب، كارثة نزلت بالأسرة.. فضيحة ستجعلنا مضغة الأفواه!

فنطقت عينا أمى بالفزع، وهتفت بصوت متهدج:

- رحماك يا ربى!.. ماذا حدث يا أبى؟

فقست نظرة عينيه الخضراوين، وقال بصوت أجش غليظ:

- ابنتك.. راضية.. هربت!

وشحب وجه أمى، وخلجت عيناها، وجعلت ترنو إلى جدى بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلا إلى تصديق ما صك أذنيها، ثم غمغمت بصوت كالأنين:

- هربت!.. راضية!.. هذا محال!

فضرب جدى الأرض بقدمه حتى ارتجت أركان الحجرة وصاح بغضب:

- محال؟! بل هى الحقيقة الواقعة، هى الفضيحة العارية، هى الضربة القاصمة لكرامتنا.

ولم تحر أمى جوابا كأنما فقدت النطق. وتنفس جدى بشىء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- أى جنون سلبها الرشاد!.. ليس هذا الدم الفاسد بدمنا! هذا دم شيطانى يفضح سوء فعله الأصل القذر الذى استمد منه. لقد مات جدها وهو يصب لعناته على رأس أبيها فحلت اللعنة بذريته.

وازدردت أمى ريقها وتمتمت فى ارتياع:

- أفظع بها من كارثة! كيف ضلت الفتاة؟! لقد أفسد السكير العربيد عليها حياتها: ما أتعسها!

فقال جدى باستياء وحنق :

ـ لا تنتحلى لها الأعذار . لا شىء فى الوجود يسوغ هذا الفعل الشائن .

فغمغمت أمى بصوت باك :

ـ لست أنتحل لها الأعذار ، ولكنها تعيسة ما فى ذلك من شك .

وساد صمت محزن ، ولبثا يتبادلان نظرات الغم والكدر والقنوط ، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتباه شديد ، فأدركت أهونه ، وغابت عنى خطورته الحقة ، كان الأمر يتعلق بأخت لم تقع عليها عيناى . لماذا هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت :

ـ لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بى جدى حانقا :

ـ اخرس !

وارتمى على مقعد ، واستطرد يقول :

ـ جاءنى عمها فى النادى : وأبلغنى الخبر . قال إنه لا يعلم شيئا عن حقيقة الحال . وقد أبرق له مدحت للحضور فورا ، فجاء بلا إبطاء ، ثم أخبره الشاب باختفاء شقيقته . أما المجرم السكير فلم يزد على أن قال : «فى داهية» . ثم ذهبنا معا إلى بعض أصدقاء العم من رجال المحافظة وأفضينا إليه بالخبر الشائن سائلين معونتهم .

وتريث جدى دقيقة ثم استطرد :

ـ ويل للسكير المجرم ! . . إنه المسئول الأول عن هذه المأساة ، لأذهبن إليه وأحطمن رأسه !

ولاح الانزعاج فى عينى أمى فقالت بجزع :

ـ كلا . . كلا . . هذا يزيد من حالنا سوءا .

فقال جدى بإصرار :

ينبغى أن يجزى عن شره شرا .

فقالت أمى بتوسل :

ـ لا شأن لنا به . . فلنركز اهتمامنا فى العثور على الفتاة علنا نقيم ما أعوج من أمرها .

فحدجها بارتياب وتساءل :

ـ لماذا تلحفين فى الحيلولة بينى وبين الذهاب إليه؟

فلاح فى وجهها الارتباك وتمتمت :

ـ أخاف أن يزداد الأمر سوءا .

فقال جدى بحنق :

ـ بل تخافين أن يؤدى الشجار إلى أن يسترد كامل. إنك لا تقيمين وزنا لشىء، ولا تكترثين لغير نفسك، ألا لعنة الله عليكم أجمعين.

ولبس البيت رداء الحزن فكأنه فى حداد، واهتصرتنا أيام سود فنكد العيش، وكدت أختنق فى ذلك الجو القاتم. وقد غير جدى نظام حياته، وتخلف عن سهراته المعتادة فى النادى وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندرى عن مكانه شيئا، على حين تقضى أمى النهار ساهمة أو باكية. وجاءنا جدى ذات مساء، فلما أن وقع بصره على أمى بادرها قائلا:

ـ عثرنا على ضالتنا أخيرا.

فجرت أمى نحوه وهى تصيح:

ـ حقا!.. اللهم ارحمنا.

فقال جدى بصوت تنم نبراته عن الارتياح والسرور:

ـ أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتابا تنبئه بأنها تعيش فى بيت زوجها ببنها، وتسأله المغفرة عن سلوكها الذى اضطرت إليه اضطرارا.

وتنهدت أمى من الأعماق وقالت وعيناها تدمعان:

ـ ألم أقل لك!!.. إن راضية فتاة طاهرة ولكنها تعيسة الحظ، رباه.. أين هى الآن؟ خبرنى بكل ما تعلم.

فقال جدى بهدوء:

ـ سافرنا إلى بنها، أنا وعمها ومدحت، فوجدناها فى أسرة طيبة محترمة، وتعرفنا إلى زوجها وهو شاب موظف بالحقانية يدعى صابر أمين. فأخبرنا أنه استأجر شقة بشارع هدايت بشبرا وأنه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إن زوجها تقدم لخطبتها ولكن أباها رفضه بغلظة، وأنه رفض قبله شابا آخر تقدم لخطبتها كذلك.. ولعلها الخمر التى لم تبق على ذرة من إنسانيته فأنسى واجباته وبدد مرتباته، واستبد بها اليأس فهربت مع الشاب. وسافرا إلى أسرته حيث كان المأذون فى انتظارهما.

وأصغت أمى إليه وهى تبكى بكاء حارا، بعثه الحزن والارتياح معا، ثم قالت:

ـ سأسافر إليها غدا.

فقال جدى بتأكيد:

ـ ستجدينها فى بيتها غدا أو بعد غد.

وعادت تتساءل:

ـ لماذا لم تأتى إلى أنا؟

فقال جدى كمن يعتذر عن الفتاة :

ـ لعلها خجلت أن تأتى بخطيبها إلينا وهى هاربة من وجه أبيها ، وعلى أية حال لنحمد الله على هذه النهاية التى لم نكن نحلم بها .

٩

ركبنا الحنطور جميعا لأول مرة ، فجلس جدى وأمى فى الصدارة ، وجلست على المقعد الخلفى . كانت أمى من الفرح فى نهاية ، وقد بدت بعد ما عانت فى الأيام الأخيرة من هم وحزن وكأنها استردت شبابها الأول . كانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج ، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر . وانتقل سرورها إلى صدرى ففرحت برحلتنا السعيدة . وجعلت أفكر فى شقيقتى التى سأراها لأول مرة بعد دقائق بدهشة وسرور ، وقلق لم أدر له سببا ، ترى ما شكلها؟ وكيف تلقانا؟ وهل تحبنا؟ وقطعت أمى على حبل أفكارى فسألت جدى بلهفة :

ـ هل أجد مدحت هناك؟

فقال جدى وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه :

ـ الراجح أن يكون هناك . . لقد تواعدنا على ذلك . . ولاحت فى عينيها نظرة حنان ورجاء . وسارت العربة ميممة شبرا . ورحت أتسلى بمشاهدة المارة والعربات والترام ، حتى بلغ الحنطور مقصده ، وانعطف إلى شارع هدايت ، ثم وقف أمام بيت متوسط الحجم ، مكون من ثلاثة أدوار . وغادرنا العربة وصعدنا إلى الدور الثانى وأمى تقول بصوت كالهمس : «ما أشد خفقان قلبى» ، ودق جدى الجرس ، وفتح الباب ، ودخلنا . رأيت فتاة وشابين ، وقبل أن أعاينهما هرع اثنان منهما إلى أمى ، فلم أر إلا عناقا حارا : ولم أسمع إلا تنهدات الدموع . رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت . وطال العناق ، وطال البكاء ، حتى تدخل جدى بينهم ضاحكا وهو يقول :

ـ إليك زوج ابنتك صابر أفندى أمين .

وتقدم الشاب من أمى فقبل يدها ، وقبلت جبينه ، ولم ألبث أن رأيت نفسى محط أنظار الجميع . وقالت أمى وهى تبتسم خلال دموعها :

ـ أخوكما كامل .

وهرعت نحوى شقيقتى ، وضمتنى إلى صدرها ، وقبلتنى بحرارة ، وأنا مستسلم بين يديها لا آتى حراكا ، ولا أنطق بكلمة ، وصاحت بفرح :

ـ رباه، إنه شاب يافع! . . إنه نسخة منك يا أماه!

ثم ضمنى شقيقى إلى صدره وقبلنى وهو يقول بسرور:

ـ يا له من شاب خجول!

ولم أكن حتى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجه من وجوههم، وظللت غاضا بصرى، والخجل يحرق جبينى وخدى. ثم مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست أمى بين راضية ومدحت، وجلس جدى لصق زوج أختى، وأقعدتنى شقيقتى إلى جانبها، وقالت أمى وهى تجفف دمعها:

ـ يا رحمتاه! وجدتكما شابين بعد أن انتزعتما منى طفلين، الحمد لله والشكر لله.

فقال زوج أختى بتأثر:

ـ يا لها من حياة هى بالمأساة أشبه! . . وإنى لأشكر الله على أن جعلنى الفرصة التى هيأت لكم هذا اللقاء!

وسالت الأشواق القديمة حديثا فياضا لا ينضب معينه، وانثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كل بثه وهمه، وامتزجت الدموع بالبسمات. وكانت تلوح فى عينى أمى بين الحين والحين نظرة دهشة كأنها لا تصدق أن الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرق ونوى. ولما شغلوا بأنفسهم عنى أخذت أفيق من الخجل، وأسترد أنفاسى، وشعرت بأنى ـ لدرجة كبيرة ـ وحدى، فداخلنى ارتياح، ولكن سرعان ما انتابنى قلق وضيق، وجعلت أسترق النظر إلى راضية ومدحت. بهرنى جمال أختى، رأيتها أقصر من أمى قليلا ولكنها ممتلئة بضة، ميالة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه أمى، وصورة من وجهى أيضا، بعينيه الخضراوين الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أما مدحت فانموذج من نوع آخر، بدين فى غير إفراط، مستدير الوجه والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين، ينم مظهره عن الفحولة والقوة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة. وكان يقهقه ضاحكا لأتفه الأسباب، ويبدو فرحا صحيحا معافى: استرقت إليهما النظر باستطلاع واهتمام، وسرعان ما جذبنى إليهما شعور بالحب والعطف، واستنمت إلى روحهما المرحة الباسمة. بيد أننى لم أنعم بشعور الوحدة طويلا، فربما اتجهت صوبى الأنظار وبذلت المحاولات لحملى على الكلام، واستدراجى لمشاركتهم سرورهم، ولكننى لم أنبس بكلمة قانعا برد الابتسام بالابتسام. ولئن كان كل شىء مما يكتنفنى يدعو للغبطة إلا أننى لم أخل من مشاعر قلق غامض رغبنى أكثر من مرة فى الرحيل، وقالت لى راضية باسمة:

ـ كان مولدك عسيرا، والله يعلم كم تألمت أمنا، ولبثنا أنا ومدحت فى الحجرة المجاورة نبكى، ثم أدخلنا فى النهاية ورأيناك فى اللفة شيئا كقبضة اليد فانهلنا عليك بالقبل.

وقهقه مدحت وقال :

ـ وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة فحملونى إلى الخارج .

وقالت راضية برقة :

ـ وكنا نتخيلك فى وحدتنا ببيت أبينا فنقول لعله يحبو الآن ، أو أنه يمشى ويلعب ، أو هذا أوان المدرسة . وعلى فكرة أى سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة إحمرار خدى ، وانعقد لسانى ، فأجاب عنى جدى قائلا بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ إنه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو فى العاشرة من عمره .

فقال مدحت ضاحكا :

ـ الحال من بعضه ، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة بعد سقوط عامين بالثانوى!

وقالت أمى :

ـ إن جدك يريد أن يجعل منه ضابطا .

فهز مدحت رأسه وقال :

ـ عليه إذن أن يحصل على البكالوريا .

وكان جدى من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية بالابتدائية فقال بازدراء :

ـ إن بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس .

ثم دار الحديث عن الحياة فى بيت أبى ، حتى قالت راضية :

ـ كنا فى الحقيقة نعيش بمفردنا ، ولم نكن نرى أبانا إلا مرة فى الصباح الباكر ، ثم نمضى وقتنا معا ، نذاكر أو نلعب أو نتحدث ، وقد حمدنا الله على تلك الوحدة .

وتنبهت أمى إلى الشطر الأخير من الكلام . وتنهدت فى إشفاق ، فقال جدى :

ـ إن كان أبوكما أعفاكما من عشرته ومخالطته حقا ، فقد فعل خيرا يستحق عليه الشكر والدعاء!

وانقضى النهار كله فى جو عابق بالحب والأشواق ، وعدنا إلى المنيل مجبورى الخاطر . واتصلت الأسباب بعد ذلك بيننا وبين شقيقتى ، وكان مدحت يزورنا كلما سنحت له فرصة .

واستقبلت عاما مثيرا توزعتنى فيه الحيرة وحب الاستطلاع والتجربة القاسية . صدمنى فى مطلعه هروب أختى وما علمت بعد ذلك من زواجهما ، فحبلها ، ثم إنجابها طفلة . وتساءلت نفسى كما ساءلت أمى عن معنى هذا كله ، لماذا هربت من أبى إلى رجل غريب؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ولماذا تزوجته؟ وكيف حبلت؟ وكيف خرجت زينب الصغيرة

إلى نور الدنيا؟ وارتبكت أمى حيال إلحاحى وتطفلى، وجعلت تصطنع لى الأجوبة الكاذبة حينا وتتأنانى حتى أكبر حينا آخر، فإذا لججت تكلفت لى حزما غير معهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشىء ينقع الغلة، وفى الوقت نفسه شعرت بأن ثمة سرا يراد إخفاؤه عنى. ثم جاءنى العون من حيث لا أدرى، فتطوعت الخادمة لإماطة اللثام عما حير خيالى وألهبه. كانت تكبرنى بأعوام، وكانت دميمة قبيحة، ولكنها كانت تكرس فراغها لخدمتى وكانت تخلو بى فى أويقات نادرة إذا شغلت أمى بعمل أو حاجة. وبدا أنها استرقت السمع يوما إلى ما يدور بينى وبين أمى عن الألغاز التى استثارتنى من سباتى، فصارحتنى مرة بأنها تعلم أمورا خليقة بأن تعرف، وانجذبت إليها على قبحها فى اهتمام وسرور، وواجهت التجربة بلذة وسذاجة. على أن العهد بها لم يطل، فما أسرع أن ضبطتنا أمى متلبسين. ورأيت فى عينى أمى نظرة باردة قاسية فأدركت أنى أخطأت خطأ فاحشا. وقبضت على شعر الفتاة ومضت بها فلم تقع عليها عيناى بعد ذلك. وانتظرت على خوف وخجل. ثم عادت متجهمة قاسية، ورمت صنيعى بالمذمة والعار، وحدثتنى عما يستوجبه من عقاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة. ووقع كلامها منى موقع السياط حتى أجهشت باكيا، ولبثت أياما أتحامى أن تلتقى عينانا خزيا وخجلا.

١٠

حدثت معجزة - على حد تعبير جدى - فنجحت فى الامتحان. ونقلت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت عامين فى السنة الأولى. ولما أطلع جدى على الشهادة قال لى مداعبا:

- لو كنت ما أزال فى خدمة الجيش لجئتك بفرقة الطوبجية، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعا احتفالا بنجاحك.

على أن جدى إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحى أربعة وعشرين مدفعا، فقد قذف حياتى بقنبلة - عن قصد حسن - كادت تودى بى. حدث أن زاره يوما ضابط متقاعد فى الخمسين من عمره ممن عملوا تحت قيادته فى السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدى فى الشرفة وراح يتفرس فى وجهينا فى صمت وإن نم وجهه عن ارتياح وسرور. ثم قال مخاطبا أمى بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعينى بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكا لذاك التدليل اللطيف. على حين تبعته إلى حجرة نومه ومنيت

نفسى ببشرى جميلة . . وغابت أمى مقدار ساعة ثم عادت إلى، وما أن وقعت عليها عيناى حتى بادرتها قائلا :

ـ أهلا وسهلا يا زوزو هانم .

وقهقهت ضاحكا، ولكنها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيها يلوح فى عينيها السهوم والتفكير، وساورنى القلق، فملت نحوها وسألتها عما ألم بها؟ فقالت لى باقتضاب :

ـ أمور تافهة لا تهمك .

ولكن تهربها ضاعف من رغبتى فى معرفة ما وراءها، فألححت عليها أن تفضى إلى بمكنون صدرها، فنفخت فى تبرم، ورجتنى أن أمسك . وجلسنا صامتين طويلا، ثم تجاذبنا أحاديثنا المعتادة فى فتور . ودعينا إلى العشاء فأكلت لقمات معدودات، ولما تهيأنا للنوم وقفت أمام المرآة طويلا، ثم استلقت إلى جانبى . ووضعت راحتها على رأسى وقرأت سورا قصارا من القرآن كالعادة، حتى رنق النوم بجفنى . واستيقظت فى الهزيع الأخير من الليل، فخيل إلى أنى أسمع حسا كالهمس، فأرهفت أذنى فأيقنت أنها تغمغم، وظننتها تحلم، فناديتها حتى استيقظت . ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح .

وفى اليوم التالى زار جدى ذلك الضابط المتقاعد، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدى أمى إلى حجرته، ولبثا منفردين زهاء الساعة، ثم جاءا معا إلى الشرفة وهى تتعلق بذراعه وتهتف بانفعال وتأثر شديدين!

ـ كلا . . كلا . . هذا محال، ولا أحب أن يعلم شيئا . ولكنه لم يأبه فيما بدا وقال لى بحزم :

ـ إنى منتظرك فى حجرتى .

وجعلت أمى تتوسل إليه وتضرع، ولكنه رجع إلى حجرته وأنا فى أعقابه على حين مضت أمى إلى حجرة نومنا فى حالة غضب واستياء . وجلس جدى على مقعده الكبير، وأمرنى أن أقترب منه، فاقتربت فى رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبى، ورمقنى بنظرة دقيقة ثم قال :

ـ أريد يا كامل أن أحدثك بأمر هام : لا زلت صغيرا بغير شك، ولكن يوجد فى مثل سنك من ينهض بأعمال الرجال، وأحب أن تفهمنى جيدا، فهل تعدنى بذلك؟

وأجبت بطريقة آلية :

ـ أعدك يا جدى .

فابتسم إلى متلطفا ثم قال :

ـ الأمر هو أن رجلا فاضلا غنيا من أصدقائى يرغب أن يتزوج من أمك، وإنى أوافق

على ذلك رغبة منى فى سعادة أمك، فلابد للمرأة من رجل يرعاها، وأنا قد جاوزت الستين، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه فى الحياة.

وواصل كلامه باستفاضة، ولكن عقلى كلَّ فلم يتابعه، ولم أعد أفقه معنى لما يقول.

شلّت عبارة «يتزوج من أمك» مسامعى، وانفجرت فى دماغى، واتسعت عيناى دهشة ورعبا وتقززا وتساءلت: هل يعنى جدى ما يقول حقا؟ أجل لقد روت أمى لى قصة زواجها، ولكن كان ذاك قصة وتاريخا بعيدا، ولم أتصوره حقيقة واقعة أبدا. وذكرت لتوى الخادمة المطرودة فغاض قلبى فى صدرى وقلت لجدى وأنا ألهث:

- أمى لا تتزوج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثم قال مبتسما:

- الزواج سنة من سنن الله، والله يفضل المتزوجين على غير المتزوجين، ولقد تزوجت أنا جدتك، كما تزوجت أمك فيما مضى، وكما تتزوج حضرتك يوما ما. أصغ إلى يا كامل، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنك ترغب فى تزويجها مثلى، وإن سعادتك تضاعف بسعادتها.. ينبغى أن توافق على ما يسعدها، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعا.

وجعلت أطرافى تنتفض انفعالا وتأثرا، ونظرت إلى جدى كما تنظر الفريسة إلى معذبها، ثم سألته بصوت متهدج:

- أتريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لى:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسعدها.

فسألته بحدة وأنا لا أدرى:

- وأنـــا؟

فقال برقة بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندى على الرحب والسعة.

فعضضت على شفتى بقسوة لأحبس دمعى، وتراجعت فجأة فأفلت من يده، وركضت خارجا متجاهلا نداءه، وعدوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أمى جالسة محمرة العينين من البكاء، وفتحت لى ذراعيها فارتميت بينهما منتفض الأطراف من التأثر، وبادرتنى قائلة:

- لا تصدقه، أعنى لا تصدق أن شيئا مما قال لك سيقع، لا تبك ولا تحزن.. واعذاباه!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولى إن هذا عار وحرام؟!

فشددت على بحنان وهى تقاوم ابتسامة، ثم قالت:

- لعل جدك قال لك إنه يريد أن يزوجنى، ولكنه لم يقل بلا ريب أننى وافقت على هذا الزواج، والحق أنى رفضته لأول وهلة، وبلا أدنى تردد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئا على الإطلاق، ولما أعطانى مهلة للتفكير قلت.

وقاطعتها بحدة قائلا:

- ولكن يريد لك أمرا معيبا محرما؟!

فصمتت قليلا وهى ترنو إلى بطرف حائر. ثم استطردت متجاهلة اعتراضى:

- قلت إن المهلة مضيعة للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعا للتفكير، وذلك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا تظن بأمك الظنون.

ولئن أخرجنى كلامها من ظلمات القنوط إلا أننى أصررت على ترديد اعتراضى حتى قالت لى بعد تردد:

- لم أقل أبدا إن الزواج من العيوب أو المحرمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إنى ذممت عيوبا أخرى.

وانعقد لسانى حياء وخجلا، وربتت هى على خدى لتسرى عنى وقالت بصوت ينم عن العتاب:

- يا لك من طفل جحود، ألا تستأهل تضحيتى فى نظرك كلمة شكر؟.. أتراك تذكرها فيما يقبل من العمر؟ أبدا!.. لتتزوجن يوما ولتغادرنى وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وقطبت ساخطا، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عبثت بشعرى مبتسمة، ولاحت فى عينيها الجميلتين نظرة ساهمة.

١١

سارت حياتى المدرسية فى بطء وتثاقل يدعوان لليأس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائية، وكان جدى يقول متأففا:

- متى تقبل على الدراسة بهمة ونشاط؟ متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا اطردت دراستك على هذا المنوال فستنتهى منها وقد استوفيت سن المعاش؟!

ولشد ما كانت تأسى أمى لذاك التهكم المر، وكانت تسأله دائما ألا يلقيه فى وجهى أن تنكسر نفسى فأزداد بلادة، أو تقول له :

ـ الذكاء من عند الله، وحسبه ما جمله به من كريم الخلق، لأنه كالعذراء حياء وأدبا!

وكان أن كابدت حياتى تطورا خطيرا لا أذكر متى بدأ ولا كيف بدأ، وأخشى أن يكون الخيال قد زور منه أمورا على الذاكرة، دبت فى النفس والجسم يقظة غريبة، سرت فى أطرافى قلقا واضطرابا. طافت بى فى وحدتى أحلام جديدة، وغيبنى فى المدرسة شرود ركز شعورى كله فى نفسى. وكنت إذا انطلقت بى العربة من المدرسة إلى البيت سرحت طرفى فى آفاق السماء وبنفسى لو أحلق إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة الغامضة. ولشد ما انتابتنى الكآبة وغشينى الكدر فروحت عن قلبى بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق الغامضة، والمخاوف المجهولة، والأنات المهموسة، والشعيرات النابتة. رباه إنى كائن يتمخض عن حياة مخوفة مجهولة، تعبث بى شياطينها فى النهار والليل، فى اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسى ـ تحت ضغط تلك الحياة ـ هواية الصبا الشيطانية لم يغرنى بها أحد إذ كنت معدوم الرفاق. فاكتشفتها كما اكتشفت أول مرة فى حياة البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة، ورضيت بها عن كل شيء فى الوجود، ووجدت فيها أنسا لوحدتى الغريبة، وعكفت عليها فى إدمان، وراح خيالى يقطف لى من صور المخلوقات ما أزين به مائدة العشق الوهمية.

ومن عجيب أن خيالى فى عشقه لم يعد دائرة الخوادم بالمنيل اللاتى يسعين حاملات الخضر والفول. ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثم ولت، إنها سر دفين، أو هى داء دفين. كأنى موكل بعشق الدمامة والقذارة!! إذا طالعت وجها ناضرا مشرقا يقطر نورا وبهاء ملكنى الإعجاب، وبردت حيوانيتى، وإذا صادفنى وجه دميم ذو صحة وعافية أثارنى وتملكنى، واتخذته زادا لأحلام الوحدة وعبثها. وأفرطت افراط جاهل بالعواقب. وخيل إلى جهلى المفرط أن أحدا سواى لا يدرى بها، حتى سمعت يوما ـ فى فناء المدرسة ـ بعض التلاميذ يتقاذفون بها فى غير حياء فانزعجت انزعاجا فظيعا وتولانى خجل أليم. ومنذ تلك الساعة أمضنى الألم، وكدر صفوى تأنيب الضمير والشعور بالذنب. . ولم يكن ذاك ليصدنى عن ممارستها، فقضيت وحدتى فى لذة جنونية سريعة يعقبها نكد طويل.

وكانت تسطع فى أيامنا الرتيبة ساعات باسمات فتزورنا أسر من الجيران والأقارب، سيدات وبنات فى سن الصبا، وربما قدمت سيدة بنتها على سبيل المداعبة :

ـ هذه عروس كامل.

فكانت أمي تلقى هذه المداعبة وأمثالها بفتور ملحوظ، لا يخفى على مخاطبتها، ولا على. فازددت شعورا بالحياء وبالنفور، وبالخوف خاصة حيال المرأة. ثم لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تنتقد مداعباتهن الفاضحة المفسدة للأخلاق! . . ومضيت فى حياتى الوحيدة الموحشة أتململ تحت ضغطها المتواصل دون أن أبدى حراكا، أنتهب لذاتها الخفية فى جزع ويأس، وأجنى مر الشعور بالذنب وقد شق على الخلاص، فى عزلة غابت بى عن خضم الحياة. على أننى كنت أدرك إدراكا غامضا أنه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقى الضيق. كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث التلاميذ عن السياسة والسينما والألعاب الرياضية والبنات، وكأننى أصغى إلى سكان كوكب آخر. وددت لو كان لى بعض فصاحتهم ومرحهم وحبورهم، وددت لو يرفع ذلك الحاجز الأصم الذى يحبسنى دونهم. ولكم رمقتهم بعينين محزونتين كأنى سجين ينظر من خلال القضبان إلى الطلقاء. بيد أنى لم أحاول قط أن أنطلق من سجنى، لم يكن ليغيب عنى ما ينتظرنى فى دنيا الحرية من قسوة ومهانة، بل أنى لم أسلم فى سجنى من أذى وسخرية وتهجم، وذاك سجنى فلأقنع به، فيه لذاتى وألمى، وفيه أمان من الخوف. أنه سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبته، ولم أجد من متنفس غير الأحلام. كنت أمكث فى الفصل غائبا عما حولى وخيالى يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويقهر، يمتطى متون الجياد ويعتلى الطائرات ويقتحم الحصون ويستأثر بالحسان وينكل بالتلاميذ تنكيلا مروعا، حتى لابست أحيانا حركات رأسى وتقلصات وجهى وانعكاسات من تلك الأخيلة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالنذير والوعيد!

ولم تقف أحلامى عند حد الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيمانى قديما راسخا يعمر قلبى وروحى بحب الله وخوفه معا. وقد أديت الفرائض فى سن مبكرة أخذا عن أمي ومحاكاة لها. ولما أجدت لى لذاتى الخفيفة شعورا بالذنب لم يكن لى به عهد قوى شعورى الدينى، ولفحت إيمانى لهفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتى مرة حتى بسطت يدى مستغفرا. بيد أن أشواقى لم تقف عند حد، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتمنيت من صميم فؤادى لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذى يحيط بكل شيء ويوجد فى كل مكان. وسألت أمي يوما:

- أين يوجد الله.

فأجابتنى بدهشة:

- إنه تعالى فى كل مكان. .

فرنوت إليها بطرف حائر وتساءلت فى خوف:

- وفى هذه الحجرة؟

فقالت بلهجة تنم عن الاستنكار:

ـ طبعا.. استغفره على سؤالك هذا!

واستغفرته من أعماق قلبى، ونظرت فيما حولى بحيرة وخوف، وذكرت بقلب موجع كيف أنى ألم بالإثم تحت بصره القريب لشد ما حزنى الألم، وغصنى الندم، ولكنى ما فتئت أغلب على أمرى.

* * *

وشق على النزاع المتواصل فانتهى بى إلى التفكير الجدى فى الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستعد لامتحان الابتدائية للمرة الثالثة بعد أن أخفقت مرتين فى عامين متتاليين. تملكنى الفزع والقنوط وازددت فزعا وقنوطا للامتحان الشفوى، فما كانت لى قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به الممتحن. وقد سألنى الممتحن الإنجليزى فى العام السابق عن معالم القاهرة التى زرتها؟ وكان كلما سألنى عن أثر من آثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأننى لا أعرفه، فظننى أتهرب من أسئلته وأسقطنى. تملكنى الخوف وأوردنى مهالك القنوط ووجدتنى لأول مرة ألقى على الحياة نظرة عامة شاملة متأثرا خط الحياة من البداية إلى النهاية، حتى لم أعد أرى منها إلا البداية والنهاية متعاميا عما بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هى الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلا الموت. سأموت وينتهى كل شىء كأن لم يكن، ففيم تحمل هذا العناء؟! فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان؟! وازدحمت برأسى ذكرياتى المحزنة عن الحياة التى أحياها.. امتحان لا حيلة لى فيه ثم سقوط فسخرية مريرة، حرمان من أفراح الحياة التى يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لى بالأبكم، رميهم إياى بثقل الدم حتى رآنى تلميذ مرة قادما وكان قريبا من باب مسجد المدرسة فكور كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح فى وجهى منشدا «يا ثقيل الدم!» وقهقه الآخرون ضاحكين. وأذكر أن مدرسا أراد يوما أن يختبر معلوماتنا العامة، فلما جاء دورى ووقفت مبهوتا لا أجيب عن شىء سألنى عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بى «هل أنت من بلاد الواق؟!». كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكنى لم أشترك فى مظاهرة على الإطلاق، وقد أضربت المدرسة يوما وخرجت فى مظاهرة عن بكرة أبيها، إلاى، فقد تخلفت فى الفناء مرتبكا خائفا على كونى من أكبر التلاميذ سنا، ورآنى على تلك الحال مدرس عرف وقتذاك بوطنيته فقال لى معنفا: «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضا؟!» ووجدتنى فى حيرة شديدة بين تعنيف المدرس وبين وصايا أمى التى تحلفنى كل صباح على اتباعها. يا لها من ذكريات خليقة بأن تفقد الحياة كل قيمة. أليس فى الموت غناء عن هذا كله؟ بلى وإنى لأتمنى الموت. وملأت تلك الأفكار على

شعاب قلبى فأجمعت على أن أرمى بنفسى إلى النيل . . وعندما أتى المساء صليت طويلا ، ثم نمت ويدى قابضة على يد أمى ، وأنا أظننى فى عداد الأموات . وجعلت فى الصباح أسترق النظر إلى وجه أمى فى خوف وحزن ، وأثر فى نفسى هدوؤها وجمالها ، فغالبنى شعور بالبكاء ، وأكربنى ألا أستطيع توديعها ، وساءلت نفسى فى إشفاق كيف تتلقى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ سأكون المسئول عن تكدير هاتين العينين الصافيتين ، وتجعيد صفحة هذا الوجه المنبسط ، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثم خفت الخور فجأة فأمدنى اليأس بقوة جديدة ، وحفزنى إلى الهرب . وأتيت على قدح الشاى وعيناى لا تفارقان وجهها ، ثم حييتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور ، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمغم : «الوداع يا أماه ، الوداع يا بيتنا العزيز» . وانطلقت العربة حتى طالعنى جسر الملك الصالح فدق قلبى بعنف حتى شق على التنفس . ينبغى أن ينتهى الآن كل شىء . دقائق معدودات ثم الراحة الأبدية . ولم يكن لدى علم عن عذاب المنتحر فى الآخرة ، فلم أشك فى أنى أستهل حياة مطمئنة . واقترب الجسر رويدا ، وراح توقيع سنابك الخيل يصك قلبى ، ولاحت منى التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ تنتشر على صفحته الدكناء ، وخلتنى أتخبط على أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذفنى بغير مبالاة ، مطمئنة إلى نتيجة الصراع ، وتوثبت لما عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطرى كل شىء فى الحياة فهتفت بالحوذى العجوز وهو ينعطف إلى الجسر :

ـ قف ! .

فشد الرجل على الزمام وتوقفت العربة ، فغادرتها متعجلا وأنا أقول له !

ـ اسبق إلى نهاية الجسر وسألحق بك مشيا على الأقدام .

وانتظرت ريثما ابتعد عنى عدة أذرع ثم ملت إلى سور الجسر ، وأشرفت على النهر بقامتى الطويلة . وحادثت نفسى قائلا : «يقولون إننى لا أحسن شيئا فى الحياة . . ولكننى سأفعل الآن ما لا يسع أحدا الإقدام عليه !» . وألقيت على الماء نظرة متحجرة ، وتمثل لى ما سأفعله بسرعة البرق ينبغى أن يتم كل شىء فى ثوان وإلا أفسد على تدخل المارة غرضى ، أتسور السور ثم ألقى بنفسى ، ولن يستدعى ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات . وانقبض قلبى وأنا أنظر إلى الماء الجارى وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعا صاخبا فدار رأسى . واحد . . اثنان . . وسرت فى بدنى قشعريرة ، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاهق؟ . . وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق؟ ! وشدت قبضتى على حافة السور ، وتقلصت ساقى ، وقلت بلسانى أن سينتهى كل شىء حالا ، ولكننى كنت فى الواقع أتراجع وأتقهقر وتخور

قواى. هزمتنى الخواطر والتصورات التى اعترضت عزمى، لا ينبغى للمنتحر أن يفكر أو يتخيل، لقد تفكرت وتخيلت فانهزمت. واشتد خفقان قلبى. وتراخت قبضتاى عن السور. ثم تحولت عنه متنهدا كالذاهل. وحملتنى ساقاى المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربة، فركبت، واستلقيت على المقعد فى إعياء حتى غالبتنى رغبة فى النوم.

وطالما ساءلت نفسى عما أنقذنى من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبى: إنه الخوف! وقال لسانى: إنه الله الغفور الرحيم.

ولا شك أنى بالغت فيما يتعلق بدوافعى نحو الانتحار، لأنى حصلت على الابتدائية فى ختام العام!

١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرا من أجمل مظاهرها فاختفت من أفقها العربة والجوادان والحوذى العجوز. باع جدى العربة والجوادين واستغنى عن الحوذى. وعلمت مما تستقطته من الحديث أنه خسر ليلة من النادى خسارة جاوزت المعهود، فاضطر إلى اقتراض ما يساوى معاشه من النقود. ولما كان رجلا مطبوعا على النظام فقد آثر أن يبيع العربة والجوادين على أن يربك ميزانيته. لشد ما أحزننا بيع العربة، وضياع الجوادين، ووداع عم كريم الحوذى العجوز الذى قضى عمره فى خدمة جدى حتى فقد فيها أسنانه. ولقد بكيت الجميع بكاء مرا دون أن أنبس بكلمة. وكان جدى يعيش فى نادى القمار أكثر مما يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة. ولم يكن يحاول إخفاء سيرته بما جبل عليه من صراحة وميل للمرح، فكثيرا ما كان يقص على أمى طرفا مما يصادفه فى سهراته، فيقول هازا رأسه الأشيب: «بالأمس لازمنى سوء الحظ طوال الليل حتى قبيل الختام بقليل فعوضت خسارتى جميعا بضربتين موفقتين»، أو يقول: «يا للطمع الأشعبى! أضاع على بمقامرة واحدة فى أخريات الليل عشرين جنيها ربحتها بشق النفس». ولكنه كان بوجه عام مقامرا عاقلا إن جاز لى أن أقول ذلك، تستأثر به لذة المقامرة الجنونية دون أن تنسيه طاقة ميزانيته وواجباته كرب لأسرتنا ولا أشك فى أن أمر مستقبلى قد شغله كثيرا، لا لذاتى فحسب - وإن غمرنى دائما بحبه ورعايته - ولكن لارتباط مصير أمى بمصيرى. ثم كان من تعثر حياتى المدرسية فأخذت الابتدائية فى السابعة عشرة وقد اقترب هو من حدود السبعين، وأخذ القلق يساوره كثيرا وهو أعلم بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر. على أنه كان يتغلب دائما على قلقه بما طبع

عليه من ميل للتفاؤل مرده فى الغالب إلى ما وهبه الله من صحة حسنة لم تزايله رغم طعونه فى السن. إلا أن خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحيطة والحرص، فقال يوما لأمى بعد تردد غير قليل وكانا يتحدثان عن مستقبلى:

- أرى أنه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل المطلق.

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت:

- ماذا تعنى يا أبتاه؟

فقال جدى بغير مبالاة:

- أعنى أنه يجب أن يتعرف إليه. هذا أمر ضرورى وإلا بدا فى أعين الناس وكأن لا أب له..

فقالت أمى بصوت متهدج:

- هذا أب الجهل به أشرف.

فلاح فى وجه جدى الضيق وقال بحزم:

- كأنك تخافين أن يسترده إذا رآه، فيا له من وهم لا يدور إلا فى رأسك، وإنى لعلى ثقة من أنه سر سرورا كبيرا حين هيأت له الأقدار من يربى ابنه عنه. ولكنى أرى الآن أن ينبغى أن يتعرف كامل إلى أبيه. وقد صممت على أن أذهب به إليه، فمن يدرى أنه لا يحتاج إليه غدا؟ هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد؟ ولا تنسى أن كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية وربما أقنعت أباه بمعاونتى فى تعليمه!

ولا شك أن أمى كانت تتحفز للمعارضة، فلما سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفزها وبدا الحزن فى عينيها، ولم تنبس بكلمة، ولما غادرنا جدى اغرورقت عيناها بالدموع فاقتربت منها متأثرا محزونا وجففت عينيها، وقلت لها:

- لا شىء يستدعى البكاء يا أماه.

فابتسمت إلى ابتسامة باهتة وقالت بحزن:

- لا شىء حقا. ولكنى أبكى الأيام الماضية يا كامل.. أبكى الطمأنينة المطلقة التى استنمت إليها طويلا. كانت الحياة رغيدة طيبة لا يكدرها علينا مكدر، اليوم يتحدث جدك عن الغد، وهو إذ يتحدث عنه يملؤنى خوفا وقلقا. لندع الله معا الا يشتت شملنا، وأن يطيل لنا فى عمر جدك، ويغنينا عن الناس..

ثم تفكرت مليا، وقالت لى وهى تحدجنى بنظرة غريبة:

- قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك على أى حال، ولكن لا تنس فيما بينك وبين نفسك أنه هو الذى عذبنا جميعا.

وجرت على شفتى ابتسامة خفيفة لهذا التحذير الملفوف الذى لم أكن فى حاجة إليه.

ليس فى وسعى أن أحب شخصا كرهه أبوه. ثم فكرت فى تلك الزيارة المرتقبة بين ابن وأبيه لأول مرة، وحاولت أن أتخيل صورة لأبى، أو أن أتذكر صورته القديمة التى مزقتها بيدى فلم أفلح.. وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتمنيت لو يعدل جدى عن رأيه.

ولكنه قرر أن نقوم بزيارتنا فى صباح اليوم التالى، وقال لى وهو يستحثنى:

- ينبغى أن نبكر فى الذهاب إليه قبل أن يغيبه السكر!

وخرجنا معا، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشيا على الأقدام. ثم أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحلمية، ثم سرنا إلى شارع مبارك. وجعل يوصينى فى الطريق بما ينبغى أن أتحلى به فى حضرة أبى من الأدب والتودد. قال لى:

- أنت خجول جدا، منطو على نفسك، وأخاف أن يظن ما بك نفورا منه فيبادلك نفورا بنفور خصوصا وأنه لم يهتم يوما بحب إنسان، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتودد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكون من دورين، لا يبدو من دوره الأول إلا أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرقنا بابا ضخما، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بواب نوبى طاعن فى السن، فسلم على جدى باحترام وترحيب وتنحى جانبا وهو يقول:

- رؤية بك فى السلاملك..

وسك الاسم مسمعى، فشعرت على رغمى بما يربطنى بهذا البيت. وتملكتنى رغبة مباغتة فى الرجوع والتقهقر، ولكنها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها، ونظرت فيما أمامى فرأيت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفى رائحة الليمون الزكية. هى حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوها بالفروع والأغصان، وتغطى أرضها بالأوراق الجافة، وبها وبالجو المحيط بها مسحة حزن وكآبة انسربت إلى نفسى فى غير إبطاء. وفى نهايتها يقع البيت، وقد بدأ السلاملك مقاما على سوره جدار خشبى يحجب ما بداخله عمن فى الحديقة. سبقنا البواب إلى الداخل ليستأذن للقادم، ثم عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام، وسار بين يدينا فى ممشى من الفسيفساء. تبعت جدى فى قلق يزداد بتوغلنا فى الحديقة. وعندما أخذت فى ارتقاء السلم جف حلقى من الاضطراب. وبدا أبى واقفا ينتظر، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدى.

كان وقتذاك فى الستين من عمره، ربعة، بدينا وان بدا فى جلبابه الأبيض الفضفاض أبدن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، محمر الوجه والعنق، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه بالدم، أما قسمات وجهه فكبيرة واضحة فى غير تنافر. أصلع الرأس، أسود

العينين، وقد جحظت مقلتاه وتشابكت بهما خطوط حمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بهما نظرة زائغة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخمامته خليقة بأن تبعثه فى النفس من رهبة. خامرنى شعور بالغرابة والإنكار والنفور، وحقدت على جدى المسئول عن الزيارة. اشتد بى الإنكار عندما وضح لى أنه لم يبد آى الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الخاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتا غليظا ذكرنى بصوت أخى مدحت يقول:

ـ أهلا وسهلا.. كيف حالك يا عبدالله بك؟

فرد جدى قائلا:

ـ الحمد لله.. وكيف أنت؟!

وتنحى جدى قليلا ليكشف عنى وأومأ إلى قائلا وهو يبتسم:

ـ كامل ابنك.

وتقدمت منه فى ارتباك ظاهر وعيناى متطلعتان إليه، فحدجنى بنظرة متفحصة فى اهتمام شديد وقد لاح فى عينيه نور خافت، ثم مددت يدى، وعند ذاك قال جدى ولعله أراد أن يتفادى من خطأ رآنى حريا أن أقع فيه:

ـ اقهر هذا الخجل وقبل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إلى ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عينى فوجدته مبتسما، وسمعته يقول:

ـ مرحبا بالابن الذى لم يعرف أباه!.. ما شاء الله (والتفت نحو جدى مستدركا) صار رجلا وفرع أباه طويلا.

فضحك جدى ضحكته العظيمة وقال:

ـ أجل إنه رجل.. ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتفرس أبى فى طولا وعرضا، ثم دعانا إلى الجلوس، فجلسنا على مقعدين متقاربين وجلس على كنبة فى الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينى ملىء ثلجا.

كانت القارورة مملوءة إلا قليلا، وكانت الكأس فارغة إلا قليلا. لم أكن رأيت الخمر أبدا ولكنى أدركت توا أنى حيال الشراب الملعون الذى فعل بأسرتنا الأعاجيب، وسرعان ما ملأنى التقزز والنفور.

واستدرك جدى قائلا:

ـ أى نعم ما ذنبه المسكين؟.. إنه لم يعرف لنفسه أبا، ولا حيلة له فى هذا، ولا داعى لإثارة ذكريات ولت. بيد أننى وجدته رجلا كما تقول، وقد حصل هذا العام على

الابتدائية، وعما قليل يلتحق بالمدارس الثانوية، فاستنكرت أن يظل على جهله أباه، واقترحت عليه أن أقدمه لك، فرحب باقتراحى مسرورا، وها أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبى لا تتحولان عنى فلم أتخفف من ارتباكى وحيائى، ولما ختم جدى كلامه لاحت فى عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألنى:

ـ أحقا سرك أن تقدم إلى؟

فأجبته بصوت لا يكاد يسمع:

ـ نعــم..

فسألنى وهو ينظر إلى بمكر:

ـ أتحب أن تمكث معى؟!

وانقبض قلبى، ولاحت فى عينى نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟! إن وصايا جدى، لا تزال تطن فى أذنى ولكن هبنى أجبت بالإيجاب فدعانى إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟! كلا، لا يسعنى هذا وعضضت طرفى مطبقا شفتى ولم أنبس بكلمة. وقهقه أبى بصوت ارتعد له جدى وهو يحدجنى بنظرة استياء:

ـ ترفق به يا رؤبة بك. إنه لم يفترق عن أمه قط وليس أشق على النفس من تغيير عادة، ولكنى أؤكد لك أنه سر جدا بتعرفه بك. لا تأخذ عليه صمته وارتباكه فإنه كالعذراء حياء.

فهز أبى رأسه الأصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجا عقب القهقهة، وسألنى فيما يشبه التحدى:

ـ هلا مكثت معى فترة من عطلتك؟! شهرا أو أسبوعين؟!

فبادر جدى قائلا:

ـ أما هذا فعن طيب خاطر!..

وفطنت إلى ما فى قول جدى من إيحاء موجه إلى، فوجدتنى كالفأر فى المصيدة. وتولانى ضيق كاد ينشق له صدرى، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذى حدا بجدى إلى سوقى إلى هذا البيت الكئيب. وانعقد لسانى فى يأس وعناد، حتى قال أبى متهكما:

ـ هـذا قـولك أنت يا عبدالله بك، ولكنـى أتسـاءل عـن رأى كامل بك!..

وآلمنى تهكمه، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسى. وتذكرت أمى بلهفة المستغيث شأنى إذا اشتد بى كرب. وقهقهه أبى ساخرا وقال:

ـ ولعل يسر بمعرفتى ولكن من بعيد..

وتغيرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينم عن القوة :

- ألا تعلم أننى إذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل؟!

وتريث لحظة ريثما يحدث تصريحه الأثر المطلوب، ثم ضحك مستدركا :

- لا تخف، لا حاجة بى إلى هذا على الإطلاق . .

وساد صمت رهيب. ولعل جدى أدرك أن الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائى. وشعرت أنا بغريزتى أن كلينا يجد نحو صاحبه نفورا لا خفاء فيه . . وهالنى ما صدم جدى من خيبة مريرة وتوقعت أن يوسعنى تعنيفا وتقريعا. ثم قال جدى بصوت منخفض.

- ابنك سيئ الحظ يا رؤبة بك، فقد حرم نعمة التعبير عما يدور بخلده. إنه طفل خجول لا يدرى عن الدنيا شيئا فترفق به واعذره . .

فقال أبى بلغظة :

- ما هذا الذى تقول يا عبدالله بك! . . خجول، عذراء، لا يدرى شيئا! . ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن أية جبلة هو؟!

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبى. واندفع الدم إلى وجه جدى فقطب غاضبا وقال بكبرياء :

- لقد اختارت أخته أن تمضى إلى زوجها بعد أن يئست من عدالة أبيها!

وروح عنى قوله. أما أبى فاسترسل ضاحكا وقد احتقن الدم بوجهه وبدا فظا قاسيا ممقوتا، ثم قال بسخرية :

- تقول بعد أن يئست من عدالة أبيها! . . اسمح لى أولا أن أملأ كأسا (وملأ الكأس وعل منها جرعة) هلا شربت معى؟ . . كلا؟ . . كما تشاء فلكل إنسان داء. ولنعد الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن بك؟! بعد أن يئست من عدالة أبيها؟! وأنت ؟! ألم تيأس من عدالة أبيها؟!

فنظر إليه جدى باستنكار وازدراء وسأله :

- ماذا تعنى؟!

- أريد أن أقول إن الفتاة إذا كانت قد يئست من أبيها فإن جدها لم ييأس من عدالته، وآى ذلك أنك جئتنى اليوم بهذا الفتى لا لتقدمه لى كما قلت، فقد كان يمكن أن يحدث ذلك فى أى وقت من الماضى، ولكن لتخبرنى أنه عما قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية . . وهنالك المصروفات . . هه!!

فخرج جدى عن طوره وصاح به مغضبا :

ـ لقد أعيانى إصلاحك فيما مضى، ومن الحمق أن أحاول ذلك الآن! . . لقد ربيته حتى صار رجلا دون أن يكلفك مليما واحدا . .

فصفق أبى ساخرا وقال وقد أخذ صوته يعلو :

ـ آه من مكر الرجال! بالأمس جئتنى سائلا أن أترك الغلام لكم، واليوم تمن على أن ربيته حتى صار رجلا!

مرحى . . مرحى، هلا تذكرت اتفاقنا السابق؟

فاشتد حنق جدى وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثره :

ـ أى اتفاق يا هذا؟ . . نحن لا نتحدث عن صفقة تجارية، ولكن عن ابنك، فأين الأبوة والعطف؟!

فقال أبى بتهكم وازدراء :

ـ الأبوة؟ . . العطف؟ . . يا لها من سجايا كريمة بيد أن المال يفسدها . . يا عبدالله بك لندع الهذر جانبا فإنه لا يجمل برجل عسكرى مثلك خاض حروب السودان! وإنك لتعرفنى حق المعرفة فكيف زينت لك نفسك أن تقصدنى بهذا الرجاء الخائب؟! تفكر فى الأمر مليا فإما تكفلت «به» كما اتفقنا أو اتركه لى إذا شئت .

ونظرت إلى جدى فوجدت وجهه ملتهبا بحمرة الغضب، وتوقعت أن ينفجر فى الآخر، ولكنه ضبط نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء :

ـ لولا واجبى نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك موقفى هذا، ولست أستجديك شيئا لنفسى، ولكنى أريد أن أطمئن على مستقبل الفتى خصوصا وإنى رجل طاعن فى السن وقد أموت غدا . .

فقال أبى ضجرا :

ـ إذا مت غدا تكفلت به!

فقطب جدى مستاء، وهالنى تعبير أبى القاسى فكرهته فى تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتى، وكأنما نفد صبر جدى فنهض قائما مكفهر الوجه، ونهضت معه كأننى مشدود إليه . وألقى إلى أبى بنظرة متعالية فى ترفع وغطرسة، وقال :

ـ لا أستطيع أن أقول إنك خيبت ظنى لأنى لم أحسن بك الظن قط ولكنها أخطاء نرتكبها كارهين ونحن أدرى بعواقبها . أستودعك الله .

وأخذ بيدى ومضى بى فغادرنا السلاملك وأبى يقول متهكما :

ـ مع السلامة يا عبدالله بك .

هكذا كان أول لقاء بينى وبين أبى . وقد خرجت منه وبنفسى من النفور ما لا قبل لى به . وما كدت أجتاز باب البيت إلى الطريق حتى تنهدت ارتياحا، ودعوت الله بقلبى ألا

يقضى على يوما بأن أطرق هذا الباب أبدا. وسرنا نحو ميدان الحلمية، وجعل جدى يحث خطاه منكس الذقن محمر الوجه، وهو يغمغم بكلام غير مميز ولا مفهوم وجعلت أسترق إليه النظر محزونا أسيفا، وخائفا فى الوقت نفسه لشعورى بثقل مسئوليتى فيما أدى إلى الخصام. ثم أخذ صوته يتضح رويدا فسمعته يقول وكأنه يحدث نفسه «حيوان أعجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالا؟.. لماذا لم يعاقبه بالعقم؟!» ويقول أيضا: «يا لك من وغد! أليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعته بنفقاته».

وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت، ووقعت على عيناه فحدجنى بنظرة قاسية وأصر على أسنانه وقال لى بحدة.

ـ وأنت يا سى قطران أتظل عمرك بغلا! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودد إليه؟ أحسبته يا أحمق سيرتمى عليك عشقا وولها!

وأفزعنى غضبه كما يفزعنى الغضب عادة، وارتعشت شفتاى كالطفل إذا شرع فى البكاء، ورأى حالى فنفخ مغيظا محنقا، وصاح بى:

ـ ما أسرع أن تبكى!.. ما الذى يبكيك؟.. هل ظلمتك؟ هل تجنيت عليك؟.. لقد أخطأت خطأ غبى أحمق، ومازدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزونا منكسر الخاطر، حتى ذكرت أنى عائد إلى أمى، وأنى سأحدثها بكل شىء عما قليل، فسرى عنى.

١٣

وزارنا يوما مدحت أخى، فى الأسبوع الذى تلا مقابلتنا لأبى. ولما تفرست فى وجهه تلك المرة أيقنت أنه صورة طبق الأصل من أبى. وتساءلت فى حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيهما كما شابهه فى تكوينه الجسمانى؟ والحق أنى رمقته بنظرة غريبة لم يفطن إليها أحد. على أنى أحببته كثيرا كما أحبنا كثيرا. وقد عاتبته أمى على ندرة زياراته لنا فقال لها:

ـ أنت أدرى بأخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقى بامتنان، فالتفت نحوى وقال آسفا:

ـ علمت بما حدث فى المقابلة الأخيرة . .

فسألته أمى باهتمام :

ـ هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكا :

ـ حدثنى بها عم آدم البواب .

وداخلنى استياء شديد فهتفت مستنكرا :

ـ البواب! . . أكان يسترق السمع !

فقال مدحت :

ـ كلا ، ليس به من حاجة إلى استراق السمع ، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبى ، فهو سميره القديم الذى يفضى إليه بمكنون صدره وإن لم ينج من شر لسانه فى غالب الأحايين . ولكم أحزننى الموقف الذى وقفه من جدى ، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعتذر إليه وأقبل يده .

وتجاذبنا الحديث طويلا ، وكان مدحت محدثا ماهرا ، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحة ، ويقهقه قهقهة أبينا العالية فيضاهيه فى جلجلتها دون برودتها وقسوتها ، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتمنيت لو كان لى بعض مرحه وطلاقته . وانساق الحديث إلى مستقبله ، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام ، فقال :

ـ سافرت إلى عمى فى الفيوم ليجد لى وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين ، لكنه لم يوافق على توظيفى بالحكومة ، وعرض على أن أتمرن فى عزبته بأجر عال على أن يؤجر لى أرضا فى القريب العاجل ، ورأيت فى عرضه فرصة تفتح لى أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت .

ولكن أمى لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة :

ـ أليس الأكرم أن تتوظف فى الحكومة؟

فضحك أخى طويلا ثم قال :

ـ إن دبلومى لا يؤهلنى لوظيفة محترمة ، أما عمى فيهيئ لى فرص العمل المثمن والثروة .

ـ وتعيش فى الفيوم حياتك؟ !

فقال باستهانة :

ـ الفيوم من ضواحى القاهرة!

فقالت أمى بحزن :

ـ طالما منيت نفسى باليوم الذى تستقل فيه بحياتك لنعيش معا؟!

فقبل يدها برقة وقال مبتسما :

ـ سوف ترينني كثيرا حتى تمليني . .

ثم ودعنا وانصرف . وتنهدت أمى من الأعماق وقالت بحزن :

ـ غاب عنى نصف حياته فى بيت المجنون ، وسيغيب النصف الآخر فى الفيوم!

وتفكرت قليلا ثم قالت وكأنها تحدث نفسها!

ـ إن عمه لم يعرض عليه ما عرض حبا فى سواد عينيه ، ولكنه ينوى بلا شك أن يزوجه إحدى بناته .

وسألتها ببساطة :

ـ وماذا عليه لو فعل؟!

فحدجتنى بنظرة غريبة ، وهمت بالكلام أكثر من مرة ثم تنثنى عما همت به .

وقد صدق ظنها ، فجاءنا بعد ذلك بزمن غير طويل خطاب مدحت يخبرنا بخطبته لابنة عمه ، ويسمى لنا يوم الزفاف ويدعونا لحضوره . ولم تخف أمى استياءها ، وهالها أن يخطب بدون مشورتها أولا ، وقالت لجدى بغضب :

ـ أرأيت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابنى!!

ولم نحضر زفافه ، لأنى مرضت قبيل موعده ولزمت الفراش أسبوعين فنسيت أمى الزفاف بأفراحه وآلامه . وهكذا تزوج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا أمه ، حتى قال جدى متهكما كعادته :

ـ هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر ، كل أسرة وحدة إلاها فهى أشتات لا تجتمع . اللهم عفوك ورضاك!

* * *

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة فألحقنى جدى بالسعيدية . وقد ذهبنا معا ، وقال لى فى الطريق :

ـ لو كنت رجلا حقا لما أحوجتنى إلى الذهاب معك ، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن سبعة عشر ، وعلى أية حال احفظ الطريق جيدا . لقد كنت ضابطا فى مثل سنك!

وكان يتظاهر بالتذمر والسخط ، ولكنى شعرت بقلبى أنه مبتهج مسرور ، وأحسست بعطفه يشملنى ، فأخجلنى ما يتحمله فى سبيلى من المشقة وهو الشيخ السبعينى . وحين عودتنا ضربنى بعصاه برقة وقال :

ـ إنك الآن طالب بالسعيدية، فاجتهد ترفع رأسنا. أريد أن أراك ضابطا قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبى. وسكت مليا ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

ـ على أيامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل بحق أكبر الشهادات فى هذه الأيام!

وهز رأسه ثم استدرك قائلا:

ـ كانت أياما، وكنا رجالا!!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فألم بى الحزن والكآبة. كانت المدرسة المنغص الأول لحياتى، فكرهتها كرها عميقا صادقا. حقا كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت فى ذهنى بالرجولة والفخار، ولكنها مدرسة على أية حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدرسين وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شك سابقاتها فى المدرسة الابتدائية.

وفى صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت مبكرا بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر، وارتديت البدلة، وتأنقت كعادتى وانتقيت رباط رقبة فاخرا من صوان جدى! وألقت أمى على نظرة طويلة ثم قالت بسرور:

ـ كالقمر وحق كتاب الله!.. وجه أمك على بشرة بيضاء ليس لى مثلها. محروس بعناية الرحمن.

ومضت توصينى بالحيطة فى المشى والركوب والنزول وعبور الطريق، ودعت لى طويلا.. ولما غادرت البيت وقفت بالشرفة تراقب سيرى حتى غيبنى عنها منعطف الطريق. وواصلت السير مغتما محزونا حتى بلغت محطة الترام بشارع قصر العينى. ووقفت أنتظر الترام وحدى لأول مرة فى حياتى، داخلنى إحساس بالحرية لم يداخلنى من قبل. وسرى عنى قليلا فوجدت شيئا من الارتياح، ثم لاطفنى أمل فى بدء حياة جديدة! حياة لا تكدرها التعاسة التى لازمتنى فى مدرسة العقادين. إنى ماض إلى مدرسة جديدة، وسألقى أناسا جددا، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة؟ اللهم إنى إذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرسين؟ وإذا أحسنت التودد إلى التلاميذ اكتسبت مودتهم ودفعت زرايتهم، وهذا شىء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز عنه وحدى؟! ورقص بين ضلوعى حماس بهيج، وقلت لنفسى إذا نجحت فيما أخفقت فيه فى ماضى حياتى هيأت لنفسى حياة طيبة وحببت إلى قلبى الحياة المدرسية المقضى على بها أردت أم لم أرد.

وذهبت إلى السعيدية متفيئا ظل الأمل الجديد الذى انبثق فى نفسى بغتة على محطة الترام! . .

* * *

ولكنى وجدت الحياة أشق مما هيأ لى الأمل، فحال خجلى الشديد ونفورى من الناس دون اكتساب صديق، وضيع شرود ذهنى على اجتهادى هباء! لشد ما عانيت من شرود ذهنى! لقد سلبنى عقلى وأفقدنى كل قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلنى صيدا سهلا للمدرسين. وقد استيقظت مرة من شرودى - فى الأسبوع الثانى من حياتى المدرسية الجديدة - على مسطرة المدرس وهى تصدم جبينى، وصوته وهو يسألنى بلهجة الوعيد:

- قلت تحد شمالا بماذا؟

فحملقت فى وجهه بارتباك وفزع حتى نسيت أن أنهض قائما فزعق بى:

- تفضل بالوقوف لترد على خادم أبيك!

ونهضت فزعا، ولبثت متصلبا دون أن أحرى جوابا، فلطمنى على خدى وصاح بى:

- تحد شمالا بماذا؟

ولما لم أخرج عن صمتى لطمنى على خدى الآخر وسألنى:

- لندع مؤقتا ما يحدها شمالا، فما هى التى أسأل عما يحدها شمالا؟

ولازمت الصمت وخداى يلتهبان، فانهال على لطمة يمينا ولطمة شمالا وأنا لا أجرؤ على تغطية وجهى بيدى، حتى انفثأ غضبه فأمرنى بالجلوس. وضج جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغالب دموعى. انقلبت مرة أخرى إلى أذى المدرسين وسخرية التلاميذ. ومضيت أجتر آلامى فى صمت واليأس يفتك بنفسى فتكا ذريعا. خبا الأمل وانتهت المحاولة الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تعاستى المعهودة. وعلى رغم ذلك تعلقت بخيط واه فكرست كل وقتى للمذاكرة عكفت على كتبى ساعات متواصلة، ولكنه كان مجهودا ضائعا إلا أقله، والحق أنى كنت أثبت عينى على الصفحات على حين يتطاير خيالى فى وديان الأحلام فلا أستطيع لمه. وهى أحلام تحركها الشهوة وتعبث بها الخادمات القذرات، ثم تنتهى بالعادة الجهنمية التى أدمنت عليها مذ ناهزت الحلم، فلا تفوت ليلة إلا وانصهر فى أتونها فى لذة مفتعلة وندم موجع طويل.

ولم أقف من رغبتى فى صداقة الرفاق موقف الجمود المطلق، ولكن أخفقت فى مسعاى إخفاقا كاملا. كان يقابل تلك الرغبة فى نفسى ميل أصيل للوحدة، ونفور وخوف من الناس، وانطواء على النفس دفعنى إلى الكتمان الشديد فلا أحب أن يقف إنسان على سرى ولا حتى مسكنى أو عمرى، هذا إلى عجز عن الحديث، وعدم فهم للنكتة فضلا عن تأليفها، فلم يجد فى أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إلى، عادوا يرموننى

بثقل الدم. أخفقت فى اكتساب صديق، وعشت العمر بلا صديق. بيد أنى لم أكن أدرك حقيقة نفسى، فاتهمت الرفاق دون نفسى بالعيوب التى حرمتنى الصداقة، واعتقدت زمنا أنه لا صديق لى لأنه لا يوجد من هو أهل لصداقتى! ما أعجب غرور الإنسان! إن السماء والأرض لا تسعانه. وعلى عجزى ونقائصى كان يخيل إلى أحيانا أنى الكمال المطلق، فهذا الحياء القاتل أدب، وهذا الإخفاق فى الدراسة عبقرية بطيئة النمو، وذاك الفقر المدقع فى الصداقة والحب تسام، وأمدنى علم النفس - الذى درس لنا عاما فى السنة الخامسة - بألفاظ غامضة انتفعت بها فى إرضاء غرورى الكاذب. ومع ذلك كانت تثقل على ساعات يأس فأكاد أستشف الحقيقة، وقد قلت لأمى يوما، وهى الحبيب والصديق والأنيس الذى لم أظفر بسواه.

- لا صديق لى، التلاميذ يزدروننى!

فتولاها الغضب، وهتفت بى:

- إن نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ، إنهم لا يحبون إلا من لا يجاريهم فى شطارتهم وسوء خلقهم ويحسدونك لحيائك وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس!

فقلت محزونا: أشعر أحيانا بأنى وحيد فتثقل الوحدة علىّ!

وهالها قولى ورمقتنى بإنكار، وقالت:

- وأين أمك؟.. كيف تقول هذا وأمك على قيد الحياة؟ ألست أكرس حياتى لخدمتك ورعايتك؟!

أجل، إنها تكرس حياتها لى، وأنها كل شىء فى حياتى، ولكن من لى خارج بيتنا؟!

واطردت حياتى المدرسية فى تعثر وتثاقل على رغم كونها تتوكأ على عكاز من المدرسين الخصوصيين.

ولشد ما كان يحزن جدى كلما سقطت فى امتحان، ولم يعد يسخر منى فى مزاح، ولعل طعنه فى العمر رده شديد الإشفاق على مستقبلنا، فكان يقول لى:

- لماذا تخفق هكذا يا كامل؟ أكل عام بعامين؟.. ألا ترى أنى أتلهف على رؤيتك موظفا قبل أن أموت؟

وكان كلامه يقع من نفسى موقعا محزنا، ثم أقول له.

- ما ألوت أن ذاكرت حتى منتصف الليل.

وتبادر أمى إلى تأييدى فى قولى فيهز رأسه الأبيض ويتمتم:

- الأمر لله.

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللهما الأحلام المزعجة، ولذلك أيضا كان يغرينى الحياء والغرور بتصنع التعب والتوعك فى الأشهر السابقة للامتحان لأعتل بهما على إخفاقى المتوقع. وكانت أمى من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور، وتشد حولى عنقى التعاويذ. ولا أنسى مرة ـ وكنت قريبا من امتحان الكفاءة ـ جاءتنى بامرأة ممن يقرأن الغيب مستعيذة بقدرتها على إنجاحى، فحرقت المرأة بين يدى البخور، وركزت فى المدفأة عصا قصيرة وأمرتنى أن أقفز فوقها ثلاث مرات، وفعلت ما أمرت به، فقالت لى بيقين: «ستنجح بإذن الرحمن»، ولما سقطت فى الامتحان قلت لأمى متعجبا: «كيف أسقط وقد قفزت المرات الثلاث»؟!

وعلى رغم هذا كله واصلت الدراسة، وطويت عهد الثانوى وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين!..

١٥

وداخلنى على إخفاقى المتواصل شعور بالزهو والرجولة. إن كثيرين من موظفى الحكومة لا يحملون إلا البكالوريا فأنا رجل ذو شأن! ولست أطمع من ورائها انخراطا فى سلك الحكومة ولكنى أرجو أن أخرج بها من البيت، أعنى أن أتحرر بها من ربقته التى تشدنى شدا يكاد يمزق ضلوعى. أجل لقد ملكنى شعور جامح هفا بفؤادى إلى التجدد والانطلاق. لم أعد غلاما يقاد من أنفه، وها هى الحياة تستفزنى للتمرد والثورة. ولكن أى تمرد وأية ثورة؟ على ماذا أو لماذا؟ لم أجد جوابا واضحا، والحق أنى لم أكن أفكر، ولم يكن هياجى فكريا، ولكن ثورة شعورية تنبعث من أعماق نفسى، تروم الانطلاق والتغيير، وتشوف إلى المجهول. لم أستبن هدفا على وجه التحديد، وعانيت حنينا مؤلما غامضا كلما تحرك بصدرى شملنى بكآبة ووحشة. وكنت كلما استبدت بى تلك الأحاسيس وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فثار بى الغضب لأتفه الأسباب.

وفى تلك الأثناء كان جدى يهدف إلى الثمانين، وكانت أمى تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين.

انقلب جدى شيخا نحيلا، ولكنه حافظ على صحته ونجا من شر الأمراض، وتمتع بما وهبه الله من نشاط يحسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته الهادئة. أجل اضطر إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد يحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى

مقهى لونابارك صباحا ليجتمع بقلة من صحابه، ويمضى فى النادى مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت فى العاشرة، وكان يمشى مشيته العسكرية فى قوة ووقار دون أن ينحنى له جذع. أما أمى فقد سارع إليها الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدت بالقياس إلى عمرها. جف عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها شيبا، إلا أنها تمتعت بصحة جيدة، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه. وكانت ربما استسلمت فى أحايين للإهمال فلا تعنى عنايتها المعهودة بهندامها. ولشد ما كان يتولانى الحزن والاستياء لذلك، حتى قلت لها مرة «لاقينى بالهيئة التى تلقين بها الضيوف»، ولم تخيب لى رجائى ذاك فكانت تبدو لى وهى على أحسن حال، وطابت نفسى ورضيت.

وظن جدى أن الفرصة تهيأت ليحقق الأمل الذى طالما حلم به ألا وهو أن أصير ضابطا، ولكنى كنت جاوزت السن المقررة للالتحاق بالمدرسة الحربية، وحسب أن الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة التى بددت حلمى فسعى إلى كثيرين من كبار الضباط، ولكنه أفهم أن القانون لا يتسامح فى ذلك. وحزن جدى حزنا شديدا، وقال لى آسفا:

ـ لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلا حسنا، ولاطمأن قلبى عليك وعلى أمك.

وهز رأسه فى سخط، ثم سألنى:

ـ علام نويت؟!

فنظرت إليه فى حيرة، ولم أحر جوابا، فعاد يسألنى:

ـ ألا تفضل مهنة بعينها؟

واشتدت حيرتى لأن نفسى لم تنزع بى إلى مهنة غير الحربية وذلك بتأثير جدى نفسه وإيمانه، فلم أدر بماذا أجيب، وقلت:

ـ كنت أمنى نفسى بدخول الحربية، أما الآن فالمهن كلها بالنسبة إلى سواء..

ـ إنى أختار لك الحقوق فهى خير ما بقى لنا؟ ولا أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان فى الجامعة، وربنا يعيننا على مصروفاتها!

أسفت على ضياع المدرسة الحربية من يدى، ولكنى لم أدرك فداحة خسارتى إلا حين أيقنت أننى سأواصل الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقل، أو ثمانية أعوام إذا سرت بالمعدل الذى لازمنى فى المدرستين الابتدائية والثانوية. وكنت بطبعى أكره الدراسة والمدرسة فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل. ولم أكن أدرى عن الجامعة شيئا، ولكن رجحت ألا تكون بغيضة كالمدرسة، وقلت لنفسى إن طلابها فى سن الرجال فلا يمكن أن يمثلوا بى كإخوان لهم من قبل خلفوا فى نفسى آثارا لا تزول، كذلك استبعدت أن يكون العقاب مما يجوز أن يعامل به رجال أو من هم فى حكم الرجال. ودأبت على

تحبيب الدراسة المنتظرة إلى نفسى ، ولم آل عن تهوين خطبها ، حتى أستطيع أن أزدردها فى صبر وأناة . وفى صيف ذلك العام قيدت طالبا ـ بكلية الحقوق .

١٦

وفى صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت البيت مزودا بالدعاء قاصدا الجامعة المصرية . ووقفت على طوار المحطة أنتظر الترام ، وهو نفس الترام الذى كان يحملنى إلى المدرسة السعيدية ، ولم أخل ذلك الصباح ـ على امتعاضى ـ من شعور بالزهو . وإنى لفى انتظارى إذ طرق مسمعى صفقة مصراع نافذة فتحت بعنف فلطمت الجدار ، فارتفع بصرى إلى الدور الثانى من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة مباشرة ، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتى قبل شهر تقريبا ، فوقع بصرى على فتاة فى الشرفة واقفة تحتسى شايا . أدركت لتوى أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب ، وثبتت عيناى على الفتاة ، وجعلت أتابعها وهى ترفع القدح إلى شفتيها فترشف رشفة ، ثم تنفخ السائل الساخن بفم مزموم . وتبدأ وتعيد لاهية بلذة الشراب . وبدا لى منها قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية ، فى سترة وتايير رمادى ، وكأنها وشيكة الذهاب إلى المدرسة فى احتشام الطالبات . وكانت تولينى جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجها مستديرا ، توحى هيئته بتنسيق جميل وإن لم أستطع تبين معالمه من موقفى ، تعلوه هالة من شعر كستنائى ، فبعثت فى نفسى أثرا بهيجا . ولم تبق هدفا لناظرى إلا قليلا ، ثم دارت على عقبيها ومرقت إلى الداخل . واحتفظت بصورتها فى حب استطلاع ريثما جاء الترام ، ثم ركبت متخففا بالأثر البهيج الذى بعثته فى من كآبة اليوم الذى تبدأ فيه الدراسة . على أنى وجدت فى الكلية مزايا خليقة بأن تذهب مخاوفى وإن لم تقلل من أسباب نفورى العام من الدراسة . من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات فى اليوم تنتهى عادة فى الساعة الواحدة ، ومنه تمتع الطلبة بحرية الحضور أو الغياب بلا رقيب ، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست فى روح الطلبة أن ما يتهدد أساتذتهم أخطر مما يتهددهم هم . سررت بذلك كله ومنيت نفسى بأن تنتهى هذه الدراسة على مرها كما انتهت الدراسات السابقة ، ولم يكن جديدا على أن أتجرع دراسة على كره ونفور حتى الثمالة . وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنيل شعرت بسرور مفاجئ هيأ لى أنى رجل خطير . ونصف أستاذ وربع وكيل نيابة !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ذكرت الشرفة وأنا أشارف المحطة فرفعت عينى مدفوعا بتطلع هادئ طبيعى ولكنى وجدتها خالية، وتسلل بصرى إلى الداخل فرأيت مرآة فى الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضيا لامعا ومصباحا كهربائيا يتدلى من السقف ذا قبعة زرقاء كبيرة، ثم بدا فى وسط الحجرة رجل فى الخمسين ذو نظارة ذهبية يزرر حمالة بنطلونه، فخفضت بصرى ورحت أقطع الطوار جيئة وذهابًا. ولاحت منى التفاتة إلى المحطة المقابلة، للترام الذاهب إلى العتبة، فرأيت الفتاة واقفة - وقد عرفتها بقامتها وزيها - وبيدها كتاب. كانت فى وقار بدا حلوا بالقياس إلى عمرها الذى لا يجاوز العشرين، ولم يكن بصرها يعلق بأحد ممن يحتشد حولها أو يمر بها، فأثر تحفظها فى نفسى أثرا جميلا ملأنى احتراما وإعجابا ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان. ولم يكن تأثير المرأة فىّ بالأمر الجديد على نفسى، فإنى أرى الحسان فى الطريق أو فى الترام، وأتبعهن عادة نظرة رجل عابر أمضه الحرمان والوحدة والرغبة، وأرجع منهن بالنشوة البديعة والهزة الموجعة. أما هذه الفتاة فلها شأن آخر، فلن يكون موقفى منها موقف العابر، ولكن موقف المقيم ومن هو فى حكم الجار، فإنى أراها اليوم، وأراها غدا، وإلى ما شاء الله فضاعف ذاك من اهتمامى بها وحرك فى قلبى آمالا وهمية، ومنانى بسرور متجدد، فكأنه نوع من التعارف ولون من الأمل الغامض، وملهاة سرور سلبى لا يطمع فى أكثر منه شخص خجول هياب مثلى. ثم ذهبت إلى الكلية طيب الشعور، متسائلا: هل يمكن يا ترى أن تنتبه إلى؟!.. وقد ذكرتها فى أعماق الليل، فى وحدتى النفسية، وهذيان الأحلام الجنسية يعبث بخيالى، فوجدت من نفسى اعتراضا وتمردا وإباء شديدا، فأبعدتها عن أتون عادتى الذميمة، مستديرا، قانعا هنا بالحيوانات القذرة التى تلهب أحط الإحساسات من جسدى..

* * *

وفى صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأنى من التطلع على موعد، وأرسلت ناظرى إلى المحطة المقابلة، فرأيتها بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدرى ووقارها الجذاب. وسرى فى جوانحى الارتياح. ثم حدثتنى نفسى بأن أجد سبيلا إلى الاقتراب منها وهى لا تدرى بى لأروى ظمئى إلى معرفة وجهها عن كثب، وحثنى الإشفاق من مجيء الترام الذى تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسى دون تردد، فاتجهت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغوص فى صدرى فرقا، ومررت بها مسترقا النظر، فرأيت فى عجلة المذعور عينين عسليتين صافيتين تقطران ملاحة، وأنفا صغيرا دقيقا وشفتين رقيقتين، ولعلها أحست حرارة بصرى فرفعت عينيها عرضا فالتقت عينانا، وسرعان ما استرددت بصرى لأنه أيسر على أن أحملق فى قرص الشمس إبان اعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائرا لا أدرى

كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وخيل إلىّ أنى ارتكبت شططا جنونيا فأوقعت نفسى فى ورطة عسيرة المخرج، هكذا كانت تتراءى لى أتفه الأمور. ولبثت متسمرا حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكانى لاهثا، وجعلت أحدث نفسى: أجمل بها من ملاحة ورشاقة واحتشام. وعشت مع خيالها يومى فلم أكد أنتبه إلى ما يلقى على من محاضرات. وعلى قدر ما نازعتنى النفس إلى تملى عواطفى على قدر ما ازددت كرها للمحاضرة التى تعترض سبيل أخيلتى، ففاض بى شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التى تعذب عقلى وتتجاهل قلبى وشعورى وكأنى أنتبه إلى قلبى لأول مرة، فأحس به عضوا حيا مثل بقية الأعضاء، يجوع جوع المعدة، ويرق رقة النفس، ويتشوف تشوف الروح، فتمنيت أن أكرس حياتى لسعادته، وإن استسلم لحنان المتعة التى تتفجر عنها ينابيعه.

تنهدت من الأعماق وأنا جالس فى نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحدثتنى نفسى بأن وراء هذه الحياة الجافة الضيقة المكبلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرة، فهفت نفسى إليها فى جزع ولهفة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقنع خيالى هذه المرة بالرؤية. فخلق ما شاء له هواه فرأيتنى ألفت نظرها إلى، واقتربت منها كما فعلت فى الصباح، ولكنى لم أرتبك كما ارتبكت فأومأت إليها فى جسارة نادرة، ويغلبها ابتسام المودة فتبسم إلى، وأهمس لها بما أحب وتهمس لى كذلك، ونركب الترام معا، وفى مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبك، فتقول لى بوجه مضرج بالدم وأنا، فأهوى إلى خدها الثمه فى إعجاب واحترام وحب يسمو عن الشهوات، أجل لا يحب خيالى أن يصورها لى إلا فى ردائها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام.

* * *

وبكرت فى الذهاب إلى المحطة فى صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بصرى إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التى يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرآة، ومضت تسوى شعرها وتمنحه اللمسات الختامية التى تشبه لمسات التدليل والمداعبة فانشرح صدرى وتتبعت يدها بجوارحى حتى خلتنى أجد مس الشعر الناعم وأشم عرفه الطيب. ثم رأيتها تتحول عن المرآة وتطل من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدرت من اتجاه وجهها أن عينيها على طوار المحطة، ونزعت بخجلى الفطرى إلى خفض عينى، بيد أننى تشجعت ببعد المسافة بينى وبينها وثبت عينى بجهد قليل. ترى هل وقع بصرها على؟ .. وهل ذكرت فتى الأمس الذى التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة؟ كلا إنها لا تحس لى وجودا، ولن تحس بهذا الوجود. لبثت قليلا، ثم تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظرى. وقطعت طوار المحطة ذهابا وجيئة، ثم عدت إلى موقفى، وجاء ترام أثر ترام

ثان وأنا بمكانى كالمنتظر . وفى أثناء ذلك ظهرت فى الشرفة فتاة فى العاشرة فى مريلة زرقاء أدركت لتوى أنها أختها . ثم رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتجه صوب المحطة المقابلة . رأيتها تسير لأول مرة ، فتحدث مشية هادئة متزنة توافق وقارها الجميل وتناسب قدها الرشيق وقامتها الطويلة . وتحرك فى أعماقى الإعجاب والاحترام . وأرسلت بناظرى حتى جاء الترام وصعدت إليه . استوفيت جزاء الانتظار سرورا وارتياحا ، وركبت الترام مزودا بأطيب أزاهر الأحلام ولم يخف عنى اهتمامى بها وسرورى باحتشامها ووقارها ، فلم أشك فى أن التطلع لذاك البيت سيكون من الآن فصاعدا هوايتى . وقلت لنفسى : «ما أحوجنى إلى رفيقة لحياتى فى مثل كمالها»! وضاعف من حسرتى أننى عشت حياتى لا رفيق . على أننى شعرت بقلق من جراء إفصاحى عن هذه الرغبة ، كما شعرت بحياء شديد . ولم تكن تلك أول مرة أفصح بها عن الرغبة فى الرفيق ، ولكنه كان إفصاحا عابرا وتشوفا عاما ورغبة بلا هدف معين وشوقا غامضا ، أما هذه فإفصاح خطير حرك حيائى وخوفى ، وتشوف خاص ، ورغبة يغرر بها أمل ، وشوق يستمد الوقود كل صباح . وأعجب ما فى شعورى أنه كان شعورا بيتيا إن صح هذا التعبير ، فانصب من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها ، وما ذكرتها قط إلا وتحضرنى صورة البيت ، فامتزجت الصورتان فى مخيلتى ، ونالتا من اهتمامى وأحلامى نصيبا واحدا! وسرعان ما تمثلت فيها زوجتى! ولا عجب فإنى امرؤ إذا وقعت عيناه على فتاة فى الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصور أنه خطبها وعقد عليها وزف إليها والترام لا يزال فى منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس! فكيف لا أتمثل فتاة الصباح زوجة؟! وملكنى الإعجاب والاحترام ، وقدسية الإحساس البيتى ، وحنان العاطفة الزوجية ، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق ، لعله الحب الذى لم يعرفه قلبى .

وفى صباح اليوم الخامس أطلت وقفتى حيال المرآة قبل أن أغادر البيت ، وألقيت على صورتى نظرة متفحصة . ينبغى أن أعترف هنا بإعجابى الشديد بذاتى!! فلم تكن أنانيتى بقاصرة على سلوكى ، ولكنها امتدت إلى حب الصورة والإعجاب بها . ولشد ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين ، وهذا الأنف الدقيق المستقيم ، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذى البشرة البيضاء . . وكان تأنقى مضرب الأمثال فى البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربية لى مرة : «لو أتقنت العربية اتقانك لعقد رباط رقبتك لما كنت أسوأ تلميذ عندى!» نظرت إلى صورتى طويلا ذاك الصباح وجعلت أمى ترمقنى بإعجاب وتمازحنى بكلمات كالغزل فقلت لنفسى آه لو تدرى لمن أنا أتأنق! وغادرت البيت فى ارتياح مطمئنا إلى ما عسى أن يتركه منظرى من أثر حسن فى نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينيها إلىّ . بيد أن ارتياحى لم يطل ،

وذكرت أمرا طالما نغص على صفوى، ففتر حماسى . . ذكرت ما رميت به كثيرا من ثقل الدم، ولم أستبعد فى تلك اللحظة أن يكون ذلك العلة فى إخفاقى فى اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكدر صفوى وتجهمت لى الدنيا . . وسرت بخطا ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة . ودار بصرى ينقب فى مكانها حتى استقر عليها فى الشرفة تحتسى الشاى كما رأيتها أول مرة . هناك نسيت كدرى وهمى، وانشرح صدرى، وانبعث السرور فى كل قطرة من دمى . هناك أدركت أنها سرورى وفرحى وأنها روحى وحياتى، وأن الدنيا من غير طلعة محياها لا تساوى ذرة من رماد!

* * *

وواظبت على ذاك الموعد الذى لا يدرى به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوما بعد يوم دون انقطاع أو تأخير . تطلعت بناظرى حتى كل البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى نؤت بهما، وتمليت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع، وسحت فى دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولا وعرضا، إيماءة ولفتة، ووقفة ومشية، سكونا وحركة وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتها من أب وأم وأخت وأخ، كل هذا وهى لا تدرى بى، ولا تحس لى وجودا، وكأننى بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب . وأمضنى الجزع والضيق، وأحرقتنى الرغبة فى إثبات وجودى، ولكن شدنى عجزى إلى موقفى لا أتعداه . حلمت فى شرودى كثيرا بأنى أعترض سبيلها، وأتبعها، أو أنى أبوح لها بإعجابى واحترامى . أما فى الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العمارة حتى ينقبض قلبى حياء وخوفا، وحتى أتهيأ لغض بصرى فيما إذا اتجه بصرها نحوى . ولعله كان أسهل على أن أرمى بنفسى من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينيها . وكنت أتساءل فى يأس وجزع متى تنتبه لوجودى؟ متى تدرى أن هنالك قلبا غريبا يكن لها من الوداد أضعاف ما يكنه لها الوالدان؟! . . أليس غريبا أن يمر شخص مر الكرام بقلب يود لو يفرش شغافه تحت قدميه؟!

وتركزت أفكارى ـ تلك الفترة ـ فى قلبى بآلامه وآماله، مخاوفه وأفراحه، وشعرت شعورا قويا بحاجتى إلى نصيح أو مشير، وكانت أمى هى صديقى الوحيد فى دنياى، ولكنى لم أتوجه إليها بطبيعة الحال فى أزمتى تلك لشعورى بأنها ستقف من رغبات قلبى موقف العداوة! . . بيد أنى وجدت فى بعض المجلات التى يقرأها جدى صفحات مخصصة لأسئلة القراء فأملت أن أظفر منها بالمشير الذى أفتقد . وأرسلت إلى إحداها هذا السؤال الذى أقض مضجعى : «رجل ثقيل الدم، أليس ثمة أمل أن يحبه محبوبه؟» وكان جواب المجلة «الحب سر من الأسرار لا شأن له بالخفة ولا بالثقل، وقد يتعامى عن القبح والدمامة فلا تخف على حبك من ثقل دمك!! وإذا جاز لنا نتفلسف عن طبيعة

المرأة فلعله يصح أن نقول إنها مغرمة بالقوة والشجاعة!» سررت بمطلع الإجابة. فلما أن بلغت ختامها خامرنى شعور بالخيبة، وتساءلت عما يعنيه بالقوة، . . آه. لست قويا على أى حال، والحق أن إدمانى العادة المرذولة جعلنى نحيفا أكثر مما ينبغى وأضفى على بشرتى شحوبا. وعندما ذكرت الشجاعة لم أتمالك نفسى من ضحكة مريرة، وعددت ما يخيفنى فى هذه الدنيا من الأناسى والأجواء والفيران والصراصير، فعصر اليأس قلبى!

ولكننى لم أسلم لليأس لأن النار التى تستعر بنفسى كانت أقوى من أن تخمدها ضربة من قبضة اليأس الباردة، فأرسلت إلى المجلة هذا السؤال: «كيف أجذب محبوبتى؟» وكان الجواب: «اذهب إلى أبيها أو ولى أمرها واطلب يدها إليه وإنى كفيل بأن تحبك» رباه، ما أقسى المجلة! . . إنها لا تدرى إلى أنى طالب، وأن أمامى أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلا مسئولا، وأننى فوق هذا كله. أقدر على اقتحام أبواب جهنم منى على طرق باب محبوبتى لأطلب يدها، . . يا أسفا، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل؟! ما أرانى إلا مقضيا على بالهيام الصامت المنفرد وحبيبتى على قيد خطوة منى!

١٧

واعترض سبيلى حادث لعله فى ذاته تافه - ولكنه غير مجرى حياتى. وكانت حياتى الدراسية نزاعا متواصلا بين عقلى الراكد ونفسى الشاردة يتمخض - كما تمخض فى الماضى - عن عناء شديد وثمرة قليلة. وقد بات الشرود لدى ملكة آسرة غلبت على نفسى جميع قواها العقلية، حتى أشفقت من ألا أنال الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! على أنى عرفت من خطورة دراسة القانون أشياء غاب عنى شىء لا يكاد يقيم له الطلبة وزنا، بل يقبلون عليه فى سرور ويعدونه رياضة ولهوا، ذلك هو درس الخطابة. وكان يلقى علينا مرة فى الأسبوع فى مدرج عام يحضره جميع طلبة القسم الإعدادى. وفى أثناء الشهرين الأولين استمعنا إلى دراسة نظرية فى فن الخطابة ثم بدأ التدريب العملى. وطفق الأستاذ يدعو الطلبة إلى ارتجال الخطب فى الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون بطلاقة، وبأصوات جهورية، فى ثبات وشجاعة ورحت أنصت إليهم فى دهشة مقرونة بالإعجاب البالغ، مأخوذا بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولا لمقدرتهم على التصدى لهذا الموقف الرهيب حيال هذا الجمع الحاشد، فكنت أتطوع بالخجل نيابة عنهم حتى يتفصد جبينى عرقا! وما أدرى فى أحد الأيام إلا والأستاذ ينادى:

- كامل رؤبة لاظ!

ونهضت قائما بحركة عكسية، فى الصف الأخير من المدرج - المكان المفضل عندى - حيث لا تقع على عين . . وأحدث اسمى اهتماما ساخرا، فهمس أحدهم قائلا :

- هذا حفيد لاظوغلى!

وتساءل آخر :

- اسم هذا أم فعل؟!

وقفت مبهوتا خافق الفؤاد، فقال الأستاذ :

- تعال إلى المنصة .

وتسمرت فى مكانى فى ارتباك لا قبل لى به، رغبت أن أعتذر ولكن بعدى عن الأستاذ كان يوجب على أن أعلى صوتى فيسمعه الجميع، فسكت على رغمى . ونظر الأستاذ إلى دهشا، ثم قال :

- مالك واقفا لا تتحرك؟ . . تعال إلى المنصة!

واستدارت الرءوس إلى حتى شعرت بأنى احترق تحت وقعها، واستحثنى الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره :

- لمــــاذا؟

وضحك كثيرون من سؤالى، وقال الأستاذ بحدة :

- لماذا؟! . . لكى تخطب يا أخى كالآخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفين من المدرج .

- لا أدرى كيف أخطب!

وطبيعى أن صوتى لم يبلغ الأستاذ فتطوع طالب قريب بإبلاغ جملتى صائحا بلهجة ساخرة :

- يقول إنه لا يدرى كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنم عن التشجيع :

- هذا درس تدريب، وأخلق أن ينتفع به من لا يجيد الخطابة . تعال .

ولم أر مناصا من الذهاب، فحركت قدمى فى جهد وعذاب كأنى أساق إلى المشنقة، ثم ارتقيت المنصة فى حالة ذهول، ووقفت محدقا فى الأستاذ باستسلام واستعطاف موليا المدرج جانبى الأيسر . وأدرك الأستاذ ارتباكى فقال بلطف :

- انظر إلى زملائك، واملك جنانك، وتكلم كأنك وحدك . لابد من اعتياد هذه المواقف لأن حياة الحقوقى لا تخلو ساعة منها وإلا كانت هراء لا معنى له . كيف تقف غدا فى ساحة القضاء سواء تحت ظل النيابة أم المحاماة؟! . . ادع شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثا إياه على التبرع لإحدى الجمعيات الخيرية .

وتطلع إلى الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع، فحملقت فى الوجوه المتطلعة دون أن أرى شيئا، ولفنى ذهول وخجل مميت فكدت أقع مغشيا على، وتولانى ذلك الإحساس الحاد بالقنوط الذى يمسك بخناقنا فى الكابوس. ولم يخطر لى لحظة واحدة أن أفكر فى الموضوع، ولعلى أنسيته، ولم يكن يدور بخلدى إلا هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمة! وملّ الأستاذ الانتظار فقال:

ـ تكلم. لا تخش الخطأ. أفصح عما ببالك جميعا.

رباه متى ينقضى هذا العذاب؟ هيهات أن يرثى أحد لى. وهاهم الطلبة يتغامزون ويتضاحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحذر إخوانه من الاستهانة بى:

ـ هكذا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

ـ وهكذا انتهى!

وصاح ثالث:

ـ انصتوا إلى بلاغة الصمت.

وامتلأ المكان ضجة وضحكات فدار رأسى وأخذت أتنفس بصعوبة، ثم صممت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجة الشياطين تلاحقنى وتصك أذنى، وما زلت أخبط على وجهى محموما هاذيا حتى انتهيت إلى محطة الترام. ورحت أردد بتصميم وحنق «لن أعود.. لن أعود، وكان ذلك التصميم البلسم الشافى لجرح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعينهم على مرة أخرى، ولن أعرض نفسى لبسمات الهزء والسخرية، وأية فائدة ترجى من العودة إلى الكلية ما دامت حياة الحقوقى لا تخلو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كله، وحسبى ما عانيت من عبودية العذاب. وتعزيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقنى من مهانة وإحراج بل نسيت به ألمى وحنقى فترطب صدرى المحترق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينى إلا ذاك التصميم.. وبعد الغداء قصصت على جدى وأمى ما لقيت فى يومى من شدة ومكروه، واختنق صوتى بالبكاء وأنا أقول:

ـ هذه حياة لا تطاق، ولن أعود إلى الكلية أبدا.

وهال جدى الأمر فقال بانزعاج:

ـ أأنت رجل؟! ألا ليتك خُلقت بنتا. إذن لكنت أكمل الفتيات؟.. أتريد أن تقطع حياتك التعليمية فى الطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين!.. والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمى تقبض أصابع يمناها وتبسطها فى تشنج وتقول :

ـ حسدوه . . حسدوه يا ربى !

وحاول جدى أن يثنينى عن عزيمتى تارة باللين وتارة بالعنف ، ولكن اليأس ثبت عنادى فلم أنثن ، ولما فرغ صبره قال :

ـ إذن ضاعت السنة ، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكلية أخرى بعد انقضاء شهرين ونيف على افتتاح العام الدراسى .

فركبنى الخوف أن يلقى بى تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت :

ـ ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم .

وقاطعتنى أمى هاتفة بألم :

ـ لا تقل هذا يا كامل . بل لتواصلن التعليم سواء فى هذا المعهد أم أى معهد آخر .

وضرب جدى كفا بكف وهو يقول :

ـ لقد جن ، وهذه نهاية التدليل .

ولكنى كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت ، ولم يعد بى من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات ، فقلت بقنوط :

ـ لا أستطيع . . لا أستطيع . . أرحمونى !

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا قبل لى بها ، قوة مصدرها الخوف واليأس ، حتى سكت جدى مغيظا محنقا . وبعد فترة صمت مرهق سألنى :

ـ أترغب أن تتوظف بالبكالوريا !

فقلت خافض العينين :

ـ نعـــم !

واختلست منه نظرة فوجدته صامتا مقطبا ويده تعبث بشاربه الفضى . وحولت عينى إلى أمى فرأيتها مغرورقة العينين . ومع ذلك فلست أشك فى أن معارضة جدى كانت نصف جدية فقط . ولو أنه أراد حقا أن يكسر عزيمتى لما وسعنى مخالفته . والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتل من تفكيره مكانا واسعا وخاصة فى تلك الأيام الأخيرة التى استوفى فيها شيخوخته ، ولعله ارتاح لاقتراح توظيفى ليطمئن على مصير أمى .

وهكذا انقطعت حياتى الدراسية بعد أن قضيت نيفا وشهرين بكلية الحقوق ، بيد أننى لم أجد السرور الذى كنت أحلم به . أجل لم أفكر لحظة واحدة فى الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية ، إلا أننى وجدت نفسى بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعى عن العلم وفرارى من معاهده ، وتصوير نفسى فى صورة الضحية البريئة . ومع

أن محاولتى تلك نجحت لحد ما مع الآخرين أو على الأقل مع أمى الصديقة لى بالحق أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معى إلا قليلا. ملأنى السخط والتبرم، وثار بى نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسى، فواجهت نقائصى فى تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتى كما هى أحلاما شاردة سخيفة، وخجلا وخوفا يميتان الهمم، وأنانية مطلقة قضت على بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلا بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتى المدينة الكبيرة التى ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين، وكأننى أعيش فى حجرة بمفازة! وغشيتنى كآبة ثقيلة فاجتررت أحزانى فى وحدة قلبية مهلكة. ولكن أمى لم تفارقنى لحظة واحدة فى تلك الأيام السود، ولم تطق الوقوف منى موقف المعارضة طويلا فسرعان ما تحولت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لى يوما لتسرى عنى:

ـ الخير فيما اختار الله، وهل نملك لأنفسنا شيئا؟! وعما قليل تصبح رجلا مسئولا، ويجىء دورك فى تدليل أمك لتقضى بعض ما عليك من دين!

وقضينا الساعات الطوال معا، وأنا آنس بحديثها الطيب الشافى، وبفضلها وحدها انكشفت عنى الغمة وتفتح قلبى للحياة ونفض عن جوهره غبار الوساوس.

١٨

واستشفع جدى بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن «عمل ملازما صغيرا تحت رئاسته فى السودان» على حد قوله، ليجد لى وظيفة بوزارة الحربية وكلل مسعاه بالتوفيق ولكن الضابط أخبره بأننى ربما عينت فى السلوم ولما قال جدى ذلك تجهم وجه أمى وقالت باستنكار:

ـ السلوم؟! ألا ترى أن كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظن السلوم بلدا قريبا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلما عرفت حقيقتها ندت عنها ضحكة عصبية وعدت الأمر مزاحا. وصاح جدى متبرما:

ـ وظفيه بنفسك، أو عينيه فى حضنك وأريحينى!

ولكنه لم يأل جهدا فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديما تحت قيادته، ولعلهم تأثروا بشيخوخته الثمانينية ونشاطه الموفور.. وما أيقظ فى صدورهم من ذكريات فوعدوه خيرا، ووجدوا لى بالفعل وظيفة بإدارة المخازن

بديوان الوزارة العام . ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطات وعشر دقائق مشيا على الأقدام فرضيت أمى وقرت عينا، وقدمت مسوغات التعيين وتقدمت للقومسيون الطبى العام كالمتبع، وبالاختصار صرت موظفا من موظفى الدولة . وكان الشعور الذى لابسنى وأنا أغادر البيت ميمما الوزارة لأول مرة شعورا معقدا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرر من عبودية البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورنى كلما أقبلت على جديد من الأمر . ومضيت بقلب خافق إلى محطة «محبوبتى» لأن طريقنا أصبح واحدا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معدودات، ولئن لم يكن فى الوظيفة إلا هذا لكان حسبى من الهناء والسرور، واحتطت بقلبى الضعيف فوقفت فى الطرف البعيد من «الطوار» حتى لا يصعقنى وجودى على كثب منها . وجاءت بعد حين قليل تتهادى فى مشيتها التى تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبى بخفقان كزغردة اللسان، ولبثت غاضا بصرى ولكن فى نشوة جعلت الدنيا من حولى أطيافا وترنيمات، وجاء الترام فركبنا معا، وكانت أول مرة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدى مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقف . وإلى الأبد . وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجلا إلى الطوار وأرسلت بناظرى إلى مقصورة السيدات فوقعتا على ظهرها وهى جالسة عاكفة على كتاب بين يديها . ولما تحرك الترام التفتت فجأة إلى الوراء فوقع بصرها على ثم ولتنى ظهرها ثانية . انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسمرت قدماى فى الأرض وعلقت عيناى بالترام حتى لم أعد أتبين من معالمه شيئا، ثم واصلت السير غائبا عما حولى، سكران بالنظرة التى جادت بها السماء، وتساءلت فى ذهول ودهشة لماذا التفتت؟ أى داع دعاها إلى ذلك؟ بل أى داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روحى الخفى؟ إن الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بعد الشقة، فما وجه الاستحالة فى أن تلبى الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة!! وازدهانى ذاك الخاطر وآمنت فى سعادة لا توصف بأن لروحى تأثيرا على روحها . ولكن رحمتك اللهم، فلشد ما ارتجفت تحت وقع النظرة الخاطفة! ترى هل أنكرت وجهى أم ذكرت به الفتى الذى تطلع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتنى اليقظة رويدا، وقلت لنفسى وكأنى أودع ساعة النشوة المولية «إنى أحبها، وهذا هو الحب بلا زيادة ولا نقصان»!

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة . وقدمت نفسى للمدير فقدمنى بدوره إلى زملائى فى الإدارة وكانوا تسعة . هؤلاء قلة بالقياس إلى الطلبة وإنهم لرجال حقا فلا يمكن أن أتوقع منهم زراية أو سخرية، ورجوت من صميم قلبى أن أبدأ حياة جديدة غنية، ولما لم يعهد إلى بعمل ذلك اليوم وجدت فسحة لمعاودة خواطرى السعيدة عن الحرية التى أمنى النفس بها، والتى أرجو بها أن أستنقذ نفسى من سجن البيت

وعبودية المدرسة، ثم عن النظرة السعيدة التى انتزعها روحى من الأعماق قوة واقتدارا.

* * *

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذاب. وظفرت بأول نوع من الصداقة عرفته فى حياتى، وهو ما يسمونه بصداقة «المكاتب» هى صداقة جبرية تفرضها زمالة الموظفين فى المكتب الواحد. وقد فرحت بها بادئ الأمر لأنه لم يسعنى - أنا الذى لم أعرف فى حياتى صديقا - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوننى بلا كلفة، ويستقبلوننى ويودعوننى بأطيب تحية. ولكن واأسفاه قام خجلى حاجزا منيعا بينى وبينهم. ثم أثبتت لى التجربة أن تلك صداقة لا تستحق الأسف عليها، فهى تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند الظهيرة إلى وقيعة دنيئة تختم بإنذار أو عقاب. والأدهى من ذلك أننى لم أعرف لى عملا مستقلا، ولكن ما من واحد منهم إلا ويكلفنى بعمل آلى أنفذه صاغرا. وربما قضوا أكثر النهار فى ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا مكب على الأوراق فى شبه سخرة. ولا شك أنهم فطنوا بمكرهم إلى أنى «غر خجول» فاستغلوا ضعفى أسوأ استغلال. وضاق صدرى، وخبا سرورى بالحياة الجديدة فى الشهر الأول منها، وأيقنت أنى المستجير من الرمضاء بالنار! وزاد من سوء حالى أن الشرود لم ينقطع عنى أثناء عملى فوقعت مرارا وتكرارا فى أخطاء السهو، وتوالت على الانتقادات الساخرة والانذارات ممن يدعونهم «برؤساء اليد» فكأننى رددت إلى المدرسة بتلاميذها ومدرسيها، فعاودتنى مرارة حياتى الماضية، وصح عندى أنى لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على صلة بأحد من الناس.. واجتررت آلامى فى خفاء. ولم أكن أثور على شىء قط مما يشقينى، وكان ديدنى دائما أن أطيع بقلب دام كظيم، وسخط مكتوم. وزاد البلاء حدة أننى لم أجد لحياتى متحولا، ولا أملا فى الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أتجلد فى المدرسة أحيانا على أمل أنها ستنتهى يوما فأصير رجلا حرا مسئولا، أما الآن فلم أر أمامى إلا مستقبلا متجهما مريرا لا نجاة منه إلا الموت. أجل أدركت أنى لن أظفر بالراحة مدى الحياة، وأنه لن تزايلنى الرغبة الخفية فى الهرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟ ولم يكن سر بلوتى فى عجزى حيال العقبات فحسب، ولكن فى تضخيمها وتكبيرها، فإنى نصبت من عقلى حرب أعصاب هائلة ضد نفسى.. لم أروض نفسى على الحياة فى الواقع، ولم أوطنها على احتماله، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو الاستهانة، كما أنى لم أقدر على فلسفة القوة أو الثورة، وكان إذا صادفنى أمر لا يحتمل - والدنيا كلها عندى لا تحتمل - راح خيالى السقيم يصنع من الحبة قبة، ولاقيت الهم بما يشبه الصبر فى الظاهر على حين أنطوى على نفسى فى كمد قاتل وغم فتاك. لذلك لم يخل مكان أحل فيه من عدو حقيقى أو وهمى. كان التلاميذ والمدرسون أعدائى القدماء فغدا الموظفون أعدائى الجدد.

ولكن كنت أنت العزاء والسرور! الحياة صحراء قاحلة مهلكة وأنت بها وحدك الواحة الخضراء الرطيبة تلوذ بها النفس. ووالله ما حمدت للوظيفة من شيء إلا أن نقلنى طريقها إلى محطتك، فعندها أنتظر كل صباح مطلعك حتى إذا رأيتك مقبلة فى خفة الغزال ووقار الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر ودعوت الله أن يخفف عنى شدة الخفقان ثم أسترق إليك اللحظ متحاميا أن تلتقى العين بالعين فالتقاؤهما جلل لا يصمد له إلا الأكفاء. وإذا جاء الترام ركبنا معا ولا تدرين سرورى به إذ يحملنا معا، ثم أغادره فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائى أن يصونك المولى ويسعدك، وتبقى لى بعد ذلك صورتك عالقة بخيالى تذر على الأنس فى وحشة سجنى الجديد. ولكن إلام أظل على تلك الحال؟ لقد صفق الجزع بقلبى، وأمضنى الانتظار.

وزاد من التياعى أننى جعلت أراها فى الأصائل كما أراها فى الأبكار، لأننى كنت أغادر البيت عصرا كما يحلو لكثير من الموظفين فى غير معارضة من أمى التى لم يعد بوسعها أن تعارض فى ذلك، وكنت أهرع إلى محطتى القديمة تلقاء بيتها، فأقف بين المنتظرين مستطلعا مشرق روحى بطرف مشوق، فأحيانا أرى الأم أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحيانا أراها فى فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسى زلزالا شديدا.

لم أعد أرى لحياتى أملا إلا فى الرفيق الأنيس، فهمت بها هياما، واستأسرتنى رغبة صادقة حارة فى السعادة التى لم يكن لها من معنى فى نفسى إلا أن أفنى فيها وأن تفنى فى. بيد أننى لم أتجاهل العقبات، وهل كان دأبى إلا تكبير العقبات؟! فلم أنس أننى فى أول الطريق وأن مرتبى سبعة جنيهات ونصف؟ ثم لاحظت بمزيد القلق أن ثمة رجلين يقفان معنا فى المحطة صباحا لا يفتآن ينعمان النظر فى وجه الفتاة باهتمام. أما أحدهما فرأيته يخرج مرات من العمارة التى تقيم فيها، وهو رجل فى نحو الأربعين تلوح فى وجهه آى الرزانة والوقار، ويتسم بطابع الموظفين الممتازين. وأما الآخر فشاب فى الثلاثين ميال للضخامة والبدانة مع أناقة ووجاهة، إلا أن إيماءاته ونظراته تنم عن العجب والزهو. وعجبت لتطلعهما المتواصل إليها وما من داع إلى العجب، ولكنى ظننتنى - ويا له من ظن مضحك - أول من تهيأ له كشف ذلك الكنز. وثار بى الغضب والحنق، وتلوّت دودة الغيرة فى سويداء قلبى. إنها لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل تجهلهما حقا كما تجهلنى؟ خصوصا هذا الجار الذى يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبض قلبى فزعا ويأسا ورمقتها بغيظ كأنها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟

واطردت حياتى بين عمل ممقوت وحب حائر غريب.

وكان بيتنا فى ذلك الحين يعد من البيوت السعيدة، اطمأنت قلوب أهله، فسكن

خاطر الشيخ الهرم، وقنعت أمى بما قسم لى ولها. بيد أن جدى قال لى يوما بلهجة ساخرة:

- ألا اخجل يا رجل وابتع لك فراشا، أتظل الدهر تنام فى حضن أمك؟!

وابتعت بالفعل فراشا ولكنى ركبته فى نفس الحجرة فظلت تحوينا معا، وهى الحجرة التى رأيت فيها نور الدنيا.

١٩

ثم كان صباح تاريخى فى حياتى إذ وقع بصرها على. والتقت عينانا. وهى قادمة نحو المحطة، وارتعشت جوارحى وتساءلت وأنا أعانى الحياء: ترى ألم تذكر الفتى الذى رأته يوم لبت نداء روحى؟! وأسكرتنى نشوة لم يخمدها مجىء الرجلين المنافسين نفسه. وحملنا الترام جميعا حتى محطة الوزارة فغادرته، وهرعت إلى الطوار ثم بعثت بناظرى إلى مقصورة السيدات، وكانت تجلس فى الصف الآخر ووجهها إلى ناحيتى فالتقت عينانا مرة أخرى، وغضضت بصرى فى حياء وصدرى بالسعادة يبترد، ثم غمغمت لنفسى وأنا أجد فى السير «برح الخفاء وافتضحت!». وقد تذكرت سعادتى عصرا وأنا جالس فى حجرتى غير بعيد عن أمى فقلت لنفسى وأنا أختلس منها نظرة غريبة «آه لو تدرى بأفكارى!». ألم تعلمنى تجاربى الماضية أن مثل سعادتى هذه مما تعده هى - أمى - كفرا لا يغتفر؟!.. هذه حقيقة لم تغب عن خاطرى قط، ومع ذلك بدت لى وقتذاك غريبة مستنكرة كأنما أكتشفها لأول مرة، وسددت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج واستياء، وقلت لنفسى متغبطا: «ربما كان الضرر يقع بى أخف لديها من كشف حبى!». ولعلى بالغت كثيرا، ولكن سيرتها الماضية جعلتنى لا أرنو إلى الجانب البهيج من الحياة إلا فى خوف وحياء شديدين من ناحيتها! وكأنما ضقت بكتمانى سعادتى فى حضرتها فغادرت البيت مسرورا وهرعت كالمعتاد إلى المحطة القديمة، وسبقنى بصرى فوقع على الشقيقتين وراء زجاج النافذة فتقدمت فى سعادة غامرة، أمشى على استحياء.. وأندسست فى زحمة الواقفين وقلبى يتمنى ألا أبرح المحطة حتى يسدل الليل سدوله. وكان الجو شديد البرودة فداخلنى سرور بأنى أتحمل قسوة الجو فى سبيل نظرة من عينيها. ولم أشك فى أن طول قامتى ومعطفى الأسود خليقان بأن يذكراها بى. ورفعت عينى فى خوف شديد فرأيتها تنظر صوبى وإن لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديقة عينيها، ومع ذلك سرت إلى أطرافى رعدة السرور. وجاء الترام على رغمى، ودفعنى الخجل دفعا إلى ركوبه.

لم يعد لحياتى من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة. فصاراى أن أسترق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضهما سريعا إذا رنت إلىّ العينان اللتان أحبهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتى تجهلنى كما جهلتنى أشهرا أربعة، فأحست بلا شك أن فتى يتطلع إليها حيثما تحل، وأنه يتعمد ذلك فى صبر طويل وإن كان لا يبدى حراكا. بل ابتسم الحظ فجعلت أفوز بنظرة كل يوم تقريبا. وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة عابرة تلقى على المكان كله فتصادفنى فى جانب منه! وفيما عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت تجهلنى مهما تجاهلتنى، وأنه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزى - أن تحس وجودى بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابرت على النظر والصبر وكأننى أنتظر أن تجىء الخطوة التالية من ناحيتها هى، أو من رب السماوات والأرض.

تلك أيام حلوة سعيدة على خلوها من الأمل. أنفقتها فى إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رفت على قلبى فى طهر وقداسة. وقد أوصدت دونها باب خلوتى الليلية، ولذتى الشيطانية.

* * *

وتبين لى بعد حين أن سرى المكنون يتسرب من أعماق صدرى على تكتمى وحرصى. لا أدرى كيف حدث ذلك، ولعل الأمر لم يعد أننى أنسى نفسى فى لحظات الهيام فتقع العين منى على ما أحرص على كتمانه. وما أدرى يوما إلا والرجلان «المنافسان» يرمقاننى بريبة، وكأنهما فطنا إلى ظهور منافس جديد. ويوما مرت بى فى موقفى من المحطة خادمة الفتاة فألقت على نظرة ذات معنى ذاب لها قلبى ذوبانا، وساءلت نفسى فى خوف وسرور: ترى هل بلغ سرى البيت نفسه؟! ثم غمغمت فى حياء بالغ «افتضحت وما كان قد كان». ومرة رأيت الأخت الصغيرة فى النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصرا، ولما لمحتنى التفتت إلى الوراء كأنها تخاطب شخصا لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت على نظرة متفحصة. رباه! لقد داخلنى شعور الجانى إذا ضبط متلبسا بجريمته. ولم يبق ثمة شك فى أن البيت يعرفنى، وازددت يقينا فيما تلا ذلك من أيام! فما كان يقع على بصر أحدهم حتى يتفحصنى باهتمام إلا مولاتى طبعا! وازددت اضطرابا.

ورحت أسائل نفسى الحيرى عما يقولون، وعما يظنون، لى منظر حسن خداع، ولعلهم يظنوننى موظفا مغبوطا ذا مستقبل باهر! أواه، ما كنت موظفا كبيرا إلا فى تقدير أمى، ولعلى ندمت عند ذاك على قطع حياتى الجامعية، وعزيت نفسى المحزونة بأنى سأرث يوما ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعى للخوف من البيت. بل إنى لأشعر بأنه سعادتى المرموقة. وإنى لأحبه من مجامع قلبى، أناسه وأثاثه وحجراته وحتى

خادمته. إنى أعيش فيه بروحى، وأجاذب أهله ـ فى الخيال ـ أشهى الأحاديث، أما حبيبتى فهى ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الغسيل منشورا على الشرفة تهفو به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محب حنون، وبصرى يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغوفا بأهداب رقاق يطرب لها قلبى طربا قدسيا كأنما يشنف آذانى سجع ألحان إلهية! ولكم خاطبت حجرة حبيبتى موصيا إياها بها فى اليقظة والمنام، وعندما تحلق بها الأحلام، أو حين تتحدث بنبراتها التى لم أسعد بسماعها.

ويوما دفعنى الهوى إلى البقاء فى الترام حتى أوصل حبيبتى إلى مدرستها. واضطربت خوفا وقلقا من جراء المخاطرة التى نشبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناى لا تفارقان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتى. ودار الترام بنا مخترقا شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبى العلاء. وفى المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينى فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع وقدها الرشيق، ثم انعطفت إلى طريق جانبى يمتد بحذاء القصور المقامة على النيل، وسنحت منها التفاته وهى تنعطف إلى الوراء فوقع بصرها على وأنا واقف أنظر صوبها. ارتجفت أوصالى كأنما مسنى تيار كهربائى، وتصاعد دم الخجل إلى وجهى. وسرعان ما غابت عن ناظرى فتقدمت خطوات حتى أمكننى رؤية الطريق فرأيتها تبتعد بخطواتها الرشيقة، ثم مرقت من باب جانبى غير بعيد. ولبثت مترددا، وفكرت فى العودة إلى الوزارة التى تأخرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبت نفسى أن تنتهى المخاطرة بلا نتيجة. وتقدمت نحو المدرسة بقلب هياب، ثم مررت بها متعجلا، ولكنى قرأت اللافتة «معهد التربية العالى للبنات»، ورجعت إلى المحطة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتنى علمه فى إدارة المخازن فأخبرنى موظف أنه معهد لتخريج المعلمات لمدارس البنات الابتدائية. وإنهن يدخلنه بعد البكالوريا. وداخلنى زهو لأن حبيبتى ستصير أستاذة، ولكن لم يغب عنى الفارق الكبير بيننا فى الثقافة، فلعنت نفسى الخائرة التى حملتنى على الفرار من الجامعة! وساورنى خوف وكآبة. ثم لجأت إلى المجلة مشيرى القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: «هل يمكن أن تحب فتاة مثقفة ثقافة عالية شابا من حملة البكالوريا؟». فذكرت المجلة فى جوابها الأميرة التى أحبت الراعى!

وحلمت تلك الليلة بحبيبتى، فكانت أول زورة فى المنام.

٢٠

تركزت أحلامى فى أمرين، أن أتمتع بدخل حسن ـ وهو آت يوما ما ـ وأن أظفر بعروسى. لم أكن ممن يشقيهم الطموح، وإذا كان لى منه شىء فيما مضى من أيام الأحلام، فقد قبر فى إدارة المخازن بوزارة الحربية حيث تعد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة. أجل لم تثب بى الهمة فى الطموح، ولكن هفت نفسى إلى السعادة والطمأنينة، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبة الصالحة. ولم يجد جديد فى حياتى إلا مواظبتى على الصلاة بعد أن كنت أنقطع عنها فى فترات متباعدة. ولعل هيمان صدرى بالحب هو الذى هيأ لى ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرات فى اليوم، على أن نفسى لم تتخفف من ألمها القديم، وزادتها الصلاة ألما، لما يفرط منى فى ساعات اللذة الجنونية التى اختلسها بليل، فلم يعد يسعنى الكف عنها، بل زدت استسلاما لها، دون أن يرحمنى الندم يوما واحدا، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو إيمان. وما من شك فى أن ذلك الصراع المتواصل هو الذى جذبنى إلى إنعام النظر فى نفسى وحياتى فهالنى أول الأمر ما تسير عليه حياتى من منوال رتيب فاليوم فيها بعام والعام بيوم، ألم ينقض على عام منذ توظيفى بالحربية دون أن يجد جديد؟! عمر يمضى فى ضيق بالعمل المقضى به على، وفى وحشة لا تتبدد إلا ساعتين. ساعة المحطة، وساعة الأنس بأمى فى بيتنا. وحتى تلك الأويقات السعيدة لم تخل من تنغيص وألم، فعند حبيبتى كان يطاردنى طيف أمى، وعند أمى كان يخيفنى طيف حبيبتى. وتولد من ذلك قلق محير امتزج فى نفسى بما يئن بها من ندم فشملنى بكآبة لا تريم. وإنى إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنحيت باللائمة على نفسى، لا لأنى لم أجد سببا وجيها لتعاستى، ولكن لسوء صنيعى المعتاد فى تضخيم الأحزان والآلام، ولأنى لم أواجه أمرا فى حياتى بما يستوجبه من حزم وشجاعة. ولذلك لم تدر أمى علة لسهومى الذى كان يقلقها، ولطالما قالت لى بحزن وأسف:

ـ لماذا تبدو أحيانا كالحزين؟ لعمرى ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موظفا فكنت، ومتعك الله بعطف جدك الذى يهيئ لنا عيشا رغيدا، وفى خدمتك أم لو استوهبتها حياتها لوهبتك إياها عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامهما الله لك. فماذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتساءل عما ينقصنى!.. أجل إنها عدت لى نعما سابغة، بيد أننى أجهل فضل تلك النعم، وكانت لى بمثابة الهواء الذى ننعم به فى كل لحظة من لحظات

حياتنا دون أن يخطر لنا أن نشكر عليه. ولكننى لا أنفك عن التفكير فيما ينقصنى فيعمينى ما أتطلع إليه عما أنعم به. إنى شخص لم يقدر له أن يعرف شيئا عن حكمة الحياة، فلم يخرج قط عن دائرة نفسه الضيقة، وفى ذلك سر دائى، هو الذى حال بينى وبين مسرات الحياة، وما فيها من فضائل ومعان وصداقات، وطوى صدرى على النفور من الناس والخوف منهم، بل جعلنى أعد الدنيا عدوا يتربص بى. ولعله لم يكن يرضينى إلا أن تخلى الدنيا نفسها من همومها لتكرس حياتها لسعادتى، ولما لم يسعها ذلك قاطعتها فى عجز وخوف وناصبتها العداء، وانكمشت فى أعماق ذاتى جاهلا ما يمتلئ صدرها من أناس وآمال وفضائل، وحتى الحب وهو أول إحساس سام ألهمه وقفت حياله جامدا خائفا، أنتظر فى يأس أن يبادر هو إلى.

ثم جاء دور أمى ولو متأخرا، فأخذت أتمرد عليها وإن لبث تمردى نارا مكنونة لا يتطاير لها شرر. ونشأ ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجى عاجلا أم آجلا. وقد لمست ذلك بنفسى حين حدثتها خالتى - فى إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها فى زواجى من ابنتها التى صارت شابة ناضجة، فرأيت كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن تحافظ على ما ينبغى المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من مودة أو مجاملة فغادرتنا خالتى مغضبة.

ولمسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة - كانت تزورنا فى مواسم الكساء - أن تخطب لى عروسا لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكا.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستنكرته استنكارا شديدا، ولم أجد له تفسيرا أرتاح إليه. ولم تكن بى رغبة إلى ابنة خالتى، ولا إلى عروس من عرائس الدلالة، ولكنى آنست منها كرها لزواجى، فأشفقت على آمالى، وثارت ثائرتى وبدا لى أن قلبها توجس خيفة فقالت لى يوما:

- إنهن لا يرمن سعادتك ولكنهن يردنك مطية لسعادة بناتهن! لم أفهم لقولها معنى، وقرأت فى عينيها أنها ترجو أن أفصح عن عدم اكتراثى للأمر، ولكننى تشجعت ولازمت الصمت، فقالت بلهجة تشى بالقلق.

- الزواج سنة، ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل أن تكتمل رجولته.

فتساءلت فى امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتى فى السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن؟.. ووددت لو أصرح بأفكارى ولكن شجاعتى لم تسعفنى فواصلت الصمت. وتفرست فى وجهى مليا ثم استطردت قائلة بجزع:

- إنى أريد لك عروسا جديرة بك حقا. يبهر حسنها الأعين، وتطرى أخلاقها الألسن، من أسرة كريمة ذات مجد، فتهيئ لك قصرا شامخا!

فسألتها وأنا أدارى غيظى :

ـ وأين توجد مثل هذه العروس؟!

فقالت وهى تعض شفتيها :

ـ ستوجد حين يأذن الله!

وقلت لنفسى هذا تعجيز بلا ريب . واحتدم الغيظ بصدرى وتراءى لى وجهها فى حالة الغضب والثورة ، فقلت لنفسى ساخطا :

ـ إن أمى إذا احتدت توارى جمالها ونضبت سماحة وجهها .

٢١

الزواج! . . الزواج! . . لم يعد لى فكرة سواه ، ولم أجد لحياتى معنى إلا أن تتم به . إذا لم نتزوج فلماذا إذن نحيا ، بل لماذا وجدنا فى الحياة؟ إنى أحن إليه حنينا موجعا تندى له الضلوع فتسح أشواقا : إنه جنة المبتلى بنار الجحيم . ولست أكف لحظة عن تخيله فى أحلام اليقظة الشاردة التى تغيب بى عن الوجود . إنى أرانى لصق حبيبتى وعلى وجهها الأنيق نقاب الحرير المطرز بالفل ، بالشمع يزهر من حولنا . وأرانى أمضى بها إلى مسكن فى آخر القاهرة ولا أدرى لماذا أحب أن يكون فى آخر القاهرة . ثم أراها تنتظرنى بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجود لى سعادة هفهافة يعجزنى تصورها حتى فى الأحلام بيد أنى لم أتمل الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح الوهمى كآبة غامضة لا أدريها ، ولم يخل خاطرى قط من وجه أمى المحبوب فكان ينتابنى حياء شديد يتصبب له جبينى عرقا ، ويخامرنى شعور بالذنب تعافه النفس . فيتلوى بوزى اشمئزازا .

وفضلا عن هذا كله فإننى لم أتخلص من بعض هوى للعزوبة نفسها! . إن حب الوحدة داء ، إنه أشبه بالمخدر تود منه فرارا ولا تستطيع عنه فكاكا ، وتبغضه لنفسك وأنت تعانى الحنين إليه . أتؤاتينى الجرأة حقا على نبذ ماضى الطويل؟ . . إن نفسى تهفو إلى البيت الزوجى السعيد حينا ، ثم يتملكها الإشفاق على الوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسئوليات حينا آخر . وأن الهرب من المسئوليات داء قديم حتى لأضيق بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة ، فكيف أنبرى لحمل تبعات البيت والزوجة والذرية وما يجر ذلك من حياة اجتماعية متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليد؟! إنى أتخيل تلك الواجبات فتبرد أطرافى ، ولكنى فى الوقت نفسه لا أكف دقيقة عن الحنين إلى الحياة الزوجية .

بت أشعر بأنى فريسة همين قاتلين : ترددى وأمى . ومن يدرى فلعل أمى هى الهم كله . وتجمعت نفسى الحيرى تروم سلاما تلوذ به . فأجمعت على أن أقابل الخطر وجها لوجه وليكن ما يكون .

وإنى لجالس إلى أمى ليلة إذ قلت لها بلا سابق إنذار :

ـ ألاحظ يا أماه أنك لا ترغبين فى زواجى .

فاتسعت عيناها الخضراوان الجميلتان دهشة ، وقلقت فيهما نظرة حائرة ، ثم قالت بصوت متغير :

ـ إنى أرغب فى سعادتك دائما ، وهذا شغلى الشاغل . وإذا كنت لم أوافق على ما عرض لى من هذا الأمر فى الماضى فلأنى وجدته دون ما أرجوه لك ، ولا شك أنك تدرك هذا تمام الإدراك . ولكن .

وترددت لحظة ثم استطردت متسائلة :

ـ ولكن . . لماذا تلقى علىّ هذا السؤال؟

وحولت عنها بصرى كأننى خفت أن تقرأ ما فى ضميرى ، وقلت بعدم اكتراث :

ـ سؤال لا أكثر . أحب دائما أن أعرف ما يجول بخاطرك .

فتهدج صوتها وهى تقول :

ـ ليس بخاطرى إلا فوق ما تحب لنفسك من السعادة والهناء . . ولكن ليس الزواج لهوا ولعبا ، وإليك مأساة أمك فهى أكبر دليل على ما أقول . وأذكر دائما أن اختيار الزوجة مهمة شاقة ، وهى من شأن الأم قبل أى إنسان آخر ، لأن هذا ميدان تجاربها ، وهى تعرف ابنها أكثر مما يعرف نفسه ، وتستهدف سعادته قبل سعادتها هى ، كذلك السن أمر عظيم الخطورة ، وأنت بعد فى حكم الأطفال . . لماذا تلقى على هذا السؤال «وهنا إزداد صوتها تهدجا» . . إليك مأساة أمك فهى لا ينبغى أن تغيب عن وعيك . كم تعذبت ، وكم تألمت ، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة . كم بكيت حنينا إلى أطفالى الذين عاشوا غرباء عنى ونحن فى مدينة واحدة . وحتى أنت كان شبح فراقك يطاردنى ويقض مضجعى ، ولو أخذوك منى لقضيت غما وكمدا . وكم تمنيت الموت صادقة لأرتاح من وساوس حياتى المقلقة «خيل إلى أنها تعنى حياتها الراهنة بقولها الأخير» ولذلك كرست حياتى لرعايتك ، وضحيت بسعادتى فى سبيلك ، و . . «ترددت لحظة ولعلها همت بتذكيرى بالرجل الذى رفضته من أجلى ثم عدلت» . ولا تحسب أنى أمن عليك ، فالأمومة تستنكر المن . ليته كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف . لشد ما تنسى . . رباه لا تؤاخذنى ، أنا لا أدرى ماذا أقول . ولكن لا تظن بأمك الظنون . إننا نعطى كل شىء عن طيب خاطر ، حتى إذا

شب المولود عن الطوق لم يفكر إلا فى أن يولينا ظهره ويجد لنفسه مهربا. أقول مرة أخرى لا تؤاخذنى. لست أحسن ضبط نفسى واأسفاه. ولكن لقد عشنا معا طوال هذا العمر. وليس لى أمل فى هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتنى لم أجد لى مأوى. أنتم حياتنا فى صغرنا وكبرنا على السواء، أما نحن فتحبوننا صغارا وتكرهوننا كبارا، أو أنكم تحبوننا حين لا تجدون من تحبونه غيرنا، ماذا قلت؟ . . أستغفر الله . . سامحنى يا كامل، إنى مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق.

وعجبت كيف أنحدر بها الحديث ذاك المنحدر الصعب. بدأ الكلام مقبولا ثم تشنج. وحاولت أن أحول دون استرسالها فلم تجد محاولتى، فاضطررت أن أتجرعه على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة، دلت على العتاب من ناحيتى، وعلى الذهول من ناحيتها. لم تكن فى كامل وعيها واأسفاه. وقلت بأسى :

ـ أهذا جزاء من يسأل سؤالا بريئا؟!

فاغرورقت عيناها، وقالت وهى خافضة العينين :

ـ أنا لا أحسن الحديث أحيانا ويحسن بى أن أمسك. لا تخش جانبى، وإذا راق لك يوما أن أغيب عن وجهك فما عليك إلا أن تومئ إلى ولن تجد لى أثرا.

ووضعت يدى على فمها وصحت بها :

ـ سامحك الله. حسبنا كلاما. لقد أخطأت بسؤالى البرىء خطأ كبيرا!

ثم تظاهرت بعدم الاكتراث، بل ضحكت طويلا، وكأن ما كان لم يكن، وراح قلبى وحده يجتر آلامه. أثر فى كلامها حتى هزنى هزا عنيفا فحزنت حزنا لم أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلبها الانفعال على نفسها فتلقى فى وجهى بتلك الاتهامات الجارحة. ولم أخل من سخط عليها لا لأنها اتهمتنى بالباطل ـ فذاك نثار غضب وقتى لا قيمة له ـ ولكن لأنها قابلت رغباتى الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة! وتماديت فى سخطى فقلت إنها ذكرت نفسها أكثر مما ينبغى ونسيتنى أكثر مما ينبغى . . واستسلمت كالعهد بى لداعى أنانيتى فرميتها بالأنانية.

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض ألزمتها الفراش فلم أفارقها أثناء مرضها إلا فى أوقات العمل. ومع أن الحالة كانت خفيفة إلا أن وجهها بدا شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعى فتوجع قلبى توجعا أليما. ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها وصحتها. فأحزننى منظرها وساءنى إهمالها نفسها. وكانت تعصب رأسها بمنديل فبرزت تحت طرفه خصلات من شعرها وخطها المشيب وشعثها الإهمال فضقت صدرا وتجهم لى وجه الدنيا. ويوما ـ وكنت جالسا إلى جانبها ـ جرت فى تيار شعورى خواطر غريبة لعل باعثها الخوف والإشفاق، فطرحت على نفسى هذا السؤال الخطير :

كيف تكون الحياة لو خلت من هذه الأم الحنون؟ وأقشعر بدنى ، بيد أن خيالى لم يمسك عن هذيانه ، فتتابعت المناظر أمام عينى واستسلمت لمشاهدها فى حزن صامت ثقيل . رأيت بيتا مقفرا ورأيتنى تائها حائرا كمن ضل سبيله فى مفازة ، وهذا جدى متبرما ساخطا يصب جام غضبه على الخادم العجوز والطاهى . ولمست عجزى عن مواصلة هذه الحياة الموحشة فاقترحت على جدى أن أتزوج لنجد من يكلأنا برعايته . ثم رأيت حبيبتى بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله بعطف سابغ وحب شامل . ثم رأيتنا جميعا ـ أنا وزوجى وجدى ـ واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا . وانتبهت إلى نفسى فى فزع فأحسست بالدمع حائرا بين جفنى . وعض الندم قلبى ، وامتلأت نفسى امتعاضا وثورة ، وغمغمت لنفسى «اللهم غفرانك ، اللهم اكتب لها طول العمر» ، ثم هويت على وجهها فقبلته بحنان ، وقد طاردتنى ذكرى تلك الخيالات كثيرا حتى تركت فى آثارا عميقة من الألم والحنق . ولازمنى هم مقيم حتى بعد أن برأت وعاودها نشاطها وجمالها . وكدت أعود إلى ذلك التفكير السقيم فى الحياة الذى يقف عند طرفيها ـ الميلاد والموت ـ ويرى ما عدا ذلك هباء فى هباء ، وهو ذلك التفكير الذى تأدى بى فيما مضى إلى محاولة الانتحار لولا أن الله سلم .

٢٢

جاء الصيف ، ومعناه ـ بمقياس القلب ـ أن حبيبتى ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لى رؤيتها إلا فى الشرفة أو النافذة . إنها تعرفنى الآن حق المعرفة كما يعرفنى البيت جميعا ، ذلك الفتى الذى يتطلع إليها دواما ، ويرنو صوبها بعينين يتجلى فيهما الإعجاب والحب ، ويثابر على ذلك فى صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدى حراكا ، والأعجب من هذا كله أننى كنت أضبط عينيها فى لفتات عارضة وهما ترنوان إلى فأجن جنونا . وإنى أكاد أسمعها تتساءل عما أريد ، بل أسمعهم جميعا يتساءلون ، وهذا يسعدنى ويشقينى معا ، والحق أنى أحبك يا حبيبتى أحبك بكل قوة نفسى ، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدى حراكا؟ أجبتك بأننى لم أدر كيف أبدى حراكا فى حياتى ، وورائى أم ، وحظ محدود ، فكيف يمكن تذليل هذه الصعاب؟ . . خبرينى يا حبيبتى أطر إليك بغير جناحين!

وكان يوم غريب فى حياتى .

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلع العشق . ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعنى أحاسيس السعادة والشقاء شأنى كل صباح ، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة ، فقال أحدهم وكان يلينى فى مجلسه :

ـ سكرت أمس حتى تأرجحت بى الكرة الأرضية!

وثار اهتمامى فجأة وحضرنى أبى بصورته وذكرياته. ترك فى قوله أثرا لم يدركه أحد ممن يجلسون حولى، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرها، والتفت نحو الموظف وند عنى هذا السؤال همسا بلا وعى تقريبا:

ـ لماذا تشرب حضرتك الخمر؟

ثم أدركت فى التو تسرعى وخطئى فعلانى الارتباك والحياء. ولم أكن خاطبت أحدا فى الإدارة منذ التحاقى بالخدمة فى غير شئون العمل حتى أطلقوا على «غاندى» لما عرف عن الزعيم من أنه ينذر يوما فى الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتطفلى عليه وقال بصوت مرتفع وهو يومئ إلىّ:

ـ أخيرا تكلم!

وسأله أحدهم وهم يصوبون أنظارهم نحوى:

ـ مـــن؟

ـ غاندى.

ـ وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكا:

ـ يسألنى لماذا أشرب الخمر!

فقال آخر:

ـ سكت دهرا ونطق كفرا!!

وقهقهوا ضاحكين، بينا ذبت فى مقعدى صامتا، وراح أكثرهم يحدثنى عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. ندمت على ما بدر منى مما وضعنى موضع سخرية ومزاح. وتفكرت فى الأمر طويلا، ثم أفقت إلى نفسى فوجدتها ـ لدهشتى ـ تتلهف على تجربة الخمر!! ولشد ما عجبت فيما أعقب ذلك من أيام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستة وعشرين عاما، قطعتها فيما يشبه النسك إذا استثنيت اللذة السرية التى جرعتنى مرارة الذنب والندم. هل نشبت تلك الرغبة فى نفسى فجأة؟ إن ظاهر الأمر يدل على أن ذاك الحديث الذى دار بين الموظفين كان الباعث على تلك اللهفة، ولكن هل يعقل أن يهوى إنسان مستقيم مثلى لعارض تافه كذاك العارض؟! لقد ركبنى جنون، فتمنيت أن ينقضى النهار سريعا لأقرع باب اللذات الموصد، ولأحطم الأغلال التى أذعنت لها طوال عمرى، وقلت لنفسى وكأن الذى يتحدث شخص غريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء!». وأراحنى التصميم لأنه خير من القلق والتردد، ولأنى منيت نفسى بأن أجد وراءه متنفسا للضغط الشديد الذى يؤودنى، ولم أعرف التردد ـ ذلك الرفيق البغيض ـ طوال يومى،

فعند الأصيل كان الترام يحملنى إلى العتبة، ووقفت فى الميدان حائرا لا أدرى أين توجد الحانات! ثم رأيت عربة فناديت الحوذى وركبت ثم قلت له بصوت منخفض فى حياء شديد:

ـ حانة.. أية حانة من فضلك!

فحدجنى الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب ظهر الجوادين بسوطه:

ـ سأذهب إلى شارع ألفى بك وهناك تختار الحانة التى تعجبك!

وانطلقت العربة فذكرتنى بالحانطور القديم وأيامه الخوالى. وكان بحافظتى عشرون جنيها غير «الفكة» لأن مرتبى وإن كان صغيرا فى ذاته إلا أنه كان يترك لى كله فكفانى وزاد عن كفايتى. ولما شعرت بأن العربة تقترب من الهدف الذى تلهفت عليه كله دق قلبى بعنف واعترانى اضطراب شغلنى عن رؤية الشوارع التى تخترقها العربة. ووقفت العربة عند رأس طريق طويل يتوسطه صف طويل من السيارات والعربات. وقال الحوذى وهو يلوح بسوطه:

ـ إليك الحانات على الجانبين.

وغادرت العربة بعد أن نقدته الأجرة فوجدت نفسى حيال حانة صغيرة لا تزيد فى الحجم على حجرة كبيرة وقد وقف النُّدُل ببابها لأنه لم يكن أمَّها أحد بعد، وانتابنى التردد لأول مرة ففكرت فى أن أعود من حيث أتيت. ووقفت متحيرا ثم تولانى الشعور الذى ملكنى يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح لأرمى بنفسى إلى النيل فانطلقت صوب الحانة ودخلت. وتبين لى أنه يوجد فى نهايتها مدخل إلى حديقة صغيرة فى حجم المكان الخارجى فى وسطها نافورة، وتظلها عريشة عنب، وفى جنباتها الموائد، فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى إحدى الموائد بعيدا عن مدخلها. كنت متوتر الأعصاب ولكن لم أعد أفكر فى الهرب، وجاءنى نوبى فى سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم فى أدب ووقف منتظرا أمرى. فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد إلى وجهى:

خمرا!..

فلم يبد عليه إنه فهم شيئا، وتساءل فى نبرات كرنين النحاس:

ـ ويسكى؟.. كونياك؟.. جعة؟.. نبيذ؟..

وتوالتنى حيرة الجاهل، فقلت بارتباك:

ـ أريد خمرا:

فابتسم الرجل ابتسامة آلمتنى وتساءل:

ـ أى نوع منها تريد؟.. ويسكى.. كونياك.. جعة.. نبيذ؟!

فسألته فى ارتباك أشد :

ـ أيها أفضل ؟ . .

ـ هذا يتعلق برغبتك ، ولكن الجو حار فالجعة شراب مفضل .

وخرجت من حيرتى وطلبت جعة ، وغاب دقائق ثم عاد بقدح يفور ووضعه أمامى ، وقبل أن يبتعد سألته :

ـ كم قدحا من هذه يسكر ؟

فنظر صوبى كما نظر الحوذى من قبل وقال :

ـ تختلف النسبة تبعا للناس ، ولكن إذا كنت مبتدئا يحسن ألا تجاوز القدح الثالث .

فقبضت على القدح فوجدته باردا لطيفا ، وأدنيت منه أنفى فشممت رائحة حمضية لم أرتح لها ، ولكن فات وقت التردد ، وقربت وجهى وأدليت لسانى ، ولعقت من رغوتها لعقة فى خوف وحذر . واشتد توتر أعصابى فرفعت القدح إلى فمى وأفرغت ما فيه دفعة واحدة فى تقزز كأنما أتجرع شربة . وأنعشتنى برودته ، وشعرت به فى بطنى يتلوى نافثا حرارة غريبة . وانتظرت ذلك الأثر السحرى الذى سمعت عنه الكثير ، وفى تلك اللحظة جاءت لمة من الأجانب يرطنون ويتضاحكون وتحلقوا مائدة كبيرة ، فداخلنى شعور بالضيق ، بيد أنهم لم يتلفتوا نحوى على الإطلاق ، فسكن روعى ، وعاد شعورى إلى الحرارة الطيبة التى تنتشر فى بطنى . وحمل الدم المتصاعد إلى الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخ فتمطى كما يتمطى المستيقظ لدى تلقيه أول شعاع من الشمس ، ونفض عنه القلق والحذر ، فأحسست ارتياحا عاما لذيذا ، وانبسطت أسارير وجهى . وما لبثت أن طلبت قدحا آخر بشجاعة لم أعهدها فى نفسى من قبل ، وما كاد النوبى يضعه أمامى حتى رفعته إلى فمى وتجرعته على دفعتين . وانتظرت فى ارتياح شامل وإحساس مركز فى باطنى ، وسرى فى جسمى سرور عجيب أغمضت له جفنى استسلاما ، سرور دار مع دمى ، ورقص فى مخى ، باعثا لذة هى الجنون نفسه ، حتى وجدتنى مخلوقا أثيريا طليقا من متاعب عقله وقلبه وحياته . وداخلنى إحساس لا عهد لى به بالثقة والعظمة فرفعت رأسى عاليا فى سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التى لم يدر بخلدى قط أنها توجد فى هذه الدنيا . ثم فركت يدى فى سرور ومددت ساقى لا أبالى أين تقعان . . وبغتة تخايلت لعينى صورة حبيبتى بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبى حنانا وشوقا وهزتنى نشوة فوق نشوة الخمر . ما ألطفك يا حبيبتى . إنى أدرك الآن سر نشوة الخمر . إنه الحب . الحب ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم الروح ، وهل الحب الموفق إلا سكرة طويلة ؟ ! فإن فاتنى الحب بين يديك فلن يفوتنى فى الخمر ! لماذا أخاف دائما ؟ ألا إن المخاوف جميعا لأوهام ، وإلا فما لها اختفت من أفقى فى غمضة عين ؟ ! لقد

تكشف لى وجه الحكمة ولن أتردد بعد اليوم سأومئ لحبيبتى إذا وقعت عليها عيناى أو ألوح لها بيدى. ستعقد الدهشة لسانها ويحمر منها الخدان! ويجىء دورها فى الخجل، دقة بدقة والبادئ أظلم وسوف تتساءل فى استغراب هل تحرك أخيرا، أجل يا حبيبتى، تحرك، ولن يوقفه شىء، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حولى فطلبت القدح الثالث ثم ألحقته بصاحبيه. وعدت إلى خيال حبيبتى بجسم كله قلوب، وما به من عقل. وقلت بصوت مهموس وكأنى أعظ جليسا غير منظور «إذا أحببت فبح بحبك إلى حبيبك وليكن ما يكون» ثم ذكرت أمى. ولكن دون خوف هذه المرة، لم أشك فى أنها ستحب حبيبتى إذا رأتها، وستذهب مخاوفى القديمة إلى غير رجعة، أما جدى فما أحراه إذا علم بالنبأ السعيد أن يقهقه ضاحكا، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إلى الحاضرين. وألقيت نظرة على ما حولى فرأيت الحديقة اكتظت بالوافدين. . وقد تضاحك الأقربون، ولكنى لم أرتبك، بل ابتسمت إليهم وقلت بجسارة غريبة «اضحكوا!» فضحكوا، وتساءل أحدهم مبتسما:

- هل من أمر آخر؟

وكنت من السكر فى غاية فقلت بلسان ملعثم:

- هاتوا لى حبيبتى!

فسألنى الشاب:

- أين هى؟ . . وأنا كفيل بإحضارها . .

فقلت:

- البيت أمام المحطة!

فسألنى مبتسما:

- أية محطة؟

فتفكرت قليلا حتى عثرت على شاهد للمحطة فقلت:

- المحطة أمام المرحاض العمومى!

فضحكوا جميعا، وانهالوا على قفشا وتنكيتا، وشاركتهم ضحكهم بغير مبالاة، ثم آثرت أن أغادر المكان، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحييت رفقاء السكر، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعى بلا رحمة، كنت أترنح، فقصدت عربة فى الموقف، وتوسطت مقعدها فى خيلاء، وقلت للحوذى بصوت مرتفع:

- إلى بؤر الفساء!

وتحركت العربة وسرعان ما ارتحت إلى سيرها الوانى، وجعلت أنظر إلى الطريق فى

لذة وبهجة، حتى وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية، وأدركت أنى مقبل على تجربة جديدة لا تقل خطورة عن الأخرى، فساورنى بعض القلق، ثم غلبتنى اللهفة. ووقفت العربة فى شارع معربد، ولوح الحوذى بسوطه وهو يقول ضاحكا:

ـ هنا الفساد الأصلى..

وسألته بعد تردد:

ـ ألديك فكرة عن الأسعار؟!

فقال مقهقها:

ـ أغلى مرة بريال!

وآلمنى التعبير على رغم سكرى، وغادرت العربة فوجدتنى فى دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ. وتزدحم بالسكارى والعابثين، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتم والصراخ، وتنبعث من جنباتها دقات الدفوف وأنغام مبتذلة من كمان مسلول أو بيان محشرج. وقد سطع أنفى شذا بخور طيب. ولم أجد من نفسى الجرأة على التخبط وسط الجموع المعربدة، فعرجت إلى أقرب باب ودخلت، وجدت نفسى عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسى يحتلها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية، وكأن الجسارة التى خلقتها الخمر قد طارت فتسمرت فى مكانى لا أجاوزه ولم أدر ما أنا فاعل. ثم ثبتت عيناى على الراقصة فى دهشة لأنى كنت أشاهد الرقص أول مرة، ألقيت على الجسد الملتوى، الشبه العارى نظرة اشمئزاز وخوف، وأزعجتنى حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفرجت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامى رجل ذو جلباب مقلم زاهى الألوان تنطق قسماته بالدمامة والدناءة ودعانى للجلوس، فتراجعت مبتعدا عنه فاصطدمت بشخص ورائى. فدرت على أعقابى لأتفادى منه فرأيت امرأة من جنس الراقصة ولا شك حالت بذراعها بينى وبين الذهاب. كانت تبتسم ابتسامة كريهة، وتمضغ لادنا مفرقعة بأسنانها، فبردت أطرافى، وانقبض قلبى جفولا، وقرأت فى وجهى الخوف والخجل فأطلقت ضحكة كالصفير، ومدت يدها بسرعة فخطفت طربوشى، ووضعته على رأسها ومضت صوب باب قريب فى خطوات سريعة. وقال لى الرجل وهو ما يزال بموقفه:

ـ اتبعها بلا تردد، هذه زوزو المنبهجة، لا مثيل لها ولا فى المذبح!

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوى على شىء، غير مكترث لفقدان طربوشى، وركبت أول عربة صادفتنى وقلت للحوذى «إلى المنيل» عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح، يمضنى الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة. لم

أكن أتصور أن يتمخض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خمارا ثقيلا باخت له روحى، ولم أدر كيف أيقظت أمى وأنا أخلع ملابسى، فجلست فى فراشها ونظرت فى «المنبه» وهى تغمغم متثائبة: «تأخرت كثيرا» ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتى خذلتنى قدماى فارتميت على المقعد، واستجمعت قواى ونهضت، ولكنى ترنحت فى موقفى وكدت أهوى إلى الأرض لولا أن أمسكت بعمود السرير. . وانزلقت أمى من فراشها وأقبلت نحوى متسعة العينين دهشة وفزعا، وتفرست فى وجهى قليلا دون أن تنبس بكلمة، ثم أجلستنى على المقعد وراحت تنزع عنى ملابسى، ثم أنامتنى على فراشى، فما مس جانبى الحشية حتى سارع إلى النوم. وخيل إلى، أو حلمت، أن أمى تنتحب. .

٢٣

استيقظت مبكرا على غير ما كان يتوقع. وتذكرت الأمس كله فى ثوان. والتفت رأسى فى خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصرى فى طريقه بأمى وهى تصلى. والتهب وجهى حياء، وغادرت الفراش فى عجلة ومضيت إلى الحمام فى حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، وتحاميت نظراتها، وحييتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يسمع، فتنهدت بصوت مسموع، واقتربت منى، ووضعت يدها على كتفى وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

- دعوت لك بعد صلاتى طويلا والله سميع مجيب. ليس لدينا متسع من الوقت فأصغ إلى يا كامل بقلبك قبل أذنيك. فات ما فات. ما كنت أتصور ذلك على الإطلاق، ولكن أوساط الموظفين أوساط غواية وفساد. إنها زلة شيطان فتب إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكيرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأمك من ضحاياها؟! ولكن قلبى مطمئن رغم ما حصل، لأنك مؤمن تخاف الله ولأنك ابن أمك لا ابن أبيك، وخليق بمن يصلى بين يدى الله خمس مرات فى اليوم مثلك أن يحرص على المثول بين يديه تقيا طاهرا. لا تنس أن هفوة الأمس شر كبير، وأنها ستظل سكينا تقطع قلبى. لم يعد فى وسعى وأسفاه أن أستبقيك إلى جانبى، فإذا خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التقى المؤمن. ستذهب اليوم إلى السيدة أم هاشم لتقدم توبتك على يديها.

لم تلتق عيناى بعينيها ذاك الصباح . ومضيت إلى الوزارة محزونا ، أستعيد قولها كلمة كلمة ، وأنعم فيه الفكر . هالنى افتضاح أمرى ، وقدرت عنف الصدمة التى تلقتها أمى البائسة . وذكرت الخيبة التى منيت بها فى فناء البيت الغريب ، فتلوت شفتاى تقززا . على أنى لم أنس نشوة الخمر . لم أنسها رغم ما أعقبها من خمار وتعب وفضيحة . ولم ينفذ مقتها إلى قلبى حتى بعد صلاة الصبح التى أديتها فى صدق وإيمان . ولم يكن ضميرى مستريحا ، ومتى كان مستريحا؟! ولكن أحلام النشوة الساحرة هجمت على فاجتاحت فى سبيلها ضميرى وآلامى وأمى . هى النشوة التى تظل معانى السعادة والطرب مغلقة حتى تجرى فى الدم فتفتح أبوابها السماوية . إنها مطلبى . رباه كيف أهجرها وأتوب عنها؟ وما عسى أن يبقى لى بعدها غير اللهفة الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذى يمزق حياتى إربا؟! وحتى لو استسلمت لإغرائها الشيطانى ، فهيهات أن تخلص لى صافية ، بل ستضيف إلى ضميرى نزاعا جديدا ما كان أغناه عنه ، كنت وما أزال فى جذب ودفع متواصلين ، بين اقتحام الدنيا والجفول منها ، وبين حبيبتى وأمى ، بين إدمان العادة الجهنمية ورغبة الإقلاع عنها ، فجاءنى نزاع جديد بين الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادنى رهقا ، حتى انقلبت أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة ، ولا تكف عن التأرجح لحظة واحدة . وبلغ بى القلق غايته فتأوهت متسائلا فى حيرة بالغة : لماذا لم يخلق الله الحياة نشوة خالصة تدوم جيلا فجيلا؟ . لماذا لا نفوز بالسعادة بلا عناء ولا قنوط؟ لماذا يختنق الحب فى قلوبنا يأسا ، والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منا؟!

ليكن ما يكون ، الخمر مفتاح الفرج . هى العزاء هى كلمة السر التى تفتح لى باب حبيبتى الموصد . لا أريد الدنيا ما دامت تأبى أن تغير ما بنفسها . إن مقتى للواقع ليس دون مقتى لتلك الراقصة المخيفة . الدنيا نفسها تتكشف لى عن صورة شبيهة بتلك الراقصة فى تلويها وتعقدها وطلائها الكاذب وشقائها الدفين فلماذا إذن أقاوم إغراء النشوة الساحرة؟!

* * *

ودعتنى أمى عصر ذلك اليوم إلى زيارة «أم هاشم» فخرجنا معا بعد أن انقطعت عن الخروج فى صحبتها أعواما ، وركبنا عربة ، فجلسنا ملتصقين جلسة أعادت لنفسينا ذكريات «الحنطور» القديم ، فخففت رقتها من قلق النفس المستحوذ على . كانت أمى ترتدى معطفا صيفيا رقيقا تقمصه جسمها النحيل فى رشاقة لطيفة . وبدا وجهها المليح هادئا مستسلما وعيناها الخضراوان صافيتين تلوح فيهما نظرة حالمة يشوبها شىء من الحزن . وقد تلفع رأسها بخمار أسود أحاط وجهها بوقار لم يخل من أثر للأربعة والخمسين عاما التى قطعتها فيما قسم لها من حياة . وحن قلبى لها فوددت لو أستطيع تقبيلها ، وتفكرت فى تقدم عمرها نحو الشيخوخة بأسى عميق ، ثم ذكرت الخواطر

الخائنة التى دارت برأسى على فراش مرضها، فعضضت على شفتى بقسوة وحنق. يا لها من خواطر مقيتة! إنها من صميم الألم الذى ألتمس فى الهرب منه أى سبيل، وهون من وجدى ما كان يخيل إلى من أنها سترث عمر جدى الذى يهدف إلى التسعين.

كبر على فى تلك اللحظة عصيانها، بيد أننى شعرت فى أعماق نفسى بأنى ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعنى إلا الإذعان لها. وساءنى ذلك وأحزننى. كيف ألقى أم هاشم بهذا القلب الخائن وهى التى لا تخفى عليها خافية؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من ورع طيب إلى شيطان مولع بالمعصية؟! وانتهينا إلى الجامع. ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتوزع قلبى الحب والإيمان والخوف. ونسمت على قلبى ذكريات الأيام الخوالى حين كنت أنفذ للجامع الطاهر بقلب سعيد لم يعان بعد الشعور بالذنب وعذاب الضمير. وتقدمتنى أمى إلى المقام وهى تهمس بحرارة: «جئتك يا أم هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين يديك فباركيه وسددى خطاه!». ثم دفعتنى نحو باب المقام فبسطت راحتى عليه، وشعرت ببرودة تسرى إلى فؤادى، فوقفت صامتا مليا، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الجدث الطاهر يرمقنى بعينين متألقتين لم يغيرهما الموت فدعوت بقلبى «أم هاشم» أن تلهمنى الصواب وأن تنقذنى من حيرتى وشقائى، وأن تتوب على. وترددت لحظة ثم سألتها أن ترعى حبى التعيس بعين الرحمة!

وغادرنا المثوى الطاهر وأمى تجفف عينيها، ثم سألتنى:

ـ هل تبت إلى الله؟

فأجبتها دون أن أحول إليها عينى:

ـ نعم.

فتمتمت برجاء:

ـ توبة صادقة إن شاء الله.

٢٤

لم يسعنى مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عنى شيئا لا ضميرى ولا توبتى، ولا ما جبلت عليه من مخافة الله. كنت من حياتى فى قنوط، فعملى جد بغيض، وحبى حسرة طويلة، وإن الأيام لتمر ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فتنظر عيناى ويخفق فؤادى، ويعيى إرادتى العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلا نشوة الخمر وتهالكت عليها! على أن ذاك العزاء التعيس لم يخلص لى طويلا، ولم تمل الأقدار لى فى الاستمتاع به، ففى

مطلع الخريف من ذاك العام، وفى يوم من أيام الجمع ـ وكنت جالسا مع أمى نتحدث كعادتنا ـ دق جرس الشقة، وفتح الخادم الباب ثم جاء يدعونى لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فورى فوجدت رجلا مهيبا فى الستين أو السبعين، فحييته بأدب وألقيت عليه نظرة متسائلة، فبادرنى متسائلا:

ـ حضرتك كامل أفندى؟

فقلت وأنا أتفرس فى وجهه:

ـ كامل رؤبة. هذا بيت الأميرالاى عبدالله بك حسن.

فأخذنى من يدى إلى الخارج ثم مال نحوى قائلا:

ـ لكم طول البقاء، لقد توفى جدك يا بنى..

فحملقت فى وجهه بفزع، وانعقد لسانى، فربت على كتفى وقال بصوت حزين:

ـ تشجع يا بنى من أجل والدتك، وكن رجلا كما نرجو لك، كان جدك يتوسط مجلسنا كعادته كل صباح بلونابارك، فشعر بضيق فى التنفس وطلب قدحا من الماء، ولم تكد تمضى لحظات حتى سقط على المائدة فحسبناه أصيب بإغماء، ثم تبين أن السر الإلهى قد صعد إلى بارئه..

هتفت بصوت مبحوح:

ـ وأين هو يا سيدى؟

فتمتم الرجل:

ـ أحضرناه معنا فى سيارة.

وما كاد الرجل يتم قوله حتى رأيت فى أسفل السلم رجالا أربعة يحملون جدى ويرتقون السلم على مهل وحذر، فسارعت إليهم ذاهلا، وشاركتهم فى حمله وأطرافى ترتعد جميعا، ثم دخلنا الشقة وهو بين أيدينا، رأيت أمى فى نهاية الصالة، وقد ندت عنها صرخة فزعة، وأقبلت نحونا لا تبالى الأغراب، وسألتنا بجزع:

ـ ما له؟! ماذا به؟!

ولكنها لم تسمع جوابا، أو وجدت فى الصمت جوابا فصرخت صرخة مدوية، وولولت فى توجع «أبى.. أبى». وأنمناه على الفراش، ثم أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحدا فى إثر آخر، وعزوا أمى، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألنى بعضهم عما إذا كنت فى حاجة إلى شىء فشكرت لهم، وتطوع البك الذى قابلته أولا فدلنى على الإجراءات المتبعة، وأخبرنى بأنه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربية. وأنه يستحسن أن تشيع الجنازة فى العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جدى مهرولا فوجدت أمى

تبكى بكاء مرا فلم أتمالك أن أجهشت فى البكاء، ولكنها لم تسمح لى بالبقاء فى الحجرة، ولكى تشغلنى عن الحزن أمرتنى أن أبرق بالخبر إلى خالتى وأخى وأن أذهب إلى أختى لآذنها بموت جدها. وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات، وعدت إليه مرة أخرى ومعى أختى راضية وزوجها. ووجدت فى الشاب خير عون فى القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن ألازمه دون وعى. وما كاد يخيم المساء حتى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتى وزوجها وأخى مدحت وزوجه وعمى، ولم يتخلف إلا أبى، وقد قال لمدحت وهو ينعى إليه جدى «البقية فى حياتك، أرجو أن تعزى أمك وأخاك وأختك، لأنى لا أحضر لا جنازات ولا أعراسا!» وكانت أمى أشد الأهل فجيعة وحزنا لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللهم إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض فى بيت أبى.. هكذا مات جدى. وقد تمتع بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعده المرض. وفارق الحياة فى مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه المخلصين، فى يسر قل أن يحظى به المحتضرون.. وكنت لا أزال كلما خطر على فكرى حنيت الرأس إجلالا لذكراه، واستمطرت الرحمة والعفو روحه الكبير. كان جدى، وكان أبى، وكان جناح العطف الذى أظلنى فنعمت فى ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة. ولا أنسى أننى اتهمته فى الساعات السود التى كدرت صفو حياتى بأنه أساء تربيتى، أو أنه تركنى لأمى تفسد حياتى بتدليلها ولكنى إذ تدبرت الأمر لم يسعنى إلا إقامة العذر له، لأنى رأيت نور الدنيا وهو يتخطى الستين. وإنه لمن أشق الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جده، لأنه غالبا ما يبدو فى حالة من التبجيل والقداسة، لأن مؤرخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبجلونه ويقدسونه. فإذا ركنت إلى ما لمسته بنفسى من حياته أمكننى الثناء عليه فى غير تحفظ. وطالما كانت صحته وحبه النظام ودقته العسكرية التى لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مثار إعجابى الشديد. وكان حدبه علينا لما تهون إلى جانبه مصائب الحياة، وبحسبى أننى لم أعرف مرارة الحياة الحقة حتى ودعناه إلى مثواه الأخير. ومهما يطل بى العمر فلن تمحى من مخيلتى صورته فى أيامه الأخيرة وقد كللت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقارا وجمالا، وأذكت فى عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف. فلم أدهش لحزن رفاقه عليه، وأدركت - إن كان فاتنى ذلك - أنه كان من الذين يألفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التى حرمتها وذهبت نفسى حسرة عليها مدى عمرى. وقد تقرر تشييع جنازته فى العاشرة صباحا، ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات وأطلقت المدافع تحية لجدثه، وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش. وألقيت على جثمانه نظرة الوداع - وهو يختفى فى القبر - وأنا أنتحب كالأطفال.

٢٥

قالت لى فى حزن بالغ :

ـ ليس لنا إلا الله .

فقلت وقلبى يستشعر خوفا لا يدريه :

ـ هو نعم المولى والنصير .

ومضت تتكشف لى الحقائق ، فعلمت أن معاش جدى قد انقطع بوفاته . وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصرف أربعمائة جنيه ، ولما كانت أمى وخالتى وريثتيه الوحيدتين فقد خص الواحدة منهما مائتا جنيه صارت كل ما لنا عدا ماهيتى الصغيرة! صرت إذن رب أسرة ، وقد لفت عمى نظرى لهذه الحقيقة وهو يودعنى ، فكرر لى العزاء ، ووصانى بأمى قائلا :

ـ أكرم أمك ما وسعك ، فأنت رب البيت ، وأنت خلف جدك!

وتلقيت قوله بخوف وتشاؤم ، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتعاض ، وآلمنى أن أجد نفسى مسئولا عن غيرى أنا الذى ألفت أن توكل مسئوليتى بغيرى! ولما خلا البيت من المعزين ورحل كل إلى طيته ، وجلست وأمى منفردين نتبادل الرأى قالت بلهجة أسيفة :

ـ اللهم عونك .

ورفعت إليها بصرى الحائر فى خوف وكآبة ، سألتها بإشفاق :

ـ ماذا ترين يا أماه .

فقالت بأسى :

ـ لن تمضى الحياة فى يسر كما عهدناها . هذا أمر الله وعلينا أن نذعن ونصبر ونشكر ، وإنه ليسوءنى أن أكون حملا ثقيلا عليك . ولكن ما باليد حيلة .

فقلت بحرارة :

ـ لا تقولى هذا . أنت كل ما تبقى لى فى الحياة ، ولولاك ما عرفت لنفسى مأوى آوى إليه .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حزينة ، ودعت لى طويلا . ثم قالت :

ـ سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة ، حتى يكبر مرتبك!

ولذت بالصمت متفكرا، وعيناها الحزينتان لا تفارقان وجهى، ثم استدركت بصوت متهدج:

ـ لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتبك، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشا فى حينا هذا..

وساد الصمت مرة أخرى، ورحت أتساءل عما أعمانى عن هذا المصير الذى كان متوقعا من قبل، حتى عادت أمى تقول بصوت منخفض:

وينبغى أن نستغنى عن الخدم، ولن نحتاج فى المستقبل إلا لخادم صغير.

ـ يا له من ضيق لا أدرى كيف يتحمله صدرى!

لست أعلم شيئا على الإطلاق عن الكفاح الذى يشقى به الناس فى سبيل الحياة، فلذلك حدجت أمى بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألتها:

ـ بماذا تقدرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخادم وغيرها؟

وتفكرت أمى طويلا، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ بما لا يقل عن ستة جنيهات!

ثم استدركت كأنما لتخفف من واقع كلامها:

ـ سأرصد مالى لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية..

ولكنى لم ألق بالا إلى قولها، ومضيت أفكر فيما يتبقى لى من مرتبى بعد تكاليف المعيشة، فى الجنيه والنصف، وما ينفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسى. فكرت بامتعاض واكتئاب، فتقبض قلبى جفولا من هذه الحياة السخيفة التى لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبى كله فى الشراب والطعام والعربات؟ ألم أكن مع ذلك شاكيا متبرما تعيسا؟ رباه، كان الماضى عهدا غير منكور النعيم، ولكنى لم أفطن إلى نعيمه إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات، إنى أعمى ما فى ذلك من شك، تعمينى الأحلام الطائشة عما بين يدى، ومن كان مثلى قضى عليه بألا يذوق للسعادة طعما فى هذه الحياة. تجهم لى وجه الدنيا، وخارت عزيمتى، وامتلأت نفسى تشاؤما حتى توقعت شرا وراء كل خطوة أخطوها. أجل ألا يجوز أن تستغنى عنى الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل؟.. ألا يحتمل أن يصادفنى حادث فى الطريق يقضى على بعاهة تقعدنى عن السعى من أجل الحياة؟! لماذا وجدنا على الأرض؟ ولعل هذه الأفكار السود التى جعلتنى أسأل أمى قائلا:

ـ ماذا ينتظر أن أرث عن أبى بعد وفاته؟

ولم ترتح أمى لمجرد أفكارى وقالت باستياء؟

- لا تبن آمالك فى الحياة على موت إنسان. الأعمار بيد الله. وإنى أستحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أننى استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تجيبنى على ما سألت، فقالت مذعنة لإلحاحى:

- لأبيك أوقاف تدر عليه أربعين جنيها كل شهر، غير البيت الذى يسكنه.

وقدرت بعملية حسابية ما يصيبنى من هذا الميراث، فوجدته ستة عشر جنيها نصيبى من البيت، إذا أضيفت إلى مرتبى الصغير صار كبيرا بلا شك. واستسلمت للأحلام كالمعتاد، ولكنها لم تغير من الواقع شيئا. وسألتها مرة أخرى:

- ما عمر أبى؟

وأجابتنى على كره:

- لا يقل عن السبعين.

ترى هل يعمر كجدى مثلا؟ ماذا يكون حالى لو عمر طويلا وحرمنى ميراثى عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكرت ما قيل لى من أنه انتظر يوما على مضض موت أبيه، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع فى الجريمة التى قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة! إنى أعانى نفس المشاعر التى عاناها قبل ثلاثين عاما، ولعله لو كان لى بعض قوته لسلكت الطريق الذى سلك!

ثم استدعت أمى الطاهى العجوز وأم زينب وأخبرتهما فى استحياء وألم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقى «آثرت الكذب على الاعتراف بالفقر»، وأنها مضطرة إلى الاستغناء عنهما، وذكرت عهد خدمتهما الطويل بالأسف، وأثنت عليهما الثناء الجميل، ودعت لهما بالتوفيق، ثم نفحتهما بما يستعينان به حتى يجدا عملا جديدا. وقد انتحبت المرأة باكية، ودمعت عينا الرجل العجوز ودعا لجدى بالرحمة والعفو، وقال بصدق وإخلاص:

- وددت يا سيدتى لو مت قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه.

ولم تتمالك أمى نفسها فبكت، وانتقلت العدوى إلى فبكيت، ومرت بى ساعة سوء كابدت فيها ألما وخزيا لم أشعر بمثلهما من قبل. وانتقلنا قبل ختام الشهر إلى شقة صغيرة فى الدور الأوسط من بيت قديم ذى أدوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرع من شارع المنيل. وكان البيت يقع فى وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيل، أما الشقة فتتكون من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبعنا بقيته بثمن بخس. وساءلت نفسى فى وجوم: هل تستطيع أمى النهوض بأعباء الخدمة المنزلية بعد ذاك العمر الطويل من الراحة والدعة؟ إنها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلا خادم صغير

فكيف تتحمل هذه الحياة؟ وزادت حياتى تنغيصا وداخلنى سخط شامل على الوجود كله. على أن أمى أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت فى إيهامى بأنها مسرورة بالحياة الجديدة، وكأنما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارة فى الخدمة والعمل. وقالت لى بارتياح لمسته فى نبرات صوتها وابتسامة عينيها:

ـ إن خدمة بيتك هى السعادة التى ليس لى وراءها مأرب.

وتجرعت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضافت إلى حسراتى القديمة حسرة جديدة، هى حسرتى على العيش الرغيد والشراب خاصة، وأجمعت على أن أقتر على نفسى كى تتهيأ لى ولو سكرة واحدة فى الشهر، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إلى لهوا وعبثا، ولكن حياة وهمية أفر إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض.

ويوما قالت لى أمى وقد آنست منى استنامة إلى حديثها:

ـ لعلك لمست الحكمة التى أملت على أن أرفض أى زواج لا يليق بك!

وأدركت ما تعنى لتوى، فكأنما تقول لى: «ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت رب أسرة!». ولم يداخلنى شك فى صدق ملاحظتها، ولو كنت رب أسرة لشقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح لقولها، ووقع من نفسى المهيضة موقع الشماتة المريرة، فلفنى الحنق والغضب، وكابدت مشقة فى كظم عواطفى.

٢٦

وهل الخريف. ذلك الفصل الذى أحببته لأنه البشير بافتتاح المدارس، وستعود حبيبتى إلى الملتقى المعهود على طوار المحطة. حبيبتى هى الزهرة الوحيدة التى تتفتح فى الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار. ولاحظت أن مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت، ترى هل بدأت حبيبتى حياتها كأستاذة؟ ولذنى ذاك الخاطر فاهتز عطفاى سرورا. بيد أننى لا يمكن أن أنسى أن مجرى حياتى قد تغير، وأننى أرزح تحت وقر الفقر والقنوط، فحبيبتى ميئوس منها، ولكن ما كان اليأس إلا ليزيدنى هياما وولعا، ويشب فى قلبى أشواقا وأحزانا. ما أسرع أن ينقلب الحب اليائس ثورة على الحياة. أليس من الهزء بنا أن نخلق لحياة ثم يحال بيننا وبينها؟ وزاد من لوعتى أنه كان يخيل إلى فى أحايين كثيرة أن عينيها ترنوان إلى بنظرة فيها حياة. أية حياة؟ لست أدرى. ولكنها كافية لبعث الجنون فى خيالى، فيثمل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتى تصدمنى حقيقة مرة من حقائق حياتى. واشتد تطلع أهل البيت نحوى، وبت وكأننى أسمعهم يتساءلون: ماذا

تريد؟ لماذا تلتهمها بعينيك؟ أى رجل أنت؟ ألم يكفك عام ونصف عام؟! صدقتم والله، والحق معكم، ولكن ما حيلتى أنا؟! ضعوا أنفسكم فى مكانى وخبرونى ماذا تفعلون؟! هل لديكم علاج للعجز والفقر؟

ولم يتركنى الرجلان المعجبان بفتاتى فى راحة، فلم يزالا يحومان حولها، حتى بت أخافهما خوفى العجز والفقر، وأكرههما كرهى للشقاء الذى يضيق على الخناق، مثل هذه الحياة ألذ ما فيها الهرب منها! لذلك تلمست السبيل إلى الحانة مهما كلفنى الأمر من العناء. لم يعد شارع الألفى بك بالمرتاد المناسب لحالى، فلجأت إلى حوذى - مشيرى فى الدنيا بعد أمى - وطلبت إليه أن يحملنى إلى حانة متواضعة، وساقنى الرجل إلى سوق الخضر! وكان هو نفسه - كما أخبرنى - يرتادها من آن لآن، وقال لى مدللا على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لابتزاز الأموال، والخمر هى الخمر، وخيرها ما أسكر بأبخس الأثمان!

وأنصت إلى محاضرته فى خجل أليم تجاوب صداه أسى عميقا فى نفسى، فتهيأ لى حينا أنه يرثى نهايتى ويعزينى عما سلف من زمانى. وغادرته متعجلا، وسرت صوب حانة صغيرة فى مطلع ممر من الممرات المفضية إلى السوق. وساورنى شعور محزن بأنى أنحدر إلى الهاوية التى ابتلعت أبى من قبل، ولكن لم يكن هذا ولا غيره بمانعى من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مربعة الشكل بها موائد معدودات، تبدو رثة باهتة نادلها يونانى عجوز أعمش، وروادها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين. ولكن الخمر هى الخمر كما قال الحوذى. ولا أنكر أنى فرحت بمنظر القوارير على الرف الطويل، وسررت بها سرورا أنسانى آلام الضعة التى شدنى ضيق ذات اليد إليها. ورأيت أوانى للخمر من نوع جديد هى الدوارق، فدورق الكونياك بعشرة قروش، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر فى الشهر. وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام فى لذة وشوق. وأمدتنى المصادفة بزاد جديد للأحلام فأقبل على بائع نصيب ولوح لى ورقة وهو يهتف «ألف جنيه» فمددت يدى وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودسستها فى جيبى. زاد جديد للأحلام يضاهى نشوة الخمر. رباه! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام! إنى أملك ألف جنيه بلا شريك! الأرض ثابتة تحت قدمى لا يزعزعها الخوف والفقر، والدنيا تبتسم، ولسوف تقهقه ضاحكة إذا انتهى أبى! لا يجوز أن أتردد بعد اليوم، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبتى وأقول له بصراحة: «إنى أبتغى شرف مصاهرتك!». وأقدم له بطاقتى، ومنذا الذى لا يعرف أسرة لاظ؟!.. أجل إن الوظيفة صغيرة ولكنى أملك ثروة لا بأس بها وسأرث ثروة أخرى، فلا يسع الرجل إلا أن يتقبلنى قبولا حسنا. ورأيتنى أزف وسط الشموع وعروسى تتهادى كالقمر. ولم أطق

البقاء بعد أن أفرغت الدورق فى جوفى فغادرت الحانة، وهمت فى الطرق على وجهى متفرجا حالما، مسرورا بنفسى وبالدنيا. ولم أكن لأرجع إلى البيت حتى أفيق، ولكنى وجدت نفسى أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم أنعطف إلى المنيل. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا، والطريق مقفرا، والظلمة شديدة شاملة، والصمت عميقا يكاد لعمقه أن يسمع دبيب الخواطر بالنفس. ووقفت على الطوار متطلعا إلى البيت النائم، واستقر بصرى على نافذة مخدعها، وتسللت روحى خلالها فخلتنى أحس تردد أنفاسها العطرة. إن إيمانى بالروح لا حد له. ألم تجذب رأسها نحوى فيما مضى؟ فيمكنها الآن أن تندس فى أحلامها فترانى، بل وأن تسمعنى إذا ناجيتها! وبادرتها قائلا:

- «إنى أحبك يا حياتى، أحبك حبا هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشد ما أتمنى أن أقول لك (أحبك) فى يقظتى ولكنى لا أستطيع، إن الخجل أبكم يا حياتى، والفقر سجن شاهق الجدران، ولا حق لامرىء لا يملك من مرتبه إلا جنيها ونصفا أن يبوح بحبه لملاك كريم مثلك، ولكنى أحبك بالرغم من هذا كله، ولا أطيق أن تعرضى عن حبى، وأكاد أجن حين أرى تطلع الرجلين الثقيلين إليك، فشجعينى يا حياتى، أشيرى إلى، ابتسمى فى وجهى، ما فى ذلك من بأس ما دمت محبا صادقا كما لابد تعلمين، وما دمت عاجزا ميئوسا منه كما لابد تدركين.. آه..» وقفت طويلا دون أن تتحول عيناى عن النافذة الموصدة، فثقلت جفونى وداخلنى إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشى وخمار الشراب. ثم قرع سمعى وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها فى توجس فرأيت شبح الشرطى مقبلا، فتحولت عن موقفى وحثثت خطاى.

٢٧

ماذا يحول بينى وبينك؟ الفقر! هكذا كان الجواب، ولم أجاوزه إلى غيره من الأسباب، لأنه كان العائق الوحيد الذى لا أعد عنه مسئولا، أو هذا ما أعتقدته. كيف أحصل على المال إذن؟ وتفكرت مغتما، ثم مال بى الفكر إلى أبى! ذلك الذى تمنيت موته طويلا ولكن لم يغن عنى التمنى شيئا، فلماذا لا أزوره؟.. لماذا لا أستوهبه المال الذى أريد؟ وبدا الخاطر غريبا لا يصدق، وخاصة بالقياس إلى أنا الذى أخافه أكثر من الجميع، ولم أؤمله قط، بيد أن الجزع كان بلغ منى منتهاه فى تلك الأيام، وجرى الحب منى مجرى الدم، واشتد إحساسى بفوات العمر لدرجة تستحق الرثاء، فداخلنى شعور بأننى إذا بلغت الثلاثين فقد انتهيت. أمضتنى هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التى تجود

على بها الحبيبة توسعنى فى أثناء ذلك سعادة وتأنيبا صامتا. فلم أر بدا فى النهاية من أن أفكر جديا فى زيارة أبى.

وذهبت دون أن أعلن ما فى ضميرى لأمى، واهتديت إلى الحلمية مسترشدا بكمسارى الترام، ولما بلغت شارع على مبارك ذكرت لتوى الطريق الذى قطعته مع جدى منذ تسعة أعوام، وتراءى لعينى البيت الكبير ذو السور تلوح وراءه رءوس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالسا أمام الباب وقد طعن فى السن حتى صار هيكلا أسود. وخانتنى شجاعتى إذ غدوت منه على بعد خطوتين، فلم أتوقف عن السير، وجاوزته، وقد تملكنى شعور اليأس فحدثتنى نفسى بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتما! ولكنى لم أمعن فى الهرب ولعل اليأس نفسه أمدنى بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستشعرا عزما جديدا، مستنكرا الخور الذى يباعد بينى وبين بيت لى فيه حق غير منكور. حييت البواب فرد تحيتى جالسا، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء:

ـ كامل رؤبة لاظ، خبر البك من فضلك!

ونهض البواب مبتسما، ودعانى إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هى الحديقة نفسها، لا تزال تسطع جنباتها بشذا الليمون، تمتلئ سماؤها برءوس النخيل، وتتسرب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت ببصرى إلى الفراندا فى نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعونى، فتقدمت وأنا أطرد عن قلبى شعورا بعدم الارتباك. وارتقيت السلم، فطالعنى المنظر القديم، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس، مد لى يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثم دعانى للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهل. واشتد احتقان الدم بالوجه الممتلئ، وغابت العينان فى نظرة ذاهلة، وبان للكبر فى صفحة وجهه غضون فى الجبين وحول العينين، وذبول الخدين. لم أرتح لمنظره، ولكنى حرصت على ألا يبدو فى وجهى أثر مما فى نفسى.. ولاحت منى نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف تراءت لعينى فى الزورة الأولى فقلت لنفسى: لشد ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلفع بروب حريرى وقاية من رطوبة الخريف فى تلك الساعة من الأصيل. ولم يداخلنى ريب فى أنه مفعم خمرا حتى قمته، فساورنى القلق، وتساءلت عما دهانى من جنون حتى قمت بهذه الزيارة التى لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبى باهتمام، أو لعله حب استطلاع، فعجبت لذاك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت فى نفسى فى دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحب بين الآباء والأبناء. ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث، ولكنه أخذ يتكلم فأنقذنى من حيرتى. وقال بصوت غليظ:

ـ كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلا لطيفا، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكنى لم أشهد جنازته وهو ما لا يغفره كثيرون، على أن الإنسان فى مثل سنى ينبغى أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيان فى ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أن جنازتى لا ينتظر أن يشيعها أحد اللهم إلا عم آدم البواب، ولا يبعد أن يشغل عنها عم آدم نفسه بتفتيش جيوبى وسرقة ما يظنه بها من نقود. هل تشيع أنت نعشى؟!

* * *

دهمنى سؤاله بعد قلق استحوذ على بتأثير لهجته الثملة، فأيقنت أن مهمتى ستكون شاقة مخيفة، ولكنى بادرته قائلا:

ـ أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكا، ورأيت أنه فقد ضروسه، فساءنى منظره وضحكه واستدرك قائلا:

ـ يا لك من ولد بار، فجميل جدا أن تحب أباك وتدعو له بطول العمر! والبر بالأب سجية فاضلة لم يكن لى منها نصيب واأسفاه، ولو أوتيت قدرا من الرياء أو حظا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تفنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت ـ ذلك الثور ـ فزوجه ابنته؟! ولقد ظننته يوما سيعتنق مذهب الطلاق كأبيه ولكنه يبدو خانعا كالنساء، وانقلب فلاحا مزارعا يشارك القطعان معيشتها، ولعله يحلم بثروة عريضة بعد موت عمه، ولكن خاب فأله، فلزوجه أخوات ست كلهن مطمع الفحول من عشاق المال والنساء! لذلك أقول إنه من التعاسة أن تنجب بنات، هذا عار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين!! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!.. «ثم غير لهجته».. لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟! ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر؟. ولكن دعنا من هذا كله واسمح لى أن أنظر فى وجهك قليلا فإنى لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا ينقصك إلا الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟.. ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام؟ عار أن يكون شاب فى مثل سنك نحيلا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلا، خصوصا إذا كان يراه لأول أو لثانى مرة! ألا ترى أنى أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكنى وحيد مهجور. ولست ساخطا على حظى، لأنه من السعادة أن تبقى وحيدا، وما من مرة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين، وهم يقولون عادة إنى مخطئ، وأنا أقول إنهم لمخطئون، فالله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدهش إذا سمعتنى أقتبس من القرآن! فإنما الفضل فى ذلك إلى

الراديو، ولقد باعدت بينى وبين الدنيا ولكن الدنيا تأبى إلا أن تقتحم على دارى فى الراديو. أهلا أهلا. أنت ولد بار يا كامل، ولكن ينبغى أن تعتنى بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن. ألم يترك جدك ثروة؟!

كنت جزعا يائسا لا أدرى كيف أطرق الموضوع الذى جئت من أجله فى ضوضاء تلك الثرثرة التى لا ضابط لها، واشتد جزعى ويأسى حين رأيته ـ فى أثناء ثرثرته ـ يملأ كأسا جديدة، ولكنى انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

ـ لم يترك جدى شيئا على الإطلاق.

فهز رأسه الأصلع الأحمر كأنه يقول «هذا ما توقعته» ثم قال:

ـ مرتب عال، ذرية قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئا، كان رحمه الله مقامرا، والمقامر يفضل أن يخسر نقوده على المائدة على أن يكنزها فى المصرف، وما هو إلا طفل قد تمكن من قلبه حب اللعب، ولست ألومه لأنى بدورى شريب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أن الأول عملى يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أما الآخر فنظرى يحلم ويحلم ويحلم. إذا طمع المقامر فى الثراء قامر بثروته فى اللعب فيخسرها على الغالب، ويمنى نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خسارا حتى إذا مات لم يترك شيئا، يترك دينا ثقيلا، والغريب فى الأمر أن المقامرين جميعا يخسرون ولا أدرى من يربح إذن! أما الشريب فإذا طمع فى الثراء وجده محضرا بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشا ثمن قارورة كهذه. أتقول إن ذلك محض وهم؟! ليكن، وهل ثمة شىء فى الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟! أين جدك؟.. كان جدك حقيقة ملموسة فأين هو الآن؟ شمر للبحث عنه فلن تجد له أثرا. فتش عنه فى البيت، وفى المقهى، وفى النادى، بل انظر فى القبر نفسه، وهاك رقبتى إن وجدت له أثرا، فكيف يكون حقيقة؟! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أما زلت طالبا؟!

فقلت وأنا أدارى حنقى وجزعى بابتسامة باهتة:

ـ تعينت موظفا بوزارة الحربية!

فرفع كأسه ضاحكا وقال:

ـ نخب مستقبلك! ما شاء الله! أسرتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظف واحد، فأنت الذى تشق طريقها إلى الحكومة!

ولم أتمالك أن قلت بضيق:

ـ لست إلا موظفا صغيرا، وليس لى مرتب يذكر!

فرمقنى بنظرة توجس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكبر حتما . قضت حكمة الدنيا بأن الصغير يكبر والكبير يصغر . . والظاهر أن الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغير مقدارها، ويتغير حظ الناس منها، وإلا فلماذا لا يثرى الناس جميعا؟ فاصبر يا بنى ولا تشغل نفسك بالتفكير فى المال . التفكير فى المال مهلكة كادت توردنى فى يوم من الأيام، إنى أعجب لماذا يحب الناس المال هذا الحب الكبير! لست فى حاضرى من محبى المال، أنا لا أحب إلا الخمر، ولو أحب الناس جميعا الخمر كما أحبها، واستهانوا بالمال، لأمكن حل مشكلة الدنيا بكلمة واحدة . تصور معى بلدا سعيدا، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة فى الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يريح ويستريح، ألا تشرب يا بنى؟ كلا! فماذا تعتنق من الشرور؟ إن قيمة المرء الحقيقية فيما يعمل من شر، هبنى مت غدا ولم أكن سكيرا، فما عسى أن يقول عنى الناس؟ لا شىء! أما وأنا شريب فسيقولون حتما: «كان شريبا سكيرا» . بل ولو كنت أتصدق بمالى هذا على الفقراء لما ذكرنى أحد بكلمة . الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه، فالشىء الوحيد الذى يخلد ذكرك هو الشر . . ما رأيك فى كلامى هذا؟!

ولم أجد من الإجابة مفرا، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه . .

فآمن على قولى بهزة من رأسه المستدير بدت هزيلة واستدرك قائلا:

- صدقت! هذا سر الوجود . أما والله لو كان حقا ما يقولون عن الله فإن مصيرنا لأسود! بيد أننى عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقتى وطمأنينتى إلا إذا ساء هضمى، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة! وذلك لأنى أومن بأن الله لا يعذب عباده . كيف أصدق أن إلها عظيما سبحانه يحرق مخلوقا مثلى لأنه أحب الخمر؟! ألا يعجبك كلامى؟ أنت آنستنا . أرى الملل فى وجهك . ترى ما الذى دعاك إلى تذكر أبيك بعد نسيان العمر كله؟!

وخفق قلبى، ولم أعد أطيق السكوت . ولعله لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعى إثر ذاك السؤال، لكنى قلت فى عدم تبصر:

- أرانى فى ضيق شديد . وإذا كانت الظروف السيئة قد فرقت بيننا فإنك إبى على رغم هذه الظروف ا لسيئة .

وقهقه ضاحكا فكرهت منظره للمرة الثانية . ثم قال بلهجته الهاذية التى تنزع من سامعه أية ثقة فيما يقول:

- معك حق . الويسكى هذا حكمة غالية، إنه كالدنيا فى مرارته، ولكن الحكيم من يستطيبه ويألفه كما يستطيب الحكماء الدنيا ويألفونها، ويل لمن يجزعون لمرارته أو

يقيئون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بنى إن معك حقا. يعجبنى والله حسن تمهيدك ولباقتك. تقاطعنى مختارا ثلاثين عاما أو ما يقارب هذا، لا تؤاخذنى على الخطأ لأن الحساب لا وزن له عند الشريب فليس حتما يساوى واحد وواحد اثنين، وعسى واحد يساوى عشرة، قلت إنك تقاطعنى عمرا ثم تجيئنى معتذرا بجملة لطيفة. على أنى أقبل العذر، ولم لا؟ الحق لا آسف على مقاطعة الناس لى. أما الضيق الذى تشكو فأمر يهمنى جدا. فما يضايق ابنى يضايقنى بالتالى، فماذا تعنى يا بنى؟

حدثتنى نفسى بالذهاب لأنى لم أجد فى ذلك الهذيان فائدة ترجى. بيد أنى نبذت الفكرة فى احتجاج وغضب. وعز على أن أنكص على عقبى بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواى، وبذلت فوق ما أحتمل عادة فى مقاومة الخجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

ـ أريد أن أتزوج!

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة، ثم قال بدهشة:

ـ ما بال أسرتنا لا تنجو أبدا من هذا الداء الوبيل؟! إن أختك لم تطق صبرا حتى أختار لها بعلا كما ينبغى فهربت مع رجل غريب وتزوجته. وهذا أخوك ما كاد يشب عن الطوق حتى كان راقدا فى حضن عروسه. ولا أبرئ نفسى فقد حاولت أن أكون زوجا مرة وأخرى وثالثة، أعجب بها من أسرة! ولعلك تحتاج مالا ليتم لك ما تريد من زواج؟! لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلا أننا ننفق عليه أموالا طائلة، وفى هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان! ولعلك جئتنى وحملت نفسك ما لا تود من رؤيتى لتسألنى مالا تزف به إلى عروسك. . لا أستبعد هذا، ولكن من أين لى بالمال الذى تريد؟ هل «قالوا» لك إنى غنى ميسور؟ لا أنكر أنى أتمتع بدخل شهرى مقداره أربعون جنيها غير أجرة الطابق العلوى، ولكن لا تغبن عنك نفقاتى، إليك الطباخ مثلا فهو يسلبنى عشرين جنيها كل شهر، وإذا خطر لى أن أراجعه مرة دوخ دماغى بحساب طويل لا أفقه عنه شيئا. وإليك الخمر أيضا فإنه يلزمنى منها زجاجتان فى اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيها فى الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفى بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم وأجرة العربة التى تجوب بى بعض الشوارع القريبة كلما سئمت طول المكث فى البيت. ليس لى من رصيد فى المصرف، حتى إنى أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألنى مالا يا بنى، وإنى أقول هذا آسفا علم الله، ولكن لماذا لا تتزوج كما تزوج أخوك من غير أن يبذل مليما واحدا؟! وإن احترمت نصيحتى فلا تتزوج على الإطلاق!

وحدجني ببصره الزائغ، فبدا لى فظيعا كريها. ثم استخرج علبة سجائره، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينيه الخابيتين، فخيل إلى أنه نسينى: ثم وقع فى نفسى أنه يعذبنى! وملأنى الحنق، ولكنى بقيت على جمودى، وازددت إحساسا باليأس والخيبة. وساد الصمت مليا، ثم التفت نحوى، وألقى على نظرة لا معنى لها، ثم ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألنى:

- ألا تدخن؟

- كلا..

وعدنا إلى الصمت: ألا يجدر بى أن أذهب؟ وتوثبت للنهوض لولا أن لاح فى وجهه ما جعلنى أنظر إليه بدهشة وانزعاج. بدا متعبا وتفصد جبينه عرقا ودارت عيناه فى أنحاء المكان وكأنهما لا تريان شيئا. ورأيت خده الأيمن فيما يتصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثم دمعت عينه اليمنى.. آ.. توقعت شيئا مخيفا لا أدرى كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التى تبدو فيهما: ونظر صوبى مرة أخرى، زايلنى الخوف الغامض، وعاودتنى أحساسيس اليأس والخيبة والكراهية. ثم تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة أمامى، وهى أن هذا الرجل هو أبى الذى أوجدنى فى هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى مما يتصل بها، بدت فى صور محسوسة: فساءنى منظرها، وآلمنى وأحزننى.. ولبثت هنيهة من الألم فى شبه ذهول، ثم تنهدت على غير وعى منى بصوت مسموع، وتنبه إلى وسألنى للمرة الثانية:

- ألا تدخن؟

فهززت رأسى سلبا، فقال فى تهكم:

- نعم الفتى أنت! لا عيب فيك إلا أنك ترغب فى الزواج! حدثنى! عن زواجك أهو رغبة عامة؟ أم هو رغبة خاصة فى بنت من بنات حواء؟ «هنا خفق قلبى بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عينى»، هذا ما يبدو لى، ترى كيف الحب هذه الأيام؟! لا شك أنه لا يزال محتفظا بخطورته وقوته فى خداع البشر! ومع ذلك أكرر كرجل مجرب. الزواج سخرة. تصور أن امرأة تملكك. عليك النصيحة بألا تتزوج على الإطلاق. هذه نصيحة رجل مجرب. الزواج سخرة. تصور أن امرأة تملكك ودع ما يقال من أنك أنت الذى تملكها فهو كذب سمج، تنهك قواك وتسلبك مالك وتستبد بحريتك ثم تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها وأبنائها! فإذا مت سعت إلى رجل غيرك قبل أن تجف دموعها، الزواج شىء سخيف لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة!

ترنح قلبى تحت وقع الطعنة التى نفذت إلى صميمه، وندت عنى على رغمى آهة من الأعماق، فنظر إلى فى شبه بلاهة. ورمقته بنظرة نارية حتى حادثتنى نفسى بأن أقذفه

بالقارورة فى وجهه، ولكنى لم أكن الرجل الذى ينفذ مثل ذلك الخاطر، وشعرت بالقهر لعجزى، وبرغبة فى البكاء قاومتها ما وسعنى الجهد. وسألنى فى دهشة:

- هل آلمتك يا بنى؟

فنهضت قائما فى حنق وصحت به:

- السلام عليكم..

ثم ندمت على إفلات هذا السلام منى فى اللحظة التالية، وغادرت المكان لا ألوى على شىء، ثم خلصت إلى الطريق وأنا أسب وألعن وأتميز غيظا وحنقا: «لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة!».

رباه!.. لو أن ألف صفعة ألهبت قفاى فى ميدان عمومى لما آذتنى كما آذتنى تلك العبارة! وبلغ منى التأثر مداه فازدحمت الدموع بعينى، واستسلمت للبكاء مستخفيا بالظلمة التى تغشى الكون. ليس ثمة فائدة ترجى منه. موته وحده بيده أن يغير وجه حياتى! أجل لا أمل ألبتة إلا فى موته: واستقللت الترام وشرودى المعهود ينفس عن كربى بأحلامه التائهة، فرأيت نفسى جالسا مع مدحت وشقيقتى راضية نتقاسم ميراث أبى بعد وفاته!! واقترحت عليهما أن نبيع البيت الكبير فوافقانى فى الحال وأصبحت فى غمضة عين مالكا لألف جنيه! ولم يكن فى الحلم أثر لأمى! فقابلت والد حبيبتى وفاتحته بشجاعة عن رغبتى فى مصاهرته وتم كل شىء دون عراقيل! وشعرت بارتياح خفف من توتر أعصابى الذى أورثتنيه تلك الزيارة المخيفة الفاشلة، بيد أنى تذكرت بسرعة كيف أن الحلم لم يجعل لأمى وجودا، وسرت فى بدنى رعدة خوف وتقزز، وتقلص قلبى امتعاضا وندما، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانى بأن يلوث نفسى مرة ثانية؟! ولازمنى الامتعاض والغضب طوال الطريق. وجعلت أردد فى نفسى: «اللهم بارك لى فى عمرها»، ولم يغن عنى ذلك شيئا فعدت إلى البيت موزع النفس مشتت البال، ولم يرتح لى جانب حتى طبعت على جبينها قبلة طويلة حارة..

٢٨

وفى عصر اليوم التالى ذهبت إلى محطة الترام لأفوز بدقائق السعادة التى لا يجود اليوم إلا بها. لم يعد لقاء الصباح بالمتاح إلا فيما ندر، وذلك منذ غدت حبيبتى جالسة فى الشرفة تحادث شقيقتها، فوقفت متطلعا، منتظرا زادى من نظرة عينيها الذى يمدنى بماء الحياة، وانعطف الرأس المحبوب نحوى، ولكنه ما كاد يرانى حتى تحول عنى فيما

يشبه الحدة. ثم نهضت قائمة وغادرت الشرفة. خفضت بصرى ذاهلا وقد خبا حماسى وفتر. ما الذى أغضبها؟ هل لم تحتمل جمودى؟ هل يقضى على بالحرمان من نظراتها الحلوة؟ هل قررت أن تقابل جمودى بالإعراض والتجاهل؟ وتولانى الحزن والقنوط والخجل. كان موقفى مخجلا بلا ريب، ثم خطر لى خاطر بردت له أطرافى، وتساءلت فى خوف أيكون لأحد الرجلين اللذين ينافسانى فى الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لئن صح هذا، فماذا يبقى لى فى الحياة؟! خبرينى يا حبيبتى بحق شبابك الريان، أهى جفوة عطف خانه الصبر أم إعراض قلب ظفر بمبتغاه فى ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التى تلته. اختفت حبيبتى من أفق حياتى، وتحامت الظهور بالشرفة حين أكون فى المحطة، وفى مرات التلاقى النادرة فى الصباح حرصت ألا يقع بصرها على. رحت آكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين أضناهما التطلع. وكنت أرى الأم أحيانا وهى ترمقنى بنظراتها المتفحصة، والأخ وهو يلقى على نظرة غريبة، والشقيقة الصغرى وهى ترمينى بنظرة اهتمام، أما حبيبتى فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، قشورا صفراء وعروقا ذابلة، رباه! ليس هذا بعدم اكتراث، لو كان عدم اكتراث حقا لما أوجب هذا الحذر كله، ولوقع على بصرها كما يقع اتفاقا على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنها تتجنبنى عامدة قاصدة، إنها غضبى برمة، ولا شك أن قصة الفتى الذى يبدو محبا قد ملأت البيت. ولا شك أن جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتنى أن أقدر حرج حبيبتى وحيرتها؟ وتنهدت من الأعماق، وتندى جبينى خجلا، وامتلأت سخطا على حظى التعس، وامتدت ألسنة سخطى إلى أمى المتوارية ووراء كل شىء! وانطويت على كدر كأنما سفت ريح الخمسين غبارها على نفسى، فلم أجد إلا ذاتى هدفا لسخطى وكدرى وغضبى، وهى عادة قديمة لى إذا ضاقت بى الدنيا أن أوسع نفسى نقدا وهجاء وكشفا عن عيوبها ومناقصها، فعدت إلى التنديد بعجزى المطلق، وخوفى الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى، وذلك الكبرياء الكاذب الذى يجعلنى أصول وأجول فى البيت بلا داع حتى إذا اصطدم بأحقر موظف فى الدولة انقلب ذلا وخنوعا، استسلمت لذاك التفكير الحزين طويلا حتى بدت لى نفسى قطعة من البشاعة والهوان، إنى شخص لا يستحق أن يعيش، إن أتفه الأعمال يملأنى ذعرا وجفولا، حتى تمنيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كى لا أجد نفسى أبدا مسئولا عن عمل كبير، ولن أنسى أننى بذلت قصارى جهدى حتى وكلوا بى فى إدارة المخازن الآلة الكاتبة تفاديا لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح، لست إلا مخلوقا غريبا شذ على قافلة الحياة الحقة، ومن آى ذلك أنى لا أحفل بشىء فى الدنيا إلا نفسى وما يتصل بها من قريب، ومن آى ذلك أيضا أنى لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشد ما كانت دهشة زملائى من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقا إنى

أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلى كثيرا وأنا صامت كظيم، وكأنى لست من هذا المجتمع، فلا أدرى شيئا عن آماله وآلامه، قادته وزعمائه، أحزابه وهيئاته، ولكم طرقت أذنى أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها فى نفسى صدى، لا وطن لى ولا مجتمع، لا لأنى أسبق الوطنية ولكن لأنى لم أدركها بعد! ولعلى أشعر أحيانا بأنى أحب الناس جميعا، الناس كشىء معنوى عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتصلت أسبابه بأسبابى - إلا ليثير فى نفسى الجفاء والنفور. وحتى إيمانى العميق لم يستطع أن يستنقذنى من هذه الوحشية المخيفة، فضلا عن أنه أثقل ضميرى بالقلق والتأنيب، وأوسعنى إحساسا حادا بالخطيئة من جراء العادة المجنونة التى استبدت بى . .

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتى الجديدة بسوق الخضر لا ألوى على شىء، وطلبت الدورق الجهنمى الذى لم يعد لى عزاء سواه . .

٢٩

كنت واقفا فى المحطة قبيل المغرب، لم آل أن أتطلع إلى الشرفة والنافذة، ولكن حبيبتى لم ترق لى منذ جفتنى، قاطعتنى مقاطعة قاسية، وأضنت حياتى كمدا، وكان الشتاء فى أبانه: وفى السماء سحاب جون انعكس ظله الثقيل على الأرض، وهبت ريح باردة، وقفت ملتفا فى معطفى الأسود، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصرا مشوقا يائسا، وعلى حين فجأة سمعت صوتا رقيقا يقول:

- من فضلك يا أستاذ . .

فالتفت ورائى بدهشة، ولكن دهشتى تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامى أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحب حبيبتى، ذلك الرجل الوقور الذى يقطن فى عمارتها وغمغمت بارتباك:

- أفنـدم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنم على الوقار:

- تسمح نمشى قليلا معا . .

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبى الخبر:

- لمـاذا؟

فقال مبتسما :

ـ لدى أمر أود أن أحدثك عنه . .

فلم أجد مناصا من أن أقول :

ـ بكل سرور .

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

ـ الجو بارد جدا، فهلا وافقت على أن نستقل الترام إلى ميدان إسماعيل، وهناك نجلس فى مشرب الشاى فأحدثك دقيقتين؟ ألديك مانع؟ وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدثتنى نفسى سلفا بموضوع الحديث، وداخلنى إحساس بالخوف، بيد أن شعورى بأن الحديث سيدور حول حبيبتى حملنى على الذهاب معه بلا تردد، بل وبرغبة لا تقاوم، ولكنى تساءلت طويلا عما هو قائل؟ وعما يرمى إليه من وراء حديثه، وألقيت عليه أول نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان فى الأربعين، معروق الوجه، دقيق القسمات، صغيرها، وكان يحلى أصبعه بخاتم ذى فص ماسى، ويضع على عينيه نظارة سميكة أحدت من نظرة عينيه، ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدارته، سألنى بأدب عما أفضله من المشروبات، ولما لم أحر جوابا طلب شايا، ثم قال :

ـ اعذرنى عن تطفلى هذا، ولكنك ستقدر موقفى بلا شك إذا علمت بما حدانى إلى دعوتك. واسمح لى قبل كل شيء أن أقدم لك نفسى . . محمد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال.

ووقعت كلمة «مدير» من نفسى موقعا مروعا، فقلت :

ـ تشرفنا يا بك . . أنا كامل رؤبة لاظ موظف بوزارة الحربية .

وجاء النادل بأقداح الشاى، ولكنى كنت أفكر فى الفرق الكبير الذى يفصل بيننا كموظفين. هو مدير أعمال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولمحت وراءه مرآة مثبتة فى الجدار، ورأيت صورتى معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهى المستطيل وعينى الخضراوين، وسرعان ما سرى عنى شعور بالارتياح والإعجاب! أما صاحبى فقال لى :

ـ يا أستاذ كامل، إنى دعوتك لمشاورة أخوية، وأرجو أن تقدر رغبة رجل مثلى ـ اعتبره أخاك الأكبر ـ فى التفاهم الصريح. لست بالمتجنى على أحد، ولكنى أرجو أن نكون صرحاء!

واصطنعت الدهشة وقلت :

- أرجو أن تفصح يا سيدى عما تريد وستجدنى رهن إشارتك . . فضحك ضحكة قصيرة خافتة، ثم قال بعد تردد قليل :

- أتصفح عنى إذا سألتك سؤالا ليس لى حق فى توجيهه؟

رباه إنى أتلهف على سماعه . أجل إنى أوقن بإنه لن يحمل لى نبأ سارا ومع ذلك بدا لى كأشهى المنى . قلت مبتسما فى ارتباك :

- بكل سرور يا بك . .

فارتفق المائدة شابكا أصابع يديه، وقال :

- لاحظت أنك تبدى اهتماما خاصا بشخص ما، ولعلك أدركت من أعنى «هنا خفق قلبى خفقة عنيفة» فلا تؤاخذنى إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نية أو صلة؟!

أوشكت أن أتظاهر بالدهشة . وأعلن تجاهلى، ولكنى عدلت عن ذلك فى اللحظة التالية . طالما التقت عينانا فى المحطة، وطالما رأيته يراقبنى وأنا أتطلع إلى الشرفة، كما رآنى أراقبه يسدد عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كل شىء، ويعرف أننى أعرف، فما جدوى التجاهل إلا أن يكشف عن كذبى؟ فقلت متكلفا ابتسامة كاذبة :

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدرت أنى أبدى اهتماما بشخص ما على حين أنى أنظر إليه كما أنظر إلى سواه . إنها محض عادة سيئة!

وضحكت متظاهرا بالاستهانة، فابتسم إلى، وقرأت فى عينيه عدم التصديق ثم بادرنى قائلا :

- إنك جنتلمان كما قدرت، فأرجو أن تخبرنى صراحة هل لك بالآنسة علاقة ما؟ إذا أجبتنى بالإيجاب شددت على يدك مهنئا وانصرفت إلى حال سبيلى .

فقلت وقلبى يتقطع ألما :

- ليس لى بها أية علاقة . .

فتردد لحظات ثم سأل فى حرج غير قليل :

- ألم تفكر فى طلب يدها؟

تناوبتنى أحاسيس متباينة . شعرت أول الأمر بعذاب لا يوصف، ثم داخلنى سرور خفى لأنى أيقنت أن الرجل الذى يخاطبنى رعديد مثلى وإلا لشق طريقه إلى بيت حبيبتى دون أن يعبأ بى، بل أيقنت أنه يخافنى، فأرضى ذلك غرورى إرضاء خفف عنى بعض ألمى . ثم وجدتنى مدفوعا إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين!

- لو فكرت فيما تقول لما منعنى مانع من طلب يدها من زمن طويل!

وساد صمت. ومضى يتفرس في وجهى وقد تألقت فى عينيه نظرة ارتياح. أى مانع يمنعنى؟ يا للسخرية! إن كل شىء يبدو كحلم غريب، هل حقا نحن نتكلم عن حبيبتى، وهل حقا أنى لم أفكر فى طلب يدها وليس لى من رغبة فى ذلك. رباه ما أشد عذابى! وتملكنى شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتى الحافلة باليأس. وأخيرا خرج «البك» من صمته قائلا:

ـ أكرر المعذرة عن تطفلى. الحق أن نيتى قد صدقت أخيرا على طلب يد الآنسة بعد أن زالت من طريقى أسباب صدتنى طويلا عن التفكير فى الزواج، وبدا لى أن أحدثك به حتى لا أضع رجلى فى غير موضعها، والآن لا يسعنى إلا شكرك.

إنه من فصيلة العجزة ـ هكذا حدثنى قلبى ـ إلا أنه صادف من هو أعجز منه، فهو سعيد الحظ بلا ريب. فلم يعد لبقائى من مسوغ، فنهضت مستأذنا فى الانصراف وأنا أقول:

ـ مبارك يا سيدى.

فنهض فى أدب، وبسط لى راحته، وشد على يدى بامتنان فخلته يشد على عنقى، وشعرت نحو السرور الضاحك فى عينيه بحقد نارى، ثم ودعته وغادرت المشرب. وساقتنى قدماى على غير هدى فاستسلمت لهما، لأنه لم يكن لى غاية أقصدها، وأخذت نفسا عميقا وقلت لنفسى: «الحمد لله»، وأعدت القول بصوت مسموع كأنى أهنئ نفسى! ولعلى كنت أهنئ نفسى حقا على اليأس، وأمنيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التى لازمتنى منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحب قلبى. وقلت لنفسى أيضا: «إنى سعيد، وليس أحق منى بالسرور أحد، انتهت آلامى إلى الأبد!» وخيل إلى أننى لو ألقيت بنفسى من جسر الملك الصالح ـ كما كان ينبغى أن أفعل فى يوم مضى ـ لحلقت بدل أن أهوى من شدة السرور! ذقت لذة اليأس فى سرور هذيانى غريب، ومرت بى لحظات جنونية. والآن علمت لماذا توارت عن عينى؟! فأخذت أفيق من نشوتى الجنونية الكاذبة. ثم نشبت فى قلبى أنياب الغيرة السامة، أيمكن أن يتم هذا حقا! لم أستطع أن أصدق هذا. لماذا؟.. ربما كان مرجع هذا إلى ثقتى التى لا تتزعزع فى الله الرحيم ورعايته، ولكن من كان يصدق أن ينتهى بنا الحظ إلى الحال التى نعيش عليها! وتنهدت من الأعماق فى يأس مرير، ثم سرت فى جسمى رعدة من البرد القارص الذى تنبهت إليه لأول مرة بعد مغادرتى المشرب فأحكمت المعطف حول نفسى خوف البرد لكثرة ما يتهددنى الزكام فى الشتاء. وألمت بى رغبة غريبة، هى أن أجد نفسى طريح الفراش!.. وتخيلت بارتياح رقادى تحوط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابى تحت الضغط الشديد الذى تحملته، فوجدت ميلا لا يقاوم إلى البكاء،

فاستسلمت له متشجعا بالظلمة التى تلفنى وبكيت، ثم ازددت استسلاما فأجهشت فى البكاء حتى انتحبت وشهقت كالأطفال.

٣٠

فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كنت فى طريقى إلى الحلمية، إلى أبى، كيف انتهيت إلى هذا، خاصة وأنه لم يكن يمضى شهر على الزيارة المخيفة! إنه اليأس.. قضيت ليلة مسهدة معذبة لم يغمض لى فيها جفن، وتفكرت فى أمرى طويلا حتى تجسمت لى الأفكار شخوصا تصرخ بى أن أذهب إلى أبيك، مهما كلفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردد بممكن فى مثل حالتى، لقد فقدت رشادى، وأذهلنى الألم عن مشاعرى الطبيعية بالتردد والخجل والخوف فكان أبى - على رغم كل شىء - الأمل الوحيد الباقى لى.

واخترت أن أزوره فى الصباح لأنى أملت أن أجده قبل سكره فى حال خير من تلك التى وجدته عليها فى الزيارة السابقة المشئومة، وفضلا عن هذا كله فلم يكن بى من صبر أستطيع أن أنتظر به حتى الأصيل، فتلفنت إلى إدارة المخازن معتذرا ومضيت لطيتى. وكان الصداع يدق غلاف رأسى بمطرقته، بعد ليلة سهاد وهم، بيد أنى تماسكت، واستمددت من يأسى قوة لم أعهدها فى نفسى من قبل. وبلغت البيت بعد العاشرة بقليل فوقف لى عم آدم احتراما، فحييته ودخلت بلا طلب استئذان، إما لأنى أبيت أن استأذن فى دخول بيت أعده بيتى، وإما لأنى تناسيت ذاك فى قلقى وغمى. ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحا، ولكنى وجدتها خالية، فوقفت مرتبكا. وأدركنى آدم فدفع بابا يفضى إلى الداخل وسبقنى وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحى لى، فاجتزت العتبة بقدمين ثابتتين. وجدت نفسى فى حجرة كبيرة مستطيلة تنتهى ببابين فى الجدار المقابل علقت بينهما صورة بالحجم الطبيعى لأبى فى عز شبابه. وقد غطيت أرضها ببساط نفيس منمم، وصفت على جانبها الكنبات، وأسدلت الستائر على نوافذها وأبوابها.. ورأيت أبى متربعا على كنبة تتوسط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كثب منه يجمع أدواته فى حقيبته، ثم حياه بأدب وذهب، وعلى أثر ذهابه تراجع عم آدم ورد الباب. واتجه بصرى وأنا أقترب منه صوب

القارورة فوجدتها لم تمس، وداخلنى لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدى فتناولها بكفه الغليظة، وجرت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يقول:

ـ أهلا بك، أأنت فى إجازة؟

لم أرتح إلى استقباله، ولكنى غضضت عن ذلك، والحق أن آلام الليلة الماضية، والصداع الناشب فى رأسى. ويأسى المرير، تغلبت على ما طبعت عليه من خجل وخوف وتخاذل، فقلت:

ـ نعم فى إجازة خاصة كى أقابلك فى الحال..

فرمقنى بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق مما أثار حنقى وغيظى، وتساءل باقتضاب:

ـ أمر هام؟!

تناسيت كل شىء إلا ألمى المبرح وأملى الباقى فقلت بانفعال نمت عنه نبرات صوتى:

ـ هام جدا، أو بالأحرى هو حياتى ومستقبلى.

فردد قولى دون أن يخرج من جموده. وذهوله الذى استحال طبيعة أخرى له:

ـ حياتك ومستقبلك!

فقلت برجاء وإشفاق:

ـ زواجى الذى حدثتك عنه! إن رجلا يوشك أن يطلب يد الفتاة التى أريد أن أتزوجها، فإذا لم أتقدم فى التو والساعة أفلتت الفرصة من يدى، وضاعت حياتى..

أتراه قاذفى بإجابة ساخرة كعادته؟ وانقبض قلبى فى فزع. ولكنه لم يكن هاذيا ولا معربدا، ومع ذلك بدا جامدا سقيما ذاهلا، بل ميتا. كان كل شىء يسوغ لى اليأس، بيد أنى أبيت أن أيأس، وثبت ذهنى المكدود على فكرة واحدة عميت عما عداها فى السباق الجنونى الذى أكابده. انتظرت على جزع حتى قال:

ـ اطمئن فإن حياة الإنسان لا تضيع لضياع امرأة.

فهتفت بحرارة:

ـ إنى أعلم الناس بحياتى!

فقال بعدم اكتراث:

ـ أنت وشأنك يا بنى. لن أتدخل فيما لا يعنينى!

فقلت بعناد:

ـ إنى فى حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرت حضرتك بذلك. فسألنى بلهجة نمت عن الملل:

ـ وماذا قلت لك؟

ـ فتملكنى الحنق. وبدا لى فى صحوة أفظع منه فى سكره، وقلت مدافعا عن نفسى بإصرار وقنوط :

ـ لابد أن أحصل على المال الذى أريد. أرجو أن تقدر حرجى وشدتى، فإذا ضاعت منى هذه الفرصة انعدم أملى فى الحياة.

وألقى نظرة على القارورة، ثم قطب قليلا وقال :

ـ أنت تطلب مالا وليس عندى مال!

ـ هذا غير معقول. .

ـ هو الحق الذى لا شك فيه!

وأيقنت من لهجته واستهانته وتبرمه أن السماء أقرب إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألب على القنوط والصداع والحنق فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة :

ـ إنك لم تنفق على مليما واحدا، فماذا يضيرك لو تنازلت لى عن بضع مئات من الجنيهات؟!

ونفخ الرجل عابسا، واشتد احمرارا وجهه، ثم قال بصوت غليظ :

ـ يبدو لى أنك لا تفهم ما يقال، ولا تعى ما تقول، قلت لك ليس عندى مال. . ليس عندى مال. . ليس عندى مال!

وأفلت منى زمام نفسى فكورت قبضتى وضربت فخذى وصحت به :

ـ أليس ثمة رحمة فى قلبك؟!

فحدجنى بنظرة كأنما يقول لى : «لقد أعيانى إقناعك»، وقال باقتضاب وعدم مبالاة :

ـ كلا؟

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شك بأحاسيس الكراهية والحنق التى تفور بصدرى حتى رأيته يعبس ويتجهم وجهه، ثم صاح بصوت كالخوار :

ـ ألا تريحوننى كى أعيش البقية الباقية من حياتى فى هدوء؟!

فصحت به كمن فقد وعيه :

ـ متى أزعجنا حياتك؟ أنت الذى أزعجت حياتنا. إنى فى حاجة لبعض المال الذى تنفقه على الخمر بغير حساب ولابد أن آخذ ما أحتاج إليه.

فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنجة وزعق قائلا :

ـ هذا كلام مجانين! أتسبنى فى وجهى؟ أتهددنى؟ اغرب عن وجهى ولا تعد إلى هذا البيت ما دمت حيا!

فاشتد بى الغضب وصحت بانفعال شديد :

ـ هذا بيتى ، وما به من مال فهو مالى ، ولن تمنعنى قوة عما أريد ، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟

فنهض قائما والشرر يتطاير من عينيه ، وصفق بقوة جنونية وصرخ فى قائلا :

ـ اغرب يا ولد عن وجهى وإياك أن تعود إلى هذا البيت آدم . . آدم . .

وفتح الباب ودخل عم آدم كأنه فى الانتظار ، واقترب منا وهو يقول :

ـ أفندم يا بك . . خير إن شاء الله .

وبردت فجأت كأن «دشا» انهال على . سكت عنى الغضب ، وخمد الهياج ، وولى قلبى فرارا . وقبضت يد الخوف الباردة على عنقى فتسمرت فى مكانى مرتبكا ذاهلا زائغ البصر . ذهب كامل الذى اصطنعه الغضب واليأس ، وبقى كامل الآخر كما خلقته الطبيعة . ولم يرحم الرجل الهائج ضعفى فصاح بالبواب قائلا :

ـ أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرة أخرى . إنه يتهددنى بالقتل .

وحملقت فى وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدق أذنى ، فلاح لى فى هياجه الجنونى كشيطان رجيم ، وصرخ فى وجهى :

ـ اغرب عن وجهى .

ولكنى لم أبد حراكا ، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدى حراكا ، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعنى ، ومت خوفا وكمدا وخجلا . وانتظر الرجل عابسا ، فلما رآنى لا أتحرك ولانى ظهره وغادر الحجرة إلى الداخل على حين تقهقر البواب إلى الفراندا . وجدت نفسى وحيدا فعضضت على شفتى ، واستعدت وعيى فاستطعت أن أنهض قائما فى وجوم ، ثم غادرت الحجرة متحاميا النظر ناحية البواب . وحثثت خطاى فى الحديقة والبواب يتبعنى مغمغما بالاعتذار والتأسف ، منتحلا للبك الأعذار قائلا : «إنه دائما هكذا» .

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة . .

٣١

قطعت نصف النهار الأول متسكعا فى الطرق مختنق الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والخزى والخجل . . وعدت إلى البيت فى الموعد المعتاد حتى لا تتساءل أمى عما جاء بى قبله . وغلبنى النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتى أول المساء ، ثم غادرت البيت مثقل النفس كأنما أحمل الأرض على رأسى ، وتساءلت أين أذهب ، فما وجدت إلا

جوابا واحدا. نادتنى الحانة نداء مغريا، واستصرخنى قلبى أن ألبى وأطيع. بيد أننى لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهى أن ميزانيتى - ذلك الشهر - ستختل حتما بعد السكرة المشتهاة فلا أجد ما أنفقه حتى قبض المرتب الجديد. . على أن النداء ظل عنيفا لا يقاوم، بدا لى فى تلك اللحظة التعيسة أن نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها. . وتحسست يدى ساعتى الذهبية فقفز إلى خاطرى أن أبيعها إذا أعوزنى المال، وداخلنى ارتياح فابتسمت لأول مرة فى يومى. على أننى تساءلت فى اللحظة التالية عما أقول لأمى إذا افتقدت ساعتى، ولا بد أن تفتقدها يوما؟ ولكنى نفخت ضجرا وهتفت حانقا: «أمى، أمى، دائما أمى! سأفعل ما أشاء». واستقللت الترام بلا تردد. وفى الطريق هفت على نفسى ذكرى جدى لغير ما سبب واضح، فذكرت أيام الرغد والهناء التى فقدتها بفقده ثم وجدتنى أتمنى لو كان قبض يده الكريمة عنى ونشأنى على البخل والتقتير، أما كنت أكون أقدر على تحمل حياتى الراهنة! وقرأت الفاتحة على روحه المحبوبة. ثم غادرت الترام فى العتبة وقصدت سوق الخضر حيث توجد حانتى المتواضعة وما انتهيت من نزع معطفى والجلوس إلى مائدة خالية حتى جاء النادل اليونانى بالدورق. حانتى شعبية بلا ريب، ولكنها محترمة لدرجة ما، فإلى جانب الحوذية والمجلببين تجد لمة من الموظفين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياد الحانات الغالية. ومن هؤلاء موظف عجوز مغرم بالغناء والطرب. ما يكاد يسكر حتى يسترسل فى ترديد الأدوار القديمة مثل: «فى العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت واحشنى»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء يبش له الجلوس ويتطوع نفر منهم لترديد المذهب فى انسجام لذيذ. أخذت فى الشرب، وكالعادة تولانى الشعور بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذى لا أجده إلا بين السكارى فى الحانة، المكان الأوحد الذى أتخفف فيه من وقار الخجل والعى والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كأننى أرد إلى أهلى وعشيرتى بعد اغتراب ثقيل، وتمنيت لو كان فى الإمكان ألا أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتنى النشوة الساحرة، وأفعم وجدانى طربا. ولم يكن الموظف الفنان قد بدأ الغناء بعد، وكان يحدث رفاقه بصوت مرتفع يسمعه الجالسون جميعا، ولا بأس من أن يشتركوا فيه كما يشتركون فى الغناء. قال:

- تصوروا يا هوه أن الطبيب ينصحنى بالكف عن الخمر!

- لماذا كفى الله الشر؟

- وجد عندى ضغط دم وتصلبا فى الشرايين.

- اشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول العمر.

- وقال لى إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

ـ العمر بيد الله!

ـ فقلت: وإذا لم أواصل الشراب فسأهلك يوما لا محالة.

ـ إجابة تستاهل عليها دورق كونياك على شرط أن تدفع ثمنه.

ـ هل تصدقون أنى رأيت هذا الطبيب ذات مساء جالسا فى سانت جيمس يشرب ويسكى؟!

ـ وهكذا الأطباء جميعا! ينتش أحدهم جنيهك ويقول لك «إياك والخمر» ويمضى به إلى سانت جيمس ويشرب قارورتين..

واعتدل الموظف العجوز فى جلسته قليلا، وراح ينقر على المائدة ويهز رأسه، ثم غنى قائلا: «انصف محبك يا جميل»، واتجهت نحوه الأبصار، وأخذت الجوقة أهبتها للترديد. وكنت أشرب. وأجاذب من يجاذبنى الحديث، وأضحك ملء قلبى ودار رأسى كالعادة بسرعة، ورقصت النشوة فى قلبى، وطرت إلى سماء السرور واللامبالاة. ومكثت على ذلك زمنا طويلا أو قصيرا لا أدرى لأن السكران يفقد حاسة الزمن، ثم ودعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب يلاحقنى. وضربت على وجهى زمنا آخر، ثم ناديت عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة، وأمرته أن يذهب إلى المنيل. وسويت المقعد الخلفى ومددت ساقى عليه فى جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر ببرودة الجو وداخلنى ارتياح لحركة العربة الحالمة، وسرعان ما خامرنى ميل إلى العبث فقلت للحوذى فى حذر كاذب:

ـ إن امرأة تنتظرنى فى الطريق وسآخذها معى.

فقال الرجل:

ـ رهن أمرك يا بك..

فقلت لنفسى فى سخرية إن كل شىء على ما يرام، عربة مريحة وحوذى طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا المرأة. ثم قلت مستسلما لداعى الكذب:

ـ هى سيدة من الطبقة الراقية فهلا وجدت لنا طريقا آمنا؟

فقال ضاحكا:

ـ أظن جاردن ستى آمن طريق قريب!

فهتفت به:

ـ خاب فألك، إن قصرها بجاردن ستى؟

فقال باهتمام:

ـ أمامنا جزيرة الروضة وإن كان الجو باردا وأنا رجل عجوز لا احتمل البرد!

فقلت مشجعا :

ـ سأعطيك جنيها كاملا!

وشكر الرجل لى بحماسة وقد تهيأ له أنه عثر على كنز ، وجعلت أضحك فى سرى وأتحسس بأصابعى الريال الذى لم يبق لى غيره حتى نهاية الشهر . ومر زمن ثم رأيت العمارة المحبوبة ـ عمارة حبيبتى ـ تقترب ، ودبت فى قلبى يقظة غريبة وعلقت بها عيناى . لم أعد أملك حرية النظر إليها ـ وكان كل عزائى ـ بعد ما كان بينى وبين خطيبها المرتقب! لم يعد بوسعى أن أتطلع إلى الشرفة أو النافذة . ترى هل خاطب سعادة مدير الأعمال أباها؟ هل صارت حبيبتى مخطوبة حقا ، ألم تذكر المحب القديم ـ الصامت العاجز ـ وهى تنتقل إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئا من الأسف؟ وشعرت برغبة فى الانتقام من الدنيا جميعا ، وتولانى إحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامدا حتى بلغت العربة شارعنا ، فأمرت الحوذى بالوقوف وغادرت العربة ، ونقدته ثمانية قروش فتناولها فى دهشة وتمتم متسائلا :

ـ والمشوار الآخر؟

وانطلقت منى ضحكة خافتة على رغمى ومضيت إلى حال سبيلى . وارتقيت السلم فى تثاقل وتعب ، وفتحت الباب بمفتاح فى جيبى ورددته بلا حذر ، ثم سرت إلى حجرة النوم وأنرت الكهرباء فوقع بصرى على أمى وهى مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على الجهد الذى تبذله فى يومها الشاق الطويل ، فوقفت لحظة أتفرس فى وجهها ، ثم هتفت بها قائلا :

ـ نينـــة!

وفتحت عينيها وهى تغمغم :

ـ من! . . كامل!

فقلت بهدوء واستهانة :

ـ إنى سكران .

فحملقت فى وجهى بانزعاج ، ثم جلست فى الفراش باضطراب وقالت :

ـ إنك ترعبنى بدعابتك .

فقلت بغير مبالاة :

ـ ليس فى الأمـر دعـابة على الإطـلاق ، لقد شربت دورقين كونياك أوتار .

وانزلقت من الفراش ، واقتربت منى بارتياع وعيناها لا تتحولان عن عينى حتى شعرت بأنفاسها تترد على وجهى ، ثم امتقع لونها وقالت بصوت متهدج :

ـ لم فعلت هذا بنفسك؟ . . كيف تطيع الشيطان بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، واشتد بى الذهول، واستدركت هى تقول:

ـ اخلع ملابسك . . دعنى أساعدك.

وراحت تنزع عنى ملابسى وأنا صامت ذاهل. لماذا فضحت نفسى على ذاك النحو الغريب؟ . . لم أكن فى حالة سكر يتعذر معها ضبط نفسى، بل من المؤكد أننى رجعت فى ليال سابقة فى حالة أشد سكرا فما أحدثت منكرا، وما تهاونت فى حذرى كى لا تستيقظ من نومها، فما الذى دهانى تلك الليلة؟ والأعجب من هذا وذاك أننى كنت خالى الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة، ولم يثب إلى خاطرى أن أوقظها إلا عندما وقع بصرى عليها، فلما أن لبت ندائى قلت ما قلت بلا تردد وربما بلا إدراك ولكننى كنت مدفوعا بقوة لا تقاوم! . . ولم أستشعر ندما وقتذاك، وجعلت أتفرس فى وجهها المتألم وهى تنزع ملابسى جامد الإحساس متحجر الشعور. ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتا، وصعدت إلى فراشى واندسست تحت الغطاء . . واقتربت منى، ووضعت راحتها على جبينى، وسألتنى بصوت مرتجف النبرات:

ـ أتشكو شيئا. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟

فقلت لها:

ـ شكرا. لا أريد شيئا على الإطلاق.

٣٢

مضى على تلك الليلة وما خلفت من شجن أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملى اليومى وجلست أنتظر موعد الانصراف فى ملل وتعب، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه فى دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه المرة أن طلبنى أحد بالتليفون ولأننى لم أكن أنتظر أية مكالمة تليفونية إطلاقا. ووجدت المتحدث شقيقى مدحت وقد قال لى باقتضاب:

ـ والدنا توفى، احضر إلى الحلمية.

وعقدت الدهشة لسانى فلم أزد أن قلت:

ـ سأحضر فى الحال:

ـ وأعدت السماعة إلى موضعها ولبثت واقفا فى مكانى. واتجهت نحوى الأبصار وسألنى الزملاء عما هناك؟ فقلت فى ذهول:

ـ مـات أبى .

وتلقيت التعازى كالمعتاد ، وما لبثت دهشتى أن استحالت خوفا ، لأن الموت يخيفنى دائما ، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطة . مات أبى إذن! هذه حقيقة لا شك فيها . وأخذت أفيق من وقع الدهشة ، وأستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسى! بيد أن صورته تمثلت لعينى فى وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة ، وخيل إلى لحظة أنى أستمع إلى صوته الأجش وضحكته الساخرة . ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إن الموت لا يتخلى عما له من خواص المأساة حتى فى حال رجل كأبى عاش جل عمره عيشة الأموات بعيدا عن الدنيا والناس ، فعيشة الأموات شىء والموت نفسه شىء آخر . وطرحت على نفسى هذا السؤال : من عسى أن يحزن لموت أبى؟ . . مدحت؟ راضية؟ بدا لى أنه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو أسى ، وبدا لى ذاك مأساة أفظع من مأساة الموت نفسها . أليس مستنكرا أن يحيا إنسان فى هذه الدنيا أكثر من سبعين عاما ثم لا يترك وراءه راثيا! وجدت عند ذاك عطفا وحزنا! وإنها لعاطفة غريبة لم تختلج له فى صدرى من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح لا الأسى ، لأنه فى مثل حالتى قد تجود النفس بالحزن لتدارى سرورها ، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت ـ بموته ـ العوائق التى كانت تعتاقها . مضيت إلى الحلمية ، ولما أقبلت على البيت القديم رأيت نفرا من الأسرة يجلسون صفا على الكراسى الخيزران ، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيناى أول مرة وعلمت أنه عمى بعد ذلك ، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليه زوج أختى . وسلمت واجما مرتبكا حتى نهض شقيقى ومضى بى إلى الحديقة وقال لى :

ـ كان يوما شاقا مريرا ، ولكن انتهى كل شىء .

فســألته :

ـ لماذا لم تستدعنى قبل ذلك؟

فتنهد مدحت وقال :

ـ كنا فى شغل شاغل ، ولولا أن راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتا معا لما علمت حتى الآن بالخبر . ألا تدرى ماذا حصل؟ لقد تلقيت برقية فى الصباح الباكر من عم آدم يطلب إلى الحضور توا لأن والدى لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس ، فحضرنا جميعا ، وأخبرنا عم آدم بأن والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنه لم يعد على خلاف عادته ، وانتظره الرجل قلقا حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية فى الصباح الباكر ، وأنا أعلم أن والدنا كان يحلو له الخروج من آن لآن عند الأصائل ، وهو ـ ثمل كما تعلم ـ فيسير قليلا على قدميه ثم يستقل عربة تنطلق به حيثما اتفق ثم يعود

إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنه لم يحدث أبدا أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا فى حيرة شديدة. ولم نكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع فى ظننا أنه ربما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنها لم تكن رأته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضيع الوقت سدى فاتفقنا أن تذهب هى إلى أمنا من باب التقصى، وأن نستفسر ـ أنا وعمك ـ عنه فى قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشجويش أن حوذيا جاء إلى القسم أمس يحمل رجلا له أوصاف أبينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذى إنه استقل عربته فى ميدان باب الخلق وسار به كرغبته فى اتجاه الإمام، ولما أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد فى أثناء الطريق وجده كالنائم، وناداه ليوقظه فلم يغن عنه النداء، فأوقف العربة وانتقل إليه وهزه برفق، ثم تبين له أنه فارق الحياة. فلم ير بدا من أن يحمله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذى على سبيل الاحتياط، وحمل أبى إلى قصر العينى حيث اتضح موته ميتة طبيعية بالسكتة القلبية، وانتقلنا إلى قصر العينى فأدخلونا إلى بهو الجثث المشرحة.

وسكت مدحت وقد لاحت فى عينيه آى الألم والتفجع، ثم استدرك فى شبه ثورة مكتومة:

ـ يا له من منظر! . . لا أدرى كيف عرفنا أبى! . . كان شيئا آخر! . . واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيته إلا ضاحكا فاشتد بى التأثر وطفرت الدموع إلى عينى.

ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرنى بما تم الاتفاق عليه من تشييع الجنازة فى الساعة الرابعة، ثم قال لى:

ـ إنه راقد الآن فى مخدعه فاذهب لتلقى عليه النظرة الأخيرة.

وخفق قلبى خفقة عنيفة، وتملكنى خوف شديد، ولكنى لم أستطع رفع بصرى إليه، ولم أجد مناصا من التظاهر بالترحيب بفكرته، فاتجهت صوب الفراندا متعثرا فى خوفى وارتباكى، وارتقيت السلم مزدردا ريقى فلمحت شقيقتى ولمحتنى فى وقت واحد، والظاهر أنها أخبرت أمى بحضورى فجاءت على عجل وقابلتنى فى الفراندا وسألتنى فى قلق عن وجهتى؟ فقلت:

ـ أريد أن أرى أبى.

فقالت برجاء وإشفاق:

ـ هلا عدلت عن هذا يا كامل؟ . . إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المنتقلين إلى رحمة الله.

وتنهدت فى ارتياح، وارتفع عن عاتقى حمل ثقيل. لم يكن ما بى شىء غير الخوف. وهل يستطيع أن يواجه الموت فى أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فأر أو

خنفساء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمى وأخى صامتا، وقبل الموعد المحدد لسير الجنازة بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحربية، ولما لم يكن لأبى معارف، ولم يكن لعمى أصدقاء فى القاهرة، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين. وقال عمى متأثرا إنه سيحيى ليلة المأتم فى بيته بالفيوم. ثم أزفت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوات أختى راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبى تأثرا ودمعت عيناى. ولم نلبث أن انتظمتنا الجنازة. وغشيتنى بادئ الأمر كآبة ثقيلة استثارها فى نفسى منظر النعش، وظل الموت، وما عاودنى من ذكريات جدى ووفاته. ثم جعلت الغشاوة تنقشع والسكينة تعاودنى، واسترقت النظر إلى من يحيطون بى فرأيت وجوها هادئة، وأخرى باسمة لسبب أو لآخر، فسرى عنى وثابت إلى نفسى. وذكرت بغتة كيف كنت أسير فى الصباح صوب الوزارة خالى الذهن مما يترصدنى من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النعش فعجبت لحياتنا الغريبة، وخيل إلى فى تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها فى شطارة وتهكم مغرقة فى الضحك! ثم ساءلت نفسى عن أى الحالين أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟! ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور! على أن شعورى الدينى العميق احتج احتجاجا صارخا وبث فى حناياى الخوف والقلق فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذى يلاحقنى، فقطبت متجهما وأنا لا أدرى، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلى بهذه المحاولات الصبيانية وانطلق يفكر فى الثروة المنتظرة. وذكرت ما سبق أن حلمت به من بيع البيت، فتساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مالكا لألف من الجنيهات ونيف؟ ولكن هل تلكأ منافسى فى اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضى الأمر وليس ثمة أمل! أتكون الثروة المنتظرة وسيلتى للسعادة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التى يستعملها فى السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من فقرى وعجزى، وإنه لقادر على أن يسخر من ثرائى وقوتى، ليرينى أنى على الحالتين مقضى على بالحسرة والتعاسة! وفتر حماسى وخمد، وعرانى وجوم وقلق، ودعوت الله فى رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتى من قسمتى ونصيبى.

وانتبهت من أفكارى على توقف سير الجنازة أمام الجامع. وأدخل النعش للصلاة عليه، على حين انفصل عنا المعزون مشكورين. ثم أودع النعش سيارة الموتى، وانطلقت بنا وبه إلى الإمام، وانتهى المطاف.

واجتمعت الأسرة ليلا فى الحجرة الكبيرة التى قابلت فيها أبى لآخر مرة، فجلست وعمى وشقيقى وزوج أختى فى جانب منها وجلست أمى وأختى وزوجتا عمى وأخى فى الجانب الآخر. وكان عمى رجلا عمليا ـ وقد ذكرنى مظهره بأبى ـ فتحدث عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له فى وزارة الأوقاف

لييسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية . وتحدث أخى مدحت فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب فى سكناه، ووقع رأيه من نفسى موقعا حسنا لم أحلم به، فوافقت عليه بحماس نسيت أن أداريه، ولم تمانع راضية، وقال عمى :

ـ إنه بيت قديم ضخم لا يغرى إلا شاريا مثريا، يهده ويشيد مكانه عمارة كبيرة على طراز حديث، على أنه لا يمكن أن يباع بأقل من أربعة آلاف جنيه .

أربعة آلاف، آه لو يكون منافسى تأخر! وكبر على أن أتصور أن يخيب الله رجائى بعد أن حقق أحلامى على هذه الصورة الباهرة، إن ثقتى بالله لا حد لها وهو الخبير المطلع . ولاحت منى التفاتة نحو أمى فوجدتها صامتة غارقة فى أفكارها وقد ارتفع حاجباها الخفيفان وانفرجت شفتاها عن أسنانها الصغيرة اللامعة، ترى فيم تحلم! وما حقيقة مشاعرها حيال المتوفى؟ . . هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهود حياتها المنطوية! وشعرت نحوها بعطف وحب، ثم ذكرت الأفكار التى تتملكنى فداخلنى إحساس بالقلق والخوف .

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح أخى أن نبيت ليلتنا بالبيت، لكن أمى آثرت أن نعود إلى بيتنا على أن نرجع مع الصباح، وبذلك غادرنا البيت القديم وسرنا جنبا إلى جنب صوب المحطة، وحدثتنى فى الطريق قائلة :

ـ أما كان الأفضل أن تبقوا على البيت .

فقلت بدهشة :

ـ وماذا نصنع به . . إننى فى أشد الحاجة إلى نصيبى من ثمنه .

فقالت :

ـ حسبك راتبك الشهرى، أما هذا القدر الكبير فما أدرى والله ما حاجتك إليه!

ترى هل استشعر قلبها خوفا! وساورنى القلق والاستياء، واختلست منها نظرة ولكنى لم أتبين فى الظلمة ما يبدو على وجهها، وواصلت حديثها قائلة فى لهجة تنم عن الإشفاق :

ـ إياك وأن تفرح لموت أحد! لا تذكر أباك من الآن فصاعدا إلا دعوت له بالرحمة، فما أحب لك أن تسر لموت إنسان مهما كان هذا الإنسان!

عجبت لهذا الكلام يلقى على من الفم الذى بث فى المقت لأبى، لكن لم يخطر لى على بال أن أذكرها بهذه الحقيقة العجيبة . ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينبس أحدنا بكلمة .

٣٣

لم أعد الفقير المعوز الذى كنت، رفع عن كاهلى عبء الحاجة والحرمان، غدوت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التى ستوافينى فى خلال شهر أو شهرين، ولكن مسنى جنون لم يكن لى به عهد، جنون محب لا يقعده الفقر! كان لى من الفقر رادع يحد من طموحى، ويجعل من حبى حسرة طويلة منطوية فى ذات نفسى، ولذلك سلمت بالهزيمة حيال منافسى محمد جودت دون مكابرة، وانطلقت فى الطريق أنشج كالأطفال، فلما قتل الفقر غدا الحب مطمعا غير محال، فتناسيت العوائق الأخرى، وركبنى جنون جديد، جنون من تبدو له السعادة ممكنة، ولا يحول بينه وبينها إلا أن يتغلب على خجله فيقتحم سبيله ويجرب حظه، لزمت المحطة طويلا فى عصر اليوم التالى للوفاة، وجعلت أتطلع إلى النافذة المحبوبة برغبة جنونية، ما عدت أرى حبيبتى، وما أدرى إن كان الذى أخشى قد وقع، ولئن كان فلن أجنى من ثروتى إلا السم الزعاف، ولكن هبها لاحت وراء النافذة فما عسى أن أصنع! هل تواتينى الشجاعة على أن أومئ لها بطرف خفى . . لشد ما ينقبض قلبى خوفا وجفولا! . . لست من ذلك فى شىء . . لو كان بى ذرة من شجاعة لاقتحمت باب العمارة دون تردد ولاستأذنت فى مقابلة البك وعرضت عليه ما يجول بخاطرى . هل يعد هذا من الخطورة بحيث يستدعى كل هذا الخوف؟ وهبه على أسوأ فرض قد اعتذر من عدم القبول، فلماذا أعد هذا الرفض أشد من الموت وأقتل من القتل! . . لماذا لا يكاد يجول بخاطرى حتى أتصبب عرقا ويتنزى قلبى فى صدرى! يالله! . . أما يتزوج الناس كل يوم بالعشرات والمئات! . . كيف يتلمس الأزواج الوسائل ويقتحمون السبل! ليس بينى وبين مبتغاى إلا أن أطرق هذا الباب . فإما سعادة الأمل أو راحة اليأس، فإلام أتردد وأحجم . . إنه بيت وليس بحصن، وإنى طالب زواج ولست بعدو، فلماذا أخاف كل هذا الخوف! ليست غايتى أن أغزو قارة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسى، وأن أعرض سؤالى، وأنا محوط بالرعاية التى يتلقاها ضيف من مضيف كريم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق . . قلت هذا لنفسى فى يسر وتأنيب : ولكن ما إن تجسم لى الخيال حتى التهب منى الجبين واشتدت ضربات قلبى وأحسست رعدة تسرى فى أطرافى، وحضرتنى بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشئومة بكلية الحقوق التى طوحت بى بعيدا عن الجامعة، فتنهدت من الأعماق فى قنوط قاتل . إن الأقدام فوق طاقتى، وربما كان بوسعى أن أقضى العمر على هذا «الطوار» باكيا، أما عبور

الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ منى الهلع أن أنقلب القلق الذى يساورنى حمى تحرق القلب والرأس، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيما يشبه الهذيان، نسيت الثروة التى وقعت على، خمد حماسى للحياة والأمل، وتركز تفكيرى فى شىء واحد لا يتحول عنه، جعلت أدور حوله دون أن أجرؤ على الدنو منه، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمى وجدا لم أحاول إخفاءه، فقلت لنفسى فى حنق بالغ: لو لم أخشها لبعثتها تخطب لى وتكفينى شر الحمى التى تسعر فى كيانى.

متى تنقشع هذه الغمة؟ لم أكن أدرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائدا من الحلمية، فنزلت فى العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف، فرحت أتزحزح حتى أسندت ظهرى إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقرًا على الباب فأدركت أن أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلا دائرا على عقبى لأفسح للقادم طريقا، وفتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامى حبيبتى دون غيرها! وثب قلبى وثبة عنيفة زلزل لها صدرى، وغبت عن كل شىء فى الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذى ارتعدت له جوارحى فرحا وخوفا، ورفعت إلى وجهى عينيها عرضا فالتقت عينانا لحظة قصيرة، وبدا لى أنها ترددت قليلا على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها، والتمس بصرها فيما ورائى مكانا تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكا، فاضطرت أن تحتل الموضع الذى كنت شاغله وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها ممسكا بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هى دون غيرها، جادت بها السماء لتبل جوانحى. من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق. ماذا بى؟.. ترى أهذا سرور أم خوف أم وقدة نار؟ لولا دقة الموقف وشدة حيائى لطاب لى أن أبكى! غبت عن كل شىء، فلم أعد أحس للناس وجودا على تكتلهم: وحتى حبيبتى نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها، يبدو لى أن للقلب بصرا إذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأعين فينقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدرى كيف واتتنى الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيتها فخفق قلبى بغير رحمة وهيأ لى أن وجودى هو الباعث على هذا التودد الفاتن وذاك الارتباك المليح، وتنهدت على رغمى فتموجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسى، ورفعت إلى عينيها ثم خفضتهما بسرعة فرارا من عينى، آه.. عثرت أخيرا على من يفر منى!.. وشاعت فى رأسى نشوة ألذ من نشوة الخمر وأحمى، وركبنى جنون لا عهد لى به فثبت على وجهها عينى فى جسارة خارقة، بل هى بالنسبة إلى جنونية، ثم وثبت إلى شعورى رغبة غريبة أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسى، وازدردت ريقى فى توتر عصبى عنيف، وجعلت أتحفز وأتوثب فى قلق وهياج نفسى مروع، وأيدنى الجنون الذى

يضطرب فى روحى، ودفعنى ما عانيت فى الأيام الماضية من لهفة قلق وقنوط ثم تملكنى إحساس يشبه إحساس المنتحر إذا تجمع للوثبة الأخيرة، وتحركت شفتاى بصوت خرج همسا قائلا :

ـ أريد أن أقول لك كلمة .

رباه! . . ترى هل بلغ سمعها؟ . . أجل . . رمقتنى بعين دهشة وقد تورد وجهها ورمشت عيناها!

ومر وقت قاس غليظ . جف حلقى وتوالت ضربات قلبى فى سرعة وعنف، أية هاوية أوردنى جنونى؟ لقد هوى المنتحر وجاء دور الاستغاثة . مع ذلك داخلنى ارتياح عميق لأنى زحزحت أضخم سد اعترض حياتى . تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين، لن أموت على أية حال وسرى دفين صدرى . ولكن الترام لا يمهلنى طويلا، وإنه وشيك الوصول إلى محطة حبيبتى، وها هى ترمى بنظرها خلال النافذة، وها هى يدها تتلمس مقبض الباب لتفتحه، سينتهى كل شيء! وركبنى الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب أمنع فتحه! من أين لى بهذه الجراءة؟! وبدا فى الوجه الجميل الاستياء، ورمقتنى غاضبة، فهمست برجاء كأنه البكاء :

ـ كلمة واحدة . .

وتوقعت لحظات قاسية أن تنقض الصاعقة على رأسى! أن تزجرنى أو تنهرنى فتستثير غضب الحاضرين . . ثم على السلام! ما بى قوة لاحتمال مثل هذا الموقف، ولئن وقع لأموتن حيث أنا! ووقف الترام ويدى قابضة على الباب، ثم تحرك ثانية وهى بمكانها مقطبة مستاءة ولكن دون أن تبدى اعتراضا جديا أو ثورة علنية! وسرت فى جسدى رعدة السرور والظفر والجنون وخيل إلى أنى أتحول إلى عملاق جبار يخر له الموت نفسه صريعا بضربة واحدة . وانتظرت حتى ابتعد الترام محطتين ثم فتحت الباب وأنا أهمس «تفضلى» فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت تشق لها طريقا وسط الزحام وأنا أتبعها، واعترض نشوتى خاطر، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكا وتفاديا من الفضيحة؟! ألا يحتمل أن تكون قد كظمت غضبها حتى تصبه على فى الطريق بعيدا عن أعين النظارة؟ وأوشكت قواى أن تخذلنى، وغادرت الترام وراءها وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية والطريق كالمقفر إلا من سيارات تذهب وتجيء، وابتعدت عنى بسرعة وهمت بعبور الطريق إلى الطوار، فحزنى الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها، متشجعا بالظلام، ثم قلت بصوت متهدج :

ـ معذرة . . لا تؤاخذينى على تهجمى .

ـ ماذا تريد؟ . . وما هذا الذى فعلته أمام الناس؟

واشتد بى الارتباك، وكنت أسمع صوتها لأول مرة فهزتنى به غنة لطيفة على حدته وغضبه، وقلت :

ـ أسألك المغفرة. إنى أود أن أقول لك كلمة من زمن طويل ولم تتهيأ لى الفرصة إلا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة فى التعبير والكلام، وبأن إحساساتى الحارة يخونها الإفصاح، ووجدت قهرا وضيقا. وزاد من ضيقى أنها ولتنى ظهرها بغير اكتراث وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فتبعتها بسرعة مندفعا، وقلت :

ـ أرجوك.. لحظة واحدة، أصغى إلى، كلمة واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله.

فقالت دون أن تنظر إلى أو تكف عن السير :

ـ بأى حق تكلمنى يا هذا؟

فهتفت بدون وعى منى :

ـ إنى أعرفك منذ أكثر من عامين!

فقالت بلهجة تنم على الانزعاج :

ـ ما هذا الافتراء؟!

أيمكن ألا تكون عرفتنى؟! يا لى من غبى!.. ألم تذعن لإرادتى حتى نزلنا فى هذه المحطة؟! يدل هذا على أنها ترغب فى سماع كلمتى!.. إن الفرصة سانحة ولكنى أفسدها بالعى والحصر والارتباك. واستجمعت قواى وقلت بصوتى المتهدج المضطرب النبرات :

ـ إنى أتلهف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر.. ماذا يضيرك لو أصغيت إلى؟!

لماذا لم أتكلم بدل أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم إنى أستعينك على حل عقدة لسانى! وبدا لى أن حبيبتى فطنت لخجلى المميت. لم أدرك البواعث التى حملتها على التوقف، ولكنى رأيتها تتحول نحوى وترمقنى بعينيها الجميلتين اللتين أحبهما أكثر من نور البصر، ثم تسألنى بحدة :

ـ ماذا تريد؟

ماذا أريد؟! لم يتيسر لى القول بعد؟! ها هى تنتظر الكلمة التى أتعبتها فى استئذان قولها، ألم أكن أعددتها؟ وجدت رأسى فراغا وكأننى فقدت النطق. ماذا ينبغى أن يقال؟ وازدردت ريقى الجاف فى شبه قنوط، ثم بدا منها ما يدل على نفاد الصبر، والتحفز للسير، فخرجت عن صمتى هاتفا :

ـ صبرا، أرجوك.. أنا أريد أن أقول.. إنى راغب فى.. (وقفت عبارة «طلب يدك» فى زورى).. إنك تفهمين بلا شك، أليس كذلك؟! فهل يمكن هذا؟!

فتأففت وقالت :

ـ لابد أن أعود إلى البيت فلا تتبعنى من فضلك .

وتولانى الهلع فقلت مندفعا بلا تردد هذه المرة :

ـ إنى أفكر . . أعنى أنى أرغب فى طلب يدك إذا سمحت لى !

وتنهدت بصوت مسموع . وغمرنى ارتياح واستسلام، تكلمت أخيرا ونفست عن صدرى وليكن ما يكون .

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذى يعقب عاصفة هوجاء، ثم أخذت تسير فى خطوات قصيرة دون أن تنبس فعاودنى الجزع وتبعتها وأنا أقول كمن يستجدى الجواب :

ـ هذه كلمتى . .

فقالت بصوت منخفض خيل إلى أنه بلغ أذنى هادئا لا أثر فيه لحدة أو غضب :

ـ لا يليق بك أن تتبعنى هكذا .

فقلت بعجلة ولهوجة :

ـ إنى استأذنتك فلا تتركينى بغير جواب .

فقالت بضيق :

ـ لست أنا الذى أخاطب فى هذا الشأن!

فخفق قلبى بعنف وفاض به سرور لا يوصف وقلت :

ـ إنى أدرك هذا، بيد أننى خفت أن يكون أحد قد سبقنى .

فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ هب هذا حصل . .

فهتفت فى إشفاق وحسرة :

ـ أأفلتت الفرصة من يدى؟ !

فنفخت قائلة :

ـ لا تتبعنى إلى أكثر من هذا لأنى أقترب من البيت .

فسألتها وقلبى يفزع بكل قواه إلى التملص من قبضة اليأس :

ـ أليس ثمة رجاء؟

فقالت وهى تحث خطاها :

ـ لست أنا الذى أخاطب فى هذا الشأن .

وتوقفت عن السير، ولبثت هنيهة جامدا ذاهلا. ثم صحت وأنا أفرقع بأصابعى: يا لى من غبى! لو أنها أرادت الرفض لما أعوزها الجواب القاطع! ألم تذعن لى فى الترام؟ ألم تصغ إلى منذ دقائق؟! ألم تقل لى إنها ليست هى التى تخاطب فى هذا الشأن؟ ففيم أطمع وراء ذلك؟ إنها دعوة متوارية لطيفة. وشاع فى نفسى سرور كالخمر، وخيل إلى أننى أترنح كالثمل.

٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجع فى قلبى أعذب الألحان. تملكنى شعور بالقوة لا حد له، وازدهانى الغرور والزهو، وحييت فى الدقيقة الواحدة دهرا طويلا من السلم «سأفاتح أمى بالأمر كله». قلتها بلا خوف ولا تردد، ربما بلا رحمة أيضا، وطرقت الباب، ففتحت لى بنفسها وهى تتمتم مبتسمة كعادتها:

ـ أهلا بنور العين..

وجدتها على الأناقة التى أحب أن تلقانى بها، وتفرست فى وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب، فبدت لى خطورة ما أنا مقدم عليه، واعترانى وجوم وخوف، وقلت لها فى تردد غابت عنها أسبابه وبواعثه.

ـ لننتقل عما قريب إلى مسكن لائق، لأعيدن إليك خدمك وحشمك!

فابتسمت وقالت:

ـ هذه أسعد أيام حياتى لأنى أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسى، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبة متجاورين وأنا أقول بقلبى: «اللهم عونك ورحمتك». واستحوذ على القلق والحياء، إنه مهمة شاقة، محزنة، ولكن ما منها بد. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عما أضمره لها، فوخزنى الندم، وكادت تتخلى عنى قوة التصميم. بيد أننى أشفقت من عواقب التردد والاستسلام لدواعى الخور، فرميت بنفسى فى الهاوية قائلا:

ـ أماه أريد أن أحدثك بأمر هام..

ورمقتنى بنظرة غريبة، خلتها مريبة متوجسة، حتى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كله بقوة إلهام خارقة.. أنمت نبرات صوتى على ما يدور بنفسى؟!.. أم فضحتنى نظرة عينى؟! أم لم يكن هناك شىء مما حسبت وشبه لى الوهم ما لا حقيقة له؟! أما هى فقالت بهدوء وتساؤل:

ـ خير إن شاء الله . .

وصممت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرا خوفا لا مراء فيه :

ـ سأتوكل على الله وأتزوج . .

رنت كلمة «أتزوج» فى أذنى رنينا غريبا ، أنكرته ، وأخجلنى كأنما تفوهت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هى عينيها إلى فى دهشة ، واتسعت حدقتاها ، ولاح فيهما ذهول وغباء كأنها لم تفهم شيئا ، ثم تساءلت :

ـ تتـــزوج ؟!

وكنت قد تخطيت أكبر عقبة فأمكننى أن أقول :

ـ أجل . . هذا ما انتويته .

وندت عنها ضحكة متقطعة بالاضطراب والارتباك أشبه ، وقالت بصوت متهدج :

ـ مـا أسـعدنى بـذلك! هـذه هى السعادة حقا . ترى هل جاءتك هـذه النيـة اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرنى قبل اليوم؟! مبارك ، يا بنى .

وأزعجنى تهدج صوتها ، واضطراب نبراتها ، وانفعالها الظاهر ، فقلت :

ـ إنى أستأذنك لأنى أحب دائما أن تكونى راضية عنى .

فهتفت فى لهوجة :

ـ وهل تتصور أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاى؟ يا الله ، أبعد هذا الحب كله أجزى عنه بالتشكك فى إخلاصى؟ . . ستجدنى راضية عنك ولو قتلتنى ، أتنسى أن حياتى كلها لك؟

فازدردت ريقى وقلت وأنا أختلس منها نظرة قلق :

ـ إنى أعلم هذا وأكثر يا أماه .

فلاح فى وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنها تحاول عبثا أن تضبط عواطفها :

ـ هذا ما يعلمه القاصى والدانى . وأية أم لا تفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لهـا سـواه! هذه حكمة الحيـاة ، أن أحتضنك العمر كله ثم أسلمك شابا رائعا لعروسك ، إنى أبكى من الفرح .

اغرورقت عيناها وهى تتكلم ، ونظرت إلى خلال دموعها وكأنها ارتاعت لوجومى ، فقالت معتذرة :

ـ معذرة يا كامل ، ليست هذه بدموع . . إنها دموع الفرح ، بيد أنك فاجأتنى مفاجأة ، ولم تتلطف فى إخبارى؟ ولكن لا داعى للتلطف ، ألا ترى أنى أعتذر بما هو أقبح من الذنب؟ ليغفر لى ذنبى حبى الكبير وحسن نيتى وقلبى الذى وهبتك إياه وإن لم

تعد بك حاجة إليه . . وإنك لتعلم بأنى إذا انفعلت أفلت زمام لسانى من يدى . إنى أهنئك بما اخترت لنفسك، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب إنى لا أطيق أن أتصور أنك رغبت فى الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة . أكنت ترغب فى الزواج من زمن طويل؟

فقلت وأنا أدارى بابتسامة ميتة :

ـ كلا يا أماه ما فكرت فى ذلك إلا من زمن قصير حين بدا لى أنى كبرت .

فندت عنها ضحكة هستيرية، وصاحت :

ـ اسمعوا يا هوه، كامل يبدو أنه كبر! وأنا؟! لابد أنى عشت أكثر مما ينبغى!

فتأوهت قائلا :

ـ أماه، إنك تحزنيننى .

ـ لا عاش من يحزنك . الأم التى تحزن وليدها لا تستأهل نعمة الحياة . . ولكنك تقول على نفسك بالباطل وتزعم أنك كبرت . يا لك من طفل مكابر! . . لكأنى أراك تحبو، وأنت تركب منكبى، ثم وأنت تختال فى بزة الضابط وضفيرتك تتهدل على كتفك، فكيف تدعى الكبر؟!

فقلت مغتما :

ـ ألست على عتبة الثامنة والعشرين!

ـ أصغر أبنائى على عتبة الثامنة والعشرين! يا لى من امرأة عجوز! لتكن مشيئتك . ومهما يكن من عمرك فستكون أصغر الأزواج . وسأفرح بك فرحا ليس وراءه مذهب لفرحان . ولكن ما بالك واجما . . أساءك كلامى؟ يعلم الله أنى لا أحسن الكلام، ولكن الموت أحب إلى من الإساءة إليك .

فقلت بقلب ثقيل :

ـ سامحك الله يا أماه . .

فابتسمت : إى والله ابتسمت وقالت مصطنعة المرح :

ـ لندع هذا جانبا، ولنقدم الأهم على المهم . أصغ إلى يا كامل، تزوج بالهناء والسرور، وسأخطب لك إذا أمرتنى .

فترددت لحظة ثم تملكنى الضيق فقلت :

ـ ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختيارى .

فرنت إلى بدهشة، ولاذت بالصمت مليا، ثم تساءلت :

ـ متى تم ذلك؟

ـ منذ زمن يسير . .

فلاحت فى عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عز عليها أن أكتمها هذا الأمر الخطير ، ثم خفضت عينيها فى استسلام ، وسألت بصوت هادئ ، بل هادئ جدا :

ـ مـن؟

ـ لا أدرى بالضبط ، الراجح أنها مدرسة ، وهى تقطن العمارة البرتقالى أمام قصر العينى .

فعاودتها الدهشة ، وتساءلت :

ـ ألم تحدث بأمرها أحدا؟

ـ مطلقـا !

فتفكرت مليا ثم واصلت حديثها :

ـ أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة ، «وهنا خفق قلبى بعنف» . . ثم ألا تدرى عن أهلها شيئا ! . . من أبوها؟

ـ لا أدرى . .

ـ ألم أقل لك إنك طفل . . الزواج أخطر مما تظن . لعل وجهها أعجبك ، وهذا شىء لا وزن له . المهم أن تعلم أية فتاة هى وأى قوم أهلها ، وما مكانتها . وما أخلاقهم . الشاب فى الواقع يتزوج من أسرة لا من فرد ، وينبغى أن يطمئن قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أما لأبنائه ومن يكونون أخوالا لهم .

وتولانى الارتباك ، وأحسست بحنق لأول مرة فقلت بيقين :

ـ أسرتها كريمة . . لا يداخلنى فى هذا شك .

ـ ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل فى ذلك جدلا :

ـ إنى واثق .

فبدا فى وجهها الاستياء وقالت :

ـ مدرسة ! إن بنات الأسر الطيبة لا يشتغلن مدرسات ! والمدرسة إما أن تكون عادة دميمة أو مستهترة مسترجلة .

فوخزنى ألم فى صميم الفؤاد وهتفت بحدة :

ـ يا لها من آراء فاسـدة ! . . أنت لا تـدرين شيئا عن الدنيا التى نعيش فيهـا ، لقد تغير كل شىء ، ولا شك أنها فتاة كاملة ومن أسرة عالية !

وغلبها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت بنرفزة :

ـ لا داعى لإهانتى من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئا! وما قصدى إلا إرشادك لما فيه خيرك.

اشتد بى الحنق، ولو أننى استسلمت له لتفوهت بما أندم عليه، ولكننى ضبطت نفسى وقلت برجاء:

ـ معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرجو أن تمسكى عن كلام يسوؤنى.

فدارت إنفعالها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

ـ إن ما يسوؤك يسوؤنى، وما يسعدك يسعدنى، ونصيحتى إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها، وفقك الله لما فيه الخير والسعادة.

فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملؤه التودد:

ـ إن رضاك عنى بالدنيا وما فيها.

فابتسمت قائلة:

ـ سيدعو لك قلبى آناء الليل وأطراف النهار.

وساد الصمت مليا حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطرا يلح عليها أن تفصح عنه، وخالستنى نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت فى حذر وإشفاق:

ـ ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع فى الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة؟!

ولم أكد أصدق أذنى!.. وبدا لى قولها نوعا من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعاودنى الحنق والغيظ، وكدت أنفجر غاضبا، ولكنى استمسكت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت:

ـ لن يتم الزواج على أية حال قبل مضى عام.

وانتهى الحديث عند ذاك كما تمنيت، وشعرت بأنى تخطيت أكبر عقبة فى سبيلى. وكان ينبغى أن أكون سعيدا، وقد كنت سعيدا بلا شك، ولكن شاب سعادتى إحساس بالقلق طالما عذبنى فى حياتى. إنه لا يفتأ يطاردنى حتى فى أحفل ساعاتى بالسرور، وما من مرة أجمع الرأى فيها على قرار حتى أجد همسه يفت فى عضدى وينغص صفوى.. بيد أن سعادتى هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

٣٥

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى المحطة وبى أمل جديد مسكر. وكأنها كانت تنتظرنى، رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفنى الفرح فابتسم منى الفم والعينان والقلب، وتسامت إليها عيناى فى شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سرورى وسعادتى حين رأيت الوجه الصبيح يجود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمان، وانقشعت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبتى بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء نتبادل الابتسام! يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمس معنى غير الذى فهمته. أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فأستطيع أن أستسلم لنداء السعادة فى صفاء لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالثمل. ما أغربك يا دنيا. إن من يتعسه الحظ برؤية تجهمك لا يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتمليت الحقيقة التى لا تصدق، ابتسامة حبيبتى، فقلت لنفسى إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسح على قلبى هناء، ولكن لا يجوز أن أجمد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل، وثالثة فى صباح اليوم التالى، وشعرت بأنه ينبغى أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، فغادرت البيت فى معطفى الأسود بادى الأناقة، ممتلئا تصميما وعزما. ووجدت حبيبتى فى الشرفة تتشمس. فتبادلنا تحية الابتسام ثم ألقيت على ما حولى نظرة حذرة. وأومأت إليها أن تنزل لمقابلتى، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظرى عليها فى إشفاق وخوف، ورنت إلى بهدوء، ثم جرت على شفتيها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تجىء لمقابلتى؟.. رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها فى عمل «البروفات» لهذه المقابلة المأمولة. ولاحت الشقيقة الصغرى فى الشرفة، ثم تبعتها الأم بعد قليل، وجعلتا تنظران نحوى، هل تعلمان؟ هذا ما أتمناه حتى آمن خطر محمد جودت. وبدت حبيبتى وراء النافذة وهى ترتدى معطفها، فخفق فؤادى خفقة عنيفة، وانتظرت كمن فى حلم. ومن عجب أن إحساسى بالسعادة تغير فجأة، فتر، كأنه صوت جميل اعترضته سعلة، وساورنى قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلمة كأننى أحاول أن أتذكر أمرا هاما يضن به النسيان، ثم شعرت بخطورة الخطوة التى أرفع رجلى لأخطوها، فاستحوذ على التردد والخوف، ونازعتنى نفسى إلى الهروب! بيد أنها كانت لحظة عابرة، ولت عنى بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتنهدت فى ارتياح عميق، ورحت أقطع الطوار محبورا

سعيدا فى انتظار حبيبة القلب المشوق . . ثم رأيتها تبرز من باب العمارة فى معطف سنجابى فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطة تخطر فى خطواتها الوقور ووقفت بعيدا عنى . وكانت الأم فى الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفى عليه شرفا، فشعرت - إلى سعادتى - بالمسئولية . وجاء الترام الذى سيقلنا، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معا، ورأيتها تتجه على غير عادتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتها على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة، فجلست فتاتى موردة الوجه من الحياء، ولعلها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلم عليها، ولكن خانتنى الشجاعة فجلست على المقعد المقابل فى ارتباك وحياء وسخط على نفسى . وسار الترام يطوى الطريق، وأنا أخالسها النظر فى صمت وصبر، حتى عبر الترام جسر عباس . فنهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا فى إثرها، ونزلنا فى المحطة التالية . وسارت صوب شارع يمتد وشاطىء النيل، فتبعتها، وتدانيت منها بقلب خافق، متعثرا فى خجل قهار وقلت بصوت لا يكاد يسمع :

- صباح الخير . .

فابتسمت دون أن تلتفت إلى وغمغمت فى مثل حيائى :

- صباح الخير . .

وغمرنى رد التحية بسرور، فسرنا جنبا إلى جنب وأنا أقول فى نفسى بحرارة : «يا سيدة يا أم هاشم نظرة!» . كنت خائفا حقا شديد الارتباك والخجل . وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكن الاضطراب غلبنى على أمرى فوجدت رأسى خاويا ولسانى منعقدا، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة . كيف أبدأ الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولانى ضيق شديد لأنى أدركت بطبيعة الحال أنه ينبغى أن أتكلم، وأنه لا يليق بى أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله علىّ بكلمة واحدة، وبدا كأن الكلام وظيفة لم أمارسها قط . وكأنها أدركت سر ارتباكى، فنظرت إلى وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة، فابتسمت فى حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلا :

- صباح الخير .

فازدادت ابتسامتها إتساعا وقالت :

- صباح الخير .

رباه! . أأفلس معجمى، وعدت إلى العذاب مرة أخرى؟ إنى أشعر كأن يدين حديديتين تشدان على عنقى . ولن أتحمل هذا الموقف المزرى أكثر من هذا . وتملكنى اليأس فغلب فى نفسى الخجل واستغثت بها قائلا :

- اعذرينى! . . لا أدرى ماذا أقول . . هذه أول مرة أخاطب فتاة .

ولم تتمالك نفسها فندت عنها ضحكة قصيرة، ولعلها تشجعت بحيائى نفسه، فتغلبت على حيائها، وقالت فى دعابة:

ـ بل هذه ثانى مرة إن صدقت.

آه! إنها تشير إلى مطاردتى لها منذ ثلاثة أيام! وذكرتها بدهشة، كأننى لم أكن بطلها الجرىء. مهما يكن من أمر فقد شجعتنى دعابتها وخففت عنى الارتباك والحياء، وأمكننى أن أقول:

ـ لا تسيئى بى الظن. فوالله لو أسعفنى لسانى لما وسعتنى الدنيا كلاما.

وضحكت وهى تصعد فىّ نظرها وتصوب ثم قالت:

ـ ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتى! وقلت بارتياح:

ـ كامل رؤبة لاظ بوزارة الحربية.

وتمنيت لو كان فى الإمكان أن أخبرها بإيرادى الشهرى وثروتى المنتظرة، أما هى فقالت:

ـ رباب جبر مدرسة بروضة الأطفال بالعباسية.

وأعجبنى الاسم، فأحببته كما أحب صاحبته، وغمغمت كأنما لأستعيد وقعه فى أذنى:

ـ رباب!..

ووجدت أنسا وشجاعة فقلت ببساطة:

ـ تصورى!.. إنى أداوم على اختلاس النظرات من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة فى وجهها الجميل وقالت:

ـ عامين!

فسرتنى دهشتها وقلت بحماسة:

ـ أجل من قرابة عامين، ألم تفطنى إلى هذا؟!

فقالت ضاحكة وأنا أجمع انتباهى فى أذنى لأتملى الصوت الذى شاقنى استماعه طويلا:

ـ منذ أشهر فقط! ما أجمل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنها تقول لى: وما الذى أسكتك حتى أوشكت

الفرصة أن تفلت من بين يديك! وانتهزت الفرصة لأصرح بما وددت لو كنت صرحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكنا عما قبل:

ـ منعتنى ظروف قاسية، لم يكن بوسعى أن أتقدم وأنا غير كفء لك، ثم تغيرت الظروف وتحسنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك فى الترام فى جنون أخرجنى عن وعيى، فالحق أنى لم أنتظر وأنا قادر إلا أياما معدودات وإن كنت. . (كدت أقول: «وإن كنت أحببتك منذ عامين» ولكنى عجزت). . وإن كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرت فيما أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

ـ ماذا أعلم يا ترى!

فلذت بالصمت لحظات أستجمع قواى، وقلت:

ـ ما تعلمين من أنى. .

ورسمت شفتاى «أحبك» دون أن تنطقا بها، ولكنها رأت وفهمت بلا أدنى شك. وخفضت بصرى حياء، ودق قلبى بعنف. وانتزعتنى من الوجود غيبوبة عابرة غيبتنى عما حولى. واسترقت إليها النظر فألفيتها صامتة رزينة موردة الوجه. هذه لحظة مقدسة. أجل إن الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التى مرت بالإنسانية فى تاريخها، ولكن هذه اللحظة من أجل ما عرف الزمن رغم هذا كله. ولن ينقص منها أنها معادة وأنها تحدث كل يوم آلاف المرات فى بقاع الأرض الواسعة، فهى الشىء الوحيد المعاد الذى لا يمل، وما ينبغى أن يمل وهو يتضمن سر الوجود الأعظم، ألا وهو الحب. لم يكن بوسعى أن أضمها إلى صدرى ـ لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالا ـ ولكن لأنه لم يكن بوسعى أن ألمسها على الإطلاق، وقطعنا شوطا صامتين، وحال حيائى دون مواصلة الحديث فى هذه النقطة بالذات، وعاودت التفكير فى المسألة من وجوهها الأخرى فقلت مبتسما:

ـ وماذا تم من أمر محمد جودت؟

وحدجتنى بدهشة عظيمة، وسألتنى:

ـ من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المقابلة التى تمت بين محمد جودت وبينى وهى تصغى إلى باهتمام شديد، ثم قالت:

ـ إنه رجل فاضل محترم، وموظف كبير، وقد رحب به أبى، أما أمى فقابلت عرضه بفتور لأنه يكبرنى كثيرا، ولأنه سبق أن تزوج وله بنت فى الخامسة عشرة. وقد

حادثت أمى عن لقائنا فى الطريق منذ ثلاثة أيام . . فاشترطت أن يعرفوا عنك كل شىء قبل أن تعلن عن رأيها .

وخفق قلبى فى مزيج من سرور وقلق ، وسألتها وإن لم أكن فى حاجة إلى السؤال :

ـ وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

فابتسمت ولم تحر جوابا ، وذكرت «وظيفتى» بعدم ارتياح وخجل ، ولكن لم يخطر لى على بال أن أكذب أو أبدل من الواقع فقلت :

ـ إنى كما قلت لك موظف بالحربية ، ولكن لى دخلا ستة عشر جنيها من أوقاف ، وأملك إلى ذلك قدرا من المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس فى سيرتى ما يشين ، وسترين إذا ما تحروا عنى أنى التزمت الصدق حقا .

فابتسمت قائلة فى إخلاص :

ـ لا شك فى هذا مطلقا .

ورنوت إليها بامتنان عميق ، وذكرت فى تلك اللحظة آلامى وما عانيت من تشوق إليها وحسرة عليها فهزنى سرور يجل عن الوصف . بيد أننى تساءلت فى خوف : ترى هل أروق فى عينى الأم؟ . . ألا تستصغر وظيفتى ، أو لا تجدنى أهلا لهذه الأستاذة المحبوبة؟ . . وانقبض قلبى ذعرا ، وحدثتنى نفسى بأن أفاتحها فيما يكدر صفوى ، ولكن عقلنى الحياء . ثم خطر لى خاطر جديد فسألتها على الفور :

ـ هل تواصلين العمل فى وظيفتك إذا تم الأمر كما أرجو؟

ـ ولم لا؟ إنى أحب عملى حبا جما ، وكثيرات من زميلاتى .

وأدركت ما كانت على وشك قوله فخفق قلبى بغبطة ونظرت إليها نظرة حيية ملؤها الحب والأمل ، ثم قلت برضا :

ـ هذا حسن . .

ساد الصمت قليلا فعلا وقع أقدامنا على أرض الطريق المفروشة بأشعة الشمس ، ولاحت منى التفاتة إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقرق تحت لؤلؤ النور المنثور ، وأخذت أتصفح وجوه المارة القلائل الذين يمرون بنا فى حياء وارتباك . وقد لطفت الشمس من برودة الجو وبثت فى حنايانا نشاطا وحبورا فشعرت بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل ، وامتلأت امتنانا حتى وددت لو ألثم الثرى شكرا . بيد أننى لم أنس ما يشغلنى من خطير الأمور ، أو ما يبدو لى من خطيرها ، فلذلك سألتها :

ـ أرشدينى الآن إلى ما ينبغى فعله .

فسألتنى فى دهشة قائلة :

- ماذا تعنى؟

فقلت بحيرة :

- ينبغى أن أتقدم لطلب يدك .

فنظرت فيما أمامها بحيرة ولم تنبس . وكنت فى حيرة من أمرى فسألتها :

- كيف . . كيف يخطب الناس عادة؟!

فندت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة :

- بوساطة السيدات أو بالاتصال الشخصى ، ألم تدر شيئا عن هذا؟

وذكرنى قولها «وساطة السيدات» بأمى فانقبض قلبى فيما يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل أستطيع أن أقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصى من لباقة وشجاعة؟ . . وذكرت عند ذاك أنى لا أعرف شيئا عن أبيها فسألتها :

- هلا تكرمت وأخبرتنى عن والدك!

فحدجتنى بنظرة ملؤها الشك وغمغمت :

- ألا تعرف عنه شيئا؟

فقلت ببساطة وصدق :

- كلا وأسفاه . .

وأدركت أنها كانت تظننى نشطت لمعرفة ما ينبغى معرفته عن الأسرة التى أطمح للاندماج فيها ، وعجبت كيف أننى لم أحرك ساكنا طوال عهد حبى قانعا بالنظر واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من زهو :

- جبر بك السيد مفتش رى بالأشغال .

فقلت بإجلال :

- تشرفت .

واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقى ، ولكنى لم أجد بدا من أن أقول :

- سأقابله بنفسى ، متى يحسن أن أقابله؟

- فى بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك فى رحلة تفتيشية كعادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب عودته من الوزارة .

وكنا قد توغلنا فى الطريق طويلا فاقترحت أن نعود ، ودرنا على عقبينا عائدين . ولم نتبادل فى عودتنا إلا كلمات قلائل ، وكنت من السعادة فى حلم ، ولكننى لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلائل الأمور .

٣٦

واستحوذ على الخوف والقلق، وعاودنى ذلك الإحساس الخانق الذى قهرنى يوم دعانى أستاذى بكلية الحقوق إلى منصة الخطابة. هل تستطيع قدماى أن تحملانى إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة الرجل بما فى صدرى؟ اللهم أدركنى برحمتك فإن الحب يركبنى مركبا صعبا لا قبل لى به، ولما ضقت بالواقع المخيف روحت عن نفسى بالأحلام، فرأيتنى فى جزيرة مهجورة، وليس بها حى إلاى وحبيبتى، حيث الحب لا يسيم المحب خطبة ولا كلاما ولا اتصالا بأحد، وهفت نفسى فى محنتى إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبت والأحد فى عذاب نفسى عنيف، فصممت على أن أستجير من عذاب الفكر بلقاء الخطر وجها لوجه. وغادرت البيت عصرا بعد أن أخذت زينتى، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية الكرسى. ولما عبرت الجسر ولاح لى عن بعد جانب من العمارة ثقلت قدماى وكدت أرجع من حيث أتيت، ولكن كان تصميمى رائعا، وكان إشفاقى من أن تستبطئ حبيبتى قدومى لا يدع لى فرصة للتردد. وجعلت أشجع نفسى قائلا أنه لو لم يكن ثمة أمل لما رضيت حبيبتى بأن تلقانى يوم الجمعة، ولما مهدت السبيل لمقابلة أبيها، ودفعت قدمى الثقيلتين فأخذت أقترب رويدا من العمارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة أحد فارتحت لذلك لأنى أضطرب فى سيرى تحت وقع الأعين، ثم وجدتنى مقبلا نحو البواب، فوقف الرجل متسائلا فقلت:

- جبر بك السيد.

فقـــال:

- الدور الثانى.

وارتقيت السلم فى رهبة وخوف، متوقفا عند كل بسطة لأتمالك أنفاسى. حتى طالعنى باب الشقة المغلق فخارت قواى، ووسوست لى نفسى أن أعود، أن أفر بنفسى، أن أؤجل الزيارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنى نفيت عنى فكرة التأجيل بغضب، وبدا لى أن أنزل وأن أخفف عن توتر أعصابى بالمشى ومعاودة ترتيب أفكارى. وهممت بالتراجع، ولكننى تساءلت فى اللحظة التالية ألا يرتاب البواب فى أمرى إذا رآنى نازلا بعد دقيقة من مخاطبته ثم رآنى بعد دقائق عائدا إلى العمارة؟.. وعدلت عن فكرة النزول، ووقفت مع ذلك ساكنا لا أبدى حراكا. وجمد بصرى على الباب حتى خلت ثقبه عينا تحدق فى

وجهى بسخرية . وانتقلت عيناى إلى زر الجرس وثبتتا عليه بخوف وهلع . ما عسى أن يحدث لى لو فتح الباب فجأة عن وجه من الوجوه التى أعرفها وتعرفنى! وتمنيت فى تلك اللحظة لو كانت حياتى واصلت مسيرها الوئيد دون أن تصطدم بهذا الحب الذى قلبها رأسا على عقب! وجاءنى بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح : «افتحى الراديو يا صباح» فارتعدت أوصالى وأرهفت السمع فى خوف متزايد . ويلى منك يا أماه ، أما كان الأفضل أن تكونى فى مكانى هذا؟ ثم قرع أذنى وقع قدمين صاعدتين فتضاعف اضطرابى ولم أجد من التقدم مناصا ، وتدانيت من الباب ، ورفعت يدى إلى زر الجرس ، وتريثت لحظة فى اضطراب ، ثم ضغطت عليه فرن رنينا مزعجا ، وتنحيت جانبا ، منتظرا فى حالة يرثى لها . وفتح الباب وبرز وجه أسود كالفحم لجارية فى الخمسين ، فحدجتنى بعينين براقتين وقالت :

ـ أفنـــدم؟

وقلت وأنا أتمنى أن يكون البك خارج البيت لسبب أو لآخر :

ـ جبر بك موجود؟

ولكنها أجابت قائلة :

ـ نعم يا سيدى . . مين حضرتك؟

فاستخرجت من محفظتى بطاقة وقدمتها لها قائلا :

ـ أرجو أن يأذن لى البك بمقابلة قصيرة .

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرت خافق الفؤاد مضطرب النفس . وتخيلت البك وهو يقرأ البطاقة بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات ، ويهرعون إلى مكان آمن يروننى منه حين دخولى ، فالتهب وجهى حياء وازددت اضطربا ، وبرز رأس الجارية مرة أخرى وهى تقول :

ـ تفضـــل .

ودخلت خافض الرأس ، فأرشدتنى إلى باب على يمين الداخل مباشرة ، فدخلت حجرة الاستقبال ، وهى حجرة أنيقة ذات أثاث كحلى ، فاتجهت إلى مقعد يفصل بين كنبتين وجلست ، بعيدا عن سمت الباب . لم أكد أصدق أنى بلغت حقا مجلسى هذا من البيت . وجعلت أرهف السمع فى خوف وقلق وهلع . وتمنيت لو يتأخر البك ريثما أسترد أنفاسى ، ثم دفعنى العذاب إلى تمنى حضوره سريعا لوضع حد لآلامى . ولا أدرى كم انتظرت حتى سمعت وقع أقدام تقترب . دخل البك فنهضت قائما ، ثم سلم فى أدب وترحيب وأومأ إلى المقعد وهو يقول :

ـ تفضل بالجلوس . .

وجلس على الكنبة غير بعيد. كان طويلا نحيلا، فى الخمسين من عمره، له قامة حبيبتى وعيناها، فسرعان ما أحببته، وكان يتلفع بعباءة فضفاضة ضاربة للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكى، ونظر إلى مبتسما وقال مرحبا:

- شرفتنا يا أستاذ كامل.. أهلا وسهلا..

فقلت بامتنان:

- شكرا لك يا بك.

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟.. هل سمع قبل الآن بهذا الاسم الذى قرأه فى البطاقة؟

على أنه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحته فى الموضوع كما لو كان يجهله. وكنت قد كتبت صورة مما ينبغى قوله كما تصورته، وقرأتها مرارا حتى حفظتها قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:

- إنى آسف على إزعاجى سعادتك بهذه الزيارة على غير سابق معرفة.

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفتيه الرقيقتين:

- إنى تشرفت بمعرفتك يا أستاذ كامل!.. ترى أحضرتك من حينا هذا؟

فقلت وقد سررت بما هيأ لى من سبب للحديث:

- نعم يا بك، إنى من سكان منيل الروضة!

- حى هادئ لطيف.

فقلت وقد آنست إليه:

- وإنى من مواليده أيضا، وقد أقام به جدى الأميرالاى عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين عاما!

فقال متفكرا:

- عبد الله بك حسن!.. أظننى سمعت بهذا الاسم! أهو جدك لوالدك؟

فقلت مضطربا:

- كلا، إنه جدى لأمى، أما أبى فمن أسرة لاظ.

- وهل كان ضابطا أيضا؟

فقلت وقد تزايد قلقى:

- كلا.. كان أبى رحمه الله من الأعيان.

فابتسم قائلا:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيرا ما يرتبطون بالزواج فيما بينهم.

وأمنت على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما أقوله، وعدت إلى تذكر محفوظاتى فحضرتنى الجملة الخطيرة التى يتوقف عليها حظى فى الحياة، ولكن خاننى لسانى، فلذت بالصمت، وما لبث أن عاودنى الاضطراب والهلع، والتهب رأسى حياء وارتباكا، وفى تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التى تعرفنى حق المعرفة - تحمل صينية الشاى، فوضعتها على منضدة مكفَّت سطحها بمرآة مصقولة، وتراجعت وهى تدارى ابتسامة خفيفة! ورحبت بدخولها وبالشاى الذى حملته لأنهما استنقذانى من حرج الصمت الذى ثقلت وطأته على. وملأ البك قدحين ودعانى للشراب، فتناولت قدحى شاكرا ورحت أرتشفه متمهلا وعقلى لاينى عن التفكير. وفرغت منه على رغمى، ووجدتنى مرة أخرى حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التى تستحثنى فى صمت على الكلام، لابد مما ليس منه بد، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لأصطنعن شيئا من الرجولة أمام الرجل الذى أروم مصاهرته أن أصغر فى عينيه. ولممت أطراف شجاعتى وقلت وإن تهدج صوتى وتخلخلت نبراته:

- سيدى، أردت. أعنى. الحق أنى أرجو التشرف بمصاهرتك.

ولم تكن الجملة التى كتبتها وحفظتها لتفترق عما قلت كثيرا، وقد اعترانى الاضطراب بعد أن فتحت فىَّ بالكلام ولكن الله سلم وأفصحت عن رأيى بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يزال مبتسما، وتريث لحظات استغلظ وقعها فى نفسى المروعة، ثم قال بأدب جم:

- أشكر لك حسن ظنك بنا.

وصمت لحظات أخرى متفكرا ثم واصل حديثه قائلا:

- ولكنى أرجو أن تمهلنى أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين فبادرته قائلا:

- طبعا.. طبعا.. ولا يسعنى إلا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

ونهضت قائما مستأذنا فى الانصراف، ولكنه دعانى للبقاء فترة أخرى، فاعتذرت شاكرا له جميل أدبه، وسلمت وذهبت. وتنهدت فى الخارج من الأعماق وشعرت كأن حملا ثقيلا رفع عن عاتقى. وبدا لى الأمر هينا لا يستدعى بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع، فابتسمت فى ارتياح، ثم استرسلت ضاحكا.

٣٧

تمليت نشوة الارتياح والظفر حتى المساء، ثم عاودنى القلق ذلك الرفيق القديم الذى لا يمل عشرتى.. أيرضى جبر بك بموظف صغير مثلى زوجا لابنته؟.. ألا ترجح كفة

محمد جودت رغم دخلى من الأوقاف؟ . . إنه مهندس كجبر بك، وجار وصديق، ولست من ذلك كله فى شىء، ولكن رباب لا توده، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتنى وشجعتنى على مقابلة أبيها، ورطب هذا الخاطر قلبى المحترق وردنى إلى نشوتى، ولكنه لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قرارة نفسى. وتتابعت أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤما، ولذلك أخفيت سرى عن أمى حتى لا تعلم بإخفاقى إذا كان مقدورا، وكابدت الانتظار ومرارة الشك فى وحدة مخيفة، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذاك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شىء من التحفظ والتغير لم يخفيا عن إحساسى الدقيق. وبدت فى أحايين كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدثا تلقتنى بريبة لا تزايلها حتى تطمئن إلى نوع الحديث. وأحنقنى تغيرها ولكنى لزمت معها الأدب والتودد. وفى أثناء ذلك أسر إلى زميل من الموظفين بأن «بعضهم» يتحرى عنى كما أخبره موظف بإدارة المتسخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظفى إدارة المخازن إنى شارع فى الزواج، وجعلوا يعرضون لى بما فى أنفسهم مداعبين فأزداد امتعاضا وحنقا، ولما انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيد، ولكنى لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوفى من الخذلان - فقابلته فى وزارة الأشغال، ورحب بى الرجل ترحيبا جميلا وأعلن لى موافقته! هكذا انتهى عذابى وردت إلى الروح. وفى تلك المقابلة اتفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطا من الشقاء والسعادة فقد بدا لى أن أيام شقائى قد ولت، وإنى سأجزى عن صبرى وتعاستى ومخاوفى سعادة صافية فيما بقى لى من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمى وأخبرتها بما تم، وقد استمعت إلى فى استسلام ودهشة وقالت لى متسائلة:

- ولماذا أخفيت عنى الأمر كله؟

فقلت متضاحكا فى ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهى مسعاى إلى ما انتهى إليه.

فقالت بحدة:

- يا لله!. أكنت تتصور أن يرفضوا يدك؟! يا لك من طفل غرير! ألا تعلم أن الفتيات لا حصر لهن، وخيرا من فتاتك ألف مرة، يرضين بك عن طيب خاطر!

فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبتى الاسترسال فى النقاش:

- إنى أنتظر تهنئتك يا أماه.

فمالت نحوى حتى لثمت خدى وتمتمت:

- إنى أحق منك بالتهانى.

ودعت لى طويلا، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفى بها خافية، ولم تكن

تحسن مداراة ما يعتمل فى نفسها، فلمست فى نظرة عينيها خيبة عميقة نغصت على صفوى، بيد أننى تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلماتها، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتى، وكتبت فى نفس اليوم لأخى خطابا أخبرته بما كان ودعوته لشهود الخطبة، وزرت أختى راضية ودعوتها كذلك، وذهبنا جميعا فى اليوم الموعود. ولست أدرى كيف واتتنى شجاعتى ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعى بذراع شقيقى مدحت ورجوته أن يكون مرشدى، ولشد ما أتعبته بجمودى وارتباكى وخجلى.

لم أنبس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينى عن الأرض، ولبثت محاصرا بأعين المستطلعين رجالا ونساء، ولم تزايلنى الرهبة حتى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحكت حرم جبر بك وقالت لى:

ـ أنت خجول يا سى كامل.. وقد أدركت الآن السر فى أنك كنت تحوم حول عروسك أشهرا طوالا كالخائف!

وخفق قلبى لقولها، واختلست من أمى نظرة لأرى وقعه فى نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك فى حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع إرواء قلبى الظامئ لرؤيتها. وما ألقيت عليها إلا نظرة سريعة حيية حين دخولها الحجرة فى هالة من نور وبهاء ثم غبت فى حيائى وارتباكى، ولما انفض الحفل العائلى وغادرنا البيت ضحك أخى مدحت فى الطريق مقهقها وقال لى بدهشة:

ـ ينبغى أن نجد علاجا لخجلك، فوالله ما رأيت مثلك رجلا.

ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيدا.

٣٨

.. ثم هان على عناء الزيارات، اعتدتها وآنست إليها. أمكننى أن أضغط على زر الجرس دون أن ينخلع قلبى، وأن أمضى إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلى الجدد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل أمكننى أن أتحدث أيضا وأن أضحك إذا دعى الداعى للضحك، فى حدود طاقتى. وأسرتى الجديدة أسرة لطيفة حقيقة بالمودة، حبيبتى عنوانها، وحسبها هذا شهادة وثناء، وقد توثقت الأسباب بينى وبين جبر بك السيد فصرنا صديقين، وقربت الألفة بينى وبين نازلى هانم فكأننا ابن وأم. وأسرنى الصغيران محمد وروحية بظرفهما، حتى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من ودى، فأحببتهم جميعا حبا دل على ما بقلبى من هيام بحبيبتى وشوق مكبوت للمعاشرة والتودد.

وكان جبر بك السيد من أولئك الرجال الذين لا يبرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى، فإن لم يكن فى الوزارة أو فى رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو فى بيته وبين زوجه وأبنائه، بدا لى من أول يوم لتعارفنا مهذبا رقيق الحاشية، ولم يخف عن عينى - على ضعف ملاحظتى - أنه من الأزواج المطيعين وأن زوجه هى الآمرة الناهية فى البيت، ولكن ذلك لم يضعف من منزلته، ولعله حظى من حب أبنائه بما لم تحظ به الأم نفسها، ولم يخل من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين، وما أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدثا عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه، أو منوها برحلاته التفتيشية وملاحظاته، وما أكثر ما ينتقد المهندسين الشبان ممن تلقوا علومهم فى إنجلترا وألمانيا، فيقول إن علم الهندسة فى مصر هو علم الهندسة فى أوربا، وأن القدم لا ترسخ فى العلم إلا بالتجربة والممارسة الأمر الذى يتجاهله الشبان. وكان فى تلك الأيام قلقا على مركزه بالوزارة، ولا يفتأ شاكيا ما يلقى من اضطهاد سياسى مرده فى رأيه إلى صلته بالوزير الوفدى السابق، حتى إنه صرح مرة بأنه يفكر فى طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك فى النشاط السياسى، ولكنه لم يستطع الاسترسال فى شرح رأيه لتصدى زوجه له بالمعارضة الحاسمة التى لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياله شعورين متضادين: شعورا بالضآلة لتفاهة مركزى فى الحكومة وقلة حظى من الثقافة، وشعورا بالزهو لا نتسابى لرجل مثله عظيم فى قدره ومركزه وعمله، أما نازلى هانم فعلى نقيضه ميالة للقصر مفرطة فى السمنة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدل بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال فى صباها. وكانت على سمنتها المفرطة بالغة فى نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكا زوجها مرة إلى حرصها الزائد عن الحد على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها فى ذلك إفراطا هو أدنى إلى الوسوسة والإرهاق، ولكنه لم يخل فى شكواه مما يشى بإعجابه ورضاه.

وبدت لى ظريفة فى غير ما تكلف، ولشد ما ضحكت من ذكريات تطلعى الصامت إلى الشرفة والنافذة، وقارنت بين حيائى وبين وقاحة الشبان، وعلقت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظ أن تكون رباب لك، فهى ليست كفتيات اليوم أيضا.

هذا حق، حبيبتى ليس كمثلها شىء، هى الحياة والذكاء والجمال: وإن الأيام لتزيدنى بها تعلقا وهياما وإعجابا، ما أرخم صوتها، وما أرشق إيماءتها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كله أنوثة ناضجة كاملة، وإن عينيها لتطالعانى بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير برىء. ولم أكن أفوز بها فى خلوة أبدا، ولم تتهيأ لى فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا. وشاقنى كثيرا أن أخلو

إليها، وأن أتملى بإدامة النظر إلى وجهها الصبيح فى أمن من الرقباء، على أننى لم أخل من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا حرى بأن أعانيه فيها من عى وحصر وحرج واضطراب، فقنعت بالمبذول لى فى حظيرة الأسرة، راضيا آمنا، مكتفيا إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورة المقتضبة، سعيدا بالنشوة التى يبثها وجودها فى قلبى وروحى، ووجدت حديثها لطيفا طبيعيا. لا أثر فيها لشهادتها العالية ـ وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه ـ فلا تفلسف ولا ادعاء ولا حذلقة.

وتم الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج فى العطلة الصيفية، ولم يألوا جهدا فى إعداد الجهاز، واقترحت نازلى هانم أن ينتقلوا إلى شقة كبيرة على أن أنضم إليهم، ولكن الاقتراح أزعجنى وذكرنى بأمى، فاعتذرت من عدم استطاعتى قبوله قائلا إنى لا يمكننى التخلى عن أمى، وعند ذاك قالت نازلى هانم:

ـ والدتك سيدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لى أنها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحق أن أمى لم تزر بيت خطيبتى منذ إعلان الخطبة إلا مرة واحدة تحت ضغط وإلحاح، فقلت فى ارتباك غير قليل:

ـ لقد اعتادت أمى الوحدة.. ولم تألف الزيارات قط.

وقصصت عليهم جانبا من حياتى متحاميا الفجوات التى لا تطيب ذكراها.

ولا أنكر أن ملاحظة نازلى هانم أزعجتنى، وذكرتنى بأمور أخافها، فدعوت الله مخلصا أن يقينى مغبة الشقاق فى حاضرى ومستقبلى.

وفى مرة، وكنت جالسا، إلى فتاتى وأمها فقط، واتتنى الشجاعة فذكرت عهد تطلعى الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكت حبيبتى وقالت:

ـ ومع ذلك فلم تكد تخطو خطوة واحدة حتى تم كل شىء فى غمضة عين!

وقالت نازلى هانم:

ـ طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب؟! ولشد ما حذرت «رباب» أن تكون من الشبان الذين يطاردون الفتيات فى الطريق! وقدرنا فى وقت ما أنك مشغول بالتحرى عنا كما يفعل طلاب الزواج. فلما طال ترددك بعد ذلك داخلنى استياء وتساءلت عما لم يعجبك فينا؟!

فقلت مرتبكا متألما:

ـ ما فعلت شيئا من هذا، وحتى الأسماء ظللت على جهلى بها حتى اللحظة الأخيرة.

وكان لدى من المال ما يعد بالقياس إلى ثروة، فأغدقت على حبيبتى الهدايا، وجعلت من شقيقتى راضية مشيرتى فى هذه الأمور التى أخفيتها عن أمى فمحضتنى المشورة

وأرشدتنى إلى «الواجب» وخاصة فى المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل رأيها خطيبا مشرفا؟

وظلت العلاقة بينى وبين أمى على ما يرام، على الأقل فى الظاهر، وحرصت على أن أشركها فى مهمة الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنها تباركها، فكلفتها بأن تبحث لنا عن شقة جديدة، ووقع اختيارها على عمارة فى شارع قصر العينى على بعد محطات ثلاث من عمارة حبيبتى، ولم يبدر منها ما يعكر صفوى، ولكنها بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحزح على رغمه إلى هامش الحياة، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد فى معالجته حيلة، وقطع قلبى. ولكن لم يكن فى وسع شىء فى الوجود أن يعتاق تيار السعادة المتدفق الذى يسكرنى ليل نهار. والواقع أن تلك الفترة من حياتى هى أسعد ما لقيت فى الدنيا من أيام.

٣٩

وقالت لى «نازلى هانم» يوما، وكانت الأسرة قد أعدت عدتها للزواج.

- إن رباب أول عهدنا بالأفراح فينبغى أن تكون ليلتها بالغة المسرة.

وولى قلبى فرارا، ولم يعد بد من مواجهة الأمر الخطير الذى طالما تحاميته إشفاقا وجبنا، وتساءلت فى قلق:

- أترين ضرورة فى إحياء ليلة الزفاف؟!

فرمقتنى بنظرة استنكار كأن تساؤلى أدهشها وقالت:

- طبعـــا!

فغمغمت فى ذهول:

- قيان وزفاف ورقص وغناء!

- ينبغى أن تكون ليلة فريدة غناء.

وتملكنى الخوف، ورفعت إليها عينين ملؤهما الرجاء والاستعطاف، ثم قلت بيأس.

- لا يمكننى أن أزف بين المدعوين! هذا فوق ما أستطيع.

فلاحت فى وجهها الدهشة والانزعاج وقالت بغرابة:

- لست أفهم شيئا!.. هل يعجزك الحياء لهذا الحد؟

فقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال الموت:

ـ لا أستطيع . . لا أستطيع . . صدقينى يا سيدتى إن الموت أهون على من الزفاف بين المدعوين والقيان .

ـ هذا شىء عجيب ، إنك تكون أول رجل يهرب من الزفاف!

فقلت بأسى وقد شعرت بألسنة الخجل تلهب جبينى وخدى :

ـ ربما ، ولكن ما باليد حيلة ، إنى أستحلفك بالله أن ترحمينى .

فتساءلت فى إنكار :

ـ وما عسى أن نفعل؟

فقلت بلهفة وقد عاودنى الرجاء :

ـ نكتب العقد فى جمع من الأهل فحسب ، ثم أمضى بالعروس إلى بيتنا!

ـ وكيف يكون هذا فرحا؟!

ولو كان الأمر غير ما يتصل بالخجل لسلمت دون عناء ، والحق أنى سريع للمطاوعة مهما كلفنى الأمر من تضحية إلا إذا كنت بموقف الذائد عن حياتى ، هناك أنقلب إلى الاستماتة والتشبث . وقد استمددت من يأسى وخوفى قوة فتوسلت وضرعت وألحفت حتى كفت السيدة عن المناقشة وهى تهز رأسها عجبا ، ولم يكن بى خوف أن يظنوا بى تهربا من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخاء كخطيب كان حديث الجميع ، على أن جبر بك السيد أخبرنى بعد ذلك بأنه مصمم على دعوة نفر من خاصة أصدقائه ، وأنه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة ، ثم أخبرنى بعد حين بأن أحد أصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوع بإحياء الليلة فى حدودها الضيقة ، وقال مخففا عنى وقع الخبر :

ـ وهكذا يحيى ليلتك موظف كبير .

فقلت محزونا :

ـ يؤسفنى والله ألا أحقق رغبتكم فى إحياء ليلة زفاف باهرة ولكنى لا أحتمل أن أزف!

فهز كتفيه فى عدم اكتراث وقال مبتسما :

ـ لا أحب أن أضايقك فلك ما تشاء .

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة ، وفرشت حجرة خاصة لأمى ، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموعودة بأسبوع . وأشرفت شقيقتى على فرش شقة العروس بنفسها . وبهرت شقة العروس عينى فجعلت أتنقل بين الحجرات فى غبطة وفرح سماوى . ولما جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردد ، وفى حياء شديد ورهبة . يا له من منظر خليق بأن يهز الفؤاد هزا! جعلت أقلب ناظرى فيما حولى وأنا بين مستيقظ وحالم . فراش كالذهب . وأغطية حريرية فى لون الورد الزاهر ، ومرآة مصقولة رقراقة .

دبت الحياة فى قطع الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحاكت ألوانها الجذابة تورد الخدود والتماع الأعين، وندت عن حواشيها المسدولة همسات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد خفقانا متتابعا.

* * *

وفى صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسى متى أعود بعروسى وقد خلفت ورائى الناس والضوضاء؟ ليت التقاليد كانت تقضى بأن ينتظر الرجل عروسه فى بيته من غير هذا العناء كله! بدا لى يوما عسيرا لم يخلق لأمثالى، فلم يفارق قلبى الشعور بالرهبة والخوف. وتقضى نصفه الأول فى تهيئتى، فمضى بى شقيقى مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن حال، حتى قالت لى أختى فى دعابة:

ـ أنت أجمل من عروسك!.. أليس كذلك يا أماه؟

وهمت أمى بالكلام، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس، وجعلت أتساءل عما أرادت قوله. وارتديت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثم ذهبنا إلى بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعى أمى وأخى وأختى وزوجها وعمى وبعض بناته وخالتى وأسرتها. ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فرشت رملا فاقع اللون، وتدلت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملونة، فداخلنى اضطراب وقلت لنفسى: «هذا خروج عن الاتفاق!». وارتقينا السلم وقد أبيت إلا أن أسير فى المؤخرة شابكا ذراعى بذراع مدحت.. وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخى وشعرت برغبة فى التوارى، ولكن أين؟ وخفضت عينى، وسرت، بل جرنى أخى، إلى حجرة الاستقبال، دون أن أرى شيئا مما يحيط بى وإن أحسست بأذنى وأنفى أن البيت مكتظ برواد السرور!.. وأجلست وأنا متشبث بذراع مدحت وقد همست فى أذنه:

ـ أرجو ألا تفارقنى.

فرد على هامسا:

ـ تشجع وإلا بدت عروسك دونك خجلا!

ولم أكد أتنفس الصعداء لمرور لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءنى جبر بك السيد ليقدمنى لصفوة المدعوين، فوقفت مرتبكا كالعادة، وراحت يدى تسلم، ولسانى يردد كالآلة «تشرفنا.. تشرفنا» ثم جلست مرة أخرى دون أن أحفظ اسما واحدا. ودار حديث طويل، لم يفزع عقلى لفهمه فضلا عن الاشتراك فيه، ولم يغب عنى حرجى، فتضاعف ارتباكى، وخيل إلى أن الجميع يتغامزون بى، أو يهزءون بى فى سرائرهم. ومر الوقت قاسيا حتى دعيت إلى كتابة العقد، وخفف عنى أن تم ذلك فى حجرة تكاد

تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد فى تسابق عنيف، وعاودتنى مرة أخرى رغبتى فى التوارى، وعدت إلى مجلسى الصامت، ومر الوقت، ولم يكن بالنسبة إلى إلا صمتا وفكرا محترقا ولهفة على الفرار. ثم دعينا إلى سماط أعد على سطح العمارة فى الهواء الطلق. والعشاء عناء جديد لمثلى، ولكنه محتمل بخلاف الحديث، لأن المدعوين يشتغلون بالطعام عما عداه فيجد من كان مثلى فسحة للطمأنينة والسكينة.. وعدنا إلى مجالسنا، شابكا ذراعى بذراع أخى، ثم بدأ الغناء. وكان المغنى الهاوى وفرقته ـ من الهواة كذلك ـ يتصدرون حجرة الاستقبال وقد غنى «ياما انت وحشنى» بصوت لا بأس به، فاق فى نظرى صوت فنان حانة سوق الخضر. وجاء جبر بك للجوقة بقنينتين من الويسكى، وقدمت كئوس مترعة لآخرين، وقد همس مدحت فى أذنى:

ـ ألا تشرب كأسا أو كأسين؟

فنظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:

ـ محــال..

قلتها بلهجة تنم عن الاستفظاع، ثم خلوت إلى ذكرياتى فى صمت. لشد ما همت بنشوة الخمر! أفليس عجبا أننى لم أذقها منذ الساعة التى اجترأت فيها على مخاطبة حبيبتى؟.. هجرتها فى غير ما عناء كأنها لم تكن، ولم تنازعنى النفس إليها ولا مرة واحدة! وتتابع الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حريا بأن آنس الجو، وأن يذهب عنى الضيق وتوتر الأعصاب، لولا شعورى بخطورة الساعة التى تتربص بى!.. متى أتلقى عروسى؟ وأين.. وهل يحدث هذا فى خفية عن الأبصار؟! ومر الوقت. ثم انتبهت بغتة على جبر بك السيد وهو يقف حيالى ويضع يده على كتفى قائلا بصوت منخفض:

ـ هلم يا سى كامل أزف الوقت.

ورفعت إليه بصرى فى ارتياع وغمغمت:

ـ آن وقت الذهاب!

فقال ضاحكا!

ـ ليس فى الحال ولكن بعد زفة بسيطة؟

فمرت فى جسدى رعدة وهتفت فى هلع:

ـ كلا.. كلا.. اتفقنا على ألا تكون زفة!

ـ ليس الأمر كما تتصور، فقد أقمنا فى الصالة الكبيرة منصة للعروسين، فتجىء بعروسك وتجلسان عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبى أنا؟!

كان كلامه ينقلب فى مخيلتى صورا، فرأيتنى أمشى وسط الجميع إلى حجرة العروس

وأعود بها والمدعوون يحيطون بنا مهللين، ثم نجلس فريسة للأعين! . . رباه . . سأقع مغمى على .

وقلت بحرارة :

- ولكن هذه الزفة! . . ليس فى مقدورى! . . أرجو يا بك أن تعفينى . . لا أستطيع .

- الأمر أسهل مما تتصور، ولابد مما ليس منه بد، وإلا ماذا يقول المدعوون؟!

فهتفت فى فزع :

- دعهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع . . سأنتظر العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا .

ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بى حتى علا صوته على صوت المغنى :

- بسطة السلم . . يا لك من عريس عجيب!

وكان مدحت يصغى إلينا صامتا، فضغط على ذراعى وقال لى بحزم :

- ما هذه الأفكار الصبيانية؟! . . ألا تريد أن تجىء بعروسك؟! ألا تستطيع أن تشق طريقك بين نخبة من السيدات الفضليات؟ أتريد البك على أن يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع الظهور أمام المدعوات؟! وافضيحتاه!

وتشجع جبر بك بكلام شقيقى، أما أنا فحدجت أخى بعينين غير مصدقتين، لم أكن أتصور أن تجيئنى الطعنة القاتلة من اليد التى أعتمد عليها، وضحك أخى لفزعى وذهولى، وأراد أن يتكلم، ولكنى قاطعته محزونا يائسا :

- كيف تدفعنى إلى ما لا قبل لى به؟ . . أتريد أن تجعلنى أضحوكة المدعوات؟

وتأثر جبر بك للهجتى الحزينة البائسة، فقال برقة :

- المدعوات جميعا من الأهل . وقد تعرفت إليهن يوم الخطبة، وسترى صدق قولى .

لم يزل الفزع يتملكنى، وتناهى بى الضيق فقلت بتوسل :

- نشدتكما الله أن ترحمانى!

وكأن أخى أدرك أن الكلام لا يجدى، فوجه خطابه لجبر بك قائلا :

- يمكن أن نتفق على حل وسط فتجىء العروس إلى المنصة بين صويحباتها، وأذهب مع أخى إليها، فيجلسان معا بين الأهل ردحا من الزمن قبل الذهاب .

وأومأ إلى البك ألا يعارض، فذهب الرجل، والتفت إلى أخى مغيظا محنقا وقلت له :

- يا لك من أخ خائن! . . كيف تسمى هذا حلا وسطا وما هو إلا التنكيل بى .

فندت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتنى بأبينا وقال لى :

- إنك تعر بلدا، فدع النضال، وسنذهب معا. ليتنى أجد كل يوم زفة فاشق سبيلا طريا بين النساء!

وصمت لحظة قصيرة، ثم لكزنى فى كتفى وعاد يقول:

- إذا حدثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس!

واستسلمت إلى الواقع فى يأس وضيق وهلع. وعزفت الفرقة نشيد الزفة فخفق قلبى بارتياع وشعرت بدنو الخطر. وقرعت أذنى الزغاريد الآتية من الصالة فانهارت قواى، والتفت إلى مدحت قائلا:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشد على ذراعى ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضى إلى المنصة كأنك طفل يساق إلى الختان!

وسار، فتحركت قدماى وقلبى يغوص فى صدرى.

وقال لى همسا ونحن نجتاز الباب:

- ارفع رأسك، حملق فى وجوه الحسان حتى يغضين حياء!

ولكنى تقدمت على مهل خافض الرأس. لم أشك فى أن منظرى استثار الضحك المكتوم. وبلغ مسمعى صوت نسائى يتساءل: «أيهما العروس؟» فأجابت أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظا، وقد رأيت عديدا من السيقان والأحذية البيض على جانبى الطريق الذى أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخى يهمس فى أذنى:

- بلغنا المنصة، اصعد إليها، وحى عروسك واجلس:

- ارتقيت درجتين، ورفعت عينى فى حذر وإشفاق فرأيت حبيبتى جالسة تحت ظل من الأزهار، فى ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفل والياسمين تنسدل منها على الظهر ذيول من الحرير. كانت بهاء ونورا وفلا وياسمينا، وقد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكرت قول أخى: «حى عروسك واجلس».. كيف أحييها؟. أأسلم باليد؟.. أم أوجه إليها تحية المساء؟ وترددت مرتبكا، ورأيت فى ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيتى، ثم شعرت بما غاب عنى لحظات قصار، أو عاودنى الشعور بالأعين المحدقة بى تكاد تحرق ظهرى، ففقدت جنانى، وجلست على المقعد الخالى دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدى.

أخطأت بلا شك؟!.. ماذا تقول النسوة؟.. ماذا تظن حبيبتى؟.. آه يا له من موقف؟!.. لو عرفت هذا من قبل ما فكرت فى الزواج أبدا!.. الموسيقى تعزف، والزغاريد تجلجل، وأريج الروائح الزكية يتطاير فى الجو. الموت أهون من الزواج! هل

أظل الدهر ضحية للمنصات؟ بالأمس قضت منصة الخطابة بكلية الحقوق على مستقبلى، والليلة تكاد تقضى منصة العروس على حياتى! ترى ماذا يقلن عن عينى اللتين لم تزايلا الأرض؟! وذكرت بغتة أمى، ترى أين تجلس؟ إنها ترانى فى هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حيائى، وتولانى شعور من يضبط وهو يقترف عيبا. ووجدت إحساسا لا قبل لى بمقاومته يدفعنى إلى البحث عن موضعها، وارتفعت عيناى فى رفق وحذر، ولكنها كانت أقرب مما أتصور، كانت تجلس فى الصف الأول الذى يحدق بالمنصة، فالتقت عينانا، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالى إلى صورة من الماضى البعيد، فرأيتنى أقف وراء سور المدرسة الأولية وهى بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترنو إلى بعين التشجيع والتوديع، فشعرت بغمز على قلبى.

وتنفست الصعداء حين أقبلت نازلى هانم نحونا وقالت مبتسمة:

ـ الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثم خاطبتنى هامسة:

ـ ستذهب الجارية صباح مع سيدتها الصغيرة لأنها لا تحتمل مفارقتها!.. وإنى أوصيك بها خيرا، وستجد فيها خير طاهية.

وتنحت المرأة جانبا مغرورقة العينين، ونهضنا من مجلسنا، وأخذت بيد عروسى وغادرنا المكان فى سير وئيد والزغاريد والأنغام تودعنا حتى باب العمارة وكان أحد أصدقاء جبر بك قد وضع سيارته تحت تصرفنا حتى نبلغ دارنا. واحتوتنا السيارة معا، ثم انطلقت بنا. والتفت نحوها متنهدا فكأنى أراها لأول مرة. وقلت بارتياح:

ـ يا له من موقف قاس!

ـ يا لك من خجول!.. ألهذا الحد؟!

فندت عنى ضحكة أدارى بها ارتباكى، وجعلت أتملى غبطة تملأ القلب والعين والروح.

٤٠

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشقة خاليا صامتا، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أمى والاستقبال.. وكان مخدعنا مربعا يتوسطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردى، وفى الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست

على مقعد التواليت بين صورها المعكوسة على مراياه التى ترسم حولها نصف دائرة، وراحت تنزع إكليل الفل والياسمين، بينا وقفت فى وسط الحجرة مرتفقا حافة الفراش الخشبية، مرددا بصرى بين ظهرها الرشيق وصورها المتنافسة فى الحسن. هذه الحجرة هى دنياى، وحسبى بها من دنيا، وهذه الفتاة هى نصيبى من الكون وحسبى بها من نصيب، هى حبى وسعادتى وأملى، ولن أسأل الدنيا مطمعا بعد اليوم.

انتهت حبيبتى من نزع إكليلها، وأخذت تسوى ما بعثر من خصلات شعرها الكستنائى فى تمهل من يرغب فى اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن ستنتهى حتما فترة الانتظار فما العمل؟

رباه إن قلبى يقظ متوثب، وإنى لأجد رعدة ترعش ركبتى، وإنى لأتساءل فى حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيابة وحياء شديد يدور مع دمى. وأدركت رغم اضطرابى أنه ينبغى أن نبدل ملابسنا، ولكننى لم أدر كيف يتم هذا وكلانا فى حجرة واحدة مغلقة! وبدت لى وكأنها تنتظر منى شيئا، فقد انتهت من تسوية خصلاتها وإن تظاهرت بالعكس، ولاح فى وجهها الارتباك والحرج. وإنى أعلم أمورا ولكن فاتتنى التفاصيل، وأعوذتنى الحيلة ـ والعزيمة. ليتنى استخبرت أخى مدحت، أو ليته كان لى أصدقاء أرجع إليهم فى أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الحياء الذى يقيم بينى وبين أخى والناس سدا، تبا له!.. لماذا لا يزايلنى وقد صرنا وحدنا!!

وبلغ ضيقى بصمتى وجمودى منتهاه، وثار بى الغضب على نفسى، فصممت لأتكلمن ـ وهو أضعف الإيمان ـ وقلت بصوت غريب أنكرته أذناى:

ـ ما أجمـــلك..

هذه أول كلمة غزل أتفوه بها فى حياتى!.. وقد سددت بصرها نحو صورتى الماثلة فى المرآة وابتسمت، ثم غضت بصرها، وشبكت ذراعيها على صدرها، لم يعد يجدى التظاهر بتسوية الشعر فشبكت ذراعيها فى استسلام المنتظر. وازددت حرجا، وعضضت على شفتى قهرا وغيظا. وبدا لى تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة فى الوجود، فهل نبقى على هذه الحال الأليم حتى مطلع الصبح؟.. لماذا لا أمضى نحوها فأضمها إلى صدرى حتى تحل المسألة نفسها بنفسها؟.. ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟! إنى أستطيع أن أتخيل، وأن أحادث نفسى، أما الإقدام على عمل فهو المحال. وامتلأ قلبى غيظا وألما، وازددت إحساسا بالعجز والخزى، فصممت أن أخرج من صمتى على الأقل، فقلت:

ـ هلا بدلت ملابسك يا عزيزتى؟

وحسبتنى قد ظفرت بالحل السعيد. وانتهزت الفرصة فمضيت أخلع ملابسى فى

هدوء محاذرا أن يبدو منى شىء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل، وحشرت فيها نفسى وأنا لا أزال ملازما موضعى على الأرض. وانتظرت مليا ثم سألتها برقة:

ـ هل انتهيت يا عزيزتى؟

فأجابتنى بصوت مهموس:

ـ أجـل..

فنهضت قائما وهنا وقع بصرى على صورتى فى المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسى فنزعته مبتسما! ونظرت صوبها فى حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفت فى روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجرة. وعدت إلى موقفى مرتفقا حافة الفراش، رانيا إليها فى غبطة وهيام، وكلما رفعت إلى عينيها غضضت بصرى فى حياء. انتهينا من تغيير ملابسنا، لكن ليس هذا كل شىء!.. بدت الليلة وكأن لا نهاية لمشاكلها.. بيد أن قلبى يرغب أن يضمها إليه، فماذا يغلنى؟!

إن هى إلا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كل هذا العناء؟ كان قلبى متلهفا متعطشا، وكان خجلى حارا محيرا، أما جسمى فكان ميتا لا حراك به!.. أأظل هكذا أبدا؟.. لماذا لا أدراى موتى بالحديث؟.. ولكن ما عسى أن أقول!.. لقد عقد الاضطراب لسانى، وكل دقيقة تمر تتركنى أشد ضعفا واضطرابا. وعلى حين بغتة انحرف ذهنى إلى حجرة أمى دون داع، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيل ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطرام الخجل بنفسى، وشعرت بما يشبه الاختناق. سلمت من جانبى باليأس والعجز، وتساءلت هل نبقى على هذا الوضع المضحك حتى الصباح؟ ووجدت فى أعماقى نزوعا إلى الهرب، ولهفا عليه، وكدت أتمنى لو لم يكن ما كان!.. وأفقت من أشجانى على صوت حبيبتى وهى تقول:

ـ الجـو حـار.

وتحولت صوب النافذة لتفتحها، ووجدت فرصة مواتية فدفعت نفسى وراءها وأكملت عنها فتح المصراعين وهمت حبيبتى بالعودة فقلت كالمستغيث:

ـ هلا وقفنا فى النافذة قليلا.

ولبت حبيبتى نداء الاستغاثة. فوقفنا جنبا لجنب لا يفصل بيننا إلا قيراط. وكانت النافذة تطل على الناحية الخلفية للعمارة: وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها فى صمت الليل. وهفت على وجهينا نسمة رطيبة أتطلع إليها كما يتطلع الطفل إلى القمر؟ ها هى ذى لا يفصلنا إلا قيراط. وملت بجسمى فى تؤدة وحذر، فتماست ملابسنا. ثم شعرت رويدا بملمس طرى، والتصق الجنبان.

وندت عنى تنهدة مسموعة أيقظت حيائى فتريثت قليلا . وخفت أن تصدنى أو تبتعد عنى حياء فأغلب على أمرى ولا يعود ثمة أمل ، ولكنها لبثت بمكانها وارتفقت حافة النافذة .

ودفعت بيسراى إلى الوراء قليلا ، ووجهتها وراءها حتى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة ، وجعلت أضيقها على مهل وحذر وخوف حتى مست ثنيات الروب الحريرى ، فسرت من مسها لقلبى رجفة وندت عنى للمرة الثانية تنهدة مسموعة . ثم توثبت بمجامع قلبى وأحطت خاصرتها بذراعى . . ولم تبد حبيبتى لا معارضة ولا حراكا . ونفضت عنى أفكار التردد والهزيمة ، وشددتها نحوى مستعينا بذراعى اليمنى ، وتلقيتها فى حضنى وأسندت جبينها إلى صدرى ، فهويت بشفتى على مفرق شعرها ، وغمغمت وأنا لا أدرى :

ـ أحبـــك .

ولبثنا فى عناقنا ، والله أعلم بما لبثنا ثم تراجعنا متماسكين إلى الفراش ، وصعدنا إليه وذراعاى لا تتخليان عنها . وأسندنا منكبينا إلى نمرقتين عاليتين ، وحبيبتى وما عليها من روب على صدرى وبين ذراعى ، ومن عجب أن بصرى لم يتطفل عليها فاتجه إلى السماء خلال النافذة . وامتلأت نفسى حياة لا عهد لى بها . أما جسمى فظل جامدا باردا لا ينبض ولا تدب به حياة ، كأن نفسى استأثرت بكل قطرة من حيــاتى . أسكرتنى نشوة روحية باهرة غناء طروب سامية ، وظللت على حالى حتى مطلع الفجر ، ولم أدر كيف استرق النوم خطاه إلى جفنى .

٤١

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة ، فوقع بصرى على المرآة ، وعاودتنى ذكريات الليلة الماضيــة فى لمح البـصـر . ودارت عيناى فى الحجرة فوجدتها خالية ، وأدركت أن حبيبتى غادرتها وأنا أغط فى نومى ، فتندى قلبى حنانا وبعثت لها بتحية ودعاء : وقلت لنفسى إن متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت ، ولن يضمر لى المستقبل إلا صفاء لا يكدره مكدر . وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسى فى متاهة النشوة والسعادة . بيد أنه لم يغب عنى أننى لم أبدأ بعد ، وأننى لم أكتب حرفا واحدا فى كتاب الزواج الضخم . وغادرت الفراش ونظرت فى الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة ، فهالنى تأخيرى ، وذكرت فى التو أمى ، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر ، وشعرت بحياء أليم ، زاد من ألمه أنه لم يحدث ما يستدعى التأخير

قط، وأحسست بضيق نغص على سعادتى، وكأننى أدرك لأول مرة أن الليلة الماضية لم تخل من فشل وإخفاق. على أننى قاومت هذا الإحساس الخائن، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة. وقابلتنى فى الصالة الجارية صباح ـ التى انضمت إلى أسرتنا ـ فهنأتنى «بالصباحية» وأخبرتنى بأن العروس تنتظرنى فى حجرة السفرة فمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة اليانعة فانشرح صدرى بمنظرها وأقبلت نحوها متهللا وقبلت خدها. وتناولنا إفطارنا معا المكون من اللبن والشاى والبيض والجاتوه. وتبادلنا على المائدة حديثا عاديا، فسألتها متى استيقظت، وأجابتنى بأنها استيقظت فى الثامنة، وبأنها تستيقظ فى العادة مبكرة مهما تأخر بها وقت المنام. ثم جاءت أمى فهنأتنا معا، وجالستنا بعض الوقت. وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار فى حديث عذب لا يمل. وذهبت عنى الوحشة فآنست بها وقصصت عليها قصة حبى من البداية إلى النهاية، وكنا نفصل حديثنا بالقبل السعيدة المتبادلة. وسألتها متى أحست بوجودى فى دنياها، فقالت أنها فطنت لحومانى حولها وتطلعى إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلا، وأن أمها لاحظت ذلك فى نفس الوقت تقريبا، ثم صرت بعد ذلك حديث البيت فكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتنى من النافذة آتيا من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة «عريس ست رباب»، وكانوا يزجرونها بشدة، ولما طال بى المطال دون أن اتقدم خطوة ظنوا بى الظنون، ونهتها أمها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة فى الأوقات التى أكون فيها بالمحطة. وسألتها بلهفة:

ـ ألم تشعرى نحوى بعاطفة ما؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاها لتتكلم، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس. وكان بى نهم شديد لسماع ما يبل جوانحى فألححت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لا أدرى.. لا أدرى متى أحببتك.

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرا. وجعلت وجهها بين راحتى متمليا شفتيها اللتين برزتا تحت ضغط يدى، ثم وضعت عليهما شفتى، وذبت فى قبلة طويلة، وجدت حبيبتى فتنة، حديثها عذب، وبديهتها حاضرة، وذكاؤها باهر حتى بدا حديثى على ضوء حديثها فاترا باهتا. وبدت لى لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلا تأدبا واحتشاما. ولا أدرى لماذا كنت أتخيلها مثالا لضبط النفس، بل وللبرود أيضا، ولكننى لمست فى قبلاتها حرارة تذيب القلب، وفى نظرة عينيها عاطفة عميقة وإحساسا مرهفا. وانطلقت على سجيتها بأسرع مما توقعت، وربما شجعها على ذلك ما رأت من شدة حيائى.

ولما جاء الليل وأغلقت الباب وراءنا قلت لنفسى وبى رهبة زحفت على مع الظلام

«الليلة يتم الأمر بإذن الله» . لم تكن لى تجارب على الإطلاق ، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلا العادة الجهنمية التى لم أكد أنجو منها ، ولكنى عرفت أمورا بالسماع عفوا - فى الوزارة - لا أدرى إن كانت تغنى عنى شيئا . ورأيت حبيبتى واقفة حيال المرآة تمشط شعرها فراقنى منظر قامتها الرشيقة الفارعة ، وتدانيت منها ، ولففت ذراعى حولها ، فاستدارت حتى شعرت بمس صدرها على قلبى . وضممتها إلى صدرى فى حنان وهيام . إنه الحب ، ولكننى أدركت بغريزتى أنه ينبغى أن أستنزله من السماء كثيرا كى أقوم بواجبى ! . . ولكن كيف؟ ! إنها تسكن إلى صدرى كأنها طيف من نسج السحاب الطاهر . وإنى أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدى؟ ! وسرعان ما انسربت إلى نفسى مشاعر قلق وخوف وتوتر أذكتها جميعا تجربة الأمس الفاشلة . ولم تكن تراءت لى كتجربة فاشلة إلا فى هذا الصباح ، وكذبت رأيى أو كدت فى أثناء النهار ، ولكننى عدت إليه فى تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس ، ثم استحوذ على الحياء القاتل فأثلج دمى وأوهن عزمتى . وركبنى خوف شديد من الفراش الذى لا أجد لنفسى عذرا عليه بينا أجد شبه عذر بعيدا عنه .

ومرت هذه الخواطر برأسى وحبيبتى ما تزال بين يدى . فانقلبت تمثالا جامدا من شر الفكر ، وضاعت سعادة السعادة هباء . وتنهدت ، ولعلها ضاقت بالوقفة ، فوخزتنى تنهدتها ولم أعد أطيق جمودى . ورفعتها بين يدى ، وسرت بحملى المحبوب إلى الفراش ، وأنمتها فى رفق ثم اضطجعت إلى جانبها . ودفعنى الشوق إلى تقبيل شفتيها وخديها وعنقها بسرعة وغزارة ، فداخلتها رقة وأحاطت عنقى بذراعها البضة والتصقنا طويلا وتناهى بها العطف والحنان ، واصطرعت بقلبى أحاسيس الحب واليأس واللذة والخوف فكأنى فى متاهة حمى يذهب بى هذيانها ويجىء بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف . إنى فى حلم سعيد ولكن الخوف لا يزايلنى واليأس لا يثير فى وجهى غبارا ، وكيف لى بالنجاة وجسمى ميت لا حياة فيه؟ ! وأحرق جفاف الخوف حلقى ، ووقفت حيال عجزى ويأسى حائرا أتساءل ، ولكنى لم أفكر لحظة واحدة فى التقهقر ، وأين المفر؟ . . بل دفعنى اليأس إلى أن أنزع الروب عنها ، فجرت يدى إلى عقدة زناره وحللتها ، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدرى ، فأزحت جانبه عن صدرها فبدا جسمها الرشيق فى قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئا ، وبادرت ترجع طرف الروب تستتر فأزحته مرة أخرى فانحسر عن القميص الشفاف ، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لهما الاضطراب إلا قليلا من الإبصار . كان حالى مما يرثى له . ولم يكن عذاب محتضر يجاهد يائسا للاستمساك بحياة جسده بأسوأ من عذابى . ورغم هذا كله ثابرت على عنادى ، واستمددت من يأسى وعذابى قوة وإن لم تكن تجدى : إن الخجول لا يفر إبان المعركة لأن الفرار مخجل حيال الغريم . أجل إنه يتحامى المعركة ،

ويفر منها بعيدا عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا محطا للأنظار بات الفرار ـ كالعراك سواء بسواء ـ فوق احتماله. لذلك أجلست حبيبتى ونزعت الروب من ذراعيها وتركتها قميصا شفافا وجسدا باديا. وأدارت عنى رأسها، وأخفته فى الوسادة. ولم تكن تعلم بأن نفسى تحترق يأسا، وبأن هذا المشهد ما هو إلا مهزلة، فتضاعف ألمى وخجلى. ومع ذلك مددت يدى مرة أخرى كأننى مازلت أطمع فى أمل لا أدريه. مددتها وهى ترتجف من اليأس والبرودة فند عن حبيبتى صوت يهمس:

ـ إنى خائفـــة. .

واخجلتاه!.. مم تخاف؟!.. لقد ألهبتنى همستها كسوط حملت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم أتوقف.. لم تثننى لا المقاومة ولا الصدود.. حتى بلغ النظر غايته! ماذا دهانى؟ ليس الموت فحسب ما بى. إنه شىء جديد مفزع مزعج، ماذا دهانى؟.. رباه حبيبتى جميلة لطيفة ولكنه الجهل والخيال الأعمى! كنت غرا أعمى لم تر عيناى نور الحياة، فتخيلت عنه خيالات صبيانية فلما أن رأت النور الحقيقى أنكرته! إنها مأساة. ولعله لولا موتى لما كانت مأساة على الإطلاق. وقد علمتنى تلك التجربة القاسية أن الحب يخلق الجمال كما يخلق الجمال الحب.. ومهما يكن من أمر فقد ركبنى الفزع فوق ما بى من يأس وخجل ولم يعد ثمة أمل. ولبثت جامدا وحبيبتى دافنة وجهها فى الوسادة، مستسلمة تحت رحمة جلادها.. لبثت جامدا لا أدرى ماذا أفعل ولا كيف أتراجع ووجدت فى لحظة رهيبة قوة عصبية متوترة تدفعنى إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت فى اللحظة الثانية برغبة فى البكاء، ولولا أن البكاء مخجل لروحت بالدمع عن نفسى الملتاعة.. ثم استثقلت الجمود كما خفته فضممتها إلى صدرى وقبلتها ومشاعر العطف والحزن ـ علينا معا ـ تسيل من شفتى، كان رثاء بالقبل. ومر الوقت كأن دقائقه وثوانيه أسنان منشار يحز عنقى، ومرت دقائق وربما ساعات. ثم انقلب الحال مملا مضنيا، وفى حركة لطيفة تخلصت من ذراعى.. وتغطت بثيابها وبدا لى النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلتى؟! رقدت حبيبتى دون أن تلتقى عينانا فلم أدر متى رنق الكرى بجفنيها. ولبثت مسهدا متعبا لا أدرى بأى وجه ألقاها فى الصباح. أى شيطان أغرانى بالزواج؟.. ألم يكن عذاب الحسرة القديم خيرا من هذا العذاب؟.. كيف خاننى جسمى؟ أليس هو الجسم الذى يلتهم نارا فى العادة الجهنمية!! وإلام يدوم هذا اليأس!.. ظل رأسى كقطعة محماة من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار.

٤٢

حبيبتي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح بالابتسامة المشرقة. ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور ومرح، فلم يداخلني شك في أنها عروس سعيدة. ولو بدا لي أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الحرج لما وسعتني الدنيا شقاء، ولكنها كانت تصدر في مرحها عن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا التمثيل. وشعرت بصدق وحق بأن فتاتي تحبني، وبأنها قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأنوثة، فعاودني الأمل. وقلت لنفسي إننا مازلنا في البداية وإن مسرات لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقة، وقضينا النهار معا، بعضه في الحديث وبعضه الآخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهرت في إبداعها لأطفال الروضة. وحين المساء زارتنا أسرتها، وجلسنا جميعا في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضا. وتحدثنا طويلا، والتهمنا بلذة الشيكولاطة والملبس: وحاولوا أن يجروا أمي إلى الحديث، ولكنها ـ مثلي ـ لم تكن محدثة ماهرة، فبدت متحفظة، وخيل إلي أن محضرها لم يترك أثرا حسنا في نفوسهم، وأن رباب شاركتهم نفس الشعور، وما لبث أن سرت العدوى إلي، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين: إحساسا بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألفته وطبعت عليه، وآخر بالخجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية. والحق أني ما كنت أذكرها حتى يتندى جبيني خجلا. ولما انفض السامر وأقبل الليل استقبلته بكآبة وخوف، وما كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتى نضب معين السرور والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعثه مرح النهار، وبدا لي أن فتاتي تعاني بعض ما أعاني، وأنها تداري قلقا لم تنفع لباقتها في مداراته. تولت عني الثقة في أقل من ثانية، وتخايلت لعيني ذكريات الليلة الماضية، وتمنيت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن نجرب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء. على أنني لم أجد بدا مما ليس منه بد. وأعدت التجربة بحذافيرها من قبل وعناق وإخفاق!..
أجل إخفاق وإخفاق وإخفاق. مسكينة حبيبتي، لقد استسلمت بادئ الأمر فيما يشبه الخوف. ثم انتهت بأن لمت نفسها في حياء وارتباك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا أمس، فنامت هي، وبقيت مسهدا متفكرا. ماذا بي!.. إني أحبها بكل قوة نفسي، بل إني أعبدها عبادة ولئن يخلو بيتي منها بعد اليوم لأهلكن لا محالة، أتكمن المأساة فيما دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقعه!. ولكن هذا محض افتراء لأني موتي سابق للنظر فليس فيما رأيت دخل فيه، بل إني آلف الحقيقة التي غابت عني سريعا وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال الواقع الحقيقي، ولم يتغير مني شيء.. وقد أثر في

حياؤها وإرتباكها ـ وهى ترتدى ثيابها ـ تأثيرا عميقا فأقسمت لأقربن ثيابها حتى يغير الله ما بى!

ومضت بنا الأيام فى حب طاهر، فامتزج روحانا، حتى صارا روحا واحدا فى جسمين غير متصلين. ولولا حبها العميق، ومرحها الطليق، وبساطة قلبها الكبير. لمت غما وكمدا. .

وإنها لأيام عجيبة، وإنه شهر عسل غريب! وكانت حبيبتى مثالا للشعور الحى والرقة البالغة والحب الصادق. وكثيرا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة مستريبة فلم أجد منها إلى الصفاء والوداعة والرضا، فكاد يقع فى روعى إنه لا يعوزنا شىء. وأستطيع أن أقول إننى لم أنعم بالراحة إلا فى تلك اللحظات. وفيما عدا ذلك كانت حياتى جحيما مستعرا لا يدرى به أحد، لم تعد سعادتى إلا أويقات طارئة كأنها إفاقات من يعانى سكرات الموت. وشعرت بشدة حاجتى إلى المشير. ولكن حيائى وقف فى طريقى سدا منيعًا كالجبل الراسخ فاستحالت على المشورة حتى مجرد تخيلها كان يشب فى نارا ويبعث فى نفسى إحساسا قاهراً للفرار والاختفاء. وفضلا عن هذا وذاك فلم يكن لى صديق، وكانت أمى ـ وهى صديقى الوحيد فى دنياى ـ أبعد من أن أذكرها فى هذا الأمر خاصة، فكابدت عذابى وحيدا صامتا يائسا. وكان نهارا محتملا، بل بهيجا بفضل حبيبتى التى تذيب روحها راكد الهم، حتى إذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع حيلة فى تبديدها: كان كلانا يشعر بالحرج والضيق والخوف. ولم تواتنى الشجاعة على معاودة التجربة بعد إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكنت أقنع بأن نضطجع جنبا إلى جنب، وأضمها إلى صدرى، منتظرا الرحمة فى خوف وقلق وهلع، حتى ينتشلنى النوم من عذابى، ولذلك لم يزل الحياء حجابا بينى وبينها، ولو أتيح لنا الامتزاج لرفع الحجاب رويدا رويدا، فلم أستطع أن أشكو إليها بثى وهمى، وطالما نازعتنى نفسى إلى الترويح عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفتى حتى أطبقهما فى ارتباك وخجل. وفى إحدى هذه المرات قالت لى بصوت مهموس:

ـ هل ترغب أن تقول شيئا؟. .

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، فخفق قلبى بعنف وقلت فى اضطراب أخفيته بجهد شديد:

ـ أرغب دائما أن أقول إنى أحبك!

هذا حق فى ذاته، ولكنى كنت أرغب بلا ريب أن أقول شيئا آخر، وأحسست بأنها تقرأ صفحة أفكارى الخفية، فجثم الكذب على صدرى كالكابوس، وغمغمت بعد أن جاهدت حيائى جهادا مريرا:

ـ إن ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما ينتظرنا من عمر طويل.

وخيل إلى أن وجهها تضرج بالاحمرار وإن كنت أراه على ضوء المصباح الساهر الخافت، وداعبت شعرى بأناملها، ثم قبلتنى قبلة عذبة على شفتى، وسألتنى فى أذنى:

- أيضايقك شىء؟

فالتهب جسمى خجلا وألما. وقلت بإخلاص:

- معـــاذ الله . .

وصمت على رغمى مليا، وقلبى يخفق بشدة وعنف، ثم قلت وبودى لو أتوارى عن ناظريها:

- إنها مسألة وقت . .

هكذا تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنه لولا حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لمت غما وكمدا.

* * *

وذات مساء - وكان مضى على زواجنا ثلاثة أسابيع - لاحظت أنها تخالسنى نظرات تنم عن الحيرة، وأن لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعا برغبة قوية فى استدراجها إلى الكلام:

- فى عينيك كلام . .

فقالت مبتسمة فى ارتباك:

- أجـــل . .

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقها، وقلت مستسلما للشعور الطارئ نفسه:

- هاتى ما عندك . .

- أمـى . .

وانفجر الاسم فى أذنى كالقنبلة، إنه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتابا، وإنى على رغم غبائى أفهم ما يعنيه. ولعل الأم تواجهها بهذا السؤال الطبيعى المعروف فتسمع ردا على سؤالها جوابا واحدا لا يتغير «كلا بعد . .»! ولما طال السكوت قالت حبيبتى برقة:

- إنها لا تفتأ تسألنى: ولا أدرى ماذا أنفد صبرها . .

وقتلنى الخجل، وتميزت غيظا، ثم قلت بهدوء:

- هذه شؤوننا الخاصة. أليس كذلك؟

فقالت كمن تعتذر:

ـ طبعا . . إن هى إلا تريد أن تطمئن علينا . هذا كل ما هنالك . .

فسألتها محزونا مغتما :

ـ وماذا قلت لها؟

فقالت باهتمام وعجلة :

ـ لم أقل «شيئا» مطلقا . . فقط صارحتها بأن لا داعى للعجلة .

ـ وماذا قالت؟!

فتفكرت مليا كأنما لتزن كلماتها ، ثم قالت :

ـ قالت لى إن للموقف رهبته ، وخاصة بالنسبة لشاب طاهر خجول ، وإنه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية . .

فاتسعت عيناى دهشة وقلت بذهول :

ـ صبــاح!

فأومأت برأسها بالإيجاب فى ارتباك ، فتساءلت بدهشة :

ـ وماذا تستطيع صباح؟

وترددت لحظة ، ثم أنشأت تشرح لى ما غمض على أول وهلة ، وأنصت إليها باهتمام حتى أدركت كل شىء ، وأخذت أفيق من ذهولى رويدا رويدا . ولست أخفى أنى شعرت بارتياح إلى اقتراح الأم ، فهو يزيل عقبة من سبيلى ، ويخلينى من بعض المسئولية ، ويعفينى من مراقبة الأم ، ولا أظنها تسأل بعد ذلك عن شىء . . وسألت زوجى بحياء :

ـ وكيف نخبر صباح؟

فقالت ببساطة :

ـ لقد حضرت صباح جانبا من حديث أمى . .

فهتفت بحياء وانزعاج :

ـ كيف؟ . . كيف بالله!

فقالت مبتسمة :

ـ لا عليك من هذا ، إنها أمى أيضا ولا نخفى عنها شيئا :

وتبادلنا نظرا طويلا صامتا . . ثم سألت فى إشفاق :

ـ وهل علم أحد من الآخرين؟

قالت بلهجة لا تدع مجالا للشك :

ـ مطلقــا . .

فداخلنى ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:

ـ أرجو ألا تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!

فحدجتنى بنظرة عتاب وتساءلت:

ـ أيداخلك فى هذا الشك؟!

٤٣

ولكن ليس هذا كل شىء فى الزواج. وكيف يكون كل شىء وهو «واجب» قامت به صباح؟!. وتساءلت فى سذاجة مضحكة عما ينقص حياتى الزوجية، وهل هو ضرورى لهذه الحياة! ومن عجب أننى ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسنا سعداء! نحن نعيش فى هناء وغبطة، ويحب كلانا صاحبه حبا لا حد له ولا يداخل أحدا شك فى سعادتنا، فلماذا تزعجنى الأوهام؟! ولكن الإنسان موكل دائما بالتفكير فيما ينقصه، حتى لينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزايلنى الوساوس، ولم استنم لحياتى. وفى ليلة من الليالى، وكنت مضطجعا على ظهرى أراود النوم وقد رنق الكرى بجفنى حبيبتى، طاف بى الفكر مسارح بعيدة حتى نسيت ما حولى أو كدت، فساورنى شعور بالوحدة، قواه فى نفسى ما يحيط بى من ظلمة، ورويدا وجدت حياة تدب فى جسدى، كتلك الحياة التى كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفنى الفرح فكدت أصيح من فرط سرورى. ثم أقبلت على حبيبتى النائمة أوقظها بالقبل حتى فتحت عينيها فى انزعاج استحال دهشة، ومرت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثم مدت ذراعيها إلى عنقى فضممتها إلى صدرى بلهفة وشوق، ولكنى ما كدت أفعل حتى عاد كل شىء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدى حتى شمله فى أقل من ثانية، وانقلبت إلى حيرة خرساء وخجل مخز! وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدا فى وجهها أنها لا تفهم شيئا فسألتنى:

ـ أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قيلت اعتباطا، ولشد ما زلزلتنى تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرما على ما كان يتراءى لى أحيانا من أمل واه، وعرضت لى خلوات أخرى فى ظلام الليل وحبيبتى غارقة فى نومها، وعاودنى دبيب الحياة الغريب، ولكن لم تواتنى الشجاعة مرة أخرى على إيقاظها، ووجدتنى أتردى من جديد فى الهاوية التى

انتشلنى الزواج منها قرابة شهر، وعدت وأنا لا أدرى إلى أسر العادة الجهنمية التى لم يعرفها زوج قبلى. إلا ما أشد حيرتى وقهرى! كيف يقع لى هذا وقلبى يعبدها عبادة! بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندى من الدنيا وأنعمها! إنها حياتى وسعادتى ودنياى جميعا.

* * *

وجدتها يوما وكأنها تعانى رغبة الإفصاح عن شيء يعتلج بنفسها. فخفق قلبى قلقا وخوفا، ولكن لم يسعنى أن أتجاهل ما رأيت مفضلا أن ألقى الخطر وجها لوجه على أن أضيف جديدا إلى ما أكتمه فى نفسى من القلق والوساوس، فسألتها:

- ماذا وراءك يا عزيزتى:

فلاح فى وجهها التردد والضيق ولاذت بالصمت، فتضاعف قلقى وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتى ما عندك لا تخفى عنى شيئا..

فنفخت قائلة:

- أمى..

ووقع قولها من نفسى موقع الفزع والهلع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح؟!.. ولشد ما أبغضتها فى تلك اللحظة، على أننى تساءلت متظاهرا بقلة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهى تنظر فيما بين قدميها:

- لا تفتأ تسألنى هل جد جديد فى الطريق!

ومن عجب أنى فهمت المراد من هذا المجاز! فهمته بغريزتى، أو بالخوف الكامن فى نفسى وبلا أدنى تردد، ولكنى تساءلت متجاهلا:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فأومأت إلى بطنها وهمست قائلة:

- تعنى هل جد جديد هنا؟!

وتولانى فزع شديد، فأطرقت مرتبكا محزونا، عم تسأل المرأة؟ لعلها تريد أن تعرف شئونا أخرى ضمنا، وحنقت عليها حنقا فظيعا، واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف. صامتة.. أحقا يضايقها تساؤل أمها أم هى تبلغنيه وفى نفسها غرض؟ أباتت بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها؟.. ولماذا تتوارى خلف أمها؟ ان المكر لا

يحمل بمن كانت فى مثل جمالها وطهارتها! وما كان أغناها عن اللف والدوران. هكذا حملنى الفزع على عدم تقدير موقف فتاتى المظلومة. واشتد بى الحرج حتى أرهقنى وأعيانى، ثم تركز اهتمامى فى شىء واحد، وهو أن أسبر مدى ما تعرف نازلى هانم من أسرارنا، فسألتها قائلا:

- وماذا قلت لها؟

فقالت ببساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فتشنج قلبى تشنجة حادة وصحت بفزع:

- الحقيقـــة!

فحدجتنى بدهشة وتساءلت:

- مـالك؟!

فهتفت فى انزعاج:

- أحقا قلت لها الحقيقة؟!

فقالت بعجلة ولهوجة:

- أجل قلت لها إنه لم يجد شىء بعد!

وتنفست الصعداء! إنها تعنى حقيقة غير التى تشغل بالى. على أنه بقى فى النفس شىء.. فقلت بحرارة:

- «رباب» أهذا كل ما قالت؟ لا تخفى عنى شيئا وأنت قلبى وحياتى. فقالت بارتباك وقد قرأت البراءة فى عينيها:

- عم تتساءل يا كامل؟ إننى لم أقل لها كلمة واحدة زيادة عما قلت لك. لقد سألتنى عن هذا الأمر فلم يسعنى إلا أن أجيب بالحق والصدق، وهو أمر كما تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل ترانى أخطأت؟ أم كنت تريدنى على أن أتظاهر بالحبل؟..

فقلت فى ارتياح نسبى:

- كلا يا عزيزتى.. لقد أحسنت بصراحتك..

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة منا.. رباه، إنى أحتضن همى وحدى ولا صديق ولا مشير. ولقد ضقت ذرعا بأمها وبأمى وبنفسى! وعاودنى السؤال القديم: هل ما ينقصنا ضرورى للحياة الزوجية؟ هل تجد حبيبتى مثل هذا الإحساس الحيوانى الذى دفعنى إلى أعتناق العادة الآثمة؟! أيمكن أن تعترى حبيبتى الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية؟ إن هذا لأبغض مما أتصور!

وانتهت إجازتى فعدت إلى إدارة المخازن بالوزارة، واستقبلنى الموظفون استقبالا حافلا، لم يكن لى بينهم صديق، ولكن المناسبة - عودة عروس من شهر العسل - أنستهم تحفظهم فأقبلوا على بين مهنئ ومداعب وتلقيتهم فى صمت وارتباك وخجل، وتكلموا كثيرا. وتطوع أحدهم بتحذيرى من الإفراط، واستفاض الحديث حتى ألهاهم عنى، وخاضوا فى طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات، أنصت إليهم خفية وأنا أتظاهر بفحص الآلة الكاتبة، بقلب مكلوم ونفس معذبة، وكم تمنيت أن يستشهد أحدهم بحالة «كحالتى»، ولكن حالتى لم تقع لأحدهم فى حسبان، وامتلأت نفسى بما سمعت حتى دارت بى الأرض، إن رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صح ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أيمكن أن تضيق بحياتها أو تمل عشرتى؟! ولكنها سعيدة؟ ما رأيت وجهها إلا متألقا بنور السعادة، وما رنت عيناها إلى إلا بالحب والإخلاص، إن وجهها لا يعرف الرياء، وإنه لصفحة نقية ومرتاد طاهر لا يكتم كذبا ولا يدارى إثما. كذب هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلا حيوانات مثلهم. بيد أننى غير مطمئن، ولن أذوق الطمأنينة مهما أقنعت نفسى بها، لقد نبت دمل الشك.

ولما خلوت إلى حبيبتى ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلا متفكرا دون أن أنبس، حتى ضحكت وقالت لى:

- هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم.

وهفت على فؤادى نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادى مضطرم وأملى مشرق وهذه البلوى لا تدور لى فى خلد. وتمليت الذكرى مليا، ثم سألتها فى إشفاق:

- رباب.. أأنت سعيدة؟

فنظرت إلى باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق:

- سعيدة جدا..

فتساءلت وعيناى تطرقان من فرط الحياء:

- أتحـــبيننى؟

وكانت على بعد شبر منى فتزحزحت حتى التصقت بى ورفعت إلى وجها موردا وغمغمت:

- أجـل أحبـك..

فأحطت خاصرتها بذراعى وقبلت شفتيها وخدها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أنملة أنملة فى حنان وهيام، وكنت فى الواقع أمهد بما قلت لما أرغب فى الإفصاح عنه مما ضقت بكتمانه، ولما هممت بالكلام خانتنى شجاعتى وانعقد لسانى.

أردت أن أبثها همى ، وأن أعترف لها بأن ما يعترينى حيالها طارئ غريب لا أدرى كنهه ، وأننى لم أكن كذلك بل أننى لست كذلك إذا خلوت إلى نفسى ، وأن أسألها المشورة والمعونة ، هذا ما كنت أريد البوح به ، ولكن خانتنى العزيمة فنكصت مغلوبا على أمرى . ثم سلمت بالهزيمة كعادتى ، وجعلت أسوغها لنفسى قائلا : إن البوح بهذه الأسرار حرى بأن يسيء إليها ويغضبها ، وربما قضى على سعادتها قضاء مبرما .

وعندما آوينا إلى الفراش حدثتنى نفسى بأن أعاود التجربة ، ولكننى ترددت ، وترددت طويلا حتى تملكنى الخوف فولى قلبى فرارا ، لقد بت أخاف جسمها بقدر ما أحبها ، وتأملت حياتى فى صمت الليل وظلمته ، فبدت لى غريبة متنافرة ، وضاق صدرى فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلا . .

٤٤

وخطر لى أن أستشير طبيبا ، وجاء الخاطر فجأة ، بل لعله كان محض مصادفة ، ولم أكن فكرت فى استشارة طبيب لخجلى الشديد من ناحية ، ولاعتقادى بأن حالتى لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى ، ولكن بصرى قد وقع يوما وأنا فى طريقى إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشارع قصر العينى قد كتب عليها بالخط الكبير : «الدكتور أمين رضا ، أخصائى فى الأمراض التناسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيتها من قبل ، فحدثتنى نفسى فجأة باللجوء إلى الطبيب . ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد . ثار خجلى وخوفى ، وكادا يثنيانى عما خطر لى ولكن تلهفى على النجاة كان أقوى من خجلى هذه المرة ، فصممت على الذهاب ذات مساء ، وذهبت . .

كان الطبيب مشغولا بفحص مريض . فجلست فى حجرة الانتظار ، وكانت الحجرة خالية فداخلنى ارتياح عميق ، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب . ولم يطل بى الانتظار ، فدعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية فى فخامتها وأناقتها ، كاملة العدد ، وبها من أدوات الرهبة ما رد إلى الهارب من ثقتى . وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات . كان شابا فى الثلاثين على أكثر تقدير ، نحيف القوام ، طويل القامة ، مجعد الشعر ، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة ، وعينين حادتين تلتمعان وراء نظارة أنيقة . وكان مما يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقارا ليس من سنه ، حييته فرد تحيتى باقتضاب ، وحدجنى بنظرة مستفهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء ، وثقة بالنفس تبلغ حد الغرور ، فلم أرتح

إليه. وكان منظره عامة مخيبا لأملى، لأنى توقعت أن أرى شيخا مهيبا بساما كطبيب ذهبت بى أمى إليه مرة منذ أعوام طوال، فاستأت ووددت لو لم أكن قدت نفسى إلى هذا الشرك. وقال لى بهدوء!

- تفضــل بالجـلوس. .

فـأذعنت وأنا أرمقـه بقلق. وجـعل ينظر إلى منتظرا أن أبدأ بالكلام. ولكن فكرى تشتت وجف حلقى ولبثت ملازما الصمت حتى قال متسائلا:

- أفنـــدم؟

فاستجمعت قواى، ولكنى لم أزد على أن قلت:

- جئت للكشف. .

فسألنى بدهشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

وعانيت عذابا شديدا قبل أن أقول:

- إنى رجل متزوج. .

ثم سكت، أو بالأحـرى انعـقـد لسـانى، ولكنى اسـتـثـقلت السكوت، على حين استحثتنى عينا الطبيب الحادتان فاعترفت بكل شيء! تكلمت بادئ الأمـر باضطراب وتعثر، ثم تشجـعت بما لاح فى وجهـه من أمارات الجد والرزانة فتدفقت بلا توقف، وشعرت كأنما ألقيت عن عاتقى حملا ثقيلا، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعدا عن الشفاء الذى نغص على صفوى. وسألنى الطبيب:

- متى تزوجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت بامتعاض:

- من أول ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لى تجارب مطلقا. .

وسـألنى عن الأخـرى فـتـرددت لحظة ثم أجـبـت بالصـدق. وسـألنى عن بعض التفصيلات فأجبته صراحة، ولم أخف عنه إفراطى المخيف. وعاد يسألنى:

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذى بدا لى فراسة ثاقبة فقلت :

ـ بلـــى . .

فقال متفكرا :

ـ كأن طبيعتك لا تتغير إلا حيال زوجك .

فقلت بحيرة وأسى :

ـ أجـل . .

فسكت مليا ثم قال :

ـ سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبنى بالصدق . هل تحب زوجك؟

ـ جـدا . .

ـ أبها شذوذ من أى نوع كان ، أو برودة فى الطبيعة؟

ـ أبـــدا . .

ـ هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر؟

ـ إنها ليست من ذوات قرباى . .

وألقى على بعد ذلك أسئلة استفظعتها ، ولكن لم يكن بى شىء منها ، فأجبته بصدق وصراحة . ونهض قائما ، ثم أجرى على فحصه فى أناة وعناية ، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرع بها الأمل واليأس . وعدنا إلى جلستنا السابقة ، فراح يقيد فى كراسة ما يعن له ثم اعتدل فى جلسته وقال لى :

ـ جسمك سليم . أجل إنك أسأت إلى نفسك بعادتك المرذولة فتركت بك أثرا يحتاج لغسيل خاص ، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد ، فليس عجزك بناشىء عن سبب فيزيقى ، ولعلك تعانى أزمة نفسية ، أليس فى بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه ، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنه أجنبى عن هذه البلاد . وقلت له بدهشة :

ـ أنت أعلم منى بما تسأل عنه يا دكتور!

فقال مبتسما :

ـ الحق أنـى حـديث عهـد بالوطـن ، ولـم أفتـح عيـادتى هذه إلا منذ أيام . .

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة ، ولماذا لم أر لافتته من قبل . بيد أننى بت أدرك كذلك أن هذه المرمطة التى ابتليت بها قد انتهت إلى لا شىء ، فعاودنى القنوط والكمد . واستطرد هو قائلا :

ـ ليس بك من نقص مطلقا، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوما ما فلا تدع لليأس سبيلا إلى نفسك. كثيرا ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها. وأنصحك أن تمر على للغسيل حتى تزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكل جوارحى، وتنازعنى اليأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتى هذا اليوم! وهل يأتى حقا! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكننى لم أبد حراكا وظللت متشبثا بمكانى، وثبتت عيناى عليه فى استغاثة وضراعة. ثم سألت:

ـ ماذا عنيت بالعيادة النفسية؟

ـ أوه.. إنها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد فى بلادنا، ولكن لا تلق بالا لما قلت، ولا أظنك فى حاجة إليها.

ـ قلت إننى ربما كنت أعانى أزمة نفسية. فما معنى هذا؟!

ـ قلت لك لا تلق بالا لما قلت. قد غاليت فى تقديرى، ولست على أية حال طبيبا نفسيا فلا أخوض بك أمورا عسى أن تضر أكثر مما تنفع. إن علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها..

وسألته سؤالا أخيرا:

ـ أرأيك هذا حاسم لا شك فيه؟

فأجابنى بثقة:

ـ أجل..

وغادرت العيادة خيرا مما دخلتها. عدت وبى أمل ورجاء. وقلت لنفسى: إن الطبيب لا يكذب ولا يخطئ فاستخفنى السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشيا على الأقدام. ومررت فى طريقى بالعمارة التى تقطنها أسرة زوجى، عمارة الذكريات، فحلق بى الخيال بعيدا، على حين فجأة فتر حماسى واستحوذ على القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهم، بيد أننى رحت أردد على مسمعى ما أكده لى الطبيب متلمسا الثقة بأى سبيل.

٤٥

وبالرغم من قلقى الدائم كنت أعلل النفس بالشفاء. وواصلنا حياتنا البريئة يحدونى هذا الأمل. وكنت أسترق إليها النظر إذا اشتد بى القلق وأسأل نفسى ترى أهى سعيدة

حقا كما تبدو لى؟ أما تزال تحبنى؟ أما هى فكانت تبدو سعيدة راضية، محبة مخلصة، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيبتى تخفى عنى ما يدور بينهما من حديث. لشد ما أحبها يا ربى، إن امتزاجنا فى حياة واحدة لم يذهب عنى سحرها، بل أسكنها أعمق مكان فى قلبى. وإنى لأهيم بها وهى لصقى على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها وهى تلوح فى الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن التعاسة حقا أن ينغص على سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء.

وكأن سوء الحظ لم يقنع بما رمانى به فى نفسى، فرمانى بأمى أيضا..

وأمى على تأدبها لم تكن لتفلح أبدا فى مداراة عواطفها، فإن لم يخنها لسانها خانتها عيناها، وإن لم تخنها عيناها نمت عليها ما التزمت من حال غريبة سلبية. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجنا لا تكاد تغادره، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة، ولم تخف على رباب هذه الجفوة الطويلة، وكانت على دماثتها ورقتها تنقلب حيال أمى كأية امرأة من النساء انفعالا وغضبا، فكانت لاتفتأ تقول لى: «لشد ما تكرهنى أمك». ولم تقبل أمى أن تغير من سلوكها، معتلة بأنها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنت إذا ذهبت للجلوس معها تلقتنى برقة وابتسام، وحدثتنى بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشعر بغرابة الجو، وبأن حجابا ثقيلا يقوم بين نفسينا، وبأنى حيال شخص آخر غير الأم التى عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد أفاتحها بأن زوجى تضيق بتحفظها حتى تقول لى بحدة: «إن زوجك تكرهنى، هذا كل ما هنالك». كنت أتجلد وأتصبر والألم يمض نفسى والكآبة تغشى روحى..

وذهبت مرة إلى أختى راضية لقضاء يومين، وكأن المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كانت أول أيام نفترقها فى حياتنا المشتركة، فثقل على قلبى فراقها، ووجدت وحشة لا تطاق فى خلو البيت منها، وذهبت إلى شقيقتى لأعود بها فلم تخيب رجائى وعدنا معا.

وقلت لها فى الطريق متوددا:

ـ لم أحتمل البيت بغير وجودك..

فافتر ثغرها عن ابتسامة صافية، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لى:

ـ يخيل إلى أن وجودى فى بيتك لا معنى له، وإنه يضايقكم. فأحنقنى قولها، وقلت باستياء:

ـ سامحك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة. لقد تغيرت يا نينة بلا موجب فتغيرت الحقائق فى نظرك، ولا يسعنى إلا أن أقول مرة أخرى سامحك الله.

فنظرت نحوى بغرابة وقالت بهدوء ويقين:

- إن زوجك تكرهنى، وبالتالى فهى لا تود بقائى فى البيت، وقد ظننت أن ما توده زوجك ينبغى أن توده أنت.

وشعرت بأنها لا تترفق بى متعمدة فكاد ينفجر غضبى لولا رغبتى الصادقة فى المسالمة والمصالحة فكظمت نفسى وقلت واجما:

- إن زوجى لا تكرهك، وهى على العكس من هذا تظن أنها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفظ وجفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقولى قولا ينغص على حياتى..

فبدا على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. رباه. لشد ما تغيرت!.. ألا يمكن أن تمنحنى ابتسامتها المشرقة بدلا من هذه الابتسامة الباهتة؟.. ألا تعود إلى فتح صدرها لى فى ثقة وطمأنينة؟ ترى هل ينبغى أن أكاشفها بآلامى لتعلم بأننى لم أتزوج فى الواقع وأننى أشقى إنسان فى الوجود فتصفح عنى وتعود إلى سابق عهدها؟..

ورجعت من الوزارة يوما فوجدت زوجى باكية، فهالنى الأمر، وأقبلت نحوها فى جزع وألم وانزعاج، وكانت صباح حاضرة فأخبرتنى أنها - صباح - كانت تباشر عملها فى المطبخ حين دخلت عليها أمى وجرحتها بانتقاد مر، فتدخلت زوجى لتصلح الأمر فما كان من أمى إلا أن رمتها بكلام قارص غادرت المكان على أثره باكية..

وذهبت من فورى إلى حجرة أمى ثائر الأعصاب، فما روعنى إلا أن أجدها محمرة العينين من البكاء. ولمحت عبوس وجهى فهتفت فى توجع:

- هل أرسلتك لتؤدبنى!

فرفعت رأسى إلى السماء وقلت من الأعماق: «يا رب السماء خذنى وأرحنى من الدنيا ومن عليها».

ولكنها صاحت بى:

- بل يأخذنى أنا، إنى عجوز لا خير فيها. أما كان يجمل بزوجك أن تؤجل شكواها حتى تخلع ثيابك وتأكل لقمتك؟.. ولكن هيهات أن تذعن لغير عنادها وتجبرها..

فقلت فى استياء وغيظ:

- انها تبكى بكاء مرا..

فصاحت بى وكأنها فقدت أعصابها:

- لقد سبتنى وشتمتنى حتى شبعت، وها هى تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت..

ما أضيع الحق بين النساء! لقد أعيانى الكلام والنضال ولم أنته إلى شىء. وأعجزنى

أن أصلح بينهما فنكد عيشنا طويلا وساد البيت جو خصام . وكففت يدى يائسا تاركا للأيام أن توفق بأناتها فيما أخفقت فيه .

❊ ❊ ❊

وبدأت أشعر فى حياتى الزوجية بفراغ! ولم يداخلنى شك فى أن زوجتى تشاركنى هذا الشعور . ولم يعد الليل وحده الذى يثقل أعصابنا ، فما كان انفرادنا الطويل نهارا مما يمكن أن نطيقه على وتيرة واحدة إلى الأبد . لذلك اقترحت عليها أن نقتل الوقت بأسباب التسلية حتى يحين موعد افتتاح الدراسة وتجد ما يشغلها . وتقبلت اقتراحى بسرور ودعتنى لزيارة آلها الكثيرين ، فتنقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم ، ثم اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين فى الأسبوع فقبلت ، ولا أدرى ان كنت أروم التسلية حقا أم أهرب من حياتى الضائعة! ووجدت فى السينما راحة وإن كنت بطبعى أوثر الوحدة والعزلة ، ولكنى ضقت على عجل بالزيارات التى أفقد فيها نفسى وأقع فريسة للحياء والارتباك والعى والحصر ، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركا زوجى وحدها تقوم بها .

وكان بوسعى أن أحملها على العدول عنها أسوة بى ، ولكنى لم أرد أن أحرمها سببا من أسباب التسلية وتزجية الفراغ ، ولعلنى بت أخاف فى أعماقى أن تضيق بالوقت كما أضيق به . كنت أود بكل قلبى أن أهيئ لها جميع أسباب الراحة والسرور ، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك فى سبيل مرضاتها ، لقد صارت رباب كل شىء ، ولم أعد شيئا مذكورا .

ولكن بدا لى أن أمى لا ترتاح لحياتنا هذه . وقد قالت لى يوما :

ـ لا يجمل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كل هذا الوقت خارج البيت . .

وضاق صدرى بملاحظاتها فقلت باقتضاب :

ـ أنسيت أن زوجى موظفة؟

فقالت بلهجتها الانتقادية :

ـ وإن كانت . .

وأشفقت من أن يتأدى بنا الجدل إلى ما لا تحمد عقباه فقلت برجاء :

ـ أنسيها يا أماه تستريحى وتريحى!

فغلبها الانفعال وقالت :

ـ لو كنت لسان دفاع لى كما أنت لها لما احتقرتنى وسبتنى . .

ولذت بالصمت لعلها تمسك ، ولكنها استطردت تقول :

ـ أنها تتيه بلا موجب ، فكيف لو كانت أما! !

فقاطعتها صائحا كالوحش وقد هوى كلامها على رأسى كالمطرقة :

ـ اسكتى . . لا تنبسى بكلمة أخرى .

وحدجتنى بارتياع دون أن تنبس ، ثم أطرقت . ولكنى لم أرث لها ولم أرحمها إذ أفقدنى الغضب والألم وعيى .

وحدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش ، وقال لنا الطبيب الذى استدعيناه أنه القلب ، ونصحها باتباع إرشاداته دوما لتتفادى من النوبات فى المستقبل .

وطال رقادها بالرغم من أن الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال ، ولكن بدا لى أنها تعين المرض على نفسها ، وأن روحها توشك أن تنهار . ووقع فى نفسى أنى المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم فى حزن وصمت ، وكأنما أردت أن أكفر عن ذنبى فسهرت بنفسى على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء ، ولم تأل رباب فى القيام بواجبها . لقد آلمتنى حقا ولكن عن حسن نية ، أما أنا فقد آلمتها عامدا تحت تأثير غضب مخيف . ومرت بى أيام قاسية مظلمة ، كنت أرنو إلى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كسير ، وراحتها بين يدى ، ولسانى يلهج بالدعاء . وكانت متعبة خابية ، ولكن قرأت فى عينيها نظرة راضية سعيدة ، كأنما نسيت بعطفى وحبى جميع آلامها .

٤٦

وهل الخريف بجوه اللطيف وسحابه الرقيق ، واستقبلت المدارس عاما جديدا ، وكنت وزوجى نخرج معا فى الصباح ، ونستقل تراما واحدا . وكانت الذكريات تنثال على قلبى فى وجد وحزن ، حتى قلت مرة :

ـ فى هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد أموت شوقا إلى اجتلاء محياك . .

فابتسمت رقيقة وقالت :

ـ وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق . .

الله محبوبتى ! . . ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة .

كانت حبيبتى سعيدة مخلصة فى غير ما تكلف أو رياء . أكانت تجد آلاما ثم تتغلب عليها بما طبعت عليه من مودة وطهر ؟ ومن أدرانى بما كان يعتلج فى أعماق صدرها ؟ وما كان يدور فى خاطرها عنى وعن حياتها ؟ ولكنها كانت سعيدة وصادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذاك التظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيسة أو كارهة ؟ ! بيد أنه لم يداخلنى شك كذلك فى نضج أنوثتها وعمق عواطفها . كانت أبعد ما تكون عن النزق

والطيش، ولكنها كانت عامرة القلب بالحيوية والحرارة والعطف. لعلها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل نفسه الذى أتطلع إليه صابرا متصبرا. على أن الحق الذى لا مرية فيه أننى كنت مشغولا بهمومى على حال لم تدع لى إلا قليلا للانشغال بهموم غيرى. ربما رجع ذلك قبل كل شىء إلى أنانيتى الفطرية، وكان لجهلى كذلك نصيبه. ولعلى كنت أحسب أننى الضحية الأولى - إن لم تكن الوحيدة - فى تلك المأساة.

وفى أوائل ذلك الخريف دعانا جبر بك ونازلى هانم إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء محمد - شقيق زوجى - من مرض ألم به.

وذهبت زوجى على حين تخلفت أمى معتذرة بالنظام الجديد الذى تتبعه فى غذائها منذ أشار عليها الطبيب بذلك. مضيت مرتبكا كالعادة، لأن وليمة غداء أشد على نفسى من المرض، ولأنها - هى وأمثالها من المجتمعات - تعيد إلى ذهنى ذكرى منصة الخطابة بكلية الحقوق. وقد تعمدت أن نذهب مبكرين لنسبق المدعوين جميعا فلا أتعرض لنظرات أعينهم حين دخولى حجرة الاستقبال. ونجحت خطتى فوجدنا البيت قاصرا على أهله. هم أهلى أيضا، وإنى لأحبهم جميعا وإن بت أخاف نازلى هانم خوفا شديدا يثير فى نفسى أشد الألم. وأخذ المدعوون يتوافدون. فجاء أعمام رباب الثلاثة وأخوالها الأربعة مصحوبين بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خالتاها، واحدة مصطحبة زوجها، والأخرى - وهى أرملة - برفقة كبرى بناتها. ومضت نازلى هانم لتستقبل قادما جديدا فسمعتها تقول له: «لماذا تأخرت يا سى أمين» فرد القادم عليها معتذرا بصوت خيل إلى أنى سمعته قبل ذلك، فتطلعت إلى الباب باهتمام.. ودخل المدعو الجديد فعرفته من أول نظرة. رأيت أمامى ذلك الدكتور الذى زرته منذ شهرين وبحت له بسر شقائى كله، ثبتت عيناى عليه فى إرتياع بادئ الأمر، ثم تمالكت نفسى بسرعة وقوة، وإنى على إخفاء ما يعتلج بصدرى لقادر، ولكنى لم أجد حيلة مع قلبى الذى راح يدق بعنف تباعا. تملكنى الهلع وخجل قاتل، وثقل على صدرى ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعماق بئر سحيقة. وإذا بنازلى هانم تقدمنى له، ثم تقدمه لى قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديمه إليك، لأنه عاد من أوروبا حديثا، ولأنه يندر أن يتفضل علينا بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عمتى.

وتصافحنا كالمألوف. التقت عينانا لحظة قصيرة، فلم أقرأ فى عينيه إلا نظرة ترحيب باسمة، لم تش عيناه بأنه تذكرنى، وظل ملازما سمته المترفع المتحصن ضد الانفعالات. ولما انتهى من مصافحة الجالسين، جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان، وتهت أنا فى أفكارى الفزعة الشاردة، ترى هل تذكرنى!.. لعله نسينى شأن الأطباء الذين يلقون وجوها بعدد الدقائق!.. ولكنه طبيب جديد قليل الرواد!.. ومع ذلك فلم يبد فى عينيه أنه عرفنى على الإطلاق.. أم يكون عرفنى وتجاهلنى رأفة بى!..

ليتنى أجد وسيلة للتحقق من هذه النقطة! . . وهبه عرفنى فهل يمكن أن يبوح بسرى لقريبته نازلى هانم . . ما أبعد هذا عن التصور، ولكن ما أبعدنى عن الطمأنينة كذلك! وجدتنى غريقا فى بحر لجى من الوساوس والمخاوف فهل كنت فى حاجة إلى مزيد!

ودعينا إلى الطعام فخرجت من أفكارى وإن علقت بى آثارها، كالخارج من نار. وجلسنا حول المائدة، وعند ذلك التفتت نازلى هانم وقالت مبتسمة :

ـ أنت خجول يا سى كامل ولكن حذار فالولائم لا ترحم الخجولين.

وعلق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتد بى الضيق، على أنهم لم يلبثوا أن شغلوا عنى بما بين أيديهم من لذيذ المآكل. ولم أكد أشعر بالارتباك الذى يركبنى فى أمثال هذه المجتمعات لشرود ذهنى فيما هو أجل وأخطر، فلا يفل الارتباك إلا الارتباك! ثم عدنا إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت الفنجان، وقربته إلى فمى، وعلى حين بغتة طار خيالى إلى الحانة القديمة بشارع الألفى وتراءى لعينى قدح الخمر! . . كيف جاءتنى هذه الذكرى، ما الباعث عليها؟ . . لقد وجدت دهشة صادقة، ولكنى شعرت كذلك بارتياح عجيب، كسرور الحبيب بالحبيب، الخمر . . النشوة . . السرور . . ألا ما أشد حاجتى إلى مهرب. كان خاطرا مفاجئا غريبا ولكنه كان قويا لا يقاوم . . وعدت بانتباهى إلى ما حولى فى حذر وخوف. واتجهت عيناى إلى الطبيب فوجدته منهمكا فى الحديث، يلقى أقواله بثقة وفصاحة وترفع، وكثير من الحاضرين يتوثبون للنقاش فى اهتمام وسرور. وجر الحديث إلى الحياة فى بلاد الإنجليز فقال الدكتور : إن دراسته شغلت جل وقته فلم يتمتع بحياته هناك كسائح إلا فيما ندر، على أنه استطاع رغم ذلك أن يخبر عن كثب متانة الأسس التى ينهض عليها بنيان الحياة السياسية، وما يتمتع به الشعب من مستوى عال للمعيشة، وحرية شاملة تتناول كل شىء، قال له جبر بك :

ـ كأنك واظبت فى إنجلترا على الاهتمام بما كنت تهتم به فى مصر قبل بعثتك.

وقال أحد المدعوين ضاحكا :

ـ أجل يا جبر بك، ذكره بعهد كلية الطب والثورة الوطنية.

وقال آخر :

ـ من كان يظن أنه سينتهى بك المطاف إلى بلاد العدو وأنك ستعود منها حاملا له هذا الإعجاب كله؟

فقال الدكتور مبتسما :

ـ العداوة لا تناقض الإعجاب . .

فعاد جبر بك يسأله :

- ألم تزل كما كنت، وفديا متطرفا؟ . . لقد سجنت يوما بسبب الوفد!

فقال الشاب وقد مط بوزه برما :

- أرى الآن المصريين جميعا يعيشون فى سجن كبير، والحق يا سيدى أن الأخبار الوحيدة التى كانت تسوؤنا ونحن فى إنجلترا هى أخبار مصر . .

وقالت نازلى هانم مبتسمة :

- إنك مغرم بتحميل نفسك الهموم على اختلافها كأنك المسئول عن الدنيا ومن عليها . ركز اهتمامك فى عيادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص، ألا ترى أنك فى الثلاثين وهى سن فاصلة؟!

وهنا قالت إحدى خالتى رباب :

- اطمئنى يا أختى فلعلك أن تسمعى أخبارا سارة قبل استدارة هذا العام .

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء . . وقالت لى رباب همسا - وكانت تجلس إلى جانبى - إن هذه الفتاة التى يتحدثون عنها حسناء مفرطة فى الحسن والوريثة المنتظرة لثروة طائلة، وإنها زاملتها عهدا فى الدراسة . والظاهر أن أحد أخوال رباب كان ممن تجذبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج ينتهى حتى قال مخاطبا الدكتور :

- لا داعى للتشاؤم فكل شىء مصيره إلى الصلاح وإن طال الزمن . وها نحن على أبواب انتخابات جديدة، ولعل الرياح أن تهب هونا ورخاء .

فاشتدت عينا الدكتور وقال بحدة :

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة، ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئا ذا بال فى حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبد الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية . . النهاية المحتومة!

فضحك جبر بك وقال :

- ما زلت ساخطا متبرما . ألا تجد فى مصر ما يستحق إعجابك وتقديرك؟

فأدار الدكتور عينيه البراقتين فى الحاضرين وقال مبتسما :

- بلى . . أم كلثوم . .

وضجوا جميعا بالضحك . وجعلت أصغى إليه باهتمام واستغراب، ولكنى لم أكد أفقه معنى لما يقول . وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها، أليس فى حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتمثل لى فى حديثه رجل علم ورأى وثورة، بادى الغرور والعجرفة . وكم كانت دهشتى كبيرة حين ذكر أم كلثوم كالشىء الوحيد الذى يستحق إعجابه فى البلد، وتساءلت فى حيرة : أيعشق الغناء حقا من كان ذا جد وصرامة وحدة

كهذا الدكتور المجنون؟! ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعيانى أن أجد صلة شبه بينى وبينه! وكان الدكتور أول المنصرفين، فقام الحاضرون جميعا لمصافحته، وصافحته بدورى وأنا أتفحص عينيه بخوف واهتمام فلم أجد فيما وراء نظراتهما المترفعة ما يريبنى. ثم غادرنا نحن البيت فى نحو الخامسة. عدنا مشيا على الأقدام ولم تكف حبيبتى عن التعليق على المأدبة والمدعوين طوال الطريق ولكنى لم أستطع أو ألقى إليها انتباهى، واستسلمت لتيار أفكارى الزاخر المضطرب، كيف ألقى الحظ العاثر فى طريقى بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قادنى القدر إلى الاعتراف له بسرى الذى أخاف عليه آذان الحيطان!

٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثم عدت إدراجى إلى المحطة معتذرا ببعض أعمال خيالية! استقللت الترام إلى العتبة، ثم مضيت إلى شارع الألفى بك. كان قلبى يخفق فى خوف ورهبة كما خفق أول مرة حملتنى قدماى إلى هذا الشارع، وتراءى لعينى خيال الكأس مفترة الثغر عن إغراء عنيف. كنت نسيتها فلم تخطر لى على بال منذ بلغ قلبى مناه حتى رأيتها اليوم فى فنجان قهوة فحرك أعماق الفؤاد أمى + زوجى + الدكتور أمين رضا = الخمر، هذه هى المعادلة التى استقرت فى نفسى. على أننى ترددت حين أصبحت من حانتى القديمة على قيد خطوة، وتساءلت فى حزن وقلق ألا يعد أقدامى هذا خيانة لزوجى؟ ولكنى أنكرت على نفسى هذا المنطق الغريب وشققت طريقى إلى الداخل. وتراءى لى فجأة خيال أبى، وانثالت على ذهنى صور من ذكرياته، فاستعرضتها فى هدوء، وفى غير ما شماتة أو كراهية، ثم جلست إلى المائدة وأنا أغمغم، «رحمه الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعا فحيانى وهو يقول لى:

ـ أين كنت من زمان؟ فأجبته مبتسما وقد سررت لتحيته:

ـ الدنيا..

ثم أريته خاتم الزواج فقال:

ـ مبارك.. مبارك.. وهل أنجبت طفلا؟

وشعرت بامتعاض وألم، وهززت رأسى سلبا، ثم طلبت كأسا من الكونياك وشربت فى اعتدال، حتى شعرت بدبيب النشوة فى القلب والرأس، وارتسمت على فمى ابتسامة

سخرت من جميع آلامى فقلت لنفسى : «أهلا وسهلا ومرحبا»، وحرصت على ألا أجاوز الحد، ثم غادرت الحانة زهاء السابعة، ولم أكد أنتهى إلى شارع عماد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضر! وكان رأسى بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت فى شبه تأنيب : أأنسى فى رغدى الحانة التى آوتنى فى فقرى؟ وأوقفت تاكسى وركبته وانطلق بى إلى حانة الموظفين المفلسين والحوذية. ووجدتها فى حالة غناء وعربدة كما توقعت. وكان الموظف العجوز يغنى «يا ما بكره نعرف» فيردد الجميع «وبعده نشوف»، ولما لمحنى قادما توقف عن الغناء وصاح :

ـ هس يا أولاد الحلال.

وعرفنى الرفاق القدماء فتصافحنا فى حرارة، وما كدت أطمئن إلى مقعدى حتى سألنى العجوز متغنيا :

ـ كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقهت ضاحكا وقلت :

ـ الدنيـا . .

فقال أحد الصحاب :

ـ فلنلعن الدنيا التى ترغم الحبيب على نسيان أحبابه . . فلعنتها معهم عن طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج فى أصبعى فهتف :

ـ دخلت دنيا يا بط . .

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألنى الموظف الفنان :

ـ كيف وجدت هذه الدنيا؟ . .

وأفزعنى تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير، ولكنى لم أجد بدا من أن أقول :

ـ حلوة! . . ألست متزوجا يا سيدى؟

فضحك الرجل حتى بانت أسنانه المثرمة وقال :

ـ المرأة إذا جاوزت الشباب لم تعد امرأة . .

فقال آخر مؤمنا على قوله :

ـ صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمرا وإن هرمت.

وقال غيره :

ـ إن زوجى تدبر لى شجارا نظير كل سهرة فى الحانة، وقد قلت لها : إنى على أهبة الاستعداد لأن أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هى الدنيا!

وبدوا جميعا ساخطين على حياتهم فداخلنى عزاء لم أجده من قبل، وعجبت لهذه

الأسباب الغريبة التى تؤاخى بين السكيرين. ثم لاحظت تغيب «فران» شريب اشتهر بيننا بإدمانه وصمته. فسألت عنه؟ فأجابنى العجوز الفنان:

ـ لم تعد الخمر لتؤثر فيه، فهو يمضى مساء كل يوم إلى البدال ويشرب كحولا صرفا..

وواصلوا ما انقطع من الغناء، ورحت أشرب كالأيام الماضية. ما أعجب قدرتى على الشرب! إنى ضعيف رعديد حيال كل أمر، ولا ثقة لى فى عقلى ولا فى قلبى. أما معدتى فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت الحانة فى العاشرة مودعا بأطيب التحيات، وتنقلت من طريق لطريق لا تسعنى الأرض من فرط النشوة والسلطنة، ثم هفا على طيف حبيبتى فتخيلتها بعين السكران: وقد طال بها انتظارى فاستسلمت للرقاد، فانتشت نشوتى: وخفق فؤادى خفقان الوله، وهتفت بنفسى الأشواق، وبحثت عيناى الزائغتان عن تاكسى ثم مضيت إليه لا ألوى على شىء وطلبت إلى السائق أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار بى يطوى الأرض طيا، وغادرته عند العمارة، وارتقيت السلم فى عجلة، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتى بلا تردد، وأدرت مفتاح الكهرباء فوقع بصرى على حبيبتى وقد استغرقت فى نوم هادئ. وقد تحرك رأسها لدى سطوع النور وغمغمت «من؟» ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ وخلعت ملابسى فى عجلة واضطراب ويداى ترتعشان، وأنفاسى تتردد فى دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، واندسست تحت الغطاء، ضممتها إلى صدرى ووضعت شفتى على شفتها حتى فتحت عينيها، وأمطرتها قبلات بنهم ورغبة وسرور حتى أفاقت وبادلتنى القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضن به المنام، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلما قصيرا لم يستغرق ثانيتين من الدقيقة. وأفقت من سحره فى طمأنينة وسلام. وبى من السعادة نشوة أضعاف ما بى من الخمر، واضطجعت فى حبور، وأغمضت جفنى مستسلما لأمتع الخواطر والأحلام. على أن أحلامى لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الخيال، ولكنها استمدته من الواقع، من صميم حياتى، وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن! لقد تلقيت السعادة بامتنان العابد، وأيقنت أن همومى قد انجلت إلى الأبد، وفى صباح اليوم التالى جعلت أرنو إلى حبيبتى بثقة وسرور، وشعرت حقا بأنى زوج، وبأنى رجل.. ولم تزايلنى أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الألفى بك، ثم عدت إلى حبيبتى طائرا على جناحى نشوتى، وعللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لمثلى أن ينسى ما تجرع من غصص العذاب، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

٤٨

وتقضت أسابيع - لعلها لم تجاوز الشهرين - فى سعادة وطمأنينة . وإنى إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضنى شعور بالألم والأسى ، لا حسرة على سعادة ذهبت ، ولكن أسفا على أكبر خدعة ابتليت بها فى حياتى . لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق . وإذا كنت قد تمتعت بالسعادة زمنا رغدا ، فما ذلك إلا لأنى كنت غرا جاهلا أعمى . وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل عماه ، أما إذا رد إليه البصر ورأى سعادته سرابا فهل يجنى من ذكريات سعادته إلا حسرة مضاعفة وهما مقيما؟! وهذه هى حالى بلا زيادة ولا نقصان ، وما فطنت إليها إلا فى بطء شديد يوافق جهلى وبلادتى .

لاحظت أن «رباب» تمضى النهار كله وشطرا من الليل خارج البيت ، بين مدرستها وبيوت أهلها وأقاربها ، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعى النفور ، ثم شق على الأمر فنكصت على عقبى ، ولم أعد أصحبها إلا فيما ندر من الزيارات . وعادت أمى تعلن عن ملاحظاتها فى مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجى بلا فتور وإن تجاوب لانتقادها فى نفسى صدق عميق ، وكنت فيما مضى أشجع زوجى على هذه الزيارات لتتسلى بها عما أشعر به من نقص حياتنا المشتركة ، أما الآن فلم يعد من موجب فى نظرى للإفراط فيها . ولممت أطراف شجاعتى يوما وقلت لها :

- كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتى ، فهلا أقللت من هذه الزيارات المتواصلة؟

وحدجتنى بنظرة مريبة وسألتنى بحدة لم أعهدها من قبل :

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادى؟

وفهمت أنها تعنى أمى ، وساءنى أن تضمر لها هذا النفور ، فأجبتها متلطفا :

- إن أمى لا تتدخل فيما لا يعنيها . وهذا رجائى أنا دون غيرى ، والحق أنى لا أطيق بيتنا إذا كنت خارجه . .

فقالت وقد استردت هدوءها : هلم نخرج معا . لماذا تضيق بالناس؟ . .

فقلت برقة : هكذا أنا . .

ولا أدرى ماذا غيرها إثر كلمتى تلك فقالت بحدة :

- إن الحياة لا تحتمل على غير هذا الوجه .

آه يا حبيبتى ، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الضيق ، فما الذى حدث؟ . . وليس هذا

كل ما فى الأمر، فإن قلبى أحيانا يرى ما لا تراه عيناى. ينبغى أن أشق ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مرارتها وجها لوجه. يخيل إلى أن «رباب» لم تسعد بشفائى كما سعدت به! أعجب بها من حقيقة تحيرنى، ولكن إلام أكذب نفسى! إنها تبدو كأنها تخاف الليل وتتحاماه، ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتى يعتورها قلق تفضحه عيناها الصافيتان، ثم تفتأ - فى هذه الأيام الأخيرة خاصة - تعتذر بشتى الأعذار، فمن تعب إلى توعك إلى رغبة ملحة فى النوم. وإذا أذعنت لى فإنما تذعن فى تسليم لا سرور فيه، ثم تنتتر جسمها من جسمى فى شبه استياء وغضب! وأقر إلى هذا كله بأنها لم تعد فتاتى الضاحكة المستبشرة الصافية. شاب ضحكها التكلف، ودب فى سعادتها الفتور، وانقلب ودها توددا. حاشاى أن أقول إنها أعلنت سخطا أو أساءت أدبا، حبيبتى فوق هذا كله، ولكننى أحس قلقها بقلبى، وأدرك حيرتها بغريزتى. رباه إن الدنيا جميعا لا تساوى خردلة إذا تألمت حبيبتى؟ فماذا بها؟ . . إنى أفتقد حبيبتى فلا أجدها، ولا بد أن أجدها، أو أموت كمدا. .

وبلغ شقائى غايته إذ ترك نفورها فى نفسى أثرا عميقا، تغلغل فى حناياها، فحرك الداء القديم، وولى الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الخمر. وتناهى بى الحزن حتى أشفيت على الجنون. أيعاودنى العجز؟ وهل أرد إلى ذلك اليأس المميت؟ وقلت لها مرة فى قنوط:

- رباب . . ماذا بك؟ . . لست الحبيبة التى عهدتها.

فلاذت بالصمت، وغضت بصرها حيرة وارتباكا، فقلت بتضرع متسائلا:

- إن قلبى لا يكذبنى فخبرينى ماذا غيرك؟

فهمست قائلة وقد لاحت فى عينيها نظرة ساهمة.

- لا شىء . .

فهتفت من الأعماق:

- بل شىء وأشياء، إنى زوجك يا رباب وحياتى كلها لك، فلا تخفى عنى شيئا، آه يا رباب إنى أبكى أيامنا الماضية.

فتنهدت ولاح فى وجهها الارتباك والألم، ثم غمغمت فى حذر وإشفاق:

- وإنى أبكى أيامنا أيضا . .

فتولانى الذهول والانزعاج وسألتها فى حيرة شديدة:

- كيف يا رباب؟ . . إنى لا أفهم شيئا. أما كان ينبغى لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

نم وجهها على أنها تعانى من ضروب الحيرة مثلما أعانى، فازددت ذهولا وانزعاجا وانتظرت أن تميط اللثام عما يحيرها فتجلو لى ما يحيرنى بالتالى. وانتظرت فى قلق وإن بات قلبى يحدس أمورا يفرق لها رعبا ويأسا وخزيا. ولما طال بى الانتظار قلت:

ـ لماذا لا تكاشفينى بذات نفسك!

إنها ترغب فى البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنها لا تجد سبيلا إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه، وإنى أزداد خوفا وقنوطا حتى تناهى بى الجزع فقلت:

ـ رباب.. إنك لا ترتاحين لما جد فى حياتنا!

فحدجتنى بنظرة غريبة، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها فى حيرة وارتباك. برح الخفاء. بيد أن صمتها أخذ يضايقنى فتساءلت فيما يشبه الضجر:

ـ أليس الأمر كذلك؟

ورنت إلى بنظرة توسل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لنعد كما كنا؟.. كانت حياة طيبة؟

وكأن لطمة هوت على وجهى فغضضت عينى حياء وقنوطا. ومع أن رغبتها هذه حقيقة بأن تهيئ لى عذرا أدارى به ما عاودنى من عجز إلا أننى تلقيتها بخزى مميت. ولعلها قرأت ما لاح فى وجهى من أمارات الألم فقالت برقة:

ـ لست أعنى شيئا يمكن أن يكدرك، ولكنى أهفو لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كأننى أكمل حديثها:

ـ ولم يكن بها ما ينغص صفوك؟

فطرفت عيناها، وتجلت فيهما نظرة عطف وقالت برقة:

ـ كنا سعداء أليس كذلك؟.. ولم يكن ينقصنا شىء على الإطلاق.

لا أدرى لماذا آلمتنى رقتها. ثم تذكرت بعض ما سمعت فى إدارة المخازن فقلت:

ـ ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا.

فتورد وجهها وقالت بسرعة ويقين:

ـ كلا.. كلا.. أنت مخطئ فى هذا.

ورنوت إليها فى حيرة! ترى أحقا تصدقنى القول؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب؟! لم أكن إلا غرا جاهلا، ولن تجد كالغر الجاهل صيدا سهلا للهجة التأكيد، فأثر فى قولها تأثيرا عميقا.

هل أكذب حبيبتى وأصدق سخفاء الموظفين؟! ألم يعبر قولها هذا عن رأى قديم اعتنقته قبل أن يحولنى عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن؟.. وفضلا عن هذا وذاك فليس بوسعى وصالها بعد أن باحت، وبعد أن عاودنى من العجز ما عاودنى، لذلك كله تظاهرت بالارتياح، واصطنعت ابتسامة. ثم قلت بتسليم:

ـ ليس لى وراء سعادتك مطلب يا رباب!

وسرى عنها، ولاح فى عينيها نظرة ارتياح، وتدانت منى حتى التصقت بى وقبلتنى!

عدنا كما كنا. عدت زوجا عذريا ذا عادة ذميمة، ورحت أقول لنفسى: إنه لا ذنب لى فيما انتهينا إليه. إنى رجل كامل ولولا طبعها هى ما انتابتنى هذه النكسة! بل إنى أتحمل هذه الحياة الغريبة إكراما لها! يا له من عزاء كنت فى مسيس الحاجة إليه! ولكن هل حقا صدقت نفسى؟! ومهما يكن من أمر فإن ذكرى عهد السعادة لم تغب عن ذهنى لحظة واحدة، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التى لم أتوقعها؟ وكيف آذى حبيبتى حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة؟ أليس معنى هذا أنى شقى ولا حيلة لى فى شقائى؟ آه.. لشد ما نازعتنى النفس إلى الحرية والفرار! وعاودتنى ذكريات تشردى فى الطرق بحنان ولهفة.

هل عاد كل شىء إلى أصله؟!

وما زال الحب يجمعنا فى عناق وعطف، وعادت حبيبتى إلى مرحها وحبورها وهى تقضى يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبى أن أراها سعيدة مسرورة. ولعل طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو فى سهومها الحين بعد الحين كما يبدو فى سرعة غضبها لأقل همسة تصدر من أمى.

هل كنت سعيدا؟

كانت حبيبتى سعيدة فيما يبدو لى، فكان طبيعيا أن أعد نفسى سعيدا. حقا لم تنقطع بى الوساوس ولكنى متى عرفت الحياة بلا وساوس؟.. واطرد تيار الحياة تتقاذفنى أمواجه، يسعدنى سرور حبيبتى، ويشقينى حزم أمى، أقضى وقتا ثقيلا فى الوزارة، وأنفق ساعات حالمة فى الحانة على فترات متباعدة. وحتى ضميرى الذى عانيت طويلا من شعوره بالخطيئة لم آل أن أغضى على أناته وتأوهاته بضحكات السرور والعربدة، وكنت كلما ألح على وخزه أقول لنفسى بصوت مرتفع أنى سعيد، وكل شىء حسن!

ومضى الشتاء فالربيع ثم الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسى الجديد بما تبتدرنا من عزيز الذكريات.

٤٩

وعرض لى أمر بدا تافها ولكنه كاد يقلب حياتى رأسا على عقب، ومن عجب أنه تكشف لى عقب مصادفة، فحق لى أن أتساءل: أكانت حياتى تستهدف وجهة أخرى لو

لم تعرض لى تلك المصادفة؟ ولكن ما هى المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحيانا سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقى برباب فى طريقى غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لى الزواج منها لو تأخر موت أبى شهرا واحدا؟ بل ماذا كان يحدث لى لو أصر أبى على استردادى كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا المنوال أتساءل: ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتى على وتيرة واحدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بينى وبين أمى دقائق معدودات ذلك اليوم الذى لا ينسى؟!

كنا فى أواخر الخريف، وكان الوقت عصرا، وقد ودعت رباب وغادرت الحجرة لقضاء سهرتى المسائية. والتقيت بأمى فى الصالة وكانت متوعكة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدث فطال بنا الحديث، ثم نهضت مستأذنا وغادرت الحجرة. ولاحت منى التفاتة إلى حجرتنا ـ وكان بابها مفتوحا كما تركته ـ فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطابا. وأدركت لتوى أن ساعى البريد جاء به حين كنت منفردا بأمى وإلا لعلمت به وقت وصوله، وظننته مرسلا إلى من أخى لأن رباب لم تكن تتلقى خطابات، فعدت إلى حجرتى مستطلعا، وشارفت بابها ورباب مغرقة فى القراءة فلم تنتبه لى حتى قلت لها:

ـ أهذا الخطاب لى؟

ورفعت رأسها نحوى فى دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة، وسألتنى فى اضطراب ظاهر:

ـ هل نسيت شيئا؟

فقلت وقد تولانى قلق لا أدريه:

ـ كنت فى حجرة أمى، ورأيتك عند مغادرتى لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لى.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكن عينيها وشتا بما تركه حضورى المفاجئ فى نفسها من وقع عميق لم تتوقعه، وقالت وقد ندت عنها ضحكة مقتضبة جافة لم تجد فى مداراة اضطرابها:

ـ ليس خطابا كما تظن إن هى إلا وريقة سجلت بها بعض ملاحظات تتعلق بعملى المدرسى.

وداخلنى خوف تمشى فى مفاصلى. لعلها لم تجاوز الصدق ولكن عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسى فشعرت بذاك الخوف الغريب، كأنه نذير شر مجهول يتجمع فى أفقى المكفهر. ما الذى يدعوها إلى الكذب؟ ولكنى رأيت فى يدها خطابا بلا ريب! وقد خفت أن أتمادى فى إظهار الشك أن يكون الحق معها فأقع فى حرج ما أغنانى عنه. على إننى لم أتمالك أن قلت:

ـ ولكنى رأيت خطابا بيدك .

ووقع قولى من أذنى موقعا سيئا ، فخيل إلى أننى لم أحسن اختياره ، وأنه يفصح عن شك واضح ، ورمقتها فى إشفاق . وانتظرت أن تبسط لى الوريقة فى حركة عصبية وأن ترمينى بطرف ساخر مؤنب ، ولكنها كانت تعانى أحاسيس أخرى . وكأنما قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهى تولينى ظهرها :

ـ قلت لك إنها وريقة خاصة بملاحظات مدرسية .

ثم رأيتها تمزقها بحركة مباغتة ، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغتة أبعد من أن أتوقعها فتسمرت فى مكانى كأنما حل بى شلل . واستقبلتنى بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكنى حنق وغضب ويأس ، وشعرت بأن جدارا هائلا قد انقض على حياتى فدفنها تحت ركامه ، إن عينى تتفتحان ـ بعد أوهام العمى ـ على حقائق بشعة . وهل غير الحقائق البشعة ما يستثير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكر؟ وصحت بلا وعى :

ـ كاذبة . . لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذبا وخداعا . ولكنه خطاب كما رأيت ، وقد مزقته لتوارى عنى سوأة .

وغاض الدم فى وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى ، ولكن بدا أنها لا تريد أن تسلم بغير دفاع المستيئس فغمغمت :

ـ أنت مخطئ . . وظالم . . لم يكن خطابا!

فهتفت بها مغيظا محنقا والألم واليأس يطرقان رأسى بعنف :

ـ لماذا مزقته؟ . . لماذا تولاك الذعر؟ . . تكلمى . . لابد أن أعرف الحقيقة . . سأنزل إلى الطريق وألتقط القصاصات .

واتجهت نحو النافذة فى عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التى تفصل مؤخرة العمارة عن حديقة الكنيسة ، فداخلنى يأس وأيقنت أن الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة . واسودت الدنيا فى عينى ، وخيل إلى أنها تتمخض عن عالم من الشياطين الراقصة فى تيار من لهيب . كيف أنتزع الحقيقة من بين شفتيها؟ ودرت على عقبى فوجدتها بموقفها ، يحاكى وجهها وجوه الموتى ، وتلوح فى عينيها نظرة ذعر وارتباك ، فاشتدت قسوة قلبى ، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة ، وقلت بإصرار وحنق :

ـ إنه خطاب ، ولن أرجع حتى تعترفى لى بكل شىء .

تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمزقه الشكوى :

ـ بالله لا تسىء بى الظن . لا شىء ألبتة يستوجب غضبك أو ارتيابك ، أواه لا تنظر إلى هكذا .

ولكنى لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسى تتلهف على الحقيقة، فإما النجاة وإما الهلاك. رباه إنى لفى كابوس طاغ. وهل كان يقع فى ظنى أن أقف منها هذا الموقف إلا فى كابوس؟! واستدركت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلى هكذا! لقد أخطأت حقا ولكنك أنت المسئول عن خطئى! لقد فأجأتنى فركبنى الاضطراب، فتورطت فى كذب لا داعى له.

رباه ما أحوجنى إلى النجاة، ما أشد تلهفى على قطرة غيث تبل جوانحى.. وقلت فى حيرة:

- كان خطابا.

فبادرتنى قائلة:

- أجل! وكان يبدو لى أمره تافها حتى وقع فى نفسك الارتياب. وتجهم وجهك فتخيلت الأمر التافه جللا خطيرا فالتمست مخرجا فى الكذب، وكان ما كان.

فسألتها وما أزداد إلا حيرة:

- إذا كان خطابا، فمن أرسله؟

فقالت وبها مثلما بى من الحيرة:

- لا أدرى..

فنفخت قائلا:

- ما هذه المعميات؟!

تولى عنها الذعر رويدا، وتشجعت بانفثاء غضبى فقالت بصوت ملؤه الأمل:

- دعنى أقص عليه قصة هذا الخطاب المشئوم بالحرف الواحد: لقد تلقيته صباح اليوم بالمدرسة، ففضضته بدهشة لأنى لم أعتد تلقى الخطابات، ووجدته غفلا من الإمضاء، ولم يكن به سوى سخف وقح، خطه قلم شخص سمج! وملكنى الحنق بادئ الأمر. ثم لم أعد أباله. وصممت على الاحتفاظ به لأطلعك عليه وفى ظنى أنى أعد لك مفاجأة تضحك منها طويلا. ولكنى غيرت رأيى عقب عودتك وخفت أن يثير بنفسك ما لا داعى له من الاستياء. وأخفيت عنك أمره حتى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من حقيبتى وأعدت تلاوته وفى نيتى أن أمزقه ولكنك فاجأتنى وقت تلاوته، ولم يغب عنى حرج مركزى، ولم يعد بوسعى الاعتراف بالحقيقة، فتورطت كما قلت لك فى الكذب، وجنيت من كذبى ما جنيت مما لا أستحق.

أصغيت إليها وكلى آذان. ولما انتهت من قصتها لبثت بموقفى جامدا متحيرا. خفت وطأة الجنون الذى ركبنى ولكنى وقفت بباب التصديق والطمأنينة مترددا. وجدت نفسى

فى حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها عنى ، وأن يهبنى بصيرة نيرة أنفذ بها إلى أعماق هذا الصدر الجميل الذى كأنما خلق لتعذيبى . وأرهقنى التفكير والتردد فقلت وكأننى أسائل نفسى :

ـ من مرسله؟ !

وكأن السؤال آلمها ، فغضت بصرها مقطبة وقالت :

ـ قلت كان غفلا من الإمضاء .

فانفلت لسانى يقول :

ـ هذا غير معقول .

فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح فى وجهها الألم والتعاسة :

ـ أتكذبنى يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة؟ إنى لا أحتمل هذا .

فاستطردت قائلا وقد نال منى تألمها :

ـ أعنى ماذا يفيده الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدل عليه؟ ألم يرسل لك خطابا قبله؟

ـ . . هذا أول خطاب أتلقاه .

ـ وماذا كان به؟

فغضت بصرها وهى تقول بضيق :

ـ كلام سخيف عن الإعجاب والجمال .

ووثب إلى خيالى منظر يديها وهما تمزقان الخطاب فلسعنى الشك وانتفض جسمى فى هلع فصحت بها وكأننى فقدت وعيى :

ـ لماذا مزقته . . لماذا مزقته؟

فنفخت فيما يشبه اليأس ، ولزمت الصمت مليا ، ثم قالت بهدوء واستسلام .

ـ لقد تسلمت هذا الخطاب المشئوم فى المدرسة ، ولا أظنك تشك فى هذا لأنه من الجنون أن يرسله إلى البيت . والآن اطرح على نفسك هذا السؤال : ما الذى يدعونى إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمزقه فى المدرسة بعد قراءته!

وعقد الصمت لسانى حيال وجاهة الحجة ولعلى أسفت على ما بدر منى من صياح كاسر . أما «رباب» فعادت تقول :

ـ لو كنت مذنبة لما وجدتنى بهذا الموقف السيئ ، ولما علمت بشىء وهيهات أن أغفر لك سوء ظنك بى .

فآلمنى قولها ، وداخلنى شعور أليم بالخجل فخفضت بصرى أن ترى به آى

الهـزيمة . على أن ألمى لم ينسنى مـا أحـب أن أجلوه من غـامض الأمـور فـقلت بصـوت منخفض :

ـ إن قـولـك مـصـدق . . ولكن لعـل صـاحـب الخطاب لم يوقع بإمـضـائه لظنه أنه من السهل الاستدلال عليه ، كأن يكون ممن يعترضون سبيلك مثلا .

ولم يخفف لين نبراتى من ألمها ، بل لعله جعلها تتمادى فيه ، وقالت بامتعاض :

ـ من عادتى أن أسير فلا ألوى على شىء ولا ألقى بالا لإنسان .

لم أكن فى حـاجة إلى قولهـا وقد خبرته بنفسى ، ولكن لاح لعـينى شبـحـا الرجلين اللذين قاسمانى الإعجاب بها فيما مضى . فقلت متسائلا :

ـ ألا يحتمل أن يكون جارك الذى شرع فى طلب يدك . . أعنى محمد جودت؟

فقالت بلا تردد :

ـ هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة ، وفضلا عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ قرابة شهر فى بيت أبى .

فتفكرت قليلا ثم قلت متحيرا .

ـ كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينيه فى ذلك العهد الذى كنت أحوم فيه حولك ، أفلا يجوز أن يكون هو؟ فزوت ما بين حـاجبيـها مستذكرة ، ثم قـالت وهى تهز رأسها :

ـ لا أعلم عنه شيئا . .

وحاولت أن أذكرها به ولكنها بدت وكأنها لم تحس له وجودا ، فقلت بيأس وغيظ :

ـ أريد أن أعرفه كى أؤدبه .

فقالت بصوت دلت نبراته على التعب :

ـ ليكن من يكون! لو لم يدفعنى الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن ضاحكين ، فهلا نسيته وحسبنا ما نالنا من كدر!

فعضضت على شفتى ، وجنحت إلى الصمت مغيظا مقهورا ، فاستطردت قائلة :

ـ إنه أمر تافه ، بل أتفه من أن يستحق كل هذا الاهتمام .

فتنهدت قائلا وأنا لا أدرى :

ـ ليتك لم تمزقيه!

والتمعت فى عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة :

ـ ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بعجلة :

ـ كلا . . ولكنى لن أهدأ حتى أؤدبه!

فقالت بضجر :

ـ ولكنا لا نعرفه فما العمل؟

وأحنقنى قولها، ولكنى تحاميت الإفصاح عن حنقى أن أستثير غضبها . وكأن الوقوف أرهقها فمضت إلى كرسى التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذاك بألم فى ظهرى، فدلفت فى الفراش واقتعدت حافته . إنها صادقة بريئة، والأمر جد تافه، فليتنى أستطيع أن أمحو من مخيلتى صورة يديها وهما تمزقان الخطاب! لعل المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها فى ذهابها وإيابها! فليتنى لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة . أنى أعرف نفسى جيدا، وإنى لأغار من الوهم ومن لا شىء! فأين منى جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل!

وطار الخيال بغتة إلى حجرة أمى فسرت فى جسدى قشعريرة وخلتها تقول لى «ألم أقل لك؟» . فنفخت كمن يزيح عن صدره كابوسا، ولاحت منى التفاتة نحو «رباب» فوجدتها تحملق فى وجهى بدهشة، فخطر لى خاطر جديد لم أتوان عن الإفصاح عنه فقلت برقة :

ـ رباب، لماذا تواصلين خدمتك فى الحكومة! لماذا تتجشمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج؟

فتفرست فى وجهى بإمعان وأناة، ثم قالت بهدوء :

ـ ألا تثق بى؟

فابتدرتها قائلا : معاذ الله ولكنى . .

وقاطعتنى قائلة :

ـ إذا كنت لا تثق بى فالأولى لى أن أغادر بيتك!

ـ ربـــاب!

فلم تبال جزعى وقالت :

ـ إذا كنت ما تزال تثق بى فسأبقى فى وظيفتى .

فقلت بتسليم :

ـ لك ما تشائين!

فقالت باللهجة نفسها :

ـ لا أحب أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع .

وقد كان . غادرت البيت، وأخذت أضرب فى الأرض على غير هدى حتى تناهى بى

الإعياء فرجعت إلى البيت، وتلاقينا وكأن لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء معا، ثم آوينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا فى نظرات ذات معنى.

ولم نتمالك أن انفجرنا ضاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبلتها قبلة النوم. ولا أدرى لماذا نازعتنى نفسى إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنه لم تكن بى ذرة من ثقة، ومع ذلك كدت أهم.. لولا أن ردنى الخوف إلى وعيى! ثم خطر لى أن أسألها عما يجعلها تقضى على نفسها بالحرمان؟ وانفجرت شفتاى ولفظ صدرى القول، ولكنه جمد على طرف لسانى! إنه الخوف أيضا.

٥٠

وعندما فتحت عينى فى الصباح الباكر عاودتنى ذكريات الأمس. فتأملتها فى دهشة، وقد خيل إلى أنه لم يكن هنالك ما يستحق كل ذلك العناء والألم. وقلت لنفسى: لو أنها مزقت الخطاب فى الروضة لما علمت به أبدا، وفى هذا آية صدقها، ثم تمثلت لعينى وهى تمزق الخطاب وترمى به من النافذة، فكأنما هى تمزق قلبى وتنثر شظاياه فى الهواء، وسرت فى جسدى رعدة عنيفة. هززت رأسى غاضبا كأنى أنفض الأوهام وغادرت الفراش. ولما فرغنا من فطورنا وجلسنا على المقعد الطويل نحتسى الشاى! استرقت إليها نظرة فرأيت وجهها المحبوب هادئا باسما ينم عن جمال وسلام، فعضنى الندم على ما فرط منى فى حقها وقلت لنفسى: «حقا إن الشيطان غوى رجيم». وفى اللحظة التالية لاح لى خاطر كالبرق، أليس من الجائز أن تكون قد تسلمت الخطاب فى البيت وأنه لم يكن بوسعها أن تمزقه فى مكان آخر؟ ولكنى سرعان ما نبذته، إذ أنه غير معقول كما قالت بحق - أن تبلغ الحماقة من شخص أن يرسل خطابا غراميا إلى بيت الزوج! ألا سحقا للأوهام، إن حبيبتى أهل لكل ثقة، والثقة هى كل شىء، ولولاها ما حال دون الشر حائل.

وخرجنا معا. وركبنا الترام. لعل كثيرين يرمقوننا بعين الحسد، فهل يتصورون كيف نحيا معا؟! ألا ما أعجب العوالم التى تنطوى عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر رباب، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجية بهذا الإصرار الغريب؟ لشد ما يشوقنى أن أغوص فى أعماقها. عند ذاك شعرت بحاجتى إلى مرشد أقص عليه وأصغى إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبيعيا أن أذكر مرشدى الوحيد فى الحياة، أمى، ولكن سرعان ما تملكنى إحساس قوى بالخجل والغيظ، حتى لكأن نشر همومى على الملأ أهون على من أن أسارّ أمى بها.

هل أستطيع أن أجلو السر بنفسى؟ أيكون الله قد خلقها طاهرا لا تطيب له الحياة إلا بالعفة؟! هذا فرض محتمل يؤيده الواقع. ولست آسى عليه، فلولاه لكنت فى مأزق حرج. والحق أن اتصالى بها ـ حتى فى أسعد أوقاته ـ لم يخل من قلق وخوف غامضين. وقد عودنى العجز فى إبان جنوحها إلى النفور، ولكنى كنت آبى إلا أن أصور نفسى فى صورة الضحية لشذوذ حبيبتى، والفداء لسعادتها.. ولما بلغت هذا الحد من التفكير ـ وكنت أشارف الوزارة، اضطرب ذهنى وشعرت بقلق طاغ لم أدركه. بدا لى الأمر وكأنه يستدعى الطمأنينة التامة، ومع ذلك لفتنى حيرة معذبة فدخلت الوزارة ذاهلا.. من عسى أن يكون الوغد الذى كتب الخطاب؟ معقول جدا ألا يكون الرجل الوقور محمد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغطرسة؟ وليس هذا ببعيد. إنه فى متناول يدى، وإنى لأعرف موقفه الذى ينتظر به كل صباح.. ترى هل حقا جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أننى تمنيت بقلبى ألا يكونه، إذ لم يخف عنى لحظة أنه قادر على أن يبطش بى بضربة واحدة؟ وقلت لنفسى ساخطا: لو أنها أبقت على الخطاب لأمكننى كل شىء. أى شىء أعنى؟ لا أدرى على وجه التحقيق، لكنى وجدت عليها مرة أخرى بعد أن عد الأمر منتهيا. والله ما مزقته إلا خوفا من اطلاعى عليه. رباه هل أتردى ثانية فى الجحيم؟ حذار أن تتمادى! إن من يسمح لنفسه بالشك فى رباب لا يستحق أن يكون إنسانا. ألا يحسن بى أن أسألها فى التليفون عما إذا كانت تلقت خطابا جديدا؟ نازعتنى إلى ذلك رغبة جامحة ولكن حال دون تنفيذها الخوف.. ودعانى صوت من الأعماق إلى الهرب! ولكن ممن أهرب؟ وإلى أين؟ إما أن أكون مجنونا أو سخيفا. إننا زوجان سعيدان فى الواقع، ولكن عقلى شقى، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيام. آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالى. وإليك خاطرا جديدا، إذا كانت قرأت الخطاب فى المدرسة فلماذا أعادت قراءته فى حجرتنا؟.. ألذها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد؟ أوشك جبينى أن يتفجر من حمى الفكر.

ولما غادرت الوزارة أسعفنى هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفست تنفسا عميقا، وأحسست انتعاشا ردنى إلى السكينة. وجعلت أردد: ما أحمقنى! وفى البيت لاقتنى رباب بابتسامة وضاءة فانبسطت أساريرى، وسألتها ضاحكا:

ـ هل من جديد؟

ـ أتعنى خطابا جديدا؟

فقلت وما أزال ضاحكا:

ـ نعم:

فقالت مبتسمة:

ـ كلا انقطع البريد . .

وغادرت البيت عصرا وليس لى غاية، وما كدت أستقر بمكانى فى الترام حتى نشأت فى صدرى رغبة جميلة، هى أن أزور "السيدة" طالما كانت ملجئى وملاذى، ولم أتردد عن تنفيذ هذه الرغبة التى ملكت نفسى. وعندما عبرت عتبة المسجد سرت إلى صدرى نسمة ارتياح سعيدة، وطافت برأسى ذكريات محببة إلى قلبى. رأيتنى بعين الخيال أسير ممسكا بيدى أمى إلى الضريح الطاهر. وذكرت يوم جاءت بى لأتوب عن الذنب الذى أكاد آلفه وأعتاده. يا لها من ذكرى أعقبت ندما وخجلا حتى شعرت برغبة فى التوارى والفرار، ولكننى واصلت السير، فطفت بالضريح قارئا الفاتحة، وتشجعت إذلالا بمنزلتى منذ الصغر عند صاحبته الطاهرة، فوضعت راحتى على الباب وغمغمت فى ضراعة: «يا أم هاشم، أنت أعلم بقلبى وطيبته، وبأنى لم أضمر فى حياتى أذى لإنسان فاجعلى جزائى من جنس عملى. هذا دعائى يا ست». وانتبذت ركنا وتربعت على الأرض. سطعت أنفى رائحة ذكية لعلها كانت رذاذا يرشه أحد المجذوبين، وتجاوبت فى الأركان أصوات الدعاء يرددها الطائفون، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكرت كيف انقطعت عن فرائض الدين حتى لم أعد أواظب إلا على الصوم فى حينه، ألست حقيقا إذا عدت إلى هدى الصلاة أن يطمئن قلبى ويخف عن ظهرى وقر القلق والمخاوف. وكان قلبى على أمله يتفيأ ظل النبوة الظليل، ويعب من نمير صاف مثلوج، ويغمره سكون عميق يدعونى إلى الاستزاده من صفاء الساعة الهنيء. وفى نشوة من نشوات السلام تراءت لى آلامى كخيط رقيق من نسيج القضاء المهيمن على كل شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم. ودوّم بنفسى صفاء روحى سما بى إلى ذروة من البهجة فوق المنى فكأن القلب يعلو غصنا من أغصان الجنة تهدل عليه حمامة السلام. ولبثت فى نشوتى زمنا لا أدرى كم لبثت حتى اندس إلى خيالى على حين غرة صورة رباب وهى تمزق الخطاب وقد تملكها الهلع فأفقت بقسوة وعنف كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف، وتنهدت من قلب مكلوم ثم نهضت قائما، وتلوت الفاتحة مرة أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصرى لدى خروجى من الباب على رمّال ممن يستطلعون الغيب، إنى أومن بهؤلاء الناس إيمان أمى بهم. وقد انتظرت حتى انفض من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسألته أن يقرأ لى الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه فى نقرات الرمل وينقل فيما بينهما قواقعه. كان نحيلا كالمومياء. شاحب اللون، متلفعا بكساء أبيض، فقال من فم لم تبق فيه إلا ثنيتاه العليبان:

ـ كثير الهم والفكر.

فقلت لنفسى: لقد صدق، وأرهفت السمع بانتباه، فاستطرد قائلا:

ـ ولك عدو ماكر .

فخفق قلبى ! أليس هو صاحب الخطاب؟ ! وواصل الرجل حديثه قائلا :

ـ أنه يمكر مكره وسيرد الله كيده إلى نحره . .

ألا يعنى هذا أن «رباب» بريئة؟

ـ وستجيئك ورقة تسر بها طويلا . .

ـ أتعنى خطابا؟

ـ ربما ، إنى أرى أمامى ورقة . .

ما معنى هذا؟ ! كان الأمر يزداد غموضا ، وسألته :

ـ هل تأتى من قبل العدو؟

ـ كلا . . كلا ! . . ناحية أخرى فتنجلى بها همومك .

ـ أية ناحية؟

ـ يأتيك الخير من حيث لا تدرى .

فتولتنى الحيرة وتمنيت لو يزيد بيانا ، ولكنه عاد يقول :

ـ إذا جدت صعاب فسيذللها هذا الحجاب بإذن الله .

وأعطانى لفافة صغيرة جدا من الورق مربوطة بخيط رقيق ثم قال :

ـ ضعه على القلب ، وتوكل على الله . .

* * *

ذكرت فى طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر الأمس فأيقنت أن سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد ، لم أهتد إلى مرسى وما أزداد إلا حيرة وتبلبلا . إن ما يظلنى أحيانا من طمأنينة ما هو إلا سحابة صيف ، ولن يهدأ لى جانب حتى ألقى الحقيقة وجها لوجه ، ما كنت أحب أن تلوث نفسى بالشك فى الوجه الصبيح الطاهر ، ولكنى بذرة الشك قد ألقيت فى أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكها الجهنمى . لقد شددت بقوة اليأس على أهداب الطمأنينة فتهتكت وتخرقت ، وما أطيق أن أحتمل الحياة مترددا بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل ، فما من محيد عن أن أرى وراء الحجب ، قد يكون فى ذلك هلاكى ولكن الحياة تقضى علينا فى أحايين كثيرة بأن نجرى وراء هلاكنا كأنه ألذ المنى . وإنى أحبك يا حبيبتى ولعل القدر رمانى بهذا الحب ليقضى به على ، ولكن هل أملك رد قضائه؟ لعلى أدرك الآن لماذا لم يكن يزايلنى القلق حتى فى أصفى ساعات سعادتى ، أكان قلبى يشهد لمحات من المقدور وراء ستار الغيب؟ . . على أننى لا أحب أن

أتمادى فى التشاؤم، فقد يكون المخبوء على غير ما توقع قلبى، وقد أجد به ما أتلهف عليه من طمأنينة وسلام.

فما العمل إذن؟ الصواب أن التمس إجازة من الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة فى خفاء لا يدرى به أحد. أيهون على أن أتجسس على «رباب»؟! ألا ما أشق هذا على نفسى، ولكن كل شيء يهون إلا عذاب الشك..

٥١

توثبت للعمل وبى من الألم ما لا يعلمه إلا الله، فخرجنا معا كعادتنا كل صباح وركبنا الترام معا، ثم نزلت فى محطة الوزارة وناديت «تاكسى» وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهيئ لنفسى موضعا يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كمال - المتفرع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت فى المحطة أتفحص ما حولى فرأيت شارعا فرعيا يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة، بدا لى أن أجلس فى هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجى حين دخولها وحين خروجها. واتجهت إليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبى - واخترت مجلسا على عتبة المدخل يمكننى أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتوارى إذا دعا الحال بزحزحة الكرسى قليلا إلى الوراء. وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهته رثة وروادها من النوبيين، ولكن لم أبال هذا، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة. جلست وعيناى لا تتحولان عن شارع كمال، وكلما جاء ترام من المدينة اشتد انتباهى ويقظتى. ولم يطل بى الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجى وهى تعبر الطريق متلفتة يمنة ويسرة لتتفادى من المركبات حتى بلغت «الطور» الأيمن لشارع كمال، ثم سارت بمعطفها الرصاصى المنمنم، بطولها الفارع الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذبة، فى احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثم انعطفت إلى مدخل المدرسة قد وقف لها البواب احتراما، غلبنى الخجل والألم لموقفى ذاك، وترطب قلبى المخترق بالعطف والحب وأنا أذكر كيف بهرنى هذا الجمال الوقور أول مرة، اللهم إذا كانت حبيبتى ملاكا فلتحرقنى بنقمتك وإذا كانت شيطانا فلتحرقنا جميعا، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحق الرحمة، وارتفعت عيناى إلى السماء وغمغمت: «ربى! إذا شاءت حكمتك أن تذر سموم الغدر فى حنايا هذا الجمال فلتغفر لى الجنون والثورة!».

وتفحصت الطريق أمامى متسائلا فى رهبة : ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظرا بموضع من هذا الطريق؟ هل أراهما وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسى!! وانتفض جسمى غضبا ورعبا! وتخيلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، تخيلتها حتى تجسمت لناظرى، ثم تساءلت مرة أخرى عما عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش فى أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعفنى الخيال بنفحة منها، ولعله تحرج لأن الخطر الذى تهددنى لم يكن بعيدا بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريبا محتملا، فشكم الأحلام، وتمثل لى الموقف البشع فى حدود الواقع، فتصورته بقلب هياب ونفس مخلخلة القوائم، تمثل لى العدو شخصا حقيقيا فى طريق مزحوم بالمارة فما أسعفنى الخيال على التصدى له جهارا ونشر فضيحتى على الملأ، أو خوض معركة لا أشك أنى سأكون فيها من الخاسرين! تصور زوجا مخدوعا صريعا بلكمة من خادعة! تبا لى! لكم حنقت فى تلك اللحظة على ضعفى! غضبت غضب من يروم دك الجبال، وتنهدت تنهد من يعجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بد!.. أأرى «رباب» مع صاحب الخطاب ثم أقف مكتوف اليدين؟! محال.. لأهجم إذن على غريمى وليكن ما يكون، أو أقنع بشاهدة الجريمة الساعية فى الأرض، ثم أنتظرها فى البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء، واستهانة، «لقد رأيت كل شىء بعينى، عودى إلى بيتك بسلام!». لماذا أقدمت على الخطوة الجنونية؟ لماذا تزوجت؟ ما كان ينبغى لمثلى أن يتزوج. وارتفعت فى القهوة ضجة ضحك فانتشلتنى من الأحلام، فعدت إلى وعيى متعبا كالمريض، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات غريبة مكهربة، ونظرت بين يدى فإذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعته إلى فمى ورشفت منه رشفات باردة، وعدت ببصرى إلى الطريق حتى استقر على باب الروضة. إن «رباب» تباشر الآن عملها فى طمأنينة، ومن يدرى فلعل هذا الرعب كله أن يتخمض عن لا شىء، ولعلى أن أذكر موقفى هذا يوما فلا أدارى خجلى. أتكذب هاتان العينان الصافيتان؟ أيغدر هذا القلب الطاهر؟ وتتابعت الدقائق فى تفكير متواصل، حتى انتبهت على طقطقة نافذة وهى تفتح، فاتجه بصرى بحركة عكسية إلى الجانب الآخرمن الطريق، فرأيت النافذة فى الطابق الثانى من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلها عجبت لجلوس أفندى مثلى فى قهوة النوبيين، فنظرت صوبى باهتمام، كان فى عينيها جراءة، فارتد بصرى فى حياء. ومع أن عينى لم تثبتا عليها إلا لحظات إلا أنهما عادتا منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز، وداخلنى إحساس بالقلق، لأن النافذة تطل على مجلسى مباشرة، وقد رفعت عينى فى حذر شديد فرأيتها تدخن سيجارة وتنظر إلى شىء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحول عينيها عنى وأدمت إليها النظر.

كانت فوق الأربعين إن صدق نظرى ـ وقل أن يصدق فى تقدير الأعمار ـ وكانت على رغم تأنقها وتزينها أقرب للدمامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيلتى الجفنين، وأنف قصير أفطس، وشفتين ممتلئتين، ووجنتين متكورتين منتفختين، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عنى القلق، ولكن باب شرفة تجاور النافذة فتح على مصراعيه وبرزت المرأة منه تجر كرسيا، ثم وقفت قليلا مرتفقة حافة الشرفة، فرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثم جلست على الكرسى واضعة رجلا على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة، فأمكننى أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى عطف رأسى، فاختلست نظرات من ساقيها المرتويتين السمراوين، وشبشبها الأحمر الفاقع، وأنقذنى وجودها من تيار أفكارى الجهنمى وإن استحوذ على ذلك القلق الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفتيها الغليظتين وتقلب عينيها فيما حولها، وكلما التقتا بى تفحصتانى بجراءة منقطعة النظير حتى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهى، وتساءلت فى ارتباك: متى تختفى؟ فلقد أربكنى تفرسها فى وجهى، ولعله ترك فى نفسى أثرا آخر غريبا لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسى لم أعرف له سببا. وكنت كلما رفعت إليها عينى حولت رأسها نحوى وحدجتنى بنظرة وقحة ثاقبة كأنها ترى بأذنيها، أو أنها تتمتع بحساسية خارقة تنقل إليها النظرات التى تصوب نحوها من أى مكان كان، فركبنى الخوف الحذر، وحرصت على ألا أرفع بصرى القلق إليها. ترى هل يطول بى هذا الحذر والتوتر؟ وعلى حين فجأة رن صوتها ـ صوت ممتلىء رنان ـ وهى تقول وكأنها تخاطب أحدا فى الطريق: «إنى قادمة يا ماما» ثم نهضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أتمالك أن ابتسمت فى استغراب واستنكار، فقد هالنى أن تقول «ماما» وهى المرأة التى جاوزت سن الشباب، كما أدهشنى أن تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذى رن فى الطريق بلا داع، كان بوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة، فبدت لى ـ إلى جراءتها ـ غريبة الأطوار، محبة للظهور ولفت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذى تعتلى ذروته. على أننى سررت لذهابها، ولتخلصى من سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسى، وإلى الطريق الذى على أن أراقبه حتى ينطوى النهار. وتتابع الوقت فأتعبنى تثاقله، واستحوذ على الضجر. ألا يحسن بى أن أمضى هنا وهناك حتى يقترب موعد انصراف الروضة؟ ولكن من يضمن لى ألا تحدث أمور فى أثناء تجوالى؟ فلأظل رهين مجلسى هذا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا! ولبثت بمكانى متجرعا الصبر دقيقة فدقيقة، وجاءنى صوت من الشرفة، فرفعت عينى، فرأيت المرأة وهى تنقل الكرسى إلى موضع من الشرفة تملأه أشعة الشمس ثم تستقر عليه. . ولاحت منها نظرة إلى القهوة، فلما وقعت على لاح بعينيها الاهتمام والدهشة وكأنهما تتساءلان عما دعانى إلى ملازمة مكانى بهذه

القهوة الحقيرة طوال هذا الوقت، وتعمدت أن تظهر لى دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألنى عما يبقينى فى مجلسى ذاك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ، وتتسلى بالنظر إلى من وقت لآخر. وصممت على أن أركز انتباهى فى هدفى، فأرسلت بناظرى إلى الطريق، ولكن ظل شعورى فى شغل شاغل! وتبددت قوة إرادتى فى مقاومة ما يجذبنى إلى رفع بصرى، وغلبنى الحياء والارتباك إذ تهيأ لى ـ لضيق الشارع ـ أننى والمرأة فى حجرة واحدة. ولم أخل من إحساس بالارتياح منشؤه أننى أجد نفسى محط نظرة امرأة لأول مرة فى حياتى، ولم يعد يخفى على ذلك الانفعال الجنسى الذى بعثه فى أعصابى وجهها الغليظ وساقاها المرتويتان، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتنى فلم تعدم فى نفسى إثارة من ارتياح غامض، لعله نوع من الإعجاب الذى لا يريد أن يفصح عن نفسه، وتساءلت فى دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زمانى موحوحا بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدرى إلى مقارنة هذه الجرأة الجذابة بذاك الاحتشام الجميل الذى تتحلى به زوجى المحبوبة، ولكنى سرعان ما أنكرت المقارنة الوقحة، فامتلأت سخطا وتقززا، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثم عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة، فتنهدت فى ارتياح عميق وغمغمت: «لا أرجعها الله»، وانفرد بى الانتظار ومر الوقت فى إعياء وسأم، فجعلت أتسلى بمراقبة ستة أو سبعة من النوبيين هم كل من بقى بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة منهم الثرثرة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتماثيل من البرونز. وحينما أرمى بنظرى إلى الطريق العام أحصى المارة نساء ورجالا، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية، أو أتساءل كلما قرع أذنى أزيز ترام آت من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل يجر مركبة مكشوفة أو مغلقة ثم أحصى مرات الصواب والخطأ. ولما آن وقت انصراف الروضة عاودتنى اليقظة، ثم اشتد بى القلق والجزع، وجالت عيناى فى جنبات الطريق ثم استقرتا على باب المدرسة، ولشد ما خفق قلبى حين رأيت جماعة من المدرسات يغادرن الروضة، وعلى أثرهن خرجت «رباب» بصحبة فتاة من زميلاتها، واتجهت نحو شارع العباسية وهما تتحادثان وتضحكان. وافترقتا فى الطريق العام فاتجهت الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجى إلى المحطة، ولما كانت وقفتها بحيث يتجه وجهها صوب شارع القهوة الجانبى فقد تراجعت بالكرسى إلى الوراء منتحيا عن مرمى بصرها، وتفحصت الطوار بعناية وقلبى يكاد يثب من موضعه من شدة الخفقان فقد حدثتنى نفسى بأننى سأتلقى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على «طوار» المحطة شتيت من الرجال والنساء، ولكن زوجى انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقفتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد، وتنظر من آن لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التى يأتى منها الترام، لم أر ما يريبنى، ولم تتحول عنها عيناى لحظة واحدة حتى جاء الترام وصعدت إليه وبارحت مكانى متعجلا وناديت

تاكسى وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناى إلى مقصورة السيدات، حتى بلغنا العتبة، ونزلت زوجى من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة، فدرت بالتاكسى حتى وقف بى على كثب من قسم الموسكى، رأيتها تقف فى زحمة من الخلق فجعل بصرى يدور فى الحلقة التى تحيط بها ويثبت عليها فى سرعة وجنون، وجاء الترام فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطة بعد محطة حتى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبر الطريق صوب البيت! وانطلق بى التاكسى محطة أخرى، ثم غادرته وعدت إلى البيت مشيا على الأقدام، وشعرت فى طريق عودتى براحة مشوبة بخجل، وتساءلت فى حيرة: ترى هل فتاتى بريئة أم ينطوى الغد على ما لم أعثر به فى يومى؟ ولما انتهيت إلى الشقة وجدت أمى قلقة لتأخرى، وكذلك «رباب» فأخبرتهما بأن العمل يستدعى بقائى فى الوزارة لهذه الساعة مدة أسبوع على الأقل، وحين الأصيل أخذت «رباب» فى ارتداء ثيابها وقالت لى إنها ستزور أمها، ودعتنى ـ كعادتها كلما خرجت ـ إلى مرافقتها، وتساءلت كيف يمكننى مراقبتها فى المساء؟ ليس الأمر سهلا كما فى الصباح، فالبيوت التى تتردد عليها فى أحياء متقاربة، وهى تقصدها مشيا على الأقدام، فيما ندر، فلا أستطيع أن آمن على نفسى ـ إذا تبعتها ـ من الافتضاح، ولكنى إذا لزمتها فى تجوالها أمنت المساء، ولم أدع لها فرصة لأمر، مما يضطرها إلى مقارفة الاثم ـ إن كان ثمة إثم ـ فى نصف النهار الأول فتقع فى شباكى من حيث لا تدرى. . لذلك تقبلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكا:

ـ سأذهب معك تفاديا من الملل الذى يقتلنى فى غيابك.

فسرت لقبولى دعوتها وقالت برجاء:

ـ ليتك تخرج معى دائما فليس أحب إلى من أن نذهب ونجىء معا. .

٥٢

وفى صباح اليوم الثانى خرجنا معا كعادتنا، وأعدت ما صنعت بالأمس، فاستقللت التاكسى إلى قهوة النوبيين واتخذت مجلسى بمدخلها، وجاءت رباب فى موعد الأمس ومضت إلى الروضة، وخطر لى وأنا أتبعها عينى أنه لو كان لها حساسية المرأة الغربية ـ لم أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسى أمس حتى وثب لذهنى هذا الخاطر ـ فالتفتت صوبى ووقع بصرها على فدارت على عقبيها وجاءت إلى فى دهشة تسألنى عما أتى بى

إلى هذه القهوة؟! تصورت هذا المنظر فى فزع، فانكمشت فى مجلسى هلعا، وعضنى الندم والألم، ولكن زوجى مالت إلى المدرسة آمنة مطمئنة، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها فى حذر وارتياب، حتى غيبها الباب عن ناظرى، فذهب عنى التوتر والخوف، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذى كان على أن أعانيه فى تصبر وتجلد نهارا آخر، وألقيت نظرة دائرية ضجرة على شارع القهوة الجانبى وما يبدو لى من شارع العباسية والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التى قضى على بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أتخبط فى دياجير الأفكار وشوارد الأخيلة الجهنمية. . ولكننى كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجى فى ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينى إلى العمارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين، وتساءلت كيف لى بتحمل الانتظار نهارا كاملا بلا تسلية أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلا مريبا أدارى به رغبة فى رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا يدعونى إلى انكار هذه الرغبة؟ هل هى رغبة فى التسلية وقتل الفراغ؟ أجل إن المرأة قد أهاجت فى صدرى انفعالا جنسيا، ولكن ليس فى هذا جديد، فقد كنت ولازلت أتلقى هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الآدميات، وأقذرهن. ولم يغير الزواج من حالى، ولم يشفنى من دائى، فرددت إلى عاداتى القديمة جميعا، وعاودت النظر إلى النافذة مرة أخرى، وكأنى أعانى انتظارين! فلأحاول فهم نفسى أكثر من هذا، لست طالب تسلية فحسب، إنى أرغب فى رؤيتها مرة أخرى، لتلهمنى بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعاودنى ذاك الشعور العميق بالارتياح والزهو، وأسترد بعض الثقة المسلوبة، ولم أكد أستغرق فى أفكارى حتى قرع أذنى طقطقة النافذة، فرفعت عينى، فرأيتها وهى تنفتح على مصراعيها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عينانا، ولم تكن تتوقع رؤيتى بطبيعة الحال. فتجلت فى عينيها دهشة واضحة، ولبثت دقيقة أو نحوها وهى ترنو إلى ثم تحولت عنها واختفت، وداخلنى سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التى جئت من أجلها إلى هذا المكان، واتجه بصرى صوب الشرفة المغلقة منتظرا أن تفتح. وقد كان فدفعت يد مصراعيها حتى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين، ثم دخلت المرأة تجر الكرسى بجسمها القصير المكتنز، وقد بدت لى فى الروب الوردى كبرميل إلا أنه مفصل تفصيلا بهيميا، ووضعت الكرسى فى ركن الشرفة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدت ذراعيها على حافة الشرفة الخشبى، وجها لوجه، وليس بالشارع الجانبى دكان، ولا يكاد يمر به أحد إلا فيما ندر، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم فى الداخل لا يرون شيئا، ومائدتى بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتنا منفردين على نحو ما. وشعرت فى اللحظة التالية بالارتباك والحرج، ولم أدر كيف يمكننى البقاء هكذا تحت رحمة عينيها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقق رغبتى الخفية، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصرى من فوق كتفى إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعرا فى

أثناء هذا وذاك بوقوع عينيها الثقيلتين على وجهى . إنى راغب فى وجودها ما فى هذا من شك ، ولكنى لم أحتمله ، وما من مرة أسترق إليها نظرة إلا وأجدها متفرسة فى وجهى فى هدوء وإمعان وبلا حياء أو تردد ، وإن هذا ليملأنى سرورا وخفة ولكنه يسومنى ما لا طاقة لى به من خجل وارتباك . وإن عينيها تنظران طويلا ولكنهما لا تنظران فحسب ، إنهما تتحدثان بأجلى لسان ، كلما التقت عينانا خلتها تخاطبنى فأغض الطرف وكأنى أفر فرارا . ونظرت نحوها مرة فوجدتها تشعل سيجارة ، وأطفأت عود الثقاب بهزتين ثم رمت به نحوى لو لا أن أرجعه الهواء ، وأخذت نفسا عميقا وقد ابتسمت عيناها ، فخفق قلبى بعنف وازدردت ريقى بصعوبة . . ماذا تريد هذه المرأة؟ . . كيف تواتيها الجرأة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردنى هذه المطاردة الصامتة وهى لم تسبق لها بى معرفة ولم ترنى إلا مرة بالأمس ومرة أخرى اليوم . واستحوذ على الاضطراب ، وشغلت بالشرفة انشغالا تاما فلم أعد ألقى على باب الروضة إلا نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئا . ورأتنى أنظر نحوها فوضعت رجلا على رجل جاذبة عينى قهرا إلى جانب عريض من فخذتيها أحدث التقاؤهما واشتباكهما طيات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الخمر وجف حلقى وطغت عواطفى على حيائى فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملقت فيها بلا خجل ولا تردد ، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرفة! تركتنى فى ثورة جامحة . وقلت لنفسى ساخطا : أية هاوية تنفغر تحت قدمى! ثم ثبت إلى الهدوء رويدا فأمضنى الأسف والخجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس : «لا أرجعها الله!» . قد يكون الانتظار مؤلما ولكنه خير من هذا الشر الذى يتهددنى . ولم يكن يساورنى شك فى أنها ستعود ، وكان بوسعى أن أغادر القهوة إلى غير عودة ، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار ، ولكنى أقنعت نفسى بأن هذه القهوة المتوارية هى أصلح الأماكن قاطبة لمهمتى ، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفى عينيها نظرة باسمة ، وتملكنى الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذى استخفنى . وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها ، ولكنى عدت أخالسها النظر وأتمنى لو تأخذ راحتها وتضع رجلا على رجل . وعدت أتملى إيثارها لى بالنظر والاهتمام فازدهانى عطفها وشعرت بنهم الجائع إلى الاستزادة منه ، وهل كان هذا الاهتمام إلا لجمال وجهى ورشاقة قوامى! وقلت لنفسى فى غرور صبيانى لعلها معجبة بالأعين الخضر والبشرة البيضاء والقامة الفارعة . وعلى حين بغتة انسل إلى خاطرى صوت هامس يتساءل فى سخرية : «وهل أغنى عنك جمالك شيئا؟!» . وتمثلت لعينى تعاستى الزوجية فكأن قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسى فأخمدتها وخنقت أنفاسى . فترت نشوتى وحل محلها شعور بالغ بالشقاء والخيبة ، وتناسيت الشرفة ، وهرعت أفكارى إلى الروضة فتمنيت لو تنكشف لى ا لحقيقة مهما كانت بشعة

قاسية لأنتهى من الأمر كله. تمنيت - إذا لم يكن من الأمر بد - أن أرى صاحب الخطاب يلاقى رباب ويحادثها. اليوم لا غدا ولا بعد غد، بل كان فى ذهنى شىء آخر - فى تلك اللحظة - لا أدرى كيف أعبر عنه. كأننى تمنيت أن يصدق سوء ظنى! لست مخطئا، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟! هل ثقل على الشك فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذى جعل من حياتى الزوجية مهزلة فتمنيت أن أجد فى جريمة زوجى مهربا من حياتى؟! أو كان ضميرى الرازح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقابا وتكفيرا؟! على أنه لم يكن إلا إحساسا عابرا. ولم يبق منه أثر فى اللحظة التالية. وغشيتنى بعد ذلك كآبة وامتعاض، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلت عليه استجابتها فلم تعد للظهور. وانتظرت طويلا تتناوبنى الأفكار والأخيلة المفزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب - كالأمس - قادمة نحو المحطة. ولم يجد جديد فرجعنا، هى فى الترام وأنا فى التاكسى. وعند المساء اقترحت على أن نذهب معا إلى سينما رويال فقبلت بلا تردد، وذهبنا معا.

٥٣

وفى صباح اليوم الثالث حملنى التاكسى إلى نفس الهدف، وذكرت فى الطريق المرأة الغريبة فتمثلت لعينى بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز. ولم أكن أذكرها لأول مرة ذاك الصباح، فقد لاحت لخاطرى فى البيت وأنا آخذ زينتى أمام المرآة فكانت داعيا لمضاعفة العناية بتمشيط شعرى وعقد رباط رقبتى، وتولانى إحساس بالخجل والذنب والقلق، وألقيت تبعة هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذى ساقنى إلى هذه المراقبة الحمقاء! ولكن هل أستطيع أن أتمنى عدم ظهورها فى الشرفة صادقا؟ هل يمكننى احتمال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة؟ واتخذت مجلسى من القهوة فجاءنى النادل ذو الجلباب الباهت، والطاقية المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة، والنعل المنجرد، وحيانى تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء، فطلبت القهوة التى أحسوها بتقزز واستكراه، وتساءلت ممتعضا ماذا وراء هذا التجسس المقيت؟! ألا يجمل بى أن أقلع عما أخذت نفسى به ظلما وسوء ظن؟ لقد عاشت زوجى يومين كاملين فى متناول بصرى فهل وقفت منها على ما يريب؟! هل لاحظت عليها ضيقا أو تبرما؟ أليس كالعهد بها صفاء ومودة وسعادة؟! وطاب لى الفكر فداخلنى شعور بالطمأنينة والارتياح، ومر وقت فسارع إلى الملل، ونظرت فى الساعة، ترى هل أستخبرها عما فات من زمن أم أسألها متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر فقد فتحت النافذة ولاحت

وراءها المرأة بغلاظتها وتبرجها . اتسعت عيناها البارزتان دهشة ورفعت حاجبيها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازما مكانك!» . ثم خفضت رأسها لتوارى عن عينى ابتسامتها وخفق قلبى خفقانا سريعا فى سرور، وعاودنى الخجل من نفسى فجعلت أقول لضميرى بأننى لا أتطلع لاثم، وإن مثلى حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماما، أجل إنى برىء، وما جئت هذه القهوة إلا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يومين عن هذا الحى كله فلا أعود أذكرها بخير أو بشر. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست فى الركن المواجه لى، وفى عينيها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بت اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكننى مازلت أتظاهر بالنظر إلى الطريق العام مختلسا من آن لآن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقنى الارتباك بل لعله تضاعف بهذه الابتسامة التى تلوح فى عينيها كلما التقت عينانا، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لدى إلا غض البصر! أيدور لها بخلد أننى متزوج؟ وأننى ما جئت إلى هذه القهوة إلا كى أضبط زوجى متلبسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بى إذا عرفت هذا كله؟ شعرت عند ذاك بخزى أليم. ثم ساءلت نفسى عنها من تكون. أهى زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفقت المنضدة بيسارى وافترشت ظاهر يدى بذقنى، فما كان منها إلا أن ارتفقت حافة الشرفة بيسراها وافترشت يدها بذقنها وهى ترنو إلى فى دعابة! وتلقيت الدعابة بخجل جعلنى لا أرى شيئا، وأرسل قلبى ضربات عنيفة طنت فى أذنى. إنها تغازلنى صراحة، وأشعر بأن «الرجولة» تقضى بأن أخرج من هذا الجمود ولكنى لا أبدى حراكا، واشتد بى الارتباك فبت فى حال يرثى لها. وسحبت يسراى، وشبكتها بيمناى على صدرى فما أسرع أن سحبت يدها وشبكتها بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها اتساعا. وغلبتنى ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق فى خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبيسة من ارتباكى فسرى عنى قليلا، واستطعت أن أحس بما يستخفنى من سرور. وشعرت شعورا قويا بالفارق بين عمرينا فلذنى هذا الشعور، وتمنيت لو يتقهقر بى العمر إلى العشرين أو ما دونها. . رباه. . إنى أهوى بلا وازع. ولكنى لم أعد أبالى شيئا. ولاحت منى التفاتة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شبح فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بينى وبينها جدار القهوة. خلتنى رأيت معطفا رصاصيا كمعطف رباب فخفق قلبى خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذى دعاها إلى مغادرة المدرسة فى هذه اللحظة؟ وما الذى جعلها تتجه إلى اليسار على حين أن طريق المحطة إلى اليمين فيما لو فرض أن عذرا دعاها للعودة؟. . وانتفضت قائما وهرولت مسرعا إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس، ثم نظرت صوب المنعطف الذى سارت إليه ذات المعطف الرصاصى، فرأيتها كانت امرأة فى الخمسين تحث الخطى

على الطوار! وتنهدت من الأعماق وغمغمت كعادتى كلما نجوت من مأزق «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وعدت إلى مقعدى وبى ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الخفقة التى كاد يتصدع لها صدرى، فماذا يكون أمرى لو وقع المحذور! ورفعت رأسى صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق فى وجهى دهشة وعيناها تتساءلان عما حل بى؟! وارتسمت على شفتى ابتسامة! أجل أنسانى الانزعاج خجلى فابتسمت. لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحاجب! ولم يعد يخفى على ما يعتلج فى صدرى من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بى حب لركبنى الخوف وقدرت العواقب، ولكن بدا لى الأمر واضحا لا لبس فيه فلم تزايلنى الثقة. ولبثت ساعة أو أكثر أتلقى هذا الغزل فى صمت وحياء وسرور جنسى عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهى تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان منتفخ يكاد يتهتك من ضغطه القميص الوردى الشفاف، ثم ألقت على نظرة وداع باسمة، وغمزت بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتنى فى سعير التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفى ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كل على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختى راضية وزوجها فقضينا سهرة عائلية ممتعة.

٥٤

اليوم الرابع: قالت لى رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة:

- سأتأخر اليوم عن ميعاد عودتى لأنى سأعود زميلة مريضة تغيبت عن المدرسة من يومين.

وألقيت عليها نظرة مريبة لو رأتها لساءت العاقبة. ثم خفضت بصرى بسرعة، كاظما عواطفى، وسألتها بصوت ينم عن عدم الاكتراث:

- أين بيتها؟

- فى مصر الجديدة.

- ومتى تعودين؟

- وقت الزيارة ومسافة الطريق.. لن أتأخر عن السابعة.

بدأت تتملص من ظلى الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لى جميلة رائعة، ثم ركبتنى نزوة طارئة فتمنيت لو أهوى عليها بفأس فأشقها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا فى أسوأ حال، وغادرته عند محطة الوزارة وناديت التاكسى، فطار بى إلى قهوة

النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثم عدت إلى أفكارى. تلك الزيارة فى مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميما لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مسعاى؟ هبنى تأثرتها إلى مصر الجديدة ثم رأيتها وهى تدخل بيتا أو عمارة فمن يدرينى بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون فى عيادة زميلة حقا، وقد تكون فى أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسنانى حتى سمعت صريرها كالطقطقة. ولكنى أبيت أن أثبط عزيمتى. لأتبعنها فلعلى أراهما معا فى الطريق، ولعلى أجد ضبط الجريمة أيسر مما أتصور. ما أفظع هذا، ولكن ما أروحه لى كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بد فمن الرحمة أن تقع سريعا، واستحوذ على القلق والجزع، وأيقنت أننى لن أستطيع مع اليوم صبرا. ولاحت منى التفاته إلى النافذة المغلقة فتعلق بها بصرى فيما يشبه الاستغاثة، وتملكنى إحساس عنيف بالضغط الذى يهتصرنى وتلهفت نفسى على منفذ تتسرب منه بعض الأبخرة المزمجرة فى أعماقها. أى تنفيس ولو جر وراءه الإثم والخزى. وعند العاشرة فتحت النافذة وطالعنى الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة. وتحول انتباهى إليها فأنقذنى من نفسى، وثبتت عيناى عليها فى جرأة لا عهد لى بها، وانبسطت أساريرى وأنا لا أدرى فردت التحية بمثلها. واختفت من النافذة فسبقتها عيناى إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثم بدت مرة أخرى فى النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفا وأخذت أهبتها للخروج. وخطر لى خاطر كالبرق، هل تدعونى إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغمرتنى موجة من السرور والحيرة والخوف. ما أحوجنى إلى هذه الدعوة، ولكن هل أترك رباب فى هذا اليوم الحاسم؟! إنه بالعمر كله، وإن مصيرى معلق بمصر الجديدة فكيف أقاوم دعوة المرأة إذا دعتنى؟! وفرغت المرأة من زينتها، ثم وقفت تنظر إلى فى هدوء وابتسام. ونظرت إلى شىء بين يديها فتتبعها بصرى فإذا بأناملها تطوى ورقة صغيرة، ثم تثنيها من الطرفين، وتفحصت الطريق بنظرة شاملة ثم رمت بها فسقطت على كثب من قدمى.. وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد سطع منها شذا طيب مخدر فوجدت بها هذين السطرين: «انتظرنى اليوم فى تمام السابعة مساء عند الجسر فى نهاية خط الترام». وداخلنى ارتياح إذ أنها منحتنى مهلة عن غير قصد، ولكن ترى هل يسعنى إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع فى مصر الجديدة ما يعوقنى عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدجتنى بنظرة متسائلة وهزت رأسها مستفسرة، فلم أملك أن حنيت رأسى بالإيجاب. وابتسمت إلى ابتسامة حلوة وحيتنى بإيماءة من رأسها ثم أغلقت النافذة، فأدركت أنها ذاهبة إلى زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعا بضعفى الذى يجهل المقاومة وإن كنت لا أدرى أين أكون وقت أزوفه، وهكذا سقطت فى نفس الخطيئة التى أتهم بها زوجى! أيخلق بى أن أسر بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها؟ وهل ينتهى اليوم بحب أو بمأساة؟ لشد ما كرهت الحياة فى تلك اللحظة.

واندمجت فى تيار شعورى ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثم علته موجة طاغية من التلهف على المغامرة لواذا من الهم الذى ينيخ على فيكاد يخرم بى الأرض. وطويت الورقة بعد أن تلوتها عشرات المرات ثم دسستها فى جيبى. وانفرد بى الانتظار حتى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لى رباب قادمة من بعيد. هذه هى الساعة التى أتربص بها منذ أربعة أيام هى أشقى أيام حياتى. سأتبعها ما فى ذلك شك تاركا الموعد للظروف وحدها. وتوقعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنها عدلت إلى اليمين، إلى المحطة المعتادة التى تنتظر بها كل يوم! وأدركت لتوى أنها اختلقت قصة الزميلة المريضة لتنتحل عذرا لغيابها، واضطرب صدرى اضطرابا لم أدر معه كيف أتمالك أنفاسى. هل آن لى أن أنتهى من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذى يطوى فى أعماقه شرا فظيعا وفسقا مخجلا. ثم جاء دور المطاردة التى أرجو أن تكون مجدية هذه المرة. فصعدت إلى الترام، وناديت التاكسى، وجعلت ناظرى إلى مقصورتها لا تتحولان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفعل فعلتها؟ لشد ما يكبر على أن أتصورها فى أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذبنى الحقيقة الواقعة وتكشف لى عن وجهها الشائه الذميم فما يشبعنى ويطفئ غلى أن أدك رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هى التى تعف عن علاقة الزوجية المشروعة؟ أم أنها لا تبغيها إلا عوجا؟ لشد ما مزقتنى الحيرة، لشد ما عذبنى الغضب والحقد. على أننى منيت نفسى بالراحة من هذا العذاب كله، والخلاص من هذه الحياة المرة الطافحة بالخيبة والشك. سينتهى كل شىء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى داع لأن أسأل نفسى أهى بريئة أم مذنبة، ولا يسوقنى وسواس لتجشم أهوال المراقبة والتجسس، وسيخلو البيت إلا من الوجوه القديمة الآمنة، والحياة الهادئة الوادعة. أجل وددت لو أحطم الرأس الذى حطم قلبى، ولكننى أضن بنفسى عن أن تضيع بسبب امرأة آثمة. كان غضبى قويا وحشيا، ولكن حبى السلامة كان أقوى وأعمق. ألم يكن غريبا أن تدور أفكارى حول محور الخوف والسلامة حتى فى تلك اللحظة المخيفة؟!.. وتراءت لى العتبة فتساءلت مرة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيتها فى محطة الميدان شأنها كل يوم، فنزلت من التاكسى أن أفقدها فى الميدان المكتظ. ثم رأيتها تخترقه إلى المحطة الأخرى التى تنتظر بها عادة، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحنقنى إلا أن تقف فى احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأننى لا أشتعل من أجلها نارا.. واستبعدت أن تقابل أحدا فى هذه الزحمة فتطلعت إلى رؤية الترام الذى تصعد إليه، وتتابعت المركبات بأرقامها المختلفة حتى جاء ترام الروضة فسارعت إليه واستكنت فى مقصورة السيدات. وتولتنى الدهشة، أيكون الأمر فى حينا؟! وهرعت إلى تاكسى وتبعنا الترام.

وجعل قلبي يدق في عنف، وتشتد ضرباته كلما مررنا بمحطة . . ثم دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتى بلغنا محطة بيتنا، فما راعني إلا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فرأيتها تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا! وتوسدت مسند المقعد وأغمضت عيني في إعياء وذهول. ماذا وراء هذا كله؟ هل فقدت عقلي؟ أما من نهاية لهذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكد تفرغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها، وبادرتها قائلا في دهشة:

ـ حسبتك في زيارة زميلتك!

فافتر ثغرها عن ابتسامة وقالت:

ـ لم يكن بها إلا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجشم أحدا مشقة عيادتها.

ترى هل تنتهي وساوسي جميعا إلى قبضة من الريح؟ ولا أتمنى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها في طمأنينة وسلام. وقالت لي وأنا أبدل ثيابي:

ـ دعتني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفتني أن أنوب عنها في دعوتك.

فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:

ـ إن شاء الله.

وأدركت في اللحظة التالية أنني تسرعت بإجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية. ولكن هل أروم حقا أن أذهب إليه؟! إني الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر في المرأة تفكيرا جديا؟ . . أي شيطان يغرر بي؟! إن قلبي لحبيبتي دون سواها، فما بال نداء المرأة الغريبة قهارا لا يقاوم؟! وتفكرت طويلا وما أزداد إلا استسلاما للنداء الشيطاني، حتى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما أخذت به نفسي من ملازمة زوجي مساء. ولكن أكانت تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضمر سوءا؟! وعاودت التفكير في جهد لأنه ليس أشق علي من الاختيار بين أمرين. وترددت طويلا قبل أن أقول:

ـ أوه لقد نسيت . . إني مرتبط بموعد هام.

فتساءلت فيما يشبه الكدر!

ـ أتعني أنك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأن قدمي تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار:

ـ اعتذري عني للست خالتك.

٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق. . كان الجو لطيفا والظلام شاملا فاخترت موقفا تحت مصباح غازى. . ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكرتنى بحالى يوم حملتنى العربة إلى حانة شارع الألفى لأول مرة. . كل هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة، يخجلنى والله أن أظهر معها أمام الناس! ولما اقترب الميعاد ركبنى الخوف الذى تناوبنى كثيرا فى فترة الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرر وقوع المأساة؟ . . آ. . لا يزال أمامى متسع للهرب. ولكنى لم أبد حراكا. إن هذه المرأة هى فرصتى الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتنى روح مغامرة لا عهد لى بها قالت لى: جرب، لن تخسر شيئا، وعلى أسوأ الفروض فلن تخسر شيئا جديدا. . واستيقظت من أفكارى على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامى بحذاء الطوار، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغريبة وهى تجلس أمام عجلة القيادة. ابتسمت إلى، ودعتنى إلى الالتفاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر، فأطعت فى اضطراب وفى أقل من ثانية كنت إلى جانبها، فجذبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولى من فرط الحياء. وأحسست بعينيها على خدى اليسرى، فلازمت النظر إلى الأمام، حتى ضحكت ملء فيها بصوت يعد إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقا وقالت بلهجة تنم عن التحريض:

ـ لم يعد من داع للحياء!

وانطلقت بالسيارة فى مهارة ويسر وهى تقول:

ـ لنذهب إلى طريق الأهرام.

اندفعت بسرعة فائقة فولى قلبى خوفا، وجعلت كلما اعتاقها من الاندفاع زحام أو إشارة المرور أتنفس الصعداء. . والأعجب من هذا أنها خففت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطرق المزحومة. واستردت أنفاسى، واسترقت إليها النظر، فرأيت جانبا من وجهها الغليظ عن كثب، وذاك الصدر المكتنز، وتمثل لعينى صورة ساقها البرونزية المرتوية، وذكرت أن قيراطا واحدا يفصلها عن ساقى، فاضطرب دمى. وأدهشنى هدوؤها وطمأنينتها فكأنها تصاحب زوجها أو أخاها لا رجلا غريبا لا يتمالك نفسه من الحياء والارتباك. سألتنى دون أن تحول عينيها عن الطريق:

ـ ماذا أدعوك؟

فقلت فى اقتضاب:

ـ كامل رؤبة . .

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذى كثيرا ما يثير الضحك ، فتمتمت قائلة «عاشت الأسماء» ، وشعرت بأنه ينبغى أن أسألها كذلك عن اسمها . وتخيرت عبارة مناسبة ، واستجمعت قواى للفظها ، ولكنها لم تنتظر ، وقالت ببساطة :

ـ أدعنى عنايات إذا شئت .

وغمغمت فى خجل «عاشت الأسماء» ولكنها لم تسمع إلا همسا ، والتفتت نحوى فجأة وقالت مبتسمة :

ـ يا له من حياء غريب ! ألم تعلم بأن الحياء موضة قديمة ؟ وإن العذارى أنفسهن نبذنه بلا أسف ؟ ففيم تستمسك به أنت ؟

فندت عنى ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة ، فاستطردت قائلة :

ـ ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجع لا ينفع إلا فى حينه ، وخبرنى بالله عليك ما الذى دعاك إلى مخالطة النوبيين فى تلك القهوة القذرة ؟ !

وتفكرت قليلا متحيرا حتى وجدت فى الكذب منجى فقلت :

ـ كنت يوما راجعا من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلا هذه القهوة .

ـ هذا عن أول يوم ، وما قولك عن اليوم الثانى والثالث ؟

وجاءنى على البداهة جواب حسن ، فتغلبت على الحياء وقلت بصوت منخفض :

ـ إنك المسئولة عن بقية الأيام . .

فلحظتنى ضاحكة وقالت بمكر :

ـ أحقا تقول أم أردت التهرب بالغزل ؟

فغمغـمت :

ـ بل قلت الحق . .

فرمت بنظرها إلى الطريق فى دلال وقالت :

ـ فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعدا عنى كأنك تكره لمسى !

وتولانى الاضطراب ، ولم أدر ماذا أفعل ، ثم قلت كالمعتذر :

ـ ولكننا فى الطريق :

ـ وأغرقت فى الضحك ثم قالت :

ـ نحـن فى السـيارة لا فى الطـريق . إلا أن الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاءوا . لا تتوار وراء الأعذار الكاذبة . خبرنى ما عمرك ؟ !

ـ فى الثامنة والعشرين من عمرى .

ـ يا للعار! . . وكم امرأة عشقت؟

ولذت بالصمت شاعرا بأنه لا قبل لى بها. وكأنها عجبت لصمتى فقالت بإنكار:

ـ أتريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل؟! هل أنا أول امرأة فى حياتك؟ . . رباه وعيونك الخضر ألم تجذب أحدا؟! لا شك أننى أدركتك وأنت مشرف على الغرق، فليجزنى الله على صنيعى خير الجزاء. . رباه من يصدق هذا؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك؟

ولم أحر جوابا، وأثر فى قولها تأثيرا موجعا لم تدرك كنهه. ولعلها قرأت فى وجهى الارتباك فرحمتنى بالصمت مليا. ثم سألتنى عن عملى فأجبتها بأننى موظف. . واستدركت قائلا إننى فى إجازة قصيرة. وساد الصمت مرة أخرى، وفى أثناء ذلك تزحزت قليلا صوبى حتى مس منكبها منكبى فى رفق، فبعثت فى قلبى المنكمش حياة ويقظة فتتابع وجيبه على خوفى وخجلى ولما لازمت جمودى والتصاقى بالباب قالت باقتضاب وهى تكتم ضحكة:

ـ منى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيابا؟!

ولاقى منى النداء نفسا راغبة وقلبا خائفا، ولكن جالدت الخوف مجالدة وتزحزحت فى حذر وإشفاق حتى مس جانبى ـ من أسفل الساق إلى أعلى المنكب ـ لحما طريا يتطاير منه عرف طيب ساحر، ولبثت هنيهة متمليا مسه اللذيذ وكل جوارحى تنتفض، حتى التفتت نحوى وشعرت بأنفاسها تتردد على خدى، وهمست فى أذنى:

ـ أما زلت هيابا؟!

كلا، لقد أسكرتنى العاطفة. وكانت أنفاسها لا تزال تتردد على خدى فمال رأسها نحوى حتى غاص فمى فى شفتيها الرابيتين وسرعان ما حولت رأسها عنى إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراى وانهلت على جانب عنقها تقبيلا. وانحرفت بالسيارة إلى جانب الطريق وهى تغمغم ضاحكة «رويدك» ثم أوقفتها وهى تقول:

ـ لنستريح هنا قليلا فهذا مكان آمن.

وألقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفا وسيطا فى المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق، تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيما عدا أزيز السيارات التى كانت تمر بنا مرور البرق كان الصمت عميقا محيطا، سألتها هامسا:

ـ أليس ثمة خطر؟

فقالت وهى تلف عنقى بيمناها:

ـ إنه آمن من بيتك؟

واستدارت فى جلستها حتى مس منكبها المسند، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذتها

اليسرى، فصرنا وجها لوجه، وانبرى لى صدرها العالى ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهى نحو صدرها فتوسده فى حنان وذهول، وأسكرتنى رائحة جسم آدمى أشهى من العرف الذكى. وسكنت إليه ما طاب لى السكون ويدها تعبث بشعر رأسى. ثم رفعت إليها وجهى والتهمت شفتيها، والتهمت شفتى، وكأن كلينا يأكل صاحبه ويزدرده، وولى الخوف إذ لم يعد له مسوغ! وامتلأت حياة وجنونا وثقة لا حد لها، لا أدرى كيف واتتنى الثقة، كانت المرأة سيدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذى ضللته حياتى كلها، أعادت إلى الثقة والطمأنينة لأنها أخلتنى من كل مسئولية وأخذتنى بالهوادة والرفق، أدركت فى تلك اللحظة ـ أكثر من أى وقت مضى ـ أن إلقاء أية تبعة على خليق بأن يفقدنى نفسى، وأننى لا أجد هذه النفس المتهافتة إلا بين يدين ثابتتين قويتين. ذابت الدنيا فى نشوة جنونية ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هى الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة. افتر ثغرى عن ابتسامة ظفر وسعادة، ورمقتها، بنظرة امتنان لم تدرك عمقه وهيهات لها. إنى بين يديها أتمرغ فى التراب، ولكنه تراب طيب حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة الماضية، وذكرت زوجتى المحبوبة فى حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن تحميلها تبعة تعاستى كلها!.. هكذا بدا لى الأمر. على أن قلبى هفا إليها حتى فى تلك اللحظة وفى ذلك المكان! أما المرأة فقد ضربت أنفى بأنملتها وسألتنى:

ـ مبسوط؟

فقلت من قلبى:

ـ جدا.

وأخذت يسراى بين راحتيها ورنت إلى طويلا ثم غمغمت:

ـ يا لك من طفل رائع.

فتضاحكت قائلا فى حياء:

ـ طفل فى الحلقة الثالثة!

ولاحت فى عينيها نظرة جد واهتمام، وانتبهت إلى أصابعها وهى تتحسس خاتم الزواج، ثم ألقت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بى:

ـ أأنت متزوج؟! لم يدر لى هذا بخلد!!

واستحوذ على الخوف ونظرت إليها صامتا. وعادت تقهقه ضاحكة ثم قالت:

ـ كيف لم يخطر لى هذا على بال؟! ولكن كيف أصدق هذا؟! رباه لماذا جريت ورائى؟.. ألا تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق!

فخفقت عيناى فى حيرة وارتباك ولم أنبس بكلمة، فسألتنى باهتمام:

- ألا تحب زوجك؟

وضايقنى السؤال، وترددت لحظة لا أدرى ماذا أقول، ثم أرغمنى حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- إنها ست طيبة!

فقالت بعجلة:

- إنى أسألك ألا تحبها!

وشعرت بأن الكذب ينقلب فضيلة فى حضرة النساء فقلت باستياء أخفيته بابتسامة:

- كـــلا..

فانبسطت أساريرها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجانى:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كـــلا..

- زوجوك منها بغير سابق معرفة؟

- نعـــم..

فهتفت بغضب:

- يا له من إثم لا يغتفر، وهى ألا تحبك؟!

فقلت صادقا لأول مرة:

- إنها لا تحب الحب!

واتسعت عيناها دهشة، وفتحت فاها - رأيت فى جانب فمها سنتين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: آه - (بصوت ممطوط).. فهمت كل شىء. توجد نساء على هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات.

وتبادلنا نظرة طويلة فى ابتسام وصمت، ثم سألتها ضاحكا:

- وأنت، ألست متزوجة؟

فقالت وهى لا تحول عينيها عنى:

- لست إلا أرملة، كان زوجى لواء عظيما يدعى على باشا سلام، تزوجنى على كبر

وتزوجته على صغر، ثم مات من بضع سنين فعدت إلى أمى نعيش معا، والله وحده يعلم مع من أعيش غدا!!

جعلت تصفر بفمها وهى تبسم إلى. ثم تناولت حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على وجهها وعنقها وصففت خصلات شعرها المبعثرة، وراحت تلقى نظرة على وجهها فى مرآة صغيرة مثبتة فى جانب السيارة وهى تسألنى:

- متى تنتهى إجازتك؟

- بعد أيام قلائل.

فقالت بهدوء:

- سنلتقى كثيرا، كل يوم إن أمكن، ولنا فى السيارة متسع حتى نجد مكانا صالحا.

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكنى أمسكت بمعصمها، ثم أحطت عنقها بذراعى، وضحكت ضحكة قصيرة، وضمتنى إلى صدرها الرابى وهى تقول:

- لماذا تركتنى أستعيد زينتى يا شاطر؟!

٥٦

عدت إلى البيت فى تمام العاشرة، ولم أسائل نفسى عما إذا كنت قد أخطأت لأن ما استرددته من السعادة والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمى قد نامت، أما رباب فقد جلست فى الفراش تطالع مجلة. ما إن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحى نور بهيج وأحسست بأننى أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى. وآلمنى تقزز مفاجئ لما صنعت بنفسى، ولكنه لم يتمكن منى، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذى يحول بينى وبين زوجى.. واستقبلتنى بابتسامة وأبلغتنى سلام خالتها وعتابها، ثم أخبرتنى بأن عشائى جاهز على السفرة فمضيت إليه والتهمته بنهم متعب جائع. وعدت إلى مخدعنا وأنا أتساءل عما تفعل رباب لو علمت بذنبى؟! وأخبرتنى بأنها دعيت إلى إعطاء درس خاص لابنة قاض كبير بالسنة الأولى الابتدائية وسألتنى عن رأيى. ومع أننى لم أقف منها على ما يريب إلا أننى لم أرتح للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشمين من مشقة طول النهار!

فقالت بغير اكتراث:

- صدقت..

وسررت لموافقتها السريعة، وقلت لنفسى فى شبه ندم: «هيهات أن أقع على شبه شك؟». واضطجعت إلى جانبها، فنحت المجلة جانبا، وأطفأت النور واضطجعت بسلام. كان النوم حريا بأن يسارع إلى جفنى، لكن حالت دونه يقظة غريبة فى النفس، طار خيالى إلى عنايات، والسيارة فى طريق الهرم، إنى خائن! أعجب بها من حقيقة! فمن يصدق أن يتخذ الزوج العاجز عشيقة؟! تمنيت فى تلك اللحظة لو تعلم زوجى بهذه الحقيقة العجيبة، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تقبض قلبى خوفا وخجلا. لقد تعقبت زوجى وبى شك فى خيانتها فعدت خائنا لا شك فيه، أما هى فما وقفت منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبى منها العجز والإخفاق على حين أننى نعمت بين يدى المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟! لفتنى حيرة شديدة، تلهفت نفسى على بصيص من النور.

وزاد من حيرتى أننى شعرت شعورا عميقا بأننى لا غنى لى عنهما معا. بل لم أجد سبيلا إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحى وتلك جسدى، وما عذابى إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لى من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت فى التفكير إغراقا لم يدع للنوم سبيلا إلى، ومضت تتراءى لعينى رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمى بلا داع فاتخذت مكانها فى شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بى الحيرة حتى شملتنى حال من الحزن والكآبة.

بيد أن أحاسيس الليل قل أن تعيش فى ضوء النهار. إنها فى الليل تندمج فى تيار لحن غامض ينطلق فى جو أثيرى يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها فى الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أقتفى أثر رباب حقا أم ألبى ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجى لا تدع مجالا للشك، سرها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشئوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وذهبت إلى قهوة النوبيين فما أوفقها رمزا لحبى الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لى مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إلى إشارة ذات معنى أن أنتظرها فى مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل صباحا بيد أننى لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فورى إلى الجسر، وخيل إلى - فى طريقى - القصير - أننى أدركت حقيقة من حقائق الحياة، هى أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب فى حياتنا الدور الذى تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم. فما من رجل «حى» إلا وفى خياله امرأة، حاضرة أو

غائبة، ممكنة أو مستحيلة، محبة أو كارهة، مخلصة أو خائنة. وفهمت فهما جديدا، كأنه لقوته بكر جديد، معنى قولهم: إن الحب الحياة والحياة الحب: لم تكن حياة ثم كان حب، ولكن كان حب فكانت حياة، وأقسمت فى تلك اللحظة ألا أعرض عن الحب ما حييت!

وجاءت السيارة فاتخذت مكانى كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

ـ ما الذى جاء بك الآن؟ ألم يكن موعدنا المساء؟

فقلت مبتسما:

ـ أنت أنت السبب..

فابتسمت فى سرور وقالت:

ـ يجب أن نلتزق بالغرا فلا ننفصل أبدا.

وتصاعد أزيز المحرك ينذر بانطلاق السيارة فقلت برجاء:

ـ الدنيا نهار فهلا عدلت عن الطرق المزدحمة!

ـ أتخاف أن يراك أحد؟

فقلت بخجل:

ـ نعـــم.

ـ آه: نسيت أنك متزوج!.. لا تؤاخذنى يا حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيارة بالسرعة الجنونية، وسألتنى فى الطريق قائلة:

ـ ماذا فعلت بزوجك الأمس؟

فقطبت وأنا لا أدرى، ولم أحر جوابا، فقالت:

ـ لهذا الحد لا تحب ذكرها؟

ثم تساءلت متجاهلة صمتى وارتباكى:

ـ ألا تنامان فى فراش واحد؟

وحاولت أن أغتصب ضحكة ولكنى عجزت، وشعرت بامتعاض كدر على صفوى، فقهقهت ضاحكة وقالت:

ـ لشد ما أرغب فى رؤيتها.

وأرادت أن تسرى عنى بطريقتها فداعبت شفتى بأصبعها وقالت محاكية الأم التى تداعب طفلها:

ـ كتكـــوتى..

ووقفت السيارة أمام مشرب شاى.. فجلسنا معا نقلب الحديث ظهرا لبطن فى لذة وسرور. وأخبرتنى أن اختيارها قد وقع على بيت الخياطة ليكون مهدا لغرامنا. وعند

الظهر غادرنا المكان، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكننى أبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء. وتكرر اللقاء. ولما انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا فى الأماسى. واقنعتنى التجربة الناجحة بأن الحب صحة وعافية. ولم يخف على أحد دأبى على السهر، ومع أن رباب كانت تفضل - على حد قولها - أن أمضى سهراتى معها فى زياراتها التى لا تنقطع، إلا أنها تحاشت مضايقتى، فباشر كلانا حياته بالسبيل الذى يرضاه. ولم يخف ذلك عن أمى أيضا، وقد قالت لى: لاحظت يا بنى أنك لم تكن على حالك الطبيعية فى هذه الأيام الأخيرة، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتى أن تغضب، فإذا وجدت فى السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جميعا!!

٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها. كدر. حل السلام مكان الشك وعادت علاقتى برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الود الطاهر والحب البرىء: أما من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسى لعنايات فى حب مضطرب وسرور ظافر. إنها امرأة موفورة الثروة. وما من مرة نذهب إلى مهدنا المحبوب ببيت الخياطة إلا وتنفحها بريال وأحيانا نصف جنيه، وأبت على كرامتى إلا أن أكون كريما كذلك، ولو فى حدود طاقتى. وهيأت لى - وهى لا تدرى - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت الخياطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكى والصودا دواما، بل أوشكت أن تعودنى التدخين، وكان لها مزايا وأى مزايا. كانت كاملة الأنوثة والحيوية، فهى متعة للعشاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة، بيد أنها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لهما البدن. عندها الحب كل شىء، وفى سبيله تستبيح أى شىء. ولعلها لم تكن من النوع الهلوك، ولعلها لم تكن إلا امرأة هالعة، تشعر دواما بإدبار الحياة الزاهرة، وذبول الشباب اليانع، فلا تطيق أن يمضى يوم بلا حب. وكان أعجب ما فى حبى لها أننى فتنت منها بما هو حرى أن يعد من النقائص فى نظر الغير، بكهولتها ودمامتها وجسارتها، وكانت تملؤنى ثقة لا حد لها، فلم أكن أحمل لشىء هما. ولولا ما كان ينتابنى من قلق، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحى وجسدى، لتمليت الحياة صفاء خالصا، على أنها كانت حياة سعيدة.

وفى ذات يوم، وبعد فراغى من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أمى لأشرب فنجانا من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتى كل يوم، وسرعان ما لاحظت أنها تردد فى وجهى عينيها الصافيتين فى قلق وتفكر، فتفرست فى وجهها الذابل الذى فقد مرحه وسعادته، فأدركت لتوى أنها تريد أن تقول شيئا، وداخلنى القلق، ولكنى قلت مبتسما:

ـ ماذا وراءك : هاتى ما عندك!

فلاح التردد فى عينيها لحظات ثم قالت :

ـ بالأمس سمعت أمورا أدهشتنى ، فهلا خبرتنى عما بين رباب والست والدتها؟

كل شىء توقعته إلا هذا . وغامت عيناى بسحب ذكريات سود ، وتساءل قلبى الخافق : هل عادت المرأة إلى لجاجتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد أخبرتنى شيئا عن زيارة أمها لها بالأمس إلا أن أقرأتنى سلامها .

وعدت إلى أمى أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئا :

ـ ليس بينهما إلا كل خير .

فهزت أمى رأسها فى ارتياب وقالت :

ـ لعله غابت عنك أشياء ، أما أنا فلم أستطع استقبال نازلى هانم لأننى كنت متعبة ، ولما جاءت صباح لتخبرنى بقدومها تصنعت النوم . وطالت الزيارة ، فانسللت من الحجرة لقضاء حاجة ، ودنوت من باب حجرة الاستقبال ، فما راعنى إلا أن أسمع الست وهى تقول فى انفعال وغضب : «هذا شىء لا يحتمل» فترد عليها رباب بعنف قائلة : «لا تتدخلى فى شئونى!» . فما ملكت أن تراجعت إلى حجرتى .

التهب جبينى حياء ، ثم ركبنى الغضب ، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضولية . واقتحمت أمى على أفكارى متسائلة :

ـ ألم تعلم عنهما شيئا؟

فقلت بحزم :

ـ لا شأن لنا بهما .

وعدت بعد ذلك إلى مخدعى فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل ، فلما رأتنى ألصقت ساقيها بمسنده لتفسح لى مكانا فجلست متفكرا ، كيف أخفت عنى ذاك النزاع؟ هل أشفقت من إزعاجى؟ ولعلها لم تلحظ تغير حالى فراحت تقول لى : إن اليوم الجمعة ، وأنها تقترح على أن نذهب معا إلى السينما ، فتركتها تتحدث حتى انتهت فسألتها قائلا :

ـ كيف حال والدتك؟

فأجابتنى بأنها على ما يرام ، فنظرت إلى عينيها وتساءلت :

ـ هل مرت زيارة الأمس بسلام؟

فلاحت فى عينيها نظرة ارتباك وقالت :

- مــاذا تعــنى؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تخفى عنى شيئا. أعادت والدتك إلى ذاك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت مليا وقد تجهم وجهها، ثم تساءلت بحدة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كل شيء!

فأخبــرتها بما قالت لى أمى، وكانت تصغى إلى باهتمام ثم انفجرت قائلة:

- أمك.. أمك.. ودائما أمك!

ووخزنى الألم الذى يحز فى نفسى كلما لاحت لى آى الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعى للغضب، لقد سمعت ما سمعت اتفاقا، ونقلته إلى بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلمى للغضب، وخبرينى هل عادت أمك إلى ذاك الموضوع القديم؟

وسحبت ساقيها من ورائى، وألقتهما على الأرض، وأطرقت فى تجهم وغيظ وقالت:

- الأمر الذى لم أشأ تعكير صفوك به أنها اقترحت على أن أعرض نفسى على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البغيض مليا حتى طلبت إلى أن أمسك. وأن أقيل طلبا للراحة من تعب اليوم، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه محزونا مكتئبا. ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدرى كم غفوت، ولكنى استيقظت على شيء أطار عن عينى النوم. وفتحت عينى فى انزعاج فسكت مسامعى ضوضاء آتية من الصالة، فأرهفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أن رباب وأمى تتبادلان أقسى الكلمات فى ضجة وصياح. وقفزت من الفراش فى هلع ووثبت إلى الباب ثم مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها:

- هذا تجسس لا يليق بسيدة محترمة.

ووقع بصر أمى على فخفضت بصرها وهى تقول:

- لا يسعنى أن أجاريك فى قلة أدبك!

وهتفت برباب قائلا: «رباب..» ولكنها تحامتنى ورجعت إلى حجرتنا فى غضب جنونى. ودارت أمى على عقبيها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فاتجهت نحوها صامتا متألما. رأيتها تمسك بأكرة الباب ثم تقف دون أن تضغط عليها كأنها عدلت عن

الدخول. ورأيتها تضع راحتها على جبينها فخيل إلى أنها تنحنى رويدا، وأسرعت نحوها، فما كدت ألمسها حتى سقطت على يدى فتلقيتها بهما فى رعب وفزع. وناديتها فلم تجب، وتدلى رأسها وذراعاها. وصرخت مناديا صباح فجاءت تجرى، فحملناها معا وأنمناها على فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها، ودلكت بها أطرافها، وجعلت أناديها بصوت متهدج مبحوح دون توقف، وغشيها الإغماء دقائق مررن بى كالساعات، ثم فتحت جفنيها عن عينين غائمتين، فهتفت بها وأنا أزدرد ريقى:

ـ أمـــاه..

فشخصت ببصرها إلى، وأشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت مغادرا الشقة إلى البدال فى أسفل العمارة، وتلفنت إلى طبيبها أن يحضر، ثم صعدت إلى الشقة وجلست إلى جانبها فى حال من الذعر والحزن لا توصف. لم تفارقها عيناى لحظة واحدة حتى استلت نظرة عينيها الغائمة دمعى الحبيس. شعرت بأننى أشقى إنسان فى الوجود، وأفعمت نفسى كآبة وامتعاضا. ثم جاء الطبيب وفحصها، وقال إنها نوبة قلبية، تستلزم رقادا طويلا، وعناية كبيرة، ووصف الدواء كالعادة. وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمى عليها عقب شجار مع الخادم! فقال لى: إن الشجار سبب طارئ ولكن الداء قديم، وقضينا ليلة عبوسا. أما رباب فقد توارت فى حجرتنا فى شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعتها، وما زالت تبكى حتى انفطر قلبها من البكاء فلم يسعنى إلا أن أطيب خاطرها وأربت على منكبها قائلا:

ـ حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربنا يجعل العواقب سليمة.

٥٨

وامتلأ البيت بالعواد، فزارتنا أسرة رباب وجمع من أقاربها، وجاءتنا أختى راضية وأسرتها، وعادت رباب المريضة وقبلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتى رجوت أن نبدأ ـ بسبب هذا الحادث ـ حياة جديدة خالية من كدر القلوب. وتحينت راضية فرصة خلو الحجرة من الأغراب وقالت لى:

ـ إنى أستأذنك فى أن آخذ أمى إلى بيتى حتى تسترد قواها؟ فهالنى الاقتراح وقلت بارتياع:

ـ هذا مستحيل.

فابتسمت إلى متلطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أنها تحتاج لخدمة وعناية فى كل حين، فمنذا الذى يقوم بخدمتها هنا؟ وأنت مشغول بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على خدمة المنزل، فإلى من تكل أمر أمنا؟

ولكنى استفظعت اقتراحها، وثرت على ما قدمت من حجج قوية، وقلت بإصرار صادر من أعماق قلبى:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن تحتاج إلى من يلازمها إلا فى الأسبوع الأول كما قال لى الدكتور، ولأجدن خادما خاصة تتوفر للعناية بها:

وحاولت راضية أن تثنينى عن إصرارى ولكن لم تجد محاولتها، وانتهى النقاش بأن قررت الإقامة فى بيتى حتى أوفق لإيجاد خادم. وفى اليوم الثالث لمرض أمى حضر أخى مدحت - وكنت أخبرته بمرضها فى خطاب مستعجل - وجاءت معه زوجه. وقد اشتدت وطأة المرض على أمى فى الأيام الأولى لمرضها. لم تكن تبدى حراكا، ولا تكاد تنبس بكلمة. كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيهما نظرة ذابلة غائمة تقلبها بيننا فى صمت وتسليم فتمزق قلبى أربا. ولم نكن نفارقها، وكانت إذا عاودتها يقظة خفيفة تردد عينيها بيننا، وترسم على شفتيها الجافتين ابتسامة، أو تبسط راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا بصوت منخفض وان. ولكن لم تطل بها الغيبوبة، فتحسنت حالها قليلا فى نهاية الأسبوع الأول من الأزمة. واستطاعت أن تدرك بوضوح أن أبناءها جميعا يحيطون بها، ولعلها رأتهم كذلك لأول مرة فى حياتها. وقد جمعنا الفراش مرة فجلست راضية تنظر إلينا فى صمت طويل، ثم طفح وجهها بالبشر، وهمست بصوت ضعيف:

- ما أسعدنى بكم!.. الحمد لله والشكر له.

ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة تنم عن الحنان والتأثر، ثم استدركت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول.

وبدت - على مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا، التأمت أسرتنا التى قضى الله على عقدها بأن ينفرط منذ البداية: بتنا تحت سقف واحد، وأكلنا وشربنا معا، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة. يا لها من أيام رددت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياما قلائل. فقد تقدمت صحة أمى تقدما حسنا، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بألا تبرح الفراش شهرا كاملا على أقل تقدير. وعند ذاك ودعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعدا بالزيارة من آن لآن. وعادت راضية كذلك إلى بيتها - وكنت قد وفقت إلى اختيار خادم لأمى - على أن تعود أمها كل يوم. انفض

السامر، وتفرق الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكد يمضى أسبوعان حتى أخذت أمى تسترد حيويتها ويقظتها، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة. ولسد ما سرنى أن تقوم رباب بواجبها نحو حماتها، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر فى الأيام الأولى للمرض.

ولما عاودتنا الطمأنينة. ولم يعد أمام أمى إلا رقاد وإن يكن طويلا إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة فى الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية، وانطلقت على سبيلى القديم: وقد استأذنتها فى الخروج بضع ساعات ترويحا عن النفس، فأذنت لى بحماس، وأفصحت لى عما كان يساورها من ألم لبقائى إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفكرا، متسائلا ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هى فى مغادرة الحجرة ترويحا عن النفس؟ وبدا لى منطق الحياة قاسيا ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى عنايات. وكانت تتلفن لى كل صباح بالوزارة فبينت لها الأسباب التى حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنا نلتقى فى مهدنا فنسكر ونحب: كانت حياة غريبة، وأخوف ما أخافه أن تكون الذاكرة قد خانتنى ولو فى القليل من تفاصيلها. أكنت سعيدا حقا؟ كان قلبى موزعا بين أمى وزوجى وعنايات، وبين الذكريات العميقة والهيام السامى والحب العارم. وحسبتنى قد آويت من زوابع الحياة إلى مرفأ هادئ، ولكن القلق القديم عاد يطرق بابى فى حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضى فى طريقى، ثم أتوقف حينا بعد حين فى تردد كأننى أتساءل عن شيء أنسيته، هل أجد فى السير أم يحسن بى أن ألقى نظرة إلى ما حولى، ثم يتبين لى أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضى على وجهى.

ويوما وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها عما بها؟ فقالت لى: إنها قضت نهارا متعبا بالمدرسة، وأنها ترجح أن تكون مصابة بإنفلونزا: وعدلت ذلك المساء عن الخروج. وفى صباح اليوم التالى، وعقب استيقاظها بقليل تقيأت بغتة، واستلقت فى إعياء ووهن، فاقترحت عليها أن أستدعى لها الطبيب، ولكنها لم توافق قائلة: إنه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها. على أن رباب أصرت فى صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لى: أنها تشعر بأنها استردت صحتها تماما، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحى لها بالبقاء فى البيت يوما أو يومين آخرين. وعادت من الروضة فى ميعادها فوجدتها أسوأ مما كانت فى الصباح، ولكنها أصرت على أنها متمتعة بكامل صحتها، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوما أو يومين آخرين. وعادت من الروضة فى ميعادها وكنت فى بيت الخياطة ولما عدت إلى البيت فى منتصف الحادية عشرة

لم أجد رباب فى حجرتنا . وكأن صباح كانت تنتظر عودتى فجاءتنى على عجل وقالت لى :

ـ ستبيت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم لتخبرنا بذلك .

ووقع الخبر من نفسى موقع الدهشة والانزعاج ، فسألت صباح قائلا :

ـ وما الذى دعاها إلى ذلك؟

فقالت الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق :

ـ إنها بخير يا سيدى . ولقد زرتها ورأيتها بنفسى ، إلا أن حرارتها مرتفعة قليلا فلم توافق الست الكبيرة على تعريضها للهواء ، وآثرت على أن تبيت عندها حتى تنخفض الحرارة .

وغادرت الحجرة بلا تردد وأنا أقول فى حنق :

ـ لقد حذرتها من هذا ورجوتها مرارا ألا تبرح البيت .

وقابلتنى فى الصالة نفيسة «خادم أمى» وأخبرتنى بأن أمى ترجو أن أذهب إليها ، فمضيت إلى حجرتها فأفصحت لى عن أسفها وكلفتنى بأن أحمل دعاءها إلى «رباب» فشكرت لها ، وغادرت البيت حانقا قلقا .

٥٩

كان البيت نائما تشمله ظلمة إلا نورا ينبعث من حجرة الأم ، فقصدتها لا ألوى على شىء ، ووجدت «رباب» مضطجعة فى الفراش ، والأم جالسة فى فراش يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة ، فقابلتنى بابتسامة ، وانزلقت الأم من فراشها وأقبلت على وهى تقول :

ـ هذا ما قدرناه! قلنا سينزعج ويجىء من توه ، والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا .

واتجهت صوب فراش «رباب» ، وتناولت يدها ، وقلت لها معاتبا :

ـ ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟ . . ماذا بك؟ . . لماذا لم تعودى إلى بيتك؟

فابتسمت إلى وقالت وهى تشير بأصبعها إلى أمها :

ـ أردت أن أعود ولكن «ماما» لم توافق .

فابتدرتنى نازلى هانم قائلة :

ـ إن حالها لا تدعو للقلق مطلقا ، بيد أن تعرضها للهواء أمر شديد الخطورة .

فقلت بحزم :

ـ سأدعو الطبيب بلا إبطاء .

فقالت الأم :

ـ لم يفتنا هذا ، والطبيب نفسه الذى نصح بعدم تعريضها للهواء ، ليس فى الأمر خطورة ألبتة ، وستعود إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر .

وغلبت على أمرى فجلست على كنبة وثيرة تتوسط الفراشين ، بيد أن هدوء الأم الظاهر انتقل إلى رويدا ، وجعلت الأم تقول : إن الإنفلونزا بسيطة فى ذاتها ولكن ينبغى أن نتقى نكستها .

فأصغيت إليها بغير وعى على حين رنوت إلى محبوبتى بعينى وروحى ، وتطلعت إلى رباب مبتسمة ابتسامة فاترة ، يلوح فى عينيها الإعياء وقد رانت على نظرتها العذبة اللامعة غشاوة : وساد الصمت حينا ، ثم تذكرت جبر بك فجأة فسألت عنه ، فأجابتنى الأم بأنه فى رحلة تفتيشية يعود منها فى نهاية الأسبوع ، ولما دقت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت فى الانصراف ، وقبلت جبين زوجى ، وغادرت البيت .

* * *

وفى صباح اليوم التالى تركت البيت قبل ميعاد خروجى المعتاد بثلث ساعة ، وكانت «صباح» قد استأذنتنى فى زيارة رباب ، فعهدنا بشئون البيت إلى نفيسة ، ومضيت من توى إلى بيت جبر بك ، فقابلت على السلم محمد وروحية ، فسلمت عليهما وسألتهما عن رباب؟ فأجابتنى الأخت الصغيرة بأنها بخير ، ودخلت الشقة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها فى الفراش ، والأم جالسة على الكنبة ، وردت تحيتى برقة وابتسام ، ولكنى رأيت فى عينيها ذبولا شديدا كأنها لم تنم ساعة واحدة فى ليلتها الماضية ، وساورنى القلق واستحوذ على الانقباض . ولكننى أخفيت ما قام بنفسى أن أخيفها ، وقلت متعمدا الكذب :

ـ أراك أحسن حالا؟!

فقالت باستسلام أوجع قلبى :

ـ الحمد لله . .

وجلست على طرف الكنبة قريبا منها ، وثبت على وجهها عينى ، كانت عاصبة وجهها بمنديل بنى ، يبدو وجهها تحته شديد الشحوب ، وتلوح فى عينيها الذابلتين نظرة ساهمة ، فغشيت صدرى كآبة ، وضاقت بى الدنيا وبدا لى وجهها قبيحا كالحا ، ولاحظت نازلى هانم كآبتى فقالت بدهشة :

ـ ألم تجرب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدللها يا سى كامل أكثر مما ينبغى .

وسرى عنى قليلا بأن التى تستهين بالحال هى أمها، ولو كان بزوجى ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها. وملت نحو الفراش قليلا، ووضعت راحتى على خدها فوجدته ساخنا، ولكنها ابتسمت إلى وقالت:

ـ إذا كان بى تعب فالمسئول عنه أرق ألم بى الليلة الماضية، وسأسترد انتعاشى إذا ما نمت ولو ساعتين.

فقلت لها برجاء:

ـ حاولى أن تنامى مهما كلفك الأمر.

ونظرت فى عينيها طويلا، فرنت إلى دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بدا من الانصراف، فنهضت واعدا بالزيارة عقب عودتى من الديوان، وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملى، ولكن العمل لم يستطع أن يغيبنى عن نفسى، وعدت بفكرى إلى رباب فتمثلت لى نظرة عينيها الساهمة واستشعرت وحشة لم أدر لها سببا، وحاولت أن أفنى فى العمل ولكنى لم أفز بطائل، وغلبتنى على أمرى نفسى التى تخلق المخاوف من لا شىء، فاشتد بى القلق وجعلت أقول لنفسى: إن رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهى تبدو مهزولة متضعضعة فكيف أطمئن؟.. كيف أتركها؟! ولم يكن تهافت قلبى حيال أخف الملمات بجديد على، وطالما جافانى النوم لوعكة خفيفة تنتاب أمى، فلعل ذلك الخوف كان أثرا من هذا التهافت المقيم. أفظع بها من كآبة ثقيلة؟! إن قلبى ينقبض فى خوف وألم، وكأنه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق. لماذا أعذب نفسى بتجرع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذاك طويت الأوراق واستأذنت فى الانصراف معتذرا بمرض زوجى. وغادرت الوزارة فى منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق.. وكنت كلما اقتربت من البيت إزداد قلبى وحشة، حتى دخلته فيما يشبه الهلع، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشد ما كانت دهشتى حين رأيت أمامى الدكتور أمين رضا، وكان هو الذى فتح الباب، وكانت الصالة الصغرى التى يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه، ولم أكن رأيته منذ اجتماعنا فى مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة؟! وما الذى أبقاه وحده فى هذه الصالة المغلقة؟ ومددت له يدى وأنا أقول:

ـ السلام عليكم!

فمد لى يده قائلا: «وعليكم السلام»، وكأننى لاحظت أنه يحدجنى بنظرة غريبة من وراء عويناته، فقلت له:

ـ ألا تتفضل بالدخول؟

فتحول عنى وهو يقول:

- إنى منتظر فى حجرة الاستقبال.

واتجه بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحه، ودخل، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلى هانم، ولكننى ما قطعت خطوتين حتى قرع أذنى صوت غريب لا أدرى كيف أصفه، أكان تنهدا طويلا؟. أكان صراخا مكتوما؟ ولكنه كان آتيا بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، واندفعت نحو الباب، وأدرت الأكرة وفتحته، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع، واتجه بصرى إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقها، وقد التف منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن مارا بالأذنين، كانت عيناها مغمضتين، وبشرة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض مخيف. لقد بعث الوجه المعصوب فى نفسى ذكريات غامضة لم أجد وقتا لتوضيحها ولكنه حرك رعبا كامنا فى أعماقى، ثم تبين لى فى اللحظة التالية أن نازلى هانم جالسة على طرف الكنبة دافنة وجهها فى وسادة الفراش، مغرقة فى نحيب موجع، وأن «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تنتبه لدخولى.

رباه!.. هل حقا ماتت رباب؟!

٦٠

هتفت كالمجنون:

- خبرانى ماذا حدث؟

والتفتت نحوى صباح وصاحت وهى تنشج:

- سيدى.. سيدى..

ورفعت المرأة وجهها فى فزع ظاهر، وحملقت فى وجهى بعينين محمرتين، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكى، كأن محضرى كان عليها أشد من الموت، ثم شهقت وأفحمت فى البكاء. رددت بصرى بين المرأتين فى ذهول ثم استقر بصرى على الوجه المعصوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف! ونازعنى قلبى المتفتت إلى أن أرتمى على زوجى، وأن أبكى وأصرخ حتى أموت. بيد أننى لم أبد حراكا، سمرتنى قوة غريبة فى مكانى، وملأتنى قسوة وجنونا.. واجتاحتنى ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه وبطش القضاء. أبيت أن أصدق عينى، واستعصى على الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوحت بيدى للأم وسألتها بصوت كنت أسمعه لأول مرة:

ـ كيف؟ . . كيف؟ . .

فبسطت ذراعيها فى قنوط وقد خنقتها العبرات ، ولكن صباح أقبلت نحوى فى حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح :

ـ العملية المشئومة! . . لعن الله العملية .

وتحولت إلى الجارية فى ذهول وصحت بها :

ـ عملية؟ . . أية عملية؟!

وأدركت عند ذاك أننى أشم رائحة غريبة ، فأدرت بصرى فى الحجرة حتى وقع على خوان فى ركن منها صفت عليه أدوات طبية وأوعية وزجاجات وقطن . اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين ، متى جاءوا بهذا كله؟ ومتى استقر الرأى عليه؟ كيف حدث هذا؟ . . ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة ، فازداد ذهولى وحيرتى ، ثم تحجر قلبى قسوة وجنونا ، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب :

ـ أية عملية التى تتحدث عنها صباح؟

ونظرت المرأة إلى بارتياع وارتباك ثم قالت بصوت مختنق بالعبرات :

ـ اشتد حال ابنتى فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية فى الحال .

فسألتها وقد استحلت شخصا جديدا مخيفا غير الشخص الذى عرفه العالم قرابة ثلاثين عاما .

ـ فى أى عضو؟

فقالت المرأة :

ـ قال الدكتور إنه البروتون . .

وكنت أسمع الاسم لأول مرة ، ولكنى لم أبال ذلك ، وسألت بالصوت الرهيب نفسه :

ـ هل أجرى العملية؟

فقالت وهى تبكى :

ـ نعم . . وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حانقة وصحت بها :

ـ ولكن كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شىء! ألم تؤكدى لى أن الحال أبسط من أن أجزع لها؟!

فقالت بصوت تخنقه الدموع :

- اشتدت وطأة الألم فجأة! . . ما حيلتى؟ . . ما حيلتى!

فسألتها دون أن تأخذنى بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟!

فرمقتنى بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت:

- لقد بذل ما فى وسعه، ولكن قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمتت لحظة كأنها تأخذ نفسها، ثم قالت:

- الدكتور أمين رضا . .

فسرت فى جسدى رعدة شديدة، ورددت قولها فى ذهول: «أمين رضا!»، ثم هتفت بها فى غضب وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟! إنه شاب مبتدئ! . . ثم إنه أخصائى فى الأمراض التناسلية!

فتولاها الارتباك، وراحت تقول إنه كان أقرب طبيب إليها، وأنها ظنت أن الطبيب يفهم الأمراض كافة مهما كان اختصاصه، وأن الوقت لم يكن يسمح بالتردد إلخ إلخ، فانتظرت حتى انتهت وأنا أنتفض غضبا وحنقا، ثم انطلقت منى ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت:

- طبيب تناسلى ويجرى عملية فى البروتون! . . لا عجب إذا كنتم قتلتموها.

ودرت على عقبى واندفعت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:

- يا دكتــور . .

وكررت النداء، حتى جاء من أقصى البيت ممتقع الوجه، ودخل الحجرة فى خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود، فشعرت نحوه بحنق وكراهية تضيق عنهما الأرض، وبادرته قائلا:

- أخبرتنى الهانم أنك أجريت العملية التى قتلت زوجى، فهلا دللتنى على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أن الجراحة ليست من اختصاصك؟!

وبدا فى وجهه الانزعاج، وحدج نازلى هانم بنظرة غريبة أعادت إلى مخيلتى نظرة المرأة إلى صباح فطفح بى الحنق، وداخلنى شعور غامض بأنهم يدارون عنى أمرا خطيرا، وصحت به بوحشية:

- أجــبنى!

فالتفت نحوى مقطبا، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياءه الضائع، ثم قال بصوت منخفض:

ـ كانت فى حاجة إلى عملية عاجلة.

فقلت وأنا أضرب كفا بكف:

ـ لماذا لم تدعونى؟.. لماذا لم تستدعوا طبيبا جراحا؟!

فقالت الأم بجذع:

ـ لم يكن فى الوقت متسع!

فزعقت بها:

ـ ولكن كان فيه متسع لقتلها..

وحملقت المرأة فى وجهى بجنون وجعلت تردد: «قتلها.. قتلها.. قتلها!»، ثم انفجرت بغتة ففقدت صوابها، وانهالت على خديها لطما، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وخديها، ولكنها ضربت وجه الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية فى فزع، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت فى وجهينا ـ أنا والطبيب ـ بصوت كالزئير:

ـ أنتما اللذان قتلتماها.. اغربا عن وجهى:

ـ وانفلت الطبيب من الباب، ولبثت وحدى أحدجها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها.

«أنتما اللذان قتلتماها»: إن المرأة تهذى، ولن تأخذنى بها رحمة، ولن يهدأ خاطرى حتى أعمل عملا ترتج له القلوب. إنى حيال جريمة، إلا تكن جريمة جهل وغباء، ولابد أن يؤدى الثمن غاليا. لقد تمخض خضوع العمر فىّ عن ثورة جائحة وغضب نارى وشر مستطير. نسيت الجثة والحزن وتخايلت الشياطين لعينى. لتنقض الدواهى على رءوس المجرمين.

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج، وصباح تنتحب انتحابا متواصلا، فتحولت عنهما بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا ألوى على شىء، ثم مرقت إلى الخارج مهرولا كأنى أفر فرارا.

٦١

بدت الدنيا لعينى حمراء قانية. وركبنى عناد جهنمى دفعنى دفعا لا قبل لى به إلى ارتكاب أى شر أنفس به عن صدرى. وكنت فى شك من بلوغ أية نتيجة تشفى غليلى

ولكنى لم أتردد لحظة واحدة، وناديت تاكسى وأمرته أن يذهب بى إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس فى ذهنى خطة معينة أو تهمة صريحة. وجدتنى فى زحمة خانقة وصكت مسامعى ضوضاء غير مميزة كهدير البحر، فلبثت حائرا لحظات حتى رأيت شرطيا فتقدمت منه وسألته أن يدلنى على حجرة وكيل النائب، فقال لى بخشونة، «فى الطابق الثانى»، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثم استأذنت ودخلت، رأيت مكتبا فى مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل، مكبا على أوراق بين يديه، فرفع رأسه حين دخولى، وتفحصنى بنظرة ثاقبة، ثم سألنى :

ـ ماذا تريد؟

صدمنى هذا السؤال البسيط فاستحال عقلى خواء، ووقفت ذاهلا كأننى لا أدرى على وجه التحديد لماذا جئت. ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلا :

ـ ماذا تريد؟

ينبغى أن أتكلم مهما كلفنى الأمر، فقلت تاركا مقودى للسانى :

ـ زوجى.. (كدت أقول قتلت ولكنى عدلت عن ذلك خوفا).. ماتت..

فقطب الوكيل فيما يشبه الدهشة وقال :

ـ وما شأن النيابة فى ذلك؟! ولكن من حضرتك؟

وتنفست تنفسا عميقا، ووجدت رهبة الخوف تزايلنى، وعرفته بنفسى ثم قلت :

ـ إليك قصتى يا سعادة الوكيل : تركت زوجى متوعكة فى بيت أمها صباح اليوم، وعدت إلى البيت بعد مغادرتى إياه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لى أن وطأة التعب اشتدت عليها فجأة فاستدعوا طبيبا قريبا من أقرباء أمها، فرأى أن حالها تتطلب إجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر.

وازدردت ريقى وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة، ولما وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلا :

ـ الواقع أن هذا الطبيب أخصائى فى الأمراض التناسلية، فهل يجوز أن يجرى عملية جراحية؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يعد مسئولا عنها فيجب أن ينال جزاءه؟!

فصمت الرجل لحظة ثم سألنى :

ـ هل نقلت إلى مستشفى؟

ـ كلا.. أجريت العملية فى البيت حيث ترقد ميتة للآن.

ـ من الذى استدعى الطبيب؟

ـ حمــاتى . .

ـ وكيف استدعت طبيبا تناسليا لا شأن له بمرض زوجك؟

ـ لقد سألتها نفس السؤال فقالت لى أنه أقرب الأطباء إليها ، وأنها تظن أن الطبيب ، مهما كان اختصاصه ، فهو يفهم الأمراض جميعا .

ـ وهل هو الذى أشار بإجراء العملية؟

ـ نعـــم .

ـ وهو الذى أجراها؟

ـ نعم! وقد سألته كيف يجرى عملية جراحية على حين أنه ليس جراحا؟ فقال لى إن الحال كانت تستدعى عملية عاجلة .

فتفكر الرجل مليا ، ثم سألنى :

ـ هل تتهم هذا الطبيب اتهاما معينا؟

فلم أفهم ما يعنيه ، ورنوت إليه فى حيرة دون أن أنبس بكلمة ، فسألنى :

ـ هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامه بقتلها عمدا؟

فخفق قلبى ، وهززت رأسى سلبا ، فقال متسائلا :

ـ هل تشك فى حدوث خطأ أثناء العملية أدى إلى الوفاة؟

ـ هذا جائز جدا يا سعادة البك ، ولن يكون مجرد خطأ ، ولكنه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة ، فمسئوليته لا شك فيها .

فعاود التفكير مرة أخرى ثم قال :

ـ لا أستطيع أن أفضى برأى قبل أن يفحص الطبيب الشرعى الجثة ، ويوضح أسباب الوفاة .

فاستحوذ على خوف وكآبة ، ولم أطق تصور عبث الطبيب بالجثة ، وفاض بى الألم فقلت :

ـ هلا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أولا؟

فلم يحفل باعتراضى ، وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقما ، ثم سمعته يحادث الطبيب الشرعى ، ثم سألنى عن عنوان البيت ، وطلب إليه أن ينتقل إليه ليفحص الجثة ويكتب تقريرا عن سبب الوفاة ، وأنهى الحديث ثم التفت نحوى قائلا :

ـ إذا كان ثمة مسئولية جنائية فسأذهب للتحقيق .

وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسمية وقد فقدت تهورى ، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه . ليس الأمر لعبا ، إنه نيابة وطبيب شرعى وبوليس وفضيحة وقيل

وقال، وقد يتمخض التحقيق عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقيل والقال، بأى وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها وأهلى والناس جميعا؟! أو لم يكف زوجى ما قدر لها من مصير تعيس حتى أجعلها معرضا للأطباء الشرعيين ومضغة للأفواه؟ واحر قلباه! هكذا عدت صوب البيت مثقل النفس بالهم والفكر، ولما طالعتنى العمارة توقفت مترددا وقد أهاب بى نداء أن أنكص هاربا! ولكن لم يكن لى مهرب، ولم يكن بد من أن أتجرع مرارة الكأس حتى الثمالة.

ودققت الجرس، ثم دخلت واجما مستخذيا.

٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان مواربا، ولم يكن بالبيت أثر من الضجة التى تشمل البيوت حين الموت، فتولتنى دهشة عفت على اضطراب نفسى. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة فكيف لم يطيروا الخبر المفجع إلى بيوت الأهل والأقارب! وعاودنى شعور الارتياب والحنق.

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التى فتحت لى - وكانت ملتهبة العينين من البكاء - وسألتها ألم يحضر أحد؟

فهزت رأسها سلبا فى صمت وحزن، فأشرت إلى باب حجرة الاستقبال الموارب وسألتها:

- هل ثمة أحد هنا؟

فغمغمت قائلة «الدكتور أمين» فانتفض جسمى غضبا ومقتا. ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التى ترقد فيها رباب فى أقصى البيت. لبثت وحيدا فى الصالة الصغرى لا أدرى ماذا أنا فاعل. تنتابنى مشاعر الرهبة بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التى يثيرها فى نفسى الجو المحيط بى. ثم سمعت وقع أقدام آتية من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلى هانم مكللة فى السواد، فألقت على نظرة باردة وسألتنى بانفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدى؟

فاستثار منظرها وسؤالها خوفى وشعور الخزى الذى ركبنى منذ فارقت دار النيابة ولم أعد أطيق حبس السر الرهيب فى صدرى: نازعتنى نفسى إلى الاعتراف، وإلى لقاء الخطر وجها لوجه، فقلت بهدوء:

ـ ذهبت إلى النيابة وطلبت إجراء التحقيق!

فاتسعت حدقتاها وفغرت فاها، وجعلت تحملق فى وجهى كأنها لا تصدق ما سمعت أذناها، ثم غمغمت بذهول:

ـ النيــابة!

فقلت بهدوء رهيب، وبصوت مرتفع لأسمع من فى حجرة الاستقبال:

ـ أجل ذهبت إلى النيابة وسيجىء الطبيب الشرعى إلى هنا عما قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجا من الثوى، فوقف غير بعيد ممتقع اللون ساهم الطرف، وعادت المرأة الذاهلة تسأل:

ـ وأية تهمة وجهتها إلينا؟

فقلت وأنا أتملى الحقد والتشفى بوحشية:

ـ ليس ثمة تهمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير نجمت عنه الوفاة، خطأ خليق بأن يقع فيه من ليس له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح العباد!

وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهتفت بى:

ـ كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك للنيابة؟

ووخزنى ألم عميق فكادت تنهار قواى، ولكنى غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلا:

ـ يهون على ذلك ألا تضيع حياتها هدرا!

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئا ولكن الجرس دق بقوة هلعت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحته، فبدا شرطى ابتدرنى قائلا:

ـ هل توجد فى هذه الشقة المرحومة حرم كامل أفندى رؤبة الموظف بالحربية؟

فأجبته بالإيجاب، فتنحى الرجل جانبا وهو يقول «سعادة الطبيب الشرعى»، ودخل رجل ربعة يحمل حقيبة طبية وتبعه الشرطى على الأثر، وصادف الطبيب الشرعى الدكتور أمين فى مواجهته فسأله:

ـ هل حضرتك الزوج الذى بلغ النيابة؟

فقلت له وأنا أغلق الباب:

ـ أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذى أجرى العملية.

وردد الطبيب عينيه بيننا فى دهشة، وجرت على شفتيه ابتسامة خفيفة، ثم سأل الدكتور أمين قائلا:

- أى عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض :

- عملية فى البروتون .

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب فى البروتون نتيجة خطأ خارج عن إرادتى . .

وقلت عند ذلك فى انفعال شديد موجها خطابى للطبيب الشرعى :

- اسأله يا سعادة الطبيب عما جعله يجرى عملية جراحية وهو ليس جراحا . .

فتردد الرجل لحظات ثم قال بصوت مرتفع :

- لقد جئت لمهمة أخرى . أين الجثة من فضلكم؟

وكانت نازلى هانم واقفة بمكانها على كثب من باب الصالة الكبرى تردد عينيها المحمرتين فى وجوهنا فى صمت وذهول ، فلما سمعت الطبيب يسأل عن مكان الجثة ندت عنها آهة وهتفت بلا وعى قائلة :

- هذا لن يكون أبدا . .

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثم قال لها برقة :

- تجملى بالصبر يا سيدتى . .

وألقت علىّ المرأة نظرة مشتعلة بالغضب ثم عادت إلى الطبيب تقول برجاء :

- إن المتوفاة كريمة رجل من كبار موظفى الدولة ، جبر بك السيد ، كبير مفتشى الوجه البحرى ، لعلك تعرفه يا سيدى ، فارحم ضعف امرأة مثلى وانتظر عودته ، لقد أبرقت له بالفاجعة :

فقال الطبيب برقة :

- ينبغى فحص الجثة بلا إبطاء حتى يمكن التصريح بدفنها فى الوقت المناسب ، لا تفزعى يا سيدتى فسينتهى كل شىء فى دقائق . .

وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت تنشج باكية ، على حين سرت أنا بين يدى الطبيب إلى حجرة رباب! ولما بلغت الباب جاءنى نحيب صباح من الداخل ، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتينى الشجاعة على النظر صوب الفراش ، ولبت الجارية ندائى فنحيتها جانبا موسعا للطبيب الذى دخل الحجرة بلا تردد ، ثم رددت الباب وراءه ، وسألتنى الجارية عن الرجل الذى جئت به فنهرتها فى جزع ودفعتها خارج الصالة . ورحت أذرع المكان جيئة وذهابا فى اضطراب شمل أعصابى . جميعا ، ورانت

على صدرى كآبة قاتلة، فتصورت جثة زوجى الحبيبة بين يدى هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار، ويعبث بها فى برود لا يعرف الرحمة.

لقد ند عنى أنين موجع، وشعرت بألم حاد يمزق قلبى إربا، ومرت بى لحظات ذهول فخيل إلى أنى فريسة كابوس شيطانى، وتلفت فيما حولى كأنما أتلمس منفذا للنجاة. ولكن هل نسيت الوجه الشاحب المعصوب يجثم على جبينه شبح الموت الرهيب؟ رباه.. إنى أثوب إلى نفسى رويدا رويدا، تاركا دنيا الجنون الذى ركبنى إلى عالم الفجيعة الواقع، تمثلت لى الحقيقة المروعة فى شىء من الهدوء المحزن فكأننى أدرك لأول مرة أن رباب قد ماتت حقا. لم تعد من الأحياء: وخلت منها حياتى إلى الأبد. لن تعود إلى بيتى كما قالت أمها، ولن أصحبها صباحا إلى الترام، ولن أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهى تغالب التعب بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الريان، وانطفأ الحب الباهر، وصوّحت آمال وآمال. أين منى ذاك التاريخ السعيد الذى بدأ على طوار المحطة، فنسج ذكرياته من مادة الحب الأثيرية، وطاف بى فى وديان السعادة، ثم خلقنى خلقا جديدا، أين منى هذا التاريخ الساحر، هل انتهى حقا فى دقيقة من الزمان بخطأ طبيب أحمق؟.. وما ذنبى أنا؟.. الموت كارثة فظيعة بيد أنه غير مقنع! ألم أكن أحدثها منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة اليانعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدق أنها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم أنها حية فى نفسى، إنى أراها رؤية العين، وأسمعها! وألمسها، وأشمها، إنها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدرى إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة - ولكنها أعادتنى إلى وعيى فعلق خاطرى بالطبيب وما يفعله. عاودنى اضطرابى وقلقى ومخاوفى، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشىء ذى بال؟

كيف ألقى القوم فيما بعد؟ لشد ما تمنيت أن ينزل الله عقابا بالقاتل؟ بيد أننى لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لى سبيلا إلى نفسى أو عقلى. وطال الزمن واستطال حتى خيل إلى أنى شخت وهرمت وأنى أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شىء، وتقدم خطوات فصار فى منتصف الصالة، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة:

- لقد انتهيت من كتابة تقريرى، وسأحوله إلى النيابة فى الحال، وأظنه يستوجب تحقيقا عاجلا..

٦٣

كان ينبغى أن أشعر بارتياح وتشف، ولكن خارت قواى فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساقى واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث فى فترة الانتظار التى أعقبت خروج الطبيب إلا اندفاع نازلى هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصاعد النواح والبكاء. ولاحت منى نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت ا لدكتور أمين رضا يذرعها فى بطء وتثاقل، وقد جلس الشرطى على كرسى عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دق الجرس، فنهض الشرطى وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطى، وخفق قلبى فى ارتياع لرؤية رجال الحكومة، ونهضت قائما واتجهت صوب الرجل، ثم رفعت يدى بالتحية. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها توا يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بهما، فانتظرت خارجا: ولم يطل غيابهما فعادا مرة أخرى، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا فى أثره، وجلس على كنبة، واقتعد الكاتب كرسيا قريبا باسطا أوراقه على نضد. ووجه إلى أسئلة عن اسمى وعمرى ووظيفتى وطالب إلىّ أن أروى معلوماتى عن الحادث. فصدعت بأمره والكاتب يسجل كل كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون، وسمح له بالجلوس أمامه، ثم وجه إلىّ الخطاب قائلا:

- بوسعك أن تبقى معنا إذا شئت!

وخيل إلى أنى وجدت فى لهجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتى فى حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التى جلس عليها المحقق وقد ملكتنى الرهبة والتأثر: وبدأ الرجل يلقى عليه أسئلة عامة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:

- أخبرنى كيف اتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استدعيت إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحا فوجدتها فى حال سيئة من الألم، ففحصتها فتبين لى أن البروتون ملتهب وأنه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجراءها إنقاذا لحياة المريضة، وأعلنت رأيى لأمها فوافقت، وفى الحال أجريتها، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقبا خطيرا، وذهبت مجهوداتى فى إنقاذها سدى، فتوفيت..

- هل سبق لك أن عالجت المتوفاة؟

ـ كــلا . .

ـ ولا فى هذا المرض الأخير؟

ـ كلا ، وقد علمت أنها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنوبة برد .

ـ هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيما يلم بها من أمراض؟

ـ لم يحصل هذا ، إلى أنى لم أزاول مهنتى إلا منذ شهور تجاوز العام ، ولا أذكر أن أحدا من الأسرة قد مرض فى هذه الفترة . .

ـ هل تظنهم كانوا يستدعونك فى مثل هذه الحال؟

ـ الواقع أنهم استدعونى فى أول حال عرضت لهم .

ـ ألا يعرفون اختصاصك؟

ـ بلى ولكن شدة الحال جعلت الأم تستنجد بى ، لقرب عيادتى من ناحية . وللقرابة التى تربطنى بها من ناحية أخرى .

ـ لا أرى فى هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر فى اختيار الطبيب ، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحال مرضية تعلم أنها ليست من اختصاصك؟ ألا يشير الأطباء فى أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟

ـ رأيت اللياقة تقضى بأن ألبى الدعوة على الفور ، فذهبت وفى ظنى أنها حال إغماء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يعجز طبيبا على الإطلاق ، وأظن هذا ما دار بخلد الذين استدعونى .

ـ ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصورت فكيف كان تصرفك؟

فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره فى ارتباك وترو ، فبادره المحقق قائلا :

ـ لماذا لم تشر باستدعاء جراح؟

ـ كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة .

ـ هل مارست الجراحة قبل ذلك؟

ـ فى الكلية طبعا!

ـ أعنى بعد ذلك؟

ـ كــلا . .

ـ يدهشنى أن أتصور إقدامك على إجراء هذه العملية الخطيرة .

فقال الدكتور أمين وقد تغيرت نبرات صوته قليلا واعترتها حدة عصبية :

ـ قلت إن الحال كانت خطيرة وتستدعى إجراء سريعا!

ـ وكيف أحضرت الأدوات الطبية اللازمة لهذه العملية! هل كانت توجد بعيادتك؟

ولأول مرة تردد الدكتور قبل الإجابة، ثم قال:

- كـــلا! . .

- كيف أتيت بها؟

- من زميـــل.

- جـــــراح؟

- أجـــــل . .

- ولماذا لم تحضره؟

- كان مرتبطا بعمل فى نفس الوقت . .

- من عسى أن يكون هذا الدكتور؟

فتـردد مـرة أخرى، ثم تورد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض:

- الحق أنى أحضرتها من المستشفى، مستشفى فؤاد الأول.

- بصرف النظر عما إذا كان هذا التصرف سليما أم لا من الناحية الإدارية. ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنك لابد منفق وقتا غير قصير فى إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعى جراحا خصوصا وأن استدعاءه لم يكن يستنفد من الوقت أكثر مما يستنفده إحضار الأدوات؟

فتفكر مليا ثم بارتباك ظاهر:

- كنت متأثرا بحال المريضة فلم أفكر فى هذا . .

- الأقرب إلى المنطق أنه كان ينبغى أن تفكر فى هذا بسبب هذا التأثر نفسه. وهب الحق كما تقول، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الأخصائيون بوفرة؟

- لم توافق أمها على نقلها . .

- ألم يكن هذا أقل خطورة من تسليمها ليد غير خبيرة؟ ولكن لندع هذا الآن . .

وبسط المحقق صحيفة بين يديه، جرى بصره على سطورها، ثم قال وهو يعتدل فى جلسته:

- ما رأيك فى هذا، إنى أراجع الآن تقرير الطبيب الشرعى فإذا به يؤكد أن التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التى تتحدث عنها كما تستوجبه بعض حالات الزائدة الدودية مثلا، فما رأيك فى هذا؟

فلاذ الدكتور بصمت عميق، ونم لمعان عينيه عن تفكيره وقلقه. وعاد المحقق يقول:

- ويقول أيضا إن العملية تستدعى بضع ساعات للتأهب لها يتناول المريض فى أثنائها شربة عادة، ألم تعلم بهذه المبادئ الأولية فى فن الجراحة؟

ـ علمت أن المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تذق بعدها طعاما . .

ـ هل أخذتها استعدادا للعملية؟

ـ كلا . . أخذتها بسبب ما ظن بها من برد، أما فكرة العملية فلم تنشأ إلا بعد حضورى اليوم .

واشتد انتباهى عند ذاك، وعجبت كيف لم يذكر لى أحد أن زوجى تناولت شربة . وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو فى تاكسى، وداخلنى شعور ثقيل بالغموض والحيرة .

وعاد المحقق يقول :

ـ إنى حيال عملية أجريت بسرعة جنونية لغير ما سبب فنى يستدعى ذلك، وبيد طبيب غير جراح كان بوسعه ولا شك أن يدعو جراحا مختصا . . فما معنى هذا؟

وألقى المحقق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردد بصرى بينهما فى قلق متزايد وخوف غريب . وبعث الاضطراب فى نفسى توترا حادا . ثم سمعت المحقق يقول :

ـ إنى أتساءل عن الضرورة التى حتمت أن تكون أنت الجراح، وفى هذا الوقت بالذات؟

ـ وسكت مليا ثم استدرك متسائلا :

ـ وما سبب الوفاة؟

ـ ثقب البروتون . .

فقال المحقق ببرود :

ـ يقرر الطبيب الشرعى غير هذا :

فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكرا .

ـ فما عسى أن يكون السبب إذن؟

ـ هذا ما يخلق بك أن تدلنى عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتر العصبى :

ـ لا أفهم ماذا تعنى . .

ـ سأزيد لك المسألة بيانا، يقرر الطبيب الشرعى أن البروتون قد ثقب حقا ولكن يؤكد أنه لا يوجد به شىء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأن حاله لم تكن لتستدعى علاجا على الإطلاق فضلا عن عملية جراحية!

ـ ولكنى أجريت العملية بنفسى .

ـ لم تجر عملية على الإطلاق فيما عدا ثقب البروتون .

فقال الدكتور بصوت متهدج وبحدة غاضبة :

ـ أتريد القول بأنى ثقبت البروتون بلا داع ! . . ما معنى هذا؟ . .

ـ أنت ثقبت البروتون فقتلتها !

ـ فى أثناء إجراء العملية . .

ـ أؤكد لك أنك لم تجر عملية البروتون . .

فصاح الدكتور فى غضب :

ـ أتتهمنى بأنى تظاهرت بإجراء العملية كى أقتلها؟ . . أتتهمنى بالقتل يا حضرة المحقق؟

فقال المحقق بهدوء :

ـ إننى أتهمك بالقتل حقا، وستوافقنى عما قليل على رأيى . وسترى بنفسك ـ بغير حاجة إلى نصيحتى ـ أنه لن يهيئ لك بعض النجاة إلا الصدق والصراحة .

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهما، وركبته حال تعسة من القهر . أما المحقق فقد ألقى نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعى، ثم استطرد قائلا :

ـ لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب فى تجهم، وفيما يشبه اليأس :

ـ لقد أجبت على هذا من قبل !

ـ يجدر بك ألا تتغابى وأنت بلا شك شاب ذكى، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سببا ظاهرا «مشروعا» للوفاة التى ظننتها لا محالة واقعة . .

أطرق الدكتور صامتا وبدا كشخص يعترف مستسلما، واستطرد المحقق قائلا :

ـ كنت تجرى عملية حقا ولكن فى موضع آخر من الجسم، ثم حدث ثقب خطأ فى هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنه سيقضى على المريضة حتما فما عسى أن تفعل؟ لو عرف سبب الوفاة الحقيقى لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهى غير مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية، وهى أن تثقب البروتون فيظن أنه سبب الوفاة، ثم تدعى كذبا بأنك كنت تجرى عملية فى البرتون، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية غير المشروعة، أما قتلك مريضا خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمريضة لم تمت من الثقب الأول ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون .

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه :

ـ كلا . . كلا . . لقد توفيت تماما قبل أن أثقب البروتون . . !

وجرت على شفتى المحقق ابتسامة خفيفة، ألقى على الدكتور نظرة ظافرة، على حين أطبق الآخر شفتيه فى صمت وذهول، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق فى حنق وقنوط بدا لى وكأنه قد صرع تحت وقع ضربة قاضية فغلب على أمره. بيد أننى لم ألق بالا إليه. وكان عقلى ينتفض حرارة حركة وهياجا، عملية غير مشروعة! عملية البروتون ما هى إلا خدعة زائفة للتستر على جريمة! إما أن أكون مجنونا أو يكون الرجلان مجنونين!.. توفيت تماما قبل أن يثقب البروتون!.. رباه! أكاد أخرج عن طورى فينفلت لسانى هاذيا رغم وجود هذا المحقق المخيف. على أن المحقق خرق الصمت الثقيل قائلا فى هدوء:

- اتفقنا، وأظن أنه آن أن تعترف بأنه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعا لإجراء عملية إجهاض!

لم يتوقف عند هذا الحد، ولكنه واصل حديثه، ولعله ذكر فيما قال البنج وأثره أو شيئا من هذا القبيل، ولعل الآخر نطق ببضع كلمات كذلك، ولكنى لم أعد أعى شيئا مما يقال. تعلق ذهنى بقوله: «عملية إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت على هذه العبارة فشطرتنى شطرين، ثم مزقتنى إربا، ودوت فى رأسى حتى ذهلت بها عن كل شىء، غاب الرجال الثلاثة عن ناظرى. وغابت الحجرة، ورأيت فراغا مخيفا تمتزج فيه الحمرة بالسواد، وتتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر.. عملية إجهاض.. كانت رباب حبلى! الخطاب. هذا الطبيب الشاب.. يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة، ساخرا من شكى الذى دفعنى إلى التجسس حينا، هازئا بالطمأنينة التى آويت إليها سادرا حينا آخر.. إن المحقق يسعى جاهدا وراء جريمة طبية، وسيعثر فى طريقه الشائك بجريمة أدهى وأمر. ألم يحدس قلبى الكارثة فى بادئ الأمر؟! أيكون الطبيب هو صاحب الخطاب؟ أم أنهم استشفعوا بقرابته على التستر والكتمان؟ ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل شىء.. كل شىء عن حياتى الزوجية، وزلة ابنتها، ولعلها أرادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هتك الموت تدبيرها. آه يا رباب! إن كل عذاب نصاب به فى هذه الدنيا حق وعدل لأننا نتفانى فى حبها على حين أنها لا تستحق إلا المقت.

واستيقظت على صوت المحقق وهو يهتف بى: «هو.. اصح!» فرفعت إليه عينى مرتجفا وعدت رويدا رويدا إلى الشعور بما حولى. قال الرجل:

- إنى أسألك ألم تصارحك زوجك بكراهيتها للحبل؟ ألم تفض إليك برغبتها فى إجهاض نفسها؟

واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت لنفسى إنه يعلم السر كله من بادئ الأمر، ولعله يعلم أضعاف ما أعلم، فعز على أن أكذب وأن أعرض نفسى لإهانة جديدة، وتمتمت قائلا:

ـ كـــلا . .

ـ أكنت تراها مسرورة بحبلها؟

فقلت فى غير مبالاة وقنوط :

ـ لم أعلم أنها كانت حبلى إلا هذه الساعة!

فارتفع حاجبا المحقق فوق عويناته ، وثبته على عينيه وهو يقدح فكره ثم سألنى :

ـ كيف تعلل إخفاءها الأمر عنك؟

لشد ما زلزلنى هذا السؤال! إنها كلمة واحدة ثم يصبح سرى نادرة المتندرين . إن مشاعر الحقد والانتقام تستفزنى جميعا إلى نشر هذا السر الدفين كى أهتك سر الآثمة وأنزل انتقامى بالمجرم . أريد أن أقول إنه لم يكن فى حياتنا ما يدعو إلى الحبل ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق . ولشد ما نازعتنى نفسى إلى ذلك ، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرفى لسانى . بيد أننى لم أنبس بكلمة ، وحل بى شلل عام لا أدرى ما كنهه . هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى فى مثل هذا الحال؟ . . هل يمكن أن تفوق رغبتى فى التستر على عجزى تحرقى إلى الانتقام؟ لم أستطع التفوه بالكلمة الفاصلة ، وكلما مرت ثانية ازددت عجزا ونكوصا ، ثم تمتمت قائلا وأنا ألهث :

ـ لا أدرى . .

وما أدرى إلا والدكتور ينتفض واقفا ثم يتراجع خطوتين شابكا ذراعيه على صدره فى تحد وكبرياء وغطرسة! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة :

ـ تسأله عما لا يدرى ، إنها لم تكن زوجه إلا رسميا فحسب ، وإنى أنا المسئول عن كل شىء من البداية إلى النهاية . .

٦٤

غـــادرت البيت دون أن أرى أحدا مـن أهـله ، فلـم يعـد البـيت بيتى ولا الأهل أهلى . ووقفت عند باب العمارة فجرى بصرى إلى المحطة ، محطة الذكريات ، وطاب لى أن أردده بينها وبين الشرفة ، ثم أغمض عينى لأرى موكب الذكريات يمر كلمح البصر ، صورة صادقة من الحياة ، جامعا بين طرفى ملهاتها ومأساتها . ثم انطلقت فى الطريق بلا غاية كأنما أجد فى الهروب ، استحال قلبى جمرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشقاء والمقت . وقد خيل إلى أن هذه الدنيا العاكفة على همومها ستتناسى شجونها غدا وتغرق فى الحديث عن فضيحتى ، على أننى لم أكن قد أفقت من دهشتى

ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الهائلة! لقد هاضنى الجبن فكتمت الحقيقة، ووهبته بذلك فرصة للهرب لو أراد هربا، ولكنه انتفض واقفا غاضبا، وألقى بالحقيقة من بين شفتيه فى غطرسة وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدرى، أنها لم تكن زوجة إلا رسميا فحسب». رباه، لماذا لم أدق عنقه. . لماذا لم أرم بنفسى عليه وأنشب أظافرى فى قلبه. . لتلهبننى هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذى جعله يرمى بنفسه إلى الهلاك!

هل حمله اليأس من تبرئة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راعه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسه فى ساعة يأس إلى أن يشاطرها المصير الأليم؟ أهى ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معا؟! من لى بأن أطلع على سر هذا القلب المتغطرس؟ بيد أننى أزددت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلق به أن ينتهز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه، ويستر شرف المرأة التى أحبها. . وأحبته؟!. أتراه نادما الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسة وعجرفة؟. . إنه لغز، وسيظل لغزا بالنسبة لى إلى الأبد، وكان قلبى متورما من الحقد والغضب فوجدت فى المصير الذى قضى عليهما به - هى فى القبر وهو فى السجن - راحة وغبطة.

وكانت قدماى قد حملتانى إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهربا خيرا من حدائق قصر النيل فاتجهت صوب الجسر. . آه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاما! ولم يدر لى بخلد أن أشيع جنازة المرأة التى كانت زوجا لى، إذ لم يعد بوسعى أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوجت حقا؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصح، ولشد ما تملك الدهشة أهلى اليوم أو غدا إذا علموا بأن زوجى ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشييع الجنازة، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهيهم التندر بها عما عداه، ويا لها من أحدوثة حقيقة بأن تحيى محافل السمر! وتقبض قلبى وشعرت ببرودة تسرى فى أطرافى. لشد ما تعاودنى تلك الرغبة القديمة فى الهرب! أين منى بلد بعيد لم يطرق أبوابه طارق، من لى بأن أقطع كل صلة تربطنى بماضى البغيض! آه لو يمكننى أن أولد من جديد فى عالم جديد لا تطالعنى فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم، أجل لن أستطيع أن أواصل حياتى على حين يتبعنى هذا الماضى كالظل الثقيل. . وقضيت بقية النهار متخبطا فى الطرق أو جالسا شاردا فى الحدائق، لا أشعر بحر ولا ببرد، ولا بظمأ، حتى آذنت الشمس بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رءوس الشجر، فعدت من حيث أتيت فى خطو ثقيل، وبلغت ميدان الإسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكتنى الحيرة ولم أعرف لنفسى مذهبا، ثم وثبت إلى ذهنى صورة الحانة فجأة فتنهدت من الأعماق، وندت عن أعصابى المتوترة

المكلومة آهة ارتياح كأنما حظيت بفرحة بعد طول اختناق. وفى اللحظة التالية كان التاكسى ينطلق بى إلى شارع الألفى. بيد أن ارتياحى ولى سريعا، وحل محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا يجمل بى أن أولى وجهى وجهة أخرى! وغادرت التاكسى حيال الحانة ولكنى لم أمض إليها، ورحت أتمشى على الطوار فى خطى بطيئة مثقل الرأس والقلب، وغلبنى اليأس، فانسقت معه إلى داخل الحانة وانتبذت ركنا منفردا، وشربت كأسا وأخرى، وعللت، وما تكاد رأسى تستجيب للخمر، ولكننى شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما كدت أفرغ حتى حل بى تعب شمل معدتى ورأسى وأعضائى جميعا فكأن جهد اليوم المبرح قد وجد غرة فزحف على بجحافله وناخ على بكلكله، ونهضت مترنحا، وغادرت الحانة إلى تاكسى واقف غير بعيد، فانطلق بى صوب قصر العينى، علانى التعب والجهد، وسرى فى جسدى تخدير، وتولانى شعور طارئ بعدم المبالاة، فرمقت مأساتى بعين ساخرة، فبدت لى لحظة كأنها مأساة شخص غريب، أو كأنها انتزعت من حياتى الخاصة واحتلت موضعها من موكب المأساة الإنسانية العامة. وجعل التاكسى يطوى الطريق حتى شارف موقع العمارة التى امتحنتنى بها الدنيا، وانطلق بصرى صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبى وتوالت ضرباته فرأيت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلى منهما مصباحان كبيران مضاءان. قضى الأمر..

٦٥

ذكرت وأنا أرتقى سلم بيتنا أمى فارتعدت فرائصى واستحوذ على حنق فظيع كأنه شيطان، ترى ماذا أحنقنى؟.. وسألت نفسى فى حيرة عما عسى أن أقول لها.. رباه! ما الذى جاء بى إلى البيت؟ هل ظننت أنه يسعنى أن أقضى هذه الليلة فى حجرة «رباب» وعلى فراشها؟ على أننى واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء محتوم، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفر، وجاءنى صوت أمى وهى تتساءل فى لهفة وجزع قائلة: «من؟» فجمدت فى مكانى غاضبا حانقا ثم قلت بخشونة: «أنا» فهتفت بى بصوت باك:

ـ كامل. تعال يا بنى..

فخفق قلبى بعنف، وأيقنت أنها علمت بمصير «رباب» وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة فى الفراش، فمدت إلى يديها وهى تنشج باكية وقالت بصوت تخنقه العبرات:

ـ ليتنى كنت فداءها.. كان ينبغى أن تبقى هى لك..

فوقفت فى وسط الحجرة متجاهلا يديها الممدودتين، وسألتها فى جمود وغلظة:

ـ كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق:

ـ كيف نسيت يا بنى أن تخبرنى؟ إنى أدرك من هذا شدة حزنك. وقد تفتت قلبى رثاء لك.. ليتنى كنت الفداء لك ولها، أنا العجوز المريضة، ولكنه قضاء ربنا.

لم ينل تأثرها من جمود نفسى، فلم أستجب لها، وسألتها وكأننى لم أسمع كلامها:

ـ كيف علمت الخبر؟

ـ لقد انتظرت عودتك اليوم فى قلق، ولما أن جاء المساء ولم تحضر بلغ منى الخوف، فوصفت للخادم موقع العمارة وأرسلتها إلى هناك، فعادت إلى بالخبر الأسود..

ورمقتها بنظرة مستريبة وسألتها بصوت منخفض:

ـ هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهى تقول:

ـ كلا يا بنى! ولا زلت فى حيرتى وذهولى، أسفى على الشابة المسكينة، كيف وافاها الأجل على غير ميعاد؟

وداخلنى ارتياح سرعان ما فتر وخمد.. ففيم أخدع نفسى براحة كاذبة وما من قوة فى الأرض تستطيع أن توارى فضيحتى؟ وأضجرنى بكاؤها، ووقر فى نفسى أنه أمارة حزن كاذب مما يصطنعه النساء فقلت بفظاظة:

ـ ماتت كما يموت الناس آناء الليل وأطراف النهار، وكما مات جدى وأبى وكما سنموت جميعا..

وضغطت على «جميعا» فى حنق، ثم بادرتها متسائلا فى سأم:

ـ لماذا تبكين؟

فرنت إلى خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت:

ـ وددت لو كنت فداءها:

فغلبنى الإنفعال وقلت بحدة:

ـ كذب؟!.. محال أن يرضى إنسان بأن يفتدى آخر من الموت.. أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة؟!

وأحدقت فى وجهى بارتياع، ثم غضت بصرها فى وجوم وألم، وساد الصمت مليا، حتى خرقته متمتمة:

ـ أسأل الله أن ينزل سكينته على قلبك:

فقلت بجفاء:

- لا حاجة بى إلى الدعاء. بيد أننى أكره الرياء، ولا يمكن أن أنسى أنك أبغضتها حتى قبل أن تقع عليها عيناك.

فرفعت إلى وجهها فى استعطاف وألم وقالت:

- كامل! رحمة بأمك.. يعلم الله أننى لا أخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد يخلو منه بيت..

ولكنى لم أرحمها، ولم أفهم فى الوقت نفسه كنه القوة التى دفعتنى إلى تذكيرها بالماضى الأسيف كأنما آسى حقا على «رباب»، بل غاليت فى الحنق عليها كما لو كانت السبب فيما حل بى من كارثة، وضاعف من حنقى ما وقع فى نفسى من أنها تدارى بهذا الحزن فرحا وشماتة، فأردفت فى غضب قائلا:

- الحق أن الدنيا لا تسعك من الفرح!.. إنى أعرفك حق المعرفة كما أعرف نفسى سواء بسواء، فلا تحاولى خداعى، أنك تدارين فرحك بهذه الدموع الكواذب.

فتأوهت هاتفة:

- كامل لا تقس على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها علم الله، يحزننى ما يحزنك..

فبدرت منى ضحكة باردة كفرقعة السوط فى الهواء وقلت:

- لأزيدك فرحا فاعلمى أنها لم تمت ولكن قتلت!

فحملقت فى وجهى فى فزع ولعلها خافت على الجنون وغمغمت:

- اللهم لطفك:

فصحت باستهانة وجنون:

- قتلت حين كان الطبيب يجهضها.

فضربت صدرها بيدها وهتفت:

- يجهضها! وهل كانت حبلى؟ رباه لم أكن أعلم هذا.

- ولا أنا!.. أخفته عنى لأننى لم أكن أبا الجنين..! وصرخت أمى فى فزع:

- كامل: رحمة بنفسك، رحمة بى، أنت لا تدرى ماذا تقول.

- بل أدرى أكثر مما تتوقعين، لقد عرفت فى يوم ما لا يعرفه مثلى فى جيل، قلت لك أخفت الأمر عنى وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها..

- اللهم لطفك يا أرحم الراحمين.

- ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعا فلن أعبده بعد اليوم! أما أنت فلعلك تقولين لنفسك فى سرور غريب: «لقد نالت الآثمة بعض ما تستحق من جزاء، لقد حدثنى قلبى بذلك من أول يوم ولكنك لم تصغ إلى!».

فزفرت أمى فى شقاء وتعاسة وقالت بصوت كالأنين :

ـ لشد ما يحزننى كلامك ، إنك تقتلنى بلا رحمة .

فصحت بها كالمجنون :

ـ اشمتى ما شاءت لك الشماتة ، ولكن إياك أن تتصورى أننا سنعيش معا ، انتهى الماضى بخيره وشره ولن أعود إليه ما حييت . سأنفرد انفرادا أبديا . لن أعيش معك تحت سقف واحد ، وسأطلب من الوزارة نقلى إلى مكان قصى أقضى فيه البقية من عمرى .

أشرق الدمع بعينيها وعقد الألم لسانها ولبثت ترنو إلى فى فزع ووجوم . وكأنه لم يكفنى ما قلت فأردفت مرغيا مزبدا :

ـ اذهبى إلى أختى أو إلى أخى واحسبينى منذ اليوم فى عداد الأموات .

ووليتها ظهرى وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع أذنى . .

٦٦

لم يخطر لى لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتى ، كان ذلك أبعد شىء عن تصورى ، حتى النظر إليها تحاميته ، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتميت على الكنبة فى إعياء وقنوط ، ومضى الليل ثقيلا مضجرا فلم يعد نصيبى من النوم إغفاءات متقطعات تتخللها أحلام مزعجة . ثم أخذ خصاص النوافذ ينضح بنور خافت إيذانا بمطلع الصبح فتنفست الصعداء وتمطيت متعبا ، ثم نهضت قائما وغادرت الحجرة مدفوعا برغبة فى الهروب والاختفاء . واقتربت من الباب الخارجى فى خطو خفيف حذر حتى وضعت يدى على مقبضه ، ولكنى جمدت مترددا دون أن أبدى حراكا ، ثم تراجعت فى سكون نحو حجرة أمى ، ودفعت بابها الموارب فى حذر بالغ وأدخلت رأسى . كان شخير الخادم يتصاعد فى انتظام ، وعلى الفراش رقدت أمى فى سكون عميق لا يكاد يرى من وجهها إلا نصفه الأعلى . ألقيت عليها نظرة قصيرة ، ثم تراجعت إلى الخارج ، واتجهت نحو الباب الخارجى مرة أخرى ومرقت منه ثم أغلقته دون أن أحدث صوتا ، وترامى إلى أذنى ، أو خيل إلى أن صوتا يهتف بى ، فظننتها استيقظت على حذرى وحرصى وأنها تنادينى . وتوقفت ويدى على الدرابزين على حين تراخى قلبى ورق ، ولكنى كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهززت منكبى استهانة ونزلت . واستقبلت الصباح الباكر فى طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهى نسيم رطيب بارد ، وتلبثت متحيرا لا أدرى أين

أذهب ثم قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسى واستقللت واحدا إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصرى إلى العمارة الأخرى فى الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكونا مطبقا والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبان وجلست إلى مائدة فى أقصى المحل، وتناولت فطورا بسيطا، وعلانى تعب مباغت فمددت ساقى، ثم زحف على جوارحى نعاس قهار لم أعد أملك معه رأسى فاستسلمت لسلطانه. وسرعان ما رحت فى سبات عميق. وعاودتنى اليقظة فوجدتنى منكفئا على المائدة وقد توسدت ساعدى، فرفعت رأسى ناظرا فيما حولى فى دهشة وارتباك، وسرعان ما استحوذ على حياء شديد.

وغادرت المكان مغمضا عينى عن الجلوس وما كان أشد دهشتى حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة! نمت دهرا طويلا غائبا عن دنياى المتجهمة فما ألذ أن أنام إلى الأبد! واتجهت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعورا أليما برثاثة هيئتى وذبول منظرى! وساءلت نفسى وأنا أجد فى السير عما عسى أن أصنع بحياتى، ولكن وسوست لى النفس أن أؤجل البت فى هذه المسألة جريا مع طبيعتى التى تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثم وجدتنى أفكر فى رباب! إن بنفسى غضبا عليها لا يزول كأنه عاهة مستديمة، ولشد ما أتمنى لو تبعث حية ولو دقيقة واحدة ريثما أبصق على وجهها! وهل أنسى أننى فرحت لموتها فرح حاقد شامت؟.. هكذا أنا ولا داعى للخفاء! بيد أننى على حال من السكينة أستطيع معها أن أفكر وأن أتأمل. ومن عجب أننى على أنانيتى المفرطة لا أبخل على خصمى بالإنصاف والعدل. لا حبا فى الإنصاف والعدالة، ولكن لأننى ألفت أن أقيم الأعذار للخصم مداراة لعجزى عن الانتقام منه! لذلك تلمست الأعذار لرباب فى مأساتها، وقلت لنفسى: إننى أخطأت فى تصديق ما ادعت من أنها تكره الحب الجنسى، وإن عجزى حيالها هو الذى رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكننى أن أشك فى أنها أحبتنى بإخلاص؟ وهبّت على خيالى الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد فى الترام، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها إلىّ فى سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولية. كان حبا صادقا، ولكن عرضت له ريح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة. ألست شريكا فى قتلها؟! ودعوت الله فى تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة، كان حبى سرورا إلهيا ثم مضى مخلفا وراءه مقتا وغضبا، ولكن هل مضى حقا؟ هب ما حل بى قد تمخض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شىء غير هذا ألا يعود حبى أقوى مما كان؟ بلى، فهو موجود إذن تحت ركام البغض والمقت، إن العضو الذى ينفصل عن الجسد لا يعود إليه أبدا فهو غير موجود حقا، أما الحب الذى يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقا. ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم؟! وقطبت

كأنما لأخيف الذكريات التى تنثال علىّ. وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التى تهربت منها منذ حين قصير ألا وهى مشكلة حياتى وماذا أصنع بها؟ لا ينبغى أن أترك أمورى للمقادير. سأجد طريقة للتخلص من أثاث رباب ثم أنتقل إلى حى جديد. أأسعى حقا إلى الانتقال لبلد بعيد؟ لشد ما تنازعنى نفسى إلى الفرار، بيد أننى أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعورى ويقينى. فهل أهجر أمى حقا؟ هل يسعنى هجرها؟! طالما رفت على خاطرى الرغبة فى هجرها فى صور أحلام غامضة، ولكن هل يسعنى حقا أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقنى أن أقف منها موقف المتفكر المتردد! لماذا أقسو عليها؟ فيم أنتقم منها! وإنى لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردنى إلى أحضانها نادما باكيا، يا له من حب بغيض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلا!

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتنى أذكر شارع الألفى بلهفة معهودة. وعلى كثب من محطة الترام لمحت زميلا لى من الوزارة فتجاهلته، ولكنه لمحنى أيضا وأقبل نحوى فى اهتمام ووجوم وبسط لى يده قائلا:

ـ البقية فى حياتك يا كامل أفندى.

فسرت فى جسدى رعدة وتساءلت فى قلق: كيف علم بالخبر؟ وماذا علم عنه؟ وتمتمت فى ارتباك:

ـ حياتك الباقية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدى:

ـ عن إذنك ريثما أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك فى تشييع الجنازة.

رباه، كنت أظن أن الجنازة شيعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنها لا تزال تنتظر مقدمى وقد أذاعوا النعى فى الصحف! أى مأزق يتربص بى؟!.. وسألته بصوت منخفض:

ـ هل قرأت النعى فى الأهرام؟

فقال لى بدهشة:

ـ كلا، لا أظنه ظهر فى الأهرام وإلا لكنا علمنا به فى الوزارة، ولكنى اطلعت عليه فى البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعى» وتناولت الجريدة فى ارتباك وخجل وجرى بصرى على السطور القلائل الآتية: «انتقلت إلى رحمة مولاها كريمة المرحوم الأميرالاى عبد الله بك حسن، والدة مدحت بك رؤبة لاظ من أعيان الفيوم وكامل أفندى رؤبة لاظ الموظف بالحربية وحرم صابر أفندى أمين».

حملقت فى وجه صاحبى كالمجنون، ثم أعدت تلاوة النعى، وجميع جسمى ينتفض، وصرخت بلا وعى :

ـ هذا محال . . هذا كذب . .

ركضت لا ألوى على شيء نحو تاكسى غير بعيد وارتميت داخله وأنا أحث السائق على السرعة : إنه لكذب وافتراء، ولأعلمن جلية الخبر وعندها أعرف كيف أؤدب من رامنى بهذا العبث السخيف؟ وانطلق التاكسى يطوى الأرض وعنقى مشرئب صوب الطريق، حتى تراءى لعينى سرادق مقام أمام بيتنا، وتنزى قلبى فى صدرى وارتعشت أطرافى جميعا، وتوقف التاكسى فغادرته زائغ البصر، لم أكن حزينا أو متألما وإنما كنت مجنونا، ها هو عمى جالسا عند مدخل السرادق، وهذا أخى مدحت قادما نحوى. وقد هرعت إليه فاقد الوعى وقبضت على رباط رقبته وصرخت فى وجهه :

ـ كيف تخفون عنى الخبر؟!

وتخلص أخى من قبضة يدى بجهد وهو يرمقنى بقلق وانزعاج، على حين تدانى منا عمى وهو يقول :

ـ أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك فى كل مكان فلم نعثر على أثر .

فرددت بصرى بينهما، ثم ألقيت على السرادق نظرة غريبة وغمغمت :

ـ أحق هذا؟

فقال لى عمى :

ـ تمالك نفسك وكن رجلا .

فسألت أخى فى همس وإشفاق :

ـ ماتت حقا؟ . . كيف؟ متى علمتم؟

فقال مدحت فى كآبة :

ـ تلقيت برقية فى التاسعة صباحا . هذا قضاء ربنا . أين كنت؟ لشد ما أرعبنى أن نضطر إلى الخروج بالجنازة فى غيابك .

فصحت به فى غضب :

ـ فيم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجلوا الجنازة إلى غد؟

فقال أخى معترضا :

ـ أكد الطبيب أن الوفاة حصلت عند منتصف الليلة البارحة فقر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم .

وارتعد جسمى المحموم وتمتمت فى ذهول :

ـ منتصف الليلة البارحة؟ ولكنى رأيتها نائمة فى فراشها هذا الصباح!

ولاحت فى عينى مدحت نظرة حزينة، وقال برثاء:

ـ لم تكن نائمة. إنه القلب يا كامل.

تخيلت صورة ما بدا لى فى وجهها من قنوط، وأطرافى ترتعش، وأعملت ذاكرتى لأستحضر الصورة كما رأيتها، وساءلت نفسى: أكان وجه ميت حقا؟!.. وخارت قواى، ثم قلت بصوت ضعيف:

ـ أريد أن ألقى عليها نظرة الوداع.

فوضع أخى يده على منكبى وقال:

ـ اصبر حتى تتمالك قواك. ثم إن الحجرة ملأى بالنساء.

ولكنى نحيته عن سبيلى واندفعت إلى داخل العمارة وجرى أخى ورائى، فارتقينا السلم وثبا، ثم مرقت إلى الشقة وأصوات البكاء تملأ أذنى، فما راعنى إلا أن أجد نفسى محاطا بالنسوة من جميع الجهات. وزاغ بصرى وحل بى إعياء وارتباك، ولكن أدركنى أخى فقبض على ذراعى واتجه بى إلى حجرة النوم وهو يقول:

ـ لا تقاوم.. ينبغى أن تخلو إلى نفسك قليلا.

وأجلسنى على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثم جلس على حافة الفراش أمامى وقال بحزن:

ـ ثب إلى رشدك. لا ينبغى أن يغلبنا الحزن كالنساء، أليست هى أمى أيضا؟ ولكننا رجال.

وراح عقلى يتردد، كبندول الساعة، بين أمرين فى تركيز جنونى بين شجار الأمس المشئوم وبين رؤيتى لها هذا الصباح: وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهنى ذكرى فهتفت بأخى:

ـ كذب الطبيب!.. لم تمت عند منتصف الليل.. لقد سمعتها تنادينى وأنا أغادر الشقة.

فلاحت الدهشة فى وجهه وسألنى:

ـ وهل لبيت نداءها؟!.. هل تحدثت إليها؟!

فتنهدت من الأعماق فى شقاء مميت وقلت:

ـ لم ألب نداءها لأننى كنت ناقما عليها!.. لشد ما كنت فظا غليظا معها.

وسادنا صمت وحزن. وكان رأسى يكاد ينفجر من الألم والحمى. ثم قلت وكأننى أحدث نفسى:

ـ لقد قتلتها ما فى ذلك ريب. رباه. كيف هان علىّ أن أقول لها ما قلت؟!

فرمقنى أخى بوجوم، وقال بلهجة تنم عن تحذير :

ـ إياك وأن تستسلم لهذه الأفكار!

فقلت بعناد ورأسى يدور جنونيا :

ـ لم أعد الحق فى قولى. لقد قتلتها، ألا تفهم؟ . . إذا أردت أن تستوثق من صحة قولى فادع النيابة والطبيب الشرعى.

فتأوه مدحت قائلا فيما يشبه الخوف :

ـ أنت تهذى بلا ريب، وإلا تتمالك نفسك فلن أسمح لك بالسير فى الجنازة :

فندت منى ضحكة باردة وقلت :

ـ إن أسرتنا مصابة بداء قتل الوالدين، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدنا فأخفق، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت، وهكذا ترى أننى كنت أعظم توفيقا من أبى.

فلاح القلق فى وجه الشاب ونهض قائما. ثم ثبت عينيه فى وجهى وتساءل :

ـ ماذا تنوى أن تصنع بنفسك؟ . . لم يبق إلا ساعة على تشييع الجنازة.

فقلت فى دهشة :

ـ أتسمح بتشييع الجنازة دون تحقيق؟! يا لك من أخ رحيم! ولكن الواجب فوق الأخوة. ادع النيابة، وسأدلك على الطريق إليها فقد عرفته بنفسى أمس، وقل لوكيل النيابة إنك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذى دعاه أمس للتحقيق فى مقتل زوجه.

وبدا أخى كأنه تذكر أمرا مزعجا فصاح :

ـ يا له من حدث أليم! . . كيف لم تبرق إلىّ يا كامل؟ لقد أخبرتنى الخادم اليوم فلم أكد أصدق.

فقلت فيما يشبه الهذيان :

ـ صدق يا أخى، أنك إذا لم توطن نفسك على تصديق هذه المآسى وأمثالها خرجت من الدنيا كما دخلتها غرا جاهلا : لقد قتلت زوجى أيضا، ولكن كان معى شريك هذه المرة هو عشيقها.

وضرب مدحت كفا بكف وهتف بى :

ـ لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال.

فهززت رأسى فى غضب ونهضت قائما وأنا أقول :

ـ هـلم بنـا.

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى غبت عن الوجود.

٦٧

لا علم لى بالساعات الطوال التى قضيتها فى غيبوبة تامة، ولكن ثمة أويقات أخريات كنت أتخبط فى ظلمات بين الغيبوبة واليقظة. إنها دنيا غريبة معتمة، تتوزعها الأحلام، فكان يداخلنى شعور أننى حى، ولكن حى كميت وهنا وعجزا، وكم من مرة جهدت فى شقاء ويأس كى أحرك عضوا من أعضائى فأعيانى الجهد وسلمت للضغط الخانق والخوف المبهم، وفى أحوال أخرى عابثنى الوهم فخيل إلىّ أنى غير بعيد من اليقظة، وأنى أكاد أميز أصواتا مألوفة وأرى وجوها أعرفها حق المعرفة فاستصرختها أن تهرع إلى نجدتى، وناديت أمى كثيرا حتى أحنقنى تقاعدها عنى وعجبت له عجبا شديدا، وطافت برأسى المحموم أحلام غريبة، فرأيت فيما يرى النائم أننى ممتط منكب أمى وأنها تذهب بى وتجىء كما كانت تفعل على عهد طفولتى، ورأيتنى حينا آخر ممسكا بتلابيب أخى مدحت فى نضال عنيف فى جو صاخب وهو يصيح بى: لا تقتلنى، وخيل إلىّ أنى رأيت أحلاما كثيرة ولكن ابتلعتها الظلمة. وطالت غيبوبتى حتى ظننتها لا تنتهى، ثم تفتحت عيناى، وعدت إلى نور الدنيا، وتنهدت من الأعماق. ووقع بصرى على مرآة تعكس صورتى، وشعرت بوجود شخص عند رأسى فحركت عينى نحوه فرأيت أختى راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسى، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها ولاحت فى عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون:

ـ كـامـل..

وحاولت أن أبتسم. وندت عنها تنهدة حارة وتمتمت:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.

تشهدت بصوت ينم عما برح بها من خوف وعذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسى، ثم شعرت فى اللحظة التالية بوجود شىء تحت راحتها، فسألتها بصوت ضعيف وقع فى أذنى كالصفير المكتوم:

ـ ما هذا الشىء على رأسى؟

فجاءنى صوت آخر يقول:

ـ كيس ثلج يا سيدى..

فالتفت إلى الناحية التى جاء منها الصوت فرأيت أخى مدحت جالسا على المقعد الطويل، وأدركت فى تلك اللحظة أين أكون، وهجمت على الذكريات التى فررت منها

بهذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتنى الحياة بوجهها الكالح مرة أخرى، ووقع بصرى على المنبه فإذا بعقربه قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحا كما يدل عليه ضوء النهار. وإذن فقد انقضت الليلة الكئيبة وأنا فى نوم عميق! ونظرت إلى أخى بطرف كسير وتساءلت:

- هل شيعت الجنازة؟

فألقى علىّ نظرة طويلة، ثم قال باقتضاب:

- طبعــا..

وصمت مليا، ثم استدرك قائلا:

- لعلك لا تدرى أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة.

ورنوت إليه بدهشة، ثم أغمضت جفنى فى ذهول، وتمتمت فى حزن بالغ:

- قضى الله بألا أشيع لا أمى ولا زوجى إلى مرقدهما الأخير.

وتحول بصرى إلى أختى فرأيت عينيها مغرورقتين بالدموع، فغشيتنى كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالموت. لشد ما بدت لى الحياة فى تلك اللحظة الرهيبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ مخيف جدا. فقد خلا البيت، وخلت حياتى، وخلت الدنيا جميعا. وكنت فى حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر فى أعماق قلبى بأنه مهما نكدت الدنيا فلى فيها حجرة دائمة الإشراق بالابتسام والحنان، أما الآن فما أشبهنى بقارب تمزقت حبال مرساته فى بحر هائج عاصف. وحتى شقيقتى التى تحنو علىّ فى مرضى فما أسرع أن تعتذر لى غدا أو بعد غد ببيتها وأولادها وتتركنى وحيدا. رباه هل خلقت - أنا الطفل المدلل - لمثل هذه الحياة؟!

ونظرت إلى أختى طويلا فى حب وامتنان، وأنعمت النظر فى وجهها بشوق لا تدريه مجذوبا إلى مشابه فيه من وجه أمى، فاهتز صدرى ودر حنانا وحزنا عميقا. وألقيت على ما حولى نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجنى بنظرات غريبة، فقلت فى ضيق:

- هيهات أن تطيب لى الإقامة فى هذا البيت. سأقيم عندك يا أختاه.

فقالت أختى بصدق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقدت العزم عليه.. أهلا بك وسهلا!

وسألتها أن تقرب أذنها منى ثم قلت لها بحزن:

- خذينى إلى حجرتها لألقى عليها نظرة.

فأظلمت عيناها واغرورقتا بالدمع، وقالت لى همسا:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد بالحجرة شىء.

تخيلت الحجرة الخالية، أربعة جدران وسقفا وأرضا. ما أشبهها بحياتى!

وتنهدت محزونا وتمتمت:

- ما أشقانى..

فقالت راضية برجاء وضراعة:

- هلا أجلت الحزن حتى تبرأ!!

* * *

ولازمت الفراش زهاء شهر، وأقامت راضية عندى أسبوعا، ثم عادت إلى بيتها مضطرة، ولكنها دأبت على زيارتى كل يوم عصرا، ولم تكن تفارقنى قبل أن يغمض النوم جفنى.. وعاد مدحت كذلك إلى الفيوم، ولكنه كان يمضى عندى نهاية الأسبوع.

ولما دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرقتنى وخلفتنى جلدا على عظم. ولم تكد تبقى ثمة حياة إلا فى خيالى، فازدهرت حيويته وامتلأ قوة ونشاطا فكاد يبلغ حد الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقنى ساعة من ساعات اليقظة. فبدت لى الحياة شاقة مرعبة لا قبل لى بها، وامتلأت أذناى بذاك النداء القديم الذى يهيب بى - عند الشدائد - أن أولى فرارا. ولكن أين المفر؟ ليتنى أخلق شخصا جديدا، سليم الجسم والروح، لا يعشش بأركان نفسه الخوف والجفاء، فألقى بنفسى فى خضم الحياة الإنسانية بلا خجل ولا نفور، أحب الناس ويحبوننى، وأعينهم ويعينوننى، وآلفهم ويألفوننى، وأندمج فى كائنهم الكبير عضوا عاملا نافعا! ولكن أين منى هذه السعادة؟! وفيم أعلل النفس بالأمانى الكاذبة؟ لم أخلق لشىء من هذا، وإنما خلقت للتصوف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهنى بغير قصد، لكن سرعان ما تشبثت بها بدهشة وحيرة.. التصوف؟ لست أدرى ما هو على وجه التحقيق! ولكنه وحدة وعزوف وتفكير وما أحوجنى للوحدة والعزوف والتفكير. عجبا ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادى؟ الحق أننى لم أشك الوحدة التى ألفتها العمر كله، ولكننى استوحشت الوحدة التى خلفتها أمى. أما الوحدة المعهودة فما أشد لهفتى إليها؟ ينبغى قبل ذلك أن أطهر جسمى ظاهره وباطنه، ثم أكرس قلبى للسماء. لقد خلقت فى الواقع متصوفا ولكن أضلتنى نوازع الحياة، وتصورت نفسى فى طهر عجيب، يستحم جسدى بماء عطر، وتتسامى روحى فى صفاء ونقاء، فلا مشهد أرنو إليه إلا السماء ولا خاطر ينبثق فى نفسى إلا الله، وهذه بلابل الجنة تسجع فى أذنى، وتلك طمأنينة السلام تقر فى قلبى! كان خيالى نشيطا ولكنه كان غادرا فى كثير من الأحايين، فلم يكن يصعد بى إلى ذاك المرتقى حتى يتخلى عنى بغتة فأهوى من عل، ثم أعود إلى قلقى القديم وخوفى المقيم.

وفى ذات صباح من أيام النقاهة الأخيرة جاءتنى الخادم العجوز وقالت لى :

ـ جاءت سيدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال .

فرفعت إليها عينى فى دهشة وسألتها :

ـ ألا تعرفينها؟

فهزت المرأة رأسها قائلة :

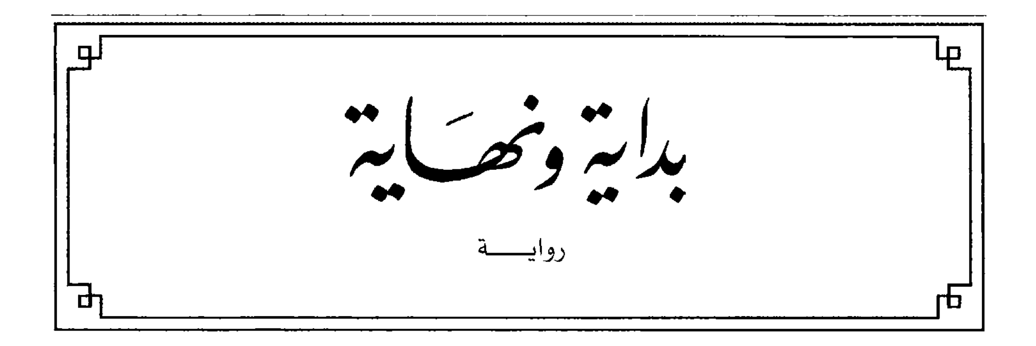
ـ لم أرها يا سيدى قبل اليوم .

ووثب إلى خاطرى طيف فانتفض قلبى الضعيف واشتدت ضرباته حتى انبهرت أنفاسى : رباه أتكون هى حقا؟ وهل واتتها الجرأة على اقتحام البيت؟ ألم تقدر العواقب؟ ونظرت إلى الخادم فى حيرة شديدة ثم تمتمت :

ـ أدعيها إلى حجرتى . .

وألقيت على المرآة نظرة متفحصة ، ثم تناولت المشط ورجلت شعرى على عجل ، وفى حياء شديد اتجه بصرى نحو الباب : ترى هل يصدق ظنى؟ . . وكيف غابت عن ذاكرتى طوال العهد كأنها كانت كامنة فى دم الصحة الذى نضب؟ . . ثم سمعت وقع أقدام تقترب ، وأطل على وجه القادم يبتسم فى شوق وإشفاق ، فهتفت فيما يشبه الاستغاثة وقد وشى صوتى بما شاع فى صدرى من الانفعال :

ـ أنتِ!



بداية ونهاية

رواية

١

ألقى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التى تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة، وقد شمل المدرسة ـ التوفيقية ـ سكون عميق، ثم مضى إلى فصل من فصول السنة الثالثة، ونقر على الباب مستأذنا، ودخل متجها صوب المدرس وأسر فى أذنه بضع كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس فى الصف الثانى وناداه قائلا:

ـ حسنين كامل على.

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق، وغمغم:

ـ أفندم؟

فقال المدرس:

ـ اذهب مع حضرة الضابط.

فخرج التلميذ عن قمطره، وتبع الضابط الذى غادر الفصل فى خطوات بطيئة ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة، وراح يسائل نفسه: ترى أجاء بسبب المظاهرات الأخيرة؟. وكان قد اشترك فى المظاهرات، وهتف مع الهاتفين: «ليسقط تصريح هور» و«ليسقط هور ابن الثور»، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا، فهل كان مغاليا فى ظنه؟. وسار وراء الضابط فى الردهة الطويلة متفكرا، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم، ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنا، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادى قائلا:

ـ حسين كامل على.

شقيقه أيضا؟! ولكن كيف يمكن أن توجه إليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك فى المظاهرات بتاتا؟! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجما، وما إن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم فى دهشة:

ـ وأنت أيضا؟!.. ماذا حدث؟!

وتبادلا نظرة حائرة، ثم تبعا الضابط الذى مضى متسمتا حجرة الناظر . وسأله حسين فى لهفة رقيقة مؤدبة :

ـ ما الذى أوجب استدعاءنا من الفصل؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :

ـ ستقابلان حضرة الناظر .

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل، وعينان عسليتان واسعتان، وبشرة سمراء ضاربة إلى العمق، إلا أن حسين فى التاسعة عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طولا، على حين يمتاز حسنين بدقة فى قسمات وجهه أكسبته وضاءة ووسامة . ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر، وتخايل لعينيهما منظره الصارم فى رهبة وخوف . وزرر الضابط سترته ونقر على الباب، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومئ إليهما أن يتبعاه . ودخلا وهما ينظران إلى الرجل وقد انكب على مكتبه فى صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم . و حياه الضابط بأدب جم وقال :

ـ التلميذان حسين كامل على وحسنين كامل على .

فرفع الناظر رأسه وهو يطوى الرسالة بيديه، وأطفأ عقب سيجارة فى النافضة، وجعل يردد بصره بينهما، ثم تساءل :

ـ فى أى سنة أنتما؟

فقال حسين بصوت متهدج :

ـ رابعة رابع .

وقال حسنين :

ـ ثالثة ثالث .

فنظر إليهما مليا ثم قال :

ـ أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغى . لقد توفى والدكما كما أبلغنى أخوكما الأكبر والبقية فى حياتكما . .

ووجما فى ذهول وانزعاج، وهتف حسنين وهو لا يدرى قائلا :

ـ توفى أبى ! ! مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف؟ ! لقد تركناه منذ ساعتين فى صحة جيدة وهو يتأهب للخروج إلى الوزارة .

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

ـ ماذا يعمل أخوكما الأكبر؟

فقال حسين بعقل غائب:

ـ لا شيء. .

فتساءل الرجل:

ـ أليس لكما أخ آخر موظف أو شيء من هذا القبيل؟

فهز حسين رأسه قائلا:

ـ كلا.

فقال الرجل:

ـ أرجو أن تتحملا الصدمة بقلوب الرجال، واذهبا الآن إلى البيت. كان الله فى عونكما.

٢

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنين أسرعهما إلى البكاء فأراد حسين أن ينهره فى حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس بكلمة. وعبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحثا خطواتهما قاصدين عطفة نصر الله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالمستغيث:

ـ كيف مات؟

فهز حسين رأسه واجما وتمتم:

ـ لا أدرى. لا أستطيع أن أتصور. لقد تناول فطوره معنا، وتركناه فى صحة جيدة. لا أدرى كيف وقع هذا. .

وحاول حسين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه كعادته قائلا «صباح الخير يا بابا» فأجابه مبتسما: «صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأم إلى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة، فتذمر الرجل قائلا: «إذا جلست معنا انفتحت نفسك» ولكنها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «على كيفك». لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك، اللهم إلا نحنحة مقتضبة. وكان آخر ما رآه

منه ظهره وهو يدخل حجرته مجففا يديه فى منشفته. ثم انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة. واسترق إلى حسين نظرة مروعة فوجده محزونا واجما كأنما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة. «لا أصدق أنه مات». لا أستطيع أن أصدق. ما هو الموت؟. لا أستطيع أن أصدقه. انتهى؟! لوكنت أعلم أن هذا آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت. من أين لى أن أعلم؟ أيموت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق. وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصر الله التى كاد يفوتها فى ذهوله. وسارا فى طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والخضر والفاكهة. وسبقهما البصر إلى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب، ثم ترامى إلى أذنهما الصوات فتبينا صوتى أمهما وأختهما الكبرى وهزهما حتى الأعماق فأجهشا فى البكاء، وجريا لا يلويان على شيء، وارتقيا السلم مهرولين إلى الدور الثانى فوجدا باب الشقة مفتوحا فتدافعا إلى الداخل، وقطعا الصالة إلى حجرة الأب فى نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان.. وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم المدد تحته، ثم اقتربا من حافته وارتميا عليه وغرقا فى نشيج حار، وكفت الأم والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان. وأرادت الأم أن تتركهما ينفسان عن صدرهما فتماسكت واقفة فى جلبابها الأسود وقد احمرت عيناها وانتفخ خداها وأنفها، أما الأخت فقد ارتمت على كنبة وأخفت وجهها فى مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء. وكان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة. وكان حسنين يبكى فى جو من الخوف والذهول والإنكار. وقف حيال الموت محتجا ثائرا ولكن فى نفس الوقت خائفا يائسا. «ليس هذا بأبى. لا يمكن أن يسمع أبى هذا البكاء كله دون أن يتحرك. رباه لماذا يجمد هكذا؟ إنهم يبكون ولكن فى تسليم من لا حيلة له. لم أكن لأتصور هذا ولا أتصوره. ألم أره يمشى فى هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبى. وليست هذه حياة» وبدأ الانتظار وكأن لا نهاية له، فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة:

ـ حسبكما. قم يا حسين خذ أخاك خارجا.

وأعادت القول حتى قام حسين وأنهض أخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة. وقفا يلقيان على الجسد المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاه بالحركة التى بدرت من أمه. فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء، تشوبه زرقة مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دنيوى، فى عمق العدم ولا نهائيته، فسرت رجفة فى أوصاله. لم يكن أحد منهما قد رأى ميتا قبل هذه المرة فركبهما الخوف والأسى. ونفذ إلى أعماقهما

حزن قهّار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل . ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فى شبه غيبوبة . وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفانى ، وحالت بينهما وبين الفراش ، ثم قالت لهما بلهجة حازمة :

ـ اخرجا . .

فتراجعا خطوتين ، وتولى حسنين عناد طارئ فتوقف ، وتشجع به حسين فتوقف كذلك . وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الذهول ، وكأنهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدريانه ، ولكنهما وجداها كالعهد بها لم يتغير منها شئ . هذا الفراش على يمين الداخل ، والصوان فى الصدر يليله المشجب ، وإلى اليسار الكنبة التى ارتمت عليها الأخت وقد أسند إلى حافتها عود انغرست ريشته بين أوتاره ، وثبتت عيناهما على العود فى دهشة ممزوجة بالحزن ، طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار ، وطالما التف حولها الأصدقاء مطربين يستعيدون ويعيد ، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق ، أرق من هذا الوتر ، ثم مر بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش ، لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة ، ولعل الراحل قد قرأ فيها آخر تاريخ له فى الدنيا وأول عهدهما باليتم . وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته فرنوا إليها . بحنان عميق ، وقد بدا لهما فى تلك اللحظة أن عرق الإنسان أشد ثباتا من حياته العظيمة . ولبثت الأم تنظر إليهما فى صمت . لم تجر لها خواطرهما على بال ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يَدُرْ بخلد . وندت من حسين تنهيدة حارة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس فى أذنه :

ـ هلم بنا .

وألقى الشابان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان ـ بحكم العادة المتوارثة ـ أن عينى أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسئ إعراضهما إلى شعوره ، وبعثا إليه بتحية قلبية وتقهقرا إلى الباب ثم غادرا الحجرة . ولاحت من حسنين نظرة إلى أخيه فطالع فى وجهه حزنا عميقا مؤثرا فخفق قلبه وأحس نحوه بالعطف ، كما أحس بحاجته الشديدة إلى عطفه . .

٣

وغادر الشقيقان الشقة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا أخاهما الأكبر ـ حسن ـ جالسا فى صمت وكآبة . وجلسا إلى جانبه يشاركانه صمته وكآبته . لم

يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة، وكان يشبه أخويه إلى حد كبير بيد أنه اختلف عنهما فى نظرة عينيه التى تنم عن جرأة واستهتار، فضلا عن أن طريقته فى ترجيل شعره الكثيف المنفوخ، ولبس البدلة، دلت على عنايته بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام. وقد سأله حسين بتأثر:

ـ كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلا وهو يقطب:

ـ مات فجأة فأذهلنا جميعا، كان يرتدى ملابسه وكنت جالسا فى الصالة فما أدرى إلا ووالدتنا تنادينى بفزع، فهرعت إلى الحجرة. فوجدته ملقى على الكنبة وصدره يعلو وينخفض. وجعل يومئ فى ألم إلى صدره وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدمنا له كوب ماء ولكنه لم يستطع أن يشرب. ثم غادرت الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب، ولكنى لم أكد أبلغ الفناء حتى صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا، ووجدت أن كل شىء انتهى..

ورأى وجهى شقيقيه يتقلصان من الألم فازداد وجهه كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقيه أن يظنا بحزنه الظنون. كانا يعلمان بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهترة؛ فخاف أن يحسباه دونهما حزنا وأسفا. والحق أنه يجد لوعة الحزن والأسى. والحق أنه لم يبغض أباه قط على رغم ما كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هذا إلى تقدمه عنهما فى السن ـ كان فى الخامسة والعشرين ـ وإلى تمرسه بالحياة حلوها ومرها، مرها على الأكثر، الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت. حقا كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ فى وجهه قائلا: «لا أستطيع أن أعول رجلا خائبا مثلك إلى الأبد، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشق سبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك على». حقا لن يجد من يقول له هذا بعد اليوم، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه إذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى لا يوجد بها منفذ لأمل. إنه أعظم إدراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف؟!. واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين ثم عض شفتيه، كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه إلى الحقد عليهما وفى مقدمتها جميعا نجاح حياتهما المدرسية وتمتعهما بعطف أبيه. ولكنه لم يكن يرى فى المدرسة ميزة يحسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنعا بأن أباه يحبه كشقيقيه وإن ران على حبه السخط والغضب، وأهم من هذا كله أن الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا فى آل كامل بفضل الأم قبل كل شىء.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة فى ثياب ريفية فعرفوا فيهما خالتهم وزوجها عم فرج سليمان ، وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم ، على حين هرولت الخالة إلى الداخل وهى تصرخ «يا خراب بيتك يا اختى» فدوت العبارة فى آذانهم دويا مفجعا وعاود الشابين البكاء . وراح عم فرج سليمان يحادث حسن بينما خلا الشقيقان إلى نفسيهما فى صمت طويل . والتقت أفكارهما وهما لا يدريان فى مصير أبيهما بعد الموت ، وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية ، وسأل الله بقلبه أن يلقى أباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله . وأما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكير ، وكان يسلم بالإيمان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر ، وقد حملته أمه يوما على أداء الفرائض فأداها دون وعى ، ثم هجرها فى شىء من التردد دون تكذيب أو زيغ . ولم تتسلط العقيدة على فكره . ولم تشغل باله كثيرا ، ولكنه لم يجد نفسه خارجا على حقائقها قط . وقد دفعه الموت إلى التفكير ولكنه لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة : «هل الموت هو النهاية؟ . ألا يبقى من أبى إلا التراب ولا شىء وراء هذا؟ . معاذ الله . لن يكون هذا . إن كلام الله لا يكذب» . ولبث حسن وحده لا يشغله شىء من هذه الأفكار ولم يستطع الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه . كأنه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقة أنه لم يتأثر بأى نوع من التربية أو التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه فى ساعات الغضب . وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة ، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاجه ودعابته ، وحتى الأثر الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها ، لذلك تاه به الفكر فى وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ أسرته منها . بيد أنه لم يطل به المكث مع شقيقيه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما إن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتياح كأنه كان ينتظره :

ـ فريد أفندى محمد؟ !

وكان القادم يجفف جبينه على رغم لطافة الجو الخريفى ، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البدانة ، ذا كرش عظيمة ، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة ، على أن بدانته وكهولته وأناقته أيضا أضفت عليه وقارا مما يعتز به موظفو الحكومة والكتبة منهم خاصة . وعلقت به أعين الإخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لأبيهم ، وأقبل الرجل عليهم معزيا . ثم خاطب حسن قائلا :

ـ طلبت إجازة اليوم من الوزارة . هلم بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لا بتياع اللوازم الضرورية .

وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات تستدعيها الوفاة، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا.

٤

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يحب أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكترثا كثيرا لهذا الأمر، أما هو فكان يعد إخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه، غضبا لأبيه الذى يحبه، ولنفسه هو. وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير أحدا يملأ العين إلا جارهم الكريم فريد أفندى محمد. أما زوج خالته فكان فى حكم العمال، وليس عم جابر سليمان البقال بخير منه. والحلاق أدهى وأمر، ونفر غيرهم غيابهم أشرف من حضورهم. وانقبض صدره وغشيه كدر عميق. ولكنه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا، وردت إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصا من القلق. ثم حدث ما لم يدر له فى حسبان، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادرها ساع، ففتح بابها ثم نزل منها رجل ينم منظره على الألقاب والرتب. وتقدم بجسمه الطويل العريض الذى عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع إليه الإخوة بأدب، واندس بينهم فريد أفندى محمد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التى ينبغى أن يقدرها ـ كموظف ـ أكثر من سواه، وتساءل القادم فى صوت منخفض:

ـ أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندى على؟

فبادر فريد أفندى قائلا باحترام:

ـ بلى ياسعادة البك..

ولم يجدوا ما يقدمونه له إلا كرسيا خيزرانًا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل. وكان حسنين قد امتلأ ارتياحا لمقدمه ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على أنه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله:

ـ من يكون هذا الرجل؟

فقال حسن:

ـ أحمد بك يسرى، مفتش عظيم بالداخلية، وصديق حميم للمرحوم.. فسأله بغرابة:

ـ لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه؟

فحدجه حسن بنظرة غريبة وقال :

ـ كان والدنا كثير التردد على بيته، أما هو . . إنه رجل عظيم كما ترى . . ! وصمت الشاب لحظة ثم استدار قائلا :

ـ كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وتناسى حسنين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه زهوها، وود لو يراه ـ ذلك المفتش ـ المشيعون جميعا . ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ . انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش . وعلقت أعين الشقيقين بالنعش فى ذهول وإنكار، وتساقط دمعهما طوال الطريق، وبلغوا المسجد وأخذوا فى توديع المشيعين وشكرهم . وأظهر البعض استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير، ولكن حسنين همس فى أذن أخيه الأكبر قائلا :

ـ لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة ووقفوا إلى صرف المشيعين، وركبوا سيارة الموتى وليس فى ركابهم إلا عم فرج سليمان وفريد أفندى محمد الذى أبى الرجوع إباء لم ينفع فيه الرجاء . وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور فى العراء ثم ووري جثمان كامل أفندى فى قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق المدافن كأنه من قبور الصدقة، ووقف حسنين غارقا فى الحزن والبكاء، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات إلى فريد أفندى محمد فى خجل واستياء «لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءوا معزين، ولرافقنى بعضهم حتما إلى هذا القبر . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟ ! » .

٥

انتصف الليل أو كاد، وخلت الشقة إلا من أهلها . وآوت الأسرة إلى الصالة ومعهم الخالة وزوجها . وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين فى ذلك اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسنين باهتمام، على حين وجم حسن متفكرا .

وتحدث حسنين عن أحمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية أخرى . وكان شعور

العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو إلى باب حجرته المغلقة بطرف حزين، ويتخيل فراشه الخالى بإنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:

ـ قوموا للنوم . .

وأذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاق أليم، ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة فأخلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر، وشارك حسنين فى فراشه. ولكنهم لم يستسلموا للنوم، أو تأبى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون أيامه الأخيرة وميتته المفاجئة، ثم قال حسين:

ـ كانت جنازته تليق بمقامه حقا . .

فقال عم فرج سليمان مؤمنا على قوله:

ـ كان رحمه الله رحمة واسعة رجلا عظيما، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله، ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت إلى شارع شبرا.

ولم يرتح حسنين لصوت الرجل، وكان يشعر لوجوده بضيق، ثم ذكر حانقا أنه رأى القبر العارى، فقال:

ـ العجيب أن والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر فى بناء مقبرة تليق بالأسرة.

ـ هل كان يظن أنه سيهلك فى مثل هذه السن؟ إن والدك فى الخمسين، وعندنا فى الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة فى هذه السن. وصمت الرجل مليا ثم استدار قائلا:

ـ ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جدته من دمياط إلى القاهرة وهو فى مثل سنك يا سى حسنين، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل.

فقال حسنين بامتعاض:

ـ حقا لسنا من أهل القاهرة وإن كانت أسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت.

وذكر فى حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه. وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة. وازداد ضيقا بوجود هذا الرجل الذى احتل فراشه. فآثر الصمت حتى يقطع عليه سبيل الكلام. وساد الصمت حتى رنّق النوم بأجفانهم. وفى الصالة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهن، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز. وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى. وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البيضاوى وعينيها الملتهبتين. وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيها، فلم يبق من حيويتها إلا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم.

وكان التغير الطارئ عليها من العمق بحيث يتعذر تصور ما كانت عليه أيام شبابها، إلا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة. كان لها هذا الوجه البيضاوى النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب، إلى شحوب فى البشرة، واحديداب قليل فى أعلى الظهر، فلم تكن تختلف عن أمها إلا فى طولها المماثل لطول شقيقها حسنين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم. وكان الحزن قد أتى عليها فبدت فى صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أما الأم فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى. كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنغص عليها حياتها، وأنها كان يحلو لها كثيرا أن تقارن بين حظيهما فتقول: إن أختها تزوجت من موظف أما زوجها هى فعامل فى محلج قطن، وإن أختها تقيم فى القاهرة وهى مقضى عليها بالحياة فى الريف، وإن أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هى لا حظ لهم إلا حظ العمال، وإن كرار أختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السعة إلا فى المواسم. لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه. وامتلأت نفسها امتعاضا إلى ما بها من حزن. إنها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد، انتهى زوجها، وإنها لتتلفت يمنة ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلا هذه الأخت التى لا يعقد بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يخلف الراحل شيئا. وهيهات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة. وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور. . ورنا بصرها إلى حجرة الأبناء فى سهوم. اثنان فى المدرسة، معفيان من المصاريف حقا، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئا. أما الثالث ففى حكم الصعاليك! . . وتنهدت من الأعماق. ثم حولت عينيها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألما. فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه هى الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى يفضفضن همومهن بالدموع. وأن حياتها الماضية وإن أمست حلما سعيدا موليا إلا أنها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائما قوية، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن. والأبناء أنفسهم مثال حى على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهدا تعيسا على رخاوة الأب وتدليله، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها. أجل كانت أرملة قوية، ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق.

٦

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار أحد غير أهلها وقد كوم أثاث حجرة الراحل فى ركن منها وأغلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوا لها. وكانت الأم تعلم بأنه ينبغى لها أن تتكلم. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله، فقد كانت فكرت فأطالت التفكير، ولعله لم يكن يحيرها شىء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة.
وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت:

ـ مصيبتنا فادحة، ليس لنا إلا الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن بوسعها أن تتساءل «ما عسى أن نفعل؟»، وهيهات أن تنتظر جوابا من أحد من المحيطين بها، حتى كبيرهم حسن. وليس فى الدنيا أحد تستطيع أن تلقى إليه بهذه الاستعانة فتشركه فى بعض همها.

شعرت بالخلاء يكتنفها، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس. واستدارت تقول:

ـ ليس لنا من قريب نعتمد عليه، وقد رحل العزيز الغالى دون أن يترك شيئا إلا معاشه، ولا شك أنه دون المرتب الذى كان لا يكاد يكفينا. فالحياة تبدو كالحة الوجه، ولكن الله لا ينسى عباده. وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان.

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول:

ـ لا أحد يموت جوعا فى هذه الدنيا، وسيأخذ الله بيدنا، أما المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو. أسفى عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع أثرا عميقا لأن كلام الأم أنذر بأمور خطيرة استأثرت بجل اهتمامهم، فثبتت أعينهم على أمهم التى عادت تقول:

ـ لا يجوز إذن أن نيأس من رحمة الله، ولكن ينبغى أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلا هلكنا، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ وصبر وكرامة، وربنا معنا.

وأحست بأن معين الكلام العام قد نفد، وأنه ينبغى أن تخاطب الأبناء، كل بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقل خطورة، تمهد به لمن هو أشد خطورة، فنظرت صوب حسين وحسنين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر:

ـ لن يكون فى الإمكان إعطاؤكما أى مصروف يومى، ومن حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة . .

وجوه تافهة. اشتراك نادى الكرة، والسينما، الروايات. أهذه وجوه تافهة؟! وقد تلقى حسين الحكم فى وجوم، وتاه عقله متخيلا الحياة بلا مصروف، ولكن دون أن ينبس بكلمة. أما حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال معترضا، وبلا وعى تقريبا:

ـ كل المصروف؟! ولا مليم؟!

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم:

ـ ولا مليم.

أحزنها اعتراضه، ولكنها رحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلا إلى الشك فيه، ولكى يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقيه. وفتح حسنين شفتيه، وهمهم دون أن يبين، ثم قال بصوت منخفض: سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف . .

فقالت أمه بحدة:

إنك واهم، المصائب كثيرة والتلاميذ المصابون لا حصر لهم، ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعا لوجدت أكثرها فارغا. وهبكما الوحيدين الفقيرين فما فى هذا من عيب، ولست المسئولة عما وقع.

ولاذ حسنين بالصمت متذكرا أنه يخاطب أمه. كان دائما يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها، وكان الرجل يحبه كثيرا فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلا ابنته نفيسة. أما الأم فلم تكن تتخلى عن حزمها قط. ولما فرغت من الرد على اعتراضه استردت قائلة:

ـ كذلك أحذركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسى كما تفعلان عادة. وكان الشقيقان يقنعان من غدائهما المدرسى بلقمات معدودات كى يتناولا وجبتهما الرئيسية فى البيت. وكان التلاميذ الذين يأكلون فى المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة.

فتساءل حسنين برقة:

ـ لماذا لا نأكل فى بيتنا كعادتنا؟

فقالت الأم بامتعاض:

ـ من يدرى فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذى تحب!

وارتسمت على شفتى حسن ـ الذى أصغى إلى الحديث كله فى صمت عميق ـ شبه

ابتسامة، أخفاها بتقطيبة مصطنعة، ولكنها لم تخف عن الأم، فصممت على أن تواجهه بالحقيقة ـ إن كان حقا فى حاجة إلى ذلك ـ بعد هذا التمهيد الطويل، فتساءلت بلهجة حزينة:

ـ وأنت يا حسن؟!

هذا أكبر الأبناء، أول من أيقظ أمومتها، الحبيب الأول. ! ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفطرة بسبب. لا يعنى هذا بطبيعة الحال أنها كرهته. إنها أبعد ما يكون عن هذا. ولكنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حسرة بالغة. انزوى فى ركن مظلم، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها إلا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات. وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة. كان فى البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله، فلم يبعث إلى المدرسة إلا فى سن متأخرة. وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية، وتكرر هروبه من المدرسة، وتوالى سقوطه عاما بعد عام، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار وشجار ثم إلى ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحيانا من البيت فيقضى أياما متسكعا ثم يعود إلى البيت وقد اكتسب شروراً جديدة من مخادنة الأشقياء والغوص فى الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولما بلغ اليأس من أبيه مداه ألحقه بحانوت بقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها. ثم عمل فى شركة سيارات وطرد منها أثر عراك أيضا. ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه ففرض نفسه على البيت فرضا. يلقى سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل. وبدا وكأنه لا يعمل للمستقبل حسابا، وظل سادرا مستهترا حتى فاجأه موت الأب. إنه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذى عرف مرتب أبيه، وقدر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما تعنى الأم بتساؤلها «وأنت يا حسن». «أنت تقولين أن الله لا ينسى عباده. وأنا عبد من عباده. فلننظر كيف يذكرنا. لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا؟» ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة، وشعور ممتلئ عطفا وتقديرا للمسئولية، ثم قال:

ـ إنى أدرك كل شىء.

فقالت المرأة فى ضيق متسائلة:

ـ ما عسى أن يجدى الإدراك وحده؟

ـ لا بد من عمل شىء.

فقالت فى انفعال:

ـ هذا ما نسمعه كثيرا.

ـ الآن تغير الحال.

ـ أليس ثمة أمل أن تتغير أنت؟!

فقال حسن فى نبرات قوية :

ـ مثلى لا يضيع فى الحياة ، إنى أستطيع أن أشق سبيلى . والفرص كثيرة والأسلحة فى يدى لا حصر لها . اصغ إلىّ يا أماه لن أطالبك بغير المأوى واللقمة! . .

هذا أسلوبه! . . يبدو وكأنه يسلم بكل شئ ، ثم ينتهى وكأنه يطالب بحقوق جديدة ، المأوى واللقمة ، وماذا يبقى بعد ذلك؟ ورمقته باستياء وقالت :

ـ إن حالنا لا يحتمل هذا الهذر . .

ـ الهذر؟!

ـ أجل . نحن فى حاجة إلى من يطعمنا فكيف نهيئ لك اللقمة؟! لماذا تضطرنى إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ أعنى إلى حين . حتى تفرج . لن يضيق البيت بى . أتريدين أن تطردينى؟! وسوف ألتقط رزقى ما وجدت إليه سبيلا . ولكن هبى أياما انقضت دون أن أجد عملا فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعا . وعلى أية حال سأقاسمك رغيفك حتى أجد عملا!

وتنهدت فى يأس . إنها حيال مشكلة حقا ولا تدرى ماذا تفعل . وأخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطالة والكسل والتسكع خاصة إذا فتر تأثره بموت أبيه فقالت برجاء :

ـ أرجو أن تبحث بجد وإخلاص عن عمل .

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

ـ أعدك بهذا . وأقسم لك بقبر والدنا .

وأثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعه الأليم . . وهزتهم «قبر والدنا» هزة عنيفة ، فأجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره . على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب . ولبثت الأم صامتة مليا تكابد جرحا عميقا ، ولكنها لم تنس ـ حتى فى هذه اللحظة ـ أنها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ، فردّدت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفارهما بين أبنائها ثم قالت :

ـ أما نفيسة فتحسن الخياطة . وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست أرى بأسا فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة .

وهتف حسن بحماس :

ـ عين الصواب .

ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضبا :

ـ خياطة ؟ !

فأجابه حسن معترضا :

ـ ما عيب إلا العيب ، فلتكن . .

فقال حسنين بحدة :

ـ لن تكون أختى خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة .

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

ـ أنت ثور ، تأكل وتنام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

ـ اخرس .

فنفخ دون أن ينبس بكلمة . ورأت الأم أنها فرغت من معارضته فالتفتت إلى حسين ، فالتقت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

ـ إذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله . . !

فقالت الأم بتأثر :

ـ ما عيب إلا العيب كما يقول حسن . لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام ، ولا حيلة لى .

وساد صمت مؤلم . وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه فى صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة . وقد تألم كثيرا لمصير أخته ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح أوحت به الضرورة . وشعر فى ألمه بأنه تعلم فى هذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته كلها . أما نفيسة فسكتت مغلوبة على أمرها . ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد اقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معا . وكانت الخياطة هوايتها وملهاتها ، فلم يبق إلا أن توطن النفس لقبول الأجر . لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد بعده شيئا . ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة :

ـ من المؤسف حقا أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعليمها فى المدرسة . تصوروا لو كانت أختنا مدرسة الآن !

وحدجوه بغرابة فأدرك أنه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدرى . أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية . . ؟ ! وقطب مغيظا وقال :

ـ التعليم ينفع أمثالها ممن لا حيلة لهم .

٧

وفى صباح اليوم التالى مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء، ولما علم هناك أنها أرملة المرحوم كامل على أفندى أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا فى خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخدمين. وتبين أن المرحوم خدم الحكومة حوالى الثلاثين عامًا فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واستحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته. لم تكن المرأة تتصور هذا، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة فى معاش المتوفى. ولكن الذى أفزعها حقا هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التى تسبق صرف المعاش، والتى تستغرق أشهرا طوالا. هالها الأمر فلم تملك أن قالت:

- وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه:

- نحن لا نملك إلا هذا المعاش المنتظر؟

وندم حسن على قوله عقب إلقائه مباشرة لأنه بدا غريبا من شخص فى مثل طوله ورجولته، ولكن الموظف قال دون أن يلقى بالا إلى هذا:

- أعدك يا سيدتى بألا نضيع دقيقة واحدة بلا عمل. أما إجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها.

ما جدوى هذا الكلام الطيب؟. ولكن أية فائدة تنتظرها من التذمر والشكوى؟!. وغادرا الوزارة فى شبه ظلام من القلق واليأس. وهتفت المرأة:

- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟!. وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك؟!.

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضيق. ولاح لعينى المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:

- سأزور أحمد بك يسرى. إنه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقا عزيزا لأبيك..

فقال حسن بأمل:

- رأى حسن. إن الكلمة منه تغير إجراءات الحكومة.

فنظرت إليه باهتمام وقالت:

ـ لا تضيع وقتك معى . لعلك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر .

وعادت إلى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام . تقوم على جانبيه الڤيلات الأنيقة والعمارات الحديثة ، واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلت على ڤيلا البك . وكانت بناء جميلا مكونا من دورين تحيط به حديقة مونقة . وذكرت للبواب صفتها «حرم المرحوم كامل أفندى على» فعاد إليها مسرعا وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بڤراندا كبيرة ، ثم أخبرها أن البك قادم بعد ارتداء ملابسه . وخيل إليها أن فترة الانتظار قد طالت ، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها ، وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذى يكتنفها . بيد أنها كانت كبيرة الرجاء فى هذا الصديق العظيم . طالما ذكره المرحوم أمامها بالحب والفخار ، وطالما لمست بنفسها أنعم هذه الصداقة فى أقفاص العنب والمانجو تهدى إليهم فى المواسم ، وكان المرحوم يقضى أكثر سهراته فى هذه الڤيلا . وربما فى هذا الموضع منها حيث تجلس الآن وقد ألقت على ماحولها نظرة حزينة ـ يلعب بأوتار عوده ، ويسمر هزيعا طويلا من الليل ، فليس بعيدا أن تغادر هذه الڤيلا مجبورة الخاطر . وإنها لمغرقة فى أفكارها إذ فتح الباب الداخلى للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض ، وشاربه المفتول بعناية بالغة ، فقامت المرأة فى أدب ، وسلم عليها البك وهو يقول برقة :

ـ تفضلى يا ست بالجلوس . شرفتنا ، رحمة الله على زوجك . كان صديقا عزيزا ، أحزننى فقده ، وسوف يحزننى طوال العمر .

فاستبشرت المرأة خيرا بهذا اللقاء ، وشكرت له عطفه . وراح البك يحدثها عن الفقيد حتى اغرورقت عيناها بالدموع . وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزية فى استثارة عطفه . ثم ساد الصمت حينا فأدركت رغم حزنها واضطرابها أن شارب البك وسوالفه مصبوغة . وأنه يغالى فى العناية بمظهره . إلى ما تطيب به من روائح زكية عميقة الأثر . ولما تكرم بسؤالها عن طلباتها قالت :

ـ جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم . قالوا لى يا سعادة البك إن إجر اءات صرفه تستنفد أشهرا .

فتفكر الرجل مليا . ثم قال :

ـ لن أدخر وسيلة فى سبيل ذلك . وسأقابل وزير المالية بنفسى .

فأثلج صدرها ارتياحا . وشكرته . ثم ترددت لحظات وقالت :

ـ الحال يا بك تستدعى السرعة ، والله المطلع .

فقال الرجل باهتمام:

ـ طبعا، طبعا، إنى فاهم كل شئ. هل أنت فى حاجة إلى مساعدة؟! يا له من سؤال! إنها لا تملك إلا جنيهين هما ما تبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما يستحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل، وإنه لموقف يستوجب أن تألفه، وعقد الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض:

ـ أحمد الله على الستر. بوسعى أن أنتظر قليلا..

وارتاح البك للجواب. لقد انزلق إلى السؤال متأثرا بالحياء والذوق. ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه، ولا لأنه يكره أن يمد يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شئ لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته. كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة. ولكنه كان على استعداد للبذل لو سألته المرأة إياه. وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة. ولعله كان صديقا من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له، أو صديقا كسائر البكوات والباشوات. ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش. إكراما لذكرى الرجل، وتفاديا من التورط فى مساعدتها، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام. ولما خلصت إلى الطريق تنهدت فى أمل، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم «لو أوتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة أنا فى أمس الحاجة إليها..»

٨

وخلا حسين وحسنين لنفسيهما أول مرة بعد الوفاة. كانت نفيسة فى المطبخ والأم فى وزارة المعارف سعيا وراء همومها الجديدة، وحسن لا يعلم بمكانه إلا الله، وكان حسين متربعا على فراشه، والآخر جالسا إلى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلما فى نرفزة ويقول:

ـ يبدو أن الحياة لم تعد تطاق.

وانتظر أن يتكلم حسين، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع إليه بصره فى حنق. كان حسنين آخر عنقود هذه الأسرة فلم يكن غريبا أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:

ـ ما رأيك؟

فتساءل حسين متجاهلا :

ـ فيم؟

ـ فيما قلت! أتحسب حقا أن حالنا بهذا السوء؟

فهز منكبيه قائلا :

ـ ولماذا تكذبنا؟

فتألقت عينا الفتى ببريق أمل وقال :

ـ كى تكسر من حدتنا . كى نخاف ونتئد . وليس هذا عجيبا فالشدة مركبة فى طبعها، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن :

ـ ليتنا ما عرفناه قط!

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول ليتنا ما عرفنا التدلّل أبدا، إذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضى علينا بها!

فقال حسنين وقد ساوره الخوف :

ـ إذن فأنت تصدق ما قالت! أحقا لم يترك والدنا شيئا؟ ألا يسد المعاش نفقاتنا؟

فتنهد حسين قائلا :

ـ إنى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنين فى جزع :

ـ كيف نطيق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفتى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك أخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال :

ـ كما يطيقها الكثيرون . أم حسبت الناس جميعا يحظون بأب كريم ورزق موفور؟! ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون . فامتلأ حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه أخيه وهتف به :

ـ لشد ما يحنقنى برودك .

فقال حسين مبتسما :

ـ لو جاريتك فى عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

ـ إن من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها!

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعابة:

ـ هلم نثر عليها. . دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط هور.

ـ ألم تفدنا ليسقط هور؟!

ـ هيهات أن تفيدنا الأخرى.

وقطب حسنين فى كدر وتساءل:

ـ من لنا الآن؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت أنفه الذى بدا فى تلك اللحظة شبيها بأنف أمه الغليظ. وقال باقتضاب:

ـ الله!

وزاد الجواب من حنقه! إنه لايشك فى هذا ولكنه لا يقنع به. الله للجميع حقا ولكن كم فى الدنيا من جائع ومصاب!. لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف فى خوفه على سبيل محسوس للطمأنينة. وتوهم أن أخاه يحرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال:

ـ لقد شاء أن يأخذ والدنا ويتركنا بلا معين!

فقال حسين وكأنه يمعن فى إثارته:

ـ هو المعين. .

فانفجر حسنين قائلا:

ـ إن هدوءك الكاذب لا يجوز علىّ. . أأنت مطمئن حقا؟

فأصغى حسين إليه فى امتعاض وألم، ثم قال ولعله كان يدارى عواطفه:

ـ المؤمن لا تخونه طمأنينته.

ـ إنى مؤمن وقلق معا!

فقال حسين فى غير إيمان بما يقول:

ـ هذا من ضعف الإيمان.

فقال حسنين بحنق:

ـ أوه، ليكن. . إنى أعرف تلاميذ يجاهرون بالشك!

ـ أعلم هذا.

ـ هم أذكياء ومطلعون.

ـ أتحب أن تفعل مثلهم؟

فقال فى خوف :

ـ كلا . لست من هواة الاطلاع . أنت نفسك تقرأ كثيرا !

فقال حسين مبتسما :

ـ هذا حق ولكنى لم أنتزع الله من قلبى . والحق أننا نغالى فى تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة . ألا ترى أن الله إذا كان مسئولا عن موت والدنا فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه .

وشعر حسنين أن تطور الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف؟ أى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله أنى كنت شارعا فى تعلم الملاكمة !

فقطب حسين قائلا :

ـ تحام ما يؤلم أمنا ، إذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدها فلا أقل من أن نريحها من منغصات لا داعى لها . واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أخوال !

ـ لا أعمام ولا أخوال ! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خياطة ! . رباه ما عسى أن يقول الناس عنا؟ !

وضاق صدر حسين ، وغلبه الحزن ، وقعت لفظة «خياطة» من نفسه موقعا مؤلما ، فقال بغضب :

ـ نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائما وغادر الحجرة .

٩

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شئ ، هيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ . وكانا يعانيان من هذا شعوراً مؤلما وإن تباينت درجة ألمهما . ولم يكن قد علم بالوفاة إلا قليل فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليهما معزين . وقال أحدهم محذرا :

ـ يجمل بذويكما أن يحسنا اختيار الوصى عليكما ، فإنى لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبى حتى ابتليت بوصاية عمى !

الوصى ! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعى المبذولة لضم الصفوف ، ولكنه سمع حسنين يجيب صاحبه قائلا :

ـ نحن مطمئنون إلى الوصى كل الاطمئنان.

فقال محدثه:

ـ إنى أغبطكما على حظكما، بيد أن الأمر يتوقف على نوع التركة، فإذا كانت أراضى زراعية تيسرت سبل الخداع، وإذا كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى بعض الشئ.. أو هذا ما تقول أمى..

فقال حسنين بهدوء:

ـ من حسن الحظ أن تركتنا عقار!

وأصغى إليه حسين فى غيظ، لم يحنقه الكذب فحسب ولكنه أشفق من عواقبه. «كيف نواجه الحال الجديدة إذا ظن بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟.. إنه يكذب بلا مبالاة. سحقا له!» وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه الفتى فى تذمر. ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسنين فى تأثر قائلا:

ـ قيل لنا إنه مات فجأة. ومن عجب أنه لما رآنى خارجا إلى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه، وقبل أن يتوفى بساعة واحدة، وضع يده على منكبى ورنا إلىّ فى حنان وقال لى بلا داع ظاهر «مع السلامة.. مع السلامة!»..

فمن كان يدرينى أنه يودعنى؟!

لم يكن شئ من هذا قد حصل، ولا يدرى كيف قاله، والأعجب من هذا كله أنه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقا، وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة فى تبجيل والده، وعجب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام، ونحى وجهه جانبا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحياه ثم قال:

ـ أرجو أن تعفينى وأخى من الاشتراك فى نادى شبرا..

ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس، وأزعجة الطلب خاصة فيما يتعلق بحسنين ـ جناح الفريق الأيمن ـ فقال معترضا:

ـ لعل أمرا ضايقكما!

فقال حسين بتأثر:

ـ توفى والدنا!

فوجم الرئيس مليًا، ثم عزاه برقة، وصمت لحظات ثم قال:

ألا ترى أن هذا لا يدعو إلى حرمان النادى من عضوين بارعين مثلكما؟

فقال حسين بلهجة خاطفة:

ـ إن الحداد يقضى بهذا!

فقال الفتى بإشفاق:

ـ إن الحداد لا يتعارض مع الرياضة!

فقال حسين باشا:

ـ إن ظروفنا تقضى بهذا. إنى آسف!

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحاميا النظر إلى عينيه، وانضم إلى أصدقائه. ووجدهم يتحدثون فى السياسة. وكان أحدهم يقول:

رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!

فقال آخر:

ـ لابد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى يفهمها الإنجليز..

فقال ثالث:

ـ لم يضع الدم الطاهر عبثا، ألم تسمعوا عن الدعوة إلى الاتحاد؟

ـ وهذه التيمس تلمح إلى المفاوضة.

ودق الجرس فاتجهوا إلى الفصول وهم يتناقشون..

١٠

قطعا فناء البيت فى صمت حاملين كتبهما، ثم قال حسنين وهما يرتقيان السلم:

ـ عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا فى التمرين استعدادا للمباراة القادمة!

فلاذ حسين بالصمت، وجعل يتخيل الملعب واللاعبين، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينبئ الآخرين بانفصالهما «لظروف الأسرة الجديدة!» لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة، وطرقا الباب ثم دخلا، وتسمرت أقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه. رأيا أثاث البيت مكوما فى الصالة فى اضطراب شامل وقد رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة وفكت الدواليب، ولاحت الأم ونفيسة مشمرتين، يعلوهما التراب ويتصببان عرقا على لطافة الجو. وهتف حسنين:

ـ ماذا حصل؟

فقالت الأم:

ـ سنترك الشقة.

ـ إلى أين؟!

ـ إلى الدور التحتانى. سنتبادل السكن مع صاحبة البيت.

شقة أرضية بمستوى الفناء الترب. لا شرفة لها، ونوافذها مطلة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رءوس المارة، وطبعا محرومة من الشمس والهواء، وتساءل حسنين فى امتعاض ولو أنه كان يعرف الجواب مقدما:

ـ لماذا؟

فقالت الأم بصوت واضح:

ـ لأن إيجارها ١٥٠ قرشا!

فقال الشاب متذمرا:

ـ فرق الإيجار أقل من ٥٠ قرشا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين!

فسألته الأم ساخطة:

ـ هل تتعهد بدفع الفرق التافه؟

ـ لماذا رضينا إذن بأن تشتغل نفيسة خياطة؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به:

ـ كى نأكل، كيلا تموتوا جوعا!

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضه وسأل أمه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:

ـ متى تم هذا يا أماه؟

فقالت المرأة وهى تمسح جبينها بكم ثوبها الأسود:

ـ عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئا من حالنا، فأظهرت روحا طيبة ووافقت بلا تردد:

فقال حسنين فى استياء:

ـ لو كانت ذات روح طيبة حقا لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع إبقائنا فى شقتنا!

فقالت الأم فى حدة:

ـ للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك!

ـ وكيف ننام ليلتنا؟

فقالت نفيسة بصوت كسير دل على أنها لم تفق بعد من صدمة الوفاة:

ـ سننام فى الشقة الجديدة.

وخرج فى تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهى آخر ما بقى من الأثاث فى الحجرات وقال بسرعة:

ـ كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث إلى الدور التحتانى فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان..

وأراد أن يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبة من جانب وخاطب حسين قائلا:

ـ ارفع..

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط السلم بحذر: ترى هل يراهما أحد من أسرة فريد أفندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث؟! «ليس الفراق شر ما فى الموت. إن الفراق حزن المطمئن. متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير فى الحزن. لشد ما نتغير ونتدهور، ولكن ينبغى أن نصبر أو فى الأقل أن نتظاهر بالصبر. أكبر جريمة فى نظرى أن نضاعف بجزعنا شقاء أمنا. سأخاطب حسنين بحزم أكثر!» ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث، ولم يستطع حسنين أن يقف متفرجا فانضم للعاملين. ومازالت الأسرة فى نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت، وكانت صاحبة البيت قد أخلت الشقة وجمع أثاثها فى الفناء إلى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم فى العمل. وكانت الأسرة جميعًا ـ الصامت منهم والساخط ـ سواء فى الحزن والألم ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته، أما نفيسة فابتلت عيناها بالدموع، واشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهده أمه فلا تلحف فى تأنيبه على تعطله، وكان أقل الإخوة تأثرا للتغير الذى قلب الأسرة كما ينبغى لرجل ذاق التشريد وألف التسكع. وهمس حسنين فى أذن حسين وهو يلهث من الجهد:

ـ ألا ترى أن خسارتنا بموت أبينا لا تعوض أبدا؟!

وانسابت من عينيه دمعتان.

١١

غادر حسن البيت مبكرا، عقب خروج شقيقيه للمدرسة، لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر، ولكنه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هى فى غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن وتجهم الحظ. انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا أمل. «ابحث عن عمل! لا تفتأ تردد على مسمعى هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟

صبى بقال؟ . هذا معناه الاسعاف ثم البوليس . » ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله . كان كبير الثقة بنفسه ، وكان فى طبعه تفاؤل لا يدرى من أين يأتيه . ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا : «يا أبا على ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى إليه ، حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار ، وتتحمل فى سبيله السب واللعن ، ولكن كان على أى حال رزقا مضمونا . هذه البدلة التى تجعل منك أفنديا لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه . أجل ، أبى أن يبتاعها لك بادئ الأمر ولكنك هددته بأن تمشى فى الطريق باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسرى شبه عار ، فأذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك . الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك إلا الشرطى» . كانت البدلة حسنة وإن لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة . وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص فى حال لا يحسد عليها . وكان شعره أعجب ما فيه ، فقد تركه حتى غزر واسترسل ، وتصاعد فى جعوده جعلت منه رأسا مستقلا فوق الرأس الأصلى ، أما وجهه فكان حسن كشقيقيه إلى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام . سار متفكرا فيما خاطب به نفسه . ثم واتته ثقته بنفسه فجأة فقال «يا سيدى لا تسمح للهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب إلا البهائم من عباد الله . سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها . لم أسمع عن إنسان مات جوعا . الأغذية تسد الطريق سدا . ولست طماعا فما تريد إلا اللقمة والسترة وكم كأسا من الكونياك ، وكم نفسا من الحشيش ، وكم امرأة من النساء ، وكل أولئك متوفرة بكثرة ، أكثر من الهم على القلب ، توكل على الله ولا تحمل هما ، ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه ، وخرج منها بأربعين قرشا لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ «كلا لو نزلت عنها ما أفادت أمى منها نفعا مذكورا ، ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه ، لا أدرى متى يتاح لى الحصول على مثلها!» وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادتين فحث خطاه حتى انتهى إليها . هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة إلا وجودها على الطريق العام . ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة إلا زبونان جلسا إلى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة ، على حين قبع فى ركن بالداخل شبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس ، فلم يكن عجيبا أن يقصدهم الشاب وينضم إلى مجلسهم . وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيأوا للعب الكومى . و . كان كل منهم يمنى نفسه بأن يربح رزق يومه ـ خمسة قروش فوق الكفاية ـ من رفقائه . بيد أن حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينه من ناحية أخرى . لهذا قال أحدهم قبل البدء فى اللعب :

ـ لا نريد غشا .

فقال حسن :

ـ طبعا .

فقال الشاب :

ـ فلنقرأ الفاتحة . .

وقرأوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دورا ، وربح حسن دورين . كان صافى ربحه أربعة قروش ونصفًا بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة ، واقترح بعضهم أن يمدوا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما إن رآه حسن حتى نهض قائما ، وأقبل نحوه فى احترام وسرور وهو يقول :

ـ صباح الخير يا أستاذ على صبرى .

فمد له القادم يده فى حركة تشى بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

ـ صباح الخير . .

وجلسا إلى مائدة متقابلين ، واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب :

ـ ونارجيلة . .

وغاص قلب حسن فى صدره أن يلزم بدفع ثمن النارجيلة أيضا فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى فى منتصف عقده الثالث ، متوسط القامة نحيل العود ، صغير القسمات ، أما شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن ، إلى سوالف تزحف حتى منتصف خده ، وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بنفخة كاذبة وغرور غير محدود . قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه :

ـ لم نسمع صوتك من زمان!

وكان أذاع مرات من المحطات الأهلية وبدا وكأن الحظ يبتسم له ، فلما ألغيت المحطات الأهلية وأنشئت محطة الإذاعة الرسمية حيل بينه وبين إحياء الحفلات ، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء ، وكان حسن أحد أفراد تخته المعطل ، وطبيعى أن العمل لم يكن يدر عليه أكثر من قروش فى الحفلة ، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و«حقارته» وقال الأستاذ :

ـ سأبدأ نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

ـ نحن رجالك، وفى الخدمة دائما . .

فهز الأستاذ رأسه فى رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة إلا إذا خاطبه أحد أفراد تخته المتسكعين، خصوصا حسن، ذلك الشرس الجبار، الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا، ثم قال:

ـ طبعا. إنك تردد ترديدا حسنا، وصوتك لا بأس به.

فانطلقت أسارير حسن فى بشر وقال:

ـ ولقد حفظت كثير ا من الطقاطيق . .

ـ مثل ماذا؟!

ـ اللى حبك، ظلمانى ليه، لما انكويت بالنار.

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال:

ـ إن محك الفن الدور والليالى. ماذا يسمع الآن فى الراديو؟ . لا شىء. هذا زعيق فارغ وليس بغناء. ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب نفسه، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات. إليك كيف غنى «ياليل» فى الحفلة الأخيرة. .

وتنحنح ثم راح يغنى ياليل مقلدا عبد الوهاب. وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن يمسك عن الغناء حتى انتهى. وحينذاك هتف رفاق حسن «الله . . الله» فأخذ نفساً من النارجيلة دون أن يلتفت إليهم، ثم قال لحسن همسا:

ـ هذا إعجاب بالصوت لا بالفن. اسمع هذه الليالى فى نفس واحد كما ينبغى أن تغنى . .

وأنشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ على صبرى، وعاد إلى النارجيلة وفى نيته أن يشكر فى هذه المرة للرفاق استحسانهم إذا أبدوه، ولكن ساد الصمت فلم يسمع إلا قرقرة الماء فى قنينة النارجيلة، وقطب الأستاذ وقال فى ثقة:

ـ هذه أصول الفن . .

فقال حسن بحماس:

ـ لا شك فى هذا . .

فقال بلهجة الناصح:

ـ مرن صوتك، لا تكف عن التمرين. أكثر من الليالى. ولا تن عن مص السكر النبات . .

ـ يا سلام . .

مفيد جدا ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان يفعله سلامه حجازى . .

فضحك حسن وقال :

ـ ولكنى أنام عادة قبيل الفجر . .

ـ أذن قبل النوم .

ـ فى مسجد؟ !

ـ المهم الأذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد، فى حانة، كيفما اتفق!

ـ وإذا كان الإنسان من غير مؤاخذة سكران أو مسطولا؟

ـ يكون أفضل، فما تستطيعه وأنت غائب عن وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صاح . .

ـ ينبغى أن نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا . . ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسألهم :

ـ ماذا كنتم تفعلون؟

ـ كنا نلعب الكومى . .

فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :

ـ هلم نجرب حظنا . .

ونهض الرفاق وأقبلوا نحوهما بلا تردد، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا، بيد أن حسن كان قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب . «ما عسى أن أصنع مع ابن القديمة هذا؟ إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت ضاع اليوم هدرا؟ !» .

١٢

ـ لا أدفع مليما واحدا أكثر من الثلاثة الجنيهات .

قالها تاجر الأثاث وهو يلقى نظرة على فراش المرحوم، ولم تعد تجدى مساومة الأم . وكانت قد أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يثيره وجوده من الأحزان، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة إلى النقود . وكانت ترجو له ثمنا أكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح إلى النقود، ولكنها لم تجد بدا من الإذعان فقالت للتاجر :

ـ غلبتنا سامحك الله ولكننى مضطرة للقبول . .

ودفع الرجل إليها بالجنيهات الثلاثة وهو يشهد الله أنه المغلوب ، ثم أمر تابعين بحمل الفراش .

واجتمعت الأسرة فى الصالة تلقى نظرة الوداع على فراش فقيدها المحبوب . وتمثل الراحل لهم فكأنهم يرونه رأى العين ، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت فى البكاء وأطبقت الأم شفتيها كاتمة آلامها . كانت تحرم على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن تظهر بمظهر الرجولة . لو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش وأثقاله ، ووجدت نفسها فى الغالب مضطرة إلى تناسى أحزان القلب لتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء . «يحز فى نفسى ألا أجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى ، ولكن ما الحيلة؟ . حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء» . ولم يكن حسنين يتصور أن يفرطوا فى مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر فى الاعتراض . والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد . ومضى التاجر بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حينا ، وأرادت الأم أن تبدد سحابة الحزن التى أظلتهم فقالت مخاطبة حسين وحسنين :

ـ هيا إلى حجرتكما للمذاكرة . .

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال :

ـ لن أسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبى . .

فقال حسن مؤمنا على قولها :

ـ وما من فائدة ترجى من بيعها . .

وساد الصمت حينا ، ثم قال حسن مستدركا وكأنه يواصل حديثه :

ـ وفضلا عن هذا فلن ينقضى وقت طويل حتى تشتد حاجتنا إلى الملابس !

فتساءلت نفيسة فى ارتياع :

ـ أيمكن أن تستعملوا ملابس أبى؟ !

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض ، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت :

ـ ما فى ذلك من ذنب . وليس فيه ما يسئ إلى المرحوم ، بل لعله مما يطيب ثراه . ولكنى سأحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة إليها حقا . .

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

ـ نطقت عن حكمة . وإنى أذكرك بأنى الوحيد الذى لا أكاد أختلف طولا أو عرضا عن المرحوم أبى .

وتناسى الشقيقان الحزن الذى ران على صدريهما فقال حسنين محتجا :

ـ إنى وإن كنت أطول منك قليلا إلا إنه يمكن مد ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

ـ أو ثنيها مرة أخرى . .

فقالت الأم فى ضيق :

ـ لا داعى للنزاع . توجد أكثر من بدلة فى حال لا بأس بها وسأوزعها تبعا للحاجة إليها . .

ثم بلغ المسامع طرق على الباب فقطع عليهم الحديث، وخفت نفيسة إليه ففتحته، فدخلت خادم فريد أفندى محمد حاملة سلة مغطاه بغطاء أبيض وضعتها على السفرة وهى تقول :

ـ ستى تسلم عليك يا ستى وتقول إن هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت . واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها الشهى إلى الأنوف . ولم يكن تهيأ للأسرة طوال الأسبوعين المنصرمين طعام شهى لما أخذت به الأم نفسها من الحذر والتقتير . ولاحت الرغبة فى أعين الإخوة . ولكن الأم كانت تتجهم لها الخواطر، والحقيقة أن تلك الأيام لم تكن تضمر لها خيرا، وحتى خيرها لم يخل من نكد، وبدا التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول :

ـ هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدى ما يماثلها عقب العودة من القرافة، فما العمل؟!

وجد الإخوة خيبة، وأراد حسين أن يخفف عن أمه فقال :

ـ فلنعد الهدية إلى أصحابها شاكرين!

فقالت الأم فى حيرة :

ـ يعد مثل هذا العمل معيبا لا أثر للمودة فيه . .

فقال حسن متحمسا لقول أمه :

ـ بل يعد سلوكا عدائيا . .

وتناول فطيرة، وشمها ثم قال باستهانة :

ـ لا تحملوا هما، إنما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها، فإذا مات فريد أفندى بعد عمر طويل أهدينا إلى أسرته سلة فطائر، ولن يعجزنا صنعه وقتئذ بإذن الله . وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ما، ثم مدا يديهما إلى السلة، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم . .

١٣

جلست نفيسة على الكنبة فى الحجرة التى تنام فيها مع أمها منكبة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم فى المطبخ، والشقيقان فى المدرسة، أما حسن فحيث لا يدرى أحد. وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأكبر مر اللوم، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى الوضع الذى هى فيه. لا يؤمن أحد بأنه جاد ـ كما يقول ـ فى البحث عن عمل، ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد الأيام تطالعهم إلا بما يسوء، فاليوم اضطرت الأم إلى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرتها فأصبح عليها ـ هى واجبان يوميا ـ أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم وأن تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد مهدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها:

ـ هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقالت المرأة بلا تردد:

ـ أبدا يا ست أم حسن. هذا حق وعدل، وهيهات أن نوفى ما علينا من دين لست نفيسة.

مازال سمعها يرجع هاتين الجملتين. وما تذكر أنها وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضح به، وشعرت بأنها تهوى من عل، وأنها أمست فتاة أخرى. ليس بين الكرامة والضعة إلا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة. وأعجب شئ أنه لم يستجد جديد بالنسبة إلى العمل نفسه، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت وامرأة فريد أفندى وابنتها وغيرهن من الجيران. فالخياطة هوايتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلة الجيران والصديقات، لشد ما تغير شعورها. أحست بالخزى والهوان والضعة، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حارا، وبكت نفسها فيه، مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها.

كانت تخيط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيما ولى من أيام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب، عقب حديث أمها بيومين، مما جعلها تظن أنها أرسلتها على سبيل الإحسان! وقد أفضت بأفكارها إلى أمها فانتهرتها قائلة:

ـ لا تسلطى هذه الأوهام على نفسك وإلا خاب مسعانا جميعا.

ولم تكن تجرؤ على معارضة أمها إلى ما باتت تكنه لها من الرثاء فى هذه الأيام الأخيرة. «ما أغبانى هل حسبتها راضية على حالى؟ إنها تكابد حيرة قاتلة وهى أحقنا بالعطف. إن التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الإبرة فى قطعة القماش. ما كان أبى ليسمح بشئ من هذا ولكن أين هو؟. إن حزنى عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذى مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير. إنى آلم لألمه. لابد أنه متألم لنا، لشد ما كان يحبنى. كأنه يحدس ما يرصد نى من شقاء. اضحكى، ما أحب ضحكتك إلى نفسى، هكذا كان يقول لى كلما تعالت ضحكتى الرنانة. وكان يقول لى أيضا الخفة أنفس من الجمال كأنه يعزينى على دمامتى. لله ما ألطفه وما أعذبه، لم يكن مثله أحد فى الرجال. مات. مات. لن أنسى ما حييت إيماءته إلى صدره وهو ملقى على الكنبة: أبى يستغيث ولا مغيث. لتندك الجبال على الأرض. حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها. أبى ميت وأنا خياطة. عما قليل تجئ صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة. كيف ألقاها؟ بأى عين تنظر إلى؟. حسبى، حسبى، داخ رأسى». وسمعت أمها تخاطب شخصا فى الصالة فكفت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ فى مساوماته التى لا تنتهى وأمها تحاوره بصوت ملؤه الإشفاق واللوم. «ليست أمى بلهاء. وما كانت لتغلب فى مثل هذا الموقف. ولكنها الحاجة القاسية التى تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدرى، ولا أحمد يسرى يدرى. هيهات أن يكفينا المعاش، خمسة جنيهات؟! كارثة. جاء الرجل ليحمل المرآة الكبيرة بحجرة الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز. وسيأتى غدا وبعد غد حتى يترك الشقة أرضا عارية. لماذا خلقنا أسرى أذلاء للغذاء والكساء والمسكن؟ هذا سر متاعبنا». وخفت إلى باب الحجرة ففتحته ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرآة الطويلة إلى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت أمها على عتبتها. وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرآة قصيرا فحملت المرآة فى وضع مائل ورأت سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحركة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال. وذكرت وهى لا تدرى نعش أبيها. واشتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرآة التى عاشرتها منذ رأت النور. وعادت إلى مجلسها. «ينبغى أن تكون المرآة آخر ما أحزن عليه. لن تعكس لى وجها أسر به. الخفة أنفس من الجمال! هذا قولك يا أبى وحدك ولولاى ما قلته أبدا. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى، مات أحدهما، وشغلت الهموم الآخر. وحيدة. وحيدة، وحيدة فى يأسى وألمى، ثلاثة وعشرون عاما! ما أبشع هذا. لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم أو غدا؟! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة

فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ . لماذا أفكر فى هذا؟ لا فائدة، لا فائدة . سوف أظل هكذا ما حييت» .

ودق الباب، ثم جاءت صاحبة البيت متهللة كعادتها، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلستا جنبا إلى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتباكها وخجلها . ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة فى إظهار مودتها آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطه، وقاست الثياب الداخلية . ثم جلست لصقها ، وغمرت يدها بنقود فضية وهى تقول :

ـ هيهات أن نوفى دينك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت . وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش . وثبتت عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق . ثم قهرها الحياء والهوان، شئ مؤلم، ولكن ينبغى أن أفكر فى هذا . ما جدوى وجع الدماغ؟ روضى نفسك على قبول ما لابد منه . هذه حياتى ولا حياة لى غيرها . . وجاءت الأم وهى لا تزال تنظر إلى النقود فأخذتها من يدها وسألتها :

ـ أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده؟

فغمغمت الفتاة :

ـ لا أدرى . .

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها بصعوبة :

ـ أجرة حسنة على أية حال .

وتحاشت الأم أن ينم وجهها عن شئ مما يقوم فى نفسها . .

١٤

ومضت أسابيع . وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت . وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهمكين فى المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة فى الصالة فى شبه ظلام قانعتين من النور ـ على سبيل الاقتصاد ـ بما ينبعث من حجرة الأبناء . وتناجيتا فى صوت منخفض شأنهما كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما . لم تزل الحاجة همهما الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميق . بيد أن العادة كانت تحدث أثرها الملطف

فى تهوين الخطب وإساغته، فلم يعد التقشف فى الغذاء مزعجا كما كان بادئ الأمر. وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة، وتتطلع إلى زبائن جدد، فى شئ من الانكسار وكثير من الرجاء. حتى الشقيقان، تعودا أن يجعلا من غذاء المدرسة وجبتهما الرئيسية، وأن يبيتا بلا عشاء فى صبر وجلد. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة. وفى ذاك المساء جاء فريد أفندى محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتاهما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندى يرتدى جلبابا ومعطفا، أما حرمه فقد التفت بالروب، وكأنهما فى شقتهما بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنبة ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود فى لطف وإيناس. وكانت زوجه ـ ست أم بهية ـ بدينة مثله مع ميل إلى القصر، إلا أنها كانت تعد أجمل امرأة فى العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيها. وقد قالت تخاطب أم حسن متسائلة فى لهجة تنم عن العتاب:

ـ لماذا تلزمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروحان عن نفسكما بزيارتنا كما كنتما تفعلان؟

فقالت الأم:

ـ هجم برد الشتاء وما أن يأتى المساء حتى يركبنا الكسل. أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت..

فقال فريد أفندى:

ـ نحن أسرة واحدة، وينبغى أن نمضى جل فراغنا معا.

كان فريد أفندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهار. ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبة ومن حوله زوجه وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير، يسمرون، ويمصون القصب أو يشوون أبا فروة. وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته، ولا تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها. وفضلا عن هذا كله فقد أقرضها بعض المال لحين صرف المعاش، ولم يكن ينى عن الذهاب إلى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال. بيد أنه كان موظفا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة. ولم يرق إلى الدرجة السادسة إلا حديثا على بلوغه الخمسين. وكانت جيرته للأسرة ترجع إلى عهد بعيد. وتوثقت أواصر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الأسرتين. وكانت حياة لا بأس بها، ولا تخلو من ألوان الترفيه. ثم نعمت أسرة كامل أفندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم إلى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام. واستقبل فريد أفندى عهدا جديدا منذ عامين، فورث بيتا بالسيدة زينب يدر إيجاره عشرة جنيهات شهريا، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيها مما يعد ثروة فى عام ١٩٣٣. وبات فريد أفندى سيد عطفة نصر الله، وزاد ترهلا على ترهل، ولولا حرص زوجته على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما وابنهما الصغير لنفذ الرجل ما أراده يوما من الانتقال إلى شقة بشارع شبرا.

وتنقل بهم الحديث من واد لواد، ثم قال فريد أفندى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه إلى هذه الزيارة:

ـ ياست أم حسن، إنى قاصدك فى رجاء..

فقالت الأم:

ـ مر يا سيدى..

ـ ابنى سالم.. ،هو فى السنة الثالثة الابتدائية، ضعيف فى الإنجليزى والحساب. وقد رأيت على سبيل الاقتصاد ـ لأن المدرسين طماعون كما تعلمين ـ أن أعهد إلى حسين وحسنين القيام بهذه المهمة، ساعة كل يوم أو يوما بعد يوم، هذا رجائى يا ست أم حسن.

وأدركت المرأة أن الرجل يهيئ سبيلا غير ماس بالكرامة لنفح ابنيها بمصروف شهرى يرفه عنهما. هذا واضح كالنهار ويتفق مع ما طبع الرجل عليه من دماثة ورقة. وقالت برقة وحياء:

ـ إن حسين وحسنين ابناك، وهما طوع أمرك..!

فقال الرجل بسرور:

ـ فليسعفانى بسرعة إذن، وليبدءا يوم الجمعة القادم..

وعادوا إلى حديثهم الطويل، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة. وهرعت نفيسة إلى حجرة أخويها حاملة خبرا سارا لأول مرة منذ عهد ليس بالقصير، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الأولى:

ـ مفاجأة!

فرفعا رأسيهما إليها فى استطلاع فقالت:

ـ فريد أفندى راغب فى اختيار مدرس لسالم..

ـ وما شأننا فى ذلك؟

ـ منكما؟

ـ لأى مادة؟

ـ الإنجليزى.

فصاح حسنين:

ـ أنا طبعا!

ـ والحساب أيضًا.

ـ فقال حسين وهو يتنهد :

ـ أنا .

فقالت فى مكر :

ـ يريدكما معا ، وطبعا بالمجان !

فهتفا معا فى سرور وقد أدركا ما وراء كلامها :

ـ طبعا !

١٥

لم يكن ثمة ما يدعو إلى ارتداء البدلة فى ذهابهما إلى شقة فى نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين . وإلى هذا كانت أمهما تحرم عليهما ارتداء البدلة ـ أن يبليها طول الاستعمال ـ إلا للضرورة القصوى . وكان الضحى بسام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو . وارتقيا السلم يملأهما السرور والأمل . ومرا فى صعودهما بباب شقتهما القديمة فألقيا عليها نظرة صامتة ، وانتهيا إلى الشقة العليا فوجدا الباب مواربا ووقفا لحظات مترددين . ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكن يده جمدت فى الهواء ورنت عيناه إلى الداخل على رغمه . رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شئ بين يديها ـ لعلها تبحث فى درج من أدراج البوفيه ـ وقد برز ردفاها اللطيفان ، وانحسر الفستان عن ساقيها وباطن ركبتيها ، ساقان مدمجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتهما . وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا . وعجب حسين لموقفه فدنا منه فى اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرئب بعنقه فغمرته دهشة ، ولكن سرعان ما ارتد عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنما يقول له «أمجنون أنت» . ولبثا حينا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب ، وكأن المنظر ذر فى شقوق صدريهما الشطة . ومال حسنين على أذن حسين وهمس :

ـ بهية . .

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ لعلها . .

فتردد حسنين وفى عينيه بسمة شيطانية ثم قال :

ـ ألا نسرق نظرة أخرى؟

فلكزه فى كتفه ونحاه جانباً ثم اقترب من الباب وطرقه. وسمعا وقع أقدام آتية، وفتح الباب عن وجه جميل، مستدير، ممتلئ أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينه عينان زرقاوان صافيتان. وما أن رأت القادمين حتى تراجعت فى خفر. ثم جاء من بعيد صوت فريد أفندى وهو يهتف:

ـ تفضلا يا حضرتى الأستاذين الكبيرين!

ودخلا إلى الصالة ـ حجرة السفرة أيضا ـ فرأيا فريد أفندى جالسا على كنبة فى مواجهة البوفيه، فى جلباب فضفاض، جعل منه كهيئة المنطاد. وسلما عليه وهو يتصفح وجهيهما باهتمام وترحيب، ثم نادى سالم، فجاء الغلام ووقف فى حياء وارتباك، فقال فريد أفندى:

ـ سلم على أستاذيك. أنت تعرفهما طبعا ولكنهما من الآن فصاعدا شخصان جديدان. هما أستاذاك فتأدب فى محضرهما كما تتأدب أمام معلميك.. فاقترب منهما الغلام فى أدب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يألف احترامهما بعد، وأشار الأب إلى حجرة إلى يسار الداخل وقال:

ـ حجرة الاستقبال أوفق حجرة للدرس، وبها الشرفة إذا أراد أحدكما أن يتشمس..

ومضى الأستاذان إلى الحجرة يستقبلهما التلميذ، وبادر الغلام إلى الشرفة ففتح بابها، ثم أغلق باب الحجرة. وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد أفندى ابن فى سنهما فتدعوهما صداقته إلى التردد عليها. ووجدا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجه عام فهى مكونة من طاقم قديم ذى كنبتين أفرنجيتين وستة كراسى، ومرآة كبيرة ذات حوض مذهب يحوى وردا اصطناعيا بيد أن حجرتهما بقيت على قدمها وبيعت مرآتها، أما هذه فيبدو أن يد النجاد قد جددت حشوها وكساءها. وجلس حسين على كنبة فجاء سالم بكرسى وجلس قباله واضعا بينهما خوانا صفت عليه الكتب والكراسات، على حين خرج حسنين إلى الشرفة فى انتظار دوره. وجعل حسين يتصفح كراسات الغلام وكتبه، ثم قال له:

ـ سأعيد الدروس من الأول شارحا ما يغمض عليك على أن نبدأ فى الدرس التالى بتسميع ما تم شرحه.

وبدأ الدرس فى اهتمام جدى.

ووقف حسنين فى الشرفة مرتفقا حافتها كما كان يفعل أيام كان لهم شرفة. وكان المنظر الذى أثاره لا يزال ناشبا فى مخيلته. الساقان البديعتان، والوجه البدرى ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة. جمال يبهر وإن شابه شىء من ثقل الدم ولكنه لم يترك أثرا سيئا فى نفسه. لا يزال دمه يتدفق حارا فى عروقه، وقلبه

يخفق بنشوة المنظر، ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام، هذه أسطح البيوت المحدقة به وهذه عطفة نصر الله فى أسفل، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آئبون، كل أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن الدم، متى تعود السكينة إلى نفسه؟ إنه يذكر بهية. كان يراها كثيرا وهى صغيرة تحجل فى فناء العمارة. ولكنها اختفت منذ الثالثة عشرة، وانقطعت عن المدرسة أيضا قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية. ولعلها فى الخامسة عشرة، ولكن كان كأنه يراها لأول مرة. «إنى بحاجة إلى مثل هذه الفتاة. نذهب إلى السينما معا، ونلعب معا ونتحدث كثيرا. وما من بأس فى أن أقبلها وأعانقها. ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى إليه. وحسبى ما صادقت من فتيان المدرسة ونادى شبرا. أريد فتاة. أريد هذه الفتاة. فى أوربا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات معا كما نرى فى السينما. هذه هى الحياة. أما هذه فما أن رأتنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش تروم التهامها. وكان أجدادنا يقتنون الجوارى. لو نشأت فى بيت ملئ بالجوارى لعرفت حياة أخرى على رغم أمى وإنذاراتها ولكماتها. حتى الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا. ما يخبئ لنا المستقبل، أظن أن أكبر ذنب يؤخذ به فى الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها. أجمل منظر حقا هو بطن ركبتها. فى وسطه عضلة رقيقة مشدود تشف بشرتها عن زرقة العروق. لو انحسر الفستان قليلا لرأيت مطلع الفخذ. أجمل منظر فى الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها. أجمل من المرأة العارية نفسها. يقولون إن مدرس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسى رجلا حرا!؟ عندنا غدا حصة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية. انكحوا ما طاب لكم من النساء، هذا أمرك يارب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الإسلام.» وتابع أحلامه فى نشاط حتى ترامى إليه صوت حسين يدعوه إلى درس الإنجليزى فغادر موقفه..

وعند انصرافهما بدت لهما الفتاة جالسة فى الحجرة المقابلة لحجرتهما، أما حسين فقد غض بصره فى وقاره المعهود. وأما هو فقد رنا إليها بنظرة قوية فخفضت عينيها فى حياء.

١٦

ـ كم تظن أن يكون أجرنا؟

فقال حسين متظاهرا بعدم الاكتراث:

ـ لا تكن شحاذا ثقيلا..

فقال حسنين بأمل :

ـ نحن ندرس لسالم يومًا بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به فلعله ينقدنا أجرنا أول الشهر ، نينة لا تستبعد أن يعطى كلا منا نصف جنيه وهو مصروف عال! ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المقصف فى الفسحة . .

كانا يرتقيا السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير فى ظلمة المساء المبكر . وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجئ من يفتحه وهما يطويان فى صدريهما أملا يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق . وجاءت الخادم وقادتهما إلى حجرة الاستقبال . كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين فى نهاية الصالة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم وأغلق وراءه الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس . وشعر حسنين بخيبة وملل . وكان قد أحضر معه كتابا يذاكره حتى يجئ موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين . وجعل يرفع بصره إلى الباب المغلق بحنق شديد ، ثم تساءل بمكر :

ـ ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب؟

وهم سالم بالنهوض ولكن حسين أشار له بالجلوس وقال :

ـ أغلق الشرفة إذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقا .

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء مكتوم . وضاق بمجلسه فقام إلى الشرفة متناسيا أنه كان يقترح إغلاقها منذ لحظات . ووجد حيال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التى كانت مزنقة بصفحة السماء تزيد الظلمة عمقا ووحشة ، لم يكن بالآفاق نجم واحد ، ولا حت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب ، وخيم على الكون سكوت ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه . «حنبلى ، حنبلى . يجب أن يكون رجلا وقورا قبل الأوان . ولا يبدو أنه يريد أن يعاوننى . من يدرى لعلها لو كانت لها أخت لتغير سلوكه . إنه كأمه جاد صارم . ينبغى أن أفض هذه المشكلة بالحل الموفق» وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه إلى الحجرة . وقال له الغلام :

ـ تفضل شايا .

ورأى قدحين من الشاى على الخوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاى من توتر أعصابه . وقبل مضى دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلا وبدت بهية! . كانت تحمل السكرية فأعطتها لسالم وهى تقول :

ـ خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاى من سكر . .

كانت ترتدى فستانا بنيا تكاد تمس أهدابه أعلى القدم فأضفى طوله على قامتها المائلة للقصر ملاحة . وحملق الشقيقان فى وجهها وهى لا تحول عينيها عن الغلام . ثم غض

حسين بصره ولما يفق من وقع المفاجأة، بينما ظل حسنين يحملق فى وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره. ورأى الغلام يجئ بالسكرية، وأخذت الفتاة ترد الباب فملأ الجزع قلبه الخافق، وعز عليه أن تختفى وهو غارق فى ذهوله وجموده. وطفرت من أعماقه رغبة فى الإفصاح لا تقاوم، فقال بعجلة:

ـ شكرا. الشاى به الكفاية..!

وتحولت عيناها إليه فى ارتباك، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة، ولعل عينيها نمتا عن ابتسامة مكتومة. وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره فى قدح الشاى. «مفاجأة لم أكن أنتظرها. حلم سعيد. على الرغم من الباب المغلق!» ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ فى جزع. ولكن سخونة الشاى لم تغيبه طويلا عما يعانى من إغراء. «جسم لدن. عينان جذابتان. هيهات أن يخفى هذا الفستان الطويل ما انطبع فى حسى من صورة الساقين. وبطن الركبة خاصة. لا الفستان ولا الباب ولا الظلام. أعظم واجب فى هذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها. إنى أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق فى وجه حبيبها تستطيع يوما أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة! هذا التطور خاصة خليق بأن يبعث بهيج الأمل فى موات النفوس. أو لعلها العادة؟!.. يجوز. هذه العادة التى جعلتنا نألف المبيت على الطوى! كيف يحق لى أن أفكر فى الحب على ما نكابد من قساوة الحياة!. شكرا، الشاى به الكفاية!. أحسنت بشكرها صنعا. لا يحب طبعى الجبن والتردد. وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر. الفقر!. لو كان الفقر رجلا لقتلته!. ولكنه امرأة. تقتلنا ونحن راضون. ترى هل يتألم أبى لحالنا؟ ترى ما هيئته الآن؟ لهفى عليك يا أبى. حقا إن الحياة أكذوبة ضخمة. ولكنها جاءت بنفسها بالسكرية!. جاءت لى أنا فى الواقع. أريد أن أكون شارلمان عصرى. لو عدت يوما إلى عطفة نصر الله محاطا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها على من الشرفة..» وما يدرى إلا وحسين يقول له:

ـ دورك..

اللغة الإنجليزية!. وحل محل أخيه، ألقى درسا ممتلئا عطفا وحبا للغلام الذى يجرى فى عروقه الدم الذى يجرى فى عروقها. ذلك الدم الذى استشفه فى بطن ركبتها. وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولا، ثم غادرا الشقة معا إلى السلم المظلم. ولم يعد يطيق صبرا فقال:

ـ كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة:

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد:

ـ حاذر لا تكن وقحا. هذا بيت محترم!

ـ ماذا فعلت فأستحق هذا التأنيب؟

ـ لا تفعل شيئا تندم على فعله إذا كان فريد أفندى معنا .

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجى نفسه :

ـ جاءت بنفسها! . لله ما ألطفها!

ـ ليس فى هذا ما يعجب . .

ـ ترى أكلفها أبوها بإحضار السكرية؟

فقال حسين بملل :

ـ من أدرانى بذلك!

ـ أم جاءت من تلقاء نفسها؟

ـ ليكن هذا أو ذاك .

ـ وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها؟

فلم يجبه الآخر وإن ظل منتبها لما يقول فى اهتمام شديد . فعاد حسنين يتساءل :

ـ أو جاءت خفية؟

فهتف حسين :

ـ خفية؟! .

فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم :

ـ ألا يقولون «من القلب للقلب رسول؟! . .»

١٧

ـ جئت الآن وحدى ، وسيجئ حسين بعدى ، حتى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة!

فقال سالم بأدب :

ـ هذا أفضل . .

واتخذ كلاهما مجلسه ، ولكن حسنين قال قبل أن يبدأ درسه : الأوفق أن تغلق الشرفة وتفتح الباب! .

ونهض سالم فحقق رغبة أستاذه . ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر أمله ، فلا يزال فى الوقت متسع للشاى ، ثم للسكرية! . وأراد سالم أن يتودد إلى مدرسه بأن يفضى إليه بما فى نفسه فقال :

ـ بابا وماما عند ستى . .

فخفق قلبه بعنف، ونظر إلى الغلام طويلا، ثم سأله :

ـ متى ذهبا؟

ـ بعد العصر . .

وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معهما فتساءل :

ـ وكيف تبقى وحدك فى البيت؟

فقال الغلام :

ـ معى أبلة بهية

وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل : «الشاى والسكر . السكر خاصة . بل السكرية . سأتحقق اليوم مما إذا كانت تتعمد الظهور أمامى!»، وأمر الغلام أن يطالع وبدأ الدرس، وأصغى إليه دقائق ثم مضى يغيب عنه . «هل أطلب شايا؟ قلة ذوق . ! ولكن إذا تأخر الشاى فلا بد من طلبه . إنى مضطرب أكثر مما ينبغى . إننا وحيدان فى الشقة أنا وهى . لا يخدش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير، فنحن وحيدان . فلأنعم طويلا بهذه الوحدة الخالية . لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمت إليها وأخذتها بين ذراعىّ، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف عن ساقيها . ما الذى يجعلنى أحجم عن رغبة كهذه؟ هذا سخف الدنيا الذى قتل أبى وأنزل بنا ما نحن فيه» .

وانتبه إلى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها، وأمره أن يواصل المطالعة . وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فاتجه بصره ناحية الباب المفتوح، ثم رأى صينية الشاى تتقدم حاملها، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائما كمن به مس . وجاءه صوت رقيق وهو يخطو نحو الباب يقول بصوت كالهمس :

ـ سالم . .

فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثم همس :

ـ ألف شكر . .

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعله لم يتوقع ظهوره، ثم غضت بصرها فى ارتباك . ومد حسنين يديه فتناول الصينية، فأطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها، وسرى مسها فى يده، وذراعه، وجسمه، وروحه، فى أقل من ثانية . ولم تقف به جرأته عند حد فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية، فاستخلصت يدها فى استياء، وفى وجهها عبوسة، وتحولت عن الباب فى حدة الغضب . وعاد إلى الخوان بالصينية شديدة التأثر، ثم جلس على مقعده وهو يقول للغلام فى ارتباك :

ـ استمر . .

«ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج؟ . . ما أقل صبرى ، هكذا أنا دائما .

يا لها من عبوسة! . . عبست وتولت . إن يكن حياء فهو عز المنى ، وإن يكن حنقا فلعله الختام . هيهات أن أتراجع . هيهات أن يطيب لى التردد أبدا ، لماذا جاءت بنفسها؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية؟ . جاءت لى أنا . هذا واضح . لا داعى للخوف» . وكان ينتبه إلى سالم فى أويقات متقطعة . ويملى عليه بعض الأسئلة ، ثم يغيب عنه فى قلق يراوح بين الإشفاق والسرور . ولما أن انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمم على تنفيذها دون تردد . ونهض قائما ، وغادر سالم الحجرة ليوسع له الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على المقعد ، ثم غادر الشقة . ولكنه لم يبرح مكانه بعد إغلاق الباب . وقف يرهف السمع إلى خطوات الغلام حتى ضاعت ، وتريث لحظة ثم نقر على الباب . وانتظر وقلبه يثب وثبا من شدة الخفقان . «إذا جاءت الخادم ضاع تدبيرى هباء . ولكن من المحتمل أن تأتى هى . أمرى لله» . وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة ثم فتح الباب . هى . ولم يبال ما ارتسم على وجهها من آى الدهشة ، ولم يضع وقته سدى فتساءل فى رقة وإشفاق .

ـ أخاف أن أكون أغضبتك!

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فاها فقال بعجلة :

ـ لا أطيق أن تغضبى أبدا . .

فغمغمت فى استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجه إليها خطابا :

ـ لا ، لا ، لا ، هذا كثير!

ولم يستطع أن يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل :

ـ جاءت ماما؟

فقال حسنين بصوت مرتفع :

ـ نسيت منديلى فى الحجرة! . .

وجرى سالم إلى الحجرة ، وسارعت الفتاة بالعودة إلى الداخل ، ثم جاءه الغلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسى أن يشكره . .

١٨

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأله :

ـ مالك؟

فضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب ، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى :

ـ أأعطيت درسك؟

فارتمى حسنين على فراشه وتساءل :

ـ هل أبدو متغيرا؟

بلا ريب .

فتنهد الشاب قائلاً :

ـ يحق لى أن أحمد الله على أن أمنا تجلس فيما يشبه الظلام .

ـ ماذا حدث؟

هل يخبره بما حدث؟ ولكن هل يلقى منه إلا زجرا؟ قال :

ـ لم يحدث شىء؟

ـ واضطرابك؟ ! إنك إذا اضطربت توتر أنفك كالحمار .

قال حسين ذلك ثم تساءل فى نفسه هل يتوتر أنف الحمار حقا ، كيف اختار هذا التشبيه؟ ولكن الآخر تضاحك قائلا :

ـ هيجان شعور ، هذا كل ما هنالك . .

ـ وبعد؟

ـ ولا قبل !

فقال حسين بجد واهتمام :

ـ أريد أن أعرف مقصدك .

ـ لا أفهم ما تقول .

ـ لا تتجاهل ما أعنى ، أنت تفهم كل شىء . لماذا لا تتركها وشأنها؟ ألا تخاف أن يفطن فريد أفندى إلى عبثك أو أن يبلغه أمرك عن طريق الفتاة نفسها؟ سترمى بنا إلى مركز حرج . .

فقال حسنين مبتسما :

ـ والله يا أخى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها . .

فضحك حسين على رغمه، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجد والرزانة :

ـ ماذا تريد منها؟

يا له من سؤال! . . يبدو فى غاية البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابا . كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة إلى التفكير . ثم قال فى حيرة :

ـ فى مثل حالتى لا تفرق بين الباعث والغاية .

ـ لا أفهم ما تقول .

ـ ولا أنا بفاهم!

ـ إذن دعها وشأنها كما قلت لك .

ـ لن أزال وراءها حتى . .

فتفحصه حسين بنظرة كئيبة وتمتم متسائلا :

ـ حتى ماذا؟

ـ حتى تقع كما وقعت .

ـ ثم؟!

فقال الشاب الحائر :

ـ حسبى هذا!

فهز حسين رأسه فى حدة وقال :

ـ أنت مخطئ . إنها فتاة مهذبة، ومن أسرة طيبة، ولن ترضى عن سلوكك . .

ـ هى ما قلت وأكثر ولكنى لن أتخلى عن أملى . .

وقام إلى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد إلى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التى تلى فراشه مباشرة، وجلس متربعا حيالها كأنه جالس إلى مكتب، فسأله حسين متعجبا :

ـ لم لا تجلس إلى المكتب؟

ـ أريد أن أتربع لأدفئ ساقى .

وكان يفكر فى أمر ذى بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وأمسك بالقلم وراح يعمل ذهنه فى اهتمام ووجد واضطراب . «سأكتب لها كلمة . لن تتاح لى فرصة

لمخاطبتها فلا حيلة لى إلا هذه. ولكن ماذا أكتب؟»، وركز فكره مستعينا بالسكون الذى يغشى الحجرة لا يخدشه شئ إلا خشخشة أوراق الكراسة إذا قلبها حسين، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلل من النافذة المغلقة وانيا من بيت من بيوت العطفة. وقطب متظاهرا بالضجر ولكنه ارتاح إلى سماعه هربا من حيرة أفكاره. وأصغى إلى «عادت ليالى الهنا»فسلم سريعا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحب والحياة. وغمرته موجة حماس فامتلأ نشاطا وتمنى لو ينطلق إلى الخلاء متلفعا بالظلام. وجعل يغيب عن النغم رويدا بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى. «يجب أن أكتب كلمتين. جملتين فحسب، حتى لا أسود إلا ورقة صغيرة إذا رميت بها عند قدميها لم يستبنها أحد». وحرك القلم كاتبا: عزيزتى بهية إنى آسف جدا لأنى أغضبتك. «أليس أفضل أن أقول: لا تغضبى يا عزيزتى؟.. سيان. ثم ماذا؟ ينبغى أن أعترف لها بحبى. أريد جملة غير مبتذلة. اللهم عونك.» وقطع حسين عليه تفكيره متسائلا:

ـ ماذا تكتب؟..

ـ موضوع إنشاء.

ـ ما هو؟

فقال بلا تردد:

ـ أثر الموسيقى فى نهضة الأمم..

عزيزتى بهية، إنى آسف جدا لأنى أغضبتك. أيحق لك الغضب لأنى أحبك؟ «يكفى هذا فخير الكلام ما قل ودل. كلا لا يكفى. النغمة ناقصة. أستشهد ببيت من الشعر. كلا فهذا يثير الضحك عادة. وضحكة واحدة خليقة بأن تفوت على الغرض. جملة أخرى مؤثرة. يارب يا معين!» ووثبت إلى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب: والله ما فعلت ما فعلت.. ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلا:

ـ هل انتهيت من نقط الموضوع؟

فانزعج حسنين فى غيظ مكتوم..

ـ تقريبا.. عن إذنك لحظة واحدة!

وعاد إلى الخطاب فى تصميم من يريد الفراغ منه فكتب: والله ما فعلت ما فعلت إلا لأنى أحبك. وسأحبك ما حييت، ولا حياة لى إلا برضاك عنى. وأعاد قراءتها بعناية، ثم تنهد فى ارتياح عميق، وطواها وثنى طرفيها ثم أودعها جيبه. «سأنتهز فرصة اقترابها من الباب، أو مرورى بها فى الصالة، ثم أرمى بها إليها، وليكن ما يكون»..

١٩

ووجدت نفيسة نفسها فى حجرة متوسطة الحجم، قامت على جانبيها كنبتان كبيرتان وبضعة مقاعد، أما أرضها ففرشت ببساط أسيوطى، وفى جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطل من الدور الرابع على شارع شبرا. كان الأثاث قديما والظاهر أن الحجرة كانت معدة لجلوس الأسرة فى أوقات الفراغ كما يمكن أن يستدل عليه من وجود الراديو بداخلها على كثب من الباب. وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدماها الشقة أنها على قدر وافر من الجاه يبدو فى الصالة الصغرى التى أثثت كمدخل للبيت، والصالة الكبرى الفاخرة المعدة للسفرة، فحق لها أن تصدق صاحبة بيتهم بعطفة نصر الله حين قالت لها «جئت لك بزبونة ملآنة، عروس ومن أسرة كريمة، فأرجو أن تخيطى ثيابها بما تستحق من عناية علها تفتح لك مغلق الأبواب». وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتا غريبا للعمل أول مرة. وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر. وكانت ترتدى ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود فى ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق والحسن شاحبا بائسا. «بيت غريب وأناس غرباء. خطوة جديدة فى سبيل المهنة. لست إلا خياطة. ليست كرامتى التى تعز على ولكن كرامتك أنت يا أبى». ولم يطل بها الانتظار إذ جاءت من الحجرة فتاة فى العشرين على حسن ورشاقة، فقامت تستقبلها، وسلمت عليها القادمة وهى تلقى نظرة متفحصة ثم قالت:

ـ أهلا وسهلا. حضرتك الست نفيسة التى أرسلتك ست زينب؟.

فقالت الفتاة فى حياء:

ـ نعم يا هانم. وحضرتك العروس؟.

فأومأت بالإيجاب مبتسمة، ثم جلستا، وهى تقول:

ـ ست زينب تثنى عليك جميل الثناء. وأنا أتوسم فيك الخير.. فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفتاها دون أن تنبس بكلمة. «لعلها قالت إنى خياطة ماهرة. هذا حسن. أمدح أم ذم. لا أدرى. ترى هل قصت عليك نبأ أسرتنا؟. كان أبى كأبيك. وكنت سيدة مثلك. وطالما انتظرت العريس ولكنه لم يأت. ولن يأتى». وسألت العروس فى رقة وهى تعلم الجواب:

ـ لماذا ترتدين السواد؟.

فأجابتها فى حزن:

ـ توفى والدى منذ شهرين . وكان رحمه الله موظفا فى وزارة المعارف .

ـ حدثتنا بذلك ست زينب . البقية فى حياتك .

ـ حياتك الباقية . نحن من بنها ، وخالتى تقيم هناك مع زوجها الذى يملك محلجا للقطن .

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضعتها إلى جانب سيدتها وذهبت . وحلت العروس عقدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها . وأدركت نفيسة من النظرة الأولى أنها أقمشة للثياب الداخلية . ولعلها أرسلت بالفساتين إلى خياطة كبيرة ، وارتاحت لهذا لأنها كانت تشفق من أن تعرض سمعتها لتجربة شاقة لا قبل لها بها ، عمل فى حدود طاقتها وربح مضمون ، وقامت إلى مجلس العروس وراحت تتفحص الأقمشة وتتحسسها قائلة :

ـ مبارك عليك . ياله من حرير نفيس .

فافتر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت :

ـ نبدأ الآن بالقياس . وعلى فكرة أعندك مانع من مباشرة العمل هنا فى بيتنا؟ عندنا ما تحتاجين إليه من الأدوات كلها ، وليس ثمة أطفال فى البيت ، وفضلا عن هذا كله فبيتنا غير بعيد عن عطفتكم فتستطيعين الحضور كل يوم فى غير مشقة .

ولم تر نفيسة بدا من أن تقول :

ـ لك ما تشائين يا هانم . .

وقامت الفتاة ووقفت أمامها ، وجعلت نفيسة تقيس الأقمشة عليها . امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد ، وشعرت لمسه وهو ينزلق بين أصابعها بإحساس غريب ، فيه اشتهاء وفيه ألم . بيد أنها أحست كذلك ، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة . فكأنها ظفرت بأمل فى العزاء ، ولكنه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأسا قاتما «عروس وحرير أحقا أخيط هذه الثياب لهذه العروس؟ . كلا هذه الثياب الداخلية تهيأ للعريس قبل العروس! . . ستداعب أنامله أهدابها الناعمة ومادتها اللطيفة . إنى أشارك فى هذا الزواج . وسأشارك فى زيجات كثيرة دون أن أتزوج ، قانعة من هذا كله بأحلامى المحرقة . يالها من فتاة مليحة وسعيدة . تكاد السعادة تتوهج فى عينيها ، اليوم تجهز الحرير ، وغدا تنتظر الحبيب ، وتتنسم أنفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من أفق وردى . طالما حلمت بهذا وأبى يقول لى إن الخفة أنفس من الجمال ، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الإشفاق والرجاء ، وبموته مات الرجاء . لماذا خلقت هكذا دميمة؟ . لماذا لم أخلق كإخوتى الذكور؟ ما أجمل حسنين ، وحسين ، حتى حسن ، إنى ميتة كأبى ، وهو فى باب النصر وأنا فى شبرا» وسمعت العروس تسألها :

ـ أتحبين أن تتسلمى بعض أجرك مقدما؟

ـ فقالت بعجلة :

ـ لا داعى لذلك مطلقا .

ثم عضها الندم على ما قالت فتضاعف حزنها ويأسها . وسمعت أطيط حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرأت شابا يدخل الحجرة هاشا، وأقبل على العروس فالتحمت يداهما، وتبادلا ابتسامة سعيدة، ثم سألها :

ـ أين والدتك؟ .

ـ فى حجرتها .

ثم التفت إلى نفيسة وقالت تقدم لها الشاب :

ـ حسان خطيبى .

ثم عطفت رأسها إليه قائلة :

ـ ست نفيسة الخياطة . .

٢٠

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة . وكانت عطفة نصر الله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ . وأنعشها الهواء البارد فحثت خطاها . ووجدت ذكريات مما مر بها فى بيت العروس تنثال على مخيلتها فى لذة وألم معا : كانت تجلس على كنبة وقد جلس الخطيبان على الكنبة المقابلة . كانا ملتصقين . وكانا يتحدثان فى صوت مسموع حينا، وينخفض حينا فيصير مناجاة وهمسا . وكم ودت وقتذاك أن ترفع رأسها عن الماكينة إليهما ولكنها خافت وعقلها الحياء أن تلتقى عيناهما بعينيها . ومرة رفعت عينيها من تحت رأسها المنحنى فوقع نظرها على ساقين ملتصقتين، ثم انتبهت على العروس وهى تضربه على يده قائلة فى لهجة تنم على الدلال والوعيد :

حذار! . .

استغرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمارة، ثم دخلها إحساس نهم بالتحرق إلى الحب . لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها، ولم تجد من متنفس عن توتر أعصابها إلا فى الضحك والسخرية من نفسها وإخوتها والناس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذى تتوارى خلفه مرارا فى الأعماق . ولم تكن لها حيلة فى إحساسها فالواقع

أن غريزتها الأنثوية كانت الشىء الوحيد بها الذى سلم من النقص والضعف واستوى ناضجا حارا، فلم يخل صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيتها وكرامتها وأسرتها بالمرصاد. ولكن منظرا كالذى رأته اليوم ببيت العروس كان خليقا بأن يهزها هزة عنيفة قاسية. ولما تخايلت لعينيها عطفة نصر الله عابثها أمل جديد داعبها كثيرا فى الأيام الأخيرة. هنالك بقالة عم جابر سلمان التى تقع قبل عمارتهم بقليل، أو هناك سلمان جابر سلمان ابن عم جابر وصبيه. ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بكرور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجه البيضاوى الأسمر، وعينيه الضيقتين، وتساءلت: ترى هل حقا يبدى نحوها اهتماما أو أنها واهمة؟. خيل إليها كثيرا أنه يبتسم إليها فى تردد ولعله لم يستطع أن ينسى بعد أنها كريمة كامل أفندى على. وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمات، أما سلمان فما هو إلا ابن بقال بسيط، ولا تعلو منزلته فى دكان أبيه عن صبى. وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن بوسعها أن تنفر من إنسان أيا كان إذا أبدى نحوها ميلا. لا يسعها إلا أن تحب من يحبها. بيد أنها ردت فجأة إلى فتور وامتعاض وأطبق عليها شبح اليأس القديم؟ وكان قلبها يقول لها: لا تغررى بنفسك ولا تسمحى لكواذب الآمال أن تعبث بعقلك. ارتضى اليأس، واقنعى منه بالراحة وهى السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها. ولكنها كانت تعلم أنها لن تطيع قلبها أو ـ على الأصح ـ صوت مخاوفها. وكانت تزداد استسلاما كلما قربت من عطفة نصر الله وعاودها الأمل والحنان. الله قادر على كل شئ. وكما يقضى عليها بالأحزان يهب إذا شاء الأمل والعزاء، مالى من رجاء سواه. ولن يخيب عنده رجاء. لم أجن ذنبا أستحق عليه الهوان. ولم تجن أسرتنا ذنبا. فلابد أن تنكشف هذه الغمة. ولكن من سلمان؟ هل يرضى به حسنين؟ إنهم جميعا ذوو كبرياء ولا أظن أن الفقر بغالب على كبريائهم. وحسن ليس له من الأمر شىء. حسن!! ليته يغير من طبعه وينتشلنا مما نحن فيه. لا معاش أبى ولا عملى بكافيين فماذا صنع هو؟. . لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتى من هو خير منه. ومن أدرانى أنه يفكر فى حقا!. » ومالت إلى العطفة تسبقها عيناها إلى بقالة عم جابر سلمان حتى بلغتها. وخطر لها أن تمضى إليها لتبتاع شيئا، أى شىء ومضت إليها دون تردد. كان عم جابر سلمان العجوز جالسا إلى مكتبه الصغير عاكفا على دفتر الحسابات، بينما وقف ابنه الشاب سلمان جابر وراء الطاولة التى تعترض مدخل الدكان. وانتبه الفتى حال وقوفها أمامه فنظر إليها متهلل الوجه وقد لمعت عيناه الضيقتان. كانت قسماته تشى بالغباء والحيوانية والجبن، وكان شاربه الصغير الشىء الوحيد الذى يمكن أن يتصف بالجمال فى وجهه. وأبى إلا أن يبادرها بالكلام فقال:

ـ أى خدمة يا ست نفيسة؟ .

فقالت الفتاة وهى ترمش ارتباكا :

ـ حلاوة طحينية بقرش .

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافية ، ثم قشط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض :

ـ هذه الزيادة إكراما لك يا ست نفيسة .

ولفّ الحلاوة فى ورقة وقدمها لها ، ثم أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفى ، ولما وجده مكبًا على الدفتر ، تشجع وقال همسا :

ـ سأحتفظ بقرشك بركة! . .

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت . ابتسمت عمدا كأنها تشجعه وترحب به . وقد كلفها هذا جهدا كبيرا . «لم يعد يقنع بلغة العيون فتكلم ، وحسنا فعل» . وعلى رغم ضآلة شأنه ومنظره اهتز قلبها سرورا ، وجاش صدرها بالانفعال . وكانت تخيلت هذا الموقف ـ قبل أن يحدث ـ وهى عاكفة على عملها ببيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيال إلا قليلا . تخيلت نفسها واقفة أمامه لتبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش «أنت أحلى من الحلاوة» . حقا لم يقل هذا ولكنه قال قولا يضاهيه . وتنهدت بارتياح ثم طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين . ! كان أولهم وزيرا وقد رأته فى صفحة من مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشيا من أحلامها حتى أنجبت له غلاما فريدا وكان فريد أفندى محمد نفسه العاشق الثانى ، وبسببه خاصمت فى الخيال زوجه وأسرته . أما سلمان فهو أسوأهم حالا ولكنه العاشق الوحيد الحقيقى . ولما بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما ترد عليها :

ـ كفى عن لومك فما عدت أحمل أكثر مما بى .

وعلا صوتها ورن فى بئر السلم فنظرت فيما حولها بحذر ، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفتيها ! !

٢١

غادر حسنين شقة فريد أفندى محمد ، وأغلق الباب وراءه . كان من الكآبة فى غاية ، واتجه نحو السلم طاويا صدره على اليأس والقهر ولكنه توقف ويده على الدرابزين ،

ورفع رأسه متتبعا حفيف ثوب. فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية إلى سطح العمارة. من؟!. من عسى أن يرتدى هذا اللون الأحمر من سكان العمارة الذين يعرفهم حق المعرفة؟ ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه إلى أعلى فألقى على الباب المغلق نظرة حذر وأنصت فى انتباه وقلق ثم تحول عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشطه متجها صوب السلم الأخير الصاعد إلى السطح: لعلها هى. لم يعد يراها منذ ألقى برسالته المطوية تحت قدميها، لا فى الحجرة ولا فى الصالة. اختفت غاضبة ولاشك غير عابئة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدها إلا عذابا وضجرا. وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتا حتى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب فى مستوى عينيه، ونسمت على جبينه موجات لطيفة من الهواء، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سوره المطل على عطفة نصر الله وسوره الخلفى فلم يجد أثراً لإنسان، ولم يكن به من قائم إلا حجرتان خشبيتان للدجاج، إحداهما فى مواجهة باب السطح، والأخرى فى ركن السطح عند طرف السور الخلفى وهى الخاصة بأسرة فريد أفندى، واقترب من الحجرة البعيدة فى سكون ووقف قريبا من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادئ الأمر إلا قوقأة الدجاج، ثم سمع صوتا يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع أن يتبين حقيقة صاحبه. وخاف أن تكون الأم التى بالداخل فتراجع خطوة مضطربا، وهم بالهروب، ولكن فتح الباب وبدت على عتبته بهية فى معطف أحمر. واتسعت عيناها الزرقاوان دهشة، وثبت بصرها عليه فى ذهول، ثم تضرج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحالت رقعة من مخمل المعطف. ولكن لم يدم هذا إلا لحظات، ثم تمالكت نفسها فجاوزت العتبة وأغلقت الباب، وابتعدت عن موقفه متجهة إلى الباب. ولم يسمح لها بالإفلات فوثب خطوتين ووقف معترضا سبيلها، فحدجته بنظرة غضبى واستقام رأسها فى حدة وقالت مستنكرة:

ـ هذا كثير!..

فقال الشاب بجرأة ورقة معا:

ـ دائما غضبى!.. إنى أعجب لحظى فما أجد منك غير الغضب!

فلاح وجهها الضجر وقالت باستياء:

ـ دعنى أمر من فضلك..

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال:

ـ هذه فرصة لم يكن بوسعى أن أحلم بها فلا يمكن أن أدعها تفلت من يدى. ويحق لى أن أستبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذى عذبنى أشد العذاب، لماذا تختفين؟ أو دعينى أسألك ماذا وجدت برسالتى؟

فقطبت باستياء وقالت بحدة :

ـ أتذكر هذه الورقة ! . يالها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها . . ! وكان يرنو إليها بين الأمل والخوف . «هل أصدق هذا الغضب الظاهر؟ . . قلبى يحدثنى بأنه مبالغ فيه . لعله عرض من أعراض الحياء . إنه كذلك حتما . لو أرادت أن تشق طريقها ما وسعنى منعها . لا أريد أن أصدق . ولكن لماذا أصرت على الاختفاء؟» وقال باستعطاف :

ـ جرأة حملت عليها بعد أن أعيانى الصبر !

فهزت رأسها متبرمة وتمتمت :

ـ الصبر ! لا تعبث بهذه الألفاظ ، ودعنى أذهب من فضلك .

فقال فى صدق وحرارة :

ـ ماقلت إلا الصدق . والصدق وحده كان محرضى على كتابة رسالتى الصغيرة ، فكل ما بها صدق . وإنه ليسوءنى كل الإساءة ألا تلقى عواطفى منك إلا الغضب والنفور ! .

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلا بصوت متهدج :

ـ أجل إنى أحبك . .

وأدارت وجهها جانبا ، وهى لا تزال مقطبة كما بدا من انقباض حاجبيها وزمة شفتيها ، ولكنها لاذت بالصمت قليلا ـ مما بعث فيه روحا جديدا من الأمل ـ ثم قالت بصوت بدا ألطف موقعا مما سبقه :

ـ دعنى أذهب . ألا تخشى أن يقتحم السطح علينا أحد؟ !

رباه ! ألم يعد يضايقها شىء إلا أن يقتحم السطح علينا أحد؟ ! وتمشت فى جوارحه نشوة وسرور ، فقال بحماس وعيناه العسليتان تضيئان بنور بهيج :

ـ دعينى أفصح لك عن شعورى . إنى أحبك . أحبك أكثر من الحياة نفسها . بل ليس فى الحياة من خير إلا أنى أحبك . هذا ما كتبته . وما أقوله وما أعيده . صدقينى ولا تلزمى السكوت فما أطيق هذا السكوت . .

فعطفت وجهها نحوه فطالع فى صفحته النقية الرزانة والجد ولكن خيل إليه أنه يرى نوعا من التأثر لعلها بالغت فى كتمانه . ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس :

ـ حسبك ! . . هلا تركتنى أذهب؟ !

تأبى أن تجلو هذا القناع ! . لشد ما تستكين لحيائها . وتنهد بصوت مسموع وتمتم :

ـ لا أريد أن أعود لعذابى بغير نفحة أمل . لقد فتحت لك صدرى وأريتك قلبى ولا أطمع فى أكثر من كلمة طيبة ترد إلى روحى . .

ولكنها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة، واشتدت عليها وطأة الارتباك فندت عنها هذه العبارة:

ـ رباه!.. كيف أغادر هذا المكان!

فغلبة التأثر، ولكن زاده التعلق بالأمل عنادا وإلحاحا فقال بحرارة:

ـ لا تجزعى هكذا؛ إنى أحبك. ألا يثير هذا الاعتراف فى نفسك إلا الضيق!؟ لن أعود يائسا إلى العذاب. لن. لن..

ـ وبعده!

وتفحص وجهها المورد فى سمرة المغيب الهادئة فاستفزته عاطفة هيام جامحة فشعر بأن الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأعماق:

ـ كلمة واحدة!.. إذا لم تستطيعى فايماءة.. وإذا تعذر هذا فحسبى صمت أستشف منه الرضى!..

فتحركت شفتاها دون أن تنبس، ثم التصقتا، ثم عطفت عنه وجهها وقد اشتد تورده عمقا. ووثب قلبه فى صدره من حرارة النشوة، وهتف فى طمع متزايد:

ـ أهذا الصمت الذى أريده؟! إنى أحبك، وأعاهدك أن أكون لك حتى الموت..

ومال وجهها إلى الوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتها المحبوب فسرت فى جسده هزة سرور طاغية حتى سكر بصره. وما يدرى إلا وهو يهفو إليها، ولكنها تراجعت فى جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة، وتفادت منه فيما يشبه الوثب، ثم ولت مسرعة، وتسمر فى مكانه مرسلا وراءها بصرا هائما حنونا حتى غيبها الباب. وتنهد من القلب وأطلق بصره بعيدا فى سمرة المغيب، والأفق أطياف وشيات، فأحس بروحه تذوب فى الكون وتفنى فى بهائه. ثم تحرك فى بطء مخمورا متوهجا حتى شارف الباب، ولكنه شعر وهو يمر بالحجرة الخشبية الأخرى بشئ يجذب إحساسه فلاحت منه التفاته إلى يساره فرأى أخاه حسين واقفا وراء جدار الحجرة..

٢٢

وقال بدهشة:

ـ حسين!

وسرعان ما لاحظ تغير لونه. كان الشاب غاضبا مكفهر الوجه. وكان يبذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويتمالك نفسه. وتساءل حسنين عما جاء به إلى السطح ورجح أن

يكون ـ حين صعد لإعطاء درسه ـ لمحه وهو يرتقى السلم محاذرا إلى السطح فشك فى الأمر وتبعه! هذا هو التفسير المعقول. بيد أن التوارى وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه! . ولم يدر له بخلد أن يسأله عما جعله يقف هذا الموقف، وعلى العكس من هذا تولاه الحياء والارتباك. ولم يكن الآخر ـ على تغيره ـ بأقل منه حياء وارتباكا. لعله أراد أن يدارى حياءه وارتباكه بالتمادى فى الغضب فقال:

ـ رأيت أمورا ساءتنى كثيرا. كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة!

ووجد حسنين فى لهجة أخيه القاسية ما أنقذه من حيائه وارتباكه فقال عابثا:

ـ ما أتيت منكرا!! ولعلك سمعت ما قالت!

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة أشد:

ـ وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو غير اللائق؟! لا أحسبها تعده كذلك!

فقال حسين:

ـ ستخبر أباها..

ـ لن تخبره..!

فتناهى الحنق بحسين وقال بحدة:

ـ لشد ما خفت أن تتهجم عليها، ولو فعلت لأدبتك تأديبا قاسيا!.. ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة إلى طرف لسانه ولكنه نجح بأعجوبة فى القبض عليها. وصمت مليًا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال:

ـ ما كان لك أن تخاف حدوث شئ كهذا..

فتفكر حسين قليلا ثم قال متراجعا:

ـ يسرنى على أية حال أن أسمع هذا القول. وإذا حق لى أن أنصحك فنصيحتى إليك أن تلزم دائما جادة الشرف.

فقال الآخر ببرود:

ـ لست فى حاجة إلى مثل هذه النصيحة..

وغادر موقفه فتبعه حسين، ونزلا معا دون أن ينبس أحدهما بكلمة. ولم يذهب حسين إلى شقة فريد أفندى، ولاحظ حسنين هذا دون تعليق. أما الأم فقالت لحسين متسائلة:

ـ ما الذى عاد بك سريعًا؟

فقال حسين :

ـ لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود إليه غدا . .

وذهبا إلى حجرتهما فجلس حسين إلى كرسيه من المكتب، ومضى حسنين إلى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش . «أسوأ نهاية لأحسن بداية : ما أحمقه! كيف سولت له نفسه التجسس على . أفسد على شاعرية الموقف السعيد . كلا لا يمكن أن يفسدها شىء . سيزول كل شئ وتبقى هى وضيئة سعيدة باهرة . هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق . قالت كل شىء دون أن تنبس بكلمة . . »

ـ أغلق النافذة هل أنت مجنون؟ !

أفزعته صيحة أخيه، ثم ركبه الحنق والعناد فقال :

ـ الجو محتمل ولطيف . .

فصاح به حسين :

ـ أغلق النافذة بلا مكابرة . .

فحملته لهجة أخيه على التمادى فى العناد فقال :

ـ انتقل إلى الكرسى الآخر تبتعد عن تيار الهواء إن كان ثمة تيار! . فنفخ حسين متغيظًا وقام إلى النافذة فأغلقها بشدة ففرقعت فى السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج . وساد صمت ورعب، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسنين صارخا :

ـ أنت السبب!

وجن جنون حسنين فضربه بقبضة يده فى رأسه، ثم اشتبكا فى عراك . وما لبثت الأم ونفيسة أن هرولتا إلى الداخل، وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهينم . ووقفت الأم حيالهما تردد بينهما بصرا غاضبا، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم . وتساءلت فى هدوء ينذر بالعاصفة :

ـ ما خطبكما؟

فقال حسنين بعجلة ولهوجة :

ـ كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم لطمنى . .

وقال حسين بصوت متهدج :

ـ فتح النافذة فى هذا الجو البارد فطلبت إليه أن يغلقها فأبى بوقاحة فقمت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل . .

فزفرت الأم قائلة:

ـ رحماك يا ربى ألا يكفينى ما بى!..

وقبضت بيديها على منكبيهما وجذبتهما إلى وسط الحجرة، وصاحت فى وجه حسين قائلة:

ـ ألا تخجل من نفسك وأنت فى سن الرجال؟

ودفعته فى صدره بقبضة يدها مرتين، ثم لطمته، وانقضت على حسنين الذى تراجع وهو يصيح:

ـ هو البادئ بالضرب، وهو الذى حطم الزجاج..

ولكنها هوت بكفها على فمه، ثم كيلت له الضربات على رأسه ووجهه حتى حالت بينهما نفيسة. وصاحت المرأة:

ـ حذار أن أسمع لأحدكما صوتا. أما النافذة فستبقى مكسورة حتى تصلحاها بنفسكما..

وغادرت الحجرة منكفئة الوجه تملأها تعاسة لا حد لها. ولبثت نفيسة بينهما برهة محزونة ثم تمتمت:

ـ زمن العراك انتهى. أنتما رجلان الآن!

ثم خاطبت حسين مبتسمة:

ـ ضقت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها إلى الأبد؟!. ألصقا جريدة مكان الزجاج وإلا فعليه العوض فيكما..

ولما لم تجد لقولها الأثر الذى انتظرت غادرت الحجرة. وعاد حسين إلى كرسيه صامتا على حين ارتمى حسنين على الفراش منفعلا. كثيرا ما ينتهى الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو. ولم تكن حياتهما تخلو من ملاحاة وشجار على صداقتهما الوطيدة. وصحبتهما التى لا غنى لأحدهما عنها. وكانت الغيرة كثيرا ما تعكر عليهما صفوهما ولكنهما ظلا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحب ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه. وكان حسين أعقل الأخوين وحسنين أقواهما، فكان الأول يقوم بمهمة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة، وكان الآخر يحمل عبء الدفاع الأكبر فيما يشتجر بينهما وبين الآخرين من عراك، خصوصا وأنهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن إذا اشتد الخصم عليهما أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين إلى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب، بيد أنه أصبح من النادر جدا أن يتشاجرا فى الأعوام الأخيرة، وندر بالتالى أن تؤدبهما الأم بالضرب، وقد سبقت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب العام. ومهما

يكن من أمر فلم يكن أثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم، ثم يبدأ المعتدى بمخاطبة أخيه فى شئ قليل من الارتباك، ولايلبثان أن يتناسيا العراك كأنه لم يكن. شخص آخر كان يعانى من شجارهما أكثر مما يعانيان، هى الأم، فكان يترك فى نفسها ألما عميقا ونكدا متغلغلا. ولم تجد من وسيلة لتأديبهما خيرا من الضرب لعله يصلح ما أفسد الأب بتدليله لهما. ولم يكن أبغض لنفسها من أن يشذ أحد أبنائها عن حدوده، أو أن يبدر منه ما يعد افتئاتا على رابطة الأسرة المقدسة. وكان لها من حسن عبرة بذل الحياة أهون عليها من أن تتكرر. وحسن نفسه لم ينج من لكماتها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة. وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تلفه، ويعذبها أشد العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر. ومر شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان، واشتد السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة إلى حجرتهما. ثم بدأ حسين يطالع فى كتاب محاولا أن يركز انتباهه المشتت. وراح حسنين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزيه عما أصابه. وبأن تثيبه إلى طمأنينته. وسرعان ما رفت على شفتيه ابتسامة. «كل شيء حسن. لاذت بالصمت، ومعناه أنها تحبنى. حقا؟!. لشد ما يشوقنى أن أسمعها قولا تتحرك به الشفتان الشهيتان. رويدك. كل آت قريب. الصمت بداية أما النهاية؟!...» ولاحت منه التفاتة نحو أخيه فعاوده الابتسام. «ما كان ضرنى لو أغلقت النافذة؟!. يبدو أنه لا يستطيع متابعة القراءة. لو وهب مثل حظى السعيد لما أعياه النسيان!.» وداخله نحوه شئ من العطف.

٢٣

عادت نفيسة إلى عطفة نصر الله عند الغروب، كعادتها فى هذه الأيام الأخيرة. وكان يبدو عليها أنها أخذت تعير نفسها اهتماما وعناية، وهو ما أهملته طويلا حدادا على وفاة والدها، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة. شئ خير من لا شئ بل إن دأبه على التودد إليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها، والطمأنينة والأمل. ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وأنها ابنة موظف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعته فوق مقام أفضل الناس فى نظرها. وانساقت إلى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة، ويأسها الخانق، والرغبة فى الحياة التى لا تموت إلا بالموت. وبات مع الأيام صورة مألوفة، بل محبوبة، أنبتت فى جدب الحياة زهرة مترعة بالأمل، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدا. وها هى تنقل خطاها فى عطفة نصر الله بعد نهار حافل بالعمل فيهزها سرور حار دافق يسرى من القلب وينتشر مع دمها فى الأعصاب

والأعضاء. قال لها مرة «تريدين حلاوة؟ ما الحلاوة إلا أنت!». وغزا قوله نفسها فابتسمت فى بهجة ومرح. وقد حدثتها نفسها أن تقول له «لا تكذب، لست من الحلاوة فى شيء» ولكنها أمسكت فى حيرة وشك، وذكرت نفسها بقول القائل «لكل فولة كيال» من يدرى فلعلها ليست بالقبح الذى تظن. وجعلت تطوى الطريق وعيناها إلى الدكان حتى وقفت أمامه وجها لوجه. ولاح السرور فى وجه سلمان فقال:

ـ أهلا وسهلا كنت أتساءل متى تأتين؟.

ومرت بنظرة إلى مقعد الأب فوجدته خاليا، ثم لمحته يصلى وراء العمود القائم وسط الدكان محملا بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت فى دلال:

ـ ولماذا تتساءل؟.

فضيق عينيه الضيقتين وقال مبتسما:

ـ حزرى!.. اسألى قلبى..

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

ـ اسأل قلبك؟؟.. ماذا وراءك ياقلبه؟!

فقال الشاب همسا:

ـ يقول قلبى إنه سر لرؤياك وينتظره على لهفة!

ـ حقا؟!

فاستدرك فى جد أكثر من ذى قبل:

ـ ويقول أيضا إنه يرغب فى أن يلقاك الآن فى الشارع ليفضى إليك بأشياء هامة..

والتفت إلى أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة:

ـ فى وسعى أن أغيب عن الدكان فاسبقينى إلى الشارع العام!.

ونظرت إليه فى اضطراب وحيرة. وجدت فى نفسها رغبة إلى ملاقاته، ولكنها أبت أن تذعن دون ممانعة من جانبها وإلحاح من جانبه فقالت:

ـ أخاف أن أتأخر..

فقال بجزع وهو يومئ صوب أبيه محذرا:

ـ دقائق معدودات. اسبقينى قبل أن يختم الرجل صلاته.

ولم تجد فى الوقت متسعا للتمنع والدلال فتحولت عن موقفها وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردد إلى شارع شبرا. ركبها الاضطراب والقلق والخوف، ولكنها أمعنت فى السير دون أن تفكر فى العدول. خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها. وما لبثت أن تغلبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذى يتخايل لعينيها فى نهاية الطريق.

ولما انتهت إلى الشارع نظرت وراءها فرأته يحث خطاه وقد ارتدى جاكتته على جلبابه، فمالت إلى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حيها. ولحق بها مهرولاً فقال بسرور:

ـ استأذنت من أبى دقائق . .

وألقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر:

ـ لا يمكن أن أرتدى البدلة إلا ساعات العطلة!.

وكان يبدو فرحا مسرورا. لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من أبيه المستبد فى ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التى تتيح له الممكن من الحب. فتى فى مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز، ووجد فيها ـ مهما تكن ـ أنثى تنتسب للجنس المحبوب العزيز المنال. وخاف أن تمضى الدقائق دون أن يقول لها ما يريد فقال بعجلة:

ـ الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة، فقابلينى عصر الجمعة ومن ثم نذهب معا إلى روض الفرج.

فقالت باستنكار:

ـ نذهب معا.؟..! هذه طريقة لا أرضاها.

ـ ماذا علينا لو فعلنا؟.

ـ لست من أولئك الفتيات؟.

ـ حاشاى أن أظن بك السوء. ولكن ينبغى أن نجد مكانا آمنا للحديث.

ـ أخاف من أن يرانا أحد من أخوتى.

ـ من السهل أن نتفادى هذا!

فهزت رأسها وقالت فى حيرة:

ـ لا أحب هذه الحياة المليئة بالمخاوف.

ـ ولكن ينبغى أن نتقابل.

فتفكرت مليا ثم تساءلت:

ـ لماذا؟.

فنظر إليها فى دهشة ثم قال:

ـ كى . . كى نتقابل!

فقالت بقلق:

ـ لا . . لا . . لست لهذا!

ـ أليس لدينا ما نقوله؟

ـ لا أدرى .

ـ لدى الكثير .

ـ فما هو؟ .

ـ ستعلمينه فى حينه . ليس لدى الآن متسع من الوقت .

فساورها الشك حينا ثم قالت وقد تورد وجهها :

ـ قلت لك إنى لست من أولئك الفتيات!

فقال الشاب فى لهجة تنم عن الأسف :

ـ يا سلام يا ست نفيسة! أنا راجل سوق وأفهم الناس!

فداخلها الارتياح ، وإن تساءلت لماذا لا يقول الكلمة التى تتلهف على سماعها ويريح قلبها؟ وعاد وهو يسأل :

ـ هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم؟ .

فترددت قليلا ثم غمغمت :

ـ إن شاء الله .

وعادت إلى البيت كثيرة الفكر . هذا بدء الحب الذى طالما تلهفت عليه . نفض قلبها الغبار عن جوهره ودبت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل . كل هذا حق ، بيد أنها قلقة متحيرة لا تدرى شيئا عما يمكن أن يتمخض عنه ، ولا عما يمكن أن يقابل به نبأه فى أسرتها! .

٢٤

انتهى حسنين إلى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجرة الخشبية ، فتنحنح ، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقى عليها أشعة الوداع ، فدارت على عقبيها وطالعته بوجه كتوم يأبى أن يعلن عن غضب أو رضى ، ثم تمتمت :

ـ أما لهذا من آخر؟ .

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ إنك تؤدبيننى أدبا لن أنساه . .

فقالت وهى تحافظ على سكون وجهها :

ـ ليتك تزدجر .

ففرقع بإصبعه وهتف :

ـ هيهات !

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يطير من الفرح لما آنسه من رغبتها فى محادثته .

ـ هيهات أن أنثنى عن حبك .

فتورد وجهها ، وعبست قائلة :

ـ لا تردد هذه الكلمة .

فقال بعناد وهدوء وتوكيد :

ـ أحبك !

ـ أتروم إغاظتى ! .

ـ لا أروم إلا حبك .

فقالت بحدة :

ـ سأصم أذنى .

فرفع صوته قليلا قائلا :

ـ أحبك . أحبك . أحبك !

فلاذت بالصمت ، وجعل يلتهم وجهها بعينيه فى شوق وانجذاب حتى لم تعد تحتمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة و لكن اندفع وراءها فالتفتت نحوه مقطبة ، وقالت :

ـ أرجو أن تدعنى وتذهب .

فقال بدهشة :

ـ لا محل لهذا القول الآن . مضى زمنه وبات قديما . نحن الآن فى «أحبك» !

ـ وماذا تريد؟

ـ أن أحبك !

وهمت بانتهاره فغلبها الابتسام الذى أعياها كتمانه ، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة ، ولم تملك إلا أن خفضت رأسها حياء . وهزته هذه الحركة فهاجت صبوته وأقبل نحوها متشجعا طامعا ومد يده ليمسك يدها ، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب ، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة فى جديتها :

ـ لا تمسنى !

فغاضت ابتسامة الظفر فى شفتيه ولكنها لم تباله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدية :

ـ لا تحاول أن تمسنى أبدا. لا أسمح بهذا ولا أتصوره!

فوجم قليلا ثم قال بدهشة:

ـ إنى آسف. ما قصدت سوءا. إنى أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح..

فقالت وهى تنظر إلى قدميها وقد نم مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله:

ـ إنى شاكرة لك هذا، ولكن ليس «أنا» الذى أملك الرد عليه!!.

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة. كان يجرى وراء عاطفته مستغرقا فيها دون أن يفكر فيما عداها. كان يحب ولا يرى إلا الحب. فأعاده قولها إلى رشاده. وفهم ما فاته فهمه، وأدرك أن الأمر جد لا لهو ولا لعب. ولم يأسف على هذا بل زاد سرورا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها. وخرج من حيرته بأن قال:

ـ إنى أدرك وجاهة رأيك، وأوافق عليه، ولكن ليس هذا كل شئ. إنى أسأل قلبك أولا..؟

ولانت ملامحها ولكنها لم تفقد السيطرة على إرادتها، فقالت:

ـ أرجو ألا تستدرجنى لحديث لا أحبه!

ـ لا تحبينه!

ولم تكن تعنى ما قالت بالضبط ولكنها لم تر بدا من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف:

ـ أجل..

فقال حسنين بارتياع:

ـ هذه طعنة دامية فى قلبى!

فقالت بحيرة وارتباك وحياء:

ـ لا أحب أن أسلك سلوكا أو أقول قولا يستوجب الإخفاء!

فلم يملك أن ابتسم قائلا:

ـ ولكن هذه ضرورة لا بد منها، وما فيها من عيب!

فلم ترتح لقوله ولا لابتسامته واشتد تورد وجهها فقالت بشىء من الحدة:

ـ كلا!. لا أحب المداعبات ولا الغزل!

ـ ولكنى أحبك حبا صادقا..

ـ أف. لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه!

فتساءل مبتسما:

ـ هل أقتل نفسى؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت:

ـ لا داعى مطلقا لقتل نفسك. لقد قلت ما عندى!

وأعادته العبارة الأخيرة إلى حيرته وخوفه، فقال بعد تردد:

ـ لست إلا شابا فى السابعة عشرة، وتلميذا بالسنة الثالثة الثانوية، فكيف أفتح هذا الحديث؟

فنحت عنه وجهها قائلة ببرود:

ـ انتظر حتى تصير رجلا!

فقال فى دهشة ممزوجة بالاستنكار:

ـ بهية!

فقالت فى هدوء:

ـ ما من سبيل إلا هذا..

شعر بغيظ، وضاق بما تلقاه به من حزم، ولكنه أحس فى الوقت نفسه بحبها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه، فقال باستسلام:

ـ لك ما تشائين. سأحدث من بيدهم الأمر..

فرفعت إليه عينيها لحظة ثم خفضتهما، وبدت حينا كأنها تهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال:

ـ سأحدث فريد أفندى.

ـ أنت!

ـ نعم.

فلاح فى وجهها الاعتراض دون أن تنبس، فتساءل:

ـ هل من الضرورى أن تقوم أمى بهذه المهمة؟

فترددت قليلا ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالاحمرار:

ـ أظن هذا!

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذى يساوره الاعتراف فى قلقه. تخايلت لعينيه صورة أمه الحزينة وهى قابعة فى الصالة التى لا يضاء مصباحها توفيرا للنفقات فاضطرب صدره، وقال بصوت منخفض:

ـ سأحدثه وأقنعه بمفاتحة أمى فى الأمر.

فتساءلت الفتاة فى دهشة :

ـ ولماذا لا تحادثها بنفسك؟ !

أوشك أن يقول «لا أستطيع» ولكنه أطبق فاه ، ثم قال متجاهلا سؤالها :

ـ لشد ما أخاف أن يسخر منى ، أو أن يعترض على استبقائك فى الانتظار حتى أتم مرحلة التعليم الطويلة .

وقالت بصبر نافد وبلا وعى تقريبا :

ـ سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه !

وعضت على شفتيها فى حياء وألم فتطلع إليها فى لهفة وشغف ، ومد إليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراما ، ولكنها تراجعت عنه ، مقطبة لتخفى تأثرها ، وتمتمت :

ـ كلا ، كلا ، أنسيت ما قلت لك؟ !

٢٥

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء . وكان حسنين يعتمد وجهه بيده غائبا فى أفكاره تنم نظراته وقضمه لأظافره من آن لآخر على قلقه وتوتر أعصابه . وحسين نفسه لم يبد عليه أنه يجنى ثمرة تذكر من نظرة فى كتاب مفتوح أمامه ، وكان يختلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسم ، وعواطف شتى تتناوب قلبه ، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى :

ـ طالت المفاوضات !

فانتبه إليه حسنين فى فزع ثم تنهد قائلا :

ـ مرت ساعة ، بل أكثر . ترى ماذا هناك؟

فقال حسين ساخرا :

ـ انقلبت الآية ، فالمتبع أن يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكن فى حالتك يجئ والد الفتاة لطلب يد الفتى !

فقال حسنين بنرفزة وحنق :

ـ يحق لك أن تسخر منى فلا خوف عليك . ترى ماذا يقال الآن فى حجرة الاستقبال؟ ماذا تقول أمى؟ !

فقال حسين فى هدوء :

ـ عما قليل ستعلم كل شئ!

ـ أتظنها ترفض رجاء رجل كفريد أفندى؟

ـ من يدرى؟ الذى أعلمه علم اليقين أننا سنخسر ـ فى حالة الرفض ـ مرتبنا الشهرى الذى لم نحلم به!

فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل:

ـ إلام يطول هذا الانتظار الموجع!

وعادا إلى الصمت وكانا قلبا المسألة على جميع وجوهها، وطال حديثهما عنها فى أوقات متقطعة منذ أفضى حسنين إلى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين فريد أفندى محمد. وقد رحب الرجل بطلب الشاب ترحيبا وقع من نفسه موقع الدهشة، فلم يكن ينتظره، ولم يكن ينتظر بعضه، ثم وعد بمخاطبة الأم، وتذليل أيه عقبة مهما تكن خطورتها! ولمح حسين ـ تفسيرا لهذا ـ إلى أزمة الزواج من ناحية، وطيبة فريد أفندى وحبه المأثور لأسرتهم من ناحية أخرى.

ولم يبق الآن إلا أن ينتظر النتيجة الوشيكة الظهور! وجعل قلق حسنين يتزايد بمرور الوقت. «بعد دقائق أعلم كل شىء. هل تكون بهية لى أو أدفن هذا الأمل الوليد؟. لا سبيل إليها إلا بهذا. إنى أريدها ولا غنى لى عنها. ترى فيم تفكر هى فى هذه اللحظة.؟ ألا يتوزعها القلق على مصيرنا.؟ إنه تحبنى بلا ريب. حسبى هذا من الدنيا جميعا. تبًا له إنه يطالع فى هدوء، ويستمتع بمراقبة المعركة من بعيد لا حب ولا قلق. لشد ما تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال إنها تقيم فى القلب؟ الأرجح أنها تعشش فى العقل؟! وهذا سر الجنون!» واستيقظ على صوت حسين وهو يقول:

ـ إنهما خارجان!

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل وزوجه وأمه من عبارات المجاملة المألوفة. ومضوا إلى الباب الخارجى إلا نفيسة قد جاءت إلى باب الحجرة ووقفت تنظر إلى أخيها بغرابة ثم قالت:

ـ ياما تحت الساهى دواهى! أتريد حقا أن تتزوج؟!

وغمغم حسين:

ـ أول الغيث قطر!

وانتقل حسنين مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس من كرسيه إلى فراشه فى أقصى الحجرة لصق النافذة التى حل ورق الصحف محل زجاجها المفقود. ثم سمعوا وقع أقدام الأم وهى قادمة، ودخلت تسير فى خطا ثقيلة صلبة القسمات جامدة النظرة، وبحثت عيناها عن حسنين حتى استقرتا عليه فى آخر الحجرة ولبثت تنظر إليه حينا ثم مضت إلى

الكرسى الذى تركه وجلست عليه فى شبه إعياء. ساد الصمت مليا فلم يجرؤ أحد على خرقه حتى نظرت المرأة إلى حسين وسألته فى هدوء:

ـ ألا تدرى فيم كان يحادثنى فريد أفندى وزوجه؟

فارتبك الشاب الذى لم يكن يتوقع استجوابا وظن أنه ـ بالنسبة للمسألة كلها ـ من المتفرجين، فلم يحر جوابا، حتى قالت الأم بخشونة:

ـ أجب.

فتحول ببصره صوب حسنين فى حيرة واستغاثة، فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته:

ـ متى علمت؟

قال فى إشفاق:

ـ أول أمس!

ـ ولماذا أخفيت عنى؟

فلاذ بالصمت لاعنا أخاه وحظة اللذين أورطاه فى المسئولية بلا ذنب جناه، وتنهدت عند ذاك وقالت بأسى:

ـ الأمر لله فإن شقائى بكما فاق ما ألاقى من زمانى الأسود!

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن تلطف من حدته. ولا يعنى هذا أنها كانت تشجع أخاها على رغبته، ولعلها كانت أشد غضبا من أمها، بل إنها عدت الأمر كله تدبيرا دنيئا لاختطاف شقيقها، ولكنها رغبت صادقة فى تحامى نزاع لم يعد يجدى، فقالت مخاطبة أمها:

ـ لا تهيجى دمك. ما كان كان، فارحمونا من وجع الدماغ.

فانتهرتها أمها بحدة قائلة:

ـ اخرسى!

والتفتت إلى حسنين قائلة بازدراء:

ـ لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى إليه مسعاك الذى دبرته بليل؟..

وهزت رأسها فى أسى ثم قالت:

ـ لك قلب تحسد عليه، فإنه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا أن يعشق، وأن يستهين بنا جميعا فى سبيل سعادته، والحق أنى ذهلت حين حدثنى فريد أفندى عن آمالك الواسعة، وهيامك العجيب. ولكنى حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا. حدثته عن أثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضرورى من القوت وعن شقاء أختك التى تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذاك، ثم صارحته بأن أحدا من أبنائى لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة.

وسكتت المرأة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط، ثم استطردت قائلة بحزن:

ـ ومهما يكن من أمر فلا يسعنى إلا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك! وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلفت وراءها صمتا ثقيلا. وبلغ التأثر من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح:

ـ نينة لم تقل كل شيء. وأوكد لك أن ثمة ما يدعو حقا لحزنك. وما كان بوسعها إلا أن تبقى على صداقة فريد أفندى ومودته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته؟!. قالت له إنها تعد موافقته على طلبك شرفا كبيرا بيد أنها ذكرت له حالنا الذى يعرفه حق المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفيا بكلمتها على أن تعلن الخطبة فى حينها إذ أنت رجل مسئول. وقالت له أيضا إنه يسعدها أن تختار بهية زوجا لابنها، فلا داعى للحزن على الاطلاق..

ونظرت الفتاة إلى وجه أخيها والإشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كتمانه وقالت بلهجة لم تخل من حدة:

ـ اعذر نينة فهى مسكينة حزينة، ومما يعزيها ولا شك أن نشاركها همومها. أما إذا وجدت منا،.. ما علينا، لا أحب أن أعود إلى هذا. وحسبى أن أقول لك إن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معا..!

٢٦

قال سلمان جابر سلمان:

ـ فلا يداخلك شك فى هذا. سنتزوج كما قلت لك. وهذا عهد منى أمام الله.

فأنصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته. لم يعد جديدا أن تسير متأبطة ذراعه فى شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة. وكان يبدو لها دائما، على دمامته وحقارته، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها. وكانت لهذا تحبه من أعماقها. بل باتت مجنونة به.

واعتقدت أنه الحبيب الأول والأخير. ليس لها سواه، ولن يكون لها سواه، فتعلقت به بقوة الأمل، وبقوة اليأس، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها. ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تنتشلها من الأعماق.

كان أول رجل بعث فيها الثقة ، وطمأنها إلى أنها امرأة كبقية النساء ، وكان إذا قال لها «أحبك» تخلق خلقا جديدا فترى الدنيا ـ على كثافة الظلام المحيط ـ نورا وبهاء . بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب ، وتلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة ، أو لعلهما شيء واحد فى نظرها . فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت :

ـ وماذا أنت فاعل؟

فقال بلا تردد :

ـ كان من الطبيعى أن أعلن أبى برأيى ثم نذهب معا إلى والدتك لنطلب يدك . أليس كذلك؟

ـ أظن هذا . .

فتنهد بصوت مسموع وقال :

ـ ياليت ! هذا أمل بعيد المنال فى الوقت الراهن . .

فانقبض قلبها وتساءلت فى انزعاج :

ـ لماذا؟

فقال بغيظ :

ـ أبى ! . . لعنة الله عليه . رجل عجوز أحمق عنيد ، ويطمع أن يزوجنى من ابنة جبران التونى البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد . ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى لم أوافق ، ولن أوافق ، ولكننى لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى فى الوقت الحاضر . وإلا كان جزائى الطرد . .

وأحست جفافا فى حلقها ، ورمقته بازدراء ، ثم تساءلت فى قلق :

ـ والعمل؟ !

ـ نصبر ، ثم نصبر . ولن تحولنى قوة فى الأرض عن غايتى ، بيد أنه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفطن الرجل إلى علاقتنا . .

ـ وإلام نصبر؟

فتردد فى حيرة ثم تمتم :

ـ حتى يموت !

فهتفت بانزعاج :

ـ يموت؟ ! هبنا متنا قبله !

فضحك ضحكة جافة فى ارتباك وقال :

ـ دعى هذا لى وللزمن . لم تضق بنا الحيل بعد !

كلام عائم لا يروى غله «لا أستطيع أن أقول له إنى أخاف أن يتقدم لى أحد فى أثناء الانتظار لطلب يدى. هذه حجة وجيهة فى يد غيرى ممن يحظين بقسط من الجمال أو المال. أما أنا فمن عسى أن يتقدم لى فى هذه الأيام التى لا يتزوج فيها أحد. رضيت بالهم ولكن الهم لا يرضى بى. ابن بقال! . إن البدلة تبدو على جسمه قلقة نابية». وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها. وزادها الخوف تعلقا به فلو وزن فى هذه اللحظة بالدنيا كلها لرجح بها فى قلبها. إنها لا تدرى على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوج منه حتى لو ذلل ما يعترضه من عقبات، فإن أمها لا تستطيع أن تقدم لها شيئا، فضلا عن أن الأسرة باتت لا تستغنى عن القروش التى تربحها لها، ولكنها تريده، تريده من الأعماق، وبأى ثمن. وتجهم وجهها، وفتحت فاها لتتكلم ولكن لاحت منها التفاتة إلى شبح قادم فجمد الدم فى عروقها؛ وشهقت شهقة فزعة وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا أن مر القادم تحت المصباح فتنور وجهه وتنهدت تنهد الأمان بعد الرعب، وعجب سلمان لشأنها فسألها:

ـ مالك؟

ـ فقالت وهى تلهث:

ـ حسبته أخى حسن!

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال:

ـ لن نأمن الخوف ما دمنا نخبط على وجوهنا فى هذه الطرق. أصغى إلى، لماذا لا نذهب إلى بيتنا فنمكث فيه قليلا بعيدا عن الأنظار؟

فصاحت به فى دهشة:

ـ بيتك؟!

ـ نعم أبى يقضى مساء الجمعة حتى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذلية، وأمى فى الزقازيق عند أختى التى جاءها المخاض اليوم، ليس فى البيت أحد!

فقالت فى ذهول وقلبها يدق بعنف:

ـ كيف أذهب معك إلى بيتك؟. . أجننت يا هذا؟

فقال بضراعة حارة:

ـ إنى ألتمس مكانا آمنا. بيتى آمن ودعوتى بريئة، أريد أن أخلو إليك فى أمان فنعالج همومنا فى روية بعيدا عن المخاوف والعيون.

كان يتكلم وكانت تصغى مقطبة. وكانت تتخيل على رغمها البيت الخالى فى قلق وخوف، وحاولت أن تطمس خياله بالتمادى فى الغضب ولكنه ظل قائما فى رأسها. وقالت فى حدة:

ـ ليس فى بيتك . .

فقال الشاب باستعطاف وهو يشد على راحتها :

ـ لم لا؟! ظننتك ترحبين بدعوتى . أليس لك ثقة فى؟ أليس لك ثقة فى نفسك؟ أريد أن نخلو لذاتنا ، وأن نتحدث ، وأن أطلعك على مدى حبى وآمالى وخططى . ليس فيما أدعوك إليه من عيب ولن يدرى بنا أحد .

فهزت رأسها فى عناد وقلبها يوالى ضرباته الشديدة . ودت لو تستطيع أن تخلو إلى نفسها لتتفكر طويلا ، وشعرت برغبة فى الهروب . ولكنها لم تبد حراكا ، وسارت إلى جانبه وراحتها فى يده وعبثا حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالى المنتظر . ثم جاءت لحظة فشعرت بأن باطنها ينقلب رأسا على عقب وأنها تغوص فى أعماق ما لها من قرار . وازدادت اضطرابا وقلقا فقالت فى ضيق :

ـ ليس فى بيتك!

فشد على يدها بيد مرتجفة وقال :

ـ بل فى بيتى . فكرى قليلا . ماذا تخافين؟ إنى أحبك وأنت تحبيننى ونريد أن نتحدث عن حبنا ومستقبلنا فى أمن عن العيون . هذه فرصة وهيهات أن نجد البيت خاليا مرة أخرى . إنى أعجب لترددك .

وإنها تشاركه عجبه من ناحية أخرى . إنها تتردد حقا . ولو أرادت أن ترفض رفضًا حاسما لما أعياها البيان . ولكنها يبدو أنها تدأب على الرفض المتردد الذى لا يحكم إغلاق الباب . إنها فى الغالب خائفة وخجلة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذى حدث فى باطنها . وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر ، ثم قالت بصوت ضعيف :

ـ الأفضل أن نواصل المشى . .

فجذبها بإغراء وهو يقول :

ـ قد تنشق الأرض فى أى موضع وفى أية لحظة عن أخيك حسن!

فوجدت نفسها تجاريه فى تخوفه فى استسلام :

ـ إنى أخاف هذا!

فقال وهو يتنهد فى ارتياح زافرا من صدره شواظا من نار :

ـ لنذهب إلى البيت . .

فقاومت يده فى وهن وهى تقول :

ـ كلا لن أذهب .

ـ دقائق معدودات . عطفتنا معتمة ولن يرانا أحد .

وسار بها وهى تتبعه فى تثاقل قائلة :

ـ كلا . .

وكان قلبها يدق بعنف يكاد تصدع له الضلوع . .

٢٧

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس فى أذنها «تفضلى» فقالت بتوسل :

ـ لنعد . .

فدفعها برقة وهو يقول :

ـ لا بد أن تشرفى البيت . .

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها فى ظلام دامس، وارتفع وجهها إلى السقف فى انتظار النور، ولكنها شعرت بيده تتحسس منكبيها فسرت بها قشعريرة وهمست فى خوف :

ـ النور .

فقال معتذرا :

ـ مصباح الصالة تالف . .

فقالت فى ضيق :

ـ أشعل أى مصباح نستضىء بنوره .

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول :

ـ إنى أعرف الطريق إلى حجرتى . .

وحاولت أن تتملص من ذراعه ولكنه شد على خاصرتها فلم يتخل عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان، فجثم على صدرها ضيق خانق وجعلت تتساءل فى نفسها «ماذا فعلت بنفسى؟» ثم أخذت تألف الظلمة رويدا فلاحت لها فى الظلام أشباح كراسى وصوان وأشياء أخرى لم تتبينها. وقطعا الصالة فى بطء وحذر، ثم مد يده الأخرى ففتح بابا مزق صريره الصمت المخيف، ودفعها أمامه من خاصرتيها ثم رد الباب بقدمه، وسرعان ما تخلصت من يديه وقالت بحدة :

ـ أشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة . .

فجاءها صوته يقول برقة وحذر فى لهفة تنم عن الاعتذار :

ـ آسف يا ستى فإن شقة عمى ملاصقة لشقتنا ولا آمن إذا رأوا نورا بها أن يطرق أحد منهم بابنا!

فسألته فى دهشة واستنكار:

ـ هل نبقى فى الظلام؟

فقال متوددا:

ـ فى نورك الكفاية..

فقالت فى توسل:

ـ دعنى أخرج..

فتلمس يدها فى الظلام حتى عثر بها ورفعها إلى فمه فقبلها مرة ومرة ثم قال بصوت مضطرب:

ـ بل تجلسين لتستريحى، وستألفين الظلمة فلا تزعجك.

ومال نحوها ـ فيما يشبه الانقضاض ـ فرفعها بين يديه، وسار بها إلى نهاية الحجرة وأجلسها على كنبة وجلس لصقها وهى مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول، ثم قال:

ـ دعينا من الأخذ والرد. ينبغى أن نجلس فى هدوء وأن نتحدث. لقد تجشمنا مشقة كبيرة فى سبيل المجىء إلى هنا وسيان أن نمكث فى الظلام أو النور. ليس هذا بذى بال ولا يصح أن يكدر صفونا..

وتناول ساعدها وأمطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهى ترتجف وتحاول عبثا أن تجمع شتات أفكارها. ثم تزحزحت بعيدا عن جنبه الملتصق بها لتسترد أنفاسها فمال نحوها ولكنها حالت دونه بيديها وهى تقول لاهثة:

ـ دعنى وحدى، إنى تعبة..

فاسترد أنفاسه وقال ضاحكا:

ـ تشجعى. مالك خايفة مرتجفة!!.. أنت فى بيتك فى بيت زوجك. وكانت نبضات قلبها تدق فى أذنيها وتقرع رأسها، فتنفست من الأعماق. وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها عدلت عنه وكأنها استسخفت نفسها، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيرت نبراته:

ـ كل شىء هادئ ولطيف. إنى أرى جمالك رغم هذه الظلمة.

فقالت بلا وعى تقريبا:

ـ لست جميلة..

فدلك يدها براحتيه وقال :

ـ دعى تقدير هذا لى، إنى لا أجن للاشىء . .

وساد الصمت مليا فتركز انتباهها وهى لا تدرى فى راحتها التى تلتهمها كفاه، وسرت فيها دغدغة بثت فى ساعديها وذراعيها وصدرها تخديرا فاقشعر بدنها وهمست :

ـ حسبك . .

فقال بصوت متهدج :

ـ أعطينى شفتيك أقبلهما، سأقبلهما كثيرا مائة قبلة أو ألفا، سأقبلهما حتى أموت . .

واندلق عليها وقبل شفتيها قبلة طويلة شرهة حتى مال رأسها إلى مسند الكنبة ثم أمطرها قبلا نهمة حامية، ورفع وجهه عن وجهها أنملة وهمس :

ـ قبلينى . . أريد أن أشعر بشفتيك تأكلان شفتى . . هه .

وكانت بحال من الإعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلا وقبلته، ثم غمغمت :

ـ لم نجئ هنا لهذا . .

ـ إذن لماذا؟

ـ لنجلس ونتحدث!

فأطبق شفتيه على شفتيها، ثم عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس فى أذنها :

ـ هذا أفضل . لقد تكلمنا كثيرا . وأعيد عليك أنك زوجى . زوجى ولو ناصبتنى الدنيا العداء . هى مسألة وقت لن يطول . .

لعله يظن أنها جزعة متعجلة . فلتدعه فى وهمه . ولعل الانتظار أوفق لحال أسرتنا التى لا ترحب بزواجها الآن، ولا تستطيع أن تعد العدة له . ليس فى الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن عما فى ضميرها . وعاد سلمان يقول :

ـ مسألة وقت . ولكن ما أحوجنا فى فترة الانتظار إلى الترفيه .

ومد يسراه وراء ظهرها . ويمناه حول صدرها، فشعر بثدييها تحت ساعده ناهدين صلبين فغلى دمه وضمها إليه بوحشية، وانهمرت أنفاسه على خدها وعنقها . وعاودها الذهول والتخدير والرغبة والخوف، وامتزج فى صدرها القلق واللذة واليأس، ثم اشتدت الظلمة، ظلمة عميقة غريبة، كأنها تنشر أجنحتها على فضاء لا نهائى، فلا مكان ولا زمان . .

***

قالت لها أمها :

ـ تأخرت أكثر من كل يوم .

فقالت واجمة :

ـ أردت أن أنتهى من عملى وقد انتهيت . .

ثم وضعت فى يد الأم خمسة وسبعين قرشا واستطردت قائلة :

ـ أعطونى الحساب كله وسأحتفظ لنفسى ببقية الجنيه .

وسكتت الأم فمضت الفتاة إلى حجرتها وأخذت تخلع ملابسها . وفى السكون الشامل ترامى إليها صوت حسنين وهو يطالع فترك فى نفسها أثرا عجيبا لم تدر إن كان خوفا أم حزنا خالصا . .

٢٨

ـ بهية ولطافة المغيب هما شىء واحد فى نفسى . .

قالها وهو يومئ إلى الشمس الغاربة ، رانيا إلى وجهها الأبيض البدرى ، وقد افتر ثغرها عن در ، فقالت :

ـ لن تفتأ تتبعنى إلى هنا حتى يرانا أحد!

فقال حسنين بزهو :

ـ إنى خطيبك ، ولى الحق فى كل شىء!

ـ لاحق لك على الإطلاق!

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدق قولها ، وملأ عينيه العاشقتين من منظرها . كانت ملتفة فى معطفها الأحمر ، ينحسر جيبه فى أعلى الصدر عن فستان رمادى ، وتنهدل على ظهره ضفيرتان مكتنزتان . وكان عمق حمرته يضفى على بشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء «هى ميالة إلى القصر ، فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقنى . ولكنها بضة ريانة فتبًا للمعطف الذى يخفى قسمات هذا الجسم وثناياه ، حريصة محافظة . تعجبنى بقدر ما تغيظنى!» وقال متعجبا :

ـ لا حق لى على الاطلاق!!

فقالت فى هدوء ينم عن القوة :

ـ طبعا . .

أتعنى ما تقول؟! يا لها من جميلة . لقد سما بها هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق

السماء إطارا لصورتها وما من شئ يشابهها كهذا الإطار فى هدوئه وحشمته وتنائيه. تقول نفيسة عنها إنها ثقيلة الدم، وما هى بالخفيفة، ولكن هيهات أن يقلل هذا من قيمتها. إنه يحبها بعقله وجسمه، أو لعل إحساسه غالب عما عداه. أتعنى حقا ألا حق له؟! عجبا، لقد حسب أن الخطبة ستملكه حقوقا؟. وحقوقا؟. قال بدهشة:

ـ يخيل إلى فى بعض الأحيان أنه لا قلب لك!

فتورد وجهها، وخفضت عينيها فى حياء، ثم رفعتهما قائلة فى خشونة:

ـ ما دليل القلب عندك؟

فقال فى حماس:

ـ أن تصرحى لى بأنك تحبيننى.. وأن..

ـ وأن..

ـ وأن نتبادل قبلة..

فقالت بحدة:

ـ إذن حقا لا قلب لى.

ـ يا عجبا ألا تحبيننى يابهية!!

فلاذت بالصمت فى ارتباك وضيق.

ـ ألا تحبيننى؟

فتنهدت قائلة:

ـ إذن لماذا تم ما تم؟!

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء:

ـ أحب أن أسمعها بأذنى..

ـ لا تكلفنى ما لا أطيق!

فتنهد بدوره فى شبه يأس، ثم قال بلين:

ـ إن أعياك الكلام فلن تعييك قبلة.

ـ يا خبر أسود..

ـ يا خبر وردى كالشهد! من غير هذه القبلة أموت كمدا.

ـ إذن فليرحمك الله!

ـ لا تطيقينها أيضا؟!. لن تكلفك شيئا. ابقى كما أنت ثم أتقدم خطوة وأضع شفتى على شفتيك فتكون الحياة التى ما بعدها حياة..

ـ أو الفراق الذى ليس بعده تلاق!

ـ بهية!

ـ أفندم!

ـ أنت لا تعنين ما تقولين . .

ـ أعنى ما أقول تماما .

ـ ولكنها قبلة وليست جريمة!

ـ جريمة فى نظرى . .

ـ ما سمعت هذا قبل الآن . .

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ـ ولكنى سمعته كثيرا . .

ـ أين؟

فعاودها التفكير ، ترددت مليا ، ثم قالت بصراحة وسذاجة :

ـ ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات لاستهتارهن؟ ألا تسمع الراديو؟

ففغرفاه ، وندت عنه ضحكة ، ثم صاح :

ـ من يقول إن القبلة استهتار؟ ألم تقرئى ما قال المنفلوطى فى القبلة وهو الشيخ المعمم؟ إنك تحرمين على نفسك ما أحل الحب الطاهر لنا . الصباح؟ . . الراديو؟ . . كلام فارغ!

فرمقته بريبة وحذر وقالت :

ـ لا تضحك منى . هو الحق . قالت أمى لى مرة «إن الفتاة التى تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة ساقطة خائبة الأمل» . .

بنت الكلب! . . أهى التى قالت لك هذا؟ . . القصيرة الماكرة ، أفسدتها على وأفسدت حياتنا . إن الغيظ يقتلنى . ماذا أفدت من الخطبة التى تجرعت بسببها تقريعا ولومًا مرا؟! لا شىء . فتاتى عنيدة مجنونة . السبب أمها بنت الكلب «حمالة الحطب» وتساءل فى يأس :

ـ أتأخذين نفسك بهذا التقشف حقا؟

ـ طبعا .

ـ إذن هو حب اسمى فحسب؟

ـ ليكن .

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية . وجرى بصره مع عنقها الرقيق ،

وتخيل أصله المتوارى تحت الفستان، والمنكبين، والصدر الناهد، فركبته عاطفة جامحة حارة، وأفلت زمامه من يده، فانقض عليها وهو يسدد ثغره صوب شفتيها. ولم تكن تتوقع انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم هتفت به لاهثة:

ـ حسنين، إياك..

لمح فى عينيها غضبا يتقد فخمدت حدته، وارتد خجلا مرتبكا، فغمغمت:

ـ احذر أن أغير رأيى فيك..

ثم استدركت فى جزع:

ـ أظن آن لك أن تعود..

ودارى ارتباكه بضحكة قصيرة وتمتم:

ـ على شرط ألا تكونى غاضبة..؟

فسكتت هنية قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

ـ وعلى شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى..

وتحول فى خطوات ثقيلة، ويلوح فى مظهره الارتباك واليأس فرق قلبها له وقالت وهى لا تدرى:

ـ إن سعادتى فى أن أصون لك..

وكأنما تنبهت إلى نفسها فعضت على شفتيها ولم تنبس بكلمة.

٢٩

وجاء عيد الأضحى فجذب أفكار الأسرة وعواطفها إلى واد واحد تلتقى فيه ذكريات الأمس واليوم، واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة فى الصالة حتى حسن كان بينهم، واستعرت فى الصدور رغبة كظيمة فى الاحتفال بالعيد. وطافت برءوسهم ذكريات الأعياد الماضية فى حنين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم. كان الخروف ـ فى مثل هذه الليلة ـ بمربطه فى شرفة شقتهم الأولى يشرئب بعنقه بين قضبانه ثائجا، مذيعا بثؤاجه فى عطفة نصر الله احتفال الأسرة بالعيد. ولم يكن الشقيقان ليفارقانه، فهما إما يعلفانه ويسقيانه، أو يناطحانه أو يحلمان بالغد القريب فى أمل وفرح.

وفى الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق إلى شى اللحوم والتهامها، والأم مشغولة بهذا وبتوزيع الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبى الفران وغيرهما، أما

الأب فيتناول فطوره من الشواء على السفرة ثم يأوى إلى حجرته فى انبساط فيضم عوده إلى صدره ويمضى فى مداعبة أوتاره. وهناك ـ غير هذا ـ العيدية والملابس الجديدة ونزهة الصباح فى الخلوات وفسحة الليل فى السينما وما بين هذا وذاك من ألوان الحلوى واللعب والمفرقعات. وها هى الأسرة مجتمعة ولكن بلا أب. وإنهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون بشيرا بمقدم العيد ولا أملا فى بهجته، ثم يسترقون النظر إلى أمهم المتلفعة بالسواد بأعين مستطلعة وألسنة قلقة مشفقة. كلا، لاعيد، ولا بشير به. وتساءل حسنين فى سره «ترى هل يمكن أن يمضى العيد كما كان يمضى غيره من الأيام؟». وقال حسين لنفسه «لا عيد. إنى أعلم ذلك. انتهى، انتهى». حسن وحده كان أدناهم إلى التفاؤل. ولعل كثرة تغيبه عن البيت جعلته بمنأى بعض الشىء عن نوع الحياة التى يحياها أهله. وكان إلى هذا ـ شأنه شأن بقية الإخوة ـ يعد أمه قادرة على كل شىء، وكثيرا ما يتعزى عن كسله وتلفه فيقول لنفسه «لديهم معاش وأرباح نفيسة!» وقد اعتاد دائما إذا رجع إلى البيت أن يخلو إلى نفيسة فيسألها «كيف الحال؟» فكانت تجيبه بالشكوى المرة ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده إذا مدها لها طامعا فى بضعة قروش. كان متفائلا رغم ما يحدق به من تجهم، ومنته نفسه بنصيب هائل من اللحم يعوض عليه أياما طوالا انقضت دون أن يذوق للحم طعماً، وضاق بالجو الكئيب الصامت فمال على أذن نفيسة وسألها همسا:

ـ ماذا أعددتم للعيد؟

وفطنت الأم إلى همسه فعاجلته متسائلة:

ـ ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة؟

فضحك قائلا:

ـ لنا أم نحسد عليها! خفيفة الروح وبنت نكتة ولطيفة. ما أقول يا أماه؟

لم يأمر الله بالرزق بعد. وحسبكم أنى كفيتكم شرى فلم آكل لقمة فى بيتكم منذ وفاة أبى إلا مرات معدودات..

وكانت يئست من نصحه ولومه معا فتنهدت صامتة، وتشجع حسنين بفتح باب الكلام فتساءل:

ـ ماذا سنأكل فى العيد؟

فتطوع حسن بالإجابة قائلا:

ـ لحما طبعا. هذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه!

وندت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية أن تتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن:

ـ هذا أمر ربنا حقا ولكن كيف لنا بتحقيقه؟

فقال حسن فى ملق بارع :

ـ نحققه بفضلك أنت . أنت الخير والبركة . أنت الحزم والتدبير . ثم إنك أعظم طاهية فى العالم . . كيف يمضى العيد دون أن نشبع من المشوى والمسلوق والمحمر والكفتة والكستليتة والممبار والموزة؟ . سفرة الست أم حسن ، أنعم بها وأكرم . .

وسرى فى الجو القاتم نسيم مرح لطيف ، وجرت على فم الأم الجاف بسمة خفيفة ، ولكنها قالت بأسف :

ـ طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين !

ونظرت نفيسة إلى أمها نظرات ذات معنى ثم قالت لإخوتها :

ـ اسمعوا ، علمنا أن فريد أفندى سيهدى إلينا نصف خروف !

وتطلعت إليها الأبصار فى دهشة ووجوم . ولم يعد فى وسع المرأة السكوت فقصت عليهم كيف حادثها فريد أفندى فى الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكرة فتأثر الرجل لحد الغضب وذكرها بأنهم أسرة واحدة . إلخ . وكانت تلوح فى عينى حسين نظرة كئيبة ، وبدا حسنين وهو يزدرد ريقه بصعوبة أما حسن فقال :

ـ يا له من رجل فاضل وفى !

فهتف حسنين فى ضيق وألم :

ـ مستحيل . . لن يقع هذا . .

فبادره حسن قائلا :

ـ ليس فى الأمر ما يمس الكرامة ، إن هى إلا تقاليد مرعية ، وليس فريد أفندى بالرجل الغريب . .

وخافت نفيسة أن يفضى تصريحها إلى فتنة فقالت :

ـ لا داعى للنزاع ، فإذا أبيتم قبول الهدية فلنشتر بضعة أرطال من الضأن . فتساءل حسن فى حدة :

ـ كم رطلا؟

ـ ما يسعنا شراؤه . عشرة مثلا !

فصاح حسن فى انزعاج :

ـ عشرة أرطال على أربعة أيام ! . إياكم أن ترفضوا الهدية ، النبى قبل الهدية يا هوه . أم تريدون أن تغضبوا أسرة تود مصاهرتكم !

فصاح به حسنين :

ـ هذه شحاذة!

فقال حسن بيقين:

ـ كلا. الشحاذة شئ آخر اسألنى أنا عنه. أما هذه فهدية، هدية، هدية!

وتكلم حسين لأول مرة فقال:

ـ هدية من النوع الذى كنا نهديه فى الأعياد إلى الكناس وصبى الفران.. وغضب حسن لأنه كان يطمع أن يضم حسين إلى رأيه أو أن يبقى على الحياد على الأقل، وقال محتدا:

ـ لا تخلط بين الهدية والصدقة، إذا أعطيت الكناس فهى صدقة، أما إذا أعطيت صديقا فهى هدية..

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هذر غير مجد فخفض عينيه وقال فى حياء وألم:

ـ الواجب أن يكون المهدى هو الخطيب لا الخطيبة..

فقال حسن ساخرا:

ـ هذا إذا كان هو الذى طلب يد الخطيبة، أما إذا كانت هى التى طلبت يده..

ـ حسن!..

ـ أرحنا من الفلسفة التى لا تشبع من جوع. لا عيب فى قبول هذه الهدية. كانت هدايا أحمد بك يسرى تحمل إلينا فى المواسم، على فكرة ما باله نسينا هذا العام ابن الكلب؟! هذا رجل غير وفى. فريد أفندى رجل الوفاء حقا. من حسن الخلق أن نقبل هديته. ثق بأنه إذا كان فى القبول ما يمس الكرامة لكنت أول الرافضين.

فقال حسين بكآبة:

ـ تصور ماذا يقولون عنا!

ـ تصور الشواء وأنت تقلبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت.

والتفت حسنين إلى أمه وسألها:

ـ علام نويت؟!

فقالت المرأة دون أن تنظر إليه:

ـ لم يسعنى إلا القبول..

وساد الصمت، لا لأن أحدا لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم فى صدورهم بين غضبة ضمائرهم ورغبتهم فى الاستمتاع ببهجة العيد ولذائذه. وهم إلى هذا كله يؤمنون بأمهم إيمانا كبيرا، كأنها لا يمكن أن تخطئ،

فإذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها. هذا ما قالوه لأنفسهم، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر منهم لينجو من حيرته. وكانت الأم أسوأ حالا منهم. ولم تجد من عزاء إلا فى هذه الحقيقة وهى أن فريد أفندى اضطرها إلى القبول بإلحاحه وحرارة صداقته وقد رحبت بإثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد فى قبول الأبناء عزاء، فلما أنست من الابنين المهمين معارضة تضاعف ألمها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبعون إلا فى الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من أهل الخير. انحدار يعقبه انحدار ولا تدرى أين يقف. أما حسن فقد اطمأن. ولم ير بأسا من أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ:

ـ قبل النبى مرة هدية أهداها إليه يهودى فهل يكون فريد أفندى شرا من اليهود؟!

فتساءل حسين فى دهشة:

ـ من قال هذا؟

ـ التاريخ!

ـ أى تاريخ!

فصاح به حسن: أحسبت أنهم يقولون لك كل شئ فى المدرسة؟

فقال حسنين بحدة:

ـ حدثنا عن التاريخ الذى تعلمه الشوارع..!

فتظاهر حسن بالغضب وقال:

ـ قسما برب العزة لولا أنك سبب الهدية لكسرت رأسك.

ثم استدرك قائلا:

ـ وعلى هذا كله كان الواجب يقضى بأن يهدوا إلينا خروفا كاملا لا نصف خروف (ثم ملتفتا إلى نفيسة) احذرى أن تقبلى الهدية إلا إذا كان فيها نصف الكبد أيضا..

٣٠

وقفا متقابلين ينتظران الترام. هى فى معطفها القديم الذى تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر، وهو فى البذلة التى تبدو عليه قلقه جافية. وكان يلوح فى وجهه التردد، والرغبة المعذبة فى الإفصاح عن شئ يثقل عليه الإفصاح عنه، ثم خاف أن يجئ الترام قبل أن يتكلم فقال فى ارتباك:

ـ نفيسة . . يخجلنى جدا أن أصرح لك بأمر . .

فتساءلت الفتاة :

ـ ماذا بك؟

فقال همسا :

ـ أمرنى أبى أن أصحبه اليوم إلى حضرة شيخ الشاذلية فرفضت حتى أثرت غضبه . .

وشعرت بخوف لم تدر كنهه ، لعل ذكر أبيه الذى هيجه ، وتوقعت خبرا غير سار ، فرمقته بعين متسائلة دون أن تنبس ، فقال بصوته الهامس :

ـ ثار غضبه لعنادى وحرمنى أجرة يومى !

وحلت الدهشة محل الخوف وسألته :

ـ أليس معك نقود؟

ـ كلا . أبى رجل جبار ، . ربنا يأخذه . .

فقالت لنفسها «آمين» ثم تمتمت :

ـ معى بعض النقود . .

فسكت لحظات فى قلق ثم سألها فى خجل :

ـ هل تدفعين ثمن التذكرتين أمام الجالسين؟

وفطنت إلى ما يريد ، فرقت له ، وفتحت حقيبتها وتناولت شلنا وأعطته إياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال :

ـ شكرا لك . سأرده إليك فى اللقاء الآتى .

ثم قال مستطردًا بعد تردد :

ـ أو خذى إذا شئت به حلاوة أو جبنا .

فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص :

ـ ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أننى لا أدفع ثمن ما آخذه؟

فضحك قائلا :

ـ إنه لا يرى أبعد من موضع قدميه . .

وجاء ترام روض الفرج فصعدا إليه وجلسا متجاورين . «كيف أبذر نقودى على هذا النحو؟ . البيت فى شديد الحاجة إلى كل مليم أجنى من عملى الطويل . أمى لا تفتأ تبيع قطع الأثاث . حتى أخى حسن أحق بهذا الشلن من هذا المفلس . ماذا أفعل بنفسى؟ . إنى أبعثر نقودا أخرى لابتياع البودرة والأحمر . أواه . إنه ليس رجلا . لو كان رجلا لما تعلق بأبيه هذا التعلق المضحك ، ولما خافه هذا الخوف . حرمه الرجل يوميته كما يحرم الطفل

مصروفه. بيد أنى أحبه وأريده. إنى له نفسًا وجسدًا. ليس لى سواه. من أين لى هذه النفس التى تسيمنى هذا كله؟!» وسمعته يهمس فى أذنيها:

ـ من المؤسف حقا أن أمى عادت من بلدة أختى فلم يعد البيت خاليا.. ليست بحاجة إلى من يذكرها بهذا، فهى تعلمه حق العلم. بيد أنها سرت فى أعماقها بفتحة هذا الباب. ودبت فى جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة، وتذكرت هذا فى حرارة مشوبة بخوف. ولم تشأ أن تعلق على قوله فتجاهلته عن حياء، وتورد وجهها الذى جعله الزواق مثيرا للنظر. أمى عادت، وأبى لا يرضى!، متى ينتهى هذا كله؟..! متى تملكه بلا خوف، وبشرع الله؟!. آه ثم آه، لشد ما يركبها الخوف أحيانا فتود الموت نفسه والراحة من الحياة جميعا. وعاد صوته الهامس يقول:

ـ ولكنى سأخلق الفرص بنفسى. لا بد أن تعاد الفرصة. وأن يخلو البيت..

قالت بصوت بارد:

ـ لا.. لا.. لا داعى لهذا..

ـ الله يسامحك.. أنسيت؟.. أنسيت حقا؟!. لا يجوز أن نموت فى فترة الانتظار. لا أحب الانتظار..

أليس الانتظار خيرا مما فعلت بنفسها؟. بلى. كلا. بلى كلا. بلى بلى. كلا كلا. بلى بلى. كلا كلا كلا. وتنهدت فى حيرة، وعاودها شعور اليأس الذى ألفته، ولكنها قالت:

ـ لا أحب الانتظار مثلك، ولكنى لا أحب هذا أيضا..

فقال بمكر:

ـ كاذبة.. تحبينه وتحبينه.. هل نسيت..؟ محال..

ـ لا أذكر شيئا..

ـ لن أنسى ما حييت!.. أنت غاية فى الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحنى..

ـ هس. أنت مجنون ولا شك!

ـ مهما يكن من أمر فسنجد حتما طرقات خالية مظلمة..

ـ حذار. بصرك ضعيف كأبيك، وقد تحسب الطريق خاليا والشرطى أمامك!

ـ البركة فى عينيك أنت..

ثم قال متنهدا بعد لحظة صمت:

ـ متى يتاح لنا الزواج؟!

فآلمها تساؤله وأغاظها، وأخجلها فى الوقت نفسه، ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق.

٣١

انتصف الليل ولم يكد يبقى فى قهوة الجمال إلا نفر قليل، وكان حسن يجلس إلى مائدة خالية بعد أن فارقها أصحابه تاركين فى جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم. كان يجلس كالمتفكر ملقيا على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوما الماركات فى طبق صاج كبير، على حين وقف النادل مستندا إلى إحدى ضلف الباب واضعا إحدى يديه فى جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها فى إغراء شهى: «رحمك الله يا أبى، ألا تعلم بأنى تعبت كثيرا بعد موتك؟. كان نزاعنا لا يهدأ، وكنت أشعر أحيانا بأنى أمقتك، ولكن أين أيامك؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة فى بيتنا. وماذا يأكلون؟. الفول غذائى الوحيد، فول، فول. الحمير تجد شيئا من التنويع.» لماذا لا يبحث جادا عن عمل؟. جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كانت تودى به إلى السجن: كلا ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه. ولايزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقيرة. الواقع أنه يتعيش من السرقة، إنه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم. إنهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهمونهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنهم يسرقونهم. حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش.. كيف يستنيم إلى هذه الحياة! لم يكن لا سعيدا ولا راضيا، وكأنه كان ينتظر معجزة تنشله من وهدته إلى حلم من الأحلام. كانت حياته عادة ضارية كالمخدر المهلك، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقى حائزا ـ رغم هذا ـ مركزا مرموقا مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعا بسيطا أو عاملا مطيعا ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه إلى جده، ولا تزال تطن فى أذنيه شكاتها المكروبة، تطارده كلما أفاق إلى نفسه. إنه يحب أمه ويحب أسرته، ولكنه ينتظر وينتظر، دون أن يحرك ساكنا. لا أزال فى البداية. عمل حيوانى طويل بقروش. حماقة خير منها..

ـ مساء الخير يا سى حسن.

ورفع رأسه منفتلا من سحابات أفكاره فرأى الأستاذ على صبرى يجلس قبالته فى هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحا وهتف به:

ـ مساء الخير يا أستاذ .

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت إلى حسن وقال دون تريث :

ـ قررت أن نعمل معا! . . أعنى أن أضمك إلى تختى . . !

واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف . إن التخت هو العمل الوحيد الذى يحبه، لا لميل فنى مركب فى طبعه، ولكن لأنه يسير ولذيذ وينسم جوه عادة بأريج الخمر والمخدرات والنساء . ومع أن أمله فى على صبرى كان دائما محدودا إلا أنه كان يراه شيئا خيرا من لا شئ، ولعله عتبة لما بعده، أجل من يدرى؟! قال :

ـ حقا يا أستاذ؟

ـ بدون شك .

ـ هل نعمل فى صالة أو قهوة؟

فتخلل الأستاذ شعره الثائر بأصابعه الطويلة النحيلة وقال :

ـ سترسى إلى هذا يوما قريبا . وربما غزونا الراديو نفسه . ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح . .

وسرعان ما خمد الحماس . ولو كان على صبرى شخصا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلاً لصعقه بضربة تجعل عاليه سافله . لقد عمل معه بالفعل فى بعض الحفلات العائلية نظير ريال والعشاء، وما كان هذا ليحدث إلا مرات فى العام، فما الجديد فى هذا؟! . وشعر بأن وراء هذه الدعوة أمرا وداعبه أمل جديد، فتظاهر بالسرور وقال :

ـ ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك . أنت لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه .

فانبسطت أسارير وجهه، ثم سأله :

ـ ماذا تختار من آلات التخت؟ . كنت حدثتنى عن المرحوم والدك كعواد بارع؟

ـ لم أتعلم آلة على الإطلاق . .

ـ ولا الدف؟

فقال حسن بقلق :

ـ سبق أن جربتنى كسنيد، أظننى أنفع «سنيدا» . .

فهز الأستاذ رأسه قائلا :

ـ كما تشاء . هل تحفظ أدوارا كثيرة؟

ـ مواويل وأدوار وطقاطيق . .

ـ أحب أن أسمعك منفردا . .

وشعر حسن فى أعماقه بسخرية. نفخة كذابة وامتحان لحساب أمل ضعيف!. ولكنه كان مصمما على مجاراته إلى النهاية. كان يحلم بأن يغنى لحسابه الخاص يوما ولو فى المقاهى البلدية. وانتظر حتى جاء النادل بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى، وتنحنح ثم سأل الأستاذ:

ـ ما رأيك فى موال: يا عينى ليه بتبكى؟

ـ عال..

وراح حسن ينشد الموال فى صوت غير مرتفع. مجيدا ما وسعته الإجادة، والآخر يذهب معه برأسه ويجئ متظاهراً بالاستغراق حتى انتهى حسن، فقال:

ـ هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيد. أحب أن أسمعك فى الهنك أيضا، هل تحفظ «فى البعد ياما كنت أنوح؟».

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرته واشتعل حماسه واندفع يغنى الدور حتى أتى عليه، فقال الأستاذ:

ـ عال، عال، هل تعرف أصول النغم، السيكا والبياتى والحجاز وغيرها. وكان لا يداخله شك فى جهل الأستاذ بهذه الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد فى غيره:

ـ طبعا.

ـ أسمعنى ليالى رست..

فأنشد بعض الليالى كيفما اتفق، فهز على صبرى رأسه قائلا:

ـ برافو..

ـ أخرى نهاوند..

وانطلق يغنى وهو يغالب سخريته فى صدره والآخر يتابع باهتمام ظاهرى، ثم لاح فى وجهه التفكر فجأة وبدا كأنه يريد الإفصاح عن شئ هام وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرا ترى هل يريد أن يندبنى إلى معركة؟.. ماذا يريد على وجه التحقيق؟.. وقال الأستاذ:

ـ صوتك حسن. بيد أن العمل فى التخت يتطلب مهارة أخرى. ينبغى أن نتفاهم تماما. وعلى سبيل المثال أقول لك إنك يجب أن تأخذ بقسط وافر من أساليب الدعاية..

ـ الدعاية؟!

ـ نعم. كأن تنوه بفنى فى المناسبات. أن تسعى لإغراء البعض بطلبى لإحياء الأفراح ولك جزاء طبعا. أن تكون فى حفلة يحييها مغن ما فتعلن نقدك لصوته وتقول

لمن حولك آه لو كان على صبرى فى مكان هذا المغنى. وهكذا.. فابتسم حسن قائلا:

ـ هذا هين، وأكثر منه..

فقال على صبرى بعد فترة تفكر:

ـ ثم إنك شاب قوى وجرئ وينبغى أن تستغل مواهبك إلى أقصى حد. ولكن دعنى أسألك سؤالا قبل كل شئ: أى المخدرات أحب إليك؟

ما الذى يدعوه إلى هذا التحقيق؟ أيريد أن ينفحه بهدية؟! إنه يجيد قبول الهديات، أما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها. أم يرمى إلى إشراكه فى عمل هام؟ ودق قلبه لهذا الخاطر. طالما حلم بتجارة المخدرات. على أنه آثر الحرص والحذر فقال بمكر:

ـ أظن المخدرات تؤذى الحنجرة..

فضحك على صبرى، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى، ثم تساءل:

ـ ما رأيك فى هذا؟

ـ لم أسمع له مثيلا!

فقال ساخرا:

ـ هذا نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين.

ـ يا سلام!

المخدرات دم الغناء، وما من مغن يستحق هذا الاسم إلا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدمس.

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم:

ـ هذا لو تيسرت..

ـ صدقت، وهذا ما خمنته. إنك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها. وإذن فاعلم أنه من اليسر أن نجعل الأنهار خمورا والجبال حشيشا. إنك جرئ قوى ولكن لا أخفى عليك بأنى خفت كثيرا..

ـ خفت ماذا؟

فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال:

ـ أكره الناس إلىّ من يقول «أخلاقى لا تسمح لى بكيت وكيت» أو من يقول «اتق الله» أو من يتساءل فى خوف «والبوليس؟!».. فهل أنت أحد هؤلاء؟

فقال حسن مبتسما وهو يشعره بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء :

ـ إنى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس . .

فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كغنائه وقال :

ـ فلنقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية . .

ولبث حسن متفكرا دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة . كان قليل الثقة فى محدثه ولكنه لم يكن يائسا منه كل اليأس . كان يشعر فى أعماقه بأن ثمة انتظاراً طويلا لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه .

٣٢

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الإخوة حين زارتهما صديقتهما صاحبة البيت . ورحبتا بها ترحيبا يليق بأياديها البيض على نفيسة . وجلست المرأة بينهما على الكنبة . أبت حتى أن يضيئا مصباح الصالة ، وجعلت هى والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة إلى المطبخ لإعداد القهوة . وكانت الأم تنتظر دائما من وراء زيارة صديقتها عملا مربحا لنفيسة ، وقل أن خيبت لها رجاء . لم يكن عقلها يخلو أبدا من هموم العيش ، خاصة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية ، وبات من المتوقع قريبا أن يضاف إلى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنيها بدلا من المدرسة . كانت تشكو إلى صاحبتها ما عانت من حياتها فى الأشهر المنقضية والمرأة تواسيها وتشجعها ، حتى عادت نفيسة بالقهوة . وأرادت المرأة أن تعلن عما دعاها إلى هذه الزيارة فقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها :

ـ جئتك بعروس جديدة . .

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت :

ـ يحق لى أن أطلق على نفسى خياطة العرائس !

ـ أسأل الله أن تعدى ثياب عرسك بنفسك قريبا .

فتمتمت الأم قائلة :

ـ آمين .

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها ، على ما أثار فى نفسها من قاتم الذكريات . «متى يمكن أن أكون عروسا؟ ليس قبل أن يموت عم جابر سلمان . يا للسخرية . أمل كلفنى

نفسى وجسدى. هل يدور هذا لأمى فى خلد؟!. إنها تحسب أن هموم المعيشة أكبر الرزايا. يالها من جاهلة بائسة.» وتساءلت الأم:

ـ من تكون الزبونة الجديدة؟

ـ العروس الجديدة هى كريمة عم جبران التونى البقال..

وتنبهت حواس نفيسة لهذا الاسم الذى لا يمكن أن تنساه فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة:

ـ دكانه عند تقاطع شارعى شبرا والوليد؟

ـ بالضبط.

وضحكت الأم قائلة:

ـ أصبحت جوالة يا نفيسة كشيخ الحارة..

فضحكت الفتاة ضحكة آلية وقالت لنفسها «هى دون غيرها». هى الفتاة التى كان عم جابر سلمان يرغب فى أن يزوجها لسلمان كما قال لها الفتى. فلتتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها. وتساءلت الأم:

ـ وهل جبران التونى هذا غنى؟

ـ على جانب من اليسار لا بأس به..

ـ ومن العريس؟

فضحكت المرأة وقالت:

ـ إنه أقرب مما تتصورين. هو سلمان ابن عم جابر سلمان البقال.

ـ سلمان!

ندت عن نفيسة كالصرخة، فالتفتت المرأتان صوبها فى دهشة. وظنت الضيفة أنه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت:

ـ نعم سلمان. والظاهرة أن عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان. وربك يعطى الأرزاق بلا حساب..

أدركت رغم هول الصدمة أنها كادت تفضح نفسها فتماسكت فى جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة فى صدرها بلا وعى وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المرأتين وشعرت بأنها تموت موتًا سريعا منقضا. وساعدتها الظلمة على إخفاء معالم وجهها فشدت على أصابعها حتى لا تصرخ مرة أخرى. ماذا قالت المرأة!.. ليس ما بها من كابوس أو جنون، إنه حقيقة بلا ريب، سلمان جابر سلمان، دون غيره. وعاودتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر فى ساعات انفرادها،

مخاوف غامضة أحيانا كقلق ينشب أظافره فى صدرها، أو واضحة أحيانا أخرى تتبدى فى صور بشعة يقشعر لها البدن. وخالت فى ذهولها لحظة أن ما بها ليس إلا حالة مرعبة من هذه الحالات، ولكن لم تكن إلا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت. لقد ذاقت قساوة الدنيا مع أسرتها جميعا ولكنها لم تصدق أنها قاسية إلى هذا الحد، وعضت على شفتيها وهى لا تدرى كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدم، الساريين فى روحها وجسدها. ما هى بخيبة الحب، هى خيبة الحياة كلها، ولكن يجب أن تتمالك نفسها، وعسى أن تدعوها الضيفة إلى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها، أو تختنق من شدة التأثر. ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار إلى حين. ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت إلى المطبخ. هنالك زفرت من الأعماق، وشدت بيديها على ضفيرتيها القصيرتين بشدة وهى تحملق فى سقف المطبخ الملوث بالهباب وقد عشش العنكبوت بأركانه، ولبثت فى جمود كالذاهلة. ولم يكن أملا، ولكن خدعة، كذبة مفزعة، ضربة قاضية، سرقة، لطخة، جرحا لا يندمل، وحلا، لقد انتهت. انتهت بلا أدنى ريب. لا يمكن أن تتخيل أمها هذا، أما حسين وحسنين فهيهات. رباه كيف استطاع خداعها إلى هذا الحد؟ كانا معا يوم الجمعة الماضى فأى مجرم هذا وأى إجرام. ماذا يجدى الغضب أو الحقد، أو الكراهية؟ شعرت نحوه بالكراهية تقتل أى أثر للخير فى النفس. ما أشد حاجتها إلى التفكير والتدبر، إنها تتلهف على مكان قصى خال ينأى بها عن هذا المحيط الذى باتت تضمر له البغض أشد البغض، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة، وبمثل هذا الهوان..

ـ نفيسة..!

بلغ نداء أمها مسامعها فانتفضت فى ذعر، ثم حنقت عليها حنقا شديدا كأنه المقت، ولم تأت حراكا فأعادت الأم النداء فذهبت وهى تعض على نواجذها، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمها تودعها عند الباب الخارجى. وقالت لها وهى تسلم عليها:

ـ تعالى إلى بعد غد فنذهب معا إلى بيت العروس..

فأومأت برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس، ولما أغلق الباب قالت الأم:

ـ سلمان!. والله ما يستاهل هذا الحظ..

فشعرت بخنجر ينغرس فى شغاف قلبها، ولم تعلق بكلمة. وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنها أعجز من أن تتحمل المكث إلى جانب أمها، وخطر لها خاطر كلسان من لهب انشق عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة إلى حجرتها، ثم عادت وقد ارتدت معطفها فسألتها أمها بدهشة:

ـ أذاهبة إلى الخارج؟

فقالت وهى تتوجه صوب الباب:

ـ نعم سأشترى شيئا للعشاء وربما ذهبت إلى شقة فريد أفندى ساعة..

٣٣

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردد فى ثقل وصعوبة، كانت السماء صافية مرصعة بالنجوم، والجو باردا بعض الشىء تتخلله نسمات لطيفة من طلائع الربيع. وسارت إلى الباب الخارجى ثم عرجت غير هيابة إلى دكان عم جابر. كان الرجل العجوز عاكفا على مراجعة الحساب الختامى لليوم، على حين وقف سلمان مرتفقا الطاولة ناظرا فيما بين يديه فى شرود. واقتربت منه وهى تلقى عليه نظرة حادة ملتهبة فرفع إليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث أن لاحت فيهما نظرة جفول وارتباك ثم قال ببلاهة:

ـ أى خدمة يا ست نفيسة؟

فقالت بعزم وثبات:

ـ الحق بى فى الحال..

فأومأ لها بالإيجاب وهو يتظاهر بأنه يقدم لها شيئا من الدكان. ومضت إلى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصر الله وهى تتفحص ما حولها بعناية وحذر. وطابت نفسها بما فعلت. فما كان من وسعها أن تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح. وجعلت تنظر داخل العطفة حتى رأته قادما بجلبابه وجاكتته مسرعا فى خطاه الملهوجة. حقير تافه، شئ تعافه النفس، مخادع مخاتل كذاب. ما أحقر هذا. ماذا هى فاعلة به؟. أترتمى على قدميه باكية مستعطفة! هل تضرع إليه أن يظل لها وحدها؟ بدا أن هذا كله شىء فظيع مستنكر، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تدرى كيف تفصح عن نفسها فقبل ساعة واحدة كانت تعده رجلا وتعد نفسها امرأته، والهلاك أهون من أن تنفصم هذه العروة بين يديها. كانت شيئا وليست الآن شيئا على الإطلاق. عدم مخيف ويأس قاتل. واقترب منها فى حذر وغمغم دون أن يلتفت إليها:

ـ خير؟

وأثار صوته حنقها ولكنها كظمت نفسها وقالت وهى تسير:

ـ اتبعنى إلى شارع الألفى.

ومضت إلى الشارع الجانبى بعيدا عن الأعين المستطلعة، ثم أبطأت الخطو حتى لحق بها، وبادرته قائلة وقد نفد صبرها :

ـ أليس عندك ما ترى أخبارى به؟

فتساءل متجاهلا فى قلق وخوف :

ـ عم تسألين؟

فغاظها لدرجة الجنون وقال بحدة مخيفة :

ـ ألا تدرى حقا عما أسأل . ! . هات ما عندك وكفاك خداعا!

فتنهد فى تسليم وغمغم فى خوف :

ـ تقصدين مسألة الزواج . .

فقالت فى سخرية مريرة :

ـ أظن هذا . ألا تراها مسألة تستحق السؤال؟!

فقال بصوت شاك :

ـ أبى . . ؟

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبا وهياجا :

ـ أبى، أبى، أرجل أنت أم امرأة؟!

فقال بذل وخنوع وتسليم :

ـ رجل ولكن كعدمه!

ـ يعنى امرأة!

ـ سامحك الله . لا أسمع إلا نهرا وتقريعا سواء منك أو منه . ماذا أصنع؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقا وغيظا . امرأة، جبان، حقير . كيف أحبته، كيف هانت عليها نفسها فسلمت له! إن سعيها إليه، وتعلقها اليائس به، وحرصها الذليل على استرجاعه، هى شر ما تسيمها الدنيا من بؤس وعذاب . وصاحت به :

ـ يا لك من شاك باك حقير . كيف سولت لك نفسك الغدر بعد ما كان . كيف أخفيت عنى الأمر؟ أجب . .

فنفخ قائلا :

ـ مضى أبى إلى هدفه على رغمى، غير مقيم لرأيى وزنا حتى وجدت نفسى بين أمرين لا ثالث لهما : فإما النزول عند إرادته ، وإما الموت جوعا .

ـ لماذا لا تبحث عن عمل فى غير دكان أبيك؟

فتمتم فى نبرات يائسة :

ـ لا أستطيع ، لا أستطيع . . .

فاحتدم الغيظ فى صدرها وقالت :

ـ يا لك من جبان حقير . ألا تعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة إلىّ؟!

فقال بلهجة تقطر أسفا وحزنا :

ـ أعرف واأسفاه . الله وحده يعلم بحزنى وأسفى . .

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش :

ـ حزين وآسف ، يالك من مسكين! وماذا تظننى صانعة بحزنك وأسفك؟! . إن الحزن وحده لا يصلح الخطأ ، فماذا تظننى صانعة بحزنك؟ لقد أوقعتنى فى ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعنى وحدى وتهرب : ألا تفهم هذا؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه ، ونظر صوبها فى خوف دون أن يحر جوابا . وأثارها صمته كما أثارها تظاهره ـ كانت متأكدة من هذا ـ بالأسف ، فقالت بحدة :

ـ ما عسى أنا أصنع؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض :

ـ واأسفاه . . إنى أدرك حرج موقفك . . لشد ما يؤلمنى هذا . . ولكن . . أعنى . . ما عسى أن أصنع أنا؟!

فقالت بحقد وهى تكظم عواطفها الثائرة :

ـ أرفض هذا الزواج ، لا نجاة لى إلا بهذا . .

فقال بعجلة ضاعفت من حنقها :

ـ أرفضه؟! . . فات الوقت . .

ـ يجب أن ترفضه . لم يفت الوقت بعد . يجب أن تفكر فىّ . لا نجاة لى إلا أن ترفضه . .

وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف :

ـ ليس فى وسعى هذا . .

وتولاها القنوط ، ولم يوح لها الشخص الخائر الماثل أمامها بأقل رجاء . وصاحت بانفعال :

ـ كان فى وسعك أن تفعل ما فعلت . وكان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة . ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ ، ليس بوسعك أن تمد يدا لإنقاذى . .

ـ ما أشد ضيقى . إن أسفى لا حد له . .

ـ ماذا يفيدنى هذا الأسف؟

ولما وجدته صامتا صرخت فى وجهه :

ـ ما يفيدنى أسفك؟

فغمغم :

ـ ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفتت نحوه، وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهى لا تدرى ماذا تفعل، وصاحت فى وجهه :

ـ أتسألنى عما تصنع! . هل حسبتنى لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء؟!

فقال وهو يحاول عبثا أن يخلص سترته من يديها :

ـ نفيسة، اعقلى، نحن فى شارع . .

فصاحت به وقد فقدت وعيها :

ـ جبان، سافل، وغد، غادر . .

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية، مرة، وأخرى، حتى رأت الدم يسيل من أنفه، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب فى عنف وعدم انتظام، وتحسس سلمان أنفه بيده وبسطها أمام ناظريه فى صمت، ثم أخرج منديله من جيبه ووضعه على فمه وأنفه. وبدا هادئا ساكنا على غير ما كانت تنتظر. شعر بادئ الأمر بخوف، ثم حل محل الخوف ارتياح غريب، كأنه جاز منطقة الخطر، ولم يعد ثمة ما يخافه. انفرجت الأزمة، وزال الخطر، وسقط ما كان لها من شبه حق عليه بعد هذا الدم المسفوح، وقال فى هدوء وصبر :

ـ سامحك الله يا نفيسة، أنا عاذرك.

وهيجها حديثه فجأة فعاودها الجنون، وانقضت عليه مرة أخرى بدافع غريزى، ثم أمسكت بتلابيبه كشئ يريد الإفلات وتأبى عليه ـ بكل قواها ـ أن يفلت. وركبه الذعر فانحل تماسكه، ونتش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخا :

ـ إياك وأن تلمسينى . ابعدى عنى . ابعدى لا حق لك علىّ.

وهجمت عليه ولكنه دفعها فى صدرها وصاح بها فى هياج أحدثه الذعر :

ـ لا تلمسينى . لم أجبرك على شئ. لقد ذهبت معى إلى البيت راضية. لا تلمسينى وإلا ناديت الشرطى!

وواصل تراجعه حتى ابتعد عنها مسافة قصيرة ثم دار على عقبية ومضى مهرولا كأنه يفر فرارا . .

وتسمرت فى مكانها وجسمها ينتفض انتفاضا . فقدت سلطان الإرادة على جسدها وروحها وعواطفها . وبدا لها الأمر كحلم ، أو هذيان مرض ، أو حال لا تمت بصلة إلى عالم الحقيقة . هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة ، أشياء هذه أم أشباح؟! إنها لا تدرى . بدا كل شىء بعيدا عن الواقع والحقيقة . ولعلها لم تثب إلى وعيها إلا حين انفجرت باكية بدموع حارة ملتهبة صاعدة من أعماق صدرها . .

٣٤

كان سلمان يمسح الطاولة حين رأى ظل شخص ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفا حياله . وسرت فى جسده قشعريرة رعب فكأن صاعقة انقضت على رأسه . وكان حسن يقف بقامته الطويلة ، منفوش الشعر ، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال ، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف والجرأة . وقال سلمان لنفسه «إنى هالك . إذا كانت نفيسة قد أفضت إليه بسرها فساعتى قد دنت ولا شك» ونظر إليه كما ينظر الفأر إلى القط دون أن ينبس . وقال حسن بصوت مرتفع رن فى أذنيه رنينا مؤلما مخيفا :

ـ السلام عليكم . .

ورد عم جابر سلمان من وراء مكتبه قائلا :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . كيف حالك يا سى حسن؟ . .

وذهل سلمان فى خوف عن رد التحية وقال لنفسه «ما هذه بتحية ، هى نذير . رباه كيف تعرضت لفتاة لها مثل هذا الأخ؟!» .

وقال حسن :

ـ الحمد لله لقد جئتكم لأحدثكم فى أمر هام جدا .

إنه يعلم بهذا الأمر . عما قليل يعلم أبوه بالفضيحة . ها هو الشيطان يقترب . لقد رفع طرف الطاولة ومرق إلى الدكان . لا يفصله عن قبضة يده شبر . أيه حماقة جعلته يعتدى على نفيسة؟! ليته يمهله حتى يرفض الزواج ويصلح خطأه . ومال حسن على المكتب معتمدا حافته بكلتا يديه ، وردد بصره بين الأب والابن ، وسلمان مطرق فى توقع مروع للضربة المجتمعة . وقال حسن :

ـ علمت أن زواج سلمان قريب؟

فقال عم جابر :

ـ إن شاء الله . العقبى لك . .

ـ وليلة الفرح؟

ـ قريبا جدا إن شاء الله .

فنقر حسن بأصبعه على المكتب وقال بجرأة :

ـ نحن جيران يا عم جابر وأحسبنى خير من يحيى هذه الليلة . ؟

واتسعت عينا سلمان الصغيرتان . إنه لا يصدق أذنيه . . ألهذا الغرض جاء؟! كيف غاب عنه أن نفيسة تفضل الموت نفسه على البوح بسرها لهذا الأخ الجبار! وندت عنه ضحكة . وأردفها بأخرى . ثم انفجر ضاحكا ضحكا عصبيا لم يتمالك معه نفسه حتى التفت حسن وأبوه نحوه فى دهشة وإنكار ، وسرعان ما أمسك . ثم خاطب حسن قائلا فى أريحية وسرور :

ـ لا كانت الليلة إن لم تحيها أنت . .

وابتسم حسن فى رضا وخاف الأب عواقب هذا الوعد الأحمق فقال :

ـ على العين والرأس يا سى حسن . لا يمكن أن يوجد مانع من ناحيتنا ، ولكننى أخشى أن يكون لوالد العروس رأى آخر . .

فرمقه حسن بريبة ثم قال :

ـ الرأى رأى والد العريس .

فقال عم جابر برقة :

ـ أنت من نفضل يا سى حسن ، ولكن أمهلنى حتى أشاور عم جبران التونى . .

فتفكر حسن مليا وقد أخذ دم الغيظ يجرى فى عروقه . ثم قال بلهجة ذات معنى :

ـ شكرا لك يا عم جابر . ولكنى أحب أن أذكرك بالفوائد التى تقترن بإحيائى ليلة الفرح . وأهم هذه الفوئد فى نظرى أن شخصًا مهما بلغ من القوة والشر لن تحدثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيرا .

فلاح الاهتمام فى وجه الرجل العجوز ، وأدرك بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيب من الوعيد ، ونظر فى وجه الشاب المخيف مبتسما وتساءل فى لين ورقة وابنه يتابعه فاغراً فاه :

ـ لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمر بأمن وسلام .

فضحك حسن ضحكة غريبة وقال :

ـ يوجد كثيرون لا هم لهم إلا الشر والاعتداء ، وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء . .

فقال العجوز بحذر :

ـ كان هذا فى الزمن الغابر ، أما الآن فلعلهم يخافون الشرطة .

فقال حسن وهو يهز رأسه مبتسما :

ـ إنهم لا يحسبون للشرطة حسابا . وينتهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة . وما أيسر عملهم الذى يتوجه بادئ الأمر إلى تحطيم المصابيح ، فإذا انقلب الفرح ظلاما وركب الخوف النفوس أتم المدعوون عملهم وهم يتخبطون فى الظلام لا يدرون أين تقع أرجلهم ، فتنهار الزينات وتنقلب المقاعد ويندلق الطعام وتسرق الملابس ويصاب أهل العروسين بجروح خطيرة . وإذا انجابت موجة الشر يجد القوم أنفسهم أشد حاجة إلى رجال الإسعاف منهم إلى رجال الشرطة . وأين الفاعل؟ . . مجهول . . وإذا أرشد إليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحول القضية من محكمة الجنح إلى محكمة الجنايات . وأعطنى عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجانى بعد ضياع الأنفس والأموال؟!

وأنصت عم جابر بانتباه ، وفى تشاؤم ثقيل ، وشعر بعجزه حيال الشر الماثل أمامه الذى يعرف من سيرته ما يعرف الجميع . ولم يدر كيف يدفعه فتعزى قائلا إنه على أية حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها ، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

ـ مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسول لهم نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا!

فابتسم حسن فى ارتياح وقال :

ـ إنك رجل كريم يا عم جابر ، ولعل الأيام تسعدنى بإحياء فرحك أنت إذا نويت الزواج مرة أخرى .

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد الخطر المحقق . أما الأب فابتسم ابتسامة صفراء وغمغم :

ـ عفا الله عنك . .

وسعل حسن سعالاً مصطنعا وقال بلهجة جديدة ودون تلعثم :

ـ لا أحب أن أطيل عليك . آن لى أن أذهب شاكرا بعد قبض مقدم الأتعاب . .

فقال العجوز بجزع :

ـ الآن . . ؟!

خير البر عاجله . لست إلا مغنيا متواضعا لا تتعدى أتعابه ـ هو وتخته ـ الخمسة جنيهات ، وأقنع الآن بجنيه واحد . .

وصمت الرجل متحيرا حينا . ثم قال لنفسه «الأمر لله من قبل ومن بعد» وفتح درج المكتب وتناول جنيها ووضعه على المكتب فأخذه وذهب وهو يقول :

ـ ربنا يتم بالخير . .

٣٥

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعتها على الأثر صاحبة البيت . أرادت المرأة أن تصحبها إلى بيت عم جابر التونى لتقدمها إلى آله بنفسها وقد أخذت زينتها وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه وارتدت أحسن ما عندها من الثياب . ولم يكن يغيب عن شعورها لحظة واحدة ما فى رحلتها من غرابة . وقد قالت لنفسها كثيرا إنه الجنون أن تذهب إلى هذا البيت ولكنها لم تدر كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة التى فرحت بها أمها أيما فرح . والحق الذى لا مرية فيه أن حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها ، أو أنه دارى هذه الرغبات مداراة لم تخف عنها ، كانت تود رؤية العروس مهما كلفها هذا من عناء ، وكانت رغبتها من القوة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها . وليس يمكن القول بأنها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها ، فهى تعلم بالبداهة أنها ـ العروس ـ أجمل منها ، وليس فى هذا من جديد ، ولكن على رغم وضوح هذه الحقيقة ظلت رغبتها فى رؤية الفتاة مشتعلة لا تقاوم ، وكأن رباطا وثيقا يصل أسبابها بأسبابها ، ويقرن مصيرها بمصيرها . ولم تكن أفاقت من أثر الصدمة العنيفة التى هرست نفسها وجسدها هرسا ، ولكن انقضاء أيام أخمد الثورة الهائجة ، فى ظاهرها على الأقل ، وأحل محلها مرارة سامة ويأسا مميتا ، وشعورا معذبا بالوحشة ، كأنها غريبة بين أهلها ، شاذة عن المخلوقات ، إلى إحساس بالظلم طاغ بعث فى نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبًا متواصلا ، رغبة فى التمرد والجموح ورغبة فى الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت ، وقد ركبت الترام وهى على هذه الحال ، وتلهفت على اللقاء القريب وهاتان الرغبتان المتناقضتان تتعاورانها . وغادرتا الترام بعد محطات أربع ، واتجهتا إلى شارع الوليد ، ثم مالتا إلى عمارة كبيرة تقوم فى أسفلها بقالة عم جبران التونى . وصعدتا إلى الدور الثانى ودخلتا شقة به . واستقبلتهما سيدة فى الخمسين متوسطة القامة مفرطة فى السمنة ، بيضاء البشرة ، فدخلن جميعا حجرة الاستقبال ، وما أن استقر لهم المجلس حتى قالت الست زينب ـ صاحبة بيت نفيسة :

ـ هذه ست نفيسة ، وستشهدين لها بالمهارة والذوق .

فقالت السيدة :

ـ حدثتنا ست زينب عنك كثيرا . أهلا وسهلا . .

وآلمها الثناء كأنه سب وهجاء ، وأغاظها وأحنقها لسبب لا تدريه ، وتزعزعت ثقتها فى أعصابها أن يفلت زمامها من يدها . أما السيدة فمالت نحو باب الحجرة ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودق قلب نفيسة ، ورجحت أنه تنادى العروس وخيل إليها أنها تسمع سلمان وهو يهتف بهذا الاسم ، وخالته يضمها إلى صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته المتهدج «عديلة . . أحبك ، أحبك أكثر من الدنيا والآخرة معا» ، فهذا قوله عادة إذا أذهلته حرارة الإحساس . وهو قول كاذب أو هكذا كان بالنسبة إليها ، والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة . وتوجه رأسها نحو الباب ، متألمة قانطة حانقة ، وعندما سمعت وقع أقدام آتية داخلها إحساس آخر بالخوف فودت لو كان بوسعها أن تختفى ، ولعله كان إحساسا عارضا سطحيا . وجاءت فتاة فى مقتبل العمر ، متوسطة القامة كأمها بيضاء البشرة ، بيضاوية الوجه ، كبيرة القسمات ولكن فى تناسق حسن ، بيد أنها سمينة لحد الإفراط . وتساءلت نفيسة فى نفسها كيف تصير إذن إذا تزوجت! واضطربت فى أعماقها ضحكة ساخرة متوترة ، لم يتح لها التنفس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت باضطراب عصبى بذلت جهدا شديدا للتغلب عليه . وتم التعارف وتبادل السلام دون أن تنبس خشية أن تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزقت قلبها شر ممزق . هذه التى سلبتها رجلها ، رجلها دون غيرها بعد ما كان ، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من حقوق ، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسه وتكون هى الخياطة التى تعد لها ثياب العروس؟! . من أجل هذا تستحق الدنيا أن تكون طعمة للنيران ، ولن تكون أحمى من النيران التى تلتهم قلبها . رباه كيف تستطيع العمل بهذه الأعصاب المريضة؟! . وغادرت المرأتان الحجرة تاركتين الفتاتين معا . وجاءت خادم بالأقمشة ووضعتها إلى جانب نفيسة على الكنبة فوجدت فيها مهربا من أفكارها وراحت تتفحصها باهتمام ظاهرى وعيناها المنكستان تسترقان النظر إلى قدمى العروس . وسألتها العروس قائلة :

ـ هل سبق أن خطت ثياب عرائس؟

ورفعت عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن تتوقع أن توجه إليها خطابا وقالت باستهانة :

ـ كثير جدا . .

ـ أظن هذا يجعل العمل يسيرا عليك .

ـ لا أجد فيه أثرًا لصعوبة . .

كانت إجابتها تعبيرا عن إحساس بالتمرد والثورة يتجمع فى أعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع . وصمتت العروس هنيهة ثم عادت تسألها قائلة :

ـ هل تسكنين فى عمارة ست زينب؟

فقالت مدفوعة بالإحساس نفسه :

ـ نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبى موظفا بوزارة المعارف . .

ـ أخبرتنا بهذا ستِ زينب . ألا تعرفين أن بقالة العريس قريبة من عمارتكم؟ ووجدت شكة دامية فى قلبها ، وخفضت عينيها أن ترى الأخرى ما ارتسم فيهما ، ثم تمتمت :

ـ تعنين عم جابر سلمان؟

ـ هو نفسه . العريس ابنه . ألا تعرفونه؟

«أعرفه أكثر منك! . . لن تعرفيه مثلى قبل أشهر! . . وستجدينه حيوانا وغدا» . قالت :

ـ نعرفه حق المعرفة . ألم تريه؟

ـ قابلته هنا مرة واحدة . .

وسألتها بدافع لم تستطع مغالبته :

ـ هل أعجبك؟

فضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافا ، وقالت :

ـ كانت الحجرة مزدحمة بالمدعوين ، وأنت تعرفين هذا الموقف طبعا!

فقالت بلهجة باردة :

ـ لست أعرفه .

فضحكت العروس قائلة :

ـ دعينى أسألك أنت التى تعرفينه حق المعرفة ، ما رأيك فيه؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقعه . وانهارت القوة التى تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنما انفجرت فيها قنبلة خفية . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد والجموح والجنون ، فقالت بصوت غريب :

ـ ليس هو من النوع الذى يعجبنى . .

وغاضت آثار الضحكة فى عينى العروس ، واتسعت عيناها فى دهشة وإنكار ، وجعلت تنظر إلى نفيسة لحظة ساهمة واجمة كأنها لا تصدق أذنيها ، ثم تساءلت بغرابة :

ـ حقا؟! ترى ما النوع الذى يعجبك؟

فقالت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية :

ـ دعك من هذا . المهم أن يعجبك أنت ، أليس كذلك؟

فقالت ولم تفق من دهشتها :

ـ أظن هذا . .

ـ مبارك عليك . .

ولكن الفتاة لم تقبل أن ينتهى الحديث عند هذا الحد . أفاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة فى تهكم :

ـ وزبوناتك الأخريات من العرائس ألم يكن أزواجهن من النوع الذى يعجبك؟

وأدركت نفيسة ما فى قولها من التهكم والتحدى فتمادت بها روح الشر التى ركبتها واندفعت قائلة وكأنها تلقى عبئا ثقيلا عن كاهلها :

ـ جميعهم جديرون بالإعجاب حقا ، فهم موظفون محترمون!

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التى لم تكن تتوقعها وتساءلت بغضب :

ـ ألا يكون الإنسان محترما إلا إذا كان موظفا؟

فقالت نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعياها التحكم فيه :

ـ أعتقد هذا . .

فصرخت العروس قائلة :

ـ وإذا كان خياطة؟

فقالت نفيسة بحقد وغضب :

ـ لا علىّ أن أكون خياطة . إخوتى طلبة مثقفون ، وكان أبى موظفا محترما . .

ـ حقا لا يستاهل الرحمة كل المساكين مادام يوجد بينهم من هو فى قلة أدبك!

ـ لا يدهشنى هذا السباب من ابنة بقال . .

فهبت العروس واقفة وهى تنتفض غضبا وصاحت :

ـ يا مجرمة ، يا قليلة الأدب ، اغربى عن وجهى قبل أن أدعو الخدم ليرموك خارجا . .

ونهضت نفيسة فاقدة الوعى ، وتناولت بقجة الأقمشة وقذفتها فى وجهها فانتثرت الحرائر على كتفى العروس وتحت قدميها ، وتلوت على الأرض فى ألوانها الزاهية ، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها بأقذع أنواع السباب ، وتركت الشقة فى لهوجة الفرار وتراخت أعصابها المتوترة وداخلها ارتياح غريب . وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت واجمة متفكرة وبدا لها سلوكها على حقيقته . «ما هذا الذى فعلت؟ . سيقولون كل شىء لست زينب وستقول هذه بدورها كل شىء لأمى . لا بد أن تغضب أمى وستحزن كثيرا على الربح الذى أضعت بحماقتى . ولكننى أقول لها إن العروس خاطبتنى بعجرفة ، وأهانتنى بلا سبب حتى ثرت لكرامتى . وإذا لم

تقبل عذرى أبث شكواى بصوت مرتفع ليبلغ مسمعى حسنين فيغضب لغضبى ويثور لكرامتنا وينتهى كل شىء. هذا حسن. ولكن كيف اندفعت إلى هذا!. أى جنون!. لم يكن فى نيتى شئ من هذا فكيف حدث؟. وضاع عمل مربح. ولكن لا داعى للأسف. لدى عمل لا بأس به فى هذا الشارع نفسه. لست آسفة على ما وقع». وانتهت إلى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس إلا أثر خفيف فى أعلى الدور، وسارت على الطوار فى اتجاه المحطة فمرت فى طريقها بجراج لإصلاح السيارات، وكانت غائبة عما حولها فى تيار أفكارها، فما تدرى إلا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول «أهلا وسهلا» ورفعت رأسها فرأت شابا ذا بنطلون وقميص كاكيين، مشمرا على ساعديه، يدل مظهره على أنه من عمال الجراج، فألقت عليه نظرة شذراء وتنحت عن موقفه، ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال:

ـ حلمك يا ست هانم، انظرى إلى يسارك، هذه السيارة ملك العبد لله. وهى على قدمها تستطيع أن تحملنا إلى أى مكان شئت، محسوبك محمد الفل صاحب الجراج ولا فخر!

فصاحت به:

إبعد وإلا ناديت العسكرى..

فضحك الشاب وقال:

ـ لا داعى لذلك. أنا أحب النسوان ولا أحب العساكر..

٣٦

فى الأسابيع التالية أدى الشقيقان امتحان النقل فى ختام العام الدراسى، وكلل اجتهادهما بالنجاح فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسنين إلى السنة الرابعة. كانا يعلمان أنه لا بد لهما من النجاح، وأن حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات، فواصلا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يحبان. وبدأت العطلة الصيفية التى تمتد حوالى الخمسة الأشهر فاستجدت متاعب جديدة للأم تتعلق بغذاء الشابين. وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام، وتعتمدان فى الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصادا لنفقات اللحم والسمن والوقود، فوجدت المرأة نفسها مضطرة إلى تعديل هذا النظام القاسى مهما كلفها الأمر من عناء وتدبير. وهكذا لم يسر أحد بالنجاح إلا قليلا، وبدت الحياة وكأنها تزداد مع الأم تجهما وتطالعهم بعبوس بعد عبوس. وفى

ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة، وأقبل على أسرته ضاحكا، كعادته، وكثيرا ما يدارى بضحكته حرجه وارتباكه، وقال:

ـ مساء الخير يا أمى، مساء الخير يا أولاد. أوحشتمونى كثيرا..

ورد إخوته التحية وهم يرمقونه بدهشة، أما أمه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل. وبيد أنها عدلت عما كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحث على العمل. هيهات أن يجدى الكلام بعد ما كان. وألح عليها الحزن الذى يغشى نفسها كلما فكرت فى أمره أو وقعت عليه عيناها. حتى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال، وإنها لتعلم سلفا بما أعد ـ طبعا ـ من جواب، سيقول بصوت مؤثر إنه يختفى حتى يوفر عليها نفقة إطعامه وإيوائه، وإنه لا ينى عن البحث عن عمل.. إلخ. أما إخوته فالحق أنهم سروا برؤيته بعد اختفائه الطويل. كانوا يحبونه كما كان يحبهم، وسألته نفيسة:

ـ حمداً لله على السلامة. أين كنت طوال هذه الأسابيع؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب، ثم جلس على الفراش وقال باسما:

ـ أكل العيش يحب التعب! (ثم ملتفتا إلى أمه).. أبشرى ياست أم حسن. أخذت تفرج!

فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريبة واهتمام معا، ثم تمتمت فى شئ من الأمل:

ـ حقا؟!

فضحك سرورا بإثارته لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال:

ـ سبق أن أخبرتكم بأن الأستاذ على صبرى ضمنى إلى تخته..

فتنهدت الأم فى جزع وقالت:

ـ لا أعتقد أن هذا عمل جدى..

ـ لقد دعى الأستاذ منذ أسبوع إلى إحياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعا. إنى أعلم أنه مبلغ تافه ولكن الرزق دأبه التمنع بادئ الأمر..

فقالت الأم فى ضيق:

ـ أتوسل إليك للمرة الألف أن تبحث لك عن عمل جدى لخير نفسك إن لم يكن لخيرنا نحن. ما عسى أن أقول يا حسن؟ ألا تعلم بأننا لا نكاد نشبع أبدا؟

وخفض عينيه فى ارتباك. كان حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التى يخفق بها قلبه، ولعلها الأثر الوحيد الذى تركته أمه فى خلقه. وغمغم قائلا:

ـ صبرك، لم أفرغ كلامى بعد..

وهنا قاطعه حسنين قائلا :

ـ أتظن أن على صبرى هذا يمكن أن يكون يوما مغنيا حقا؟

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين فى إنكار، وأراد أن يزيل أثر حديث أمه فقال فى مرح :

ـ سفخص على هذا البلد الذى لا يقدر! الأستاذ على صبرى فنان كبير. إن «ياليل» منه شفاء ودواء. هل سمعته وهو ينتقل من البياتى إلى الحجاز ثم يعود إلى البياتى؟ لم يفعل هذا إلا الحامولى، وسلامة حجازى مرة أو مرتين. أما محمد عبد الوهاب فإذا خرج من البياتى فقل أن يعود إليه إلا فى حفلة تالية. وليس يعيبه أنه أحيا ليلة بجنيهات معدودات فلا يزال فى أول الطريق، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من أحيا أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة..!!

وضحك إخوته لهذره أما الأم فتنهدت قائلة :

ـ سلمت أمرك لله!

فألقى عليها نظرة من عل وقال :

ـ لندع حديث الفن جانبا. المهم أن تعلمى أنى سأحيى حفلة عريس غدا..

ـ فى تخت على صبرى؟

ـ وحدى!. سأحييها بنفسى!

ونظرت الأم نحوه بإنكار، وسألته نفيسة :

ـ أأصبحت مطربا حقا؟

ـ يحدث أحيانا أن يختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لإحياء حفلة كمطرب. خطوة لها ما بعدها..!

وسألته أمه بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ ومن الذى دعاك لإحياء ليلته؟!

ـ عم جابر سلمان لإحياء ليلة زفاف ابنه سلمان.

وخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها. وران على نفسها كدر خانق..

ودهشت الأم وخاطبت حسن متسائلة وهى تومئ إلى نفيسة :

ـ بعدما حدث؟!

فضحك حسن قائلا :

ـ تم الاتفاق بيننا قبل معركة ست نفيسة فى بيت العروس، ولم يجرؤ الرجل على خرقه!

وساد الصمت قليلا والأعين تحدق فيه فى غير تصديق كان فى صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التى تجعل منه مطربا . وأخيرا سألته أمه فى حيرة :

ـ أحقا ما تقول؟

ـ نعم ورحمة أبى . .

ـ أجر؟!

ـ خمسة جنيهات ، لك منها جنيه كامل .

وسكت حتى تغلغل أثر كلامه فى النفوس ثم ردد عينيه بين شقيقيه وتساءل :

ـ ما رأيكما فى أن تعملا معى سنيدين فى التخت وكلا كما ذو صوت لا بأس به؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين ، وواصلا ضحكهما ، حتى قال :

ـ يا لكما من غبيين . هذه فرصة نادرة للاشتراك فى البوفيه الحافل بما لذ وطاب من المآكل والمشارب .

ولم يكف الشابان عن الضحك فى استهزاء ، ولكن تمثل لعينيهما منظر المائدة وقد صفت عليها الأطباق ، وراح خيالهما يثب من طبق إلى طبق ، فى عجلة ، وبلا رحمة ، حتى صاحت به نفيسة بحدة وغيظ :

ـ أتريد أن تجعل من شقيقيك متسولين فى بيوت البقالين؟

فقهقه الشاب قائلا لأخته :

ـ إنى أدرك تغيظك يا ست نفيسة فإن اعتداءك على العروس حرمك حق الدعوة إلى هذه الليلة ، ولكن ما ذنب هذين المسكينين؟! ليس الأمر لهوا ولعبا ولكن طيورا ولحوما وفطائر وخضرا وفاكهة وحلوى . . ففكرا ثم فكرا . .

ولم يجد لدعوته من صدى فهز منكبيه استهانة ولم يعد الكرة . كان حسن النية وأراد لأخويه خيرا ولكن حماقتهما ضيعت عليهما هذا الخير ، هكذا قال لنفيسة فى أسف . ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكن نفسيهما اهتزتا فى حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى . ونشط خيالهما فى حسرة وألم زاد من شدتهما اقتراب وقت العشاء الذى يندر أن تعترف به أمهما . لم يكن للأسرة عشاء عادة ، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمهم وسخطها ، فلاذ الشابان بالتخيل دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، على حين عكفت نفيسة على أفكارها ، وهى أبعد ما تكون عن لذة الطعام ، ولذة الحياة عامة . ردها حديث حسن إلى أشجانها ويأسها ومخاوفها ، وتساءلت فى دهشة أحقا يحيى حسن ـ شقيقها ـ ليلة الزفاف . . ؟!

٣٧

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالى لليلة الزفاف كان حسن يسير فى ميدان الخازندار متجها إلى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ على صبرى إلى مقابلته. وكان متعبا عقب سهرة الأمس التى ما زالت ذكرياتها تدور برأسه. كانت ليلة وكان جريئا ليس كمثل جرأته شىء. وقد شق طريقه فى السرادق الذى أقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين أيد تصفق وحناجر تهتف للمغنى الجديد، ورد تحياتهم برزانة وجلس وسط تخته المكون من عواد وقانونجى وكمانجى عملوا معه كعازفين وسنيدة معا. ثم غنى «قد ما أحبك زعلان منك» وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذى استحوذ على الجميع، ولكنه واصل الغناء دون مبالاة، وأكثر من الشراب. وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون «فى الليل لما خلى» ولم يكن يحفظها فغنى «بستان جمالك» وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب، هذا يذبح صوته بغناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنحا وقال بلسان ثقيل موجها خطابه للمطرب:

ـ والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت..

وعرفه حسن. كان حدادا فى أول عطفة نصر الله، وتوعده شرا ولكنه واصل غناءه «والله زمان، زمان والله والله زمان، زمان والله» ذكر هذا ضاحكا وهو يحث خطاه ثم قال لنفسه: «ما كان كان. لا داعى للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات». وليس هذا فحسب، وهل يمكن أنى ينسى البوفيه؟، لشد ما أبلى فيه بلاء حسنا وقد بلغ القمة حين ازدرد حمامة بعظامها. لم يكن أكلا ولكن كان التهاما وخطفًا وسلبا وعراكا، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحفة اللحم البقرى فما كان منه إلا أن قبض على يد المدعو الذى يليه واستصفى ما فيها من شرائح. أما حسن الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التف حوله أفراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال ببساطة:

ـ أليس حسبكم ما التهمتم من طعام؟!

ـ والأجرة؟!

فقال بوحشية:

ـ خذوها بالقوة إن استطعتم!

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين. شىء واحد أسف له أشد الأسف هو أن أسرته لم تشاركه طعامه الشهى، أمه ونفيسة وحسين وحسنين. وكان بوده أن يعطى أمه

فوق ما أعطى ولكن تشرده الطويل علمه الحرص. على الأقل ما دامت هذه الحال. وها هو يقصد كلوت بك، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره على صبرى الذى مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه. وكان على صبرى قد أخبره بأنه ينتظره فى قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء، فارتقى السلم المفضى إلى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد. وجد الدرب كالمقفر حتى المقاهى الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماد سهرة الأمس. وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ على صبرى جالسا أمام باب القهوة فاتجه إليه وسلم وجلس على كرسى إلى جانبه. لم تعد قهوة كما كانت يوما ما، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة إذا صدق ظنه، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران وإعدادها للحال الجديدة. قال على صبرى مزهوا:

ـ هنا حيث ترانى جالسًا سنبدأ حياة جديدة..

فتولت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشرُوع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل:

ـ والتخت والأفراح؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامهما ـ وكان لا يزال مغلقا ـ ثم قال:

ـ سيعمل التخت فى هذه القهوة. أما الأفراح فربنا يجعلها مآتم. انتهى زمان الأفراح، ولا نسمع الآن إلا عن «حفل عائلى اقتصر على آل العروسين» والراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز، وهيهات أن يكون لنا عيش فى هذا البلد..

فقال حسن متظاهرا بالاستياء:

ـ صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا؟

فمد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيرا إلى القهوة التى يعدها العمال:

ـ إليك قهوة بالنهار، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الست زينب الخنفاء ـ وهى على فكرة شريكتى ـ وبين ساعة وأخرى أغنى، مجال العمل واسع، والرزق مضمون. ولكن عليك بحفظ أغانى عبد الوهاب يا حلو..

ـ لا أكاد أحفظ منها شيئا!

لا بد مما ليس منه بد. وطقاطيق أم كلثوم أيضا، هذا حكم الزمان!

فقال حسن ضاحكا:

ـ ربنا معنا.

فقال على صبرى باطمئنان :

ـ إنى متفائل خيرا . هذا المكان مبارك ، وهو أصل ثروة محمد العربى نفسه . وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه الحياة الجديدة؟ . .

زينب الخنفاء؟ ! . هى فوق الأربعين على أحسن الفروض ، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى ، ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب . لا داعى للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت ، ولعل ليالى التسكع والجوع قد غارت إلى غير رجعة . ثم سمع الأستاذ يقول :

ـ ولكن عملك كسنيد ثانوى بالقياس إلى ما ينتظر منك :

ـ وماذا ينتظر منى؟

ألقى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقا بما ينتظر منه ، فقال الأستاذ .

ـ إنك أدرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى أو برمجى أو سكير عربيد فمن لهؤلاء؟ . . أنت! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يطلب مهارة وقوة وجرأة فمن لها؟ . . أنت!

وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفتيه طويلا . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقا ، حياة تدب تحت مهاوى النبابيت ومساقط الكراسى وفى دهاليز الغرز ، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضى بعضها إلى اللذة والعزة وبعضها إلى السجن والموت . فها هنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بعواء العربدة ، وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعاركين بقئ المخمورين ، إلى غناء وعزف وقصف . بوسعه أن يقضى بين أحضانه أعمارا دون ملل ، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشش ويغنى . وأشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله نظرة . كان السكون يتبدد تحت وقع أقدام القادمين ، فهذه ضحكات ممطوطة ، وأرداف متأرجحة ، ونظرات فاجرة عارمة . وفتحت الأبواب وأحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطقطقت ضحكة ولعلعت أخرى . . صباح الخير . .

٣٨

قال حسنين بتأثر :

شكرا للصيف !

فتساءلت فى حياء وهى تدرى ما يعنى :

ـ لماذا تشكر الصيف؟

ـ لأنه جردك من معطفك السميك فتبديت فى فستان يجلو محاسنك ومفاتنك . .

فتورد وجهها ، وقطبت تدارى لمعة السرور الذى يبعثها الثناء ، وقالت :

ـ ألم أنهك عن هذا؟ ! . لا تفتأ تتمادى فيما يضايقنى . .

وأصغى إليها على شفتيه ابتسامة حائرة ، وعيناه تلتهمان جسمها البض بارتياح . فستان مؤدب محتشم ولكنه على تحفظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف ، ويشى بقسمات الجسم اللدن المدملج . ثم علق بصره بالمشربية الدقيقة المكورة فوق الصدر صورتها الخياطة حقا لثديين ناهدين تكادان لشدة نهوضهما تطيران لولا ما يمسكهما من صدر أبيض صاف ، تخيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعث فى جسده قشعريرة الرغبة ، وتخيل أنه يشد عليهما وأنهما يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه فى ظمأ . ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هوادة . وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن :

ـ بهية ، إنك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب . .

ولاحت فى عينيها نظرة اعتراض وقالت :

ـ إنى أنكر الحب الذى تريد ، وإنك تسئ فهمى عمدا . .

ـ ولكن الحب واحد لا يتجزأ . .

فقالت بإصرار وحدة :

ـ كلا ، كلا ، لا أوافقك على هذا الرأى . .

فتنهد فى قهر وألقى بنظرة إلى الأفق البعيد . كانت الشمس قد توارت مخلفة وراءها هالة حمراء مترامية ، أقصاها حمرة دامية ، تخف عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى ، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية من ورد مصفى ، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمنمها هنا وهناك سحائب رقاق كتنهدات وانية . وارتد بصره إلى وجهها وقال برجاء :

ـ إنى أحبك ، وإنى خطيبك ، وما أريد إلا أن يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة . .

فتجلت فى عينيها الحيرة ، وبدت حينا وكأنها تتعذب ، ثم قالت :

ـ لا أستطيع ولا أريد . .

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

ـ إنك تدفعيننى إلى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها . إنى أتحرق إلى أن أطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك إلى قلبى . هذا حقى ، وحق حبنا . .

ـ كلا، كلا إنك تخيفنى . .

ـ ألا تحبيننى؟

ـ لا تسأل عما تعلم . .

ـ إنى أعجب ألا تودين حقا أن تنطبع شفتاى على شفتيك؟

فنفخت فى غيظ قائلة:

ـ يسرك بلا شك أن تغيظنى!

ـ وأن تستنيمى إلى دقات قلبى وذراعاى تشدان على خاصرتك؟

فأعرضت عنه عابسة، فقال فى ضيق:

ـ إذا لم يكن هذا هو الحب فما هو؟

فغمغمت فى توسل:

ـ كما كنا طول العهد الماضى . .

ـ لقاء وحديث واحتراق؟!

ـ لقاء وحديث فحسب.

ـ تكذبين على نفسك.

ـ سامحك الله.

فضرب الأرض مغيظا محنقا وجعل يذهب ويجىء أمامها فى حيرة وعبوس، فبدا فى وجهها القلق وقالت:

ـ اعتقدت أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسا بحياتنا الوديعة اللطيفة فما الذى ينزع بك اليوم إلى إلحاحك المخيف القديم؟. كن طفلا مهذبا وأمسك عن الإلحاح والطمع. الحب الحقيقى لا يعرف هذا العبث . .

فهز رأسه فى قهر ويأس وعجب. وما أدراها بالحب الحقيقى؟! أى لغز؟ أتحبه حقا؟ لا يسعه أن يشك فى هذا، ولكنه حب لا يفهمه، أو أنه لا يستطيع فهمها هى. يالها من شابة رزينة هادئة. عينان زرقاوان صافيتان، ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة، ولا حرارة، باردتان. ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين. إن نار الجسم لا تروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها. وهكذا يمضى اليوم كما مضى الأمس وكما يمضى الغد، بلا أمل. وكثيرا ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها، وأنها تسترد طمأنينتها حين يثوبا إلى الصمت، أو إلى حديث آمالهما البعيدة، وهى لا تمل الحديث عن هذه الآمال، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان، فتشع عيناها نورا بهيجا، وتتدفق فى أطرافها حيوية جديدة. وفى هذه الساعة يحبها بمجامع قلبه بيد أنه

حب لا يخلو من تكدر، أو من غيظ وحنق فى بعض الأحيان، وينقلب متسائلا لماذا لا ينشرح صدرها أيضا بالحب نفسه؟ لماذا تخافه وتجفل من ذكره وإشارته؟ وإلام يبقى هذا الحجاب قائما بينه وبينها؟. وتفرس فى وجهها طويلا فيما يشبه الحنق ثم تساءل:

ـ هل أكابد هذا الحرمان إلى الأبد؟

وابتسمت ـ على رغمها ـ وقد زادت الابتسامة من حقده وقالت:

ـ ليس إلى الأبد..!

وشعر برجفة فى قلبه، رنا إليها لا يحول عنها عينيه ثم قال باقتضاب:

ـ الزواج؟!

فخفضت عينيها حتى لم يعد يرى إلا جفنين مسدلين وخدين موردين، وحينذاك شبت بنفسه رغبة فى الانتقام والإيذاء ولو باللسان فقال:

ـ وإذا تم الزواج بذلت لى ما تتمنعين عنه بنفس راضية أليس كذلك؟ تهبيننى شفتيك وصدرك وجسدك وتنزعين عنك ثوبك فتبدين عارية كالبللور..

ولكنها كانت قد غادرته كأنها تفر وحثت خطاها نحو باب السطح. وكانت الكلمات تقذف من فيه بحرارة وحنق وتشف.

٣٩

أصبحت قهوة على صبرى ملهى صغيرا بما تحفل به من غناء ورقص وخمر، وقد ركبت على هامتها لافتة كبيرة سطر عليها بالخط العريض «على صبرى». وأقيمت فى نهايتها من الداخل منصة للتخت، ونضدت الموائد والكراسى على الجانبين وبحذاء مدخلها. وكان الأستاذ على صبرى قد انتهى من الوصلة الأولى وآنس الجلوس بكئوسهم وسمرهم، حين جاء زنجى ـ طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشر من عينيه ـ فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقح مرتفع:

ـ أين صاحب القهوة؟

فجاءه الأستاذ على صبرى مداريا دهشته بابتسامة باهتة وتساءل:

ـ أفندم؟

فقال الزنجى بتحد:

ـ سمعت أن لديك أقذر خمر توجد فى هذه الناحية، ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر فى. فقد قصدتك لأسكر..!

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة واتجه صوب مائدة يجلس إليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة آمرة:

ـ أخلوا هذه المادة!

ولم يسع الأفندية إلا أن ينهضوا صامتين وغادروا القهوة، فجلس الزنجى على كرسى وطرح ساقيه على كرسى آخر وهو يتفرس فى الوجوه بتحد وقحة. واقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى أذنه قائلا:

ـ محروس الزنجى. فتوة رهيب يعرفه الحى كله..

فسأله الأستاذ بقلق:

ـ ترى هل يمكث طويلا؟

ـ إنه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يجرؤ أحد على مطالبته بثمن شىء مما يلتهمه، ولعله جاء ليعرفك بنفسه، أو لعل..

وتردد الغلام قليلا فحثه الأستاذ قائلاً:

ـ تكلم..

ـ لعل أحد أصحاب المقاهى فى الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا!.. واختلس على صبرى نظرة من الزنجى فرآه كالنائم، آمنا مطمئنا كأنه فى بيته، وقد أخلى الزبائن الموائد القريبة منه، فانقبض قلبه خوفا وإشفاقا، ثم تراجع فى سكون إلى منصة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد، وأومأ إليه ثم انتحى به وراء المقصف، وأسر إليه ما قال الغلام ثم سأله:

ـ ألا يحسن بنا أن نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج هذه المصيبة بحكمتها؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس:

ـ لا أوافق على أن نستغيث بامرأة. لن تجدى هذه السياسة فى هذا الدرب، دع الأمر لى..

ـ يقولون إنه فتوة شديد البأس.

فابتسم حسن قائلا:

ـ هذا ما يقال عنى أيضا ولكن أهل الدرب لا يعلمون، دع الأمر لى..

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخرا «ليست أمى وحدها التى تكابد من حياتها المر فى سبيل العيش!» ثم قال للأستاذ:

ـ ستكون معركة شديدة، لكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة!

ـ وإذا لم تكن ظافرة!

ـ اعتمد على الله وعلىّ . .

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله إذا تفادى من هذه المعركة؟ . ولعل على صبرى على حق فى تخوفه ، فالقهوة قهوته والمال ماله ، ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل هذا فليذهب على صبرى نفسه إلى الجحيم . ولا ينبغى أن ينسى إلى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سبيل إليهن إلا بنصر إن آجلا أو عاجلا ، فحظه فى الحياة ، وربما حظ أسرته المنهارة ـ خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعى ـ يتوقفان على خوض المعركة :

وتحرك الزنجى محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بوحشية :

أين الكونياك القذر الذى حدثونا عنه كثيرا؟ !

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجى بخطو وئيد حتى وقف أمامه ، ثم قال بهدوء :

ـ سلام عليكم !

فرفع الزنجى عينيه الملتهبتين صوبه فى تكبر ، وتفحص جسمه الصلب وعينيه البراقتين بريبة وشر ، ثم عبس فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية وصاح به :

ـ وعليك وعلى أمك اللعنة ، ماذا تريد؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة :

ـ سمعتك تهتف طالبا كونياك فرأيت من واجبى أن أخبرك بأن الدفع هنا مقدم . .

فسحب محروس ساقيه من الكرسى أمامه وأغرق فى ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال ، ثم أخذ يهدئ من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك ، ورمى ببصر هازئ إلى الشاب ، وتساءل ساخرا :

ـ حامى القهوة؟ . . هه؟

فقال حسن بهدوء :

ـ وأحب أن أقول لك أيضا إن هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين . . ومرت ثوان . وفى أثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون إلى خارج القهوة ، وامتلأ الطريق فيما يلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة من كل لون وسن ، على حين نشط عمال المقصف إلى إخفاء القوارير وما يخافون عليه من التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها . وجمد محروس وعلى شفتيه الغليظتين بسمه هازئة ، ثم دفع قدمه بغتة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحًا إلى الوراء . كان يراقبه بيقظة وحذر بيد أنه ركز انتباهه فى يديه متوقعا أن يقذفه بشئ أو يشهر عليه خنجرا فلم يتنبه إلى قذيفة قدمه حتى كانت منقضة عليه ، فانكمش متماسكا ، وتفادى بهذا

من السقوط، ولكنه مال إلى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على الألم الذى بعث جنون الغضب فى دمه. ولم يدعه الزنجى ثانية واحدة فوثب عليه كمن يثب إلى الماء، وخاف حسن أن يؤخذ فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل إلى الوراء وقفز إلى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغا من خصمه الجبار. ولم يسمح له الزنجى بثانية يتمالك فيها توازنه فانقض عليه موجها ضربة إلى بطنه فحال الآخر دونها بيديه، ولكنها كانت ضربة خادعة قصد بها محروس أن يكشف خصمه عن عنقه، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديتين على رقبته وضغط بوحشية ليكتم أنفاسه. وبدا للجميع أن المعركة فى حكم المنتهية، ودارت الأرض بعلى صبرى. وابيضت وجوه رجال التخت والعمال، وتبادلوا نظرات زائغة لا تخلو من دعوة إلى العمل، ولكن أحداً منهم لم يحرك ساكنا، أما الفتيات فشرعن فى الصوات استقبالا للجثة التى ستقع. وتأكد حسن بعد تمكن خصمه من عنقه ـ وفى بدء غيبوبته ـ بأنه لا قبل له بفك الحصار القاتل، وأنه مائت لا محالة إذا توانى، فعض على نواجذه وشد على عضلات رقبته ليركز فيها قوته، ثم ثنى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكل ما تبقى فيه من قوة. وشعر فى اللحظة التالية بتراخى قبضة الزنجى حول رقبته فاستطاع أن يتنفس وهو يرتجف حقدا وحنقا، ثم ثناها بطعنة أخرى، حدث هذا كله فى نصف الدقيقة الأولى لمحاولة كتم أنفاسه، وانفك الحصار، وتراجع محروس بوجه تنعقد فى عبوسته الضغينة وعينين تغشى نظراتهما الحمراء سحابة ذهول قاتمة. ولم يضع حسن وقتا مطمئنا إلى سيطرته على الموقف فانقض على خصمه الذى بذل مجهودا جبارا للتغلب على ألمه ونطحه بجبهته بقوة خارقة فى رأسه، مرة أخرى، فكان لاصطدامها طقطقة تقشعر لها الأبدان، دون أن يثنيه عن هدفه ما كال له الآخر من لكمات مزلزلة. وتفجر الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنه لهب ينبعث من قطران، وبدا وكأنه يترنح من دوار، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه ـ كالسكين ـ فشهق الزنجى وسقط على الأرض غائبا عن الوجود. وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تهزه نشوة الظفر، وتهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطنى يتعالى بعد زوال الخطر. ولعله لو غابت الأعين لارتضى أن يرتمى إلى جانب خصمه ولكن أقام ظهره الأبصار المتطلعة إليه فتجلد وتماسك، وانثال على أذنيه صراخ وغوغاء وضجيج، وشعر بحركة غريبة تسرى فى القهوة كلها، ثم أحس بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ على صبرى يبتسم إليه بوجه تعلوه صفرة الموت، وسمعه يهمس فى أذنه:

ـ تعال معى أقدم لك كأسا من الكونياك..

فسار معه دون أن ينبس، وجلس على كرسيه على منصة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرعها، وطلب أخرى فأحضرها له، ثم قال بإشفاق:

ـ لشد ما تعبت!

فغمغم حسن بثقة:

ـ كانت معركة لا بد منها.

وجاء النادل يقول ضاحكا:

ـ أطلق الناس عليك لقب «الروسى» لأنك صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة فى تحاشى الأنظار، فقال لعلى صبرى:

ـ دعنا نمح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية. .

٤٠

استعاد حسن توازنه بفضل قوته وحيويته واعتياده العراك يوما بعد يوم. وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر، وأخذت قهوة «على صبرى» تلفظ آخر المترنحين من روادها. وأطفئت الأنوار الخارجية فى الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتتحة سهراتها الداخلية التى لا تنتهى عادة قبل الفجر، على حين مر شرطيان يهزان الأرض بوقع أقدامهما الثقيلة وكان حسن يجلس على كثب من على صبرى فى نهاية القهوة يعلقان على إيراد الليلة حين قصدهما غلام يعمل نادلا ببيت زينب الخنفاء فحياهما ثم مال على أذن حسن وهمس باسما:

ـ بعضهم يريدك. .

وسمع على صبرى ما همس به الغلام فلاح الاهتمام فى وجهه وتمتم:

ـ امرأة؟!

فقال حسن بعدم اكتراث:

ـ أظن هذا. .

ـ ألا تفضل مثلى الحب الطيارى؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال:

ـ لكنه حب لا نفع فيه. انتظر وسنرى. .

وودع الأستاذ وقام ثم تتبع الغلام إلى البيت الذى يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب

ففتح عن شق فى حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن، ثم أغلق الباب. ووجد حسن نفسه فى مدخل البيت وقد انتشرت على الكنبات بأركانه فتيات، انتحت كل برجل تشاربه وتداعبه، وعلى كرسى فى الصدر جلس رجل ضرير ينفخ فى الناى، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملتفة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفى به أنفها المتآكل. وألقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية، ولكن الغلام مال إلى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتبعه. وارتقيا الأدراج معا فى سكون حتى تساءل حسن:

ـ من هى؟

ـ الست سناء . .

وذكرها لتوه، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسى عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتها كاشفة عن فخذها حتى السروال الحريرى الأبيض. وانتهيا إلى الدور الثانى وسارا فى دهليز طويل يفضى إلى صالة صغيرة تحدق بها أبواب ثلاثة، ومضى الغلام إلى الباب الأوسط وطرقه ثلاثًا فجاء صوت له رنين النحاس يهتف:

ـ ادخل . .

ودفع الغلام الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن إلى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

اقرأ لنا الفاتحة . .

وأغلق الباب فوجد نفسه فى ظلام دامس. وحدثته نفسه أن يتحسس وضع الزر الكهربائى ليضىء الحجرة ولكن سرعان ما عدل عن خاطره، ووقف مستندا إلى الباب منتظرا أن تألف عيناه الظلام. وساد صمت شامل حينا ثم مضت أذناه تلقطان حس أنفاس تتردد، فصغى إليها مبتسما، وتوقع قولا أو فعلا ولكن لم يحدث شىء. واتجه على مهل إلى يساره متسمتًا الأنفاس المترددة حتى مست ركبته شيئا صلبا، جسه بيده، فأدرك أنه حافة فراش خشبى، ووقف ينظر إلى أسفل بعينين براقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم. وهوى بإبهامه رويدا رويدا حتى انغرست أنملته فى لحم طرى ثم انبعثت تحت أصبعه رجفة وندت عن الظلمة ضحكة مكتومة . .

* * *

ثم أضاء النور وأخذ يرتدى ثيابه. وأخرج من جيبه نصف ريال ووضعه على الفراش

والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين، ثم وثبت إلى أرض الحجرة وسارت بجسمها العارى إلى صوان ففتحته وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشا وحطتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة، فتساءل ضاحكا:

ـ أهو الباقى؟

فقالت بهدوء:

ـ أجرك!

وأتم ارتداء ثيابه فى هدوء متظاهرا بعدم الاكتراث ضابطا عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحة، ثم تناول النقود ودسها فى جيبه. وسألته وهى ترمقه بنظرة عميقة:

ـ ترافق؟

فقال مستعينا بالكذب:

ـ لى رفيقة!

فتساءلت فى اهتمام بدا فى لمعة عينيها:

ـ فى هذا الدرب؟

ـ فى الآخر.

ـ أفرنجية؟

ـ بنت عرب!

وساد السكون دقيقة، ثم سألته:

ـ ألا تزال لك فيها رغبة؟

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم، قانعا بابتسامة ذات معنى فسألته ضاحكة:

ـ أين تقطن؟

ـ شبرا.

ـ ما أبعدها عن مكان عملك، هل ثمة ما يضطرك إلى المبيت هناك؟..

ـ كلا..

ـ مسكنى قريب فى عطفة جندق بكلوت بك. تعرفها؟

ـ سوف أعرفها من الآن فصاعدا..

٤١

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين غادرت نفيسة بيت إحدى زبائنها بشارع الوليد، وكان يلوح فى وجهها الضيق، وهى حال لا تفارقها إذا خلت إلى نفسها، ولكن زادها تعاسة أنها لا تجنى من عملها إلا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة أسرتها الشديدة فلا تكاد تبقى لها على شىء. وكانت إلى هذا تبدو فى مظهر جديد ينم عن تغير ذى بال، فتزينت فى فستان برتقالى مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل، وأخذت زينتها فى غير تحفظ. وسارت وشارع الوليد حتى انتهت إلى شارع شبرا. وانعطفت مع الطوار وهى ترمى ببصرها إلى الجراج عن بعد فدبت فى قلبها يقظة وحيوية. وأعادها منظر الجراج ـ وصاحبه محمد الفل ـ إلى ذكريات صراع عنيف نشب فى نفسها فى غير ما رحمة ولا هوادة طوال الأسابيع الماضية. وجعلت تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماما، وعقل الخوف قدميها، ومع أنها كانت قد انتهت من ترددها المعذب إلى نهاية، إلا أن الخوف ركبها وهى تخطو الخطوات الأخيرة. «ألا يحسن بى أن أستزيد من التفكير؟ كلا، كلا، لن أجنى من التفكير إلا وجع الدماغ. سيعترض سبيلى كما يفعل كل مساء. لا أستطيع أن أنكر أننى ابتسمت لدعابته فماذا بعد هذا. فات أوان التراجع. وهو لا يخفى دواعيه ولا مقاصده، ولست أجهلها، إنى أدرك كل شئ، أدرك لماذا يدعونى إلى سيارته، لا يحاول خداعى كما فعل غيره، فالأمر واضح، فهل أقدم على هذا؟. لماذا يتعلق بى؟ لست جميلة، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئا. ولكن الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها فى سوق الخلاعة، وعشاق اللذة ـ أو بعضهم ـ لا يرعوون عن مطلب. هذه هى الحقيقة. الزواج أمره مختلف أما اللذة فلا اختلاف عليها. هل أدع نفسى تهوى! ولماذا أمنعها؟. لن أخسر جديدا. ليس ثمة ما أخاف عليه. ولكن ألا يحسن أن أمد لنفسى حبل التفكير؟» وعاودتها ذكريات اليأس الذى أمرّت غصصه ريقها، وكيف لم يعد ثمة أمل على الإطلاق. على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التى تشتعل فى دمها ولا حيلة لها فيها. وكلما استنامت إلى قبضة اليأس شكتها فى الأعماق كشوكة مستعرة. هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها. بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى «الهوان» فى سبيل النقود التى تمس حاجة أسرتها إليها. ولم تكن فى هذا كاذبة، فإنه حق لا شك فيه، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى، وسرها ـ إن كان ثمة سرور ـ أن تبدو لعينيها شهيدة،

وضحية لليأس والفقر. وبرز الفتى عند ذاك من الجراج ووقف يحدث بعض العمال فخفق قلبها ولم تتحول عنه عيناها. وأدركت بغريزتها أنها لن تتراجع فسلمت ـ على البعد ـ وهو موليها ظهره، سلمت تسليما نهائيا، وانتهى فى تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذى نشب فى قلبها منذ أسابيع. وزفرت فى يأس وحرارة وغادرت موقفها. واقتربت منه فى خطوات وئيدة متجاهلة إياه، حتى أحست به يعترض سبيلها قليلا بجرأته المألوفة:

ـ الصخر نفسه يلين يا ست، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال.

ثم سار إلى جانبها متشجعا بابتسامتها وهو يقول:

ـ كفاك تدللا، لو كان لى صبر أيوب لنفد..

ما ألذ الغزل لو كذب، حال مخزية ولكنها ترد إليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح. «ليته يدرى من أنا، ومن كان أبى». ثم سمعته يقول بلهجة تنم عن وعيد:

ـ هاك السيارة فإذا لم تصعدى إليها رفعتك بذراعى أمام الرائح والغادى.

وكانا بلغا موقف السيارة فى العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة، وازدردت ريقها واندفعت إلى الداخل فى حركة عصبية، وجلست، فأغلق الباب وراءها، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهى لا تكاد تدرى به، ومالت إلى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق، ثم غشيتها غرابة. بدا لها كل شئ غريبا خياليا لا يمت للواقع بسبب، الطريق الذى تتساقط عليه ظلمات المساء وأشباح المارة، والسيارة الهرمة المتهلهلة، ونفسها، وأصوات الناس، ودوى عجلات الترام، واستعدت إرادتها بقوة لتعود إلى وعيها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارع ووجه معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخم صخرى وفم عريض كفم البولدج فأعادها منظره إلى عالم الحقيقة، والوعى والأعصاب، والدم والخوف. واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفض سدادتها ثم نظر فيما حوله فى شىء من الحذر، ورفع فوهتها إلى فيه وأفرغ فى جوفه جرعات غزيرة، والتفت إليها بوجه متقلص العضلات وسألها:

ـ ألا تشربين قليلا من النبيذ؟

فقالت بعجلة واضطراب:

ـ كلا، لا أتعاطى الخمر..

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص، وأعاد القارورة إلى موضعها، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول:

ـ من الحكمة أن أشرب الآن حتى إذا بلغنا مقصدنا بلغته فى سلطنة..

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدا لها قويا جسورا، وفى الوقت نفسه غير أهل للثقة أو للشرف. ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تعد أهلا له، ولم يعد ضالتها، ولا تخاف شيئا فى الوجود بقدر ما تخافه على نفسها. وسمعته يقول ضاحكا فى زهو:

ـ ما أطول نفسك فى التدلل! . . ولكن طالما قلت لنفسى مصير الحلو أن يقع، وها هو قد وقع . .

ورحبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وتساءلت:

ـ ومن أدراك أنى وقعت؟!

فضحك ضحكة وقال:

ـ سنرى ما يكون فى صحراء ألماظة . .

وتساءلت فى قلق:

ـ صحراء ألماظة؟ . . هل نغيب طويلا؟

ـ حتى منتصف الليل . . !

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها وشقيقيها. وقالت بلهجة المستصرخ:

ـ يا خبر أسود. يجب أن أعود إلى البيت قبل العشاء؟ . . أوقف السيارة بربك . .

فقال بدهشة وفتور:

ـ حقا؟! . لا تخافى، سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا تخافين؟

ـ أهلى . .

فلحظها بارتياب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى:

ـ أهلك! . . ألا يعلمون؟!

ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة. أهلها يعلمون؟ . ماذا يظن بها؟! واندفعت تقول:

ـ كيف يعلم أهلى! . إخوتى طلبة بالجامعة، وكان أبى موظفا.

وهز رأسه متظاهرا بالتصديق، وقال لنفسه ساخرا: «لا أم غسالة إلا أمى، ولا إخوة صعاليك إلا إخوتى، الأمر لله» وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه فى أقصر وقت، ومضى يستشعر حميّا النبيذ فطاب نفسا وسألها:

ـ ما اسمك؟

ـ نفيسة.

ولم يعجبه الاسم فسألها :

ـ لماذا لم تنتقى اسما أرشق منه؟

ولم تفهم قصده ، وأساءت فهمه فقالت باستياء :

ـ إنه يعجبنى !

ـ عاشت الأسماء يا ست نفيسة ، لا مؤاخذة . .

وأخيرا مالت السيارة إلى الطريق الصحراوى تغوص فى ظلمة شاملة ، ولاحت المدينة عن بعد فى أنوارها الموصوصة كأنها مارد جبار ذو أعين نارية لا حصر لها ، وأخذ يهدئ من سرعة السيارة حتى أوقفها ، وأطفأ مصابيحها ، وبغتة مد ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقعه . فاندلقت عليه متأوهة ، ففغر فاه العريض وأطبق على فمها حتى منتصف ذقنها ، وضمها إلى صدره بوحشية وأنفاسه تتردد فى أنفه فى نخير محشرج ، فشعرت بادئ الأمر بألم وقلق ، ثم مضت آلامها تغيب فى ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحاهما فى الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بأنها مدينة للظلام بالشئ الكثير ، فقد شجعها ، وفى الوقت نفسه أخفى عيوبها ، وبذلت قصارى جهدها ـ مدفوعة بحافز فطرى ـ لإرضائه . ولعلها وجدت بادئ الأمر حياء إلى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء .

ثم قال لها بإغراء :

ـ لا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى؟

فقالت بضراعة وهى تجفف العرق المتصبب من جبينها :

ـ لا أستطيع ، أرجو أن نعود فى الحال . .

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعة ، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد ، وظل صامتا حتى بلغا ميدان المحطة ، وقال بغلظة :

ـ توجد ثمرة دانية ، ألا نعود؟

فقالت برجاء وجزع :

ـ كلا ، كلا . . لا أستطيع . .

وقطب ساخطا فجأة ، وقال بفظاعة لم تتوقعها :

ـ الله يقرفك ، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذى احترق .

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فانعقد لسانها ، وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلا ، ونظرت نحوه فى ذهول ، ولكنه لم يلتفت إليها ، ودفع السيارة صامتا ساخطا إلى شبرا . عسى أن تكون رغبته فى المزيد عذرا ولكن أما كان يجمل به أن يترفق بها أو

فى الأقل أن يمسح خشونته بكلمة رقيقة؟ . . وواصل انطلاقه صامتا، ثم عرج إلى شارع جانبى لينزلها فى أمن من الأعين. وأوقف السيارة إلى جانب الطوار. وتساءلت وهى تغادر موضعها عما تفعل إذا سمى لها موعدا آخر أتقبل رغم إهانته أم ترفض على رغمها؟ وجابهتها حيرة لم تستعد لها، بيد أنه مد لها يده بنصف ريال وهو يقول:

ـ هذا يكفى لمرة واحدة. .

ولما رأى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفا وراءه ذيلا من دخان خانق، وقرقرة مزمجرة. وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت فى موقفها وجسمها ينتفض. واتصل انتفاضها وهى تعض على نواجذها، ثم مضت تزفر فى عجلة كأنما تنفس عن صدرها أن ينفجر. لم يتكلف موعدا آخر. مرة عابرة. كأننى . . رباه، مرة عابرة. ثم يرمى لى بنصف ريال! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد، وحل محله خجل وخيبة، أجل، ألا يجوز أنها لم ترق له ولم تعجبه؟! هذا محتمل. هذا مرجح. هذا مؤكد! . وأومضها شعور أليم بالحزن والقهر، ثم تنبهت لموقفها من الطوار ففهمت بمغادرته ولكنها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت إليها بغرابة دون أن تدرى ما هى فاعلة، ثم ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التى اقترضها سلمان منها يوما على محطة الترام، ثم يوما قادها إلى مسكنه، والظلام الدامس وشجارها معه فى الطريق، وتغزل أبيها بخفة دمها، ثم عاد انتباهها إلى القطعة الفضية تحت عينيها، فرنت إليها طويلا دون أن تتحول عنها. أى شىء ثمة يدعوها إلى تركها؟!

٤٢

وفى ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقعة بعد انقطاع غير قصير، وكانت الأسرة مجتمعة بحجرة الإخوة التى تتخذ منها مجلسا مختارا فى شهور الصيف. جاء هذه المرة وبيده قفة فوضعها وراء الباب وأقبل عليهم مسلما ضاحكا فاستقبلوه بترحاب كالعادة، أعلنه الإخوة فى غير تحفظ، أما الأم فرمقت القفة بنظرة متسائلة وغمغمت ساخرة «ايش جاب الغراب لأمه» فقال ضاحكا وهو يتخذ مجلسه بينهم:

ـ لا تتعجلى. الصبر طيب؟؟

بيد أنهم لم يلقوا بالا لقفته. ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيرا منه، قالت له نفيسة:

ـ لا نراك إلا كالزائر!

ـ أخوك سائح فى أرض الله الواسعة، يلتقط رزقه فى جهد ومشقة، ولكن لا تعجبى إذا لم ترينى إلا زائرا فقد وجدت لنفسى مسكنا!

وتطلعت إليه الأبصار فى اهتمام وسألته أمه:

ـ هل هداك الله أخيرا ووجدت عملا؟

ـ تخت على صبرى ولا شئ غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا.

فقالت الأم بامتعاض:

ـ لا يدخل عقلى بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح..

فقال حسن مستنكرا:

ـ لم لا يا أماه؟!!. إنى فى التخت أغنى بينا فى المهن الأخرى أتشاجر كما تعلمين..

وسأله حسين:

ـ وهل وجدت لنفسك مسكنا حقا؟.. أين؟

فسكت مليا ثم سأله:

ـ ولماذا تريد أن تعرف؟

ـ كى نزورك بدورنا!

ـ كلا. ليس مسكنى معدا للزيارة، وليس هو خاصا بى إذ يقطنه أفراد التخت جميعا، دعونا من هذا وخبرونى متى أكلتم اللحم آخر مرة؟

فقال حسنين ساخرا:

ـ الحق أنّا نسينا، دعنى أتذكر قليلا.. تتخايل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا أدرى أين ولا متى.

وضحك حسين قائلا:

ـ نحن أسرة فلسفية على مذهب المعرى.

فتساءل حسن:

ـ ومن يكون المعرى هذا؟.. أحد أجدادنا؟

ـ كان فيلسوفا رحيما، ومن آى رحمته أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان..

ـ إنى أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس، إنها تفعل كى تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس..

ونهض حسن وذهب إلى حيث ترك القفة وعاد بها ووضعها أمام أمه، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنز تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض الدهن. وإلى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم. وصاح حسنين:

ـ لا أصدق عينى، وما هذا داخل العلبة؟

ـ سمن!

ودبت فى الإخوة حيوية ولمعت أعينهم، وسرت عدوى الفرح إلى قلب الأم فابتسمت وتمتمت:

ـ ضمنا للغد غداء فاخرا!

وهتف أكثر من صوت:

ـ بل عشاء فاخرا الساعة.

ـ متى ينتهى طهيه؟

ـ ننتظر حتى الفجر..

ونهضت نفيسة فحملت القفة وسبقت أمها إلى المطبخ.

وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضا فغادرت الحجرة وهى تومئ إلى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسما ابتسامة ذات معنى، فانتبذت به ركنا فى الصالة وسألته بلهفة:

ـ هل تيسرت سبل الرزق حقا؟

ـ بعض الشىء! لا أدرى ما يأتى به الغد..

ـ هل أطمئن إلى أنك ستمد لنا يد المعونة؟

ـ كلما واتانى الرزق. أرجو هذا..

وصمتت لحظة ثم سألته:

ـ أين تقطن؟

وكان يعلم أنها تفهمه فهما لا يجدى معه الكذب فقال:

ـ عطفة جندف بكلوت بك رقم ١٧.

فسألته بعد تردد:

ـ امرأة؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ نعم.

ـ زواج؟

فضحك مرة أخرى وتمتم:

ـ كلا..

ولم ير فى الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات الامتعاض، ولكنها كانت قد

يئست منه منذ زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه، بيد أنها سألته باهتمام وحرارة:

ـ أليس رزقا شريفا؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد:

ـ بلى، لا تشكى فى هذا. . إننا نحيى أفراحا كثيرة ونغنى فى المقاهى والصالات. .

٤٣

وانقضى عام آخر. . وواصلت الحياة سيرها لا تلوى على شيء، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة فى سبيله بما يلقى من خير وشر. ولو أتيح للأب أن يعود إلى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين، ولكن كان حتما سيعرفهم، سيعرف أن المرأة هى زوجه وأن الأبناء أبناؤه، أما الذى كان ينكره، ولا يعرفه مهما أجهد ذاكرته فهو البيت. اختفى الأثاث أو كاد، فلم يبق بحجرة الاستقبال إلا كنبة وبساط باهت ناحل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين يستعملان نهارا للجلوس وليلا للنوم، وخلت الصالة ـ حجرة السفرة قديما ـ فبيع البوفيه والمائدة والكراسى، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض، بل بيع فراش حسن. ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان. كانت حياة شاقة عسيرة، ولولا حزم الأم، وحسن تدبيرها، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكل. أما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلبابا أو منديلا أو بعض الثياب الداخلية، وفيما عدا هذه الأويقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد. وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق، ولم يكن فى اعتذاره غلو دائما. والحق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور. كان يغنى فى تخت على صبرى، وينبرى للعراك إذا دعا الداعى، ويتجر بالمخدرات فى حدود ضيقة، وفى حوزته امرأة لا بأس بجمالها ونقودها، ولكن ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلا عما أوجبته حياته عليه من الانفاق السخى ليظفر بقلوب أعوانه، وليظفر بالمظهر اللائق له. وكان النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه، يتغلب ذاك حينا، ويتغلب هذا فى أغلب الأحيان، يمسك يده مستسلما لتيار حياته الجارف، ثم يجود بما فى طوقه، ويتمنى

كثيرا لو يرد أسرته إلى سابق عهدها بالحياة. ثم ينسى أسرته فى خضم مغامراته، ثم يعود إلى تذكرها فى ندم وألم، وهكذا إلى غير نهاية. ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذى يقيل عثرتها أو يأخذ بيدها وان تنسمت فى زياراته نسائم الترفيه والراحة. الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة، وفى سبيل الأسرة انهد حيلها وهرمت فى عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلدا وعظاما، بيد أنها لم تستسلم للمحنة، ولم تعرف الشكوى، ولم تتخل عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة. وكانت تعمل النهار كله، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو، وترعى ابنيها خاصة، تراقب لهوهما، وتحثهما على العمل، وتفض نزاعهما التافه، وتكبح من نزواتهما، خصوصا طفلها المتقلب حسنين. وبين هذا وذاك تعكف على التفكير فى الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيرا من الآلام التى تبعثها فى نفسها ابنتها نفيسة فى تجوالها الدائم بين بيت وبيت، تعمل كثيرا وتربح قليلا وتواصل سعيها فى مشقة ويأس. لشد ما تتجرع غصص الألم فى سكون متجملة بصبر لا يهن، لائذة بإيمان لا يتزعزع، متشبثة بأهداب أمل لا بد أن يتحقق وإن طال انتظاره. وبفضلها عرف الشقيقان سبيلهما. فلم يحد أيهما عن جادته، وأمكنهما ـ على ما يكتنفهما من تقشف وحرمان ـ أن يواصلا اجتهادهما فى مثابرة تدعو للإعجاب. وكان حسنين يعد ما يلقاه من ظروف العيش أهون مما يجد فى حبه من حرمان، ولكن فتاته لم تكن دون أمه عنادا. فأرغمته على الرضى بحب ظاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامى. وأوشكت الحياة الخاصة أن تلهى الشقيقين عما انتاب حياة الوطن فى تلك الفترة. من التطورات الهامة. والحق أن حسين لم يبد اهتماما يستحق الذكر بالسياسة العامة ولعل حسنين كان أكثر اهتماما بالسياسة من أخيه، ولكن ليس إلى القدر الذى يجعل منه تلميذا سياسيا، واقتصر اهتمامه فى الغالب على النقاش الحزبى أو الاشتراك فى المظاهرات السلمية. وكانت الأم أيضا الحائل بين ابنيها وبين الاشتراك فى الحياة السياسية، فلم تكن لتفقه حرفا فى السياسة، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية. ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول مخاطبة الشابين:

ـ قتلوا يا ولداه فهل تغنى عنهم السياسة أو المظاهرات؟!. فجعوا أهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا هباء..

وقال لها حسنين منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين:

ـ إن الأوطان تحيا بموت الأبطال..

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن مواصلة حديثه الحماسى. ثم جدت

أحداث فتكونت الجبهة الوطنية، وشرع فى المفاوضات، وانتهت المفاوضات إلى الاتفاق، وسرى فى البلد ارتياح عام، وحينذاك عاد حسنين إلى حديثه، وكان أجرأ على أمه من أخيه، فقال لها يوما:

ـ أرأيت أن الأرواح التى زهقت لم تذهب تضحياتها عبثا.

ولم تغضب هذه المرة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محله السلام ولكنها لم تنثن عن رأيها فقالت:

ـ هيهات أن يعوض شئ عن هلاك روح شابة.

فقال حسنين ضاحكا:

ـ لقد عشت يا أماه نصف قرن فى ظل الاحتلال فلندع الله أن يمد لنا فى عمرك نصف قرن آخر فى كنف الاستقلال..

فقالت الأم ممتعضة:

ـ احتلال، استقلال، لا أدرى أى فرق بينهما. خير لنا أن ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبدلنا من عسرنا يسرا..

فقال حسنين بحماس وإيمان:

ـ لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبى بلا معين! «ثم مخاطبا حسين» أليس كذلك؟

فقال حسين بأمل:

ـ أعتقد هذا!

ورددت الأم نظرها بينهما فى شك كبير. لم تكن تحفل بهذه الأحاديث العامة التى تساق إليها أحيانا من حيث لا تدرى، أمر واحد يهمها، وتنسى من أجله الدنيا وما فيها، هو أن تبلغ بهذين الشابين اللذين تحبهما أكثر من الحياة نفسها بر الأمان، وأن تراهما رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شر الحياة، وآوت الأسرة منهما إلى ركن ركين..

٤٤

وقبل نهاية العام حصل حسين على البكالوريا. وقد ذاقت الأسرة فى فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة مرارة الإشفاق والشك. ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتكهن بما يجد فيما لو أخفق حسين وحرم من المجانية. ولم تكن الأم تتصور أن ينتهى صبرها هذه

النهاية، ولا أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندما تناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ فى صفحاتها باحثا عن نمرته، التف به أخوه وأخته وأمه بقلوب خافقة ينبض فى أعماقها الأمل ويظلها الخوف والعذاب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم إلى الأبد . ثم كان يوم سعيد، أول يوم سعيد منذ عامين كئيبين، فطابت النفوس، ولهجت الألسن بالشكر لله، وراحوا يفصحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف حينا، وبالصمت المطمئن الباسم حينا آخر . ثم وجدوا أنفسهم يطرقون باب المستقبل، ويفكرون فى الغد القريب والبعيد معا، فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون، وتخايلت لأعينهم مرة أخرى الصعاب التى تكتنف حياتهم، فحل التفكير وهمومه محل السعادة الصافية العابرة، عرف حسين حقيقة جديدة فى حياته وهى أن السعادة قصيرة الأجل وأنه لا تعمر فى النفس طويلا كالحزن أو الحسرة . ولم يكن التفكير فى مستقبله بالأمر الجديد عليه، كان بطبيعة الحال ذا آمال وأحلام، ولكن الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك، وكأنه أراد أن يستدرجهم إلى إعلان آرائهم فتساءل :

ـ ماذا لديكم عن الخطوة التالية؟

وكان للأم رغبة، فهى تود أن تنتهى الحال التى يكابدونها بأى ثمن . وكانت تعلم ـ قد خلا البيت مما يمكن الانتفاع بثمن بيعه ـ أنهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن . بيد أنها لم ترتح إلى إملاء رغبتها عليه، ونفرت من التحكم فى مستقبله كما تتحكم فى حياته . أجل لم يعد طفلا، فإذا وافق على رأيها مختارا فبها وإلا فليقض فى أمر نفسه بما هو قاض، وليمدوا هم فى حبال التصبر والتجلد، بل والجوع حتى يأمر الله بالفرج . لذلك قالت باقتضاب :

ـ فلنتدبر الأمر طويلا .

ولكن حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعا بعواطفه كعادته، وكانت أنانيته تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام، فقال :

ـ لم تعد الحياة تطاق . غذاؤنا سيئ ونحن فى حكم الجياع وثيابنا متداعية ممزقة أو مرفوة، وبيتنا عار، فلا يصح أن نطيل أمد العذاب . لا سبيل إلا أن نبدأ حياتنا العملية . .

وكان حسين يفهم أخاه خير الفهم، فأدرك لتوه ما يرمى إليه، وكان مقتنعا بما يريد أن يذهب إليه ولكن ساءه مكره فتغيظ عليه وقال :

ـ لماذا تقول «نبدأ»؟ . . لماذا تستعمل صيغة الجمع بينا الأمر يتعلق بى وحدى؟

وأدرك حسنين أن أخاه نفذ كعادته إلى ما وراء كلامه فقال بإشفاق :

ـ إنى أقرر مبدأ عاما يجوز عليك اليوم وعلىّ غدا .

ـ تعنى أنه يجب أن أجد وظيفة؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل :

ـ ما رأيك أنت؟

فالتفت حسين صوب أمه وسألها مبتسما :

ـ ما رأيك يا أماه؟

وأثرت ابتسامته فى نفسها تأثيرا عميقا . وأدركت أنه يضع مصيره بين يديها . وأنه يحملها وحدها مسئولية مستقبله . ولكنها لن تقضى عليه بما لا يحب ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربع سنوات أخرى . إنه الوحيد الذى يذعن لمشيئتها بلا تردد أو تذمر فهل يكون جزاؤه الفداء؟! وقالت الأم بوضوح :

ـ رأيى رأيك يا حسين . .

فابتسم ابتسامة غامضة وقال مدفوعا برغبة عابثة فى مضايقة حسنين :

ـ أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالى . .

فقالت نفيسة بسرور :

ـ أحسنت . .

وقال حسنين بعد تردد :

ـ أمامنا أربعة أعوام عجاف أخرى . .

فقال حسين مبتسما :

ـ عام واحد فحسب ثم تتوظف أنت فى نهايته إن شاء الله . !

فضحك حسنين مغلوبا على أمره وقال بلهجة المعتذر :

ـ لعلك تظن أننى أريدك أن تتوظف لتتيح لى فرصة أكمل فيها تعليمى العالى فى هدوء وطمأنينة ، ولكن الحقيقة أننى أود أن أرحم أسرتنا مما تعانيه ، وفضلا عن هذا وذاك فإذا كان على أحدنا أن يضحى بذاته ـ إذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية ـ فأنت الذى يجب أن تبذل هذه التضحية ، لا لأنى أريد لك ما لا أريد لنفسى ، ولكن لأن أسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاما آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتى أنا .

فضحك حسين قائلا :

ـ منطق زائف . إنى أعلم علم اليقين أنك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذى بعده .

وقالت الأم حسما للجدل :

ـ افعل ما تشاء يا حسين، ولا اعتراض لنا . .

فابتسم إليها فى صفاء وقال :

ـ لم أعن مما قلت حرفا واحدا ولكنى أردت أن يعرف حسنين أنى أحسن فهمه . ولست ألومه أيضا على تفكيره فله عذره . ينبغى أن يضحى أحدنا ويرضى بالتوظف الآن، وهذا هو واجبى أنا، أنا أخوه الأكبر، وأنا صاحب البكالوريا، إنى أدرك الحال على حقيقتها، وأعلم أنه من القسوة الشريرة أن أفكر فى تكملة تعليمى، فلأرض بحظى، ولندع الله جميعا أن يوفقنا إلى ما نريد . .

وقرأ الارتياح فى أعينهم جميعا رغم ما تنطق به ألسنتهم من عبارات الأسف، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه . «أسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمأنينة . ها أنا أعيد إلى نفوسها بعض هذه المعانى . علام آسف! . مدرس أو كاتب سيان . لو كنا نقتصد فى أحلامنا، أو كنا نستلهم الواقع فى خلق هذه الأحلام، لماذقنا طعم الأسف أو الخيبة» .

٤٥

وقالت الأم :

ـ لدينا أحمد بك يسرى صديق المرحوم والدكم، وهو يستطيع أن يوظفك فى غمضة عين . .

وتفكرت الأم مليا ثم واصلت حديثها قائلة :

ـ لن أستطيع الذهاب إليه بنفسى لأن معطفى لم يعد لائقا للظهور أمام الناس المحترمين، فأمض إليه أنت، وخذ معك أخاك تتشجع به . وما عليكما إلا أن تقولا للبواب أنكما ابنا المرحوم كامل أفندى على . .

وذهب الشقيقان عصرا إلى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابلته كما أوصتهما أمهما فغاب البواب دقائق ثم جاء ليدعوهما إلى حجرة الاستقبال . ودخلا يسيران فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران إلى شتى الأزهار التى كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة، ثم صعدا إلى السلاملك، ثم إلى بهو الاستقبال الكبير، واتخذا مجلسهما بارتباك على كثب من الباب بالموضع الذى اختارته أمهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعا على البساط الغزير الذى يغطى أرض الحجرة الواسعة، والمقاعد الكثيرة الأنيقة، والطنافس والوسائد، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة، والنجفة

المتدلية فى هالة لألاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية. وأشار حسنين إلى النجفة وقال بسذاجة:

ـ مثل نجفة سيدنا الحسين!

وكان حسين يفكر فى أمور أخرى فقال:

ـ نعم.. دعنا من النجفة، ما عسى أن نقول؟.. ينبغى أن تساعدنا بلسانك!

فقال حسنين هازئا:

ـ أتظن أنك ستحادث شيطانا؟.. تكلم بشجاعة، وسأتكلم أنا أيضا. ملعون أبوه!

وندت عنه اللعنة ـ لا لحنق ـ ولكن ليشجع أخاه، وليتشجع هو نفسه. وألقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء ثم تساءل بصوت منخفض:

ـ هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا فى نفوس ورثته؟

فقال حسين بنصف وعى:

ـ أما كنا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنيا؟

فقطب الشاب متفكرا ثم قال:

ـ أعتقد هذا. ولكن لعل الحزن أنواع ودرجات. آه.. لماذا لم يكن أبونا غنيا..

ـ هذه مسألة أخرى..

ـ ولكنها كل شىء. خبرنى كيف صار هذا البك غنيا؟

ـ لعله وجد نفسه غنيا..

فالتمعت عينا حسنين العسليتان وقال:

ـ يجب أن نكون جميعا أغنياء..

ـ وإذا لم يكن هذا؟!

ـ إذن يجب أن نكون جميعا فقراء..

ـ وإذا لم يكن هذا؟!

فقال بحنق:

ـ إذن نثور ونقتل ونسرق..

فابتسم حسين قائلا:

ـ هذا ما نفعله منذ آلاف السنين..

ـ يعز على أن أتصور أن تمضى حياتنا فى عناء وقذارة إلى الموت..

فقال حسين مبتسما:

ـ لا قدر الله . .

وقبل أن يفتح حسنين فمه سمعا وقع أقدام آتية من الفراندا، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض فى بدلة بيضاء حريرية، وسلم عليهما مرحبا وهو يتفرس فى وجهيهما بعينين ضاحكتين، ثم سألهما وهو يجلس:

ـ أهلا بابنى الحبيب المرحوم، كيف حال والدتكما؟

فشكرا له بلسان واحد، وقد نسى حسنين فى طيب اللقاء حنقه على حين عاود حسين ارتباكه. وتوجس أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذى لا بد أن يسفر عن بذل وعطاء، وكان يسلم سلفا بأنه لن يستطيع أن يرفض لهما رجاء إذا سألاه. والحق أنه لم يكن بخيلا، بل كان جوادا، ولكن لا عن طيب خاطر، كان يجود فى برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول «لا»، وتغلب حسين على ارتباكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغنى نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة.

ـ حصلت يابك على البكالوريا، وظروف أسرتنا تضطرنى إلى البحث عن وظيفة، لذلك رأت والدتى أن ترسلنى إلى سعادتك لما لنا جميعا فيك من عظيم الرجاء. .

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ، ثم قال:

ـ وظيفة؟! . . باب الحكومة ضيق فى أيامنا هذه، ولكنى سأبذل ما فى وسعى يا بنى. لا أعتقد أنى سأجد لك وظيفة فى الداخلية ولكنى صديق لوكيل المعارف، وكذلك وكيل الحربية، جهز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية . .

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلما وغادرا الفيلا، وألقى حسنين على الفيلا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها، وعاد ببصره إلى وجه أخيه فوجده راضيا حالما فساءل نفسه فى دهشة: ترى هل يفرح الآن بما عده بالأمس تضحية؟ . . ثم قال:

ـ أيقنت الآن فحسب، وبعد أن تنسمت عبير الحياة الحقة فى هذه الفيلا، أنه من الظلم أن نعد أنفسنا بين الأحياء . .

وكان حسين مشغولا بالتفكير فى طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعن بالرد على أخيه، فقال حسنين حانقا:

ـ إنى أعجب لما تتحلى به من رضى وهدوء . ! ولكنه تظاهر لا يمكن أن يخدعنى . .

فغمغم حسين مبتسما:

ـ وما جدوى الحنق؟ . . لن نغير الدنيا!

ـ يجب أن تتغير. من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف والمأكل الصحى والمركز المرموق. ولكنى أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيرا أبدا . .

فحدجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له :

ـ ولكنك تتمتع بالحب ، وستكمل تعليمك . أليس هذا خيرا ؟

ونظر إليه ثم نظر فيما أمامه ، ترى ماذا يعنى ؟ . وشعر بعدم ارتياح ، وتضاعف ضيقه . ثم روح عن صدره ، متسائلا :

ـ ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟ . إن لنا حقوقا بديهية ولا يجوز أن يضيع شئ منها ، فأين نحن من هذا ؟ . . كيف نعيش ؟ . . ماذا تكابد أمنا ؟ . . أين أخونا حسن ؟ . . كيف انقلبت أختنا خياطة ؟ . .

وقطب حسين وقد تنغص عليه صفوه ، وتناسى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقا ، وصاح بأخيه فى لهجة تنم على العتاب :

ـ خياطة . .

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

ـ نعم خياطة ، هل تكره هذا حقا ؟ . أتمنى حقا لو كانت تزوجت كأمثالها من الفتيات ؟ . كذب . لو كانت تزوجت ، بل لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة . هذه هى الحقيقة .

واشتد الغضب بحسين ، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه ، ولكن لأنه يسلم به فى أعماقه ، ولأنه ما كان يرحب حقا بزواج الفتاة وسعادتها . «إننا نأكل بعضنا بعضا ، وينبغى أن نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغى أن نسر باختنا الخياطة ، ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة ، وهذا الشاب المتذمر ينبغى أن يسر بانقطاعى عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . يأكل بعضنا البعض . أى وحشية . أى حياة لعلى لا أجد إلاعزاء واحدا وهو أن قوة أكبر منا جميعا تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما وأننا نصمد ونقاتل . » وتركز تفكيره فى الخاطر الأخير ، فيما سماه العزاء الوحيد ، فسكتت نفسه ، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نحن لا يأكل بعضنا البعض . لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفطن لهذا) . . لا تقل هذا أبدا . نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر . وواجب كل واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية . . !

ثم طلب إلى أخيه فى حزم أن يمسك عن الجدل ، وكانا بلغا محطة الترام . .

٤٦

وتبين لحسين أن الوظيفة ـ أو التضحية التى رضى ببذلها عن طيب خاطر ـ لم تكن منالا يسيرا، فقد انصرمت ثلاثة أشهر وهو يتردد فى هم ويأس ما بين فيلا أحمد بك يسرى ووزارتى المعارف والحربية، وأخيرا أخبره البيك بأنه أمكن إلحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية، وحثه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله فى أول أكتوبر. وسر الفتى. وسرت الأسرة، ولكنه سرور لم يكن خالصا، وشابته مرارة. كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كى تنتشل الأسرة من وهدتها وتبدلها حالا بعد حال، فجاء السفر مخيبا لهذا الرجاء، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها، وأيقنت أن الوظيفة لن ترفه عن الأسرة إلا قليلا، وأن خيراتها ستتبدد ما بين طنطا والقاهرة. وإلى هذا كله فقد لاح فى أفق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه، فتوجعت قلوبها، وعجبت الأم لهذا الحظ الذى يأبى أن يمنحها ابتسامة إلا تحت عبوسة متجهمة، والذى يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذى لا يخلق لها المتاعب. كانت ترى فى حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة، وكانت تجد عنده من الأنس والراحة ما لا تظفر به عند غيره. أجل لم يكن أحب الجميع إلى قلبها، إذا كان حسنين الطفل المشاكس الذى يحظى بهذه المنزلة، ولكنه بدا لعينيها وقتذاك كأنفس ما تملك فى حياتها. ووقع الفراق من نفس حسين موقعا سيئا، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوما واحدا فى حياته، وضاعف أثره فى نفسه تعلقه الشديد بأمه وإخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم. وكان يقول لنفسه كثيرا «سأعيد نفيسة إلى بيتها سيدة محترمة حال تسلمى أول مرتب من الحكومة» ولكنه رأى حلمه يتبدد، وغدا يذهب إلى بعيد مخلفا أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست أفضل كثيرا مما كانت عليه. ولعل هذا ما جعله يمضى إلى أحمد بك يسرى مستشفعا بنفوذه على إبقائه فى القاهرة ولكن البيك ـ وكان قد ضاق به ـ أخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق فى الوقت الحاضر. ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التى يجب أن تتوافر له ليقيم بها أسباب معيشته فى طنطا حتى يتسلم أول مرتب له فى نهاية الشهر، من أين له بهذه النقود، واتجه نحو أخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمها عن جل أرباحها المحدودة ولا تكاد تبقى لنفسها على شىء إلا ما يلزم لكسائها، وإلى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفى ثمنه ـ إذا بيع جميعه ـ بمطلبه، فلم يجد من ملاذ أمامه إلا أخاه حسن وخاطب أمه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك فى نجدة ابنها الأكبر إذا وسعه ذلك، وأطلعته على عنوان أخيه لأول مرة فمضى من

توه إلى شارع كلوت بك وراح يبحث عن عطفة جندف. وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق إلى نفسه رويدا رويدا حتى تساءل فى النهاية ترى هل يعطينى حسن ما أريده حقا؟!. وإذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها؟!. ثم اهتدى إلى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة، ووجدها عطفة ضيقة متعرجة، تقوم على جانبيها بيوت متداعية، وتسطع فى هوائها الفاسد رائحة السمك المقلى، وتكتظ بالمارة وعربات اليد، وتتجاوب فى جوها نداءات الباعة ثم تتخللها شتائم ونحنحات محشرجة وبصقات غليظة، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب فى الصعود تدريجيا حتى خيل إليه فى النهاية أنها مقامة على سفح تل. ومضى الشاب إلى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنه عمود ضخم، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة دوم ولب وفول سودانى فدخل كالمتردد وارتقى سلما حلزونيا بغير درابزين وقد زكمت أنفه رائحة نتنة صاعدة من بئر السلم، حتى انتهى إلى الدور الثانى وطرق الباب. كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا، وكان أخوف ما يخافه ألا يجد أخاه فى الشقة، وزاد من خوفه أن أحدا لم يلب الطارق. وعاود الطرق بشدة ويأس حتى كلت يداه، ثم وقف يائسا لا يدرى ماذا يصنع، وقبل أن يتحول عن موقفه جاءه بصوت غليظ من الداخل يهتف بحنق:

ـ من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة؟!

ودق قلبه بسرور، وقال يجيب بالصوت الذى عرفه حق المعرفة:

ـ أنا حسين يا حسن..

وقال الصوت بدهشة «حسين»، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يرفع، وفتح الباب، فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمرتين منتفختين فمد له يده وهو يهتف بدهشة:

ـ حسين!.. أهلا وسهلا، ادخل، خير إن شاء الله. ماذا وراءك؟

فدخل حسين فى شىء من الارتباك، وسرعان ما تطاير إلى أنفه عرق بخور طيب بدا عذبا مريحا عقب رائحة السلم، ووجد نفسه فى دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة إلى يمين الداخل والأخرى فى مواجهته وإلى اليسار المرافق. وابتسم حسين إلى أخيه وقال كالمعتذر:

ـ هل أتيتك مبكرا؟.. الساعة الحادية عشرة!

فتثاءب حسن طويلا ثم قال ضاحكا:

ـ إنى أستيقظ عادة حوالى العصر. المغنون ليلهم نهار ونهارهم ليل. ولكن خبرنى قبل كل شىء كيف حالكم؟

ـ بخير والحمد لله.. وكيف أنت؟

فقال وهو يسير به إلى الحجرة التى إلى يمينه :

ـ نحمده . .

دخلا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما إلى الجدار الداخلى كنبه علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكتين ، فثبتت عينا حسين عليها فى دهشة لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكا :

ـ ماذا يدور برأسك؟

فسأله حسين بسذاجة :

ـ هل تزوجت يا أخى؟

فأجلسه على الكنبه ووثب إلى الفراش وتربع عليه وهو يقول :

ـ تقريبا . .

خطبت؟

ـ الثالثة . .

ـ الثالثة؟!

أعنى الفرض الثالث!

فرفع الشاب إليه عينين داهشتين فى وجوم ثم ابتسم ابتسامة آلية على الرغم منه ولاح فى وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عاليا وقال باستهانة :

ـ هى زوجة فى كل شىء إلا العقد . .

فسأله حسن فى خوف :

ـ ألست وحدك الآن؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب ، ثم تثاءب بصوت مرتفع كالنهيق ، ثم قال محذرا :

ـ طبعا لن تخبر أحداً؟

ـ طبعا . .

فضحك حسن وقال :

ـ لا أحب إيذاء مشاعرهم ، هذا كل ما هنالك . وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء؟

فهز الشاب رأسه سلبا فى حياء فسأله مستطردا :

ـ وحسنين؟

فارتج قلبه فى خوف وألم لم يدر لهما سببا ، ثم قال :

ـ ولا حسنين . .

فتفكر مليا ثم قال :

ـ هذا أفضل بالنسبة لكما . . (ثم ضاحكا) إذا نويت الزواج يوما فاقصدنى أزودك بنصائح عظيمة .

فقال حسين بهدوء :

ـ لست أفكر فى الزواج كما تعلم . .

ـ أمن الممكن أن يتزوج حسنين قبلك؟

فخفق قلبه ، ولكنه قال بهدوء :

ـ هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم . .

فقال حسن بتأثر :

ـ على أية حال إذا انتهى حسنين من دراسته فليس ثمة عائق . آه ، على فكرة ، ماذا جد من أنباء الوظيفة التى تبحث عنها؟

وسر حسين بما هيأ له من فرصة يلج بها موضوعه فقال :

ـ لقد جئتك لأخبرك بأننى تعينت كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية ، وبأننى سأتسلم عملى فى أول أكتوبر . .

فقال حسن بدهشة :

ـ هل تسافر إلى طنطا؟ . . وما الفائدة التى تجنيها أمك إذا فتحت بيتا جديدا فى طنطا؟

ـ فائدة قليلة ، ولكن ما الحيلة؟

ـ هذا سوء حظ قارح ، وهذه هى نتيجة المدرسة !

فابتسم حسين يغالب ارتباكه ، ولم أطراف شجاعته وقال :

ـ سأسافر فى نهاية سبتمبر ، وأنت تعلم أن الحكومة تصرف المرتبات مؤخرًا !

وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه ، فتفكر دون أن يبدو على وجهه شىء مما يدور فى نفسه . ثم سأله :

ـ وما المرتب الذى تنتظره؟

ـ سبعة جنيهات .

ـ يا خيبتها يوم أرسلتك إلى المدرسة ! . . وطبعا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليما؟

فابتسم حسنين فى تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو أخيه ـ فى هذا الموقف ـ من الارتباك والحياء كأنه يسأل رجلا غريبا . وجعل حسن ينظر إليه صامتا وعقله لا ينى عن

التفكير. «جاء حسين فى ظرف غير مناسب. إنى أنتظر نقودا لا أدرى متى تأتى ولكن يدى الآن فارغة. مصفاه لا يبقى فيها شىء. تبا لها! لا يمكن أن أصارحك بالحقيقة، لتقم القيامة قبل ذلك. إنه فى حاجة ملحة إلى النقود، ولا بد أن يحصل عليها. مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات، وليست فى الواقع بالكثير، ثمن أوقيات حشيش، وينفق مثلها أى فتى أرعن فى أسبوع بدرب طياب. سناء مفلسة أيضا، لم أعد أبقى لها على شىء. ولكن لابد أن أعينه، كيف؟ ولماذا لم يحضر إلا اليوم؟، إلام تبقى أسرتنا شوكة فى جنبى؟!». وظل ينظر إلى أخيه صامتا حتى امتلأ حسين قلقا وخوفا. ثم غادر حسن الفراش فجأة وذهب إلى الصوان ففتح درجا وعكف عليه دقائق ثم عاد إلى مجلسه ومد يده إلى أخيه فإذا فيها أربع أساور ذهبية، وقال بسرعة:

ـ خذ هذه الأساور، وبعها فى الحال وانتفع بثمنها..

وجمدت يد حسين فلم تتحرك، واتسعت عيناه انزعاجا وإنكارا، وهتف وهو لا يدرى:

ـ ما هذا؟! أساور من هذه؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر:

ـ أساور سناء، امرأتى!.

ـ وبأى حق آخذها؟

ـ إن أخاك يعطيك إياها. لا شأن لك بصاحبتها..

واشتد انزعاجه وتساءل فى امتعاض كيف يعيش أخوه؟ ثم تمتم:

ـ لست مرتاحا إلى أخذها، أما من سبيل آخر؟

وحنق حسن على هذا «التعفف» فقال بجفاء:

ـ إذا كنت حنبليا حقا فما عليك إلا أن ترفضها، وليس عندى غيرها!..

فرمقها بارتياب، ولكنه قرأ فى وجهه الصدق فأحس بضيق وقهر. «أساور امرأة!.. وأى امرأة!.. محال شىء لا يصدق، ولا يمكن أن يدور لى بخلد، ولم أعلم ـ ولو فى كابوس ـ بأنه وقع لى. كيف يمكن أن أحترم نفسى بعد ذلك؟!. أرفض؟. والعمل؟!. ليس لديه نقود أخرى، ينبغى أن أصدقه.

ولكن لا محال أيضًا أن أضيع الوظيفة، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة؟ كلا لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. أرفض. أقبل. أرفض. أرفض. أقبل. أقبل. شىء واحد يستحق اللعنة، هو الحياة. الحياة والحظ.. والوالدان اللذان أتيا بنا إلى هذه الدنيا. كان يلعب بأوتار العود ولا يبالى شيئًا!. سحقًا لى، كيف أفكر؟ هيهات أن أذهب من مخيلتى صورة

جثمانه. رحمة الله عليه، ليس الذنب ذنبه. كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات. حجرة الدجاج على السطح ملتقى حسنين وبهية. شيء تشمئز منه النفس؛ فلأرفض. ولكن لا حياة إلا بالإذعان. لن يدرى أحد. ولكنى سأذكره ما حييت، وسأخجل منه ما حييت. إنه ينتظر الجواب فإما الإذعان وإما الموت. فلآخذها كدين ثم أقضيه عند الميسرة. إنك تخادع نفسك. بل إنى صادق ولأقضين دينى. ارفض أو لا تزعم بعد الآن أنك رجل شريف. إنى جائع. شريف وجائع. ولن أرفض. تبا للحيـــاة. إنى أدرك الآن ماذا ساق أخى إلى هذا الوكر. أسرة ضائعة وحياة قاسية. يجب أن أبت فى الأمر وإلا تفجر رأسى كالدجاج..

ـ ماذا قلت؟

ورفع عينيه فى ذهول وقد أثر فيه صوته تأثيرا مخيفا. وكانت الأساور ما تزال فى يده، فخفض عينيه وقال بخجل:

ـ إنى أشكر لك كرمك، وأقبله على العين والرأس، وأرجو أن تعده دينا أقضيه عند الميسرة بإذن الله..

ـ اقبله هدية إذا شئت، ولا تنس أن تخبر أمك بأننى اقترضت النقود من الأستاذ صبرى..

وأثار ذكر أمه ألما حادا فى نفسه فوجد امتعاضا، وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها فى جيبه، ثم قال:

ـ يؤسفنى أننى أزعجتك، وأظن أنه ينبغى أن أذهب لكى تواصل نومك..

فمد حسن له يده بالسلام، وضغط على يده باسما، ثم قال:

ـ مع سلامة الله بلغ تحياتى للجميع وقل لأمك بأننى سأزورها قريبا.. وغادر الشقة شاعرا بغرابة وإنكار. وهبط السلم الذى لا درابزين له فى حذر، ولكنه لم ينتبه للرائحة النتنة من شدة إغراقه فى تيار أفكاره..

٤٧

كانوا يجلسون بحجرة الإخوة التي ستصبح من الآن فصاعدا حجرة حسنين وحده. ورنت نفيسة إلى وجه حسين فغمر الألم قلبها وهتفت:

ـ رباه، هذه آخر ليلة تجمعنا معا!

أحست الأم بطعنة تصيب فؤادها الذي علمه الدهر من الصبر فنونا، ولكنها ابتسمت، أو رسمت ابتسامة على شفتيها الجافتين، وقالت بعطف:

ـ حسين رجل كامل، وسيعرف كيف يعيش وحده دون ارتباك أو اضطراب. وإني مطمئنة كل الاطمئنان إلي أنه لن ينسانا، فسيذكرنا دائما كما سنذكره دائما. وهذه هى الحياة يا عبيطة، ومصير كل أسرة إلى التفرق السعيد ـ على ما به من حزن ـ حيث ينهض كل بدوره الجديد. .

وكان حسن يعرف أمه جيدا فأدرك أنها تدارى حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائما، فصمم على أن يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك. لقد بكى مرة كالأطفال ولكنه لن يبكى مرة أخرى، و تمتم مقلدا أمه فى ابتسامتها:

ـ سوف نلتقى فى الإجازات، ولعلى أنقل يوما إلى القاهرة.

فقال حسنين بأمل:

ـ لابد أن يحدث هذا يوما ما. .

وكان حسنين يجد كآبة وحزنا. لم يفترق عن شقيقه مذ رأى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقى الحياة بدونه. كان شقيقه وصديقه معا، أجل كثيرا ما نشب النزاع بينهما، وبلغ الشجار أحيانا مداه ولكن لم يكن لأحدهما غنى عن الآخر. لو كانت بهية أقل عنادا لما شكا الوحدة قط، بيد أنه يتعزى عن الفراق بالرسائل يحبرها له من آن لآن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب العشرة والحديث، ولعله يستطيع أن يسافر إليه فى العطلة. ترى هل يمكنه أن يجرى عليه راتبا شهريا؟ خمسون قرشا أو ثلاثون خصوصا و هو يعلم بأن راتب الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية! ليت شجاعته تؤاتيه الآن فيحدثه بأمانيه! . . ولكن صبرا، وليؤجل هذا إلى فرصة أوفق.

وكانت الأم تواصل التفكير بلا توقف. لقد وفقت إلى الظهور بالمظهر الذى تحب أن تظهر به، أو الذى اعتادت أن تظهر به، ولكنها كانت تعانى ألما عميقا بلغت شدته ذروتها هذا المساء، كانت تكابد تأنيبًا خفيا لشعورها بأنها تؤثر حسنين بأكبر حبها، والآن ماذا ترى؟ . . ترى الأخ الوديع يضحى بمستقبله ويرمى بنفسه بين أحضان النوى فى سبيل الأسرة، بل فى سبيل حسنين بالذات.

وضاعف من آلامها أنها كانت ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون عن العواطف، حديث إن دل ظاهره على الحدب على الفتى المسافر فباطنه يرمى إلى الدفاع عن الأسرة قبل كل شىء. وجعلت تؤجله وهو يلح عليها حتى اقتنعت بأنها إذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة إلى الأبد، ونظرت إلى حسين بإشفاق وحنان ـ وكان يرتب ثيابه فى حقيبة أبيه ـ وقالت:

إنك رجل عاقل، وهذا ما يجعلنى جديرة بالاطمئنان. ولست أطمع فى شىء أكثر من أن تواصل سيرتك الحميدة فى بلدك الجديد، وأن تحذر صحبة السوء..

فابتسم حسين قائلا:

ـ اطمئنى كل الاطمئنان يا أماه..

على أن عبارة «صحبة السوء» استدعت إلى مخيلته صورة عطفة جندب والبيت الذى لا درابزين له والأساور الذهبية فشعر بفتور أغاض الإشراق الذى رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليوارى وجومه عن الأعين، أما الأم فاستطردت قائلة باهتمام:

ـ ولا تنس أسرتك. حقا ليس ثمة حاجة إلى تنبيهك لهذا، لكننى أحب أن أذكرك بأننا سنظل فى حاجة إلى رعايتك حتى يتوظف حسنين وتتزوج نفيسة!

ـ ما توظفت إلا لهذا.

وسرت فى نفس نفيسة قشعريرة رعب، ونفذت كلمة «تتزوج» إلى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من خبيئتها. ألا يزال هذا الأمل يداعب أمها؟..

ألا تدرى أن الموت أحب إليها منه؟. ونظرت إلى وجه حسين بغرابة، إنه لا يدرى، وهيهات أن يخطر لهم هذا على بال. هيهات هيهات. وغابت الحجرة عن عينيها فخيل إليها أنها تراهم وقد أحدقوا بها فى ثورة جنونية و قد جحظت أعينهم ملتهبة بنار الغضب ثم انقضوا عليها كالوحوش. وهزت رأسها لتطرد عنها أشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت إلى حاضرها، ولكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها ساعات ضعفها تلك الساعات التى تذهل فيها عما يدفعها إلى تسليم نفسها من دواعى اليأس والفقر، هنالك تنسى كل شئ إلا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها أفظع تمثيل. تذكرت ساعات الضعف هذه وهى بينهم صامتة فعلاها خجل أليم وخوف لا قبل لها به، وعادت تردد بصرها بين أمها وشقيقيها بغرابة. ما يزال أمامها فرصة للتراجع، لا لرأب الصدع طبعا فقد ولى أوانه، ولكن...، رباه لا تدرى ماذا تقول، ما الفائدة؟، أى أمل قد بقى فى الحياة؟.. لقد قضى عليها بأن تقضى على نفسها..

واصلت الأم حديثها قائلة:

ـ انظر ماذا يلزمك من نقود كى تنهض بضرورات المعيشة وأرسل إلينا الفائض من مرتبك. لا بد من هذا يا حسين لأنه لم يعد يبقى لدينا ما يستحق البيع.

ـ سأبذل قصارى جهدى.

وتبدد أمل حسنين ـ أو كاد ـ من الفوز براتب شهرى من أخيه بعد أن طالبت الأم بالفائض من مرتبه. أجل لا يبعد أن تحس الأسرة بشىء من الترفيه. ولكنه يروى جفاف

يده، خاصة فى العطلة الصيفية الطويلة. ترى هل تطالبه أمه إذا وظف يوما ما بما تطالب به حسين؟. غير معقول. إذا انتهى هو من دراسته فستخفف أمه من أثقل واجبات الأسرة، ويسعه وقتذاك أن يتزوج وأن يعنى بأمر نفسه. إن نفيسة وحسين يتصديان للزوبعة فى إبانها، وقد وجد نحوهما عطفا ورثاء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظه.

ولم تفرغ الأم من الإفصاح عما يدور بنفسها كله، فودت لو تحذره من أن يستدرجه أحد إلى الزواج. ولم تكن تجهل أن كثيرا من الآباء والأمهات يتصيدون العزاب أمثاله فى غربتهم بسهولة: ولكنها لم تدر كيف توجه إليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذا!.. عدلت عن رغبتها كارهة، ولكن مطمئنة فى الوقت نفسه إلى رجاحة عقله وحسن تقديره. وتحدثوا طويلا ما شاء لهم الحديث. ثم جاء فريد أفندى محمد وأسرته لتوديع حسين. واستقبلوهم كما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور، فليس ثمة أحد إلا ويقدر مودتهم وكرمهم وحسن جيرتهم. أجل لعله طرأ على بعض النفوس تغير باطنى منذ تمت خطبة حسنين لبهية غير الرسمية، فالأم مثلا آمنت بأنهم رموا شباكهم حول الفتى قبل أن ينهض، وإنهم راموا باستئثارهم أشد آمالها تألقا، أما نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحب شخصا يطمح إلى امتلاك حسنين خاصة. ولكن هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثر فى رابطة الود والإخاء التى تجمع بين الأسرتين، ولم يكن من الهين أن تنسى الأم أيادى فريد أفندى ومروءته. وقد سر حسين بزيارة التوديع سرورا كبيرا، ووجد نحو الأسرة التى يحبها ـ الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق ـ امتنانا عميقا. وجرى الحديث بين ذكريات الماضى وآمال الحاضر لطيفا صادقا، مباركة عليك الوظيفة، تسافر مصحوبا بالسلامة، ستترك وراءك وحشة، لقد خسر سالم أستاذا لا يعوض، إلخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت برقة «تعود بالسلامة قريبا إن شاء الله» فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه «فتاة حسناء حقا، مهذبة محتشمة، وحسنين شاب رائع وسيكون زوجا رائعا. ترى ألم يقبّل هذا الثغر؟. طالما شكا تحصنها متذمرا فيالها من فتاة نادرة حقا. سأسافر غدا وتمسون صورا وذكريات، وستجتمعون كاجتماعكم هذا، وربما لا تذكروننى إلا قليلا، أو لا تذكروننى بتاتا، ولكن كيف أكون؟ وأين؟ وهل أملك مع وحدتى إلا أن أذكركم؟ كلما اشتد الدهر ازددت قوة وصبرا، ولأظلن هكذا إلى الأبد!..».

٤٨

غاب وجه حسنين فى زحمة المودعين، وتراجع سقف محطة مصر الهرمى حتى بدا من الداخل مظلما، كل شئ يتراجع بسرعة متزايدة، وداعا يا مصر. وعاد حسين برأسه إلى الداخل واعتدل فى جلسته وهو يغمض عينيه ليخفى دمعة رقيقة غالبت إرادته طويلا ورمش سريعا لينفض نداها عن أهدابه. وكان إلى يساره أفندى يتصفح جريدة على حين جلس قبالته قرويان يتجاذبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممتلئة إلا أن ضجة الراكبين كادت تعلو على صلصلة عجلات القطار، وذكر فى حزن مرطب بسرور أنه رأى دمعة فى عينى حسنين، أجل لقد تجلدا وهما يتحادثان على طوار المحطة، ولكن حين ترك القطار وأخذ الفتى يلوح بيده اغرورقت عيناه بالدموع. وفى البيت كانت نفيسة تبكى صراحة حتى التهبت عيناها، لشد ما يذكر وجهها ـ الذى حرمه الله نعمة الحسن ـ بعطف ورثاء وحنان، أما أمه ـ وقد ابتسم على رغمه ـ فقد ضمته إلى صدرها وقبلت خديه، ولعلها تفعل هذا لأول مرة، أو فى الأقل فهو لا يذكر أنها قبلته قبل هذه المرة..! لشد ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم، هذا طبعها، ولكن هيهات أن يطمس حنانها العميق. ولم تشأ أن تبكى وهى تودعه إذ أنها تتشاءم من دموع التوديع، ولكنه قرأ فى تقلص جفنيها نذيرا بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعا إذا واراه الباب عن عينيها. قال لنفسه لعلها بكت طويلا، ولعلها لا تزال تبكى، وشعر لهذا بكآبة وحزن. ولم يكن رآها تبكى قبل وفاة والده فاشتد تأثره، «يالها من امرأة عظيمة. شاء الله أن يبتلى أسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر أن تكون هذه المرأة أمنا. ماذا يكون مصيرنا لولاها؟. كيف غذتنا وكستنا؟ كيف سيطرت على توجيهنا؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا فى هذه الظروف القاسية؟ يالها من معجزة تحير العقول. حتى حسن أخى ففى ظنى أنه لولا المرحوم أبى لأمكن أن تجعل منه رجلا غير الرجل. آه.. لأقتصدن فى الكلام عن حسن. لولاه ما عرفت سبيلى إلى وظيفتى، نقوده هى كل مالى حتى آخر الشهر. الأساور؟.. ياللذكرى!. انس، ينبغى أن أنسى كى أعيش. سأقضى الدين يوما وأسدل الستار على أسوأ الذكريات». وأرسل بصره من النافذة فارا من أفكاره فرأى الحقول تترامى حتى الأفق، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء فى موجات متصلة، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض، وسوائم ترعى، وفوق هذا كله سماء الخريف متلفعة ببياض شاحب ينحسر فى أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية. ومر القطار بجدول صاف ذابت أشعة الشمس على سطحه

زئبقا يبهر الأعين. ورأى أسلاك البرق فى أمواجها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح فى الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة. ثم مد بصره كرة أخرى إلى الأرض المنبسطة، الصامتة الصابرة، الخيرة، فذكر دون وعى أمه!.. كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه!. لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنه لا تجد الثياب اللائقة!، وتغيمت عيناه فغابت عن ناظريه بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتى يرفه عن أمه المتصبرة وأسرته المتجلدة. «ياللعجب. إن مصر تأكل بنيها بلا رحمة. مع هذا يقال عنا إننا شعب راض. هذا لعمرى منتهى البؤس. أجل غاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا. هو الموت نفسه. لولا الفقر لواصلت تعليمى هل فى ذلك من شك؟. الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هذا وراثية. لست حاقدا ولكنى حزين. حزين على نفسى وعلى الملايين. لست فردا ولكننى أمة مظلومة، وهذا ما يولد فىّ روح المقاومة ويعزينى بنوع من السعادة لا أدرى كيف أسميه. كلا لست حاقدا ولا يائسا أيضا، وإذا كانت فرصة التعليم العالى قد أفلتت من يدى، فلن تفلت من يد حسنين، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب. سوف ترد الروح إلى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار» ولاحت منه التفاتة إلى يساره فوجد الأفندى الذى كان يتصفح الجريدة قد طواها ونظر إليه نظرة من ضاق بالوحدة والصمت، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داع ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية:

ـ لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء، من كان يتصور أن يجلس صدقى مع النحاس على مائدة واحدة؟

ورحب حسين بالحديث ليريح رأسه من أفكاره وقال:

ـ هذا حق يا سيدى.

ـ ومن كان يصدق أن يعترف الإنجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفظات الأربعة؟.. أتظن أن تلغى الامتيازات حقا؟

ـ أعتقد هذا.

فقال الرجل بسرور:

ـ سيحكم النحاس إلى الأبد. انتهى عهد الانقلابات. حضرتك وفدى.

ـ نعم..

ـ قرأت هذا فى سماحة وجهك. الوطنى هو الوفدى، وما الأحرار الدستوريون إلا إنجليز بطرابيش بصرف النظر عما يقال عن الائتلاف وفوائده.

ـ هذا حق لا شك فيه..

ـ حضرتك مسافر إلى الإسكندرية؟

ـ إلى طنطا فقط .

ـ شي الله يا سيد يا بدوى ، لقد عشت فى طنطا أعواما . .

ولاح الاهتمام فى وجه حسين فسأل :

ـ إنى موظف جديد ، فهلا دللتنى على فندق معتدل الأسعار يصلح للإقامة؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرا ثم قال :

ـ عليك بفندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل قسطندى .

يمكن أن تقيم فى حجرة نظير جنيه ونصف شهريا . .

ثم تحدثا طويلا عن الإقامة فى الفنادق وسكنى الشقق والمفاضلة بينهما . .

٤٩

كانت حجرته بالفندق صغيرة ، ذات فراش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبى ومشجب ، وكان جوها يشى بالرطوبة الكامنة ، إذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم ، فلم تجد الشمس سبيلا إليها . وكان يوجد بالفندق حجرات تطل على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الإيجار فعدل عنها إلى هذه الحجرة البسيطة قائلا لنفسه : «من العدل أن أعيش كما يعيشون فى عطفة نصر الله» . وكان أول ما فعل أن فتح النافذة وأطل منها مدفوعا بحب الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذى تتفرع منه ، ثم رأى جدار البيت الذى يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وأيقن بأنه لن يظفر فى وحدته بتسلية . وتحول عن النافذة إلى مرآة الصوان فطالع صورته فى هيئة غريبة ، بدا وجهه طويلا وقسماته شائهة إلى ما تناثر على صفحتها الباهتة من إفرازات الذباب ، فتضاحك وقال مخاطبا صورته «إنى أجمل منك بفضل الله ورحمته» ثم مضى يخلع ثيابه ، وارتدى جلبابه ، ورتب ملابسه القليلة فى الصوان الذى بدا على صغره فارغا ، والواقع أنه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية من نسختين ، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع ، وعلى سبيل الاطمئنان دس يده فى جيب الجاكتة وأخرج رزمة الجنيهات وعدها ثم أعادها إلى مكانها وقد عاودته ذكرياته الأليمة ، ثم ذهب إلى الفراش وتربع عليه . لا يدرى ماذا يفعل فى بقية النهار ، ولما لم يجد أحدا يحادثه ولا عملا يعمله فقد استسلم بكليته إلى التأملات والأحلام . وشعر بالوحدة والدهشة ، وأدرك أنه سيعانى مر العناء من فراغه . أجل إنه يحب القراءة ولكن

حتى إذا أمكنه ابتياع ما يريده من الكتب فسيظل لديه من الفراغ ما يضيق به . لم يألف الحياة فى هذا الصمت الثقيل وشعر فى وحدته الصامتة بأنه شىء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يأبه له أحد. أين صوت حسنين الحاد العصبى الذى لا يفتأ يضج بالضحك أو بالشكوى، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث . ولكنه لم يشأ الاستسلام لشعوره، وآثر أن يبحث شئون ميزانيته التى سينظم معيشته على أساسها، مرتبه سبعة جنيهات، مبلغ لا بأس به فى ذاته لولا ما يحدق به من ظروف . منه أجرة سكن ١٥٠ قرشا، ٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعداها بحال، فول للفطور، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للغداء، وحلاوة طحينية أو جبن للعشاء، وإذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرا للمتاعب والارتباك، إنه أعظم من هذا وبوسعه أن يقرر هذه الحقيقة الآن، وهو فى مأمن من معارضة حسنين، وأن تحمل المضايقة فى سبيل الحياة التى يرضى فيها عن نفسه لألذ من شهوة الطعام . ثم ٢٠٠ قرش لأمه، وهو قدر زهيد، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبق لنفقاته النثرية وكسائه إلا ١٥٠ قرشا فيما عدا الضرائب التى تخصم عادة من المرتب . ثم تساءل فيما يشبه الحيرة ألا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغا قليلا فى صندوق التوفير؟! . إنه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أى قدر كان، ولا يظن أن إنسانا احتضنته أم كأمه يستطيع أن يمارس الحياة بلا اقتصاد . والحق أن أمه بين النساء كألمانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شىء ولو كان زبالة . ! كانت ترقع البنطلون حتى إذا بلغ اليأس قلبته، فإذا أدركه اليأس مرة أخرى قصت أطرافه وجعلت منه سروالا داخليا، ثم تصنع من بعضه طاقية وتستعمل بقيته ممسحة . ولا يلفظه البيت إلا فتيتا . لا بد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر، وإن قسوة الحياة التى عضتهم بلا رحمة لحرية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم . وعندما بلغ هذا الحد من التفكير تداعت إلى نفسه مشـــاعر الخوف التى كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب والتى لم يكن من باعث لها إلا الفقر . أجل كانوا فى خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الإيراد المحدود، كأن يتعرض أحدهم للمرض، أو يجد من ناحية المدرسة طلب، أو تتعطل نفيسة عن الكسب ردحا من الزمن أو أو أو، مما لا يقف عند حد . أواه لشد ما يشعر بغمز الألم فى صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات، ومن خلالها يتراءى لعينيه وجه أمه المعروق الجاف كمثال حى للصبر والألم، أحب الوجوه إلى قلبه على بؤسه ودمامته، ومن عجب أن نفذت إلى نفسه ـ وقتذاك ـ نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنه بات قادرا على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها . أجل إنه من الغد موظف من موظفى الدولة، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظفا أيضا على درجة أعلى، وسيفاخر هو مدى الحياة بأنه قنع بشهادة متوسطة لييسر لأخيه الحصول على

شهادة عليا. ترى هل يذكر حسنين هذه العبر؟. إنه يبدو مشغولا بأمر نفسه عما عداها، ذكى بلا ريب، ومجتهد، بيد أنه.. آه فليمسك عن نقده فى غربته. فما أشد حنينه إليه، وما أكبر شوقه حتى إلى عناده وملاحاته. ومزق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه. وكان الفندق غير بعيد من المحطة، فلم يكن بد من أن تذكره القطر بين آن وآن بالقاهرة وأهلها. وعاودته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حنينا دافقا. ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال لنفسه يصبرها ويعزيها: لعلها ضريبة اليوم الأول للفراق ثم يهون الأمر رويدا رويدا. وتحير ماذا يفعل، هل يقضى سحابة اليوم فى هذه الحجرة أو ينطلق إلى الخارج ليجول جولة فى المدينة الجديدة، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط أداة النجاة على المتخبط بين الأمواج، وهو أن يكتب رسالة لأخيه. وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندى وحجرته وأشواقه ثم حمله تحياته إلى أمه ونفيسة ثم توقف متسائلا هل يهدى تحية إلى بهية؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندى؟ ثم آثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغى..

٥٠

وغادر حجرته فى الصباح الباكر، ولكنه وجد الخواجا ميشيل قسطندى جالسا إلى مكتبه البالى عند أسفل السلم. وقد سأله الرجل عما إذا كان يحتفظ بشىء ثمين فى حجرته، فابتسم حسين على رغمه وقال له «الأشياء الثمينة فى جيبى». وانطلق إلى الطريق، ثم قصد إلى مطعم فول فى نهايته كان عرف موقعه فى أثناء جولته أمس بالمدينة، وتناول فطوره، ولفت نظره بصفه خاصة سلطة حمص لم يعرف لها نظيرا فى القاهرة. وتمشى فى المدينة حتى التاسعة ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه إلى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميا. وقد اهتزت نفسه لمرأى المدرسة، وعاودته ذكريات قريبة حية لاحت فى عينيه كالحلم. وعرف البواب بشخصيته فمضى به إلى حجرة الباشكاتب وطلب إليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل. وجلس حسين على كرسى قريبا من المكتب وجعل ينظر خلال الباب المفتوح إلى فناء المدرسة فى جو يثقل عليه الصمت. بعد أسبوع يبدأ العام الدراسى وتمتلئ هذه المدرسة بحياة حارة. وذكر كيف كان ـ منذ أشهر ـ يقضى أسعد أوقاته بالمدرسة فى مثل هذا الفناء، وكيف كان يمتلئ خشوعا حيال أى موظف من موظفيها. إنه الآن أحد هؤلاء الموظفين، بيد أنه لم يستسلم للزهو. إن التلميذ حلم أما الموظف فحقيقة، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أما الموظف

فدرجة ثامنة لا أكثر. ولم يطل به الانتظار فما عتم أن صكت أذنيه سعلة غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة، ورأى على الأثر رجلا يقتحم الحجرة مهرولا، قصير القامة، رقيق الجسم، كروى الوجه، أعمش العينين. تعلوه صلعة ناصعة البياض، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يجفف صلعته بمنديل باليد الأخرى، وما أن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، كيف طلعت هنا؟.. هل بت ليلتك فى حجرتى؟.. تلميذ مستجد!؟

فوقف حسين مرتبكا وقال:

ـ أنا يا بيك الكاتب الجديد حسين كامل على..

فقهقه الرجل ضاحكا. ولكن أدركه السعال وعاودته النحنحة فامتلأ فمه مرة أخرى ونظر حوله فى حيرة، ثم جرى إلى الخارج، وغاب نصف دقيقة ثم عاد أحسن حالا وهو يقول كالمعتذر:

ـ لعن الله البرد، أصاب به كل مطلع فصل من فصول السنة فتجدنى فى حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة، لا مؤاخذة يا حسين أفندى السلام عليكم أولا..

فمد حسين يده مبتسما وهو يرد تحيته بأحسن منها، ثم جلس الرجل إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس فجلس، وأنشأ الباشكاتب يقول:

ـ اسمى حسان حسان حسان. العادة فى أسرتنا أن يتسمى الابن الأكبر باسم أبيه، ألم تسمع بأسرة حسان بالبحيرة.؟ كلا!؟.. كلا كلا يا سيدى، الله الغنى، التلاميذ الكلاب يدعوننى بحسان أس ٣.

فضحك حسين ملء قلبه، ولكن الرجل حدجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال:

ـ علام تضحك؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ؟ وبهذه المناسبة أقول لك إنى رجل عصبى جدا ولكن قلبى طيب. وكثيرا ما ألعن أبا أحسن واحد، بلا قصد سيئ ومع الاحترام الكلى للشخص الملعون!. فافهمنى ولا تنس أنى فى سن والدك!

فقال حسين فى ارتباك شديد:

ـ لن يحصل بيننا ما يثير الغضب إن شاء الله.

ـ إن شاء الله. أحببت أن أعرفك بنفسى، هذا كل ما هنالك. إنى ألعن نفسى، كثيرا. اللعن مريح فى أحايين لا حصر لها، ولولاه لمات كثيرون كمدا. ستعلم عما قريب معنى العمل فى مدرسة «ثم متنهدا» وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة

(وبحث عنه فى أوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦ . وقد جئتنا ونحن فى أشد الحاجة إليك، وستبدأ الآن فى مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات. لقد تزوج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة إلى القاهرة. حضرتك متزوج يا حسين أفندى؟

فقال حسين مبتسما :

ـ كنت تلميذاً حتى الربيع الماضى!

ـ وهل تظن أن التلمذة مانعة من الزواج؟ لقد تزوجت وأنا تلميذ بالثانوى، وهذه أيضا من عادات أسرتنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه، وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صدقى باشا لا سامحه الله . .

فنظر حسين متسائلا، فاستطرد الرجل فى حزن قائلا :

ـ والدى حسان بك افندى وفدى كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفدية، وقد طالبه صدقى باشا أثناء حكمه المشئوم بالانفصال عن الوفد ولما أبى كما ينتظر منه حرمه معونة بنك التسليف فى عز الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة.

فقال حسين :

ـ ولكن النحاس قد عاد إلى الوزارة؟

ـ ولكن الأرض ضاعت. والأدهى من هذا كله أن صدقى انضم إلى الوطنيين وقد خطب أول هذا العام فى مستقبليه بدسوق فبلغهم تحيات «زعيمى النحاس» يا خسارتك يا حسان حسان حسان!

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم :

ـ ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيرا . .

فهز الرجل رأسه، وسكت دقيقة، ثم قال :

ـ حظك سعيد إذ عينت فى المدرسة بعد أن ولى عهد الإضراب. كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقى باشا. أين تقيم يا حسين أفندى؟

ـ فى فندق بريطانيا.

ـ فندق؟! . خيبك الله، معذرة، أعنى سامحك الله، الفنادق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورا عن شقة صغيرة.

ـ ولكنى لم أحمل معى أثاثا؟

فتفكر حسان أفندى وهو يقرض أظافره باهتمام طارئ ثم قال :

ـ فرش حجرة لن يكلفك كثيرا ويمكن أن تؤدى ثمنه مقسطا بضمانتى إذا شئت . .

وعاود التفكير وهو يتفرس وجه الشاب واستطرد :

ـ توجد شقة مكونة من حجرتين على سطح البيت الذى أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك؟

ثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الإيجار فقال :

ـ سأفكر فى الأمر جديا . .

ـ الأمر واضح مثل ١+١=٢ والآن هلم إلى العمل فإن الأوراق أكوام مذ تزوج ابن القديمة ونقل إلى القاهرة . .

٥١

وقرر حسين أفندى أن يبقى فى الفندق حتى يتسلم مرتبه أول الشهر الجديد، وأخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال إلى شقة خاصة يتهيأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل. وكان حسان أفندى دائبا على تزيين فضائل الإقامة فى شقة له، حتى هل الشهر الجديد فابتاع له فراشا وصوانا صغيرا ومقعدا بحوالى الجنيهين تم الاتفاق على أدائها على أربعة أقساط بضمان حسان أفندى، ولما كان إيجار الشقة جنيها فلم تزد نفقاته شيئا. وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذى يقيم حسان أفندى بطبقته الوسطى، وكانت مكونة من حجرتين غير المرافق. فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة إليها وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع ولى الله ـ حيث يوجد مدخل البيت ـ وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عما حولها، فشعر الفتى ـ بعد ضيق ـ براحة الفضاء وطلاقة الجو، وسر لذلك كثيرا. وكان يوم انتقاله إلى الشقة الجديدة يوما سعيدا حقا، إذ أنه وجد نفسه ـ لأول مرة فى حياته ـ صاحب بيت وأثاث ومرتب. ولم يكن نسى ذلك الإحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذى انبعث فى نفسه وهو يتسلم مرتبه صباح ذلك اليوم، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه إلى شفتيه حياء أن يَطّلع الصراف على فرحه، ولكن هذا السرور كله لا يعد شيئا إلى السرور الذى امتلأ به قلبه وهو يبعث بالجنيهين إلى أمه، كانت لحظة عظيمة عرف اثناءها أن صبره الطويل لم يذهب سدى. وما كاد يستقر به المقام حتى زاره حسان أفندى مهنئا وقال له «لن تكون غريبا ما دمت بيننا» فشكر له فضله وحفظ له فى نفسه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور، وغفر له ما يلقى منه فى المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك فى العمل، والحق أنه قد ألف هوسه متعزيا بطيبة قلبه وخفة روحه،

ولم يرض حسان أفندى أن يتركه منفردا ودعاه إلى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه مغتبطا وجلسا معا وحسان أفندى يقول :

ـ يبدو لى أنك لا تحب المقاهى فاجعل من هذه الشرفة ناديك الليلى . .

وكانت الشرفة مهيأة للجلسة الطيبة ففى جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش بينهما خوان وفى الجانب الآخر شلتة كبيرة تقوم وراءها وسادة ، وعلى خوان فى ركن من الشرفة وضعت صينية صفت بها قلتان وإبريق وقد عام على الماء المجتمع فى وسطها الليمون البنزهير ، وراح حسان أفندى يتحدث بلا توقف تقريبا وكيفما اتفق ، وقد بدا فى جلبابه الفضفاض أصغر منه فى البدلة فلم يكن شيئا يذكر ، أو كان لسانا فحسب . ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ فى الأسابيع الماضية ، فلم يكن يدرى ماذا يفعل بالوقت ، ولم تنفع القراءة فى تزجية فراغه إلا قليلا ، لا لأنه كان يضيق بها ولكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فاكتفى مضطرا بكتاب غير الجريدة اليومية . وجرب الاختلاف إلى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف أن يجره إلى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدى ، وكان بطبعه حريصا ، لهذا كله رحب بدعوة حسان أفندى وصدقت نيته على أن يجعل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا . وتأدى الحديث إلى الشقة الجديدة فقال حسان أفندى :

ـ لا يهمك تنظيف شقتك فقد أمرت الخادم بأن يتعهدها بالتنظيف كل صباح ، وسوف أوصى غسالة تعرفها «الجماعة» بأن تذهب إليك كل يوم جمعة .

فشكر حسين صنيعه فى حياء وتأثر ، ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه ، ولأن قيام الخادم بهذه اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذى لا يمكن أن يتقبله بارتياح .

وضحك حسان أفندى بسرور ثم قال :

ـ أما مفاجأة المفاجآت التى أعدها لك فهى النرد . . هل تجيد لعبها؟

فقال حسين بسرور :

ـ بعض الإجادة . .

فغادر الرجل الشرفة فى حماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبيانى :

ـ أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحرى ، وربما القبلى أيضا . .

سر حسين حقا بهذه التسلية التى لم يكن يتوقعها وتساءل :

ـ عادة أم حبس؟

فقال حسان أفندى بثقة :

ـ اختر لنفسك ما تشاء، إنك على الحالين لمغلوب . .

وبدءا يلعبان. وقد اتضح لحسين أن حسان أفندى يرش وجه المستمع إليه عن قرب برذاذ ريقه إذا حادثه فأمل أن يلهيه اللعب عن الكلام، ولكنه كان يواصل اللعب والكلام معًا، وكان اللعب نفسه يهيئ له فرصا لا تنتهى للثرثرة فكان يعلق على أية نقلة للقطع مزهوا بلعبه ساخرا من لعب الشاب، ثم صاح بعد أن غلبه أول عشرة :

ـ العن سوء الحظ الذى رمى بك بين يدى، وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حيا . .

وعادا للعب بحماس وتحفز، وانهمك فيه حسين انهماكا شديدًا فلم يفق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فرأى فتاة تحمل بين يديها صينية شاى، وسرعان ما استرد بصره فى حياء وارتبك لأنه أدرك من أول نظرة أن الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة. وأحس بشخصها إحساسا غامضا وهو ينحنى قليلا ليضع الصينية على كرسى خيزران، ثم به وهو يذهب مبتعدا. ولم يكن بصره قد ارتد عنها فارغا، أجل علقت به صورة وجه ممتلئ يميل إلى البياض، وعينين سوداوين ـ أو لعلهما عسليتان؟ ـ ذواتى نظرة مليحة. ولبث فى ارتباكه مورد الوجه على حين أمسك حسان أفندى عن ثرثرته بغتة، ثم عاد يقول بصوت منخفض :

ـ هذه ابنتى إحسان، لم أر بأسا فى أن تقدم لنا الشاى مادمت أعدك كأحد أبنائى . .

وحرك حسين شفتيه كأنه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة، وقال حسان أفندى وهو يصب الشاى فى القدحين :

ـ البنت فى البيت نعمة كبرى، لقد تزوج أخواتها واحدة فى القاهرة واثنتان فى دمنهور ولم يبق غيرها!

تمتم حسين فى ارتباك :

ـ ربنا يفرحك بها . .

ومضيا يحتسيان الشاى فى صمت. وأخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفا وراءه شعورا بالحرج لم يدر له سببًا واضحا، أو لعله تهرب من السبب وتجاهله. ووجد إلى هذا أنه لا يزال متأثرا بما علق فى مخيلته من صورة الفتاة على غموضها، تأثرا يعرفه فى نفسه حيال أية فتاة ولا دلالة خاصة له سوى أنه انفعال مكتوب على كل شاب بصفة عامة، وكل شاب بكر بصفة خاصة، ولعل انبعاثه هذه المرة فى بيت ـ لا فى الطريق ولا فى الترام ـ هو الذى أشاعه فى جو من الحيرة والبهجة والعمق. وكان حتما أن يفكر فى أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر، ولبث حسان أفندى يراقبه صامتا، ثم ضاق بالصمت فقال :

ـ اشرب شايك وتأهب للعشرة الآتية، وقعت فى مخالبى ولا نجاة لك.

٥٢

كانت على درجة من الحسن تسوّغ تأثره، وقد صدق ظنه فيما تلا من أيام وأسابيع فرآها فى الطريق بصحبة أمها، ولمحها فى البيت أكثر من مرة. ومن حسن الحظ أنها لم ترث من هيئة أبيها إلا خديه المتنفخين، ولكنهما جعلا لها طابعا خاصا ولم يقبحا وجهها. وأدرك بسهولة أن شقة حسان أفندى باتت تجذبه إليها بقوة لا يبررها نشدان التسلية وحده. وكان يمتلئ شبابا وحيوية، فكأن قلبه كان ينتظر أول طارق، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والإعجاب، فرامها أنسا لوحشته وريا لظمئه، ولكن لم تغب عنه دقة موقفه لحظة واحدة من بادئ الأمر فلم يكن يغفل عن متاعبه ولم يدر له بخلد أن يتراخىَ فى القيام بواجبه، بيد أنه لم يعالج أمره بالحزم، وكان هذا فوق طاقته، وكان عليه أن يختار بين الإغضاء من ناحية وبين الانزواء فى حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل. واشتدت به الحيرة، وفكر مرارا فى العودة إلى الفندق منتحلا عذرا من الأعذار، ولكنه لم يفعل، ثم وجد نفسه يسلم للأقدار تاركا لها الأمر كله تقضى فيه بقضائها. وتواصلت الأيام دون أن يجد جديد، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قط، أما حسان أفندى فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كله. وفى أثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسنين التى لا تترك كبيرة ولا صغيرة، فكأنه يواصل حياته بينهم، ويشاركهم عواطفهم جميعا. وقد أخبره بأن أمه قررت أن ترصد النقود التى يرسلها لضرورات الكساء وحده، وأنه ظفر منها بجاكتة جديدة يرتديها مع البنطلون القديم، وأنها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفئا تستغنى به عن الملابس الصوفية، وكان من نتائج ذلك ـ رصد نقوده لضرورات الكساء ـ أنهم لم يستطيعوا الانتفاع بها فى تحسين حالهم الغذائية التى ظلت على ما يعلم من التفاهة والسوء. وحدثه عن نفيسة فقال إنها تظفر من آن لآن بتقدم يسير وأن الأم لم تعد تستولى على جل كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نقوده، فتوفر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كى تظهر أمام الناس بالمظهر اللائق بهم. أما حسن فيبدو أن حياته الجديدة تستأثر به استئثارا شغله عنهم، أو لعله ظن بعد توظفه ـ حسين ـ أنهم لم يعودوا بحاجة إليه فانقطع عنهم انقطاعا كليا. وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا فى نهاية العام قائلا إنه يستبسل فى مذاكراته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه. وفى آخر رسالة وردت منه تودد إلى أخيه توددا كبيرا ثم سأله فى ختامها هل يطمع أن يمده بثمن بنطلون منجما على أشهر ثلاثة نظرا لأن الجاكتة الجديدة قد فقدت

بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرا، لا يدرى إن كان يستطيع أن يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذى يودعه صندوق التوفير. لكن فيم يفكر وهو يعلم بأنه لن يخيب لحسنين رجاء؟. ربما كان بوسعه أن يزجره لو لم يفرق بينهما هذا البعاد، ولكن البعاد رقق قلبه وجعل حنينه إلى أهله قوة لا تقاوم. أجل إنه حريص لا يرحب بتاتا ببعثرة النقود، لكن حرصه يتخلى عنه بلا عناء كبير إذا كان البذل لأهله. لن يضيره التقتير على نفسه ثلاثة أشهر كثيرا فى سبيل إرضاء حسنين. إنه يعرفه حق المعرفة، ويعلم بأنه يعد ما يقدم من خير واجبا على الآخرين، فإذا لم يسعفه بالبنطلون نسى فى حنقه صنيع الجاكتة. ووجد إلى هذا شعورا غريبا يدفعه إلى أن يغمر بجميله الفتى الذى يؤمن بأنه سيكون له مستقبل باهر غدا. لقد ضحى بمستقبله فى سبيله وينبغى أن تكون التضحية كاملة. وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنه الضحية الصابرة على الأقدار التى تجهمت لهم، وأنه الدرع الذى يتلقى الضربات دون أن يتحطم، إنه عزاء يستمد منه قوة وسرورا، ويضفى على حياته معنى خلقيا باهرا.

ثم حدث ما لم يقع له فى حسبان ـ هكذا قال لنفسه وإن لم يكن صادقا ـ إذ كان يوما يجالس حسان أفندى ويتنازعان الحديث كالعادة، فسأله الرجل:

ألم تفكر فى الزواج؟

فاضطرب الشاب، وشعر بما يشبه الذعر، ثم غمغم قائلا:

ـ كلا..

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرا وقال:

ـ وفيم تفكر إذن؟ ولماذا تعيش؟ هل تظن للرجل من غاية، خاصة إذا اطمأن جانبه بالوظيفة، سوى الزواج؟

وتردد حسين قليلا ثم قال:

ـ علىَّ واجبات خليقة بالتقديم عما عداها.

ثم صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة أحيانا حتى يقوى مركزه حياله، وأصغى الرجل إليه باهتمام حتى انتهى من قصته ولكنه لم يبد عليه الاقتناع ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانيه، ثم هز رأسه الأصلع باستهانة وقال:

ـ أراك تبالغ فى تقدير خطورة الحال. حسبك الصبر حتى يحصل أخوك على البكالوريا، ثم تكون فى حل من التحرر من مسئوليتك، وعليه هو أن يتوظف بدوره. النحاس باشا نفسه تزوج فهل ترى نفسك أكبر مسئولية منه؟

فضحك حسين فى ارتباك وقال:

ـ ولكن أخى مصمم على استكمال تعليمه . .

فعاد الرجل يقول هازئا :

ـ اسمع إذا كانت لك أهداف فى الحياة كإعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلا فالأخلق بك أن تؤجل زواجك، ولكن دستور ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوج . ؟ يجب أن تتزوج فى نهاية هذا العام حال توظف أخيك، أما إذا أصر على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحق لها أن تعارض فى زواجك، أجل لا يحق لها أن تدلل واحدا على حساب حرمان الآخر من حقه الأول فى الحياة .

ووجد حسين حديث الرجل مؤثرا أكثر منه مقنعا، ولكنه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة، فقال :

ـ أعتقد أنه من الممكن أن أحقق آمالى دون أن أقضى على آمال أخى .

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معين فى الظاهر ولكن التفاهم الصامت عن الهدف كان تاما بينهما، وسبقت إليه إشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كل مساء، وكأن حسين لم يشأ أن يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال فى حياء شديد :

ـ وأظن آنسة إحسان لم تُعد أولى خطى الشباب . .

ـ إحسان صغيرة طبعا ولكن الزواج لم يخلق للكبار . .

لم يتقدم الموقف عن هذا الحد فيما تلا ذلك من أيام حتى اقترح حسان أفندى أن يقدمه لبعض أقاربه فى حفل عائلى فلم يسع حسين إلا القبول. وخجل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذى لا يسر حبيبا، وركبه فجأة ما يشبه الجنون ـ هكذا وصفه فيما بعد ـ ففصل بدلة جديدة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا إلى هذا كله بعواطفه ونزوته الطارئة حتى إذا جاء أول الشهر أدرك أنه من المستحيل أن يرسل النقود إلى أمه وأرسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه إن مرضا ألم به وإنه أنفق فى العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة. وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعا فى أعماقه بأنه هوى من خطأ إلى خطأ، وأن تعاقب الأخطاء قد أفقده اتزان التفكير وسداد الرأى فلم يحسن حتى اختلاق العذر . .

٥٣

ثم كان يوم الخميس، وكان حسين مستلقيا على فراشه يقرأ جريدة الصباح التى يحتفظ بها عادة لوقت العصر، فسمع دقا على الباب فظنه خادم حسان أفندى ومضى

إلى الباب وفتحه وإذ به يرى أمه أمامه. أجل أمه دون غيرها، ففغر فاه دهشة، ثم أخذ يدها بين يديه هاتفا:

ـ أماه!.. فى طنطا! لا أكاد أصدق عينى!

وشد على يدها، ثم قبل خديها أو تبادلا بالأحرى قبلتين، وفى طريقهما إلى حجرته سألها بدهشة:

ـ لماذا لم يخبرنى حسنين بحضورك كى أنتظرك فى المحطة؟

فجلست المرأة على الكرسى الذى قدمه لها وهى تقول مبتسمة:

ـ لم أجد صعوبة تذكر فى الاهتداء إلى مسكنك، إن الاهتداء إلى مسكن فى شبرا أشق من هذا بكثير. وقد اقترح حسنين أن أنتظر حتى يخبرك عن حضورى برسالة خاصة ولكنى لم أجد داعيا لإزعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء فى القاهرة وأنا أعلم أنك هنا وحيد ومريض..

مريض!.. أيقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه، ولكنه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:

ـ يؤسفنى أننى أزعجتك يا أماه، ولكن ما كنت أطمع فى هذه النتيجة السارة وهى حضورك بنفسك!..

وجعلت تتفحصه بعناية بوجه ينم عن إشفاق ورحمة ثم قالت:

ـ ماذا بك يا بنى؟.. كيف حالك؟.. حدثنى عن مرضك؟!

وداخله ارتباك بذل قصاراه كى لا تلوح أماراته فى وجهه. وكان واثقا من أن مظهره لا يشى بمرض، بل لم يكن يخفى عليه أن صحته تقدمت تقدما ملموسا منذ توظفه لتحسن حالته الغذائية بصفة عامة، قال ببساطة:

ـ لا شىء ذا بال. أصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم تلازمنى أكثر من يوم وبضع يوم.. فقالت وعيناها لا تتحولان عنه:

ـ لشد ما انزعجنا جميعا خصوصا وأنك طمأنتنا على صحتك فى خطابك الأسبق..

ثم استدركت بعد وقفة قصيرة:

ـ وتوهمنا فى الأمر خطورة، والعياذ بالله، لما رأينا من اضطرارك قطع نقود هذا الشهر عنا..

وشعر بمثل شكة الإبرة فى نفسه، وقال بعجلة مبتسما ابتسامة باهتة:

ـ اضطررت إلى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهين وأنت تعلمين بأنه ليس لدى احتياطى للطوارئ!

ـ لا عليك من هذا إنى مسرورة لأنى وجدتك فى صحة جيدة، ويحسن لك أن تبعث برسالة فى الحال إلى أخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما فى أشد حالات القلق . .

ثم ألقت نظرة متفحصة على حجرته، فعلق بصرها بالبدلة الجديدة على المشجب فى خوف وقلق وتهيأ عقله لاختلاق كذبة جديدة، ولكنها قالت :

ـ حجرتك نظيفة وأثاثها جيد. هلم أرنى شقتك . .

فضحك حسين قائلا :

ـ ليست شقتى إلا هذه الحجرة، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها .

ـ كأنك تستأجر حجرة بإيجار شقة ! . . ألم يكن الفندق أفضل ؟ . .

ـ على العكس فإن إيجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشا .

ـ أخبرتنا بأنك لم تحتج إلى خادم أفلا يتعبك تنظيفها ؟

ـ كلا، هذا على هين كما تعلمين !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

ـ يبدو لى أنك مرتاح ومسرور يابنى، ولذا فأنا سعيدة .

وخيل إليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق :

ـ أنا السعيد يا أماه، وسأستأثر بك شهرا كاملاً .

فما تمالكت أن ضحكت وقالت :

ـ بل هذه الليلة فحسب. ليس لى مكان أنام فيه، وسأكلفك أكثر مما تحتمل مادمت تجئ بطعامك من السوق .

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام إليه. وسمعت الأم صوتا يقول بلهجة ريفية «سيدى حسان يسأل عما أخرك اليوم» ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة، وأغلق الباب وعاد الشاب إلى مجلسه من الفراش فوجد أمه تنظر إليه بعينين متسائلتين فقال :

ـ خادم جارى حسان أفندى باشكاتب المدرسة . .

وكانت تعلم من رسالته أنه الرجل الذى أقنعه بالانتقال إلى الشقة وعاونه على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت :

ـ يبدو من قول الخادم أنك تمضى عنده فراغك .

وتوهم لحظة أنها مطلعة على سره كله فقال دون أن ينظر إليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعابه وتعترض زوره :

ـ كثيرا ما أفعل . إنه رجل طيب وهو إلى هذا رئيسى وقد وجدت فى صحبته ما أغنانى عن المقاهى و «مفاسدها» . . لا بد للإنسان من تسلية يزجى بها فراغه . .

ثم قامت الأم إلى الحمام فغسلت وجهها ، وخلعت معطفها فتناوله حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر الزيارة بسلام . أجل قد تولاه القلق وخاف على سره الافتضاح واضطرب لوجودها فى موطن هذا السر فلعن الظروف السخيفة التى أجبرته على منع النقود عنها . وعادت المرأة إلى مجلسها وأخذت تسائله عن أحواله وحياته ، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلا لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحنق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها :

ـ الست الكبيرة ترغب فى أن تحيى الست والدتك .

ونهضت الأم مسرعة وخرجت إلى الردهة وقالت للخادم :

ـ لا يوجد مكان هنا لاستقبالها ، سأزورها بنفسى . .

وذهب الخادم فعادا إلى الحجرة وحسين يقول :

ـ لا داعى لهذه الزيارة ، ولا يجوز أن نفترق دقيقة واحدة فى المدة القصيرة التى تمكثينها هنا .

فتنهدت قائلة :

مجاملات لا بد منها ، ولا يخفى عليك أنه يهمنى أن أجامل أسرة رئيسك . .

وعاودا حديثهما ردحا من الزمن حتى خفت حدة النور وأقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدى معطفها قائلة «آن لى أن أزور حرم جارك» وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتى غادرت الشقة ، ثم تنهد من الأعماق وتساءل «ترى هل يساورها شك؟ . . كيف تنتهى هذه الرحلة؟ !» .

٥٤

ولبث وحده مغتما قلقا ، وتزايد قلقه بمرور الوقت ، ثم لم يعد يشك فى افتضاح سره ، ثم تساءل مدافعا عن نفسه فيم هذا الوهم كله؟ ! عسى أن يمر كل شئ فى سلام ، لا يمكن أن يلمحوا إلى شئ ، هذا مؤكد ، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة إذا رأت إحسان؟ . وتنبه إلى زحف الظلام وأشعل المصباح الغازى ، ثم سمع الباب يدق فدق قلبه معه فى عنف ومضى إليه ففتحه فدخلت أمه وهى تقول :

ـ لا أظننى غبت كثيرا .

وعاد إلى الحجرة فوقف هو مستندا إلى حافة النافذة وراحت هي تخلع معطفها وحذاءها في صمت، وجعل يقول لنفسه «وراء هذا الوجه شيء، بل أشياء، إني أعرف هذا. أراهن على أنها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتي. ليست أمي بالأم الضعيفة، إنها حنونة حقا ولكنها قوية ما في هذا من شك. ما أفظع هذا الصمت، متى ينقطع؟» وسألها متظاهرا بعدم الاكتراث:

ـ كيف وجدتهم؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت باقتضاب:

ـ لا أدري لماذا لم يرتح قلبي إليهم!

إنه يدري لماذا، برح الخفاء، ووقع المحذور. وقال:

ـ الحق أن حسان أفندي رجل طيب..

ـ ربما. لم أقابله بطبيعة الحال..

لن يسألها عما لم ترتح إليه منهم. فليتجاهل المسألة، ولن يطول هذا طويلا على أية حال. ووجدها تنظر إلى يديها اللتين شبكتهما على حجرها. إنها تفكر فيما ينبغي قوله. لشد ما أخطأ. ما كان ينبغي أن يستسلم لإغراء الظروف التي انتهت بمنع إرسال نقوده هذا الشهر. كيف ضل عائل الأسرة؟!. ورأى أمه ترنو إليه بطرف واجم ثم تقول:

ـ أما وقد اطمأننت عليك فلا أظن أن يخجلني أن أصارحك بأن منع النقود عنا قد أخافني. اعذرني يا بني إذا اعترفت لك بأنه ساورني بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار!

فصاح وهو لا يدري:

ـ أماه!

ـ معذرة يا بني إن بعض الظن إثم، ولكني كنت أفكر طويلا فيما يمكن أن يلقى شاب وحيد في بلد غريب. أجل إني أومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فخفت أن يكون أضلك، ولا تسل عن حزني وأنت تعلم بأني أعتمد بعد الله عليك. أخوك حسن لم يعد منا، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ، وحسنين تلميذ وسيظل تلميذا طويلا، وأنت أدرى به؟ وإنا لنشقى ونجوع في مغالبة حظنا، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب أخيك منه.

فقال حسين بانفعال:

ـ لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا يا أماه، لقد أخطأت.. اضطررت إلى منع النقود اضطراراً لا حيلة لي فيه. إني جد حزين يا أماه.

فقالت برقة وكأنها تحدث نفسها :

ـ أنا الحزينة . .

ثم استطردت بعد لحظة صمت :

ـ أنا الحزينة لأنى أبدو كثيرا وكأنى أحول بين أبنائى وبين سعادتهم!

فقال بقلق :

ـ لشد ما تظلمين نفسك ، أنت أم رحيمة كأحسن ما تكون الأم رحمة . .

ـ يسرنى أنك تفهمنى يا بنى .

وتنهدت وهى تنظر فى عينيه ثم قالت :

ـ لا يقلقنى شىء فى حياتى كما يقلقنى مستقبل أختك نفيسة . أود لو أغمض عينى ثم أفتحهما فأجدها فى بيت زوجها . ولكن كيف؟! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها . أنتم رجال أما هى فمن الولايا اللاتى لا نصير لهن .

فصاح حسين مستنكرا :

ـ لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة . .

فتنهدت مرة أخرى قائلة :

ـ مد الله فى أعماركم ، ولكن الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج!

ولاحت فى عينيه نظرة ذات معنى . إنه يفهم ما يقال . إذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج ، ومادام حسنين فى حكم المتزوجين ، فلا يجوز له أن يتزوج! . منطق معقول! ورحيم أيضا! ، بيد أنه ينطوى على حكم بالإعدام . ما عسى أن يقول؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضربا كما كانت تفعل أحيانا ، ولكنه لن يتخذ من هذا الأمان مسوغا لإغضابها ، وعلى العكس سيتخذ منه دافعا بريئا للمبالغة فى إكرامها . وقال بهدوء :

ـ اطمئنى يا أماه . أرجو ألا تجد نفيسة نفسها يوما فى هذا المأزق! .

فهزت رأسها هزة كأنها تقول له لندع المداراة جانبا ولنتكاشف ثم قالت :

ـ الحق لقد ألحت علىّ بعض الخواطر فلم أجد فرجة إلا فى أن أسافر إليك على مشقة السفر وكثرة النفقات .

فابتسم بلا وعى تقريبا :

ـ إذن لم تحضرى كى تطمئنى على صحتى!

وندم فى اللحظة التالية على إفلات هذا القول منه، ولكنها ابتسمت إليه ابتسامة حزينة وقالت:

ـ اصغ إلى يا حسين، أترغب فى أن تتزوج؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفى اضطرابه وقال:

ـ إنى أعجب لما يدعوك إلى هذا الظن!

ـ ليس أحب إلى من أراكم أزواجا سعداء، ولكن هل ترغب فى أن تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها؟

ـ لم أفكر فى هذا مطلقا..

ـ ألا يضايقك تطفلى هذا؟

ـ مطلقا!

ـ وإذا اقترحت عليك أن تؤجل التفكير فى الزواج، ألا تجد فى اقتراحى ظلما؟

ـ هو عين العدل والرحمة..

فخفضت عينيها قائلة فى حزن:

ـ ليس شقائى الحق فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجبا مما يبدو لعين المتعجل قسوة وأنانية..

ـ لست هذا المتعجل على أية حال!

فترددت لحظة ثم قالت:

ـ إن ما أراه من حسن تقبلك لكلامى يشجعنى على أن أنصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود إلى حجرتك بالفندق.

برح الخفاء! وأصيب بذهول، ثم غمغم متسائلا:

ـ الفندق؟!

فقالت بحزم:

ـ أنت لا تدرى من أمر الناس شيئا. ولعل جيرانك أناس طيبون ولكنهم لا يحفلون إلا بمصلحتهم. وإذا حافظت على جيرتهم كرهتنا وأنت لا تدرى؟

٥٥

ولم يعودا إلى هذا الحديث مرة أخرى فلم تكن الثرثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء. وقد قضيا صباح الجمعة فى سعادة شاملة، حينا فى البيت، ثم انطلقا فى

المدينة لزيارة السيد البدوى، ولكنها صممت على الذهاب إلى المحطة مع الضحى فلم يسعه إلا الإذعان لها مرغما. وذهبا معا وقطع لها تذكرة، وفى أثناء انتظار القطار قال لها:

ـ سأبقى فى البيت حتى نهاية الشهر لأنى دفعت الإيجار كما تعلمين..

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد، ثم جاء القطار فودعته وصعدت إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين، وغشيته كآبة ثقيلة، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة فى حياته، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قوية، ولأنه عز عليه أن يراها منزوية فى العربة الحقيرة وسط البؤس والبائسين، وعاد إلى البيت كثير الهم والفكر. «أنا الملوم. إنى أدفع ثمن حماقتى. أى شيطان يخصنى بعنايته؟. هذه هى المرة الثانية، الخيبة تلاحقنى دائما، لا مفر». وجاءه خادم حسان أفندى يدعو والدته إلى الغداء فأخبره بأنها سافرت إلى القاهرة. وجاءه مرة أخرى فى المساء يدعوه إلى السهرة المعتادة فلم يسعه إلا الذهاب.

وجلسا حول خوان النرد فى الحجرة بعد أن أحكم الشتاء إغلاق الشرفة.

وسأله حسان أفندى:

ـ كيف عادت والدتك بهذه السرعة؟

فأجاب حسين مبتسما:

ـ لا يمكن أن يستغنى عنها بيتنا أكثر من يوم..

ـ تجئ الخميس وتذهب الجمعة؟!.. رحلة لا تستحق مشقة القطار!

ـ ولكنها حققت لها ما تريد فاطمأنت علىّ وتبركت بزيارة السيد..

وأشار الرجل إلى داخل الشقة قائلا:

ـ قالوا لى إنها ست طيبة جداً.

ـ بعض ما عندكم..

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيه العمشاوين.

ـ كنا نود لو زارتنا قبل الرحيل!

ـ كانت متعجلة، وقد حاولت أن أؤخر سفرها إلى العصر ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا إليها..

فقال الرجل بأسف:

ـ وأعددنا لها غداء طيبا فاخترت لها بنفسى ثلاث دجاجات مسمنة..

فابتسم حسين فى ارتباك وتمتم:

ـ بالهنا والشفا لكم . .

وضحك الرجل، ثم فتح النرد ولكنه بدلا من أن يشرع فى إعداد القطع للعب سأله باهتمام :

ـ ألم تفاتحها بما «اتفقنا» عليه؟

فشعر حسنين بحرج ولكنه قال :

ـ كلا . .

ـ لمه؟

ـ إنها تعدنى رجل بيتها فكيف أفاتحها بهذا؟

فتناول الرجل زهر النرد فى قبضته وهزه ورماه، ثم قال :

ـ أنت رجل خواف . كانت أمك خليقة بأن تفرح لهذا النبأ .

ـ إنه خليق بالفرح إذا جاء فى حينه .

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء :

ـ لى فلسفتى الخاصة فى الحياة، الق بنفسك فى عبابها ولا تخش شيئا . هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعا؟

فقال حسين مبتسما :

ـ أصل شعبنا اعتاد الجوع!

فضحك حسان أفندى واستطرد قائلا :

ـ كل الناس يعيشون . أغمض عينيك ثم افتحهما تجد الصغير كبيراً والتلميذ موظفا والأعزب متزوجا ولا تجد خاسرا إلا من كان خوافا مثلك . هذه هى الحياة . .

خواف!؟ وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطنية . ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته . أكان يكون شجاعا حقا لو تخلى عن المرأة وتركها تعود مهيضة الجناح خائبة الأمل!؟ . ليس الخوف . الرجل الأحمق يسئ فهمه . إنه مصاب فى آماله ولا يجد من يرحمه ولا من يفهمه . وعندما بلغ هذه النقطة من أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة، أجل وجد سرورا فى أن يكون على حق وإن أساء فهمه، بل أكثر من هذا تركز السرور فى أن يسئ الناس فهمه وهو على حق، سرور غامض كذلك السرور الذى يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء . وقال مبتسما :

ـ أنت يا حسان أفندى من أسرة كبيرة فلا يمكن أن تدرك متاعب أسرة كأسرتنا . .

وندت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة مصطنعة وتمتم :

ـ عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى : «ولا تنس نصيبك من

الدنيا» . وكل آت قريب ، ما هى إلا أشهر معدودات ثم يحصل أخوك على البكالوريا فيتغير الموقف . ارم الزهر لنرى من يكون البادئ باللعب . .

٥٦

وبعد مضى أسبوعين جاءته رسالة من حسنين ينبئه فيها بأنه أدى رسوم الامتحان وأنه يذاكر ليل نهار لضمان النجاح . وكان عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرته فلم يداخله شك فى النتيجة المأمولة . ونزعت به نفسه إلى الأحلام مع إنه لم يكن من الذين يستسلمون لسحرها عادة ، إلا أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام بالذات . ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته . واقتنع بأنه ينبغى أن يتوظف ليحمل العبء عنه ، ثم تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن ! . إنه لا يطمح إلى أكثر من حياة مطمئنة هانئة فى ظل الزوجية . وقد علمته هذه الحياة التى حملها منفردا فى شقته المقفرة معنى الأسرة فحن إلى حضنها الدافئ حنين المقرور تحت مطر منهمر إلى المأوى . لم يعد يطيق الاختلاف إلى المطاعم العامة لتناول غذائه ، وبات وكأنه يخاف الانفراد بنفسه فى حجرته ولو إلى حين قصير ، وأتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه ، وكل هذا يهون إلى جانب ما يعانى من جوع قلبه وأشواقه . ولم يكن يحب الفتاة بالذات بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة الزوجية ، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا إليها قلبه وحنينه . وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها إلا فى القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة ، وحسب حسين أنهم يتعمدون إخفاءها ، ولكن تبين له أن حسان أفندى رجل محافظ حقا وأنه قد يتسامح ولكن بالقدر الذى لا يخدش حياء ولا يجاوز حدا . ولو أن حسنين رضى بالوظيفة لمضى من توه إلى فتاته وضمها إلى نفسه وحيى الحياة الحقة . هذا حلمه ، ولكنه مجرد حلم ، ولا يدرى متى يتحقق . وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغى له أن يحنق لهذا ، أجل فليدع الأمور تجرى كما يشاء الله ولينتظر . ولكن تبين له ذات مساء أنه لن ينعم بالانتظار فى هدوء وطمأنينة ، إذ قال له حسان أفندى عقب فراغهما من احتساء الشاى مباشرة :

ـ جد أمر هام يستحق أن أشاورك فيه .

رفع إليه حسين عينيه متسائلا فقال الرجل باهتمام :

ـ الأمر أن ابن عم إحسان ـ وهو تاجر ومزارع بالبحيرة ـ يرغب فى طلب يدها ، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البت فى الموضوع برأيى ! !

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب فى قهر وحيرة كأنه لا يصدق. والحق أن بعض الشك ساوره ولكنه وجد نفسه فى مأزق لا يخرجه منه تشككه. وشعر بحنق إنسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام، فما عسى أن يقول؟! إذا قال نعم خان أسرته، وإذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان أفندى. وتراءى لعينيه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التى تعلقت بها آماله فشعر بقبضة اليأس تشد على عنقه، ورمق الرجل الذى يعذبه بنظرة باردة تخفى وراءها حنقا متزايدا. وكان الآخر يتفرس فى وجهه صابرا فلما طال الصمت غمغم متسائلا:

ـ ما قولك يا حسين أفندى؟

ولم يجد بدا من الكلام فقال بلهجة تنم عن الرجاء:

ـ لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج إلى مزيد.

فقال الرجل فيما يشبه الضجر:

ـ سيفرغ أخوك من دراسته فى أوائل الصيف القادم.

ـ ولكنه فيما أرى مصمم على مواصلة تعليمه..

فقال الرجل بضيق:

ـ فكرة سخيفة لا يصح أن تذعن لها وتتحمل مسئوليتها.

وأراد أن يتفادى من الخطر الماثل فقال متهربا كما يتهرب الفأر وراء رجل كرسى لن تغنى عنه شيئا:

ـ بوسعى أن أعلن الخطوبة فورا على أن أنتظر بعد ذلك..

فتساءل حسان أفندى بفتور:

ـ كم عاما؟

آه إن الرجل يظنه لا يحسب حسابا إلا لأخيه، ولا يكاد يدرى شيئا عن نفيسة ومشكلتها المستعصية، ليته كان بوسعه حقا أن يصارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء!.. وأجابه قائلا فى إشفاق شديد أربعة أعوام..؟!

ونظر إليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلا:

ـ لن يضيرنا الانتظار شيئا، ألا تثق فى؟!

ومط الرجل بوزه وهو يهز رأسه ثم قال بهدوء مخيف:

ـ أربعة أعوام!، يا ترى مين يعيش!.. أتريدنى على أن أقول لأمها إنى رفضت ابن عمها الذى يرغب فى الزواج منها الآن كى تنتظر أربعة أعوام؟!..

يبدو لى يا حسين أفندى أنك لم تكن جادا فيما أظهرت من رغبة!

وانتفض حسين فى ألم بالغ وهتف :

ـ سامحك الله يا حسان أفندى! . إنى رجل مخلص ولا زلت عند رغبتى الصادقة ، ولا أدرى سببًا وجيها يحول بينى وبينها .

فقال الرجل بفتور :

ـ لست أبا ولا أما فلا عجب ألا ترى وجاهة السبب ، والآن فلندع النقاش جانبا وأجبنى باختصار ألا تستطيع الإقدام على الزواج فى هذا العام؟

وساد الصمت ، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة . لم يجد شيئا يقوله ، وتفكر طويلا فى حيرة ، ثم أطبق شفتيه فى يأس وقهر . وابتسم حسان أفندى ابتسامة باهتة ، وأطبق شفتيه بدوره وقد نم وجهه البيضاوى الصغير على الجمود والكدر . وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخصام كالغبار فى يوم خماسينى فلم تعد تحتملها الأعصاب . ومع ذلك لم يحتمل حسين أن تجئ القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان يتنبأ الجواب سلفا :

ـ ألا يمكن الانتظار؟

فقال الرجل بنرفزة :

ـ كلا! .

ومكث حسين قليلا فى خجل وألم ثم نهض مستأذنا فى الانصراف فأذن له .

وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس ، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود إليها مرة أخرى . وذهب إلى حجرته فأوقد المصباح الغازى وارتمى على الفراش . وألقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة ، عداوة لكل شئ ، كان فى تلك اللحظة عدوا لنفسه وللبشر جميعا «أضعيف أنا أم قوى؟ وما صنعت بنفسى أهو إقدام أم فرار؟! كل شئ بغيض مقيت ، هذه الحجرة التى أودعها وحجرة الفندق التى تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان أفندى وطنطا وحسنين وأمى وأنا . ربما تصور الرجل أنه يستطيع أن يضايقنى فى عملى بالمدرسة! . تبا له ، سيجدنى أصلب مما يتصور . ولكن ما قيمة هذا كله! الموت أرحم من الأمل . لست أعجب لهذا ، فالموت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا . الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضى على أن أمنى بالخيبة مرة بعد أخرى؟ لماذا لا يتوظف بالبكالوريا؟! لماذا لا يحب لنفسه ما أحب لى؟!» وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام إلى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت ، وجعل يخبط على وجهه من شارع إلى شارع فى ليل بارد حتى أعياه المشى فمضى إلى مقهى . وأنعشه المشى والبرد من حيث لا يدرى فاتخذ مجلسه وهو أهدأ نفسا . وراح يتسلى بمنظر الجلوس ويستمع إلى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة أو لفتة تدعو إلى الابتسام . وخبت فورة

الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادئ وصامت. ولا يخلو فى الوقت نفسه من ندم. أكان يؤثر حقا أن يوافق الرجل على رأيه؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار؟ يا له من أحمق. . من حقه أن يحزن، ولكن ليس من حقه أن يغضب هذا الغضب الجنونى. وليس من الحكمة أن يستسلم للحزن، أجل إنه يعلم أنه سيحزن طويلا ما دام الشعور لا يخضع للعقل، ولكنه يؤمن أيضا بأن لكل شىء نهاية، حتى هذا الحزن الخانق لا بد أن يدركه العزاء. وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة. إنه آت لا ريب فيه كما علمته المحن، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره. إن شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف، وبحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعدّه الأمل والعزاء، وافتر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعانى مرارة الحزن الراهن. .

٥٧

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة ـ بعطفة نصر الله ـ يوما سعيدا حين نجح حسنين فى امتحان البكالوريا. وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء، فمرت ساعة لا يشوبها كدر، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب. وجاء فريد أفندى محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسنين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها. كان كعادته مرحا لطيفا فتحدث طويلا منتشيا بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباعا، وكان منظر بهية مما يستثير سعادته وألمه معا، كان يسعده أن تلتقى عيناهما خفية فيقرأ فى نظراتها الصافية المحبة العميقة المهذبة، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها إلا قليلا ثم يندلع فى قلبه لسان لهب، ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه، ويرمق العامين المنطويين بحسرة وأسف. واسترق إليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتخيلها ـ كما كان يطيب له أن يتخيلها كثيرا ـ متجردة إلا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان. وجعل يتساءل صامتا ألا يمكن أن تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا؟ أليس من العدل أن تهبه قبلة على سبيل التهنئة؟! . . وظل وعيه متنقلا بينها وبين أخيلته وبين الحاضرين، وكان السرور شاملا بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه فى محضرها.

ثم خلت الأسرة إلى نفسها مرة أخرى فداخلها إحساس جديد ـ غير السرور الصافى ـ

بالمسئولية ، لأنهم تعلموا أن الظفر بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب . وكان إتمام تعليمه العالى أمرا مفروغا منه فيما بينهم ولكن الرأى لم يستقر على اختيار بعينه . وقد قالت نفيسة :

ـ عليك الآن أن تختار المهنة التى تريدها .

فقال حسنين الذى كان قد قتل الأمر بحثا :

ـ التعليم العالى مرحلة طويلة شاقة ، ومستقبله مجهول .

فنظرت إليه المرأتان فى دهشة فاستطرد قائلا :

ـ لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وانتهيت من تفكيرى إلى إنه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحربية !

وهتفت نفيسة بسرور :

ـ ما أجمل هذا !

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر فى الصعاب التى تعترض آماله فقال :

ـ دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطا . والنجاح مضمون تقريبا لأنها دراسة باللعب أشبه ، والوظيفة فى النهاية لا شك فيها . هذه ميزات لا يستهان بها !

فهتفت نفيسة بالحماس نفسه :

ـ دراسة عامين ثم تصير ضابطا ! . . ما أشبه هذا بالأحلام .

وتساءلت الأم بإشفاق :

ـ والمصروفات ؟ !

ونظر إليها طويلا كالحائر ثم قال :

ـ البوليس غالية جدا ، ولكن الحربية معقولة . . مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيها .

فتطلعت إليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلا :

ـ ليس الأمل فى المجانية معدوما أو على الأقل فى نصف المصروفات ، ولنا فى أحمد بك يسرى شفيع عظيم القدر فى هذه الحال . .

و لم يذهب الوجوم من نظرة الأم وبدت قلقة حيال هذا الأمل . فقالت :

ـ حدثنى فريد أفندى محمد عن معهد التربية الابتدائى فوجدت فيه ميزات تستحق التقدير ، فمدة دراسته ثلاث سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرس .

فقال الشاب بامتعاض :

ـ إنى أكره أن أعمل مدرسا ، وأكره أكثر أن ألتحق بمعهد بالمجان .

ـ ولكنك لا ترى مانعا من دخول الحربية بالمجان .

ـ ثمة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفينى من مصروفاته كلها أو نصفها. سيقول الناس عن الحال الأولى إنى تعلمت بالمجان أما فى الأخرى فهيهات أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة!

فهزت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتمت:

ـ المسألة أخطر من هذا!

ـ لا يوجد ما هو أخطر من هذا، أنا أكره الفقر وسيرته، ولا أحب أن أخفض رأسى بين أناس مرفوعى الرءوس!

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقى إلى هذا الاختيار، والواقع أنه طمح إلى المدرسة الحربية مدفوعا بنفسه الظمأى إلى السيادة والقوة والمظهر الخلاب، بيد أن أمه ظلت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت:

ـ وإذا لم يتيسر إعفاؤك من المصروفات؟

ففكر متجهما ثم قال:

ـ سأحتاج بادئ الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات وفى مرجوى أن أنالها من أخى حسن! لا أظنه يتخلى عنى كما لم يتخل عن حسين، أما الباقى فليس بمتعذر توفيره إذا نزلت لى عن نقود حسين إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ناظرا إلى أخته) ولا أظنها تبخل علىّ خاصة وأن عملها يجيئها بكسب لا بأس به..

ونقل بصره بين أمه وأخته ليسبر وقع كلامه ولكنه لم يحظ بما يشجعه فاستطرد يقول برقة:

ـ عامان شدة يمران كما مر غيرهما وبعدهما الراحة والهناء!

وثابر على ترديد بصره بينهما فى رجاء، ثم قال بإغراء:

ـ أم ضابط وأخت ضابط!.. تصوروا هذا؟! تصوروا مغادرتنا لهذه العطفة إلى شقة محترمة بالشارع العام!

ورقت نفيسة لنظرته المتوسلة فاجتاحها موجة إيثار وكرم فقالت:

ـ لا تحمل هما من ناحيتى، سأهبك أقصى ما يمكننى أن أهبه!.

فتجلت فى عينيه نظرة امتنان وغمغم:

ـ شكرا لك يا نفيسة، ولن تكون أمى دونك كرما، وسيمضى كل شىء على الوجه الذى نحب جميعا..

ودعت له الأم بالتوفيق، لم تكن ترجو من ورائه خيرا كثيرا، وكان أقصى ما تطمح إليه أن يؤجل زواجه ـ بعد توظفه ـ عامين حتى ترمم ما تهدم من أسرتها، ولكن لم يسعها

إلا أن تنزل له عن نقود الإنقاذ التى يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أعماق قلبها .
وتأثرت نفيسة بما غمرها من إيثار وكرم وارتقيا بها إلى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس ، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية . ولكنها لم تدم طويلا ، اصطدم تيارها الدافق بعقبة كئود من الذكريات السود فتوقف عن الجريان الساجع وتجمع وتطين ، وفتر الحماس فخفضت عينيها فى خمود ، ليس الفرح الصافى من حقها وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء؟ .

٥٨

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار إلى شارع كلوت بك «سيقول حسن إننا لا نسعى إليه إلا إذا طمعنا فى نقوده!» وتألم لهذا الخاطر ، ولكنه خفف من وقعة قائلا : إنه هو ـ حسن ـ الذى لم يشأ أن يتردد أحد منهم على بيته . وجعل يتساءل فى حب استطلاع عما سيجد فى هذا المسكن المحرم! ثمة شئ «غير طبيعى ، ولكنه لا يستغرب من حسن!» .

ثم ذكر النقود التى يريدها فهاله الأمر ، ماذا لو عجز حسن أن يمد له يد المعونة؟ ، وشعر بأصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بآماله . واهتدى أخيرا إلى عطفة جندف وأخذ يرتقى أرضها القذرة باحثا عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى إليه ، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالسا القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيرا إلى البيت :

ـ هل يقيم هنا حسن أفندى كامل؟

فسأله الرجل بدوره :

ـ تعنى حسن الروسى؟

فقال حسنين بدهشة :

ـ حسن كامل على المغنى؟

فقال الرجل :

هذا بيت حسن الروسى الذى يعمل بقهوة على صبرى بدرب طياب . .

وأغضى حسنين فى حياء منزعجا انزعاجًا فظيعا ، لم يعد يشك فى أنه حيال بيت أخيه وقد توكد ذلك بذكرى على صبرى ، ولكنه لم يتصور أنه يعمل بهذا الدرب الذى فرقع اسمه فى أذنه كالقنبلة . وهذا اللقب : الروسى ما معناه؟ ودخل البيت وكأنه يفر فزكمته رائحة بئر السلم النتنة وارتقى السلم الحلزونى وهو يشعر بأنه يهبط إلى هاوية ما

لها من قرار. وطرق الباب فجاءه صوت امرأة يصيح فى ابتذال«من؟» ثم فتح الباب عن امرأة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجمال وقح. حدجته بنظرة نافذة وسألته:

ماذا تريد؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب:

ـ حسن كامل..

ـ من أنت؟

ـ أخوه..

فانبسطت أسارير المرأة وتنحت جانبا وهى تقول:

ـ سى حسين؟

فتمتم فى ذهول:

ـ حسنين!

ودخل فى تهيب وحياء. من تكون هذه المرأة؟ وكيف عرفت أسماءهم؟ هل تزوج حسن؟ وشعر بقشعريرة باردة. أيمكن أن يقال عن هذه المرأة إنها زوجة أخيه؟ وأن أمه حماتها؟!. وتمنى من أعماق قلبه أن تكون مجرد رفيقة. ومضت المرأة إلى باب فى نهاية الدهليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على العتبة، وكأنه شعر بوجوده فاتجه بصره إليه ثم هتف بدهشة وسرور:

ـ حسنين..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق، وقبل أن يتكلم أحدهما تسلل من الحجرة نفر من الرجال متتابعين، ألقوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم مخاطبا حسن:

سنسافر عصر اليوم إلى السويس بإذن الله. وتلحق بنا غدا.. ثم غادروا الشقة. كانوا من ذوى الجلاليب. تلفت سحنتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من تشويه. وداخل حسنين شعور بالقلق، من يكون هؤلاء الرجال؟.. أفراد التخت؟.. ما أبعد هذا عن التصور. لقد ذكره منظرهم برجال العصابات كما يظهرون على الشاشة وطرأت عليه فكرة مرعبة بأن شقة أخيه تناصب القانون العداء!. وألقى على حسن نظرة متوجسة فرآه يرتدى جلبابا مقلما فضفاضا، ويبدو فى صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر وفى صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنهما أثرا طعنتين شديدتين. رباه، إن أخاه لا يخلو من تشويه إجرامى أيضا! ولعله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة الأسباب التى حجبته عن عالمهم. وأومأ حسن إلى الحجرة فى نهاية الدهليز وقال للمرأة:

ـ رتبى الحجرة واجمعى الأشياء . .

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتجه إلى حجرة النوم ، ثم أغلق الباب وراءهما وأجلسه إلى جانبه على الكنبة وهو يقول :

ـ كيف حالكم؟ . . كيف الوالدة؟ . . ونفيسة؟ . . وما أخبار حسين؟

وحدثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم من أخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب :

ـ انقطعت عنا كأنك لست منا ولسنا منك ، وباتت أمنا فى حزن شديد . .

وهز حسن رأسه فى كآبة وقال :

ـ إنى غارق فى حياتى حتى قمة رأسى ، ولكن توظيف حسين طمأننى عليكم . .

وتساءل حسنين متأثرا بما طرأ على أخيه من تغير فى مظهره ترى هل بقى على حبه القديم لهم؟ ، وانساق بغريزته إلى التودد إليه قبل أن يتطرق إلى مهمته وتساءل فى قلق :

ـ ما هذا يا أخى؟ !

فقال حسن ضاحكا :

ـ مخلفات معارك . لم تكن حياتى لتخلو من عراك وقد أصبح العراك من أهم واجباتى فى الحياة الجديدة . .

وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى ذلك بغريزته أيضا ، لقد قصد هذا البيت المحرم فى سبيل الحياة ، وحسن يتخذ من العراك واجبا فى سبيل الحياة أيضا ، فما أفظع ما تسيمنا الحياة من خسف! «من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب! . كان حسن طفلا حاذقا شاطراً ، وكان أبى يحبه أكثر من أى شىء فى الوجود ، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوا ، ولكن لم يكن يتصور أحد أن ينتهى به المطاف إلى هذا البيت! . ولا شك أن حسين أدرك الحقيقة فى زيارته لهذا البيت فى سبتمبر الماضى ، ولكن ترى هل تعلم أمى بكل شىء؟ !» . لم تواته شجاعة على السؤال الصريح ولكنه تساءل فى مكر :

ـ ما العلاقة بين الغناء والعراك؟

فقهقه حسن ضاحكا ثم قال :

ـ هما شىء واحد فى عرف الكثيرين . .

وهنا جاءهما صوت المرأة من خارج وهى تقول :

ـ إنى ذاهبة ، هل تريد شيئا؟

فقال لها باقتضاب :

ـ مع السلامة . .

ولم يستطع حسنين أن يقاوم حب استطلاعه فسأله بقلق :

ـ هل تزوجت يا أخى؟

ـ كلا . .

فلاح الارتباك فى وجه حسنين غير خاف فتساءل حسن :

ـ أسرك هذا؟

ـ نعم . .

لماذا؟

فقال الشاب بسذاجة :

ـ أفضل أن تختار زوجك من وسط كوسطنا . .

فقطب حسن كالمستاء وقال :

ـ إنها أفضل من سيدات كثيرات ، تحبنى وتخلص لى ولا تضن علىّ بمال . .

وأوشك أن يقول له «ومن مالها الخاص أعطيت حسين ما احتاجه من نفقات» ولكنه أمسك رحمة بأخيه ـ لم يستطع التغير الذى لحق بطبعه أن يؤثر فى عواطفه نحو أخيه حتى حين استيائه ـ ولما رأى القلق والندم يلوحان فى عينى الشاب قال برقة :

ـ إن إخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة وراءه أما هذه المرأة فإخلاصها غير مشوب . سوف تعلمك الحياة أمورا كثيرة تجهلها . .

فهز حسنين رأسه متظاهرا بالاقتناع ، وابتسم إلى أخيه ابتسامة رقيقة متوددا . ثم ذكر أمرًا كاد ينساه فرحب به ظنا منه أنه خليق بأن يضفى على الجو الذى كاد يتوتر روحا من المرح فسأل أخاه ضاحكا :

ـ علمت وأنا أسأل عن بيتك أنهم يدعونك الروسى فما معنى هذا؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة إلى نفس الآخر وهو يشير إلى رأسه :

ـ نسبة إلى هذا! . . إنى أكسب بعرق جبينى على نحو ما (وبسط يده ونطحها برأسه ثم نظر إلى أخيه نظرة ذات معنى ضاحكا) أو بالأحرى بدم جبينى . لا بد من العرق كى تعيش ولكنه يختلف العضو الذى يعرق بين فرد وآخر .

وشعر حسنين بغرابة نحو أخيه ، وفكر مليا ، ثم قال بحزن :

ـ ثمة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين!

وبدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال بحماس :

ـ هذه هى غاية الشطارة . . أن تكسب بعرق جباه الآخرين!

وسئم حسنين هذا الحديث الذى يجرى بلا ضابط فصمم على أن يطرق الموضوع الذى جاء من أجله. وصمت قليلا ثم قال بصوت منخفض:

ـ أظن يسرك أن تعلم بأنى نجحت فى امتحان البكالوريا..؟

فهتف حسن بسرور:

ـ مبارك. أسر طبعا بسرورك وسرور أمنا!

تفرس فى وجه الشاب ثم استطرد فى لهجة لا تخلو من إشفاق وسخرية:

ـ وظيفة، ثم طنطا أو الزقازيق، أليس كذلك؟

فقال الشاب منتهزا هذه الفرصة التى هيأها الآخر كى يتقدم خطوة جديدة فى سبيل غرضه:

ـ كلا، فى نيتى أن ألتحق بالكلية الحربية!

ـ الحربية!.. عظيم جدا!.. الحمد لله على أنك لم تختر مدرسة البوليس!.

ـ مصروفاتها كبيرة..

ـ لا أعنى هذا ولكنى لا أستلطف ضباط البوليس!..

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسما:

ـ ضباط الجيش رجال أفراح، نراهم أمام المحمل وفى الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا نراهم إلا عادين وراء خراب البيوت!..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات، حسنين فى قلق وحياء وحسن فى ابتسام له معناه، ولبثا كذلك طويلا حتى انفجر حسن ضاحكا فضحك الآخر وهو يغض بصره حياء، وواصلا الضحك حتى تعبا، ثم سأله حسن بلهجة ذات مغزى:

ـ كم؟!

فضحك حسنين مرة أخرى وقد احمر وجهه من الحياء. ثم قال:

ـ الدفعة الأولى من المصروفات. يؤسفنى أن أقول إنها مبلغ لا يستهان به ولكنى سأدبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثانى من نقود حسين وما وعدتنى به نفيسة!

وذكر حسن كيف كان يعد فيما مضى الخائب الفاشل فى الأسرة جميعا: الآن يرونه ملاذهم فى الملمات! وأحس زهوا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتأصل فى نفسه نحو أسرته بل لعله ضاعفه. وساءل أخاه مبتسما:

ـ كم هذا المبلغ الذى لا يستهان به!

فقال حسنين فى خوف:

ـ عشرون جنيها!

ولاح الانزعاج فى عينى حسن وقال وهو لا يدرى:

ـ عشرون جنيها؟.. إن جيشنا كله لا يساوى هذا المبلغ!.. هل تنوى الالتحاق بمدرسة اللواءات؟

وانتظر حسنين فى اضطراب وقلق ولم ينبس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجد واهتمام:

ـ هذا مبلغ جسيم حقا، ولا يمكننى أن أعطيك ـ اليوم على الأقل ـ أكثر من عشرة جنيهات!

وسادت فترة من صمت أليم، ثم نفخ حسن فى ضيق وقال:

ـ لو جئتنى قبل أسبوع!.. وعلى أية حال سأسافر غدا إلى السويس ولعلى أعود بما يكفيك!

وتفكر مليًا على حين قال حسنين بصوت منخفض:

ـ يؤسفنى أنى أزعجتك!

فقرصه فى أنفه ضاحكا وقال:

ـ كيف تعلمت هذا الأدب وعهدى بك طويل اللسان.!. لا تنزعج سآتيك بما تريد ولو قتلت قتيلا ونشلت محفظته.

ثم أعطاه عشرة جنيهات، وحمله السلام إلى أمه وأخته، وطلب إليه أن يستمسك بالحكمة إذا تحدث عما رآه فى بيته. وشد حسنين على يده شاكرا وغادر الشقة. وما أن انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كئيب «حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها، ولعل ما خفى منها أدهى وأفظع». وقطع الطريق متفكرا مغتما يلفه إحساس بالاشمئزاز والخوف. لم يكن بوسعه أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخوى، ولكنه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والندبين الخطيرين، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز والرعب. رباه، لقد انقلب حسن إلى نوع آخر من الآدميين، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذى يعرفه. إنه يترنح كأنما ضربة قد هوت على رأسه فأفقدته وعيه، وكلما وجد فى السير امتلأ شعوره بفداحة الخطب. وذكر حاجته إليه التى جعلته يستوهبه نقودا لا يدرى من أين أتت، فاشتد اشمئزازه وحنقه، ولعن هذه الحاجة من أعماق قلبه فى يأس وقهر. وأمر من هذا كله أن حاجته لم تنته، فسيعود إليه بعد أيام ويمد إليه يده سائلا! ترى من أى سبيل تأتيه النقود من السويس!. إن قلبه لا يكذبه، وفيما رأى بعينيه الكفاية لمن ينشد الدليل، ورغم هذا كله سيعود إليه ويسأله أن يتم صنيعه له! هل يستطيع أن يغضب لكرامته حقا؟ هل يستطيع أن يرد هذه الجنيهات إلى

أخيه ويصيح فى وجهه إنى لا أرضى عن حياتك القذرة؟ وندت عنه ضحكة مبحوحة مرة . . إنه يعلم أنه يهذى هذيان سخيفا . سيعود إليه راضيا ويأخذ النقود ـ إذا تفضل بها ـ شاكرا ممتنا . ولو علم أنه ذاهب إلى السويس ليسرقها ما وسعه إلا أن يدعو له بالتوفيق . وقال وكأنه يحاور ضميره المتوجع «مهما يكن من أمر فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم!» .

٥٩

وفى عصر اليوم نفسه مضى إلى فيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . والواقع أنه كان يندفع بحيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فإما الحربية أو الموت . وجلس فى السلاملك ينتظر البك مسرحا طرفه فى أطراف الحديقة أو فى الشطر الأمامى منها على الأصح . وكان مشتت اللب فرآها رؤية غامضة ، وتنقل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنغرس وسط دوائر من الحشائش المنسقة سورت بنبات الشيح وانتشرت فى رقاعها شجيرات الورد على هيئة أهلة . وارتاح لحظة من أفكاره فاستقر ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخل الفيللا و السلاملك فاستسلم إليها فارا من قلقه . وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليها روح الطفولة وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست أغصانها وتعانقت أزهارها فامتزجت فى هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة فى وئام وائتلاف وسلام . وابتسم وهو لا يدرى . وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة فى أعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلا للسخونة مفعما بعرف الياسمين الجاثم على سور الفيللا . وورد على خاطره هذا السؤال «هل يمكن أن أقتنى يوما فيللا كهذه؟» وتخيل الحياة فيها ما بين المخدع والحديقة وما يتبعها عادة من سيارة وأسرة محترمة . هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها فيللا أحمد بك يسرى ، وفى كلتا المرتين انفجر فى صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر فى حياة كحياة حسين فيقطع عمره ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر . فى الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغى أن يأخذ نصيبه منها كاملا . وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة . وكانت الفتاة توجه الدراجة فى حذر على مماشى الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقها الحذر عن النظر فيما حولها . كانت فى السادسة عشرة ، ترتدى فستانًا أبيض هفهافا وتعصب رأسها بإيشارب منمنم ، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية . وقد أعجله النظر إلى ساقيها المدملجتين اللتين تتناوبان الارتفاع

والانخفاض فلم يكد يتبين وجهها، واختفت وراء جناح الفيللا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاته منها. وثار فى عينيه اهتمام ويقظة. إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون! . وابتدرت مخيلته تستدعى صورة بهية بجسمها اللدن الممتلئ ووجهها البدرى، شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة فى شىء! ثم ذكر أخته نفيسة فعجب للاختلاف البين بين مخلوقات من جنس واحد، ثم شعر فى قلبه بغمز ألم وعطف وعاد إلى نفسه فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرا يشبه الأثر الذى تركته الحديقة والفيللا ونجفة بهو الاستقبال، طموحا وثورة وسخطا! «ما أجمل أن أملك هذه الفيللا وأنام فوق هذه الفتاة». ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة. فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدى فى تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا «سيدى. . هذه هى الحياة. إذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها!» ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والخجل. وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعا عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادما فى بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق فى عروة الجاكتة وردة حمراء فانتفض قائما وأقبل نحوه فى أدب وانحنى على يده مسلما فى إجلال وابتسم البك مرحبا وسأله وهما يجلسان:

ـ كيف حال الأسرة يا بنى؟

فقال حسنين بتودد:

ـ يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك.

فغمغم البك:

ـ أستغفر الله.

وأيقن البك أنه سيتلقى عما قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه إلى القاهرة إلخ. . لم يكن يومه يخلو من مثل هذا، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان فى قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يوما من صاحب حاجة.

وقال:

ـ خير يا بنى؟

فقال حسنين بحرارة:

ـ جئتك يا سعادة البك مستنجدا بشفاعتك فى إلحاقى بالكلية الحربية. .

ودهش البك وكأنه كان يتوقع كل شئ إلا هذا الطلب الأرستقراطى وتساءل دون أن يخفى دهشته:

ـ ولماذا اخترت هذا الباب الضيق؟!

وتألم الشاب لما لاح فى وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة :

ـ يبدو لى يا سعادة البك أنه توجد فرصة ذهبية هذا العام لم يوجد مثلها فى السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة عدد الجيش، ومهما يكن من أمر فشفاعتك أهم من كل شىء!

وتساءل البك باقتضاب :

ـ والمصروفات!؟

وكرهه مرة أخرى. وسرعان ما تناسى رجاء المجانية أو صمم على أن يؤجله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة :

ـ إنى على استعداد لأداء المصروفات كاملة!

ففكر البك مليا ثم قال :

ـ إن وكيل الحربية صديق قديم وسأحدثه بشأنك. .

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائما ـ ربما إنهاء للزيارة ـ فقنع حسنين بالانحناء على يده مسلما وكرر الشكر وغادر السلاملك مرح الصدر بالأمل. وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتمثلت صورتها وهو يرنو إلى أثر العجلتين فى الممشى، ولكن لم يدم هذا إلا لحظة قصيرة، ثم استأثر بوعيه كله مستقبله وآماله. .

٦٠

فى نفس الساعة كانت نفيسة فى ميدان المحطة. . كانت السماء تتخشع لهبوط المساء على حين واصل الميدان فى حياته الصاخبة يستبق على أديمه الإنسان والحيوان والترام والسيارات. وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيارات لتعبر الطريق إلى محطة الترام فلاحظت أن رجلا واقفا على بعد أذرع منها ينظر إليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حتى فهمها. وتولتها دهشة وتساءلت؛ حتى هذا؟!. كان رجلا فى الستين!؟ يجمع فى جسمه بين ترهل العمر ووقاره، مرتديا بدلة صوفية على حرارة الجو ويقبض بيده على مذبة أنيقة عاجية المقبض، ويضع على عينيه نظارة زرقاء. وقد انحسر طربوشه المائل إلى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حز الطربوش، أما سوالفه وما لاح من قذالة فشديد

البياض. وثار فى أعماقها حب استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيارات، وحولت نحوه عينيها فوجدته ما يزال يحدق فيها، وكأنه تشجع بنظرتها فتقدم منها فى خطوات ثقيلة وهمس وهو يمر بها:

ـ اتبعينى إلى سيارتى. .

ثم واصل سيره إلى سيارة واقفة لصق الطوار مثله فى الهرم والوقار، يكاد يعلو سلمها على الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال. وصعد إليها دون أن يغلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة. ماذا يريد الشيخ؟ وابتسمت خواطرها فى تشوف، ثم عادت تنصت إلى همس الطمع. وكأنه استبطأها فخلع نظارته ثم أومأ لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت، وألقت على ما حولها نظرة متفحصة ثم اتجهت نحو السيارة، يحدوها الطمع وحده لأول مرة. وأوسع لها فجلست إلى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفائحة من فيه، فاستحوذ عليها القلق، وقالت:

ـ لا أستطيع أن أتأخر.

فقال بلسان ثقيل:

ـ ولا أنا أيضا!

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيارة. ولم يفارقها شعورها بالغرابة فى أثناء الطريق، ثم غشيتها سحابة حزن وخوف لإحساسها بأنها تتدهور إلى ما لا نهاية. لم يسبق لها قبل هذه المرة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير، ولو بعد رؤيته مرتين أو ثلاثا، إلى أنها لم تكن تخلو من رغبة، أما هذه المرة فها هى تستسلم لعابر سبيل، مدفوعة بالطمع وحده، وبلا أدنى رغبة. أى تدهور وأى نهاية! ترى كيف عرف أنها ضالته! هل انقلب وجهها ـ على دمامته ـ يشى بتدهورها؟ وتقبض قلبها فرقا، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معا، بين أن تتزين فتبدو فى هذه الهيئة المبتذلة أو أن تتعطل فتكشف عن دمامتها النقاب؟!. ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعثم:

ـ جميلة كالقمر!

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديما وتمتمت:

ـ لست من الجمال فى شىء. .

فقال مستنكرا:

ـ لا تخلو امرأة من جمال!

كاذب أو مخادع فلشد ما يعمى الفسق العيون، وقالت ببساطة:

ـ إلاى!. .

فنقر بأصبعه على ثديها وقال:

ـ لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة!

ودت لو تستطيع أن تصدق قوله، ولكن هيهات، فلم تظفر بأحد يحبها أكثر من ساعات. لعله يعربد أو يخرف أو يعانى مرارة اليأس مثلها سواء بسواء. لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تخمد لهذا رغبة جسدها الذى يسيمها الهوان فكرهته كما تكره الفقر. ما هى إلا أسيرة للجسد والفقر ولا تدرى كيف تستنقذ نفسها منهما. جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير فى أن تأوى إلى الشاطئ عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم، ثم سمعت صوته يقول متنهدا «وصلنا» فالتفتت إلى الخارج فرأت السيارة تدور مع طريق دائرى تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجرى النيل فى رقعة عظيمة من الظلمة إلا ما انغرس فى جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح، وقالت كالمتسائلة:

ـ الجزيرة؟

فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى:

ـ تعرفينها طبعا..

وتريث ريثما غادر السائق موضعه واختفى فى الظلام فخلع نظارته وهو يقول:

ـ أرينى شطارتك فكل شئ يتوقف عليها..

كان هرما مجنونا، يكاد ينز خمرا. وانهال عليها بمداعبة غليظة فعضها بوحشية وراح يقرصها حتى أوشكت أن تصرخ. ولاحت فى الجو نذر هزء وسخرية، ثم تعب حتى اليأس، انفرج عن إحساس بالغرابة ومغالبة الضحك. وأخيرا ارتمى مخمورا وقال بصوت غليظ:

ـ مدى يدك إلى مقعد السائق وناولينى الزجاجة..

ورفع سدادتها وعل منها ثم أسلم ظهره إلى المسند وراح يتنفس تنفسا ثقيلا غليظا. ولم تعد تحتمل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشبع بالتودد لأنها تعلمت أن تخاف هذه الآونة أكثر من أى شىء آخر:

ـ آن لنا أن نعود.

فقال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ليتنى لا أعود أبدا..

ولم تدرك ما يعنى ولكنها استجمعت شجاعتها وغمغمت:

ـ تسمح!

ودس يده فى جيبه وأخرجها فى تكاسل ثم ترك ريالا يسقط فى حجرها فتناولته فى دهشة وانزعاج وحدجته باستنكار وتساءلت وهى تتميز غيظا:

ـ ما هذا؟

فقال بجفاء مباغت وعيناه تعكسان بريق الخمر :

ـ نعمـة كبـرى! إذا لم ترضى به عاد إلى موضعه السابق إلى الأبد . .

فقالت بحنق :

ـ أظن مقامك أعلى من هذا بكثير . .

فصب فى فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطبا وقال :

ـ هذا حق ، ولكن الريال أعلى من مقامك بكثير! أراهن على أنه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع فى مثله!

وجرحت الإهانة صدرها فاضطرب وقالت وهى تغالب الغضب بالخوف :

ـ لماذا تحدثنى بهذه اللهجة؟

ـ لأنك طماعة . . ولأنك السبب فيما يقع لى . اعلمى أنى لا أحمل معى إلا الفكة ، وحتى هذه تحاسبنى زوجى عليها عقب عودتى إلى البيت ، وأهون على أن أضربك من أن تضربنى هى .

ولاذت بالصمت وهى تنتفض غضبا وغيظا فعاد هو يقول :

ـ ضايقتنى امرأة ذات مرة فى مثل موقفنا هذا فصفعتها وقذفت بها خـارج السيارة نصف عارية ، ماذا فعلت فيما تظنين؟ . . لا شىء! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطى أخطر عليها منى . ومع ذلك فهى مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضا ، والظالم الحقيقى هى زوجى . .

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت :

نعود من فضلك . .

فقال وهو يتثاءب :

ـ لك هذا . افتحى النافذة ونادى السائق . .

وانطلقت السيارة فى طريق العودة فتزحزحت حتى نهاية المقعد ، وسهمت إلى الظلمة بعين خابية .

٦١

وكان يوم قبول حسنين طالبا بالكلية الحربية أسعد الأيام جميعا . وكان يحسبه مطلبا غير عسير كشأنه حيال مطالبه ، ثم أخذ يتبين عسره وعناده حتى اقتنع آخر الأمر بأن

تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان أخف متاعبه. وقد طال تردده إلى فيلا أحمد بك يسرى وكاد الرجل ييأس من قبوله فنصحه بالعدول عن اختياره ولكن تصميم الشاب وتقدم ترتيبه وحسن هيئته وتفوقه فى الكرة والعدو ثم شفاعة أحمد بك قبل كل شئ. كل أولئك ساعد على إحداث المعجزة ـ على حد تعبيره بعد اليأس ـ وتم القبول وكاد يجن من الفرح، والحق أنه علق آماله كلها على هذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعل أو كيف يولى وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه. كان طموحه إلى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تعاسة حياته وضعتها، وبدت الكلية لعينيه كمصنع سحرى قادر على تحويله من إنسان مهزول مغمور إلى ضابط مرموق فى ظرف عامين، وبأقل جهد، وكان سمع مرة صاحبا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه» فهامت بالحربية نفسه وقوى حلمها فى روحه. ولما علم بقبوله فى الكلية أبى أن يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذى لعبته فى قبوله فقال لأمه إن الفضل الأول لمزاياه الجسمية وتفوقه فى الرياضة. وقال لنفسه فى زهو «أستطيع أن أعد نفسى من الضباط منذ الآن» وراح خياله المختال يستعرض الآدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسمية تأثيرها السحرى ـ الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسرى نفسه وهو مرح نشوان. وحمل الخبر السار بنفسه إلى أسرة فريد أفندى محمد فاستقبلته بفرحة تجل عن الوصف: وقال له فريد أفندى ضاحكا «شرفتنا يا حضرة الضابط». وقال الشاب على مسمع من بهية لغرض فى نفسه «سأغيب عنكم أربعين يوما قبل أن يسمح لنا بالخروج مرة كل أسبوع» وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حرم عليه عامين ولكنه لم يتح له أن يخلو إلى الفتاة إلا دقائق، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنها لم تتزحزح عن تعففها حتى فى هذه اللحظة. وغلبها الحياء كعادتها، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثرا بالوداع. وقال لها بعجلة فى صوت لا يكاد يسمع «أريد قبلة حارة من شفتيك» ولما رأى حياءها وجمودها قال بجزع «أتأبين علىّ هذا حتى فى هذه اللحظة!.. لا يمكن أن أتصور أنك تحبينى!» وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة فى قلق «بل لهذا أرفض أن أذعن لك!» وتساءل فى إنكار «لا أفهم ما تعنين» فقالت بشجاعة مؤثرة «أرفض لأنى أحبك» وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثر حد السكر وهم بالاقتراب منها ولكنها أشارت إليه محذرة وهى تومئ برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح، وما لبث أن عاد فريد أفندى وزوجه فقضى بقية الوقت ممزقا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ، ثم ودعهم ونزل إلى شقته وهو يقول لنفسه «هذا حب عاقل! حب يسيطر عليه الحزم والتدبير. كأنها رسمت خطة حكيمة كى تضمن زواجى بها. ولكن هل يعرف الحب الحقيقى هذا المنطق البارد؟!» وكان حديثه لنفسه فى

الواقع خاضعا لما استحوذ عليه من غيظ وحسرة، وعد وداعه لها أسوأ وداع منى به عاشق. ثم أمضى شطرا من الليل بين أمه وأخته. ولم تستطع نفيسة ـ كعادتها ـ مغالبة مشاعرها فدمعت عيناها وقالت فى حزن «قضى علينا بأن نعيش وحدنا» ولم يخل هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هون من وقعها أن روحه كانت تهفو كثيرا إلى الحياة المستقلة، فى بيت غير البيت ووسط غير الوسط. أما الأم فحافظت على هدوئها الظاهرى، ولم تشجع نفيسة على الاسترسال فى حزنها وقالت لها بحدة «لا تبكى كالأطفال، سنراه كثيرا، وحسبنا سرورا أنه نال ما تمنى». بيد أن قلبها كان فى واد آخر، حرك الفراق الوشيك أشجانه فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية، فذكرت وداع حسين، وتخيلت خلو البيت من أبنائها جميعا، وتداعت إلى ذهنها ـ على كره ـ ذكرى رحيل زوجها، فعجبت لحياتها التى لا تجود لها بسعادة إلا مصحوبة بوداع وفراق. فهل قدر لها أن تمضى البقية الباقية من حياتها وحيدة؟ وهل فى سبيل هذه النهاية تصبرت وتجلدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح؟!. ولكنها لم تستسلم لحزنها إلا بمقدار يسير. ونادت قوتها الكامنة، وذكرت ما صادف ابنها من آى التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها. مهما يكن من أمر فإنها تؤمن الآن بأن ما بذلت من صبر وكفاح لم يضع سدى، وأن سفينتها الضالة فى سبيل الهداية إلى مرفأ آمن. ويحق لها أن تفرح فما من ثمرة تجنى فى هذه الأسرة إلا وهى غرس يديها وعصارة قلبها.

وفى الصباح الباكر ودع حسنين أمه وأخته ومضى فى سبيله إلى الكلية الجديدة..

٦٢

ثم وجد نفسه فى فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحثت عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحبا قديما من التوفيقية فيلوذ به من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإن أحس زهوا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذى قبل فى الكلية الحربية. وتمنى كثيرا أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثم مضى يتسلى بمشاهدة الكلية فجرى بصره مع الفناء الشاسع وأبنيتها الفخمة المترامية، ثم ثبته طويلا على تمثالى المدفعين المقامين عند مدخلها فهاله المنظر وبث فى نفسه إعجابا وخيلاء. وكان بادئ الأمر مطمئنا إلى مزاياه الجسمانية من طول قامته ورشاقة قده ووسامته ولكنه تخلى عن كثير من إعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شبابا غضا وفتوة ناضرة وجمالا رائعا، إلى ما لاحظ على بعض الأفراد من مخايل الأرستقرطية. ثم وقعت عيناه على شاب قادم من حجرة تطل على الفناء عرف

فيه زميلا قديما فى التوفيقية سبقه إلى الالتحاق بالكلية بعام أو يزيد وكان يرتدى قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكى وعلى ذراعه اليسرى أربعة شرائط. لم يكن من أصدقائه ولكنه تعرف به فى فناء المدرسة، ومع أنه لم يكن يذكر من اسمه إلا «عرفان» ولم تكن هذه العلاقة الواهية لتغريه بالإقبال عليه فى غير هذه الظروف، إلا أنه رحب بالتسليم عليه ليعلن صداقته بهذا الطالب القديم أمام الطلبة المستجدين. ونفذ فكرته فمضى إليه حتى واجهه ومد إليه يده مبتسما وهو يقول فى ألفة:

ـ كيف أنت يا عرفان؟

وسرعان ما ماتت الابتسامة على شفتيه للنظرة الجامدة التى رماه بها الآخر فى تجهم وصلف، وقد أطال تفحصه فى تكبر وما يشبه الغضب، ثم لمس يده بيده واستردها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون أن ينبس بكلمة!. وشعر حسنين بانهيار شامل وذهول قاتل، وظنه نسيه أو أساء فهمه فقال كالمستغيث:

ـ ألا تذكرنى؟.. أنا حسنين كامل على..

فلم يؤثر الاسم فى الآخر أيما تأثر ولم يطرأ على صلابته أى لين، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء:

ـ لا صداقة هنا. أنت طالب مستجد وأنا باشجاويش..

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب. ووجد حسنين نفسه فى موقف خزى لم يقفه فى حياته فأثلجت أطرافه وتوترت شفتاه، وانتبذ موضعا بعيداً متحاميا النظر إلى أحد أقرانه وإن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون. ماذا دهاه الأحمق! ترى هل أهانه لضغينة اضطغنها عليه أو فقد رشاده؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع فى هذه الكلية؟!. ولبث مستغرقا فى أفكاره لا يرى مما حوله شيئا حتى نودى على الطلبة المستجدين ودعوا إلى أول طابور لهم بالملابس المدنية. ووقفوا صفين متوازيين بإرشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود، وقد تجنب النظر إلى صاحبه القديم الذى وجده معلقا فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر فى وجهه. ثم جاء ضابط عظيم محاطا ببعض الضباط من رتب أقل، وألقى عليهم نظرة ثاقبة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التى آثروها. وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على أساريره من الصلابة والعنف، وكان يفصل بين كثير من جملة بهذه العبارة «العقاب الصارم» حتى صارت كضربات الإيقاع وملأ القلوب رهبة وحذرا. وما أن انتهى من خطبته حتى بدا أول يوم فى الحياة العسكرية الجديدة. واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد. وبدأ اليوم ـ والأيام جميعا ـ شاقا طويلا، يبتدئ بالدش البارد فى الصباح الباكر، ويثنى بالطابور، ثم الدروس، جهد متواصل، وخشونة

فى المأكل والملبس والمعاملة حتى إذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى. وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقونه، كان الرؤساء يرونها فرضا واجبا، ويكفى أن يحظى طالب بشريط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه، وهو يمارسها فى غير رأفة وبسطوة تبلغ فى أكثر الأحايين إهانة صريحة وتجريحا متعمدا. ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء. ولم يجد حسنين من عزاء فى ذلك الجو الرهيب إلا أنه سيصير يوما أومباشيا ثم باشجاويشا. وهنالك يقضى ديونه دفعة واحدة!. وقد ذكر عهد التوفيقية ـ الذى وصفه يوما بالإرهاب ـ بالترحم والرثاء. وبلغ منه الضيق أحيانا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية وتمنى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها. وكان يشاركه إحساسه هذا كثيرون فى الأيام الأولى على وجه الخصوص. وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع إليهم الهزال، ولعل حسنين كان الطالب الوحيد الذى لم يخضع لهذا القانون الطبيعى، بل لعل جسمه اكتسب ارتواء غير منتظر لأن غذاء الكلية ـ على خشونته ـ هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها فى أعوام الشدة الأخيرة. بيد أنه تعرض لآلام نفسية غير متوقعة فى أيام الجمع التى يسمح فيها عادة بالزيارات. كان فناء المدرسة الخارجى يمتلئ بالآباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعا بنهار ممتع ويعودون إلى حجراتهم مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام، حتى الطلبة الريفيون لم يعدموا أقارب من القاهرة، فلم يكن ثمة طالب يقضى هذا اليوم السعيد وحيدا إلاه، لم يزره أحد ولم ينتظر أحداً. وكانت أمه قد أخبرته ـ قبل رحيله ـ بأنها لن تستطيع زيارته لأنها ـ كما يعلم ـ لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه، أما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف «لا أظن أنه مما يشرفك أن أبدو أمام زملائك بهذا الوجه»، ولم يكن ثمة أمل فى أن تزوره بهية لحيائها وعدم اعتيادها الظهور فى مجتمع من الأغراب، فلم يبق إلا فريد أفندى وكان بطبعه كسولا لا يكاد يفارق بيته إلا لضرورة قصوى، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل إليه هدية من البسكويت. واعتاد فى أيام الزيارات أن يختار موقفا عند مدخل الفناء الداخلى يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملى بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذا بجمالهن وأناقتهن وآى النعيم البادية فى وجوههن وثيابهن. وعجب لهذه الفوارق التى تباعد بين الآدميين، وبدت لعينيه محيرة بقدر ما هى مزعجة. وثارت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس إلا فى أن يناقش ربه الحساب، متسائلا ـ فيما يشبه التحدى ـ عن أسرار حكمته التى جعلت من الدنيا ما هو كائن!. وسأله مرة زميل له عن سر عزلته فقال بلا تردد:

أبى متوفى. وأخى مدرس بطنطا. أما الأسرة فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو!.

بيد أن الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعا خصيبا إذ أن الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى يستفحل خطبها. وقد علمته أن ينسى باطنه أكثر وقته، ثم بمرور الأيام أخذ يألف شدتها وجوها الخانق فمضت تخف وطأتها وتحتمل، إلى ما ظفر به من صداقات جديدة ابتل بها صدره الموحش فاستطاع أن يضحك ملء قلبه ـ رغم كل شيء ـ كعهده القديم. وهكذا انقضت الأربعون يوما. .

٦٣

وخيل إليه ـ لدى خروجه من الكلية بالملابس الرسمية ـ أنه حقق حلما بديعا بتصديه للعالم بالبدلة الملونة. . كان ينطلق كالعامود فى استقامته، كالطاووس فى خيلائه، ملقيا على صورته التى تعكسها مرايا الحوانيت والمقاهى نظرات ارتياح تشمل الشريط الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع، ملوحا بعصاه القصيرة ذات الرأس الفضى، قابضا على قفازه كأنه يتحدى العالم. ولما تراءت لعينيه عطفة نصر الله جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور، ثم مضى إليها مطمئنا إلى أن أحداً لن يراه ممن يود ألا يروه ـ لم يطلع أحداً من أقرانه على عنوانه ـ راجيا أن يره جميع الذين يود أن يروه، وأحدقت به الأعين ولوحت له الأيدى من رقاع الأحذية إلى الحداد ومن بائع السجاير إلى جابر سلمان البقال. وتطلع رأسه إلى شرفة فريد أفندى فوجدها مغلقة فسر لما تهيأ له من مفاجأة سعيدة غير مسبوقة بتنبيه، ثم قطع فناء البيت إلى الشقة وطرق الباب وانتظر مبتسما. وجاءه صوت نفيسة وهى تزعق «من؟» وفتح الباب فما أن رأته حتى هتفت كالمجنونة:

ـ حسنين!

وشدت على يده فى انفعال وجعلت تهزها بقوة وفرح، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم لذراعيها النحيلتين وهى تضمه إلى صدرها وقبل جبينها فى سرور شابه شيء من القلق على سترته التى طوقتها ذراعاها، ثم سار بينهما إلى حجرته القديمة التى بدت لعينيه غريبة ولكنها على غرابتها استثارت حنانه وذكرياته. ووقفوا ثلاثتهم والمرأتان ترنوان إليه بإعجاب وحب، ثم دعت له الأم وأفصحت عن سرورها بعبارات مقتضبة: ثم لاذت بالصمت، أما نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة «لشد ما أوحشتنا». . «البيت من غيركم كالقبر». . «اضطرنى غيابك إلى أن أرد بنفسى على رسائل حسين بخط أقبح من وجهى». . لم يتمكن حسين من القيام بأجازته هذا العام لمرض زميله وقد

كدنا نجن من الحزن» . . «هل حقا كنتما تتراسلان؟ . . لقد أخبرنى بهذا منذ عشرة أيام» . . «ماذا تعلمت؟ . هل تستطيع الآن أن تطلق بندقية؟» وكان يجيب على أسئلتها فى دعابة، ثم خلع طربوشه ووضع عصاه وقفازه على المكتب ولبث واقفا وهو ينظر إلى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست أمه على الفراش وهى تقول :

ـ اجلس يا بنى . .

فتردد لحظة ثم قال :

ـ أخاف أن ينكسر البنطلون! . .

فتساءلت المرأة بدهشة :

ـ هل تظل واقفا طالما أنت لابس البدلة؟!

وابتسم فى ارتباك ثم جلس على الكرسى فى حذر ومد ساقيه وهو يفحص بنطلونه باهتمام، وقال :

ـ إن كسرة واحدة بالبنطلون خليقة بأن توقع على عقابا صارما لا يقل عن حبس شهر بالكلية .

ونظر فى وجه أمه ليرى أثر هذه الكذبة فى نفسها فقرأ فى صفحته الانزعاج فاستطرد قائلا بصوت ينم عن التضجر :

حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصورها إنسان، فنهارنا كله وشطر من الليل نقضيهما فى الخلاء بين المدافع والقنابل والر صاص، وقد تودى هفوة بسيطة بحياة فرد!

فاتسعت عينا نفيسة فى فزع، وتساءلت الأم فى اضطراب :

ـ كيف يلقون بأبناء الناس إلى الهلاك؟!

وهتفت نفيسة بانفعال :

ـ لماذا اخترت هذه المدرسة؟

فهز رأسه بثقة وقال :

لا تخافى على! . إنى ألعب بالنار بمهارة استحقت إعجاب الضباط جميعا!

فقالت الأم بصوت متهدج :

ـ ما عسى أن نصنع بإعجابهم إذا أصابك سوء لا قدر الله؟!

فقال حسنين فى سرور خفى :

ـ وماذا تصنعين إذا دعينا إلى الحرب؟ . . ألم تسمعا بأن هتلر يعد عدته لإشعال نار الحرب؟ وإذا نشبت الحرب هجم موسولينى على مصر فندعى جميعا للقتال!

وحدجته الأم بارتياع، ثم سألته بجد واهتمام :

ـ أحقا ما تقول يا بنى؟

وتراجع قليلا . .

ـ هذا ما يقوله بعض الناس!

ـ وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس؟

وقبل أن يجيب صاحت به نفيسة :

ـ إذا صح ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد .

فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقًا من إفساد سرور اللقاء :

ـ ما أردت إلا إخافتكما . . (ثم غير لهجته متسائلا) . . فلندع الهذر جانبا وخبرينى يا ست نفيسة ماذا تعدين لى غداء للغد؟! .

فابتسمت الفتاة وأدركت أن أخاها «ضيفها» نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وأن إكرامه واجب عليها قبل أى إنسان آخر . فقالت :

ـ سأشترى لك دجاجتين تطبخهما نينة فى ملوخية!

ـ عال! . . والحلوى؟

ـ برتقال .

نفسى فى الكنافة . فطالما رأيت هداياها تحمل إلى الطلبة أيام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد!

ولم تهتم الفتاة للكنافة قدر ما اهتمت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع فى نشوة الكرم التى غمرتها فقالت :

ـ وستحلى بالكنافة كما تشتهى!

فقال الشاب بعد تردد :

ـ لو كنت وقحا لسألتك أن تحشيها بالفستق والبندق!

ـ ولكنك لست وقحا والحمد لله . .

هكذا تهربت بالمزاح وأدرك حسنين أنه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر مما سخت فقال ضاحكا :

ـ آه لو رأيتم الهدايا التى كانت تحمل إلى الطلبة! . . وفى مرة أهدى إلى صديق قطعة من حلوى اسمها «بودنج!»

ـ بودنج!

نعم بودنج . .

فضحكت نفيسة قائلة :

ـ لولا الملامة لقلت إنها سلاح لضرب النار!

ثم سألته أمه :

ـ لماذا لا تخلع ملابسك؟

فقال فى شىء من الخجل :

ـ سأذهب إلى السينما!

ولاح التذمر فى عينى الأم فاستدرك قائلاً :

ـ وسأعود مبكرا لنسهر معا ، وسنمضى الغد معًا كذلك!

وعادوا إلى الحديث والذكريات طويلا ، ولكنه لم يعد يسعه أن يملك خياله . الذى ينازعه إلى الشقة العليا! وكان يجد صعوبة فى قطع الحديث والإفصاح عن رغبته فى زيارة جارهم فريد أفندى ، وأخيرا قال بعدم اكتراث :

ـ آن لى أن أترككما للذهاب إلى السينما ولعلى أجد بعض الوقت لزيارة فريد أفندى!

٦٤

منته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنه لم يدر كيف ، فقد اجتمع فى حجرة الاستقبال بالوالدين ، واستفاض الحديث العادى وهو ينتظر حضورها بصبر نافد . ثم جاءت تسير على استحياء وقد لفها روب وردى لم يبد منه غير أطرافها فسلمت عليه سلاما رسميا ووالدها يتفحصها بنظرة ضاحكة تنم عن إعجاب . وجلست إلى جانب أمها ، واتصل الحديث كما كان ولكن محضرها استأثر بأعماق وعيه فوجد مشقة فى تتبع الكلام التافه ومشقة أكبر فى الاشتراك فيه . ثم أخذ يستشعر بالملل والضيق ، وكلما استرق إليها نظرة وتخيل قوامها البض ثار دمه وحقد على الجلسة وشهودها . ورأى فى عينيها هدأة وطمأنينة كأنه لا يكدر صفوها مكدر ، وإنها لكذلك دائما كأنما لا يجرى فى عروقها دم ، وليس أحب إليها من أن تجلس بين والديها تصغى لحديثه وهى فى مأمن من نزواته! . . لذلك يحنق عليها أحيانا ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل ما بثته فى حناياه من طمأنينة وثقة فكان يشعر بأنه يأوى من حبها إلى ركن ركين وعاطفة عميقة ثابتة لا تزعزعها الحدثان . واستمر الحديث فلم تجد من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه قانعة بهزة من رأسها أو ابتسامة من شفتيها فبلغ منه الضيق نهايته ، وفكر فى مخرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن تنفيذها مدفوعا بجسارته ، فقال موجها خطابه إلى فريد أفندى :

ـ هل تأذن لى فى أن أصطحب بهية معى إلى السينما؟

وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهية عينيها موردة الوجه، ثم قال فريد:

ـ أظن العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين خطيبين . .

ولكن زوجه قالت بلهجة المعارضة:

ـ أخاف ألا يروق هذا للست والدتك.

ولم يتورع حسنين عن الكذب إنقاذا لمشروعه فقال:

ـ لقد استأذنتها فوافقت بسرور.

فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهى تنظر صوب زوجها:

ـ مادام والدها موافقا فلا مانع عندى.

وطلب إليها فريد أن تأخذ أهبتها للذهاب مع الشاب فمضت متعثرة فى خطوات الخجل، وما هى إلا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معا. ولاحظت بهية أنه جعل يسير فى حذر عندما اقتربا من شقة الأسرة كأنه يخاف أن ينتبه إليهما أحد من الداخل فساورها قلق وهمست فى أذنه:

ـ كذبت على أمى بقولك إنك استأذنت والدتك، وستغضب نفيسة لأنك لم تدعها معنا.

فأشار إليها بالسكوت وأخذها من يدها إلى الفناء ثم إلى العطفة، وسارا معا والوالدان يطلان عليهما من الشرفة. وكانت بهية ترتدى المعطف الأحمر الذى يجلو نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة. بيد أن القلق لم يذهب عنها وقالت له فى لوم:

ـ ستعلم أسرتك برحلتنا إن عاجلا أو آجلا . .

ولم يدع له سروره بالظفر مكانا لهم فقال ضاحكا:

ـ لم نرتكب إثما، ولن تحرق الدنيا!

ـ ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا؟

ـ ولكنى أريد أن أنفرد بك!

فقالت بقلق، وكانت تخاف نفيسة أكثر من أى مخلوق آخر:

أنت لا تبالى شيئا واأسفاه . .

ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحيانا النابية فقال:

ـ وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى أستأهل هذا الوصف عن جدارة . .

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست فى استياء دون أن تنبس بكلمة لأنهما كانا قد

اندسا بين الواقفين على طوار المحطة، وجعل ينظر إلى وجهها الساخط فى سرور باطنى، ثم همس مبتسما:

ـ أعنى معصية خفيفة!

فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا إلى الدرجة الأولى ولم يكن بها إلا سيدة أجنبية فشعر بارتياح، وجلس لصقها، ثم سألها فى دعابة:

ـ كيف كان شوقك إلىّ فى غيابى؟

فقالت فى شبه غضب:

ـ لم تخطر لى على بال قط..

فهز رأسه كالحزين وقال:

ـ ما آلمنى شئ كما آلمنى إحساسى بتشوقك إلى.

فقالت ببرود وهى تخفى ابتسامة:

ـ أصارحك بأن الكلية الجديدة قد زادت دمك ثقلا!

وذكر وهو لا يدرى ما تعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا إليها متأملا فوجدها جميلة فوق ما يشتهى، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة! وما غاب عنه أنه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائض معشوقه. وعدل فجأة عن معابثتها فقال بحرارة:

ـ لم تغيبى عن نفسى لحظة واحدة طوال ذاك الفراق، وقد تعلمت جديدا وهو أن الحب فى القرب ـ على طموحه المعذب ـ جنة أما على البعد فهو مأساة كاملة.

وخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنه شم فى استسلامها وما اعتراها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رئتاه بارتياح عميق.. وتحدث كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادراه ومضيا صوب عماد الدين. وطلب إليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد، ولما كانت تساير شخصا ـ غير أمها ـ لأول مرة فقد تولاها ارتباك وحياء. وشعرت بكوعه وهو يمس ـ عفوا أو قصدا ـ ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه، وتساءل محتجا:

ـ ماذا فعلت!

ـ هذا أروح لى..

فتغيظ لإفلات الفرصة وقال:

ـ سيكون من المعجزات تحويلك إلى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أى امرأة محبة تعانق وتقبل إلخ إلخ!

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبا إلى جنب فى السينما، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلته العسكرية وحبيبته. ومر به كثيرون من

زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور، ومال نحوها وهمس:

- ألا ترين أن جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواج؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة حية فأطلق مرحه وهمس مرة أخرى:

- قلبى يحدثنى بأننى سأنال الليلة القبلة المشتهاة..

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما أمامها. وحاول فى الظلام أن يعابثها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه، ثم اضطرت تحت ضغطه وإلحاحه إلى أن تترك راحتها فى راحته على الذراع التى تفصل بين كرسييهما، ومضى الوقت فى سعادة شاملة.

٦٥

وفى مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأتوبيس رقم ١٠ ليحمله إلى الكلية. وكان أمضى نهارا سعيدا فى أسرته وتناول غداء لذيذاً، وبدت نفيسة فى مرحها المألوف ولكنها - على ذاك - قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة:

- وددت لو رأيتك وأنت ذاهب مع «الهانم» إلى السينما!

وأدرك أن سره افتضح وأن الحرب أعلنت فضحك عاليا ونظر صوب أمه فرآها صامتة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة، وشكر فى نفسه بدلته العسكرية التى أنقذته من لكماتها إلى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة:

- ما أجملكما من زوجين!. حضرتك فى طول العمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق!

فنهرتها أمها قائلة:

- لا تكونى عيابة وفيك كل العبر!

فقالت الفتاة ضاحكة:

أنا على الأقل خفيفة، ولكن لك حق يا سى حسنين فوجهى لم يخلق للسينما!

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه!؟. كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر، وما لبث أن انضم إليه كثيرون من زملائه، ثم جاء الاتوبيس فصعدوا إليه متزاحمين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس فى السينما فترجح لديه أنهم سيعلقون على فتاته شأنهم فى

هذه الأحوال، وسر لذلك سرورا كبيرا وانتظر على لهفة الحديث الذى سيكون دون جوابه. ولم يطل به الانتظار لأن أكثر من واحد منهم بدا متحفزا، فقال قائل منهم وهو يشير إليه:

ـ أما علمتم؟ . . رئى الصنديد أمس وفى يده فتاة!

وود أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده. وتساءل البعض:

ـ من أى نوع؟!

ـ النوع البيتى . .

ـ جميلة؟

وتركز انتباه حسنين واشتد وعيه أما المتحدث فقال:

ـ لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدى!

وتصاعد الدم إلى وجهه وشعر بفتور قضى فى الحال على حماسه ونشوته، على حين واصل الآخرون حديثهم فى ضحك وصخب:

ـ ممتلئة أكثر مما ينبغى قصيرة أكثر مما يستحب!

ـ ودمها ثقيل من رتبة لواء!

ـ دقة قديمة على وجه العموم، أين وجدتها؟!

وأدرك أن السؤال الأخير موجه إليه ولكنه لم ينبس بكلمة، وجعل يضحك متظاهرا بالاستهانة وهو يعانى شعوراً جارحا بالخجل والقهر. وقال شاب بلهجة تنم عن الإشفاق:

ـ احذر أن تكون خطيبتك!

واندفع قائلا بلا وعى تقريبا:

ـ كلا طبعا!

ـ حبيبة؟!

فقال مدفوعا بمشاعر الألم والخذلان التى تصطرع فى نفسه:

ـ نوع من التسلية ليس إلا!

ـ إذن فلا بأس بها. عذراء؟!

وأجاب باضطراب شديد: نعم . .

ـ خيب الله أملك! لماذا تنفق وقتك عبثا؟! ألم تدر بأن التقاليد تقضى بأن تكون ليلة الخميس للعشيقة ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها؟!

فتكلف الشاب ضحكة وقال:

ـ سأصحح جدول النساء فى المستقبل!

وضحكوا جميعا، ثم غيروا مجرى الحديث. وانطوى على نفسه فى غم وهم يعانى سكرات الهزيمة. تبرأ من فتاته وهو لا يدرى. آه لو علموا أنها خطيبته وأنه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابرة عامين!. طابع بلدى، ممتلئة أكثر مما ينبغى، قصيرة أكثر مما يستحب، دم ثقيل من رتبة لواء، أهذه بهية حقا؟!. وهى إلى هذا كله دقة قديمة!، لا يخلو هذا القول من حق فهى لا تدرى كيف تصحبه فى الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة، ولا يكاد يذكر من قولها إلا التأنيب والتذمر. كيف يسعه إذا تزوجها أن يظهر بها أمام الناس؟ سيقولون هذا وأكثر منه. وشعر بكرب وامتعاض، وغاب عما حوله غارقا فى أفكاره فلم ينتبه إلى وقوف الأتوبيس أمام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين..

٦٦

وفى الأسبوع التالى صعد فى الوقت المعتاد لزيارة فريد أفندى، وكان الأب وسالم الصغير فى مشوار فجلس مع الأم وبهية، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب. وبدت بهية فى فستان بنى تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها أسفل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين، فلم يكن ينقصها إلا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه إلى السينما إذا دعاها. ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير فى هذا، وكان صوت نفيسة لا يزال يطن فى أذنيه وهى تقول له بعد أن أعطته نصف ريال لسهرته:

ـ هذا لفسحتك أنت وحدك!

ولكن لم تكن نفيسة كل شىء، كان فى الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرة أخرى أمام زملائه، وبات يخجل منها وهو لا يدرى. كان يحسبها أجمل فتاة، ولكنه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماه! ورنا إليها فالتقت عيناهما، وهناك نسى أفكاره، وانبعثت حرارة دمه واضطرمت به الرغبة مستهينة بكل شئ، مليحة شهية، لا يستطيع أن يمارى فى هذا ولكن كيف يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهى أنه يتحاشى الظهور معها أمام الناس؟!. وكانت الأم لا تمسك عن الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشرود حتى قالت له:

ـ ما لك يا سى حسنين كأنك مشغول البال!

فأفاق إلى نفسه مضطربا وقال كالمعتذر :

ـ كان الأسبوع الماضى حافلا بالتمرينات القاسية حتى غادرنا الكلية كالأموات !

وواصل الحديث وهو أشد انتباها له حتى استأذنت الأم لأداء الصلاة فخلا لهما الجو، وبادرته الفتاة قائلة :

ـ مالك؟

فقال مبتسما ليذهب عنها الشك :

ـ لا شيء!

ـ لست كعادتك!

وخطر له خاطر ما كر بعثه فى نفسه خلو المكان وعواطفه الثائرة فقال متظاهرا بالحزن :

ـ لا أنسى تحفظك معى!

ـ أتعود إلى هذا؟

ـ طبعا! . . هذا حقى ولا أنزل عنه ما حييت .

فقالت الفتاة برجاء :

ـ حسبت أننا انتهينا من هذا؟

ـ إنى فى حيرة من أمرك، جميع زملائى لهم خطيبات مثلك ولكنهن لا يحرمنهم حقوقهم من العناق والقبل .

وغمغمت موردة الوجه :

ـ لسن مثلى ولست مثلهن! . .

هذا حق، ولعل زملاءه لم يقتصدوا فى توكيد هذا ولكنها لا تدرى ماذا تقول! وتفكر فيما ينطوى عليه قولها من سخرية لم تدر له بخلد، وقبل أن يتكلم عجلت هى بتغيير مجرى الحديث فسألته :

ـ أذاهب أنت إلى السينما؟

وأدرك أنها تهيئ له فرصة ليدعوها للذهاب معه، وساوره إحساس بالضيق ولكن إشفاقه كان أكبر من حرجه فقال :

ـ كلا سأوافى بعض الزملاء إلى موعد سابق!

وخفضت عينيها فى خجل، ثم ساد صمت أليم، وأخيرا سألته بلهجة ذات معنى :

ـ ماذا أحدث ذهابنا معا إلى السينما فى بيتك؟

ووجد فيما تعنيه بسؤالها عذرا ينفعه فى تجنب ما يريد تجنبه فقال :

ـ لا شيء ذا بال إلا أن والدتى ساءها أن أدعوك إلى مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة!

فقالت ببرود:

ـ ليس مما يسئ إلى الأسر المحترمة أن تذهب فتياتها إلى السينما!

ـ كما لا يسئ إليها العناق والقبل ولكنك ـ مثل أمى ـ لا تصدقين!

فتجاهلت إشارته وتساءلت:

هل منعتك من العودة إلى تلك المخالفة؟!

ـ كلا! . ولكنها تخاف أن أسئ من غير قصد إلى أسرتك الكريمة.

ـ ألم تخبرها بموافقة والدى؟

ـ أخبرتها ولكنها اعتقدت أنهما وافقا متورطين.

ـ هل أفهم من هذا أننا لن نخرج معا بعد اليوم؟

ولم يستطع أن يجابهها بما يبطن فقال:

ـ بل نخرج حين نشاء.

وندم على قوله إثر التفوه به، أما هى فابتسمت فى حياء وقالت بصوت منخفض:

ـ ظننت أننا سنذهب اليوم إلى السينما!

وعجب لهذه الدعوة تجئ من ناحيتها هى، ومع أنه رق لها إلا أنه لم يستسلم لعاطفته فقال:

ـ لولا أننى مرتبط بموعد كما قلت لك.

ـ آه. . هذا أهم من ذهابى معك!

ـ ليس الأمر كذلك لكن سبق منى وعد! . . ثم . . ثم لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنه أمى مخالفة للتقاليد بهذه السرعة!

فهزت رأسها فى ابتسامة حزينة وقالت:

ـ إذن فليس الموعد الذى يمنعك!

فقال بتسليم:

ـ كلا الأمرين معا! . . لا تؤاخذى أمى على عقليتها القديمة.

فخرجت عن ضبط عواطفها لأول مرة قائلة:

ـ فكيف تسمح لنفيسة بالخروج كل يوم؟!

ولم تعجبه لهجتها. وساءها ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل من حدة:

ـ لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبدا!

وبادرته قائلة بلين وإشفاق وأسف . :

ـ لم أقصد سوءا بأحد . أردت أن أقول إن الخروج لا يعيب إنسانا . .

وساد الصمت قليلا ثم سمعا وقع أقدام الأم وهى راجعة فتساءلت بهية فى لهفة وإشفاق :

ـ حسنين أنت غاضب؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت إليها طمأنينتها . . ومكث معهما ساعة ثم ودعهما وانصرف .

٦٧

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب إلى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد إلى كرسيه فى الظلام . وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم فى البيت الذى غادره معتذرا بأكذوبة . وذكر كيف ضغطت على يده بحنو وهى تودعه، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه . وغفرت لها ما تقدم وما تأخر من إساءة! ، «أمنيتى الآن أدنى إلى التحقيق، لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهى من زمن . لو عبست فى وجهها مرتين لما أصرت على قول «لا» . ما أحمقنى! . لن أقنع بقبلة . لأضمها إلى صدرى حتى يطقطق عظمها تحت ذراعى، بعيدا عن أعين النقاد التى لا تعجبها إلا الملاحة والرشاقة والموضة . ولكن هل أصر على إخفائها عن الأعين بعد أن أتزوج منها؟ . لماذا لا أستهين بالناس وألسنتهم؟ . يا له من شر لا قبل لى بالتعامى عنه! . هكذا أنا» وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه على الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده، ثم شاهد فصلا من الصور المتحركة وأضيئت الأنوار . ودار برأسه فيما حوله متفرسا فى الوجوه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة فى السمنة لحد مزر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث، ولم يسعه إلا الإعجاب بشجاعة الرجل الذى يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد . ولاحت منه التفاتة إلى يساره فرأى الكرسى الذى يليه فتاة حسناء مرتدية جاكتة رمادية وتاييرا، وخيل إليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة . وراح ينقب فى طوايا ذاكرته، وفى أثناء ذلك انتقل بصره إلى امرأة تليها ثم إلى رجل ما إن رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائما ومد له يده بأدب وهو يقول :

ـ مساء الخير يا سعادة البك .

فالتفت الرجل صوبه ـ كان أحمد بك يسرى ـ وابتسم إليه مسلما، ثم قدمه إلى زوجه

وكريمته وعقب على التعرف به قائلا «ابن المرحوم كامل أفندى على» فسلم عليهما فى غاية من الأدب وعاد إلى جلسته ومس يد الفتاة يسرى فى جسده، وسأله البك عن حاله فى الكلية فأجابه شاكرا ثم فرغ كل لحاله. ونظر إلى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدم إلى عضوين فى هيئة الجنس اللطيف العالية لأول مرة فى حياته. ومر عند ذاك نادل يحمل ألوانا من الشيكولاته والمشروبات فود لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منها إلى الأسرة، ولكن لم يكن فى جيبه إلا قروش، فحنق على إفلات هذه الفرصة منه، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل!. ثم أطفئت الأنوار وعادت الحياة إلى الشاشة، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله إباء وجموحا. تأكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة، وذكر الساق العارية التى كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيلا. ترى أى أثر قد تركه فى نفسها؟. وأى أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه «ابن المرحوم كامل أفندى على»؟. كان والده موظفا صغيرا، وفضلا عن هذا فلا شك أن المرأتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعة تارة ليوظف حسين، وتارة ليلحقه بالكلية الحربية، وهيهات أن يغيب عنهما حقيقة مستواه الاجتماعى. ولعل الفتاة لم تر فيه إلا صنيعة لمعروف والدها، ولعلها قالت لنفسها إنه لولا يد أبيها ما ارتدى ـ هو ـ بدلته ذات الشريط الأحمر!. كل هذا محتمل، بل هو مؤكد، وقد التهب جبينه خجلا وسخطا. «لقد رأيت ساقك على الدراجة، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة. لا توجد معجزات فى هذه الدنيا. ألست تنامين كأى فتاة، وتغيبين عن الوجود كأى امرأة، وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها لفقرنا، وتعوين حين المخاض كأية كلبة!» وحك أنفه بسبابته فجأة فتنسم شذا لطيفا مما علق براحته عند السلام، فيه إثارة للأعصاب ونفاذ إلى القلب كأنه السحر، فأسكره عرفه وبث فى نفسه رضى وسلاما مسحا عن صدره أدران الحنق والألم. ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابكة ذراعيها على صدرها وتمنى لو تريح ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفوا. ثم تخيل صورة وجهها الذى ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها بطوله الممتلىء وعينيها السوداوين اللتين تنمان عن حيوية وخفة، وهالة شعرها الأسود العميق السواد. وبشرتها النقية التى تزين وجنتها اليسرى شامة، ثم راح يستحضر صورة بهية، ويعرض الصورتين جنبا إلى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية جمال جامد وهذه جمال متحرك، كأنما يبث فى النفس حرارة ويشع فى الخيال حياة. وليس هذا فحسب فإنها تمثلت لعينيه الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع إليها بشغف جنونى. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة. وبرغم نشوته الراهنة لم يخدع عن حقيقة شعوره، ولم يتوهم أنها تغلغلت فى قلبه حيث استكنت بهية. فهذه على

سلبيتها المطلقة ـ تقبض على جذور غرائزه وأعصابه، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذى لا يقف عند حد، ولعله عرف على ضوء عينيها جانبا من نفسه كان غامضا وهو أنه يؤثر فى أعماقه الطموح على السعادة والسلامة!. ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجئ فقال لنفسه «إنى أحلم أحلاما سخيفة. ولكن ألا يحق لى أن أروح عن صدرى بالأحلام؟ أليست الأحلام نفسها حلما؟. بلى، إنها حلم، ولا يكدر صفوها إلا شعورنا الوهمى بأنها حقيقة!». وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من تركيز انتباهه فى الشاشة، ولكنه كان قد استنفد حيوية كبيرة فبدا المنظر متعبا مملا، وتصبر عليه فى جهد حتى انتهى وأضيئت الأنوار. والتقت الأعين فحنى رأسه تحية ثم انخرط فى تيار الخارجين. انفلت من الزحام فتمشى فى الطرق ساعة ثم استقل الترام إلى شبرا. وأقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدها، وزكمت أنفه رائحتها التى يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برما خابى العينين.

٦٨

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسى على الختام. وفى ثلثه الأخير علم أن وزارة الحربية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسى واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق التى يلحقون بها، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد إقرار المعاهدة. وضوعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلوا عليه مستبشرين متحمسين، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون إلى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطا بعد عام دراسى واحد، وكان آخر هؤلاء جميعا حسنين نفسه. ثم انتهى العام وتخرج الشاب!. واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمزق شراعه ونفد طعامه إذ تكشف الضباب لعينيه فجأة عن مرفأ آمن، ولهج لسانها بحمد لله وجعلت تقول فى حرارة وإيمان عميق «أنت وحدك يا ربى الذى أخذت بيدى، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط فى ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شىء من حولنا يدعو لأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك». وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة فى حياتها وأخذت محنتها الطويلة تتراءى لعينيها الذابلتين فى هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر. وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعده لسداد مصروفات السنة التالية فأخذه حسنين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التى تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة. ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد ألحق بسلاح

الفرسان بالقاهرة وتهيأ للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقق حلمه القديم وجعلت أمه تنظر إليه بعينى أذهلهما الفرح حتى شذت عن المألوف من صمتها ورزانتها، فهذا هو الابن المحبوب، زهرة حياتها وأملها المنشود. وقد قال لها مرة:

ـ إذن حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهدانى على صهوة جوادى على رأس فرقة الفرسان!

فلم تتمالك أن قالت له:

ـ هذا إذا ابتعت لى معطفا يليق بالظهور فى الطريق الغاص بالمتفرجين!

فضحك الشاب قائلا:

ـ صبرك حتى أقبض مرتبى!

كانت أياما سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت. بيد أن الشاب كان يفكر فى أمور كثيرة، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرق إليها الفساد، فانتهز فرصة انفراده بأمه مرة ـ كانت نفيسة فى الخارج ـ وقال لها بصوت ينم عن الاهتمام الشديد:

ـ أماه، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزرى فى الحال لأنه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خياطة.

فابتسمت الأم وقالت ببساطة:

ـ سترحب بهذا بمجامع قلبها يا بنى..

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهدا فى كآبة:

ـ ليتنا نستطيع أن نمحو الماضى من صفحة الوجود!.. أخاف أن يعيرنا قوم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شىء من هذا إلى أحد من زملائى فأفقد كرامتى بين أقرانى..

فسرى إليها بعض همه ولكنها ربتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة:

ـ كنا فقراء، وأكثر الناس فقراء ولا عيب فى هذا..

فهز رأسه معترضا وقال فى أسى:

ـ كلام يقال ولكنه لن يغنى عنا شيئا وأنت أخبر بالنفوس!

ـ لا أحب لك يا بنى أن تنغص عليك صفوك بأمثال هذه التخيلات!..

فاستدرك قائلا وكأنه لم يسمع قولها:

ـ هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا، فلهذا لا أطيق البقاء فيها . .

وأشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسل :

ـ ستسوى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجل بحمل همها!

وحدجها بنظرة غريبة وغبطها فى نفسه على قوة أعصابها، ولكنه سرعان ما تغيظ لعدم اكتراثها بالأخطار التى تتهول فى رأسه وقال بحدة :

ـ قد تسوى هذه الأمور مع الزمن حقا ولكن بعد أن تكون قد قضت على!

فلاحت فى عينى المرأة نظرة ارتياع وقالت له فى عتاب :

ـ أراك كعادتك نافد الصبر متعجلا للمتاعب، ونصيحتى لك ألا تخلط أفراحك الحقيقية بأتراح وهمية لا أهمية لها .

فقال باستنكار :

ـ لا أهمية لها! ماضى نفيسة وما يعرفه هذا الحى عنا لا أهمية له؟

ـ إذا لم تأخذ نفسك بالإيمان بهذا فلن تنعم بالسعادة أبدا .

فتنهد حسنين قائلا :

ـ أود أن أسدل على الماضى ستارا كثيفا .

ـ تجمل بالصبر وسيكون لك هذا .

فالتهب الشاب غيظا وقال كمن ضاق صدره :

ـ لا أخاف شيئا كخوفى الصبر الذى تدعيننى إليه . انظرى إلى هذه العطفة الحقيرة وهذا البيت العارى هل أستطيع أن أخفيهما إلى الأبد عن أعين زملائى؟!

وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أن حياتها لن تخلو من هم وكدر . وقالت له بمرارة :

ـ خطوة خطوة! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن!!

فهز رأسه فى حزن وقال :

ـ ما أردت إغضابك يا أماه ولكننى أفكر فى هذه الأيام كثيرا فى المتاعب التى تتهددنا . وقد ذكرت لك بعضها، ولعل ما بقى أدهى وأمر . فانظرى مثلا إلى أخى حسن وسيرته فى الحياة! . كيف نستقبل الحياة فى هدوء وحولنا هذه المتاعب؟!

وتفرست فى وجهه بدهشة وكأنها تعجب لقدرته على اصطياد الهموم، وتمتمت فيما يشبه اليأس :

ـ دع الخلق للخالق . كنا هكذا دائما فلم نهلك ولم يقض علينا .

فقال الشاب بإنكار :

ـ لم أكن ضابطا أما الآن فقد أصبحت سمعتى مهددة!

وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت فى كرب شديد فتنهد حسنين قائلا :

ـ ينبغى أن يتغير كل شىء ، حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه!

ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء :

ـ إنى أحب لنا ما تحب ولكنى أوصيك بالصبر وأحذرك عواقب ثورة لن تجدى الآن إلا الحزن . تريد أن تمحو الماضى وتغير البيت وتنشئ مقبرة وتبدل أخاك من حال إلى حال ، ولكن هيهات أن يتم لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل؟ . طالما تمنيت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فإذا لم تروض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا!

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فأمسك عنه . ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الاقتناع أو القبول فخيل إليه أنه لا تشاركه آماله وعواطفه ، وأنه وحيد فى معركة الحياة أو الموت . إن نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف . ولن يحيد عن هدفه . وليدافعن عن سعادته وآماله بكل ما أوتى من قوة ورغبة فى الحياة . ودق الباب عند ذاك ، وكان المساء يمد رواقه ، فحدس أنها نفيسة عائدة من عملها ، فهرع إلى الباب فى تصميم جديد .

٦٩

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام إلا مبتسمة مستبشرة . واستبانت فى وجه أمها سهوما فاقتربت منها وقالت مداعبة :

ـ تخلى يا أماه عن هذا الجد الذى لا داعى له فقد انتهت متاعبنا .

وردد حسنين قولها فى نفسه محزونا ، هل حقا انتهت متاعبهم؟ . إن ميزانية الجيش كله لا تكفى لإنهاء متاعبهم! ثم رفع بصره إليها وقال بلهجة ذات معنى :

ـ آن لك أن تستريحى . .

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتعنى أن أترك مهنتى؟

ـ نعم . .

ـ أتركها غير آسفة ، وسألزم بيتى كالهوانم ، ألست شقيقة ضابط؟! . .

ولم يتمالك أن قال ساخرا :

ـ وشقيقة سى حسن أيضا!

فرددت عينيها بينه وبين أمها فى دهشة وتساءلت عما جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرة، أما هو فسألها متهكما:

ـ ألا يسرك هذا؟

وقالت الفتاة برقة وعطف:

ـ مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر.

وتدارك الشاب قائلا:

ـ لست فى حاجة إلى من يذكرنى بهذا، وعلم الله أنى أحبه، ولكن لا حيلة لى إذا قلت أن سلوكه فى الحياة ليس مما يشرف.

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحت فى عينيها نظرة زائغة، وتخيلت أمورا فبردت أطرافها رعبا، ثم خيل إليها أنه يعنيها بالذات، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت فى فتور:

ـ وأية أسرة تخلو من شىء من هذا القبيل!

فقال حسنين بامتعاض:

ـ ولكنه لا يوجد فى الأوساط المحترمة.

وركبها الضيق والقلق فرغبت فى الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت فى مرح متكلف:

ـ لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص، بالله لا تكدر صفونا، واعلم أنى صنعت لك صينية كنافة فدعنى أسخنها ولنأكل فى سلام!

وغادرت الحجرة إلى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع فى قلبها خوف وقلق. إنه يدعوها إلى القبوع فى البيت أسوة بالنساء المحترمات، وإنها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل إلى إصلاحه. وهى تستطيع إذا شاءت أن تنتحل لسلوكها الأعذار وأن تقول لنفسها إنها إنما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التى أقامت بها أود أسرتها فى أكلح ساعات حياتها وهذا حق ولكنه ليس الحق كله فهنالك أيضا الرغبة المعذبة واليأس القاتل. وكم ودت فى ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هى بموتها ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما. وعانت كثيرا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد ـ إن كان عزاء على الإطلاق ـ أن الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل. وكم تمزقها الحيرة الآن ما بين ماض تعيس ورغبة لا تسكت عنها. وحتى هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدرى إن كانت تستطيع حقا أن تخلص لها بعد ما كان، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس، وفيم تأخذ نفسها بصبر لا مطمع لأمل وراءه

وليس لديها ما يصح المحافظة عليه؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممل للموت . ؟ لا تدرى إن كان بوسعها حقا أن تخلص للحياة الجديدة ، وأن تتعذب عذابا طويلا متصلا بعد أن خسرت كل شيء . إنها تمقت الماضى وتخافه ولكنها تشد إليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاكا ، ولن تفتأ يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة ، كمن يسلم للسقوط من علو شاهق فى كابوس بعد أن أيس من اليقظة . وجعلت تنظر فى سهوم إلى صفحة الكنافة الموردة حتى تخيلت نفسها فى الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها ، وفى تلك اللحظة بدت الحياة لها عابثة قاسية . تعبث فى قسوة . وتقسو فى عبث . فتساءلت «لماذا خلقنى الله؟» . ومع ذلك كانت تحب الحياة ، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها إلا آيات على هذا الحب ، وكانت إلى هذا كله تنتظر مع الغد موعدا لم تضمر النكوص عنه .

وحملت الصينية بخرقة بالية وعادت إلى الحجرة فوضعتها على المكتب وهى تقول فى مرح وكأنها نسيت أفكارها ومخاوفها .

ـ أقدم لك آخر كنافة من عرق جبينى ، وعليك وحدك منذ الآن أن تحلى ألسنتنا!

وأقبلوا على الكنافة بشهوة وقد تطهرت الأنفس من همومها . وقالت الأم وهى تغرز أصابعها فى الصينية :

ـ ليت حسين كان معنا .

ولوح لها حسنين بأصبعه حتى ابتلع ما فى فيه ثم قال :

ـ آن لنا أن نسعى إلى نقله إلى القاهرة . كان أحمد بك يسرى قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وها قد أوشك أن يمضى عامان على تعيينه فى طنطا .

كان يرغب فى معاشرة أخيه كعهدهما القديم ، وكان يأمل أن يجد فيه عونا على متاعبه ، وقد رحب إلى هذا وذاك بفرصة تتيح له زيارة أحمد بك فى قصره .

٧٠

ذهب مع أصيل الغد إلى فيللا أحمد بك يسرى وفى نيته أن يقدم له فروض الشكر لمناسبة تخرجه ثم يستشفعه لنقل أخيه إلى مدرسة من مدارس القاهرة . وقد وقف البواب احتراما للضابط ثم قاده إلى السلاملك ومضى إلى الداخل لإنباء البك بحضوره . وجلس حسنين إلى الكرسى الذى جلس عليه أكثر من مرة فى أوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وراح يسرح طرفه فى الحديقة . وجرى بصره فى الممشى الطويل المتعرج الذى رأى الدراجة تقطعه فى مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه

الرياضة؟ . وابتسم للذكرى حينا ثم تساءل مرة أخرى أحقا جاء للشكر والشفاعة وحدهما؟ ! وعاوده الابتسام . بيد أنه كان فى حيرة من أهدافه قلقًا حيال البواعث التى تحركه ، مشفقا من الإساءة إلى خطيبته ، ثم ذكر زيارته الأخيرة ـ التى أعقبت تخرجه ـ لبيت فريد أفندى وكيف مرت فى أحاديث مملولة وشعور أليم بالحرمان . حتى أنه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته ، ذكر هذا فوجد من التذمر ما هون عليه إحساس التأنيب الذى دب فى أعماقه لسروره بذكريات فيللا أحمد بك . ونفض عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التى تتوهج فى قلبه فى محيط هذه الفيللا الرائعة فانثالت على مخيلته الأحلام ، ماض جديد وبيت جديد وقبر جديد وأهل جدد ومال موفور وحياة وضاءة لامعة . ومع أنه صار ضابطا ، ولعل كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، إلا أنه أدرى الناس بقلبه الذى يحترق لهفة على الحياة السامية النظيفة ، هذا القلب الذى أورده الجزع موارد القلق والسخط والشقاء ، ولبث على استسلامه للأحلام حتى عاد البواب من الداخل وتنحى عن الباب فى أدب وهمس «سعادة البك قادما» . ونهض حسنين ، ثم ظهر البك فى بدلته البيضاء والوردة الحمراء تزين عروته ، ولما رأى الشاب ألقى على بدلته العسكرية نظرة شاملة ثم قال ضاحكا :

ـ أهلا بالضابط .

وانحنى الشاب على يده مسلما وهم بالكلام ولكنه رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفى أثرها الفتاة . وأدرك أنه جاء فى وقت غير مناسب لغرضه لأن الأسرة متأهبة للخروج ، وقد توكد هذا لديه حين لمح السيارة تدور فى الممشى الواسع وتقف عند أسفل السلاملك منتظرة الذاهبين ، فما كان منه إلا أن سلم على المرأتين وتأخر خطوتين قائلا :

ـ جئت لأقدم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة تخرجى ، وأرى أن أستأذن فى الانصراف الآن حتى لا أؤخركم .

ولكن البك قال :

ـ بل نجلس لنشرب ليمونا معا ، ما يزال أمامنا فسحة من الوقت . .

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاراه ليضبط أعصابه فلم يكن أبغض إليه من أن يتولاه الاضطراب أو الارتباك حيال البك وأنداده من علية القوم . وذهب البواب لإحضار الليمون أما البك فسأله برقة :

ـ أين كان تعيينك؟

فقال حسنين بزهو مكتوم :

ـ سلاح الفرسان بالقاهرة .

ـ كنت من المتقدمين؟ .

ـ الثامن . .

وهنأه الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان فى عزمه لو قابل البك منفردا ـ أن يعدد أياديه على أسرته وما بذل من شفاعة محمودة له ولأخيه على أن يتدرج الثناء إلى عرض مسألة أخيه حسين ، ولكنه عدل عن هذا مصمما على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين ، وأمام الفتاة خاصة ، ولم ير ضيرا فى تأجيل مسألة شقيقه إلى غد أو بعد غد على أن يحدث البك عنها فى مكتبه بالوزارة . وجاء خادم نوبى بأقداح الليمون دار بها عليهم . وانتهز حسنين فرصة رفعه للقدح إلى فمه فاسترق إلى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فرآها وهى تحسو شرابها فى رفق ولطافة ، فلم يند عن زورها هذه الحركات العصبية التى يبعثها الازدراد العنيف ، وتمززت السائل فى رقة فانسكب فى هوادة وحياء ، وقد اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم للمسات النعاس ، وأعاد القدح إلى الصينية ثملا بنشوة افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية . وتخيلها فجأة بين ذراعيه مستكينة مستنيمة فأصر على أسنانه . «ما هذا الجنون الذى ينبعث فى دمى . ليس شهوة فحسب بل ليس شهوة على الإطلاق ، بهية أشهى منها وإن كان يخجلنى الظهور معها أمام الناس ، ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو كامل وفتح مظفر . هذه!» . وانتبه من أفكاره على صوت أحمد بك وهو يسأل :

ـ كيف حال الأسرة؟؟

فخطر له خاطر ظن أنه يرفع من كبريائه . وكانت الأكاذيب تنبعث فى نفسه أحيانا بوحى البديهة بلا تردد :

ـ الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا القضية!

فتساءل البك :

ـ أى قضية؟

فقال بثبات وثقة :

ـ قضية قديمة بين أمى وأخوالى على أوقاف وقد حكم لأمى بنصيبها كاملا!

فقال الرجل :

ـ مبارك . . مبارك . .

وشعر حسنين بارتياح وزهو ، ثم وهو يقول :

ـ لقد أخرتكم وأنا آسف يا سعادة البك .

ونهضوا جميعا وهبطوا إلى موقف السيارة ، وتمنى لو يدعوه الرجل إلى الركوب معهم ، ولكنه مد له يده مودعا فسلم عليه وحنى رأسه تحية لأسرته ومضى إلى الباب مسرعا . كانت الزيارة تبدو مخفقة لأنه لم يمس الموضوع الذى جاء من أجله ولكنه كان

يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التى جادت بها البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأول الذى لن يؤثر فيه تأجيل يوم أو يومين.

٧١

وقلب وجهه فى السماء ولما يبرح شارع طاهر فطالع فى صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن فى بيته إذا جازف بزيارته؟ كان مصمما على مجابهته برأيه وإن كان ضعيف الأمل فى إصلاح ما فسد من أمره، ولكن تركيز أفكاره فى مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شىء حتى مناضلة حسن نفسه. ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنثنى ولكنه كان يحمل قلبا أثقله الهم والشك. واستقل الترام حتى ميدان الخازندار ثم اتجه إلى شارع كلوت بك وقد تحول انتباهه إلى بدلته العسكرية التى فرضت عليه الظروف ـ كانت أمه قد استغلت ملابسه القديمة فى أغراض جديدة كعادتها ـ أن يخترق بها طرقا مريبة! لم يكن الاختيار بيده، وكان يرى فى حسن مشكلة الأسرة المعقدة الأولى. لقد تخلت نفيسة عن مهنتها، وسوف يهجر قريبا عطفة نصر الله بل وشبرا جميعا، وربما أسدل ستار النسيان على الماضى البغيض كله، فلم يبق إلا حسن وهيهات أن يطمئن له جانب مادام شقيقه مقارفا حياته الآثمة. وطالعته عطفة جندف فعرج إليها متجنبا الأنظار التى تطلعت إليه فى دهشة وقطعها مسرعا إلى بيت أخيه ومرق إليه كالهارب مستقبلا الرائحة النتنة، وارتقى السلم الحلزونى ممتعضا، ذاكراً فى ضيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام، حتى وقف أمام باب الشقة فى شبه ظلام وطرق الباب. وفتح الباب عن وجه رجل غريب ـ وجه شائه من الوجوه التى لم تبرح ذاكرته منذ زيارته الأولى ـ وما أن وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه فى وجهه بسرعة غريبة وقد ندت عن فيه صرخة قائلة: «بوليس!» فدهش الشاب، ثم حدث ما هنالك فانزعج وأحس بخزى وألم لم يحس بمثلهما من قبل. ولبث متسمرا فى مكانه لا يدرى ماذا يفعل. وفكر فى العدول عن الزيارة، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميما عنيدا على إنجاز مهمته مهما كلفه الأمر. ليست المسألة لهوا وعبثا؛ هى حياة أو موت، ولن يستطيع السير فى حياته قدما ووراءه هذا البيت. وطرق الباب مرة أخرى، وانتظر وهو يعلم بعبث الانتظار، ثم أعاد الطرق بشدة. ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من إحدى النوافذ؟ وأراد أن ينادى أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التى يتمنى ألا تعرف أبدا، ومع هذا فمن أدراه أن حسن لم يخبر أحداً بحقيقة

شقيقه ولو على سبيل الفخار؟! وأصر على أسنانه فى خزى ويأس، ولكن اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده بعنف وصاح «يا حسن، يا حسن، أنا حسنين!». . ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدا حسن خلفه يطالعه بعينين ذاهلتين. وبدأ كمن يفيق من صدمه، و، ثبت بصره لحظات دون أن يتحرك، ثم دبت فى عينيه يقظة، وشاع فى نظرتهما الابتسام وهتف:

ـ حسنين!!. . ضابط!. . لا أصدق عينى!

وشد على يده. . وربت بالأخرى على ذراعه، وجذبه إلى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية. ثم سار به إلى حجرة النوم وهو يقول:

ـ ضابط!. . يالها من مفاجأة!. . مبارك مبارك. . هذا يوم سعيد. .

وجلس حسنين على الكنبة، وأغلق حسن الباب ثم جاء فجلس إلى جانبه. وكان الشاب يبذل جهدا جبارا ليتغلب على اضطرابه ويتمالك أعصابه، ونظر إلى أخيه مبتسما وقال:

ـ إنى أحق الناس بالتهنئة ولكنك أنت أحقهم بالشكر.

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفا بعد ما كان من انزعاجه وقال:

ـ علام استحق الشكر؟ ما أديت إليك إلا بعض حقك عندى. دعنا من هذا وأخبرنى عن حال الأسرة، وكيف أمنا ونفيسة وما أخبار حسين؟

وراح يحدثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام، وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدرى إلى سؤاله عما قطعه عنهم، ولكنه أمسك عن السؤال فى اللحظة الأخيرة ذاكرا أن انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن وصاله شر ما يبتلون به وهو على هذا الحال، ولما فرغ من حديثه قال حسن:

ـ الحق أنى أحن إليهم كثيرا ولكن حياتى لم تعد تسمح لى بإشباع هذا الحنين. نحن فى بلد واحد ولكنى فى الواقع كأنى فى بلد بعيد منقطع عن العالم. وربما خفف عنى الألم أحيانا أنهم لم يعودوا بحاجة إلى وأنى أديت بعض الواجب على. وفضلا عن هذا فلست تجدنى فى يسر متصل، فقد يمتلئ جيبى بالنقود أياما ثم يفرغ أسابيع. وفى حالة امتلائه تجدنى مضطرا للإنفاق بغير وعى. لا عليك من هذا، لقد أصبحت ضابطا فمبارك عليك حظك ولا يصح أن أخلط بفرحى شيئا آخر. . مبارك يا حضرة الضابط!

وجعل حسنين يصغى إليه وهو يتفرس فى وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغرابة كأنه يستهلك فى العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهالك أعواما طوالا. لقد انتهى

حسن، وشعر بانقباض وتشاؤم، وبثقل المهمة التى جاء من أجلها. ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه، وعزم على أن يتسلل إلى هدفه برفق فابتسم وقال:

ـ أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتى!

ـ ابصق هذه العبارة من فيك!.. ما هذا القول يا حضرة الضابط!؟

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنعا الدهشة:

ـ لقد فتح الباب لى رجل غريب ثم صرخ مرتعبا «بوليس» وأغلق الباب فى وجهى!

فقهقه حسن عاليا وقال:

ـ حصل سوء تفاهم نادر ولكنى عرفت صوتك فانتهى الأمر بخير.

فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلا:

ـ وما الذى أخافه؟

فألقى عليه نظرة كأنما يسائله أيجهل حقا أم يتجاهل! ثم قال بعدم اكتراث:

ـ يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس!

فتساءل الشاب بإشفاق:

ـ أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمثل هؤلاء؟!

فصمت حسن قليلا ثم قال:

ـ بلى ولكن الإنسان ليس حرا فى اختيار أصحابه!

فقال بدهشة:

ـ كيف هذا يا أخى؟!.. الإنسان حر بلا شك فى اختيار أصحابه..

فقال حسن بلهجة من يرغب فى تغيير مجرى الحديث:

ـ فلندع هذا جانبا ولنختر حديثا ألطف!

ـ لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئن عليك..

فقال حسن ضاحكا:

ـ لا خوف على، اطمئن!

ـ إنى أعجب لما يدعوك إلى مصادقة هؤلاء الأشرار.. أنت فنان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفى نظرة التجهم التى لاحت فيهما. غضب الرجل، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسنين لانفجر، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى. أغضبه شعوره بأن أخاه يعلم من أمره أكثر مما يتظاهر به، وأنه يعامله معاملة الأطفال. ولو أنه

صارحه بذات نفسه، بل لو أنه وصفه بالشر كما وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن. وعزم على أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت ـ رغم كظم غضبه ـ غير الذى تكلم به من قبل:

ـ إنى واحد من هؤلاء الأشرار!

وفغر حسنين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء:

ـ حسنين إياك والتظاهر بالدهشة، لست غبيا ولست غبيا فيحسن بك أن تحدثنى بالصراحة التى تعودت أن تحدثنى بها دائما. ما وجه الغرابة فى أن أكون شريرا؟ ألم أكن طول عمرى هكذا؟!

وخفض الشاب عينيه فى وجوم وخجل وتشتت منطقه فانعقد لسانه، وارتاح الآخر لارتباكه فعاوده مرحه وأراد أن ينهى هذا الحديث المؤلم فقال:

ـ لا عليك من هذا، ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه الصبيانى ما جرى الحديث بيننا هذا المجرى السخيف، ولنعد الآن إلى الأهم (ثم ضاحكا) لا شك أنك جئتنى لحديث آخر!

فجمع الشاب ما تشتت من أفكاره وقال متنهدا:

ـ الحقيقة أننى ما جئت إلا لهذا الأمر!

فلاح الاستنكار فى وجه حسن وقال متهكما:

ـ حسبتك جئت تطلب نقودا!

وشعر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينثن عن عزمه فقال بلهجة رقيقة متوددا إليه:

ـ بفضلك السابق لم أعد فى حاجة إلى نقود ولكن مهمتى الآن أجل من النقود، إنى أريد أن أطمئن عليك..

فحدجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية:

ـ لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة!.. إنك يا حضرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا على أنا!

فقال حسنين وهو يشعر بقهر وغيظ:

ـ هما شيء واحد..

ـ حقا؟! لا أرى رأيك أو دعنى أسألك لماذا لم توجه إلى هذه النصيحة من قبل؟.. منذ عام مثلا؟

لا يسعه ـ بعد أن قال له وهو لا يدرى أنه إنما جاء لهذا الأمر ـ أن يدعى أنه كان يجهله، وركبه الضيق، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلاً:

ـ ألا ترى وجه الخير لك فيما أريد؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة :

ـ كنت قبل عام فى حاجة جنونية إلى النقود فلم تهتم بالنصح والإرشاد أما الآن وقد أصبحت ضابطا فلا يهمك إلا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة!

ومع أن وجه حسنين لم يتغير إلا أن قلبه ماج بالغيظ والحنق وكأنما أهاجه أن يقرأ الآخر أعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة :

ـ أخى . .

وأشار إليه الآخر أن يسكت فسكت، ثم قال باستهانة :

ـ سأكون معك صريحا إلى أبعد حد، وإذا كنت تسائل نفسك حقا عن عملى فإنى أقول لك إنى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيرا إلى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة، وبائع مخدرات .

وهتف حسنين فى انزعاج :

ـ لا أصدق هذا! .

فقال الرجل مبتسما فى هدوء :

ـ بل تصدقه كل التصديق، ولعلك خمنته فيما مضى، وها قد صح تخمينك، فماذا ترى؟!

فرنا الشاب إليه صامتا فى إشفاق وألم، حتى ضاق بصمته فقال محزونا :

ـ ليس أحب إلى من أن تبدأ حياة جديدة شريفة!

فضحك حسن عاليا ثم قال بسخرية :

ـ بفضل حياتى غير الشريفة أمكننى أن أدفع عن أسرتنا غائلة الجوع، وأن أزود أخاك حسين بما كان فى حاجة إليه كى يباشر عمله الحكومى، وأن أهيئ لك قسط المصروفات الذى جعلك ضابطا والحمد لله .

ووخزه كلامه بمثل شك الإبر فتراءت له الحياة ضيقة خانقة، ولكن رغبته الحارة فى الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالهزيمة فقال :

ـ كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة فى ذاتها!

ـ لا تغالط نفسك . إنهم يدعوننى بالروسى لا بالنبيل . ثم ما هى الحياة غير الشريفة؟ ليس ثمة إلا حياة فحسب، وكلنا يسعى للرزق . .

ـ توجد حياة آمنة، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس . .

ـ هذا من عسف البوليس، ولا ذنب لنا، بالله خبرنى ماذا تريد علىّ أن أعمل؟

فقال حسنين بحماس وقد لا حت له بارقة أمل :

ـ اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملا شريفًا كسابق عهدك .

وانفجر الرجل ضاحكا وتساءل فى دهشة :

ـ صبى ميكانيكى؟! . . هذا كمن يطلب إليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية!

وغلى حنق الشاب فى أعماقه مرة أخرى ، ولكنه تساءل فى هدوء وابتسام :

ـ ألا تدرى ما النهاية المحتومة لحياتك؟

فقال متهكما فى بساطة :

ـ أن أسجن أو أقتل! . . وإذا قدر علىّ أن أقتل أولا نجوت بطبيعة الحال من السجن!

فتظاهر بالضحك وما يزداد إلا حنقا ، واشتد حنقه خاصة لاستهانته ، ومع أنه يئس منه أو كاد إلا أنه استطرد قائلا :

ـ أرى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك ، فلست فى حاجة إلى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة ، وإنى أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة . .

فألقى عليه نظرة طويلة باسمة كأنه يقول له «لا تحاول خداعى بتوددك»

وقال :

ـ لا تخف على ، أستغفر الله أعنى لا تخف على نفسك أو سمعتك ، لا تحمل نفسك هموما فارغة ، هبنى كشئ لم يكن . لا تكترث لما يقول الناس عنكم بسببى فإنك تستطيع أن تحيا الحياة التى تروق لك على رغم كلام الناس . .

وتنهد حسنين فى ضيق وقنوط ، وحنق عليه فى تلك اللحظة حنقا أسود تمنى معه لو كان شيئا لم يكن حقا ، ولكنه كائن ، ومصلت على رأسه كالسيف القاتل ، فما عسى أن يفعل؟ وتنهد مرة أخرى وتساءل :

ـ أليس ثمة أمل فى أن تعود إلى الحياة الشريفة؟ . . أهذه كلمتك النهائية؟!

وغضب حسن ، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانتفض قائما وقطع الحجرة الصغيرة ذهابا وأيابا مرتين مفرغا غضبه فى حركاته العنيفة ، ثم استند إلى حافة السرير ، وشبك ذراعيه على صدره ، وقال بلهجة من نفد صبره :

ـ حياة شريفة ، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة على مسمعى فقد أسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ، أهذه هى الحياة الشريفة!؟ . . السجن أحب إلى منها! ولو أننى استمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة ، أتحسب أن حياتى وحدها غير الشريفة؟ . . يالك من ضابط واهم! . . حياتك أنت

أيضا غير شريفة، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فأنت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقا فى أن أقلع عن حياتى الملوثة أن تهجر أنت أيضا حياتك الملوثة، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معا!

واصفر وجه حسنين وغض بصره فى ذهول ويأس وقد امتلأ صدره غيظا وحقدا. وانفرجت شفتاه أكثر من مرة كأنه يهم بالكلام ولكنه كان يطبقها فى تسليم اليائس. ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال:

ـ أرأيت أنك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة؟!! ولست ألومك فأنا مثلك أوثر رزقى على الحياة الشريفة (ثم ضاحكا).. نحن شقيقان ويجرى فى عروقنا دم واحد!

ونهض حسنين عابسا وهو يقول:

ـ لا تسخر منى جزاء ما أوليتك من نصيحة!

ثم اتجه نحو باب الحجرة وهو يقول:

ـ أستودعك الله..

ولما وضع يده على أكرة الباب سأله الآخر برقة مفاجئة:

ـ ألا تريد أن تسلم على؟

فتحول إليه ومد له يده، فشد عليها الآخر وأبقاها فى يده وهو يقول ضاحكا:

ـ يؤسفنى أننى أغضبتك. انس ما كان ولنبق كما كنا ولو على البعد، ستجدنى دائما «الروسى» الذى عهدته. ولا تنس أن تهدى سلامى إلى أمنا ونفيسة. مع ألف سلامة..

٧٢

وأطلع أمه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد كان صدره أضيق من أن يتسع لها وحده. واستمع لما جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب مغلق، كان فى الحقيقة متجهمًا متشائما حاقدا. ولما كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله بالفرقة فقد خطر له أن يسافر إلى طنطا للقاء حسين، وعاوده شعوره القديم بالحاجة إلى مشاورة أخيه فيما يلم به من أحداث. بيد أنه لم يقدم على تنفيذ فكرته وبدا كالمتردد، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى إلا فى شقة فريد أفندى. ولكنه كان يذهب إليها ناشدًا عزاء لا ملبيا شوقا، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره فحمل كآبته العامة مسئولية

تغيره، ثم أخذ يستبين أن تغيره أعمق من أن يكون أثرا عارضا وقتيا، وتساءل فى حيرة: ألم يعد يحبها؟! عرض له هذا التساؤل أول ما عرض فى ضحى اليوم الذى جاء بعد زيارته لحسن بيومين، وكان يجالس بهية على انفراد بحجرة الاستقبال على حين شغلت الأم بالمطبخ، فجعل ينظر إلى الفتاة متسائلا ألم يعد يحبها؟! هى فتاته بجسمها وروحها، ولم تزل مثار رغبة جامحة ولكن كأنه يرغب فى أن يولى عنها فيما يرغب أن يولى عنه من ماضيه جميعا. وتحير بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبه لها! أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبها فى آن؟ إنه يجذب إليها بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة نصر الله وعطفة جندف. لم تعد الأمل الذى يرنو إليه، وما هى إلا لوثة فى دمه يبغى منها شفاء. وأدام النظر إليها حتى خال وجهها الهادئ المهذب عقابا مجسما فوجد وخزا فى قلبه، وطرد أفكاره دون أن يبت فيها برأى وسمعها تقول له:

ـ لا تحملق فىّ هكذا..

ما ألذ أن يضمها إلى صدره ويمطرها قبلا! إنه لا يدرى ما هو فاعل بها غدا ولكنه يأسى على طول حرمانه.

وقال مبتسما:

ـ إنى أفكر فى تقبيلك قبلة حارة نبدأ بها حياة جديدة.

ـ لا يحلو لك إلا هذا الكلام!

ـ هل ثمة ما هو أحلى؟

فترددت قليلا ثم خفضت عينيها قائلة:

ـ يوجد ما هو أهم!

وحدس ما تعنيه بلا تردد. وساوره قلق. ولكنه تجاهل ظنه متسائلا:

ـ أهم من القبلة؟!

أحب أن تحدثنى جادا ولو مرة..

ـ ولكنى أود أن أقبلك جادا!

فتفكرت فيما يشبه الحيرة. كأنما تغالب خطرة ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت:

ـ ألا تدرى ماذا قالت أمى؟

صدق حدسه! لا بد مما ليس منه بد! وتساءل متبالها:

ـ ماذا قالت؟

فقالت بصوت منخفض وفى عناء من حياء:

ـ قالت لى لقد طال انتظارك، وها قد صار ضابطا!

وأحس فى أعماقه بحنق حام كأنه سمع تجديفا. ومع أنه كان يعلم بأنه ليس له حق فى حنقه إلا أنه كره الأم فى تلك اللحظة. ثم تساءل:

ـ هل تتعجل الزواج؟

فتضرج وجهها بالاحمرار وغمغمت:

ـ كلا ولكنها ترى أنه آن أن تعلن الخطبة.

ـ ألم يتم هذا.

فتحسست بنصر يمناها فى حياء وغمغمت:

ـ ثمة أمور لم تزل ناقصة..

وفهم ما تشير إليه فى استياء لم يدر سببه. لم يكن ثمة شىء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعا وركبه شعور المطارد إذا تهدده خطر، وتفرس فى وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها فى الأتوبيس وقال لنفسه «فتاة طيبة ولكنها ليست أهلا لأن تكون زوج ضابط مثلى، ولو تم هذا الزواج لكان الأول من نوعه!» ثم قال فى هدوء باسم:

ـ هذه أمور لا وزن لها.

ـ ولكنها هامة جدا فى نظر الناس فطالما تساءل أقاربنا عن الخاتم!..

وعجب لحماسها، وتمنى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس فى الحب. «ولكنها تريد أن تتزوجنى لا أن تحبنى. هذا سر برودها وتحفظها. وإذا لم يكن حبًا، بل وحب قهار جنونى، فما الذى يغرينى بالزواج منها؟!» وقال:

لا داعى للعجلة، ستتحقق آمالنا فى الوقت المناسب.

ـ ومتى يكون هذا الوقت المناسب؟

فقرب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال:

ـ أظن إذا رقيت إلى رتبة الملازم أول أصبح فى وسعى أن أفتح بيتا مع معاونة أهلى الذين لا يستغنون عنى كما تعلمين.

وبدا فى وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين، ومع أنه ارتاح لتصريحه الذى مد له فى حريته إلا أنه رق لمنظرها، وجرى بصره على جسمها فدق قلبه وتناسى أفكاره ومخاوفه وحنقه فنهض إليها وجلس إلى جانبها على الكنبة، ولكنها تباعدت إلى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها. وقبض على ساعديها وهوى على كفيها يقبلهما، حتى قامت مبتعدة عنه وهى تهتف:

ـ دعنى . . دعنى . . لم تعد كما كنت .

وقام فى أعقابها مدفوعا بفورة إحساسه وجنون أعصابه وطوقها بذراعيه وأطرافه ترتعش ، ودافعته بقوة فهوى بفيه إلى شفتيها فأمالت رأسها إلى الوراء فمست شفتاه طرف ذقنها ، ثم تملصت من ذراعيه ووقفا وجها لوجه وهما يلهثان ، وصاحت بصوت متهدج :

ـ لا تهجم على غصبا !

وانقلبت شهوته غضبا فحدثته نفسه بهجر الحجرة ، وسار خطوتين صوب الباب ، ثم تحول إليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فانقض عليها مصمما على إرواء عواطفه ، وطوقها بذراعيه رغم مدافعة يديها ، وضمها إلى صدره بعنف ووحشية ، ثم طبع شفتيه على شفتيها ، وكلما مالت بوجهها عنه أتبعها وجهه لازقا فاه بفيها ، ملاقيا دفعات مقاومتها بقوة وحشية ، حتى سكنت بين ذراعيه فى شبه إغماء . ولم يبال خورها فراح يضمها إلى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذيه فتسرب إلى إحساسه فى ارتياح عميق كأنه كشف جديد عن لذة الحياة . وندت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحشيته . وجن انفعالا وتطلعا واستزادة ، وانصهر قلبه وسرى ذوبه فى أعصابه باعثا لذة خيالية ، ثم انهارا فى تسليم متوقع مفاجئ معا . وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفتيه على خدها ، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته فى صدره متراجعة وقالت وهى تتنهد فى صوت ضعيف :

ـ لن أصفح عنك . .

ولم يترك قولها فى نفسه أثرا ، لا حسنا ولا سيئا ، فلم يأبه لها وكأن إحساسه تجاهل وجودها . شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليهما فتور فتراجع إلى مقعده الأول وجلس عليه فى دهشة . ولبثت هى بموقفها كالمترددة ثم عادت إلى مجلسها فى استياء وراحت تعاتبه وتعنفه دون أن يلقى إليها بالا . ورنا إليها بغرابة وساءل نفسه : أهذه هى؟ أهذا أنا ، أين هى وأين أنا؟ . ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر مما يحتمل .

وجعل يصغى إليها دون أن يحمل نفسه مشقة الاعتذار ، وانتهز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم قام مستأذنا فى الانصراف . ولما غادر الشقة شعر برغبة فى الهرب ، وحينذاك عاودته فكرة السفر إلى طنطا فابتسم لها فى ترحاب وحماس .

٧٣

عندما انتهى إلى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق بطنطا كانت الساعة حوالى الخامسة مساء وقاده غلام إلى حجرة أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسما انتظارا للمفاجأة السارة وفتح الباب وظهر حسين فى جلبابه، وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة فأقبل على القادم وهو يهتف :

ـ حسنين! . . لا أصدق عينى!

وتعانقا عناقا حارا، ثم دخلا الحجرة الصغيرة وحسين يلقى عليه نظرة متفحصة فى حب وإعجاب ثم قال بصوت متهدج من التأثر والسرور :

ـ يا لها من مفاجأة سعيدة. أهكذا يهجم العسكريون بلا إنذار؟ مبارك. لقد أرسلت لك برقية تهنئة. .

ـ وصلتنى ورأيت أن أجيئك بنفسى شاكرا!

ـ وكيف حال نينة ونفيسة؟

ـ على خير حال. وجدت لدى بضعة أيام إجازة قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك.

ـ أحسنت صنعا. وحسن؟ أما من جديد عنه؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط باللقاء كدرا فقال :

ـ دعنا منه الآن على الأقل. .

وحدس حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة منه فى تأجيل النكد إلى وقت آخر فدعاه إلى الجلوس على الكرسى الوحيد ووثب هو إلى الفراش. وتبادلا نظرات مشوقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرأ على الآخر من أمارات الصحة والعافية وإن كان وزن حسين قد زاد أكثر مما يتصور أخوه، كذلك وجده قد ربى شاربه بطول شفته وعرضها مما أكسبه مظهر رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنه، وقد داعبه قائلا :

ـ لقد خلقت لتكون أبا بارا. .

فابتسم حسين على ما أثار قوله فى نفسه من ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرا إلى نجمة الضابط :

ـ إنى فخور بك. .

فقال حسنين بتأثر :

ـ إنى مدين بها لنبل تضحيتك .

وهبط قوله على قلبه بردا وسلاما ، وتمتم :

ـ لا تبالغ ! أنت رجل جدير بكل خير . .

وقال حسنين لنفسه «هذا شقيق لا يشين ، ولولا ماضى نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد إنسان على الأرض أسعد منى» ثم قال لأخيه بسرور :

ـ أبشر لقد رجوت أحمد بك يسرى أن يسعى لنقلك إلى القاهرة فوعدنى خيرا . .

ـ عفارم ! وبهذه المناسبة أخبرك أننى سأعود معك إلى القاهرة قائما بإجازتى السنوية . .

ثم غادر الفراش وهو يقول :

ـ اغسل وجهك ونفض بدلتك من وعثاء السفر وهلم ننطلق إلى المدينة فلا خير فى البقاء فى هذه الحجرة الضيقة . .

وارتدى بدلته ثم خرجا معا يتمشيان فى طرقات المدينة ، ثم مضى به إلى قهوة السمر وجلسا معا يواصلان حديثهما . وتكلم حسين عن حياته فى طنطا كثيرا ، وشكا إلى أخيه وحدته وكيف عودته على غشيان المقهى كل مساء فيمضى ساعتين على الأقل مع نفر من الموظفين يلعبون النرد حينا ويسمرون حينا آخر ، ثم يعود إلى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم ، وحدثه عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد المترجم عن الإنجليزية وكيف أن النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . كان فى وحدته وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذى يعيش بين أحضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له ، وأسعده الأمل فى إمكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التى أشرب حبها والإيمان بها منذ طفولته .

ثم تساءل فى نفسه ترى هل أفضت أمه للشاب بالسر الذى دفعها إلى زيارته منذ عام ونصف؟ ولما لم يشر حسنين إلى الموضوع بكلمة اطمأن إلى أنها كتمت الأمر كله وهو ما ترجح لديه من بادئ الأمر . وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنه ذكرها بقلب خال هادئ لولا حنينه العام إلى الرفيق والحب ما تشكى قط ، ثم وجد نفسه وهو لا يدرى يسأل حسنين عن خطيبته ! وأجاب الشاب إجابة عامة قائلا : «بخير والحمد لله» ، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ فى نفسه إذا جد جديد من الأمر ، وكان يعلم سلفا بأن حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه . وتواصل الحديث بينهما طيبا لطيفا حتى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذى يشغله فقال متنهدا :

ـ تصور كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا حسن . .

وأحس حسين بما وراء هذا التنهد من حزن وسخط فقال ببساطة :

ـ أعتقد أن آلامنا قد انتهت ، أما ماضينا فليس فيه ما يخجل ، وأما حسن فلن يضر واأسفاه إلا نفسه . .

فهز رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال في حزن :

ـ أنا علمت أن حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيا وتاجر مخدرات !؟ ومع أن حسين كان يتخيل شقيقه الأكبر على أسوأ حال إلا أنه لم يكن يظن أنه تردى إلى هذا القرار ، فهتف في ارتياع :

ـ لا تقل هذا . . !

فكان جواب حسنين على ارتياعه أن قص عليه ما شاهده في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع ، وأصغى إليه أخوه في صمت ووجوم . ولما طال صمته سأله حسنين :

ـ ما رأيك؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له : «ماحيلتنا؟» ثم غمغم :

ـ واأسفاه ، كان حسن ضحية للمرحوم والدنا ، وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد !

فقال حسنين بجزع :

ـ ألا تستطيع إقناعه بالإقلاع عن أسلوب حياته؟

فقال الآخر متنهدا :

ـ لن يقلع عنها مهما قلنا أوفعلنا ، شيء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نهيىء له رأس مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة ، فهل يسعنا هذا؟ !

وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن في حاجة إلى جواب ، ثم قال حسنين بحدة :

ـ أنتركه في غيه كي يقضي على آمالنا !

ـ لقد قضى على نفسه .

ـ وعلينا ! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟ ! . سوف تظهر أسماؤنا يوما في الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات !

فتنهد حسين محزونا متفكرا في كلام أخيه الذي رجَّع أصداء أفكار طالما أكربته في وحدته ، ولكنه قال معارضا أخاه ونفسه معا :

ـ لا ذنب لنا ، ولا يصح أن ندع الخوف يتهول في قلوبنا ، قد يصيبنا رشاش من ألسنة الناس ، الآن أو فيما بعد ، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة إذا لم نَدَّرع بقدر من عدم المبالاة . .

بدا له حسين كأنه لا يعي ما يقول ، أو كأنه لا يبالي السمعة الطيبة التي هي أس كل

أمل فى الحياة بيد أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من أن يطلعوا على أسرار أسرته، كذلك لا تنازعه نفسه إلى المجد والطموح فليس فى آماله ما يخاف عليه ألسنة الناس. أجل أخطأ تقديره ولن يجد من أخيه مشاركة وجدانية، وحنق عليه فى تلك اللحظة كثيرا. واحتقر استسلامه وهدوءه. واندفع قائلاً وكأنه لا يروم إلا الترويح عن حنقه:

ـ هل نعد أنفسنا شرفاء؟

فقال حسين بدهشة:

ـ ولم لا؟!

ـ ولكنا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة!

تطاير الشرر بغتة من عينى حسين، وحملق فى وجه أخيه وهو صامت، وكأن آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات، ثم قال بحدة:

ـ كنا فى موقف دفاع عن النفس، والدفاع عن النفس يحل القتل..

وشعر حسنين بارتياح خفى لغضب أخيه، وجعل يتساءل فى حيرة عما دفعه إلى مجابهته بهذا التصريح الأليم. ثم استطال الصمت حتى سئما الموضوع فخاضا فى غيره، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث..

٧٤

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان إلى القاهرة فكان يوم فى حياة الأسرة لا ينسى. وقبلت الأم حسين طويلا ثم عانقته نفيسة عناقا حارا، وأمضى الشباب ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتتان. وجعلت نفيسة تتفرس فى شاربه وبدانته الآخذة فى النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار:

فيما تبدو كالرجال وأنت طفل!

فقال حسين مبتسما:

ـ لم أعد طفلا.

وقال حسنين ضاحكا:

ـ نحن رجال وأنت أختنا «الكبرى»!

فقالت الفتاة بحدة:

ـ كنت أكبركما فيما مضى أما الآن فصاعدا فأنتما تكبراننى، هل تفهمان؟!

ثم التفتت صوب أمها وساءلتها فى اعتراض:

ـ هل يعجبك هذا الشارب الذى يكبر نفسه ويكبرنا معه بلا داع؟!

وكان الوقت ظهرا فراح حسين يخلع ملابسه، و، قد بدا البيت لعينيه غريبا، بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حنانا فملكه ارتياح شامل، ارتياح من اهتدى إلى مأواه بعد أن تخبط ضالا طويلا، وأجال طرفه فى حجرة المذاكرة، هذا المكتب القديم، وهذين الكرسيين، وهذه النافذة التى تقوم صفحة الجريدة منها مكان اللوح الزجاجى المحطم، كل أولئك ذكريات عزيزة. أما سريره فلم يعد من أهل البيت! ومع أنه كان يحدس هذا بالبداهة إلا أنه شعر بحزن وكآبة. وهنا شعر بنفيسة وهى تغادر الحجرة قائلة:

ـ أمهلانى ساعتين أعد لكما غداء طيبا!

وابتسم ارتياحا. إنه لم يذق طعاما طيبا منذ عهد بعيد، وربما منذ وفاة والده. أجل كان طعامه طيبا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه. ولكنه لم يطلق لشهوته العنان قط. على أنه كان مشغولا بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة إلى منبته الأول وجوه الأصلى. كان حنانه كالغنوة الحلوة يتردد فى حواسه جميعا، حتى هواء عطفة نصر الله الفاسد وجد له ميل ألفة ورقة ومودة فكأنه الصحة والعافية. وجعل يحادث أمه وعيناه تترددان فى أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكتة حسنين المعلقة بالمشجب فنظر إلى النجمة طويلا. سيرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصير ضابطا عظيما على حين يبقى هو كاتبا فى الدرجة السابعة ـ أو السادسة على أحسن فرض ـ طوال مدة خدمته. على أنه لم يجد أى أثر لشعور الحسد أو الحنق، كان أبعد ما يكون عن هذا، بل كان سروره بأخيه لا يدانى، ولكنه وجد نفسه يتأمل فى صمت حزين الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين، وامتد خياله وهو لا يدرى إلى الفوارق التى تفصل بين الناس عامة. ترى ألا يمكنه إذا نقل إلى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليلى عسى أن يتغير من حال إلى حال؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كأمل احتياطى يلجأ إليه فى حينه فينجيه من مصير كمصير حسان أفندى حسان! وحتى حسان أفندى نفسه لم يكن ليرقى إلى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدى. وذكر عند ذاك أمورا سمع بها فى طنطا فساءل أخاه:

ـ هل حقا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة؟

فضحك حسنين قائلا:

ـ غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة.

فضحك الشاب، ثم قال:

ـ كيف تسقط بعد أن نفض الإنجليز أيديهم من سياستنا؟

وتساءلت الأم:

ـ أنعود مرة أخرى إلى المظاهرات؟

ـ من يدرى؟

فعادت تقول بقلق:

ـ لا شأن للجيش مع المظاهرات.

فقال حسنين بمكر:

ـ إذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش!

وضحك حسين، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شزراء وهزت منكبيها استهانة. وعادت نفيسة لتقول لهم إن الغداء يتهيأ على أحسن حال، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم، وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب من جبينها، وساد الصمت فعاد حسين إلى أفكاره وفكر هذه المرة فى الإجازة وكيف يمضيها. كان الموظفون فى طنطا يدعونه باليهودى لأنه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد فى القهوة، ولكنهم جهلوا حقيقة حاله. أجل إنه ميال بطبعه إلى الاقتصاد ولكن هل تركت مسئولياته له شيئا يقتصد؟! . ولم تدعه أمه لأفكاره طويلا فعادت تنازعه الحديث، وخيل إليها أنها ترنو إليه بحنو نادرا ما تعلنه، ترى هل ذكرت كيف قست عليه يوما؟! لقد قست عليه حقا، ولكن قسوة الدهر عليهم جميعا كانت أعظم. ترى ماذا هى فاعلة مع حسنين؟ . . ولكن لماذا لا يبدو الفتى متحمسا لزواجه! لماذا لم يحدثه عنه؟! وحوالى الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء، فوضعتها على المكتب وهى تقول:

ـ نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن يأكلوا على الأرض.

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين، ثم عادوا إلى جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث فى أنس وسرور، وحوالى منتصف الرابعة دق الباب الخارجى فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم. ووثب لرأس حسين خاطر عجيب، أتكون أسرة فريد أفندى قد جاءت لتهنئ العائد؟! . . وفى هذه الساعة؟ وعادت نفيسة جريا ووقفت على عتبة الحجرة وهى تنظر إليهم بعينين متسعتين تلوح فيهما الدهشة والانزعاج، ثم هتفت قائلة:

ـ ضابط وعساكر . .

٧٥

ووقف الشقيقان فى دهشة وحسنين يتناول جاكتته ويرتديها بسرعة متسائلا :

ـ ماذا يريدون؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين فقالت فجأة بذعر :

ـ رباه . . لقد دخلوا الصالة .

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطا وشرطيين ورجلا آخر يبدو من مظهره أنه مخبر ، فتقدم حسنين من الضابط متسائلا :

ـ ماذا تريد حضرتك؟

فقال له الضابط :

ـ لامؤاخذة ، لدى أمر بتفتيش هذه الشقة!

وأطلعه على أمر كتابى فنظر فيه حسنين بعينين لا تريان شيئا ، على حين سأل حسين :

ـ لعلك أخطأت الشقة . ماذا يدعو لتفتيش بيتنا؟

فقال الضابط :

ـ نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى!

وجم الشابان وهما ينظران إلى الضابط فى انزعاج وقنوط ، وكانت المرأتان تقفان على عتبة الحجرة فركبهما الذعر وتسمرتا فى مكانهما . وعاد الضابط يقول :

ـ لقد قبض على بعض شركائه ولكنه اختفى قبل القبض عليه ، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا من هذا بواسطة شيخ الحارة . .

فقال حسنين بصوت متهدج :

ـ ولكنه لا يقيم هنا . لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا ندرى عنه شيئا .

فهز الضابط رأسه وقال :

ـ على أى حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر . .

وبدأ التفتيش فتراجع أحد الجنديين إلى الباب واقتحم الضابط والآخران الحجرات ، وقد جمد الشقيقان فى موقفهما كأنهما استحالا حجرين . وقال حسنين لنفسه «سأذكر هذه الساعة ما حييت» ، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة إلى حجرة ، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالى الحقير ظهراً لبطن . لم يكن تفتيشا عن

حسن فحسب، لأن حسن لا يمكن أن يختبئ فى درج المكتب أو تحت حشية الفراش، فالفضيحة أفظع مما يتصور، وحتى فى تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذى عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينيه المتفحصتين حقارة البيت وفقره، وبلغ مسمعه ـ على ذهوله ـ صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره إلى نفيسه وصاح بها بحدة جنونية:

ـ اكتمى أنفاسك!

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسنين وقال برقة:

ـ أكرر الأسف. وإنه ليسرنى أننى لم أعثر على شيء كان حريا بأن يسبب لكم المتاعب!

ورفع يده إلى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفا وراءه سكونا محزنا. وتبادل الشابان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة، وأقبلت المرأتان نحوهما بوجهين ميتين. وانتبه حسنين من ذهوله بغتة متأوها فوثب إلى الباب وأبرز رأسه راميا بطرفه إلى فناء البيت فرأى رجال البوليس فى نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحداد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحا:

ـ الجميع يتفرج على فضيحتنا. افتضحنا وانتهينا.

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم إلى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية. وجعل حسنين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول:

ـ بودى لو أقتل!.. لن يروّح عن صدرى أقل من القتل.

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة:

ـ هدئ من روعك يا بنى، ماذا يجدى ضربك نفسك هكذا؟

فصاح فى غضب:

ـ دعينى أقتل نفسى مادمت لا أجد من أقتله!

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب:

ـ يجب أن نتدبر أمرنا فى هدوء.

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال:

ـ أى أمر نتدبره.. لقد افتضحنا وانتهينا!

ـ هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته، فلنتدبر أمرنا.

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى إلى حجرته وارتمى على فراشه، وكان الخزى

يخنقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتا قتالا ودّ معه لو يخفيه عنه الموت إلى الأبد. واستسلم لخواطر دموية جنونية راح يجترها فى ذهول وهذيان، ولحق به حسين فجلس على الكرسى صامتا متحاميا إثارته، وكان هو نفسه فى حالة تستحق الرثاء. ولم يبلغ منه الحزن يوما ما بلغه فى تلك الساعة، فلم يغب عنه ما أصاب سمعتهم من طعنة قاتلة، وما يتهددهم من قلاقل فى الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة بعده. ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله؟!. وأخذت تتجمع فى ذاكرته ذكريات من آلام الماضى ويربطها بآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة فى الوقت الذى يظن به الاندمال والشفاء. وكعادته قرن آلام أسرته بآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزينا شاملا، وكان يلقى على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيرا ما توحى بشىء من الصبر والعزاء. ثم نزعت به نفسه إلى تلمس بصيص نور فى ظلامه المحيط، وجعل يسترق النظر إلى وجه أخيه المكفهر متحينا فرصة لمحادثته.

ولبثت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب. لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير والتدبير، غلبت على أمرها. وقهرها الحزن والأسى. وكان قلبها يعانى الآلام التى تتوزع قلوب أبنائها جميعا يضاف إليها ألم خاص دفين يخيفها بقدر ما يعذبها، وتشفق إشفاقا شديدا من ذيوعه وافتضاحه، هو ألمها لحسن نفسه. أين ذهب؟، ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه؟؟ أى مصير يرصده؟. لا ينبغى أن تذكر له إلا عطفه وحنانه، وأنه جادَ لهم بخير ما فى نفسه، وأنه كان ملاذهم فى الملمات. يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب، حتى أهله ينكرونه ويمقتونه. عين حسود أصابتهم، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التى تركتها حطاما، وتنهدت فى عصبية لأنها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة:

ـ كفاك بكاء ارحمينى فإنى لا أجد من يرحمنى!

ولكن نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئا، حتى آلام الموقف الحقيقية غابت عنها فى حالتها العصبية. غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص. ولم تكن تبكى حزنا أو أسفا أو غضبا ولكن بكاء هستيريا تغالب به خوفا لا يغلب خيل إليها معه أنها هى المطاردة. وتوقع قلبها شرا فظيعا، أفظع مما وقع، فتلفتت فيما حولها فى ذعر كأنما تخشى أن ينقض عليها فجأة. وسمعت أمها تقول بصوت ضعيف «هلمى بنا إليهما» فرحبت بالدعوة لتفر من مشاعرها وسارت وراء أمها إلى الحجرة فى خطوات ثقيلة، ثم خفق قلبها وهى تجوز العتبة كأنما تجفل من لقاء أخويها..

٧٦

ثم التفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشية :

ـ أين تظنه هرب؟

وكانت مرت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال :

ـ من لى بأن أعلم! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنه أخونا!

ـ بعد هذا كله!

ـ نعم، بعد هذا كله . .

نطقها بصوت عميق ليعزى قلبا يعلم أنه ـ على صمته ـ فى أمس حاجة إلى العزاء، ولكن ثارت ثائرة الآخر وصاح به :

ـ لقد قضى علينا . .

فقال حسين بصوت متعب :

ـ لا تبالغ ولا تصح . ينبغى أن تفكر فى هدوء .

ـ إن الحى كله يتحدث عن فضيحتنا .

فقال حسين فى هدوء :

ـ فى وسعنا أن نهجر الحى كله . .

فتطلع إليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن بصيص أمل . هذا دعاء تهفو له نفسه ملبية وكأنها هى التى تتكلم ، وغمغم متسائلا :

ـ ماذا قلت؟

ـ لم لا؟ . القاهرة واسعة لا تحد، وسيطوى النسيان قصتنا فى أقل من أسبوع! . .

فتنهد حسنين فى شبه ارتياح ، ولكنه قال فى حذر :

ـ لن نمحو الماضى .

ـ فلنفكر فى المستقبل . .

ـ ولكن الماضى سيطارد المستقبل إلى الأبد . .

فقال حسين بملل :

ـ فلنفكر جديا فى الانتقال إلى مكان آخر . ويجب أن يتم هذا قبل انتهاء إجازتى .

وقالت الأم برجاء :

ـ أجدر بنا أن نفكر فى هذا حقا .

وردد حسنين نظره بينهما حائرا . فقد يقبض على أخيه وقد لا يقبض عليه ولكنه سيظل على الحالين يطاردهم ويتهددهم . لن يطمئن لهم جانب وهو على قيد الحياة ، ثم تساءل فى فتور :

ـ أين نذهب؟

فقالت الأم فى أمل :

ـ إلى شارع شبرا بعيدا عن هنا .

فندت عنه حركة تنم عن الجزع والسخط وقال :

ـ أبعد من هذا ، أبعد من هذا . . إلى مصر الجديدة!

فقال حسين فى شىء من الارتياح :

ـ كما تشاء .

فلاح فى وجهه تردد طارئ ثم قال متنهدا :

ـ ولكننا فى حاجة ماسة إلى أثاث جديد!

فقالت الأم بضيق :

ـ لا تزد الأمور تعقيدا ، ماذا يهم الأثاث إذا لم تقع عليه الأعين؟!

ـ لا أستطيع أن أخفى بيتنا عن أصدقائى إلى الأبد!

فقال حسين :

ـ هذه مسألة أخرى ، وبوسعك أن تبتاع كنبة وكرسيين كبيرين وبساطا أسيوطيا فتجعل منها حجرة استقبال مؤقتة . وإذا شئت خرجنا معا اليوم أو غدا للبحث عن شقة؟ .

بذلك خف التوتر قليلا وإن غشيت جو المكان كآبة استسلموا لها جميعا فى صمت حتى دق الباب وجاء فريد أفندى وأسرته . كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت فى أسوأ حال ، وذكر حسين فى عجب كيف حلم بها منذ ساعات ، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كسير ونفس فاترة . أما حسنين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر ، ولو لم يره فريد أفندى ونفيسة تتقدمه إلى حجرة الاستقبال ، لمضى هاربا إلى الخارج . واجتمعوا فى حجرة الاستقبال ، ولقى حسين من الأسرة تحية حارة ثم استفاض الحديث عن الماضى والحاضر . وكانوا يتوقعون أن يثير الزوار مسألة التفتيش والبوليس ولكن آل فريد أفندى تجاهلوا الأمر كلية كأنهم ما علموا به . ولم يلطف هذا التجاهل من حنق حسنين ، أو

بالحرى زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق فى كرامته. والتقت عيناه بعينى بهية أكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخف عنه بواعثهما منذ سفره المفاجئ إلى طنطا. ليكن، لقد ضاق صدره بهذا كله. الآن، وفى وقدة حنقة وضيقة، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة. لن تكون هذه المرأة حماته، ولا هذا الرجل حماه.. ولا هذه الفتاة زوجه!. كل أولئك هم عطفة نصر الله بلا زيادة، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر. إنهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعا ولكنهم يتكرمون عليهم بتجاهل الأمر، ولعلهم يضيفون هذه المكرمة الجديدة إلى مكرماتهم السابقة. سحقا لهم، لشد ما يضيق صدره بالمكرمات قديمها وحديثها، وإنه ليتطلع إلى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضى البغيض أسبابه بأسبابهم. «انظرى بحزن وحيرة كيف شئت، لست لك، ينبغى أن يتغير كل شىء. ماذا فتننى فى هذا الجسم؟! ألأنه لحم طرى؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم. جو بغيض لو طال المقام بى هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتى نفسها». وطالت الزيارة فجعل يتحملها فى صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل. وقد دست الفتاة فى يده ورقة مطوية وهى تسلم عليه، ولما أن خلا إلى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة «قابلنى فوق السطح». كانت أول رسالة توجهها إليه، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال أشبه، وذكر لتوه تعليمها الابتدائى!. بيد أنها كانت على إيجازها عميقة الدلالة حتى لكأنها صرخة استغاثة. ولا شك أنها كتبتها خلسة فى شقتها قبل الزيارة مما يدل على أن قلبها توجس خيفة من أن يواصل فراره منها الذى بدأه بالرحيل إلى طنطا. وأحس بغمز الألم فى قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شىء حوله. ولكن فيم يسخط؟ أليس من الخير أن تلم بما طرأ على نفسه؟ وهل كان يظن أن الارتياب لن يتسرب إلى نفسها بعد سفره المفاجئ؟ ليكن. لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبيانى. وخاف أن يخلو إلى نفسه أكثر مما خلا فمضى إلى حجرته وقال مخاطبا أخاه:

ـ هلم بنا لنخرج.

ونهض حسين موافقا على دعوته وغادرا الحجرة معا. ووجد ما يشبه الندم، وتمنى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تمامًا، فلم يزل بوسعه أن يراجع نفسه، ولكنه لم ينبس بكلمة، وواصل سيره إلى جانب أخيه. لعلها تنتظر الآن أمام حجرة الدجاج! وخفق قلبه خفقة شديدة. تنتظر بلا أمل؟ وما أقبح هذا. وفى نفس المكان الذى لمس حرارته وسمع بثه وشكواه؟ ما أعجب هذا. وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف، ثم سمع أخاه وهو يخاطبه قائلا:

ـ لن نضيع وقتنا، ولن ينقضى هذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا إلى البيت الجديد.

٧٧

وانقضت الأيام فى البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا إلى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ذى موقع ساحر وإيجار مستطاع على حد قول حسنين. وفى اليوم المحدد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لإخفائه عن أعين المستطلعين، ونُفّذ ذلك، ولبث حسنين فى الشقة مع الأثاث المكوم على حين عاد حسين إلى عطفة نصر الله ليصحب أمه وأخته إلى المقام الجديد. وودعوا حيهم ليلا غير آسفين، بل مستبشرين خيرا، ولما بلغوا الحى الجديد تولتهم دهشة ممزوجة بإكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر العمارات والفيللات المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقى فلم تتمالك نفيسه نفسها من أن تقول باسمة على رغم أن الموقف لم يخل من ذكريات حزينة «لقد صرنا من الطبقة العالية حقا».

وكانت الشقة الجديدة فى بيت مكون من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا إليها سلما ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسنين فى انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازى. ونشطت المرأتان إلى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونهما الشابان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تخللتها فترة راحة. وبدت الكراسى والكنبتان والفراش غريبة نافرةوسط الحجرات الأنيقة، ولم يفت حسنين التعليق على هذا بتذمر كالعادة ولكنه وجد بعض العزاء فى حجرة الاستقبال التى كانت تفتح على الخارج فلا يضطر القادم إلى عبور الصالة الداخلية إليها. وتحدثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيلونه عن الجيران، وتحدث حسنين عن ضرورات الحياة الجيدة كما يراها حتى قال:

ـ أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائى وخادم صغير فبغير هذين لا يصح أن نبقى هنا يوما واحدا.

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهوما أنه هو الذى سيدخل النور الكهربائى ويستحضر الخادم. ثم فكر فى الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل فى نفسه ترى هل تصلح أمه وأخته لمخالطة هؤلاء القوم؟ وخيل إليه أنه سمع تعليقات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه إلى رأسه وقال مخاطبا أمه فى لهجة تنم عن التحذير:

ـ لا ينبغى أن نعرف أحدا فى حينا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نزار .

فقالت أمه بعدم اكتراث :

ـ لا رغبة لى فى معرفة أحد . .

وقالت نفيسة :

ـ لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه !

فقال لها الشاب بقلق :

ـ يا حبذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضا !

فاضطربت نفس الفتاة ، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجى» كان من أمانيها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائما ، ولا تفتأ تساق إليه بقوة بغيضة آسرة ، فتساءلت فى إشفاق :

ـ وهل أبقى حياتى سجينة ؟ !

وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال :

ـ لا تغال يا أخى فى طلباتك . .

فقال الشاب فى حدة :

ـ لا أريد أن يزورنا أحد من حينا القديم .

ـ لن يتجشم أحد زيارتنا فيما عدا فريد أفندى وأسرته .

وصمت حسنين طاويا سخطه . وذكر زيارة التوديع التى قامت بها أسرة فريد أفندى أمس ، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف تمنى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يجد أثرًا للماضى كله ، خيره وشره ! . . ترى هل أفضت الفتاة لوالديها بما تجد من فتوره ؟ . . ترى هل يفلت من هذه العلاقة بيسر أم تنشب به متاعب لا يحلم بها ؟ ! . ليصمدن مهما كان الأمر ؛ الحرية والمجد فوق المتاعب جميعا . أجل لو تغلب على الماضى فسيتمتع بأشرف ما فى الحياة من طمأنينة وسلام .

ثم انتحى حسنين بالشاب ليوازن معه ميزانيتهما لما جد عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه «حجرة الاستقبال» إلى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخادم . وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة . وخلت الأم إلى نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث فى الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف إلى هذا الحى الجديد ، فلم يستقر وعيها إلا على شىء واحد ، هو حسن ! . ترى أين يهيم الفتى ؟ ماذا صنع الله به ؟ . لم تكن تخلو إلى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم . . .

هكذا باتوا أولى لياليهم بمصر الجديدة .

٧٨

ـ جئنا نهنئ بالبيت الجديد جعله الله مقاما سعيدا . .

قالتها أم بهية ثم جلست هى والفتاة على الكنبة الجديدة . كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التى غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة .

وأثنت أم بهية ثناء جميلا على المسكن الجديد وحيه الباهر ، وشكت الوحشة التى شعروا بها بعد فراقهم ، واعتذرت عن تغيب فريد أفندى بانهماكه فى العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الأجازات . ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين كالمعتاد ولكنه كابد قلقا لم تخف عنه بواعثه وشعورا مؤلما بالحرج . وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة ، فصيحة بغير بيان ، فازدادت حاله توترا ـ ثم أعربت أم بهية فجأة عن رغبتها فى الانفراد بالأم ـ الأمر الذى زاده قلقا وتوترا ـ وما لبثا أن غادرا حجرة الاستقبال معا . ووجد حسين نفسه غريبا بين خطيبين فغادر الحجرة منتحلا بعض الأعذار ، وخلا الجو ، وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بحال . وكان يعرف ببداهة ما دعا أم بهية إلى الانفراد بأمه ، فأدرك أن الساعة الفاصلة فى حياته قد دنت ، فإما النجاة وإما الهلاك . وتبادلا نظرة طويلة ، هى فى إنكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها . ولم تلبث أن سألته مستنكرة :

ـ لماذا لا تزورنا؟

فقال واجما :

ـ أسباب لا تخفى عليك تمنعنى من الظهور فى حينا القديم!

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله :

ـ لمَ لم تقابلنى فوق السطح بعد أن تركت الورقة فى يدك؟

ـ كنت وأخى مرتبطين بموعد هام .

فتساءلت بلهجة وشت بحزنها :

ـ وسفرك المفاجئ إلى طنطا دون أن تخبرنى؟

فقال وهو يتحاشى عينيها :

ـ اضطررت إلى السفر فجأة . .

فهتفت فى انفعال :

ـ لم تعد تبالى حتى باختلاق الأعذار المعقولة!

إن الموقف دقيق حقا، بل أليم، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة إليه، ولن يتهاون فى حق حريته ومستقبله. وتنهد متظاهرا بالحزن وغمغم قائلا:

ـ إن ظروفى أعقد من أن تقدريها.

ـ أفصح عما تريد، قوله. لا أفهم شيئا إلا أنك تغيرت. لم تعد كما كنت. لست غبية ولا حمقاء، أنت لا تريد أن ترانى.

ـ سامحك الله.

ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت فى تألم ظاهر:

ـ لا تلق إلى بهذه العبارات المبهمة. أريد أن أفهم كل شىء. ماذا بك؟ لماذا تغيرت هكذا؟ صارحنى بما فى ضميرك كله.

وحال تشبثه بالنجاة والفرار دون إحساسه بما فى كلماتها من يأس وعذاب فقال:

ـ لم أتغير ولكن ظروفى تغيرت.

فقالت باستغراب:

ـ تغيرت ظروفك حقا ولكن إلى أحسن!

ـ هذا فى الظاهر فقط أما فى الحقيقة فهى أننى بت أدرك مسئولياتى الشاقة.

فقالت بلهجة لا تخلو من غيظ:

ـ ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل؟ . إن مسئولياتك جميعا لا تحول بينك وبين ما تريد إذا كنت تريده حقا!

ـ أريد ولا أستطيع.

فرنت إليه شاحبة الوجه وغمغمت:

ـ بل تستطيع ولا تريد.

ولم يجد ما يقول، وتضاعف إحساسه بعذاب الموقف، ومع ذلك ازداد تصلبا وتشبثا فتمتم:

ـ أنت مخطئة.

وكانت تتفحصه فى جزع ويأس وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماقه، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت:

ـ كلا، لست مخطئة. لو كنت تريد حقا لما قلت لا أستطيع. إن هى إلا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبنى وتريد أن تتخلص منى. هل ثمة سبب آخر!

ومع أن هذا ما كان يؤمن به فى أعماقه إلا أن سماعه هاله وأكربه فرفع حاجبيه منكرا وقال :

ـ لشد ما تظلميننى !

ولم تسكن لهجته خاطرها ، أوبالحرى مكنت لقبضة اليأس من عنقها . وزاد إحساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت :

ـ أنت الظالم ، لقد خطبتنى ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص منى . .

وتحامى عينيها فنظر إلى الأرض . كان متحرجا متألما ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال :

ـ إن ظروفى أقسى من أن تدركيها على حقيقتها . أمامى صبر طويل .

ورقت لهجتها فجأة وقد تورد وجهها وقالت برجاء :

ـ إذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعى أن أشاركك الصبر !

فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال :

ـ إنه صبر طويل .

فقالت باللهجة نفسها :

ـ لا بأس ، إلا أننى أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق المعهودة .

وذهب حيال انقلاب الحديث إلى هذا المجرى بعد أن أوشك أن ينقطع ، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدرى :

ـ كلا ! !

وجعلت تحملق فى وجهه فى ذهول ، ثم خفضت عينيها فى يأس ، واحمر وجهها خجلا . وحركت شفتيها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت :

ـ أرأيت أننى كنت على حق لما قلت لك إنك تريد أن تتخلص منى؟ . .

وبلغ منه الارتباك مبلغا لم يعهده من قبل ، ولاذ بالصمت مليا ، ثم قال كالمعتذر :

ـ إنى جد حزين ، ربما أقمت لى العذر يوما .

فقالت فى إعياء وقهر :

ـ حسبك ، لا أريد سماع كلمة أخرى .

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس اليأس الخانقة ، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لونا من الراحة ، فمهما يطل هذا العذاب فلابد أن ينتهى ، وهنالك يجد نفسه حرا طليقا . وتساءل وهو يسترق إليها نظرة ترى ماذا يدور فى رأسها؟ ألا زالت تريده؟ أم كرهته؟ أم تتمنى الانتقام منه؟ لشد ما أحبها عهداً طويلاً ولكن هكذا

انتهى كل شىء. وتساءل ترى فيم تتحادث الأمان؟ وعلام انتهى الحديث الذى طال؟ ثم قال لنفسه «إن مصيرى يتقرر بيدى لا بيد أخرى». ثم ترامى إليه صوت المرأتين وهما تتكلمان قادمتين فخفق قلبه واستحوذ عليه قلق مفاجئ. وعادتا إلى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما الرضا ـ مما ضاعف قلقه ـ ثم دق الباب وكانت القادمة نفيسة، ورجع حسين إلى الحجرة، فوجد حسنين فى المحيطين به ما انتزعه من أفكاره ورد إليه شيئا من هدوئه. ومع أن بهية بدت على حال من الوجوم لا تخفى إلا أن الحديث لم يشذ عن المألوف حتى انتهت الزيارة.

٧٩

ونظر حسين صوب أمه فى قلق متسائلا فأدركت أنه يسأل عما دار بينها وبين أم بهية، ونظرت إليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت:

ـ حدثتنى ست أم بهية عن وجوب إعلان الخطبة بصفة رسمية، ووافقتها فى النهاية على رأيها.

وقطب الشاب فى حنق وضرب يدا بالأخرى وهتف بها:

ـ تسرعت يا أماه!

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول:

ـ لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكننى فسخت الخطبة!

وحدقت به الأعين التى تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم:

ـ ماذا تقول؟

فقال ضاغطا على مخارج الألفاظ:

ـ لقد فسخت الخطبة اليوم، الآن، وغادرتنا بهية وهى تعلم أن كل شىء بيننا قد انتهى.

وصاح حسين منزعجا:

ـ لا!.

وقالت الأم:

ـ إنك تحيرنى بتصريحك هذا، ولست أفهم شيئا؟ هل وقع بينكما خلاف بغتة؟.. متى؟ وكيف؟

وكانت نفيسة آخذة فى خلع حذائها فأمسكت وقالت :

ـ تكلم يا حسنين . هذا خبر لم يتوقعه أحد!

فقال الشاب بوجوم :

ـ الواقع أننى عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكننى لم أشأ أن أخبر أحدا ، واليوم حين انفردت بها فى هذه الحجرة لم أجد معدى عن إعلان نيتى فانتهى كل شىء . أرجو ألا يسألنى أحد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعنى أحدا سواى .

فقال حسين باهتمام وأسف :

ـ كان موقفا قاسيا على الفتاة بلا شك ، وأرجو أن يكون لديك من الأسباب ما يبرر الإقدام على هذه الخطوة الفظيعة .

وقالت الأم المنزعجة :

ـ ياللفضيحة! . . لقد تم الاتفاق بينى وبين الأم فى نفس الوقت الذى كنت تهدم فيه ما نبنى ، فما عسى أن تظن بى المرأة؟ ألا يمكن أن تشك فى أننى كنت أخادعها وأنا أعلم بنواياك؟ . . ماذا فعلت يا بنى؟ . . ما سبب هذا كله؟ . . وماذا يعيب الشابة؟!

وضاقت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة :

ـ دعونا نسمع صاحب الشأن .

وقال حسنين مخاطبا أمه :

ـ بهية شابة لا غبار عليها ، ولكن تبين لى بوضوح أنها ليست الزوجة التى أطمح إليها .

فقالت الأم :

ـ لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع .

وهز حسنين رأسه مؤمنا على قول أمه ثم قال :

ـ هذا حق . إن فسخ خطبة أمر فظيع . ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع!

وتساءلت نفيسة باهتمام :

ـ كيف تبين لك أنها ليست الزوجة التى تطمح إليها؟ . . دعوه يتكلم . . فقال حسنين بضيق :

ـ لا ريب أن بهية لا تصلح زوجة لى . حقا لقد خطبتها بنفسى ولكنى لم أكن أدرى هذه الحقيقة وقتذاك . .

فقالت الأم بقلق :

ـ بهية فتاة جميلة ومؤدبة، ولأبيها فضل علينا لا ينسى . .

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء :

ـ إنى أعجب لحكمك هذا، ما هى الزوجة الصالحة فى نظرك؟

فصمت حسنين قليلا ثم قال :

ـ أريد زوجة من وسط أرقى، مثقفة، وعلى شىء من الثراء . .

فتساءل حسين بنفس اللهجة :

ـ أهذه هى الأسباب التى جعلتك تنكث بعهدك؟ !

فقال حسنين متنهدا :

ـ نحن فقراء، وبهية فى حكم الفقراء كذلك، وأخاف إذا مت قبل نهاية المرحلة ـ كوالدنا ـ أن أترك أبنائى لقساوة الحاجة كما تركنا . .

وهتفت نفيسة قائلة بحماس :

ـ صدقت ! !

فغضب حسين لحماس أخته وسأله :

ـ هل قدرت خطورة الخطوة التى أقدمت عليها؟

فقال حسنين بحزن :

ـ لشد ما حز فى نفسى الأسف ولكننى لم أوافق على ضياع حياتى !

ـ وتوافق على ضياع حياتها؟ !

ـ لن تضيع حياتها، لا زالت فى عنفوان الشباب، والمستقبل أمامها باهر .

فتساءل حسين فى حنق :

ـ هل تسمح لى بأن أصف لك سلوكك؟

فنظر إليه فى وجوم ولم ينبس بكلمة فهزحسين رأسه فى انزعاج وتساءل :

ـ إنى أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأعذار ما ليس لك !

وامتقع الشاب وقال بحدة :

ـ لا شك أن سلوكى لم يخل من قسوة ولكنه سينتهى بخير بالنسبة لى ولها، وهو على أية حال أفضل من زواج غير موفق .

وأعرض الشاب عنه يائسا، وضربت الأم كفا بكف وهى تتمتم :

ـ يا لها من إساءة شديدة لأطيب الناس طرا، رباه كيف أخفى وجهى !

ومع أنها كانت صادقة فيما تقول إلا أن أعماقها لم تخل من ارتياح خفى . وقد كانت

تشفق من أن يبادر حسنين إلى الزواج فتعود الأسرة إلى الترنح والقلق، وكانت ترمق نفيسة دائما بعين الخوف متسائلة فى حزن عن المستقبل القريب والبعيد. ولكن إذا كان هذا حقا لا شك فيه فحق كذلك ما تجد حيال أسرة فريد أفندى من أسباب الخجل والألم. أما نفيسة فلم تكن تحسن إخفاء عواطفها فقالت:

ـ لا خوف على بهية، ستتزوج اليوم أو غدا.

فقال حسين بامتعاض:

ـ هذا كلام يصدق على كل فتاة ولكنه لا يصلح دفاعا عن خطئنا..

فقالت نفيسة متهكمة:

ـ لا يصدق على كل فتاة!.. والدليل على ذلك أنه لا يصدق على أخت حضرتك!

وخفف تهكمها من التوتر العام، وانتهز حسنين الفرصة فقال بلهجة دب فيها الحماس:

ـ أليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاص ككريمة أحمد بك يسرى مثلا!

وقالت نفيسة بمرح:

ـ وماهذا على الله بكثير. من يدرى لعلنا نراك يوما فى فيللا محترمة وتتدفق علينا خيراتك يوما بعد يوم..

ولم يلق حسين إليها بالا، وقالت الأم وكأنها تحدث نفسها:

ـ سيعلم فريد أفندى بالخبر هذا المساء، ما عسى أن يقول عنا؟!.. ليتنى أجد الشجاعة لأزورهم وأعتذر إليهم!

ففكر حسين طويلا ثم تمتم بهدوء وحزم:

ـ لا تنقصنى أنا هذه الشجاعة.

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام، وسألته نفيسة:

ـ أتذهب حقا؟.. وما عسى أن تقول لهم؟

فقال الشاب مقطبا:

ـ أقول ما يفتح الله به على. رباه لاشك أن فى دمنا شيئا نجسا..

ومضى يرتدى ملابسه، ثم غادر الشقة..

٨٠

لم يقصد غايته رأسا ولكنه مضى إلى مشرب شاى بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلب الأمر على وجوهه ويعد له عدته. سرح خياله بين ذكريات الماضى وحوادث الحاضر، وساءل عقله طويلا وساءل قلبه، ثم قر فكره على رأى. وكان فى تفكيره جريئا حازما قاطعا على غير عادته، فلم تعترضه الصعوبات ولم تثبطه المخاوف، حتى عجب للسرعة التى بت بها فى الأمر وتساءل فى دهشة «ترى أهى من وحى الساعة أم أثر لما تجمع فى نفسى خلال ثلاث سنوات؟». واستحوذ عليه شىء من الاضطراب، وعاد يسأل نفسه، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لتثنيه عما عقد العزم عليه. وقام من مجلسه تعتلج فى صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة، ثم اتخذ سبيله إلى عطفة نصر الله فبلغها فى أول الليل. ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف، ولكنه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثنى. ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه، ثم قادته إلى حجرة الاستقبال. وما عتم أن جاء فريد أفندى بجسمه المترهل فرآه لأول مرة مكفهر الوجه، يتوهج الغضب فى نظرة عينيه، وما كاد يفرغ الرجل من مجاملات السلام ويستقر على مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديدين:

ـ عشرة العمر كله، وجيرة العمر كله، وصداقة العمر كله، تمزقونها جميعا فى دقيقة واحدة!

فنظر حسين إلى الخوان أمامه فى ارتباك وتمتم بصوت منخفض:

ـ إن ما بيننا من ود قديم لا يمكن أن يتغير، وإن ننس لاننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيينا. .

فلم يعره الرجل التفاتا وضرب كفا على كف وهو يقول:

ـ لم أدر حين خبرونى كيف أصدق أذنى. إن طبيعة قلبى تأبى أن تصدق هذا الغدر الشائن. .

ـ إنى عاذرك يا سيدى. . وصدقنى إننا لم نكن أدنى لتصديقه منك، حتى أننى تركت أمى فى حال يرثى لها. .

وتابع الرجل حديثه دون اهتمام بما قال:

ـ كنت ألاحظ أنه يتثاقل عن زيارتنا، وقيل لى فى تفسير ذلك أعذار صبيانية زادتنى

تشاؤما، حتى علمت هذا المساء بأنه جاهر بنكث عهده، ما شاء الله، هل حسب بنات الناس ألعوبة يلهو بها على هواه، يخطب حين تحلو له الخطبة، ويفسخ حين يطيب له الفسخ؟! . لقد عاملته كابنى ولم يدر لى بخلد أنه يطوى صدره على قلب بهذا الخبث والغدر.

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما اتفق:

ـ أخى فتى طائش وقد أضاعت حادثة حسن صوابه.

فتساءل الرجل فى إنكار:

ـ وما ذنبنا نحن؟ . . هذا عذر غير مفهوم!

ـ أقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعا.

فلوح الرجل بيده فى عنف وقال ساخطا:

ـ كلام غير مقنع. إنى رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر بخطيبته لمثل هذا السبب. قل غير هذا الكلام إذا شئت أن أصدقك. قل إنه صار ضابطا وبات يطمع فى نوع آخر من النساء.

فقال حسين بلهجة حزينة:

ـ وددت بحياتى لو أصلح الأمر.

ـ فسد الأمر ولا صلاح له. إنه عبث لا يليق بالشرفاء، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته، ولكنى أحمد الله على ما كشف لى من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلا. ما هو إلا شاب نذل جبان، ولا تؤاخذنى على قول الحق. .

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعا أليما فخفض بصره مليا ثم قال بصوت ضعيف.

ـ إنى جد آسف، بل كلنا آسفون، ولا مطمع لنا الآن إلا الإبقاء على الود القديم. .

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفتور:

ـ ما عهدنا منكم شرا. .

وشعر حسين بقلق وتوتر، وذكر ما انتهى إليه رأيه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الإقدام على الإفصاح؟! . . ومع أنه لم يجد من الجواب مشجعا إلا أنه أبى التراجع أو التأجيل، ونظر إلى الرجل بعينين حذرتين وتساءل:

ـ هل أستطيع أن أقابل الآنسة بهية؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه:

ـ ما الداعى لهذا؟ . . فلندعها وحدها، هذا خير ما يفعل!

وغلب التأثر الشاب. ترى ماذا تفعل المسكينة؟ وماذا أحدثت الصدمة لنفسها الرقيقة؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم ينكص؟ ألا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا! ولكنه شعر شعورا خفيا بأنه إذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا، وتنهد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يدارى بها اضطرابه:

ـ سيدى، لا أدرى كيف أعرب عما فى نفسى، ولست أزعم أنى اخترت وقتا مناسبا، ولكننى لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعنى إلى قول كلمة أخيرة وهى أننى أرجو أن تبارك يوما رغبتى الصادقة فى طلب يد الآنسة بهية!

واتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شىء إلا هذا، ولعله أراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه، أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مستردا بعض هدوئه:

ـ لا تحسبن أن ما يدفعنى إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخى من خجل، أو ما عسى أن تتصوره عطفا على حال الآنسة. كلا. وأقسم على هذا. إنها رغبة قائمة بذاتها، ومنبعثة أولاً وآخراً من تقديرى لكريمتكم ولكم.

وواصل فريد أفندى دهشته الصامتة على حين استمد حسين من انطلاقة لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلا:

ـ شىء واحد يحرجنى فى هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أننى غير كفء لها.

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتما:

ـ لا تقلل من شأنك يا حسين أفندى، أنت عندى بمنزلة الابن. .

فقال حسين وقد تورد وجهه:

ـ شكرا. .

وتفكر الرجل قليلا كالحائر ثم قال:

ـ لا يسعنى إلا شكرك على رغبتك هذه، ويسرنى ـ علم الله ـ أن تتحقق ولكنك تدرك طبعا أن وقت التحدث بشأنها لم يئن بعد؟! . .

ـ هذا طبيعى جدا يا سيدى، وبوسعى أن أمد. . أعنى أن أنتظر حتى يجئ الوقت المناسب. .

وانتهى الحديث عند هذا الحد. .

٨١

وعاد إلى مصر الجديدة غارقا فى أفكاره فلم يكد يرى شيئا من الطريق، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل فى مشرب الشاى قبل أن يتجه إلى بيت فريد أفندى. وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلهما طيلة حياته. لقد أحب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يترعرع ويزدهر، ولم يبق منها فى قلبه الحكيم الوافى إلا المثال الذى يحلم به للزوجة الصالحة، وإنه يذكر أنه تألم كثيرا وصبر كثيراً، فتعلم أنه بشىء من الحكمة يمكن أن يعثر فى دنيا الألم على مسرات عالية، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر، وكان يقول لنفسه متعزيا إن مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح.. سرور ينبغى أن يعد من حسن الحظ.. وهكذا تعزى ونسى من زمن طويل. ولما أن فتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسى أنه كاد ينسى وأزهر الحب فى قلبه كأن ثائرته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان. وانطلق فى سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت. ووجد الجميع فى انتظاره فما إن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به:

ـ ماذا لقيت؟!

ورأى أن يمهد للخبر العجيب الذى يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهز رأسه أسفا:

ـ وجدتهم على حال من التأثر انزويت معها خجلا وخزيا، ولأول مرة فى حياتى رأيت فريد أفندى الرجل الوديع ثائرا غاضبا كاسرا..

وسألته الأم بحسرة:

ـ خبرنى عما حصل كله. ألم تقابلك أم بهية؟

ـ كلا، قابلنى الرجل وحده وقبل أن أفتح فمى بكلمة انهال علينا تأنيبا وتقريعا..

وأعاد عليهم كلام الرجل ـ فيما عدا الكلمات القارصة ـ مضيفا عليها من عنده ألوانا من التأثر والحزن ليستثير ألمهم ويستدر عطفهم حتى ملأهم الوجوم والخجل، إلا نفيسة فقد قالت:

ـ ما كان ينبغى أن تلقاه الليلة. وعلى أية حال فالخطأ الأول ينصب على من يقبل تلميذا صغيرا كخطيب لابنته فضلا عن أن يكون هو الساعى بحيله إلى عقد الخطبة. ولا أجد حسنين مستحقا للوم فقد كان تلميذا كما قلت لا يعرف ما يضره مما

ينفعـه، فلما أن بلغ طور الرجـولة تبين أن الفتـاة لا تصلح زوجة له فمـاذا عليه إذا تركها؟!

وصمم حسين على أن يشق طريقه إلى هدفه فقال بهدوء مخاطبا أخته.

ـ تكلمى عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة أخيك الآخر!

وحملقت فيه الأعين بدهشة. وندت عن نفيسة آهة سريعة، وتساءل حسنين:

ـ ماذا تقول؟

فقال حسين وهو يتغلب على ارتباكه بقوة إرادته:

ـ يجوز أن تصبح خطيبة لى..

ـ لك أنت!

ـ لى أنا..

وهتفت نفيسة:

ـ كلام لا يدخل المخ!

ـ ولكنه الحقيقة بلا زيادة ولانقصان.

وسألته الأم وهى تتفرس فى وجهه:

ـ هل خطبتها حقا؟

فقال الشاب خافضا عينيه:

ـ نعم، قلت له إنه يسرنى إذا وافق على أن أطلب إليه يد الفتاة

فسأله حسنين بقلق:

ـ أفعلت هذا رغبة فى إصلاح الأمور؟

فتردد حسين قليلا ثم قال:

ـ لا يخلو الأمر من هذه الرغبة، بيد أنى أكن للفتاة تقديرا كبيرا، وأعتقد أنه إذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها..

فتساءلت نفيسة فى لهجة ساخرة:

ـ ومن قال إنه لا بد من الزواج؟!

وتداخلت الأم متسائلة:

ـ وماذا قال لك فريد أفندى؟

فأجابت نفيسة بالنيابة عنه قائلة:

ـ قال على العين والرأس طبعا..

وأجاب حسين دون أن يعبأ بها :

ـ شكر لى طلبى ولكنه اعتذر بأنه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب إلى أن أمهله إلى حين . .

وعاد حسنين يسأل باهتمام :

ـ أكنت تضمر هذه النية حين غادرتنا؟

فأجاب حسين بفطنة :

ـ كلا . .

فقال الآخر بإشفاق :

ـ أخاف أن تستبين بعد حين أنك غير راغب فى الزواج حقا!

فقالت نفيسة متنهدة :

ـ ربنا يسمع منك . .

فصاحت بها أمها غاضبة :

ـ نفيسة!

أما حسين فقال مجيبا أخاه :

ـ إنى أحب بطبعى الحياة المستقرة .

فقال حسنين بارتياح :

ـ ليس أحب إلىّ من سعادتك وسعادتها . .

وصمت قليلا ثم استدرك قائلا بصوت منخفض :

ـ ولى أنا أيضا آمالى ، كأن أتزوج من كريمة أحمد بك يسرى . أتظنه يا أخى أملا أخرق؟!

فقال حسين مبتسما :

ـ لم لا؟ . . إنك كفء لها . .

وهتفت نفيسة ضاحكة فى شىء من الاضطراب :

ـ لنا الله ، أردنا أن نسترد واحدا والغالب أننا سنخسر الاثنين ، وهذه إصابة عين حامية . .

وتمتمت الأم بهدوء :

ـ على بركة الله ، إنى مطمئنة إلى أن أبنائى لن ينسونى . .

فقالت لها نفيسة :

ـ ما أجهلك بالزواج وأسراره، سليني أنا عليه .

ضحك حسنين قائلا :

ـ أمنا أعرف بنا منك . .

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل فى نفسه وهو يسترق النظر إلى أخيه : ترى أكانت خطبته بنت ساعتها حقا؟!

٨٢

«ربما كان الانتظار حكمة، ولكن ماذا يجدى الانتظار إذا طار الطائر؟!» هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة. قالوا له ـ خاصة حسين ـ إنه ينبغى أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة، وليكن رأيهم صوابا، ولكن من يضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة؟ . ومما شجعه على نبذ هذا الرأى «الحكيم» أن أحمد بك يسرى على علو مقامه قريب إليه بحكم العلاقات القديمة، فطمع فى أن يوسع له صدره . أما إذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه إلا أن ينتظر أعواما طوالا قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه . ألا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده؟ . . يمكن بلا ريب، وإذا لم يمكن فإن احتمال الرفض لا يجب أن يقعده عن المسعى، إنه أجرأ من أن يقعده شىء عن غاية، ثم إنه لا يطيق هذه الفضيلة التى يدعونها بالصبر . الآن، ودون خوف أو تردد، وليكن ما يكون . كان الشاب يدير هذه الأفكار فى رأسه وهو يقترب من فيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . صمم وشرع فى التنفيذ بلا مبالاة . هذه هى الحياة التى يتلهف عليها بكل قوة نفسه . وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضى فى طور الاحتضار، وما يريد إلا الحياة النظيفة السعيدة لنفسه وذويه . وكان قد أخذ زينته وتبدى فى منظر حسن يجمع إلى رشاقة الشباب فحولة الرجولة . وما انتهى إلى الفيللا حتى أدخل إلى السلاملك فجلس ينتظر بقلب خافق ونفس قلقة، «أليس عجيبا أن أتقدم لطلب يد فتاة هذه فيللتها وأنا لا أملك إلا ما تبقى من مرتبى! . وهناك قضية الوقف الوهمية التى حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغنى عنى شيئا . لماذا لم يكن لأمى وقف؟ ولكن هذه مسألة أخرى، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضى غير الماضى والحاضر غير الحاضر، ليكن ما يكون، لن أتراجع، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسى، إذا ربحت ربحت الدنيا جميعا وإذا

خسرت لم أخسر شيئا يذكر . إنى آسف يابنى ، سلام عليكم يا سعادة البيك ، هذا أفظع ما يتوقع . إنى كفء لها بغير جدال . ما عسى أن تريد مما ليس لدى؟ المال؟ عندها المال بالقنطار . ما أحمقكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم يدى . فى هذا الموضع رأيتها أول مرة على دراجتها ، ساق تستأهل ثقلها ذهبا وفخذ سبحان الخالق . مسكينة نفيسة . ترى أين حسن الآن؟ ليته يفر إلى بلد غريب فيختفى إلى الأبد . لا تكاد ذكراه المزعجة تفارقنى فمتى أرتاح من الماضى كله . لن أتراجع . فى هذا الموضع كادت تهوى بها الدراجة . أقدام البك؟ . » وأنصت فى اهتمام ثم نهض قائما فى احترام حين رأى البك قادما نحوه وسلم فى إجلال والآخر يقول :

ـ أهلا بحضرة الضابط . كيف حالك؟

وأجاب الشاب وهو يبذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وإرادته :

ـ شكرا لك يا سعادة البك .

وتساءل البك ضاحكا بلهجة ذات معنى :

ـ ألا يزال أخوك فى طنطا!

ورحب حسنين بأى حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهرى :

ـ بلى يا سيدى!

وكانا قد اطمأنا إلى مجلسيهما فقال البك :

ـ ليس فى الإمكان نقله هذه العطلة ولكنى أخذت وعدا صادقا بنقله فى العطلة القادمة . .

وكان حسنين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان :

ـ هذه مأثرة جديدة تضاف إلى مآثرك السابقة .

وساد صمت ، وشعر الشاب بأنه يقتحم لحظة رهيبة من حياته ، وأنه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردد أو تراجع ، فألقى بعزمه قائلا بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته :

ـ الواقع أنى قصدتك يا بك فى شأن يخصنى أنا . .

فرفع إليه الرجل عينيه متسائلا :

ـ خير إن شاء الله؟ . .

فاعتدل الشاب فى جلسته كأنه يستمد من اعتداله قوة وقال :

ـ إنى أستشفع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق مطمحى .

فتساءل البك مبتسما وهو يدلل بأصابعه شاربه الغليظ المصبوغ :

ـ أتريد أن ترقى لواء؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت من أساريره وقال بصوت منخفض:

ـ أعز من هذا. إنى طامح إلى شرف مصاهرتك..

وحل اهتمام مفاجئ محل النظرة الباسمة، وخيل إليه أن الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر به من الرزانةوضبط النفس، ولكن أية دهشة يا ترى؟ دهشة المفاجأة أم الانزعاج؟ ودق قلبه بقوة وشعر شعورا عميقا بخطورة اللحظة التى يكابدها. أما الرجل فقال بعد صمت وتفكير:

ـ لا يسعنى إلا أن أشكر لك حسن ظنك..

وتأثر للقول الرقيق تأثرا لم يخل من ألم غامض وقال بتوكيد:

ـ أرجو ألا أكون قد جاوزت حدى..

فقال البك مبتسما:

ـ حاشا لله. إنى أكرر الشكر بيد أننى أؤجل الجواب حتى أشاور أصحاب الشأن.

فارتاح حسنين لهذه المهلة التى رحب بها ترحيب المحارب المحرج بهدنة آمنة وقال:

ـ هذا طبيعى يا سعادة البك ولكنى أرجو حقا ألا أكون قد جاوزت حدى.

فابتسم البك قائلا:

ـ لا تعد على مسمعى هذا القول.

ونهض الشاب مستأذنا فى الانصراف ثم غادر الفيللا. واستعاد فى الطريق كل كلمة قيلت وما صاحبها من حركات وإشارات ولمحات. وحاول أن يستشف ما وراءها من معان ومقاصد، ومع أنه كان يؤول كل شىء بخيال جرئ طموح متفائل إلا أنه وجد انقباضا وقلقًا، وفى النهاية قال لنفسه وهو يهز كتفيه استهانة: «إذا ربحت ربحت الدنيا جميعا وإذا خسرت لم أخسر شيئا يذكر».

٨٣

لم يفكر حسين فى معاودة زيارة فريد أفندى حتى أوفت إجازته على نهايتها، كأنما أراد أن يمد للرجل فى مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأيا قاطعا. ولم يكن يكف فى أثناء ذلك عن مشاورة والدته، ولم تبد المرأة اعتراضا ولكنها نصحته أن يؤجل زواجه عاما حتى يستكمل استعداده. ومن عجب أنها لم تفلح فى إسداء مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكن حسين نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجله الذى

وصفه «بالتهور» ولم يخف عليه أنه إذا وفق حسنين إلى هذه الزيجة الخيالية، وتم زواجه هو بعد عام، فستجد أمه وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل، ولهذا طمأن والدته إلى أنه مصمم على أن يضم زوجه إلى البيت فى كنف معيشة واحدة، واطمأن قلبه وفكره فمضى إلى بيت فريد أفندى، واستقبله الرجل بترحاب أنعش آماله، ومع أنه لم يكن للزيارة إلا معنى واحد لايخفى على أحد إلا أنه خاطب الرجل قائلا فى شئ من الارتباك:

ـ جئت أستودعكم الله قبل عودتى إلى طنطا غدا . .

فابتسم فريد أفندى ابتسامته الرقيقة وقال:

ـ مع سلامة الله، وإن شاء الله نسمع قريبا عن نقلك إلى القاهرة . .

فقال حسين برجاء:

ـ أرجو أن يتم هذا فى العطلة القادمة . .

وساءل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل؟ . . لقد شاور أمه فى الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغا منها، ومع هذا فمن يعلم بما دار فى نفوس أهل هذا البيت؟ ! . وساوره قلق، أخذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التى يود سماعها، حتى جاءت الست أم بهية فنهض لاستقبالها فى أدب وشد على يدها فى حرارة، وتفاءل بمقدمها خيرا . وقد قالت وهما يجلسان:

ـ إنى سعيدة برؤيتك يا بنى، كيف حال والدتك؟

فقال حسين بحرارة:

ـ بخير يا سيدتى . وهى تقرئك السلام .

ثم نظر فريد أفندى إلى زوجه وقال لها:

ـ حسين أفندى جاء يودعنا لأنه مسافر غدا وأظن من المناسب أن نخبره بما قر الرأى عليه (ثم محولا رأسه إلى الشاب) بخصوص ما حدثتنى عنه يا حسين أفندى يسرنى أن أقول لك «إننا» موافقون .

وتتبع فؤاده كلام الرجل فى خفقان متواصل، استحال ألما خالصا عند بعض المقاطع، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج:

ـ شكرا لك يا سيدى ألف شكر، إنى سعيد حقا .

فابتسم الرجل وقال مخاطبا زوجه:

ـ وسينقل إلى القاهرة فى العطلة القادمة .

فضحكت المرأة قائلة:

ـ خبر سار، نحن نود بطبيعة الحال «أن تكونوا» على مقربة منا.

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره:

ـ سيتحقق هذا بإذن الله.

ثم قال فريد أفندى:

ـ ولكن يحسن بنا أن ننتظر فترة معقولة قبل إعلان الخطبة.

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلا:

ـ حتى ينقضى وقت مناسب بين الخطبتين.

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم:

ـ إنى رهن إشارتكم.

وقام فريد أفندى وغادر الحجرة، وغاب دقائق، ثم عاد تتبعه بهية. ومع أن حسين حدس الأمر إلا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلا مكنون قوته لتمالك نفسه. ثم مد لها يده فى صمت، فتلاقت يداهما، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع. باردة الملمس، فاهتز صدره ودر رقة وشكرا. وشعر بأنه ينبغى أن يقول كلمة، وألح عليه هذا الشعور، ولكنه وجد رأسه فارغا، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة. وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه فى موجة السرور والرضا التى غمرت حواسه جميعا فنزلت عليه سكينة لطيفة أشبه بالشفاء الذى يعقب نوبة ألم. ما أجملها! كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة؟!. إنها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامئ إلى حياة البيت السعيد. لاتثير استفزازا من أى نوع كان ولكنها تبث سلاما وطمأنينة. لماذا جاء أبوها؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد، قال إننا موافقون ثم جاء ببقية «إننا» شاهدا ملموسا. بوده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفاقت من الصدمة؟ هل برئ الفؤاد؟ أبدأت حقا تستشعر ميلا إليه؟. ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذى بدا الآن تافها متطفلا. ألا يمكن أن تحدث معجزة فيغادرا الحجرة؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه فى صفاء وزرقة لحظة بهيجة. عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالأيام آتية، وسيفصح عما فى ضميره، عن كل كبيرة وصغيرة. وفى أويقات ما بين الحديث كان يتجمع فى إحساس رقيق سعيد أقنعه بأن فى الدنيا سرورا خليقا بأن يكفر عن جميع أكدارها. سرور يقطر صفاء. ليدم طويلا، لتدم هذه الجلسة، هذه الحال، هذا المنظر، هذا الإحساس، ليدم عمرا، ليشمل الحياة جميعا..

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم إلا بايماءة أو غمغمة، حتى وجب

الذهاب فنهض مستأذنا ، وسلم عليها ، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد . .

٨٤

وسافر حسين ، وانقضت أيام من فترة الانتظار التى دعاها حسنين بمدة «تحت الاختبار» . والتى عاناها فى تجلد اضطرارى والأمل واليأس يتجاذبانه . وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رد أحمد بك يسرى وهو غير بعيد عن مشورته ، كان فى الحقيقة يأنس إلى مشاورته وإن غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه ؛ على أن إقدام حسين على الشروع فى الزواج كان قد ترك فى صدره راحة لأنه كان فى أعماقه متعبا لسبقه إلى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كأنه محروم من الانتفاع بحياته . ولا يعنى هذا أنه لم يكن مشغولا بمستقبل أسرته فالحق أنه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيرا كبيرا لنفسه ولأسرته على السواء . هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظه بقلب مطمئن . وإنه لعلى تلك الحال إذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه إلى موافاته إلى كازينوا لونابارك بمصر الجديدة ، وكان هذا الصديق ويدعى على البرديسى ـ أقرب زملائه مودة إلى قلبه ، نشأت صداقتهما وتوثقت بالكلية ، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران ، ومضى إلى موعده فوجده فى انتظاره ، وجلسا معا فى حديقة الكازينو ، ثم طلب الصديق قدحين من الجعة . وأدرك حسنين من اللحظة الأولى أن صاحبه قد دعاه لأمر ، لأنه على غير عادته ـ وبالرغم من مرحه الظاهر ـ بدا جادا متفكرا ، وما لبث أن سأله :

ـ أتذكر الملازم أحمد رأفت؟

فقال حسنين بعدم اكتراث :

ـ طبعا ، إنه من دفعتنا ، وأظنه ضابطا بالطوبجية ، أليس كذلك؟

فأومأ الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة :

ـ سمعته بالأمس يتحدث عنك فى جمع من الإخوان بما أغضبنى وساءنى . فحملق حسنين فى وجهه بدهشة . كان يتوقع أى شىء إلا هذا . وتساءل فى استنكار :

ـ ماذا قال؟

فقال على البرديسى بوجوم :

ـ كنا، أنا وبعض الأصدقاء، نلعب الورق فى بيته بالمعادى.

ـ وبعد؟

ـ لا أذكر المناسبة التى أثارت الحديث. كنا سكارى. ولكنى سمعته يخوض فى أمور تمسك. خبرنى أولا هل سعيت حقا إلى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسرى؟

وفجر الاسم زلزالا فى صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة، وذكر لتوه أن أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسرى. وبذل جهدا صادقا ليتمالك أعصابه، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعوراً غليظا بالتشاؤم والخوف:

ـ ربما..

ـ أتعلم أن أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة؟

ـ هذا جائز، ولكن خبرنى ماذا قال؟

فصمت البرديسى كالمتردد حينا ثم تمتم بصوت منخفض والحرج باد فى أساريره:

ـ فهمت من حديثه أن الأسرة لم توافق. يؤسفنى أن أبلغك هذا..

وشعر بالخبر يضغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته وأحس بانهيار فى كرامته ورجولته. ثم فار غضبه حتى أوشك أن يستسلم لنيرانه ولكنه ثار على الاستسلام فى اللحظة الأخيرة، وأبى إلا أن يتظاهر بعدم الاكتراث، بل ندت عنه ضحكة وتساءل:

ـ أهذا ما أساءك يا صديقى؟

فقال الصديق بوجوم وقلق:

ـ هذا أمر عادى، يحدث كل يوم، ولكنه ذكر فى غير لياقة الأسباب التى تبرر عدم موافقة الأسرة، ومع أنها أسباب تافهة لايمكن أن تحط من قدر إنسان إلا أنه ساءنى جدا أن يرددها فى جمع حافل من السكارى.

كان يشعر دائما بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق رأسه تهدده فى كل حين، وهاهى قد أهوت على يافوخه ونثرته هشيما. ليس الأمر بحاجة إلى إيضاح أو سؤال، ولكن أمن الممكن حقا أن يتجاهل كل شىء؟! ورفع بصره إلى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة آلية:

ـ خبرنى عما قال؟

فعبس الشاب فى ضيق وتبرم ثم استطرد:

ـ إنه حقيق بالإهمال ولكن من الإنصاف أن تعلم بما يقال عنك ولست فى حاجة لأن أقول لك إنى غضبت لك غضبة صادقة ألجمت ألسنة الهاذين..

إذن اتخذوا منه مادة لهذيانهم! وأى مادة! كان ينبغى أن يفكر فى هذا كله يوم أقدم على تلك الخطبة المشئومة. وابتسم إلى صديقه ابتسامة باهتة وقال:

ـ لا يخالجنى شك فى شهادتك. إنى أقدر إخلاصك حق قدره، ولكن أرجو أن تعيد على مسمعى كل كلمة قيلت. كلمة كلمة.

وبدا الشاب متأففا، واكتفى بأن يقول فى امتعاض شديد:

ـ قال كلاما كثيرا عن أخ لك.. حتى قلت له محتدا إنى أعرف قاطع طريق فى بلدتنا أخوه وزير فى القاهرة!

فامتقع وجه حسنين، وتأذى لدفاع صاحبه كأنه يسمع التهمة نفسها، بيد أنه ضحك فى يأس وقال:

ـ العادة أن عين الرضا لا ترى إلا الوزير أما عين الغضب. ما علينا، وماذا أيضا؟

فقال الشاب فى تهرب:

ـ وكلام سخيف من هذا القبيل.

ولكن حسنين هتف به فى ضيق غلبه على أمره فجأة:

ـ أرجوك، أرجوك، لا تخف عنى شيئا..

فقال الشاب عابسا من التحرج:

ـ أكره أن أخوض فى الحرمات.

ـ أختى؟!

ـ قال إنها كانت تعمل لترتزق؟

وقلت له غاضبا إن العمل الشريف لا يعيب أحدا وإن الفقر ليس جريمة.

فهز حسنين رأسه فى حرارة وردد قول صاحبه فى سخرية أليمة.

ـ.. إن الفقر ليس جريمة!.. بديع!.. وماذا قال أيضا؟

ـ لا شىء.

ـ حسبه! أخ قاطع طريق وأخت خـ.. عاملة، هه؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا!

قال البرديسى:

ـ أعتقد أن حسن الخيار قد أخطأك فى التقدم إلى هذه الأسرة العيابة.

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم:

ـ صدقت..

ثم راح يقول لنفسه «إنى غائص فى الطين حتى قمة رأسى. ليس لهذه الحال من علاج إلا أن أدق عنق هذا الأحمد رأفت. ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئا؟، كلا إنه دفاع غير مجد بيد أنه لا يجوز أن تغيب عنى حقيقة هامة وهى أن اللكمة القوية تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعا وتفرضه فرضا. إنى قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصنى الشجاعة أو القوة. كان حسن أحقرنا شأنا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احتراما. هذا درس ينتفع به». ثم سمع صديقه يقول فى عزاء:

ـ لا تكترث أكثر مما ينبغى.

فقال وهو يهز منكبيه متظاهرا بالاستهانة:

ـ نصيحة معقولة. ليس فى أسرتنا ما يشين. كنا أغنياء فى يوم ما ثم دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة حتى تغلبنا عليها. ليس فى هذا ما يشين.

ـ بل فيه من دواعى الفخار ما فيه.

فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب:

ـ ولكنى أعرف كيف أؤدب من تحدثه نفسه بإهانتى.

ـ هذا حق لا شك فيه.

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسى خيرا من أن يطلب قدحين آخرين من الجعة، ثم تمتم مبتسما:

ـ ستجد إذا شئت من هى خير منها..

فقال حسنين باستهانة:

ـ أوه، البنات فى البلد أكثر من الهواء وأرخص من التراب!

وعل من الجعة فى ظمأ، وشغل الصديق بقدحه أيضا فعاد الصمت. «آه لو كان فى وسع الإنسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد فى أسرة جديدة، وينشئ ماضيا جديدا. ولكن ما بالى أعذب نفسى بالأمانى الكاذبة. هذا أنا، وهذه حياتى، ولن أسمح بأن أتحطم. لم تنته المعركة بعد!».

٨٥

ولما غادر الكازينو مودعا من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان تذهبان بعقله. وكان ينبغى أن ينفس عن صدره قبل كل شىء ومهما كلفه الأمر بيد أنه استسخف فكرة

مواجهة الضابط أحمد رأفت وأغراه شعوره المنطوى على التحدى والغضب بما هو أجل وأخطر. «إن غضبى على هذا الشاب المغرور غير عادل. لقد سمع قولا بذيئا فردده. ليس لى عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء. إذا سنحت فرصة للتحرش به فى المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة. هدفى الحقيقى هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ. سأقول له إن أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب كريمتك هو أن تحافظ على كرامته خصوصا إذا كان ابن صديق قديم. إذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له إن الفقر ليس بعيب بخلاف التشنيع على الناس فهو عيب حقير. إذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقتصد فى إظهار غضبى حتى أفرغ بخار صدرى المكتوم». وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من إشعاعات الجعة ألقى بنفسه فى أول ترام صادفه فحمله إلى ميدان المحطة، ثم استقل الترام إلى شارع طاهر، وعندما تراءت له فيللا أحمد بك يسرى تثاقلت قدماه كأنه يمهل نفسه لمعاودة التفكير. وترددت فى أعماقه هواتف تهيب به إلى التراجع ولكنها ذابت فى تيار الحمى المستعر فى رأسه فدفع إلى الفيللا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذى وقف له احتراما. وشق طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينثنى. كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيح الناعسة فى ظل المغيب، وارتسمت على أرض الممشى الوسيط آثار عجلات السيارة فى هيئة خطين عريضين منحنيين، فاتجه نحو السلاملك، تشى نظرة الحيرة والتردد التى تنتاب تصميمه من حين إلى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواعث التى تدفعه إلى هذا التحدى. ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة، وما كاد يبلغ الفراندا حتى وقف متسمرا تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر فى هذيانه الطويل المتصل. رأى الفتاة ـ نفسها ـ جالسة على كرسى كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت إلى القادم بعينين متسائلتين. وثبتت عيناه عليها فى جمود ذاهل وقد صدع صدره من الأعماق إحساس بالخزى أذابه ذوبانا. ثم أدرك أنه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزى جديد فاق ما تعرض له من ألوان الإهانة، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمما على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة. وأفاده التصميم فتمالك نفسه، وحنى رأسه باحترام وقال مبتسما فى لطف:

ـ مساء الخير يا آنسة. معذرة عن إزعاجى غير المقصود لك. هل أستطيع أن أقابل البك؟

فقالت برقة ـ وكان يسمع صوتها لأول مرة ـ دون أن يعتورها أدنى ارتباك:

ـ والدى معتكف اليوم لوعكة خفيفة.

وحنى رأسه مرة أخرى. ولعله وجد ارتياحا إلى هذا الخلاص الذى جاء من حيث لا ينتظر. وقال وهو يهم بالذهاب:

ـ أستودعك الله..

ودار على عقبيه وسار خطوة، وخطوة أخرى، ثم توقف فى تصميم مباغت. اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التى دفعته من مصر الجديدة إلى شبرا.

ودار حول نفسه مرة أخرى وواجه الفتاة فى جرأة غير مبال بنظرتها المترفعة المتسائلة ثم قال بصوت أعلى مما يستدعى الموقف:

ـ معذرة، يعز علىّ أن أودع هذا البيت الوداع الأخير دون أن أعرب عن أفكارى.

فظلت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة فاستطرد متسائلا:

ـ أظن بلغك أننى طلبت يدك؟

فقالت وهى تغض بصرها:

ـ لم تجر العادة بأن يحدثنى أحد من زوار أبى.

فقال فيما يشبه الدهشة:

ـ ظننتها عادة غير مستنكرة فى الأوساط الراقية!

ـ ليس فى جميع الأحوال.

فتمادى فى الاستهانة قائلا:

ـ اسمحى لى أن أتكلم رغم هذا، إننى قصدت البك لمحادثته فى الأمر نفسه لأنه نما إلىّ أن طلبى عد وقاحة لا تغتفر.

فقالت دون أن ترفع بصرها:

ـ يحسن بك أن تؤجل حديثك لحين لقاء البك.

فقال وعيناه لا تتحولان عن وجهها:

ـ ولكن ما يسعدنى به الحظ من لقائك ـ وأنت صاحبة الشأن الأول ـ يحتم على أن أتكلم، يهمنى أن أعرف رأيك، هل يعد طلبى وقاحة حقا؟

فقالت بما ينم على الضجر:

ـ أرجو أن تؤجل حديثك لحينه.

ومع أن ضجرها كان شيئا منتظرا إلا أنه آلمه وأحنقه فقال:

ـ إن الذى يسعى إلى يد فتاة يتقدم عادة بخير ما فيه ولكن يحدث أحيانا لسوء الحظ ألا يروا إلا شر ما فيه، كبعض مساوئ تتعلق بأسرته مثلا.

فنهضت قائمة، عابسة. وهى تقول:

ـ لا مفر من الذهاب.

واتجهت نحومدخل البهو فلا حقها بصوت مرتفع قائلا:

ـ كنت أود أن أسمع رأيك، ولكن حسبى هذا، إنى آسف، وأرجو أن ترفعى تحياتى إلى البك.

ودار على عقبيه مسرعا وهبط السلم ثم سار نحو الباب. ومرت بخاطره مناظر متباعدة فى سرعة وتدفق. كموقفه مع بهية فى بيتهم الجديد، وحديث البرديسى فى الكازينو. وهذا الحديث القريب «لست عاشقا خائبا والحمد لله. كنت على وشك أن أكونه ولكن الله سلم. بيد أننى رجل خائب وهذا أفظع. أحب أن أفكر طويلا فى هذه الأمور المعقدة. إنى أشعر بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين العلاج؟».

ولما خلص إلى الطريق كان مقتنعا بأنه ارتكب سخافة لا معنى لها.

٨٦

قالت الأم مبتسمة وإن نمت نظرة عينيها عن أسى:

ـ من عجب أنك ترمى بنفسك فى أمور خطيرة دون أن تأخذ العدة لها. هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت تفعل؟ ألم تفكر فى هذا؟ ألم نحذرك جميعا من عواقبه؟

كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسى حوالى عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم، وكانوا كلما جمعتهم جلسة فى الشرفة المطلة على الطريق فى أوقات العصارى ولاح فى وجهه الشرود أو التفكير انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعزى من قلبه وانضمت إليها نفيسة مازجة الجد بالمزاح.

وقال حسنين فى ضجر:

ـ لا يبدو لى الغد خيرا من اليوم.

فقالت نفيسة:

ـ كلام فارغ.

وصدقت الأم على كلامها قائلة:

ـ وستبدى لك الأيام أنه كلام فارغ، وستتزوج من خير منها..

وتساءل فى نفسه لماذا يبدوالمتشائم الوحيد فى هذه الأسرة؟؛ أهى أسرة بلهاء أم هو

الأبله؟ أليس الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذه الدنيا أخطر من أدوار الملائكة مجتمعين؟ بلى، فلماذا لا يرونه كذلك! . ولقد أرسل إلى حسين كتابا بآخر أنباء زواجه فماذا كان جوابه؟ لم يكد يزيد شيئا عما تقول أمه أو أخته! . أماتوا وهم أحياء؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة؟!

وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجى الذى رن رنينا متواصلا، ثم صوت الخادم وهى تصيح بحالة مزعجة بعد أن فتحت الباب «سيدى . . ستى» فهرع إلى الصالة مستطلعا تتبعه أمه وأخته فرأى عند باب الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثا بينهما، جريحا فيما يبدو من عصابة قذرة تطوق رأسه وتنز دما، وقد مال عنقه إلى كتف أحد الرجلين. واقترب حسنين من القادمين مبهوتا منزعجا لا يدرك شيئا ولا يفهم شيئا حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح. بشرة شاحبة تشوبها زرقة تثير من الأعماق ذكرى الموت، وتعلوها فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب، ولكن العينين المغمضتين رمشتا فى إعياء فلاحت خلال أهدابهما نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت حركتها الضعيفة إلى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة. وقبل أن يتحرك لسانه جاء صوت أمه من الخلف مؤكدا ما انفجر فى رأسه هاتفا فى نبرات يمزقها الخوف والإشفاق:

ـ حسن . . هذا حسن . .

فصاح حسنين مرددا قول أمه فى ذهول:

ـ حسن . .

وهنا قال الرجل الذى يسند عنقه بكتفه ويشترك مع الآخر فى حمله:

ـ يجب أن ننيمه فى الحال . .

وتقدم الشاب فى ذهول منهم وانحنى فوق قدمى أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما فى رفق وساروا معا متعاونين فى حمله إلى حجرة نومه، وأناموه على الفراش الوحيد فى البيت، ثم أسرع الرجلان بمغادرة الحجرة يتبعهما حسنين على حين هرعت الأم ونفيسة نحو الفراش فى جزع لا يوصف. وفى الصالة أشار الرجل الذى تكلم أول مرة ـ وكان يرتدى جلبابا وطاقية ـ إلى الآخر ـ الذى كان يتزيا بزى الأفندية ـ وقال:

ـ لا مؤاخذة، هذا سائق التاكسى.

فأدرك حسنين أنه يلمح إلى أجرة التاكسى فسار معهما حتى السيارة وأعطى الرجل النقود وصرفه مستبقيا الآخر، ثم سأله فى اضطراب وجزع:

ـ ماذا حدث؟

فقال الرجل:

ـ سى حسن أخى وصديقى ، ولعلك تعلم أنه كان هاربا من وجه البوليس فانتهز بعض أعدائه هذه الفرصة وتربصوا له فى بعض الأماكن التى يقطنها مستخفيا وانقضوا عليه غدرا وسلبوه ماله ولاذوا بالفرار ، وقد تحامل المسكين على نفسه حتى بلغ مسكنى ورجانى أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسى إلى عطفة نصر الله حيث أخبرنا الجيران أنكم انتقلتم إلى هذا البيت فجئنا من تونا .

وكان حسنين يصغى إلى الرجل فى شبه ذهول ، ومع أن إحساسات شتى تعاورت قلبه إلا أن إحساس الخوف والقلق غلبها جميعا ، ولما انتهى الرجل من حكايته غمغم الشاب :

ـ شكرا لك يا سيدى على مروءتك ، هلا تفضلت بالبقاء ساعة حتى تستريح . .

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكرا وقال :

ـ إنى ذاهب فى الحال ، ولى كلمة قبل الذهاب وهى أنه يجب الإسراع إلى علاج الجرح الخطير ولكن حذار من استدعاء الإسعاف أو حمله إلى القصر وإلا أدى الأمر إلى التحقيق ثم إلى البوليس؟

وحياه الرجل ومضى إلى حال سبيله ، فعاد الشاب إلى الحجرة كمن يشق سبيله فى ظلمة حالكة والأرض تميد به . ووجد أخاه كما تركه راقدا وكأنه اطمأن إلى الجو الجديد فأسلم إلى غيبوبة تامة ، وانكبت عليه المرأتان فى جزع باد ، ولما أحستا بالقادم تطلعتا إليه بنظرة استغاثة . ورنا إلى الراقد طويلا ثم تساءل بصوت غريب :

ـ ألم يتكلم؟

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها الجاف :

ـ غمغم كلمات لا تعنى شيئا ثم راح فى غيبوبة . أغثنا بدكتور .

ولكن الجريح حرك يده بجهد ، وبدا كأنه يستطيع أن يغالب غيبوبته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المعهودة :

ـ لا دكتور . . الدكتور . . يبلغ . . البوليس . .

وألقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفى رأسه وجبهته وجانبا من صفحتى وجهه فلا تبدو إلا عيناه المثقلتان بالإعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر ، وقد فغر فما تتردد فيه أنفاس ثقيلة محشرجة ، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكتة وانتثرت خيوط الأزرار ، وراحت يمناه تنقبض وتنبسط ، ويئن بين آونة وأخرى . وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلا فتناسى مخاوفه وتركز شعوره فى إحساس عميق بالألم والإشفاق . نسى برهة كل شىء إلا أنه حيال أخيه الجريح ، وأنه ينبغى إنقاذه بأى ثمن .

ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر خوف وقلق طالما طاردته فى الأيام الأخيرة فى هيئة نذر تتهدد سمعته ومستقبله، فانقبض قلبه، وداخله ألم جارح لهذه المشاعر ذاتها من ناحية، ولتأنيب الضمير على إحساسه بها فى مثل هذا الموقف من ناحية أخرى. وكأنه فزع إلى الهرب من باطنه بالكلام فقال مخاطبا الجريح برقة:

ـ دعنى أحضر طبيبا. حياتك أهم من أى شىء آخر.

وقالت الأم ونفيسة برجاء معا:

ـ نعم يا حسن، دعنا نحضر الطبيب.

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبراته المضغوطة المتعبة:

ـ كلا. لا تخافوا. هذه ضربة تافهة..

ثم حاول أن يأخذ نفسا عميقا واستراح لحظة، ثم استدرك قائلا مغمض العينين:

ـ غدروا بى. الويل لهم. إن كان لى عمر فالويل لهم، ولكن لا تستدعوا طبيبا. الطبيب يبلغ البوليس..

فقال حسنين وكان لايزال فريسة للنزاع الناشب من باطنه:

ـ لابد من إحضار طبيب، وليس عسيرا أن نقنعه بتكتم الخبر.

وتوسلت إليه الأم قائلة:

ـ ارحمنى يا حسن واقبل هذا..

فنفخ الرجل مغمغما فى ضجر:

ـ ارحمونى أنتم ودعونى فى سلام.. أف.

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء فى بلوى. برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره، فليس تألمه لأخيه بشىء يذكر إلى جانب الخوف الذى يلقى عليه ظلا ثقيلا من شبحه الجاثم. «قضى علينا، قلبى لايكذبنى على الأقل فى الشر، قضى علينا فى مصرالجديدة كما قضى علينا فى شبرا وسيطاردنا البوليس جميعا كالمجرمين. أكاد أرى بعينى رأسى المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقى القبض على المجرم الهارب. هل سدت منافذ الحياة؟!. أتقول إنه أخى؟ أجل إنه أخى، ولكنها حياتى التى تتحطم تحت قدميه فى طريقه الوعرة. أف، لشد ما ضاق صدرى.! ثم سمع أمه وهى تهتف به فى يأس:

ـ أغثنى يا حسنين!. ألا ترى أنه يموت بين أيدينا!

«كلا لن يموت، أما أنا فإنى أموت موتًا بطيئا قاسيا. إن كرامتى تحتضر. وهبه مات حيث هو الآن فسيأتى طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم

سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت فى هيئة فضيحة رائعة!» ثم حانت منه التفاتة إلى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعة، ومع أنها كانت مطبقة الفم إلا أنه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب. وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادئ الأمر ثم خيل إليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه فى لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره فى العصابة الملوثة بالدم، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تمتم على أثره بلا وعى «كيف نسيت هذا؟!» ثم قال مخاطبا أمه فى عجلة:

ـ سأحضر طبيبا صديقا من مستشفى الجيش، انتظرى قليلا فلن أغيب طويلا.

وهرع إلى بدلته فلبسها متعجلا وغادر البيت لا يلوى على شيء..

٨٧

وقف حسنين مستندا إلى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد أنفاسهما. كان عابسا شديد التأثر، وتولاه الفزع، ثم أخذ يهدأ رويدا، ويغيب فى أعماق نفسه. وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أن أخاه أصيب بجرح فى رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعفه مبديا له رغبته الحارة فى تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامة! ومضى الطبيب معه فى تحفظ، ولما أجرى الكشف الابتدائى على رأس الجريح قال:

ـ كسر عميق، إلى ما استنزف من دم غزير. لا أدرى ما وجه الحكمة فى عدم إبلاغ البوليس؟!

فقال حسنين بتوسل:

ـ فلنتحاش هذا بأى ثمن!

فقال الطبيب وهو يتهيأ للعمل:

ـ الظاهر أنك لا تدرى خطورة الأمر!.. وعلى أى فلنؤجل هذا إلى حينه!

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك فى أعماقه. كان فى ذهابه إلى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوا طيبا تنمو فيه إحساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات إلى الأيام الخوالى التى كان حسن فيها المرفه الوحيد عن بأسائهم: واليد المبسوطة التى تجود فتحقق لهم الآمال. ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين

العطف ولم يعد يرى فى الرجل الجريح إلا نذير الشر الذى يتهدد سمعته ومستقبله . ها هو يرقد فى غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التى تعبث بلحمه وعظمه ، وهكذا كانت حياته دائمة جرحا عميقا يبتلى سواه بآلامه . أما هو فلم يفق من غيبوبته قط : أو لم يشأ أن يفيق منها . ألم يضرع إليه بالدموع أن يغير حياته؟ بلى ، وكان جزاؤه السخرية الأليمة ، فلو أنه مات فى أرض بعيدة .

ثم ثبت عينيه على الوجه الذى أخذ يختفى تحت الأربطة فسرت فى جسده رعدة ، وامتلأ يأسا وانقباضا وأخيرا سمع الطبيب يخاطبه قائلا :

ـ انتهيت من الممكن عمله الآن ، هلم معى إلى الخارج . .

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكتته ثم سار بين يديه إلى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدا متفكرا ، ثم قال بهدوء غير منتظر :

ـ لا أظن الحال خطيرة جدا ولكنه سيحتاج إلى علاج طويل . يا له من اعتداء وحشى ، لماذا لا تبلغ البوليس؟

فقال حسنين بجزع وإن رده قول الطبيب إلى بعض رشاده :

ـ إنى أتفادى من الفضيحة ، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة! . .

فهز الطبيب رأسه فيما يشبه التذمر ثم قال بشىء من الحزم :

ـ سأعود لرؤيته صباحا فإذا وجدته على ما يرام فبها وإلا فسأجدنى مضطراً للتبليغ .

وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أرجو ألا يحدث هذا .

ثم خاطب الطبيب قائلا :

ـ إنى أشكر لك ما تجشمت من جهد وتعب .

واتجه الرجل إلى الخارج فوصله إلى الباب الخارجى وهو يشد على يده بامتنان ، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرر على مسمعه قائلا فى توكيد :

ـ سأعود صباحا . .

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزمجرة فى طريقها فتنهد كأنه يزيح ثقلا لا يتزحزح ثم عاد إلى الحجرة ينقل خطواته فى كآبة ، وما كان يلج الباب حتى هرعت إليه أمه وسألته فى لهفة وجزع :

ـ ماذاقال الطبيب؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنه لم يجد بدا من أن يقول فى هدوء :

ـ إنه مطمئن إلى الحالة وسيعود صباحا ، كيف حاله الآن؟

فقالت نفيسة :

ـ لم يفق بعد .

وارتمى على الكرسى الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه . . «أنا الجريح حقا . إنه ينام نوما عميقا فى غيبوبة سعيدة فمن لى بمثل هذه الغيبوبة . لا أظن الحال خطيرة جدا ، هكذا يقول الطبيب الغافل . كلا إنها خطيرة جدا . وإبلاله أخطر من موته . إذا ساءت الحال أبلغ الخبر إلى البوليس ، وإذا تحسنت جثم على صدرى حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه ، فالفضيحة آتية لا ريب فيها . . أين المهرب من هذه الآلام جميعا . إنى أمقت هذا الجريح وأمقت نفسى وأمقت الحياة جميعا . أما من حياة غير هذه الحياة ، ومخلوقات غير هذه المخلوقات؟ . » والظاهر أن أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبضت أساريره فى امتعاض وألم ، ولاحت من أمه التفاتة إليه فاشتد بها التأثر وقالت له برقة :

ـ هون عليك ، أخوك بخير ، والله حافظه وحافظنا . .

وفتح عينيه فى دهشة ، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة . .

٨٨

وجاء الطبيب فى صباح اليوم الثانى ثم غادر البيت معلنا اطمئنانه ، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطىء وأوهام لا تفارقه ليلا ولا نهارا . وانقضت أيام والأسرة فى هدوء نسبى ، ومضى الرجل الجريح يفيق ويسترد حيويته شيئا فشيئا ، وبعودته إلى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت إلى النفوس المحيطة به . وقد ابتسم فى بادئ الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كالمعتذر :

ـ أتعبتكم كثيرا ، والظاهر أن الله لم يخلقنى إلا للتعب . . فليسامحنى الله!

والتمعت فيما حوله بسمات المجاملة والتودد فلم ينخدع بها . أو لم ينخدع بها جميعا ، فمالت عيناه نحو حسنين وقال :

ـ لا شك فى أنك غاضب ولعلك تود أن تذكرنى بمواعظك السالفة! . .

فغمغم الشاب قائلا :

ـ لا أود إلا سلامتك . .

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، ثم ما عتم أن تجهم وجهه ، وتكالبت عليه الأفكار ، فقال فى لهجة مضطربة غير التى تكلم بها أول الأمر :

ـ سلبونى نقودى، الويل لهم، كنت عازما على الهرب، ولا بد من الهرب.

وتحسس رأسه بيده وأغمض عينيه، ثم تمتم وكأنه يحادث نفسه:

ـ ماذا فعل الله بسناء؟ . . هل يكفون عنها؟ . . لن تستسلم لعدو من أعدائى، ولكنها لن تستطيع الهرب معى، فات الوقت وفقدنا نقودنا . .

وأنصت حسنين صامتا، جافلا من ملاقاة هذا الهذيان بغير الصمت، واختلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدهما تتبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول فى نبراته المضطربة:

ـ يجب أن أختفى. إن الصديق الذى حملنى إلى هنا رجل مخلص ولكنه أجهل من أن يحفظ سرا، وليس أحب إليه من أن يروى قصة مروءته لرفيقته، فتنقلها هذه لجارتها، حتى تبلغ أحدا ممن يتربصون بى، فلا ندرى إلا والبوليس يقتحم علينا البيت.

وتنهد حسنين فى يأس، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغض بصرها، وامتلأ حنقا فخاطبها فى سره. . لماذا أتيت بنا إلى الدنيا؟ . . لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع؟ . . ثم سمع أخاه يهتف بعنف:

ـ يجب أن أختفى. سأغادر البيت حالما أقدر على المشى؛ وربما غادرت القطر كله . .

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأول مرة منذ جاء الرجل محمولا كالقضاء والقدر. «هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة! . . هل يختفى حقا فلاتقع عليه عين ولا يعرف له أثر؟! . فليتقدم حيث هو، يجب أن أحيا حياة مطمئنة!».

ثم مر يوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهودا مألوفا، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جديا فى مغادرة البيت ثم فى الهرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخطط فى صمت وتفكير متواصل، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع فى البيت فعادت إلى زياراتها التى لم تكن تنقطع يوما، وكذلك عاود حسنين حياته العادية ما بين عمله وبيته والنادى ولكن رأسه لم يتوقف عن التفكير فى أخيه والخطر الذى يتهدد سمعتهم بسبب إقامته بينهم ـ وقد دار حديث بينه وبين أمه مرة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد إشفاق وتردد:

ـ إذا كان البوليس لم يهتد إلى محل إقامته حتى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمر طويلا . .

ونظرت إليه المرأة نظرة غريبة احتار فى تفسيرها بادئ الأمر، أهى عتاب صامت، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته، أم استنكار يداريه الخوف من الإفصاح، كل أولئك بدا راجحًا حينا لولا أن برح الخفاء فهتكته دمعة ترقرقت فى محجريها فى بطء كالحياء وفى تردد هو العذاب، هنالك ملأه الانزعاج لأنه لم يكد يذكر أن رأى أمه باكية

على كثرة المحن والملمات، وتراجع فيما يشبه الفرار وصور من حزمها وعزمها تنثال على مخيلته فى دهشة وألم، فكأنه يشهد احتضار أسد هصور. على أنه حين خلا إلى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بآلامه هو ومخاوفه، فاشتد به الاستياء والحنق، ولعن نفسه وأمه معا..

وفى عصر اليوم التالى مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة. كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث، وكانت نفيسة فى الخارج. ورن جرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح، ثم عادت فى ارتباك ظاهر وقالت للشاب:

ـ سيدى. عسكرى بوليس يرغب فى مقابلتك..

٨٩

تناثرت نفوسهم كالشظايا: فوثب حسنين قائما وهو يحدق فى وجه الخادم، ورمى حسن بقدمه من على الفراش إلى أرض الحجرة وهو ينظر إلى النافذة فى عبوس متمتما «الهرب!»، على حين رددت الأم بينهما عينين زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج. وجمد حسنين فى مكانه دقيقة، ثم استسخف جموده فهز منكبيه فى يأس وغادر الحجرة إلى الباب الخارجى حيث وجد الشرطى واقفا وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب فى استسلام:

ـ أفندم؟!

فقال الرجل بصوت أجش:

ـ هل حضرتك الضابط حسنين كامل على؟

ـ نعم..

ـ حضرة ضابط نقطة السكاكينى يرغب فى مقابلتك فى الحال.

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم ير غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم، وداخله شىء من الطمأنينة، ولكنه تساءل فى حيرة:

ـ ماذا يريد حضرته؟

ـ أمرنى أن أبلغك رغبته دون أن يزيد.

وتردد الشاب قليلا ثم استطرد ريثما يرتدى ملابسه وعاد إلى الحجرة، ووجد أخاه وراء بابها يتنصت فما أن رآه حتى سأله فى لهفة «هل جاءوا؟»، وكررت الأم السؤال فى

صوت مريض، فأعاد على مسمعيها. ما دار بينه وبين الشرطى وهو يرتدى ملابسه، وما كاد ينتهى حتى قال حسن:

ـ لعل الضابط من معارفك فأراد أن ينبهك قبل أن يكبس البيت. هذا واضح. أصغ إلى، إذا سألك عنى فقل له إنك لم ترنى منذ أعوام. لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لى على أثر. سأختفى عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم..

فتساءل حسنين وهو يخفى عنه عينيه حتى لا يقرأ فيهما ما تنفس فى أعماقه من أمل جديد:

ـ وهل لديك من القوة ما يعينك على الهرب؟

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب:

ـ إنى على خير عاقبة.. مع سلامة الله.

وغادر حسنين الشقة ومضى فى صحبة الشرطى، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقا من معارفه ولكن الشرطى ذكر له اسما غريبا لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة. وبدا له الأمر شديد التعقيد. بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث فى نفسه طمأنينة لا حد لها. وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل، وقاده الشرطى إلى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلا:

ـ حضرة الملازم حسنين كامل على.

كان الضابط جالسا إلى مكتبه، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح فى وجوههم آثار معركة حديثة العهد، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول: «أهلا وسهلا» ثم أمر الشرطى بإخلاء الحجرة وإغلاق الباب. وطلب إلى الشاب أن يجلس على كرسى أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه «ترى ما معنى هذا كله؟.. ترحاب ومجاملة ثم ماذا؟!»..

وخرج الضابط من مجلسه ووقف فى مواجهته مستندا بيمناه إلى حافة المكتب، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة من لا يدرى كيف يبدأ حديثه أو من يجد فى ذلك قدرا من الصعوبة لا يخفى. وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل، واشتد به إحساس كريه استحوذ عليه منذ اللحظة التى وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس، إحساس بالرهبة والقلق والضيق «ضابط مهذب يتحرج من إلقاء التهمة فى وجهى، هذا غريب فى ذاته، تكلم وأرحنى فطالما تراءى لخيالى كابوس هذه اللحظة. إنى أعلم سلفا ما تريد قوله. تكلم..».

ونفد صبره فقال:

ـ دعانى الشرطى لمقابلة حضرتك!

فقال الضابط :

ـ إنى آسف لإزعاجك . كنت أود أن ألقاك فى ظرف خير من هذا ، ولكنك أدرى بما يتطلبه الواجب أحيانا .

وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف فى السلامة وقال فى وجوم :

ـ إنى أشكر لك كرم أخلاقك ، وها أنا مصغ إليك . .

فقال الضابط باهتمام ورقة معا :

ـ أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة ، وأن تسلك سلوكا جديرا بضابط يقدس القانون . .

فقال الشاب وهو يعانى ما يشبه الهزال والخور :

ـ هذا طبيعى جدا .

فعض الضابط على أسنانه كمابدا من تقبض صدغيه ثم قال باقتضاب :

ـ الأمر يتعلق بأختك . .

ورفع حسنين حاجبيه فى استنكار ثم قال :

ـ تعنى أخى؟

ـ الست أختك ، ولكن معذرة أحب أن أسألك أولا هل لك أخت تدعى نفيسة؟

فقال حسنين فى ذهول :

ـ نعم ، هل وقع لها حادث؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن أخبرك بأنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى . .

وفزع حسنين واقفا ، متصلب الجسم ، مصفر الوجه محملقا فى وجه محدثه ، وهو يلهث قائلا :

ـ ماذا تقول؟

فربت الرجل على كتفه متأثرا وقال :

ـ ادع كل قوة فى نفسك كى تضبط أعصابك . الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب . أرجو أن تساعدنى على القيام بواجبى ولا تجعلنى أندم على ما اتخذت من إجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شىء .

أنصت إليه وهو لايزال يحملق فى وجهه ، تمتلئ عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه ، ويغيب عنهما أخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئا ، وثالثة لا يرى إلا شفتين تنطبقان

وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة، وبين هذا وذاك ترمش عيناه في حركة عصبية فتلتقطان منظرا غريبا هنا وهناك، بندقية مثبتة في جدار أو صفا من البنادق أو محبرة، وربما امتلأ أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة، ثم ينحل وعيه ويتراجع فجأة إلى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصر الله وهو صبي يلاعب حسين البلي «ضبطت في بيت! أي بيت!؟. إن أحدنا فاقد العقل ولاشك ولكن من هو؟.. ينبغي أن أتحقق من أني عاقل أولا..» وتنهد في وهن، ثم سأله في استسلام:

ـ ماذا تقول يا سيدي؟

يوجد في هذا الحي بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق. كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا الست.. وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعا وشرعت في اتخاذ الإجراءات القاسية التي تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لي بأنها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها..

ـ أختي أنا؟.. أأنت متأكد؟.. دعني أراها..

ـ اضبط نفسك، أرجوك، لو كنت متأكدا من أنها أختك لأطلقت سراحها. ولكني خفت أن يكون اعترافها خدعة، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الإجراءات على شرط التأكد من صدق قولها..

ومن عجب أنه لم يعد يداخله أدنى شك في حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم، ووجد في فظاعتها ترجيعا لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه. أجل لم تخلق هذه الواقعة إلا لحظة ولأسرته، إنه يعلم هذا علما لا يتطرق إليه الشك. أهذه هي نهاية المطاف؟! ثم غلبه ذهول شعر معه بأنه أثر من آثار ماض منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلا عن المستقبل، كان، هذا هو، ولكنه لا يكون ولن يكون. ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت:

ـ أين هي؟.. دعني أراها من فضلك...

فأشار الضابط إلى باب مغلق وقال:

ـ تركناها في هذه الحجرة لأنه أغمي عليها حين علمت بأني أرسلت في طلبك بدل أن أطلق سراحها. اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أني مسئول عن الأرواح. إنك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة. لا يصح أن يعلم أحد ممن في النقطة شيئا ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت، تذكر هذا جيدا..

فكرر قوله بنفس الصوت الميت:

ـ دعني أراها من فضلك..

مضى الضابط إلى الباب المغلق متثاقلا وفتحه، واقترب حسنين منه كمن يمشى فى حلم، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن ينظر ليتعرف على جثة فى المشرحة، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألقت برأسها إلى الحائط، عيناها نصف مفتوحتين ولكنهما مظلمتان لاتريان شيئا ميتة أو مغمى عليها أو لعلها فى ذهول الإفاقة الأول، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت. لكنها نفيسة دون غيرها. «قلبى لا يكذبنى فى المصائب أبدا لو كانت ميتة لا دعيت أنى لا أعرفها بلا تردد» ولم تبد حراكا كأنها لم تحس للقادمين وجوداً، أو أنها لم تستطع أن تبدى حراكًا ونظر الضابط صوبه متسائلا ولكن عينيه لم تتحولا عنها، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهربا مؤقتا مما كان ومما سيكون وخيم عليهم سكون الموت، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة ـ ثم شق الصمت صوت باطنى يصرخ فى أذنه «انتهى . .»، وتخايلت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن فى حيرة يائسة والرجل يتوثب للفرار. ود تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت «ماذا ينتظر هذا الضابط أن أفعل؟ . . ماذا ينبغى أن أفعل؟ رباه كيف أغادر هذا المكان؟!» . .
ثم سمع الرجل يقول:

ـ لقد قدمت ما عندى من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة . .

فسأله بدوره وهو يتحامى عينيه:

ـ أين الآخر؟!

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم:

ـ طبقت عليه الإجراءات وأطلق سراحه.

فغمغم قائلا:

ـ لنترك هذا المكان شاكرين.

٩٠

فى الخارج لفحة هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس فى خطوات ثقيلة تتبعه هى على بعد ذراع منكسة الوجه، سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدرى أين ينتهى به المسير لأنه لم يسبق له المجئ لهذا الحى، ومع أن الليل كان فى أوله إلا أن الطريق بدا مقفرا، وتساءل فى نفسه ترى أين ينتهى الطريق؟ . . ثم بدا له تساؤله آية فى الغرابة، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهى الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقا أن يعلم ما هو صانع

«بها» . كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ توا بعد خروجه من النقطة ، وكانت هى تتوقع هذا ، ولكن أقدامهما تقدمت بهما دون أن يفعل شيئا ، وكان يشعر بوجودها وراءه فى ضيق لا يحتمل ، ويسمع وقع قدميها كأنه رصاص فى ظهره ، ويمحو أول فأول أية رغبة فى أن ينظر إلى الخلف ، ومع أنه بدا فى صمته ـ ذلك الصمت الهائل الذى وقف حائلا بينهما ـ وكأنه يفكر تفكيرا متواصلا إلا أنه فى الحقيقة كان فارغ الرأس . كان فارغ الرأس بحال مزعجة ، لم يردها إرادة ، ولكنها فرضت عليه قسرا وبثت فى نفسه إحساسا بالقلق ، إحساس من يتلهف على السيطرة على إرادته سيطرة غاشمة فلا يجد إلى ذلك سبيلا . واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت فى صدره شرارة حنق ، وكأنها جذبت إليها أفكاره الهاربة فى الظلام ، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل فى صمت أيخنقها؟ . . أيحطم رأسها بحذائه؟ . . لابد لصدره من متنفس . وظل الصمت الجهنمى سائدا . وبينما كان يجمع عزمه لزحزحة هذا الصمت تطوعت هى ـ وهو ما عجب له ـ لزحزحته . فسمعها تغمغم فى نبرات مرتعشة متهدجة قائلة :

ـ لقد أجرمت . إنى أعلم هذا . . ولن أسألك غفرانا لست جديرة به .

هل حقا واتتها قواها على الكلام! . . ياللشيطان! . وأحدث صوتها ـ على ضعفه ـ زوبعة من الهياج فى صدره ، زوبعة عمياء طاغية صبت الغضب فى أطرافه صبا فتوقف عن السير والتفت نحوها فى سرعة غريبة وارتفع ذراعه فى الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض . لم تنبس بكلمة ، ولاندَّ عنها أى صوت ، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ، ثم لمت نفسها ووقفت وأخذت فى التراجع حتى ارتكنت إلى جدار بيت واقترب منها فتراءى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التى تظل وجهه فلوحت له بيدها كأنها تسأله أن تقف ثم اندفعت قائلة فى عجلة وتوسل :

ـ قف ، لا تفعل ، لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف عليك ، لا أريد أن يمسك سوء بسببى .

وزادته رقة كلامها هياجا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار :

ـ لا تريدين أن يمسنى السوء بسببك؟! . . يا عاهرة لقد صببت السوء على صبا .

فأعادت بتوسل حار :

ـ ولكنى لا أطيق أن يسيئوا إليك ولو كان السبب هلاكى .

ـ هذا مكر حقير لن ينفعك فى إنقاذ حياتك الحقيرة ، هيهات ، لن ينالنى سوء بقتلك .

فهتفت فى حرارة :

ـ لا ينبغى أن يمسك عقاب وإن هان ، ثم بماذا تجيب وإذا سئلت عما دفعك إلى

قتلى؟! . دعنى أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدرى أحد . فتساءل فيما يشبه الذهول :

ـ تقتلين نفسك؟!

فقالت وهى تلهث :

ـ نعم . .

شعر فجأة ـ قبل أن يتمالك نفسه ـ بأن حملا ثقيلا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدا . وكان مدفوعا بغضب مستعر وإحساس معذب بالواجب ولكن العواقب ـ كذيوع الفضيحة والعقاب ـ ما فتئت تتخايل لعينه ، فالآن بعد هذا الحكم الذى قضت به على نفسها يسعه أن يسترد أنفاسه وأن يستبين بصيصا من النور فى هذه الظلمة الخانقة . وغمغم متسائلا وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره :

ـ كيف؟

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ـ بأى وسيلة كانت :

فتفكر قليلا متجهم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة :

ـ النيل . .

فقالت بهدوء :

ـ ليكن .

فنفخ حنقا وضيقا ثم تراجع فى تثاقل وهو يغمغم «هلمى» فغادرت الجدار وتقدمت فى خطو ثقيل ، ثم دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا . أحس هذه المرة شيئا من الطمأنينة ولكن غضبه فقد عنصرا كان يعتز به وهو لا يدرى .

فقد شعورا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه ، فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة إلى آخر ينشد السلامة . وغص حينا بقهر خانق ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يعدل به عما تراءى له من سبيل النجاة ، ولم يكن من الضعف بحيث يتركه فى سلام ، ونفس عن صدره قائلا فى خشونة :

ـ كيف فعلت هذا؟! . . أنت؟! . . من كان يتصور هذا!

فتنهدت قائلة فى استسلام اليأس :

ـ أمر ربنا .

فصاح مزمجرا :

ـ بل أمر الشيطان .

فقالت بنفس الصوت المتنهد:

ـ نعم . .

فتردد لحظة ثم تساءل:

ـ من هو؟

فسرت فى جسدها رعدة وقالت بذل:

ـ لا تعذب نفسك ولا تعذبنى، سينتهى كل شىء فى لحظات.

ـ أكان يعرفنى؟

فقالت بعجلة وتوكيد:

ـ كلا . .

فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل:

ـ أول مرة؟!

فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضا:

ـ نعم . .

فضرب الأرض بقدمه وصاح بها:

ـ كيف استسلمت للغواية؟

فغمغمت فى عذاب صامت:

ـ أمر الشيطان.

ـ أنت الشيطان . . لقد قضيت علينا.

فهتفت فى رجاء:

ـ كلا . . كلا . . سينتهى كل شئ الآن ولن يدرى أحد.

ـ أتعنين ما تقولين؟

ـ طبعا . .

ـ وإذا ساورك خوف!

ـ كلا، إن ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت.

وعادوا إلى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب، ومضى يمد البصر مع قضبان الترام فى حيرة، ثم سألها بلهجة ساخرة:

ـ إلى أين نحن ذاهبان، فلعلك أدرى بهذا الحى منى؟

ولم تجب، ولكن تقبضت أساريرها من الألم. ثم لاح لهما ميدان الظاهر فتراءت

لعينيهما آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيهما أصوات الأحياء، وجعل ينظر فى قلق حتى ثبتت عيناه على صف من التاكسيات فمضى إلى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل وراءها. وفكر قليلا والسائق ينتظر أوامره، ثم قال له بصوت منخفض:

ـ جسر الزمالك من فضلك.

٩١

انطلقت السيارة بسرعة إلى شارع فاروق فى طريقها إلى العتبة ثم إلى إمبابة، كانا يجلسان كغريبين، أما هو فقد ألقى ببصره إلى الطريق خلال النافذة موليا إياها نصف ظهره وأما هى فقد خفضت رأسها وغابت فى ذهول عميق. لم يكن فى رأسها شىء، أو شىء ذو بال، كأنه السكون الذى يعقب عاصفة هوجاء أو جمود الموت بعد نزع أليم. وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى عليها وبعودتها إلى الوعى تكالبت عليها الأفكار المفزعة، واستعرضت عيناها شريط حياتها فى رعب جهنمى حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها كما ينحنى رأس من سدت فى وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار. وبعد ما كان من الانهيار الكامل وظهور حسنين، وما كان بينهما فى الطريق، شعرت بأن كل شىء قد انتهى، وأخلى الهول مكانه من رأسها، تاركا وراءه فراغا صامتا، فلم يعد به شىء، أو شىء ذو بال إلا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظر مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة. بيد أنها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبل، إذ هانت عليها الحياة حقا، بالفعل لا بالقول، هانت الهوان الذى يجعل من الموت نجاة. أجل طالما تذمرت فيما مضى من حياتها وسخطت، حتى تمنت الموت أحيانا، ولكنها لم تسع إليه مع ذلك لأنه كان ثمة أمل فى الحياة يدب متواريا فى أعماقها، الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب. واقتلعت الجذور التى تشدها للبقاء، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة زحزحت عن كاهلها الأعباء، فلم تعد تفكر فى شىء ذى بال، ورمقت الموت الذى تنهب الأرض إليه باستسلام كأنه التخدير. وقد دارت السيارة حول منعطف وهى منطلقة فى سرعتها فارتجت الفتاة فى مجلسها وتنبهت إلى ما حولها فيما يشبه الفزع، ومع أنها ظلت منكسة الرأس إلا أنها أحست بوجوده إلى جانبها وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها للحظها فى غموض فتقبض قلبها ألما وخزيا «ترى فيم يفكر؟. ألا يجد غير البغض والغضب؟ متى يمسى كل شىء وقد انقضى؟. هذه هى النهاية الوحيدة. ترى هل تحدس أمى الحقيقة؟. لا داعى للتفكير. إنى ميتة».

ولبث حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرهبة. «كيف تنتهى هذه المحنة؟، وكيف أخرج منها؟. . أيمكن حقا أن يسدل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عبثا لا طائل تحته؟ إنى أختنق. إن الماضى لا ينمحى ولكنه يسابق مستقبلى. لماذا لا نعيش بلا مبالاة؟. قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا. لا داعى للتفكير مطلقا. ماأشد عذابى، كيف أتغلب على هذه التعاسة كلها!. مهلا، إنى أسوقها إلى الموت، وهى تعلم أنها تساق إلى الموت ترى هل تواتيها القدرة؟. لا شك أنها تفكر الآن تفكيرا متواصلا، ولكن فيم تفكر؟. لاينبغى أن أفكر فيها. الموت خير نهاية لها. لايمكن أن تلتقى عينانا فهو فوق ما أحتمل وفوق ما تحتمل هى. الأمر يتعلق بأختك، آه قاتل الله هذا الضابط، يؤسفنى أن أخبرك أنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى، من يتصور هذا؟. . وليس الموت بنهاية ولكنه بداية لتعاسة أخرى تنتظرنى فى البيت. حتى متى أواصل هذا التفكير؟ أية مدخنة هذه؟ لعله مصنع، نحن نقترب من جسر أبى العلاء، هذه المدخنة تنفث دخانا أسود كثيفا، لو تحترق أفكارى وتذوب فى أنفاسى لزفرت أقذر منه. لا أريد أن يمسك سوء بسببى، صدقت، يجب أن تهلكى وحدك. متى يطوى الطريق!».

وعبرت السيارة جسر أبى العلاء فاندفعت إلى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فا ستقبله الشاب بترحاب من يصلى نارا حامية على حين سرت فى أطرافها رعدة بثت فى حناياها خوفاغامضا، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس، وضاعفت السيارة من سرعتها حتى شارفت جسر إمبابة فخفت قوة اندفاعها رويدا، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلا فقال له هذا بصوت منخفض«قف» ودفع له حسابه وغادر السيارة فغادرتها أيضا من الباب الآخر، وما لبث التاكسى أن عاد من حيث أتى فوجدا نفسيهما وحيدين على كثب من مدخل الجسر. وكانت المصابيح المقامة على جانبى الجسر تشع نورا قويا أحال ظلمته نورا، بينما أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالا وجنوبا ـ رغم المصابيح المتباعدة الخافتة ـ فبدت الأشجار المتراصة على جانبيه كأشباح عمالقة، وكان المكان مقفرا إلا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة كلما كف هبوبها تعالى هسيس النبات كالهمس. لازما موقفهما فى جمود كالذهول، ثم استرق إليها النظر فرآها مقوسة الظهر قليلا منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره إلا قلبا متحجرا ونفسا خنق الهم فيه كل رحمة. وثار حنقه على جموده فجأة فقال بغلظة:

ـ أأنت مستعدة؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به:

ـ نعم . .

ونفذ الجواب على بساطته إلى إعماقه فلم يعد يطيق موقفه، وتزحزح عنه فى خطو ثقيل، وقبل أن يبتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل :

ـ لا تذكر إساءتى . .

فند عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلا :

ـ فليرحمنا الله جميعا . .

تركها وحدها حيال الجسر، وهدف إلى الطوار الممتد إلى يمين الجسر على شاطئ النيل، ثم جد فى المسير . حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشومًا جعلت تجذبه إلى الوراء، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترا من مبدأ الطوار فتوارى وراءها فى إعياء وأرسل الطرف نحو الجسر .

ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بأنوار المصابيح تمسك من طرفيها بالشاطئين فى عناد وتصميم كأنه وحش يغرز أنيابه فى فريسته، وعند رأس الجسر، وعلى الجانب المواجه له، رآها تتحرك فى خطو ثقيل خافضة الرأس، يعلوها جمود غريب كأنها تمشى فى سبات . رآها فى وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المنعكس وهى تقطع الأرض قدما قدما حتى بلغت المنتصف فتوقف عن المسير، ورفعت رأسها، وأجالته فيما حولها، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها إلى الماء المصطخب الجارى . وجعل يكتم أنفاسه ويزدرد فى تشنج ريقه الجاف وهو يترقب، ولكن ظهر فى تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر رجلان ومضيا يقطعان الجسر فى سرعة وهما يتحدثان، ثم لاح الترام القادم من إمبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقا الصمت بعجيجة فاسترد الشاب أنفاسه ولكن إلى حين قليل، وسرعان ما ركبه القلق والضيق، وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل إليه شدة وقع النبض فى أذنيه أن العالم الخارجى يسمع دقات قلبه . ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظرا غريبا عنه لا شأن له به، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما فى نفسه جميعا فلم يعد يستشعر حقدا ولا غضبا، ثم اعتركت الأفكار فى رأسه فى ثوان فشعر فى حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضة، ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها، فهو منها فى حيرة أى حيرة . وفى أثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر، وسبقهما الترام إلى الطريق، ومازالت الفتاة تحملق فى الماء . ونظر هنا وهناك فلم ير أثرًا لإنسان . وتجمعت نفسه فى لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب . رآها تعطف رأسها يمينا وشمالا . وبغتة ، وفى حركة سريعة يائسة تسورت السور . وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه، لا يمكن . . ليس هذا . . أما هى فألقت بنفسها، أو تركت

نفسها تهوى، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء تمثل لعينى المبتلى بسماعها وجه الموت، فجاوبها بصرخة فزع ولكنها ضاعت فى صرختها. وشعر وهى ترمى بنفسها أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التى تحيره حلا، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت، ثم صك مسمعيه اصطدامها بالماء فندت عنه صرخة أخرى. .

٩٢

وثب إلَى منحدر الشاطئ وعيناه تحملقان فى المكان الذى ابتلعها تحت الجسر، ثم جمد فى موقفه يكاد محجراه أن يلفظا عينيه من شدة الحملقة. وتوقع مرات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أن النيل المندفع إلى ما تحت الجسر لا بد أن يكون قد جرفها معه فلعلها تتخبط فى جوف الجسر أو تغوص فيما يليه من النهر. ومر بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها ولكنه لم يحرك ساكنا، ووجد لهذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جمودا وشعر بأنه لم يعد لعقله سيطرة عليه. وما يدرى إلا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس:

ـ أسمعت صرخة؟

فالتفت إلى الوراء فرأى شرطيا تنم حركاته على الاهتمام فقال له فى ذهول:

ـ نعم، لعله غريق. .

وجعل الجندى يحدق فى الظلام فوق النهر ثم حث خطاه نحو الجسر. وأعاده الجندى إلى شىء من وعيه فتراجع إلى موقفه الأول ولم يعد فى طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدوا صوب الجسر ثم عبره إلى سوره المطل على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره إلى التيار المتدفق. وما لبث أن رأى آثاراً للحادثة لا تخطئها العين، رأى قاربا يشق الماء بسرعة قادما من الشاطئ الأيسر نحو وسط النهر، وسمع أصوات استغاثة وصراخا آتية من الشاطئ البعيد. وكان سطح النهر فيما يلى الجسر مضاء بما ينعكس عليه من أنوار المصابيح فتصفحته عيناه هنا وهناك، ولكنه لم يعثر على ضالته. ثم تبعت عيناه القارب الذى أخذ يقترب من الوسط شاقا سبيله فى الرقعه المضاءة، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها إلى الظلام. ووجد نفسه يتساءل «ترى هل يفوز القارب فى سباق الموت هذا؟».

ولم يستبن حقيقة مشاعره، أو لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه فى القارب فتابعه حتى رآه يتوقف عن التجديف ثم رأى شخصا يقفز منه إلى الماء، على حين تعالت أصوات

الباقين بالقارب . هذه هى اللحظة الفاصلة ، وتتابع خفقان قلبه حتى جف حلقه ، وحاول عبثا أن يرى شيئا خلال الظلمة التى لفت القارب أو أن يميز كلمة معبرة فى هدير الاصوات المختلفة ، ثم كل منه البصر فلم يعد يرى شيئا وكأنه عمى . وأخذ يتنبه ـ دون التفات ـ إلى تجمهر خلق كثيرين حوله ، ثم سمع أحدهم يقول :

ـ القارب يعود إلى الشاطئ فلعله انتشل الغريق . .

وتمشت فى أوصاله رجفه وتساءل «ترى أنجت أم هلكت؟ أذهب أم أفر؟!» ولكنه تحول عن موقفه وسار فى اتجاه الشاطئ الذى يقصده القارب مدفوعا برغبة لا تقاوم فى تعذيب نفسه إلى أقصى حد ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعيناه تستبقانه إلى بقعة من الشاطئ تجمهر عندها كثيرون . وبلغها والقارب يرسو إلى الشاطئ فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندس بينهم وأطرافه ترتجف على رغمه ثم ألقى بعينين متحجرتين إلى القارب الذى اكتنفه ستار خفيف من الظلمة . وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطئ ونفر من الشرطة . ثم بدت أشباح الرجال وهى تنتقل من القارب إلى الشاطئ حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين :

ـ هل نجا من الغرق؟

وأرهف السمع ليتلقى الجواب ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ فى شئ من الجهد والأعين محدقة بهم حتى ميزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم فى ارتياع :

ـ إنها امرأة يا ولداه؟

وتساءل آخر :

ـ كيف غرقت؟

فصاح غلام :

ـ رمت بنفسها من فوق الجسر فرأتها زوج النوتى واستصرخت زوجها لإنقاذها . .

وجعل حسنين يتبعهم ناظريه فى طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدق أن هذه هى أخته وأن أحدا لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئا إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع . وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا إلى عملية الاسعاف ليفرغوا ما فى جوفها من ماء . وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحدا منهم لم يتعرض لحسنين فلبث بمكانه جامدا لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذى تعبث به أيدى الرجال الغليظة ، وانتبه الضابط إليه فاقترب منه وحياه بإيماءة من رأسه وسأله :

ـ أشهدت الحادث!

فخرج الشاب عن ذهوله فى انزعاج ولكنه أجاب بعجلة :

ـ كلا . .

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجثا أحدهم إلى جانبها ثم جس نبضها وألصق أذنه بصدرها فوق القلب ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ صعد السر الإلهى إلى بارئه ، لا حول ولا قوة إلا بالله . .

وعاود الشاب إحساسه بالغرابة ، وغلبه الإحساس على ما عداه ، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح ، ولم يتحرك فكره لا إلى الأمام ولا إلى الوراء ، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز انتباهه فى الجثة الراقدة غير بعيد عن قدميه . جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخدها وجبينها ، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر بيقظة وعلته زرقه مروعه ، وخيل إليه أنه يرى أخاديد دقيقة حول الفم الفاغر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذى كان آخر عهده بالدنيا ، أما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت ، وبدت قدم ما تزال ممسكه بفردة حذائها والأخرى فى جوربها . ورجع بصره إلى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران «لماذا اضطرب هكذا؟ ألم أقتنع حقا بأن هذه هى خير نهاية! ألم أسقها إلى الموت بنفسى؟ ينبغى أن تطمئن نفسى . بيد أننى أتساءل عما داخلها من شعور وهى تهوى إلى الماء ، وكيف تلقى جسمها النحيل صدمة الماء الغليظ ، وماذا دار بذهنها وهى تتخبط بين أمواجه ، وأى جهد وجدت والطمى يكتم أنفاسها ، وأى عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها إلى سطحه فيشدها باطنه إلى الأعماق . إن محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقى بالسعادة ، كلتاهما أمنية ضائعة . أتراها ترانى الآن من عالمها الآخر؟ أراضية هى أم غاضبة أم ساخرة؟!

ماذا ترى فى موقفى هذا؟ لماذا وقع هذاكله؟» . وذكر بغتة أمه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه ، وهز رأسه كأنما ليطردها من مخيلته ، وصمم بقوة على أن يتحامى التفكير فيها ، وعاد بانتباهه المحموم إلى الجثة . وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أيادى الفتاة عليه ، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم ، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه ، وشعر بإعياء وقنوط وتساءل فى جزع «لماذا هذا كله!؟» . وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر إليها ، كان رأسه محموما ، وغيض الهم كل رغبة فى الحياة فى قلبه ، وانقلب وجه الدنيا فى عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم ، وقال لنفسه ، وهو يتنهد من الأعماق «رباه ، لقد قضى على» . وسمع عند ذاك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه إلى النقطة ، ثم رأى الجثة تحمل ورأى القوم يمضون بها إلى الجهة الأخرى من الطريق فأتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم ، وفى أقل من دقيقتين وجد نفسه

وحيدا يكتنفه حفيف الاشجار التى تكاد تطبق أغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها . وتراجع فى تراخ وترنح حتى أسند ظهره إلى جذع شجرة وراح فيما يشبه السبات وكأنه يتردى فى هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل . «قضى على . كنا جميعا فريسة للشقاء فما كان ينبغى لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه . ماذا فعلت؟ . إنه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . أى حق اتخذت لنفسى! . أحق أنى الثائر لشرف أسرتنا؟ ! إنى شر الأسرة جميعا . حقيقة يعرفها الجميع ، وإذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى يوما إلا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف أبحث لنفسى أن أكون قاضيا وأنا رأس المجرمين! لقد قضى على . » وألقى نظرة على ما حوله فى حيرة وخوف«أين أذهب؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل؟ . . لشد ما تهزأ بى الأمانى . لا تبال ، حسن . . ولكن هل يسعك هذا؟ . أحمل نفسك بشرها وانشدها النسيان ثم السعادة ، هاها . . إنى أعبث بنفسى بلا رحمة ، طالما أحببت أن أمحو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف إلا نفسى ، لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع . كان ينبغى أن أحب الحياة إلى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه . لقد قضى على . . » .

واستوى واقفا إما لأنه ضاق بمسنده وإما لأنه وجد حافزاً جديدا ، وابتعد عن الشجرة وهو يلقى نظرة الوداع على نقطة البوليس ما فى شعوره إلا السأم والنزوع إلى الهرب . » لا أريد أن يمسك سوء بسببى . أمر ربنا ، أمر الشيطان ، النيل ، ليكن . وإذا ساورك خوف ، كلا ، إن ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت ، أأنت مستعدة؟ لماذا تغيب الملازم حسنين ، ألم يرسل خطاب اعتذار؟ . رأيت صاحب هذا الوجه عقب انتشال الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان مذهولا . » وبلغ الموضع نفسه من الجسر فارتفق السور وألقى ببصره إلى الماء تتدافع أمواجه فى هياج واصطخاب . وأخلى رأسه من الفكرة ، «إذا أردت هلم . لن أصرخ . فلأكن شجاعا ولو مرة واحدة . ليرحمنا الله . . » .

نجيب محفوظ

١ ـ مصر القديمة	ترجمـــة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيـــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ ـ الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ ـ الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ ـ دنيـا اللــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ ميـرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القرار الأخير	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتوة العطوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤
٥٦ ـ المسرحيات	مسرحيات	٢٠٠٦

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٧٥٠٦
الترقيم الدولى x - 1780 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227